

في التسليم لما قدر الله وقضى

تأليف

أبي يحيى محمد بن عاصم الغرناطي

المتوفى سنة ٨٥٧هـ

تحقيق

الدكتور صلاح جرار

المجلد الأول

دعم من الجامعة الأردنية

دار البشير
للنشر والتوزيع

٢١٤،٢٥١
غرن الغرناطي، ابو يحيى بن عاصم. . . - ٨٥٧هـ.
جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى/ابو يحيى
محمد بن عاصم الغرناطي، تحقيق صلاح جرار. - عمان:
دار البشير، ١٩٨٩.
جـ ١ (٣٢٤) ص
ر.أ. ١٢٨/٢/١٩٨٩
١ - الاسلام - القضاء والقدر. ٢ - غرناطة -
تاريخ - القرن السادس عشر. أ - صلاح جرار، مترجم. ب - العنوان.
(تمت الفهرسة بمعرفة دائرة المكتبات والوثائق الوطنية)

دار البشير للنشر والتوزيع
مركز جوهرة القدس التجاري
العبدلي
عمان - الأردن
هاتف: (٦٥٩٨٩١) / (٦٥٩٨٩٢)
فاكس: (٦٥٩٨٩٣) / تلكس (٢٣٧٠٨)
ص.ب (١٨٢٠٧٧) / (١٨٣٩٨٢)

Dar Al-bashir
For Publishing & Distribution
Jerusalem Jewel center
AL-Abdali
Amman - Jordan
Tel: (659891) / (659892)
Fax: (659893) / Tlx. (23708)
P.O.Box. (182077) / (183982)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كتاب : جنّة الرضا في التسليم لِما قدّر الله وقضى، من تأليف أبي يحيى محمّد بن عاصم الغرناطي، أثرٌ عِلميٌّ أندلسيٌّ نفيس، ترجع أهمّيتُه إلى العوامل التالية :

١ ـ افتقارِ المكتبةِ الأندلسيّة إلى مصادر أدبية وتاريخية تغطّي الفترةَ الزمنيةَ التي يتصدّى لها هذا الكتاب، وهي الفترة الممتدَّةُ من أوائل القرنِ التاسعِ الهجريّ حتى منتصفِ العِقْدِ السادس منه.

٢ ـ أنّ هذا الكتاب يقدِّمُ معلوماتٍ تاريخيةً نادرة عن مملكةِ غرناطة النصريّة في الحقبةِ الزمنيّة المشارِ إليها، وهي معلوماتٌ تفصيليةٌ لا نَقَعُ عليها في أيّ مصدرٍ تاريخيّ عربي آخر. ومما يزيد من قيمة هذه المعلومات أن ابنَ عاصم ـ مؤلف الكتاب ـ كان شاهد عيانٍ للأحداثِ التي تصفها هذه المعلومات، وكانت له مشاركةٌ فاعلةٌ في تلك الأحداث بسبب مكانتِه السياسية المرموقة.

٣ ـ يحتوي الكتابُ معلوماتٍ نادرةً عن أعلام تلك الفترة التاريخية من السلاطين والوزراء والقادة والأدباء، مما لا نقع عليه في أيّ مصدر عربي آخر.

٤ ـ يشتمِلُ الكتابُ على جوانبَ كثيرة من سيرةِ المؤلّف نفسه، ويتحوّل في كثيرٍ من صفحاتِه إلى ما يشبه السيرةَ الذاتية.

٥ ـ يعطي الكتابُ صورةً واضحةً عن أدب ابن عاصم، وذلك لاشتماله على رسائلَ وأشعارٍ للمؤلف.

٦ ـ يحتوي الكتاب نقولاً واقتباساتٍ من كتبٍ ورسائلَ داخلةٍ في عداد الأعمال التراثيّة الضائعة.

٧ ـ وللكتابِ قيمةٌ إنسانيّةٌ سامية، لأنّ مؤلفه رمى إلى مساعدةِ مَنْ داهمهم الزمانُ بصروفه ومصائبه، فقدّم لهم النصائح، وأرشدهم إلى السُّبُلِ التي تخفّف من وطء المِحَن التي تحيقُ بهم، وعـزّاهم بمـا أصـاب سابقيهم ومعاصريهم من تلك المحن والابتلاءات.

وتَجْدُرُ الإشارةُ إلى أن المعلوماتِ التاريخيّةَ والأدبية وغيرها مما نقع عليه في هذا الكتاب ليست مقصودةً لذاتها، وإنما أوْرَدَها المؤلّفُ في سياق معالجته لموضوعٍ فريدٍ ـ أيضاً ـ هو موضوعُ المِحَنِ والابتلاءات التي يتعرض لها الأفراد والدول، وبيان سُبُلِ مواجهتها وضرورة أخذِ العبرة منها، ولذلك نراه يحشِدُ رواياتٍ وأقوالاً وأخباراً تاريخية مشرقية وأندلسية، يحلّلها ويعقّبُ عليها ويجعلُها في خدمة آرائه. لكنّه يعامل الأخبار الأندلسية ـ التي عاينها ـ معاملةً خاصة، فيفرد لها، بعد الحديث عن كلّ صورةٍ من صُوَرِ الابتلاءات، ما جرى على تسميته بـ «خاتمة الصورة»، وفي تلك الخواتيم يستطردُ المؤلِفُ ويتوغّل إلى تفصيلات دقيقة عن الحوادثِ التاريخيّة حتى يكاد يخرج عن موضوعه. وفي هذه الخواتيم تتجلّـى القيمةُ التاريخيةُ لهذا الكتاب.

وعلى ذلك، فكتابُ جنّةِ الرضا، كتابٌ في الأدبِ والتاريخِ والأخلاقِ والسياسةِ والعقيدة، وهو كتابٌ فريدٌ في بابه.

ويسرّني، وأنا أقدّم هذا الكتاب، أن أتوجه بأوفر الشكر إلى الجامعة الأردنية التي قدّمت لي الدعم اللازم لإنجاز هذا البحث.

ويسعـدني أن أنوّهَ بالمساعدة التي قدّمها لي الأستاذ محمد العربي الخطابي، محافظُ الخزانةِ الحسنيةِ في الرباط، فقد زوّدني بنسخةٍ مصوّرةٍ عن مخطوط «جنة الرضا» وقَدَّمَ لي معلوماتٍ عن حالةِ ذلك المخطوط.

أما أخي وصديقي الدكتور محمد أبو الأجفان القيرواني، الأستاذُ بالكليةِ الزيتونيةِ للشريعةِ وأصولِ الدّين في الجامعةِ التونسية، فلستُ أراني قادراً على تأديتِه حقَّه من الشكرِ والامتنان والوفاء، فقد كان، حفظه الله، أشدَّ حِرْصاً منّي

على تحقيق هذا الكتاب ونشره، وطالما حثّني على متابعة العمل وإنجازه، وقد كان لتشجيعه أكبرُ الأثرِ في ظهور هذا الكتاب، وكان يزوّدني بكتبه ومؤلّفاته وما يقع عليه من أخبارٍ وإشاراتٍ عن كتاب «جنة الرضا». وتجدرُ الإشارة إلى أن معظمَ مؤلفات صديقِنا الدكتور محمد أبو الأجفان يختصُّ بالتراث الأندلسي في القرن التاسع الهجريّ، مثل رحلة القلصادي (ت ٨٩١ هـ)، وبرنامج المُجاري (ت ٨٦٢ هـ)، وغير ذلك من الدراساتِ والكتبِ المحقّقة والمصنّفة.

ولا يفوتني أن أسجّلَ الشكرَ الجزيل للصديق الدكتور جاسر أبو صفية، الذي فتح لي بابَ مكتبته الخاصّة على مصراعيه فأفدتُ كثيراً من نفائِسِها، وخصوصاً في تخريج الأحاديثِ النبويّةِ الشريفة.

وإلى كل من أعـانني في إخراج هذا الكتاب، بنصحٍ أو إرشاد أو تشجيع، أقدّمُ خالصَ الشكرِ والتقدير، وأسألُ الله أن ينفعَنا بهذا العمل، ويُلْهِمنا التوفيقَ والسدادَ.

المحقق

الأوضاعُ السِّياسِيَةِ في عَصْرِ المؤلف

الأوضاع السياسية في عصر المؤلف

وِلد مؤلفُ «جنة الرضا» في حوالي نهاية القرنِ الثامنِ الهجريّ وبداية القـرنِ التاسع، وصادفت ولادته انتهاء عهدِ الاستقرار السياسي في مملكة غرناطة، ودخولَ ذلك البلد في سلسلة من الفتن المتصلة والمتلاحقة لم تنتهِ إلا بسقوطها سنة ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢م في أيدي الإسبان. وكان قَدَرُ ابن عاصم أن يشهد كثيراً من أحداث تلك الفتن، ويبذلَ جهوداً عظيمة في جمعِ الكلمةِ وتأليفِ القلوب، ورصّ الصفوف في مواجهة الإسبان الذين كانوا ينتظرون الفرصةَ المناسبة للإجهاز على غرناطة واحتلالها.

وقد دخلت مملكة غرناطة عهدَ الانحلال السياسي بعد وفاة الغني بالله محمد الخامس بن الأحمر عام ٧٩٣ هـ / ١٣٩١ م، إذ خلفه على عرش غرناطة ابنُه يوسف الثاني[١]. إلا أن هذا الأخير لم يعش طويلاً فتوفي في السنة التالية ٧٩٤ هـ / ١٣٩٢م. وولي العرشَ بعده ابنُه محمد السابع الذي كان أكثرُ اعتماده في تسيير زمام الأمور في مملكة غرناطة على قائده محمد الخصاصيّ[٢].

وفي عهد محمد السابع سنة ٧٩٩ هـ وقعت معركةٌ قبالة جبل طارق بين

(١) ـ نفح الطيب ٧ / ١٦٩، أزهار الرياض ٢ / ١٩، درّة الحجال ٢ / ٢٧٧، العبر لابن خلدون ٤ / ٣٨٤، صبح الأعشى ٥ / ٢٦٣، الاستقصاء ٤ / ٨١.

Dominion of the Arabs in Spain Vol. III, P. 294

(٢) ـ نفح الطيب ٧ / ١٦٩، أزهار الرياض ٢ / ١٩، العبر لابن خلدون ٤ / ٣٨٤، الاستقصاء ٤ / ٨٢، صبح الأعشى ٥ / ٢٦٣، ويورد ابن اياس في بدائع الزهور (ج١ ق٢ ص ٤٧٠) أن يوسف بن الأحمر توفي سنة ٧٩٦ هـ.

السفن القشتالية من جهة وسفن المسلمين (الأندلسيين والتونسيين والتلمسانيين) انتهت بهزيمة المسلمين وتدمير سفنهم[1].

ومن أجل الأخذ بالثأر أغار محمد السابع على مدينة جيّان وغيرها، واستمر الطرفان يُغيرُ كلٌّ منهما على أراضي الآخر، إلى أن توصلا إلى توقيع معاهدة صلح[2]. وفي سنة ٨١٠ هـ / ١٤٠٨م غزا محمد السابع مدينة بيّاسة Baesa [3]، وبعد ذلك بقليل توفي السلطان المذكور وخلفه أخوه يوسف بن يوسف ويُعْرفُ بيوسف الثالث[4].

وفي عهد يوسف الثالث وقعت على أهل غرناطة هزيمةٌ كبيرة في أنتقيرة Antequera سنة ٨١٣ هـ / ١٤١٠ م وقد سقط في هذه المعركة أبو يحيى بن عاصم المعروف بالشهيد وهو عم مؤلّف جنّة الرضا[5].

وفي سنة ٨٢٠ هـ / ١٤١٧ م توفي يوسف الثالث وخلفه على العرش ابنه محمد الذي عرف بمحمد الثامن[6]. وتختلف المصادر التاريخية فيما إذا كان محمد هذا هو الذي لقّب بالأيسر أم غيره. أما كوندي Condé في كتابه:

---

(١) ـ Dominion of the Arabs in Spain Vol. III, P. 300, the

درّة الحجال ٣ / ١٢٦ ,Reconquest of Spain P 168

History of the Moorish Empire of Europe, Vol. III, P. 496.

(٢) ـ Dominion of the Arabs in Spain, Vol. III, PP. 300 - 301, History of the Moorish Empire of Europe, Vol. III, PP. 497 - 498.

ويذكر ابن اياس في بدائع الزهور (ج١ ق٢ ص ٤٧٦) أن هذه الحوادث وقعت سنة ٧٩٨ هـ.

(٣) ـ لقط الفرائد لابن القاضي ٢٣٦.

(٤) ـ لقط الفرائد ٢٣٦، درّة الحجال ٢ / ٢٨٣،

Dominion of the Arabs in Spain, Vol. III, PP 302 - 303.

(٥) ـ نيل الابتهاج ٢٨٥، درّة الحجال ٣ / ٣٤٣، وانظر المخمسة التي نظمها يوسف الثالث بهذه المناسبة (ديوان يوسف الثالث ص ٧٠ ـ ٧٢). وانظر أيضاً بدائع الزهور ج١ ق٢ ص ٨١٠.

(٦) ـ Dominion of the Arabs in Spain, Vol. III, PP. 307 - 309.

«Dominion of the Arabs in Spain» فإنّه يسميه محمد بن نصر بن يوسف ويلقبه بالأيسر El - Hayzari ويقول بأنه سُمي كذلك لأنه كان يستخدم يده اليسرى، ويشير أيضاً إلى أنهم ربّما سمّوه بالأيسر لسوء حظّه في الملك[1].

ويذهب ليفي بروفنسال Levi Provençal في الموسوعة الإسلامية إلى أن محمد الثامن هذا هو الملقب بالأيسر[2]. وتذهب راشيل آرييه R. Arie إلى الرأي ذاته في متن كتابها[3]: «L Espagne musulmane au temps de Nasrides» لكنها في القائمة الملحقة بكتابها لملوك بني نصر تورد بأن الذي عُرِف بالأيسر هو محمد التاسع[4].

وقد حَكَمَ محمد بن يوسف المذكور مملكة غرناطة من سنة ٨٢٠ هـ / ١٤١٧ م إلى أن تمّ خلعُه سنة ٨٢٢ هـ / ١٤١٩م من قبل محمد بن نصر[5].

ويؤكد لويس سيكو دي لوثينا Luis Seco de Lucena في كتابه «Muhammad Ix Sultan de Granada» أن محمد بن نصر المذكور هو محمد التاسع وأنه هو الذي حمل لقب الأيسر (El Zurdo)[6]. وقد نصّ السخاوي أيضاً في كتاب «الضوء اللامع» على أنّ محمد بن نصر هو الذي لُقّب بالأيسر[7]. ومما يؤكد ذلك أيضاً ما ورد في عهد الولاء الذي بعث به يوسف بن المول النصري لخوان الثاني ملك قشتالة، عندما ثار سنة ٨٣٥ هـ / ١٤٣٢ م على محمد الأيسر، فقد نصّ يوسف المذكور على أن محمد الأيسر قد كان ثار على أبي عبد الله محمد

---

(١) ـ المصدر السابق ٣ / ٣٠٩

(٢) ـ Levi Provençal, EI, III, 878 art. «Nasrids»

(٣) ـ الصفحتان ١٣١، ٤٥٠ من كتاب آرييه.

(٤) ـ الملحق رقم «١» من كتاب آرييه.

(٥) ـ Muhammad IX Sultan de Granada, PP. 19 - 23

(٦) ـ المصدر السابق ص ٢٧.

(٧) ـ الضوء اللامع ١٠ / ٦٨.

ابن يوسف بن نصر (محمد الثامن) واستولى على ملكه[1]. وإلى هذا تذهب معظم الدراسات الحديثة، فتدعو الغالب بالله أبا عبد الله محمد بن نصر بن محمد بن يوسف، الأيسر وتسميه محمد التاسع[2].

ومع أن أبا يحيى بنَ عاصم الغرناطي قد أرّخ في كتابه «جنّة الرضا» لعصر سلطانه الأيسر إلا أنّه لم يذكر لنا نسبه كاملاً وإنما اقتصر على تسميته «السلطان الغالب بالله أبو عبد الله بن نصر» وقد ذكر ذلك في مواضع كثيرة، ولعله لم يفصل في نسبه خشية أن يُظَنَّ أنه يُلْحِقُه بالمغمورين. وكذلك فإن ابن عاصم لم يذكر لقب سلطانه «الأيسر»، ولعله تحاشى ذلك ترفّعاً عن ذلك وإجلالاً للسلطان، ولولا أن ابن عاصم أغرق في إفاضة الألقاب السلطانية التمجيدية على سلطانه وآباء سلطانه، ولولا أنه كان يكتفي بالإشارة إلى كُنى هؤلاء الآباء[3] ـ وهي كنى متشابهة لا تكاد تخرج عن أبي عبد الله وأبي الحجاج ـ لما أعيانا التعرف على اسم السلطان الغالب بالله ونسبه.

وقد حكم الغالب بالله محمد بن نصر الأيسر غرناطة خمس مرات، وفي كل مرّة كانت تقوم عليه ثورة يُخلع على إثرها ثم يعود إلى عرشه[4]. وعلى

(١) ـ وثيقة أندلسية قشتالية من القرن التاسع الهجري، نشرها محمد عبد الله عنان في صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد / مجلد ٢ / ١٩٥٤م / ص ٣٨ ـ ٤٥.

(٢) ـ انظر أيضاً: البسطي آخر شعراء الأندلس للدكتور محمد بن شريفة ص ٤٧.

(٣) ـ انظر أمثلة على ذلك في الصفحتين ١١٢، ٣٢٥ من صفحات الأصل المخطوط لجنة الرضا.

(٤) ـ تورد بعض المصادر والدراسات التاريخية أن محمد الأيسر قد ولي عرش غرناطة ثلاث مرات فقط (انظر: الضوء اللامع ١٠ / ٦٨، إنباء الغمر ٣ / ٥١١،

Inscripciones arabes de Granada, Emilio Lafuente, PP. 80 - 81 (Madrid, 1859), Dominion of the Arabs in Spain, Vol. III, P. 323, History of the Moorish Empire of Europe Vol III, P. 504.)

ويورد لويس سيكو دي لوثينا Luis Seco de Lucena في كتابه عن محمد التاسع أخبار فترات أربع فقط من حكم محمد الأيسر (التاسع). ولكن المعلومات التي يوردها ابن عاصم في كتاب جنة الرضا تؤكد أن محمد الأيسر قد حكم مرة خامسة.

ذلك فإن عهد محمد الأيسر تواصلت فيه الفتن والاضطرابات السياسية، وظلت هذه الفتن متصلة حتى سقوط غرناطة سنة ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢م.

وكان سلطان قشتالة خوان الثاني Juan II يعمل على تأجيج هذه الفتن، ويزيد في اضطرامها بمختلف الأساليب، وذلك كي يتسنى له بسط سيطرته على مملكة غرناطة، وقد بسط أبو يحيى بن عاصم، مؤلف جنّة الرضا، ذلك في رسالته التي خاطب بها أهل غرناطة على إثر انتهاء فتنة أبي الحجاج يوسف ابن أحمد بن نصر ابن أخت الأيسر سنة ٨٥١ هـ / ١٤٤٨م[1]. وهذه الرسالةُ ذاتُ قيمة فائقة لأنها تصوّر حالَ غرناطة وطبيعةَ الصراع بين أهلها وبين القشتاليين خيرَ تصوير.

وقد ولي محمد الأيسر عرش غرناطة أول مرة عام ٨٢٢ هـ / ١٤١٩م واستمر في الحكم إلى أن خلعه محمد الثامن (محمد بن يوسف بن يوسف) المعروف بالصغير (El - Pequeno) سنة ٨٣٠ هـ / ١٤٢٧م واعتلى محمد الصغير عرش غرناطة للمرة الثانية، بمساعدةٍ من عائلة الثغري (al - Zegri) [2] وهرب محمد الأيسر إلى تونس وأقام في كنف السلطان أبي فارس عبد العزيز الحفصي، واستطاع، بمساعدة ملك تونس، وملك قشتالة خوان الثاني، وعائلة بني السرّاج أن يستردَّ عرشَه وذلك بعد سنتين من خَلْعِه عنه[3].

ولما تربّع محمد الأيسر على العرش للمرّة الثانية جاءه خوان الثاني ملك

---

(١) ـ انظر نص هذه الرسالة في الصفحات من ٢٧٦ ـ ٢٨٧ من الأصل المخطوط.

(٢) ـ Muhammad IX Sultan de Granada, PP. 27 - 38, Dominion of the Arabs in Spain, Vol. III, PP. 310 - 311, History of the Moorish Empire of Europe, Vol. III, P. 503.

وانظر: بدائع الزهور ٢ / ١١٢.

(٣) ـ Muhammad IX Sultan de Granada, PP. 41 - 51, Dominion of the Arabs in Spain, Vol. III, PP. 313 - 315, History of the Moorish Empire of Europe, Vol. III, P. 504. «Ibn Al - Sarradj» by J. D. Latham, in EI, III, 930.

وانظر: الضوء اللامع ١٠ / ٦٨.

قشتالة يطالبه بإعلان ولائه لقشتالة لقاء المساعدة التي قدّمها له لاسترداد عرشه، ولكن محمد الأيسر رفض هذا المطلب فقام خوان الثاني بمهاجمة مملكة غرناطة، وتمكن بعد معركة عنيفة من الاستيلاء على حصن أوريوله Higueruela وذلك في سنة ٨٣٤ هـ / ١٤٣١م(١).

ومن الحوادث التي وقعت في عهده أيضاً ثورة يوسف المدجَّن، وهو رجلٌ من المتصوفة كان له أتباع كثيرون، صنعوا سفناً وآلاتٍ حربية وهاجموا بعض أرباض غرناطة في حدود سنة ٨٣٤ هـ / ١٤٣١م ودعوا إلى مبايعة يوسف المدجّن، ولما تصدّى له جيش السلطان هرب ليلاً فتبعه بعض الفرسان وقتلوه، واستمرَّ أتباعه يقولون برجعته بعد موته، وأنه سيملأ الأرض عدلاً كما مُلِئَتْ جوراً(٢).

وفي هذه الأثناء كان البلاط القشتالي يقوم بإعداد ثورة على محمد الأيسر يقودها يوسف بن محمد بن المول. وقد تمكن يوسف بن المول من خلع محمد الأيسر سنة ٨٣٥ هـ / ٣١ كانون أول / ١٤٣١م، وفر هذا الأخيرُ إلى مالقة(٣). وما أن نجح يوسف بن المول في خلع السلطان السابق حتى كَتَبَ عهداً إلى الملك القشتالي خوان الثاني الذي كان يحاصر بجيشه مدينة غرناطة، يُعْلِنُ فيه ولاءه للملك القشتالي، ويتعهد بتحرير الأسرى النصارى في غرناطة، وبدفع جزيةٍ سنوية لملك قشتالة مقدارُها عشرون ألف دينار ذهباً، وبتقديم ألف فارس وخمسمائة فارس غرناطي لملك قشتالة لمحاربة مَنْ نازَعَهُ من

(١) ـ إنباء الغمر ٣ / ٤٥٨، وانظر: بدائع الزهور ٢ / ١٣٨ ـ ١٣٩،
Dominion of the Arabs in Spain, Vol. III, PP. 316 - 317, Muhammad IX Sultan de Granada, PP. 93 - 118.

(٢) ـ جنة الرضا ص ٥٥ ـ ٥٦ من الأصل المخطوط، وقد ورد هذا الخبر مختصراً في بدائع السلك لابن الأزرق الغرناطي ١ / ١٣٩.

(٣) ـ جنة الرضا ص ٤٥ ـ ٤٦، ص ١٠٤ ـ ١٠٦، من الأصل المخطوط، Muhammad IX Sultan de Granada, PP. 118 - 123. Dominion of the Arabs in Spain, Vol. III, PP. 320 - 321.

النصارى أو المسلمين . . . إلى غير ذلك من التعهدات[1].

أما محمد الأيسر فقد أخذ يعمل من مدينة مالقة لاسترداد عرشه، مستمداً العون من أبي فارس ملك تونس ومن أهل مالقة ومن الفونسو الخامس Alfonso V ملك أراغون الذي كان على عداءٍ مع قشتالة[2]. وقام يوسف بنُ المول بتوجيه حملة إلى مالقة إلا أن الفونسو الخامس ملك أراغون قام بمساعدة محمد الأيسر[3]. وعلى إثر ذلك تقدمت قواتُ محمد الأيسر من مالقة وبِلّش نحو العاصمة فتصدّى لهم جيشٌ كبيرٌ من القشتاليين عند جبال إلبيرة Elvira فوقعت الهزيمةُ على القشتاليين[4]. وبينما يذهب كوندي Conde في كتابه[5]: «Dominion of the Arabs in Spain» إلى أن يوسف بن المول قد توفي بعد ستة أشهر من اعتلائه العرش، نجد ابنَ عاصم مؤلفَ جنّة الرضا والذي كان كاتباً للسر في مملكة غرناطة[6] يفصّل لنا الطريقة التي تم بها قتل يوسف بن المول بعد دخول الأيسر إلى قصر الحمراء فيقول واصفاً اختفاءه ثم العثورَ عليه[7]:

«ونَقَّبَ عنه في الأماكنِ المُغْفَلة، وَعَزَمَ على استقراء منازلِ الحمراء بالكَبْسِ والتفتيش مكاناً مكاناً. . . . إلى أن جدّوا في التنقير عنه، وَوَقَفَتْ بهم

---

(١) ـ انظر نص هذ العهد في: وثيقة أندلسية قشتالية من القرن التاسع الهجري نشرها محمد عبد الله عنان / صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد / مجلد ٢ / ١٩٥٤م / ص ٣٨ ـ ٤٥.

(٢) ـ جنة الرضا ١٠٤ ـ ١٠٦ من الأصل المخطوط، الضوء اللامع ١٠ / ٦٨.
Muhammad IX Sultan de Granada, PP. 124 - 125,

(٣) ـ Muhammad IX Sultan de Granada, PP 126 - 127

(٤) ـ جنة الرضا ١٠٤ ـ ١٠٦ من الأصل المخطوط، Muhammad IX Sultan de Granada, P. 130

(٥) ـ ٣ / ٣٢٣.

(٦) ـ جنة الرضا ص ٤٥ ـ ٤٦ من الأصل المخطوط.

(٧) ـ جنة الرضا ١٠٦ من الأصل المخطوط.

الإشارةُ من كثيرٍ ممّن اقتفْوا أثرَه في حالِ الحادثة، ظانّاً أنّه ممن سَلَكَ في تلك الدارِ مِنْ نِسْوةٍ متلفّعاتٍ بمروطهن آتياتٍ إليها في تلك الحال، فصدق ظنُّه، وأُلفِيَ في مخدعٍ صغير، أو خِزانةٍ مُتَّخَذَةٍ في عرضِ الحائط، مُسْبَلٍ عليها حصيرُ الحائط المُعدّ له بما يُوهِمُ أنْ ليس هناك شيء إلا لمن يعرفُه سابقاً، فَقَضَى الله نَحْبَه، وفرّج الأزمةَ، وتَدارَكَ الأمّةَ وشفى من الغمّة».

ويشير ابن عاصم أيضاً إلى أن عودة محمد الأيسر إلى الحمراء وتغلّبَهُ على يوسف بن المول قد تمت بمساعدة حافِده (ابن أخته) أبي الحجاج يوسف ابن أحمد بن نصر[1].

وتسنَّمَ محمـدُ الأيسـر العـرشَ للمرة الثالثة في سنة ٨٣٥ هـ / ١٤٣٢م. وواصـل تصـدِّيَهُ للثـورات والمكـائـد والمؤامـرات التي كان يحيكها ملكُ قشتـالـة ضد غرنـاطة، وفي الوقت ذاته استمرّ محمد الأيسر في التصدّي لهجمـات القشتـاليين التي يقـومون بشنها بين الحين والآخر على غرناطة وأراضيهـا بهـدف بسط سيطرتهم عليهـا. وقد استطاع القائدان أبو اسحق ابـراهيم بنُ عبـد البَـرّ وأبـو القـاسم محمـد بن السَـرَّاج إلحـاقَ عدةِ هزائـمَ بالإسـبـان في مدينـة أرشـذونـة Archidona ووادي آش Guadix ومـرج غرنـاطـة La Vega de Granada واشـكـر Huescar وغيرها[2].

إلا أن هذه الانتصـارات لم تستـطع أن تمنع سقوطَ عددٍ من الحصون والمـواقـع الإسلامية المهمة في أيدي القشتاليين؛ فسقط جبلُ طارق سنة

(١) - نفسه ١٠٦. يقول لويس سيكو دي لوثينا إن محمد الأعرج El - cojo هو الذي مكّن للأيسر من الأمر وهو الذي أعدم ابن المول.

Muhammad IX, P. 131 - 132.

(٢) - انظر تفصيلات هذه الحوادث في:

Muhammad IX Sultan de Granada, PP. 135 - 179, Dominion of the Arabs in Spain, Vol. III, PP. 324 - 330.

٨٣٦ هـ / ١٤٣٣م لكنّ المسلمين تمكنوا من استرداده ثانية[١]. كما استولى الإسبان على حصن اللّقون Alicun القريب من وادي آش في السنة ذاتها[٢]، كما استولوا على حصون أخرى كثيرة وذلك في إطار الحملة الرئيسية التي شنّها القائدُ القشتاليّ جومث دي ريبيرا Gomez de Ribera ضد مملكة غرناطة[٣].

وقد أفاد القشتاليون في شنّ هذه الحملات والغارات المتواصلة ضد مملكة غرناطة من أمرين: **أوّلهما** المعاهدة التي عُقِدَت بين قشتالة ونافار وأراغون؛ فقد أوقفت هذه المعاهدةُ النزاعات بين هذه الولايات الإسبانية الثلاث - ولو مؤقتاً[٤]. **وثانيهما**: استمرار النزاعات الداخلية في مملكة غرناطة بسبب أطماع الأمراء النصريين من أبناء الأسرة المالكة في عرش المملكة[٥].

وقد كانت المعارك في بادىء الأمر سجالاً بين المسلمين والقشتاليين، لكنّها تحوّلت بين سنتي ٨٣٩ هـ - ٨٤١ هـ (١٤٣٦ - ١٤٣٨م) لصالح القشتاليين الذين تمكنوا من الاستيلاء على حصون بلّش Velez وغليرة Galera وقسطيلية Castileja وجبل طارق Gibraltar وبني موريل Benamourel وأولبة Huelma وبشيش Bexix وغيرها، كما أعلنت مدينة بسطة Baza ومدينة وادي آش Guadix ولاءهما للبلاط القشتالي[٦]. وعلى أثر ذلك وقَّعَ

(١) - البسطي آخر شعراء الأندلس ص ١٧٠،

Dominion of the Arabs in Spain. Vol. III, P. 326.

(٢) - البسطي آخر شعراء الأندلس ١٦٧ - ١٦٨ .

(٣) - Muhammad IX Sultan de Granada, PP. 145 - 157.

(٤) - المرجع السابق ص ١٣٧ .

(٥) - جنة الرضا ١٠٦ - ١١٤ من الأصل المخطوط .

(٦) - انظر تفاصيل الاستيلاء على هذه المدن في:

Muhammad IX Sultan de Granada, PP. 171 - 179.

محمد الأيسر معاهدةً مع قشتالة تبدأ مُدَّتُها في ١٥ إبريل ١٤٣٩م وتنتهي في ١٦ إبـريل ١٤٤٢م.(٨٤٢ ـ ٨٤٥ هـ)[1] وفي هذه الأثناء اجتاح غرناطةَ وباءُ الطاعـون وأتى على كثير من أهلها من العلماء وغيرهم، وذلك سنة ٨٤٤هـ (١٤٤٠ ـ ١٤٤١م)، وخـرج كثير من النـاس إلى مدينـة مالقـة هرباً من هذا الوباء[2]. وأمام هذه الأوضاع المتردّية في غرناطة أرسل محمد الأيسر بسفرائه إلى سلطان المماليك جقمق بأكثر من رسالة، يوضح فيها تكالب الإسبان على غرنـاطـة ويطالب سلطان المـمـاليك بتقـديم مساعدات عسكرية لغرناطة ولم تتمخض هذه السفارات إلا عن بعض المساعدات المحدودة في العُدّة والأموال[3].

وفي سنة ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م انقضت مدةُ معاهدة الصلح التي عقدت بين غرنـاطة وقشتالة سنة (٨٤٢ هـ / ١٤٣٩م)، وأرسل محمد الأيسر سفيره ابراهيم بن سعيد الأمين للتفاوض من أجل تجديد المعاهدة، إلا أن هذا السفير تأخرت عودتُه أكثر من سنة كاملة فتشوشت النفوسُ عليه، ووقعت شكاياتٌ من

---

(١) ـ المرجع السابق ١٩٠.

(٢) ـ رحلة القلصادي ٨٤، ٨٧، ٩٠، نيل الابتهاج ٢٠٧، وقد ألف عمر الزجال المالقي الذي شهد وقوع الوباء مقامة في أمر الوباء يدعو فيها السلطان محمد الأيسر إلى التوجه إلى مالقة هرباً من الوباء. والمقامة مؤرخة في ربيع الآخر ٨٤٤ هـ (أزهار الرياض١ / ١٢٥ ـ ١٣٢).

(٣) ـ انظر قصة إحدى هذه السفارات في: سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة في القرن التاسع الهجري (سنة ٨٤٤)، للدكتور عبد العزيز الأهواني. نشرها في مجلة كلية الآداب / جامعة القاهرة / المجلد ١٦ / ١٩٥٤م ص ٩٥ ـ ١٢١، وأعاد الدكتور محمد رضوان الداية نشرها في كتاب: آخر أيام غرناطة ص ١٤٥، وانظر نص إحدى الرسائل التي وجهها محمد الأيسر إلى السلطان جقمق في كتاب: المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري / الدكتور أحمد درّاج / ص ١٧٨ ـ ١٨٠. أما الأخبار عن هذه السفارات والمراسلات فانظر السلوك للمقريزي (أحداث سنتي ٨٤٣، ٨٤٤)، الضوء اللامع ٥ / ٦٧.

الطرفين على الطرف الآخر[1]، وبعد مراسلات بين السلطان القشتالي والسلطان الغرناطي تم الاتفاق على تجديد المعاهدة لمدة سنة أخرى تنتهي في ١٥ / إبريل / ١٤٤٣م[2]. وبناءً على طلب السلطانِ الغرناطيّ محمد الأيسر وافق خوان الثاني على تمديد فترة المعاهدة حتى ١٥ / إبريل / ١٤٤٦م (٨٤٩ هـ)[3]. ويبدو أن السلطان القشتالي قد وافق على تجديد مدة المعاهدة بسبب تجدُّدِ الصراعات الداخلية في قشتالة[4].

ويشير ابنُ عاصم في «جنة الرضا»[5]، إلى هذا السلم بقوله: «فمن ذلك أنَّ مسالمةَ هؤلاء النصارى المجاورين كانت قد انعقدت على إتاوةٍ اقتضاها أَزْمُ ذلك الزمان وشدةٌ لاحقةُ النِفاق، وقد كان الخروجُ عنها بعيدَ التصوّر، صعبَ المُتَنَاول، غيرَ مُمْكِن الحصول، لاغتباطِ الخاصّةِ بما كان قد تهيّأ لها من السِّلْمِ وعدم ثقتها بما لحق الطاغيةَ من الوهن، واستمرارهِ على التمويه بالقوّة على الحرب، فلولا أن حالتَه انجَلَتْ بالفتنة على أنْ لا طَمَعَ له بما شغله الله به منها في الدفاعِ عن حَوْزته، ولا الكفاح عن ملّته لوَقَفَ النَظَرُ بالخاصّ والعام على إيثارِ سِلْمه».

وفي سنة ٨٤٨ هـ / ١٤٤٥م ثار ابن أخ للسلطان الأيسر واسمه محمد ابن عثمان الأحنف أو الأعرج (El Cojo) وكان والياً لمدينة المريّة، وسار بجيش من المريّة واحتلّ غرناطة ودخل الحمراء، ونصَّبَ نفسه سلطاناً على غرناطة. وخلع محمد الأيسر للمرة الثالثة[6].

---

(١) - انظر رسالة محمد الأيسر سنة ٨٤٦ هـ إلى خوان الثاني في موضوع الشكايات وموضوع تأخر السفير الغرناطي (آخر أيام غرناطة ١٧٢ - ١٧٤).

(٢) - Muhammad IX Sultan de Granada, P. 199.

(٣) - نفسه ص ٢٠٠

(٤) - نفسه ص ٢٠٠ Dominion of the Arabs in Spain, Vol. III, P. 327.

(٥) - ص ٢٧١ من الأصل المخطوط.

(٦) - Muhammad IX Sultan de Granada, PP. 200 - 201, Dominion of the Arabs in Spain, Vol. III, PP. 327 - 328.

وتختلف الروايات فيمن ثار على محمد الأحنف El Cojo بعد ذلك ؛ فبينما يذهب كونـدي Conde إلى أن الأميرَ أبـا الـوليد اسمـاعيل بن الأحمر ابنَ عمّ الأحنف جاء من قشتالة بدعوة من القائد أبي اسحق ابراهيم بن عبد البرّ وخلع الأحنف[١]، يذهب لويس سيكو دي لوثينا Luis Seco de Lucena إلى أن الذي ثار على محمـد الأحنف سنة ١٤٤٥ م هو يوسف بن أحمد بن نصر وأن محمد الأحنف قد استردَّ عرشَه منه سنة ١٤٤٦م[٢]. ولكن المعلومات التي يقدّمها ابنُ عاصم في «جنّة الرضا» تبين أن محمد الأيسر كان ملكاً على غرناطة عندما قام ابن أخته يوسف .بن أحمد بن نصر بالثورة عليه سنة ٨٤٩ هـ / ١٤٤٥م[٣]. وأن ثورة أبي الوليد اسماعيل قد وقعت بعد ٨٥١ هـ / ١٤٤٧م[٤]، وهذا يعني أن محمد الأيسر ربما كان قد استرد عرشه للمرة الرابعة من محمد الأحنف. أما تسلسلُ الحوادث التاريخية بعد استرداد الأيسر عرش غرناطة للمرة الرابعة فقد جاءت مفصَّلَةً في كتاب «جنّة الرضا».

فقد وقع نفور بين السلطان محمد الأيسر وابن أخته أبي الحجاج يوسف ابن أحمد بن نصر، وكان بينهما قبل ذلك من المودّة أعظم ما يكون بين خالٍ وحافده، فانتبذ يوسف بالسكنى في قرية خارج غرناطة وعلى بعد فرسخين منها تدعى قرية واد. وعند ذلك أخذ المفسدون يسعون بين يوسف وبين خاله محمد الأيسر بالنمائم، وكان من بين هؤلاء المفسدين الوزير عليّ بن علاّق. ولما رأت الحرّة فاطمة، أخت محمد الأيسر ووالدة يوسف، أن الأمور قد تؤدي إلى ما لا تحمد عقباه فقد نصحت ولدها أن يقبل بالسكن في مدينة المرية على أن يكون قائداً لقصبتها. وقد نجحت في ذلك. واستمر ولدها قائداً لقصبة المرية عدة سنين، لكن السعايات استمرت بين محمد الأيسر وابن أخته إلى أن استحكمت

(١) - Dominion of the Arabs in Spain, Vol. III, PP. 328 - 336.

(٢) - Muhammad IX Sultan de Granada, PP. 205 - 210.

(٣) - جنة الرضا ص ١٠٦، ٢٧٠ من الأصل المخطوط.

(٤) - جنة الرضا ص ٥٧ - ٥٩ من الأصل المخطوط.

أسباب الوحشة بينهما، وأعلن يوسفُ الثورةَ، ووقعت مواجهاتٌ عسكرية بين الطرفين وسار محمد الأيسر بجيشه إلى مدينة المريّة وحاصرها أكثر من شهر إلى أن ضعف أصحاب السلطان محمد الأيسر وانقسموا على أنفسهم واختلفت آراؤهم، فاضطر محمد الأيسر إلى فك الحصار والعودة إلى غرناطة، وفي أثناء العودة تلقى أخبارَ قيامِ أهلِ غرناطة عليه مؤيدين ليوسف بن أحمد بن نصر، وكذلك قيام أهل وادي آش، فواصل سيره بالجيش نحو غرناطة وتمكن من الوصول إليها «في أخبار ـ يصفها ابن عاصم ـ يطول شرحُها ويُملُّ استقصاؤها». ويظهر أن السلطان محمد الأيسر لم يتمكن من دخول العاصمة فتوجه إلى مالقة وأقام فيها يترقب الفرج[1].

ومن مقرّه الجديد في مالقة يأخذ السلطان محمد الأيسر بإرسال الحملات العسكرية إلى غرناطة، وقد تمكن جيشُه من هزيمة جيش يوسف المستولي على غرناطة في موقعة بلغش خارج غرناطة[2]، لكن محمد الأيسر لم يكد يفرحُ بهذا النصر حتى ورد نبأٌ بثورة أهل بلّش وذكوان ورُنْدة ثم ثار أهلُ مالقة عليه، فهرب من مالقة إلى اليرة وبنيرة فآواه أهلهما، ثم قرّر محمد الأيسر الاعتزالَ وخَلْعَ نفسِه حتى لا تستمرّ الفتنة[3]. واشترط أن يُسْمَحَ له بالإقامة في الدار الكبيرة بالحمراء، فوافق السلطان يوسف على ذلك وأسكنه في الحمراء وأقطعه «مشرط شلوبانية ومترايل لقبا شمسياً وفائدة قيادية، وربما مُسْتَخْلِصاً بجرْيِ نفعِها الزرعيّ مَنْ اعْتَلَقَ بحُرْمَتِه من مولىً وحاشيةٍ وصنيعة»[4]، ويسمي ابن عاصم هذا الحادث «اعتقالاً» ويقول عنه بأنه «كان اعتقالاً مرهوبَ العاقبة محذورَ الغائلة مسلوكاً به في الظاهرِ مَسْلَكَ المبرّة، مظنوناً به في الباطنِ يُخْشى المضرة،

---

(١) ـ جنة الرضا ص ١٠٦ ـ ١٠٨ من الأصل المخطوط.

(٢) ـ جنة الرضا ص ١٠٨ من الأصل المخطوط.

(٣) ـ نفسه ص ١٠٩ من الأصل المخطوط.

(٤) ـ نفسه ص ١٠٩.

للاستظهار عليه بالعيون المترقّبة والحَرَسَةِ المتنطّسة، وقبولِ السعايات المرخوفة وتجوّز الممالأة المزوّرة»[1].

وقد انتهت حوادثُ هذه الفتنة باعتلاء السلطان أبي الحجاج يوسف بن أحمد بن نصر عرش غرناطة سنة ٨٤٩ هـ / ١٤٤٥م[2]، وتلقب بالمؤيّد بالله لقباً سلطانياً[3].

وبعد أن تولى هذا السلطان عرشَ غرناطة بدأ يشنُّ الغاراتِ على القشتاليين، وتمكّنَ من استرجاع عددٍ من الحصون التي استولى عليها القشتاليون بعد ثورة ابن المول سنة ٨٣٥ هـ / ١٤٣٢م. ومن هذه الحصون التي فتحها المسلمون حصن النَّجَش، استخلصه القائد العباس بن علي بن حميد بعد أن مات عليه أخوه عيسى، ووادي المنصورية (المنصورة) وحصن البريج من أسفل الوادي المذكور ومدينة بطللس بلّس فتحها أحمد بن الوزير أبي اسحق ابراهيم بن عبد البر فنهض إليه من وادي آش، والقائد أبو الحجاج يوسف بن فرج بن كماشة نهض إليها من بسطة، والأحْسَنُ الشريف[4]. ثم لما عَزَلَ السلطانُ أبو الحجاج يوسف بن أحمد وزيرَه عليَّ بن علّاق فتح المسلمون حصن بني سلمة وكُرْتُش وغليرة وقسطلة وأُشْكَر وحصنَ السكة، واشترك في فتح هذه الحصون أبو اسحق ابراهيم بن عبدالبرّ وأبو القاسم بن السراج وأبو السرور مفرج بن فَتّوح، وكانت بعض هذه الحصون تابعة لبعض أمراء الإسبان المعاهدين للسلطان أبي الحجاج فتحها ابراهيم بن عبد البر مُراغَمَةً للسلطان يوسف[5]. ثم فتح حصن قوج وحصن الطورون وغار أبي زيد وحصن ابرونه[6].

---

(١) ـ نفسه ص ٢٧٠.

(٢) ـ نفسه ص ١٠٩ وانظر أيضاً. Muhammad IX Sultan de Granada, P. 207.

(٣) ـ المرجع السابق ص ٢٠٧.

(٤) ـ جنة الرضا ص ٢٧١.

(٥) ـ نفسه ٢٧٢ ـ ٢٧٣.

(٦) ـ نفسه ٢٧٣.

«فرجع الله هذه الحصون كلها، على هذه الحالة من الفرقة ومُراغَمَة الجهة المستخلصة للأخرى»(١).

وبعد أربعة أشهر من اعتلاء السلطان يوسف عرش غرناطة جاء الرئيس أبو الوليد اسماعيل بن الأحمر الذي كان مقيماً في قشتالة يريد الثورة على أبي الحجاج، فوصل إلى حصن قَنْبيل Cambil إلى الشمال من غرناطة «فنجم الخلاف وتواترت إلى جهته الشرّاد وكثر بالحضرة الإرجاف»، فأسند السلطان يوسف أمر الوزارة إلى أبي القاسم محمد بن يوسف بن السرّاج عوضاً من عليّ ابن علاّق، فسدّ ابن السرّاج الثغور «وبثّ العطاء في الجند وأجمل مواعد الناس، وتوقفت تلك الحال، ونَزَعَ عن الفتنة الكثيرُ ممن اشرأبَّ إليها، وعاد الرئيسُ إلى أعماق قشتالة آيساً مما كان قد أشرف عليه من نُجْحِ القصد»(٢).

وبعد ذلك جرى اعتقال أبي القاسم بن السرّاج ويوسف بن فرج بن كماشة(٣). وقام جيش السلطان يوسف بالهجوم على وادي آش للقبض على ابراهيم بن عبد البر لكن الدفاع الذي أظهره هذا القائد وأهل وادي آش حال دون اعتقاله.

وبعد حين أرسل القائدُ ابن عبد البرّ في طلب الرئيس اسماعيل من قشتالة وجاء الرئيس اسماعيل إلى وادي آش(٤)، وعندما سمع السلطانُ يوسف بذلك فرَّ من الحمراء باتجاه المريّة مستصْحِباً لابني عمّيه والقائدين المعتقلين أبي القاسم بن السرّاج وابن كُماشة ومعه أهلهُ وذووه وأصحابهُ واستقرّ بالمريّة. أما محمد الأيسر الذي كان يقيم في الحمراء فقد انحاز إلى بلدة شلوبانية مع أهله وخاصته واستقر بها(٥). وكادت أن تقع فتنةٌ عظيمة لولا موتُ السلطان يوسف سنة

(١) - نفسه ٢٧٣

(٢) - جنة الرضا ١٠٩، ١١٠.

(٣) - جنة الرضا ص ١١٠، ٢٧٠

(٤) - جنة الرضا ص ١١١، Dominion of the Arabs in Spain, Vol. III, P. 328.

(٥) - جنة الرضا ص ١١١.

٨٥١ هـ[١]. وبعد ذلك عاد السلطان الغالب بالله محمد الأيسر إلى عرش غرناطة للمرة الخامسة «والأُلْفَةُ قد حصلت والفُرْقةُ قد ارتفعت والدولةُ الغالبية قد تجدّدت، واستقر منها كلُّ ذي وِلاية في محلّ وِلايته»[٢].

ولما انتهت الفتنة وعاد محمد الأيسر إلى عرشه بادر بتوجيه الغزو إلى أراضي القشتاليين بقيادة صهره محمد ابن ابن عمه، «فأبعد الغارة إلى مَوْسَطَةِ بلادِ الحرب ووالى إقامةَ الليالي . . . تِباعاً في نِكاية أحزاب الكفر، وقاد السَّبْيَ الذي بَعُدَ العهدُ بمثله وتطاولت الأزمنة السالفة دونَ المشاهدةِ لبعضِه فكيفَ بكُلّه!»[٣]. فهاجم جيّان وساق منها غنائم كثيرةً، ثم غزا بيَّانة، ثم هاجم حصنَ أنتقيرة فأُشْكَر في الأرض المعروفة بالمرقجادة وهي من أراضي القوند اشطبل Condestable فزاد سبيُها على الألف، ثم هاجم مدينة ابن السليم Benzalema وقاد منها سبياً كثيراً وغنائم وافرة. وكان ذلك كلُّه في سنة ٨٥١ هـ / ١٤٤٧م[٤].

وفي سنة ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨م اعترض صاحبُ انتقيرة بموافقةِ سلطانه خوان الثاني ثلاثين من التجار المسلمين الذين يتّجرون مع دار الحرب وقَبَضَ عليهم ثم شنّ غارة على أحواز مدينة تاجرة، وأسر من وجد في طريقه من الرعاة والصيادين والفلاحين واكتسح ماشيتهم، ف[illegible]ب أبو القاسم بنُ السرّاج وأبو السرور مفرّجُ بن فَتُّوح لمهاجمة اليسانة وأقلار واحتجاز رهائن من هاتين البلدتين تكفي لتحرير الأسرى المسلمين، ثم هاجم هذان القائدان مدينة انتقيرة فقتلا وأسرا وغنما كثيراً، وكمن المسلمون للجيش القشتالي عند موضع يقال له حجر العشّاق، فقتلوا وأسروا زهاء ستمائة منهم[٥].

وبعد ذلك بقليل أغار أهل انتقيرة من الإسبان على مدينة مالقة فتصدى

(١) ـ نفسه ص ١١٢.
(٢) ـ نفسه ص ١١٢.
(٣) ـ نفسه ١١٣.
(٤) ـ نفسه ١١٤ ـ ١١٥.
(٥) ـ نفسه ٢٧٤.

لهم القائد أبو اسحق ابراهيم بن عبد البر فأوقع منهم مائة وستين فارساً بين قتيل وأسير(١).

ثم نهض القائد Juan Saavedra قائد قسطيلية إلى مدينة مربلّة، فأخفق سعيُه ووقع في الأسر واستولى المسلمون يومذاك على مدينة شِرّيش Jerez وذلك يوم الخميس الثامن لشهر الله المحرم فاتح عام اثنين وخمسين وثمانمائة(٢). وكانت هذه المدينة قد سقطت في أيدي القشتاليين سنة **٨٣٤ هـ / ١٤٣١م**(٣).

وبعد ذلك واصل القائدان أبو اسحق ابراهيم بنُ عبد البَرّ وأبو القاسم بن السرّاج شنَّ الغارات على أرضِ الحرب والتقيا مع القشتاليين في معركة عند موضع يقال له الخزائن في ظاهر مدينة مربلّة، وأسفرت المعركة عن قتل وأسر ستمائة فارس من الإسبان(٤).

وعلى إثْر هذه الانتصارات كتب ابنُ عاصم رسالته المشهورة «في قصد التنبيه على هذه اللطائف والإيقاظ لأرباب الدولة من الغفلة»(٥). وفي سنة **٨٥٢** هـ أيضاً انتشر الجرادُ في شرقيّ مملكة غرناطة، بصورة تعجز القدرةُ البشريَّةُ عن مقاومته، وكان انتشاره في وادي آش وبسطة وبيرة ووادي المنصورة وأُشْكَر، وأخذ يتناسل ويتكاثر ويهدّد بانتشار المجاعة، فأخذ أهل أُشْكَر وبسطة في مقاومته، فحفروا له أخاديد، وفتحوا عليه السواقي وداسوه بالأرجل، وبلغ ما داسوه في بسطة وحدها أربعة آلاف حِمْل، استخدموه بعد ذلك سماداً للأرض وكانوا يتغالون في أثمانه(٦).

---

(١) - نفسه ٢٧٥ .

(٢) - نفسه ١٥٢، ٢٧٥، Muhammad IX Sultan de Granada, P 215.

(٣) - Muhammad IX, P. 217.

(٤) - جنة الرضا ١٥٢، ٢٧٥ - ٢٧٦، Muhammad IX P. 215 - 216.

(٥) - نفسه ٢٧٦ - ٢٨٧ .

(٦) - نفسه ٧٢ - ٧٣ .

وفي هذه الأثنـاء تجدَّدَ النزاعُ بين نبلاء قشتالة فانتهز أهلُ غرناطة هذه الفـرصـة ودفعـوا بجيشهم إلى داخـل الأراضي القشتالية بحجة مساعدة أحد الطرفين ضد الطرف الآخر وذلك في أواخر سنة ١٤٤٨م، وأوائل سنة ١٤٤٩م[١].

وفي منتصف عام ١٤٤٩م / ٨٥٣ هـ أرسل محمد الأيسر إلى الملك خوان ملك نافار Navarra يقترح عليه إقامةَ حِلْفٍ بين أراغون ونافار وغرناطة من أجـل غزو أراضي قشتالة[٢]. وعلى إثر ذلك شنَّ أكثر من عشرة آلاف جنديّ غرنـاطي هجوماً على حصن مُنْتيل Montiel وأخذوا على عاتقهم مساعدة الثوار القشتـاليين ضد قشتـالـة[٣]. وفي صدر سنـة ٨٥٤ هـ / أواخر سنة ١٤٤٩م اشتعلت في غرناطة فتنةٌ جديدة هي ثورة الرئيس اسماعيل[٤]، وقد اضطر محمد الأيسر بسبب هذه الثورة كما يبدو أن يوقف غاراته على أراضي قشتالة وأن يوقّع معـاهـدة صلح مدتهـا عامان مع القشتاليين سنة ٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م[٥]. أما الرئيس اسماعيل الذي ثار سنة ٨٥٤ هـ / ١٤٤٩م فكان قد استقر في قشتالة منذ زمن طويل، وفي سنة ٨٥١ هـ فوّت على المسلمين فرصةً للنصر عندما ثار بوادي آش[٦]. ثم انتزى بحصن قمارش غربيّ غرناطة، وخاف الناسُ فتنته، وفي سنة ٨٥٤ هـ احتل مالقة، فاستنكر الناسُ كلُّهم هذه الثورة، لأنها كانت بتشجيعٍ من سلطان قشتالة الذي كان يعمل على تشتيت كلمة الغرناطيين، وقد هبّ العلماءُ والفقهاءُ يبيّنون للناس مخاطر هذه الثورة فانصرف الناس عنه، وقام

---

(١) ـ Muhammad IX Sultan de Granada, PP. 217 - 218

(٢) ـ نفسه ص ٢١٨ ـ ٢١٩.

(٣) ـ نفسه ص ٢١٩ ـ ٢٢٠، ويجعل كوندي هذه الأحداث في عهد محمد الأحنف. (Dominion 3:330 - 331)

(٤) ـ جنة الرضا ٥٧، وفي كتاب لويس سيكو دي لوثينا عن محمد التاسع أن الثورة التي قامت في هذا التاريخ هي ثورة الأمير سعد ص ٢٢٠.

(٥) ـ Muhammad IX, P. 221.

(٦) ـ انظر جنة الرضا ص ١١١، Dominion of the Arabs, 3:328,

السلطان محمد الأيسر بتوجيه جيشه إليه، ففتح بلّش واستنزل من كان فيها من أصحاب الرئيس اسماعيل، ثم احتلّ جنة ابن سالم، ونزل شرقيَّ رابطة السُّعَداء، ثم فتح مالقة بعد أن كانت قشتالة قد استعدّت لنقض معاهدة الصلح بحجة مساعدة الرئيس اسماعيل، إلّا أنّ استمرار النزاعات داخل قشتالة ومبادرة محمد الأيسر إلى التصدّي للرئيس اسماعيل فوّت على قشتالة فرصةً لغزو مملكة غرناطة. وبعد أن احتلّ محمد الأيسر قصبة مالقة وجبل فار Gibralfaro قَتَلَ اسماعيل وانتهت الثورة[1].

وبعد ذلك تتواصلُ الثورات ضدَّ محمد الأيسر بتشجيع من سلطان قشتالة، إلّا أنّ أخبارَ هذه الثورات ونهايةَ السلطان محمد الأيسر لا تتوافر في المصادر العربية، وتختلف رواياتُها في المصادر الإسبانية. ولئن كانت هنالك بعضُ الإشارات إلى تولّي محمد الأحنف العرشَ مرة ثانية خلال هذه الثورات[2]؛ إلا أنه من الصعب الجزمُ بذلك. وسواء نجح محمد الأحنف في الاستيلاء على عرش غرناطة مرة ثانيةً أم لم ينجح، فإن هناك دلائلَ قويةً على أن محمداً الأيسر كان متربّعاً على عرش غرناطة إلى ما بعد ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣م[3]. لكنَّ هذا السلطان قضى السنواتِ الأخيرةَ من حكمه في صراع مرير

---

(١) ـ جنة الرضا ٥٧ ـ ٥٩.

(٢) ـ عندما يتحدث كوندي في كتابه . . . Dominion of the Arabs عن حوادث هذه الفترة يقول إنها وقعت في عهد محمد الأحنف (٣ / ٣٣٠ وما بعدها).

ويورد الدكتور أحمد درّاج في كتابه «المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري» ص١٨١ نص رسالة مؤرخة في ١٣ / جمادى الأولى سنة ٨٥٥ هـ (١٤٥١م) أرسلها محمد بن الأحنف سلطان غرناطة إلى أبي سعيد جقمق سلطان مصر.

وبما أن اسم المرسل غير مذكور في هذه الرسالة فلا نستطيع أن نجزم بصحة اجتهاد الدكتور أحمد دراج.

(٣) ـ من هذه الدلائل أن اسم السلطان الأيسر قد ورد في نص الظهير الذي قدم ابن عاصم للنظر في أمور الفقهاء سنة ٨٥٧ هـ (نفح الطيب ٦ / ١٥٧ أزهار الرياض ١ / ١٧٣).
وعندما يترجم عبد الباسط بن خليل في كتابه «الروض الباسم» للسلطان سعد بن الأحمر الذي =

ضد سعد بن الأحمر الذي ثار عليه . وقدمت قشتالة مساعدتها ودعمها للأمير سعد رداً على تحالفِ محمد الأيسر مع أراغون ونافار ضد قشتالة ، وبدأ سعد الثورةَ في مالقة وأرجذو[٢] Archidona [١] . واضطر محمد الأيسر إلى إرسال سفرائه إلى البلاطِ القشتاليّ لعقد اتفاقية سلام ، وفي شهر آذار من سنة ١٤٥٠م (أواخر ٨٥٤ هـ) وُقِّعَت الاتفاقية[٢] . ولكنّ هذه المعاهدة أتاحت لملك قشتالة دَعْمَ ثورة سعد ، مما حدا بمحمد الأيسر بعد مرور سنتين على هذه المعاهدة أن يقوم بغزو انتقيرة وإسْطَبة Estepa وأُشُونة Osuna [٣] .

وفي ١٧ آذار / ١٤٥٢م (٢٥ صفر ٨٥٦ هـ) قاد الوزير أبو اسحق ابراهيم ابنُ عبد البر جيشاً قوامُه ١٦٠٠ فارس وستمائة من المشاة وغيرهم من المتطوعين ، ودخل بهم إلى أرض قشتالة من ناحية مرسية ووصلوا إلى مدينة لورقة Lorca ، والتقى الجيشُ الغرناطي مع القشتاليّين في موضع يقال له Alporchones يبعد ثمانية كيلو مترات عن لورقة ، وحدثت معركةٌ ضارية اضطرت ابن عبد البرّ إلى إصدار الأوامر لجيشه بالانسحاب ، ولكنه كان انسحاباً رهيباً لأن الجيش الغرناطي فَقَدَ مُعْظَمَ من كان فيه ، وعاد ابنُ عبد البرّ إلى غرناطة بعدد قليل جداً ممن تبقّى معه ، ولم يحتمِلْ محمّد الأيسر وَقْعَ ذلك الخَبَر فأصدر أمره بقتلِ القائدِ ابراهيم بن عبد البرّ[٤] .

وبعد هذه الهزيمة التي لحقت بالمسلمين ، وهذه القسوة التي مارسها محمد الأيسر نحو القائد الغرناطيّ ، شاع التذمُّرُ بين أهل غرناطة وخصوصاً بين

= وفي سنة ٨٥٨ هـ / ١٤٥٣ م يقول إنه «ملك بعد عمه أو قريبه الغالب بالله ابن الأحمر» (الروض الباسم ص ٣٢٧) .

(١) ـ Muhammad IX Sultan de Granada, P. 220.

(٢) ـ نفسه ٢٢٠ ـ ٢٢١ .

(٣) ـ نفسه ٢٢١ .

(٤) ـ Muhammad IX Sultan de Granada, PP. 222 - 224,

Dominion of the Arabs in Spain, III, PP 331 - 332.

أنصارِ الأيسر من بني السَرّاج، وزاد ـ بسبب ذلك ـ التأييدُ للأمير سعد الثائر في مالقة. وتزامن ذلك كلُّه مع المصالحةِ التي تمَّتْ بين قشتالة من جهة وأراغون ونافار من جهة ثانية. وأرسل سلطان قشتالة بجيشه لمناصرة الأمير سعد، ووقعت مجابهة بين جيش الأيسر من جهة والجيش القشتالي والثوار من جهة ثانية، أَجْبَرَتْ محمداً الأيسر ـ مع عَدَدٍ من أنصاره وفرسانه ـ على الهرب إلى جبل البشارات Alpujarras وأعلن سعد نَفْسَه ملكاً على غرناطة في أواخر سنة ١٤٥٣م[١].

ويقوم محمد الأيسر بعدّة محاولات لاسترداد عرشه في غرناطة عن طريق إرسال فرسانه وأتباعه لمهاجمة الحمراء، ولكنَّ محاولاتِه هذه كلّها انتهت بالفشل، وذلك في النصف الأول من سنة ١٤٥٤م / أواخر ٨٥٨ هـ، ورداً على ذلك أرسل السلطان سعد ابنه عليّاً بجيش صغير لمهاجمة محمد الأيسر، وبعد مواجهة قصيرة وَقَعَ محمّد الأيسر أسيراً وحُمِلَ إلى قصر الحمراء، وأمر السلطانُ سعد بتنفيذ حكم الموت فيه، وذلك في إحدى قاعات قصر الحمراء إلى يمين ساحة الأسود[٢].

ويتزامن موتُ محمّد الأيسر ـ على هذه الصورة ـ مع قتل أبي يحيى بن عاصم مؤلّف «جنّة الرضا»، مما يوحي أن هناك رابطةً بين قتل ابنِ عاصم وقَتْلِ سلطانه، كما سنبيّنه في الفصل المخصّص لسيرة ابن عاصم ـ إن شاء الله.

ويأتي ـ كذلك ـ موتُ محمّد الأيسر، وانتقال المُلْك إلى سعد، متزامناً مع موت ملك قشتالة خوان الثاني وتنصيبِ هنري الرابع ملكاً على قشتالة[٣].

---

(١) ـ Muhammad IX Sultan de Granada, PP. 225 - 226.

Dominion of the Arabs in Spain, III, PP. 332 - 334.

ويذكر كوندي أن هذه الأحداث وقعت في سنة ٨٥٩ هـ (٣ / ٣٣٤).

(٢) ـ Muhammad IX Sultan de Granada, PP 226 - 227.

(٣) ـ Spain, Watts H. E. ,P. 258, Ed. London, 1893.

وهـذه الحوادث كلها تتزامن مع تصالحِ الولايات الإسبانية المختلفة، وسقوطِ القسطنطينية في أيدي العثمانيين، واستمرارِ التنازع على عرش غرناطة بين أفراد الأسرة المالكة، فيثور على سعد ابنُه عليّ ويثور على عليّ ابنه أبو عبد الله الصغير الذي تسقط غرناطة على عهده سنة ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢م. وعندما يتحدَّثُ عبدُ الباسط بن شاهين عن العائلة المالكة في غرناطة وثورات أفرادها بعضِهم على بعضٍ من أجل عرش المملكة يقول «وهو غالبُ عادتِهم بتلك البلاد مع الآباء والأولاد بل والأجداد والأحفاد»(١).

وعندما يتحدَّثُ صاحبُ «نفح الطيب» عن أسباب سقوط ذلك القطر «غرناطة» يقول «وكلُّ ذلك من اختلاف رؤسائه وكُبَرائه، ومُقَدَّميه وقُضاته وأُمرائه ووزرائه، فكلٌّ يروم الرياسة لنفسه، ويجرّ نارَها لقُرْصه، والنصارى يُضَرِّبون بينهم بالخداع والمكر والكيد ويَضْرِبون عمْراً منهم بزيد، حتى تمكّنوا من أخذ البلاد والاستيلاء على الطارِفِ والتِلاد»(٢).

---

(١) ـ الروض الباسم ٣٢٧.

(٢) ـ نفح الطيب ٤ / ٥٠٧.

سيرة المؤلف

سيرة المؤلف

أ ـ اسمه وألقابه:

هو: أبو يحيى محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن عاصم القيسي الغرناطي الأندلسي المالكي[1]، كان يعرف بـ «قاضي الجماعة»[2] وهو أشهر ألقابه، إلا أن ألقاباً كثيرة أُخرى وردت في المصادر المختلفة، فمن ذلك ما أورده صاحب نيل الابتهاج: «. . . . أبو يحيى العلاّمة الحافظ النظار الوزير الجليل الرئيس المعظّم الكاتب الخطيب البليغ الشاعر الفصيح الجامع الكامل»[3].

ومن ذلك أيضاً ما أضفاه أبو العباس المقّري الذي يقول فيه «هو الإمام العلاّمة الوزير الرئيس الكاتب الجليل البليغ الخطيب الجامع الكامل الشاعر المفلق الناثر الحجة خاتمة رؤساء الأندلس بالاستحقاق ومالك خدم البراعة بالاسترقاق»[4].

ويقـول فيه أيضاً «الرائس القاضي العلاّمة الكاتب الوزير»[5]. ويسميه أيضاً «الوزير الرئيس الكاتب»[6]. ويسميه «الشيخ الإمام العلاّمة الفقيه الوزير

---

(١) ـ نيل الابتهاج ٣١٣، طبقات المالكية / مجهول ص ٤٣٨، هدية العارفين ٢ / ١٩٩، نفح الطيب ٦ / ١٤٨، أزهار الرياض ١ / ١٤٥، شجرة النور الزكية ١ / ٢٤٨. وفي ايضاح المكنون ١ / ٣٦٩ يضيف المؤلف عبارة «القرشيّ» إلى اسم ابن عاصم.

(٢) ـ المصادر السابقة.

(٣) ـ نيل الابتهاج ٣١٣.

(٤) ـ نفح الطيب ٦ / ١٤٨، أزهار الرياض ١ / ١٤٥.

(٥) ـ نفح الطيب ٤ / ٥٠٧.

(٦) ـ نفسه ٦ / ١٤٦.

الكـاتب»[1]. ويسميه في مكـان آخـر: «السيد الأستـاذ العلم الصدر المفتي القاضي رئيس الكتاب»[2].

ومن الألقـاب التي أضفـاهـا عليه مؤلف «شجـرة النور الزكية» قوله فيه «قـاضي الجمـاعـة الأستـاذ المحقّق العالم الحافظ النظّار المتحلي بالجلال والوقار، نخبة الأعيان، فريد العصر والأوان فصيح القلم واللسان، المتفنن، العمدة، الشهير، الوزير الخطير»[3].

ويلاحظ في هذه الألقاب أن معظمها مستمد من الوظائف التي تولاها ابن عاصم كالقضاء والوزارة والخطابة والكتابة والإفتاء والتدريس والإمامة وغيرها.

ب ـ مولده:

لم ينصّ أيُّ مصدرٍ من المصادر التي تحدَّثَتْ عن ابن عاصمٍ على تاريخ ولادته. ولكنْ بالاستفادةِ من بعض المعطيات التاريخية التي أوردها ابن عاصم في كتابه «جنّة الرضا» يمكننا تحديد زمن تقريبي لتاريخ ولادته.

ومن هذه المعطيات قوله في «جنّة الرضا» في أثناء حديثه عن سجن والده أبي بكر بن عاصم سنة ٨١٤ هـ ما يلي:

«وكنتُ إذْ ذاكَ في زمنِ الحَداثة وعَدَمِ استحكام العقل»[4]، ولكنه في حديثه عن هربه واختفائه من أرباب الأمر[5]، أثناء سجن والده في السنّ المذكور يولّد لدى الباحث انطباعاً بأنه لم يكن حَدَثاً بالمعنى الدقيق، فهربُه واختفاؤه من السلطان يدلُّ على أنه كان في سنّ يجعل السلطان يحسب له حساباً، كما أن مبالغته في التخفّي وحرصَه على عدم افتضاح أمره يدلّان على أنه كان بالغاً وأهلاً

(١) ـ أزهار الرياض ١ / ٥٠.

(٢) ـ نفسه ١ / ١٤٦.

(٣) ـ شجرة النور الزكية ١ / ٢٤٨.

(٤) ـ جنة الرضا، ص ٢٢٦ من الأصل المخطوط.

(٥) ـ نفسه ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧، ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩.

لتحمُّل المسؤولية، كما أن وصفه لصاحبه الذي آواه يدلُّ على أن ذلك الصاحب كان شاباً ناضجاً ولا يمكن أن يكون بين ابن عاصم وبين هذا الصاحب كبيرُ فرق في السن. ولعل وصفَ ابن عاصم نفسَه بحداثة السن وعدم استحكام العقل هو من قبيل التواضع ـ على عادته فيما يصف به نفسه ـ.

ومن هذه المعطيات يمكن تقدير سنّ ابن عاصم عندما جرى سجن والده بين الخامسة عشرة والعشرين.

وفي مكان آخر من كتابه «جنّه الرضا» يقولُ ابنُ عاصم: «ولقد رأيتُ في عالَمِ النوم الشيخَ أبا اسحق الشاطبيّ ـ رحمه الله ـ ولم أُدْرِكْهُ بسنّي»[1].

ونفهم من هذا القول أن ابن عاصم أضاف عبارة «ولم أدركه بسنّي» لكي ينفي ما قد يتوهمه المرء ـ سن معاصريه أو غير معاصريه ـ من أن ابن عاصم قد أدركَ الشيخَ الشاطبي، وهذا يدلُّ على أن ابن عاصم كان في سنٍّ تجعل الوَهْمَ بأنه أدركَ في حياته أبا اسحق الشاطبي ممكن الوقوع، ولذلك فإنّ ولادته لو تقدمت قليلاً لأدركَ الشاطبيَّ. ومعنى ذلك ـ وهذا ما يوحي به نصُّ ابنِ عاصم ـ أن المؤلف كاد أن يُدْرِكَ الشاطبي، وأنه على ذلك وُلِدَ بعد وفاة الشاطبيّ بقليل. والمعروف أن الشاطبي توفي سنة ٧٩٠ هـ[2] وعلى ذلك فإن ولادة ابن عاصم كانت بعد ٧٩٠ هـ. وإذا كانت سنه عند سجن والده سنة ٨١٤هـ تتراوح بين ١٥ ـ ٢٠ سنة، فإنه بذلك يترجَّحُ أن ولادته كانت بين ٧٩٤ هـ ـ ٧٩٩ هـ.

---

(١) ـ جنة الرضا ص ٣١ من الأصل المخطوط.

(٢) ـ الشاطبي هو أبو اسحق ابراهيم بن موسى بن محمد اللخمي كان يلقب بناصر السنة، وكان أصولياً مفسراً فقيهاً لغوياً، على قدم راسخ من الورع، وكان حريصاً على السنّة، أخذ عن الفخار الإلبيري وأبي القاسم السبتي وأبي القاسم بن لب. له مؤلفات شهيرة منها: الموافقات، الافادات والإنشادات، الاعتصام. أخذ عنه أئمة كثيرون. وتوفي سنة ٧٩٠ هـ (انظر ترجمته في نيل الابتهاج ٤٦ ـ ٥٠، برنامج المُجاري ١١٦ ـ ١٢٢، درّة الحجال ١ / ١٨٢).

جـ - بنو عاصم :

ينتمي أبو يحيى بن عاصم إلى أسرةٍ مرموقةٍ في غرناطة كان لها دور بارز في النشاطات العلمية والأدبيةِ والسياسيةِ في عصر بني الأحمر، وقد أورد لنا أبو العباس المقّري في كتابيه نفح الطيب وأزهار الرياض نَصَّ ظهيرٍ سلطاني أُصدِر لأبي يحيى بن عاصم بتقديمه للنظر في أمور الفقهاء والقضاة سنة ٨٥٧ هـ. وقد جاء في بعض فُصولِ هذا الظهير إشارةٌ إلى الدور الثقافي الذي اضطلع به بنو عاصم في غرناطة، حيث نقرأ ما يلي: «ألا وإنّ بيتَه هو البيتُ الذي طَلَعَ في أُفقِه كلُّ كوكبٍ وقّاد ممن رَسَخَ به للعلوم اتّقاء واتّقاد، وترامى به للمداركِ ذكاءٌ وانتقاد، فأعظِمْ بهم أعلاماً وصُدوراً، وأهلّةً وبُدورا، خَلَّدَتْ ذكرَهُم الدواوينُ المسطرة، وَسَرَتْ في محامدِهم الأنفاسُ المعطّرة.. إلخ»[1].

وفي أبيات قصيدة أبي عبد الله محمد بن علي بن الأزرق المتوفى ٨٩٥ هـ في مدح أبي يحيى بن عاصم - صاحب جنّة الرضا - إشارةٌ إلى بيت بني عاصم حيث يقول[2]:

بيتٌ على عَمَـدِ الـفخـارِ مُطَنَّبٌ ... مَجْـدٌ على مَتْنِ السِمـاك مُؤسَّسُ

وقد كتب لويس سيكو دي لوثينا بارديس مقالة بعنوان: [3]

Luis Seco de Lucena Paredes

«Los Banu Asim intelectuales Y

Politicos Granadinos Del Siglo XV».

«بنـو عاصم العلمـاء والسياسيون الغرناطيون في القرن الخامس عشر» تحدث فيها عن أعلام هذه العائلة مشيراً إلى نشاطاتهم العلمية والسياسية.

ومن أعلام هذه الأسرة، أبو عبد الله محمّد بن محمّد بن عاصم بن محمد ابن أبي عاصم القيسي، وهو خالُ الشاعر الغرناطي الشهير ابراهيم بن عبد الله

(١) - نفح الطيب ٦ / ١٥٨، أزهار الرياض ١ / ١٧٥.

(٢) - أزهار الرياض ٣ / ٣٢١.

(٣) - نشرت في مجلة Miscelanea de estudios arabes Y hebraices, Vol. 2, 1953, PP. 5 - 14.

ابن الحاج النميري الذي كان حيّاً سنة ٧٦٨ هـ[١]، وقد رثاه ابن أخته ابنُ الحاجّ النميري في قصيدة طويلة تدلُّ على أن ابن عاصم هذا كان فارساً وعالماً[٢]. ونفهم مما جاء في كتاب نيل الابتهاج[٣] أن خالد بن عيسى البلوي (ت. قبل ٧٨٠ هـ) صاحب الرحلة[٤]، أخذ العلم في غرناطة عن ابن عاصم هذا.

ومن أعلام هذه الأسرة أيضاً القائدُ العالِمُ أبو يحيى محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن عاصم المعروف بالشهيد، لأنه استشهد في انتقيرة سنة ٨١٣ هـ أثناء قيادته لجيش المسلمين فيها. وأبو يحيى هذا هو عمُّ مؤلف «جنّة الرضا» وأحد شيوخه. وكان أبو يحيى هذا فقيهاً وخطيباً وكاتباً وصاحباً للأحكام في غرناطة، أخذ العلمَ عن أبي اسحق الشاطبي (ت. ٧٩٠ هـ) وعن شيخ الشيوخ أبي سعيد فرج بن قاسم بن لُبّ (٧٠١ ـ ٧٨٢ هـ) وغيرهما، وله تأليف كبير في الانتصار لشيخه أبي اسحق الشاطبي والردّ على شيخه أبي سعيد بن لُبّ في مسألة الدعاء بعد الصلاة. أخذ عنه عدد من علماء غرناطة، منهم أبو عبد الله المُجاري المتوفّى سنة ٨٦٣ هـ[٥].

---

(١) ـ نثير فرائد الجمان ٣١٣ ـ ٣١٨.

(٢) ـ انظر هذه القصيدة في نثير فرائد الجمان ص ٣١٤ ـ ٣١٨.

(٣) ـ نيل الابتهاج ص ١١٥.

(٤) ـ حققها وقدم لها: العلامه الحسن السائح، وطبعت في جزئين بإشراف اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين حكومة المملكة المغربية وحكومة دولة الإمارات العربية المتحدة.

(٥) ـ انظر ترجمة أبي يحيى بن عاصم الشهيد في برنامج المُجاري ص ١٢٦، ولقط الفرائد ٢٣٧، وفيات الونشريسي ١٣٧، درّة الحجال ٣ / ٣٤٣، نيل الابتهاج ٤٩، ٢٢٠، ٢٦٦، ٢٨٥ المعيار المعرب ٣ / ٢٤٣، ٤ / ٢٠٦، نفح الطيب ٥ / ٥١٣ ـ ٥١٤، شجرة النور الزكية ١ / ٢٤٧. وله ترجمة في مخطوطة «مظهر النور الباصر» في الخزانة العامة بالرباط. رقم ٢٣ / ٢ وانظرْ ما كتبه عنه لويس سيكودي لوثينا باريدس في مقالته عن بني عاصم، وله أيضاً مقالة يعرف فيها بابن عاصم الشهيد تحت عنوان: «Una hazana de Ibn Asim identificada» في مجلة الأندلس Al - Andalus مجلد ١٨ / ١٩٥٣م ص ٢٠٩ ـ ٢١٠. وذكره أيضاً ابن إياس في بدائع الزهور وسماه عالم الأندلس (بدائع الزهور ج١ ق ٢ ص ٨١٢).

ومع أن بعض المصادر تذكر أن أبا يحيى بن عاصم الشهيد هو عمّ مؤلف «جنّة الرضا»[١] إلا أن صاحب «جنة الرضا» ينصُّ في هذا الكتاب نصّاً صريحاً على أن أبا يحيى بن عاصم الشهيد هو ابن عم والده[٢]. ولئن كان صاحبُ نيل الابتهاج في ترجمته لأبي يحيى بن عاصم، ينقل من تقييدٍ لمؤلف جنّة الرضا، حيث يقول صاحب التقييد «وكان عمي أبو يحيى. . . »[٣] فإنني لا أستبعد أن يكون وصفه بأنه عمه لأنه في مكانة عمه من حيث السن والقرابة، فابن عمّ الأب يُخاطَبُ في أغلب الأحيان على أنّه عم. كما أنني أستبعد أن يكون اسم الأب: محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن عاصم وأن يكون اسم العم (أخي الأب) محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن عاصم، وأن يكون الاختلاف بينهما في الكنية فقط.

أما والد أبي يحيى بن عاصم ـ مؤلّف جنّة الرضا ـ فهو أبو بكر محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن عاصم الغرناطي، قاضي الجماعة في غرناطة، ولد عام ٧٦٠ هـ وتوفي عام ٨٢٩ هـ. عُيّن سنة ٧٩٤ هـ كاتباً في الديوان مدة عام واحد[٤]، ثم رجع إليه مرة اخرى وبرّز في ذلك، وقد نبّه إلى ذلك الظهيرُ السلطانيُّ الذي قُدِّم بموجبه ابنه أبو يحيى بن عاصم للنظر في شؤون الفقهاء سنة ٨٥٧ هـ حيث نصّ على ما يلي: «إذْ كان والدُه المقدَّسُ ـ نعّم الله ثراه ومنحه السعادةَ في أُخراه ـ مُشَرِّفَ ذلك الديوانِ ومُعْلِيَ ذلك الإيوان، يحبِّرُ رِقاعَ المُلْكِ فتروق، وتلوح كالشمسِ عند الشروق»[٥].

ويحدِثُنا أبو يحيى بنُ عاصم ـ في كتابه جنّة الرضا ـ أن والده قد تعرّض

---

(١) ـ نيل الابتهاج ٤٩، ٢٨٥، شجرة النور الزكية ١ / ٢٤٧.
(٢) ـ جنة الرضا ص ٢٢٧ من الأصل المخطوط.
(٣) ـ نيل الابتهاج ص ٢٨٥.
(٤) ـ نفح الطيب، ٧ / ١٦٩، أزهار الرياض ٢ / ١٩.
(٥) ـ نفح الطيب ٦ / ١٥٩، أزهار الرياض ١ / ١٧٦.

للاعتقال الطويل الأمد، سنة ٨١٤ هـ[١]، ولكنه لم يبيّن لنا سبب ذلك السجن.

ويصف أبو بكر بن عاصم اعتقاله هذا قائلاً: [٢]

أَوْدَعوني تَحْتَ الثَّرى ونَسُوني ... فمُقامي فيه مُقامٌ طويلُ

أنا حيٌّ وحالتي حالُ مَيْتٍ ... ليتَ شِعْري هلْ للخروجِ سَبيلُ

راحةُ النفسِ زَوْرةٌ من خَليلٍ ... أو كتابٌ وأينَ أينَ الخليلُ؟!

إنْ أرَتْني الأيامُ غيرَ جميلٍ ... وأحالَتْ حالي فَصَبْرٌ جميلُ

أو دَهَتْني الخطوبُ فالله حَسْبي ... مِنْ جميعِ الوَرى ونِعْمَ الوكيلُ

وكان عالماً في الفقه والأحكام واللغة والبلاغة والنحو والمنطق والعرُوض والقراءات والحساب والفرائض، وكان ناثراً وناظماً ويتقن تجليدَ الكُتب وتذهيبَها[٣]، وقد أخذ العِلْمَ عن شيخ الشيوخ أبي سعيد فرج بن لُبّ مفتي غرناطة[٤]، وأبي عبد الله القيجاطي الملقب بإمام الأدباء[٥]، وأبي اسحق الشاطبي المعروف بناصر السنة[٦]، وقاضي الجماعة أبي عبد الله بن علاّق[٧]

---

(١) ـ جنة الرضا ص ٢٢٦ من الأصل المخطوط.

(٢) ـ نفسه، ٢٢٦.

(٣) ـ نيل الابتهاج ٢٨٩.

(٤) ـ هو أبو سعيد فرج بن قاسم بن أحمد بن محمد بن لُبّ، الفقيه الغرناطي المشهور، كان يلقب بشيخ الشيوخ، قل من لم يأخذ عنه في الأندلس في وقته. ولد سنة ٧٠١ هـ وتوفي سنة ٧٨٢ هـ. (نيل الابتهاج ٢١٩، الديباج المذهب ٢٢٠؛ برنامج المُجاري ١٢٦، فهرس المنتوري ١١٢، درّة الحجال ٣ / ٢٥٦ ـ ٢٦٨، نفح الطيب ٥ / ٥١٣، الكتيبة الكامنة ٦٧، الاحاطة ٤ / ٢٥٣).

(٥) ـ أبو عبد الله محمد بن علي بن ابراهيم الكناني القيجاطي، ولد سنة ٧٣٠ هـ وتوفي سنة ٨١١ هـ (نيل الابتهاج ٢٨٢، درّة الحجال ٢ / ٢٨٤، فهرس المنتوري ١١٣، وفيات الونشريسي ١٣٧).

(٦) ـ سلفت الترجمة به.

(٧) ـ أبو عبد الله محمد بن علي بن قاسم بن علي بن علاّق الأمي الأندلسي الغرناطي حافظها ومفتيها وخطيبها وقاضي الجماعة بها، أخذ عن جماعة كالمنتوري والقاضي ابن سراج وأبي بكر=

وعن خاليه أبي بكر أحمد بن أبي القاسم بن جُزَيّ[1]، وأبي محمد عبد الله بن أبي القاسم بن جُزيّ[2]. كما أخذ الشيخ أبو بكر بن عاصم والدُ المؤلّف عن الشريف أبي محمد عبد الله بن الشريف أبي عبد الله محمد التلمساني[3]، وأبي اسحق ابراهيم بن الحاج النميري[4]، وأبي الحسن علي بن محمد بن منصور الأشهب[5]، وأبي عبد الله محمد بن علي البلنسي[6]، ومحمد بن علي بن

= ابن عاصم، توفي سنة ٨٠٦ هـ (نيل الابتهاج ٢٨٢، لقط الفرائد ٢٣٣؛ درة الحجال ٢ / ٢٨٣، الضوء اللامع ٨ / ١٩٦؛ وفيات الونشريسي ١٣٥).

(١) ـ هو أحمد بن أبي القاسم محمد بن جزي الغرناطي، ولد سنة ٧١٥ هـ عمل قاضياً بغرناطة وخطيباً لمسجد السلطان وله شعر، وتوفي سنة ٧٨٥ هـ (الكتيبة الكامنة ١٣٨، الإحاطة ١ / ١٥٧).

(٢) ـ أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد بن جزيّ الكلبي من أهل غرناطة، شاعر وعالم باللغة ولي القضاء ببعض جهات غرناطة، (الإحاطة ٣ / ٣٩٢ ـ ٣٩٩، نيل الابتهاج ١٥٤، نفح الطيب ٥ / ٥٤٠، الكتيبة الكامنة ٩٦).

(٣) ـ أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد الشريف التلمساني الحسني (٧٤٨ ـ ٧٩٢ هـ) كان من أكابر علماء تلمسان، وكان مقرباً من السلاطين ومحبوباً من طلبته، وكان عالماً بالفتاوى واللغة والشعر، رحل إلى الأندلس ودخل غرناطة وأقرأ هناك، وتوفي أثناء انصرافه من مالقة إلى تلمسان غريقاً في البحر، وأثناء إقامته بالأندلس أخذ عنه عدد من علمائها منهم أبو بكر ابن عاصم (ترجمته في نيل الابتهاج ١٥٠ ـ ١٥٤؛ البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان ١١٧ ـ ١٢٠).

(٤) ـ أبو اسحق ابراهيم بن عبد الله بن محمد النميري يعرف بابن الحاج، شاعر غرناطي مشهور ولد بغرناطة سنة ٧١٣ هـ، تولى كتابة الإنشاء في غرناطة سنة ٧٣٤ هـ، وله عدد من المؤلفات، منها رحلته الموسومة بفيض العباب وإجالة قداح الآداب في الحركة إلى قسنطينة والزاب. وقع سنة ٧٦٨ هـ أسيراً أثناء توجهه إلى تلمسان بالبحر. (الإحاطة ١ / ٣٤٢ ـ ٣٦٣؛ نيل الابتهاج ٤٤؛ نفح الطيب ٧ / ١٠٩؛ نثير فرائد الجمان ٣١٣، الكتيبة الكامنة ٢٦٠).

(٥) ـ توفي بفاس وكان أرسل إليها من تلمسان عام ٧٩١ هـ، وممن أخذ عنه بالأندلس أبو بكر بن عاصم وأبو جعفر البقني وغيرهما (نيل الابتهاج ص ٢٠٥، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان ١٤٣ ـ ١٤٤).

(٦) ـ نيل الابتهاج ٢٩٠.

الحفار الغرناطي[1] وغيرهم.

ولأبي بكر بن عاصم عدد من المؤلفات في موضوعات شتى، ومن هذه المؤلفات أرجوزة تحفة الحكام في نكت العقود والأحكام[2]، وأرجوزة مَهْيَع الوصول في علم الأصول «أصول الفقه»، ومرتقى الأصول في الوصول، ورجز نَيْل المنى في اختصار الموافقات، وقصيدة ايضاح المعاني في قراءة الداني، (أو إيضاح المعاني في القراءات الثماني) وقصيدة الأمل المرقوب في قراءة يعقوب، وقصيدة كنز المُفَاوِضْ في علم الفرائض، وقصيدة إيضاح الغوامض في علم الفرائض، وأرجوزة الموجز في النحو (حاذى بها رجز ابن مالك) وكتاب حدائق الأزاهر في مستحسن الأجوبة المضحكة والحكم والأمثال والحكايات والنوادر[3]. وكان أبو بكر هذا واحداً من شيوخِ أبي يحيى ـ صاحب جنّة الرضا[4].

أما عن أولاد أبي يحيى بن عاصم ـ مؤلّف جنّة الرضا ـ فلسنا نعرف عن أسمائهم أو عددهم شيئاً، وكلُّ ما نعلمه أنّه كانت له زوجة وأطفال صغار خلّفهم في غرناطة عندما هرب إلى مدينة مالقة سنة ٨٤٩هـ على إثر قيام إحدى الثورات في غرناطة، حيث يقول: «ولكنني لم أرَ موقفاً أشجى لوعةً ولا أعظم لي على من خلّفتُ روعةً مَن موقفي بطرف الفحص الأفْيَح المسمّى بالكنب جاغر ملتفتاً خلفي ومودّعاً مع أصاغر الذرية قلبي...»[5].

---

(١) ـ توفي عام ٨١١ هـ (ترجمته في نيل الابتهاج ٢٨٢).

(٢) ـ لها طبعات كثيرة عربية وأوروبية.

(٣) ـ طبع بفاس طبعة حجرية. وقد أنهى الدكتور عفيف عبد الرحمن تحقيقه وهو قيد النشر.

(٤) ـ ترجمة أبي بكر بن عاصم في: نيل الابتهاج ٢٨٩ ـ ٢٩٠، توشيح الديباج ١٢٦ ـ ١٢٧ (تحت اسم عمر بن عاصم)، درّة الحجال ٣ / ٨٩ (تحت اسم: عبد الرحمن بن عوف بن عاصم)، ١ / ٢١٩ (حيث يذكر أن وفاته سنة ٨١٩ هـ)، لقط الفرائد ٢٤٣. (يسميه: أبو بكر عبد الرحمن بن عوف بن عاصم)؛ كشف الظنون ١ / ٣٥٦، هدية العارفين ٢ / ١٨٥، نفح الطيب ٥ / ١٩ ـ ٢٢؛ شجرة النور الزكية ١ / ٢٤٧.

(٥) ـ جنة الرضا ١٩٥ ـ ١٩٦ من الأصل المخطوط.

ولأبي يحيى بن عاصم تقييدٌ عرّف فيه بأهـل بيته نَقَل منه صاحبُ نيل الابتهاج، ولو وصل إلينا هذا الكتاب لقدّم لنا بغض ما نجهله عن بيت بني عاصم[1].

د ـ شيوخه :

أما شيوخ أبي يحيى بن عاصم فكثيرون؛ وقد ذكرت المصادرُ جماعةً منهم هم: أبو الحسن بن سمعة وأبو القاسم بن سرّاج وأبو عبد الله المنتوري وأبـو عبد الله البيّاني، والشريف أبو جعفر بن أبي القاسم السبتي[2]، أما ابن سمعـة فهو أبو الحسن علي بن محمد بن سمعة الأندلسي الغرناطي العلّامةُ المحقِّقُ الإمـامُ الفقيه النحـوي، أخذ عنه أبو يحيى بن عاصم ونقل عنه في مواضع من شرحه لمنظومة والده في الأحكام، ومن الذين أخذوا عنه أيضاً أبو عبد الله الراعي، الذي نقل عنه قوله: (شيئان لا يصِحّان: توبةُ الزمخشريّ من الاعتزال وإسلامُ ابراهيم بن سهل الإسرائيلي)، وذُكِرَ عنه أيضاً أنه كان لا ينطق بكلامٍ فيه فُحْش وأنه متى وجده في شعر بدّله[3].

أما ابنُ سرّاج فهو قاضي الجماعة بغرناطة أبو القاسم محمد بن يوسف ابن سرّاج الأندلسي الغرناطي، كان بارعاً في علوم كثيرة وأخذ عن شيخ الشيوخ ابنِ لُبّ وعن الأستاذ الحفّار والقاضي ابنْ علّاق، له فتاوى كثيرة توجد جملة وافـرة منهـا في المعيار المعـرب للونشـريسي، رحـل إلى تلمسـان ثم رجـع للأندلس، وأخذ عنه جماعةٌ من الأئمة الكبار منهم أبو يحيى بن عاصم وأبو عبد الله السـرقسـطي وابـراهيم بن فَتُّـوح والعـلّامـة الـراعي وأبو عمرو بن منظور

---

(١) ـ انظر نيل الابتهاج ص ٢٨٥، ٢٨٩.

(٢) ـ ذكرت هذه الأسماء مجتمعة في نيل الابتهاج ٣١٣؛ نفح الطيب ٦ / ١٤٨، أزهار الرياض ١ / ١٤٥؛ طبقات المالكية لمجهول ص ٤٣٨، شجرة النور الزكية ١ / ٢٤٨.

(٣) ـ انظر ترجمته في نيل الابتهاج ٢٠٧، نفح الطيب ٣ / ٥٢٤، وقد يرد اسمه بالتاء المفتوحة (ابن سمعت).

والمـوّاق[1]. ووقعت بينـه وبين عليّ بن موسى بن عبد الله اللخميّ البسطيّ القـربـاقي نزاعـاتٌ في مسـائلَ منها مسألةُ جوامعِ الأندلس المستقبِلة لجهه الجنوب[2]. وقد تعرّض ابنُ سرّاج للعزْل عن قضاء الجماعة أيام ثورة يوسف بن المول سنة ٨٣٥ هـ، ثم أُعِيدَ إليها[3]، وبعد قيام ثورة أبي الحجاج يوسف بن أحمد بن نصر سنة ٨٤٩ هـ تعرض أبو القاسم للاعتقال والسجن[4].

ويورد ابنُ عاصم في كتـابه «جنّة الرضا» أكثر من مرة قيام أبي القاسم المذكور بقيادة جيش غرناطة وتحقيق الانتصارات على القشتاليين[5]، واختلف في تاريخ وفاته، ففي الضوء اللامع للسخاوي أنّه توفّي سنة ٨٤٢ هـ[6]، وفي لقط الفرائد لابن القاضي أن وفاته كانت سنة ٨٤٧ هـ[7]، وفي مصادر اخرى أنه توفي سنة ٨٤٨ هـ[8]، بينما نلاحظ فيُ تواريخ الحملات العسكرية التي قادها أبو القاسم بن سرّاج ضد قشتالة أنّ بعضها قد وقع بين سنتي ٨٤٩ هـ و ٨٥٢ هـ[9].

وأما المنتوري فهو أبو عبد الله محمد بن عبد الملك بن علي بن عبد الملك القيسي المنتوري إمام الإقراء المتوفّى سنة ٨٣٤ هـ. أخذ عن أبي عبد الله القيجاطي وأبي سعيد بن لُبّ وغيرهما. وأخذ عنه أبو يحيى بنُ عاصم ونقل

(١) ـ انظر نيل الابتهاج ٣٠٨، ثبت البلوي ١٨٦، ١٨٩، ١٩٠. (تحت اسم: محمد بن محمد بن سراج)، توشيح الديباج ٢٦٨.

(٢) ـ نيل الابتهاج ٢٠٧.

(٣) ـ جنة الرضا ٤٥ ـ ٤٦

(٤) ـ نفسه ص ١١٠ ـ ١١١، ص ٢٧٠.

(٥) ـ جنة الرضا ١٥٢، ٢٧٤.

(٦) ـ الضوء اللامع ٧ / ٢٤٨ (تحت اسم محمد بن سراج بن محمد بن سراج أبو القاسم بن سراج عالم الأندلس).

(٧) ـ لقط الفرائد ٢٥١.

(٨) ـ نيل الابتهاج ٣٠٨، وفيات الونشريسي ١٤٣، درّة الحجال ٣ / ٢٨٢.

(٩) ـ جنة الرضا ١١٠ ـ ١١١، ١٥٢، ٢٧٠، ٢٧٤.

عنه في مواضع من شرح التحفة[١]، وله فهرسة كبرى[٢].

وأما البيّانيّ فهو أبو عبد الله محمد بن محمد المتوفّى سنة ٨٧٦ هـ تلميذُ الإمـام أبي اسحق الشـاطبي، كان عالمـاً بالفقه والعربية والتفسير والقراءات والطبّ والرياضيات، ولي قضاءَ مدينةِ بَسْطة على كُرْه منه، وقام بأعباء الخَطابةِ والإمامة والإقراء والتدريس، أخذ عنه الوزير أبو يحيى بنُ عاصم ونقل عنه في شرح التُّحفة. وممن أخذ عنه أيضاً الشيخ أبو الحسن عليُّ بن محمد القَلَصادِيّ المتوفَّى سنة ٨٩١ هـ بِبَسْطة[٣].

وأما أبو جعفر التلمسانيّ الشريف فهو أبو جعفر وأبو العباس أحمد بن أبي القـاسم محمّـد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله الشريف الحسنيّ السبتيّ ثم الغرناطي، أخذ عنه أبو يحيى بن عاصم ونقل عنه في مؤلفاته حيث يقول: «حَكَى لي شيخُنا القاضي أبو العباس الحسني»[٤]، و «حدثني شيخنا القاضي أبو العباس أحمد بن أبي القاسم الحسني[٥]»، وأشار إليه ابن عاصم في «جنّة الرضا» وقال عنه «شيخنا القاضي أحمد بن قاضي الجماعة وخطيب الحضرة العلية أبي القاسم الحسني[٦]. ولم أقف على تاريخ وفاته»[٧].

ومن شيوخ أبي يحيى بنِ عاصم أيضاً أبو عبد الله محمد بن محمد بن

(١) - انظر ترجمته في نيل الابتهاج ٢٩١، توشيح الديباج ٢٠٧، درّة الحجال ٢ / ٢٨٧، شجرة النور الزكية ١ / ٢٤٧.

(٢) - ذكرت في درّة الحجال ٢ / ٢٨٧. وتوجد منها نسخة مخطوطة في الخزانة الملكية بالرباط تحت رقم 1578

(٣) - نيل الابتهاج ٣٠٨، رحلة القلصادي ٨٥، الضوء اللامع ٦ / ١٤، البسطي آخر شعراء الأندلس ص ٢٢ - ٢٥ (ترجمة له معتمدة على ديوان عبد الكريم القيسي).

(٤) - نفح الطيب ٦ / ٢٧.

(٥) - نفح الطيب ٦ / ١٤٧.

(٦) - جنة الرضا ص ٤٦ - ٤٧ من الأصل المخطوط.

(٧) - ترجم له في نيل الابتهاج ص ٧٦ وذكره ابن خلدون في التعريف ص ٨٤.

علي بن عبد الواحد المُجاري المتوفّى سنة ٨٦٢ هـ، عالِمٌ في التجويد والقراءات ورحّالةٌ غرناطي[1] وله برنامج يَذْكُرُ فيه شيوخَه[2]، وقد ذكره ابن عاصم في «جنّة الرضا» وسماه «الشيخ الأستاذ»[3].

ومن شيوخ ابن عاصم أيضاً محمَّـدُ بنُ عليّ بن عبد الملك الإلبيري الغرناطي شُهِر بابن مليح، قاضي غرناطة، نَقَلَ عنه ابنُ عاصم في شرحه على تحفة الحكام. وتوفي بعد سنة ٨٣٢ هـ[4].

هـ ـ معاصروه وأقرانه:

تَذْكُرُ المصادرُ أسماءَ عددٍ من علماء غرناطة الذين عاصرهم ابنُ عاصم وكان على صِلةٍ بهم، ولعلَّ أشهرَ هؤلاء العلماء أبو اسحق ابراهيم بن أحمد بن محمد بن فَتُّوح العقيليّ المتوفى سنة ٨٦٧ هـ. كان عالماً أصولياً منطقياً إماماً خطيباً مفتياً ومدرساً في المدرسة النصريّة في غرناطة[5]. ترجم له ابن عاصم في كتاب «الروض الأريض» وقال[6]: «وكان صاحبنا أبو اسحق عالماً متفنناً محققاً نظاراً، وأستاذاً فوائدُ تدريسه لُجَيْنٌ ونضار، كلا بل جواهرُ ويواقيتُ ومناسك»... الخ.

---

(١) ـ ذكره البلوي في ثبته ص ١٦٤، ١٨٣، ١٩٠، ١٩٩، وصفحات أخرى. وترجم له السخاوي في الضوء اللامع ٤ / ١٨ وانظر في برنامج المُجاري، مقدمة المحقق ص ٣٢ وما بعدها.

(٢) ـ حققه محمد أبو الأجفان / دار الغرب الإسلامي / بيروت / ١٩٨٢م.

(٣) ـ جنّة الرضا ص ٣٢.

(٤) ـ نيل الابتهاج ص ٢٩١.

(٥) ـ انظر ترجمته في: نيل الابتهاج ٥٣ ـ ٥٤، رحلة القلصادي ١٦٦، ثبت البلوي ١٨٨، ١٩٠، توشيح الديباج ٤٩، الضوء اللامع ١ / ٣٠، ١٥٧، نفح الطيب ٢ / ٧٠٠، أزهار الرياض ١ / ١٧١، شجرة النور الزكية ١ / ٢٦٠، درّة الحجال ١ / ١٩٦.

(٦) ـ أزهار الرياض ١ / ١٧١.

ومنهم: أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد الأنصاري السرقسطي الغرناطي (٧٨٤ ـ ٨٦٥ هـ) من كبار المفتين في غرناطة، وكانت بينه وبين أبي يحيى بن عاصم مراجَعات ومنازَعات في مسائلَ فقهية مع التزام كلٍّ منهما حُسْنَ الأدب مع صاحبه شأن سادات العلماء[١]. وهنالك عدد من العلماء الذين شاركوا ابن عاصم في الأخذ عن شيوخه، ومن هؤلاء العلماء عليٌّ بن أحمد بن داود البلوي (المتوفّى بعد ٨٦٦ هـ)[٢] وابراهيم بن محمد بن ابراهيم بن محمد البدوي[٣]، وعلي بن محمد القَلَصادي (توفي ٨٩١ هـ)[٤] وأبو عبد الله محمد ابن محمد بن محمد بن اسماعيل الراعي النحوي (توفي ٨٥٣ هـ)[٥]، والشاعر محمد بن عبد الكريم القيسي البسطي[٦] وغيرهم.

و ـ تلاميذه:

لم تذكر لنا المصادرُ إلّا عدداً قليلاً من أسماء تلاميذ أبي يحيى بن عاصم؛ ومن أشهر هؤلاء التلاميذ أبو عبد الله محمد بن علّي بن محمد بن الأزرق الغرناطيّ الأصل المالكي الأصبحي المتوفى سنة ٨٩٥ هـ، لازم ابراهيمَ بن أحمد بن فتوح مفتي غرناطة في النحو والفقه والمنطق، وحضر مجالسَ أبي عبد الله محمد بن محمد السرقسطي في الفقه وغيره. كما أخذ عن قاضي الجماعة أبي يحيى بن عاصم وجالسه كثيراً وانتفع به. ووليَ قضاء غربيّ مالقة في أيام سعد بن علي بن يوسف بن نصر، ثم قضاءَ مالقة نفسِها، ثم قضاءَ

(١) ـ أزهار الرياض ١ / ١٤٥، شجرة النور الزكية ١ / ٢٤٩، وانظر ترجمته في رحلة القلصادي ١٦٤، نيل الابتهاج ٣١٤ ـ ٣١٥، نفح الطيب ٢ / ٦٩٩، شجرة النور ١ / ٢٦٠.

(٢) ـ توشيح الديباج ١٣٠.

(٣) ـ نيل الابتهاج ٥٣.

(٤) ـ نيل الابتهاج ٢١٠؛ الضوء اللامع ٥ / ٣٣٠، شجرة النور ١ / ٢٦١.

(٥) ـ وفيات الونشريسي ١٤٤؛ نيل الابتهاج ٣١٠؛ نفح الطيب ٢ / ٦٩٤، ٦٩٧، درة الحجال ٢ / ٢٩٠.

(٦) ـ البسطي آخر شعراء الأندلس ص ١٦.

الجماعة بغرناطة، سَفَر لأبي عبد الله الصغير عند ملوك المغرب عندما استولى الإسبانُ على غرناطة، وقد ارتحل إلى تلمسان بعد سقوط غرناطة ثم إلى المشرق[1]. وله قصيدة طويلة في مدح شيخه أبي يحيى بن عاصم[2].

ومن تلاميذ أبي يحيى بن عاصم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد السلمي الجَعْدالة المتوفّى سنة ٨٩٧ هـ[3]. ومنهم أيضاً أبو عبد الله محمد بن يوسف بن أبي القاسم يوسف العبدري الشهيرُ بالموّاق المتوفى سنة ٨٩٧ هـ[4] وأبو عبد الله محمد بنُ الحدّاد الوادي آشي نزيل تلمسان[5].

ز ـ مناصبه:

ذَكَرَ صاحبُ نيلِ الابتهاج أن ابنَ عاصم قد وِليَ اثنتي عشرةَ خُطّة في وقت واحد من القضاء والوزارة والكتابةِ والخَطابةِ والإمامة وغيرها مع إمامته وتقدمه في العلوم والفنون وتضلُّعه بالحفظ والتحقيق[6]. ويُفْهَمَ من الألقاب التي أضْفيَتْ على اسمه أنه كان كاتباً ورئيساً للكتاب وخطيباً ووزيراً وشاعراً وناثراً وإماماً ومفتياً وقاضياً للجماعة وعالماً وفقيهاً[7]. وتذكر المصادر أيضاً أنه كان من أكابر فقهاء غرناطة وعلمائها الجلّة ورؤسائها[8].

---

(١) ـ الضوء اللامع ٩ / ٢٠ ـ ٢١، وانظر ترجمته أيضاً في توشيح الديباج ٢١٦؛ أزهار الرياض ٣ / ٣١٧ ـ ٣١٩؛ نفح الطيب ٢ / ٦٩٩.

(٢) ـ انظر هذه القصيدة في أزهار الرياض ٣ / ٣١٩.

(٣) ـ له ترجمة مفصلة في ثبت البلوي ١٩٦ ـ ٢٠٦. ويذكر البلوي في صفحة ٢٠٠ أنّ من شيوخ الجعدالة الإمام السني الشهيد أبو يحيى بن عاصم. وإنني أستبعد أن يكون المقصود هو ابن عاصم المتوفى سنة ٨١٣ نظراً لبعد العهد.

(٤) ـ درّة الحجال ٢ / ١٤١؛ الضوء اللامع ١٠ / ٩٨؛ شجرة النور الزكية ١ / ٢٦٢.

(٥) ـ نفح الطيب، ٧ / ١٠٣؛ أزهار الرياض ٣ / ٣١٧.

(٦) ـ نيل الابتهاج ٣١٣.

(٧) ـ نفح الطيب ٦ / ١٤٨، أزهار الرياض ١ / ١٤٥.

(٨) ـ نيل الابتهاج ٣١٣؛ نفح الطيب ٦ / ١٤٨، أزهار الرياض ١ / ١٤٥.

ويظهر أن ابنَ عاصم تولّى الكتابةَ الديوانيةَ السلطانيةَ بعد وفاةِ والده سنة ٨٢٩ إذ نجده في سنة ٨٢٩ يكتب حُجَّة وقفية كتاب الإحاطة على المدرسة اليوسفية بغرناطة ويذكر فيها أنه كُلِّفَ ذلك مِنْ قِبَلِ السُّلطان الغالبِ بالله أبي عبد الله محمد بن نصر[1].

وعندما وقعت ثورةُ يوسف بن المول سنة ٨٣٥ هـ كان ابن عاصم كاتباً للسرّ ويُفْهَمُ ذلك من الحكاية التي يُورِدُها في «جنّة الرضا». وفحوى هذه الحكاية أنه عندما نجحت تلك الثورة جرت مؤامرةٌ لعزلِ أبي القاسم بن سرّاج عن قضاء الجماعة والاستعاضةِ منه بالفقيه أبي جعفر العربيّ. وعندما علم ابن سرّاج بهذه المؤامرة طلب الاجتماع بابن عاصم في المسجد الأعظم من الحمراء عند صلاة الظهر، على حَذَر، فظنّ ابنُ عاصم أن أستاذه ابن سرّاج يريد أن يسأله عن ظَهِيرِ تكليف أبي جعفر العربيّ فكتب إليه ابنُ عاصم معتذراً:

فَدَيْتُكَ لا تَسْأَلْ عن السِرِّ كاتِباً ... فَتَلقاهُ في حالٍ من الرُّشْدِ عاطِلِ
وتَضْطرُّهُ إمّا لِحالةِ خائنٍ ... أمانَتَهُ أو حائِضٍ في الأباطِلِ
فلا فَرْقَ عِنْدي بَيْنَ قاضٍ وكاتبٍ ... وَشَى ذا بحقٍّ أو قضى ذا بباطِلِ[2]

وفي سنة ٨٣٨ هـ يتولى ابنُ عاصم قضاء الجماعة في غرناطة[3]. وجاء في كتاب طبقات المالكية أنه ولي قضاء الجماعة في حداثة سنه[4]. ويظهر أن ابن عاصم قد أحسن السيرة في أثناء تولّيه هذا المنصب، فقد جاء في الظهير الذي قَدَّمَ ابنَ عاصم للنظر في أمور الفقهاء سنة ٨٥٧ هـ ما يشير إلى حسن

---

(١) - نفح الطيب ٧ / ١٠٤، أزهار الرياض ١ / ٥٨. (وانظر أيضاً عن ذلك نص ظهير تقديم ابن عاصم سنة ٨٥٧ هـ للنظر في أمور الفقهاء في أزهار الرياض ١ / ١٧٦، نفح الطيب ٦ / ١٥٩ حيث يفهم منه أن ابن عاصم تولى الكتابة بعد والده).

(٢) - جنة الرضا ٤٥ - ٤٦، نفح الطيب ٦ / ١٥٠، أزهار الرياض ٣ / ٣٢٢ - ٣٢٣.

(٣) - نيل الابتهاج ٣١٣، نفح الطيب ٦ / ١٤٨، أزهار الرياض ١ / ١٤٥ (ورد فيه خطأ أنه تولى القضاء سنة ٨٨٨ هـ)، طبقات المالكية لمجهول ٤٣٨.

(٤) - طبقات المالكية ٤٣٨.

سيرتـه في قضـاء الجماعة، إذ جاء: «إلى أنْ أحلّهُ قضاء الجماعة ذروةَ أُفْقِهِ الأَصْعَد، وبوّأه عزيزَ ذلك المقعد، فشرّف الخُطَّةَ وأخَذَ على الأيدي المُشْتَطّة، لا يُراقِبُ إلّا ربّه، ولا يُضْمِر إلّا العَدْلَ وحُبَّه، والمجلسُ السلطانيُّ - أسماه الله تعـالى - يختصُّـهُ بنفْسـه، ويفرغ عليه من حُلَلِ الاصطفاء ولُبْسِه، ويستمطِرُ فوائدَه، ويُجَرِّبُ بأنظارِه حقوقَ المُلْكِ وعوائدَه، فكان بينَ يديْهِ حَكَماً مُقْسِطاً، إلى أنْ خصّه بالكتابةِ المولوية . . . »(١).

ولهذا السبب أصدر سلطانُه محمد الأيسر في سنة ٨٥٧ هـ ظهيراً قدّم فيه ابنَ عاصم للنظرِ في أمورِ الفقهاء(٢)، ويحدّد هذا الظهيرُ صلاحياتِ ابنِ عاصم على النحو التالي: «وخصّهُ فيه بالنظرِ المُطْلَقِ الشروط، الملازمِ للتفويضِ ملازمةَ الشرْطِ للمشروط، المستكْمِلِ الفروعِ والأصول، المستوفي الأجناسِ والفُصول، في الأمورِ التي تختصُّ بأعلامِ القُضاةِ الأكابر، وكتّابِ القضاة ذوي الأقلامِ والمَحابر، وشيوخِ العِلْمِ وخُطَباء المنابر، وسائرِ أرباب الأقلامِ القاطِنِ منهم والعابر، بالحضرةِ العليّة، وجميعِ البلادِ النصريّة - تولّى الله جميعَ ذلك بمعهودِ سِتْرِه، وَوَصَلَ لديْهِ ما تعوَّدَ من شَفْعِ اللطف ووِتْره - يحوطُ مراتِبَهم التي قُطِفَتْ من روضاتِها ثمراتُ الحُكْمِ وجُنِيَتْ، ويراعي أمورَهم التي أقيمَتْ على العوائِدِ وبُنِيَت، وحُقوقهم التي حُفِظَتْ لهم في المجالِسِ السُّلطانيّة ورُعِيَت، ويحلّ كلَّ واحدٍ منهم في منزلتِه التي تَليق، ومَرْتَبَتِه التي هو بها خَليق، على ما يقتضي ما يُعْلَمُ من أدَواتِهِم، ويُخْبَرُ من تَبايُنِ ذواتِهِم، ويرشّح كلَّ واحدٍ إلى ما استحقّه، ويؤتي كلَّ ذي حقٍّ حَقَّه. . . »(٣).

وقـد مكنت هذه المناصبُ ابنَ عاصم من احتلال مكانة مرموقة ومنزلة رفيعـة عند ملوك بني الأحمر وعند أهلِ مملكة غرناطة، فقد جاء في الظهير

---

(١) - نفح الطيب ٦ / ١٥٩، أزهار الرياض ١ / ١٧٦.

(٢) - انظر نص هذا الظهير في نفح الطيب ٦ / ١٥٥ - ١٦٢، أزهار الرياض ١ / ١٧٢ - ١٧٩.

(٣) - نفح الطيب ٦ / ١٦٠ - ١٦١، أزهار الرياض ١ / ١٧٨.

المذكور آنفاً أن ابن عاصم قُدِّمَ للنظرِ في أمور الفقهاء «لما له في دارِ المُلْكِ من الخصوصيّة العُظمى، والمكانة،التي تسوّغ النُعْمى، والرُّتَبِ التي تسمو العيونُ إلى مرتقاها، وتستقبِلُها النفوسُ بالتعظيم وتتلقاها، حيث سِرُّ المُلْكِ مكتوم، وقِرطاسُه مختوم، وأمره محتوم. . . »[1]. وعندما أورد المقّري نص الظهير المذكور بتمامه قال «وإنما كتبتُه برمّته لِتَعْلَمَ به مِصْداقَ ما قدّمناهُ من تَمَكُّنِ ابنِ عاصم المذكور من مراتب الاصطفاء والاحتفاء»[2]. وقد أدى ابنُ عاصم بسبب هذه الخصوصيّة دوراً مُهِمّاً في الحياة السياسية في غرناطة، ولذلك يقول تلميذُه أبو عبد الله محمد بن الحدّاد الوادي آشي، متحدّثاً عن ابن عاصم: «على أنّ الدولةَ النصريّة في زمانه وَهَتْ منها المباني ومع ذلك فكان - رحمه الله - يجبُرُ صَدْعَ الواقع، ثم اتسع بعدَهُ الخَرْقُ على الراقع»[3].

ويظهرُ من الرسالة الطويلة التي وجّهها ابنُ عاصم إلى الجمهور الغرناطي في عقب انتصارات سنة **٨٥٢** هـ على الإسبان[4]، أنّ ابن عاصم قد أخذ على عاتقه دعوةَ المسلمين إلى الاتّحاد ونَبْذِ الفُرقةِ والتناحُر وطرحِ دعواتِ الصُلح الماكرة التي كان ينادي بها الإسبان. ولذلك يقول في التصدير لها إنَّه كتبها «في قصد التنبيه على هذه اللطائف (الانتصارات) والإيقاظ لأربابِ الدولة من الغفلة»[5].

وكان ابنُ عاصم، بسبب ذلك، مُمَدَّحاً من الشعراء، ومن أبلغ ما قيل فيه

---

(١) - نفح الطيب ٦ / ١٥٧، أزهار الرياض ١ / ١٧٤.

(٢) - أزهار الرياض ١ / ١٧٩.

(٣) - أزهار الرياض ٣ / ٣٢٢.

(٤) - انظر نص هذه الرسالة في «جنة الرضا» ص ٢٧٦ - ٢٨٧ من الأصل المخطوط، ووردت أجزاء منها في نفح الطيب ٤ / ٥٠٨ - ٥٠٩، وأزهار الرياض ١ / ٥٠ - ٥٣، ١ / ١٥٨ - ١٧٠.

(٥) - جنة الرضا ٢٧٦ من الأصل المخطوط.

قصيدةٌ مدحه بها تلميذه أبو عبد الله محمد بن علي بن الأزرق مطلعُها[1]:

خَضَعَتْ لمعْطَفِه الغصونُ الميّسُ ورنـا فَهَـامَ بمقـلتيه النـرجِسُ

يقول في بعض أبياتها مشيراً إلى الدور السياسي الذي أدّاه ابنُ عاصم عن طريق الكتابة:

حامى فلم نَرْتَـعْ لخطبٍ يعتري ووفى فلم نَحْفَـلْ بدهـر يَنْحسُ
لم نَدْرِ قبلَ يراعِه وبَنـانِه أنَّ الـذوابـلَ بالغمـائم تُـحْبَسُ
هنّ الـيَراعُ بهـا يؤمَّـن خائـفٌ ويُحـاطُ مذعـورٌ ويَغْنـى مُفْلِسُ
مهمـا انبَرتْ فهي السهامُ يُرى لها وَقْـعٌ لأغـراضِ البيانِ مُقَـرْطِسُ
تَشفي بمـأمله التشكّي المعتـري تُحيْي بمـأمنـه الحِمـام المؤيِسُ
فَتَقُصُّ حين تُشَـقُّ منهـا ألْسُنٌ وتَـسـيرُ حين تُقَطُّ منهـا أرؤسُ

.... الخ

ومن الذين مدحوه أيضاً الشاعر محمد بن عبد الكريم القيسي البَسْطي الذي عاش في أواخر القرن التاسع الهجري[2]، إذْ مَدَحَ ابنَ عاصم في قصيدة مطلعُها[3]:

أنتَ الـدواءُ إذا ما أعْضَـلَ الـداءُ ورامَ هَضْـمِـيَ حُسّـادٌ وأعْـداءُ

ففي هذه القصيدة يستعدي الشاعرُ البسطيّ صاحِبَنا ابنَ عاصم على أعدائِه، ويمدحُه بقوله[4]:

فبالرئيس أبي يحيى بن عاصمَ لي على جمـيعِـهِـمُ نَصْـرٌ وإعـداءُ

(١) ـ انظر نص هذه القصيدة في أزهار الرياض ٣ / ٣٢٠ ـ ٣٢٢.

(٢) ـ انظر الدراسة التي قام بها الدكتور محمد بن شريفة للشاعر المذكور بعنوان البسطي آخر شعراء الأندلس، ط. دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٥م.

(٣) ـ البسطي آخر شعراء الأندلس، ص ٥٧، (نقلاً عن ديوان الشاعر المخطوط ص ٦٢ ـ ٦٣).

(٤) ـ نفسه، ٥٧ ـ ٥٨.

هو الـمؤمَّـلُ بَعْـدَ الله ينصُـرُني لو كان من نَحْـوِه بالنَّصْـرِ إهـداءُ
له بمـا نالـني أصـبحتُ مشتكياً وإنْ عَدَتْ عنـه للمـظلومِ بَيْداءُ
عسـاهُ يأخُـذُ حقّي منهُمْ عجِلاً فلم يَزَلْ منـه لي بالفَضْـلِ إسـداءُ

ح ـ المؤلّف والتقلّبات السياسيّة :

كان ابنُ عاصم من خاصّة السلطان الغرناطي الغالب بالله أبي عبد الله محمد بن نصر الأيسر، وقد تعرّض هذا السلطانُ إلى الخلع أربع مراتٍ أو أكثر، وفي كلّ مرة يُـخْلَعُ بها هذا السلطان كان الخطرُ يحيق بخاصته ووزرائه ومنهم ابنُ عاصم. ولـذلـك قضى ابن عاصم حياتَه في خوفٍ وقلق، ولحقَتْه مِحَنٌ وابتلاءات أشار إلى كثير منها في كتاب «جنّة الرضا». ومن هذه المحن ما أصابه وهو حَدَثٌ عندما سُجِنَ والدُه سنة ٨١٤ هـ في عهد السلطان يوسف بن يوسف ابن محمد بن نصر المعروف بيوسف الثالث. وقد اضطر ابن عاصم أثناء سجن والده أن يستخفيَ عند أحدِ أصحابه مدة سبعةِ أشهر[1]. وقد أشار ابنُ عاصم إلى هذه الحادثة في أكثرَ من موضع من كتابه «جنّة الرضا»[2]، وملخّص هذه الحادثة أنّـه عندما سُجِنَ والدُ المؤلف أخذ ابنُ عاصم يسعى إلى اطلاق سراح والده وأشار عليه الناس بمقترحاتٍ كثيرة، فذهب يستشير والدَهُ فيها فأجابه بالرفض، وطلب منـه ألا يلتَفِتَ لشيء منها[3]. وأدْرَكَ أبا يحيى بنَ عاصم خوفٌ شديد اضطره إلى الاختفاءِ في المواضع المغفلة والأماكن غير المطروقة، ثم نزل في دارِ أحَـدِ أصحابه ـ على خوف وحذر شديدين ـ وكان صاحبُه ذاك يقوم على خدمته وإعداد الطعام وغيره له، ويصِفُ ابنُ عاصم لنا بعضَ ما وقع له أثناء نزوله في تلك الـدار فيقـول: «فسكنْتُ فيها لإغفالها، يتردَّدُ إليّ فيها بقُوتي وبماءٍ لوضوئي، إلى أن وَرَدَ عليه بعضُ العلماء ممّن كان يتبرّك به، وكان هو يُنْزِلُهُ مَنزلةَ مشيخته، وكنت أنا أيضاً أثِقُ به، وهو من شيوخي، فاتّفق، وأبي، رأيُه أنْ يَنْزِلَ

---

(١) ـ جنة الرضا، ص ٣١٥ من الأصل المخطوط.

(٢) ـ جنة الرضا، ٢٢٦ ـ ٢٢٧، ٢٥٨، ٣١٥.

(٣) ـ نفسه ٢٢٦ ـ ٢٢٧.

بالمِصريّة معي، وأنا على حال استخفاء معه، فاتّفق لبعضِ الناس أنْ أضاف ذلـك الشيخَ بطعامٍ أتاه به إلى حيث كان نزولُه من هذه المصريّة، وكنتُ أنا وصاحبي والشيخُ نحذر جميعاً من اطّلاعه عليّ هنالك لما يُتَوَقَّعُ من تساهُلِ النـاسِ في مثل هذا السرّ فتلحقُنا الإذايةُ باستهتاره. وكان فيها صورةُ مَخْدَع صغير له غلق وما يُفْعَلُ به، فاستخفَيْتُ هنالك، وأُذِنَ للرجل الآتي بالضيافة في الدخول بها، فدخل وأقبلوا على الأكل منها، وأنا في ذلك الموضع لم يَشْعُرْ بي، وفي أثناء إقامتي هنالك كنتُ أنسخ بعضَ كتب العلمِ، واعتراني شَرَقٌ كبير سدّ مجرى التنفّس مني، فشاهدتُ الموتَ عِياناً، ولم أستجِزْ فضيحةَ صاحبي فيما كان لا يُرِيدُ أن يُطْلِعَ ذلك الإنسانَ عليه، فعزمتُ على إيثارِ الموت دون أن يُسْمَعَ لي حسّ من سُعالٍ ولا غيره، وفي هذه اللحظة خَطَرَ على قلبي قولُه تعالى ﴿أمَّنْ يُجِيبُ المضطَّرَ إذا دعاه﴾ فضرعتُ في قلبي إلى الله تعالى داعياً، إذْ لم أكن أستطيع الكلام، فما هو إلاّ أن توجّهْتُ إليه بالدعاء في تلك الحال، وإذا بتلك الغُصَّة قد ذَهَبَتْ. . . الخ»[1].

وفي سنة ٨٣٥ هـ حدثت ثورةُ يوسف بن المول في غرناطة وخُلِعَ السلطانُ محمد الأيسر، وأخذ أصحاب هذا السلطان يترقبون ما قد يلحق بهم، وأخذ السلطان الجديد يدبّر صَرْفَ أبي القاسم بن سرّاج عن قضاء الجماعة بغرناطة، وعندما توجه ابن سرّاج إلى ابن عاصم ـ الذي كان كاتباً للسر آنذاك ـ خشي ابنُ عاصم أن يشاهدهما أحد، فطلب من شيخه ابن سراج أن لا يسأله عن شيء له صلة بمـوضوع صرفه عن قضاء الجماعة، ولكن ابن سرّاج أقبل على ابن عاصم راغباً أن يحتال له في صَرْفِ معرة ذلك العزل، ويقول ابنُ عاصم عن شيخه ابن سرّاج «وكأنّه كان على عِلْمٍ منه لِمَا عَلِمَ من ماتّةٍ بيني وبين بعض أولئك المتصرّفين لذلك الثائر»[2]، ثم يقول: «إلى أن قضى الله من الحوادث المـانعـة لهم عن القصْـدِ المـذكـور ما أوجَبَ استمرارَ ولايته بعودةِ السلطانِ

---

(١) ـ جنة الرضا ٢٥٨ ـ ٢٥٩.

(٢) ـ جنة الرضا ٤٦.

الغالب ـ أيده الله ـ إلى مُلْكِه، وتعجيلِ ما انحتم لذلك الثائر من هُلْكِه»[1].

وعندما وقعت ثورةُ أبي الحجاج يوسف بن أحمد بن نصر حافد السلطان الأيسر سنة ٨٤٩ هـ هرب ابنُ عاصم مع سلطانه إلى مدينة مالَقَة خوفاً على حياته من أتباع الثائر الجديد، وخلّف وراءه أبناءه وذرّيته، ويصفُ ابنُ عاصم هذا الرحيلَ قائلاً: «وقد اسْتَقْبَلْنا مالَقَة في تلك الوجهة التي قضى الله فيها بالتمحيص المتضمِّن للخروج عن الوطن والفراق للأهل والولد، المتعيّن به فراغُ الكفّ من المال وخلوّ المنزلة من الجاه، المظنون به الجلاء حتماً والابتلاء حقاً، وعزم على فرض السلامة على الاغتراب الأبعد، وانقسم القلب بين الخَطْبَيْنْ الواقع والمتوقَّع، والكَرْبَيْن باعتبار النفس واعتبار من يعزُّ عليها من الذريّة. وكان من قَدَرِ الله تخَلُّف الأهل والولد اضطرارا لا اختياراً لطيّ ذلك عني وكتمه مني من أرباب الدولة لاعتقادهم أنّي من خاصّة السلطان الذين لا يغيب عنهم ما انطووا عليه من استصحاب أهلهم وولدهم، واعتقاد خاصة السلطان أني من أرباب الدولة الذين لا يغيب عنهم ما انطوى عليه من مثل ذلك[2]. فخار الله لي في بقائي أمة وحدي فيما بعد ذلك. ولكني لم أر موقفاً أشجى لوعةً ولا أعظم لي على من خلّفت روعةً، من موقفي بطرف الفحص الأفْيَحِ المسمّى بالكنب جاغر ملتفتاً خلفي، ومودّعاً مع أصاغر الذريّة قلبي، وقد استصحب غيري أهلَه وولَدَه، وإنْ كان قد فارَقَ ماله وبَلَدَه، إلاّ من كان مثلي فإنّه ذهب طائشاً لبّه منتزعاً من بين جنبيه قلبُه...»[3].

وامتدت إقامةُ ابن عاصم في مالقة مدة شهر واحد، كانت تأتيه في أثنائها أخبارٌ عما لحق أهلَه وممتلكاته من الضرر والإيذاء، فيقول: «فلا تسألْ كم من

---

(١) ـ نفسه ٤٦.

(٢) ـ لعله يقصد أن تركه لأهله في غرناطة يوهم السلطان الجديد أنه لم يهرب منه بدليل عدم اصطحاب عائلته معه، كما أنه بذلك يطمئن السلطان المخلوع إلى أنه سيعود قريباً إلى عرشه، فلا داعي لاستصحاب أهله معه إلى المنفى.

(٣) ـ جنة الرضا ١٩٥ ـ ١٩٦.

أراجيفَ نُقِلَتْ في التنقير عن قطع القلوبِ ومكنوناتِ الخُدور. . ومن أقاويلَ اخْتُلِقَتْ في استطالة الغوغاء على الديار المعلومة والحاشية المعروفة والذخيرة الموروثة، وقد كانت أيديهم عاثَتْ في الجِنانِ المغروسة والكروم المعروشة، بما كان يصدّق ذلك الإرجاف، ويجعل في حيّز القبول تلك الأقاويل. . . . إلى أنْ طالت الإقامة زهاءَ شهر بمالقة، وترادفَتْ تلك النوائبُ الطارقة، والحوادثُ الكارثة، وتكرّر المسموعُ بسلامةِ من تخلّفَ من أهل وولد، من مَعَرّة تلك الأراجيف الكاذبة، فظهر لي أن الخَيْرَ والخِيرةَ فيما قضى الله من تَرْكِ الأهلِ والولَد. . . »(1).

ويظهر أنَّ السلطانَ الأيسرَ الذي كان مخلوعاً إلى مالقة قد استخدم ابنَ عاصم في السِفارة إلى أبي الحجاج الثائر في غرناطة في قصد الصلح بين السلطانين، فتوجه ابن عاصم إلى غرناطة لتأدية الرسالة، ولما قدِم غرناطة لحقه خوفٌ شديد يفسّره ابن عاصم قائلاً إنّ أربابَ دولة أبي الحجاج «كان من رأيهم الأنكد إغراءُ العامة بي وتسليطُ الرَّعاعِ على جهتي، فوقع من توعُّدِهِمْ بهدمِ الدور وخرابِ الأملاك ما كان مقتضى الحالِ شاهداً بوقوعه ودليلاً على حصوله لما سبق من أولئك الغوغاء في الأملاك المُوالية لهم لي ولغيري، فقد كانوا عاثوا في إفسادِها وابتدروا إلى انتسافِها»(2).

ولكنَّ الله صرف عنه ذلك البلاء المتوقع وقام ابنُ عاصم بتأدية رسالتِه من غير هوادةٍ ولا مُصَانَعة(3).

ولكنّ الأمْـرَ تمّ للسلطان الجديد أبي الحجاج، فاستدعى ابنَ عاصم واستعمله للسِفارة عنه إلى المغرب(4). ولما سأله عن عدم مصانعته له عندما سَفَر للسلطان الأيسر من مالقة، أجابه ابن عاصم: «لو ناصحْتُكَ وتركت النُّصحَ

(1) ـ جنة الرضا ١٩٥ ـ ١٩٦.

(2) ـ نفسه ٥٠ ـ ٥١.

(3) ـ نفسه ١٤٥.

(4) ـ نفسه ١٤٥.

لمرسلي، هل كنتَ تثق بي فيما استدعيتني إليه من السِفارة للمغرب؟ «فأجابه: لا. **فقال ابن عاصم: «وهل كنت تثق بي للحضور في مجالسِ شوراك؟ فقال: لا. فقال ابنُ عاصم: فكيف تطلبني أن أفعلَ ما يكون مُوجباً صحيحاً لعتبي، وسقوطِ منزلتي عند من أرسلني، وعند من أُرْسِلْتُ إليه، ويلومني كل واحد منهما، وكلاهما في لومتي بحق؟!**[1]

ويصبح ابن عاصم ـ كما يبدو ـ مقرّباً من السلطان الجديد، ويمدحه في قصيدة طويلة أفرغ جهده في شحنِها بالمحسّنات البديعيّة والصناعة اللفظية والشكلية، وجعل كلماتِها بالألوان بحيث تُشَكِّلُ الكلماتُ ذاتُ اللونِ الواحد قصيدةً أو موشّحةً جديدة[2].

غير أن هذا الوضع لم ينزع المخاوِفَ من قلب ابن عاصم، ذلك لأن أصحابَ السلطانِ أبي الحجّاج ووزراءه كانوا من خصوم ابن عاصم، وكان يخاف دسائسهم ومكائدهم، لا سيّما بعد أن تم اعتقالُ شيخه أبي القاسم محمد بن يوسف بن سرّاج والقائد ابن كُماشة[3]. ويصفُ ابن عاصم المخاوفَ التي كان يعيشُها قائلًا: «كنتُ في تلك الأيام على ما لا يخفى من حالِ مَنْ طَرَقَهُ الابتلاء من خواصّ دولة قد انتسخت بدولةٍ اخرى مضادّةٍ لها وَضْعاً وطبعاً، فلم تكن النفسُ تسكنُ إلى أمان تامّ، ولا تخلو عن خوف مستجِدّ، وكنت متى استُدْعِيتُ للحضور في مَشاهد تلك الدولة ومَحافل شوراها ومجالسِ مفاوضَتِها ألجأ إلى ما اعتمده أهلُ كتب الصحيحِ من التعوّذات الواردةِ في ذلك عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. وأضرع إلى الله في استكفاء شرّ كل ذي شرّ. ولم يكن إيجاسُ النفس للخِيفة من قِبَلِ ذلك السلطان، فقد كنتُ أراه مائلًا للخَيْر بطبعه مباعِداً للشرّ بقوله وفعله، وإنما كنت أستثقِلُ بعضَ أرباب دولته ممّن أتوسم فيه

---

(١) ـ نفسه ١٤٥.

(٢) ـ انظر هذه القصيدة في: أزهار الرياض ١ / ١٤٦ ـ ١٥٧.

(٣) ـ جنة الرضا ١٣٩.

غلاًّ أو استشعِرُ منه حَسَداً، وخصوصاً ذلك الموسوم بوزارته، فقد كانت عندي مداراتُه صعبةً ومصانعتُه عسيرة»[1].

ويسوق لنا ابنُ عاصم قصة طويلة عن حادثةٍ وقعت له وأَدْخَلَت الخوفَ الشديد إلى قلبه ثم صرف الله بلاءها عنه، يستشهد بها على مخاوفه التي حلّت به في هذه المرحلة أثناء تولي أبي الحجاج العرشَ[2].

وقد كانت هذه الحوادث التي لحقت ابن عاصم سبباً في انقلاب كثير من أصدقائه عليه، وقد شكا من ذلك في قوله: «ولقد وقفتُ من ذلك بالتجربةِ على ما لو صرَّحْتُ بأعيانِ الوقائع وسمَّيْتُ من بَلَوْتُ منه الخيانةَ من الأقارب، وأشرت لمن علمت منه عَدَمَ الوفاء من جنس الصديق المُلاطِف، لقضى منه العجبَ سامعُه، وشاهدَ منه الغريبَ قارئُه، حتى لا يَسْتَبْعِدَ قولَ من قال: «إنَّ الصديقَ الموثوقَ بمودّته قد قلّ حتى صار اسماً لغيرِ موجود ولفظاً لمعنىً مفقود» فهو كما قال الشاعر:

وقالوا هَلْ وَجَدْتَ صديقَ صِدْقٍ ... مُعِيناً في الزَّمانِ على الزَّمانِ
فقلتُ نَعَمْ إذا نِلْتُ الثُّريّا ... وصافَحَني هناكَ الفَرْقَدانِ
متى أبصَرْتُمُ شيْئاً مُحالاً ... يَعُودُ على الحقيقةِ كالعِيانِ؟!

وعلى ما بلوتُه من ذلك بالاختبار التامّ والتجربة الكاملة يصدُقُ قولُ الشاعر ويصِحُّ عندي:

أَنِسْتُ بوحْدتي حتى لو انّي ... دعاني الأُنسُ لاستوحَشْتُ مِنْهُ
ولم تَدَعِ التجاربُ لي صديقاً ... أميلُ إليهِ إلاّ مِلْتُ عَنْهُ[3]

---

(١) ـ نفسه ١٣٩.

(٢) ـ انظر تفاصيل هذه الحادثة في جنة الرضا ص ١٣٩ ـ ١٤٢ من الأصل المخطوط.

(٣) ـ جنة الرضا ٣١٨ ـ ٣١٩.

ط ـ وفاته :

استطاع ابن عاصم نتيجةَ خِبْراته بالتقلّبات السياسية في غرناطة وما ينتجُ عنها من تهديد لحياةِ خواصّ السلطان المعزول، أن يتنبّأ بالطريقة التي سوف يموت بها، لذلك لم تُفارِقْه المخاوفُ وهواجسُ الرعب من الانقلابات، وقد قضى الله عليه بما كان يخشاه دائماً، فجاء في نيل الابتهاج أن ابنَ عاصم «توفي على ما قيل ذبيحاً من جِهة السلطان ولم أقِفْ على تاريخ وفاته»[1].

ولكنَّ المصادر لم تبيّن السببَ الذي من أجله ذُبح ولا سنة ذبحه. ولكنْ يُرَجَّحُ أنّه ذُبح مع السلطان محمد الأيسر وخواصّه على يد السلطان سعد بن الأحمر في أواخر سنة ٨٥٧ هـ أو أوائل سنة ٨٥٨ هـ[2]، ويذكر صاحب هدية العارفين أن ابن عاصم توفي في حدود سنة ٨٥٧ هـ[3].

وهكذا فإنّ خدمات ابن عاصم لمملكة غرناطة أكثرَ من ثلاثين سنة ومساعيه للحفاظ على تلك البقعة الإسلامية، لم يُغْنِ عنه شيئاً أمام همجيّة السياسة في تلك الأزمنة، مثلما لم تُغْنِ تلك الخدماتُ شيئاً أمام إعدام القائدِ الغرناطي الشهير أبي اسحق ابراهيم بن عبد البَرّ.

ي ـ ابن عاصم في نظر العلماء والمؤرخين :

حقّق ابنُ عاصم في مجالات العلْم والأدب والسياسة شهرةً بالغة مردُّها إلى تفوّقه في تلك المجالات وإلى اعتلائه عدداً كبيراً من المناصب الإدارية التي برّز فيها، ولذلك أكثر معاصروه من الأدباء والعلماء والمؤرخين من مدحه والإطراء عليه، وكذلك فعل مؤلّفو المصادر التي عرضت لسيرته.

فقد وصفه ابن فرج السبتي بأنه «العَلَمُ الصَّدْر. . . معدنُ السماحةِ ومنبعُ

---

(١) ـ نيل الابتهاج ٣١٣، شجرة النور الزكية ١ / ٢٤٩.

(٢) ـ انظر: Los Banu Asim Intelectuales Y Politicos Granadinos del Siglo XV, P. 10.

(٣) ـ هدية العارفين ٢ / ٢٠٠، شجرة النور الزكية ١ / ٢٤٩.

الآداب»[1] كما وصفه تلميذه أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الحدّاد الوادي آشي نزيلُ تلمسان بأنه «قاضي الجماعة ومنفّذُ الأحكام الشرعية المطاعة، صدر البلغاء، وعلم العلماء، ووحيدُ الكبراء، وأصيلُ الحسباء. .»[2] ومما وُصف به ابنُ عاصم في الظهير الذي قدّمه للنظر في أمور الفقهاء سنة ٨٥٧ هـ ما يلي: «إمام الأئمة، وعَلَمُ الأعلام وعمادُ ذوي العقول والأحلام، وبركةُ حَمَلةِ السيوفِ والأقلام، وقدوةُ رجالِ الدين وعلماء الإسلام. . . »[3].

ومما وُصف به أيضاً في هذا الظهير: «فهو شهيرٌ لم يزل في الشهرة سابقاً، هادٍ لم يزل بالهدى ناطقاً، بليغٌ لم يزل بالبلاغة دريّاً، عظيم لم يزل في النفوس معظماً، عَلَمٌ لم يزل في الأعلام مقدَّماً، كريمٌ لم يزل في الكرام سنِيّاً، اشتملت منه محافلُ المُلْك على العقد الثمين، وحلّت به المشورة في الكنف المحوط والحَرَمِ الأمين، فكان في مشكاة الأمور هادياً، وفي ميدان المراشد جريّاً، فإلى مقاماته تبلغ مقاماتُ الإخلاص، وإلى مرتبته تنتهي مراتب الاختصاص. . . »[4].

والجدير بالذكر أنَّ أكثر فصول هذا الظهير المذكور هي في الإشادة بابن عاصم وبيان علمه وفضله[5].

وعندما تحدث صاحبُ نَيْل الابتهاج عن مناصب ابن عاصم أضاف قائلًا: «مع إمامته وتقدمه في العلوم والفنون وتضلّعه بالحفظ والتحقيق، من أكابر علمائها وفقهائها الجلة»[6] يعني غرناطة.

---

(١) ـ نفح الطيب ٦ / ١٤٨.

(٢) ـ نفح الطيب ٧ / ١٠٢، أزهار الرياض ١ / ٥٥.

(٣) ـ نفح الطيب ٦ / ١٥٧، أزهار الرياض ١ / ١٧٣.

(٤) ـ نفح الطيب ٦ / ١٥٦، أزهار الرياض ١ / ١٧٢.

(٥) ـ انظر نص الظهير في: نفح الطيب ٦ / ١٥٥ ـ ١٦٢، أزهار الرياض ١ / ١٧٢ ـ ١٧٩.

(٦) ـ نيل الابتهاج ٣١٣.

أما أبو العباس المقّري فقد أشاد به كثيراً كلما ذكره، ولذلك سمّاه «خاتمة رؤساء الأندلس بالاستحقاق، ومالك خَدَم البراعة بالاسترقاق»[1]، ووصفه أيضا بأنه «معدن السماحة ومنبع الآداب»[2] وأنه «فارس حلبة البلاغة» الذي «حَلِيَتْ بعلومه اللبات والمعاصم»[3] واستشهد به على فضل أهل غرناطة في العلم والأدب[4].

وبعد أن أورد المقّري قصيدة ابن الأزرق في مدح أستاذه ابن عاصم عقّب قائلاً على الصفات التي أضفاها ابنُ الأزرق على أستاذه:

«ولقد صَدَقَ ـ رحمه الله ـ في كل ما وصف به قلم الرئيس أبي يحيى بن عاصم الذي تحلّت بجواهره لدولة بني نصر نحورٌ ومعاصم، فإنّه كان آية الله في النظم والنثر، وقد تقدّم في هذا الموضوع بعضُ كلامه، وهو قَلٌّ من كَثْر، ولولا أني أطلت النُّجْعَةَ في هذا الباب لأتيتُ بما حصل عندي من كلامه الذي يسحر الألباب، وقد أخذ من الفقه ومعرفة الأحكام بحظّ بذّ فيه نظراءه، وانفرد في عصره بطريق الأدب، فكان كلُّ أنداده لايدركه بل يسير وراءه...»[5].

وكان ابن عاصم ممدَّحاً من أدباء عصره سواء أكانوا من أقرانه أم من تلاميذه، وقد تحدّث أصحاب هذه المدائح عن فضائل وصفات كثيرة لابن عاصم. ومن أشهر هذه القصائد المدحية قصيدة ابن الأزرق التي مطلعُها[6]:

خَضَعَتْ لمعطفِهِ الغُصونُ المُيَّسُ ... ورنا فَهَامَ بمقلتَيْهِ النَّرْجِسُ

---

(١) ـ نفح الطيب ٦ / ١٤٨، أزهار الرياض ١ / ١٤٥.

(٢) ـ أزهار الرياض ١ / ١٤٦.

(٣) ـ نفسه ١ / ١١٦.

(٤) ـ نفسه ١ / ١١٦.

(٥) ـ نفسه ٣ / ٣٢٢.

(٦) ـ نفح الطيب ٦ / ١٥١، أزهار الرياض ٣ / ٣٢٠.

وقصيدة محمد بن عبد الكريم القيسي التي مطلعها[1]:

ما كنت أحسَبُ أنَّ الحُسْنَ يَلْعَبُ بي
حتى انْجلى كَتْبُكُم للعَيْنِ من كَثَبِ

وقصيدته التي مطلعها[2]:

أنتَ الدواءُ إذا ما أعْضَلَ الداءُ ورام هَضْمِيَ حُسَّادٌ وأعْداءُ

س ـ شعره:

أوردت المصادر التي ترجمت لابن عاصم أنه كان شاعراً فصيحاً مُفْلِقاً[3]، وتدلّ القصائد القليلة من شعره التي استطعنا الحصولَ عليها، أنه كان مقتدراً على نظم الشعر والموشحات على النمط الشائع في عصره ووفق مقتضيات الذوق الأدبي العام في ذلك العصر وفي البلد الذي كان يقيم فيه. ومن هذه القصائد قصيدتُه التي نظم بها الأفكار الرئيسية لمقدمة كتابه «جنّة الرضا» وتقع هذه القصيدة في مائة وعشرين بيتاً[4]. وهي في مبناها ومعناها وطولِها لا تختلف عن المنظومات العلمية التي تفتقر إلى معظم عناصر الشعر ومقوّماته. ولعل الهدف مما ذهب إليه ابنُ عاصم، بعد أن قدّم لكتاب جنّة الرضا بمقدمة على قدر كبير من الأهمية، من نظم هذه المقدمة شعراً أن يسهّل على طلبة العلم الذين يدرسون كتابه، حفظ الأفكار الرئيسية في تلك المقدمة. ولكنه أخطأ بذلك مرتين: الأولى أنه كرّر ما في المقدمة وجاء به على صورتين: شعرية ونثرية، والثانية: ذلك النظم العلمي نفسه لما فيه من التكلّف والصنعة.

ويتجلّى التكلّفُ في شعر ابن عاصم أكثر ما يتجلّى في قصيدته التي مطلعها[5]:

---

(١) ـ البسطي احر شعراء الأندلس ١٠٠ (نقلاً عن ديوان القيسي ص ٢٢).
(٢) ـ نفسه ص ٥٧ (نقلاً عن ديوان القيسي ص ٦٢).
(٣) ـ نيل الابتهاج ٣١٣، نفح الطيب ٦ / ١٤٨، أزهار الرياض ١ / ١٤٥.
(٤) ـ انظر هذَه القصيدة في جنة الرضا ٣٢ ـ ٣٧.
(٥) ـ انظر هذه القصيدة في أزهار الرياض ١ / ١٤٦ ـ ١٥٣.

أمـا والهوى ما كنتُ مُذْ بانَ عَهْدُه أهـيمُ بلُقـيا مَنْ تَنـاثَـرَ وُدُّهُ

وتقع الأخرى كسابقتها في مائة وعشرين بيتاً، وهي في مدح السلطان أبي الحجاج يوسف بن أحمد بن نصر. أما التكلّف والصنعة في هذه القصيدة فيتمثلان في أن ابن عاصم جعل كلمات هذه القصيدة بألوان مختلفة، بحيث ينفك عن القصيدة قصيدتان أخريان إحداهما مكتوبة باللون الأحمر والثانية باللون الأخضر، وكل واحدة من هاتين البنتين تلد موشحة[1].

ويعلّق المقّري على هذه القصيدة مشيراً إلى ما فيها من تكلّف فيقول[2]: «وعلى كلّ حال فقد أبدع هذا الرئيسُ في هذه القصيدة، وإنْ كان فيها بعضُ تكلُّف». وقد اضطر ابنُ عاصم من أجل أن يحقّق هدفه من الصنعة أن يتجاوز بعض القواعد النحوية في مثل قوله:

أفي العـدلِ أنْ (يُـحْكَمْ) بتَحْـريم رِيقِهِ
لأنَّ (كـان للشـهـدِ) الـمـعـلّلِ وِرْدُه

فسكّن (يُـحْكَمْ) وحقّها النصب.

ولابن عاصم تخميسٌ طويل يقع في ثمانية وثلاثين دوراً، وهو في تسبيح الله تعالى وتمجيده. ومطلعه[3]:

سبحانَ من أظْهَرَ الأنوارَ واحْتَجَبَا وكـلُّ حَمْـدٍ وتَـمْجيدٍ له وَجَبَـا
إذا ابْتَغَى العَقْـلُ في إدْراكِهِ سَبَبَا جاء الحِجَابُ فألقى دونَه الحُجُبا
حتى إذا ما تَلَاشى عندَهُ ظَهَرا

وفي هذا التخميس أيضاً من التلاعب اللفظيّ والركض خَلْفَ المحسّنات البديعية الشيءُ الكثير.

---

(١) ـ بيّن المقّري في كتابه أزهار الرياض القصيدة الأم والبنتين والموشحتين (أزهار الرياض ١ / ١٤٦ ـ ١٥٧).

(٢) ـ نفسه ١ / ١٥٨.

(٣) ـ انظر هذا التخميس في أزهار الرياض ١ / ١٧٩ ـ ١٨٥.

ومن قصائد ابن عاصم أيضاً قصيدة يردُّ فيها على الزمخشريّ في بيتيه اللذين يعرِّضُ فيهما بأهلِ السنة وينصُرُ مذهبَ الاعتزال وهما:

لجماعة سمّوا هواهُم سُنّةً وجماعة حُمُرٌ لعمري مُوكفة
قد شبّهوه بخَلْقِه وتخوّفوا شُنَعَ الوَرى فتستّروا بالبَلْكَفة

وقد ردّ على الزمخشريّ عددٌ كبيرٌ من علماء السنّة، من بينهم ابنُ عاصم بقصيدته التي مطلعها[1]:

قل للذي سَمّى الهُدَاةَ أولي النُّهى حُمُراً لإنْ سُلِب الهُدى والمَعْرِفَة

وواضحٌ أنّ ابنَ عاصم - مثل غيره من الذين ردّوا على الزمخشريّ - قد اتّبع أسلوبَ المعارضة؛ فنظم ردَّه على الوزنِ والقافيةِ ذاتهما اللذين جاء عليهما بيتا الزمخشريّ.

وعلى العموم فإن شعر ابن عاصم يتّصف بالإطالة والإطناب والتحويم حول الفكرة الواحدة، مع الاتكاء كثيراً على الصنعة اللفظية وتصيّدِ المُحَسّنات البديعيّة، ولذلك ظهر التكلُّف فيه واضحاً.

ع - نثره الفنّي:

وأما نثرُ أبي يحيى بنِ عاصم فهو أعلى درجةً وأرقى منزلةً من شعره، وذلك بسبب الوظائف الكتابية التي شغلها ابن عاصم. وذكر صاحبُ نَفْح الطيب أنّ إنشاء ابن عاصم كان «في الذروة العليا»[2]. وقد وصلنا من هذا الإنشاء والنثر الفني ما يصلح للتعرّف على خصائص الأسلوب الإنشائي عند ابن عاصم، مع أنّه لم يصلنا من هذا الإنشاء إلّا القدْرُ القليل مقارنةً برسائله الكثيرة التي صدرت عنه بحُكْمِ ترؤسه لديوان الإنشاء، ونتيجة لإشغاله وظائفَ كتابية كما سبق أن أشرنا في الحديث عن مناصبه. ومن النصوص الإنشائية التي

---

(١) - انظر قصيدة ابن عاصم في أزهار الرياض ٣ / ٣٢٣، وانظر بيتي الزمخشري والردود عليهما في أزهار الرياض أيضاً ٣ / ٢٩٨ وما بعدها.

(٢) - نفح الطيب ٥ / ٢٢.

وصلتنا من إنشاء ابن عاصم: رسالة طويلةٌ في جنة الرضا[1]. ورسالته إلى أبي القاسم ابن طَرْكاط ينصحه بالعدل في القضاء وهي مؤرخة أوائل ذي الحجة سنة ٨٤٥ هـ[2]. ونصُّ حُجّة الوقفية لكتاب الإحاطة على المدرسة اليوسفية مؤرخ سنة ٨٢٩ هـ[3] وغير ذلك.

ويمتاز إنشاء ابن عاصم بالإطالة المفرطة، والإسهاب في المقدّمات والتحميدات والتصلية والدعاء، كما يتّسم أيضاً بالتزام السجع بمختلف أنواعه وخصوصاً السجع المركّب، والإغراق في المحسّنات البديعية ومختلفِ صُوَرِ التلاعب اللفظي. وهي سمة بارزة في أدب ابن عاصم شعره ونثره.

ف ـ ابن الخطيب الثاني:

إن المتأمّل لأسلوب ابن عاصم في النثر الفنّي يلاحظ أنه لا يكاد يختلف عن أسلوب سابقه لسان الدين بن الخطيب (٧١٣ ـ ٧٧٦هـ). ولعلّ هذا التشابه راجعٌ إلى جملة من الأسباب منها:

١ ـ إعجاب ابن عاصم بلسان الدين بن الخطيب، ويظهر هذا الإعجاب بصورة جلية في نصّ حجة الوقفية لكتاب «الإحاطة» على المدرسة اليوسفية، وهذا النصُّ من تحرير ابن عاصم[4]، فقد أشاد ابنُ عاصم بلسان الدين بن الخطيب كثيراً وأورد كثيراً من مآثره وحسناته في فنون الكتابة.

ويتّضح هذا الإعجابُ أيضاً من خلال الحديث الذي ساقه ابنُ عاصم في كتابه «الروض الأريض» عن الغنيّ بالله ووزيره لسان الدين بن الخطيب[5].

---

(١) ـ جنة الرضا ٢٧٦ ـ ٢٨٧، ومنها اقتباسات في أزهار الرياض ١ / ٥٠ ـ ٥٥ ـ ١٥٨ ـ ١٧١، نفح الطيب ٦ / ١٤٨ ـ ١٤٩.

(٢) ـ نفح الطيب ٦ / ١٥٣ ـ ١٥٥.

(٣) ـ نفح الطيب ٧ / ١٠٣ ـ ١٠٥، أزهار الرياض ١ / ٥٦ ـ ٥٨.

(٤) ـ انظر هذا النص في: نفح الطيب ٧ / ١٠٣ ـ ١٠٥: أزهار الرياض ١ / ٥٦ ـ ٥٨.

(٥) ـ انظر فقراً من هذه الترجمة في: نفح الطيب ٦ / ٢٧ ـ ١٤٦ ـ ١٤٧.

٢ ـ أن شيوخ ابن عاصم هم تلاميذ ابن الخطيب.

٣ ـ أن ابن الخطيب وابن عاصم كليهما قد شغلا وظائف متشابهة في مملكة غرناطة وقد حقّق كلٌّ منهما منزلةً رفيعة عند سلطانه[١]، ولذلك اتفقت موضوعات الكتابة عند كليهما اتفاقاً واضحاً.

٤ ـ أن ابنَ عاصم قد سلك في بعض رسائله نَهْجَ ابن الخطيب وهذا ما يذكره أبو العباس المقّري في تقديمه لإحدى هذه الرسائل، إذ يقول: «ومن بديع نثره الذي يسلك به نَهْجَ ابنِ الخطيب رحمه الله قوله. . .»[٢].

٥ ـ ويرى المقّري أيضاً أن ابن عاصم في تأليفه كتابَ «الروض الأريض» كأنه ذيّل به كتاب الإحاطة للسان الدين بن الخطيب[٣].

وقد عُرِفَ ابنُ عاصم ـ لهذه الأسباب ـ بابن الخطيب الثاني. فمما ذكره المقّري في أزهار الرياض قوله: «وبالجملة فابن عاصم أبو يحيى كان يسمّيه أهلُ زمانِه ابنَ الخطيب الثاني حسبما قاله الوادي آشي وغيرُه»[٤]. كما ذكر المقّري في مواضع كثيرة من كتابيه أزهار الرياض ونفح الطيب[٥]. أن أهل الأندلس كانوا يَعْرِفونه بهذه التسمية.

وينصُّ المقّري على أنَّ ابنَ عاصم كان يُعْرَفُ بابن الخطيب الثاني من جهة «البلاغة والبراعة والرياسة والسياسة»[٦].

---

(١) ـ لمعرفة على المناصب التي شغلها لسان الدين بن الخطيب والمنزلة التي بلغها عند سلطانه انظر: الإحاطة ٤ / ٤٤٢ ـ ٤٤٣.

(٢) ـ انظر هذا التقديم ونص الرسالة في: نفح الطيب ٦ / ١٤٨ ـ ١٤٩، ازهار الرياض ١ / ١٦٠، وهو جزء من الرسالة الواردة في جنة الرضا ص ٢٧٦ ـ ٢٨٧ من الأصل المخطوط.

(٣) ـ نفح الطيب ١ / ١٤٥، ٦ / ١٤٨.

(٤) ـ أزهار الرياض ١ / ١٨٦.

(٥) ـ أزهار الرياض ٣ / ٣٢٢، نفح الطيب ٥ / ٢٢، ٦ / ١٤٨، ١٦٢.

(٦) ـ نفح الطيب ٦ / ١٦٢.

ويتضح من تفسير المقّري لهذه التسمية أن ابن عاصم ولسان الدين بن الخطيب كانا يشتركان في أساليب الكتابة مثلما اشتركا في سيرة الحياة.

والمتابع لسيرة هاتين الشخصيتين يتبدّى له أيضاً أن كليهما قد عانى من مِحَنٍ تكاد تكون واحدة مثل التعرّض للحسد من الخصوم، والتشرُّد عن الوطن في أيام الفتن، وكذلك النهاية المفجعة لكلّ واحدٍ منهما، فمثلما قُتِلَ لسانُ الدين بأمر من سلطانه الذي خدمه لسانُ الدين نحو عقدين من الزمن[1]، كذلك توفي ابن عاصم، الذي خدم سلاطين غرناطة زمناً طويلاً، ذبيحاً من جهة السلطان.

ويبدو أن اقتران اسم ابنِ الخطيب باسم ابنِ عاصم كان أمراً شائعاً، إذ نجد الشاعر محمد بن عبد الكريم القيسي البسطي يمدح أبا عمرو بنَ منظور المتوفّى سنة ٨٨٨ هـ ويصف بلاغته فيقول[2]:

فمن ابنُ عاصم أو من ابنُ خطيبِها؟!
ومن الرئيسُ فتى بني الجيّابِ؟!

ص ـ آثار ابن عاصم:

كان أبو يحيى بن عاصم صاحبَ ثقافةٍ متنوّعة تجمع بين الفقه والأدب والتاريخ وغير ذلك من علوم عصره، وعلى الرغم من انشغاله بالوظائف السياسية والإدارية الكثيرة، إلّا أنه لم ينقطع أيضاً عن الكتابة والتأليف والمشاركة في الحياة العلمية في مملكة غرناطة. وقد وضع عدداً من المؤلفات في موضوعات شتّى. وقُدّر لبعض هذه المؤلفات أن تصل إلينا بينما ضاع بعضُها الآخر.

وفيما يلي أسماء المؤلفات حسبما ورد ذكرها في المصادر المختلفة:

---

(١) ـ عن نهاية لسان الدين بن الخطيب انظر: نفح الطيب ٥ / ١٠٤ ـ ١١٢، أزهار الرياض ١ / ٢٢٤ ـ ٢٣١.

(٢) ـ البسطي آخر شعراء الأندلس ص ١٣٦ (نقلاً عن ص ٨٤ من ديوان البسطي المخطوط).

١ ـ جنّة الرضا في التسليم لما قدّر الله وقضى.

٢ ـ الروضُ الأريض في تراجم ذوي السيوف والأقلام والقريض[١].

ذيّل به إحاطةَ ابن الخطيب[٢].

وفي هذا الكتاب فصل بعنوان «شموسُ العَصْر في ملوكِ بني نصر»[٣] يظهر أن فيه تراجم لملوك بني نصر ملوك غرناطة حتى عصر المؤلف، ولو وَصَلَنا هذا الكتابُ لكان ذا فائدة جليلة لأنّه يغطي فترةً غامضةً من تاريخ مملكة غرناطة (أعني النصف الأول من القرن التاسع الهجري بما في ذلك عصر المؤلف).

وقد وَقَعَتْ من كتاب «الروض الأريض» نُتَفٌ في كتاب نفح الطيب وأزهار الرياض للمقّري[٤].

كما عثر على ورقة واحدة من هذا الكتاب في مكتبة الاسكوريال تحمل عنوان: «قطعة من كتاب الروض الأريض فيمن لقيتُه من أهل القريض»، وهي ضمن المجموعة رقم ١٨٧٩ / ٥، ورقم هذه الورقة ٢١ / ٥، وقد كُتِبَتْ في أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر الهجريين[٥].

٣ ـ شرحُه على تُحْفَةِ أبيه، وهو شَرْحٌ على أرجوزة «تُـحْفَة الحُكّام» لوالده

(١) ـ ذكرها المقّري في نفح الطيب ٦ / ١٤٦، ١٤٨، وفي أزهار الرياض ١ / ٥٨ ـ ٥٩، ١٤٥، ١٧١. كما ورد ذكره في إيضاح المكنون ١ / ٥٨٧، هدية العارفين ٢ / ١٩٩، نيل الابتهاج ٣١٣، شجرة النور الزكية ١ / ٢٤٨.

(٢) ـ نفح الطيب ٦ / ١٤٨، هدية العارفين ٢ / ١٩٩، نيل الابتهاج ٣١٣، شجرة النور الزكية ١ / ٢٤٨.

(٣) ـ نفح الطيب ٦ / ١٤٦، أزهار الرياض ١ / ٥٨.

(٤) ـ انظر ترجمة ابن فتّوح نقلاً عن «الروض الأريض» في أزهار الرياض ١ / ١٧١، وترجمة الغنّي بالله ت ٧٩٣ عن «الروض الأريض» في نفح الطيب ٦ / ١٤٦، وأزهار الرياض ١ / ٥٨ ـ ٦٠.

(٥) ـ انظر مجلة القنطرة Alcantara العدد الثاني ص ٤٢ (مدريد ١٩٨١).

القاضي أبي بكر محمد بن عاصم، في الأحكام. ويصفه التُنْبُكْتي في «نيل الابتهاج» بأنه «شرحٌ حسن وفيه فقه متين وتصرف عجيب ونقل صحيح»[1]. كذلك يصفه أبو العباس المقّري بالشرح العجيب ويقول: «وهو كتاب نافع فيه فقه متين ونقل صحيح»[2].

وورد ذكر هذا الشرح في غير ما مصدر[3].

وتوجد منه نسخ مخطوطة في المكتبة الوطنية في تونس وخزائن أخرى متفرّقة. أما أرجوزة والده التي شرحها ابنه أبو يحيى فتسمّى: «أرجوزة تحفة الحكام في نكت العقود والأحكام» وهي مطبوعة طبعات كثيرة عربية وأجنبية.

٤ ـ ولأبي يحيى بن عاصم «تقييدٌ عرّف فيه أهلَ بيته»[4].

٥ ـ وله تآليف وتعاليق في مسائل (فقهية)[5].

٦ ـ ووقع بينه وبين عصريّه الإمام المفتي الصالح أبي عبد الله السرقسطي نزاع في مسائل ومراجعات مع التزام كل منهما حسن الأدب مع صاحبه شأن سادات العلماء[6].

٧ ـ وله فتاوى مختلفة وقع بعضُها في كتاب «المعيار المعرب» للونشريسي[7].

---

(١) ـ نيل الابتهاج ٣١٣.

(٢) ـ أزهار الرياض ١ / ١٤٥.

(٣) ـ نفح الطيب ٦ / ١٤٨، المعيار المعرب ٣ / ٢٨ (ويسميه شرح رجز الحكام) ٣ / ٢٥، توشيح الديباج ١٢٦، طبقات المالكية ٤٣٨، نيل الابتهاج ٣٤٢، شجرة النور الزكية ١ / ٢٤٨.

(٤) ـ ذكره التنبكتي في نيل الابتهاج ص ٢٨٥، ٢٨٩ ونقل منه.

(٥) ـ نيل الابتهاج ٣١٣.

(٦) ـ نيل الابتهاج ٣١٣.

(٧) ـ انظر مثلاً: المعيار المعرب ٣ / ٢٥، ٢٨، ٥ / ٢٠٠.


جنة الرضا
في التسليم لما
قدّر الله وقضى

أ ـ المصادر التي ذكرته :

كتابُ «جنّة الرضا» من المصنفات الغريبة في موضوعها وطريقة تأليفها، ولذلك نال هذا الكتابُ اهتماماً كبيراً منذ تأليفه، وقد ورد ذِكْرُه في عددٍ من المصادر الأدبية وكتب التراجم، نذكرها فيما يلي :

١ ـ نيل الابتهاج للتنبكتي، ذكره ضمن مؤلّفات ابن عاصم[١].

٢ ـ هدية العارفين لاسماعيل باشا البغدادي، وسمّاه «جنّة الرضا في التسليم لما قدّر الله تعالى وقضى»[٢].

٣ ـ إيضاح المكنون لاسماعيل باشا البغدادي، وورد اسمه فيه «جنة الرضا في التسليم لما قدّر الله تعالى وقضى»[٣].

٤ ـ أزهار الرياض لأبي العباس المقّري، وقد مدح المؤلّف كتابَ «جنة الرضا» وقال فيه : «وهو كتابٌ عجيبٌ جدّاً غريب، رأيتُ بَعْضَهُ بتِلِمسْان»[٤]. كما أنه اقتبس منه عدة اقتباسات بيّناها في حواشي النصّ المحقّق.

٥ ـ نفحُ الطيب لأبي العباس المقّري، وقد ذكر المقّري كتاب «جنّة الرضا»[٥]. واقتبس منه عدة اقتباسات بيّناها في حواشي النصّ المحقّق.

٦ ـ شجرة النور الزكيّة في طبقات المالكيّة لمحمد بن محمد بن مخلوف وقد سمّاه «جنّة الرضا في التسليم لما قدّر وقضى» وقال عنه : «كتابٌ عجيبٌ

---

(١) ـ نيل الابتهاج ٣١٣.

(٢) ـ هدية العارفين ٢ / ٢٠٠.

(٣) ـ إيضاح المكنون ١ / ٣٦٩ ووردت الإشارة إليه أيضاً في الجزء الأول ص ٥٧٨.

(٤) ـ أزهار الرياض ١ / ٥٠، وورد ذكره أيضاً في مواضع أخرى من أزهار الرياض (انظر: ١ / ١٤٥).

(٥) ـ نفح الطيب ٤ / ٥٠٧ ـ ٥٠٨، ٦ / ١٤٨.

جدّاً غريب ألّفه يندُبُ بلادَ الأندلس ويحرّكُ عزائِمَ الإسلام لنُصْرةِ الدين لمّا استولى العدوُّ على غالبِ تلك البلاد.»[1].

ب ـ ظروف التأليف وأسبابه:

ورد في أزهار الرياض للمقّري أن ابنَ عاصم «عندما رأى اختلالَ أمر الجزيرة وأخْذَ النصارى لمعظمها، ولم يبقَ إذ ذاك بيد المسلمين إلاّ غرناطةُ وما يقربُ منها، مع وقوع فِتَنٍ بين ملوك بني نصر حينئذ، ثم أفضى المُلْكُ إلى بَعْضِهم بعد تمحيصٍ وأمور يطولُ بيانُها، ألّفَ كتاباً سمّاه «جنّة الرضا في التسليم لما قدَّر الله وقضى» وهو كتابٌ عجيبٌ جدّاً غريب، رأيتُ بَعْضَه بتلمسان، ونقلْتُ منه ما نصّه...»[2].

ويقولُ محمد بن محمد بن مخلوف في «شجرة النور الزكية» إنّ ابنَ عاصم ألّفَ هذا الكتاب «يندُبُ بلادَ الأندلس ويحرّكُ عزائِمَ الإسلامِ لنصرة الدين لمّا استولى العدوُّ على غالبِ تلك البلاد»[3].

والمطالعُ لكتابِ «جنّة الرضا» لابن عاصم لا يجد فيه ما ينصُّ نصّاً مباشراً على هذه الدوافع التي ذكرها المقّري وابن مخلوف. ولكنّه ربما استنتج أن أجواء الفتن التي كانت تسود مملكة غرناطة في أيامه لم تَغِبْ عنه أثناء تأليف هذا الكتاب؛ ولعلّ تلك الأجواء كانت من بين الحوافز التي حفزته إلى تأليف هذا الكتاب في موضوع «المحنة والابتلاء» وهو ما كانت تمرّ فيه الأندلس. ولعلّ استكثارَ المؤلّف من الاستناد إلى أحداثٍ تاريخية كانت غرناطةُ مسرحاً لها في عصره، يدلُّ على أنّه ربّما كانت هنالك علاقةٌ بين تأليف «جنّة الرضا» وبين تلك الأحداث التاريخية. وهنالك إشاراتٌ وردت في مقدمة هذا الكتاب تدلُّ على تلك العلاقة، فمن ذلك قوله: «ثم إذا نَظَرْنا جاري عادة الله

---

(1) ـ شجرة النور الزكية ١ / ٢٤٨ ـ ٢٤٩.

(2) ـ أزهار الرياض ١ / ٥٠.

(3) ـ شجرة النور الزكية ١ / ٢٤٨ ـ ٢٤٩.

في خلقه فالزمانُ في إدبار والخيرُ في انتقاص والشرُّ في ازدياد والصلاحُ في اضمحلال، حسبما وعد بذلك الصادقُ المصدوق، فما الذي يُطلَبُ وقد انتصف القرنُ التاسع، وتباعَدَ بنا عن مظانّ رحمةِ الله الوطنُ الشاسِع؟! . . »[١].

ويهدِفُ ابنُ عاصم من كتابه هذا إلى تقديم العظة والعبرة والتنبيه من الغفلة لأهل عصره، فيقولُ في مقدّمته: «أما بعد، فإن في حوادثِ الأيّام لأولي الأفهام اعتباراً، وفي طوارق الليالي، لأرباب الهمم العوالي، اختباراً، وفي مجاري الأقدار للذواتِ الشريفةِ الأقدار استبصاراً. . . »[٢].

ولعل المقصودين بهذا الاعتبار من حوادث الأزمان هم أهل غرناطة وملوكها.

ويربط ابنُ عاصم بين الحوادث التاريخية الماضية والحوادثِ التي وقعت في غرناطة في أيامه، وكأنه أراد أن يستخلِصَ العِبَرَ مِنْ الحوادث الماضية لوضع تلك العبر في خدمة الحوادث التي عايشها وشاهدها في غرناطة، إذْ نراه يقول في مقدّمة كتابه:

«وإني وقفت بالحِنْكَةِ والتجربة من استحالة أحوالِ الدنيا، وسُرْعةِ تقلّبها إلى الغاية القصيا، مما كان لي مَدْرَكاً علمياً، وحاصلاً حصولاً حِكْمِيّاً، على عجائبَ حتى ليس فيها عجائب، وغرائبَ تُستحلى بها أسمارٌ وتُحْدى نجائب، شاهدتُ فيها أنواعاً من العِبَر وعايَنْتُ بها أشباهاً من الآياتِ الكُبَر، ووقفت منها على أنموذجٍ من قيام الساعة، واعتبرتُ منها بمختلف من عاقبةِ المعصية والطاعة. . . » إلى أن يقول: «فقد كان في أحوال الوقتِ الراهنة عَجَبُ عجاب وبرهانٌ لا يَكْتُمُ نُورَهُ حِجاب، وقياسٌ اكتنف مقدماتِهِ الكليّةَ سلبٌ وإيجاب، بينما الوجودُ مستقرّ، وسير فلكه مستمِرّ، ومعالمه في سُكون ودَعة، ومواسِمُهُ في نمو وسَعة، وأهلهُ في غفلة لاهون، وأربابُه في غمرة ساهون، والأعمال

(١) ـ جنة الرضا ص ٧ ـ ٨ من الأصل المخطوط.
(٢) ـ نفسه ص ٣.

مختلفة بين معصية وطاعة، وجدٍّ وإضاعة، وصحيحٍ وفاسد، ونافقٍ وكاسد، وحقٍّ وباطل، وحالٍ وعاطل، وصحيح ومعتلّ، وقويم ومختلّ، وكلٌّ ذلك قد اشتمل عليه الكتاب، واستُقْبِلَ به الحساب، وإذا بالآياتِ ظاهرةُ الآيات، والحوادثُ الكُبَرُ آتيةٌ بالعبر. . . »[1].

ولعل هذا الهدف، هو الذي جعل ابن عاصم يضع لكلّ صورةٍ من صُوَرِ الابتلاء خاتمة أطلق عليها اسم «خاتمة الصورة» وضمنها الحوادثَ التاريخية التي وقعت في غرناطة في عصره مما يناسب تلك الصورة.

ويُفْهَمُ من مقدمة المؤلف أنه كان في ضيق ومعاناة دَفَعَتْهُ إلى تأليف كتابه ليكون الكتابُ مرشداً له ولمن هو في مثل حاله للصبر على مضض الحوادث؛ ولذلك يقول في وصف الكتاب:

«أرودُ منه أنا ومن يكون في مثل حالي الوقتيّة روضاً يجتني منه ثمراً، ويقتطِفُ منه زهراً، ويُسَرِّحُ منه ناظِرَهُ في حدائق ذات بهجة، ويثني منه على حسن طويّة وصدق لهجة، يرشده للصبر على مضض الحوادث، والرضا بما يأتي به القضاء من الخطوب والكوارث، والتفويض لله في مواقع أقداره، والتسليم له في إيراد كلّ أمرٍ وإصداره»[2].

أما سببُ تسمية الكتاب بـ «جنّة الرضا في التسليم لما قدّر الله وقضى» فهو ما يذهب إليه المؤلف من ضرورة تفويض الأمور لما يقدّره الله ويقضيه، وينصّ المؤلف في مقدمة كتابه على هذه التسمية فيقول «وسميته بجنّة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى»[3].

وإلى جانب دعوته لتفويض الأمور إلى الله تعالى، فإنّ المؤلفَ يرشدنا إلى وسائل مواجهة كلّ صورة من صور المحن والابتلاء التي تواجه الإنسان

(١) - نفسه ٣ - ٤.
(٢) - نفسه ص ١٢.
(٣) - نفسه ص ١٢.

أفراداً وجماعات في الأموال والممتلكات والنفوس. وعلى ذلك فإن ابن عاصم يقيم كتابه على مبدأ العمل والتوكّل وليس على أساس التواكل.

جـ ـ زمن التأليف:

ذكر المؤلِّفُ في أكثر من موضع في هذا الكتاب زمن تأليفه له، وذلك على النحو التالي:

١ ـ ورد في مقدمة الكتاب النصّ التالي: «فما الذي يُطْلب وقد انتصف القرن التاسع...»[1].

ويفهم من هذا القول أن المؤلف كان يضع كتابه بعد عام ٨٥٠ هـ.

٢ ـ وعندما يتحدّث عن الجرادِ الذي انتشر في غرناطة يقول:

«... لهذا الجراد المنتشر اللاحقة غائلتُه شرقيَّ هذا الوطن في هذا العام الذي هو عام اثنين وخمسين وثمانمائة»[2].

٣ ـ ويتحدث عن هجومٍ للنصارى على ظاهر مربلّة فيقول:

«وأنا أقول إن هذا اللطفَ الواقع اليومَ في هلاكِ هؤلاء النصارى بظاهر مربلة...... في يوم الخميس الثامن لشهر الله المحرم فاتح عام اثنين وخمسين وثمانمائة»[3].

ويفهم من هذين النصين أن ابن عاصم كان يعمل في تأليف كتابه عام ٨٥٢ هـ.

٤ ـ ويقول في موضع آخر:

«وفي صفر من صدر سنتنا هذه التي هي عام أربعة وخمسين وثمانمائة اشتعلت به في الوطن نارُ الفتنة»[4].

---

(١) ـ نفسه ص ٨.

(٢) ـ نفسه ص ٧٢.

(٣) ـ نفسه ١٥٢.

(٤) ـ نفسه ص ٥٧.

وواضحٌ من هذا النصّ أن المؤلّف كان يقوم على تأليف كتابه سنة ٨٥٤ هـ. والمتابع لهذه الإشارات يلاحظ أن المؤلف قد أورد تاريخين مختلفين لزمن تأليف كتابه، ولكنهما تاريخان متقاربان. ولست أرى في ذلك خلافاً وإنما يمكن تفسيرُ ذلك بواحدٍ من الاحتمالين التاليين:

الأول: أن يكون ابنُ عاصم قد شرع في تأليف كتابه بعد عام ٨٥٠ هـ وانتهى من تأليفه وتصحيحه ومراجعته والإضافة إليه سنة ٨٥٤ هـ.

الثاني: أن يكون المؤلّف قد نقل من مذكّرات أو حوليّات مكتوبة في سنوات مختلفة.

د ـ منهج المؤلف:

بدأ ابنُ عاصم كتابَه بمقدّمة طويلة استغرقت سبعاً وثلاثين صفحة من أصل صفحات المخطوطة البالغة ثلاثمائة ونيفاً وعشرين صفحة. وجعلها في قسمين: الأول مقدمة للكتاب تحدّث فيها ابن عاصم عن دواعي التأليف ومنهجه فيه وأقسام الكتاب. والثاني مقدمة لموضوع المحن التي تصيب بني البشر؛ وقد أفاض المؤلّف في هذه المقدّمة ببيان رأيه في المِحَنِ التي تلحق بني البشر والوسائل الشرعية لمواجهتها والتغلّب عليها ومنافع الاعتبار بها. ويستطرد من ذلك للحديث عن موضوعات كثيرة مثل السياسة والحكم والعلاقات البشرية والآثام والتوبة والصبر والشكر والثواب والعقاب وغير ذلك. ثم نظم المؤلف أفكاره التي أوردها في مقدّمته في أرجوزةٍ طويلة من مائة وعشرين بيتاً.

كما تحدّث المؤلفُ في هذه المقدمة عن سبب تسميته لكتابه، باسم «جنّة الرضا في التسليم لما قدّر الله وقضى»[1]، وذكر الصور الستّ للابتلاء وهي التي استند إليها في تقسيم كتابه وهذه الصور هي:

---

(١) ـ انظر جنة الرضا ص ١٢ من الأصل المخطوط.

الصورة الأولى: أن يكون الابتلاءُ في المقتنياتِ العزيزةِ على النفوس كالمالِ والجاهِ وما أشبه ذلك متوقَّعاً في الاستقبال وليس بواقعٍ في الحال.

الصورة الثانية: أن يكونَ الابتلاءُ فيها واقعاً في الحال وهو مأمولُ الجَبْرِ ومَرْجوُّ الزوال.

الصورة الثالثة: أن يكونَ الابتلاءُ فيها واقعاً في الحالِ إلّا أنّه غيرُ مأمولِ الجَبْرِ ولامرجوُّ الزَّوالِ.

الصورة الرابعة: أن يكونَ في النفوسِ أو ما لحق بها من أعضاءٍ وقُوى متوقَّعاً في الاستقبال وليس بواقعٍ في الحال.

الصورة الخامسة: أن يكونَ الابتلاءُ فيها في الحال وهو مع ذلك مرجوُّ الزوال.

الصورة السادسة: أن يكون الابتلاءُ فيها واقعاً في الحال إلّا أنّه غيرُ مرجوِّ الارتفاعِ والزوال[1].

كما أشار المؤلف في هذه المقدمة إلى جوانب من منهجه في تأليف كتابه[2].

وقد عرض ابن عاصم مقدّمة كتابه بأسلوب يعتمد على الدقة في اختيار الألفاظ الدالّة على ما يذهب إليه، ويقوم على الإطناب والتبسّط في استخدامه وسائل الإقناع، كما يتّسم هذا الأسلوب بالتفنن في استخدام أنواع التلاعب اللفظي من سجع وجناس وطباق وتساوي الجمل. أما منهج المؤلّف في معالجة كلّ صورة من صور الابتلاء الست التي أوردها في كتابه، فإنّه يقوم على ذِكْرِ الصورةِ الرئيسية وبيان ما قد يندرج تحتها من أنواع الابتلاءات والمِحَن، ويتحدّثُ عن مصدر هذا الابتلاء وطُرُقِ مواجهته، مستشهداً على ذلك بآياتٍ من القرآن الكريم وأحاديث نبوية شريفة وأقوالٍ للسلف الصالح وغيرهم وإيراد

(١) - انظر جنة الرضا ص ١٣ من الأصل المخطوط.

(٢) - نفسه ص ١١ - ١٢.

للأشعار والقصص والحكايات التي تَقَعُ للناس في القديم والحديث. وقد بيّن ابنُ عاصم هذا النهج في مقدّمة كتابه إذ نراه يقول:

«. . . ووقف الاختيارُ مما صَحَّ نقلاً واعتماداً عليه، والتوشيحُ لذلك كلّه بأبيات شعرية وفصولٍ نثرية حسنةِ الموقع فيما يُتَخَيَّرُ لها من الموضع، والاستظهار على ذلك بالحكايات ممن وقع له من الناس قديماً أو حادثاً مثل ذلك الابتلاء، وما لله تعالى في جَبْرِ أحوالهم وتبليغ آمالهم من المواهب والآلاء، والاستطراد إلى ما يتعلّق بذلك كله من وفاء صديق عدّ وفاؤه من أتم الألطاف الخفية، . . . والإلمام بما ورد من الوصايا بعدم مطاوعة مقتضى الأحزان، والإشارة إلى ما يُلْتَمَسُ من ذلك من نصوص السنة والقرآن، حتى يكونَ بحول الله ـ كتاباً مُـمْتِعاً وتأليفاً مُقْنِعاً، أرود منه أنا ومن يكون في مثل حالي الوقتيّة روضاً يجتني منه ثمراً، ويقتطِف منه زهراً. . .»(١)

وقد جعل المؤلف لكلّ صورة من الصور الستّ خاتمة سمّاها «خاتمة الصورة» قصرها على سوْق حوادث من عصره في غرناطة مما يلائم تلك الصورة، وكأنه قصد من هذا الترتيب أن يضع خلاصَة ما يصلُ إليه من عَرْضِ كلّ صورة في خدمة خاتمة الصورة.

ويذكر لنا المؤلف سبب إيرادِه للحكايات المختلفة في كتابه فيقول: «وإنما القصد بذلك عدم الإملال وأن يكون الناظر في الكتاب ينتقل من حال إلى حال»(٢).

وقد يجد الباحث في هذا الكتاب بعضَ أوجه الشبه بينه وبين كتاب «الفَرَج بعد الشِدّة» للتنوخيّ لأنّ كثيراً من الحكايات التي يوردها ابنُ عاصم في جنّة الرضا يمثل الفرج الذي يتبع الشدائد، كما أن ابن عاصم أكثر من النقل عن كتاب «الفرج بعد الشدة».

---

(١) ـ نفسه ص ١١ ـ ١٢.

(٢) ـ نفسه ص ٧٧.

وقد ألّف في موضوع المحن قبل ابنِ عاصم عددٌ من المؤلفين منهم أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم التميمي المتوفى سنة **٣٣٣** هـ في كتابه الموسوم بالمحن (وهو منشور)، وقد كانت تلك المؤلّفات تقوم على الترجمة للأشخاص أو إيراد الروايات فقط وأنّ أحداً من مؤلّفيها لم يسبق ابنَ عاصم إلى طريقته هذه في التأليف الذي يعتمد تصنيف المِحَنِ إلى صور وأنواع مع تحليلٍ للحكايات والقصص التي تندرج تحت كل صورة واستخراج العبر والدروس منها، ووضع قواعد وحدود لها.

والمتأمّل لمنهج ابن عاصم في «جنّة الرضا» يلاحظ تشابهاً من جهة اخرى مع رسالة طوْق الحمامة في الأُلفة والأُلاّف لابن حزم، ليس في موضوعها بل في منهجها وذلك من جهة تمثيل ابن عاصم بحوادث مما وقع له وحوادث تاريخية في الأندلس شاهدها وشارك فيها، كما فعل سابقه ابن حزم في موضوع «العشق».

ويسجّل لابن عاصم في هذا الكتاب دقّة النقل، وردّ الحكايات والروايات والأقوال إلى مصادرها وقائليها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

ومما يُسَجَّلُ له أيضاً حرصُه على تقديم الأدلّة المقنعة لآرائه المختلفة، ولم يكتف بإيراد الأدلّة النقلية من نصوص القرآن والسنّة وغيرهما بل أضاف إلى ذلك أدلّةً عقلية وعمليّة، جعلته قادراً على النفاذ إلى عقول قرّائه ووجداناتهم.

وقد ساعده على ذلك خبراتُه الطويلة وثقافته الواسعة. ونجد المؤلف يتعامل مع الروايات والحكايات المختلفة بروحٍ علمية دقيقة إذ يَعْمَلُ على تحليلِ الحكايات والأخبار تحليلاً يستخلص منها عصاراتٍ مفيدةً يقدّمها للناس المبتلين بحوادث الزمن، وهو بذلك أشبه بالطبيب النفساني الذي يعرفُ ما في بواطنِ مرضاه وما يمكن أن يبعثَهُ في تلك النفوس من الأمل والراحة والطمأنينة. وعلى الرغم من إيراد المؤلف لتفصيلاتٍ تاريخية عن أحداث عصره إلا أنّه

يفهم من بعض الإشارات أنه عمد إلى الاختصار[1].

هـ ـ وصف المخطوطة:

اعتمدتُ في تحقيق كتاب «جنّة الرضا» على نسخةٍ فريدة مخطوطة موجودة في الخزانة الملكيّة الحسنية في الرباط وتحمل الرقم ٢٦٤٨.

والمخطوطة في سفر ضخم يقع في ١٦٨ ورقة بخط مغربي جميل متأنق فيه بعض الشكل، وبأول هذا السفر زخرفة ذهبية كتب فيها اسم المؤلف. وفي كل صفحة من صفحات المخطوط ستة وعشرون سطراً، متوسط ما في السطر الواحد أربع عشرة كلمة في ثلثها الأوّل والأخير وخمس عشرة كلمة في ثلثها الأوسط. وقد كُتِبَ في صدر صفحة الغلاف ما نصّه:

«الحمد لله نُقِلَتْ من خطّ أمير المسلمين أبي الربيع مولانا سليمان[2] قدّس الله ثراه يوم عاشوراء... مما عمروها، قال بعض الأنبياء: يا رب إنّك تمدّ لملوك الفرس في المدّة مع كفرهم. قال تعالى: «إنهم عمروا بلادي... عبادي». والعمارة مع عدم الظلم مأمورٌ بها. والظالمون أعدّ لهم ناراً وأحاط بهم سرادقها. سليمان لطف الله به».

ويوجد في صفحة الغلاف بعد ذلك اسم المخطوط ومؤلّفه على النحو التالي: «جنّة الرضا في التسليم لما قدّر الله وقضى لولد الإمام ابن عاصم ناظم التحفة في الأدب». وفي مكان النقط كلمات تعذرت قراءتها بسبب خروم في النسخة.

وقد جرى الناسخ على كتابة أبواب الكتاب وأوائل الفقرات والحكايات

---

(١) ـ نفسه ص ٢٦٩.

(٢) ـ السلطان المشار إليه هو أبو الربيع سليمان بن محمد الحسني من ملوك الدولة العلوية الحاكمة الآن في المغرب. تولى الملك عام ١٢٠٦ هـ / ١٧٩٢م وتوفي عام ١٢١٤هـ/١٧٩٩م (انظر سيرته في: الاستقصاء للناصري / القسم الثالث من الجزء التاسع في الصفحات ٣ ـ ٩٧).

بخطّ عريض بالمداد الأحمر وخصوصاً الكلمات الافتتاحية مثل: وقال، ويحكى، وفي مثل هذا المعنى، وعن بعضهم. . . الخ، لكنه ترك بعض هذه العبارات أو الكلمات الافتتاحية في بعض الأحيان دون كتابة ليملأها فيما بعد بالمداد الأحمر، فلم يعُدْ إليها وظلّت بياضاً، وخصوصاً عندما شارف على الصفحات الأخيرة من النسخة (ص ٣١٥ وما بعدها). وقد اجتهدتُ في تقدير مواضع البياض اعتماداً على ما جرى عليه الناسخُ في مثل أحوالها السابقة لها.

وفي مواضع قليلة جدّاً كنّا نرى الناسخ يستدرك على نقصٍ أو خطأ فيجعل الصوابَ أو الاستدراكَ على هامش النسخة.

وعلى الرغم من قيام التحقيق على نسخة واحدة، إلّا أنّ هناك بعضَ الأسباب التي قلّلت من ضرورة وجود نسخة أخرى للمقابلة وهذه الأسباب تتمثل في:

١ ـ حُسْنِ خطّ الناسخ ووضوحه.
٢ ـ وُجودِ قَدْرٍ من الاقتباسات من كتاب «جنّة الرضا» في كتابَيْ أزهار الرياض ونفح الطيب لأبي العبّاس المقّري.
٣ ـ توافرِ عَدَدٍ غيرِ قليل من المصادر التي اعتمد عليها ابن عاصم في تأليفه، وخصوصاً المصادر التي اعتمد عليها في إيراد الحكاياتِ والأمثال والأشعارِ والنصوصِ التراثيّة المختلفة.
٤ ـ إلفة المحقق بلغةِ المؤلّف التي استخدمها في هذا السفر الكبير، إذ ساعدت هذه الإلفة ـ بعد قراءة المخطوطة كاملة ـ على التغلّب على صعوبة تبيّن الكلمات غير الواضحة النسخ.

و ـ منهج التحقيق:

راعيتُ في تحقيقِ هذه المخطوطةِ ما يلي:

١ ـ إذا وقع خطأٌ نحويٌّ أو إملائيّ ناجمٌ عن سَهْوٍ أو تقديمٍ لكلمةٍ أو

تأخيرٍ لها في المَتْن أثبتُّ الصوابَ في موضعه من المتن ثم ذكرتُ الأصلَ في الحاشية.

٢ ـ إذا سقطَتْ من المتن لفظةٌ أو عبارة أو سطرٌ أو أكثر، وعثرتُ على ما سَقَطَ من النصّ في مصدرٍ آخر، أثبتّ النقْصَ في موضعه من المَتْن وجعلْتُهُ بين قَوْسَيْن، وذكرتُ مصدر استدراكهِ في الحاشية.

٣ ـ في حال امّحاءِ كلمةٍ أو أكثر أو سقوطها سهواً، واستطعتُ تقديرَها، أثبتُّ ذلك في المتن وجعلتُه بين معقوفتين، وأشرتُ في الحاشية إلى أنّ الكلمةَ التي بين المعقوفتين «بياض» في الأصل وأنَّ ما أثبتُّه هو من تقدير المحقّق لها.

٤ ـ حَرَصتُ على إيراد ترجمات مختصرة مشفوعة بالمصادر للمغمور من الأشخاص والأماكن الجغرافية، ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، ولم أترجم للأعلام أو الأماكن الجغرافية التي قَدَّرْتُ أنّها معروفةٌ للباحثِ العاديّ.

٥ ـ أوضحتُ معانيَ بعض المفردات التي تساعد معرفتُها على استجلاء أبعاد النصّ.

٦ ـ عملتُ على توثيقِ الآيات القرآنية والأحاديثِ النبوية الشريفة والأمثالِ والأشعارِ والحكاياتِ والوصايا من مصادرِها الأصليّة، ما استطعتُ إلى ذلك سبيلاً، وما لم أجد له مصدراً فقد تركته وشأنه.

٧ ـ ذكرتُ أرقامَ الصفحات للأصل المخطوط، وجعلتُ رقم كل صفحة في بدايتها وعبّرتُ عن كل صفحة بحرف (ص) عليه رقم تلك الصفحة، وجعلتُ ذلك بين قوسين، وذلك لأنني أَحَلْتُ الباحثَ في مقدّمة هذا التحقيق إلى صفحاتٍ من الأصل المخطوط.

٨ ـ حوّلتُ رَسْمَ الكلمات كما هو واردٌ في المخطوط إلى رسم حديث، فعـدّلتُ ما ورد في المخطوطِ من تسهيلٍ للهمز والخلط في كتابة الألف الممدودة والألف المقصورة وغير ذلك. واستثنيت من هذه القاعدة الحالات التي يستدعي السجعُ الإبقاء على رسمها الواردِ في المخطوطة.

٩ ـ اجتهدتُ في معرفةِ قائلي الأبيات الشعرية غير المنسوبة إلى قائل، وما أعياني الوقوفُ على قائله تركته دون نسبة.

١٠ ـ أثبتُّ في الحاشية بعضَ الاختلافات الواقعة بين الروايات والأقوال والأشعار كما وردت في متن المخطوطة وما وردت عليه في المصادر الأخرى، وركّزتُ على الاختلافات التي تؤثر في معنى الرواية ومسارها.

١١ ـ متى وقع في المتن اسمُ كتابٍ أو رسالةٍ لم تصلنا اجتهدتُ في ذكر أسماءِ المصادر الأخرى التي ورد فيها ذكرُ ذلك الكتاب أو الرسالة.

2648

صفحة الغلاف

الصفحة الثانية

الصفحة الثالثة

6

مقيتها من الخطأ والخلل ولم تنهسم الشفة لا سيما إن كانت الرواية التي أرت على سابق [illegible]
مخطلبت الورق حميته والتزلزلة الشيبتة علاوة على تحرير العصر واستيعاب [illegible]
فحسب ذلك كله من جميل الصنع وكرم الناس ما كان سببا في نفاسة العرض [illegible]
لأمل والفهم من سنى المقاصد منتهى الرغم جعله الله من الشاكرين لنعمائه [illegible]
عليه وإنه مدّ منه الكريم فختمت به هذه الضرورة من سلوك المحال بحرمة
الجناب العلي بما به حرمه. ارا حمه ذمة. من أعجب العجائب وأبدع الغرائب
من كان لهم حالة صرفا وهمهم ملك الا وملبسه لا زمة الى الصيد والطلعة من
ضبه على العكس كما ان كثر ازدحام بالقلعة وبروز سبل العبادة فاخذ الامراء
الى الذين هذا البحر في الحومة واحاط النهر في الظلام، ولم يحصر كثر من اربعة [illegible]
اليه ولا من عاشر ثم وضعته الفرقة فما فعاله بيده ولو حبنا الى بعض هذا الحد
الصغير لاستوينا اهل الارض جميعا من ان نعمة وما يلزمنا به واحسان النعم
ووجوه البلاد وبياض الناس واصناف الرعايا وعوام الشرقة قبله في اهمال [illegible]
به وبوجه الوجوه نحوه وميلان النفوس اليه وانعطاف القلوب عليه اذ اعجاب
شخصه عن العيان او عرض له حادث من الزمان حاجبة عجيبة. ومن به غريبة
ما يمكن ان نشير الا الى صنع المولى وتدبيرنا لنا لا نستدام ما يبح ذلك من تبجيل
امور صغيرة وتيسير اسباب عسيرة سواء امر الفراق الذي عظاله السلاطين وطوى بساط
ذلك لا بساط، وحل ارتباط ذلك الاختلاط، ونشأت في صدور كثير من الخاصة وبذات
غوائل وسوء كرب كبار اعترضت عليه اشياء ما لو صورت من سببه من الله لما جرى
على ان نسوقها الا لسنة، ولسنة السيئة الحسنة. وذلك لم يكن الهيبة اذ داهية.
وسفرهما لأن واستشكال الرسمية في ذلك الوقت وارتفاعا عنها الا بيوم قبل من الجانب الثالث
البيت من بنا الا ساجا سطوة مخوفة وحسب بهم من مرهوبة فعارضا من شلفان
لمزيد ذكر العزاة وحمل ثقل غرب الصرامة وثاب غلب سمات العزم واستنزال الي على
مجرى الهدم من الهدم وابتسم البعاث واستاسد السنانير وكان الفراغ الذي يحتمله [illegible]
احد من البيتين، وإقامة الحكم السياسي بكل به الدولة لا حتى الى الخميس ونظم ما عمد [illegible]
الصنع الرباني صفات النعم فصار عند ذلك العقول المصيبة ولا يملك الناظر ولا ذا الكاتب
الثالثة حسنة فلا يتملا على ما تضمنته من الحكم البالغة البالغة والقدرة

اشادسه

العابد

الصفحة قبل الأخيرة

الصفحة الأخيرة

(ص ٢)　　　　بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيّدنا ونبيّنا ومولانا محمّد وآلهِ وصحبِه وسلّم تسليما.

[مقدّمة المؤلّف](*)

قال الشيخ الفقيه العالم قاضي الجماعة أبو يحيى بن أبي بكر بن عاصم رحمه الله تعالى: الحمدُ لله الذي بقَدَرِهِ الحزَنُ والفرح، والمساءة والسُّرور، وبيده البسْطُ والقَبْض، والرَّفْعُ والخَفْض، والغنى والفقر، والخَلْق والأمر، وإليه ترجع الأمور، وبقضائه المعافاة والابتلاء، والتنبيه والإملاء، والسرّاء والضرّاء، والسُّقْمُ والإبراء، والعجز والكيْس، والخفاء والظهور، وبمشيئته الشقاءُ والسعادةُ، والبدءُ والإعادة، والعزة والذلّة، والكثرة والقلّة، والحسنات والسيئات، والآثام والأجور، وعن علمه الإيمانُ والكفر، والعُرْفُ والنُّكْر، والإقبال والإعراض، والتسليم والاعتراض، والإشفاق والعجب، والخشية والغرور، ومن موعوده النعيم والجحيم، والسلسبيل والحميم، والرَّوْح والسَّموم، والطَّلح والزقّوم، والأساور والأغلال، والأرائك والأنكال(1)، والفوز والخسار، والحبور والثبور، الذي حكم بأنَّ أجر الصبر موفى بغير حساب، ولن يستوجب ذلك إلّا الصَّبور، واعلم أنّ المتبوئين لمثوى كرامته، والحالّين بدار مقامته، يقولون ﴿**الحمدُ لله الذي أَذهبَ عَنّا الحَزَنَ إنَّ رَبَّنا لَغفورٌ شَكورٌ**﴾(2). نَحْمَدُهُ سبحانه، وبحمده تتم الطَّلَبات، ولمجده ترفع الرغبات، وبفضله تُسْتَجْلَبُ الخيرات، وبعونه تُسْتَدْفَعُ الشُّرور، ونشكره جلّ وعلا، وشكره عملٌ لا يضيع

* ـ العنوان الذي بين المعقوفتين من إضافة المحقّق.

(1) ـ الأنكال: جمع نِكْل، وهو القيد الشديد، أو قيد من نار.

(2) ـ آية ٣٤ من سورة فاطر.

وأملّ لا يخيب، وذخيرة لا تبيد، وتجارة لا تبور. ونستغيث به في كلّ كربٍ ألمّ، وفي كلّ خطبٍ أهمّ، فمنه الإعانة وبه الاستغاثة، وإليه النُّشور.

ونستوهب النجاةَ من مُوجب خطابه بقوله: **﴿ولكنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وتَرَبَّصْتُم وارْتَبْتُم وغَرّتكُمُ الأمانيُّ حتى جاءَ أمرُ الله وغرَّكُم بالله الغَرور﴾**[1].

(ص٣) ونشهد أنّ محمداً عبده ورسولُه نبيّ الشفاعة الماحية للذنوب، وقد ثقُلت بها الظُّهور، ووليّ الهداية التي بها تيقُّنُ المؤمن وتيمّن المُوقِنِ وتبيُّـن الملحد وتعيُّـن الكفور. صلّى الله عليه وعلى آله الذين هم في الجود غُيوث، وفي البأس ليوث، وفي الهداية شهبٌ، وفي الكمال بدور، ما أعقب الغدوَّ رَواح، والمساءَ صباح، والغيمَ صحوٌ والظلمةَ نُور.

أما بعد، فإنّ في حوادث الأيّام، لأولي الأفهام، اعتباراً، وفي طوارق الليالي، لأرباب الهمم العوالي، اختبارا، وفي مجاري الأقدار، للذوات الشريفة الأقدار استظهاراً، وفي مجاني الألطاف الدانية القطاف، المائسة الأعطاف، في روضها الجمّ النطاف، استبصاراً، فتعالى مالكُ الملك، ومقدِّرُ النجاة والهلْك، ومدبّرُ الفَلَكِ ومُسخّرُ الفُلْك، ومنوِّرُ الظُّلَم المدلهمّة من الليالي الحُلْك، لا إله إلاّ هو العزيز الحكيم، هَدى وأضلّ، وأعزّ وأذلّ، وأضحك وأبكى، وأمات وأحيا، وساء وسرّ، ونفع وضرّ، وأحنث وأبرّ، وأحلى وأمرّ، ومنح ومنع، ووصل وقطع، وخفض ورفع، وفرّق وجمع، وأمرض وشفى، وعاقب وعفا، ووكل وكفَى، وأفقر وأغنى، وأبعد وأدنى، وأراح وعنّى، وعذر وسنّى، وأخّر وقدّم وأوجد وأَعْدَم، وأسعد وأشْقى، وأذهب وأبقى، وخوّف ورجّى، وأهلك ونجّى **﴿لا يُسْئَلُ عمّا يَفْعَلُ وهم يُسْئَلون﴾**[2] ألا **﴿له الحُكْمُ وإليه تُرْجَعون﴾**[3].

---

(١) - آية ١٤ من سورة الحديد.

(٢) - آية ٢٣ من سورة الأنبياء.

(٣) - من الآية ٨٨ من سورة القصص.

وإني وقفْتُ بالحِنكةِ والتجربةِ من استحالة أحوال الدنيا، وسرعة تقلُّبها إلى الغاية القصيا، مما كان لي مَدْرَكاً علميّاً، وحاصلاً حصولاً حِكْمياً، على عجائب حتى ليس فيها عجائب، وغرائب تُسْتَحْلى بها أسمارٌ وتُحدى نجائب، شاهدتُ فيها أنواعاً من العبر وعاينت بها أشباهاً من الآيات الكُبَر، ووقفتُ منها على أنموذج من قيام الساعة، واعتبرت منها بمختلِفٍ من عاقبة المعصية والطاعة، ورأيت منها مثالاً لتطاير الصُحُفِ بالأيْمان[1] والشِمال[2] على وفق الراضي أو رغم الساخط. واستحضرت منها في الخيال الفكريّ تمثالاً للجنة والنار في عرض الحائط، ولله المثل الأعلى، وفيما ظهر من الحدوث والافتقار على قِدمه وغناه الدليل الأجلى، هذه الجملة وإن احتملت بسطاً يوضّح تفاصيلها، واستدعت شرحاً يبيّن تماثيلها، فلن تخفى على الفهم هذه الإشارات، ولن تلتبس ما تقتضيه في حال من شبه بهم الإنذارات والبشارات، فقد كان في أحوال الوقت الراهنة عجبٌ عجاب، وبرهانٌ لا يكتم نوره حجاب، وقياس اكتنف مقدِماتِه الكليّة سَلْبٌ وإيجاب، بينما الوجود مستقر، وسير فَلكِه مستمرّ، ومعالمه في سكون ودَعة، ومواسمه في نمو وسَعة، وأهله في غفلة لاهُون، وأربابُه في غمرة ساهون، والأعمالُ مختلفةٌ بين معصية وطاعة وجدٍّ (ص٤) وإضاعة، وصحيحٍ وفاسد، ونافقٍ وكاسِد، وحقٍّ وباطل، وحالٍ وعاطل، وصحيحٍ ومعتلّ، وقويمٍ ومختلّ، وكلُّ ذلك قد اشتمل عليه الكتاب، واستُقْبِل به الحساب، وإذا بالآيات ظاهرةُ الآيات، والحوادثُ الكُبَر آتيةٌ بالعِبر، مِنْ سدٍّ صار دكّاً، ونبأ عظيم صَحَّ وكان شكّاً، وصوتٍ لا يُسْمَعُ إلّا همسُه، وغدٍ قصُر عن حادثه أمسُه، ويوم طَلَعَتْ من المغرب شمسُه، إلى أن قامت القيامة، ووقعت الحسرةُ والندامة، وفرَّ المرءُ عمّن فرّ[3]، وقال الإنسانُ يومئذٍ أين المفرّ، وراعَ موقفُ السؤالِ والعَرْض، وعظُمَ مقامُ المجازاة على هذا

(١) ـ جمع يمين ضد اليسار.

(٢) ـ مما تُجمع عليه «الشِمال» بقاؤها بلفظ الواحد.

(٣) ـ يشير إلى الآيات الكريمة: ﴿يَوْمَ يفِرّ المَرْءِ من أخيه، وأُمِّهِ وأبيه، وصاحِبَتِه وبنيه، لكلِّ امرىءٍ منهم يومئذ شأنٌ يُغْنيه﴾. (الآيات ٣٤ ـ ٣٧ من سورة عبس).

الفَرْض، وحضر المطيعُ والعاصي، وحُشِرَ الداني والقاصي، وأهمت كلَّ واحد منهم نفسُه، واختلف على حسب سابقته حدسُه، فمن سابقٍ قصدُه قد نجح، ووزنه بسواه قد رجح، فهو من تقريبه قد انتهى إلى سِدْرة المنتهى، ومن ذاهب من أهل الدثور بالدرجات العُلى، فاز بخير الآخرة والأولى، فما على سبقِه غِشا، وذلك فضلُ الله يوتيه من يشا، ومن مرضيٍّ عنه قيل له اعمل ما شئت فمسموحٌ لك ما فيه قَصَّرْت، ومقبولٌ منك ما به جئت، ومن ناجٍ ولا عمل له إلّا الشهادة، وقد استوجب بها الحسنى والزيادة، ومن مطيعٍ قد ظهرت عليه آثارُ طاعته فأوتي كتابهُ بيمينه لتعيين طاعته، ومن مستظْهرٍ بالطاعة وقد نَقَصَتْهُ شروطُها، وأعْوَزَهُ مشروطُها، فنال دون ما أمَّله، وقيل لا أُمٍّ له، ومن عاصٍ قد غُفِرت ذنوبه، وظهرت لعين الرضا عيوبه، ومن مُخَلّطٍ[1] ركَنَ إلى مقبول التوبة، وفاز من قصده بمحمود الأوبة، ومن موبق استنقذته الشفاعة من زلله، وأبرأته العناية اللاحقة من علله، ومِنْ أَخْسَرَ في عمله، أهوجَ في أمله، قد ضلّ سعيُه وهو يحسب أنه يُحْسِن صنعاً، وفال رأيه وهو يظنّ أنه يجلب نفعاً، فَشَقِيَ مع الأشقين، وأشبه بشرر شرّه وخبيث رائحته الغِين[2]. ومن منافق قد خانه رياؤه، وفُقِد بالغشّ حياؤه، فطاح بالفضيحة عمله، وأخفق في سِجِّين[3] أملُهُ. ومن مترف كبا لفيِّه بمعاصيه، وأنزله الذنب بدرك الذلّ من فنن العزّ وصياصيه[4]، ومن مُجْرمٍ لم يقبل منه يومئذٍ فداء ولو كان ببنيه، وصاحبته وأخيه، وفصيلته التي تؤويه. ومن واقفٍ بين الخوف والرجاء، منتظرٍ لما يجري به فصلُ القضاء، قد تساوت حسناته وسيئاته، وَوَقَتْهُ قرباته وأحاطتْ به خطيئاتُه، فهو كأهلِ الأعرافْ لهم في دخول الجنّة طَمَع، وإذا صُرِفَتْ أبصارُهم تِلقاء أصحاب النار فلهم من جَعْلِهم مع الظالمين جَزَع. ولو تتبعنا التمثيلَ لطال، وسَئِمَ مُنتظِرُ

---

(١) ـ المخلِّط: من يخالط الأمور.

(٢) ـ الغِين بكسر الغين موضعٌ كثير الحمّى.

(٣) ـ سِجّين وادٌ في جهنم.

(٤) ـ مفردها صِيصة وهو الحصن وكل ما آمتُنعَ به.

(ص ٥) وعدِنا المِطال، وحسبُك ما أوردنا من نبذة كافية، وآية للمستبصرين هادية، ولله قول أبي العتاهية[1]:

ما اخْتَلَفَ الليلُ والنَّهارُ ولا دارتْ نجومُ السَّماءِ في الفَلَكِ
إلّا لِنَقْلِ السُّلطانِ عن مَلِكٍ قد انقضى مُلْكُهُ إلى مَلِكِ

إنما قرّرتُ من هذا التمثيلِ ما قرّرت، وحرّرتُ فيه من العبارة ما حرّرت، ليكونَ لي ولمن اعتبر بمثل اعتباري، ووثِقَ بما حققتُ له من اختياري تذكرة، ومن غفلةِ هذه النفوس الأمّارة بالسوء تَبْصِرة، وَلأُدْرِكَ علّتي في أخذ هذا التمثيل مأخذَ العِبرة والعِظة، والتنبيهِ به للقلوب المستيقِنة والنفوسِ المستيقِظة، فقد نُقِلَ عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: «نِعْمَ البيتُ الحمّام يذكِّرُ جهنّم وينقّي الدَّرَن»[2]. وقد نُقِلَ عن الربيع بن خُثَيْم[3] أنه مرّ بأتّون حدّاد فغشِيَ عليه، فلما أفاق سُئل عن ذلك فذكر أنه تذكّر بذلك الأتّون نارَ جهنّم أو كما حُكِيَ عنه[4]، وقال الحكيمُ ابنُ نوح[5] لبعض إخوانه: اتكأ مالكُ بنُ دينار[6] ليلةً من أوّلِ الليل إلى آخره لم يسجد فيها سَجْدة ولم يركَعْ فيها ركعة ونحن معه في البحر، فلما أصبحنا قلت له: يا مالِك لقد طالت ليلتُك لا مصليّاً

---

(١) ـ ديوان أبي العتاهية ص ٣١٦.

(٢) ـ بهجة المجالس ٢ / ٩٥ (منسوباً إلى أبي الدرداء).

(٣) ـ أبو يزيد الربيع بن خُثَيْم من أعلام الزهاد والمتصوّفة، كوفي، من سادة التابعين توفي في حدود ٧٠ هـ، وقيل في حدود التسعين، وروى أحاديثه البخاري ومسلم. (حلية الأولياء ٢ / ١٠٥، الوافي بالوفيات ١٤ / ٨٠، تقريب التهذيب ترجمة رقم ١١٨٨).

(٤) ـ حلية الأولياء ٢ / ١١٠.

(٥) ـ لم أجد له ترجمة.

(٦) ـ أبو يحيى مالك بن دينار البصري، كان عالماً زاهداً وكان يكتب المصاحف بالأجرة وله كرامات، توفي بالبصرة سنة ١٣١ هـ. (انظر ترجمته في: حلية الأولياء ٢ / ٣٥٧، صفة الصفوة ٣ / ١٩٧، تهذيب التهذيب ١٠ / ١٤، وفيات الأعيان ٤ / ١٣٩).

ولا داعياً، قال: فبكى ثم قال: «لو يَعْلَمُ الخلائقُ ماذا يستقبلون غداً ما لذّوا بعيشٍ أبداً، إني والله لما رأيتُ الليلَ وهوله وشدةَ سوادِه ذكرتُ به الموقفَ وشدةَ الأمر هنالك، وكلُّ امرىء يومئذٍ تهمُّهُ نفسُهُ لا يُغْني والدٌ عن ولد ولا مولودٌ هو جازٍ عن والده شيئاً». ثم شَهِقَ شَهْقة فلم يزل يضطربُ ما شاء الله ثم هدأ، فحمل عليَّ أصحابُنا في المركَب وقالوا: أنت تَعلمُ أنه لا يحمل الذكر فلمَ تَهِيجُهُ؟ قال: فكنت بعد ذلك لا أكاد أذكُرُ له شيئاً.

وبعد الفراغِ من هٰذا المثال الذي اتضحتْ به منافعُ الاعتبار، وإتباعه بهذه الحكايات التي سُقْتُها عنه في مساقِ الاعتذار، وقفتُ للإمام أبي حامد الغزاليّ رحمه الله في بيان كيفيةِ توزّعِ الدَرجاتِ والدَركاتِ في الآخرة على الحَسَنات والسَيّئات في الدنيا من كتابَ التوبة من الإحياء[1] على مثال أثّر لي أُنْساً، وأذْهَبَ عني في هذا المعنى وَحْشَةً، فمن أراده فليقِفْ عليه هنالك.

ومثل هذه الحكايات عن أهل الاعتبار من المتصوّفة أولياءِ المراقبة وغيرهم كثير، والمثالُ لا يقوى قوةَ ما مُثّل به، ولا يفي بمَقْصَد البيان الواضح ومَطْلَبه، لأن القياسَ في هذا (ص ٦) المعنى لا يصحّ والحقيقة لا تُدْرَك، وإن أفرطَ في الإلحاح على إدراكها المُلحُّ، ولكنَّ المَثَلَ قد يُؤخذُ مأخذَ التقريب للفهم، أو التنبيهِ من الوقوف على شبه الوهم، وإلا فما نسبةُ الخوف والرجاء من الكبير المتعالي، وإماطة مسبّبات هذين المقامين بذلك الجناب العالي، من الخوف والرجاء من مخلوقٍ لا يملك لنفسه، فضلاً عن غيره، ضرّاً، ولا نَفْعاً، ولا يستطيع لمسرّتها ولا لمضرّتها جَلْباً ولا دفعاً، ولا يدّعي في أرزاقها وآجالها بحسب إبطائها وإعجالها وَضْعاً ولا رَفْعاً، إنما هو ربٌّ مربوب، وطالِبٌ مطلوب، وَحَكَمٌ محكومٌ عليه، وملِكٌ مملوكٌ لما لديه، استخلفه الله على خلقه، وقسم على يديه ما سنّى من رزقه، وأمره أن يقوم فيما أُسْنَد إليه من الأمور بحقّه، وجعله ظِلّاً يأوي إليه كلُّ مظلوم، وقِسْطاساً يقع به العدل بين كل خصيم ومخصوم، وقضى بأنّ الخلق مفتقرون إليه، وهو مفتقِرٌ إليهم،

(١) ـ إحياء علوم الدين / أبو حامد الغزالي ٤ / ٢٣ ـ ٣٢.

وملتمسون ما لديه، وهو ملتمسٌ ما لديهم، ولهم النظر في شؤونهم عليه وله النصيحة عليهم.

شَهِدَ ذلك كلُّه بأن لا غِنى للناس عنه ولا غنى له عنهم، وأن لا بدّ لهم منه ولا بدّ له منهم، حتى يتبيّنَ أنّ الخلقَ كلَّهم من مَلِكٍ وسُوقةٍ، وراعٍ ورعية، فقراءُ على الإطلاق، ومُمْلِقون إلى الله كلُّ نَفَسٍ نَفْسٍ بأتمّ وجوه الإملاق، وأنَّ الغنى الذي لا يَنْفَد على الإنفاق، ولا يخشى قاصدُ بابه من الإخفاق، إنما هو غنى الواحد الخلّاق، الوهاب الرزاق، وبذلك يظهرُ معنى قوله: ﴿**يا أيُّها الناسُ أنتمُ الفقراءُ إلى الله والله هو الغَنيُّ الحميد**﴾[1].

وإذا كان ذلك كذلك فإنّما السلطان مُظْهِرٌ لحكم الله في الوجود، وسببٌ يُناطُ به ما قَدَّرَ الله من رزق أو مَنَح من جود، إلى سوى هذا من أحكام، دائرةٍ بين نقضٍ وإبرام، هو فيها بحسب إرادة الله مصرَّف، والملائم والمنافر بحسب تلك الإرادة السابقة منه متعرَّف، فإذا أعطى الله على يديْه، أو سوَّغ الفَضْلَ ممّا لديه، أو دَفعَ محذوراً بجهاده، أو نَفَعَ مظلوماً باجتهاده، فلله الحمدُ واصباً، ومنه المنّة دائباً، والدعاءُ لخليفته حقّ، والثناءُ عليه مُسْتَحَقّ، وإذا ابْتَلَى الله عبده برزق مقدور عليه، أو ضُرٍّ على يديْ من شاء من خلقه باكتساب يديْه، فلا يؤمِّل في توسعةِ رزقِهِ إلّا رحماه، ولا يسْألُ في صرف ما آذاه من خلقه إلّا (ص ٧) إيّاه، وليتذكر قوله تعالى: ﴿**وإنْ يَمْسَسْكَ الله بضُرٍّ فلا كاشِفَ له إلّا هو**﴾[2] وقوله صلى الله عليه وسلّم: «**ولو أنَّ الخَلْقَ اجتمعوا على أنْ يضرّوكَ بشيءٍ لمْ يقضِهِ الله لك لم يَقْدِروا عليْه**»[3].

وكيف تُناط مسبّباتُ مقاميْ الخوف والرجاء ممّن حالته هذه الحالة، وقد عجِزَ الإنسانُ وعجِزَت المحالة، وتبيّنت من غير ما دليل في نسبة الفعل لغيْر

---

(١) ـ اية ١٥ من سورة فاطر.

(٢) ـ آية ١٧ من سورة الأنعام، وآية ١٠٧ من سورة يونس.

(٣) ـ مسند ابن حنبل ١ / ٢٩٣، ٣٠٣، ٣٠٧.

الله الاستحالة، ولكن الاعتبار بعالَم الشهادة في عالمَ الغيْب حاصل، والنظر بأن لا قياسَ بأحدهما على الآخر واصِل، والاستدلال بما ورد من الاعتبار عمّن يعتمد عن الاعتراض فاصل، فكَمْ من ناظرٍ لا يتجاوز ما دنا منه من الأسباب، ولا يسْلُكُ من مناهج الاعتبار ما يسلكه أولو الألباب، ولا يترقّى به الفكر إلى أن لا فِعْلَ إلّا لربِّ الأرباب، فَيَخبِط عَشْواءَ في ليلٍ بهيم، ويسْلُكُ جهلاً على غير نهجٍ قويم، ويطلبُ بالكفالة غيرَ زعيم، ويقتضي دَيْناً من غير غريم، وينسب له المطلَ فيما لم يجب عليه قضاؤه، وقد ساء بعدم الإجمال في الطلب اقتضاؤه، ويروم عمرانَ ذمة المَلِكِ بحقه والأصلُ براءة الذمم من الحقوق، ويَسْأَلُ منه الميرةَ بجانبه ذاهلاً عمّا أضاع من الواجب وارتكب من العقوق. والشاهد لهذه الجملة ما رواه عبدُ الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**سيليكُمْ أمراء يُفْسدون، وما يُصْلح الله بهم أكثر، فمن عَمِلَ منهم بطاعةِ الله فلهُ الأجْرُ وعليكم الشُّكْر، ومن عمل منهم بمعصيةِ الله فعليْهِ الوِزْر وعليكُمْ الصَّبْر**»[1].

فعلى الموفَّقِ امتثالُ هذا الأمر النبويّ، وعدمُ العدولِ عن منهجه السويّ، وإذا رُوجع الإنصافَ، وتُؤُمِّلَتْ بعينِ البصيرةِ الأوصاف، فإنَّ الفضلَ على أمرائنا أغلب، وهم ـ ولله المنّةُ ـ إلى الخير أقرب.

ولو أنْصِفْنا من نُفوسِنا، وقايسنا بين رتبةِ رئيسِنا ومرؤوسِنا، واعتمدنا الأمرَ الواردَ في عَيْن القضية، الشاهدَ له برهان الوجودِ بأنّه من الأمور المَقْضِيّة، وهو: كما تكونون يولّى عليكم[2]. وعلمنا أنّ السيرةَ التي نحمدها منهم فإنما هي من فضلِ الله علينا، وأنّ الشيمةَ التي نذمّها منهم فإنما هي ما اجترحْنا من الآثام وجَنَيْنا، فالحقُّ فيها أن نستغفرَ الله ونتوبَ إليه فيصلح لنا سيرتَهم، ونسترشد الله لبصائرنا وسيرشد الله بصيرتهم.

---

(١) ـ مسند ابن حنبل ١ / ٤٢٤، كنز العمال ٦ / ٥٠ (حديث رقم ١٤٨٠٢).

(٢) ـ كنز العمال ٦ / ٨٩ (حديث رقم ١٤٩٧٢). وفيه: كما تكونوا.

ثم إذا نظرنا جاريَ عادةِ الله في خلقه، فالزمانُ في إدبار، والخيرُ في انتقاص، والشرُّ (ص ٨) في ازدياد، والصلاح في اضمحلال، حسبما وعد بذلك الصادقُ المصدوق، فما الذي يُطْلَبُ وقد انْتَصَفَ القرنُ التاسع، وتباعد بنا عن مظانّ رحمةِ الله الوطنُ الشاسع. ومن طالع سِيَرَ الملوك وتأمّل سالفَ التواريخ (فنادرٌ)[1] من الاتفاق، أو مفقودٌ على الإطلاق، وهو كونُ المسيرةِ ممن سلف جاريةً على مقتضى الكمال المفروض في الذهن أو ما يَقْرُبُ منه، ومن ذا الذي يُعْطى الكمالَ فيكمل.

ويشهدُ لاستبعاد وقوعِ ذلك ما حُكِيَ عن أبي جعفر محمد بن جرير الطبري لما بويع ابنُ المعتز قيل لأبي جعفر: قد بويع عبدُ الله بن المعتزّ وترشّح محمدُ بن داود بن الجراح للوزارة، وذكر للقضاءِ أبو الحسن بنُ المدينيّ. فأطرق قليلاً ثم قال: هذا أمرٌ لا يتمّ ولا ينتظِم. فقيل له: وكيف ذلك؟ فقال: «كلُّ واحدٍ من هؤلاء الذين ذكروا متقدِّمٌ في معناه على الرتبة في أبناء جنسه، والزمان مُدْبِرٌ والدنيا مُوَلّية، وما أرى هذا إلاّ إلى اضمحلال وانتقاص ولا يكونُ لمدّته طُول». فكان الأمر كما قال ولم يلبث عبدُ الله بعد أن بُويع غيرَ يومٍ واحد حتى تفرّق الناسُ عنه، وانتُهِبَتْ دارُ العباس بنِ الحسن ودارُ محمد بن داود وظهر مصداقُ فراسةِ الطبري[2].

وعليّ ما للمحبّ من أحسن الاعتقاد، والبراءة من الانتقاد، فلن أبرىء نفسي من المذامّ، ولم أحفل بمدح المادح ولا بذمّ الذامّ، وإني لأعلم من شَغَفِ بالي والفكرة فيما رُزِئْتُ من مالي، وأعتقِدُ ممّن حالُه مثلُ حالي، وآمالُهُ في المالِ والبنين مثلُ آمالي، ما إن ذَهَلَ عن معاناته[3]، وغَفَلَ في مداواته،

---

(١) ـ الكلمة غير واضحة ولعلها كما أثبتنا.

(٢) ـ سوف يأتي تفصيل هذا الخبر مع الترجمة للأعلام الواردة فيه في صفحات لاحقة.

(٣) ـ في الأصل: معاته.

ذهب بصاحبه الفِكْرُ مذَاهبَ غير مَرْضِيّة، واستجرّه إلى نظر غير المتثبّت في أمورٍ مقضيّة، وحمله على استدامة الأسف في كل قضيّة قضيّة، وأنساه أن حُكْمَ الله ماض، وأن المؤمن بما حكم به مولاه راض، وأنّ جميعَ ما في هذه الدار فإنما هي جواهرُ وأعراض، وهي لأَسْهُمِ الفَناءِ على الآناء أغراض، فزوالُها وشيك، وعقلُ مقتنيها ركيك، والتماسُها يتشظّى وينشعِبُ، وحقيقتُها التي أُخْبَرَ عنها الكتابُ العزيزُ لهوٌ ولعِب.

فلو اتّصَفَ حاكُم العَقْلِ بوصف الحكم الجَزْل، وأخذ في الأمر بالجدّ وبرىء من الهَزْل، وقبل شاهدَ العلم وهو العدلُ الرضا، واستقلّ عنده رسم التفويض لما قدّر الله وقضى، لسجّل بأنّ ما أصابنا من مصيبةٍ فبما كسبت أيدينا، والحكم بأنّ استكثارنا من هذا العَرَض الأدنى هو الذي يضرُّنا ويُرْدينا، وأن استمساكنَا بالتسليم، لحكم العزيز (ص ٩)الحكيم، هو الذي يُرْشِدُنا إلى الصواب ويهدينا، وأنّ رضانا بما جرت به أقدارُه هو الذي يمكّن لنا السعادة المأمولةَ دنيا ودينا.

ثم وقفنا من سَعةِ رحمة مولانا فيما أولانا من أنه يعفو عن كثير، ومفهومُه أنّ المؤاخذةَ إنْ وَقَعَتْ فباليسير، على ما لا يُستطاع لشكرِه وفاء، وليس لنعمته خفاء، ويتحقّق به أنّ حقوقَ العقوبة الواجبة محلينا لم يقع لها استيفاء، كما أنّ الرحمةَ الواسعةَ قد حصل منها لقصدِ الرجاء إيفاء.

اللهم كما صرفْتَ عنّا العقوبةَ التي كنّا لها مستحِقّين وفي دعوى البراءة منها غيرَ محقّين، فالطُفْ بنا في مجاري أقدارِك واجعلنا ممن وفَّقْتَهُ إلى الهداية بأنوارِك، وارزُقْنا التفويضَ لما قدّرتَ وقضيت، والتسليمَ فيما حكمتَ وأمضيتَ، بحولك وكرمك.

وإنّ ممّا يأتي به الليلُ والنهار من رفعةٍ وضَعةٍ وضيقةٍ وسَعة لآياتٍ بيّنات، وفروضاً من الاعتبار على الفِكر متعيّنات، وبراهينَ لا يستطيع أن يجحدها

الجاحد، وفي كل شيء له آيةٌ تدلّ على أنّه واحد. * فسبحان الذي جعل من الأيام بين الأنام دولاً و ﴿خَلَقَ الموْتَ والحياةَ ليبْلُوكم أيُّكمُ أحسَنُ عَمَلاً﴾(1) وقدَّرَ مقاسِمَ الأرزاقِ والآجال، وَبايَنَ بين تصاريفِ الأقوالِ والأفعال، وقضى بانتقالِ هذه الدارِ من حالٍ إلى حال، باختلافِ تَضادّاتِها من حَلٍّ وتَرْحال، وجائزٍ ومحال، وحركةٍ وسكون، ونفورٍ وركون، وحزن وفرح، وسرور وتَرَح، ورخاءٍ وأزْل، وولايةٍ وعزْل، وصحة وسَقَم، ونِعَمٍ ونِقَم، وإدراك وفَوْت، وحياة ومَوْت.

والدليل على اطِّراد هذا القياس قوله تعالى ﴿وتلكَ الأيَّامُ نُداوِلُها بينَ النّاس﴾(2). رحم الله الخضِرَ بنَ أبي العافية(3) حيث يقول من مقطوعةٍ له(4):

إنْ أراكَ الـزمـانُ وجهـاً عَبـوُسـا ... سوفَ تلقـاهُ بعـدَ ذلـك(5) طَلْقـا
لايَهُـمَّـنْـكَ حالـهُ إنَّ في طر ... فة عينٍ يرتـاحُ فيه ويَشْـقـى(6)
أيَّ عِزٍّ رَأيتَ أو أيَّ ذلٍّ ... بذوي(7) الحـالتين في الدهرِ يَبْقى

* ـ اقتباس من شعر لأبي العتاهية (انظر ديوانه ص ١٢٢).

(1) ـ من الآية ٢ من سورة الملك.

(2) ـ الآية ١٤٠ من سورة آل عمران.

(3) ـ هو الخضر بن أحمد بن الخضر بن أبي العافية، يكنى أبا القاسم، شاعر مكثر وعالم بالشروط والأحكام، تولى القضاء وبعض الأعمال الكتابية في غرناطة في عهد بني الأحمر وتوفي قاضياً في مدينة برجة عام ٧٤٥ هـ (انظر ترجمته في الإحاطة ١ / ٤٩٤ ـ ٥٠٠ والمرقبة العليا للنباهي ١٤٩ ـ ١٥٢، والكتيبة الكامنة ص ١٧٧ ـ ١٨٢، ونيل الابتهاج ص ١١٠، والديباج المذهب ص ١١٥).

(4) ـ انظر الأبيات في الإحاطة ١ / ٤٩٨.

(5) ـ في الإحاطة: فستلقاه من بعد ذاك.

(6) ـ في الإحاطة: ترتاح فيه وتشقى.

(7) ـ في الإحاطة: لذوي.

سَلْ نجومَ السَّما إذا ما استنارَتْ ما الـذي أوْسَطَ[1] الـظهيرةِ تَلْقى
وتـفـكّـرْ وقُـلْ بغَـيْرِ ارتـياب كلُّ شيء يفنـى وربُّـك يَبْقـى

وللنفوس التي تقيم الشُّبَهَ مقامَ الأدلّة، وتعتبر بالخيالاتِ المُضْمَحِلّة راحةٌ بمثل قول شمس المعالي[2]:

قُلْ للذي بصـروفِ الـدهـرِ عيَّرنـا
هل عَانَـدَ الـدهْـرَ إلّا منْ لهُ خَطَرُ
أَمَـا تَرى البَحْـرَ تطفـو فوقَـه جِيَفٌ
وتـسـتـقِـرُّ بأقـصـى قَعْـرِهِ الـدُّرَرُ

(ص ١٠)

وفي السمـاءِ نجـومٌ ما لهـا عَدَدٌ[3]
وليسَ يكْسَفُ إلّا الشَمسُ والقَمَـرُ[4]

لمـا كانت هذه الـدار، ولا تفـارقهـا الأكدار، ممتزجةَ الأضداد هذا الامتزاج، ومزدوجة النقائص على حسب ما قُرِّرَ من الازدواج، فالغَيْثُ لا يخلو من العَيْث، والعجلة متعقّبة بالريث[5]، والخيرُ ملزومٌ للعكس، والسَعْدُ ممنوٌّ بالنحس، وكانت الحنيفيّةُ السَّمْحةُ قد حدّت لكل مقامٍ من هذه المقامات، على اختلافها وتباعد ما بين أطرافها، ضروباً من التعبّدات تليقُ بكلّ مكلّفٍ

---

(١) ـ في الأصل: ما الذي في وسط، وفي الإحاطة: ما الذي في وقت.

(٢) ـ هو شمس المعالي قابوس بن وشمكير الديلمي، كان صاحب جرجان وطبرستان، وكان أديباً مترسلاً، توفي سنة ٤٠٣ هـ (انظر معجم الأدباء ١٦ / ٢١٩ ـ ٢٣٤، يتيمة الدهر ٤ / ٦٧) وانظر هذه الأبيات في المرقصات والمطربات لابن سعيد ص ٦٠، ويتيمة الدهر ٤ / ٦٩، ومعجم الأدباء ١٦ / ٢٢٤.

(٣) ـ في المرقصات والمطربات: لاعداد لها، وفي معجم الأدباء: غير ذي عدد.

(٤) ـ في يتيمة الدهر بيت آخر بين البيتين الثاني والثالث وهو:

فإن تكـن نشبت أيدي الـزمـان بنـا ونـالـنـا من تمادي بؤسـه الضررُ
ففي السماء نجومٌ... الخ

(٥) ـ الرَيْث: الإبطاء.

حلّ في مقامٍ منها وتُناسِبُه، وتنمو بحسب امتثالها من سعادةِ الداريْن مكاسِبُه، وأرشدتْ في استدامة ما لاءم منها النفوس وغمر الرَّبْعَ المأنوس إلى أعمال هي سِلكٌ لفرائدها وصُوان لفوائدها، وقيدٌ لشواردها، وعلاوة على حفظ وصف الصفاء لمواردها، كما أشارت أيضاً في استدفاع ما أشْعَرَ منها البُوس، وجلا الوجْهَ العبوس، إلى تراكيبِ أدويةٍ مضمونةِ الأشفية تُسْتَقْبَلُ بها أمراضُها، وتُصْلَحُ بها أعراضُها، وتُخَفَّفُ بها آلامُها، وتَتلقَّى بجُنَّتها الواقيةِ سهامُها. وهذا القسم الأول من هذين القسمين يشبه من الصناعة الطبيّة القسمَ الأولَ المسمّى بحفظِ الصحة، والقسمُ الثاني منها يُشْبِهُ القسمَ الثاني من تلك الصناعة المسمّى ببُرْءِ المرض، شَبَهاً صحيحَ الاطّراد، وافياً من تقريبه في التمثيل المُراد.

وكان هذا القسم الثاني في الصناعة المذكورة هو المطروقُ لمؤلفيها، والمنطوقُ فيه بحسب كلّ علّةٍ علّة ما يتمّم مقاصد مداويها ويستوفيها. (٥)ن هذا القسمُ المشبّهُ به ـ من الأحوالِ الواردةِ على الناس من مواردِ الأقدار على غير إرادتهم. وبحسب الإخراجِ لهم عن مألوفِ أحوالهم ومُعْتادِ عادتهم أهمُّ ما دَعَتْ الضرورةُ إلى النظر في علاجه، والإرشادِ إلى ما يصلحه، بمقتضى طبع الوقت ومزاجه.

وكان هذا القسمُ من الابتلاء الواقعِ في هذه الدار والتمحيصِ الوارد في ضمن الأقدار، لا يعدو أحد وجهين:

الوجه الأول: أن يكون وارداً على الإنسانِ في نفسِه من أَلَمٍ ألمّ، أو نَكَدٍ أهمّ، أو فَقْدِ سَمْعٍ أو بَصَر، أو نَقْصِ قُوّةٍ من قُوى البشر، أو على ما يحلُّ محلَّ نفسه من أبناء جنسه، كفقْدِ حبيب إليه، أو سَكَنٍ عزيزٍ عليه، أو حميمٍ أثيرٍ لديه، وعلى الجملة فنقصٌ في أصلٍ أو ولدٍ أو مكينٍ مِنْ خَلَد.

الوجه الثاني: أن يكون وارداً على الإنسانِ خارجاً عنه فيما يكونُ له أو منه، كتعذُّر رِزْق أو تَخَلُّفِ قَصْد أو سَلْب (ص ١١) نعمة، أو نَقْصِ حُرْمة، أو جائحةٍ اجتاحَتْ له مالاً، أو نكبةٍ سَلَبَتْ جاهاً وغيّرت حالاً.

ولا يخفى ما يحق في كل قسم من الجزئيات التي لا تُعَدّ، ولا يكاد يَحْصُرُها الحدّ. وفيما وقع موقع التمثيل ما يغني عن التفصيل، لأولي التحصيل.

وكلا القسمين موجبُ حزناً وأسفاً، ومقتضٍ وجْداً وتَلَفاً، ومُسْتَدْعٍ - إن لم يَتَلافَ البَرُّ الرحيمُ - فَقْداً أو تَلَفاً، ومَظِنَةٌ لِأن يُحْسِنَ الله منها عِوَضاً وخَلَفاً. وشرطُ ذلك أن يتأدّبَ بآداب الشريعة، ويَسْتَدْفِعَ الاسترسالَ مع مقتضى الطبع البشريّ سَدّاً للذريعة، ويَتَحَيَّلَ في صَرْفِ الأَسَفِ والحزن عن القلب وإن استدعاهما داعي الجبلّة[1] وداعي الطبيعة. فما تركت السَّمْحةُ، على شارِعِها الصلاةُ والسلام، خيراً عاجلاً ولا آجِلاً إلّا وقد أوْضَحَتْ السبيلَ إلى اجتلابه، ولا أبقت شراً عارضاً للمكلّف في دينه أو دنياه إلّا وقد أرشدَتْ بأتمِ الإرشادِ إلى اجتنابه، حكمةٌ من الله بالغة، ونعمةٌ على عباده سابِغة، تَقِفُ العقولُ وإنْ رَجَحَتْ، والألبابُ وإن بَهَرَتْ مداركُها النافذةُ وَوَضَحَتْ، حَسِيرةً دون مداها، وضالّة إنْ لم يستنر بنورها المُشْرِقِ وهداها. فلو اجتهد المجتهدون، وشمّر عن ساعِدِ جِدّه المجدّون، وقد أطلقوا مِن أَلْسِنَة بيانِهم عقالاً، وأحرزوا من البلاغة مَقاماً سامياً ومَقالاً، لَمَا بلغوا من حَمْدِ الله على هذه النعمة الكُبرى والموهبة العُظْمى مَبْلَغاً يغني، ولوقفوا موقفَ العجز عن الدرجة التي تطمح إليها بغيةُ المتمنّي، فلله الحمدُ دائباً على عصمتنا بحكمة تكليفنا عن مهاوي الهوى، وله الحمد دائماً على استمساكنا نيّةً وعملاً بعروتها الوُثْقى، فإنما الأعمالُ بالنيّات «وإنما لامرىء ما نوى»[2].

وإني اسْتَخْرتُ الله تعالى في الكلام على ذلك القسم الذي سَبَقَ في التمثيلِ أنه شبيهٌ ببُرْءِ المرض، وتلخيص ذلك القصدِ المهمّ الآن لديّ من هذا الغرض والإبانة عمّا يتعلّق بذلك كلّه من الزهد والتوكّل، والقناعة والتجمُّل،

---

(١) - في الأصل «الحبله» ولعل المثبت هو الصواب لتوافق كلمة «الجبلة» مع كلمة الطبيعة في الجملة التالية لها.

(٢) - صحيح البحاري ١ / ١٩ - ٢٠، مسند ابن حنبل ١ / ٢٥، ٤٣.

والصبر والتحمّل، والاعتماد على الله في طلب الرزقِ مع الإجمال فيه، والتزامِ الأدب في ارتكاب السبب، على الوجه الذي يستكمل منه القصد ويستوفيه، والإلمام بالدعواتِ المنزلةِ من تلك الأعراض، منزلةَ الأدويةِ من الأمراض، حسبما سَبَقَتْ في صدرِ هذا المجموع الإشارةُ إليه، ووقف الاختبارُ مما صحّ نقلاً واعتماداً عليه، والتوشيح لذلك كلّه بأبياتٍ شعرية وفصولٍ نثرية حسنةِ الموقع فيما يُتَخيَّر لها من الموضع، والاستظهار على ذلك (ص ١٢) بالحكايات ممن وقع له من الناس قديماً أو حادثاً مثلُ ذلك الابتلاء، وما لله تعالى في جبر أحوالهم وتبليغ آمالهم من المواهب والآلاء، والاستطراد إلى ما يتعلّق بذلك كلّه من وفاء صديقٍ عُدّ وفاؤه من أتمّ الألطاف الخفية، ومِنْ أدلّ الدليل على شَرَفِ الأنفُس الوفية، أو ظهور خلاف ذلك من ثانٍ منح الله التجربة علاوة على تحقيق ما أكنّ، وإبداء ما أضمر وأجنّ، والإلمام بما ورد من الوصايا بعدم مُطاوعةِ مقتضى الأحزان، والإشارة إلى ما يُلْتَمَسُ من ذلك من نُصوصِ السُنَّةِ والقرآن، حتى يكون بحول الله ـ كتاباً ممتعاً، وتأليفاً مقنعاً، أرودُ منه أنا ومَنْ يكون في مثل حالي الوقتيّة رَوْضاً يَجْتني منه ثمراً، ويَقْتَطِفُ منه زهراً، ويسرح منه ناظره في حدائق ذات بهجةٍ، ويثنى منه على حسن طويّة وصِدْقِ لهجة، يُرْشِدُه للصبر على مَضَضِ الحوادث، والرضا بما يأتي به القضاء من الخطوب الكوارث، والتفويض لله في مواقع أقداره، والتسليم له في إيرادِ كلّ أمرٍ وإصدارِه.

وسمّيته بـ «جنّة الرضا، في التسليمِ لما قدّر الله وقضى».

ومن الله أسألُ أنْ يَجعَلَ فيه السعْيَ خالصاً لوجهه الكريم، مزلفاً لديه في جنّاتِ النعيم.

وهو وإن جمعتُه بالقصْدِ الأوّل على أن يكون لي من الغَفْلَةِ عن الآداب الشرعية مانعاً، ومن الاسترسالِ في ميْدان الأسى والأسَفِ وازعاً، فإني بالقصدِ الثاني أرجو أن ينفعني الله بدعوةٍ صالحةٍ من واقفٍ عليه يكون بيني وبينه قدرٌ مشترك، ويكونُ بين صبره وحوادث الأيام والليالي مُعْتَرَك، فيلفي فيه الجُنَّة

محكمةَ السرد، وافية من الوقايةِ بالقصد، ويجد الأدوية لألمه مضمونةَ الشِفا، مشهورةَ الأعيان عن الخفا. فلا يبخلْ عليّ بما استهديتُه من صالح دعائه بنيّةٍ صادقة من إهدائه، جَعَلَنا الله من الراضين بقضائه، المحافظين من التفويضِ والتسليمِ على قصد إرضائه.

وصلّى الله على محمد خاتم أنبيائه، وعلى آل محمد وأصحابه وأوليائه وأحبّائه، وسَلَّمَ تسليماً كثيراً إلى يوم لقائه.

ولعلّ بعضَ مَنْ يقف على هذه الجملة، ويطالع ما بهذه الخُطْبة، يستقْصِرُ ما يأتي به المُعاصر، ويرى أنّ وَصْفَ التقدُّم للأفضلية حاصر، وأنّ الجديدَ ما كان ليسَ بأهلٍ للاقتناء، ولا المُعاني له بمحلّ للثناء، فقد أحسنَ ابنُ شَرَف[1] الجوابَ عن ذلك بقولِه: [2]

قُلْ لمنْ لا يَرى المُعاصِرَ شيئاً ... ويَرى للأوائِلِ التَّقْديما
إنَّ ذاكَ القديمَ كان جديداً ... وسَيَغْدو هذا الجديدُ قديما

وهذا أوانُ البداية، ولله الرغبةُ في التوفيق والهداية.

إنّ هذه الابتلاءات (ص ١٣) المعهودةَ في هذه الدار لا يخلو أن تكونَ متوقّعةً في الاستقبال أو واقعةً في الحال، وأياً ما كانت فلا يخلو أن تكونَ في المُقْتَنَياتِ العزيزةِ على النفوس، كالمالِ والجاهِ وما أشبه ذلك، أو في النفوسِ

(١) ـ هو أبو عبد الله محمد بن أبي سعيد بن أحمد بن شرف الجذامي، كاتب وشاعر، ولد بالقيروان ورحل إلى الأندلس، وتوفي بإشبيلية سنة ٤٦٠ هـ، وقد كان صديقاً لابن رشيق. ألف أبو عبد الله بن شرف عدداً من الرسائل والكتب منها: أبكار الأفكار، لمح الملح، أعلام الكلام، ومجموعة من المقامات، ومجموعة من الحكم والأمثال (انظر ترجمته في: الذخيرة ق٤ م١ ص ١٦٩، الخريدة ٢ / ١١٠، معجم الأدباء ١٩ / ٣٧، المطرب ٦٦، فوات الوفيات ٣ / ٣٥٩، الوافي بالوفيات ٣ / ٩٧، الصلة ٢ / ٦٠٤، أخبار وتراجم أندلسية ص ٣٥)

(٢) ـ ورد البيتان في أعلام الكلام لابن شرف نفسه ص ٢٨.

وما لحِقَ بها من أعضاءٍ وقُوى كما أشار إلى ذلك زيادةُ بنُ زياد[1] في قوله: [2]

هل الـدهْـرُ والأيّامُ إلاّ كمـا ترَى   رزيّةُ مالٍ أو فِراقُ حَبـيبِ

ثم لا يخلو الواقعُ من ذلك في الأموالِ وما شابهها أو في النفوسِ وما شاكلها أن يكونَ مأمولَ الجَبْر مَرْجُوَّ الارتفاع أو غير مأمولِ الجَبْر ولامرجوّ الارتفاع، فهذه ستُّ صُوَر:

الصورة الأولى: أن يكونَ الابتلاءُ في المُقْتَنياتِ العزيزة على النفوسِ كالمالِ والجاهِ وما أشبه ذلك مُتوقّعاً في الاستقبال وليس بواقعٍ في الحال.

الصورةُ الثانية: أن يكونَ الابتلاءُ فيها واقعاً في الحالِ وهو مأمولُ الجَبْر ومرجوُّ الزَّوال.

الصورةُ الثالثة: أن يكونَ الابتلاءُ فيها واقعاً في الحال إلاّ أنّه غيرُ مأمولِ الجَبْرِ ولامرجوّ الزوال.

الصورةُ الرابعة: أن يكونَ الابتلاءُ في النفوسِ أو ما لحق بها من أعضاءٍ وقُوى مُتَوَقَّعاً في الاستقبال وليسَ بواقعٍ في الحال.

الصورةُ الخامسة: أن يكونَ الابتلاءُ فيها[3] في الحال وهو مع ذلك مرجوُّ الزوال.

الصورةُ السادسة: أن يكونَ الابتلاءُ فيها واقعاً في الحال إلاّ أنّه غيرُ مرجوِّ الارتفاع والزوال.

---

(١) ـ لعله زيادة بن زيد العذري الذي أورد ابن قتيبة في الشعر والشعراء بعض أخباره (الشعر والشعراء ٤٣٤ ـ ٤٣٨ ضمن ترجمة هدبة بن خشرم العذري).

(٢) ـ ورد هذا البيت في كتاب الأمثال والحكم للرازي ص ٤٥ منسوباً إلى زياد بن زيد أو أيمن بن خريم، وورد في التمثيل والمحاضرة ص ٦٦ ونهاية الأرب للنويري ٣ / ٧٣ والحماسة البصرية ٢ / ٤١١ مسوباً إلى زياد بن زيد، وأورده الإبشيهي في المستطرف منسوباً إلى أبي الأسود كما ورد في ديوان الإمام علي بن أبي طالب ص ٢٩.

(٣) ـ ربما أغفل الناسخ كلمة «واقعاً» بين كلمتي «فيها» و «في».

تحت هذه الصُّوَرِ من الابتلاءات والتمحيصات والاختبارات جزئياتٌ متعدّدةٌ ينشأُ عنها من الحُزْن والأسفِ والوَجْد والتَعَب والكرب والقلق والهمّ والنكد وغيرِ ذلك من التأثُّرات النفسانية ما يُذْهِلُ العقلَ ويَشْغَلُ الفكرَ ويعمرُ القلبَ ويُتْعِبُ النفسَ ويضيقُ الصدرَ ويُذْهِبُ النومَ ويطردُ الأنسَ، ويتفاوت أثره بحسب مؤثّره في اللين والشدّة والثقلِ والخفةِ، والكثرةِ والقلّة، وبحسب المُلاقي له والواردِ عليه، وقوّةِ الجأْش وضعفه، ومضاءِ العزيمة ووهنها، استشعاراً للصبر وعدمه واستحضار الأوامر الشرعية في مثل حالته والغيبة عنها والاعتبار[١] بقول القائل[٢]:

عجباً للزّمانِ في حالتَيْهِ ولأمْرٍ دُفِعْتُ مِنْهُ إليْهِ
رُبَّ يَوْمٍ بكَيْتُ فيه فلمّا صِرْتُ في غيرِه بكيْتُ عليْهِ

لاستحالة الأحوال، وتعاقب مُبْتَغى الأهواء ومُتّقى الأهوال، فالزمانُ بذلك (ص ١٤) عُرِف، وبهذا المعنى وُصِف، والله في قوله أصدق، والقلبُ بوعده أوثق ﴿فإنّ مع العُسْرِ يُسْراً إنّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً﴾[٣]. وقد صدق محمَّد بنُ عبد الملك في قوله:[٤]

---

(١) ـ في الأصل: ولا اعتبار.

(٢) ـ ورد البيت الثاني في التمثيل والمحاضرة ص ١٠٦ منسوباً لابن بسام، وجاء البيتان منسوبين للإمام علي في ديوانه ص ٢١١.

(٣) ـ الآيتان ٥، ٦ من سورة الشرح.

(٤) ـ البيتان لأبي جعفر محمد بن عبد الملك بن الزيات ت ٢٣٣ هـ وزير المعتصم. (انظر البيتين في ديوان محمد بن عبد الملك الزيات ص ٦٦ نشر وتقديم الدكتور جميل سعيد ـ القاهرة ـ ١٩٤٩م).

وانظرهما أيضاً في: وفيات الأعيان ٥ / ١٠٠، والوافي بالوفيات ٢ / ٣٣ وقد كتب بهما ابن الزيات إلى الخليفة المتوكل عندما حكم عليه المتوكل أن يزج في التنور لكن المتوكل لم يقرأ البيتين إلا في اليوم التالي، فلما قرأهما أمر بإخراجه، فجاؤوا إليه فوجدوه ميتاً، وذلك سنة ٢٣٣ هـ (انظر المصدرين السابقين).

هي السَّبيلُ فمِنْ قَوْمٍ إلى قَوْمِ ... كأنّها ما تُريكَ العَيْنُ في النَّوْمِ
لا تَجْزَعَنَّ رُوَيْداً إنَّها دُوَلٌ ... دُنْيا تَنَقَّلُ مِنْ قَوْمٍ إلى قَوْمِ

[مقدمة الموضوع][*]

ولنقدّمْ هنا مقدمةً لائقةً بالموضع في غرض التداوي جملياً كالشأن في مَعَاني عِلْمِ الطبّ.

إذا نظرَ في المرض وهو لم يتعَيَّنْ بعد أو تعيَّنَ وأرادَ أن يَسْتَعْمِلَ له دواءً خاصاً به، فإنّه يَلْزَمُ العليلَ قبل ذلك صورةٌ من الاحتماء يُسمّيها مقدّمة، فنقول: إنّ هذه النِعم المبثوثَة في هذه الدار من صحةِ الجسم، ورخاءِ العيش، وصلاحِ الحال، وحفظِ المال، وهناءِ الوقْت، وسعادةِ الجدّ، واستقامةِ الجاه، واستمرارِ الولاية، واستدامةِ العناية، وتأتّي الأرَب، وتسنّي الآمال، واستدرارِ الرزق، واجتماعِ الشمل، والسلامةِ من الآفات، والحفظِ من الابتلاءات، لها من حيثُ الاستجلابُ والاستدامةُ، والاستكثارُ والاستزادةُ، أسبابٌ حافِظةٌ مثل الشكر لقوله تعالى: ﴿لئِنْ شَكَرْتُم لأزيدَنّكم﴾[1]. وقال تاجُ الدين[2] في حِكَمِهِ (من لم يشكر النِعم فقد تعرّض لزوالها، ومَنْ شَكَرها فقد قيّدها بعقالها)[3]. وما أطبع الصابي[4] في قوله: «موقعُ الشكر من النِعَم موقع القِرى من الضيف إن

* ـ العنوان بين المعقوفتين من إضافة المحقق.

(١) ـ من الآية ٧ من سورة ابراهيم.

(٢) ـ هو تاج الدين أبو الفضل أحمد بن محمد بن رشيد الدين أبي محمد عبد الكريم بن عطاء الله الاسكندري، من مشاهير رجالِ التصوف، توفي بالقاهرة سنة ٧٠٩ هـ وله عدد من المؤلفات منها: التنوير في إسقاط التدبير، لطائف المنن، الحكم، مفتاح الفلاح وغيرها (انظر الوافي بالوفيات ٨ / ٥٧، الدرر الكامنة ١ / ٢٧٣).

(٣) ـ حكم ابن عطاء الله / شرح العارف بالله الشيخ أحمد زروق / تحقيق د. عبد الحليم محمود، ود. محمود بن الشريف. مكتبة النجاح / طرابلس ليبيا ص ١٤٥.

(٤) ـ هو أبو اسحق ابراهيم بن هلال بن هارون الصابىء الحراني، كاتب وشاعر ذو شهرة فائقة، تقلد الوزارة وديوان الرسائل لعدد من الخلفاء العباسيين في بغداد، توفي سنة ٣٨٤ هـ ببغداد. (انظر: يتيمة الدهر ٢ / ٢٨٧، وفيات الأعيان ١ / ٥٢، معجم الأدباء ٢ / ٢٠).

وجده لم يدِمْ وإن فقده لم يُقِم»[1]، والميكالي[2] في قوله: «النِعْمةُ عروسٌ مهرُها الشكر، وثوبٌ صِوانه النَشْر»[3]. ولاستغراقِ الزمانِ في معنى شُكْرِ الله قال الشاعر[4]:

إذا كانَ شُكْري نِعْمةَ الله نعمةً ... من الله في أمثالِها وَجَبَ الشُكْرُ
فكيفَ بلوغُ الشكرِ إلّا بفضْلِهِ ... وإن طالتْ الأيّامُ واتّصلَ العُمْرُ

وصوابُ ما قال الشاعر، فإنّ الله عزّ وجلّ يقول ﴿**وإنْ تَعُدّوا نِعْمةَ الله لا تُحْصُوها**﴾[5]. فإذا كانت نعمةُ الله إنْ عُدّت لا تُحْصى فَشُكْرُه الذي إن فرض أنه يكافئها إنما يكون شكراً لا يُحصى إذا عدّ وكلّ شكرٍ نجتهدُ نحن فيه فإنما هو شكرٌ معدود يُحْصى، فكيف يقابلُ ما لا يُحصى بما يُعَدُّ ويُحصى! ولولا أنّ الله تعالى ذكر في كتابه العزيز من أُثبت له وَصْفُ الشَّكور فضلاً منه ونعمة كقوله في نوح عليه السلام ﴿**إنّه كانَ عَبْداً شَكُورا**﴾[6] وقوله ﴿**وقليلٌ من عِبادِيَ الشَكُور**﴾[7] لكان لمدّعي عجزِ الإنسان عن القيام بشكر الله مقالٌ ومقامُ النبي صلى الله عليه وسلّم في قوله «**أفلا أكونُ عبداً شكورا**»[8] حين قام حتى تورَّمَتْ قدماه بما منحه الله تعالى من خصائص غيره من الأنبياء. (ص ١٥) يشهد

---

(١) ـ وردت في زهر الآداب للحصري ٢ / ٣٨٩ غير منسوبة.

(٢) ـ هو الأمير أبو الفضل عبيد الله بن أحمد بن علي الميكالي ت ٤٣٦ هـ وقد أشاد به الثعالبي في اليتيمة كثيراً وأورد له كثيراً من غرر أقواله (اليتيمة ٤ / ٤٠٧)، وله أبيات كثيرة متفرقة في زهر الآداب للحصري.

(٣) ـ انظر زهر الآداب للحصري ٢ / ٥٤٧.

(٤) ـ البيتان المشاعر محمود الوراق انظرهما في كتاب فضيلة الشكر ص ٤٧، كتاب الشكر لابن أبي الدنيا ص ٤٠ ـ ٤١، وللبيتين تكملة في كتاب الشكر.

(٥) ـ الآية ٣٤ من سورة ابراهيم والآية ١٨ من سورة النحل.

(٦) ـ اية ٣ من سورة الإسراء.

(٧) ـ آية ١٣ من سورة سبأ.

(٨) ـ كتاب فضيلة الشكر ص ٤٩.

لوجود ذلك في أفراد من الأمّة ما حُكِيَ عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي[1] ـ رضي الله عنه ـ قال: قلتُ وأنا في مغارةٍ في سياحتي: إلهي متى أكونُ لك عبداً شكوراً؟! فإذا النِداء عليّ يُقَال لي: إذا لم ترَ في الوجودِ مُنْعَماً عليه غيرَك فأنتَ إذاً شكور. فقلت: سيدي كيف لا أرى مُنْعَماً عليه غيري وقد أنعمتَ على الأنبياء وقد أَنْعَمْتَ على العلماء وقد أنعمتَ على الملوك؟! فإذا النداء عليّ يُقال لي: لولا الأنبياءُ لما اهتديتَ، ولولا العلماء لما اقتديتَ، ولولا الملوكُ ما أمِنْتَ فكلٌّ نعمةٌ منّي[2] عليك»[3].

كذلك ما أشبه الشكر من الأوامر التي هي خاصّةٌ بالقِسْم الأوّل الذي مُثِّل بحفظِ الصحة من صناعة الطب كالإيمان والتقوى. قَال الله تعالى: **﴿ولو أنَّ أهلَ القُرى آمَنوا واتَّقَوْا لفَتَحْنا عليهم بركاتٍ من السَّماءِ والأرْض﴾**[4] وقال الله تعالى: **﴿ولو أنَّ أهْلَ الكتابِ آمنوا واتَّقَوْا لكفَّرْنا عنهُم سَيّئاتِهم ولَأَدْخَلْناهم جنّاتِ النعيم ولو أنّهم أقامُوا التوراةَ والإنجيلَ وما أُنزِلَ إليهم مِنْ ربِّهِمْ لأكلوا من فَوْقِهم ومِنْ تَحْتِ أرْجُلِهِمْ﴾**[5]. وقد تضمنت هاتان الأيتان الكريمتان لأهل القُرى ولأهل الكتاب أنّه إن حصل منهم الإيمانُ والتقوى فإنه يفتح عليهم البركات من السماء والأرض، وإنه إن حصلت منهم إقامةُ التوراة والإنجيل وما أُنزل إليهم من ربّهم فإن الله يسوّغ لهم الأكلَ مِنْ فوقهم ومن تحت أرجلهم. وهذا عبارةٌ عن تهيئةِ الرزق بلا كُلْفَة. وهذا نصُّ القرآن فنحنُ في هذا المعنى مثلُهم.

---

(١) ـ هو شيخ الصوفية تقي الدين أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار. . . . بن الحسن ابن علي بن أبي طالب المعروف بالشاذلي، نسبة إلى شاذلة في تونس. توفي بأرض الحجاز سنة ٦٥٦ هـ (انظر: كتاب الوفيات لابن قنفد ص ٣٢٣، لطائف المنن ص ١٣٥).

(٢) ـ بياض في الأصل مقدار بقية كلمة، وتكملته من لطائف المنن لابن عطاء الله.

(٣) ـ انظر هذه الحكاية في لطائف المنن لابن عطاء الله ص ١٥٨.

(٤) ـ آية ٩٦ من سورة الأعراف.

(٥) ـ الآيتان ٦٥ ـ ٦٦ من سورة المائدة.

وكالتوكل على الله حقَّ التوكل فإنّ الله يسنّي الرزقَ بلا كلفة حسبما اقتضاه قوله صلى الله عليه وسلّم: «**لوْ توكَّلْتُم على الله حَقَّ توكّله لرُزِقْتُمْ كما تُرْزَقُ الطَّيْرُ تغدو خِماصاً وتروحُ بِطاناً**»[1].

وكالصلاةِ الكفيلةِ بسَعةِ الرزق في نظر كثيرٍ من العلماء، وقد يُتَلَمَّح ذلك من قوله تعالى: ﴿**وامُرْ أهْلَكَ بالصَّلاة واصْطَبِرْ عليها لا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ والعاقبةُ للتَّقْوى**﴾[2]. والعاقبةُ أيضاً من ثمراتِ التقوى بنصّ هذه الآية الكريمة. وقد لا تخلو الأعمالُ الصالحةُ من ثمراتٍ عاجلةٍ في الدنيا لاينبغي الالتفاتُ إليها مع الآجلة المؤمّلة الفائدة في الآخرة، وهي في نظر أرباب المراقبة مما لا يُلْتَفَتُ إليها كالعاجلة، ولذلك يُشِيرُ قولُ من قال: (ما عبْدتُكَ خوفاً من نارِك ولاطمعاً في جنّتك) وقد تقرر أنه ليس لنا بمقام.

وإلى ما سَبَقَ من حصولِ الفوائدِ عن الأعمال الصالحة مع دَفْعِ المكروه وجَلْبِ المحبوب يشيرُ قولُ الشيخِ أبي مَدْيَن[3] ـ رضي الله عنه: (الحقّ مُطَّلع على الضمائرِ والسرائر فأيّما قلب رآه مؤثراً له كفاه طوارقَ المحن ومُضلّاتِ الفتن)[4] (ص ١٦) انتهى، فقد جعل إيثارَ الله تعالى موجباً لدفع هذين المخوفين.

وكالأذكارِ المخصوصة باستثمار فوائد مخصوصة كما في سُنَنِ ابن السّني[5]: (أنه جاء رجلٌ إلى أبي الدرداء[6] ـ رضي الله عنه ـ فقال له: يا أبا

---

(١) ـ انظر: مسند ابن حنبل ١ / ٣٠، ٥٢.

(٢) ـ الآية ١٣٢ من سورة طه.

(٣) ـ هو الشيخ أبو مدين شعيب بن الحسين الأندلسي، أصله من إشبيلية، لقّبه ابن قنفد بشيخ المشايخ وأفرد له كتاباً سماه أنس الفقير وعز الحقير، وتوفي في تلمسان سنة ٥٩٤ هـ (انظر أنس الفقير، وفيات ابن قنفد ٢٩٧).

(٤) ـ أنس الفقير ص ١٨.

(٥) ـ أبو بكر أحمد بن محمد بن اسحق السني الحافظ الدينوري، مولى جعفر بن أبي طالب، له عدد من المؤلفات، توفي سنة ٣٦٤ هـ (الوافي بالوفيات ٧ / ٣٦٢).

(٦) ـ هو الصحابي عويمر بن مالك بن بلحارث بن الخزرج، كان قبل إسلامه تاجراً وعرف =

الدرداء إنّه قد احْتَرَقَ بيتُك. فقال: ما احْتَرَقَ ولم يكُنْ الله ليفعلَ ذلك بكلماتٍ سمِعْتُهن من رسولِ الله صلى الله عليه وسلم مَنْ قالهنَّ أوَّلَ نهارِه لم تُصِبْه مصيبةٌ حتى يُمْسي، ومن قالهنّ آخِرَ نهاره لم تُصِبْهُ مصيبةٌ حتى يُصْبِح: **«اللهُمَّ أنتَ ربّي لاإلهَ إلاّ أنْتَ عليكَ توكلتُ وأنتَ ربُّ العرشِ العظيم، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكُنْ، لا حَوْلَ ولاقوةَ إلاّ بالله العليّ العظيم، أعلمُ أنَّ الله على كل شيءٍ قدير، وأن الله قَد أحاطَ بكلّ شيءٍ علماً، اللهمَّ إني أعوذُ بك من شرِّ نفْسي، ومن شرِّ كُلِّ دابّةٍ أنت آخِذٌ بناصيتِها، إنّ ربي على صراطٍ مُسْتقيم»** فنهضوا معه إلى داره وقد احترق ما حولها ولم يُصْبِها شيء)[1].

ونوعٌ منه ما رُوِيَ أنّ رجلاً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسولَ الله ماذا لقيتُ من عَقْرَبٍ لدغتني البارحة! فقال: **«أما إنك لو قُلْتَ حينَ أمسيْتَ: أعوذُ بكلماتِ الله التامّاتِ من شرِّ ما خَلَق لم تَضُرَّك»**[2].

وهذه القضيةُ وإنْ كان قد وَقَعَ الابتلاءُ بالرجل فإنّ قول النبي صلى الله عليه وسلم أما إنك لو قلت كذا لم يضرّك - مماثلٌ لما سبق عن أبي الدرداء حيث وثِقَ بما علمه النبي صلى الله عليه وسلّم في حفظ بيته من الحريق.

وأوضحُ مِنْ ذلك في هذا القصد مِنَ استدفاعِ البلاء ما في[3] كتابِ ابنِ السنّي عن أَنس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: **«ما أنْعَمَ الله عَزَّ وجَلَّ على عبدٍ نعمةً في أهْلٍ ومالٍ وَوَلَدٍ فقال ما شاء الله لا قُوَّةَ إلاّ بالله فَيَرى فيها آفةً دُونَ المَوْت»**[4]. وفي سُنَن أبي داود[5] والترمذي[6]

= بنسكه، ومات بالشام سنة ٣٢ هـ (المعارف لابن قتيبه ٢٦٨، الإصابة ٥ / ١٤٧).

(١) - انظر هذا الحديث في: عمل اليوم والليله لابن السني ص ٢٠ - ٢١. وانظر حكاية أبي الدرداء في إحياء علوم الدين ١ / ٣١٥، المخلاة ١٧٤.

(٢) - انظر صحيح مسلم ٨ / ٧٦ (المكتب التجاري للطاعة والتوزيع والنشر، بيروت).

(٣) - هكذا في الأصل وربما أغفل الناسخ كلمة «جاء» بين «ما» و «في».

(٤) - عمل اليوم والليلة لابن السني ص ١٠٩.

(٥) - سنن أبي داود ٤ / ٣٢٣.

(٦) - سنن أبي داود ٤ / ٣٢٣، سنن ابن ماجة ٢ / ١٢٧٣ (حديث رقم ٣٨٦٩)، مسند=

عن عثمان بن عفّان ـ رضي الله عنه ـ قال: قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلّم: «**ما مِن عَبْدٍ يقولُ في صباحِ كلِّ يومٍ ومساءَ كلِّ ليلة باسمِ الله الذي لا يضُرُّ مع اسمِهِ شيءٌ في الأرضِ ولا في السماءِ وهو السميعُ العليم ثلاث مرات لم يَضُرَّهُ شيء**». قال الترمذي[1]: هذا حديث حسن صحيح. هذا لفظ الترمذي. وفي رواية أبي داود[2] «**لم يُصِبْه فجأةً بلاء**» وفي سنن أبي داود[3] أيضاً عن بعضِ بناتِ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم ورضي عنهنّ أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان يُعَلِّمُها فيقول: «**قولي حين تُصْبحينَ سبحانَ الله وبحمْدِه، لا قُوَّةَ إلّا بالله، ما شاءَ الله كان، وما لَمْ يشأْ لم يكُنْ، أعْلَمُ أنَّ الله على كُلِّ شَيْء قدير، وأنّ الله قد أحاط بكلّ شيءٍ عِلْماً، من قالهنّ حين يُصبح حُفِظ حتى يُمْسي ومن قالهنّ (ص ١٧) حين يُمْسي حُفِظَ حتى يُصْبِح**».

وكالتوسعةِ في عاشوراء الكفيلة بتوسعةِ السنة المُقبلة، وكالصدقةِ التي تدفع مِيتَةَ السوء، وكصِلَةِ الرحم الموعودِ بها من الإنماء في العمر ما اختُلِفَ في مَحْمَلِهِ، وهذا إن تعرّضنا لطرف منه فبالعرض.

وهذه القُرَبُ والأذكارُ الوارد فيها من الشرع استنتاجُ مصالحَ دينية أو دنيوية أو مجموعها هي مشروطة بإقامتها على الوجه الذي أمر به النبيُّ صلى الله عليه وسلّم، وفهمه عنه العلماء من الإخلاص في العمل، والصِدْقِ في التوجّه إلى سائر ما يختصّ بكل حقيقة حقيقة من تلك العبادات، إمّا مع اطّراح القصد إلى تحصيل ما وعد به من تلك الفائدة المستثمرة من ذلك العمل دينية كانت أو دنيوية، وهذا هو أعلى المقامات التي ترتضيها أولياءُ الله من أهل التصوّف وأرباب المراقبة؛ وإمّا مع القصد التبعيّ إلى ما مَنحَ الله من نِعَمِهِ التي لا تُحصى بالعدّ من أخرويّة كالجنة وغيرها أو دنيوية كالمزيد ونحوه، وهذا هو

= ابن حنبل ١ / ٦٢، ٦٦، ٧٢، كنز العمال ٢ / ١٣٩ (حديث رقم ٣٤٩٧).

(١) ـ ورد تعليق الترمذي على الحديث في رياض الصالحين ص ٤٠٤.

(٢) ـ سنن أبي داود ٤ / ٣٢٣.

(٣) ـ نفسه ٤ / ٣١٩.

اللائق بحالنا والمناسب لمقامنا، ولا يغفل القائم بذلك عن شروطه من الإخلاص وغيره لئلا يكون ممّن يعبدُ الله على حَرْف كالذي سمع أنّ من أخلص لله أربعين صباحاً ظهرت الحكمةُ من قلبه على لسانه فأخلص بزعمه تلك المدة رجاءَ أن تظهر الحكمةُ كما وعد فلم تظهر، فاستراب من ذلك، وسأل عنه فأجاب المسؤول بأنّه إنّما أخلصَ للحكمة لا لله. أو كما قال، وإنّما نقلتها بالمعنى.

[و][1] لتعذُّرِ النعم وزوالها وتنكّر أحوالها، أسبابٌ ماحقة من الذنوب تشبه الأمراض الداخلة على الأجسام الصحيحة، بها يوحَشُ آنِسُها ويُغْضَى طالعها[2] ويشرَّد مُنْقادُها، وعلى الجملة فتتغير حالها الأكثرية. ويشهد لهذه الدعوى على الإجمال أيضاً قوله تعالى: ﴿**ذلكَ بأنَّ الله لم يَكُ مغيّراً نِعْمةً أنْعَمَها على قَوْمٍ حتّى يُغيِّروا ما بأَنْفُسِهِم**﴾[3]. فقد شهدت لنا هاتان الآيتان الكريمتان[4] بمعنى واحدٍ وهو أن التغييرَ الواردَ من الله على قوم لا يكون إلاّ جزاءً وفاقا لتغييرهم ما بأنفسهم. وقوله تعالى: ﴿**وما أصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فبما كَسَبَتْ أيْديكم ويَعْفُو عَنْ كَثِير**﴾[5] وقوله صلى الله عليه وسلّم: «**إنّه لنْ ينزلَ بلاَءٌ من السَّماء إلاّ بذَنْب ولن يُكْشَفَ إلاّ بتوبة**»[6]. فقد شهدت أيضاً هذه الآية الكريمة والحديثُ النبويّ بمعنى واحد، وهو أن إصابة العبد بما أُصيبَ من مصيبة وبلاء فإنّما ذلك بما كسبت الأيدي وهي الذنوب، وأفادت الآية الكريمة بأنّ العفو واقعٌ عن كثير، والعقوبة بالمصيبة إن كانت غيرَ واردة عن وِزان ما كَسَبَتْ الأيدي (ص ١٨) وإنما هي عن ذنب دون ذنب، فـ ﴿**لو يُؤاخِذُ**

---

(١) - الواو زيادة من المحقق اقتضاها السياق.

(٢) - هكذا في الأصل ولعل المراد طائعها.

(٣) - الآية ٥٣ من سورة الأنفال.

(٤) - لعله يقصد الآية السابقة للتعليق والآية التالية له.

(٥) - الآية ٣٠ من سورة الشورى.

(٦) - لم أجد هذا الحديث فيما بين يدي من مصادر الحديث النبوي الشريف.

الله الناسَ بما كَسَبُوا ما تَرَكَ على ظَهْرِها مِنْ دابَّة﴾[1] ولو يؤاخذهم الله بظلمهم ﴿لَعَجَّلَ لهمُ العذابَ بَلْ لهم مَوْعِدٌ لَنْ يجِدوا مِنْ دُونِه مَوْئِلاً﴾[2]. كما أرشد الحديثُ الكريمُ إلى أن البلاء الذي أزف بسبب الذنب لن يُكْشَفَ إلاّ بتوبة. ولو تتبعنا هذه الآيات المتضمنة لهذا المعنى لطال بنا الكلام؛ فالآياتُ في هذا الغرض كثيرةٌ، والأحاديث كذلك.

تمهيدُ هذه القاعدة إنّما هو على ما أجرى الله من سُنّته التي لن تجد لها تبديلا في عموم الخلق؛ فلا يعترض عليها بما ورد في ابتلاء الأمْثَل بالأَمْثَل، لأنّ أهلَ الدين قليلٌ بالنسبة إلى غيرهم، حسبما تشهدُ لذلك آياتٌ كثيرة وأحاديثُ جمّة. وربّما يسلم كثير من ذلك القليل من الابتلاء. وسيأتي لهذا بسطٌ في الاعتِذار يستوفي الكلامَ هنالك إن شاء الله.

وما أقومَ النظرَ في بابِ استدامةِ النِعَم وفي باب استِدْفاع النِقَم برؤية كون ذلك كلّه من الله. قال بعض المحقّقين: «من كان نظرهُ في وقتِ النِعْمةِ إلى المُنْعِم لا إلى النعمـة كان نظرُهُ في وقتِ البـلاءِ إلى المبتلي لا إلى البلاء»[3] وحينئذٍ يكون غريقاً في كلّ الأوقاتِ في معرفةِ الحقّ سبحانَه، وكلُّ من كان كذلك كان أبداً في أعلى مراتب السعادة، أما من كان نظرهُ في وقتِ النِعْمةِ إلى النعمةِ لا إلى المنعِم كان نظرهُ في وقت البلاءِ إلى البلاء لا إلى المُبْتَلي، وكان غريقاً في كلّ الأوقاتِ في الاشتغالِ بغير الله، فكان أبداً في الشقاوة، لأنه في وقْتِ وجدانِ النِعَم يكون خائفاً من زوالِها، فكان في العذاب، وفي وقت فواتِ النعمةِ كان مُبْتَلىً بالخوفِ والنكال، في محض السلاسل والأغلال. ولهذا التحقيقِ قال لأمّة موسى عليه السلام: ﴿اذكروا نِعْمَتي﴾[4]

---

(١) ـ من الآية ٤٥ من سورة فاطر.

(٢) ـ من الآية ٥٨ من سورة الكهف.

(٣) ـ ورد في إحياء علوم الدين (٤ / ٨٣) أنّ الشبلي كان يقول: «الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة».

(٤) ـ من الآيات ٤٠، ٤٧، ١٢٢ من سورة البقرة.

وقال لأمةِ محمّد صلّى الله عليه وسلّم ﴿اذكُروني أذْكُرْكُمْ﴾[1]» . انتهى ما قال.

وربما يَشْعُرُ بسببِ الإصابةِ بالبلوى قولَه تعالى: ﴿وإذا أنْعَمْنَا على الإنْسانِ أَعْرَضَ ونأى بجانِبه وإذا مَسَّهُ الشَرُّ فذو دُعاءٍ عَريض﴾[2] فإنّ إعراضَ الإنسانِ ونأيَه بجانبه إذا أنْعَمَ عليْهِ مولاهُ بتجدّد مِنَحِه التي هو منها يتقلّب آناءَ الليل والنهار في أنواعٍ لا يُحْصيها وأعدادٍ لا يَحْصُرُها، فمقابلتُها بالإعراض والنأْي بالجانب عبارةٌ عن النَقْصِ في الشُكْر، وعلامةٌ على شُموخ الأنْف بالكِبْر، وتعامٍ عن رؤيةِ النعمة من قِبَل المُنْعِم بها، وذلك ضربٌ من الكفر، ولذلك عقب الكلام بأنه إذا مسّه الشرّ الذي هو منبّه له من غفلتِه، وموقِظٌ له من رَقْدَتِه، فإنه إذ ذاك ذو دعاء عريض، وجَناحٌ (ص ١٩) لفقد نعمة مولاه مَهيض. وكذلك قوله تعالى: ﴿وإذا مَسَّ الإنْسانَ الضرُّ دعانا لِجَنْبِه أوْ قاعِداً أو قائماً فلمّا كَشَفْنا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كأنْ لم يَدْعُنا إلى ضُرٍّ مَسَّهُ كذلِكَ زُيِّنَ للمُسْرِفين ما كانوا يَعْملون﴾[3].

وقد تقدّم في الآياتِ السابقة ما يُمَهّد أن الإصابة بالمصائب إنّما هي بما كسبت الأيدي، وأن التغيير للنعمة إنما هو بتغيير ما بالأنْفس، فإذا مسَّ الإنسانَ الضُرُّ فإنما هو بالسبب المذكور في الآيات السابقة، ثم إذا دعا لجَنْبِهِ ـ وهو أعظمُ حالةً تكون به من السقم ـ أو قاعداً، وهي الحالة التي تليها، أو قائماً ـ وهي أخفُّ الحالات التي يكون عليها ـ فإنّ الله تعالى يَكْشِفُ ما به من الضُرّ، فلمّا كشفه عنه نَسِيَ حالته، وعاود بطالته، وراجَعَ ضلالته، ومرّ كأنْ لم يَدْعُ الله إلى ضُرٍّ مَسَّه، ورأى من هذه الآية الكريمة ما يقعُ من الإنسانِ بعد التخويف الذي ربّما يزيدُ مَنْ لم يَتَّعِظْ من المُسْرفين الذين زُيِّنَ لهم ما كانوا يعملون طغياناً كبيراً.

---

(١) ـ من الآية ١٥٢ من سورة البقرة.

(٢) ـ الآية ٥١ من سورة فصلت.

(٣) ـ آية ١٢ من سورة يونس.

وكذلك قوله: ﴿ولئِنْ أذَقْنا الإنْسانَ منّا رَحْمةً ثُمّ نَزَعْناها مِنْهُ إنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُور * ولَئِن أَذَقْناهُ نَعْماءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السّيّئاتُ عنّي إنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُور * إلاّ الّذينَ صَبَروا وعَمِلوا الصّالِحاتِ أولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرةٌ وأَجْرٌ كَبِير﴾[1] فإنَّ نَزْعَ الرحمةِ بَعْدَ إذاقتِها لا يكون إلاّ بذنبٍ كما سبق، ثم زادها باليأس والكفران خلّتان ذميمتان ينبغي اجتنابهُما وملاحظتُهما، فلن يخلو مبتلىً بشيء من هذه التمحيصات منهما أو من أحدهما إلاّ من حفِظَهُ الله ووقاه، ثم إذا أذاقه نَعْماءَ بعد ضرّاء مسّتْهُ ظهر منه من الفَرَحِ والافتخار ما يدّعي به ذهابَ السيئات عنه، متعامياً في ذلك عن عِزّة المُنْعِمِ أولاً بها، ورحمةِ المتفضّل ثانياً بإذهابها، ثم استثنى الله تعالى منهم الذين امتثلوا أوامرَه من الصبرِ وعملِ الصالحات، وأخبر بما لهم من المغفِرَةِ والأجرِ الكبير.

وكذلك قولُه تعالى: ﴿وإنّا إذا أَذَقْنا الإنْسَانَ مِنّا رَحْمةً فَرِحَ بها وإنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بما قَدَّمَتْ أيْديهِمْ فإنَّ الإنْسانَ كَفُور﴾[2] فَفَرَحُ الإنسانِ بما يُذيقه الله من رحمته كالفرح الذي أثبت الله له إذا أذاقه نعماءَ بعد ضرّاء مسّتْهُ مع قوله ذهب السيئاتُ عني، وإصابة السيئاتِ بما قدّمت الأيدي حسبما تقدّم في غيرها من الآيات، فإن الإنسانَ كفور، هذا هو دأبه الواقع منه، وسيرتُه المعهودةُ عنه، كما تقدّم في الآية الكريمة. وإذا أذاقه الله رحمةً ثم نزعها منه فالمعنى في هاتين الآيتين واحد وفي تلك زيادةُ الأمن، ولاحَوْلَ ولا قوّة إلاّ بالله العلي العظيم. ولله درُّ القائل[3]:

(ص ٢٠)

رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تُميتُ القُلوبَ	وَيُورِثُكَ الذُّلَّ إدْمانُها
وتَرْكُ الذُّنُوبِ حياةُ القُلوبِ	وخَيْرٌ لِنَفْسِكَ عِصْيانُها

أمّا على التفصيل فقد بيّنَ الشارعُ صلواتُ الله عليه ابتلاءاتٍ مخصوصةً

(١) ـ الايات ٩ ـ ١٢ من سورة هود.

(٢) ـ الآية ٤٨ من سورة الشورى.

(٣) ـ البداية والنهاية ١٠ / ١٤٤ (وورد فيه أن ابراهيم بن أدهم كان يتمثل هذين البيتين).

تُوجبها ذنوبٌ مخصوصة، كقوله صلى الله عليه وسلّم: «ما نَقَصَ قومٌ المِكْيالَ والميـزان إلاّ ابتُلوُا بالسنين»[1] وقوله: «ما خَتَرَ قومٌ العهدَ إلاّ سلّط عليهم العدوّ»[2] وقوله: «ما غلّ قومٌ قطّ إلاّ قذف في قلوبهم الرُّعْب»[3] وقوله: «ما فشا الزنا في قوم إلاّ سلّط عليهم الموتان»[4] وقال صلى الله عليه وسلّم: «اليمين الفاجرة تَذَرُ الديارَ بلاقع»[5]. وأبلغ من ذلك كلّه ما رواه غيرُ واحد أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا عَمِلَتْ أمّتي بستَّ عشرةَ خصلةً حلّ بها البلاء» قيل: يا رسول الله وما هي؟ قال: إذا كان المغنمُ دولاً، والأمانةُ مغنما، والزكاةُ مغرماً، وأطاع الرجلُ زوجته، وعَقَّ أُمَّه، وبَرَّ صديقَه، وجفا أباه، وارتفعت الأصواتُ في المساجِدِ، وكان زعيمُ القوم أرذَلَهم، وأكرم الرجل مخافة شرّه، وشُربَتْ الخمُور، ولُبِسَ الحرير، واتخذ القيان والمعازِف، ولَعَن آخـرُ هذه الأمـةِ أولَّها، فليرتقبوا عند ذلك ثلاثاً: ريح حمراء، وخسف، ومسخ»[6]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: «ما مِنْ قومٍ يكون بين ظهرانيهم من يعمل بالمعاصي همْ أعزّ منه فلم يغيروا إلاّ أصابهم الله بعقاب»[7] وما أشبه هذا المعنى مما وقعت فيه العقوبةُ جزاءً وِفاقا، ولهذا يشير قول الحسن: «مـا أنْكَرْتُم مِنْ زمانِكم فبِسوءِ أعمالكم»[8]. وهذا المعنى جاء عن بعض

---

(١) ـ الموطأ ٣٠٦، سنن ابن ماجة ٢ / ١٣٣٣ (حديث رقم ٤٠١٩) ومجمع الزوائد ٣ / ٣١٧ وفي سنن ابن ماجة: إلا أُخِذوا بالسنين.

(٢) ـ في موطأ مالك ص ٢٩٨: ما ختر قوم بالعهد إلا سلط الله عليهم العدو.

(٣) ـ الموطأ ٣٠٥.

(٤) ـ الموطأ ٣٠٥ ـ ٣٠٦.

(٥) ـ كنز العمال ١٦ / ٦٩٧ (حديث رقم ٤٦٣٨٨).

(٦) ـ سنن الترمذي ٩ / ٥٨ (وفيه: إذا عملت أمتي بخمس عشرة خصلة).

(٧) ـ سنن ابن ماجة ٢ / ١٣٢٩ (حديث رقم ٤٠٠٩) مع بعض اختلاف، مسند ابن حنبل ٤ / ٣٦٣ (مع بعض اختلاف)، سنن أبي داود ٤ / ١٢٢ ـ ١٢٣، صحيح ابن حبّان ١ / ٤٥٨ (مع بعض اختلاف)، كنز العمال ٣ / ٧٠ (حديث رقم ٥٥٣٥).

(٨) ـ ورد هذا القول في عين الأدب والسياسة ص ٢٨ منسوباً إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم.

الصوفية: (إني لأعرِفُ ما ذنبي في خُلُقِ دابتي). وفي نحو هذا المعنى قال الشاعر:[1]

إذا كُنْتَ في نِعْمةٍ فارْعَها   فإنّ المعاصي تُزيلُ النِعَمْ

وقال ابنُ شرف[2] في رسالته المسماة بسرّ البرّ[3]: (واعلم أنّ البَغْيَ أَعْجَلُ الذنوب عقوبةً في الدنيا والباغي مصروع). وفي المثل: (البَغْيُ والغَدْرُ والحَسَدُ أثافيُّ الفجور). واستقصاء ذلك يخرج عن الغرض ولكنّ المعنى ثابت موجودٌ. إلّا أنّه يعرض به إشكالٌ مع قوله صلى الله وعليه وسلم في صفة المؤمن وإصابة النوائبِ له «**إنّه كخامة الزرع تفيئُها الريح مرّةً هنا ومرة هنا**»[4] وفي صفةِ الكافر إنّه «**كالأرزّة حتى يكونَ انجعافها مرّة**»[5]. ومثل الحديث الآخر بابتلاء الأمثل بالأمثل وفيه أنّ «**أشدّ الناسِ بلاءً الأنبياء**»[6]. إلى ما لا يحصى كثرة من هذا المعنى.

ولا شك أن كثيراً من هذه الأحاديث التي ظاهرها التعارض مع ما سبق مُحْتَمِلٌ للتأويل، ولا سيّما ما كان في حقِّ الكفار، فقد سَمّى الله بالحسنى ما ينالُنا مِنْ قِبَلِهِ أو منهم، كما سمّى بالعذاب ما ينالُهم من عنده أو بأيدينا، وما

---

(١) ـ ديوان الإمام علي ص ١٧٥، عين الأدب والسياسة ٥٧، ٢٣٦.

(٢) ـ هو أبو الفضل جعفر بن محمد بن شرف، أصله من القيروان وجاء أبوه أبو عبد الله الشاعر المعروف من القيروان إلى الأندلس، وعاش أبو الفضل في المرية وتوفي سنة ٥٣٤ هـ وله مؤلفات في الأدب والأمثال وغيرها (انظر ترجمته في: الذخيرة ق ٣ م ٢ ص ٨٦٧، المغرب ٢ / ٢٣٠، الخريدة ٢ / ٢٣، القلائد ص ٢٩٠ والوافي بالوفيات ١١ / ١٤٩).

(٣) ـ ورد ذكر هذه الرسالة في قلائد العقيان ص ٢٩٠، والخريدة ٢ / ٢٥.

(٤) ـ صحيح البخاري ٨ / ١٩٠ ـ ١٩١، مسند ابن حنبل ٢ / ٤٥٤، ٥٢٢، وفي صحيح مسلم ٨ / ١٣٦ «مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تفيئها الريح تصرعها مرة وتعدلها أخرى حتى تهيج، ومثل الكافر كمثل الأرزة المجذية على أصلها لايفيئها شيء حتى يكون انجعافها مرة واحدة».

(٥) ـ انظر الحاشية السابقة.

(٦) صحيح البخاري ٧ / ٣.

يبقى بعد ذلك مما ظاهرُه التعارض (ص ٢١) فإنه يندرجُ في القلب أن ما أصاب الأنبياء ومن لحق بهم فإنه لإعظامِ أُجورهم وإعلاءِ منازلهم، لذلك لا يكون في الغالِبِ إلّا على ما أجرى الله من عادتِه في خلقه متمحّضاً لما[1] تُسْتَجْزَلُ به المثوبة غير ملموح فيه ما يستبشع منه العقوبة، كما أنّ ما يصيبُ من ذلك الخطّائين فإنه في الأغلب من حاله يستشعر منه الأخذ ويفهم من عمومه المجازاة، ويتوقع من عدم الإنالة فيه النّكال، ولن يتبيَّـنَ ذلك بأقربَ من المثال، وليسَ في الأمثلة أبعدُ من كَوْن الموتِ عُقوبةً في حقّ واحدٍ ومَثُوبَةً في حقٍّ آخَرَ، وإنّما بعّدنا ذلك لعمومه وكونِ المؤمن يلاقي منه مِثْلَ الكافر أو أشدّ، ولكنّه لا يتساوى ميتةُ نبيٍّ ـ ولو بالمناشر من حيث كونُه مظلوماً في نفسه وداعياً إلى ربّه ـ بميتةِ فرعونَ مسخوطاً عليه مغرقاً هو وقومه[2]، وما قرب وصفه من إحدى الميتتين فلاحِق بها.

ولا شك أن الموتَ ليس بِمُرَتَّبٍ على الذنوب وإنما يمكن أن تترتَّب عليها صفتُه، فإن كان مرشح الجبين وعلامات السعادة فهي الميتة التي تشعر من الله بالروح والريحان والنعيم والرضوان، وما لم تَتَبَيَّن صفته فهي التي أجرى الله بها سنته في خلقه وقال في شمولها: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ المَوْتِ﴾[3] وإن كان على الصفة المكروهة، وقد وَرَدَ في الحديث تعيينُها، وجاء عن عُلَماءِ السلف تبيينُهـا؛ فتلك الصفةُ هي الموتة على المعاصي، والمؤذنةُ بالأخذ بالأقدام والنواصي، أعاذنا الله من ذلك.

وإذا وضح صَرْفُ الأشكال في الموت الذي يشمل الخلقَ مصيبتُه فهو في غيره من الابتلاءات التي تخصّ بعضَ الناس أوضح، وإزالتها أقرب، لأنّا

(١) ـ في الأصل: متمحضاً في لما. . . ولعل كلمة «ذلك» قد سقطت من بعد «في».

(٢) ـ انظر قصة غرق فرعون وجنوده في عرائس المجالس ص ١٩٦ ـ ٢٠٠، قصص الأنبياء لأبي الفداء بن كثير ص ٣٤٨ ـ ٣٥٧.

(٣) ـ من الآية ١٨٥ من سورة ال عمران، والآية ٣٥ من سورة الأنبياء، والآية ٥٧ من سورة العنكبوت.

مثلاً إذا وجدنا الابتلاء بالقحط قد عمّ، أو المَوتَان قد ألمّ، ونظرنا في المبتلين بذلك فوجدناهُمْ مجاهرين بفاحشة الزنا باخسين للمِكْيال والميزان علمنا قطعاً أنَّ ذلك الابتلاء بسبب ذَيْنِكَ الذنبين، فكيف يُرْتَجى أن يكونَ منعُ القطر لإعظام الأجر أو الإصابة بغدّة كغدة البعير لإحراز الشهادة؟! كلا والله بل هو رجْزٌ مرسل، وبلاءٌ معجل، ولا ينكر أن يصاب به من لم يكن من جُناة أسبابه، لما أراد الله من إعظام أجره أو تخفيف وزره، ويحشر على نيته، كما ورد في مثله عن أمّ سَلَمة زوجِ النبيّ صلى الله عليه وسلم، قالت: قال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم: «**ليخسفنّ بقومٍ يغزونَ هذا البيتَ ببيداءَ من الأرض**» فقالت أمُّ سلمة: يا رسول الله إن كان فيهم الكاره؟ قال: «**يبعثُ كلّ رجلٍ منهم على نيّته**»[1] وإلى نحو ذلك يشير قوله تعالى: ﴿**واتّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبنَّ الذين ظَلَموا مِنْكم خاصَّة**﴾[2].

ولا شكَّ أن وُقُوعَ الإنسانِ في الخطايا معلومٌ قَطْعاً، وأنّ اعترافَهُ بذلك مَرْجُوّ الفائدة نظراً وسَمْعاً، وأنّ (ص ٢٢) الشيطانَ هو الذي يُدْليه[3] بغروره، والهوى هو الذي يحجب العقلَ بظُلْمَته عن شُروقِ نوره، ولذلكَ يتعامى الإنسانُ عن ذنبه، ويجهلُ في إقدامه بالخطيئة على ربّه، ولهذا المعنى رغِبَ الفضلاءُ في إهدائهم عيوبَ أنفسهم[4]، وإنما احتاجَ الإنسانُ إلى معرفة عيبه لأنه لا يخلو من ذلك فمتى عرفه كفَّ ذلك من غَرْبِه، وثنى عنان عُجْبه، فصلح بذلك أمرهُ، وانشرحَ للاستقامة صدرُه، كما قال ابنُ المعتزّ: (العاقلُ لا يرُعْهُ ما سَتَرَ الله من عَيْبِه يفرحُ بما أَظْهَرَ من محاسِنِه)[5]. وقيل لبعضِ الحكماء: أيُّ خصلة

---

(١) - مسند ابن حنبل ٦ / ٣٢٣.

(٢) - الآية ٢٥ من سورة الأنفال.

(٣) - في القاموس المحيط مادة (دلو): دلوتُ الناقةَ سيَّرتُها رويدا.

(٤) - قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: رحم الله امرءاً أهدى إليّ عيوبي (إحياء علوم الدين ٣ / ٦٤).

(٥) - التمثيل والمحاضرة ص ٤٠٨، زهر الآداب ٤ / ١٠٥٤.

أعظمُ بالإنسان ضرراً؟ قال: (قلةُ معرفتِه بعيوبِ نفسِه)[1]. وقد كان يُقال: (معرفةُ الإنسانِ بعيوبِه أكبرُ ذُنُوبه) ولابن الروميّ في ذمّ من خَفِيَ عليه عيبُه:[2]

إصابةُ مَعْنى المَرْءِ روحُ بيانه فإنْ أَخْطأ المعنى فذاكَ مُواتُ
إذا غابَ عَقْلُ المرءِ عن عَيْبِ نَفْسِهِ فَيَقْظَتُهُ في العالَمين سُباتُ

فإذا تقرّر هذا الأصل، وتمهّد هذا الفصل، وتحقّق أن الأسبابَ التي أوجَبَتْ لنا من تغيُّر الحال ما أوجبت، وحجبت عنّا من وجوه الفضلِ ما حَجَبت، إنما هي أسبابٌ مكتسَبةٌ بأيدينا، وواقعة لتجاوزنا لحدود الشرع وتعدّينا، فما أحقّنا أن نطلُبَ لها الأدوية في مظنَّتها، ثم أن نَشُدَّ الكفَّ منها إذا وجدناها على عِلْقِ مضنّتها.

والدواءُ الشرعي المشترك هنا لهذه الأمراض كلّها الذي هو كالانكفافِ عن المضرّات التي منها مادةُ المرض، والزيادة في كمّيته أو كيفيّته المشبه ببرء المرض من صناعة الطب، الاحتماءُ المطلوب فيه، إنّما هو التوبة، كما قال الزاهد أبو عمران المرتلّيّ رحمه الله[3]:

شَكَوْتُ دائي إلى طبيبي فقالَ إنّي بِهِ عَليمُ
أدْواءُ أدوائِكَ المعاصِي فأنْتَ من أجلِها سَقيمُ
وبالمتَابِ الشِفاءُ منها إنّي بِمَنْ تابَ لي رَحِيمُ

فإنّ أعظم أسباب الأمراضِ المزمنة بالإنسان في هذا المعنى المقرر،

---

(١) ـ سئل قسّ بن ساعدة: ما أفضل العقل؟ قال: معرفة المرء بنفسه. (لباب الآداب ص ٢١).

(٢) ـ لم يرد البيتان في ديوان ابن الرومي.

(٣) ـ هو أبو عمران موسى بن عمران المارتلي الزاهد، المنسوب إلى حصن مارتلة من حصون باجة، من أشهر شعراء الزهد بالأندلس، وتوفي سنة ٦٠٤ هـ عن ٨٢ سنة (انظر ترجمته في: المغرب لابن سعيد ١ / ٤٠٦، الغصون اليانعة ١٣٥، المقتضب من تحفة القادم ص ٥٤٥ وله أشعار متفرقة في نفح الطيب وشرح الشريشي على المقامات).

أو الداخلة عليه هو الكُفْر، لأنّه هو الذي يقع به الشقاءُ الذي لا ينقطع، وتُفْقد به السعادةُ التي لا تخلف، وقد وجدنا التوبة شافيةً من آلامه، ومُبرئةً من أسْقامه، على القطع اتفاقاً لقول الله تعالى: ﴿فإذَا انْسَلَخَ الأشْهُرُ الحُرُمُ فاقْتلُوا المُشْرِكينَ حَيْثُ وَجَدْتُموهُمْ وَخُذُوهُمْ واحْصُرُوهُمْ واقْعُدوا لَهُمْ كلَّ مَرْصَدٍ فإنْ تابُوا وأقامُوا الصَّلاةَ وآتَوُا الزَّكاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إنَّ الله غَفُورٌ رَحِيم﴾[1] وقال تعالى: ﴿فإنْ تَابُوا وأقامُوا الصَّلاةَ وآتَوا الزَّكاةَ فإخْوانُكم في (ص ٢٣) الدِّينِ ونُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُون﴾[2] وقال تعالى: ﴿إنَّ الّذينَ يَكْتُمُونَ ما أنْزَلْنا من البيّناتِ والهُدى مِنْ بَعْدِ ما بَيَّنَّاهُ للنّاسِ في الكِتاب أولئِكَ يَلْعَنُهُمُ الله ويَلْعَنُهُمُ اللاعِنُون * إلاّ الّذِينَ تابُوا وأصْلَحُوا وبَيَّنُوا فأولئِكَ أتُوبُ عَلَيْهِم وأنا التوّابُ الرّحيم﴾[3] وقال تعالى: ﴿إنَّ المنافِقِينَ في الدَّرْكِ الأسْفَلِ مِنَ النّار وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً * إلاّ الّذينَ تابُوا وأَصْلَحُوا واعْتَصَمُوا بالله وأَخْلَصُوا دِينَهُم لله فأولئِكَ مَعَ المُؤْمنين وسَوْفَ يُؤتِي الله المُؤْمِنينَ أَجْراً عَظيماً﴾[4] وقال النبي صلّى الله عليه وسلم: «الإسلام يَجُبُّ ما قبله»[5]. فإذا كانت التوبةُ نافِعةً في هذا المرض الذي لا يُقاسُ به مرض مُذْهِبة لهذا السقم الذي لا يتمُّ به في الدنيا والآخرة غرض لقوله تعالى: ﴿إنّ الله لا يَغْفِرُ أنْ يُشرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يشاء﴾[6] فأحرى أن تكونَ نافعة فيما دونه من المعاصي والآثام ونافعةً مما هو أخفّ منه من الذنوب والأوزار، إلاّ أنّ العلماءَ اختلفوا في توبة العاصي هل هي مقبولة على القطع إذا صحت شروطها كتوبة الكافر على قولَيْن رجّح الغزاليُّ منهما

---

(١) ـ الآية ٥ من سورة التوبة.

(٢) ـ الآية ١١ من سورة التوبة.

(٣) ـ الآيتان ١٥٩ ـ ١٦٠ من سورة البقرة.

(٤) ـ الآيتان ١٤٥ ـ ١٤٦ من سورة النساء.

(٥) ـ مسند ابن حنبل ٤ / ١٩٩، ٢٠٤، ٢٠٥.

(٦) ـ من الآيتين ٤٨، ١١٦ من سورة النساء.

القول بقبولها قطعاً[1] وهو الواضح، قال الله تعالى: ﴿وإذا جاءَكَ الذينَ يُؤْمِنُونَ بآياتِنا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُم كَتَبَ رَبُّكُم على نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهالةٍ ثُمَّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ وأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿يا أيُّها الذينَ آمَنُوا تُوبُوا إلى الله تَوْبَةً نَصُوحاً عسى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سيِّئاتِكُمْ ويُدْخِلَكُمْ جَنّاتٍ تَجْري مِنْ تَحْتِها الأنهارُ﴾[3] قالوا: وعسى من الله واجبة، وذلك مِنْ أدلّة مَنْ قال بقبولها على القطع. وقال الله تعالى: ﴿وتوبُوا إلى الله جَميعاً أَيُّها المُؤْمِنُون لَعَلّكُمْ تُفْلِحون﴾[4]. ولا إشكالَ في حمل هذه الأوامر على الوجوب. وقال تعالى في أَكَلةِ الربا وهو من أعظم الذنوب بالنسبة إلى الأموال: ﴿يا أيُّها الذينَ آمَنُوا اتّقُوا الله وذَرُوا ما بَقِيَ من[5] الرِّبا إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنين * فإنْ لَمْ تَفْعَلُوا فاذَنُوا بِحَربٍ مِنَ الله ورَسُولِه وإنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤوسُ أمْوالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ ولا تُظلَمُونَ﴾[6]. فانظر إلى عظيم هذه المعصية المؤذن الإصرار عليها بحرب من الله ورسوله كيف أثمرت التوبةُ منها مع النجاةِ من تبعتها الفوزَ برأس المال المتضمن لعدم الظلم من الجهتين لطفاً من الله ورحمة، وقد كان شؤم هذه المعصية ماحقاً لأصل الربا وفرعه، ومُعَرِّفاً لما قصد ربُّ ذلك المال من جمعه لقوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ الله الربَا ويُرْبي الصَّدَقات﴾[7] وذلك من الجزاءِ الوفاق. وقال الله تعالى: ﴿إنّما جَزاءُ الذينَ يحارِبُونَ الله ورَسُولَهُ ويَسْعَوْنَ في الأَرْضِ فساداً أن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْديهِمْ وأَرْجُلُهُمْ (ص ٢٤) مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوا مِنَ الأرضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ في الدُّنْيا وَلَهُمْ في الآخِرَةِ عَذابٌ عَظيم * إلاّ الذينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِم فاعْلَمُوا أَنَّ الله غَفُورٌ

---

(١) ـ إحياء علوم الدين ٤ / ١٣ ـ ١٦.

(٢) ـ الآية ٥٤ من سورة الأنعام.

(٣) ـ الآية ٨ من سورة التحريم.

(٤) ـ آية ٣١ من سورة النور.

(٥) ـ سقطت من الأصل.

(٦) ـ الآيتان ٢٧٨ ـ ٢٧٩ من سورة البقرة.

(٧) ـ من الآية ٢٧٦ من سورة البقرة وتتمتها: «. . . والله لايحبّ كلّ كفّار أثيم».

رَحِيمٌ﴾[1] فتأمّلْ هذه الموقعةَ الكُبْرى مع ما تضمنته من المفاسد الكثيرة، واشتملتْ عليهِ من المضارّ[2] العظيمة، ولكن التوبةَ من أهلِها قبلَ القدرة عليهم، والاستيلاءِ على ما لديهم، ضمِنَتْ لهم من رحمةِ الله وغفرانِه ما تقرّر الكلام فيه في موضعه، إذ ليس هذا موضعَ استيفائه. وقال الله تعالى: ﴿والّذينَ لا يَدْعُونَ مَعَ الله إلهاً آخَرَ ولا يَقْتُلونَ النَّفْسَ الّتي حَرَّمَ الله إلَّا بالحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أثاماً * يُضاعَفْ[2] لَهُ العَذابُ يَوْمَ القِيامَةِ وَيَخْلُدْ فِيه مُهَانا * إلاّ مَنْ تابَ وآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صالِحاً فَأُولئِك يُبَدِّلُ الله سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ وكانَ الله غَفُوراً رَحِيما﴾[3] فاسْتَحْضِرْ عظيمَ ما سبق من تقرير هذه المعاصي المنفية عمّن سبق تقريرُ صفاتهم من عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً ومن عطف عليهم، ثم انْظُرْ إلى عظيم الوعيد الوارد على من تركبها[4] من تضعيف العقاب والتخليد فيه على ما في ذلك من الأبحاث والتأويلات ثم إلى الاستثناء من ذلك وما قضت التوبةُ من تبديل السيئاتِ حسنات، ولاغايةَ بَعْدَ هذا في الفضل ولا مَطْمَحَ وراءه في الغُفْران والعفو، وقد ظهر بسببها نوعٌ من مُتَمنَّى البُوصيري[5] المستبعد عليه في قوله:[6]

لَعَلَّ رَحْمَةَ ربّي حِينَ يَقْسِمُها ... تأتي على حَسَبِ العِصْيانِ في القَسَمِ

فسبحان ذي الطِوَلِ العظيم والفضل العميم والإحسان الجسِيم لا إله إلّا هو الرحمن الرحيم!

---

(١) ـ الآيتان ٣٣ ـ ٣٤ من سورة المائدة.

(٢) ـ في الأصل: يضعف.

(٣) ـ الآيتان ٦٨ ـ ٧٠ من سورة الفرقان.

(٤) ـ هكذا في الأصل، ولعل المراد: ارتكبها.

(٥) ـ هو محمد بن سعيد بن حمّاد الصنهاجي أصل أحد والديه من أبو صير فنسب إليها، توفي في حدود ٦٩٧ هـ وله ديوان شعر، وهو صاحب قصيدة البردة المشهورة (فوات الوفيات ٣ / ٣٦٢، الوافي بالوفيات ٣ / ١٠٥).

(٦) ـ ديوان البوصيري ١٩٠ ـ ٢٠١.

قال سَهْلُ بنُ عبدِ الله[1] ـ رَضِيَ الله عَنْه ـ: «إنّه كان فيمن قَبْلكم رجلٌ أسرف على نفسه ثم رُمِزَ له[2] في الخروج بإذن الله طلباً للتوبة هارباً إلى الله تعالى من ذنبه، فلما كان في بعض الطريق لقيه مَلَكٌ في صورة إنسان فقال له: يا عبدَ الله أين تريد؟ قال: أريد من أستشفعُ به على ربّي ليقبل توبتي. فقال له المَلَك: وأيّ شيء تصنع بشفيع؟! إنه بك أرحم من الشفيع. فقال له الرجل: إنّ لِلّذي أستشفع به عند الله جاهاً، وإني لا جاه لي. فأرسل الله عزّ وجلّ إلى المَلَك: صَدَقَ عبدي لا ترْدُدْهُ وادلُلْهُ على وليٍّ من أوليائي يستشفع به عليّ، فإنّ رحمتي وسِعَتْ كلَّ شيء. فدلّه الملك[3] على وليٍّ من أولياء الله تعالى، فلما جاءه سلّم عليه، فردّ عليه السلام، ثم قال: مرحباً بحبيب الله، مرحباً بالمعتذِر من جنايته، مرحباً بالمستقيل من عثرته، اعلمْ أنّ الله ما رَزَقَ عبداً توبةً إلاّ وقد علم فيه خيراً ساقه إليه، وأنّ الله عزّ وجلّ قد قبل توبتك فأصلحْ باقي عملِك، فإنّ الله عزّ وجلّ يغفر لك الأول بالآخر. فقال له التائب: فكيف لي بصحة عملي؟ فقال له وليُّ الله: أن (ص ٢٥) تدعو بهذا الجبل فيُجيبك: فقال له التائب: أيّها الجبل أقبِلْ إلينا. فما تمّ الكلم حتى جاء الجبل مسرعاً، ثم قال له ارجعْ[4] فرجع فقال الرجل التائب: أشهد أنّ الله على كلّ شيء قدير، وأنّ الله قد أحاط بكلّ شيء عِلْماً، وأحصى كل شيءٍ عدداً. فلم يَزْل مواظباً مداوماً حتى قبضه الله إليه».

وإذا كانت التوبة من عموم الناس مُقْتضِيةً لهذه المصلحة العظيمة وموجباً لهذه المنفعةِ العميمة فهي من ملوكهم أجزلُ فائدة وأجملُ عائدة. كما يُرْوى

---

(١) ـ أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى بن عبد الله بن رفيع التستري، أحد المتصوفة، صحب خاله محمد بن سوّار ولقي ذا النون المصري، وتوفي سنة ٢٨٣ هـ (طبقات الصوفية ٢٠٦، حلية الأولياء ١٠ / ١٨٩، وفيات الأعيان ٢ / ٤٢٩).

(٢) ـ في الأصل: رمر.

(٣) ـ في الأصل: مَلَك.

(٤) ـ في الأصل: ثم قال ارجع له فرجع.

أن أنوشروان خرج يوماً إلى الصيد، فأوغل في الركض، وانقطع من عسكره، واستولى عليه العطشُ، ووصل إلى بستان، فلما دخل ذلك البستانَ رأى أشجار الرمّان، فقال لصبيّ حضر في ذلك البستان: أعطني رُمّانة واحدة. فأعطاه فشقّها وأخرج حبّها وعصرها، فخرج منها ماء كثير فشربه، وأعْجَبَهُ ذلك الرمّان، فعزم على أن يأخذ ذلك البستان من مالكه، ثم قال لذلك الصبيّ: أعطني رمانةً أخرى. فأعطاه فعصرها وخرج منها ماء قليل فشربه فوجده عفِصاً[1] مؤذياً، فقال: أيها الصبي لِم[2] صار الرمان هكذا؟ فقال الصبيّ: لعلّ ملكَ البلد عزم على الظلم فلأجل شؤم ظلمه صار الرمان هكذا. فتاب أنو شروان في قلبه عن ذلك الظلم، وقال للصبيّ: أعطني رمانة أخرى. فأعطاه فَعَصَرَها فوجدها أطْيَبَ من الرمّانة الأولى، فقال للصبيّ: لِمَ تبدلت هذه الحالة؟ فقال: لعل ملك البلد تابَ عن ظُلْمه. فلما سمع أنو شروان هذه القصّة من ذلك الصبيّ وكانت مطابِقَةً لأحوال قلبه تاب بالكليّة عن الظلم، فلا جرم يبقى في الدنيا بالعدل، حتى أن من الناس من يروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ولدتُ في زمانِ المَلِكِ العادل**»[3]. ولا يُسْتَنْكر ذلك فإن صلاحَ الدنيا بصلاحِ مُلوكها. وفي المنقول من ذلك عن صَلاح الدنيا في مدة عمر بن عبد العزيز وتغيّرها بعد مُدّته ما يُعْطي في ذلك برهاناً واضحاً.

فلنرجع إلى ما كنّا فيه، فإنّنا إذا تأمّلْنا بنظرِ العقل هذه الآيات المسطورة وتحقّقنا ما أفادتْ التوبةُ من محوِ كبار الذنوب، والعفو عن عظيم الجرائم، ونزل بنا من هذه التمحيصاتِ ما تيقن أنه أصابنا بذنوبٍ نحن لها مرتكبون، ولثقل أوزارها محتقبون وظهر من مناسبة الابتلاء للذنب ما شهد أنه صادِرٌ مصدرَ العقوبة لكونه من بابِ الجَزاء الوِفاق بفرضٍ لازمٍ وحتم واجب تعيّنت المبادرةُ إلى التوبة من تلك الأفعال كلّها، والندمِ على ما فرط من اكتسابها، والعزمِ

---

(١) ـ العفِص: المرّ.

(٢) ـ في الأصل: لِما.

(٣) ـ ورد هذا الحديث في كشف الخفاء ومزيل الإلباس للعجلوني ٢ / ٣٤٠ ـ ٣٤١.

على عدم العودة إلى جريّة واحدة من جريّاتها، فلعلَّ سخطَ الله فيها والضراعةَ إلى الله في قبولها والاستشفاعَ إليه بأكرمِ الخلق عليه محمدٍ[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم، (ص ٢٦) ثم بمن عَيَّنَ لنا صِفَتَهم من أولياءِ الله تعالى وأهل اصطفائه وأرباب اختصاصه، كما نُقِل في الحكايةِ المنقولةِ عن سَهْل بنِ عبد الله آنفاً[2].

ولتعلم أن المُسَابقةَ لهذا من ألْزَمِ الفُروضِ المحتومة[3] وآكدِ الواجبات المطلوبة، وأنَّ إضاعةَ هذا الحتم الواجبِ والفرضِ اللازم من أعظم ما يلحقُ عليه الندم، ويُدْرَكُ بفوْته الأسف، وعليه تَنَزَّلَ قولُ بعضِ الحكماء وقد سُئل: ما الحق المُضَيّع؟ فقال: ما صَح فَضْلُه وأمكنَ فِعْلُه ثم سُرّ به أهلُه. قيل له: ومن أشدُّ الناسِ ندماً؟ قال: مَنْ قعد به الكَسَلُ عن خير عمل حتى قطع دونه الأجل. انتهى.

ولا يغفل عن رؤيةِ اللطفِ من الله والتجاوزِ في هذه التمحيصات بحيث لم يحل الابتلاء مستأصِلاً، ولم يُرْجَ العقابُ إلى الوقت الذي لا يجد الإنسان فيه مستعتباً، وربما يجب حمد الله على ما عجل منه في هذه الدار المنقضية الفانية، ولم يؤخره إلى الدار التي هي دائمة باقية، ففي التأخير من الابتلاء الذي يَصْحَبُه عدم الإقلاع غالباً ما ينبغي الاستعاذةُ منه. كما أنّ في تعجيل المؤاخَـذةِ غالباً من الإيقاظ من سِنات الغَفْلات والتجذّر من التمادي على ارتكاب السيئات ما يقتضي أنّه لطفٌ من الله قَوَّمَ به زَيْغَ عبده وسبب منه في مراجعته لأمره. وقد كُنْتُ على الإقصار عن هذا الكلام خشية اعتراضِ من يظهر له البَوْنُ بين قولي بالحضّ على المبادرة إلى التوبة وفعلي بالتسويف عن

---

(١) ـ في الأصل: محمداً.

(٢) ـ انظر ص ٢٤ من الأصل المخطوط.

(٣) ـ في الأصل: المحتمومة.

ذلك لولا أني تذكّرتُ قولَ الحسن البصري[1] لمطرّف بن عبد الله بن الشخير[2] ـ رحمهما الله : (يا مطرّف عِظْ أصحابَك. فقال مطرِّف : أخافُ أن أقولَ ما لا أفعل. فقال الحسن : يرحمك الله! وأيُّنا يفعل ما يقول! لودَّ الشيطانُ لو ظَفِرَ بهذه منكم فلم يأمُرْ أحدٌ بمعروف ولم يَنْهَ عن منكر) ولا يُحْمَلُ قولُ الحسن ـ رضي الله عنه ـ على أن قول الله تعالى ﴿أَتَأْمُرونَ النّاسَ بالبِرِّ وتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾[3] ظاهرٌ في معارضته لأن فِعلَ المخاطبين بالآية الكريمة من الأمر للناسِ بالبرّ ونسيانِ أَنْفُسِهم مِنْ مِثْلِ ما أمروهم به ظاهر الشناعة، وليسَ في قول الحسن مثلُ ذلك، وإنما أمره أن يَعِظَ الناسَ وإنْ قصّر في فِعْلِه مع رُؤيةِ ذلك واعترافه به لا على وَجْهِ نسيان نَفْسِه ذاهلاً عن عُيوبه، وغافلاً عن ذُنُوبه، وفي مِثْلِ ذلك يُنْشَدُ:

اعْمَلْ بقوْلي وإنْ قَصَّرْتُ في عَمَلي   يَنْفَعْكَ قَوْلي ولا يَضْرُرْكَ تَقْصيري

وليكن على بالٍ منّا أنّنا بحالِ مَنْ غَلَبَ عليه هواه، وضَعُفَ خوفه من مولاه، وقد قال ابنُ شرف[4] في رسالة سرّ البرّ: (واعلمْ بأنّ الهوى مهواةٌ بصاحبه، ومزلّةٌ براكبه، ونَيِّلُ أنواعِ السيئاتِ يرجِعُ إلى الهوى كما يَرْجِعُ الناسُ إلى قبائلهم ومن لايعرفُ أنّ (ص ٢٧) الخيرة فيما يأتي ويذر، فليخالِفْ هواه، فهنالِكَ الخيرةُ كلُّها، ولو جاهدَ الناسُ أهواءَهم ما احتاجوا إلى شيء آخر، ولو عصى الناسُ أهواءهم لقلَّ أهلُ النار، وفي المثل : (من غَلَبَ هواه فهو أشجعُ

---

(١) ـ هو أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار البصري (٢١ ـ ١١٠ هـ) من كبار التابعين، كان في زمنه إمام أهل البصرة في الزهد والعلم والورع والعبادة (وفيات الأعيان ٢ / ٦٩، حلية الأولياء ٢ / ١٣١، وأفرد له الدكتور إحسان عبّاس كتاباً باسم «الحسن البصري» دار الفكر العربي ـ القاهرة ـ ١٩٥٢م).

(٢) ـ زاهد من كبار التابعين ومن المحدثين الثقات له حكم مأثورة، أقام بالبصرة، وتوفي بها سنة ٨٧ هـ(وفيات الأعيان ٥ / ٢١١، حلية الأولياء ٢ / ١٩٨).

(٣) ـ الآية ٤٤ من سورة البقرة.

(٤) ـ هو أبو الفضل جعفر بن أبي عبد الله محمد بن شرف القيرواني وقد سبق الحديث عنه.

من أَلْفِ ضِرْغام). [١] وفي المثل: (عجِبْتُ لمن أطاقَ هواه كَيْفَ لم يحمِل الجَبلَ) وفي المثل: (الهوى يُبْطِلُ الجوارح) انتهى.

وحالتنا غيرُ المرضيّة في متابعةِ الهوى فينبغي لمن يكونُ في هذه الحالةِ أن يَعُودَ على نفسه بالملامة، وأنْ يذكر أهوال يوم القيامة، وأنْ يخوّفها عاقبةَ الحسرة هنالك والندامة، حتى يُسْرع بما وَجَبَ عليه من فَرْض التوبة عَيْناً، ويقتضي من التمكّن في هذا المقام الأشرف دِيْنا[٢]. قال الله تعالى: ﴿وأمّا مَنْ خَافَ مقامَ رَبِّهِ ونَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى فَإنّ الجَنَّةَ هِيَ المَأْوى﴾[٣] وبعيدٌ لغَرورٍ منّا أن يرقى إلى هذا المقام الأسنى، أو يتعلّق بأذيال من سبقت لهم من الله الزيادةُ والحسنى، إلّا أنْ يشاءَ الله كَقَوْدِه بِسلسلةٍ[٤] من التمحيص تجذبهُ لذلك اضطراراً كما جاء في الحديث.

ومقامُ الخوفِ بأمثالِنا من الخطّائين ألْيَق، وهو بالنسبةِ لتوقّي المَدينينَ أسْبَق، وإنّما نحنُ فيه في قولٍ غير موافقٍ للفِعْل ودعوى غيرِ مطابقةٍ للعمل، ولو أننا في دعوى الخوفِ صادقون، والعَمَلُ منّا موافِقٌ لما نحن به ناطقون لأسْلَمَتْنا من أسْرِها الذنوب، وتجافَتْ بنا عن المضاجِعِ الجُنُوب، وسَلْ بالتماس رحمةِ الله الغَرَضَ المطلوب، فقد سئل عزُّ الدين بنُ عبد السلام[٥]

(١) ـ أدب الدنيا والدين ص ٣٦ ـ ٣٧ وفيه: من جاهد هواه فهو أشجع الناس.

(٢) ـ في الأصل: دنيا

(٣) ـ اية ٤٠ من سورة النازعات.

(٤) ـ الأصل: بسلسة.

(٥) ـ هو عبد العزيز بن عبد السلام بن حسن السلمي المغربي الأصل الدمشقي المولد، يكنى أبا محمد ويلقب بعز الدين وسلطان العلماء، ولد عام ٥٧٧ أو ٥٧٨ هـ، تولى التدريس والإفتاء والخطابة والقضاء في دمشق ومصر، وتوفي سنة ٦٦٠ هـ، وكان نزيهاً عادلاً لايخشى في الحق لومة لائم، وتعرض بسبب ذلك إلى النفي والتشريد من قبل الحكام، وقد خلف عدداً من المؤلفات في التفسير وعلوم القرآن والحديث والعقائد والفقه والسيرة والتصوف، وقد ألف فيه الدكتور علي الفقير كتاباً في مجلدين عنوانه: الإمام العز بن عبد السلام وأثره في الفقه الإسلامي ـ عمان ـ ١٩٧٧م.

عن التائب من الكبائر وغيرها يسأل الله مقامات الأولياء؛ أيكون ذلك منه سوءَ أدب أم لا؟ فأجاب: إنما إذا تابَ الإنسانُ من كفر أو كبيرة أو صغيرة فليس من سُوءِ الأدب أن يَسْأَلَ الله المقامات؛ فإنّ الله تعالى لا يتعاظمه شيء، وقد تابَتْ الصحابةُ رضوانُ الله عليهم من الكفر ثم رفعهم الله تعالى بعد قربتهم إلى أرفع أعلى[1] المقامات، وجعلهم خير أمة أُخْرِجَتْ للناس، وأيُّ سُوءِ أدبٍ في سؤال أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين ورسوله صلى الله عليه وسلم يقول: «**لا يقولنَّ أحدُكم اللهم اغِفْر لي إن شئت وليعزم المسألةَ وليعظم الرغبة فإنّ الله تعالى لايتعاظَمهُ شيءٌ أعطاه**»[2] وقضيةُ الفضيلِ بن عياض[3] مشهورة[4] انتهى.

وكان يحيى بن مُعاذ الرازيّ[5] يقول: (كيف أُمْتَنِعُ بالذنبِ من الدعاء ولا أراك تمتنِعُ بذنبي من العطاء)[6] وأكيد عليه ألّا يغفل طرفة عَيْن عن إشعارِ نفسه الخوفَ، وإدمانه فيه الفِكْرَ، وعمرانه بالجدّ في ذلك القلب، متحفّظاً من دُخول اليأس عليه، أو تسرُّع القُنوط من رحمةِ الله إليه. قال (ص ٢٨) الشيخُ تاجُ الدين[7] ـ رضي الله عنه ـ في حِكَمِه: (لا يَعْظُمُ الذَنْبُ عندكَ عَظَمَةً تَصُدُّكَ

---

(١) ـ هكذا في الأصل.

(٢) ـ صحيح البخاري ٧ / ١٥٣، صحيح مسلم ٨ / ٦٣ ـ ٦٤.

(٣) ـ يشير إلى: الفضيل بن عياض أبو علي التميمي أحد الزهاد المعروفين في زمن هارون الرشيد، توفي مجاوراً بمكة سنة ١٨٧هـ (حلية الأولياء ٨ / ٨٤، كتاب التوابين ٢٠٧، وفيات الأعيان ٤ / ٤٧).

(٤) ـ انظر قصة توبته في كتاب التوابين ٢٠٧ ـ ٢٠٨، وفيات الأعيان ٤ / ٤٧.

(٥) ـ هو أبو زكريا يحيى بن معاذ الرازي الواعظ من مشايخ المتصوفة، توفي بنيسابور سنة ٢٥٨ هـ، حلية الأولياء ١٠ / ٥١، طبقات الصوفية ١٠٧، تاريخ بغداد ١٤ / ٢٠٨، وفيات الأعيان ٦ / ١٦٥)

(٦) ـ حلية الأولياء ١ / ٥١.

(٧) ـ تاج الدين أبو الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الاسكندري، وقد مضت ترجمته.

عن حُسْنِ الظنّ بالله فإنَّ مَنْ عرف ربَّه استصْغَرَ في جَنْب كَرَمه ذَنْبَه)[1]. وقال أيضاً رضي الله عنه: (إذا وَقَعَ منك ذنبُ فلا يكن سبباً يؤيسك من حصولِ الاستقامة مع ربّك فقد يكون آخِرَ ذَنْبٍ قُدِّرَ لك)[2].

وإنّ من أعظم ما يقوي الرجاء في رحمة الله لمن حَصَلَتْ له التوبة من العصاة ما نُقِلَ عن ابنِ عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: سَمِعْتُ من رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم حديثاً لو لم أسْمَعْهُ إلاّ مرّةً أو مرّتين أو ثلاثاً أو أربعاً حتى عدّ سبع مرات سَمِعْتُه يقول: «**كان ذو الكِفْل رجلاً[3] من بني اسرائيل، وكان لا يتورّع من ذنبٍ عمله حتى أتَتْه امرأةٌ فأعطاها سبعين ديناراً على أن يطأها، فلما أُجلِسَ منها مجلسَ الرجلِ من المرأة ارْتَعَدَتْ وبكتْ فقال لها: ما لكِ؟! أكْرَهْتُكِ؟ فقالت: لا، لكن هذا عمل ما عملتُه قط، وإنما حَمَلَني عليه الحاجة، قال: فتعملي هذا أو لم تعمليه قط قومي والدنانير لك. قال: ثم قال: والله لا يعصي الله ذو الكفل أبداً. قال: فمات من ليلته فأصبح على بابه مكتوب: قد غفر الله لذي الكفل**» انتهى[4].

وإنما يتحفظ بتقوية الرجاء من دُخولِ اليأس فإنَّ المذنب منا كَثُرَ ما يؤيسه المستعظِمُ لذنوبه من رحمة الله، وفي هذا المعنى قال بعضُهم:

أيْأَسُوني لمّا رأَوْا مِنْ ذُنُوبِي ... أَتُراهُمْ هُمُ الغَفُورُ الرَّحيمُ؟!
اتْركُوني وإنْ تَعاظَم ذَنْبِي ... إنّما يَغْفِرُ العظيمَ العظيمُ

والاعترافُ بالذنب صادقاً من القلب سببٌ في حصول التوبة من الرب قال الله تعالى: ﴿**وآخَرُونَ اعْتَرفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالحاً وآخَرَ سَيِّئاً**

---

(١) ـ حكم ابن عطاء الله ص ١٢٨، ١٢٩.

(٢) ـ نفسه ص ٢٥٣.

(٣) ـ في الأصل: رجلٌ.

(٤) ـ انظر كتاب التوابين ص ٧٢ ـ ٧٣.

عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾[1] وعسى كما قالوا من الله واجبة، ويُناسِبُ هذا المحلّ قولُ أبي العتاهية[2] ـ رحمه الله ـ:

إلهي لا تُعَذِّبْني فإنّي ... مُقِرٌّ بالذي قَدْ كان مِنّي
فما[3] لي حيلةٌ إلاّ رَجائي ... لِعَفْوِك[4] إنْ عَفَوْتَ وحُسْنُ ظَنّي
وكم[5] مِنْ زلّةٍ لي في الخطايا ... وأنْتَ عَلَيَّ ذو فَضْلٍ ومَنِّ
إذا فكّرتُ في نَدَمي عليْها ... عَضَضْتُ أناملي وقَرَعْتُ سِني
أُجَنُّ بزهرة الدنيا جُنُوناً ... وأَقْنَعُ طولَ عُمْري بالتمنّي[6]
ولو أنّي صَدَقْتُ الزُهْدَ عنها[7] ... قَلَبْتُ لأهْلِها ظَهْرَ المِجَنِّ
(ص ٢٩) يَظُنُّ الناسُ بي خيراً وإنّي ... لَشَرُّ الناسِ إنْ لم تَعْفُ عنّي[8]

وواجبٌ عليه إذا تمّ من التوبةِ غَرَضُه، وذهب بأدويتها الشافيةِ مَرَضُه، أن يستحضِرَ كونَه بحالِ مَنْ عُفِي عن إجرامه، وتعوّض عمّا يجب من هونه إلى ما تفضّل به من إكرامه، فينجو بذلك من مهواةِ الغُرور، ويشهد من رؤية المنّة من الله نوراً على نور، ورَحِم الله الأستاذَ أبا سعيد بن لُبّ[9]، فإلى هذا المعنى أشار وفائدته الجليلة بقوله أثار:[10]

(١) ـ آية ١٠٢ من سورة التوبة.

(٢) ـ ديوان أبي العتاهية ص ١٢٥.

(٣) ـ في الديوان: وما.

(٤) ـ في الديوان: وعفوك.

(٥) ـ في الديوان: فكم.

(٦) ـ في الديوان: وأفني العمر فيها بالتمني.

(٧) ـ في الديوان: فيها.

(٨) ـ هذا البيت في الديوان هو الخامس في القصيدة.

(٩) ـ هو أبو سعيد فرج بن قاسم بن أحمد بن لُبّ التغلبي، أسلفنا الترجمة له.

(١٠) ـ ورد البيتان في الإفادات والإنشادات للشاطبي ص ٩٤، ونيل الابتهاج ص ٢٢١.

وَهَبْكَ وَجَدْتَ العَفْوَ عَنْ كُلِّ زلّةٍ فأيْنَ مقامُ العَفْوِ مِنْ مَقْعَدِ الرِضا
وكيفَ بثوبٍ حالكِ اللوْنِ رُحْتَ أنْ يَصيرَ كثوبٍ لم يَزَلْ قطُّ أبْيَضا

ولكنا نتمسّك بمثل قوله صلى الله عليه وسلّم: «**لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لذَهَبَ الله بِكُمْ ولجاء بقومٍ يُذْنِبُون فيسْتَغْفِرون فيغْفِر لهم**»[1] وما أنسب قول القاضي منصور الهَرَويّ[2] لهذا الموضع:

لمّا عَدِمْتُ وسيلةً ألقى بها ربّي تقي نَفْسي أليمَ عَذابِها
قَدَّمْتُ رَحْمَتَهُ إلَيْهِ وَسيلةً وَكَفَى بها وَكَفَى بِها وَكَفى بِها

وإذا كان كذلك فَظَهَرَ اسمُه التوّاب ونحوه من أسمائه لا بُدَّ منه في الوجود، وله الحمدُ على ما مَنَح من هذه الموجبة لعبيده الخطّائين المعروضة لهم التوبة بعد ارتكابِ الخطايا واقترافِ البلايا.

وهذه المقدَّمةُ إذا منّ الله بحصولها، وأنْعَمَ توفيقاً منه بمَحْصُولها فإنها مُؤْذِنَةٌ بإذن الله بالشِفاء، وافيةٌ بحول الله بصلاحِ الحال أتمَّ الوفاء.

إلّا أنّه تَلْزَمُ مع ذلك حالةٌ أخرى هي المسمّاةُ بالتقوى، وهي أشْبَهُ شيء باجتناب الأمورِ المُضِرَّة والاحتماء مِنْها والتزامِ الأمورِ النافعة والمحافظة عليها، وهي الضمينةُ لاستقامةِ الحال الصحيّة.

والتقوى فرضٌ لازم أوجبها الله علينا كما أوجبها على الذين مِنْ قَبْلِنا حسبما تضّمنته الآية الكريمة.

والتقوى المفروضةُ علينا هي أن يتخذ العبد وقايةً بينه وبينَ الذنوبِ بقُوى

---

(١) ـ صحيح مسلم ٨ / ٩٤.

(٢) ـ هو أبو أحمد منصور بن الحاكم أبي منصور محمد الأزدي الهروي من أعيان هراة وشعرائها (يتيمة الدهر ٤ / ٩٩٣) وكان قاضياً لمدينة هراة، وفقيهاً، امتدح القادر بالله وتوفي سنة ٤٤٠ هـ (معجم الأدباء ١٩/ ١٩١) ترجم له الباخرزي (دمية القصر ٢ / ٩٣ ـ ١٠٢) وقال: إنه أفضل من بخراسان على الإطلاق وأنه كان مغرى بالشراب والطرب وأن ديوان شعره بلغ أربعين ألف بيت.

من العزم وتوطينٍ من القلب على تَرْكِ المخالفات وامتثال الطاعات. ولن يُتوصَّلَ إلى هذا الغرض الذي هو التقوى إلاّ بِعِلْمِ ما يكونُ به متّقياً، فيلزم أن يَعْلَمَ ما أُمِرَ به ليمتَثِلَهُ وما نُهِيَ عنه لِيَجْتَنِبَهُ، لأنَّ ما لا يتمُّ الواجبُ إلاّ به فهو واجب. ولذلك يقولُ الله تعالى: ﴿واتّقوا الله ويُعَلِّمُكُمُ الله﴾[1] ذَكَرَ كثيرٌ من المُفَسِّرين أنّ مَعْنى الآية: يبيّنُ الله لكم الواجبَ والمحرَّم عليكم لِتعلموا ولِتَعملوا ولِتَنْتَهوا ولِتَتَّقُوا الله في ذلك. ولمّا ربط بين تقواهم له وتعليمِه لهم بيّن أنه مليٌّ لهم بما ضَمِنَ من التعليم، فقال: ﴿والله بكلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[2] (ص ٣٠) وإلى هذا المعنى المقرّر أشار قولُه صلى الله عليه وسلّم: «والله إنّي لأتْقاكُمْ لله وأعْلَمُكُمْ بحدوده»[3] وإنما قارن بين العلم والتقوى إشعاراً بهذا القصد، وتنبّهاً على هذا الأمر، إذا كانت التقوى الواجبة لاتمكن إلاّ بعد العلم بالمُتَّقَى والمُتَّقى به.

وتحتَ هذا يندرِجُ من العلوم الشرعيّة كلُّ ما يفتَقِرُ إليه المكلَّف في يومه وليلته من هذه العلوم وبحسبها ما أقيم فيه من وظيفٍ[4] أو صناعةٍ يحتاج فيه إلى ما لا يحتاج غيرُه ممّن ليس في تلك الصناعة ولا في ذلك الوظيف[5]، وهذا ظاهرٌ، فإنَّ مَنْ لا مالَ له لا يفتَقِرُ إلى فِقْهِ الزكاة، ومن لا يُعضّى[6] قِراضا[7] ولا مساقاة ولا يأخذهما غير محتاج إلى فقههما، وإنما يفتقر إلى فِقْهِ ما يُعانيه من عمل، وما لا يعلمه فهو عنه في غنىً، فإنْ افتقَرَ إلى عمله فلا ينبغي له

---

(١) ـ من الآية ٢٨٢ من سورة البقرة.

(٢) ـ من الآية ٢٨٢ من سورة البقرة.

(٣) ـ الموطأ ١٩٨.

(٤) ـ في الأصل: وضيف.

(٥) ـ في الأصل: وضيف.

(٦) ـ هكذا في الأصل، وفي القاموس المحيط التعضية: التجزئة.

(٧) ـ في القاموس المحيط: القِراض والمقارضة: المضاربة كأنه عقدٌ على الضرب في الأرض والسعي فيها وقَطْعِها بالسير، وصورته أن يدفع له مالاً ليتّجر فيه والربحُ بينهما على ما يشترطان والوضيعة على المال.

أن يُقْدِم عليه حتى يَعْلَمَ حُكْمَ الله تعالى فيه، فهذا ما يلزمٌ من التقوى التي هي أكيدة في هذا القصد الذي نحنُ بسبيله، والله أعلم.

والأمرُ بالتّقوى والحضّ عليها وإجمال موعود من اتّصَفَ بها قد تضمّنته آياتٌ كثيرة من الكتابِ العزيز لايمكننا الآن استقصاؤها، ذكر بعضُ الناس أنها في نحو من مائةٍ وتسعين موضعاً، وفي بعضها كفاية كقوله تعالى: ﴿**واتّقُوا الله واعْلَمُوا أنَّ الله مَعَ المُتَّقِين**﴾[1] فهذا أمرٌ بالتقوى وإعلامٌ من الله أنه مع من امتثل هذا الأمر واتّصف بالتقوى، وهذه رُتْبةٌ شريفة بأنّ من كان الله معه فلا خوف يلحقه ولا قصد يفوته، وكفى بأنّه نوعٌ مما أعطاه الله نبيَّه صلّى الله عليه وسلّم وصاحبَهُ أبا بكر الصدّيق ـ رضِيَ الله عنه ـ في الغار حيث يقول الله تعالى: ﴿**إذْ يَقولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إنَّ الله مَعَنا**﴾[2] وقوله تعالى: ﴿**فاتَّقُوا الله ما اسْتَطَعْتُم**﴾[3] وهذه الآيةُ محكمةٌ فيما يقول المفسّرون، والمنسوخُ بها قولُه تعالى: ﴿**يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا اتّقُوا الله حَقَّ تُقاتِهِ**﴾[4].

ولا خفاءَ بأنَّ محصولَ قوله تعالى: ﴿**فاتّقُوا الله ما اسْتَطَعْتُم**﴾ أخفُّ من محصولِ قَوْلِهِ تعالى: ﴿**يا أيُّها الذينَ آمنُوا اتَّقُوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ**﴾، لأنّ تَقْوى الله حَقَّ تقاته مما يعذر إلّا لأفذاذ من الأمة تولاهم الله بحفظه وأقامهم في هذا المقام حجّة على خلقه، ثم لطف الله تعالى في هذا الحكم بِنَسْخِهِ بقوله تعالى: ﴿**فاتَّقُوا الله ما اسْتَطَعْتُم**﴾. وقولِه تعالى: ﴿**يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا إنْ تَتَّقُوا الله يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً ويُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَالله ذو الفَضْلِ العَظِيم**﴾[5]، فهذا أيضاً وَعْدٌ من الله صَدَرَ مَصْدَرَ الشرطِ والمشروطِ وإنّ تقوى الله كفيلةٌ بجَعْلِ الفرقان وتكفير السيئاتِ والغفران، وكفى بذلك فضلاً عظيماً،

---

(١) ـ الآية ١٩٤ من سورة البقرة.

(٢) ـ الاية ٤٠ من سورة التوبة.

(٣) ـ الآية ١٦ من سورة التغابن.

(٤) ـ الآية ١٠٢ من سورة آل عمران.

(٥) ـ الآية ٢٩ من سورة الأنفال.

ولذلك خَتَمَ الآية بقوله: ﴿والله ذو الفَضْل العَظِيم﴾. وقوله تعالى: ﴿واتَّقُوا الله واعْلَمُوا أنَّكُمْ مُلاقُوه﴾[1] فهذا أمرٌ من الله لعباده (ص ٣١) بتقواه، وإعلامٌ لهم أنّهم مُلاقوه لا محالة. وفي ذلك من الفائدةِ ما لا يَخْفى، فإنّ العبد إذا أمره سيّده بأمـر وألزمه القيامَ بقصد، وأعْلَمَهُ أنّه لا بُدَّ ملاقيه بعد ذلك، وراجِعٌ إليه، فإن التزامَ ذلكَ الوظيف يَسْهُلُ لديه، وثِقَلُ التكليفِ يخفّ عليه. وما أقبحَ بالعبد في التقصير في حقّ مولاه وهو من الوُقوفِ بين يَدَيْه على يقين، ومن الرجعى إليه على سبيلٍ مبين. وفي هذه الآية الكريمة لحظ هذا المعنى كما سبقت إليه الإشارة، وإن قصرت عن شرح جُزْئياته العبارة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ الله يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتوكَّلْ على الله فَهُوَ حَسْبُهُ إنَّ الله بالغُ أمْرِه قَدْ جَعَلَ الله لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾[2] فقد جعل الله تعالى بنصِّ هذه الآية الكريمة لِمَنْ يتّقيه[3] مخرجاً مما يكونُ فيه قد نشب، وَتَكَفَّلَ برزْقِه من حيثُ لا يحتسب، وكفى بذلك لمن اتّقى نوالاً عاجِلاً إلى ما يدّخره الله له آجِلاً. وفي خاتمةِ الآيةِ لمن توكَّلَ عليه ما يشد عليه لديه، فمن علم أنّ الله حَسْبُه فقد وثق بالكفالة قلبُه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يتّقِ الله يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أمْرِهِ يُسْراً﴾[4] إلى غير ذلك من الآيات الصريحة في الأمْر بالتّقوى والمُخْبِرةِ عن استنادِ المتّصف بها للركن الأقوى.

ومثلُ ذلك في الأحاديثِ الصحيحة كثير، كقولِ النبي صلى الله عليه وسلّم «اتّقُوا الله وأجْمِلوا في الطَلَب»[5]. وقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح عن أبي ذَرّ ومعاذ ـ رضي الله عنهما ـ عن رسولِ الله صلى الله عليه

---

(١) ـ الآية ٢٢٣ من سورة البقرة.

(٢) ـ الآيتان ٢ ـ ٣ من سورة الطلاق.

(٣) ـ في الأصل: لمن يتّقِهِ.

(٤) ـ الآية ٤ من سورة الطلاق.

(٥) ـ سنن ابن ماجة ٢ / ٧٢٥ (حديث رقم ٢١٤٤).

وسلم قال: «اتَّقِ الله حيثُما كُنْتَ وأتْبِعِ السيِّئة الحَسَنَةَ تَمْحُها»[1] أمر بالتقوى مُطْلقاً ويحمل الأمر على الوجوب فيما يذهب إليه أكثر الأصوليين، إلى غير هذا من الأحاديث تكاد لا تحصى، بها الأمرُ بالتقوى والحضُّ عليها وضمان ما يثلج به الصدر ديناً ودنيا لمن تمسّك بها واستند إليها.

ولا نطول في ذلك فالأمر فيه أوضح، وإنما اجتلبتُ ما قَرُبَ مأخذه وسَهُلَ مدركُه لتكونَ تذكرة لي ولمن نظر بمثل نظري ومن الله التوفيق.

ولنختم الحثَّ على تقوى الله بقولِ الشيخ أبي جعفر أحمد بن خاتمة:[2]

مِلاَكُ الأمْـرِ تَقْـوى الله فاجْعَـلْ ... تُقـاهُ عُدَّةً لِصَـلاحِ أمْـرِكْ
وبـادرْ نَحْـوَ طاعَـتِـهِ بِعَـزْمٍ ... فمـا تَدْري متى يَمْضِي بِعُمْـرِكْ

ولقد رأيتُ في عَالَم النوم الشَيْخَ أبا إسحق الشاطبي[3] رحمه الله ولم أُدْرِكْهُ بسنّي ولكنّي علِمْتُ في النوم أنّه هو وأُخْبِرْتُ بذلك وهو رَجُلٌ أمْيَلُ[4] اللونِ للصُّفْرة، خفيفُ العارضَيْن، عليه جبّة مختصرة وَقَبَلا[5] ومثلها عَرْيٌ[6]

(1) ـ مسند ابن حنبل ٥ / ١٥٣، ١٥٨، ١٦٩، ١٧٧، ٢٢٨، ٢٣٦.

(2) ـ هو الفقيه الكاتب أبو جعفر أحمد بن علي بن محمد بن علي المعروف بابن خاتمة الأنصاري، شاعر وكاتب ووشّاح من مدينة المريّة، ولد حوالي عام ٧٠٠ هـ وتوفي عام ٧٧٠ هـ، وله مؤلفات أدبية منها ديوان شعر وكتاب مزية المريّة، وعن هذا الكتاب نقل المقّري في كتابيه نفح الطيب وأزهار الرياض كثيراً، وله كذلك رسائل كثيرة في موضوعات شتى (انظر ترجمته في. نثير فرائد الجمان ص ٣٣١، نثير الجمان ص ١٧٥، الإحاطة ١ / ٢٣٩، الكتيبة الكامنة ٢٣٩، نيل الابتهاج ٧٢، درة الحجال ١ / ٨٥، وانظر البيتين المذكورين أعلاه في الإحاطة ١ / ٢٥٠ ونيل الابتهاج ص ٧٢).

(3) ـ هو أبو اسحق ابراهيم بن موسى ين محمد اللخمي الغرناطي، أسلفنا الترجمة له.

(4) ـ امّحت ملامح هذه الكلمة في الأصل.

(5) ـ القَبَلا: نوع من الملابس في المغرب، ذكره رينهارت دوزي في مقالته بعنوان: المُعْجَم المفصّل بأسماء الملابس عند العرب (مجلة اللسان العربي المجلد العاشر ـ الجزء الثالث ـ يناير ١٩٧٣م، ص ٧٥).

(6) ـ العَرْيُ: قميص طويل واسع (المرجع السابق ص ١٥٧).

حوليّ[1] (ص ٣٢) اللون كأنه مِلَفٌّ بلِدِيّ صُبِغَ تلك الصِّبْغَة، فكنت أسأله أن يوصيني فقال لي: (اتّقِ الله وآخْشَهُ) فأَخْبَرْتُ بصفته وملبسه وما صدر لي منه من الوصاة الشيخ الأستاذ أبا عبد الله المُجاري[2] ـ حفظه الله ـ لكونه ممن لَقِيَه، وأخبرني بأنها صِفَتُه، وأنَّ اللباسَ لباسُه، وعجِبَ من ذلك لكونه قصده فيما أعلمني به إلى داره أيام حياته طالباً منه الوصاة فقال له: (قد وصّاكَ الله تعالى قبلي) ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنا الذينَ أُوتُوا الكتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وإِيّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ﴾[3]. ورجح لي بذلك أن الرؤيا صحيحة لموافقتها لما صَدَرَتْ له منه الوصاة به، ولكون صفته صحيحة، والله وليُّ العفو والمغفرة.

وقد تذكَّرتُ هُنا قولَ أبي العتاهية رحمه الله[4]:

أراك امـرءاً تَرْجُـو من الله عَفْـوَهُ ... وأنْـتَ على ما لا يُحِـبُّ مقِيمُ
تدلُّ على التَّقْـوى وأنْتَ مُقَصِّـرٌ ... أَيا مَنْ يُداوي النـاسَ وهوَ سَقِيمُ
وإنّ امـرءاً لم يُلْهِهِ اليومُ عن غدٍ ... تَخَـوَّفَ ما يأتـي به لحـكـيم
وإنّ امـرءاً لم يَجْعَـل البِرَّ كَنْزَهُ، ... وإنْ كانـتِ الـدُّنـيا له، لَعَـدِيمُ

والعذر عن ذاك قد تقدّم في الفصلِ قبلِ هذا في الحكاية عن الحسن البصري ـ رضي الله عنه[5] ـ، ويُحْكى أنَّ أبا العتاهية أمر أن يُكْتَبَ على قبره[6]:

---

(١) ـ هكذا في الأصل ولعلّها: حوّيّ نسبة إلى أحوى أي ذو لون أسود مائل إلى الخضرة.

(٢) ـ هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي بن عبد الواحد المُجاري الأندلسي، وقدَ أسلفت الترجمة له.

(٣) ـ الآية ١٣١ من سورة النساء.

(٤) ـ انظر الأبيات في ديوان أبي العتاهية ص ٣٩٣، وهذه الأبيات منتخبة من قصيدة أبي العتاهية التي مطلعها:

أيا ربّ يا ذا الـعـرشِ أنتَ حكيمُ ... وأنـت بما تُخفـي الـصـدورُ عليمُ

(ديوانه ٣٩٢ ـ ٣٩٣).

(٥) ـ انظر ص ٢٦ من الأصل المخطوط.

(٦) ـ الأغاني ٤ / ١١١، ديوان أبي العتاهية ٢٦٨، مع بعض اختلاف في الترتيب.

أُذْنَ حيٍّ تَسَمّعي اسْمَعي ثم عِي وعي
عِشْتُ تسعينَ حِجَّةً أَسْلَمَتْني لمضْجَعي
ليسَ زادٌ سِوى التقى فَخُذي مِنْهُ أو دَعِي
أنا رهنٌ بمضجع فاحذروا[1] مثلَ مَصْرَعي
كم ترى الحيَّ ثابِتاً في ثيابِ[2] التَزَعْزُعِ ؟!
أردتُ البيتَ الأخير.

اقتضَبْتُ معانَي هذه المقدّمة في قصيدةٍ اعْتَمَدْتُ نَظْمَها في أثناءِ الفِكْر في هذا القَصْد، وفي تضاعيف إنشائي لما سبق من هذا الكلام، فلا بأسَ بإثباتها هنا لِما اشْتَمَلَتْ عليه من أغراضٍ جمّةٍ[3] مطابقةٍ لما قَدَّمْتُه. وهي:

بِحِمَى الله عُذْتُ مِنْ سُوء كَسْبي
فَهْوَ مِنْهُ إذا تَخَوَّفْتُ حَسْبي[4]
وإلى الله مِنْ ذُنوبي[5] التجائي
فَهْوَ مَنْجىً منها ومِنْ كُلِّ كَرْبِ
فإذا تُبْتُ فَهْوَ قابلُ تَوْبي
وَهْوَ مَهْما أذْنَبْتُ غافِرُ ذَنْبي[6]
أنا في لُجَةِ المعاصي غَريقٌ
وخَلاصي عَلَيْهِ لَيْسَ بِصَعْبِ
أنا ممّا اجْتَرَحْتُ في أزَماتٍ
رَوَّعَتْ من معاهِدِ الأمْنِ سِرْبي[7]

(١) - في الأغاني: فاحذري.
(٢) - في الأغاني والديوان: ديار.
(٣) - في الأصل: حجّة.
(٤) - في الأصل: حسبِ.
(٥) - في الأصل: ذنوبِ.
(٦) - في الأصل: ذنب.
(٧) - في الأصل: سرب.

أنـا ممّـا اقْـتَـرَفْـتُ في نَقَـمـاتٍ
كدَّرَتْ مِنْ مواهـبِ الـعَـيْشِ شُربـي[1]

(ص ٣٣)

أنـا ممّـا جَـنَـيْتُ في ظُلُمـاتٍ
طبّـقَـتْ لي ما بينَ شَرْقٍ وغَـرْبِ

حمّـلتْـنـي أوزارُهـا كُلَّ ثِقْـلٍ
أنـا مِنْـهُ ما بَيْنَ خَوْفٍ ورُعْـبِ

وغـزانـي للابـتـلا أيُّ جَيْشٍ
أنـا مِنْـهُ ما بَيْن طَعْـنٍ وَضَـرْبِ

وبِـجـدّي بالـسـيّئـاتِ انـتـفـاءٌ
حالَ[2] فرضُ الـدُّعـاءِ منـه بحَـجْـبِ

فبـفـكـري في أمْـرِهـا طارَ عَقْـلي
وبـخَـوْفـي مِنْ شرِّهـا طاشَ لُبّـي

قَدْ أقَـضَّـتَ من مَضْجَـعي في حَياتـي
وهْيَ أدْهى إذا امْتَـطى التُـربَ جَنْبي[3]

طالَ ما اسـتـلزَمَـتْ جزاءً وِفـاقـاً
في ارتـبـاطٍ بين ابْـتِـلاءٍ وذَنْـبِ

لسـتُ أخْـشـى بُؤسـاً ولا أتّـقـيه
مِنْ سِوَاهـا عنـدَ انْـفِـرادي برَبّـي[4]

دَهَـمَـتْـنـي بكـلِّ خَطْبٍ وإنّـي
لسـتُ أرجـو سواهُ في كَشْـفِ خَطْبـي[5]

---

(١) ـ في الأصل: شرب.

(٢) ـ في الأصل: بحال.

(٣) ـ في الأصل: جنبِ.

(٤) ـ في الأصل: بربِّ.

(٥) ـ في الأصل: خطب.

طَرَقَـتْـنـي بكـلّ كَرْبٍ وإنّـي
مِنْـهُ مُسْـتَـوْثِـقٌ بِتَـفْـريجِ كَرْبـي[1]
نَصَـبَـتْـنـي حِبـالـةً[2] أرْهَـنَـتْـنـي
للذّي مَسَّ مِنْ عذابٍ ونُـصْـبِا[3]
أبْـدَرَتْـنـي من الـزمـانِ بخَـسْـفٍ
أدَّبـتْـنـي من الـخُـطوبِ بحـرْبِ
وقّـفَـتْـني في الـنـاسِ موْقِـفَ خِزْيٍ
بُـؤْتُ منـه بكُـلِّ لَوْمٍ وعَـتْـبِ
وأحـاطـتْ بيَ الـخـطايا وإنّـي
لَيكـادُ الـقُـنـوطُ يَصْـدَعُ قَلْبـي
ونَـجـاتـي أنْ لو مننـتَ بعـفْـوٍ
يَتَـلافـى مِنْ عِلّةٍ كُلَّ صَعْـبِ
كَيْفَ يَشْـفـى[4] مِنَ الـذُّنـوبِ عَليلٌ
لم يُوفَّـقْ من الـمـتـابِ لِطِبِّ؟!

وإذا للمـتَـابِ أرْهَـفْـتُ عَزْمـاً
فَلَّ من سَيْفِـه الـهـوى كُلَّ غَرْبِ
أنـا عاصٍ وكـلُّ وَصْـفٍ لعـاصٍ
نَرْتَـضِـيه فإنَّـنـي عنـه مُنْـبي[5]
لَيْس مَشْـيُ الـسَـوِيّ فَوْقَ صِراطٍ
مسـتـقـيمٍ كمِـثْـلِ مَشْي الـمُـكِـبِّ

(١) ـ في الأصل: كربِ.

(٢) ـ الحبالة: المصيدة (لسان العرب: حبل).

(٣) ـ ضُبِطَتْ في الأصل هكذا، والنَّصْبُ والنُّصْبُ: البلاء (القاموس المحيط: نصب).

(٤) ـ في الأصل: يشف.

(٥) ـ في الأصل: فإنّي عنه ملب. وهو يخلّ بالوزن والمعنى.

يَكْـرَهُ الـذنْـبَ راغـمـاً وبـعـيدٌ
فعـلُ ما لم يكُـنْ له بِمُـحِـبِّ

ومـن الـبـيّنِ[1] استـحـالـةُ أَمْـرٍ
هو عَيْنُ الـمَـكْـرُوهِ والـمُـسْـتَحَـبِّ

فَتَـنَـافـي الـضِـدَّيْنِ شَرْعـاً وَطَبْـعـاً
واضـحُ الـحُـكْـمِ في ثُبـوتٍ وسَلْبِ

ليْتَ أُمِّـي - وقُـدِّسَـتْ - لَمْ تَلِدْنـي
أو بَكَـتْـنـي ثُكْـلاً ولـمّـا أشِـبِّ

قَدْ شَكـانـي على الـمَـودَّةِ قَوْمـي
وَجَـفـانـي على الـمـحـبَّـةِ صَحْبـي[2]

وَرُوَيْداً فالـدارُ دارُ ابْـتِـلاءٍ
طالـمـا اعْـقَـبَـتْـكَ سِلْمـاً بِحَـرْبِ

فَسَتُبْـكـي إنْ أضْـحَكَـتْ وسَتُـعْـري
إنْ كَسَـتْ في قيامِـهـا الـمُـسْتَتِبِّ

(ص ٣٤)

كَمْ صحـيحٍ قد أسـقَـمَـتْ وسَقـيمٍ
قد أصَـحّـت ولـم يُعـانَ بِطبِّ

وغـنـيٍّ قد أفـقـرتْـه بكَـسْـبٍ
وفـقـيرٍ أغْـنَـتْـهُ مِنْ غَيْرِ كَسْـبِ

بينَـمـا الـشـمسُ قد أنـارَتْ بشَـرْقٍ
غَالَ من نُورِهـا الأُفـولُ بغَـرْبِ

والـذي سُـرَّ في الـصَّـبـاحِ بصُنْـعٍ
رُبَّـمـا سِيءَ في الـمَـسـاء بِكَـرْبِ

---

(١) - في الأصل: ومن أبين، والصواب المثبت هو ما يقتضيه البيت الذي يليه.

(٢) - في الأصل: صحب.

والـعـطايا أوِ الـبـلايا حُظوظٌ
وهْيَ في القَسْمِ في وُجوبٍ وسَلْبِ

فنـصـيبُ الـعَـطاء آتٍ بحـدٍّ
ونـصـيبُ الـبَـلاء آتٍ بِذَنْـبِ

والـذي قالَ إنَّ في الـشـرِّ خَيْراً
ظاهـرٌ منـه أنّ ذلـك نِسْبـي(*)

يَحْـسُـنُ[1] الـمـوتُ مِنْ غيرِ لَيثٍ
دونَ ما جاءَ مِنْـهُ مِنْ جُحْـرِ ضَبِّ

والـرَّدى إنْ أتـى بغُـرّةِ بِكْـرٍ
ليسَ مِثْـلَ الـرَّدى بِحَـطْمَـةِ عَضْـبِ

إنّـمـا الـدهـرُ مِثـلُ عامـلِ نَحْـوٍ
والـورى منـه بَيْـنَ خفضٍ ونَـصْـبِ

وفُـروضُ الـوجـودِ أيّ اعـتـبـار
في مجـالٍ من الـتـفـكُّـرِ رَحْـبِ

يَسْـرَحُ الـعَـقْـلُ في حقـائِـقَ غُرٍّ
مِنْـهُ والـطَّرْفُ في حَدائِـقَ غُلْبِ

ويُرى الـكـونُ بالـكـمـالِ شَهـيداً
للّذي زَيَّنَ الـسَّـمـاءَ بِشُـهْـبِ

وإلـى العَجْـزِ عَنْ سِوى العَجْـزِ نَلْجـا
إنَّ حِزبَ الـرَّشـادِ مِنْـهُ لَحِـزْبـي[2]

ربِّ هَبْ لي جَرائـراً قد دَهَـتْـنـي
أنـتَ يومَ الـحسـاب مِنْهُـنَّ حَسْبي[3]

---

* ـ أي نسبيّ، وفي الأصل: نسب.

(١) ـ هكذا رسمت هذه الكلمة في الأصل. والشطرُ مختلُّ الوزن والمعنى.

(٢) ـ في الأصل: لحزبِ.

(٣) ـ في الأصل: حسبِ.

أفأخشى ومُصْطَفاك نَبِيّي
وشَفيعي وأنتَ يا ربُّ ربّي[1]

لي رَجاءٌ فإنَّ رُحْماكَ عَمَّتْ
ومخافُ فإنَّ ذنْبيَ ذَنْبي[2]

لَيْتَني قَدْ علِمْتُ مِنْكَ مكاني
أببُعْدٍ وسَمْتَه أم بقُرْبِ

إنْ يكُنْ دانياً فأقْضي سُؤالي
أو يَكُنْ نائِياً فأقْضِيَ نَحْبي[3]

أنا والله قد تَبَلَّدَ ذِهْني
أنا والله قَدْ تَحَيَّرَ لُبّي[4]

لَسْتُ ممّا جَنَيْتُه بِبَريءٍ
وهو ممّا قضاهُ لي وهو كَسْبي[5]

غيرَ أنّ التوفيقَ عنوانُ صِدْقٍ
منه عَنْ سابِقِ السعادةِ مُنْبي[6]

وكذاك الخِذلانُ فيه دَليلٌ
ربّما كانَ بالشَّقاوَةِ يُنْبي[7]

ولِلأقدارِ[8] بعدَ ذلك سِرٌّ
قد تَوارَى عن الورَى خَلْفَ حُجْبِ

---

(١) ـ في الأصل: ربَ.

(٢) ـ في الأصل: ذنبِ.

(٣) ـ في الأصل: نحبَ.

(٤) ـ في الأصل: لب.

(٥) ـ في الأصل: كسْبِ

(٦) ـ في الأصل: مُنْب.

(٧) ـ في الأصل: يُنْبِ.

(٨) ـ هكذا في الأصل ولا يستقيم بها الوزن الشعريّ.

كلُّ فعلٍ مِنْ طاعةٍ وسِواها
فَهْوَ جارٍ ما بَيْنَ عَبْدٍ ورَبِّ
فَمِنَ الربِّ عن قضاءٍ وعِلْمٍ
ومِنَ العَبْد باخْتِيارٍ وكَسْبِ

(ص ٣٥)

والتصاريفُ في مطيعٍ وعاصٍ
واقِعاتٌ ما بَيْنَ طَرْدٍ وجَذْبِ
رُبَّ قاصٍ تُدْنيه مِنْ بَعْدِ بُعْدٍ
عَكْس دانٍ تُقْصيهِ مِنْ بَعْدِ قُرْبِ
ومَحلُّ الرِضَا مِنَ الله عَبْد
لِدَوَاعي النُّهى مُجيبٌ مُلَبِّ
بلسانٍ من التِلاوةِ رَطْبٍ
وهْو بالصَّوْم يابِسٌ غيرُ رَطْبِ
ولعلّي إذا تدبَّرْتُ أمري
ضاقَ بي من مَذاهبي كلُّ رَحْبِ
فمتى صَحَّ لي من الخَيْرِ فِعْلُ
خالِصُ القَصْدِ مِنْ رياءٍ وعُجْبِ
ومتى تَمَّ لي من البِرِّ أمرٌ
طابَقَ الشرعَ في وُجوبٍ ونَدْبِ
رَبِّ مَهْما غَفَرْتَ لي فَبِلُطْفٍ
مِنْكَ أو عَدَلْتَ بي فَبِذَنْب
سألاني الناس الذي اتمنه
ببنيه بمثل قولك نَبِّ(١)

---

(١) ـ هكذا ورد هذا البيت في الأصل، وقد وضع الناسخ قبالته هذا الرمز. الذي يعني به إشكال الأمر عليه.

ولــو انّــي علمــتُ أنّــكَ راضٍ
لم تَهُــلْنــي شَدائــدُ عَلِقَــتْ بي
فبِــمَــنْ اسْــتَــغِــيثُ إنْ لم تُغِــثْــني
ولِــمَــنْ أَشْــتــكــي سِواكَ بِكَــرْبِ
ليسَ لي مِنْ وســيلةٍ لِنَــجــاتــي
تُثْــمِــرُ الــفَــوْزَ غيرُ رحــمــةِ ربّــي[1]
وشَــفــيعٍ لهُ منَ الله حُبٌّ
لَيْسَ يُلْفــى بِضَــائــعٍ فيهِ حُبّــي
فَلَهُ أشْــتــكــي وسِــرٌّ عجــيبُ
في تَلَقّي الــحــبيبِ شَكْــوى الــمُــحِبِّ
وبــه أسْــتَــعِــيذُ مِنْ قُبْــح فِعْــلي
وبــه أسْــتــجــيرُ مِنْ سُوءِ كَسْــبــي[2]
يَفْــضُــلُ الــرُسْــلَ من كليمٍ وروحٍ
وخــليلٍ برؤيةٍ وبِــحُــبِّ
سَيِّدِ الــخَــلْقِ بَيْنَ حُمْرٍ وسُــودٍ
مُــحْــرِزِ الــسَّــبْقِ بين عُجْــمٍ وعُــرْبِ
خُصَّ من أَشْــرَفِ الــمــزايا بخَــمْسٍ
لم يَنَــلْهــا مَنْ كانَ مِنْ قَبْــلُ نُبِّــي[3]
أوضَــحَ الــحــقَّ فهــو خَيْرُ رَسُــولٍ
ونَــبــيٍّ، وصــحْــبُــه خيرُ صَحْــبِ
أشْــرَقــوا حوله نُجــومــاً، ولــكــنْ
غَيْرُ بِدْعٍ أنْ حُفَّ بدرٌ بشُــهْــبِ

---

(١) - في الأصل: ربِّ.

(٢) - في الأصل: كسْبِ.

(٣) - في الأصل: نُبِّ.

كَثَّـر الـقُـلَّ مِنْ طعـامٍ ومـاءٍ

أنـطقَ الـعُـجْـمَ بين ذِئْـبٍ وضَـبِّ

ولـه الـبـدرُ شُقَّ والـشـمسُ رُدَّتْ

فتـجـلّت بعـد الـغُـروب بغَـرْبِ

كم لهـذا الـرسـولِ مِنْ مُعْـجـزاتٍ

هي إنْ عُدِّدَتْ على الألْـفِ تُربـي[1]

أوْدَعُـوهـا للحـفْظِ إمّـا صُدوراً

لِرجـالٍ إمّـا بُطونـاً لِكُـتْـبِ

هذه نبـذةٌ توسَّـلْتُ فيهـا

بأجـلِّ الـوَرى لِأعْـظَمِ رَبِّ

إنْ يوافـقْ رِضـا الـنـبيِّ امْتـداحي

فُقْـتُ فيه الـرَّضِـيَّ[2]والـمـتَـنَـبِّي

(ص ٣٦)

ولِـيَ الـعـذرُ عن قُصـوري فإنّـي

دون حسّـانَ[3] في الـقـريضِ وكَعْبِ[4]

وبِـوُدّي لوْ أَسْـعَـدَ الـدهـرُ قَصْـدي

فيُدالَ الـبِـعَـادُ منْـهُ بقُـربِ

ويزورَ[5] الـلحـدَ الـمقـدَّسَ جِسْـمي

بَعْـدَ أن لم أزُرْهُ إلّا بكـتْـبِ

أيُّهـا الـركْـبُ بلِّغـوا عنْ مَشْـوقٍ

بَثَّ مُسْـتَـعْـطِفٍ وشَـوْقَ مُحِـبِّ

---

(١) ـ في الأصل: تُرْبِ.

(٢) ـ الشريف الرضيّ.

(٣) ـ حسّان بن ثابت.

(٤) ـ كعب بن زهير.

(٥) ـ في الأصل: ونزور.

وارْحـموا مُغْـرَمـاً تخـلّفَ عنـكـم
باضْـطرارٍ ولـم يَكُـنْ عنْ تأبِّ

بين لَفْـحٍ من الـلواعـجِ حامٍ
ومُـلِثٍّ من الـمـدامـعِ سَكْـبِ

أيهـا الـظاعـنـون عَنِّـيَ مَهْـلاً
لا بُلِيتُـم بِلَوْعـتـي وبِـكَـرْبـي[1]

وَرَدَ الـصَّـبُّ مِنْ ألـيمِ نَواكُـمْ
مَوْرِداً للعَـذابِ لَيْسَ بِعَـذْبِ

عَجَـبـاً إن رَحَـلْتُـمُ كيف يَبْـقـى
فاتّـقـوا الله في حُشـاشـةِ صَبِّ

قال صَحْـبـي وقـد أَشَـرْتُ إلـيكـم
أيُّ شيءٍ مَشَـوْا بِهِ؟ قلتُ: قلبـي

فضُـلوعـي على وُلـوعِـيَ تُطْوى
ودُمـوعـي عَنْ اشـتِـياقـيَ تُنْـبـي[2]

خانَـنـي الـصـبْـرُ حين لَبَّـى أُنـاسٌ
دعـوةً لم أكُـنْ لهـا بالـمُـلَبّـي[3]

ومُـرادي أنْ لوْ أُجِـدَّ رحـيلاً
يتـقـاضـى ما بَيْنَ فُلْكٍ وركْـبِ

ليس مَرْعـى عزمـي ومَـرْعـى[4] هُمـومي
غيرَ رَوْضٍ من الأمـانـي بجَـدْبِ

أُزْمِـعُ الـسَّـيْـرَ كلَّ يومٍ مِراراً
وذُنـوبـي عنْ ذاك قد قَعَـدَتْ بي

---

(١) ـ في الأصل: وبكربِ.

(٢) ـ في الأصل: تُنْبِ.

(٣) ـ في الأصل: بالْمُلَبِّ.

(٤) ـ هكذا في الأصل ولعلها: مرقى.

قَيَّدَتْني عن المَسيرِ ولَوْلا
أمَلي ما اسْتَسَغْتُ أكْلي وشُرْبي[1]
ليتَ شِعْري هل يُنْزِلُ الدهرُ رَحْلي
بِفِناءٍ من طَيْبَةِ الطِيب رَحْبِ
حيثُ كانَ الروحُ الأمينُ نَجِيّاً
لنَبيِّ الهُدى بِفَرْضٍ ونَدْبِ
وسفيراً ما بَيْنَ عَبْدٍ حَبِيبٍ
في مقامِ الرِضا ومولىً مُحِبٍّ
حيثُ مَثْوى الرسولِ حَيّاً ومَيْتاً
يَفْضَحُ المسكَ منه عاطرُ تُرْبِ
فأنا دُونَه مُقيمٌ بجِسْمٍ
وأنا راحلٌ إلَيْهِ بِقَلْبِ
يا مُسيئاً مِثْلي إلى مكَّةَ اقْصِدْ
واجْعَلِ الشَّامَ بين جَوْفٍ وغَرْبِ
ثم مِنْ ذي الحُلَيْفَةِ[2] انْوِ وأحْرِمْ
وتَجرَّدْ من المَخِيطِ وَلَبِّ
واحذَرِ الطِيبَ والنِساء وَدَعْ مَنْ
قبض الله[3] آمناً كلَّ سِرْبِ
وطوافَ القُدوم قدِّمْ وأخِّرْ
مِنْ طوافِ الوَداعِ لاعجَ حُبِّ
وإلى الكعبةِ اسْتبِقْ فهي خَوْدٌ[4]
قد تَوارَتْ عن العُيونِ بحُجْبِ

(١) ـ في الأصل: وشرب.
(٢) ـ ذو الحليفة مكان على ستة أميال من المدينة وهو ماء لبني جشم ميقاتٌ للمدينة والشام (القاموس المحيط: حلف).
(٣) ـ هكذا في الأصل ووضع الناسخ قبالة البيت هذه العلامة.ـ.
(٤) الخَوْد: الحسنة الخلق الشابّة أو الناعمة.

(ص ٣٧)

فَسَتُلْقَى منها بأهْلٍ وسَهْلٍ
وتُلَقّى الرضا بعُشْرٍ ورُحْبِ

وإلى المَرْوَتَيْنِ[1] فانْهضْ بِسعْيٍ
وإلى زَمْزَمٍ فبادِرْ بِشُرْبِ

وتعرَّفْ لله في عَرَفاتٍ
بالتَّخلّي إلَيْه مِنْ كلِّ ذَنْبِ

وانْثَنِ نَحْوَ طَيْبَةٍ مُسْتَخِبّاً
كُلَّ سَيْرٍ وسابِقاً كُلَّ رَكْبِ

وإذا ما أَتَيْتَ سَلْعاً[2] فَسَلْ عَنْ
مَنْزِلِ الركْبِ بَيْنَ شِعْبٍ وشِعْبِ

وإذا ما حَلَقْتَ بالجِزْعِ[3] مِنْها
فاقرَ مِنْ جِسْميَ السَّلامَ لِقَلْبي[4]

ولدى الروْضةِ الكريمةِ عفِّرْ
كُلَّ خدٍّ واتْرُكْ بها كُلَّ قَلْبِ

والثّرى من مَواطِنٍ قَدْ تَسامَتْ
رَوِّ مِنْ دَمْعِكَ المُعينِ بسُحْبِ

---

(١) ـ الصفا والمروة.

(٢) ـ جبل متصل بالمدينة المنوّرة (معجم ما استعجم للبكري ٣ / ٧٥٠، الروض المعطار ٣١٨).

(٣) ـ موضع بمكة.

(٤) ـ في الأصل: لقلبِ

وأعـــنِ بهـــا[1] قَصَـــدْتَـــهـــا عَنْ دلـــيلٍ
فسنـــاهـــا عن مَطْمَـــح القَصْـــد يُنْبي[2]
وسَـــيَهْـــديكَ من شَذاهـــا نَسِـــيمٌ
عنـــبـــريٌّ الأريجِ لَدْنُ الـــمَـــهَـــبِّ

ولنرجع إلى ما سَبَق من التقسيم، فنقول:

(١) ـ كذا في الأصل.

(٢) ـ في الأصل: يُلْبِ.

الصُّورَةُ الأولى

أن يكون الابتلاءُ متوقّعاً في المُقْتَنيات العزيزةِ على النفوس كالمال والجاه وما أشبه ذلك.

وإنما تكونُ هذه الصورةُ إذا كادَ ذلك المتوقَّعُ أن يكون، وكَرْبُ ذلك المتخوَّفِ أن يقع، وأما قبل أن يَظْهَرَ لتوقّعه أثرٌ، ويبرُزَ من الخوف منه سببٌ، فإنما ذلك نوعٌ من سُوءِ الظن بالله قبيح، وضَـرْبٌ من سوداويّ الفكر رديء، فلا كلامَ فيه، وإنمـا الكلامُ حيث تكونُ المخائِلُ لائحة، والأماراتُ على المُتَوَقَّعِ ظاهرة.

ثم لا يخلو هذا المُتَوَقَّعُ اللائحُ المخائِل الظاهرُ الأمارات أن يكون إلهياً محضاً، لا كَسْبَ فيه للعبد جَلْباً ولادفعاً كالقحط؛ فإنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان يقول: «**اللّهُمَّ اسْقِ عبادَكَ وبَهائِمَكَ وانْشُـر رَحْمَتَك واسْقِ بَلَدَكَ الميّت**»[1] وكما إذا أكثر[2] المطر وخِيفَ منهُ الضرر فإنّ النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم كان يقول: «**اللّهُمَّ حوالَيْنا ولا عَلَيْنا اللهُمَّ على الآكام والظِـراب[3] وبطونِ الأوديةِ ومنابتِ الشَّجَر**»[4].

وكما إذا وقع الحريقُ ففي كتابِ ابنِ السنّي عَنْ عُمَر بنِ شعيب عن أبيه عن جدّه ـ رضي الله عنه ـ قال: **(ص ٣٨)** قال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم:

---

(١) ـ الموطأ ١٢٩.

(٢) ـ هكذا في الأصل.

(٣) ـ في صحيح مسلم: والطراب.

(٤) ـ الموطأ ص ١٣٠، صحيح مسلم ٣ / ٢٥.

«إذا رأيْتُمُ الحريق فكبِّروا فإنّ التكْبِيرَ يُطْفيه»[1].

ومحلُّ كلامِنا من هذه الأمور هو في أوائِلها عندَ استشعار النفوسِ الخيفةَ منها لا فيما بَعْدَ ذلك لأنها تصيرُ هنالك واقعة.

أو أنْ يكونَ اختيارياً للمخلوق بحال كسبه الذي خلق له في جلبه ودفعه؛ فإن كانت تجارةً خُشِيَ كسادُها، أو مالاً خِيفَ ضياعهُ، أو عقاراً تُوُقِّع اغتصابُه، أو جاهاً ظُنَّ زوالُه، أو ولايةً استُشْعِرَتْ عُزْلتُها، وعلى الجملة فنائبةٌ في المال أو الجاه مُتَوَقَّعَة ظاهرةُ الدلالاتِ القريبة من الوقوع، فإن التجلُّدَ في هذه المواضع كلِّها محمود، والتجمُّل فيها مطلوب.

والأسبابُ الجائزة شَرْعاً مسوّغة للفعل إمّا إباحةً وإمّا نَدْباً وإمّا وجوباً على حسب المحلّ الذي يُتَوَقَّعُ فيه الحادث. والمقصودُ في هذا المعنى إنّما هو إحرازُ السلامة من هذه الابتلاءات. ولابن شَرَف[2] في حِكمه في استيفاء قَصْدِ إحراز السلامة ما يُسْتَطْرَف، فإنه قال فيها: (واعْلَمْ أنَّ قابضاً قَبَضَ على السلامة ليذهب بها لنفسِه، فوجدها قد عُقِدَتْ بالعَفاف، فَقَبَضَ على العَفاف، فوجده قد عُقِدَ بالقَناعة، فقبض على القَناعةِ، فوجدها قد عُقِدَتْ بالأمانة والصِيانة والديانة، فقال: هذه أثقالٌ لا يحمِلُها إلاّ جمّال) انتهى. وقد أحسن ما شاءَ لارتباط هذه الأشياء كما ذَكَرَ.

وهنا يتأكّد النظرُ في شرعيّة الأسباب وكيفيّة الدخول فيها بعد إحكام التوكّل على الله والثقة به فيما ابتُلِيَ به من جوازِها وطَلَبِها؛ فللتاجر إذا خَشِيَ كسادَ تجارته، أو تخوَّفَ خسارةَ رأسِ ماله، أن يرتكِبَ الأسبابَ المُباحةَ له، المطلوبةَ في حقّه، من التحفّظ بسِلْعَتِهِ والتنقيلِ لها أو الاستعاضَةِ منها، وما أشبه هذا مما تكونُ فيه السلامة مما تَوَقَّعَهُ، (ص ٣٩) والأمنة مما تخوّفه،

---

(١) ـ عمل اليوم والليلة ٩٣.

(٢) ـ أبو عبد الله محمد بن أبي سعيد بن أحمد بن شرف الجذامي القيرواني توفي سنة ٤٦٠ ـــ وقد أسلفت التعريف به.

وليس أخذُه في ذلك مما يسوّغُ له من هذه الأسبابِ الجائزةِ له بمُنافٍ لما يأتي الحضُّ عليه من التفويض والتسليم، كما أنّ التفويضَ والتسليمَ لله في أحكامه ليس بمناقضٍ لأخذ[1] هذه الأسباب والحزْمِ فيها، مع مراعاةِ التوكّلِ على الله في اعتمادها، والاعتدادِ بها، ولذلك يقول الشاعر[2]:

لا تَتْـرُكِ الحـزمَ في شيءٍ تُحـاذِرُهُ فإنْ سلِمْتَ فمـا في الحزْمِ مِنْ باسِ
العَجْـزُ ذُلٌّ وما بالحَزْمِ من ضَررٍ وأحزمُ الحَزْمِ سُوءُ الظنِّ بالنّاسِ

وقد أغْرَقَ هذا القائلُ في أنواع الحزم، وكثيرٌ من[3] يوافِقُه على ذلك.

وكـذلك لربِّ المال المتوقَّعِ فيه الضياع، أو العقار المتخوَّف عليه الاغتصاب، أن يعتمِدَ أيضاً من الأسباب ما تشهد له العادةُ بنُجْحِه في الأمر الذي يخاف منه، والبابِ الذي كاد يُمْتَحَنُ به، مع جوازِ ذلك شرعاً، أو طلبه كالواقع في قضيّةِ الوديعةِ التي رام المستودَعُ عنده أن يَـجْحَدَها لمُودِعها، حسبما حكى ابنُ كناس قال: حدّثنا محمدُ بن سهل قال: حدّثني عليُّ بنُ أبي عليّ قال: كنت عند المحسّن بن علي[4] قاضي مرو، وقد ذَكَرَ أبا حنيفة وفِطْنَتَه فقال: استودعَ رجلٌ من الحُجّاج رجلاً بالكوفة وديعةً ثم رجع فطلب

---

(١) ـ في الأصل للأخذ.

(٢) ـ جاء في عيون الأخبار (١ / ٤٢) والأغاني ١٩ / ٤١، البيت التالي منسوباً إلى مسلم ابن الوليد:

الحـزم تمـريفـة إن كنـت ذا حذرٍ وإنـمـا الحـزم سوء الـظنّ بالنـاس

(٣) ـ في الأصل: ممن.

(٤) ـ هو أبو علي المحسّن بن علي التنوخي المتوفى سنة ٣٨٤ هـ من مشاهير القضاة في العراق وفارس وصاحب المؤلفات الشهيرة متل الفرج بعد الشدة، ونشوار المحاضرة، والمستجاد من فعلات الأجواد، وكانت هذه المؤلفات من أبرز مصادر ابن عاصم في هذا الكتاب. انظر ترجمته في: تاريخ بغداد ١٣ / ١٥٥، يتيمة الدهر ٢ / ٤٠٥، معجم الأدباء ١٧ / ٩٢، وفيات الأعيان ٤ / ١٥٩.

وديعتَهُ[1]، فأنكر المستودَعُ وجعل يحلِفُ له، فانْطَلَقَ الرجلُ إلى أبي حنيفة يشاوِرُه فقال: لا تُعْلِمْ أحداً بجحوده. قال: وكان المُسْتَوْدَع يجالِس أبا حنيفة، فخلا به وقال: إنّ هؤلاء بعثوا يستشيرونني في رجل يَصْلُحُ للقضاء، هل تنشط؟ فتمانَعَ الرجلُ قليلاً. وأقبل أبو حنيفة يرغّبه، فانصرف على ذلك وهو طمِع، ثم جاء صاحبُ الوديعة، فقال له أبو حنيفة: اذهب وقُلْ له: أحسَبُك نسيتَني، أودعتُكَ في وقت كذا، والعلامةُ كذا» قال: فذهب الرجلُ فقال له: نعم، فَدَفَعَ إليه الوديعة. فلما رجع المستودَع قال له أبو حنيفة: «إني نظرتُ في أمرك فرأيتُ أن أرْفَعَ قَدْرك ولا أسمّيكَ حتى يحضر ما هو أشرفُ من هذا»[2] انتهت. وهذا من أعجبِ ما يُحتال به في ردّ المبطل إلى الحق.

وكذلك لذي الجاهِ المظنونِ به الزوال، والولاية المستشْعَرِ منها العَزْل، إذا كان الجـاه منه في موضعه، والولاية منه في محلّها، لقيامه بشروطها، واستيفائه لحُقُوقها، أنْ يتسبّب بما يناسب صَـرْفَ ما خَشِـيَ أن يدهمه ورفْع[3] ما تخوّف أن يلحقه على الإجمال في تسبُّبه، ومراعاة الحقّ في تحيّله، وإذا جاز التسبّبُ في الولاية مع الاستحقاق كما في قصّة يوسف الصدّيق صلوات الله عليه بقوله: ﴿**اجْعَلْنِي على خَزائِنَ الأرْض (ص ٤٠) إنّي حَفِيظٌ عَلِيم**﴾[4]. فالتَسَبُّبُ في استمرارِها متعيّـن مع الاستحقاق فإنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قد حضّ عُثمان على أنْ لا يَخْلَعَ القميص الذي خصّه الله[5] وإنما عَنى بذلك

---

(١) ـ في الأصل. ودعيته.

(٢) ـ انظر هذه الحكاية في كتاب الأذكياء لابن الجوزي ص ٧٤ ـ ٧٥.

(٣) ـ هكذا في الأصل ولعلها: ودفْع.

(٤) ـ الآية ٥٥ من سورة يوسف.

(٥) ـ أخرج الترمذي والحاكم عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**يا عثمان، إنه لعل الله يقمصك قميصاً، فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه حتى تلقاني**».
انظر صحيح الترمذي ١٣ / ١٥٩ ـ ١٦٠، ومسند ابن حنبل ٦ / ٧٥، ١٤٩.

الخلافةَ، وقد أدّى ذلك إلى قتله، فالتسبُّبُ في الاستمرار أخفُّ من هذا والله أعلم. وهذه القضية بعد اشتراط الاستحقاق والقيام بالوظيف، والتوفيةِ لما يكون المتولّـي بسبيلهِ من واجباتِ الولاية، إنّما هو على اللائق بمقامنا، والمناسب لانهماكنا في حُبّ الدنيا، وارتكابنا التأويلَ في جوازِ التلبُّس بها في هذه الأزمنة، التي طُمِسَ فيها نورُ الحقّ، وانتشرت فيها ظلماتُ الباطل، وربما جعل الأمثل منّا سبب ترخُّصه كوْنَهُ يقوم من المصلحة ببعضِ ما يقدِرُ عليه، ساتراً قُبْحَ مُرْتَكَبِهِ، بمثل قولِ مالك وقد قال له بعضهم: الناس مكثرون أنَّك تأتي الأمراء، فقال: لو[1] أني آتيهم لما[2] رأيتُ للنبيّ صلى الله عليه وسلّم في هذه المدينة سُنَّةً معمولاً بها»[3]. . . . . .[4].

تنزيل هذا الكلام، على فرض صحته، في المحلّ الذي اعتمده المتستّر به معلومُ البطلان بالضرورة لمن أنْصَف، والحقّ أحقُّ أن يُتَّبَع، وهو الاعترافُ بأنّا من ملابَسة هذه الأمورِ على شفا جُرُفٍ هار، تدارك الله بالإقالة منه، وأخذ باليد فيه. وحبُّ الدنيا هو الداهيةُ العظمى لذلك. ويَشْهَدُ لهذه الجملة ما حُكِيَ عن سحنون[5] أنه قال: (اختلف ابنُ غانم[6]

(١) ـ هكذا في الأصل، وفي ترتيب المدارك: لولا.

(٢) ـ في ترتيب المدارك: ما.

(٣) ـ انظر ترتيب المدارك ١ / ٢٠٨.

(٤) ـ بياض في الأصل مقدار كلمة.

(٥) ـ أبو سعيد سحنون بن سعيد بن حبيب بن حسان بن هلال التنوخي، فقيه زاهد قاض، ولد سنة ١٦٠ هـ وتوفي سنة ٢٤٠ هـ وكان من أشهر فقهاء افريقيا وقضاتها ومن أبرز أتباع المذهب المالكي، سمع من علماء افريقيا والحجاز ومصر والشام والعراق. (رياض النفوس ١ / ٣٤٥ ـ ٣٧٥، ترتيب المدارك ٢ / ٥٨٥ ـ ٦٢٦، وفيات الأعيان ٣ / ١٨٠، فهرست ابن خير ص ٢٤٠).

(٦) ـ هو عبد الله بن عمر بن غانم بن شراحيل بن عين يكنى أبا عبد الرحمن ويعرف بابن غانم الافريقي كان فقيهاً مقدماً ثقة، دخل الحجاز وسمع من الإمام مالك وأصله من القيروان، ولي قضاء افريقيا زمن الرشيد سنة ١٧١هـ وتوفى سنة ١٩٠ هـ. (ترتيب المدارك =

وابنُ فروخ[1] في الرجُلِ يوليه أميرٌ غيرُ عدْلٍ القضاءَ، فأجاز ابنُ غانم له أن يلي، وأباه ابنُ فروخ، وكتبا بذلك إلى مالك، فلما قرأ مالكُ الكتابَ قال للرسول: وَلِيَ ابنُ غانم؟ قال: نعم، قال مالك: إنّا لله وإنا إليه راجعون! ألا هرب وألا فرّ حتى تقطع يده! أصابَ الفارسيُّ وأخطأ الذي يزعم أنّه عربي)[2] انتهى.

وأنت ترى هذا الجوابَ من مالك ما أقطعه لكلِّ حُجَّةٍ تعرِضُ في هذا المحلّ.

وربما يشكل بعضُ ما تقدّم من هذه الإطلاقات. وفي سَرْد الحكايات فيّ هذا المعنى إيضاحٌ لما قصد فيه وبيانٌ لما أجمل منه مما يلتمس لها التأويل في . . .[3] بضاعة من . . .[4] مثل حكاية سعيد الدارميّ[5] من عُبّاد المدينة، وكان من ظرفائها، وأصحابِ الغَزَلِ فيها، فتاب، والتزم العبادةَ والمسجد؛ فاتّفقَ أن وصل تاجرٌ فكسدت عليه خُمُـرٌ سود فشكا ذلك إلى الدارميّ، فنظم هذه الأبيات[6]:

= ١ / ٣١٦).

(١) ـ هو أبو محمد عبد الله بن فروخ الفارسي مولده بالأندلس سنة ١١٥ هـ، ثم سكن القيروان ورحل إلى المشرق وسمع من الإمام مالك وتوفي بمصر سنة ١٧٥ هـ (ترتيب المدارك ١ / ٣٣٩، رياض النفوس ١ / ١٧٦).

(٢) ـ انظر ترتيب المدارك ١ / ٣٤٤، رياض النفوس ١ / ١٧٨.

(٣) ـ بياض في الأصل مقدار كلمة.

(٤) ـ بياض في الأصل مقدار كلمتين.

(٥) ـ هو سعيد الدارمي من ولد سويد بن زيد حلفاء بني نوفل بن عبد مناف، وكان الدارمي في أيام عمر بن عبد العزيز، وكان من ظرفاء مكة وله أشعار ونوادر (الأغاني ٣ / ٤٥ ـ ٥١).

(٦) ـ القصة والبيتان الأول والثاني في الأغاني ٣ / ٤٥ ـ ٤٦، ووردت القصة والبيتان الأول والثاني في وفيات الأعيان ٤ / ١٦١ منسوبين إلى مسكين الدارمي، ووردت القصة والأبيات في المختار من قطب السرور للقيرواني منسوبة لابن جندب (المختار من قطب السرور ص ٢٠٧) ووردت القصة كاملة في المقتطف من أزاهر الطرف لابن سعيد ص ٢١٠ ـ ٢١١=

قُلْ لِلْمَليحةِ بالـخِمـارِ الأسْـوَدِ ماذا فَعَـلْتِ بزاهـدٍ[1] مُتَـعَـبِّـدِ
قَدْ كانَ شَمَّـرَ للصَّـلاةِ ثيابَـهُ[2] حتَّـى وَقَفْتِ[3] لهُ بِبـابِ المَسْجِـدِ
رُدِّي عَلَيْهِ صَلاتَـهُ وصِـيامَـهُ لا تَفْـتِـنـيهِ بحـقِّ دِينِ مُحمَّـدِ

(ص ٤١) فحُفِظَتْ الأبيات، وغُنِّيَ بها، وشاعَ أنَّ الدارميَّ رَجَعَ إلى ما كان عليه من الغَزَل والظَّرَف، فلم تَبْقَ ظريفةٌ بالمدينةِ حتى ابتاعت خماراً أسود؛ فلم يُبْقِ للتاجر مِنْها خماراً. انتهى ما حكاه ابنُ سعيد[4] في مقتطفه[5] من ذلك. وإذا نُظِرَ في مثلِ هذا السَّبَبِ لتنفيقِ كاسِدِ التجارةِ فعلى اسْتِكْراهٍ شديد يكون جَرَيَانُه على الجواز دُون كراهة، والله أعلم.

ويلحقُ بكسادِ التجارةِ تعذُّرُ المعيشة، وتعثُّرُ أسبابِها، ومن أحضِّ الأدعيةِ في ذلك ما في كتابِ ابنِ السنّي[6] عن ابنِ عُمَرَ ـ رضي الله عنهما ـ عن النبيِّ صلّى الله عليه وسلّم قال: **«ما يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ إذا عسر عليه أمرُ معيشتِه أن يقولَ إذا خرج من بيتِه: باسم الله على نَفْسي ومالي وديني، اللهُمَّ رَضِّني بقضائِك، وبـارِكْ لي فيمـا قُدِّر لي، حتى لا أُحِبَّ تعجيـل ما أَخَّـرْتَ، ولا تأخيـرَ ما**

= وفي مقالات الأدباء (٥٨ ب).

(١) ـ في المقتطف: بعاشق.

(٢) ـ في المقتطف: رادءه.

(٣) ـ في المقتطف: برزت.

(٤) ـ هو أبو الحسن علي بن موسى بن عبد الملك بن سعيد المغربي، ولد في قلعة يحصب بالأندلس سنة ٦١٠ هـ، رحل إلى عدة أقطار مثل تونس ومصر والمشرق وألف عدداً من المؤلفات الشهيرة مثل المغرب ورايات المبرزين والغصون اليانعة ونشوة الطرب وغيرها، وتوفي في تونس سنة ٦٨٥ هـ (نفح الطيب ٢ / ٢٦٢ وما بعدها، المغرب ٢ / ١٧٢، فوات الوفيات ٣ / ١٠٣).

(٥) ـ اسم كتابه: المقتطف من أزاهر الطرف، قام بتحقيقه دكتور سيد حنفي حسنين، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٩٨٣م. وردت الحكاية المذكورة في صفحه ٢١٠.

(٦) ـ أبو بكر أحمد بن محمد بن اسحق السني الحافظ الدينوري، وقد أسلفت الترجمة له.

عَجَّلْت»[1]. وإنما يُتَخَوَّفُ من تعسُّرِ المعيشةِ، واغتصاب المالِ، والعَزْلِ من الولايةِ، من لحوقِ الفَقْر، فهو أعظمُ هذه الابتلاءات المُتَوَقَّعَة، وما لم يقع فإنه لا يَنْبَغي لعاقلٍ أن يُشْغِلَ نَفْسَه بالاهتمام من وقوعه. وفي التعجُّب من خوفِ ذلك والأمن مما لا بدَّ منه، وهو الموتِ، أنشد بعضُهم:

عَجِبْتُ لِمَنْ يَخافُ حُلولَ فَقْرٍ ... ويَأْمَنُ ما يكونُ من المَنُونِ[2]
أتَأْمَنُ ما يكونُ بغيرِ شَكٍّ ... وتَخْشى ما تُرَجّحُهُ الظُّنُونُ؟!

ومن أفضلِ ما يُسْتَدْفَعُ به مُتَوَقَّعُ الفقر الاستعاذةُ بالله منه، حسبما ثبت في أحاديث كثيرة. ولمتخوف العداءِ على ماله والاغتصاب على مُلْكه الاحتيالُ بما لا ضرر فيه على غيره والارتكابُ لما لا يحظر مما فيه الأمنة من خوفه، فقد أخْبَرَنا الله تعالى بما كان من فعل الخَضِر عليه السلام في السفينة التي تخوّف عليها عِداء المَلِكِ الذي كان يأخذُ كلَّ سفينة غصباً، إذ قال جلّ من قائل: ﴿أمّا السَفِينَةُ فكانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ في البَحْرِ فأَرَدْتُ أنْ أَعِيبَها وكانَ وَراءَهُمْ مِلِكٌ يأْخُذُ كُلَّ سَفينةٍ غَصْباً﴾[3].

وقد وقع للقاضي منذرِ بنِ سعيد البلوطيّ[4] مع الناصر لدين الله القضيةُ المشهورةُ التي . . .[5] عليها هذه الآيات الكريمة. حكى الشيخ أبو مروان بن

---

(1) - عمل اليوم والليلة ١٠٧ - ١٠٨.

(2) - في الأصل: المهون.

(3) - الآية ٧٩ من سورة الكهف

(4) - هو القاضي منذر بن سعيد بن عبد الله، يكنى أبا الحكم ويعرف بالبلوطي، كان عالماً أديباً فقيهاً. ولد سنة ٢٧٣ هـ وولي قضاء قرطبة سنة ٣٣٩ هـ وتوفي سنة ٣٥٥ هـ. انظر ترجمته في: قضاة قرطبة للخشني ص ١٢٠، مطمح الأنفس ص ٢٣٧ - ٢٥٩، بغية الملتمس ص ٤٦٥، تاريخ قضاة الأندلس للنباهي المالقي ص ٦٦ - ٧٥، جذوة المقتبس ٣٤٨، نفح الطيب ١ / ٣٧٢ - ٣٧٥، ١ / ٥٧٠ - ٥٧٦، ٢ / ١٦ - ٢٢ وصفحات أخرى، أزهار الرياض ٢ / ٢٧٢ - ٢٨٣ ومصادر أخرى.

(5) - بياض في الأصل مقدار كلمة واحدة.

حيّان في مُقْتَبَسِهِ[1]، قال: (وكان منذِرُ بنُ سعيد من ذوي الصَّلابة في أحكامه والتأنّـي في أقضيته وقوةِ القَلْب في القيامِ بالحقّ في جميعِ ما يجري على يديه لا يَهابُ في ذلك السطانَ الأعْظَمَ فمن دونه، ومِنْ مشهورِ ما جرى له معه في ذلـك قضيتـه[2] المشهورةُ في أيتامِ أخي نجدة المحفوظة عند الفقهاء وأولي المعرفة[3] أنّ الخليفةَ الناصرَ لدين الله احتاج إلى شِراءِ دارٍ بقرطبة لحظيّةٍ من نسائه (ص ٤٢) تكْرُمُ[4] عليه فأمر بارتيادِها، وَوَقَفَ استحسانهُ على دارٍ لأولاد زكـرياء أخي نجـدة كانت بقُرْب النشّارين بالربض الشرقي مُفَضَّلةً على دورٍ تتصل[5] بها حمامٌ للعامّة له غَلّةٌ وافرة[6]، وكان أربابُها أولادُ زكرياء أيتاماً في ولايةِ القاضي منذر، فأرسل الناصرُ لدين الله إلى الدارِ مَنْ قَوَّمها بعددِ ما طابت نفسُه بابتياعها به، وأمر بمداخلةِ وصيّ الأيتام في بَيْعِها عليهم بتلك القيمة، فذكر أنه لا يجوزُ ذلك إلاّ عَنْ أَمْرِ القاضي، إذ لم يبح بيع أصل عليهما إلاّ عن أمره ومشورتِه، فأوصى الناصرُ لدين الله إلى القاضي في بيع هذه الدار منه، وعرّفه بِعِلْمِهِ في تحقيق قيمتها، فقال لرسوله: إنّ البيع على الأيتامِ لا يكونُ إلاّ لوجـوه: منها الحاجة، ومنها[7] الوهي الشديد ومنها الغبطة، فأما الحاجةُ فلا حاجـةَ لهؤلاء الأيتام إلى البيع وأما الوهيُ فليس فيها وهيٌ، وأما الغِبْطةُ فهذا إمكانها[8] فإن أعطاهم أميرُ المؤمنين ما تُسْتَوْفى به الغبطة أمرت وصيّهم بالبيع وإلاّ فلا. فنقل رسولُه جوابه هذا إليه فأظهر الزُهْدَ في شِراءِ الدار طمعاً في أن

---

(١) ـ لم أجد الحكاية في ما نشر من المقتبس.

(٢) ـ في المطمح والنفح: قصته

(٣) ـ وردت هذه القصة في مطمح الأنفس ص ٢٥٢ ـ ٢٥٤ ونفح الطيب ٢ / ١٦ ـ١٧ مع بعض اختلاف في اللفظ.

(٤) ـ فراغ في الأصل مقدار كلمة واحدة والتتمة من مطمح الأنفس ونفح الطيب.

(٥) ـ في المطمح والنفح: منفصلة عن دور يتصل.

(٦) ـ في المطمح والنفح: واسعة.

(٧) ـ في الأصل: ومنهنّ.

(٨) ـ في المطمح والنفح: مكانها.

يتوخى[1] فيها إرادته، وخاف القاضي أن يلتفت فيه غريمته[2] فتلحق الأيتامَ سورتُها، فأمر وصيَّ الأيتام بنقْضِ الدار وبيعِ أنقاضها، وكانت لها قيمةٌ أكثر مما قُوِّمت به قائمةً للسلطان، واتصل به الخبر، فأسِيَ لخرابها، وتفجّع لفوْتها، وأمر بتوقيف الوصيّ على ما أحدثه فيها، فأحال على أمر القاضي إيّاه بذلك، فأرسل عند ذلك في القاضي منذر وقال له: أنت أمرْتَ بنقضِ دارِ أيتامِ أخي نجدة؟ فقال له: نعم، قال له: وما دعاك إلى ذلك؟ فقال: أخذتُ فيها بقولِ الله تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾[3] الآية، لم يُقَدِّرْها مُقَوِّمُكَ إلّا بكذا وكذا وبذلك تعلَّقَ وهمُك، فقد نضّ[4] في أنقاضها أكثر من ذلك بكثير، وبقيت القاعةُ والحمّامُ فضلاً ونظر الله للأيتام. فصبر له الخليفة الناصر على ما آتاه من ذلك وقال له: نحن أوّل[5] من انقادَ للحقّ فجزاك الله عنّا وعن أمانتك خيراً). انتهى

وهاتان الحكايتان وإن كان المتسبّب في صَرْفِ الغصبِ غير المتخوَّف منه والمتخوف منه غير المتسبب في صرفه، فأحرى أن يكون ذلك إذا كان المتخوف منه هو المتسبب فيما يصرف الغصْب والعِداء عن ملكه، وهذا ظاهرٌ لا إشكالَ فيه.

ومن تاريخِ دِمَشْق[6] عن أبي عبد الله المحاملي[7] وغيره قالوا: حَدَّثنا أبو

---

(١) ـ في المطمح: تتراخى رغبته فيها.

(٢) ـ في المطمع والنفح: تنبعث منه عزيمة.

(٣) ـ الآية ٧٩ من سورة الكهف. ووردت الآية في المطمح والنفح كاملة وتتمتها «... وكان وراءهم مِلِكٌ يأخذُ كُلَّ سفينةٍ غَصْبا».

(٤) ـ نضّ: تحصّل.

(٥) ـ في النفح: أولى، وردت الحكاية في مطمح الأنفس ص ٢٥٢، نفح الطيب ٢ / ١٦.

(٦) ـ للحافظ أبي القاسم علي بن أبي محمد الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين المعروف بابن عساكر (٤٩٩ ـ ٥٧١ هـ).

(٧) ـ أبو عبد الله الحسين بن اسماعيل بن محمد بن اسماعيل الضبي المحاملي، فقيه=

القاسم عبيدُ الله بنُ سليمان[1] قال: (كنت أكتبُ لموسى بن بغاء[2] وكنا بالريّ وقاضيها إذ ذاك أحمد بن بديل الكوفي[3]، فاحتاج موسى أن يجمع ضيعةً هناك كان له (ص ٤٣) فيها سهام ملك، وكان فيها سهمٌ ليتيم، فصِرتُ إلى أحمد ابن بديل، فاستحضرتُ أحمد بن بديل، وخاطبته في أن يبيعَ عليه حصةَ اليتيم ويأخذَ الثمن فامتنع وقال: ما لليتيمِ حاجةٌ إلى البيع، ولا آمر أن أبيع ما له وهو مستغنٍ عنه فيحدث على المال حادثة، فأكون قد ضَيَّعْتُ عليه. فقلت: أنا أعطيك في ثمن حصّتك ضِعْفَ قيمتها، فقال: ما هذا لي بعذر في البيع، والصورة في المال إذا كَثُر مثلُه إذا قَلَّ، قال: فأخذته بكل لون وهو يمتنع، فأضجرني فقلت: أيها القاضي لا تفعل فإنه موسى بن بغاء. فقال لي: أعزّك الله، إن الله تبارك وتعالى، قال: فاستحييتُ من الله تعالى أن أُعاوِدَهُ بعد ذلك وفارقته، فدخلتُ على موسى فقال: ما عمِلْتَ في الضيعة؟ فقصصت عليه الحديث فلما سمع «إنّه الله» بكى، وما زال يكررها. ثم قال: لا تتعرّض لهذه الضيعة، وانظُرْ في أمر هذا الشيخ الصالح؛ فإن كانت له حاجةٌ فاقضِها، قال: فأحضرته وقلت له: إن الأميرَ قد أعفاك من أمرِ الضيْعة وذلك أنّي شرحتُ له ما جرى بيننا وهو يعرض عليك حوائِجَك، قال: فدعا له وقال: هذا الفعلُ أحْفَظُ

=ومحدث، ولي قضاء الكوفة وبلاد فارس مدة طويلة، وتوفي سنة ٣٣٠ هـ.

(تاريخ بغداد ٨ / ١٩ ـ ٢٣، المنتظم ٦ / ٣٢٧، الوافي بالوفيات ١٢ / ٣٤١).

(١) ـ في الأصل: عبد الله بن سليمان والصواب من تاريخ بغداد ٤ / ٥٠، وهو أبو القاسم عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتضد، ولد سنة ٢٢٦ هـ وتوفي سنة ٢٨٨ هـ. (ترجمته في: الوزراء والكتاب ٢٥٢، فوات الوفيات ٢ / ٤٣٤ وفيات الأعيان ٣ / ١٢١).

(٢) ـ أحد القاده الأتراك وهو ابن خالة المتوكل، ولي الريّ زمن المعتز والمهتدي وتوفي سنة ٢٦٤ هـ (انظر مروج الذهب ٤ / ١٨٣ ـ ١٨٦).

(٣) ـ أبو جعفر أحمد بن بُديل بن قريش بن الحارث اليامي الكوفي، ولي قضاء الكوفة وتقلد أيضاً قضاء همذان، وكان يسمى بالكوفة «راهب الكوفة» روى عنه ابن ماجة. وتوفي سنة ٢٥٨ هـ.

(تاريخ بغداد ٤ / ٤٩ ـ ٥٢، المنتظم لابن الجوزي ٥ / ٩، الوافي بالوفيات ٦ / ٢٦٣).

بنعمته وما لي حاجة إلّا إدرار رزقي فقد تأخر منذُ شهور وأضرّني ذلك، قال: فأطلقت له جِرايته). انتهت[1].

وهـذا من آثـار الصِـدْق وإنّمـا سُقْتُ هذه الحكايةَ لشبهها بالتي جرت للقاضي منذرِ بن سعيد مع الناصر رحمهما الله. وهذه التسبُّبات لا إشكالَ فيها لوضـوح شرعيّتهـا في هذا المحلّ، وإنما التي تفتقر إلى إجادة النظر إذا كان التسبب فيما يستدفع به نقصُ الجاه أو صرف العزل، والظاهر أنّ ذلك يسوغ لا سيما إذا كان نقصُ الجاه أو زوالُ الحرمة واقعين. . .[2] أن ينقص له الجاه لا أن تُزالَ له الحـرمـة ويكـون تمكينُ الجاه أو تثبيتُ الحرمة أو كلاهما لمن لا يستحِقّ ذلك.

كما يُحْكى عن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفّان[3] رضي الله عنه قال اسحق: حدّثني مصعبُ بن عبد الله الزبيري قال: (كان عبدُ الله بن عمرو بن عثمان ولي صدقاتِ عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ وأحباسه وأوقافه، وله أخٌ من أبيه يُقال له عثمان بن عمرو ويُلَقَّبُ بخُرْءِ الزنج[4] سفيهٌ خبيثٌ مهتوك. فقيل له: «ويلك أخوك من الجلالةِ والفضلِ على ما قد عَلِمَهُ الناسُ وهو يلي صدقاتِ جدّك وأنتَ سفيهٌ مهتوك، فلو لزِمْتَ المسجِدَ واستقام مذهبُك جَعَلْتَ لك يداً

(١) ـ وردت هذه الحكاية في تاريخ بغداد ٤ / ٥٠ ـ ٥١، والمنتظم ٤ / ١١٠ ـ ١١٢.

(٢) ـ فراغ في الأصل مقدار كلمة واحدة.

(٣) ـ عبد الله بن عمرو بن عثمان سبط ابن عمر، مدني، كان يقال له المطرف من ملاحته وحسنه وهو والد محمد الديباج، روى عن ابن عباس ورافع بن خديج والحسين بن علي، توفي بمصر سنة ٩٦ هـ وروى له مسلم وأبو داود والترمذي.
(المعارف لابن قتيبة ١٩٩، تاريخ الإسلام للذهبي ٤ / ١٩، نسب قريش ١١٣، الوافي بالوفيات ١٧ / ٣٨٣).

(٤) ـ انظر هذا اللقب في الأغاني ١٩ / ١٤٧، أما اسمه فهو عثمان بن عمرو بن عثمان ابن عفان(ذكره ابن قتيبة في كتاب المعارف ص ١٩٩) وذكره الزبيري في كتاب نسب قريش (ص ١١٢ ـ ١١٣) وقال إنه كان يعرف بخراء الزنج ولاعقب له.

مع أخيك، ولعلّها كانت تُفْضِي إليك بعده» وجعل قومٌ يحسدون عبد الله ويُغْرون أخاه بذِكْرِ هذا، وكان عبدُ الله أجْمَلَ أهلِ زمانه وكان يُلَقَّبُ قُبَّةَ الدِيباج، فذكر الماجشون[1] قال: كان الناسُ يجتلبون إلى عليّ بن عبد الله بن عباس وإليه وهما بالمسجد يتأمّلون حُسْنَهُما، ويزعمون أنهما أجملُ أهلِ زمانِهما. فلزم خُرْءُ الزنج المسجدَ والصلاةَ والجماعةَ (ص ٤٤) والقراءةَ حتى عُرِفَ بالخير، ثم خاصم أخاه عند القاضي سيء الرأي في عبد الله، فوعد خُرْءَ الزنج أن يُدْخِلَ يَدَهُ مع عبد الله في الوَقْف، ولم يأمنْهُ عبدُ الله أن يفعل الذي قصد من الخلاف، فضاق به أمرُه، وكان يَمْزَحُ مع أشعب[2] فرآه مغموماً فقال: ما لكَ يا سيّدي يا ابنَ الشهيد؟ فعرّفه فقال: إن احْتَلْتَ أن تَصْرِفَهُ عن رأيه فلك مائة دينار فإنه يقبل منك لما بينك وبينه. فقال أشعب: كَفَيْتُك. وجاء أشعبُ حتى أتاه في المسجد فقال له: ويلك ما هذا الشؤم الذي ألزمْتَهُ نَفْسَك؛ ما لك وللصلاة والقراءة ولزوم المسجد؟ وتركتَ اللهوَ والطربَ والغِناءَ والنبيذَ والأكبار[3] والناياتِ والطبول؟ فقال له خُرْءُ الزنج: ويلك أنا أخاصِمُ عبدَ الله أخي في الوقف وقد وَعَدني القاضي أن يُدخِلَ يدي مع يده، فإذا فَعَلَ هذا رميتُ بهذا، وعُدْتُ إلى كلّ شيء تعرفُه فلا تغتمّ، قال: فاحتلْ عليَّ في يوم واحد تذكّرني به أيامَنا. قال: والله ما عندي في هذا الوقتِ شيء. قال له أشعب: أتسلّف لك من فُلان التاجر مائةَ دينار. قال: فافعل ذلك. فمضى أشعب إلى التاجر فقال: قد علمتَ أن خُرْءَ الزنج يأخذ منك الدرهمَ بعشرة، وغداً يُدْخِلُ القاضي يدَهُ مع يد أخيه، فلا يذهب لك

---

(١) ـ أبو يوسف يعقوب بن أبي سلمة دينار، وقيل ميمون، الملقب بالماجشون القرشي التيمي، من موالي آل المنكدر من أهل المدينة، كان فقيهاً توفي سنة ١٢٤ هـ (المعارف ٤٦٢، وفيات الأعيان ٦ / ٣٧٦).

(٢) ـ هو أبو العلاء أشعب بن جبير نشأ بالمدينة في آل أبي طالب وتولت تربيته وكفلته عائشة بنت عثمان بن عفان، كان معروفاً بالظرف والنهم، وتوفي سنة ١٥٤ هـ (الأغاني ١٩ / ١٣٥، تاريخ بغداد ٧ / ٣٧، الوافي بالوفيات ٩ / ٢٦٩).

(٣) ـ مفردها كبَر وهو الطبل (القاموس المحيط: كبر).
وفي لسان العرب: كَبَر (بفتح الكاف).

مما عليه درهم، وقد احتاج إلى مائةِ دينار تُعامِلُه عليها، فعرف التاجرُ الخَبَرَ بما ذاع عن القاضي، فأعطاه المال، وخرج خُرْءُ الزنج إلى قصره بالعرصة، وأمر بفسطاطه فضُرِبَ له هنالك، وقال لأشعب: ويلك هل عَلِمَ بنا أحد؟ قال: لا وحقِّ أبيك الطيب. فقال: اذبحوا لنا كذا واطبخُوا لنا كذا، فقال أشعب: يا سيّدي أيّ شيء نأكل إلى أن يدرك هذا الطعام فإن انتظَارَهُ يطول علينا؟ قال: ما تشتهي؟ قال: الرؤوس. قال: ويلك إن بعثتُ غلاماً إلى السوق في ابتياع الرؤوس لم آمَنْ أن يسأل أحدٌ عنّا فيخبره بموضعنا، ويتّصلَ الخبرُ بالقاضي فلم يتمّ لنا ما نؤمّله. قال له أشعب: فأنا يا سيّدي أتلطّف وآتيك بكلّ ما تحتاجُ إليه من غير أن يَعْلَمَ أحد. قال: فدونك، فركب دابّةً وركض إلى السوق فأوهم الدنيا، واشترى كلَّ رأسٍ في السوق، وجعل أهلُ السوقِ يُنْكِرون كَثْرَةَ ما اشتراه منها، فيُقال له: وَيْلَكَ يا أشعب ما تصنع بهذه كلّها؟ فيقول: لأن ابن الشهيد[1] أخرجنا للنزهة في قصره بالعرصة ومعنا الأكابرُ والطبولُ والناياتُ والعيدانُ والمخانيثُ وكلُّ شيء طيّب فملأ به الدنيا. ومرّ أشعب بعبدِ الله بنِ عمرو فقال: وافني وقت كذا بمن قدرت عليه من العُدول إلى قَصْرِ أخيك بالعرصة (ص ٤٥) ووافى أشعبُ بالرؤوس فقال: يا سيدي: ما عَلِمَ بنا أحدٌ من خَلْق الله. فقال: أحْسَنْتَ وألطفت، فأكلوا وقدّموا النبيذ فشربوا وتضمخوا بالخَلوق[2] ولبسوا المصبّغات والحلي الحسان. وأرسل عبدُ الله إلى أهلِ المسجد وأهلِ الفضل ووجوه الناس فقال: إنّ أخي عثمان تحامل عليّ في حائط بيني وبينه، وكنت آمَنُ أن يقع بيننا اختلاف، فأحبّ أن تحضروا معي حتى تحملوني وإيّاه على الحق. فأسرع الناسُ معه. وجعل خُرْءُ الزنج يقول لأشعب: ويلك غنِّ فيغنيه

---

(١) - في الأصل: لأنّ الشهيد.

(٢) - الخَلُوق: ضرب من الطِيب (القاموس المحيط: حلق).

من أجود أغاني الناس لابن سُرَيج[1] ومعبد[2] ومالك بن أبي السمح[3]، وخُرْءُ الزنج يقول: دعني من هذا يا ابنَ الفاعلة، ويعطِفُ على من معه من المخانيث فيقول: شدّوا طبولكم وانفخوا في الشريانات وغنّوا معي وأرهجوا[4] الأكبار والطبول والشريانات والنايات، وجعلوا يغنّون معه:

بأمّ حوف زانة هيّء لي الأتانة

فما زالوا على هذه حتى هَجَمَ عليهم عبدُ الله ومن معه من الفُقهاءِ والعدولِ وفي عُنُقِ عثمان كُبَر، وفي عُنُقِ أشعب طَبْل، وقد سكِروا، فقال عبدُ الله للعدول: هذا الذي يريدُ القاضي أن يُدخِلَ يَدَهُ معي في الوقف. فقال القوم: كلّا والله ما ذلك له، ولا هذا الرجلُ بأهلٍ أن يؤمَّن على نفسه فكيف على مالِ غيره! قبّح الله هذا. فالتفت خُرْءُ الزنج إلى أشعب فقال: ماذا صَنَعْتَ يا ابن الزانية قتلني الله إن لم أقتُلْك. فقال أشعب: يا مشؤوم قد علمتُ أنك ستجرّنا إلى النار حين جعلت تقترح عليّ بأمّ حوف زانة. وقال للقوم: احملوني معكم وإلّا قتلني. وجعل يحدّثهم حديثه وهم يضحكون وخُرْءُ الزنج يعدو على رجليه خَلْفَ دوابّهم ويصيح: ردّوا عليّ نديمي. والقومُ يلعنونه ويسبّونه حتى دخلوا المدينة، فلقوا القاضي، فأعلموه بما رأوْا ولاموه في عبدِالله، فعاد إلى إجلالِه وتعظيمِه، وطرد خُرْءَ الزنج وأبعده ووفّى عبدُ الله لأشعب بمائةٌ دينار). انتهت.

ويظهرُ أن إظهارَ. . .[5] مثل هذا المحكيّ عنه ممن يضمر مثلَ اعتقادِه

(١) ـ أبو يحيى عبيد بن سريج، كان مغنياً مشهوراً وغنى في زمن الخليفة عثمان ومات في خلافة هشام بن عبد الملك عن خمس وثمانين سنة (الأغاني ١ / ٢٤٨).

(٢) ـ معبد بن وهب، مغن مشهور، مات في عهد الوليد بن يزيد.

(انظر: الأغاني ١ / ٣٦).

(٣) ـ مالك بن أبي السمح جابر بن ثعلبة الطائي، يكنى أبا الوليد، مغن معروف وكان تلميذاً لمعبد، وكان منقطعاً إلى سليمان بن علي، ومات في خلافة المنصور (الأغاني ٥ / ١٠١).

(٤) ـ أرهج: أثار الغبار وكثر بخور بيته.

(٥) ـ بياض في الأصل مقدار كلمة واحدة.

ويتظاهر مثلَ ذلك الذي تظاهر به من الرياء والسمعة واجب إذا كان ينبني على ما تستّر به حكمٌ شرعيّ مثل تشريك ذلك الذي ليس بمستحقٍّ النظرَ في وَقْف أمير المؤمنين عثمان ـ رضي الله عنه ـ مع مستحقّ ذلك من ذرّيته، والله أعلم.

ومن أعظم فتن[1] الله فيما صَرَف من مُتَوَقَّع العزل ما كُفِيَ معرَّتَه شيخُنا قاضي الجماعة أبو القاسم بنُ سرّاج[2] ـ رحمه الله ـ في أيام ثَورة المعروف بابن المَوْل[3] الماتّ بنسبةِ القربى لهؤلاء الملوك النصريين، وقد كانت الفِرقة القائمة بأمْرِ هذا الثائر حَنِقَةً على شيخنا (ص ٤٦) المسمّى ـ رحمه الله ـ بأسبابٍ يستدعي تقريرُها المَلِكَ إذ ذلك العهد عَزْلَه، والاستعاضةَ منه بالفقيه أبي جعفر العربي رحمه الله، وزيّنت له قَصْرَ الشيخ ـ رحمه الله ـ في بعض دور الحمراء عن التصرُّف في البلد مموّهاً في ذلك لقصد الكرامة وللاغتباط بقربه، والاستكثارِ من إفادته في الرأي والمشورة وتصرخاً[4] لمستنكر ذلك بالخيفة عليه ممن بمالقة، ونُمي له ذَرْءٌ[5] مِن خبرِ تفاوضِهم في عزله، فتعيّنَتْ له منه الحقيقة، وطُلِبَ مني كَتْبُ ظهير[6] المُعَوَّضِ منه[7]، فاستثقلْتُه وكَتَبْتُه على غضاضةٍ وأخذٍ بالتقية. ولثاني يومٍ من كَتْبه وجّه لي الشيخُ ـ رحمه الله ـ يطلبُ منّي الاجتماعَ به في المسجدِ الأعظم من الحمراء في صلاة الظهر على حال

---

(١) ـ هكذا في الأصل ولعلها: منن.

(٢) ـ هو قاضي الجماعة بغرناطة الوزير أبو القاسم محمد بن محمد بن سراج الغرناطي أحد شيوخ أبي يحيى بن عاصم، وقد أسلفت الترجمة له.

(٣) ـ هو يوسف بن المول قام بثورته على محمد الأيسر، واستطاع بمساعدة خوان الثاني ملك قشتالة أن يتربع على عرش غرناطة سنة ٨٣٥ هـ ولستة أشهر فقط حيث مات بعدها مما أتاح لمحمد الأيسر أن يعود ثانية إلى عرش غرناطة (وثيقة أندلسية ص ٤١ ـ ٤٥، إنباء الغمر ٣ / ٥١١، الضوء ١٠ / ١٠٠).

(٤) ـ هكذا في الأصل ولعلها: ومصرّحاً.

(٥) ـ ذرءٌ من خبر: شيء منه (القاموس المحيط: ذرأ).

(٦) ـ في الأصل: ظهر.

(٧) ـ المُعوَّض منه: الذي خلفه على منصبه.

توقٍ وحذر، فلم أشُكَّ أنّه يسألني عن كَتْب ظهيرِ المتولّي عِوضَه أو عدمه، فنظمتُ بديهةً في طريقي إليه لذلك الموعد على أن أنشده إيّاها إنْ سأل[1]:

فَدَيْتُكَ لا تَسْأَلْ عن السرِّ كاتباً فَتَلْقَاهُ في حالٍ من الرشدِ عاطِلِ
وتضطرُّهُ إمّا لحالةِ خائنٍ أمانَتَهُ أو خائضٍ في الأباطِلِ
فلا فَرْقَ عندي بين قاضٍ وكاتبٍ وَشَى ذا بحقٍّ أو قَضَى ذا بباطِلِ

ولما اجتمعتُ به حيثُ ذكر أَعْرَضَ عن سؤالي عن كَتْب الظهير المظنونِ مني سؤاله عنه، ولم أفتقِر لإنشاده القطعة، وحفظ الله فيما بيني وبينه سياجَ المروءة[2] لثقل معنى القِطْعة في نظري، وإلجاءِ الضرورة إليها إن سأل المتوقع الشرَّ من أولئك القوم. وأقبل الشيخُ عليّ راغباً أن احتالَ له في صَرْف معرّة هذا العزل، وكأنّه كان على علم منه، لما علم من ماتّةٍ بيني وبين بعضِ أولئك المتصرّفين لذلك الثائر، قاصداً بذلك المطاولة[3] في الأيام، مرتقِباً من فَرَجِ الله تعالى ما صدق الله فيه ظنه، فقد كان تخيُّلُه من هذا العَزْل عظيماً، لما كان يتوقّع بعد وقوعه من أمورٍ محتملة لم يُوقَفْ بعد على حقيقتها، كفاها الله بكفاية ما قبلها. فتجرّدتُ لذلك مع من طَلَبَ الحديثَ معهم فيه، فهيّأ الله من ذلك ما طلَب، ويَسَّر ما قَصَدَ، وتوقّفوا عن التقديم المستعجل كان إبرامه، إلى أن قضى الله من الحوادثِ المانعةِ لهم عن القصْدِ المذكور ما أوجبَ استمرارَ ولايته بعودةِ السلطان الغالبِ بالله ـ أيّده الله ـ إلى مُلْكه، وتعجيلِ ما انْحَتَمَ لذلك الثائرِ من هُلْكِه. ولله المشيئةُ النافذةُ والقُدْرةُ الغالبة عزّ وجهه.

---

(١) ـ وردت هذه الأبيات في أزهار الرياض للمقّري (٣ / ٣٢٣) وقد قدم لها المقّري بقوله ـ مشيراً إلى ابن عاصم ـ : ومن بديع نظمه رحمه الله قوله قاصداً مخاطبة شيخه الحافظ، قاضي الجماعة أبي القاسم بن سراج، وقد طلب منه الاجتماع به زمان فتنة، فظنّ أنه يستخبره عن سر من أسرار السلطان، فباعده معتذراً، ولم يصدق الظن: . . . » (أزهار الرياض ٣ / ٣٢٢).

(٢) ـ رسمت في الأصل: المروة، ولعل الناسخ صحفها عن المودّة.

(٣) ـ في الأصل: المطلولة ـ وكأن الناسخ خلط بين المطل والمطاولة.

ولم أقف في صرف متوقَّع العزْل[1] على أعجبَ مما اتفق فيه للقاضي أبي القاسم الحَسَنيّ -[2] رحمه الله، حكى ابنُه شيخُنا القاضي أبو العباس أحمد[3] بن (ص ٤٧) قاضي الجماعة وخطيبِ الحضرة العليّة أبي القاسم الحسني - رحمه الله - أنّ السلطانَ أبا الحجاج[4] بن السلطان أبي الوليد بن نصر - رحمه الله - مستقضِيه، عنَّ له غرضٌ في الاستبدالِ من أبيه القاضي أبي القاسم المذكور في قضاءِ الجماعة بواحدٍ من أعلام عصره، وأمر رئيسَ الكتّاب في ذلك العهد الشيخ أبا الحسن بن الجيّاب[5] - رحمه الله - أن يَكْتُبَ

---

(١) - في الأصل: التنزل.

(٢) - هو أبو القاسم محمد بن أحمد الحسني، ويعرف بالشريف الغرناطي، سبتي الأصل، ولد في سبتة سنة ٦٩٧ هـ وانتقل إلى غرناطة حيث ولي عدة مناصب مثل الكتابة والخطابة والتدريس والقضاء، وانتهى به الأمر إلى قضاء غرناطة ثم عزل عن القضاء والخطابة في المسجد الجامع سنة ٧٤٧ هـ لكنه أعيد إلى القضاء مرة ثانية واستمر قاضياً للحضرة حتى وفاته سنة ٧٦٠ هـ. كان عالماً باللغة والنحو والبلاغة وله مؤلفات منها شرحه على مقصورة حازم، المعروف بـ «رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة» وله كذلك شعر ونثر كثيران بلغ بهما درجة عالية من الجودة. (انظر: نثير فرائد الجمان ص ٢٣١ - ٢٣٥، نثير الجمان ص ١٤٥ - ١٥٠، الإحاطة ٢ / ١٨١ - ١٨٦، المرقبة العليا ص ١٧١ - ١٧٧، الديباج المذهب ص ٢٩٠، درة الحجال لابن القاضي ٢ / ٢٦٨، التعريف بابن خلدون ص ٦٤، وانظر خبر استبداله في الإحاطة ٤ / ٣٢٠).

(٣) - ذكره ابن خلدون في التعريف ص ٨٤.

(٤) - سابع ملوك بني الأحمر في غرناطة حكم بين سنتي ٧٣٣ هـ و ٧٥٥ هـ. انظر ترجمته في الإحاطة ٤ / ٣١٨ - ٣٣٨، اللمحة البدرية ص ١٠٢ - ١١٢.

(٥) - ذو الوزارتين أبو الحسن علي بن محمد بن سليمان بن الجيّاب الغرناطي، صديق أبي القاسم الحسني المذكور آنفاً، وكان كلاهما شيخا للسان الدين بن الخطيب. كان ابن الجياب كاتب الدولة النصرية خلال ما يزيد على خمسين عاماً انتهت بموته بالطاعون سنة ٧٤٩ هـ، وكانت ولادته سنة ٦٧٣هـ، كان متبحراً في علوم شتى كالأدب والتاريخ والقراءات والحساب، له مجموع شعري كبير نشر جزءاً منه مع ترجمة اسبانية، خيسوس روبييرا ماتا في كتابه: «Ibn Al - Yayyab El - Otro Poeta De La Alhambra» Granada - 1982. =

بولاية ذلك الذي اقتضى نظره أن يقدّمه عِوضاً من الشريف المذكور فتلقَّفَ الخبرَ بعضُ الكتاب ممن كان القاضي الشريفُ قد وَتَرَهُ بعدم قبول شهادته أو ما أشبه ذلك مما يقعُ للقضاة كثيراً مع غير المستحقّين ممّا يتطلّبونه . . .[1] من رتبةِ عدالةٍ أو ولايةِ خُطَّة . فذهب ذلك الكاتب إلى مجلس القاضي من المسجد الأعظم وقعد أمامه وأعلمه بتأخيره عن الخطة في معرض الشمات به والانتقام منه ، وظن الكاتب أن ذلك الأمر قد انعقد ، فلا يمكن حلّه ، وأحكم فلا يسع نسخه ، وأنّ القاضي ليس له عليه من سلطان ، فلا يلحقه ضرّه ، فظهر للقاضي من بابِ الدهاءِ وعدم احتمالِ الهضيمة أن أمَرَ أعوانَه بالقبضِ على ذلك الكاتبِ اليائسِ وناله[2] بذنوب من العقوبة والإشادة عليه[3] هذا جزاءُ من خرّج سرّ السلطان . ثم صرفه للاعتقال ، وارتفع عن مجلس القضاء . فما كان بأسرعَ من وصولِ الخبر على حقيقته للسلطان العازم على عزله ، فبدا له[4] عن ذلك ، وامتلأ غيظاً على الكاتبِ النَّمُوم بسرّه ، فصرفه عن الكتابة ، ورأى أن نكال القاضي منه في موضِعِه ، وأقرّه في قضائِه إلى وفاته . فهذا من الأسباب التي وافقت القدر في صرف العزل ودوام الولاية . وكان شيخُنا الشريفُ أبو العباس يحكي أن الخطيبَ أبا علي القرشيّ[5] اعترض على أبيه ما صَدَرَ منه للكاتب ،

=كما قام بتحقيقه في الجامعة الأردنية سنة ١٩٨٣م مشهور الحبازي في اطروحة ماجستير ما زالت مخطوطة على الآلة الكاتبة . لترجمة ابن الجياب انظر : نثير فرائد الجمان ص ٢٣٩ - ٢٤٢ ، نثير الجمان ص ١٢٥ - ١٣٠ ، الإحاطة ٤ / ١٢٥ - ١٥٢ ، الكتيبة الكامنة ص ١٨٣ - ١٩٣ ، نفح الطيب ٥ / ٤٣٤ - ٤٦٤ ، الديباج المذهب ص ٢٠٧ ، نيل الابتهاج ٢٠٤ ، درة الحجال ٢ / ٢٣٤ - ٢٣٨ .

(١) - بياض في الاصل مقدار كلمة .

(٢) - في الأصل : ولا له

(٣) - الإشادة رفع الصوت بالسيء وتعريف الضالّة والإهلاك (القاموس المحيط : شيد) .

(٤) - بدا له في الأمر : نشأ له فيه رأي (القاموس المحيط : بدو) .

(٥) - أبو علي عمر بن علي بن عتيق بن أحمد القرشي ، من الخطباء الصالحين في القرن الثامن الهجري ، تولى الخطابة في غرناطة بالجامع الأعظم بعد عودته من الحج سنة ٧٠١=

فقال له: يا أبا عليّ إنّك رجُلٌ صالح ولستَ بفقيه، إنّ للقاضي أن ينتصِرَ لنفسه ممن أساء عليه الأدب، وهو أوْلى من العفو. فقال له الخطيب: وهب ذلك كذلك فقد كنتَ معزولاً. فقال له القاضي: (بخبرِ مَنْ كنتُ معزولاً؟ إن المُخْبرَ بالعَزْلِ فاسِقٌ عندي، فخبرُهُ ليس بمقبول حتى يُعمَل عليه، وإذايته واقعةٌ لمن هو مولّـى بحق) فسكت الخطيب.

ويقربُ من هذه قضيّةُ ابراهيم بن العباس[1]، كان ابراهيمُ بن العباس يتولّى ديوانَ الضِياع، وكان رجُلاً متقدّماً في البلاغة وإنشاء الرسائل والشعرِ الرقيق، ولم يَكُنْ له تقدُّمٌ في عَمَلِ الخراج، وكان بينه وبين أحمد [بن][2] المدبّر[3] تباعد. وكان أحمدُ متقدّماً في علم (ص ٤٨) الخَراج ووجوه جبايةِ الأموال، فقال للمتوكل: (قَلَّدْتَ ابراهيمَ بن العباس ديوانَ الضِياع، وهو متخلِّفٌ لا يحسن) وطَعَنَ عليه طعناً قبيحاً. فقال المتوكل: في غدٍ أجمعُ بينكما. واتصلَ الخبرُ بابراهيم، فأيقن بحُلول المكروه، وعَلِم أنّه لا يفي بأحمد بن المدبّر في صناعته. وغدا إلى دار السلطان آيساً من نَفْسه ومن خُطّته*. وحضر

=هـ، وله شعر قليل، توفي بغرناطة سنة ٧٤٤ هـ (انظر ترجمته في: الكتيبة الكامنة ص ٥١ - ٥٢، نيل الابتهاج ص ١٩٥).

(١) - هو ابراهيم بن العباس بن محمد بن صول (الصولي) مولى يزيد بن المهلب يكنى أبا اسحق، وأصله من خراسان، كان كاتباً بليغاً وشاعراً مجيداً وتوفي سنة ٢٤٣ هـ في خلافة المتوكل (تاريخ بغداد ٦ / ١١٧، مروج الذهب ٤ / ١٠٦، إعتاب الكتاب ١٤٦ ح الأغاني ١٠ / ٤٣).

(٢) - ليست موجودة في الأصل.

(٣) - هو أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبيد الله المعروف بابن المدبر الضبي الرستياني، كان يتقلد للخليفة المتوكل ديواني الخراج والضياع، نُفي إلى الشام، وحبسه أحمد بن طولون حتى مات في الحبس سنة ٢٧٠ هـ، (انظر: الفرج بعد الشدة ١ / ٢٤٧ - ٢٥٠، وفيات الأعيان ٧ / ٥٦، فوات الوفيات ١ / ١٣٢، إعتاب الكتاب ١٥٧، الفهرست ١٣٧، الوافي بالوفيات ٨ / ٣٨).

* - في معجم الأدباء ١ / ١٩٥، وإعتاب الكتاب ١٥٠: آيساً من نفسه ونعمته.

أحمدُ فقال له المتوكل: [قد حضر ابراهيم وحضرت][١] فاذكر ما كنتَ فيه أمسِ فمن أجلِكُما قَعَدْتُ. فقال أحمد: أيّ شيءٍ أذكر عنه! إنه لا يحفظ أسماءَ عُمّالهِ في النواحي، ولا يَعْلَمُ ما ثبت في ديوانه من حزورهم[٢] وكيولهم، ولا ما حَمَلَ كلُّ واحدٍ منهم من المال، ولا يحفظ أسماءَ الأعمال التي يتقلّدها، وقد اقتطع عامله بكذا كذا وكذا ألْفاً، واختلّت ناحيةُ كذا في العمارة. ومرّ في أبوابٍ قبيحةٍ منكرة يعدّها. فالتفت المتوكلُ إلى ابراهيم فقال: ما سكوتُك؟ تكلّم. فلم يكن عنده جواب، فقال: يا أميرَ المؤمنين جوابي في بيتَي شِعْرٍ إن رأى أميرُ المؤمنين ذِكْرَها. قال: هات. فأنشأ يقول:

ردَّ[٣] قوْلي وَصدَّقَ الأقوالا وأطاعَ الوُشاةَ والعُذّالا
أتراه يكونُ شَهْرَ صُدودٍ وعلى وَجْهِهِ رأيتُ الهلالا؟![٤]

فقال له المتوكّل: زه زه[٥]، أحسنْتَ والله! ائتوني بمن يَعْمَلُ في هذا لحناً، وهاتوا ما نأكلُ، وجيئوا بالندامى[٦] والمغنّين، ودعونا من فضولِ ابن المدبّر، واخلعوا على إبراهيم بنِ العباس. فخُلعَ عليه، وانْصَرَفَ إلى منزله. فبقي يومَه ذلك مفكّراً مغموماً، فقال له كاتبُه وَهْبُ بن سليمان[٧]: يا سيّدي هذا يومُ سرور

(١) ـ بياض في الأصل وتتمته من معجم الأدباء وإعتاب الكتاب.

(٢) ـ مفردها حزر وهو التقدير. وفي معجم الأدباء: ولا يعلم ما في دساترهم من تقديراتهم وكيولهم.

(٣) ـ في وفيات الأعيان: صدّ.

(٤) ـ البيتان وجزء من الحكاية في الأغاني ١٠ / ٥٨، والوافي بالوفيات ٦ / ٢٧، وانظرهما أيضاً في معجم الأدباء ١ / ١٧٩، إعتاب الكتاب ١٥١، وفيات الأعيان ١ / ٣٩١.

(٥) ـ كلمة تقولها الفُرْس عند استحسان شيء.

(٦) ـ في معجم الأدباء: بالنساء.

(٧) ـ وزير المهتدي والمعتمد من الخلفاء العباسيين، وكان قبل ذلك كاتباً للمأمون، توفي ٢٧٢ هـ (الأغاني ٢٣ / ١٤٣، أخبار أبي تمام ١٠٤، وفيات الأعيان ٢ / ٤١٥، العقد «في صفحات متفرقة»).

بما جدّد الله عندكَ من رأيِ أميرِ المؤمنين. فقال: يا بُنَيَّ الحقُّ أولى بمثلي، والله ما كذب ابنُ المدبّر في شيء، ولا دَفَعْتُ حُجَّتَهُ بحقّ، ولا أنا ممن يَعْشُرُهُ[1] في الخراج، كما أنه لايَعْشُرُنِي في البلاغة، أفلا أبكي فضلاً عن أن أغتمّ في زمانٍ يُدْفَعُ فيه ذلك الحقُّ كلُّه بما دَفَعْتُه من الباطل؟! انتهت[2].

والقصدُ من هذه الحكاية إنما هو محصولُها المشتمِلُ على الاحتيال في صرفِ العزل دون التعرّض لإباحةِ ذلك أو منعِه، والظاهرُ أن التسبُّبَ غيرَ المستحقّ في دوامِ ولايته أولى فإذا قيل بعدم جوازِها أولى فكذلك يقال في التسبب في قضية أخرى، والله أعلم.

ويمكنُ أن يدّعى أن التسببَ في البقاءِ أخفُّ من التسبّب في الولاية تخريجاً على القاعدة المشهورة: هل الدوام كالابتلاء أو لا، حسبما كان شيخُنا القاضي أبو القاسم بن سرّاج رحمه الله يعتذر به في مسائل. ولكنَّ الحقَّ أحق أن يُتَّبع، وهو أنّ الذي يُلْقى أولاً هو الذي يُلْقى (ص ٤٩) آخراً، فإذا قيل إنّ غيرَ المستحقّ ليس بسائغٍ له التسبُّبُ أن يولّى بل ولا القبول، كذلك إذا ولّي ليس بسائغٍ له التسبّبُ في الدوام والاستمرار على ما هو، وقد يخِفُّ هذا ويَثْقُل بحسب القُرْب من الاستحقاق والبُعْد منه، وبحسب الولايةِ في كوْنها ضروريّة وانخرام المصالح لعدم مستحقّها، وعكس ذلك كلّه، ولسنا لاستيفاء ذلك، وإنّما نبّهنا عليه لئلا يُظَنَّ أنّا أهملنا[3] ذلك، وبالله التوفيق.

وقد يكونُ الخوفُ على القُنْيَةِ الماليّةِ مِنْ ظَلُومٍ يغتصِبُها أو يغتصِبُ بَعْضَها، ولايمتنع التسبُّبُ في دفعِ ذلك بالوجوهِ المرجوِّ فيها النُجْح، المأمولِ فيها النفعُ، المأمونِ فيها التصرّف.

---

(١) ـ يعشره: يبلغ عُشْرَه في معرفة ذلك الأمر.

(٢) ـ انظر هذه القصة كاملة في: معجم الأدباء ١ / ١٩٤ ـ ١٩٦، وإعتاب الكتاب ١٥٠ ـ ١٥١.

(٣) ـ في الأصل: أعملنا.

ومن أغرب ما سمعت فيما صرف الله من مُتَوقَّع عظيمة منه ما حُكِيَ عن بعضِ التجار الواردين على الحضرةِ بنفيس السِلَع الخفيفة المَحْمَل ورفيعِ المتاعِ المُتعالي القيمة على حال خيفة من والي البلد المسمّى في العُرْف عندنا بالحافز[1] وذلك في مدّةِ المعروفِ منهم بمُسَلَّم؛ المثلِ المضروب في شدةِ التنقير عن المغارم وغرابةِ المَنازع في إثارتها والاجتهاد في التفتيشِ عن مظنّاتِ أجبائها ومغابنِ التورية عن كتمانها، والاشتهار عند من ذكرنا من المتجار بعُنْفِ الأخْذِ وظُلْمِ الطَّبْع وسُوءِ السيرة في دولةِ مولّيه في الخطة من سَلَفِ هؤلاء الملوك النصريين، فوصل هذا التاجرُ إلى ظاهرِ الحضرة خائفاً يترقَّبُ آخذاً بالحذرِ من هذا الحافز، ولم يكن قبلَ ذلك يعرفه، وقد اضطبن سِلَعاً على السلعة المُشارِ إليها من خفة المحمل ورفعة القيمة وعزّة الوجود. وجمع الطريقُ بينه وبين فارسٍ حَسَنِ الوجه رفيعِ البزّة سَرِيّ المركب رائقِ الحلية ظاهـرِ المروءة، فانقدح في نفس التاجرِ أن يشكوَ إليه أمره ويطلعه طلعته ويستجيرَ به من ظُلْم الحافز المعروف بمسلَّم، وأن يكونَ في كَنَفِ حُرمته خشيةَ عدواه، وأخبره بما عنده من السِلَع ورغب منه أن يتولّـى له إجازَتها على الباب، فأسْعَفَهُ بذلك، ودفع له ما كان عنده بما اجتلبه من هذه السِلَع، وتواعَدَ معه إلى موضعٍ داخلَ البلد يدفعها له فيه، بحيثُ يأمن من مُسَلّم المذكور المشتدّ منه خوفه. فلما انفصل من الفارس أُخْبِرَ أنّه مسلّم حافز البلد، فسُقِط في يدِ التاجر، وذهب إلى الموضع الذي تواعَدَ إليه معه ظاناً أنه قد (سَقَطَ به الغِطاءُ على سِرْحان)[2] وأن لا بدّ أن يلقى منه ما يكره، ويلحقه من غَصْبِ ماله أو جُلِّه ما يَحْذَر، فوجده ينتظرُه فدفع إليه (ص ٥٠) مالَه الذي استأمَنَهُ عليه وقال

---

(١) ـ هكذا في الأصل، وقد شُرحت الكلمة على يمين السطر بخط مغاير جاء فيه «بل الحافظ». ولعل الحافز هي الحافظ باللغة الدارجة عند أهل غرناطة بدليل قول المؤلف: «والي البلد المسمى في العرف عندنا بالحافز...».

(٢) ـ هكذا في الأصل، وورد المثل في فصل المقال: سقط العشاء به على سرحان (فصل المقال ٣٦٢، أمثال الميداني ١ / ٢٢١).

له: اذهبْ حيثُ شئتَ بسِلْعَتِك فقد سَلَّمَكَ الله من مُسَلَّم، أو كلاماً هذا معناه. انتهت منقولةً بالمعنى.

وهذه غريبة من غرائِب الاتفاق. ولعلَّ مثل هذا ممّا يبقي الله به الرحمةَ على. . . .[1] هذا؛ فقد آثر مُقْتَضى الحِلْم ورجَّح منقبةَ المروءة وحفِظَ أمانةَ الاسترسال وتجافى عن نسبَةِ الظُلْمِ له وتغاضى عن سيئةِ سُوء الظَنِ به رحمه الله.

وهذه الصورةُ التي يُتَوَقَّعُ فيها التمحيصُ ثم يَتَلافى الله بصرفه متسعةٌ جداً، ولو تَتَبّعْنا فيها الحكاياتِ لطال بنا القولُ في ذلك، فما من قُنْيةٍ ماليّة أو جاهيّة إلّا وهي بصدد الذهاب والزوال في كل لحظة لحظة، والطمعُ في غيرِ الدائم أن يكون دائماً وفي غير الثابِتِ أن يكون ثابتاً هو الذي يؤدّي لاستثقال[2] هذه المتوقّعات، ولو أُخذت هذه الأمورُ أولاً مأخذها لما كان في زوالِها إذا زالت[3] ما يُسْتنكر، ولما كان في ذهابِها إذا ذهبت ما يُسْتَثْقَل.

وهذه الدعوى بكثرة توقُّعِ هذه الابتلاءات في هذه المُقْتَنَيات مما لا يُفْتَقَرُ عليه إلى دليل، فكلُّ ذي مال من عقار وغيره يتحقق أن الله هو الواقي لماله من تسليط الغُصّاب والسُرّاق ودفع آفات السيل والحريق وكفّ أيدي الظَّلَمة وأهل الجور وصرف شرّ الحَسَدة وإصابة العين وكذلك كل ذي ولاية من الملك فما دونه يتحقق أنّ الله هو الذي يحمله[4] في ولايته ويصرف عنه مضرّة المثابرين على إذايته. فما من ولاية إلّا ولها طُلّاب وعليها حُسّاد كلّهم يَسْعون في إرغام ذلك المتولّي وإتعاس جدّه[5] وبحسب نفاسة الولاية وجلالتها تكون السهام المفوّقة إلى متولّيها.

---

(١) ـ بياض في الأصل مقدار كلمة.

(٢) ـ في الأصل: لاستنقال.

(٣) ـ في الأصل: رأيت.

(٤) ـ هكذا في الأصل: ولعلها يحميه.

(٥) ـ في الأصل: وانعاش.

وكلُّ هذه الإذايات قد لا تصيبُ في هذا[1] الأمرِ الأغلب، ولا تقارب الإصابة، وقد تقارب بعضها الإصابةَ، وهذا القِسْمُ هو المترجم له. إلّا أنّ في هذه الصورةِ ـ وقد تصيب ـ وهو الآتي في الصورة بعد هذه، وإذا قاربت الإصابة فهو الذي يعذر في الاهتمام به وهو المقصودُ هنا بالكلام في مداواتِه وصرفِ الفكرة فيه وعدمِ القَلَقِ منه وترك مطاوعة النفس في التأثّر من أجله واستعمال الأسبابِ الجائزةِ أو المطلوبةِ في دفعِه حسبما قُرِّرَ في أول الكلام في هذه الصورة.

وقد لحقني من هذا الخوفِ المتوقَّع في المالِ القريب من الوقوع ما عظُمَتْ بصرفِه من الله المنّة، وجلّت من قِبَلِه بالنجاة منه النعمة، وذلك في الوقت الذي قدِمْتُ فيه من مالقة على (ص ٥١) السلطان أبي الحجاجِ رحمه الله في قصدِ الموادعةِ بينه وبين السلطان الغالبِ بالله أيّده الله حسبما أُشير إليه في غير هذا الموضع[2]، فإن أربابَ دولته كان من رأيهم الأنكد إغراءُ العامّة بي، وتسليطُ الـرَّعاعِ على جهتي، فوقع من تَوَعُّدِهِم بهدمِ الدُورِ وخرابِ الأملاك ما كان مُقْتَضى الحالِ شاهداً بوقوعه ودليلاً على حصوله، لِما سَبَقَ من أولئك الغوغاءِ في الأملاكِ الموالية لهم لي ولغيري، فقد كانوا عاثوا في إفسادها، وابتدروا إلى انتسافِها، جُرأةً منهم على الله فيما نهى عنه من إضاعة المال، وتعدّياً على خلقه، واستطالةً على ما أبدع من أنواع رزقه، صادراً ذلك منهم عن غلّ كامن وحَسَدٍ باطن، والله بالمرصاد، وعند الله تجتمعُ الخُصوم. وأنا معترفٌ بالذنوب المُوجبة لتلك العقوبة، وراجٍ أن لا يضيّع الله حقّي عند من لم أَجْنِ عليه. فَصَرَفَ الله من هذا المتوقَّعِ أمراً عظيماً وبلاءً مبيناً، ولله الحمدُ على ذلك.

وقـد يتسنّى في بعضِ هذه الصُّوَر من التدبيرِ الإلهي ما تعجز عنه الأسباب، وتعتبرُ في تباين ما بينَ مبدئه ومنتهاه الألباب؛ كما حدّث عليُّ بن

---

(١) ـ وضعت فوق «هذا» إشارة «خـ».

(٢) ـ انظر ص ١٤٥ من الأصل المخطوط.

يحيى بن منصور[1] قال: حدثني بعضُ التجار قال: حملنا متاعاً من الصين إلى الأُبُلَّة[2] وكان قد اجتمع ركبٌ فيه مقدارُ عشرِ سُفُن قال: فبينا أنا قد أصْلَحْتُ ما أردتُ من السفر إذا شيخٌ قد وقف عليَّ وسلّم فرددتُ عليه السلام فقال: يا هذا إني قد صرتُ إلى التجار في هذه السفن فسألتهم قضاءَ حاجتي فلم يقضوها، وأنا أسألُك أن تقضيها لي فقلت: وما حاجتُك عافاك الله؟ قال: أقول لك بعد أن تَضْمَنَ لي قضاءها. قلت: أفعل، فأَحْضَرَ رصاصة مثلَ الكرة فيها نحوٌ من مائة مَنّ[3] وقال لي: تأمر بحمل هذه الرصاصة معك، فإذا صرتَ في لُـجّة بحرِ كذا وكذا، وذكر لجّةً هائلة، تطرحُها في البحر. قلت: يا هذا ليس هذا ممّا أفعلُه. قال: قد ضمنتَ لي وسبق فيه وعدُك، ولابدّ لك من الوفاء به. قال: فلم يزل حتى قَبِلْتُها ثم قال لي: أَحْضِـرْ برنامجاً واكتب ذكرها فيه لئلا تنساها، وتذكّرني إذا رجعت فتخبرني بما صنعت، ومنزلي في موضع كذا وكذا. فكتبتُ ما قال من صفتِه، وخرجنا حتى إذا مررنا بتلك اللُّجَّةِ وصِـرْنا نسيت، حتى إذا وافَيْنا موضِعَنَا بِعْتُ فيه ما كان معي، وحضرني رجلٌ فقال: ما هذا [الذي][4] معك؟ رصاص؟ والرصاص هنا يدخل في عمل.....[5] فقلت: ليس معي (ص ٥٢) رصـاص. وكنتُ نسيتُ الرصاصة، فقال لي غلامي: معنا رصاص. قلت: لم أحمِلْ معي رصاصاً. فقال: بلى رصاصُ الشيخ، فذكرته، فقلت: خالفناه وبلغت إلى هذا الموضع وينبغي أن أبيعَه

---

(١) ـ هكذا ورد الاسم في الأصل ولعل المقصود علي بن يحيى بن أبي منصور المنجم كنيته أبو الحسن ولد سنة ٢٠١ هـ وتوفي سنة ٢٧٥ هـ بسامراء، كان شاعراً وراوية ومن ندماء الخليفة المتوكل. (تاريخ بغداد ١٢ / ١٢١، وفيات الأعيان ٣ / ٣٧٣، الوافي بالوفيات ٢٢ / ٣٠٣).

(٢) ـ مدينة بالعراق قريبة من البصرة على نهر دجلة وهي قديمة وفتحها عتبة بن غزوان في زمن الخليفة عمر بن الخطاب (الروض المعطار ص ٨، معجم البلدان لياقوت الحموي).

(٣) ـ المنّ: وزن يساوي رطلين وجمعه أمنان (لسان العرب).

(٤) ـ ليست في الأصل.

(٥) ـ بياض في الأصل مقدار كلمة.

له، فإن ذلك خيرٌ مما أراد به. فقلت للغلام: أحضِرْها، فأحضرها، وساوَمَني الرجلُ بها فبعتُها منه بمائةٍ وثلاثين ديناراً، وابْتَعْتُ للشيخ بها من طرائفِ الصين، وخرجنا حتى وافَيْنا الأُبلّة، فبعتُ ما كان معي، وبعتُ تلك الطرائف، فبلغ ثمنُها سبعمائة دينار، وصرتُ إلى البصرة إلى الموضع الذي كان الشيخُ وصفه لي، ووقفتُ بباب داره، وسألتُ عنه، فقيل لي إنه قد مات. فقلت: هل خلّف أحداً يرِثُه؟ قالوا: لا نعلم له إلّا ابنَ أخٍ في بعض نواحي البحر. فسقط في يديّ، وبقيت لا أدري ما أعمل بما كان له عندي. وقيل لي إن دارَه موقوفةٌ بيد أمين القاضي، فرجعت إلى الأُبلّة والمالُ معي لا أدري ما أعمل به. فبينا أنا ذاتَ يومٍ جالسٌ إذْ وَقَفَ على رأسي رجلٌ فقال: أنت فلان بن فلان؟ قلت: نعم. قال: كنتَ خرجتَ إلى الصِين؟ قلتُ: نعم. قال: وبعتَ رجلاً هناك رصاصة؟ قلتُ: نعم. قال: أفتعرفُ الرجل؟ فتأمَّلْتُهُ وقلت: أنت. قال: نعم يا هذا، إني قطعتُ من تلك الرصاصة شيئاً لأستعمله فوجدُتها مجوّفة ووجدت فيها اثني عشر ألف دينار، وقد جئتُ بالمال، فخذ مالك ـ عافاك الله ـ قلت: ويحك، والله ما المال لي، ولكنه كان من خبره كذا وكذا، وحدّثتُه بحديث الشيخ كلّه، وأنه قد اجتمع مِنْ ثمن الطرائف سبعُمائة دينار أيضاً لا أدري ما أصنع بها. فتبّسم الرجل ثم قال: أتعرِفُ نسبي من الشيخ؟ قلت: لا. قال: فأنا والله ابن أخيه، وليس له وارثٌ غيري، وأراد أن يزول هذا المالُ عني، وهو غرّب بي من البصرة منذ تسعةَ عشر عاماً، فأبى الله إلّا وصولَ المال إليّ على رغمه. قال: فأعطيته السبعمائة دينار التي كانت معي، ومضى إلى البصرة، وأخذ متاعه وأقام بها. انتهت.

ومن تأمَّلَ هذه الحكايةَ حقَّ التأمُّل، تعجَّبَ من التصريف القَدَريّ والتدبير الإلهي، وشاهَدَ من جميلِ صُنْع الله في تصييرِ هذا المال لمستحقّه، وعكسِ قصْدِ من أراد قطعَ رَحِمِهِ بصرفه عن وارثه من غير أن يَسْتَعيضَ من ذلك في الآجلة أجراً، ولا[1] يكسب به في العاجلة شكراً؛ فقد كان صرفه في وجوه البرّ

---

(١) ـ في الأصل: أولاً.

على معارضة لقوله صلّى الله عليه وسلّم: «**إنّكَ إن تَدَعْ وَرَثَتَكَ أغنياء خيرٌ من أنْ تَذَرَهُمْ عالة يتكفّفُونَ الناس**»(١) أولى من رَمْيه في لجّةِ البحر، لولا أنّ الله زيّن له سوءَ (ص ٥٣) عمله، فرآه حسناً حتى يكون ذلك القصدُ من إتلافه على مستوجبه هو السبب في تلافيه له وجبْره عليه. وقد كان ذلك الوارثُ من التحرُّج عن أخْذِ ما ليس له بالمنزلة التي اقتحم بها تلك الشقة في التقصّي عن عُهدةِ ما ليس له، والخروج عمّا بيده ممّا اعتقده مِلْكاً لغيره، لما قيّض الله له من أمانة التاجر تتمةً لما جبر عليه من المال، ولمّا تحقق من قِبَلِهِ أن ما بيده هو مالُ موروثِهِ السائغ له الانتفاع به. إنّ في ذلك لذكرى لمن تذكّر وتبصرة لمن استبصر.

ومما يدخلُ في بابِ الكرامات، فكانت الكفايةُ فيه إلهيّةً محضة، ما نقله بعضُهم، قال: قامتْ رابعة(٢) ليلةً في التهجّد والصلاة، فلمّا انفجر الصبح نامت(٣)، فدخل السارقُ دارَها، وأخذ ثيابَها، وقصد الباب، فلم يهتدِ إلى الباب، فوضعها فوجَدَ الباب، ففعل ذلك ثلاث مرّات، فنُودي من زاويةِ البيت: ضَعْ القماش [فإنّا نَحفظُها ولا ندعها لك وإن كانت نائمة](٤) انتهت.

وفيما اقتصَّ الله علينا من نبأِ موسى والخَضِرِ - عليهما السلام - ما رُوي في بعض الأخبار أنّ بعضَ الأنبياء عليهم السلام - كان مُشْرِفاً من قُنّةِ جبل

---

(١) - صحيح البخاري ٣ / ١٨٦ وأماكن أخرى، صحيح مسلم ٥ / ٧١، مسند ابن حنبل ١ / ١٦٨.

(٢) - أم الخير وأم عمرو رابعة بنت اسماعيل العدوية البصرية الصالحة المشهورة، كانت مولاة لآل عتيك توفيت سنة ١٣٥ هـ. ترجمتها في: وفيات الأعيان ٢ / ٢٨٥، الوافي بالوفيات ١٤ / ٥١، وانظر كتاب «شهيدة العشق الإلهي، رابعة العدوية» تأليف عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات - الكويت - ١٩٧٨م.

(٣) - في الأصل: قامت.

(٤) - بياض في الأصل أتممناه من كتاب: شهيدة العشق الإلهي ص ١٣٩.

على فلاة، وفي تلك الفلاة عين، فإذا فارسٌ قد أقبل وبين يديه على قَرَبُوس[1] سرجه بِدْرةٌ، فلما انتهى إلى عين الماء نزل، فشرب من ذلك الماء، وسقى دابَّته، وركب ونسِيَ البدرة مكانه، فلما مضى الفارسُ أقبل راعٍ بغنمٍ يسقيها، فسقاها وأخذ البِدْرةَ، فمرّ بها وحملها، فلما ذهب الراعي أقبل رجلٌ عابرُ سبيل، فلمّا انتهى إلى العيْـن جلس يشربُ ويستريح، فما لبث أن أقبل الفارسُ راجعاً في طلب البِدْرة، فلما انتهى إلى العَيْـن، ورأى الرجلَ جالساً، لم يشكّ أن البدرة معه، فطالبه بها، فأخبره أنه لم ير شيئاً، فسلّ سيفه يحذّره ويهوّل عليه حتى أضجره، وهو لا يشكّ أنه يناكره[2]، ثم هجم عليه وقَتَلَه وركِبَ دابّته ومرّ، فاشتغل فِكْر ذلك النبيّ ممّا رأى من شأنِ القوم، وفوزِ الراعي بالبدرة، ووقوع القتل بالرجل البريء من حمل البدرة. وعلم الله ما قد خَطَر ببالِ النبيّ عليه السلام فأوحى الله إليه: «ما لَكَ والفكرةَ في أحكامي وتدبيري وتقديري! هذه البدرة كانت وديعةً لوالدِ هذا الراعي عند والد ذلك الفارس، وماتا ولم يَعْلَم الراعي ما كان لأبيه عند أبي الفارس، ولا عَلِمَ الفارسُ أن البِدْرَةَ ليست له وهي لغيره، فقد رَدَدْتُ الحقَّ على صاحبه بقُدْرتي ورأفتي، وإن هذا (ص ٥٤) الرجلَ كان قتل أبا هذا الفارس، فأنصَفْتُه منه، وأخذتُ بثأره على يد وليّه[3]، ولا يَعْلَمُ أحدٌ ما كان في علمي منه». فاستصغر النبيُّ ـ عليه السلام ـ ما فكّر فيه وتاب. انتهت[4]. فهذه الحكاية شبيهةٌ بحكاية الخَضِرِ والمالِ لما لم يكن الراعي يعلم [ما][5] عنده لم يجد ألم فقده، فلذلك حسن وضعُ الحكايةِ هاهنا، ولو عَلِمَ بفقده وأسفه ذلك لكان محلُّ هذه الحكاية الصورةَ بَعْدَها.

---

(١) ـ القَرَبوس كحلزون: حِنو السرج وجمعها قرابيس (القاموس المحيط).

(٢) ـ هكذا في الأصل، ولعلها: بناكرِه. والمناكرة: المقاتلة والمحاربة (القاموس المحيط: نكر).

(٣) ـ هكذا في الأصل ولعلها: ولدِهِ.

(٤) ـ وردت هذه الحكاية مختصرة في عجائب المخلوقات للقزويني ص ٢٧.

(٥) ـ سقطت من الأصل.

خاتمة لهذه الصورة الأولى

ومن أعظمِ ما يُتَحدَّثُ به من التمحيصِ المتوقَّعِ في المال القريبةِ من الوقوع علاماته، المتوانيةِ من التحقيق مقدماته، ما وقفتُ عليه في جهةِ مولانا السلطانِ الغالبِ بالله ـ أيّده الله ـ منذُ أيام قريبة؛ ذلك أن خالصته المكينَ الحُظْوة لديه، القائد مفرّج بن فَتُّوح سيقَ[1] له عِقدٌ نفيسٌ من ذخائرِ دارِ الملك المنقطعة النظير كانت للضرورة، أيّامَ الإقامة بإليرة[2] قد أَفْرَجَتْ عنه لهمٍّ وقتيّ استدعى تخلّفه لدى بعضِ أهل الثغور المجاورةِ لها، وتمّ القصدُ الذي تخلَّفَ من أجله، وجاء به الرجل الذي كان عنده متفصّياً[3] من عهدته، ومُلقياً للقائد المذكورِ بأمانته، فتبرّأ به إليه في صِوانه، ذلك المنسوقِ بالذهب، بعد اختياره إيّاه سلكاً لايشتمل إلاّ على يتيمةٍ من الجوهر، أو فذّةٍ من الزمرّد، أو فريدةٍ من الياقوت، يعدل ثمنه ملكاً، وتبلغُ قيمتُه بيتَ مال، ثم أعاده إلى ذلك الصِوان المَلَكيّ، واضطبنه في كُمّه، وذلك بالمَشْورَ من اسطوان الدار الكريمة. وترادف عليه هنالك من طُلّاب الحوائج، وقُصّاد مظهر الوزارة في الأغراضِ المتباينة، أعدادٌ متكاثرة، ثم قام القائدُ مفرّج المذكور ناسياً لما كان قد تأبّطه من هذا العِقْد النفيس، وتبعه من أولئك القاصدين رِجْل الدَّبى[4]، فانساب ذلك السِمْطُ في صِوانه انسيابَ الأرْقَم بين الأرجُل، فكان من غريبِ الاتفاق أن وَطِيَء

(١) ـ رسمت في الأصل هكذا «سق» ولعلها نُسِقَ أو شُقَّ أو سِيقَ.

(٢) ـ بالإسبانية Illora وتقع إلى الشمال الغربي من غرناطة.

(٣) ـ أفصى: تخلص من خير أو شر (القاموس المحيط: فصى).

(٤) ـ الرجْل: الطائفة من الشيء والقطعة العظيمة من الجراد (القاموس المحيط: رَجَلَ) والدبى: أصغر الجراد (القاموس المحيط).

عليه الفقيهُ أبو الحسن البُشَاريّ[1]، فاستنكر أن ذلك الصِوان تحت أخمصه في ذلك المحلّ الذي لاعهد فيه بمثل ذلك، فتشبث[2] فيه والتقطه مرتاعاً دَهِشاً، إذ كان قبض القائدُ مفرّج إيّاه بحضرته، ثم تبع به القائدَ المذكور، مبادراً بإعلامه به قبل تمكُّن خشيةِ فقدِهِ من قلبه، فارتاع لذلك ارتياعاً عظيماً فلم يُرَ أشدَّ اشتباكاً هنالك من تَرْحَةِ التَلَفِ بفَرْحَةِ التلافي، ولا أقرب اتصالاً من مساءة الفَقْدِ بِمَبَرّةِ[3] الوُجود.

كما أنّ من أعظمِ ما يُتَحدَّثُ به من التمحيصِ[4] المُتَوقَّعِ في الجاهِ الظاهر المخائل في الوقوع، والقريب (ص ٥٥) الأمارات من الحدوث، ما شوهِدَ عِياناً في جهته في قضيّةِ الرجُلِ المعروفِ بيوسف المُدَجَّن[5] الشهيرةِ الكيان، المُدْرَكَةِ بالأسنان، منذ سنين تجاوز العشرين، فقد كان في ذلك ما يَقْضي منه العجبَ مَنْ شاهَدَهُ أو باشَرَه[6]، من رجلٍ لم أعرِفْه قطّ ولا فاتَحْتُه بكلمةٍ، إلاّ أنه كان يبدو لي من ظاهره أنّه بعيدٌ من تَرَفِ الحضارة، وعريقٌ في نَسَبِ البداوة، مثل رعايةِ البَهَمِ وإثارةِ الفلاحة، وما أشبهَ ذلك، يستظهر مع ذلك من السذاجةِ البارزةِ في مِسْلاخ القِحَةِ والاستصحابِ لأضْغاثٍ من العُشبِ يفرغها جهلة العوامّ في قالَب حُسْن الظن. حدثني من أثق به أن شيخنا القاضي أبا القاسم بنَ سرّاج - رحمه الله - أمر بإخراجِها من المسجِد الجامع، إذ كان لا يُفارِقُها إذا دخل المسجدَ أو غيرَه، يهتف في أثناء تصرّفاته، بأفذاذِ كلماتٍ لاطائلَ تحتها يحملُها أولئكَ المَفْتُونُونَ بأمثاله، من أولي المنازعِ الغريبة، ما

---

(١) - لعله نسبة إلى منطقة البشرات أو البشارات Alpujarras الواقعة إلى الجنوب الشرقي من مدينة غرناطة.

(٢) - في الأصل: فتثبّت.

(٣) - في الأصل: عسرة.

(٤) - في الأصل: المحيص.

(٥) - انظر بدائع السلك لابن الأزرق ١ / ١٣٩ (أشار إلى هذه الحادثة بإيجاز شديد).

(٦) - في الأصل: ياشرِه.

لا تحتمِلُه من لطائِف إشاراتِ الصوفيّة أربابِ السَلوك الخاصّ والعلومِ اللّدنيةِ.

ثم ترقّى من هذه الحالة إلى إنشاءِ شوانيّ[1] مختلفةِ الأوضاع من الصغير الذي يعتمد فيه أوصاف الجَرْم[2] واستخفاف الثقل، والكبير[3] الذي يُقْصدُ فيه تكثيرُ أعدادِ المقاتلة وتوسعة احتمال العدد والمرافِق، فتمّ له من ذلك على طريق ابتغـاءِ ما عندَ الله واستجداءِ ما ينطوي على تحسين الظنّ بأولياء العِباء[4] والدبابيس[5] ما لا يتمُّ لأولي الوَجْدِ[6] من الملوك. ولـم يَزَلْ السلطانُ ـ أيّده الله ـ يندرِجُ في طيّ خلُوصِ النيّةِ فيه، ويُسْعِدُ قَصْدَهُ من ذلك بكلّ ما لا يُوجد من آلاتِ تِلْكَ السُّفُنِ التي تصدّى لإنشائِها إلاّ في دُورِ صنعةِ الإنشاء، التي ينفَرِدُ بها أولو الأمر، ويتميّزُ بأمثالِها في هذا القُطْرِ وُلاةُ المُلْك، غيرَ مُصْغٍ في الأَخْذِ بالتقية من مِثْلِ ذلك الرجل لمقتضى الحزم من أربابِ النُّصح، إلى أنْ استفحل أمره[7] وأعضَلَ داؤه، وأعوَزَ طبّه، وأعيا عِلاجُه، فلم يَرُعِ السلطانَ ـ أيّده الله ـ يوماً ما إلاّ هجومُه على بعضِ أرباض الحضرة داعياً الناسَ إلى بيعته، فانتدبَ له من الغوغاءِ والأوْباشِ عَدَدُ الحصى، هاتفين بالخلعان، مُعْلِنين بالإقـامةِ لدعوته، مُتَهالِكين بالاستماتة في طاعته، باذلين للنفوسِ والأمـوالِ في خِدْمته، فاستطارَ مِنْ فِتْنَةٍ شواظٍ إياسُ النفوسِ الضعيفة من خموده، وعصفَ من محنته إعصارٌ أوهم القلوبَ المشفقة ألاّ طَمَعَ في ركوده. ولـم يكن إلاّ كلاّ ولا، وإذا بذلك الشّواظ قد انطفأ، وذلك الإعصارِ قد سَكَنَ وهدأ[8]، فركب الليلَ جملاً، وغشيته الضيقة أفسحَ ما كان أملاً، وانكفأ على

(١) ـ مفردها شَوْنة وهي المركب المعدّ للجهاد في البحر (القاموس المحيط).

(٢) ـ الجَرْم: زورق يمنيّ وجمعها جروم (القاموس المحيط: جرم).

(٣) ـ في الأصل: والكبر.

(٤) ـ العِباء كساء معروف (القاموس المحيط: عبء).

(٥) ـ في الأصـل بالفـاء، والـدبابيسُ: المقامع وكان يتخذها كثير من نبهاء الأندلس وشمال إفريقيا، ولذلك نجد بينهم لقب أبي دبّوس.

(٦) ـ الوجْد: الغِنى (القاموس المحيط: وجد).

(٧) ـ في الأصل: استمحل.

(٨) ـ في الأصل: وهواء.

أدراجه، ظاهراً فيه قصد الإملاء (ص ٥٦) باستدراجه. وكفى الله تلكَ الوهْلَةَ وجلا تلكَ الغمرة. وتوجّه في طلبِهِ من خُدّامِ السُلْطان من كانت منِيَّتُهُ على يده، فهلك في هذه السبيل.

وقد كان من أغربِ ما يُوقَفُ عليه في التواريخ السالفة قضيةُ المؤيَّد هشـــام، وما وقف من الإرجاف بحياتِه بعد موته مرّة أو مرّتين حسبما حكى ابنُ حيّان في مقتبسه وغيرُه من المؤرخين[1]، فأرانا الله لهذا العهد في ذلك الرجل المعروف بالمدجّن هذه الغريبة المُسْتَبْعَدَةَ كانت على هشام المذكور، فَبَعْدَ مُعَايَنةِ رأسه محوزاً[2] من جَسَدِه لارتاب فيه أحد ممن شاهده، ولا يشك فيه بشرٌ ممن عاينه وَقَفَ على ذلك من الخَلْقِ من لا يحْصيهم إلّا خالقُهم عزّ وجهُه، ولايحصُرُهم إلّا بارِئهم جلّت قدرته، حتى إذا وارى[3] ذلك الرأسَ الترابُ، وطَمَسَ شكلَهُ التغيير، طفقت زعنفة من أتباعه يقولون فيه بالرَّجْعَة، ويزعُمون أنّ ذلك الذي صُلِب كان غَيْـرَ جثمان الذي طُلب، وذلك الرأس الذي طِيفَ به علانيةً كان غيرَ رأسه، ومن قال إنه كان فهو عندهم كاذب لامحالة، ويزعمون أن ذلك الذي قُتِل هو رجل كان يشبهه، فشُبِّهَ لهم به، وليس هو بالمدجّن. مقالة شنيعة لاتنتهي القِحةُ لِأعظَمَ منها. ثم صاروا يدّعون رؤيتَهُ، ويرتقبون ميعادَ خروجه، ويُسْنِدون الرواياتِ عن فلان وفلان من خدّامه أنهم لقوُه في الكهف الفلانيّ والغارِ الكائن بجبل كذا، وأنه أخبرهم أنه خارجٌ

---

(١) ـ لم أجد هذا الخبر في ما وصلنا من أجزاء كتاب المقتبس لابن حيان، وقد وردت بعض تفصيلاته في كتاب البيان المغرب ٣ / ٧٧ ـ ٧٨ وأعمال الأعلام ص ١١٢، ١٢٠.
وتقول المصادر إنّ الذي قُتل هو شخص يهودي أو نصراني شديد الشبه بالمؤيد وأن خليفته محمد ابن هشـام بن عبد الجبار فعل ذلك ليتقي استمرار فتنة المؤيد، وذلك سنة ٣٩٩هـ، لكن هشاماً المؤيد عاد وتولى الخلافة ثانية سنة ٤٠٠ هـ (البيان المغرب ٣ / ١٠٠ ـ ١٠١) وخلع ثانية سنة ٤٠٣ هـ (٣ / ١١٣) وبعد ذلك غاب عن الناس خبره واختلف في أمر مصيره (البيان المغرب ٣ / ١١٣، وفيات الأعيان ٥ / ٢٢، نقط العروس ٩٧).
(٢) ـ هكذا في الأصل ولعلها: محزوزاً.
(٣) ـ في الأصل: ولدى.

عمّا قريب، فيملأ الأرض عدلاً كما مُلِئت جوراً، ويقولون أموراً تغيظُ الحليمَ وتُزْعِجُ الوَقُور، وربما تغالى بعضُهم فيجاوز في الأيمان المحرجة على ذلك الغَموس[1] إلى ما لا يحلُّ شرعاً من الطلاق وغيره.

فاعجب لهذا التمحيص القريب كان من الوقوع، وما كفَّ الله من معرّته وصَرَفَ من مَضَرّته. وليستْ هذه القضيةُ مما تُستَوْفى بالقَلَم بياناً لاسيّما مع الاختصار؛ فقد كان حالُها عظيماً وخطرُها كبيراً. وربّما كانت أوّلَ أمرٍ سهّل هذا الخلاف، وأوقع الافتراقَ بيَن القلوب، والله غالبٌ على أمره، سبحانه لا إله إلّا هو.

وهذا النوع الذي استظهر به هذا المدجَّن من تغطيةِ قصده أولاً للثورة بالصلاح، وإبرازِ تصرّفاتِه المُفْضية أخيراً إلى طَلَبِ المُلْك، في مسلاخ الانتماءِ للولاية هو الذي مُنِيَ به المرابِطون من المتسمِّي بالمهدي[2] القائم بدولة الموحدين. ولذلك كانت هذه الدولةُ الموحّدية لا تسامح أحداً ممن يستظهر بتغيير مُنْكَرٍ في قالب الديانة، أو تحيز عن الجملة بخصوصية عِلْمٍ أو ولاية، إذ كان موليهم[3] على الملك من هذا الباب حسبما حكى المؤرخون من ذلك أعاجيب، (ص ٥٧) وهو الجاري على قولِ أردشير[4] في عهده إلى مَنْ بَعْدَهُ

---

(١) ـ الغموس: الأمر الشديد الغامِسُ في الشدّة، والطعنة النافذة (القاموس المحيط: غمس)

(٢) ـ الإشارة هنا إلى أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن تومرت تلقب بالمهدي وهو من بلاد السوس في المغرب الأقصى وأسس دولة الموحدين في المغرب والأندلس، وكانت وفاته سنة ٥٢٤ هـ (وفيات الأعيان ٥ / ٤٥ ـ ٥٥، المعجب ص ٢٦٢، وانظر كتاب أخبار المهدي بن تومرت للبيذق، الأنيس المطرب ص ١٧٢).

(٣) ـ هكذا في الأصل.

(٤) ـ هو أردشير بن بابك بن ساسان أحد ملوك الفرس، وهو الذي وحد بلاد فارس بعد أن حكمتها الطوائف حوالي ٤٦٥ سنة، وقد مهد لتوحيدها بكتاب مشهور خاطب به الرعية وملوك الطوائف (المعارف لابن قتيبة ص ٦٥٣، مروج الذهب ١ / ٢٤٣، تاريخ غرر السير للثعالبي ص ٤٧٣ ـ ٤٨٧).

من ملوكِ فارس. فإنه قال فيه: (إنّ رأسَ ما أخافُ عليكُمْ مبادرةُ السِّفْلةِ إياكُم إلى دِراسةِ الدين وتناوُلِه والتفقُّه فيه، فتحملكم الثقةُ بقوّة الملك على التهاونِ به، فتحدث في الدينِ رياساتٌ مسْتَسِرّةٌ فيمن قد وَتَرْتُم وجَهَوْتُم[1] وحرمتُم وصغرتُم من سِفْلةِ الرعيةِ وحَشْو العامّة[2]). انتهى. وفيه ما يُشْعِرُ بما يجبُ من التحفّظ من نَمَطِ المدجّن ممن اسْتَظْهَرَ بصلاحٍ أو دين، وما يرِدُ على الملوك من قِبَلِهم من التمحيص. وقانا الله من كلّ داعيةٍ للفتنة وموجبة للفُرْقة.

وفيما نقلْنا من هذه الصورةِ كفاية، إذ كان موضوعُها متّسِعاً جداً، ومختلِفاً للأنظار غاية. ولله في صرف هذه المتوقّعات لطائفُ جميلة[3]. فلو استَقْصَيْنا ما تُوُقِّعَ من ذلك لخرجنا للطول المملّ فلنعتمد على الوقوف عند هذا الحدّ بحول الله.

ثم تطاولت المـدّةُ، وتعـاقَب الـرخاءُ والشدّة، فكانت النادرةُ الفذّةُ، والحادثةُ المُسْتَفْظَعَةُ المُسْتَلَذَّة، تِلكُم الغريبةُ التي لم تَأْتِ مِثْلَها الأعصار، والعجيبةُ التي أسفرتْ [عن][4] حُسْنِ العاقبةِ فيها حُجُبُ الأقْدار، وذلكم أن الرئيسَ إسماعيل الذي سبقتِ الإشارة[5] بما ذَخَرَ الله للغالب بالله - أيّده الله - في مقامه بأرض الكفر بين[6] وجوه الفوائد التي كانت له في طيّ المكاره - حسبما يَقَعُ الإلمامُ به في بعضِ الصُوَر الآتية - كان قد استقرّ بأرضِ الحرب بعد تمامِ قضيةِ السلطان أبي الحجّاج - رحمه الله - راكناً إلى الكُفْر على نحو

(١) - أجهى فلانٌ علينا: بخل، وجهِيَ البيتُ: خرب (القاموس المحيط) وفي عهد أردشير: جفوتم.

(٢) - انظر عهد أردشير ص ٥٣ - ٥٤، حققه وقدم له: الدكتور إحسان عبّاس، دار صادر - بيروت - ١٩٦٧م. وورد هذا النص أيضاً في لباب الآداب لابن منقذ ص ٤٣.

(٣) - في الأصل: لطالِبِ جميلهِ.

(٤) - في الأصل: صح.

(٥) - لم يسبق فيما مضى من هذا الكتاب أن أشار المؤلف للرئيس اسماعيل.

(٦) - في الأصل: الكفرين، وربما قصد بها الكافرين.

ما سبق له مُنْذُ المدّةِ الطويلة، في أقاصيصَ يطولُ ذِكْرُها، ليست من غَرَضِ هذا الكتاب[1]، إلى أن استقرّ بحِصْنِ قُمارِش[2] من أرض غربيّ الوطن، منتزياً هنـالِـكَ بنفسِه. وقد سَقَبَت[3] الخواطرُ أيْدته[4] المرتقبة وحادثته المُتَوَقَّعة، فأكسَبَ الإرجافُ به وهناً في عضد النصر الذي كانت قد هبّت[5] منذ نحو ثلاثة أعوام سالفة عن غاية اختلاله بحيث ذكر.

وفي صفر من صدرِ سنتِنا هذه التي هي عامُ أربعةٍ وخمسين وثمانِ مائة اشتعَلَتْ به في الوطنِ نارُ الفتنة، وأعضل به لولا تداركُ الربّ الرحيم داءُ المِحْنة، فاحتلَّ قصبة مالَقَة في يوم الخميس التاسع عشر من شهرِ صفر المؤرّخ به، ولذلك العهد ماجت الحضرةُ بأهلها مَوْجاً، واستشعرتِ النفوسُ عظيمَ الحادثة، وخشيت عاقبةَ هذه الواقعة، وجعلَ الله في قلوبِ الخاصِّ والعامِّ، والقريبِ والبعيدِ، استقباحَ هذه الثورة، واستنكارَ هذه (ص ٥٨) الفِعْلة، ولُقِن الناسُ ما تضمَّنَتْهُ من أماني طاغية قشتالة في تشتيتِ الكلمة، وتفريقِ الأمّة المسلمة، وضُـربت لهم في ذلك الأمثال، وحُذِّروا من عواقب هذه الأحوال، وناصح الفقهاءُ في ذلك الدينَ الحنيف، والإسلامَ الشريف، فجزموا بحظْرِ الواقع وحُرْمَتِه، وثبتوا على الاستمساكِ بعزّ المُلْكِ وحرمته، وحافظوا للملك المصون عن دناءة خدمة الطاغية برعي ذمته. فكان ذلك من أعظم الأسباب في ائتلاف القلوب، وتيسيرِ الغَرَضِ المطلوب. فنهد السلطانُ ـ نَصَرَهُ الله ـ في جيشه المظفّر تقدمه السعادة، ويتهيأ له وفق ما في ضميره الإرادة، في منتصفِ شهرِ ربيع الثاني من العام المذكور، فجعل الله له مدينة بلّش[6] باكورة

(١) ـ في الأصل: الكتب.

(٢) ـ بالإسبانية Comares غربي غرناطة وقريباً من مالقة.

(٣) ـ هكذا في الأصل، وسَقُبَت الدار: قَرُبت (القاموس المحيط) وقد تكون مصحّفة.

(٤) ـ اشتداد أمره وتعاظُم شأنه (آد يئيد أيدا اشتدّ وقوي) (القاموس المحيط).

(٥) ـ هكذا في الأصل، ولا يستقيم المعنى إلاّ بإضافة «رياحه» بعد كلمة «هبت».

(٦) ـ بالإسبانية Velez Malaga وتقع بين غرناطة ومالقة وهي إلى الشمال الشرقي من مالقة وإلى الجنوب الغربي من غرناطة.

الفتح، وتحفةَ القادم من النصر. ولسادسِ يومِ حُلوله بفِنائها استنزلَ من كان فيها من أصحابِ الرئيسِ المذكور على أمانٍ بُذِلَ لهم. ثم كان الانتقالُ إلى مدينةِ مالَقَة في يومِ الخميس الثالثِ والعشرين من الشهر المؤرّخ به، تهدرُ طبولُ عزّه، وتلوحُ مخائِلُ سعده، فنزل منها فُوَيْقَ الجَنّةِ المعلومة هنالك لابن سالم، فكان في ذلكَ من أكفال ما استبشر به سامعُه. ثم انتقَل يومَ السبتِ التالي ليومِ الجمعة ثانيَ يوم نزولِه بحيث ذُكِر، إلى شرقيِّ رابطة السُعَداء، فكان الاستبشارُ في ذلك بالفأل أتمّ، والاستبصارُ في نُجْحِ القَصْدِ به أعمّ، إلى أن تأذَّنَ الله في فتح البلدة عَنْوةً في يومِ الخميسِ الخامس عشر من الشهر بعده في يوم أغرّ محجّل، أتى الله فيه من عجائبِ صُنْعه، وغرائبِ لُطْفِه، ما بَهَرَ العقولَ، وأبْهَجَ النُفُوسَ، وأعْلَقَ برحمةِ الله في تدارُكِ الوطنِ الغريبِ الأطماع، بعد أن كانت النصرانيةُ - قصمها الله - قد جاشَتْ جموعُها، واستشْرَفَتْ للنَّكْث، واشرأَبَّتْ للغَدْر، على الشِنْشِنَةِ المعروفة منها، وطفِقَتْ تَعِدُ ذلك البائسَ اسماعيل بأنها تَحْطِبُ في حبله، وتجهد في نصره، وقد جعل الله بين رؤوسِهم من الشَّتات، ومكّن بين قوامسهم[1] من الخِلاف ما أضعف به أيْدهم،[2] وأوْهَنَ به كَيْدَهُم. ولله في سِرِّ أقدارِهِ لطائف، لا يعرف كُنْهَهَا إلّا المستبصِرُون في آياته. ولثاني يومٍ من احتلالِ السلطانِ - نصره الله - بدارِ الصنعة من ظاهرِ مدينة مالَقَة أذعنتِ الفِرْقَةُ المنتزيةُ بالقَصَبةِ من أشياع إسماعيل للانقياد للكلام، فنزلَ منهم من تحدَّثَ في القضيّة على الإفراجِ عنه لحُكْمِ السلطان، أيّده الله، وبَذْلِ الأمانِ لهم في أنفُسِهم وأموالِهم، والتخلّي عن القصبتين (ص ٥٩) وقصبة جَبَلِ فار[3] لمالكها. فكان ذلك على أكملِ الوُجوهِ الموافِقة لِغَرَضِ الملك وعزّ الإسلام. وفي يَوْمِ السَّبتِ السابع عشر من الشهر المذكور صعد السلطانُ أيّده الله للقصبةِ في جملةِ قُوّاده وخدّامه، وقعد على أريكةِ مُلْكه، وانثال عليه الجمُّ الغفير من أهل مالَقة وغربيّها، ووجوه من كان

---

(١) - في الأصل: قواميهم.

(٢) - الأيْد: القوة (القاموس المحيط).

(٣) - بالإسبانية Gibralfaro وهي قلعة مطلة على شاطىء مالقة.

معه من أهل الحضرة مهنّئين له على ما هيّأ الله من الصُنع الجميل والفتح العجيب. وفي الليلةِ الثانيةِ ليوم صُعودِه بحيثُ ذُكِر طاح ذلك البائسُ، فدُفِنَ بإزاءِ أبيه وجدّه فما انتطح فيه عنزان[1]. إنّ في ذلك لعبرةً للمعتبِرين، وآيةً للمُسْتَبْصِرين. وصَحِبَ هذا الصنعَ للغالبِ بالله من الألطافِ الخفيّة ما عوّده ربُّه.

(١) - لا ينتطح فيه عنزان: لا يكون له تغيير ولا له نكير، وهو مثل عربي ورد في مجمع الأمثال ٢ / ٢٢٥.

تتميم

إنْ كان بصددِ شَيْءٍ من هذه الابتلاءات فنجّاه الله منها، وأصاب به سواه، فهو دائرٌ بين أن تكونَ نجاتُه بتوبته من الذنوب المُوجبة لتلك العقوبة أو لتجاوزِ الله عنه فيلحق بالبريء، أو تكونَ نجاتُه إمهالاً في سبيلِ الإملاء له، وعلى كلا التقديرين فينبغي له أن يَسْتَكْثِرَ من حَمْدِ الله على ما منحه من النجاةِ للاحتمال الأوّل، وأن يَسْتَشْعِرَ كونَ من أُصيب بذلك الخطب دونه خيراً منه لما أصابه ممّا لعلّه في سبيل الإعظامِ لأجرِه أو التخفيفِ لوزره للاحتمال الثاني.

ومثلُ ما يحكى عن سَرِيّ السقطي[1] من أنه: (قيل له: كيف يَجِبُ الإتيانُ بالطاعة؟ قال: أنا منذُ ثلاثين سنةً أستَغْفِرُ الله عن قولي مرّةً واحدةً الحمدُ لله. فقيل له: وكيف ذلك؟ قال: وقع الحريقُ في بغداد، واحترقَتْ الدكاكينُ والدور، فأخبروني أن دكّاني لم يحترقْ، فقلت: الحمدُ لله. وكان معناه أني فرحْتُ ببقاءِ دكاني حالَ احتراقِ سائرِ دكاكين الناس، وكان حقُّ الدِين والمروءة ألّا أفرح بذلك، فأنا في الاستغفارِ منذُ ثلاثين سنة على قَوْلي الحمد لله)[2] غيرُ لائقٍ بمقامنا. وفي مِثْله يقال: حَسَناتُ الأبْرار سيّئاتُ المقرّبين. وَمَنْ لنا بأنْ نَكُونَ من الأبرار بَلْ مَنْ لنا أن نكونَ ممّن علم أنه مُسْرِفٌ على نفسه، خابطاً عشواءَ في غمراتِ ذنبه!؟ فلعلَّ قلبَهُ بذلك ينكسِر، وحاله عند مولاه يَنْجَبِر، لقوله صلّى الله عليه وسلّم فيما يرويه عن ربّه: **«أنا عِنْدَ المنكَسِرَةِ قلوبُهم من أجلي»**. تابَ الله علينا وهُدينا.

---

(١) ـ هو أبو الحسن سرِيّ بن المُغَلِّس السَقَطيّ من مشاهير المتصوفة، وهو خال أبي القاسم الجنيد وأستاذه، توفي ببغداد سنة ٢٥١ هـ (انظر ترجمته في: حلية الأولياء ١٠ / ١١٦، تاريخ بغداد ٩ / ١٨٧، طبقات الصوفية ٤٨، وفيات الأعيان ٢ / ٣٥٧ ـ ٣٥٩).

(٢) ـ انظر هذه الحكاية في تاريخ بغداد ٩ / ١٨٨، وفيات الأعيان ٢ / ٣٥٧.

الصُّورَة الثانية

أنْ يكونَ الابتلاءُ في المُقْتَنَياتِ العَزيزةِ على النُّفُوس، كالمالِ والجاه، واقعاً في الحال، وهو مأمولُ الجَبْرِ، مرجُوُّ الزَّوال.

وهذه الصورةُ أوسعُ من التي بعدها، لإمكان الجَبْر في هذه الأمور، لأنّ أعلى أجناسِ هذه المُقْتَنَيات على الجملة إمّا جاهٌ وإمّا مال، (ص ٦٠) وكلاهما ممكنُ التلافي بعَوْدَتِه كما كان؛ فكم رأيْنا من ذي جاه أو مالٍ أو كليهما قد سُلِبَ ذلك، ثم أعاده الله إليه كأحسنَ ما عوّده! وفي قصةِ سليمان[1] ـ صلوات الله عليه ـ فمن دونَه من ملوكٍ وسواهم مُعْتَبَرٌ لمن كان له قَلْبٌ أو ألقى السَّمْعَ وهُوَ شَهِيد. وما أعوز تلافيه بنظيره فأعلى مُغْنٍ عنه في الجاه، وما يتعلّق به ومثله ومماثله ممّا فوقه مغنٍ عنه إن كان من ذوات الأمثال، أو من ذواتِ القِيَم في المال، وذلك في نَظَرِ من يستقصي، حظٌّ لنفسه، إذ القيمة في نَظَرِ الشَّرْع مُغْنِيَةٌ عنه في ذواتِ القيم. وعند ذلك لا يبقى في الصورة الثالثةِ إلاّ ما حال دون عَوْدته أو دونَ عِوَضِه مانعٌ يمنع منه بتّاً، أو كان من النُّدورِ بحيثُ لايُوجَدُ منه عِوض، ولايتأتّى عنه بدل.

ولا شكَّ أن هذه المُقْتَنَيات على الجملة من الأمورِ التي بها للقلوبِ تعلُّقٌ عظيم، وللنفوسِ عليها حِرْصٌ شديد. ولن يَخْفى كَلَفُ النفوس بهذه الأمور، وتمكّنُ إيثارها من القَلْب، وَفَرْطُ ميلِ الخاطر إليها.

ومن البيّنِ أنَّ اختصاصَ الابتلاءِ بهذه الأشياء دونَ شموله لما هو أهمُّ للإنسانِ منها، كالنفس وما سِيقَ معها من الصحة وغيرها، مما يُوجِبُ طموحَ الفكر، لاستعظامِ الواقع ذاهلاً ممّا منح الله السلامةَ منه. ولكون النفْسِ بمنجاةٍ

(١) ـ انظر قصص الأنبياء لابن كثير ص ٤٩٨ ـ ٥٢٠.

من الآفةِ في هذه الحال نَعْتَريها الغَفْلَةُ كثيراً عن مُشاهَدةِ لُطْفِ الله في تمحيصه بكونه خاصّاً بالقُنية الماليّة والجاهيّة وما أشبه ذلك، دون أن يقعَ في النفسِ أو في الأعضاءِ التي يودّ المبتلى فيها لو بَذَلَ مالَه في وقايتها وحفظها.

ومن الواجبِ هنا استحضارُ هذا المعنى، وأنَّ الابتلاء كما خُصَّ فقد كان من الجائز أن يَعُمّ، أو يقع في الأنْفسِ على الممتَحَن دون الأخسّ[1] عنده إذا تأمَّلَ حقَّ التأمّل، ثم إذا نظر في هذ! المفقود بالابتلاء، إذا كان مالاً فقد يَسْلَمُ سواه ممّا لو شمِلَتْهُ الآفةُ التي طَرَقَتْ غَيْرَهُ لم يكن ذلك بدعاً. فحقٌّ على المُصابِ بهذا المعنى أن يَتَسلّى بتحقيقِ النَظَرِ في هذا حتى لا يَجِد لما فَقَدَهُ ألماً، فلو فَرَضَ استئصالَ مالِه ففي سلامةِ النَفْسِ ومَنْ يعزُّ عليها من أهلٍ وبلدٍ وأحبّة ما يسهُلُ به فقدُ كلٍّ[2] مفقود، لأنّا نرى كثيراً من المبتلين بنوائبِ الدهرِ في أنفُسِهم أو مَنْ يعِزُّ عليهم يبذُلون جميعَ ما يملِكون في خَلاصِ نُفُوسهم من الابتلاء الذي يكونون فيه، ثم لا يكونُ في ذلك عتابٌ عليه، وإلاّ فكم من أسيرٍ قد بَذَلَ مالَه كُلَّه في فكاك رقبته من رِبْقَةِ الأسْر! وَكَمْ مِنْ مُصادَرٍ[3] أو منكوبٍ قد خَرَجَ من مَوْرُوثِه ومُطَوَّبه[4] فِراراً من العذاب المعروضِ عليه أو على من يَكْرُم عليه! وذلك لوجُودِ البَذْلِ من المالِ وعدمِ وُجودِه من النَّفْس ومن ذكر مَعَهَا، (ص ٦١) كما قال الفرزدق:[5]

يَمْضِي أخـوكَ فلن تَلْقى له خَلَفاً ... والمـالُ بَعْدَ ذهابِ المالِ يُكتَسَبُ

---

(١) ـ في الأصل: الأحسن.

(٢) ـ في الأصل: كان.

(٣) ـ كذا في الأصل ولعلّها مصحّفة عن «مصاب» أو لعلها مشتقة من الفعل صادره على كذا بمعنى طالبه به (القاموس المحيط: صدر).

(٤) ـ المبنيّ من الطوب.

(٥) ـ لم أجـد البيت في ديوان الفرزدق، وورد في التمثيل والمحاضرة ص ٧٠، وأدب الدنيا والدين ص ١٧٣.

من البيّـن إذاً أن شِدّة الشَغَفِ بالمالِ والحرص عليه إنما هو بعد سلامةِ الإنسان من الآلام التي تؤذيه في الجسمِ أو النفسِ أو فيهما معاً، وفي هذا المعنى يقولُ أبو النجم المرعي رحمه الله:

هِيَ الأيَّامُ من نُعْـمـىً وبُـوسٍ وكـرّاتِ السُعُـودِ على النُّحـُوسِ
فَلا يَعْـظُمْ عَلَيْكَ ذَهــابُ مالٍ وخَـيْـلٍ أو رَقِـيقٍ أو لَبُـوسِ
فكـلُّ الـمــالِ مَحْـقُـورٌ يَسِيرٌ إذا سلِمَتْ حُشَاشَاتُ النُّفُوسِ

وفي اللازم عن عَدَمِ المالِ وعن وُجُودِه قال حسّانُ بنُ ثابت ـ رضي الله عنه[1]:

رُبَّ حِلْمٍ أضـاعَـهُ عَدَمُ المـا لِ وجَـهْـلٍ غطّى عَلَيْهِ النَّـعِيمُ

وقال بعضُ أهلِ الحكمة: «الغِنى في الغُربةِ وطن، والمُقِلُّ في أهْلِهِ غريب»[2]. وإنّ شيئاً يكونُ عَدَمُه سبباً في ضياع الحِلْم، ووجودُه سبباً في تغطيةِ الجهل، ويكونُ في الغربةِ مُغْنِياً عن الوطن، وفقده في الوطنِ قائمٌ مقامَ الغربة، بما يُدْخِلُ من الغمّ، ويسبِّبُ من الكربة، لجديرٌ أن يُهتَمَّ لفقده، وتجزع النفوسُ لفَوْته. وقد ظرفَ القائلُ في فضلِ الدرهم من أسباب الغنى:[3]

وقَائلةٍ: ما الحِلُم والفَضْلُ والتُقى وما الدِينُ والدُنْيا؟ فقلتُ: الدَّراهِمُ
تُداوي جِراحَ الفَقْـر حتى تُزيلَهـا ومـا هِيَ في التحقيقِ إلاَّ مَراهِمُ

---

(١) ـ شرح ديوان حسان بن ثابت ص ٢٢٧، بهجة المجالس ١ / ٢٠٢.

(٢) ـ ورد هذا القول في كتاب عين الأدب والسياسة لابن هذيل ص ١٤٧ منسوباً إلى أرسطو طاليس مع بعض اختلاف ونصه في عين الأدب والسياسة:
الغنى في الغربة وطن والفقر في الأهل غربة.

(٣) ـ انظر البيتين في عين الأدب والسياسة ص ١٥١ وقد ورد الشطر الأول من البيت الأول على النحو التالي: وقائلة ما العلم والحلم والحجا. . . .

وأنشد أحمدُ بنُ الحارث[1] فيما ينحو نَحْوَ قولِ حسّان:[2]

تُغَطّي عيوبَ المرءِ كَثْرةُ مالِهِ ... يُصدَّقُ فيما قالَ وهو كَذُوبُ
وتُزْري بِعَقْلِ المَرْءِ قِلَّةُ مالِهِ ... يُحمّقُه الأقوامُ وهو لَبيبُ

وأنشد أحمدُ بن الحارثِ فيما يُنْظَرُ إلى ذلك:

كَمْ من لئيمِ الجُدودِ سَوَّدَهُ المالُ أبُوه وأُمُّهُ الوَرَقُ!
وكم كريمِ الجُدودِ لَيْسَ له عَيْبٌ سِوى أنّ ثَوْبَهُ خَلِقُ!

وهاتان القطعتان في المعنى قريبةٌ إحداهما من الأخرى، ولذلك يعظُم الابتلاءُ بما يُفْقَدُ من المال، إذ ومِنْ مسبّباته إحالةُ صفة اللبابة إلى ضدّها. . . .[3] كرم الجدود بإخلاق الثوب.

وما سبق في الصورة الأولى من إظهارِ التحمُّل وإيثارِ التجمّل[4] فاستعمالُه هنا أوْجَبُ والتحقّقُ به ألزم، وما يجِبُ هنالك من الصَبْر والتسليم والرضا (ص ٦٢) والتفويض فإنه هنا آكد في باب الوُجوب وأسعدُ بالغَرَضِ المطلوب.

وما يعرض من استحضار التسلّي واستشعار الراحة بالتأسّي فله في هذا المحلِّ مناسبةٌ بيّنة وله في هذا الموضع فائدة متعيِّنة. والشكرُ لله على ما أبقى من نِعَمِهِ ثمرة المزيد التي يجبر لها النقص وينجح بها القصد، ولذلك قال

---

(١) ـ هو أحمد بن الحارث بن المبارك الخزّاز أبو جعفر راوية العتابي وأبي الحسن المدائني وكان شاعراً من موالي الخليفة المنصور، وله عدد كبير من المؤلفات الأدبية والتاريخية وتوفي ببغداد سنة ٢٥٩ هـ (انظر: الوافي بالوفيات ٦ / ٢٩٧، معجم الأدباء ٣ / ٣، تاريخ بغداد ٤ / ١٢٢، طبقات الشعراء لابن المعتز ٤٢٦).

(٢) ـ البيت الثاني موجود في بهجة المجالس لابن عبد البر ١ / ٢٠٢، وانظر عيون الأخبار ٣ / ٢٤٠، وجاء البيتان في روضة العقلاء ص ٢٢٦.

(٣) ـ بياض في الأصل مقدار كلمة واحدة لعلها: واستبدال.

(٤) ـ في الأصل: التحمّل.

ابنُ شرف في حِكمه[1]: (اعلمْ أنَّ صَبْرَ النفسِ وحملَ الجوارح اجتمعا فنتجا ستةَ أولاد، فضرب ثلاثة منها بعِرْقٍ إلى الصبرِ من أبويْها، وهي القناعةُ واليأسُ والسلوةُ، فتولّت القناعةُ الغَناء بالحاضر، وتولّت السلوةُ طِيبَ النفْسِ من الماضي، وتولّى اليأسُ كفَّ الرغبة في المستقبل. وضرب ثلاثةٌ منها بعرقٍ إلى العمل من أبويْها، وهي الطاعةُ والأداءُ والوصول، فتولّت الطاعةُ الانقياد، وتولّى الأداءُ توفيةَ الغرض[2]، وتولّى الوصولُ إدراكَ المطلوب. ثم إن القناعةَ لمّا تولّت الرضا بالحاضر نتجت الغَناء، والسلوة لما تولّت طيبَ النفس عن الماضي نتجت الراحة، واليأس لمّا تولّى كفَّ الرغبة في المستقبل نتج التسليم. ثم إن الطاعة لما تولّت حُسْنَ الأداء نتجت الأثرة، والأداء لما تولّى توفيةَ الغرض نتج الغبطة، والوصول لمّا تولّى إدراكَ المطلوب نتج النَيْل، ثم الغَناء والراحة والتسليم والأثرة والغبطة والنَيْل اجتمعت فصارت غنيمة، ومَنْ غَنِمَ فقد فاز فوزاً عظيماً)[3] انتهى. وهذا مناسبٌ جِداً لما نَحْنُ بسبيله، فانظر ارتباط هذه الأسباب بعضها ببعض، وما حصل منها من الخيرات المسمّاة عنده خَيْراً وغنيمة.

وحدّث الجاحظُ قال: حدّثني حميد عن عطاء[4] قال: كنتُ عند الفضل ابن سهل[5] وعنده رسولُ مِلك الخَزَر، وهو يحدّثنا عن أخت لمليكهم قال:

---

(١) ـ انظر حاشية ص ١٢ من الأصل المخطوط، وقد مر ذكر حِكَم ابن شرف في أكثر من موضع.

(٢) ـ في الأصل: الفرض بالفاء، ولكنها ذكرت بعد ذلك بالغين.

(٣) ـ لم أقع على هذا النص فيما رجعت إليه من المصادر التي ترجمت لابن شرف.

(٤) ـ في زهر الآداب: حدثني حميد بن عطاء.

(٥) ـ هو أبو العباس الفضل بن سهل بن عبد الله الملقب ذا الرياستين، كان من أولاد ملوك المجوس وأسلم أبوه في أيام هارون الرشيد، وقد اتصل الفضل وأخوه الحسن بالبرامكة، وفوّض الخليفةُ المأمونُ معظم أموره للفضل بن سهل وولاه رئاسة السيف والقلم، فكاد يغلبه على أمره فدبر المأمون مقتله في الحمام سنة ٢٠٢ هـ (تاريخ بغداد ١٢ / ٣٣٩، مروج الذهب ٤ / ٢٨، وفيات الأعيان ٤ / ٤١).

أصابتنا سنة احتدم شواظها بحرّ المصائب وصنوف الآفات، ففزع الناس إلى الملك، فلم يَدْرِ ما يجيبهم. فقالت أخته: (أيّها الملك إنّ الخوف لله علْقٌ لا يخلُقُ جديدُه، ولا يمتنع عزيزُه، وهو دالُّ الملك على استصلاح رعيّته، وزاجره عن اسْتِفْسَادِها، وقد فزعت رعيتُك إليك بفضل العجزِ عن الالتجاء إلى من لا تزيده الإساءةُ إلى خلقه عزاً، ولا يُنْقِصُه العَوْدُ بالإحسان إليهم مُلْكاً، وما أحدٌ أولى بحفظِ الوصيّةِ من الموصي، ولا بركوب الدلالةِ من الدالّ، ولا بحُسْنِ الرعاية من الراعي، ولم تزلْ في نعمةٍ لم تغيرها نقمة، وفي رضا لم يكدّره سخط، إلى أن جرى القَدَرُ بما عمي عنه البصر، وذهل عنه الحذر، فسُلِبَ الموهوب، والواهبُ (ص ٦٣) هو السالب، فعُدْ إليه بشكْرِ النعم، وعُذْ به من فظيعِ النِقم، فمتى تنسَهُ يَنْسَك، ولاتجعلنَّ الحياءَ من التذلّل للمعزّ المذلّ ستراً بينك وبين رعيتك، فتستحقَّ مذموم العاقبة، ولكن مُرْهُم ونفسَكَ بصرف القلوب إلى الإقرار له بكنه القدرة، وبتذلّل الإنس في الدعاءِ بمحضِ الشكر له، فإن الملك ربّما عاقب عبده ليرجعه عن سيّء فعل إلى صلاح عمل، أو ليبعثه على دائبِ شكرٍ ليحرز به فَضْل أجر). فأمرها الملكُ أن تقومَ فيهم فتنذرهم بهذا الكلام، فرجع القومُ وقَدْ علمَ الله منهم قبول الوعظِ في الأمر والنهي، فحال عليهم الحَوْلُ وما منهم مفتقِدٌ نِعْمةً كان سُلِبها، وتواترت عليهم الزياداتُ بجميل الصنع، فاعترفَ لها الملِكُ بالفضل، فقلّدها المُلْك فاجتمعت لها الرعيةُ على الطاعة في المكروه والمحبـوب. قال: وهذا وهُمْ أعداءُ الله وضرائرُ نِعْمَتِهِ ومُسْتَوْجِبو نِقْمته، أعاد الله لهم بالشكر ما أرادوا، وأعطاهم بالإقرار له بكُنْهِ قدرته ما تمنّوا، فكيف بمن يجمعه على الشكر نوران اثنان قرآن[1] منزّل ونبيٌّ مرسل! لو صَدَقَتِ النيّات، واجتمعت على الافتقار إليه الطلبات، لكنّهم أنكروا ما عرفوا وجهلوا ما علموا، فانقلب جِدُّهم هَزْلاً وسكوتهم خبلاً. انتهى.[2]

---

(١) ـ في الأصل: قويّان، والصواب من زهر الآداب.

(٢) ـ انظر هذه الحكاية في: زهر الآداب للحصري ١ / ٢٥٣ ـ ٢٥٤.

وهذا الكلامُ في غايةِ النفاسة، ومعناه شاهد لقائلته بالعقل والرجاحة[1]، ونحنُ باعتقاد محصوله أحقّ، والمحذور الذي حضّت على اجتنابه بنا أخصّ.

ولا بُدَّ من الإشارة إلى ما يُناسِبُ هذا الموضعَ من تلك الأحكام على اختصار، وبحسب ما يليقُ منها بهذا القصد بعد أن يقدّم هنا مقدّمة تـحْسُن[2] في صور هذه الصورة؛ وذلك أن المقتنياتِ العزيزةَ على النفوس من المالِ والجاهِ وما يندرجُ تحت ذلك من الأمور المحبوبة للناس عادة من متاع هذه الحياة الدنيا، ولن يَخْفى، كما ذُكِر قبل، شدةُ الميْل إليها، والحرصُ عليها، وتسرّعُ النفوس إلى اقتنائها، ومبادرةُ الأيدي إلى اكتسابها، وَمَيَلانُ القلوبِ إلى التنافسِ فيها، والاستكثار منها، والاستيلاء عليها، والازدياد من أعراضها، والافتنان في أنواعها، والمغالاة في التماسِ أعلاقها، والمباهاة في اقتناص أفذاذها. وهذا مغروزٌ في الجِبِلّة وموضوعٌ في أصل الخِلْقة، ولا تمكن النازعة[3] في ذلك لقوله تعالى: ﴿إنّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لها لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[4] ولقـوله تعالى: ﴿زُيِّنَ للنّاسِ حُبُّ الشَهَواتِ مِنَ النساءِ والبَنِينَ والقَناطِيرِ المُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَب (ص ٦٤) والفِضَّةِ والْخَيْلِ المُسَوَّمَةِ والأنْعامِ والحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا والله عِنْدَهُ حُسْنُ الْمآبِ﴾[5] وبقوله تعالى: ﴿المَال والبَنُونَ زِينَةُ الحَياةِ الدُّنْيا﴾[6] مع قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمتَاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وزِينَتُها﴾[7] فهذه الأمورُ كلُّها معروضةٌ[8] لتَوَقانِ النُفُوسِ إليها ومَيَلانِ القُلوب نحوها كلّ واحد من الناس وما أثر من ذلك.

---

(١) ـ في الأصل: بالغفل والرجاجة.

(٢) ـ هذه الكلمة غير منقوطة في الأصل.

(٣) ـ هكذا في الأصل ولعلها: للنازعة.

(٤) ـ الآية ٧ من سورة الكهف.

(٥) ـ الآية ١٤ من سورة آل عمران.

(٦) ـ الآية ٤٦ من سورة الكهف.

(٧) ـ الآية ٦٠ من سورة القصص.

(٨) ـ هكذا في الأصل.

وليس من جاري عادةِ الله اتّفاقُ الخَلْقِ على معنى واحد؛ لاختلافِ قواهم وأساليبِهم [في][1] الاختيارات والاقتراحات، وتبايُنِهم في الطبائعِ والهِمَمِ والأخْلاقِ والانتسابات، وإنما هذا على الجُمْلة، والميلُ إلى ذلك طبيعيٌّ لهم لا يَفْتَرِقون فيه إلى باعث. ولمّا علم الله من النفوس من الشره إلى ذلك والميلِ للاستكثار منه فوقَ الحاجة التي تقوم بها المصلحة حضّ هنا على الزهد في الدنيا التي هي مشتملةٌ على هذه الأنواع كلّها لأنه قد قيل: «حُبُّ الدنيا رأسُ كلّ خطيئة»[2]. وفي هذا المعنى يقول القاضي أبو بكر بن شَبْرين[3] ـ رحمه الله:

أثْقَلَتْني الذنوبُ وَيْحي وَوَيْسي ... لَيْتَني كنتُ زاهداً كأُوَيْسِ
إنّما أصلُ مِحنتي حبُّ دنيا ... هي لَيْلى ولي بها وَجْدُ قَيْسِ[4]

وإذا كان أصلُ المحنة بأثقال[5] حبّ الدنيا فهو بمعنى كونه رأسَ كلِّ خطيئة، ولذلك يكونُ الزهد فيها رأسَ كلّ عبادة. وقد عدّ العلماءُ الحديثَ عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بالأمر بالزهد في الدنيا رُبُعَ الإسلام، وهو الحديثُ

(١) ـ زيادة من المحقق.

(٢) ـ عيون الأخبار ج ٢ ص ٣٣١ عن الثوري منسوبة إلى المسيح عليه السلام، وكذلك في التذكرة الحمدونية ١ / ٥٨، ووردت في بهجة المجالس ٢ / ٢٧٩ منسوبة للرسول عليه السلام وللمسيح عليه السلام، وفي لباب الآداب ص ٤٦١.

(٣) ـ أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن شبرين، واحد من شيوخ لسان الدين بن الخطيب، أصله من مدينة اشبيلية، وعندما استولى القشتاليون على هذه المدينة سنة ٦٤٦ هـ رحل أهله إلى سبتة وبها ولد ابن شبرين سنة ٦٦٤ هـ. انتقل إلى غرناطة سنة ٧٠٥ هـ وعمل بها كاتباً للسلطان النصري محمد الثالث، وولي القضاء بعدة جهات، وتوفي في غرناطة سنة ٧٤٧ هـ وخلف شعراً كثيراً ونثراً (انظر: الإحاطة ٢ / ٢٣٩ ـ ٢٤٩، الكتيبة الكامنة ١٦٦ ـ ١٧٢، المرقبة العليا ١٥٣، نفح الطيب ٥ / ٥٤١ ـ ٥٤٣).

(٤) ـ انظر البيتين في الكتيبة الكامنة ص ١٧٢ وانظر البيت الأول في الإحاطة ٥ / ٢٤٥. وأويس الوارد في البيت الأول هو أويس القرني من زهاد الكوفة في القرن الأول الهجري (البيان والتبيين ٣ / ١٦٢ ط. دار الفكر للجميع سنة ١٩٦٨م).

(٥) ـ في الأصل: بأثقل.

المرويّ في سننِ ابنِ ماجة(١) عن سهل بن سعيد رضي الله عنه قال: «جاء رجلٌ إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقال: يا رسولَ الله دُلَّني على عملٍ إذا عَمِلْتُه أحبّني الله وأحبّني الناس، فقال: «**ازهَدْ في الدنيا يحبّك الله وازهَدْ فيما في أيدي الناسِ يحبّك الناس**»(٢). وقال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم: «**إذا أرادَ الله بعبدٍ خيْراً زهَّده في الدنيا ورغّبه في الآخرة وبَصَّـرَهُ بعيوبِ نَفْسِه**»(٣). وقال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم لرجلٍ وهو يعِظُه: «**ازهَدْ في الدنيا يحبّك الله وازهَدْ فيما في أيدي الناسِ يحبّك الناس**»(٤).

وإذا كان ذلك كذلك فإنّ هذه الرتبةَ التي هي الزهد رتبةٌ عظيمةٌ ومزيّةٌ رفيعة. قال الله تعالى في معنى التبيين لحقيقة الدنيا والترغيب عنها والتعريف بحقيقةِ الآخرة والترغيب فيها: ﴿**وَمَا هٰذِهِ الحَياةُ الدُّنْيَا إلاّ لَهْوٌ ولَعِبٌ وإنَّ الدارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيوَانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُون**﴾(٥). فما أحْرى الدارَ التي حقيقتُها لَهْوٌ ولَعِبٌ أن يَزْهَدَ فيها العقلاءُ ويَرْغَبَ عنها الألبّاء، وما أحقَّ الدارَ التي هي الحيوانُ أن يَحْرص (ص ٦٥) عليها العلماء بها، ويرغبَ فيها العارفون بقدرها ويشمّر عن ساعِدِ الجدِّ لاقتنائها المنافسون فيها. وقال الله تعالى: ﴿**وَمَا الحَياةُ الدُّنْيَا إلاّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ ولَلْدارُ الآخِرَةُ خَيْـرٌ للّذِينَ يَتَّقُونَ أفَلا تَعْقِلُون**﴾(٦). وهذه الآيةُ في معنى الآيةِ التي قبلها. وقال تعالى: ﴿**واضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الحياةِ الدُنيا كَماءٍ أنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّماءِ فاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الأرْضِ فأصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّياحُ وكَانَ الله على كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً**﴾(٧). هذه الآيةُ الكريمةُ ضربها الله مثلاً للدنيا في حين بهجتها وجمالِ نضرتها وسرعة تلوّنها وقُرْبِ استحالتها وأنها وإن طالت

---

(١) ـ سنن ابن ماجة ٢ / ١٣٧٣ ـ ١٣٧٤ (حديث رقم ٤١٠٢).

(٢) ـ المصدر نفسه ٢ / ١٣٧٣ ـ ١٣٧٤.

(٣) ـ ورد هذا الحديث في: إحياء علوم الدين ٤ / ٢٢٣.

(٤) ـ سنن ابن ماجة ٢ / ١٣٧٣ ـ ١٣٧٤.

(٥) ـ آية ٦٤ من سورة العنكبوت.

(٦) ـ آية ٣٢ من سورة الأنعام.

(٧) ـ الآية ٤٥ من سورة الكهف.

أيّامُها وتعددت أزمانُها مثلُ فصلِ الربيع منها الذي هو بهذه الصفة من حُسْنِ الرواء وسُرعة الزئال[1]، وبيده القدرةُ التامّةُ على كلّ شيء. وقال الله تعالى: ﴿**إنّما مَثَلُ الحياةِ الدُّنْيا كماءٍ أنزلْناهُ مِنَ السَّماءِ فاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الأَرْضِ مِمّا يَأْكُلُ النّاسُ والأَنْعامُ حتّى إذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَها وازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها أتاهَا أَمْرُنا لَيْلاً أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِيداً كأنْ لَمْ تَغْنَ بالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقومٍ يتفَكَّرُون**﴾[2]. وهذه الآيةُ أيضاً في معنى الآية التي قبلها وفيها مزيدٌ في المثل الذي ضَرَبَهُ الله تعالى لها. وقال النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم: «**الدُّنيا دارُ مَنْ لا دارَ له وبها يَعِيشُ مَنْ لا عَقْلَ له**»[3]. وقالَ النبيُّ صلّى الله عليه وسلم: «**آثِروا ما يَبْقى على ما يفنى فإنّ الدُّنيا دارُ فَناءٍ والآخرة دارُ بقاء**»[4]. وقال النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم: «**آثِرُوا الآخِرَةَ على الدُّنيا**»[5]. وهذا الحديثُ بمعنى الذي قَبْلَهُ لتضَمُّنه الأمرَ بإيثار[6] الآخرة على الدنيا، وهو معنى الزهدِ فيها والرغبةِ عنها لإيثار[7] الآخرة والرغبة فيها. وقال النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم: «**ازْهَدُوا فيما في أيدي الناسِ يُحبّكم الناسُ وازهَدوا في الدُّنْيا يحبّكُمُ الله**»[8]. وهذا أمر منه صلّى الله عليه وسلّم بالزهد مُطْلقاً، ورتب على الزهد فيما بأيدي الناس حبّهم، وذلك بيِّنٌ لأن مَنْ لم يُنازِع الناسَ فيما بأيديهم بالمزاحمة لهم عليه والمنافسة لهم فيه واستشراف النفس إلى أن تملك منه ما لهم من ذلك، واستطلاع القلب على أن يحتويَ منه على

---

(١) - في الأصل: الزبال. وفي القاموس المحيط: مادة زول: زالت الشمس زوالاً وزوولا بلا همز وزئالا وزولانا: مالت عن كبد السماء.

(٢) - الاية ٢٤ من سورة يونس.

(٣) - مسند ابن حنبل ٦ / ٧١.

(٤) - مسند ابن حنبل ٤ / ٤١٢، ونسبت في محاضرة الأبرار (١ / ٩٥) لعثمان رضي الله عنه.

(٥) - لم أقع على هذا الحديث فيما وقفت عليه من المصادر.

(٦) - في الأصل: بإشارة.

(٧) - في الأصل: لإشارة.

(٨) - سنن ابن ماجة ٢ / ١٣٧٣ - ١٣٧٤ (حديث رقم ٤١٠٢).

ما قد احتووا عليه من ذلك، فإنّ حُبَّ الناس له متعيّـن، فإذا ترقّى من هذه درجةً وذلك بأن يَزْهَدَ في الدنيا التي هي أعمّ من أن يكونَ بأيدي الناس فإنه يترتّب على ذلك حبُّ الله، وهذا ظاهر فإنّ مَن تَرَكَ الدنيا التي حُبُّها رأسُ كلّ خطيئة فقد سنّى الله له مِنْ أسبابِ القُرْبِ (ص ٦٦) ما يقتضي حبَّه له، فإنّ من يسّر الله عليه الترقّي إلى مقامِ الزهد في الدنيا التي هي دار الغرور فقد يسّـر الله له جوامع الخير كلّه، وباعد عنه أسبابَ الشرّ كلّه. وقال النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم: «**الزهد في الدنيا يُريحُ القَلْبَ والبَدَنَ**»[١]. ويحقّ أن يريحَ الزهدُ في الدنيا القلبَ والبدنَ، لأنّ مَنْ صان قلبَه عن الفِكرة في هذه المُقْتَنَيات الدنيوية فقد أراحه الراحةَ الكلّية، فأحرى إذا صان بدنه عن اكتسابها أن يريحه مثل ما أراح قلبه. وقال النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم: «**أزْهَدُ الناسِ في الدنيا أقربُهم عند الله يومَ القيامة**»[٢]. ووجهُ قربِ الزاهدِ في الدنيا من الله يومَ القيامة واضح، ولذلك قال الفضيل بن عياض[٣] رحمه الله: (جُعِل الشرُّ كلُّه في بيت، وجُعِل مِفتاحُه حبّ الدنيا، وجُعِل الخيرُ كلُّه في بيت، وجُعِل مفتاحُه الزهد)*. وقال ابنُ المعتزّ: (طلاقُ الدنيا مهرُ الجنّة)[٤]. وقال الكِسائيّ الصوفيّ: (الشيءُ الذي لم يخالِفْ فيه كوفيٌّ ولامدنيٌّ ولا عراقيّ ولا شاميّ الزهدُ في الدين وسخاوةُ النفس والنصيحةُ للخلق). قال القشيري[٥]: (يعني أنّ هذه الأشياء لايقول

---

(١) ـ كنز العمال ٣ / ١٨٢ (رقم ٦٠٦٠، ٦٠٦١).

(٢) ـ لم أجد هذا الحديث فيما وقفت عليه من المصادر.

(٣) ـ أبو علي الفضيل بن عياض التميمي الزاهد المعروف المتوفى سنة ١٨٧ هـ وقد سبقت ترجمته.

* ـ طبقات الصوفية ص ١٣، حلية الأولياء ٨ / ٩١.

(٤) ـ البديع ص ٩٠ (ط ١٩٤٥م)، الصناعتين لأبي هلال العسكري ٣٠١، محاضرة الأبرار ٢ / ٢٧٧.

(٥) ـ أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري عالم في الفقه والحديث والتفسير والأدب والتصـوف، سلك طريق التصـوف، وصنف الـرسـالـة القشيرية المشهورة في رجال الـطريقة، ولد سنة ٣٧٦ هـ وتوفي بنيسابور سنة ٤٦٥ هـ (تاريخ بغداد ١١ / ٨٣، وفيات الأعيان ٣ / ٢٠٥).

أحدٌ إنها غيرُ محمودة). وقال ابراهيم بن أدهم[1]: (الزُهْدُ ثلاثة أصناف، فزُهْدُ فرْض وزهدُ فضل وزهدُ سلامة، فالزهدُ الفرضُ الزهدُ في الحرام، والزهدُ الفضلُ الزهدُ في الحلال، والزهدُ السلامة الزهدُ في الشُبُهات)[2].

وروي أنّ رجلاً دخل على أبي ذرّ[3] فجعل يقلّب بصره في بيته فقال له: يا أبا ذرّ ما أرى في بيتك متاعاً ولا غير ذلك من الأثاث، فقال: (إنّ لنا بيتاً نوجّه إليه صالح متاعنا، فقال: إنه لا بدّ لك من متاع ما دمتَ ها هنا فقال: إنّ صاحب المنزل لا يدعنا فيه). وقال أوس بن حجر[4]:

ولستُ بخابىءٍ لغدٍ طعاماً حذارَ غدٍ لِكُلّ غدٍ طعام

قال بعض العلماء: (مِنْ أفضل الزهد الزهْدُ في الرئاسة على الناس وفي المنزلة والجاه عندهم والزهد في حبّ الثناء والمدح منهم لأن هذه المعاني هي منْ أكبر أبواب الدنيا عند العلماء فالزهد فيها هو زهد العلماء بالله). وقال بعضهم: (رأينا مَنْ زَهِدَ في الدنيا كثيراً وقلّ من رأينا [من][5] زهد في الرئاسة، وذلك أن طائفةً قد تزهد في الدنيا للرئاسة، فإذا زهد في الرئاسة فهو زهد الزهد). وقال الثوري[6]: (الزهد في الرئاسة ومدح الخلق أشدّ من الزهد في

---

(١) ـ أبو اسحق ابراهيم بن أدهم بن منصور العجلي أصله من بلخ من كبار الزهاد وتوفي سنة ١٤٠ هـ. (حلية الأولياء ٧ / ٣٦٧، ٨ / ٣ ـ ٥٨، الوافي بالوفيات ٥ / ٣١٨، طبقات الصوفية ص ٢٧، وفيات الأعيان ١ / ٣١).

(٢) ـ حلية الأولياء ٨ / ٢٦.

(٣) ـ أبو ذر الغفاري جندب بن جنادة بن كعب بن سفيان بن عبيد بن حرام من أعلام الصحابة وزهادهم المهاجرين، وهو أول من حيّا النبي صلىّ الله عليه وسلّم بتحية الإسلام، قدم المدينةِ وتوفي بها سنة ٣٢ هـ في خلافة عثمان. (أسد الغابة ١ / ٣٠١، حلية الأولياء ١ / ١٥٦، المعارف ١١٠، الوافي بالوفيات ١١ / ١٩٣).

(٤) ـ ديوان أوس بن حجر ص ١١٥.

(٥) ـ إضافة من المحقق.

(٦) ـ أبو عبد الله سفيان بن سعيد الثوري (حلية الأولياء ٦ / ٣٥٦ ـ ٣٩٣، ٧ / ٣ ـ ١٤٤).

الدينار والدرهم)[١]. وكان يقول: (هذا بابٌ غامِضٌ لا يبصره إلّا العلماء)[٢]. وقال فضيل[٣]: (نقلُ الصخورِ من الجبال أيسرُ (ص ٦٧) من إزالة[٤] الرئاسة وَقَد ثَبَتَتْ في قلبِ الجاهل). وقال سفيانُ الثوريّ: (الزهدُ في الدنيا قصَرُ الأمل ليس بأكل الغليظ ولُبْسِ العَباء)[٥]. وقال بعضُهم: (ليس الزهدُ بتركِ كلّ الدنيا ولكن الزهد التهاونُ بها وأخذُ البلاغِ منها).

ولاعتماد قصدِ الزهد قال سقراط: (القُنْيةُ مخدومة ومن خدم غيرَ نفسِه فليس بحُرّ)[٦]. وفي هذا المعنى يقول أبو العتاهية[٧]:

إذا المرءُ لمْ يعتِقْ من المالِ نفسَه[٨]	تملّكــه المــالُ الـذي هو مالكُـه
ألا إنّ لي المــالَ[٩] الذي أنا مُنْفِقٌ	وليس ليَ المــالُ الـذي أنا تاركُه
إذا كنتَ ذا مالٍ فبـادِرْ به الـذي	يحِق[١٠] وإلّا استهلكَتْكَ[١١] مهالِكُه

وقال سقراط أيضاً: (القُنْيةُ ينبوع الأحزان فأقِلّوا القُنْية تقلّ همومكم)[١٢]؛ وما أعجبَ قول ذي الوزارتين الشيخ أبي عبد الله بن الخطيب رحمه الله[١٣]:

---

(١) - حلية الأولياء ٦ / ٣٨٧.

(٢) - حلية الأولياء ٦ / ٣٧٧.

(٣) - أبو علي الفضيل بن عياض، المذكور سابقاً.

(٤) - في الأصل: ازلة.

(٥) - حلية الأولياء ٦ / ٣٨٦، إحياء علوم الدين ٤ / ٢٢٨.

(٦) - الامتاع والمؤانسة ٢ / ٣٦، وورد هذا القول في ربيع الأبرار (٤ / ١٣٧) منسوباً إلى أرسطاطاليس.

(٧) - ديوان أبي العتاهية ص ٣١٧.

(٨) - في الديوان: رقّه.

(٩) - في الديوان: ألا إنّما مالي.

(١٠) - غير منقوطة في الأصل.

(١١) - في الأصل: استهلكك، وفي الديوان: استهلكته.

(١٢) - التمثيل والمحاضرة ١٧٤.

(١٣) - انظر الأبيات في نفح الطيب ٦ / ٤٨٦ - ٤٨٧.

أُلقي إلى الأيّام فَضْلَ مقادَتي فتجنبني ما بين كدٍّ وإرهاقِ
وأُتلِفُ بين الخلقِ والرزقِ فِكْرتي ولستُ بخلّاقٍ ولستُ برزّاقِ
إذا طُوِيَ الإثراءُ لي في تملُّقٍ رَضيتُ بعزِّ النفسِ في عزِّ إملاقِ

ومن أعظمِ أسبابِ الزُهدِ المعرفة بحالِ الدنيا وما هي عليه من سرعة الانقلاب، وتفريقِ[1] الأحباب، واستلابِ المال، واستحالة الحال، والتعويضِ من الجاه بالخمول، ومن السلامةِ بالابتلاء، ومن الولايةِ بالعزل، ومن الرخاء بالأزل[2]، والوقوف على ما ورد في ذمّها، وقد تقدم في ذلك من آيات الكتاب العزيز والأحاديث النبويّة بعضُ ما يُرْشدُ إلى الجليّة في القضية، وقول الأمير أبي الفضل الميكالي[3] بيّنٌ في إظهار عيبِ الغِنى الذي حاصلُه الاستكثار من الدنيا: [4]

وكلُّ غِنىً يتيهُ به غنيٌّ فمُرْتَجَعٌ بموتٍ أو زوالِ
وَهَبْ جدّي زوى لي الأرضَ طُرّاً أليسَ الموتُ يزوي ما زوى لي[5]

ويُروى أنّ عيسى عليه السلام خرج على أصحابِه وعليه جُبّةٌ من صوفٍ وكساءٌ، وتبان[6] حافياً مجزوز الرأس[7] باكياً شعثاً مصفرّ اللون من الجوع، يابسَ الشفتين من العطش، طويلَ شَعْرِ الرأسِ[8] والذراعين والساقَيْن، فقال: السلام عليكم يا بني اسرائيل، أنا الذي أنزلتُ الدنيا منزلتها بإذن الله، ولا عُجْبَ

---

(١) ـ في الأصل: تفريق (دون واو العطف).

(٢) ـ الأزْل: الضيق والشدّة (القاموس المحيط: أزل).

(٣) ـ الأمير أبو الفضل عبيد الله بن أحمد بن علي الميكالي ت ٤٣٦ هـ، وقد أسلفنا التعريف به.

(٤) ـ البيتان في التمثيل والمحاضرة ١٢٨.

(٥) ـ في الأصل: زوالِ.

(٦) ـ التبّان سراويل صغيرة يستخدمها الملاحون والمصارعون.

(٧) ـ في عيون الأخبار مجزوز الرأس والشاربين.

(٨) ـ في عيون الأخبار: شعر الصدر. وهو صواب لأنه عليه السلام كان مجزوز شعر الرأس كما تقول هذه الحكاية.

ولا فخر، أتدرون أين بيتي؟ قالوا: أينَ بيتُك يا روحَ الله؟ قال: بيتي المساجد، وطيبي الماء، وإدامي الجوع، ودابّتي رِجْلي، (ص ٦٨) وسِراجي بالليل القمرُ، وصِلاتي في الشتاء مَشَارِقُ الأرض، وطعامي ما تيسَّر، وفاكهتي بُقُولُ الأرض، ولباسي الصوف، وشعاري الخوف، وجُلَساتي الزَّمْنىٰ والمساكين، أُصبح وليس لي شيء، وأُمسي وليس لي شيء، وأنا طيّبُ النفس غنيٌّ مكفيّ، فَمَنْ أغنى وأَرْبَحُ مِنّي؟!⁽¹⁾.

ورُوِيَ عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «**من أصبحت الدنيا همَّه نزع الله عزّ وجلّ الغِنى من قلبه، وصيّر الفَقْرَ بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلّا ما كُتِبَ له، ومَنْ أصبحت الآخرةُ همَّه نزع الله الفقرَ من قلبه وصيّر الغِنى بين عينيه وأتتْهُ الدنيا وهي راغمة**»[2].

وفي التعجّبِ من موفّرِ الدنيا لغيره يقول أبو العتاهية[3]:

عجباً من مَعْشَرٍ سلفوا ... أيّ غَبْنٍ بيّنٍ غُبِنوا
وفّروا الدنيا لغيرِهِمُ ... أثبتوا[4] فيها وما سكنوا

ويُحكى أنّ في التوارةِ أوحى الله إلى الدنيا «من خَدَمَكِ فاستخدميه ومن خدمني فاخدميه»[5]، وهو قريبٌ من معنى الحديث. وقال صلّى الله عليه وسلّم: «**من أصبح والدنيا أكبرُ همّه فليس من الله وألزمَ اللهُ قلبَه أربعَ خِصال: همّاً لاينقطع عنه أبداً وشُغْلاً لايفرغُ منه أبداً وفقراً لايبلغ غناه أبداً وأملاً* لايبلغ**

---

(١) ـ وردت هذه الحكاية في عيون الأخبار ٢ / ٢٦٩.

(٢) ـ عيون الأخبار ٢ / ٣٢٧.

(٣) ـ ديوان أبي العتاهية ص ٤١٢.

(٤) ـ في الأصل: وأثبتوا، وفي الديوان: وابتنوا.

(٥) ـ في محاضرات الأدباء ٢ / ٥١٥ منسوباً إلى الرسول عليه السلام، وفي البيان والتبيين ٣ / ١٤٣، والتمثيل والمحاضرة ص ١٣ وأدب الدنيا والدين ١١٨.

* ـ في الأصل: وآمالا.

منتهاه أبداً»[1]. وذمّ بعضُ الصالحين الدنيا فقال: «دارٌ غُرِسَتْ بها الأحزان وسكنها الشيطان وذمّها الرحمن وعُوقِبَ بها الإنسان»[2]. يعني هبوط آدم عليه السلام من الجنة بذنبه. وقال عبد الله بن مسعود: «الدنيا كلُّها همومٌ فما كان مِنْها في سرور فهو رِبْح»[3]. ومّما روى العُتْبي[4] عن أبيه في وصيّة وصّاه بها «ولاتِمِلْ إلى الدنيا فإنّ الله لم يَرْضَها ثواباً لمن رضي عنه ولاعقاباً لمن سخط عليه». وقال أبو الدرداء[5] - رضي الله عنه: «من هوانِ الدنيا على الله ألاّ يُعْصى إلاّ فيها ولا يُطاع ُإلاّ بتركها»[6].

فهذا كلّه إذا تُؤمّل غايةَ التأمّل، وفُكِّر فيه بأحسن وجوه التفكُّر، فإنه يَسْتدعي الزهد، ويُرْشِد إلى احتقارِ زينةِ الدنيا وزخرفِها، ويُدني ما هي عليه من سُرْعَةِ التقلّب وعدم الثبوت. دخل أبو العتاهية على المأمون فأنشده:[7]

ما أَحَسْنَ الدُّنْيا وإقبالَها ... إذا أطاعَ اللهَ من نالَها
مَنْ لَمْ يُواسِ الناسَ من فضلِه[8] ... عرّض للإدبارِ إقبالَها

(ص٦٩) فقال له المأمون: ما أجْوَدَ البيتَ الأول وأما الثاني فما صَنَعْتَ فيه شيئاً

---

(١) - إحياء علوم الدين ٣ / ٢٠٣، كنز العمال ٣ / ٢٢٥ (حديث رقم ٦٢٦٧).

(٢) - انظر محاضرات الأدباء ٤ / ٣٨٦ - ٣٨٧ مع تقديم وتأخير.

(٣) - عيون الأخبار ٢ / ٣٣٠.

(٤) - أبو عبد الرحمن محمد بن عبيد الله العتبي القرشي، شاعر بصري مشهور، له كتاب في الأخلاق وكان هو وأبوه سيدين أديبين فصيحين، وتوفي العتبي سنة ٢٢٨ هـ (انظر: تاريخ بغداد ٢ / ٣٢٤، وفيات الأعيان ٤ / ٣٩٨، الوافي بالوفيات ٤ / ٣).

(٥) - عويمر بن مالك بن قيس بن أمية الخزرجي الأنصاري من صحابة الرسول عليه السلام عرف بنسكه وشجاعته وتوفي في دمشق سنة ٣٢ هـ (الإصابة ٥ / ١٤٧).

(٦) - في بهجة المجالس ج٢ ص ٢٨١ (ولا ينال ما عنده إلا بتركها) وكذلك في البيان والتبيين ٣ / ١٤٣، ونثر الدرّ ٢ / ٩٤.

(٧) - ديوان أبي العتاهية ٣٧٤، المحاسن والأضداد ٩٨، وورد البيتان في محاضرة الأبرار ١ / ٣١٦ منسوبين للإمام عليّ.

(٨) - في الأغاني ٤ / ٥٣: فضلها.

الدنيا تُدْبِرُ عمّن واسى[1] منها أو ضنّ بها، وإنما يوجب السماحةُ بها الأجرَ، والضنُّ[2] بها الوِزْرَ، فقال: صدقتَ يا أميرَ المؤمنين أهلُ الفضل أوْلى بالفضل، وأهلُ النقصِ أوْلى بالنقص، فقال المأمون. يا أبا ثابت* ادفع إليه عَشْـرَةَ آلافِ درهم لاعترافه بالحقّ. فلما كان بعْدَ أيّام عاد فأنشده:[3]

كم غافـلٍ أودى به المَـوْتُ   لم يأخـذِ الأُهْـبـةَ للفَـوْتِ
من لم تَزُلْ نِعـمـتُـه قَبْـلَهُ   زالَ عن الـنِـعْـمَـةِ بالمَـوْتِ

فقال له: أحسنتَ، الآنَ طبقت* المعنى. وأمر له بعشرة آلاف درهم[4].

وإنّ ما قصدت من هذه الحكاية البيتين الأخيرين، فإنّ فيهما من معنى التسليةِ عن زَوالِ النعمةِ ما لا شيء فوقه.

ومن المحقَّقِ أنّ النعمة إن لم تزُلْ بنفْسِها عن المنعَم بها عليه لا بدّ له من الموت. والمبالغة في هذا الباب لا تردّ أمثالنا ممّن ابتُلِيَ بحبّ هذه العاجلة إلى اعتدال بوجه، لغلبة ميل النفوس إليها على إيثار الحق، وقبول مقتضى العقل. ومثل قول كسرى اردشير[5] فيما كتب به إلى عمّاله من رسالة: «ولا تعدّوا هذه الحياة الدنيا شيئاً فإنها لا تبقي على أحد، ولا ترفضوها[6] مع ذلك، فإنّ الآخرة لا تتمُّ إلّا بها»[7]. ومثل قول عمر ـ رضي الله عنه: «ليسَ خَيْـرَكم

---

(١) ـ هكذا في الأصل وفي الأغاني.

(٢) ـ في الأصل: الظنّ

* يا أبا ثابت: ليست في الأغاني.

(٣) ـ انظر البيتين في ديوان أبي العتاهية ٩٤، الأغاني ٤ / ٥٣.

* ـ في الأغاني: طيّبتَ.

(٤) ـ في الأغاني: بعشرين ألف درهم. وردت الرواية في الأغاني ٤ / ٥٣.

(٥) ـ هو اردشير بن ساسان من ابنة بابك. ترجمت له في حاشية سابقة.

(٦) ـ في الأصل: تفرضوها.

(٧) ـ زهر الآداب ٢ / ٥٤٥، عين الأدب والسياسة ص ٢٨١، وتاريخ غرر السير للثعالبي ص ٤٨٢.

من عمِل للآخرةِ وترَكَ الدنيا، وعمِل للدنيا وترك الآخرة، ولكن خَيْرَكُم من أخَذَ مِنْ هذه ومِنْ هذه»[1]. ومثل قولِ الشمّاخ[2] مأخوذاً مأخذ الحِكمة[3]:

لمالُ المرءِ يُصْلِحُه فيُغْني[4] مفاخرة[5] المحبّ[6] من القَنوع

ومثل قول بعض الحكماء لابنه: يا بني احفظ المال فإن الرجل إذا افتقر اتهمه من كان يحسن الظنَّ به، فإن كان شجاعاً سُمِّيَ أهوج وإن كان جواداً سُمِّيَ مفسداً، وإن كان حليماً سُمِّيَ ضعيفاً، وإن كان وقوراً سُمي بليداً، وإن كان صَموتاً سمي عييًّاً، فالموتُ خيرٌ له من الفقر»[7]. ويشبه هذا قول خالد ابن صفوان[8]: «اطلبوا الغنى فإن الفقرَ مجمعةٌ للعيوب»[9]. ونظيره قول الآخر:[10]

---

(١) ـ عين الأدب والسياسة ص ٢٠٧، وفي بهجة المجالس ٢ / ٢٨١ منسوبة إلى حذيفة بن اليمان.

(٢) ـ هو الشماخ بن ضرار الغطفاني ويقال اسمه «مَعْقِل» شاعر مخضرم وهو أوصف الشعراء للقوس والحمر (الأغاني ٩ / ١٥٨، الشعر والشعراء ١٧٧).

(٣) ـ ورد البيت في بهجة المجالس ١ / ١٩٧، ديوان الشمّاخ ٢٢١، البخلاء للجاحظ ١٣٤، وحماسة البحتري ٢١٦.

(٤) ـ في الأصل: فيغنى.

(٥) ـ في الأصل: مفاخره.

(٦) ـ في الأصل: الحب

(٧) ـ عين الأدب والسياسة ١٤٨، بهجة المجالس ١ / ٢٠٩، عيون الأخبار ١ / ٢٣٩، محاضرة الأدباء ١ / ٥٠٣.

(٨) ـ أبو صفوان خالد بن صفوان (انظر بعضاً من ترجمته في الكامل للمبرد ٢ / ٥٥٦ ـ ٥٥٩ ط. مؤسسة الرسالة).

(٩) ـ التمثيل والمحاضرة ٣٩٥.

(١٠) ـ انظر البيتين في: عين الأدب والسياسة ١٥٠، بهجة المجالس ١ / ٢٠٩، الآمل والمأمول ٤٦ (مع بعض اختلاف)، روضة العقلاء ٢٢٦، الغيث المسجم ١ / ٢٢٠.

ألم تعلمي أن الغِنى يجعلُ الفتى سنيّاً وأن الفقرَ بالمرءِ قد يُزْري
فما رَفَعَ النفسَ الوضيعةَ كالغِنى ولا وَضَعَ النفسَ الرفيعة كالفقر

وقال أبو اليقظان: «ما ساد مملِقٌ قطّ إلّا عتبةُ بن ربيعة مُخْبِرك بأنّ السيادةَ مواد المال»[1]. وقد ذَكَرَ نظيرَ هذا المعنى ابنُ المعتزّ رحمه الله فقال[2]:

إذا كنتَ ذا ثروةٍ من غِنىً فأنتَ المسوَّدُ في العَالَمِ
وحسبُك من نَسَبٍ صورةٌ تخبِّرُ أنّك مِنْ آدمِ

وكلّ ما يندرج في هذا المعنى من الغبطة بالمال مما لم يغفل عنه، وهذا إن احتَجَجْنا به وادّعينا (ص ٧٠) أنّا نعتمده فإنّ ذلك يُفْضي بنا إلى أشدّ ما يكون من حبّ الدنيا والاغتباط بها، لتعدّينا السبيلَ الأوسط في تسبّبها، وخروجنا[3] عن الحدِّ المحدودِ في اقتنائها. وأما الكلامُ الواردُ عن عمر وما سبقه وما ردّ به في نفسه فهو الحقُّ الواضح الذي ينبغي أن يعتمده من أراد عمارة الدنيا على ما أجرى الله من سنّته في خَلْقه دونَ من برّز في الزهد وأخذ نفسه مآخذ[4] الخواصّ في الصلاح.

كما أن الكلام عن بعض الحكماء بِحفظِ المال وما بعده من ذمّ الفقر مما يمكن الجمع بينَهُ وبين طلب الزهد وإن كان بظاهره مُنافياً له، فقد تعوّذ النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم من الفقر[5] وهو رأسُ الزاهدين يدلّ ذلك على إمكان الجمع، ولكن الأوْلى المبالغةُ في الحضّ على الزُهد. فإن طَبْعَ الناسِ لاسيّما في هذه الأزمنة قد جاوز الحدّ في التناغي في إيثار العاجلةِ وتركِ الإقبال على

---

(١) ـ بهجة المجالس ١ / ١٩٨، عيون الأخبار ١ / ٣٤٣.

(٢) ـ ورد البيتان في عين الأدب والسياسة ١٥٠ غيرَ منسوبين، وفي بهجة المجالس ١ / ٢٠٨ منسوبين ليحيى بن حكم الغزال، ووردا أيضاً في ديوان ابن المعتز ٤١٤.

(٣) ـ في الأصل: وخروجها.

(٤) ـ في الأصل: مما خذ.

(٥) ـ صحيح مسلم ٨ / ٧٥ قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم **«اللهم فإني أعوذ بك من فتنة النار وعذاب النار وفتنة القبر وعذاب القبر ومن شر فتنة الغنى ومن شر فتنة الفقر. . .»**.

الآخرة. قال الله تعالى: ﴿بَلْ تحِبُّونَ العَاجِلَةَ﴾ ﴿وتَذَرُونَ الآخِرةَ﴾[1]. وإذا كان الخطابُ بهذا وارِدَ العُموم بالآيةِ فنحنُ الأحقُّ بما يُفْهَمُ منه من الإنكار وأوْلى بالدخول تحت هذه الترجمة من كثيرٍ ممّن سبقنا، حسبما أرشَدَتْ إليه الأحاديثُ الصحيحةُ الدّالةُ على انتقاصِ الخير وازديادِ الشّرّ.

وإلى ما أُشِيرَ إليه من سنّة الله في خَلْقِهِ يُرْشِدُ ما قال بعضُ السائحين قال: «قلتُ لبعض الأبْدال وقد جرى ذكرُ أكْلِ الحلال: إنكم تَقْدِرُون على أكْلِ الحلال ولا تُطْعِمونَه إخوانكم من المسلمين فقال: لا يصلح لجملةِ الخَلْق ولم نُؤمر بذلك لأنهم لو أكلوا أَكْلَهُم حلالاً لبطلت المملكةُ وتعطّلت الأسواقُ وخربت الأمصارُ ولكنّه في قليلٍ من الخَلْق وخصوص في مخصوص». أو معنى هذا الكلام. ولست بغافلٍ عن معنى قول الجمّاز[2]:

ما أقبحَ التزهيدَ من واعظٍ	يزهّد الناسَ ولا يزهدُ
لو كان في تزهيده صادقاً	أمسى وأضحى بيتَه المسجدُ
يخاف أن تَنْفَدَ أرزاقُه	والرزقُ عند الله لا ينفَدُ
الرزقُ مقسومٌ على ما ترى	ينالُه الأبيضُ والأسودُ[3]

ولكنَّه قد سَبَقَ الاعتذارُ عن ذلك في أوّل الكتاب عند الحضّ على التقوى فليتذكر له.

---

(١) ـ الآيتان ٢٠ ـ ٢١ من سورة القيامة.

(٢) ـ اسمه محمد بن عمرو بن حمّاد بن عطاء وهو ابن أخت سلم الخاسر، وكان الجمّاز صديقاً لأبي نواس، كان حلو النادرة والحكاية لذلك أصبح من جلساء المتوكل العبّاسي. توفي في حدود ٢٥٠ هـ. (انظر: قطب السرور في أوصاف الخمور لأبي اسحق ابراهيم المعروف بالرقيق النديم ص ٢٠٦، الوافي بالوفيات ٤ / ٢٩١، زهر الآداب ١ / ٢٠٥، معجم الشعراء للمرزباني ص ٤٣١، وفيات الأعيان ٧ / ٧٠، تاريخ بغداد ٣ / ١٢٥).

(٣) ـ انظر هذه الأبيات في: وفيات الأعيان ٢ / ٣٥٢ (والمقطوعة في الوفيات من ستة أبيات).

وإذا سلمت هذه المقدّمة واعتمد معها ما ورد عن النبيّ صلى الله عليه وسلّم من قوله: «**انظروا في الدنيا لمن دُونَكم* ولا تنظُروا إلى مَنْ هو فوقكم فهو أجْدَرُ ألاّ تزدروا نِعْمةَ الله عليكم**»[1] ففي الحديث الكريم لمن التزمَ العملَ بمقتضاه ما يُريحُ القلبَ والنفسَ ويمكّن الرضا والزهد. وبعد ذلك النظر، فإنه ينبغي أن يتحفّظ بالمال من إضاعته بالانقياد لدواعي الشهوات، ويرغب عن إنفاقه في وجوه السفاهات؛ فالتمحيص (ص ٧١) اللاحق من هذا الباب شرُّ التمحيصات. والأسفُ فيه يعظُمُ باعتبار ما يجرّ تَلَفُه من التياعات.

لهذا المعنى كتب البديع[2] إلى رجل يعزّيه عن أبيه: «وَصَلَتْ رقعتُك ـ أعزّك الله ـ معرّفاً بوفاة الشيخ ـ رحمه الله ـ والعزاءُ على الأعزّ رُشْدٌ كأنه الغيّ*، وقد مات الميت فليحْيَ الحيّ، والآن فاشْدُدْ على مالك بالخَمْس، فلستَ اليوم كعهدِك بالأمس[3]، قد كان ذلك الشيخ وكيلك[4]، يضحك[5] ويبكي لك، وقد موّلك ما ألّفه من سَـراه وسَيْره، وخلفك فقيراً إلى الله تعالى غنياً عن غَيْرِه، وسيعجم الشيطانُ عودَك، فإن استلانه رماك بقوم يقولون خير المال خير ما أُتلف بين الشراب والشباب، وأنفق بين الحَبابِ والأحْباب، والعيشُ من

---

* ـ في كتاب الزهد للإمام ابن حنبل: انظروا إلى من هو أسفل منكم...

(١) ـ كتاب الزهد للإمام ابن حنبل ص ٥٩، الفتح الرباني ج ١٩ ص ١٠٠.

(٢) ـ بديع الزمان الهمذاني أبو الفضل أحمد بن الحسين ت ٣٩٨ هـ صاحب المقامات. (يتيمة الدهر للثعالبي ٤ / ٢٥٦، معجم الأدباء لياقوت ٢ / ١٦١، وفيات الأعيان ١ / ١٢٧).

* ـ مطلع هذه الرسالة كما ورد في زهر الآداب للحصري ٤ / ١١٥٠:

«وصلت رقعتك يا سيّدي، والمصاب لعمر الله كبير، وأنت بالجزع جدير، ولكنك بالعزاء أجدر، والصبر عن الأحبة رشد كأنه الغيّ...».

(٣) ـ في زهر الآداب: فأنت اليوم غيرك بالأمس.

(٤) ـ في زهر الآداب: وكان الشيخ ـ رحمه الله ـ وكيلك.

(٥) ـ في زهر الآداب: تضحك.

الروح والراح[1]، والقِداح والأقداح، ولولا الاستعمال، ما أريد المال، فإن أطَعْتَهُمْ فاليومَ في الشراب، وغداً في الخراب، واليوم بآطربا للكاس[2]، وغداً واحَرَبا للإفلاس، (يا مولاي ذلك الخارجُ من العود يسمّيه الجاهلُ نقْرا، ويسمّيه العاقل فقْرا، وذلك المسْموع من الناي وهو في الآذان زَمْر وفي الأبدان قمر)[3]، وإن لم يجد [الشيطان][4] مغمزاً من هذا الوجه رماك بآخرين يمثّلون الفقرَ بين عَيْنَيْك، فتجاهد نفسك وتحاسب بطنك[5]، فقصداً بين الطريقين وميْلاً عن الفريقين، ولا مَنْعَ ولا إسراف، والبخل فقرٌ خاص[6] وضُرٌّ عاجل، وإنما يبخلُ المَرْءُ خيفةَ ما هو فيه[7]، ولله في مالك قِسْط[8]، وللمروءةِ قِسْم، فصِلْ الرحمَ ما استطعت وقدِّرْ إن أقطعت[9]، وأن يكون إلى جانب التقدير خيراً من أن يكون إلى جانب التبذير[10]، والسلام» انتهت[11]

---

(١) - في زهر الآداب: والعيش بين القداح والأقداح.

(٢) - في زهر الآداب: واليوم واطربا للكاس.

(٣) - ما بين القوسين ورد في كتاب تحسين القبيح وتقبيح الحسن لأبي منصور الثعالبي ص ١١٩ وهذا نصه: «يا مولاي ذلك المسموع من العود يسميه الجاهل نقرا ويسميه العاقل فقرا، وذلك الخارج من الناي هو اليوم في الآذان زمر، وهو غداً في الأبواب سمر» وفي زهر الآداب: وفي الأبواب سمر.

(٤) - زيادة من زهر الآداب ٤ / ١١٥١.

(٥) - في زهر الآداب: فتجاهد قلبك وتحاسب بطنك وتناقش عرسك وتمنع نفسك وتتوقى دنياك بوزرك وتراه في الآخرة في ميزان غيرك.

(٦) - في زهر الآداب: حاضر.

(٧) - ورد بعد ذلك في زهر الآداب ما نصّه:

ومن ينفق الساعات في جمع ماله   مخافة فقر فالذي صنع الفقر

(٨) - في زهر الآداب: وليكن لله في مالك قسم.

(٩) - في زهر الآداب: وقدّر إذا قطعت.

(١٠) - في زهر الآداب: فلأن تكون في جانب التقدير خير من أن تكون في جانب التبذير.

(١١) - وردت الرسالة في زهر الآداب ٤ / ١١٥٠ - ١١٥١.

وقد بان هذا الحدُّ الوسطُ الذي هو أقرب، ولعمومِ الناس أنسب، إذا تُؤمِّلَتْ مع ما سبق في الزهد من الكلام.

ولنعد إلى موضع الصورة؛ فإن كان الابتلاءُ في مالٍ تحيَّفَتْهُ الخسارة، أو طرقَتْهُ الإضاعة، أو اختلَسَه سارق، أو اعتدى عليه غاصِب، فإنّ الصبرَ والتجمُّلَ في هذا الحال من آكدِ ما يستعمله المبتلى، ولذلك يقول عليّ بن الجهم[1]:

وعـاقبـةُ الصبـرِ الجميلِ جميلةٌ ... وأفضـلُ أخـلاقِ الرجالِ التفَضُّلُ

ولا عارَ أنْ زالت عن الحرِّ نعمةٌ ... ولـكنّ عاراً أن يزولَ التجمُّـلُ[2]

والاستغناءُ بما بقي عمّا ذهب فَتْحُ بابٍ للتسلّي كبير، ومظهرُ حزمٍ للاستراحة من فقد ما رُزِىء فيه عجيب.

وكما أن الابتلاء في هذه المُقْتَنَيات من قِبَلِ الحوادث الدنيوية عظيم، واستدفاعها عنها أكيد، فكذلك الابتلاءُ فيها من قِبَلِ الحوادثِ الدينيّة[3] أعظم، واستدفاعه عنها آكد، كقضية هذا الربا الداخلِ على (ص ٧٢) كل أحدٍ في مكسوبه من أجْلِ الدراهم المغشوشةِ الجاريةِ كانت فيما سلف عن هذا الوقت

---

(١) ـ أبو الحسن علي بن الجهم بن بدر من ندماء المتوكل الخليفة العباسي، حبسه المتوكل ونفاه إلى خراسان بسبب كثرة سعايته بين الناس وسوء طبعه، وقتل في طريقه متوجهاً من بغداد إلى الشام سنة ٢٤٩ هـ (الأغاني ١٠ / ٢٠٣ ـ ٢٣٤، تاريخ بغداد ١١ / ٣٦٧، معجم الشعراء للمرزباني ص ٢٨٦، طبقات ابن المعتز ٣١٩، وفيات الأعيان ٣ / ٣٥٥ ـ ٣٥٨).

(٢) ـ انظر البيتين في ديوان علي بن الجهم ص ١٦٣ (تحقيق خليل مردم بك / بيروت، ١٩٨٠م)، طبقات ابن المعتز ٣٢١، ومعجم الشعراء ص ٢٨٦.
وورد البيت الثاني في الفرج بعد الشدة ٥ / ٦٤.

(٣) ـ في الأصل: الدنيوية.

منذ زمان يسير، ومن أجْلِ هذا الذَّهَبِ الأبيض المغشوشِ الجاري إلى الآن، فإنّ هذه نازلة كبيرة، وفادِحةٌ عظيمة، لَمْ يَسْلَمْ من شرِّها أحد، ولا أظنّه نجا منها في هذا الوطن بَشَــر، وبها تبيّن ما نقله أبو عمرو الداني[1] عن أبي هريرة عن النبي صلّى الله عليه وسلّم أنه قال: «**يأتي على الناسِ زمانٌ يأكل الناسُ فيه الربا. قال: قالوا: فالناس كلُّهم؟ قال: مَنْ لم يأكُلْه ناله من غباره**»[2]. فتأمَّلْ هذا الحديث مع الواقع في هذه الأزمنة في السِكّة، فإنه مطابق له، وفي ذلك من الابتلاء في الدين ما نسأل الله العافية منه، ونضرعُ إليه في الخلاص من معرّته، والنجاةِ من مضرّته.

وإن من أعظمِ الابتلاء العامّ الإصابة، الشاملِ العقوبة، لَهَذا الجرادَ المنتشرَ اللاحقةَ غائلتُه شرقيَّ هذا الوطن في هذا العام، الذي هو عام اثنين وخمسين وثمانِ مائة المُرْتَقَبَةَ[3] مضرَّتُه في العام المُسْتَقْبَل، عسى الله أن يكفيها بدفاعٍ من لدنه، فربّما عجزت القدرةُ البشرية عن مقاومته. وقد أطبق الناقلون على أنه من تفاوُتِ كثرته آيةٌ من آيات الله. وتبيّــن للعقول من عيثه وإضراره أنه عِقابٌ مُرْسَل، وجُنْدٌ من جنود ربّك، التي لا يعلمها إلّا هو، مسلّط. فتحدّثَ أهلُ وادي آش[4] وحصون سندها، وأهل بسطة[5] وحصون حفرتها، وأهل بيرة[6] ووادي منصورتها[7]، أنه هالتهم كثرتُه، وقطعوا بإعواز مدافعته، وجزموا بالعجز

---

(١) ـ هو أبو عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان بن سعيد الأموي الداني نسبة إلى مدينة دانية في الأندلس، ولد سنة ٣٧١ هـ وألف كتباً مشهورة في التجويد والقراءات منها كتاب المقنع وكتــاب التيسير، توفي بدانية سنة ٤٤٤ هـ (انظر: نفح الطيب ٢ / ١٣٥، ومعجم الأدباء ١٢ / ١٢٤).

(٢) ـ انظر سنن النسائي ٧ / ٢٤٣، ومسند ابن حنبل ج٢ ص ٤٩٤.

(٣) ـ في الأصل: المرتنبة.

(٤) ـ بالاسبانية Guadix وتقع إلى الشرق من مدينة غرناطة.

(٥) ـ بالاسبانية Baza وتقع إلى الشمال الشرقي من مدينة غرناطة.

(٦) ـ بالاسبانية Vera وتقع شمال شرقي مدينة المرية.

(٧) ـ بالإسبانية Gueyas de Almanzora وهي مجاورة لبيرة إلى الشمال الشرقي من المرية.

عن مكافحته، ورقبوا منه في حال مروره من مغابن الأرض، حيث ذرأ[1] السابقُ لعامهم هذا نسلَه، وخلف[2] من قرارات الصعيد[3] مستودع . . . .[4]، فكانت تلك الفجاج الفِيحُ تموجُ بهم مَوْجاً، وما على وجه الأرض من عشب أو نبات يُسْتَأْصَلُ بسارحه أكلاً، وهي ترجف تلقاءَ مثارات الحرث، وأخمال الاعتمار، ومنابت الزرع، ومطارح البذر، إلى أن شارف انتسافه، وهو لا يُبقي ولا يَذَر مما سيقه[5] من العشب، ومرّ عليه من النبات كثيراً ولا قليلاً، وإنما يَذَرُ الأرضَ بعده جرداء كأنها لم تنبت في عامها خضرا. فهنا انقسم المبتلون به إلى قسمين: فمِنْ آخذٍ بالحزم ممتثلٍ في دفعِ هذا الحيوانِ المؤذي نَدْبَ الشرع، كأهلي بسطة وأهل أُشْكَر[6]، فإنهم أخذوا في دفْعِ هذا الحيوان بأقصى العزم، شمّروا في قتله ودفعِ أذاه عن ساعد الجدّ، فخدّوا له أخاديد اضطروه إلى الهُوِيّ فيها، ودكدكوا عليه بالأرجل، وألجؤوه[7] إلى الأنهار المقمعة بالماء[8]، ثم يستخرجون ما احتمله تيارُها بغرابِلِ الزرْع، فيطرحونها في تلك الأخاديد، (ص ٧٣) سالكين فيه سبيلَ ما اضطروه إليه من دَوْسِهِ بالأرجل، وإهلاكه بما أمكن من حَثْوِ التراب عليه، وبما يناسب ذلك، وتراكم عندهم من ذلك المدوس بالأقدام أكوامٌ تُغوليَ في أثمانها للتدمين[9]، فبلغت زهاء أربعة آلاف حِمْل بالتخمينِ والحَدْسِ المأخوذ فيها بالاحتياط، حَسْبَما ثبتَ بذلك رسمٌ شرعيٌّ

---

(١) ـ ذرأ الأرض: بذرها (القاموس المحيط: ذرء).

(٢) ـ في الأصل: حلف.

(٣) ـ الصعيد: وجه الأرض، والقرارات جمع قَرارة وهو المطمئن من الأرض.

(٤) ـ فراغ في الأصل مقدار كلمة واحدة.

(٥) ـ هكذا في الأصل.

(٦) ـ بالإسبانية Huescar وتقع هذه البلدة شمال بلدة بسطة وإلى الشمال الشرقي من مدينة غرناطة.

(٧) ـ في الأصل: وألجوه.

(٨) ـ لها منافذ يجري من خلالها الماء.

(٩) ـ التدمين: سرقنة الأرض أي تسميدها.

شهدَهُ العدول، وورد على الحضرة تحت خطاب مستخلِف قاضيها، فكان في ذلك عبرةٌ لمن شاهده او سمع به. ومثلُ ذلك كان الواقع بأُشْكَرِ، فقد ورد من قائِدِها تعريفٌ يتضمن أنّهم فتحوا لقتلها أربعاً وعشرين ساقية اخرى حاجزة لها دونه ثم يقتلونها بغرابيل الزرع كما تقدم عن أهل بسطة، ولا يزالون كذلك إلى أن تغلبهم وتجوزَ الساقيةَ راجعةً إلى منابت الزرع، وهم ينتقلون أمامها إلى أن تمّ قتلُهم لها على رأسِ الرابعة والعشرين من السواقي، وإذ ذاك كفى الله شرَّها، وتمَّ - على ضعْفِ هؤلاء المدافعين لها - قتلُها. ومِن مُلْقٍ باليد مستسلِمٍ للعجز كأهلِ وادي آش وسَنَدِها وأهل بيرة وما يرجع إليها وكثيرٍ من أهل وادي المنصورة وبعض حصون بسطة فإنهم استكثروها وألقى الشيطانُ في قلوبهم أنّها جندُ الله الذي لا يُدافَع، فكادت تستأصِلُ جُلَّ الأقوات وتُلْحِقُ الأحياءَ من عدم الطُعمةِ بالأموات، إلّا أنّ لُطْفَ الله للجميع مُتعرَّف، وفَضْلَه مُتَعَوَّد، والأوّلون جنوا ثمرة أسبابهم الظاهرةِ المشروعية، والآخرون لا بدّ أنْ تداركهم لُطْفٌ من الله أَسْأَرَ [١] لهم مِنْ مُزْدَرَعِهِمْ يسيرا يتبلّغون به إلى ما شرعوا فيه من عمل الذرة والاستكثار من عمل ازدراع التلف[٢] فضلاً من الله ونعمة وهذه عريقة في هذه الصورة الثانية، وما يُرْتَجى من الله دفعه من المتوقَّعِ في السنةِ المقبلة بالحضرةِ وجهاتِها متّجه التسطير في الصورة الأولى، وعسى الله أن يمنَّ بدفعه ويهيء الأسبابَ الموجبة لِصَرْفه.

ونرجِعُ إلى ما كنّا بصدده من سرْدِ الحكايات في هذا المعنى المبوّب له، قال الواقدي[٣]: كنتُ خياطاً[٤] بالمدينة، في يدي مائةُ ألفِ درهم أُضارِبُ

(١) - أسأر: أبقى (القاموس المحيط: سأر).

(٢) - كذا في الأصل ولعلها: التالف.

(٣) - أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد السهمي (١٣٠ - ٢٠٧هـ) له مؤلفات تاريخية، وكان مقرباً من الخليفة المأمون، (مروج الذهب للمسعودي ٤ / ٣٣، تاريخ بغداد ٣ / ٣، معجم الأدباء ١٨ / ٢٧٧، ترتيب المدارك للقاضي عياض ١ / ٤٠٤ - ٤٠٧، وفيات الأعيان ٤ / ٣٤٨ - ٣٥١).

(٤) - في تاريخ بغداد: حناطا (أي يتاجر بالحنطة).

بها، فتَلِفَتْ الدراهم، فشخصْتُ إلى العراق، فقصدتُ يحيى بن خالد[1] فسألني من أنت[2] وما قضيَّتُك[3]؟، قال: فأخبرته، قال: فأمر لي بأربعةِ آلافِ دينار ومائتيْ ألفِ درهم وقال: لتقضِ دَيْنك بمائة ألف وتُصْلح شأنَك بالباقي، ثم قال: يا غلام اعطِهِ الدارَ الفلانيّة وافرش له الفرشَ الفلانيّ، وقال: الزمني فكُنْ في داري فقلت: أعزّ الله الوزير لو أذِنْتَ لي بالشخوص إلى المدينة لأقضيَ الناس أموالَهم وأعودَ إلى حضرتك كان ذلك (ص ٧٤) أرفقَ لي؟ فقال: قد فعلت، وأمر بتجهيزي، فشخصت إلى المدينة فقضيتُ دَيْني ثمَّ رجعتُ إليه فلم أزَلْ في ناحيته»[4]. انتهى.

وهذا مِنْ جميلِ صُنْعِ الله في جَبْرِ ما ضاع بأفضلَ منه، وخلفِ ما فاتَ بأحسنَ منه.

ولِمَنْ سَمَتْ مقاماتُهم في الفضلِ والصلاح أحوالٌ في عدم الاكتراث لفقد هذه القنية الخسيسة تَعْجَبُ بحقٍّ منها، وفي الوقوف عليها تخفيفٌ على من ابتُلِيَ من ذلك بشيء يعظمُ وَجْدُهُ بفقده.

كما رُوِيَ أنّ الربيع بن خُثَيْم[5] سُرِقَتْ له فرسٌ وهو يصلّي قيمتُها عشرون

---

(١) ـ هو أبو الفضل يحيى بن خالد البرمكي وزير هارون الرشيد، ولما قتل الرشيد جعفر بن يحيى البرمكي ونكب البرامكة حبس يحيى في الرافقة على شاطىء الفرات وظل يحيى في الحبس حتى مات سنة ١٩٠ هـ (انظر: تاريخ بغداد ١٤ / ١٢٨، مروج الذهب ٣ / ٣٩٣، وفيات الأعيان ٦ / ٢١٩ ـ ٢٢٩).

(٢) ـ هناك زيادة في تاريخ بغداد مقدار أربعة أسطر.

(٣) ـ في تاريخ بغداد: قصتك.

(٤) ـ انظر القصة مفصلة في تاريخ بغداد ٣ / ٤ ـ ٥.

(٥) ـ هو أبو يزيد الربيع بن خثيم واختلف في اسمه، فبعضهم يقدم الياء على الثاء، كان من النساك وأهل البيان وأورد له الجاحظ في كتابه البيان والتبيين عدة أقوال (البيان والتبيين ٢ / ٨) وكذلك فعل صاحب العقد وصاحب عيون الأخبار. توفي سنة ٦٣ هـ (انظر ترجمته في حلية الأولياء ٢ / ١٠٥، تهذيب التهذيب ٣ / ٢٤٢، صفة الصفوة ٣ / ٥٩).

ألفاً، فلم يقطع صَلاته ولا انزعج فأتاه قومٌ يُعَزُّونه، فقال: كنتُ فيما هو أحبُّ إليّ منها. فجعلوا يَدْعونَ على السارِق، فقال: لا تفعلوا فإنّي قد جعلتُها صدقة، قيل: فلو جاءك بها؟ قال: لم أكن لآخذها، فإني كنتُ قد أحللْتُها له[1].

وسُرِقَ إزارُ سفيانَ الثوريّ[2] في الحرم، فجعل يبكي، فقيل له: ممّ بكاؤك؟ فقال: شفقةً على آخِذِه في الوقوف معه غداً بين يديْ الله تعالى، ثم قال: اللهم استُرْنا في الدنيا والآخرة واجعلْهُ منّي في حِلّ. انتهى.

ونمطُ هؤلاء نمطٌ عالٍ، وأفعالُهم غيرُ متّفقةٍ بما عندنا مِن أفعال، وحسبُنا أن نتبرَّكَ بهم وأنْ ندعوَ الله أن يصلَ شَبَبَنا بسَبَبِهم. ومن آكدِ ما يجبُ على من ابتُلي بشيءٍ من هذه التمحيصات عدمُ التشكّي من ذلك؛ فإنّ التشكّي من باب عدمِ الرضا. وقبيحٌ بالعبدِ أن يُكثِرَ التشكّيَ بربّه، ويبوحَ بسرّه لِمَنْ لا يَقْدِرُ على كشفِ كَرْبِه، ولذلك يقول ابنُ جُبَيْر[3]:

عليكَ بكتمانِ المصائبِ واصطبِرْ عليها فما أبقى الزمانُ شَفيقا
كفاكَ من الشكوى إلى الناسِ أنَّه يسرُّ عدوّاً أو يَسُوءُ صديقا[4]

(١) ـ انظر القصة مع بعض الاختلاف في حلية الأولياء ٢ / ١١١، صفة الصفوة ٣ / ٦١.

(٢) ـ هو أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري من أهل الكوفة، محدث وزاهد مشهور، ولد في خلافة سليمان بن عبد الملك سنة ١٠٠ هـ، وتوفي بالبصرة سنة ١٦١ هـ (انظر الفهرست ٢٨١، المعارف ٤٩٧، حلية الأولياء ٦ / ٣٥٦ ـ ٣٩٣، ٧ / ٣ ـ ١٤٤، تاريخ بغداد ٩ / ١٥١).

(٣) ـ هو الرحالة الأندلسي الشهير محمد بن أحمد بن جبير الكناني، كان من أدباء غرناطة البارعين في زمن الموحدين، ارتحل إلى المشرق وأدى فريضة الحج ثلاث مرات الأولى سنة ٥٧٨ هـ وصنف بعدها رحلته المشهورة، والثانية سنة ٥٨٥ هـ بعد أن فتح صلاح الدين القدس، أما الثالثة فانطلق اليها من سبتة بعد موت زوجته عاتكة، وقد درس على عدد كبير من علماء الأندلس والمغرب والاسكندرية والمشرق، كان مولده ببلنسية سنة ٥٣٩ هـ وتوفي بالاسكندرية سنة ٦١٤ هـ (انظر الإحاطة ٢ / ٢٣٠ ـ ٢٣٩).

(٤) ـ البيتان في الإحاطة ٢ / ٢٣٧.

ومسرّةُ العدوِّ ومساءةُ الصديقِ هو أقلُّ ما يُثْمِره التشكّي إلى المخلوق؛ وفي الذي يُلقى في ذلك يقولُ الشيخ أبو الوفاء بنُ عقيلٍ الحنبليّ أو غيرُه:

لا تَشْكُونَّ لعاذرٍ أو عاذلٍ حالَيْكَ في السرَّاءِ والضَرَّاءِ
فلِرحمةِ المتوجّعين مرارةٌ في القلبِ مثلُ شماتةِ الأعْداء

فإنْ كان مع التشكّي تأميلُ غيرِ بابِ الله في دفعِ ما لحق، ورجاءُ سوى القادرِ على كلِّ شيءٍ في صَرْف ما دَهَم، فهنالك يضِلُّ السَّعيُ ويخيبُ القصد. . .[1] (ص ٧٥) قال. . . . .[2] بن نصير: كنتُ في مجلسِ يزيدِ بن هارونَ الواسطيّ[3] وقد نَفِدَت نفقتي في بعضِ الأسفار، فقال لي بعضُ أصحابِ الحديث: مَنْ تؤمِّلُ لِما نَزَلَ بك؟ فقلت: فلاناً، كأني عَنَيْتُ يزيدَ ابن هارون. فقال: إذاً لا تُقضى حاجتُك ولا تنجحُ طِلبتُك قلت: وما عِلْمُك؟ قال: إني أجد في بعض الكُتُب أنَّ الله عزَّ وجلّ يقول: «**وعزّتي وجلالي، وارتفاعي على مكاني، لأقطعنَّ أمل كلّ مؤمِّلٍ أمَّلَ غيري باليأس، ولألبسنّه أثوابَ المذلّةِ بين الناس، ولأُقْصِيَنّه[4] من قُرْبي، ولأباعِدنّه من فَضْلي، أيؤمِّلُ غيري في الشدائدِ والشدائدُ بيدي وأنا الحيّ؟! ويرجو غيري ويطرُقُ بالبُكَرِ بابَ غيري والأبوابُ ومفاتحُ الأبوابِ بيدي وبابي مفتوحٌ لمن دعاني؟! مَنْ الذي أمّلني لنوائبه فقطعتُ به دونها؟! مَنْ الذي رجاني لعظيم جُرْمه فقطَعْتُ رجاءه؟! من الذي قرعَ بابي ولم أفتح له؟! جَعَلْتُ آمال عبادي بي متّصلة فقطعوها وجعلتُ أرجاءهم مذخورةً عندي فلم يرضوا بحفظي، وملأتُ سمائي ممّن لا يملّون من ذكري وأمرتُهم ألّا يغلقوا الأبوابَ بيني وبينَ عِبادي، فلم يثِقْ الأدنيون[5] بقولي، ألا يعلم من طرقَتْه نائبةٌ مِنْ نوائبي أنّه لا يملكُ كَشْفَها**

(١) ـ بياض في الأصل مقدار كلمتين.
(٢) ـ بياض في الأصل مقدار كلمة.
(٣) ـ أبو خالد يزيد بن هارون الواسطي السلمي ولاءً. من حفاظ الحديث، توفي سنة ٢٠٦ هـ (تاريخ بغداد ١٤ / ٣٣٧).
(٤) ـ في الأصل: ولأقضينّه.
(٥) ـ هكذا في الأصل.

إلّا مِنْ بَعْدِ إذني؟! ما لي أرى عبدي مُعْرِضاً عنّي أُعطيه بجودٍ منّي فلم يسألني، ثمّ انتزعتُه منه فلا يسألني ردّه؟! أفتراني أبتدىء بالعطيّةِ قبل المَسْألة ثمّ أُسْأَلُ فلا أجيبُ؟! يا سائلَ غيري أبخيلٌ أنا فَيُبَخِّلَني عبدي؟! أليسَ الدنيا والآخرةُ لي؟! أليسَ الجودُ والكرمُ لي؟! أليس الفضلُ والرحمةُ لي؟! أنا محلُّ الآمال فمن يُعْطيها[1] دوني؟! وما عسى أنْ يؤمِّلَ المؤمِّلون لو جمعتُ أهلَ سمائي وأرضي ثم أَعْطيتُ كلَّ واحدٍ منهم ما أمّل الجميعُ ما نَقَصَ ذلك من مُلكي، وكيف يَنْقُصُ مُلْكٌ أنا قيِّمهُ! فيا بُؤْسى للقانطين من رحمتي، ويا بؤسىٰ لمن عصاني، وتوثّب على محارمي، ولم يستحْيِ منّي» فقلت: يرحمُك الله أَمْلِ عليّ هذا الكلام، والله ما أكْتُبُ شيئاً بعده. فأملاه[2] عليّ، وما كتبتُ شيئاً بعده. انتهت.

وهذا المقام وإنْ كان كما نبّه عليه غيرَ ما مرّة أعلى مِنْ مقامِنا، فإنّ اللائق بنا أن نُلاحِظ في مثلِ هذا التسبُّبِ الإذنَ الشرعيَّ ملموحاً فيه التوكُّلُ على مَنْ بيده مقاليدُ كلِّ شيء، ومجزوماً بأن المقصودَ لمثلِ هذه النازلة لا يَمْلِكُ لنفْسِهِ ضرّاً ولا نَفْعاً فضلاً عن غيره، ولكنَّ الله شَرَعَ الأسبابَ فتُرتكَبُ مِن حيثُ الإحاجة[3] لها والإذنُ فيها، وأحوالُ القوم هي المُرْشِدةُ لقوّة القلْب في ذلك.

قال سَريُّ السَّقَطي[4]: «أصابتْني فاقةٌ شديدةٌ بمكة حتى أقمتُ تسعةَ أيّام لم أَطْعَمْ فيها، فكنتُ إذا اشتدَّ بي الجوعُ أتيتُ زَمْزَمَ فشربتُ منه لقولِ النبيّ صلّى الله عليهِ وسلّم: «ماءُ زَمْزَمَ هو لِما شُرِبَ له»[5] ثم إنّي ضَعُفْتُ عن

---

(١) ـ في الأصل: يُعْطِها.

(٢) ـ في الأصل: فأمله.

(٣) ـ هكذا في الأصل ولعلها تصحيف لكلمة: الإباحة.

(٤) ـ هو أبو الحسن سَريّ بن المغلّس السَقَطي أسلفنا التعريف به في حاشية سابقة.

(٥) ـ سنن ابن ماجة ٢ / ١٠١٨ (حديث رقم ٣٠٦٢).

الطواف، فبينا أنا واقفٌ (ص ٧٦) مع حائطٍ إذا بأسودَ متّزراً بخَيْشَةٍ، على أكتافه نصفُ عَباءَة، فقال لي: أبو تراب أنتَ أم سَريّ؟ قلت: بل سَرِيّ، قال: ما تقولُ إنْ بَعَثَ الله عَزَّ وجَلّ الريحَ فلم تَدَعْ على الأرض عَيْناً تطرِفُ غَيْـرَك ما كنتَ تَصْنع؟ قال: كنت أطوفُ حولَ هذا البيت بتسبيحٍ لله عزّ وجلّ وتقديس، قال: فَبَعَثَ الله بريحٍ ثانيةٍ فأتلف كلَّ مصالِحهم ما كنتَ صانعاً في المضمون؟ قلت: أرجِعُ فيه إلى الضامِن. قال: فكُنْ الساعَة كما تكونُ في ذلك الوقت. ثم غابَ عنّي فلم أَرَه، فذهب عنّي ما كنتُ أجِدُه من جوعٍ وعطشٍ وتعب، فلم أزَلْ أطوفُ ليلتي كلَّها إلى الصباح ولا أجد أَلَمَ ذلك». انتهت.

وهذه الحكاياتُ عن أمثالِ هؤلاء السادة كما نبّه عليه في غير موضع مِنْ تعاليها عن أحوالنا وما ينقل من ذلك عن أرباب الدنيا المنغمسين في تربها[1] هو اللائق بنا.

ومن أعجبِ ما حُكِيَ في تكميلِ قَصْدِ مَنْ فاته شيءٌ مِنْ زُخْرُفِ هذه الدنيا الغَرور ومتاعِها القليل ما جَبَر الله على الرشيد من خاتَمه الذي كان أبوه قد وَهَبَهُ إيّاه وهو الملقّب بالإسماعيليّ، فَحَسَدَهُ عليه أخوه الهادي، ورام أَخْذَه منه قهراً، فرماه في دِجلةَ بمَشْهَدٍ من الفضلِ بن الربيع،[2] ثم لمّا أَفْضَت إليه الخلافةُ طَلَبَهُ له الغوّاصون فأخرجوه بعد عَجْزِهم عن إخراجه لأخيه، وستأتي الحكايةُ بكمالِها في الصورةِ بعد هذا[3]، لكونِ ذلك المحلّ أنسبَ إليها فيما يختصُّ منها بالهادي، وهذا المحلّ أنسب لما يختصُّ بالرشيد منها لِما مَنَحه

---

(١) ـ هكذا في الأصل ولعلها: ترفها.

(٢) ـ هو أبو العباس الفضل بن الربيع بن يونس من وزراء الرشيد وهو الذي سعى بالبرامكة عند الرشيد حتى نكبهم وذلك عندما عجز الفضل عن إدراك المنزلة التي بلغها هؤلاء البرامكة عند الرشيد، وتوفي سنة ٢٠٨ هـ(انظر ترجمته في: تاريخ بغداد ١٢ / ٣٤٣، البداية والنهاية لابن كثير ١٠ / ٢٧٤، وفيات الأعيان ٤ / ٣٧ ـ ٤٠).

(٣) ـ سوف يأتي تفصيل هذه الحادثة في الصفحة ١١٩ من الأصل المخطوط.

الله من تأتّي قَصْدِه وتسنّي غَرَضِه في جَبْرِ ما فاته بعينه وعَوْدَتِه ليده بعد خروجه عنها[1].

ومما يُشْبه ذلك أن الأميرَ يمينَ الدولة[2] ركِبَ ببلْخ إلى المُتَصَيَّد، وتعرّضَ له مُسْتَمْنحٌ[3] من أهلِ بُخارى يدعو ويَبْـرُم، وكان يَضْجَرُ بأمثالِه، فأمر بأن يُعْلى بالمقَارِع، واتّفقَ أن حرّكَ يَدَه، فَسَقَطَ الفصُّ من خاتَمِه، وذلك بمرأى من البخـاريّ المصفـوع، فتربَّصَ مُرورَ المَركَبْ، ثم جاءَ ورَفَعَ الفصَّ من الطريق، ووقع بَصَرُ الأميرِ على الخاتَمْ بعدما انصرف، فأمر بطَلَب الفصّ، وشدّد فيه، ثم ركب من الغد، وقد وقف له البخاريُّ في موقِفه بالأمس، وعاد إلى إضجارِه، فأمر بشرخ * رأسِه بالدّبابيس[4]، فقال البخاريّ: إن كنت غَيْرَ معطي شيءٍ من مالِكَ فخُذْ ما معي من مَتَاعِك. وناوَلَهُ الفَصَّ، فبهت له، وسأله عنه، فأخبره بالقصّة، قال: قد أرغَمَني الله بك. وأمر بثلاثمائة دينار، فأُحْضِرَت، وقال: خُذْها ولا تَشْكُرْني عليها، فليسَتْ بعطيّتي، إنما هي من عندِ الله، ولو كانت إليّ ما أعطيتُك منها واحداً». انتهت[5].

وفي آخر هذه الحكاية بالنسبة إلى البخاريّ المُلحّ في الطلب (ص ٧٧) ما يُشْبِهُ ما يأتي بعد هذا في الحكايةِ عن القائد رضوان النَّصريّ[6] ـ رحمه الله، وما يأتي في الحكاية بعدها في قضية الهُبَيْرِيّ أو الزبيري[7] ـ على الخلاف

---

(١) ـ انظر الحكاية في «كتاب الجماهر في معرفة الجواهر» للبيروني ص ٦١ ـ ٦٢.

(٢) ـ في كتاب الجماهر: أمين الدولة.

(٣) ـ في كتاب الجماهر: مستميح.

* ـ في كتاب الجماهر: بشدخ.

(٤) ـ الدبابيس: المقامع، والمقمعة خشبة يضرب بها الإنسان على رأسه. (القاموس المحيط: دبس، قمع).

(٥) ـ وردت هذه الحكاية في كتاب الجماهر في معرفة الجواهر للبيروني ص ٦٤.

(٦) ـ انظر لاحقاً ص ٨١ من الأصل المخطوط.

(٧) ـ انظر لاحقاً ص ٨١ ـ ٨٣ من الأصل المخطوط.

في ذلك ـ حسبما يأتي إن شاء الله، وأوّلُها شبيهٌ بقضيّة الرشيد في جَبْرِ ما ضاع له.

وأعجبُ من هذا ما حكاه بعضُهم أنَّ رجلاً من أهل فراوة يُسَمّى أحمد ابن الحسن اليزيدي، كان مُولَعاً بالشراب، خالعاً عِذارَهُ فيه، وأنّه شربَ ذات ليلة مع أصحابه في رَبَضِ الجُرْجانيّة. بخوارزم، ونزل[1] الفصُّ من خاتَمه هناك، وهو لا يشعر به إلى الغد، وقد نَسِيَ الموضِع، وأتى على الحديث سنتان، فدُقَّ عليه بابُه ليلاً، وقيل: إنّ الفقيهَ الإِخْشيديَّ الخطيبَ أنْفَذَ إليك هذا الفصّ. وإذا به فصُّ خاتَمه المفقود. فغدا إليه وسأله عنه، وكان لذلك الفقيه عِدّةُ أتاتين[2] يشوي فيها اللّبنات آجُرّاً، فقال: كنتُ واقفاً عند الأتّون، وحاملو[3] اللبن ينقلونها من الظهور إلى الأرض، فوقَعَتْ من يد أحدهم لبنة فظهر من منكَسَرها هذا الفصّ فعرفتُه من اسمِك المكتوبِ عليه». انتهت[4].

وقد أعاد الله لهذا ما فَقَده مِنْ فَصِّ خاتَمه. ولعلّ من يعترض جَلْبَ مِثلِ هذه الحكاية لتخلّفِ صاحبِها بما نُقِلَ عنْه من التولُّع بالشراب، بل والتي قبلها. . . . .[5] المفقود بالنسبة إلى فاقده، ولا اعتراضَ يلزمُ من ذلك، لأنّا قد أطلقنا القولَ فيمن يَفْقِدُ ما يعزُّ عليه من قُنْيَتِه الماليّة أو الجاهيّة أو بعضِها، ثم يتداركُ الله ما لحقه من التمحيص خفيفاً كان أو ثقيلاً، بِجَبْرِ مفقودِه عليه أو ما يُغْنيه عنه، وإنما القصدُ بذلك عدمُ الإملال، وأن يكونَ الناظِرُ في الكتابِ ينتقِلُ من حالٍ إلى حال.

---

(١) ـ في الأصل: وبزر، وفي كتاب الجماهر ص ٦٤: وندر.

(٢) ـ في الأصل وفي كتاب الجماهر: أتانين، والصواب أتاتين وهي جمع أتّون وهو أخدود الجيّار والجصّاص ونحوه (القاموس المحيط. أتن).

(٣) ـ في الأصل: وحامل.

(٤) ـ انظر هذه الحكاية في الجماهر في معرفة الجواهر للبيروني ص ٦٤ ـ ٦٥.

(٥) ـ بياض في الأصل مقدار كلمة.

ومن الممكن أن يكونَ فاقداً مثالَ هذه الأشياء التي يكون بعضُ ما تشتمل عليه يدُ المروي[1] بالتمحيص أشدَّ جَزَعاً، وأعْظَمَ أسَفاً ممن يفقِد جميع قُنْيَتِهِ[2] الماليّة إذا قلّت، ويكون هذا المقلُّ منها أعظمَ منه صبراً، وأحسنَ عزاءً، وقد لا يَبْعُدُ ذلك، ولعلّه الأكثر.

ولنعد إلى ما كنّا بسبيله، فيُروى عن إبراهيم بن الحسن أنه قال: قال رجلٌ من أصحابنا: ضاعَتْ نفقتي مرّةً وأنا في بعضِ الثُّغور، فأصابتني حاجةٌ شديدة، فبينما أنا أفكّر في حالتي إذا برجُلٍ من المتعبّدين قد أشرف عليّ وهو خارجٌ من المسجِد يقول:

تبارَكَ الله وسُبْحانَه ... مَنْ جَهِلَ الله فذاكَ الفَقِيرْ
مَنْ ذا الذي تَلْزَمُهُ حاجةٌ ... وذُخْرُهُ الله العليُّ الكَبيرْ!

انتهت.

ولا يمكن أن يكون مَنْ أمدّه الله مِنْ إرشاد وليٍّ من أولياء الله تعالى كُوشِفَ بحاله فأنشده هذين[3] البيتين منبّهاً له على اللجأ[4] إلى الله والتوكّلِ عليه، مِثْلَ من كانت (ص ٧٨) الدنيا نصْبَ عينيه يَضِيعُ له فَصُّ خاتَم في خزائنه مِنْهُ أعدادٌ كثيرةٌ في شدة الحزنِ عليه والوَجْدِ لفقده، وإنما نحن من هؤلاء. وأيْنَ نحنُ من قولِ بعضِ السَلَف: «نِعْمةُ الله علينا فيما صَرَفَ عنّا أكثرُ من نعمتِهِ فيما صَرَفَ الينا»[5]. وفي نحوٍ من هذا يقول أكثمُ بن صَيْفيّ[6]

---

(١) ـ هكذا في الأصل.

(٢) ـ في الأصل: قيلته.

(٣) ـ في الأصل: هذا.

(٤) ـ في الأصل: اللجاء. والصواب ما أثبتناه.

(٥) ـ كتاب الشكر لابن أبي الدنيا ص ٥٧ والقول منسوب إلى أبي حازم.

(٦) ـ هو أكثم بن صيفي بن رياح بن الحارث، من شعراء تميم في الجاهلية، وأدرك الإسلام، وهو صاحب أمثال مشهورة (الإصابة ١ / ١١٣، المعمّرون للسجستاني ص ٢٢، الوافي بالوفيات ٩ / ٣٤٢).

المثَل المشهورَ عنه: «لم يَضِعْ من مالِكَ ما وَعَظَكَ».[1] وفي المعنى بعينِه من أمثالِ العَرَبِ قولُهم: «خيرُ مالِكَ ما أَنْفَعَك»، كان أبو عبيدة[2] يتأوَّلُه: في المالِ يضيعُ للرَّجُلِ يَكْسَبُ به عقلاً. وقال النَّمرُ بنُ تَوْلَب[3]:

ومَتى تُصِبْكَ خَصاصَةٌ فَارْجُ الغِنى ... وإلى الـذي يَهَبُ الرغائِبَ فَارْغَبِ

والـلائقُ بأمثالنا في هذا المقام الإجمالُ في الطَّلب وملاحظةُ إباحةِ الشَّرْعِ في ارتكابِ السَّبَب، وما فوقَ ذلك فغيرُ مناسِبٍ لأقدارِنا ولا مشوبةٌ موارِدُه الصافيةُ بأكْدارنا. كما أنّ من الأكيد الوقوفَ دون الغايةِ التي تَرامى إليها معنى قولِ عُرْوَةَ بنِ الوَرْد[3]:

ومَـنْ يكُ مِثْلي ذا عيالٍ ومُقْتِـراً ... من المالِ يَطْرَحْ نفسَه كلَّ مَطْرَحِ
ليبـلُغَ عذراً أو ينـالَ غنـيمـةً ... ومُبْلِغُ نَفْسٍ عُذْرَهـا مثـلُ مُنْجِحِ

فإنّ معنى هذين البيتين[5] يقتضي من التغالي في طَلَبِ الأسبابِ ما يتضمَّنُ إهمالَ شروطِها المُعْتَمدةِ فيها عن مِثْل ذلك لازم، ورعيُ النفسِ عن الوقوعِ فيه واجب، وكثيراً ما شُوهد المُغْرِقُ في ارتكابِ السَّبَبِ إذا ذهلَ عن شرْطِه المرعيّ من الثقةِ فيه بالله وإخلاصِ التوكُّلِ عليه في التماسِ النُّجْحِ به مُعاملاً بنقيضِ مَقْصودِه، يتعدّدُ في ذلك القضايا الواقعة والكوائنُ السالفةُ والراهنة،

---

(١) ـ في بهجة المجالس ٢ / ١٨٨: لن يذهب من مالك ما وعظك. وفي الكامل للمبرد ١ / ٢٠٥: لم يذهب... الخ.

(٢) ـ أبو عبيدة معمر بن المثنى وله كتاب «المجلة في الأمثال» ذكره ابن خير في فهرسته ص ٣٤١

(٣) ـ ترجمته في الأغاني ٢٢ / ٢٧٣ وانظر البيت في الأغاني ٢٢ / ٢٨١ وبهجة المجالس ١ / ١٧٢ والشعر والشعراء ١٧٤.

(٤) ـ انظر البيتين في: بهجة المجالس ١ / ١٩٩، ديوان عروة ص ٨، نهاية الأرب ٣ / ٦٥، حماسة أبي تمام ١ / ١٧٨، الأمالي ٢ / ٢٣٤، العمدة ٤٨، المحاسن والأضداد ٩٥، عيون الأخبار ١ / ٢٣٨

(٥) ـ في الأصل: هذان البيتان.

والأمرُ لله وبيده مقاليدُه، ولن يشتمِلَ على بَسْطِ الرجاء، وحُسْنِ الانْتماء[1]، والوقوفِ عند الرِضا بالقضاء، إلّا قولُ الأضبطِ بنِ قُرَيْع[2] السَّعْديّ[3]:

لكلِّ هَمٍّ من الهُموم سَعَة | والمسْيُ والصُّبحُ لا بقاءَ مَعَهْ
قد يَجْمَعُ المالَ غيرُ آكِلِهِ | ويأكُلُ المالَ غيرُ مَنْ جَمَعَهْ
لا تحقِرَنَّ الفقيرَ علَّكَ أن تَرْكَعَ | يوماً والدهرُ قَدْ رَفَعَهْ
وصِلْ حبالَ البعيدِ ما وَصَلَ | الحبلَ وأقْصِ القَريبَ ما قَطَعَهْ
واْقبَلْ من الدهْرِ ما أتاكَ بِهِ | مَنْ قَرَّ عيْناً بعيشِهِ نَفَعَهْ

وشطرُ هذا البيتِ الأخير مما جرى مجرى المَثَلِ، وهو مُتَضَمِّنٌ لمعنى الرِضا بما قَسَم الله من المعيشة. وأمْكَنُ منه في المعنى قولُ القاضي أبي القاسم بنِ المُعافى العرنوني:

رُزِقْتُ كَفافاً لي وأَمْناً وصِحّةً | فما لِلْهُموم الطارِقَاتِ وما لي؟!
(ص٧٩)وفي الناس مِثْلي غَيْرَ أنْ ليسَ راضياً
وأحسنُ مِنْ حالي رِضايَ بِحالي

ومن وفّقه الله للقيامِ في هذا المَقام، فما يمكنُ أحسن حالةً ولا أعظم راحةً منه.

---

(١) ـ هكذا في الأصل، وربما حسن الانتهاء.

(٢) ـ في الأصل: فريع، والصواب ما أثبتناه.

(٣) ـ هو الأضبط بن قريع بن عوف بن كعب السعدي التميمي من بني سعد، من شعراء الجاهلية، وهو صاحب المثل: «بكلّ وادٍ بني سعد» ومناسبته أن الأضبط جاور ناساً فلما رأى مذهبهم وظلمهم لم يحمدهم، ورجع إلى قومه، وأرسل هذا المثل. انظر ترجمته في: بهجة المجالس ١ / ٣٦٤، الكامل للمبرد ١ / ١٧٤، زهر الآداب ٢ / ٥٦١، الأغاني ١٨ / ١٢٧، الشعر والشعراء ٢٢٥. ووردت الأبيات في الشعر والشعراء ٢٢٦، البيان والتبيين ٤ / ٤٥، بهجة المجالس ١ / ١٧٧، ١ / ٦٧٤، ١ / ٧٨٠، ٢ / ٣٠٩، الفرج بعد الشدة ٥ / ١٠، زهر الآداب ٢ / ٥٦٠، الأغاني ١٨ / ١٢٩، سمط اللآلي ١ / ٣٢٦، التمثيل والمحاضرة ٦٠، الحماسة البصرية ٢ / ٢.

ومن تأمَّلَ الوجوهَ التي يُسنّي الله منها الأرزاق، وعلِمَ أنّهُ يقدِّرُ يَسِيرَها وإن عَجزَتْ الحِيَلُ وَوَهَنَت الأسباب، فكيف لا يَقرُّ عيناً بعيشتِه؟! وكيف لا يُسَلِّمُ الأمْرَ لمن بيدِه السَّعَةُ والضِيقُ في معيشته؟. كما يحكى أنه كان فيما يُجاوِرُ عبيدَ الله بنَ يحيى بن يحيى[١] بقرطبة رَجُلٌ من شيوخِ قريش مُخْتَلِفاً إليه مُقاعِداً له يُكنَى أبا الأصْبَغ، فلما كان في سنةِ ثمانين ومائتين أخَذَتِ الناسَ مجاعةٌ عظيمة، وتوالتِ الأمطار، فأخْبَرَهُ ذلك القرشيّ قال: بقيتُ أنا وأهلي ثلاثةَ أيَّام لم نَجِدْ شيئاً يأْكُلُه ذو كَبِد، قال: فأَحْسَسْنا الموتَ، فلما كان في صبيحةِ اليومِ الرابع قال لي أهلي: «ما جلوسُك في هذا البيتِ ونحن كذا؟!، وكان لي ثلاثُ بنات، آخرُجْ واسْعَ واستجْدِ لا نموت كلُّنا جُمْلَةً» قال القرشيّ: فخرجتُ إلى اسطواني، وأغلقتُ الباب، وفكّرتُ إلى مَنْ أقصِد، إلى من أمضي، وقد يئسَتْ النفسُ مِنْ كلّ أَحَد، وأسْكَبَت السماءُ مطراً وابلاً، دامَ حيناً وشُهوراً، فبينا أنا قاعدٌ إذْ دخل عَلَيَّ مارّ[٢] عليه مِمْطَر[٣]، والمطر كأفواهِ القِرَب، فإذا بأبي مروان عبيدِ الله [بن][٤] يحيى قال: فقمتُ إليه، وقلتُ له: يا سيّدي أنتَ في مِثْلِ هذا اليوم؟! فقال: «إيّاكَ قَصْدي، بَعُدَ عَهْدي بك، وغمّني فقرُك، وأحسَبُ أن يكون دَخَلَتْ إليك الضَّيْعَةُ مما أكبّ من هذا الشتاء، وهذه عشرةُ دنانير تُنْفِقُها فيما تحتاجُ إليه، وقد أمَرْتُ طريفاً فتايَ بأن يُقْبلَ إليكَ بِحِمْلِ دقيقٍ ورُبْعَيْنِ من الزَيْت حتى يَفْتَح الله» قال القُرشِيّ: فشكرتُ الله تعالى، وشكرتُه ودعوتُ له، ثم خَرَجَ عنّي، فلم يكُنْ إلاّ أن بَلَغَ دارَه، وأتاني حِمْلُ

---

(١) ـ أبو مروان عبيد الله بن يحيى بن يحيى بن كثير الليثي، روى عن والده عن مالك بن أنس، وله رحلة دخل فيها العراق وسمع بها، روى عنه نفر كبير من العلماء منهم أبو عبد الله محمد بن عبد البر القرطبي، وكانت وفاته بالأندلس سنة ٢٩٧هـ (انظر: بغية الملتمس ص ٣٥٥، جذوة المقتبس ٢٦٨ ـ ٢٦٩، ابن الفرضي ص ٢٥، الديباج المذهب ١٤٦).

(٢) ـ في الأصل: مان.

(٣) ـ المِمْطَر: ثوب صوف يُتوقّى به من المطر (القاموس المحيط: مطر).

(٤) ـ سقطت من الأصل.

الدقيق مع غُلامهِ ستّةُ أقفزة، وغلام ثانٍ بجرّتين رُبْعَيْن من الزيت قد غطّاها بجلّ دابّته عن المطر، وأنزل ذلك كلّه في اسطواني، ثم انصرف الأعوانُ عنّي، فوقَفْتُ عند الباب، فيسَّرَ الله لي رجُلاً من جيراني، فقلت له: تلطّفْ لي في ابتياع حِمْل حَطَب وأغِثْني به، فقال لي: وأين يُوجَدُ الحَطَبُ في مثل هذا اليوم؟! فقلت: لعلّ الله ييسّره، ثم أخرجْتُ أربعةَ دراهِم من كُمّي وأعطيتُه، فلم يهبطْ إلّا يسيراً حتى صادَفَ حِمْلَ حطب، فابتاعه وأتاني به، فأنزلْتُه في الاسطوان، ثم أقفلتُ بابَ الدار، ودخلتُ إلى زوجتي وبناتي فما قدِرْن[1] على القيام إلّا بحيلة، فلما صِرْنَ معي قلتُ لهنّ: هذا رزق، فَبَدَرتْ واحدةٌ توقد النار، وأخرى تَعْجِنُ في الاسطوان، وأخرى تجعل المِقْلى على النار، حتى عُمِلَ لنا خبزٌ مغلق، فاسْتَغَثْنا به، وأكَلْنا حتى شبِعْنا، وحَمِدْتُ الله كثيراً على ما منّ». انتهت.

ومن اضطرَ من ضيقِ الحال وشدّةِ الفاقَةِ إلى مِثْلِ حالةِ هذا القرشيّ فإنّ الله لا يُضَيّعُ عبداً خلق، وهو الذي أوْجَدَ وَمَنَعَ وَرَزَقَ، وما أعجبَ ما تضمنَّتْهُ هذه الحكاية من تيسير الرزق، وتهيئةِ اللُّطف، وتدارُكِ الرَمَق بعد الإشرافِ على الهلاك، والإغاثةِ بالفَرَج بعد الإشراف على الفَوْت! وما خَلَقَ الله عند ذلك الرَّجُلِ الذي أعانه بمعروفه ونَعَشَهُ للتفقّد من الاهتمام (ص ٨٠) بحاله والملاحظةِ لأمره في مثلِ ذلك اليوم الذي تتعذَّرُ فيه المعيشةُ على مَنْ له قُوّة، ويصعُبُ فيه التصرُّفُ على مَنْ له حيلة، فسبحانَ الله ما أوْسَعَ فَضْلَه وأعمَّ جودَه! لا إله إلّا هو.

وقال أحمدُ بنُ خالد[2]: بَقِيَ ابنُ وضّاح[3] يوماً لا قُوتَ معه، فحرّكَتْهُ

(١) ـ في الأصل: محاقدين.

(٢) ـ أحمد بن خالد بن يزيد يعرف بابن الجبّاب، كنيته أبو عمر، جيّاني الأصل وسكن قرطبة، سمع من كثيرين منهم محمد بن وضاح، ألف في مسند حديث مالك ومات بقرطبة سنة ٣٢٢ هـ (جذوة المقتبس ١٢٢، بغية الملتمس ١٧٥).

(٣) ـ هو أبو عبد الله محمد بن وضاح بن بديع قرطبي الأصل كان جده بديع مولى لعبد

امرأتُه لطلبِ الرزق، ولامَتْهُ على لُزومِ البيت. قال: فخرجْتُ وقد ضاقَتْ عليّ الأرض، فقلت: إلى مَنْ أقصِد؟ فقصَدْتُ الله تعالى في المَسْجدِ الجامع، فكنتُ فيه إلى أن صلَّيْتُ العَصْر، فلما خرجتُ قلت: إن رجعتُ إلى الدارِ بغيرِ شيءٍ ضَيَّقَتْ عليّ المرأة، وفي الوقتِ فُسْحَة، فنويتُ زيارةَ إخوانٍ لي في قريةِ المرضا[1]. قال: فلما تَوَسَّطْتُ القنطرةَ إذا غلامُ صديقٍ لي ومعه دابّةٌ موقَّرةٌ بدقيق، وجرّةٌ من زيت. فقال لي: فلانٌ يقرئُكَ السلام، وقد بَعَثَ إليكَ بهذا. فحمدتُ الله تعالى، وصرتُ بذلك إلى داري». انتهى. وهذه الحكايةُ قريبةٌ من التي قبلها في المعنى، وهي في الغايةِ من طَلَبِ الرزق ممن هو بيده. وكأنّ نقيضَ هذا في المعنى قولُ ابن التعاويذي[2]، وما قاله حقّ[3]:

سَعَيْتُ إلى الغنى وجَهدْتُ نفسي ... فلم أحصلْ على غيرِ العَناءِ
فزالتْ راحةُ الفُقَراءِ عنّي ... ولم أظْفَرْ بعَيْشِ الأغْنِياءِ

والذي يحقّقُ هذا المعنى ما فيه من مخالفةِ قولِه صلّى الله عليه وسلّم: «**اتّقوا الله وأجْمِلوا في الطَّلَب**»[4]. ولا شك أنّ ما قال نقيضُ الإجمال، فبواجبٍ زالت عنه راحةُ الفقراء، ولم يظْفَرْ بعيشِ الأغنياء.

= الرحمن بن معاوية، رحل إلى المشرق مرتين كانت احداهما سنة ٢١٨ هـ وذلك من أجل الزهد والعبادة، وسمع عن عدد كبير من العلماء كان عالماً بالحديث ورعاً فقيراً زاهداً ولد سنة ١٩٩ هـ وقيل ٢٠٠ هـ وتوفي سنة ٢٨٧ هـ وقيل ٢٨٦ هـ (الديباج المذهب ٢٣٩ ـ ٢٤١، جذوة المقتبس ٩٣ ـ ٩٤، بغية الملتمس ١٣٣).

(١) ـ لم أجد لها ذكراً في المصادر ولعلها ماردة Merida

(٢) ـ أبو الفتح محمد بن عبيد الله بن عبد الله الكاتب المعروف بابن التعاويذي، كان شاعراً جزل الألفاظ عذب المعاني، وكان كاتباً بديوان المقاطعات ببغداد، عمي في آخر عمره، ولد سنة ٥١٩ وتوفي سنة ٥٨٤ هـ ببغداد. (وفيات الأعيان ٤ / ٤٦٦، معجم الأدباء ١٨ / ٢٣٥، الروضتين ٢ / ١٢٣).

(٣) ـ ديوان سبط بن التعاويذي ص ١٤.

(٤) ـ سنن ابن ماجة ٢ / ٧٢٥ (حديث رقم ٢١٤٤).

وإذا كان الابتلاءُ ممّا مَنَعَ الرزْقَ، أو وقوعَ العَزْلِ ففي مطاولة الأيّام واختلافِ قرائحِ الكرامِ ما تُهَيَّأُ به الأسباب، وتَتَفَتَّحُ به الأبواب، وإنما الرزْقُ بيد الله يُعْطيه إذا شاءَ ويمنعُه إذا شاء. قال الله تعالى: ﴿اللهُ يَبْسُطُ الرزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ ويَقْدِرُ له﴾[1] وقال الله تعالى: ﴿ما يفتحُ اللهُ للناسِ من رحمةٍ فلا مُـمْسِكَ لها وما يُمْسِكُ فلا مُرْسِلَ لهُ من بعدِه وهو العزيزُ الحكيم﴾[2].

إلى غير هذه من الآيات التي فيها الدليلُ الواضح على هذا المعنى كقوله: ﴿هَلْ من خالقٍ غيرُ اللهِ يَرْزُقُكم من السماءِ والأرْض﴾[3] وقوله: ﴿وامُرْ أهْلَكَ بالصّلاة واصطَبِرْ عليها لا نسألُكَ رِزْقاً نحنُ نرزُقُك والعاقبةُ للتَّقوى﴾[4]. وقوله: ﴿وما خَلَقْتُ الجِنَّ والإنسَ إلاّ ليعبدونِ * ما أريدُ مِنْهُمْ من رِزْقٍ وما أُريدُ أنْ يُطْعِمُونِ * إنّ اللهَ هو الرزّاقُ ذو القوةِ المتين﴾[5] فمن تأمل هذه الآياتِ بعينِ العقلِ ونظر فيها نظرَ الفِكْرِ عَلِمَ أنَّ الرزقَ بيد الله وأنه هو الذي يمنحُه ويمنعُه وهو الذي يضيّقُه إذا شاء ويوسّعه؛ فالموفَّق الرشيدُ لا ينسِبُ الفعلَ في الوجود إلاّ لله، ولا يرى لغيرِ الله في نفسه ـ فضلاً عن غيره ـ فعلاً، ولا يملك له ضُـرّاً ولا نَفْعاً، فكيف في الرزقِ الذي قد نَصَّ عليه في غير ما موضع من كتابه. إنّه هو الذي يبسُطُه ويقبضه. والواقع قد أفاد في القضيّة يقيناً لا يحتملُه النقيضُ بوجه، فأنّى يبقى للشكِّ مع هذا مدخل! كلاّ والله لولا أنّ عقولنا سخيفة، وقلوبَنا ضعيفة، ولا حَوْلَ ولا قوّةَ إلاّ بالله العليّ العظيم. وما أعْجَبَ في هذا المقام قولَ ابنِ مرجِ الكُحْل[6]:

---

(١) ـ الآية ٦٢من سورة العنكبوت.

(٢) ـ الآية ٢ من سورة فاطر.

(٣) ـ الآية ٣ من سورة فاطر.

(٤) ـ الآية ١٣٢ من سورة طه.

(٥) ـ الآيات ٥٦ ـ ٥٨ من سورة الذاريات.

(٦) ـ هو محمد بن ادريس المعروف بابن مرج الكحل شاعر أندلسي من جزيرة شقر، يقال إنه كان أمياً وكان يحتفظ بزيّ أهل البادية. وله مخاطبات مع شعراء عصره، كانت ولادته سنة ٥٥٤ هـ في شقر وبها توفي سنة ٦٣٤ هـ (انظر ترجمته في الإحاطة ٢ / ٣٤٣، نفح الطيب =

مَثَـلُ الـرزْقِ الـذي تَطْلُبُـه مَثَـلُ الـظِلِّ الـذي يَمْشي مَعَـكْ
أنـت لا تُدْرِكُـهُ متّـبِـعـاً فإذا ولّـيتَ عنـهُ اتّـبـعَـكْ[1]

(ص ٨١) ومما يؤنِسُ هنا ما سمعتُه غير ما مرّة عن بعض الشيوخ الذين أدركوا وزارة القائد رضوان النصريّ رحمه الله أنّ بعضَ أعيانِ غرناطة المرتسمين في خُطّة القيادة التي هي في العُرْف من أَوْجَهِ الرُّتَب الدنيوية، شرٌّ وقع بينه وبين الوزير المذكور أدّى إلى شَحْناء ومقاطعة، فكان بينهما في آخرِ موطن تلاقى القائدُ المشارُ إليه بالوزير المذكور أن قال له الوزير: «والله ما ترى على يديّ رِزْقاً[2] ما أبقاني الله هنا» أو كلاماً هذا معناه، فراجعه القائدُ بأن قال: «إن قُضِيَ لي برزقٍ فسيكون الخَلُّ في مناخِرِك» كلمة تقولها العامة عوضاً من قول العرب: رغمًا على أنفك. وانصرف ذلك القائد تاركاً للإلمام بالوزير المذكور والتعرّضِ لمشاركته لما وقع بينهما. وطالت المدةُ إلى أن افتقر مستوزِرُهُ لسفيرٍ فيها بينه وبين الإيالة المرينية[3]، فَرَجَحَ في نظره أن يكون ذلك القائد، لكفاية قدّرها فيه واضطلاعٍ

= ٥ / ٥٠، المغرب ٢ / ٣٢٠، ٣٧٣، ٤٥٠، وفيات الأعيان ٢ / ٣٩٦ - ٣٩٧، برنامج شيوخ الرعيني ٢٠٨، الوافي بالوفيات ٢ / ١٨١).

(١) - انظر البيتين في: الإحاطة ٢ / ٣٤٧، وفيات الأعيان ٢ / ٣٩٦، نفح الطيب ٥ / ٥٤.

(٢) - في الأصل: رزق.

(٣) - يشير المؤلف هنا إلى الدولة المرينية التي خلفت دولة الموحدين في المغرب، أسسها أبو بكر بن عبد الحق من قبيلة بني مرين الزناتية، واتخذ فاس عاصمة له سنة ٦٤٦ هـ، تزامن قيام هذه الدولة مع قيام دولة بني الأحمر في غرناطة، وكذلك تزامن سقوط الدولتين في أواخر القرن التاسع الهجري، فبينما سقطت غرناطة في يد الاسبان انتقل الحكم في فاس إلى فرع آخر من زناتة هو فرع بني وطاس، وكان المرينيون أثناء حكمهم سنداً لأهل غرناطة في حربهم ضد الاسبان، للمزيد من المعلومات عن تاريخ الدولة المرينية انظر: الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية - تأليف علي بن أبي زرع الفاسي (ط. الرباط ١٩٧٢م)، الأنيس المطرب لابن أبي زرع (نشر في فاس سنة ١٣٠٥ هـ)، العبر لابن خلدون - بيروت ١٩٥٦ - ١٩٦١م، درة الحجال لابن القاضي، الحلل الموشيّة في ذكر الأخبار المراكشية لابن

رجّحه به على من سواه، وجهد به الوزير المذكور أن يَصْرِفَه عن هذا القصد، فلم يستطع، وصمَّم في العزيمة على التوجيه عنه وإجازتِه بمالٍ عظيم له خطرٌ وبال، وإعلامه بما ارتضى له من السِفارة فوجّه عنه الوزيرَ المسمّى، وأعدّ له المالَ والكُسْوَةَ المأمورَ له بهما، واستحضر صَحْفةً[1] مملوءةً خلًّا، فلما حضر القائدُ المذكور عنده وأعلمه بما اقتضى نَظَرُ السلطان فيه ودَفَعَ له الكسوةَ والمالَ، وجعل صَحْفَةَ الخَلِّ عند أنفه يستنشِقُها إعلاماً له بأنّ ذلك كما قدّر على رغم أنفه لمّا أراد الله أن يرزقَه، فعدّها الناس من مناقب الوزير المذكور. وانصرف القائد المشار إليه وقد صدّق الله ظنه وأجمل له عاقبةَ صبره.

وليس ذلك بغريب فيمن صدقَ الوجهةَ لله وعزم التوكُّلَ عليه وأخْلَصَ في عزيمته التفويضَ إليه، فإنّ الله تعالى يقول: ﴿ومن يَتوكّلْ على الله فهو حَسْبُه إنّ الله بالغُ[2] أمرِه قد جَعَلَ الله لكلِّ شيءٍ قَدْرا﴾[3] وعلى مثل حالةِ هذا الرجل يتنزَّلُ مِثْلُ قولِ الشيخ أبي مَدْين[4] رضي الله عنه في حِكَمِهِ: «التوكُّلُ وثوقُك بالمضمون واستبدالُ الحركة بالسكون». انتهى قوله. وإذا عَلِمَ الله صدقَ عبده

الخطيب، (نشر في تونس سنة ١٣٢٩ هـ)، الاستقصاء للسلاوي (الدار البيضاء ١٩٥٤م).

(١) ـ الصَحْفة: الجَفْنة (القاموس المحيط: صحف).

(٢) ـ سقطت من الأصل.

(٣) ـ آية ٣ سورة الطلاق.

(٤) ـ هو الشيخ الصوفي الشهير أبو مدين شعيب بن الحسين الأنصاري الأندلسي، ولد سنة ٥٢٠ هـ بقرية من قرى اشبيلية، جاب مدن المغرب ورحل إلى الشرق وأدى فريضة الحج، مال إلى التصوف واشتهر بكراماته، استدعاه الخليفة الموحدي يعقوب المنصور إلى مراكش، فتوفي في الطريق على مقربة من تلمسان سنة ٥٩٤ هـ وما زال ضريحه مزاراً إلى اليوم (نفح الطيب ٧ / ١٣٦ ـ ١٤٤، نيل الابتهاج ١٢٧ ـ ١٢٩، أنس الفقير لابن قنفد (خاصّ به)، جامع كرامات الأولياء ٢ / ٣٩، تعريف الخلف ٢ / ١٨٠، البستان لابن مريم ١٠٨ ـ ١١٤).

في توجّهه بهمته إلى بابه وتعلّقه بالكُلّيةبعليّ جنابه فإنّ الله بفضله يهيء له أسبابَ اكتسابه، وييسّر له من الخير ما لم يكن قطّ في حسابه[1]. وأشبه شيء بهذه القضيّة ما حدّث به أحمدُ بن اسرائيل[2] حسبما حكاه عنه غيْر واحد قال: كنت كاتبَ محمد بن عبد الملك الزيّات[3] فقدِمَ عليه رجلٌ من ولد عمر بن هبيرة[4] يقال له ابراهيم بن عبد الله الهُبَيْريّ، فلازمه يلتمِسُ منه أن يُصرِّفَهُ في شيء يتمعَّشُ فيه. وكان ابنُ الزيات قليلَ الخير، لا يَرْعى ذماماً، ولا يُوجِب حُرْمة، ولا يحبّ أن يصطنع أحداً، فأضجره ذلك الرجلُ الهبيْريّ من طُول تردّده عليه، فدعاني ابنُ الزيّات يوماً وهو راكب فقال: قد تبرَّمْتُ بملازمةِ هذا الرجل، فقل له عنّي إني والله لستُ أوليه ولا أصرّفه، ولا له عندي شيء أنفعُه به، فقل له ينصرفْ عني، ولا يلقني البتة. قال: فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، أستحي والله أن أُلْقِيَ عنه بمثل هذا الكلام القبيح مؤملاً له قد أمّله واعتمد عليه، ثم قلت: أصلح الله الوزيرَ سيّدي كيف أقابلُ عنك رجلاً أمّلك وانقطع إليك بمثل هذا الكلام؟

---

(١) ـ في الأصل: حسابيه.

(٢) ـ أبو جعفر أحمد بن اسرائيل الأنباري الكاتب من كبار كتاب الدولة العبّاسية زمن المتوكل، خاصم القائد التركي صالح بن وصيف في حضرة المعتز، فاعتقل بسبب ذلك وعُذِّب حتى الموت (الوافي بالوفيات ٦ / ٢٤٣).

(٣) ـ هو أبو جعفر محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة المعروف بابن الزيّات وزير المعتصم، كان من أهل الأدب وعالماً بالنحو واللغة، له شعر في موضوعات شتّى. وتذكر المصادر أنه خلف ديوان رسائل جيداً، وكان ممدحاً لشعراء عصره، استمرت وزارته أيام الواثق والمتوكل، لكن المتوكل سخط عليه واعتقله وأدخله تنوراً ظل فيه حتى مات وذلك سنة ٢٣٣ هـ (انظر ترجمته في: تاريخ بغداد ٢ / ٣٤٢، البداية والنهاية ١٠ / ٢٩٥، وفيات الأعيان ٥ / ٩٤، مروج الذهب ٤ / ٤٧، ٨٨).

(٤) ـ هو أبو المثنى عمر بن هبيرة بن سعد بن عديّ الفزاري، والي العراق وخراسان زمن يزيد بن عبد الملك. امتحن بالسجن بعد أن عزله هشام بن عبد الملك سنة ١٠٥هـ لكنه هرب من السجن ولجأ إلى مسلمة بن عبد الملك فأمّنه. (الاغاني ١٥ / ١٢٨، الفرج بعد الشدة ٢ / ١٦٤).

فقال: ليس هو إلّا ما أخبرتُك ولا بُدَّ لك من أن تفعل، قلت: نعم، فلما صِرتُ إلى منزلي وَجَّهتُ إلى الهبيريّ فجاءني فقلت له: كم كنت تؤمل أن تنال بصحبة هذا أبي جعفر محمد بن عبد الملك فخذه من مالي ولا تَقْرَبْ بابَه. فقال لي: من مالك؟! من مالك؟! متعجباً (ص ٨٢) من قولي. قلت: نعم فقال: أنا أؤمّل أن أكتسب معه أكثر مما تحويه يدُك. فقلت له: يا سيدي إنّه حمّلني إليك رسالةً استحييتُ من أن أوصلها إليك، فعدلتُ بكَ عنها إلى هذا القول: قال: فهاتِ ما حَمّلك. قال: فحدّثته بها أوصاني به إليه ابنُ الزيات، قال: «قد سمعتُ منك وفهمْتُ عنك فهل أنتَ مؤدٍّ عنّي ما أقولُ لك؟» قلت: نعم. قال: «قل له قد كنتُ آتيك في صبيحةِ كلّ يوم، والله لآتينّ إليك منذ الآن في كلّ غدوة وعشيّة، فإن قضى الله لي على يديك رِزْقاً لآخذنّه منك على رغم أنفك» فرجعت إلى ابن الزيات فأعلمتُه بقول الرجل، فقال: دعه فوالله لا يرى مني خَيْراً. قال: ولازمه الـرجلُ غدوةً وعشيًا وكان إذا رآه التفت إليّ وقال: قد جاء البغيض. فمكث كذلك مُدّة. وركب ابنُ الزيات يوما إلى الواثق بالله وهو بالهاروني بِسُـرَّ مَنْ رأى[1] (وكان يوم دجن)[2] وكنت معه، فدخل إلى الخليفة، وجلستُ في بعضِ الدور أنتظِرُ خروجَه، فخرج وهو يكثر التعجُّبَ فسألتُه فقال: أنت تعرف مذهبي في هذا الرجل. قال: وكان يرى رأي المعتزلة ويقول: إنّ الأرزاقَ بالاكتساب. فقلت: وماذا أتمّ الله عليك النعمة؟ قال: دخلتُ إلى الخليفة فقال لي: على بابنا أحدٌ فنصطنِعَه؟ فلم يَخطرْ ببالي إلاّ الهبيريّ، فأمسكتُ فقال: ويحك أكلِّمُكَ فلا تجيبُني. وأعْجَلَني عن الفِكْر فقلت: على باب أمير المؤمنين رجلٌ من أعدائه وأعداء دولته[3]، وأولادِ أعداءِ سلفه ومن صنائعِ بني أميّة[4] من ولد عمر بن هبيرة.

(١) ـ الهاروني: قصر قرب سامراء (سرّ من رأى) ينسب إلى الواثق هارون ويبعد عن سامراء ميلًا واحداً (معجم البلدان).

(٢) ـ ما بين القوسين ساقط من الفرج بعد الشدة.

(٣) ـ جاءت في الأصل مكررة.

(٤) ـ في الأصل: بني الجمّة أو الجنة (دون اعجام) والصواب من كتاب الفرج بعد الشدة للتنوخي.

قال: فنصطنعُه نحن فيشكرنا كما اصطنع أباه بنو أميّة فشكرهم. قلت: إنه معدم. قال: نُغْنيه. قلت: إنّه لا معنى فيه. قال: كم ذا تدفعني عنه! أعْطِهِ الساعةَ ثلاثين ألف درهم. ثم قال: أمِنْ أهل الدراريع[1] هو أم مِنْ أهلِ الأقبية؟[2] قلت: صاحبُ قباء. قال: قلِّدْهُ الساعةَ عملاً يصلح له، وأثبت له من أهله وولده وغلمانه مائةَ رجل. فلما فرغ من كلامه قال: قل للهبيريّ ما عرَّفتك، وادفع إليه[3] ما أمر له به الخليفة وآسألْه ألّا يشكرني، فقد اجتهدتُ في دفعِ الرزق عنه فما اندفع. قال أحمد بن اسرائيل: فلما خرجتُ إلى الشارع وإذا بالهبيريّ ينتظرُ خروجَ ابن الزيات، فعرّفْتُه ما جرىٰ، فقال: لا بدّ من شُكْرِهِ على كلّ حال. وجاء ابنُ الزيّات فترجَّل[4] له الهبيريُّ وشَكَرَه فقال: ألم أقل لأحمد ابن اسرائيل أن يقول لك ألّا تشكرني؟ قال: لا بدَّ من ذلك لأنّ الله تعالى قد أجرى رزقي على يَدَيْك[5].

قال التنوخيّ في كتاب «الفَرَج بعدَ الشِدّة»[6]: «وقد حدّثني أبي رضي الله عنه بهذا الحديث بإسناد لستُ أحفظه فخَالَفَ في ألفاظ بأنْ ذَكَرَ أنّ تَرَدُّدَ الهُبَيْريّ ـ ولم يسمّه ـ كان إلى [ابن][7] أبي خالد الأحول[8]، وأنّ الرجُلَ الذي

(١) ـ أهل الدراريع يريد بهم الكتّاب أي المدنيين.

(٢) ـ أهل الأقبية: الجند والعمال.

(٣) ـ في الأصل: وادعُ الله والصواب من الفرج بعد الشدّة.

(٤) ـ في الأصل: فرحل، والصواب من الفرج بعد الشدة.

(٥) ـ انظر هذه القصة في الفرج بعد الشدة (٣ / ٢٧٥ ـ ٢٧٨) مع بعض اختلاف في اللفظ، وانظرها أيضاً في نشوار المحاضرة ٢ / ٢١١ ـ ٢١٥.

(٦) ـ الفرج بعد الشدّة (٣ / ٢٧٨ ـ ٢٨٠).

(٧) ـ في الفرج بعد الشدة فقط.

(٨) ـ أحمد بن أبي خالد الأحول وزير المأمون كان كاتباً وتقلد الوزارة سنة ٢٠٣هـ بعد [مرض] الحسن بن سهل، وظل وزيراً للمأمون حتى وفاته سنة ٢١٠ هـ. (العقد الفريد ٥ / ٣٤٣، إعتاب الكتاب ١٠٩، الوافي بالوفيات ٦ / ٣٦٩، نكت الهميان ٩٦، معجم الأدباء ٣ / ١٥، إنباه الرواة ١ / ٤١).

حمل الرسالةَ إلى الهبيريّ قَصَدَهُ إلى منزله وحَمَلَ معه ثلاثة آلاف درهم، وقال: إنّ الوزير يقولُ لك: ليس عندي تصرُّف، فخذ هذه نفقتك وسِرْ حيث شئت وأنصرِفْ عني. قال الهبيري: جعلني والله شحّاذاً، والله لا أخذتُها. قال الرسول: فغاظني، فقلت: والله ما حملني إليكَ هذا، وما المالُ إلّا من عندي، وإني استحييتُ أن أعيدَ عليك رسالته، فأردتُ أن أغرم مالاً في الواسطة أُجَمِّلُ بذلك صاحبي وأؤجرُ فيك، وأُرَفِّعُ نفسي عن قبيح الوسائط. فقال له: أحْسَنَ الله جزاءك، وبارَكَ في مالك على تأديتك رسالتَك، وأنا أرغبُ إليك أن تتفضَّلَ عليّ بأن تحْمِلَ له حرفين. فقلت: هاتِ قال: تقولُ له: والله ما لزومي لك في خاصّة نفسِك ولو تعطّلْتُ ما مررت بك، ولكنّ الله تعالى (ص ٨٣) يقول: ﴿وآتوا البُيوتَ مِنْ أبْوابِها﴾[1] وأنتَ بابُ رزقي، وأنا وأمثالي لا أُحْسِنُ إلّا هذه الصناعة، ولا بدّ من أن آتيك طالباً رِزْقي من بابه، وليس يمنعُني من ذلك استثقالُك إيّاي بالردّ، فإن قَسَمَ الله لي على يديك شيئاً أخذتُه منك وأنت راغم، وإلّا فلا أقلَّ من أن أؤذيك[2] كما آذيتني بتعطيلي. وقال فيه عن [ابن][3] أبي خالد: فصرتُ في الوقت إلى المأمون، فقال لي: آسمِ لي رجلاً اقلّده مصر قال: فأراد أن يذكر له رجلاً يعتني به يُقالُ له الزبيري[4] ليتولّى له ذلك العمل، فلِتَغَيُّظِهِ على الهبيريّ وقُرْبِ عهده به وبحديثِهِ غلِط وقال: الهُبَيْريّ. فقال الخليفة: أوَيَعيشُ هو؟ وعرّفه، وذكر له حُرْمةً وخِدْمَةً قديمة، وأن ابن أبي خالد[5] قال: لَوَيْتُهُ عنه وزهّدته فيه، وطعنت عليه بكلّ شيء، وهو يقول: لا أريد غيره أنا أعرفه بالجلادة، إلى أن قلت له: إني غلطت، وإنما أردت أن أقول الزبيري[6]، فقال لي: وإنّ غلطت فالهبيريُّ أَقْوَمُ بهذا الأمر من

---

(١) ـ الآية ١٨٩ من سورة البقرة.

(٢) ـ في الفرج بعد الشدة: أوذيك برؤيتي.

(٣) ـ في الفرج بعد الشدة: فقط.

(٤) ـ في الأصل: الزبيدي والصواب من الفرج بعد الشدة.

(٥) ـ هكذا في الأصل.

(٦) ـ في الأصل: الزبيدي، والصواب من الفرج بعد الشدة.

الزبيريّ[1]، فأنا أعرفهما جميعاً. فلما رآني قد أقمت على الدفع قال لي: أظنُّ أن لك مع الهبيريّ قصةً فاصدقني عنها. فصدقته قال: صدق والله فيما قال وقد أجرى الله رِزْقَهُ على يديْك وأنتَ راغم، اخرج إليه فولّه. قلت: إنه ضعيف ولا مالَ له ولا مؤونةَ فكيف يخرج مثلُه على مثل هذا الحال إلى عمل؟ قال: وهذا أيضاً من الرزق الذي يُـجْري الله على يديك راغماً، أطلِق له مائة ألف درهم وأخرجْه إلى عمله. قال ابن أبي خالد: فامتثلتُ ذلك رغْماً مني وأخرجتُ الرجلَ إلى عمله بعد أن أطلقتُ له مائةَ ألفِ درهم وصَلُحَتْ حالُه، وجاءه الله بالفرج بعد الشدّة. انتهت[2].

ومن تأمل هذه الحكايةَ والتي قبلها أتمَّ التأمّل، وتفكّر فيها بأكمل وجوهِ التفكّر، علم ألاّ فِعْلَ في هذا الوجود إلاّ لله، وأنّ الأسبابَ الاكتسابيّة وإن تناهت إلى الغاية، وجرت من الاستبلاغ فيها إلى حدِّ النهاية، لا تفيدُ بوجهٍ إلاّ إن كانت الأقدارُ السابقةُ في علم الله على وفقِها، وإلاّ فهي في استجلاب العكس مما قصدها أمكن، وفي عدم مساعدة مرتكبها أَبْيَن، فانظُرْ إلى هذين الوزيرين كيف أرادا أن يَصْرِفا سلطانيهما عن نَفْعِ هذين الرجلين بأقصى ما قَدِرا عليه، ولما كان الرزق لهما من الله سابقاً لم يَقْدِرا فيهما على شيء بل سنّى[3] الله لهما من الرزق على رغم أنفيْهما، ويَسَّرَ للهبيريّ منهما بحرص المشتدّ في منعه تنميةً في الرزق وبسطةً فيه، فسبحانَ الله العظيم لقد أتاهما بالرزق أقرب ما كانا منه يأسا وأبعد ما كانا[4] فيه رجاء.

وكما أمكن أن يتسبَّبَ للإنسانِ في منع رزقه بتخلُّق[5] الله المنح بذلك السبب المظنون به المنع، فكذلك يخلقُ الله المنْعَ مع توفُّر الأسباب المنتصبة

---

(١) ـ في الأصل: الزبيدي، والصواب من الفرج بعد الشدة.

(٢) ـ وردت هذه الرواية في الفرج بعد الشدة ٣ / ٢٧٨ ـ ٢٨٠ على كثير اختلاف في اللفظ.

(٣) ـ في الأصل: سمّى.

(٤) ـ في الأصل: كان.

(٥) ـ تخلّق الرزق: قدّره.

بالعادة للمنح؛ فكم من مستحفَظِ الأذمّة، مُسْتَرْعى الوسائل، متمّمةٍ له في استحقاقِه الولايةَ الأسباب، مستوفاةٍ له الشروط، مرتفعةٍ في حقه عنها الموانع، أتاه العزل أوثقَ ما كان يوليه أملاً، وأفسحَ ما كان في الثقة به رجاء! لتعلموا أنّ الله على كل شيء قدير، وأنّ الله قد أحاط بكل شيء علماً، وإنما ذلك - والله أعلم - ليحصُلَ الإيقاظُ من سِنة الغفلة في الوقوفِ مع الأسباب والذهول عن رؤية الأمور من حيث هي، فلو لم تنخرم الأسبابُ في مقتضياتها من جهة النفع والضرّ لكان[1] في ذلك للأفكار[2] القاصرة ما يثمر لها شكاً، ويوجب له في الأحكام القدرية ريباً.

وتخلُّفُ مسبّباتِ الأسباب أنموذجٌ من نقضِ العزائم الذي عرَّفَ الأعرابيَّ ربَّه حين سُئِل عمّا عرَفه به. وثمرة الصبر في هذا المعنى (ص ٨٤) غيرُ خفيّة، وقد قال أبو تمام الطائي[3]:

ما أَنْصَفَ الـزمنُ الذي بَعَثَ الهوى	فقضى عليْكَ بِلَوعْـةٍ ثم انقضى
عنـدي من الأيّامِ ما لو أنّـهُ	أضحى بشـارِبِ مُرْقِـدٍ ما غمّضا
لا تَطْلُبَنَّ الـرزقَ بعـد شماسِـهِ	فَتَـرومـه سَبَبـاً إذا ما غيّضـا
ما عُوِّضَ الصبـرَ امـرؤٌ إلاّ رأى	ما فَاتَـهُ دونَ الـذي قد عُوِّضـا

وفي تسنّي الرزقِ ممّا لا يظنّ أنه سببٌ فيه أعاجيبُ لا يخلو الوجودُ من الابداع بها، حسبما تقرّر فيما سبق من سواه. حدّث عليُّ بن الجهم[4] عن أبيه قال: أصبحتُ ذاتَ يوم وإنّي[5] في غاية الحاجة* والضيقة، لا أهتدي

---

(١) - في الأصل: لكلّ.

(٢) - في الأصل: للأمطار.

(٣) - ديوان أبي تمام ص **٣٣٩** من قصيدة في مدح أحمد بن أبي دواد.

(٤) - سلفت الترجمة له.

(٥) - في تاريخ بغداد: وأنا.

* - في تاريخ بغداد: الخلّة.

لدينارٍ ولا درهم، ولا أملِكُ إلاّ دابّةً عجفاء وخادماً جلفاء**، فطلبتُ الخادِمَ فلم أجده، ثم جاء فقلت أين كنت؟ فقال: كنتُ في احتيالِ شيء لك، وعَلَفٍ لدابتك، فوالله ما قدرتُ على شيء. فقلت: اسرُجْ لي دابّتي فأُسْرِجَتْ، ورَكِبْتُ فلما صرت في سوقِ يحيى[1] فإذا أنا بموكبٍ عظيم، وإذا الفضلُ بن يحيى[2]، فلما أبصرني قال: سِرْ. فسرنا قليلاً، وحجز بيني وبينه غلامٌ يحمِلُ طبقاً، فوقف على بابٍ يصيح بجارية لي[3]، فوقف الفضلُ طويلاً، ثم قال: سِرْ، أتدري ما أوقفني؟ قلت: إنْ رأيتَ أن تُعْلِمَني! قال: «كان لأختي جارية، وكنت أُحبُّها حبّاً شديداً، وأستحي من أختي أن أطلبها منها، فمضت* أختي لذلك، فلما كان في هذا اليوم لبّسَتْها وزيّنَتْها، وبَعَثَتْ بها إليّ، فما كان في عمري يومٌ هو أطيبُ عندي من يومي هذا، فلما كان في هذا الوقت جاءني رسولُ أمير المؤمنين فأزعجني وقطع عليّ لذّتي، فلما صرتُ إلى هذا المكان دعا هذا الغلامُ صاحبُ الطبق باسم تلك الجارية، فارتحْتُ لندائه، ووقفت».
فقلت: أصابك ما أصابَ أخا بني عامر[4]حيثُ يقول[5]:

** - في تاريخ بغداد: خلقاً.

(١) - يحيى بن خالد البرمكي.

(٢) - هو أبو العباس الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي وزير الرشيد، كانا متقاربين في المولد، ورضع كل منهما من أمّ الآخر، وكان الفضل معروفاً بكرمه وسعة جوده، ولد سنة ١٤٧هـ وتوفي بالسجن سنة ١٩٣ هـ حين نكب الرشيد البرامكة (انظر ترجمته في: البداية والنهاية ١٠ / ٢١٩، وفيات الأعيان ٤ / ٢٧، مروج الذهب ٣ / ٣٧٧، تاريخ بغداد ١٢ / ٣٣٤).

(٣) - هكذا في الأصل، وفي تاريخ بغداد دون «لي».

* - في تاريخ بغداد: ففطنت.

(٤) - هو قيس بن الملوّح المعروف بقيس ليلى أو مجنون بني عامر، وقصته في حب ليلى ابنة عمه مشهورة. انظر ترجمته في الأغاني ٢ / ١ - ٩٦، والشعر والشعراء ص ٣٥٥ - ٣٦٤.

(٥) - انظر البيتين في الأغاني ٢ / ٢٢، التسعر والشعراء ٣٦٠.

وَدَاعٍ دعا إذ نَحْنُ بالخيفِ من مِنىً فهيَّجَ أحـزانَ* الفؤادِ وما يَدْري

دعا بأسمِ لَيْلى غَيْرُها فكأنما يطيرُ بلبّي طائرٌ[1] كان في صَدْري

فقال: اكتب لي هذين البيتين. فعدلتُ لأطلُبَ ورقة أكتب البيتين له فيها، فلم أجد، فرهنت خاتمي عند بقّال، وأخذتُ ورقةً فكتبتُهما فيها، وأدركْتُهُ بها فقال: ارجع إلى منزلك. فرجعتُ ونزلت، فقال لي الخادم: اعطني خاتمك أرهنه على قوتك اليوم. فقلت: قد رهنته، فما أمسيتُ حتى بعث إليّ بثلاثين ألف درهم جائزةً وعشرة آلافٍ سلفاً لشهرين من رِزْقٍ أجراه لي». انتهى[2].

وإنّ في مثل هذه الحكاية لاعتباراً، ومحصولُها جارٍ على مقتضى قوله: **﴿الله يَبْسُطُ الرزْقَ لمن يشاءُ من عِبادِهِ ويَقْدِرُ لَهْ﴾**[3] ومقتضى قوله تعالى: **﴿نحنُ قسمنا بينهم معيشَتَهُمْ في الحياةِ الدنيا ورفَعْنَا بعضَهُمْ فوقَ بَعْضٍ دَرجات ليتّخِذَ بعضُهم بَعْضاً سُخْرِيّا ورحمةُ ربّك خيرٌ مما يَجْمَعون﴾**[2].

وأوضحُ من ذلك فيمن يُسِّرَ له الرزقُ وهُيّء له الخيرُ من بَعْدِ ما لحقه الاعتبار وأدركه الاضطرار ما ذكره الصولي[5] قال: رَفَعَ صاحبُ الخَبَرِ بمجلسِ القاضي أبي عمر محمد بن يوسف بن يعقوب بن إسماعيل بن حمّاد بن زيد[6]

---

* ـ في الأغاني: أطراب.

(1) ـ في تاريخ بغداد والأغاني والشعر والشعراء: أطار بليلى طائراً.

(2) ـ انظر هذه الحكاية في تاريخ بغداد ١٢/٣٣٤ ـ ٣٣٥.

(3) الآية ٦٢ من سورة العنكبوت.

(4) الآية ٣٢ من سورة الزخرف.

(5) ـ أبو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله بن العباس بن محمد بن صول تكين الكاتب المعروف بالصولي الشطرنجي، نادم الخليفة الراضي وكان أوّلاً يعلّمه، توفي بالبصرة سنة ٣٣٥هـ. من كتبه: الوزراء، الورقة، أخبار أبي تمام، أدب الكاتب. (وفيات الأعيان ٣٥٦/٤، تاريخ بغداد ٤٢٧/٣، معجم الأدباء ١٠٩/١٩).

(6) ـ قاضٍ بغداديّ ولد سنة ٢٤٣ هـ وتوفي سنة ٣٢٠ هـ، تقلد قضاء القضاة سنة ٣١٧ هـ (تاريخ بغداد ٣ / ٤٠١، البداية والنهاية ١١ / ١٨٣، الوافي بالوفيات ٥ / ٢٤٥).

إلى الراضي[1] أمير المؤمنين رُقْعَةً يَذْكُرُ أنّ رجلاً أَحْضَرَ مُخاصِمَه بمجلسِ القاضي أبي عمر يطلبه بمائةِ دينار فألزم القاضي المدّعى عليه اليمين، إذ لم يكن للآخَرِ بيّنة، فأَخَذَ الخصمُ الدواةَ وكتب[2]:

وإنّـي لذو حَلْفٍ فاجـر[3] إذا ما اضطررت* وفي الحالِ ضِيقُ
وهـلْ من جُنـاحٍ على مُعْسِرٍ[4] يدافِـعُ بالله ما لا يُطِيقُ؟!

فأمرَ القاضي بإحضارِ مائةِ دينار ودفعها عنه. فعجِبَ الراضي من أَدَبِ الرجلِ وكرمِ القاضي، وأمرني بالركوبِ إلى القاضي والبحثِ عن الرجل، فبحثتُ عنه أياماً حتى وجدتُه فجئتُ به إليه وأَمَرَ له بألفِ دينار وخمس خِلَعٍ ومركوبٍ حَسَن وملازمةِ دارِ السلطان، ثم قلّده الأهواز. انتهى.

وما سنّى الله لهذا المُبْتَلى بالإعْسار بعد توجّه اليمين عليه التي أفصح في بيتي شعره الطريفين أنّها (ص ٨٥) فاجرة من نحو ما سبق الإيماءُ إليه في تسنّي الرِزْقِ من حيث لا يظنّ بالسبب الذي لا يظنّ أنّه فيه سبب وبيد الله مقاليد السموات والأرض.

وقد يتعذر الرزقُ من الوجوه المعتادة لالتماسِه، وتصعب[5] الأسبابُ المأمولةُ لتسهيل شماسه، ويُسَنّيه الله من وجهٍ غيرِ معتاد منه الارتفاق ولا مألوفٍ

---

(١) ـ الخليفة العباسي أبو العباس محمد بن جعفر المقتدر ولد سنة ٢٩٧هـ وتوفي سنة ٣٢٩ هـ بويع سنة ٣٢٢ هـ (انظر تاريخ الخلفاء ٣٩٠، مروج الذهب ٤ / ٣٢٢).
(٢) ـ ورد البيتان منسوبين إلى ابن الرومي في: تحسين القبيح وتقبيح الحسن للثعالبي ص ٤٤. وانظر: سمط اللآلي ١ / ١٨٨، وشرح مقامات الحريري ١ / ٩٩، محاضرات الأدباء ١ / ٢٣١، طراز المجالس ١٢٩.
(٣) ـ في تحسين القبيح: كاذب.
* ـ في سمط اللآلي: استمحت.
(٤) ـ في تحسين القبيح: مسلم.
(٥) ـ في الأصل: ويصعب.

منه الارتزاق، كما يُحكى عن عبيد الله بن قيس الرقيّات* قال: خرجْتُ مع مصعب بن الزبير حين بلغه شخوصُ عبدِ الملك[١] بن مروان إليه، فلما نزل مصعبُ بن الزبير بمسكن[٢]، ورأى معالم الغَدْر ممّن معه، دعاني، ودعا بمال ومناطيق فملأ المناطيقَ من ذلك المال وألبسني، وقال: انطلِقْ حيثُ شئت، فإني مقتول، فقلت: والله لا أريمه حتى أرى سبيلك، فأقمتُ معه حتى قُتِل. ثم مضيتُ إلى الكوفة، فأول بيتٍ صِرْتُ إليه دخلتُه فإذا امرأة معها ابنتان لها، كأنهما ظبيتان، فرقيتُ مع درجة إلى مَشْرَبة[٣] فقعدتُ فيها، فأَمَرَتْ لي بما أحتاجُ إليه من الطعام والشراب والفرش والماء للوضوء، فأقمتُ كذلك عندها أكثرَ من حول، تقيم لي ما يصلحني. ثم تغدو عليّ في كلّ صباح، فتسألني بالصباح والحاجة، ولا تسألني من أنا، ولا أسألها من هي، وأنا في ذلك أسمع الصياح بي والجُعْل[٤]. فلما طال بي المقام، وفقدتُ الصياحَ بي، وغرِضت[٥] بمكاني، غدت عليّ يوماً تسألني بالصباح والحاجة، فأعلمتها أني قد غرِضت، وأحببت الشُخوصَ إلى أهلي. فقالت لي: نأتيك بكلّ ما تحتاجُ إليه إن شاء الله. فلمّا أمسيت، وضرب الليلُ برواقه، رَقِيَتْ إليّ وقالت: إذا شئتَ فانزل، فنزلت، وقد أعدّت راحلتين، عليهما ما أحتاج إليه، ومعهما عبد، وقد أعطت العبدَ نفقةَ الطريق، وقالت: العبدُ والراحلتان لك. فركبتُ

---

* ـ انظر ترجمته في الأغاني ٥ / ٧٣ ـ ١٠٠.

(١) ـ في الأصل: عبد الله، والصواب من الفرج بعد الشدة والأغاني.

(٢) ـ البلدة التي قتل بها مصعب بن الزبير سنة ٧٢ هـ، وآثارها ما زالت ماثلة ويسميها أهل المنطقة: خرائب مسكين، وتقع على نهر دجيل عند دير الجاثليق وبها قبر مصعب (معجم البلدان / ياقوت).

(٣) ـ في الفرج بعد الشدة: مستشرف، والمَشْرَبة ـ وتضم الراء ـ الغرفة والعِلّية والصُفَّة (القاموس المحيط: شرب).

(٤) ـ الجُعْل: العطيّة أو المِنْحة (لمن يقبض على ابن قيس الرقيّات).

(٥) ـ في الأصل: عرضت، والصواب من الفرج بعد الشدّة، وغرِضت: ضجِرْتُ ومللت (القاموس المحيط: غرض).

وركبَ العبدُ حتى طرقتُ منزلي، فقالوا: مَنْ هذا؟ فقلت: عبيد الله بن قيس الرقيّات. فولولوا، وقالوا: ما فرقنا[1] طلبك إلّا في هذا الوقت. فأقمت عندهم حتى أسحرت، ثم نهضتُ ومعي العبدُ حتى قدِمْتُ المدينة، فجئت عبدَ الله ابن جعفر بن أبي طالب عند المساء، وهو يعشّي أصحابه فجلستُ معهم، وجعلتُ أتعاجَمُ وأقول أبيار أبيار[2] (أي هات الماء)[3]. فلما خرج أصحابه وكشفت له عن وجهي. قال: ابنُ قيس؟! قلت: ابن قيْس، جئتُ عائذاً بك. فقال: ويحهم ما أجدَّهم في طلبك وأحرصَهم عليك![4]، ولكنّي سأكتُبُ إلى أمّ البنين بنتِ عبد العزيز بن مروان، فهي زوجةُ الوليدِ بن عبد الملك، وعبدُ الملك أرقُّ شيءٍ عليها، فكتب إليها يسألها أن تشفع إلى عمّها، وكتب إلى أبيها كتاباً يسألُه أن يكتبَ إليها يسألُها الشفاعة. فدخلَ عليها عبدُ الملك كما كان يفعل، وسألها هل من حاجة؟ فقالت: نعم، لي حاجة. فقال: قُضِيَتْ كُلُّ حاجةٍ لك إلّا ابنَ قيس الرقيّات. فقالت: لا تستثْنِ عليّ شيئاً. فنفخ بيده فأصاب وجهها[5]. فوضعت يدها على خدّها، فقال لها: بنيّتي ارفعي يدك، فقد قُضِيَتْ كلُّ حاجةٍ لك، وإنْ كان ابنَ قيس الرقيّات. فقالت: فإنّ حاجتي ابن قيس الرقيّات تؤمّنُهُ، فقد كتب إليّ أبي يسألُني أن أسألَك ذلك. فقال: هو آمِن، فَمُريه[6] ليحضر مجلسي العشيّة. فحضر ابن قيس وحضر الناس حين بلغهم مجلس عبد الملك. فأخبره[7] الإذن، ثم أذِنَ للناس، وأخّر إذنَ

---

(١) ـ في الأغاني: فارقنا.

(٢) ـ في الفرج بعد الشدة: بنارينا وأي طيّار، وفي الأغاني: يار يار، ابن طيّار، ولم يترجما معناها. و «يار» كلمة فارسية معناها الصاحب والمعين، وابن طيّار أي ابن جعفر الطيار بن أبي طالب.

(٣) ـ ما بين القوسين لم يرد في الأغاني ولا في الفرج بعد الشدّة.

(٤) ـ في الأغاني: وأحرصهم على الظفر بك.

(٥) ـ في الأغاني: خدّها.

(٦) ـ في الأصل: فمر به، والصواب من الفرج بعد الشدّة والأغاني.

(٧) ـ في الأغاني: فأخّر.

ابن قيس حتى أخذوا مجالسهم، ثم أذِنَ له، فلما دخل عليه قال عبدُ الملك: يا أهلَ الشام، أتعرفون هذا؟ فقالوا: لا. قال: هذا ابنُ قيسِ الرقيّات الذي يقول[1]:

كَيْفَ نومي على الفِراشِ ولمّا ... تَشْمَلِ الشامَ غارةٌ شَعْواءُ؟!
تُذْهِلُ الشيخَ عن بنيه وتُبْدي ... عن حزام[2] العَقيلةِ العَذْراءِ

فقالوا: يا أميرَ المؤمنين، اسقِنا دمَ هذا المنافق. قال: الآن وقد أمّنْتُه وصار في منزلي على بساطي؟! قد أخّرتُ الإذنَ [له]* لتقتلوه فلم تفعلوا. (ص ٨٦) فاستأْذَنَهُ ابنُ قيس أن يُنْشِدَه، فأَذِنَ له فأنشده قصيدته التي يقولُ فيها[3]:

عادَ له مِنْ كَثيرة[4] الطربُ ... فعينُهُ بالدموعِ تنسكِبُ
كوفيّةٌ نازحٌ محلّتُها ... لا أَمَمٌ دارها ولا صَقَبُ[5]
والله ما إن صَبَتْ إليّ ولا ... إنْ كان بيني وبينَها سَبَبُ[6]
إلاّ الذي أَوْرَثَتْ كثيرةُ[7] في الـ ... قلْبِ وللحبِّ سَوْرةٌ عَجَبُ

حتى قال فيها:

إنَّ الأغرَّ الذي أبوه أبو الـ ... عاصي[8] عليه الوقارُ والحُجُبُ

---

(١) ـ البيتان في الأغاني والفرج بعد الشدّة، وانظر ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات ص ٩٥ ـ ٩٦.

(٢) ـ في الفرج بعد الشدة والأغاني: خدام.

* ـ الزيادة بين المعقوفتين من الأغاني.

(٣) ـ وردت الأبيات في الأغاني والفرج بعد الشدة، وانظرها أيضاً في ديوانه ص ١.

(٤) ـ في الأصل: كثرة، والصواب من الأغاني والفرج بعد الشدة.

(٥) ـ في الفرج بعد الشدّة: صعب.

(٦) ـ الشطر الثاني ورد بالصورة التالية في الفرج بعد الشدة: ولا يُعْرَفُ بيني وبينها نَسَبُ.

(٧) ـ في الأصل: كيرة. وهو خطأ.

(٨) ـ في الفرج بعد الشدة: أبو العاص.

يعتدِلُ التاجُ فوق مفرِقه على جبينٍ كأنّه الذهبُ

فقال له عبدُ الملك: يا ابنَ قيس تمدحني بالتاج كأني من العجم، وتقولُ في مُصْعَب[1]:

إنّما مُصْعَبٌ شهابٌ من الله تجلّتْ بنوره[2] الظّلْماءُ
مُلْكُه مُلْكُ عِزّةٍ[3] ليسَ فيه جَبَروتٌ ولا له كبرياءُ[4]

أما الأمانُ فقد سَبَقَ لك، ولكنْ والله لا تأخذ مع المسلمين عطاءً أبداً[5]. فقال ابنُ قيس لعبدِ الله بنِ جعفر: ما نفعني أماني، تُركْتُ حيّاً كميّت لا آخذُ مع المسلمين عطاء. فقال له عبدُ الله بن جعفر: كم بلَغْتَ من السنّ؟ قال: ستين سنة. قال: كم تومّل أنْ تعيش؟ قال: عشرين سنة. قال: كم عطاؤك في السنة؟ قال: ألفا درهم. فأَمَر له بأربعين ألف درهم وقال: ذلك لك عليّ حتى تموتَ على تعمير نَفْسِك. فعند ذلك قال ابنُ قيس يمدح عبدَ الله بنَ جعفر[6]:

تغرب[7] بي الشهباءُ نحوَ ابنِ جعفرٍ سواء عليها ليلُها ونهارُها
تزور امرءاً قد يَعْلَمُ الله أنّه تجودُ له كفٌّ قليلٌ غرارُها

---

(١) ـ البيتان في الأغاني والفرج بعد الشدة، وانظرهما في ديوانه ص ٩١.

(٢) ـ في الأغاني والفرج بعد الشدة: عن وجهه.

(٣) ـ في الفرج بعد الشدة: رأفة، وفي الديوان: قوة.

(٤) ـ في الفرج بعد الشدة: جبروت منه ولا كبرياء.

(٥) ـ إلى هنا ينتهي الاتفاق مع الفرج بعد الشدة وانظر بقية الخبر في الأغاني.

(٦) ـ الأبيات في الأغاني ٥ / ٨١، وديوان عبيد الله بن قيس الرقيات ص ٨٢.

(٧) ـ في الديوان والأغاني: تقدّت.

أتـينـاكَ نُثـنـي بالـذي أنـت أهـلُه
عليك كما أثنى[1] على الروضِ جارُها[2]
فواللهِ لولا أن تزورَ ابـنَ جعـفـرٍ
لكـان قليلاً في دِمَـشْـقَ قرارُهـا
إذا مِتَّ لم يُوصَـل صديقٌ ولـم تُقَـمْ
طريقٌ منَ الـمعـروفِ أنـتَ مَنـارُهـا
ذَكَـرْتُـكَ أنْ فاض[3] الفـراتُ بأرضنـا
وفـاضَ بأعـلى الـرقـمـتين* بِحـارُهـا
وعـنـديَ ممـا خوّل الله هجـمـةٌ
عطاؤك منـهـا شَوْلـهـا وعِـشـارُهـا
مبـاركـةً كانـت عطاءَ مبـاركٍ
تمـانـح كبـراهـا وتَنْمي صغـارُهـا**

وإنما أردتُ من هذه الحكايةِ ما يسّر الله على يديْ عبدِ الله بن جعفر ـ أحدِ الأجوادِ المشهورينْ بالكرم ـ من التكفّل لابن قيس الرقيات برزقه إلى تمام تعمير نفسه لقوله[4]، فهي ممّا منع من الرزق ثم مما منح منه داخلة تحت هذه الصورة، وهي مما سبق فيها من توقّع الابتلاء والخوف على النفس ممّا يدخُل تحتَ الصورةِ الرابعة، ولكنّي رأيتُ هذا الموضع أخصّ بهاِ، لما أعقب منع الرزق من تكميله وتعجيله.

---

(١) ـ في الأغاني : يثني .

(٢) ـ ورد هذا البيت في الديوان مطلعاً للقصيدة .

(٣) ـ في الأصل : أفاض .

* ـ في الديوان والأغاني : الرقّتين .

(٤) ـ هكذا في الأصل ولعلها تصحيف لكلمة : «لموته»، أو «لفوته» .

** ـ انظر هذه الحكاية في الفرج بعد الشدة ٤ / ٢٨١ ـ ٢٨٦ ، والأغاني ج ٥ / ٧٦ ـ ٨٠ .

وأغربُ مما حكيَ عن ابن قيس الرقيّات في تسنّي الرزق مِنْ غير أسبابِه المعتادة، وحصولِ الغنى بعد الفقر على غير جَرْي العادة، ما حدّث بعضُهم، قال: كان بمدينة السلام رجلٌ من أهلِ اليسار، فبينا هو ذات يوم في مجلسه، وقد جلس يأْكلُ مع زوجته، وبين أيديهم سكباجة[1]، قد فاحت رائحتها، إذ دنا سائلٌ من الباب، وغشاه، ممّن امتحن بنكبة بعد نعمة فقال: اطعموني من فضل ما رزقكم الله، فقامت المرأة وغَرِفَتْ له من القِدْر، وأخذت رغيفين لتُناوِلَه، فلمّا رأى الزوجُ ذلك حلفَ عليها ألّا تدفع إليه شيئاً. ومضى السائلُ جائعاً حزيناً، فاستوفى الرجلُ شأنَه وطعامَه واشتغل بشأنه وقعد فوقَ السطح لبعض حاله، فعثر بشيء وتنكّس، فوقع إلى أسفل فاندقّت عُنُقُه فمات مِنْ ساعته وحازت المرأةُ ميراثَه وتصرفّتْ فيه. وضرب الدهر ضربانه، وأتى لهذا الحديث مدّة، وكان السائلُ الذي قد دنا مِنْ باب الدار وانصرف خائباً كئيباً لما لقي من قُبْح الردّ وما هاج به من شهوة الطعام الذي شَمَّ رائحته عاد إلى منزله من وقتِه ولم يملِكْ إلا مضربة معلّقة، وكان اشتراها من الحاج، متّسِخة قذرة، وحملتْهُ شهوةُ الطعام على المضربة أن يبيعها، (ص ٨٧) ويصرفَ ثمنَها في نفقة طعام، مثل الذي شمّ، وأراد أن يفتقها فيغسلَها ثم يبيعها، ففتّشها، فإذا فيها ألفُ دينار وسطَ الحشْو، فأخذها الرجل، وغيّر ببعضها حاله، وشغل بعضها في التجارات، وحسنت حاله، وطلب امرأة يتزوّجها، فقالت له بعضُ الدلّالات: إنّ هاهنا امرأة جميلة مُوسِرة قد ورثتْ عن زوجها مالاً كثيراً، فهل لكَ فيها؟. قال: نعم. فخطبها، والتأم الأمرُ بينهما، وبنى بها، وحمد كلُّ واحدٍ صاحِبَه، واتّفقا أحسن الاتفاق. فبينما هما يوماً من الأيّام يتحدثان، وقد وصف الرجلُ لها ما دُفع إليه في بعضِ الأيّام مِن المحنة العظيمة، إذ سألْته المرأةُ أن يحدّثها بأمرّ شيء جرى عليه، وأصعب ما دُفعَ إليه، فقال الرجل: ما مرّ عليّ أصعبُ مِن وقتٍ دُفِعْتُ فيه إلى شدّةٍ شديدة، حتى اضطررتُ إلى السؤال، فدنوتُ يوماً من باب دار، وشممتُ من الدارِ رائحةَ سكباجة طيّبة،

---

(١) ـ في ثمرات الأوراق· دجاجة مشوية.

كدتُ أجنّ حرصاً عليها وشهوةً لها، وقامت المرأة لتعطيني منها، فمنعها الزوج، وحلف بطلاقها أنّها لا تعطيني منها، فانصرفتُ وأنا قِلقٌ حزين، إذ كنتُ بعقِبِ علّةٍ شديدة، وقد أبللتُ منها، وكنتُ أشتهي كلّ شيء كما يعتري الناقة. فتبسَّمَتِ المرأةُ تعجّباً، وقالت: فهذه هي الدار، وأنا هي تلك المرأة، وإنّ زوجي صَعَدَ في ذلك اليوم، الذي ردّك فيه الردّ القبيح، هذا السطح، فتنكّس فيه، ووقع واندقّت عنقه، ومات من حينه، وقد أوْرَثَكَ الله مالَه ومسكنَه وزوجته. قال: فسجد الرجلُ شُكْراً لله عزّ وجلّ، واستأنَفَ نيّةً جميلةً في طلبِ مرضاة الله تعالى، وبقي طولَ عُمْره في نعمةٍ شاملة. انتهى*.

وإنّ في هذه الحكايةِ لمُعْتَبَراً[1] لأولي الألباب، وشاهداً هذه[2] المنية الدحيّة[3]، وما اشتملت عليه من الفظاعة لما سبق تقريره من كون مثل ذلك من صفةِ الموت غير المعتادة، مما كسبت الأيدي واجترحَتْ النفوس. وقد لا يبعد أن يحرم الردّ في مثل هذه الصورة، فقد كان الطعام موجوداً للمسؤول والضرورة ماسّة للسائل بشاهد حاله الذي دعاه إلى بيع مُفْتَرَش نومه على خمول قدره ونزارة ثمنه. ومعلومٌ أنّ الحاجةَ إذا كانت بهذه المثابة[4] والفاقة إذا أكْدت إلى هذا القدْر، والمطلوب منه من الغنى على حالة هذا الرجل، فقد انتقل فرضُ الكفاية في حقّه، ومواساة المحاويج إلى فَرْض العَيْن بسدّ جوعة أخيه الذي لو شاء الله أن يُغنيَه حتى يعود مسؤولاً، ولفقر الآخر حتى يصير سائلاً،

---

* ـ وردت الحكاية مختصرة في ثمرات الأوراق ص ٣٨٨، المستطرف ١ / ٢٧.

(١) ـ في الأصل: لمعتبر.

(٢) ـ هكذا في الأصل.

(٣) ـ هكذا في الأصل، ولعلها مشتقة من دحا البطن: استرسل إلى أسفل.

(٤) ـ مثابة البئر: مبلغُ جموم مائها وما أشرف من الحجارة حولها أو موضع طيّها. (القاموس المحيط: ثوب).

أو يورثه ماله كالواقع في هذه الحكاية لَفَعَل. ولهذا يقولُ القاضي منتَخَبُ الدين ابن أبي الوفاء ـ رحمه الله:

لا يأسفُ المرءُ للأرزاقِ إن قَصُرَتْ ولا يُطيلنّ طولُ الدَّهْرِ من أَمَلِهْ
إنّ المنايا لذي[1] الآمالِ راصدةٌ والرزقُ أسرعُ نحو العبْدِ من أَجَلِهْ

فكأنه عبّر عن هذا الواقع المشتمِل على منيّة المؤمّل وإسراع الرزق للآخر.

وقريبٌ من هذا، وإنّ لم يشبهْهُ مِنْ كُلّ الوجوه، ما حدّث به هبةُ الله ابن ابراهيم بن المهديّ قال[2]: سمعتُ أبي يحدّث أنه دخل يوماً إلى الخيزران أمّ الرشيد قال: فوجدتُها جالسةً على نمط أرمينيّ، وعن يمين البساط ويساره نمارقُ أرمينيّة، وعلى أعلى نمرقة منها بنتُ سليمان بن علي[3]، وعن يسارِ النمارق أمّهاتُ أولاد المنصور والمهديّ والهادي ونسوةٌ من بني هاشم، والبساطُ والنمطُ والنمارق في صحن الدار المعروفة بدار الخيزران، إذ دخلت جارية فقالت: يا سيدتي إنّ بالباب امرأةً رثّةَ الحال والثياب[4] جميلةَ الوجهِ بارعةَ الجمال عَذْبَةَ الكلام يدلُّ خُلُقُها على أنّها كريمة الأصل، تستأذِنُ، وقلتُ لها قولي من أنتِ، قالت لا يمكن أن أقولَ ذلك إلّا لها أعزّهاالله فما تأمرين؟ قالت: تَدْخُل. فدخلت امرأةٌ رثّة الثياب[5] (ص ٨٨) فسلَّمَتْ ثم قالت: يا زوجةَ أميرِ المؤمنين أنا مُزْنة زوجة هشام بن عبد الملك ثم زوجة مروان بن محمد بعده، نكبني الزمانُ، وزلّت بي النعل، حتى أصارتني إلى ما تَرَيْن. قال: فجالت الدموعُ في عينَيْ خيزران، فرأت ذَلك زينبُ بنتُ سليمان فخشِيَتْ

(١) ـ في الأصل: لدى.
(٢) ـ وردت القصّة في: مروج الذهب ٣ / ٣٢٣، المستجاد ٢١ ـ ٢٥، الفرج بعد الشدة ٤ / ٧٥ ـ ٨٢.
(٣) ـ في المستجاد والفرج بعد الشدة: زينب بنت سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس (ترجم لها البغدادي في تاريخ بغداد ١٤ / ٤٣٤).
(٤) ـ في الأصل: والشباب.
(٥) ـ في الأصل: الشباب.

أن يدركها عليها[1] رقّة فقالت: يا أمَّ أمير المؤمنين اتّقِ الله أن تدخلك على هذه الملعونة رقّة فتبوئي[2] بمقعدك من النار. ثم التفت إلى مزنة، فقالت: «يا مزنة أنسيت دخولي عليك بحرّان[3] وأنتِ جالسةٌ في صحنِ دار مروان على هذا النمط بعينه، وعن يمينك وشمالك هذه النمارق بعينها، وعليها أمّهات جبابرتكم، وقد مثلتُ في هذا المكان الذي أنت فيه الساعة، وأنا أتضرّع إليكِ واستوهبك جثّةَ إبراهيمَ الإمام[4] ـ رضي الله عنه ـ وأسألك أن تسألي[5] مروانَ هِبَتَها لي ألاّ يمثّل بها، وقولك وأنت مكحّلة: ما للنساءِ والدخول في أمور الرجال؟! ثم أمرتِ بإخراجي في غِلظة، فلجأتُ إلى مروان، فوجدتُه على حالٍ أحسنَ تعطّفاً عليّ منكِ، وأنّه قال: «قد ساءتْني وفاة ابن عمّي، وما أردتُ المَثُلَةَ بابنِ عمّي، وكيف يمثّل الرجُلُ بابن عمّه؟!» وخيّرني بين دفنه ودفعه إليّ، فاخترتُ دفعه إليّ. وأمر له بجهاز، فقبلْتُه منه!». فالتفتَتْ مُزْنَةُ إلى خيزران، فقالت: قد صدقَتْ زينبُ في قولها ووصْفِ ما صَنَعْتُ لها، وذلك الفِعلُ مني هو الذي أحلّني هذا المحلَّ، وأوقفني هذا الموقفَ، والسعيدُ من اتّعظَ بغيره. ثمّ ولّت لتخرج، وأشارت الخيزران إلى بعض خَدَمِها أن تميل بها إلى بعضِ مقاصِر الدار، وأدركتْها وهي تقول: ﴿**وضَرَبَ الله مثلاً قريةً كانَتْ آمنةً مطمئنّة، يأتيها رزقُها رَغَداً من كلّ مكان، فكَفَرت[6] بأنعُمِ الله، فأذاقها الله لِبَاس الجُوعِ والخَوْف بما كانوا يَصْنَعون**﴾[7] فمالت بها الخادمُ حتى إذا قامت زينب. ثم وثبت الخيزران وأمرت الجواري بإدخالها الحمّام،

---

(١) ـ في الأصل: عليه.

(٢) ـ في الاصل: فتبوأ.

(٣) ـ في الأصل: تجرّان.

(٤) ـ في المستجاد والفرج بعد الشدة: ابراهيم بن محمد.

(٥) ـ في الأصل: تسئل.

(٦) ـ في الأصل: فكّرت.

(٧) ـ الآية ١١٢ من سورة النحل.

وقالت لهنّ: افْعلن بها مثلَ ما تَفْعَلْنَ معي. وجعلتْ تسأل عنها ساعةً بعد ساعة، فخرج الجواري فقلن: ما هذا؟! هي والله تُطالبنا من الخدمة بما لا تطالبيننا أنت به. وأمرت بألوانٍ من الثياب، فأُحضِرَتْ، وأمرت الجواري أن يُحْضِرن من الثيابِ إليها إذا خرجت، لتلبس منها ما تريد، حتى إذا خرجت بُخِّرَتْ بأصنافِ العود، وطُيِّبت بأصناف الطيب. ثم أمرت بإحضار الطعام، فأُحْضِر، وَجَعَلَتْ تلقُمها، وتدع كلّ ما تستطيبه بين يديها، وكذلك كلّ من حضر المائدةَ كان يفعل كفعلِ الخيزران، وتقول: ما فيكم أحوجُ للطعام منّي، لبُعْدِ العهد به. حتى إذا فرغت من الأكل قامت الخيزران وأقامَتْها معها، وأدارتها في عِدّةٍ من ديارها، وقالتْ لها: بحقِّ الله عليكِ إلاّ انظري أيّما اوفق لقلبك. ففرشَتْ ما اختارته من الدور بأنواع الفرش، واعدّت فيه كلّ ما تحتاج إليه من صفـرٍ وغير ذلك، ووهبت لها عشرين جارية صغاراً، وطبّاخاتٍ وخبّازات، وملأتْ خزائنها بثياب وآلات، وحملت إليها عشرةَ آلافِ دينار ومائةَ ألفِ درهم، وسألتها البَعْثَ إلى من بقي من جواريها، ومن أحبته من خاصّتها، فَحَلَفَتْ ألاّ تفعل، وألاّ تزيد على ما اختارته لها شيئاً، وأقامت في مكانها في أجلّ من حالها أيّامَ دولتها، وبقيت كذلك إلى أن هلكت. انتهت[1].

وفي هذه الحكاية موعظةٌ عظيمة واعترافٌ من مُزْنَة بما فعلت بقبحِ ما فعلته مع زينب، واعتقادُ كونِ ما أصابها بسببِ ما أسلفَتْهُ من شناعةِ ردّها، حسبما شهد به غيرُ آية، وتعذّر في محلّه من هذا الموضوع، والمقصودُ منها هو ما منّ الله به من جَبْرِ حالها من جهةِ الدولة المضادّةِ لدولةِ قومِها المُعْتَقِدِ منها عكس الواقع لها، فالله قادرٌ على أن يأتيَ بالفائدة على أيدي الأعداء وبالغائلةِ على أيدي الأودّاء.

(١) ـ وردت الحكاية بتفصيلات مختلفة في: الفرج بعد الشدة ٤ / ٧٥ ـ ٨٢ والمستجاد للتنوخي ٢١ ـ ٢٥، ومروج الذهب ٣ / ٣٢٣.

ومن ذلك ما حكاهُ الشيخ تاجُ الدين في «لطائِف المِنَن»[1] قال[2]: قال الشيخ أبو الحسن، يعني الشاذلي[3]: كنتُ في بعض سياحتي[4] وقد أويتُ إلى مغارةٍ بالقربِ من مدينةٍ للمسلمين، فبقيتُ ثلاثةَ أيّام لم أطْعَم شيئاً فبعد ثلاثة أيّام دخل عليّ ناسٌ من الروم كانت قد أرْسَتْ سفينَتُهم هنالك (ص ٨٩) فلما رأوني قالوا هذا قسّيسٌ من المسلمين ووضعوا طعاماً وإداماً كثيراً، فعجِبْتُ كيف رُزقتُ على أيدي الكافرين ومُنِعْتُ ذلك من المسلمين. فإذا النداء عليَّ يُقَالُ لي: ليسَ الرجلُ من يُنْصَرُ بأحبّائه وإنما الرجل من يُنْصَرُ بأعدائه. انتهت.

ولا تخلو هذه الحكاية من دخولها في باب الكرامات.

وقد يُحالُ بين الإنسان وبين تَطَلُّبه من رزقه، فييسّره الله على يَدَيْ من شاء من خَلْقِه، كما يُحْكَى عن إبراهيم بن أدهم[5] أنه قال: كنت ضيفاً لبعض

---

(١) ـ الكتاب المذكور هو كتاب «لطائف المنن في مناقب الشيخ سيّدي أبي العباس وشيخه سيدي أبي الحسن رضي الله عنهما» لابن عطاء الله السكندري. (انظر النفح ٢ / ١٩٠) والمؤلف هو تاج الدين أحمد بن محمد السكندري المالكي الصوفي الشاذلي المعروف بابن عطاء الله، له عدة مؤلفات في التصوف توفي في القاهرة سنة ٧٠٩ هـ (الدرر الكامنة ١ / ٢٧٣، الديباج المذهب ٧٠).

(٢) ـ لطائف المنن ١٥٧ ـ ١٥٨.

(٣) ـ أبو الحسن علي بن عبد الله الشاذلي رأس الطريقة الشاذلية، ولد في تونس سنة ٥٩١ هـ وتوفي في الحجاز سنة ٦٥٦ هـ كان ضريراً، رحل إلى المشرق وله عدة مصنفات (انظر: المفاخر العليّة في المآثر الشاذلية لاحمد بن محمد بن عيّاد، نكت الهميان ٢١٣، لطائف المنن ١٣٥).

(٤) ـ في الأصل: ساحتي.

(٥) ـ هو أبو اسحق ابراهيم بن أدهم بن منصور بن زيد بن جابر العجلي، أصله من بلخ، روى عن جماعة من التابعين، وقد كان من الزهاد، وله كرامات توفي سنة ١٤٠ هـ في الجزيرة ودفن في صور (وفيات الأعيان ١ / ٣١، كتاب التوابين ١٤٩، حلية الأولياء ٧ / ٣٦٧، طبقات الأولياء ٥ ـ ١٥، فوات الوفيات ١ / ١٣ ـ ١٤، طبقات السلمي ٢٧، شرح مقامات الحريري ٣ / ٣٨١). وفي فوات الوفيات نقلاً عن البخاري أنه توفي سنة ١٦١ هـ.

القوم، فقدَّمَ المائدة، فنزل غرابٌ وسَلَبَ رَغيفاً، فاتبعته تعجّباً، فنزل في بعض البلاد، وإذا هو برجلٍ مُقَيّد، مشدودِ اليدين، فألقى الغرابُ ذلك الرغيفَ على وجهه. انتهت. فحقٌّ على من تعذّر له الرزق أن يتأمّل مثلَ هذه الحكايةَ، ويعلم أن كلَّ دابةٍ على الله رزقُها، والذي تكفل برزق هذا المقيَّد المشدودِ اليدين هو الكفيلُ برزقه، وهو الذي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويَقْدِرُ له، فليثِقْ به وليعلق بما في خزائنه التي لا تقيد[1] أمله.

ولمن حدث له العزلُ من الولايةِ، والتأخيرُ عن الرتبةِ، الأسوةُ في سعدِ ابن أبي وقاص- رضي الله عنه - لما عُوِّضَ منه في ولايةِ الكوفةِ الوليد بنُ عقبة، فإن سعداً - رضي الله عنه - خيره[2] من كل معزول بعده، ولو كان من الشرف في الغاية التي لا تُلْحَق، ومن استكمال شروط الولاية في الحدّ الذي لا يُدْرَك. كما أن المُعَوَّض اليومَ ممّن قبله - وإن لم يكن مثله - فلن يقصر عنه قصور الوليدِ عن سَعْد، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

فقد حكي عن ابن دأب[3] قال: لما وَلَّى عثمانُ الوليدَ بنَ عقبة على الكوفة قَدِمَها وعليها سعدُ بنُ أبي وقاص، فأخبر بقدومه؛ فقال: وما صنع؟ قالوا: وقف في السوق يحدّثُ الناسَ هناك، ولسنا ننكر شيئاً من شأنه. فلم يلبث أن جاء نصفُ النهار، فاستأذن على سعد فأذن له، فسلّم عليه بالإمرة* وجلس معه، فقال له سعد: ما أقدمك أبا وهب؟ قال: أحببتُ زيارتَك. قال:

---

(١) ـ هكذا في الأصل، ولعلها تحريف لكلمة: تنفد.

(٢) ـ هكذا في الأصل وربما كانت: خيرٌ.

(٣) ـ هو أبو الوليد عيسى بن يزيد بن بكر بن دأب من بني ليث بن بكر من المدينة المنوّرة، رحل إلى بغداد وأقام بها، وكان راوية وافر الأدب، وعارفاً بالنسب وأيام العرب والسير، وكان من جلساء الخليفة الهادي (تاريخ بغداد ١١ / ١٤٨ ـ ١٥٢).

* ـ في الأصل: الأمر، والصواب من الأغاني.

وعلى ذلك جئت برياً[1]؟ قال: أنا أرزنُ من ذلك، ولكن القومَ احتاجوا إلى عملهم، فسرّحوني إليه، وقد استعملني أمير المؤمنين على الكوفة. فمكث طويلاً ثم قال: لا والله ما أدري أَصَلَحْتَ بعدنا أم فَسَدْنا بعدك! ثم قال:

خُذيني فجرّيني ضِباعُ وأبشري[2] بلحمِ امرىءٍ لم يَشْهَدِ اليومَ ناصرُه

فقال له: أما والله إني لَأَقْوَلُ للشعرِ مِنْك وأرْوَى له، ولو شئتَ لأَجَبْتُك، ولكني أدَعُ ذلك لما لا تعلم، نعم وقد والله أمرت بمحاسبتك والنظرِ في أعمالك. وبعث إلى عمّاله فحبسهم[3]، وضيّق عليهم فكتبوا إلى سعد يستغيثونه فكلّمه فيهم: أَوَ للمعروفِ عندك موضع؟ قال: نعم والله. وخلّى سبيلهم[4].

ولن يتّضح وجهُ التأسّي في عزلِ سعد ـ رضي الله عنه ـ وتولية الوليدِ مكانَه إلّا ما حُكِيَ عن الوليد في ولايته حسبما ذَكَرَ ذلك أبو عبيدة وهشامُ بن الكلبي والأصمعي[5] قال: كان الوليدُ بنُ عقبة زانياً شريب خمر، فشرِبَ الخمر بالكوفة، وقام ليصلي بهم الصبحَ في المسجد الجامع، فصلّى بهم أربَعَ ركعات، ثم التفتَ إليهم فقال: ازيدكم، وتقيّأ في المحراب، وقرأ بهم في الصلاة وهو يَرْفَعُ صوتَه[6]:

عَلِقَ القلبُ الربابا بعدما شابَتْ وشابا

فَشَخَصَ أهلُ الكوفة إلى عثمان، فأخبروه بخبره، وشهدوا عليه بشُربِ الخمر، فأوتي به، فأمر رجلاً يضربه الحدّ، فلما دنا منه قال: نشدتك الله وقرابَتي من

---

(١) ـ هكذا في الأصل وربما كانت: بديّاً أي بادىء الأمر، وفي الأغاني: وعلى ذلك أجئت بريدا؟

(٢) ـ في الأصل: خزنني وجرمني ضياع والبشرى، والصواب من الأغاني.

(٣) ـ في الأصل: فحسبهم، والتصويب من الأغاني.

(٤) ـ الأغاني ٥ / ١٢٣ ـ ١٢٤، مروج الذهب ٢ / ٣٤٣.

(٥) ـ عن هؤلاء الثلاثة أخذ صاحب الأغاني (٥ / ١٢٦) روايته.

(٦) ـ البيت في الأغاني ٥ / ١٢٦.

أميرِ المؤمنين. فتركه، فخاف عليٌّ بن أبي طالب أن يُعَطِّل الحدّ، فقام إليه فحدّه، فقال له: نشدتك الله والقرابة، فقال له عليّ عليه السلام: اسكُتْ فإنما هلَكَتْ بنو اسرائيل لتعطيلهِم الحدود، فضربه وقال: لِتَدْعُني قريشٌ بعد هذا جلاّدَها. انتهت[1].

وفي معنى هذه الواقعة قال جمالُ الدين أبو الفضل الشيباني[2]:

الدهرُ كالميزانِ يَرْفَعُ ناقصاً
أبداً ويخفِضُ زائدَ المِقْدارِ

(ص ٩٠)

وإذا انتحى الإنصافُ عادَلَ عدلَهُ
في الوزنِ بين حديدةٍ ونُضارِ[3]

فكيف لا يُتَسَلّى عن الولاية، ما كانت، إذا عُزِلَ سعدٌ أحدُ العشرة المشهودِ، لهم بالجنة والذي فداه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بأبيه وأمه وغير ذلك من خصائصه، وعُوِّض منه الوليدُ بنُ عقبة هذا. إنّ في ذلك لعبرةً لأولي الألباب.

وليس هذا الكلام في الانتصارِ لسعد ـ رضي الله عنه ـ ممّا يبخس به عثمان حقّه فقد أقام عليه الحدّ لما شهد عنه بما أوجبه، وعزله ذميماً لمّا صحّ عنده عدمُ استحقاقه، وإنما العجب فيما تجري به الأقدار، ويأتي به الليلُ والنهار، سنّةُ الله ولن تجد لسنّة الله تبديلا.

---

(١) ـ انظر: الأغاني ٥ / ١٢٦، العقد ٥ / ٥٥ ـ ٥٧، ٨ / ٥٥، مروج الذهب ٢ / ٣٤٤، تاريخ الخلفاء للسيوطي ١٥٤ ـ ١٥٥، وقد تم هذا العزل سنة ٢٥ هـ.

(٢) ـ أبو الفضل عبد الرحيم بن أحمد بن محمد بن ابراهيم بن الأخوة العطار، محدث، نسخ كتباً كثيرة. توفي بشيراز سنة ٥٤٨ هـ (فوات الوفيات ٢ / ٣٠٩).

(٣) ـ البيتان في فوات الوفيات ٢ / ٣١٠.

وهذه اللاحقةُ المسمّاة بالعَزْل من أعظم ما يطرقُ أبناءَ الدنيا المترقِّين فيها العسير عليهم مرُّ فطامها. فقد أشار إلى ذلك النبي صلّى الله عليه وسلّم بقوله: «**فنِعْمت**[1]**المُرْضِعةُ وبِئْسَتِ الفاطمة**»[2]. وإنما ذلك ـ والله أعلم ـ لما يشتمل عليه هذا الابتلاء من لَحاقِ الخمول، وإدراكِ الاحتقار، وضَعة المنزلة، وانحطاطِ المرتبة، وكلّ هذه مضادةٌ لما جُبِلَتْ عليه النفوس المتطلّبة للرئاسة، وهي آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين، فلا يبلغ الوصف مقدارَ اللاحق بالعزل من الحزنيات[3] التي تصعب على من امتُحِن[4] به، وتثقل على من ابتُلِيَ بكرْبه، وذلك بيّن، لأن الولاية من العزل على طرفيْ النقيض، والانتقال من حالة إلى حالة تُضادُّها، على غير تدريج، صعبٌ جداً. ومن هنا يوجد للمعزول اضطرابٌ ربّما أخرجه عن حدّ الاعتدال، واستنقص فيه فعله من كان بمنجاةٍ من السبب الذي أوجب له ذلك كمن لم يتلبّس بولاية قطّ، فإنه يستصعِبُ عقلَ الواجدِ من عزلته، ويتعجّب من وهن سبب انفعاله[5] ويرى أنه مُغالٍ[6] فيما ادّعاه من الأعراض الطارقة له. ويحقّ أن يكون له ذلك فإنه على البراءة الأصلية لم تدرّ عليه تلك المرضعة، التي هي بئست الفاطمة، أخْلافَها الملذوذة، وإنما يشاهد من حاله ما غطّى عليه هواه[7] الذي هو إله معبود، من لواحق لا تفي لذّةَ الولاية بتجرّع غُصَصِها ولا تحمُّل كُرَبها، ولكن هي سنةُ الله في خَلْقه ولن تجد لسنّةِ الله تبديلا. فهو القائلُ[8] سبحانَه: ﴿**ورفعنا بعضَهم**

(١) ـ في الأصل: فنعمة.

(٢) ـ صحيح البخاري ٨ / ١٠٦، سنن النسائي ٧ / ١٦٢، مسند ابن حنبل ٢ / ٤٤٨، ٤٧٦.

(٣) ـ في الأصل: الحرنيات.

(٤) ـ في الأصل: استحق وهي تصحيف للمثبت.

(٥) ـ في الأصل: الفعالة.

(٦) ـ في الأصل: مغي.

(٧) ـ في الأصل: هونه.

(٨) ـ في الأصل: الفاعل.

فوقَ بعضٍ دَرَجات ليتّخذ بعضُهم بعضاً سُخْريّاً ورحمةُ ربّك خيرٌ ممّا يَجْمَعُون﴾[1].

وعلى صَرْفِ النظر عمّا تعاضد به العقلُ والنقلُ من الاجتنابِ لهذه المهنة والابتعادِ عن هذه الرتبة فإنَّ من ابتُلي بالولاية وارتضاها لنفسه منزلة، وحَكَمَتْ له الأقدارُ بأنها بابُ معيشته وسبيلُ اكتسابه ومنها قُسِمَ رزقه وبها خُلِقَ تصرُّفه، فإنّ آكَدَ ما يجب عليه نصرُ المظلوم وإبلاغُ السلطانِ حاجةَ من لا يستطيعُ إبلاغَها، وما أشبه ذلك ممّا عدّه الناسُ أنّه زكاةُ الجاه، وذلك بعد إصلاح نيته في القيام بما أُسْنِد له، والتوفية لما وُلِّيَ عليه، فإن إضاعةَ ما أُسْنِدَ له ووُلِّيَ عليه أعظمُ سببٍ في الاستعاضة به والاستبدال منه إن سَلِم من جزاءِ التفريط والتضييع، وإلّا فقد يمكن أن يكون ذلك سبباً مستَغلاًّ في التنكيل به زيادةً لما خشيه من العزاء، ويغلبُ على الظنّ غلبةً قويةً أنّ هذا المعنى من إضاعة المُسْنَدِ للمتولي أيَّ ولاية كانت هو الذنبُ الموبِق الموجب لعقوبة العزل إمّا وحدها وإما مع ما يلائمها عادةً من لحاق الهون وإدراكِ الاحتقار وتسليطِ المُسْتَضْعَبِ والاستبدالِ مِنْ الأمانِ بالخوف والاستعاضة من العزّ بالذلّ، ووجه ذلك بيّن، فإنا إذا فرضنا هذا المعزول حَكَماً أقامه الله للأخْذِ على يد الظالم حتى ينتصر المظلوم، وللجزالة على الماطل حتى ينتصِف الممطول، وللقسْوةِ[2] على المعتدي حتى يأمن الخائف، وللشدة على المتّهم حتى يأمن البريء، فإذا عطل ما هو بسبيله وعجز عمّا أُمِرَ بإقامته بتمرّد الظالم، وانطوى على أسفه المظلوم وتلذّذ الماطلُ وغُلِبَ على حقّه الممطول وتأمّن المعتدي وازدادت رهبةُ الخائف وتجرّأ المتّهم وأُخِذَ بجنايته البريء، وفي هذا من مضادّة الشرع ومضادّته[3] الحقّ ما لا يستقرّ معه الملك ولا تستقيم (ص ٩١) عليه

---

(١) ـ الآية ٣٢ من سورة الزخرف.

(٢) ـ في الأصل: النسوة.

(٣) ـ هكذا في الأصل.

الدولة؛ فإن كان الأمر جزئياً[1] فربما لحقت العقوبة مثله، وإن كان كليّاً[2] فربما شملت العقوبة، ويتنزل من ذلك مثل حالنا قريباً، فقد كانت الأخذةُ عظيمة، والعقوبةُ فظيعة[3]، والنكالُ شاملاً، والعذابُ واقعاً، ولا تظنّ الموجِبَ لذلك إلاّ ما قدّمناه من هذا الذنب الكبير، والإثمِ العظيم فإنا لله وإنّا إليه راجعون. ثم إن الله جلّت قدرتُه، وتعالى في عظمته، أقال من تلك العَثْرة، وفرج من تلك الكُرْبة، ووقى من الاستئصال بتلك الأخذة، ثم أعاد الدولةَ غضّة، وأعقب من الفُرقة أُلفة، وعوّض من العذاب رحمة، إعذاراً ـ فيما يظهر ـ إلينا، وإبلاغاً في إقامة الحجّة علينا. ثم لا يبدو كون ذلك من النعم التي يجزلها، والمواهب التي يخوّلها، إلاّ إنْ عرفنا قدر التمحيصِ السابق فاستقمنا، وحقّقْنا ما أضعنا ممّا أمر به فأنفذنا حكمه وأقمنا، وتبيّن لنا الخطأ فيما كنا نأتيه وَنَذَرهُ، وتيقنّا أنه العزيزُ الجبّار، فنخشى انتقامه ونحذره، وإذ ذاك يتعيّن أنّ تلكَ الإقالة نعمة، وأنّ صَرْفَ ما كان قد أزِفَ من العذاب رحمة، وإلاّ فهو استدراجٌ وإملاء، ومِنْحةٌ في طيّها بلاء، عياذاً بالله من ذلك، عياذاً بالله من ذلك. يقول الله تعالى: **﴿ولقد أرْسلْنا إلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِك فأَخَذْناهُم بالبأْسَاءِ والضَرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضرَّعُون * فَلوْلا إذْ جاءَهم بأسُنا تَضرَّعُوا ولكنْ قَسَتْ قُلوبُهم وزَيّن لهمُ الشَّيْطانُ ما كانوا يَعْمَلون * فلما نَسُوا ما ذُكِّروا به فَتَحْنا عليهم أبْوابَ كلِّ شَيْء، حتّى إذا فَرِحوا بما أُوتُوا أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً فإذا هُمْ مُبْلسون﴾**[4]. ويقول: **﴿وما أَرْسَلْنا في قريةٍ من نبيٍّ إلاّ أَخْذنا أَهْلَها بالبأْسَاءِ والضَّرَّاءِ لعلّهم يضَّرَّعُون * ثم بدّلْنا مكانَ السَّيّئةِ الحَسَنةَ حتى عَفَوْا وقالوا قَدْ مَسَّ آباءَنا الضَرَّاءُ والسَرَّاءُ فَأَخَذْناهُم بَغْتةً وهم لا يَشْعُرون﴾**[5].

---

(١) ـ في الأصل: حرينا.
(٢) ـ في الأصل: كلباً.
(٣) ـ في الأصل: قطيعة وهو تصحيف.
(٤) ـ الآيات ٤٢ ـ ٤٤ من سورة الأنعام.
(٥) ـ الآيتان ٩٤ ـ ٩٥ من سورة الأعراف.

وهذا أبينُ من الشمس، فإنّ المَلِكَ إذا أدّبَ عبده باعتقال، أو سامَه بذنوبٍ من نكال، ثم أعاد له حُسْنَ نظره، وجدّد له العنايةَ، في مستقبله، فإنْ استقام زيغُه، وحسُنَ أدبُه، فالنِعَمُ لديه مشفوعة بمثلها، وما استفاده بالتأديب من حسن الأدبِ سببٌ لوصلها، وإنْ بقي على ضلالِه، وطاوع في المعصية سيّءَ خلالِه، فتجديدُ تلك النعمة أعظمُ الأسبابِ في ازديادِ الغضب عليه، واستجلابِ سُخْط الملك إليه. جعلنا الله ممن يتّبع بما ضرب له الأمثال، وتولّانا بهدايته في جميع الأحوال.

ثم إن هؤلاء الجناة[1] الذين تصاغ[2] فيهم الأحكام، ويراغم[3]فيهم ما شرعه الإسلام، إنما هم أحَدُ رَجُلَيْن: إما شرّيرٌ ركن من أرباب الوجاهة في الدولة إلى رُكْنٍ شديد، وأوى من عنايته إلى حِصْن حصين، وهذا القسمُ هو ما كثر، فيعلن بشرب الخمر، ويجاهر بفاحشة الزنا، ويفتخر بقتلِ النفس الحرام، ثم لا يخشى من أحد نكيرا، ولا يرهب لحدٍّ إقامة، ولا يخافُ في تفويت النفسِ فما دونها قصاصاً، قد قذف الله في قلوبِ الذين راغموا الله فيهم، أنّه إن تعرّض إلى هذا اللاجىء إلى بابه، والراكنِ إلى حرمته، فإن رتبتـه تخمل، وعزّته تنقص، حتى وإن كان الحَكَمُ قيّومَ الشريعة، وحامِلَ الدِيانة، فلا تجابُ لقاضي الجماعةِ ممّن دونه دعوة، ولا تُـخْشى لصاحب الشُّرْطَةِ الكُبْرى ومَنْ فوقه سطوة، وهذه الجريّة المصرّفة في حماية هذا الشرير، إنما هي لمجلس[4] الأحكامِ السلطانية، من قاضٍ وصاحبِ شرطة أو مظالمٍ أو ردٍّ أو غيرهم، حتى إذا سلّط الله على هذا الشرّير مثله، وبعث لإطفاء شُعْلَتِهِ

(١) - في الأصل: الحناة.

(٢) - في الأصل: تصاع.

(٣) - في الأصل: ويزاعم.

(٤) - في الأصل: بمحلّى.

نظيره[1]، ضمّ[2] حاميه عن نصره، وتقاعى[3] عن حمايته، وأسلمه لحتفه، ووقع التغالي في اصطناع قاتِله، ودخل العَوَل في قسمة اصطحابه، وأعمل القياس في كون خاصي الأسد أجرأ منه، وقاتل ربيعة بن مكدّم[4] أشجع منه، فلولا حكمُ السبقية إلى خطبة ودّه، وخَطَرُ مرارة مصطنع قتيله، بعد الركون لغيره، لما خلص من هذه الأنشوطة إلّا بعد السُهْمَةِ[5] المشروعة لأولي التشاحّ في الحقوق، التي يُسْتَشْرَفُ لها، وتخشى بالتغالب عليها الضغائن، ذاهلين في ذلك كلّه عمّا يعدُّ في مكارمِ مَن أيّده الله بالقوة، التي هي أشدُّ من قوّته، وأمدّه من العزّ بما هو أمكن من عزّتهم، ثم جبله من الإنصاف على ما أثبت له المحمدة إلى يوم الدين، وشهد له بالعدل إلى ما أبقاه غُرّةً في كرم أوصافه إلى لقاء الله الخبير. كما يُحكى[6] أنّ المأمونَ كان يجلس (ص ٩٢) للمظالم في يوم الأحد، فنهض ذاتَ يوم من مَجْلسِ نظره فتلقته امرأة في ثياب رثّة فقالت:

يا خَيْرَ مُنْتَصِفٍ يُهْدى به الرشدُ[7] ويا إمـامـاً به قد أشْـرَقَ الـبَلَدُ

---

(١) ـ في الأصل: نظره.

(٢) ـ هكذا في الأصل.

(٣) ـ هكذا في الأصل، وقد تكون تحريفاً لكلمة: وتقاعس.

(٤) ـ هو ربيعه بن مكدّم من بني فراس بن غنم بن مالك بن كنانة، فارس العرب في الجاهلية وكان يضرب به المثل في الشجاعة فيقال «أشجع من ربيعة بن مكدّم» (العقد ٣ / ٨) وقاتِله هو نبيشة بن حبيب من بني خصفة بن قيس بن عجلان، وانظر خبر مقتله في (الأغاني ١٦ / ٥٦، العقد ٣ / ٢٧١) وكان يعقر على قبره في الجاهلية ولم يعقر على قبر أحد غيره (العقد ١ / ٨٣).

(٥) ـ السُهمة: القرابة، والنصيب (القاموس المحيط: سهم).

(٦) ـ انظر هذه الرواية في: شرح مقامات الحريري للشريشي ٣ / ٢٤ ـ ٢٥، العقد ١ / ٢٠ ـ ٢١، نهاية الأرب ٦ / ٢٧٦، الأحكام السلطانية للماوردي ٨٤ ـ ٨٥.

(٧) ـ في شرح المقامات: يرجى له الرشد، وفي العقد والأحكام: يهدى له.

تشكــو إليكَ عميدَ المُلْكِ أرْمَلَةٌ عدا عليهـا فمـا تَقْوى له أسَدُ[1]
فابتــزَّ منهـا ضِياعـاً بعـد مَنْعَتِهـا لمّـا تفـرَّقَ عنهـا الأهـلُ والوَلَدُ[2]
فأطرق المأمونُ يسيراً ثم رَفَعَ رأسَه إليها فقال:

من دونِ ماقـلتِ عيلَ[3] الـصبـرُ والجَلَدُ
وأَقْــرَحَ الـقَلْبَ هذا الحــزنُ والكَمَــدُ[4]
هذا أوانُ صلاةِ الـعَـصْـر فانـصـرفـي
وأحْضِـري الخَصْمَ في اليومِ[5] الذي أعِدُ
الـمجلسُ السبتُ إنْ يُقْضَ الجلوسُ لنـا
أنْـصِـفْـكِ منــه وإلاّ الـمجلسُ الأحَـدُ

فانصـرفَتْ وحَضَـرَتْ في يوم الأحـد أوَّلَ الناس، فقال لها المأمون: من خَصْمُكِ؟ فقالت: القائمُ على رأسِك العباسُ بنُ أمير المؤمنين. فقال المأمون لقاضيه يحيى بن أكثم، وقيل بل لوزيره أحمد بن أبي خالد: أجلِسْها معه وانظر بينهما، فأجلسَها معه ونظر بينهما بحضرةِ المأمون، وجعل كلامُها يعلو فزجرها بعض حجّابه، فقال المأمون: دعْها فإن الحقَّ أنْطقَها والباطل أخرسه، وأمر بردّ ضياعها عليها.

قال الماوردي[6]: ففِعْلُ المأمون في النظر بينهما حيث كان يشهد منه

---

(١) ـ في شرح المقامات: فلا يترك لها سَبَدُ، وفي العقد: فلم يُترك.
(٢) ـ في شرح المقامات والعقد:
وابتـزّ منّي ضياعـي بعــد منعـتـهــا ظلمــاً وفُــرِّق منـي الأهــل والـولــد
(٣) ـ في شرح المقامات: زال، وفي العقد: في دون ما قلت زال. .
(٤) ـ في شرح المقامات والعقد: عني وأقرح مني القلب والكبدُ.
(٥) ـ في شرح المقامات: في الوقت.
(٦) ـ هو أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي الماوردي المتوفى سنة ٤٥٠ هـ، وهو صاحب كتاب الأحكام السلطانية والولايات الدينية.

ولم يباشِرْهُ بنفسه ما اقتضته السياسةُ من وجهين: أحدهما أنه حَكَمٌ ربّما توجّه لولده أو ربّما توجّه عليه، وهو لا يجوز أن يحكم لولده، والثاني أنّ الخصم امرأة يجلّ المأمون عن محاورتها وابنه من جلالة القدر بالمكان الذي لا يقدر غيرُه على إلزامه الحقّ، فردّ النظر بمشهده إلى من كفاه محاورة المرأة في استيفاء الدعوى واستيضاح الحجّة وباشر أمير المؤمنين تنفيذ الحكم وإبرام الحق. انتهى[1].

وهذا الذي أورده الماوردي حَسَنٌ في الوجه الأول، وفيه عَلِيٌّ[2] إشكالٍ في الثاني، فإن الله تعالى يقول: **﴿قَدْ سَمِعَ الله قولَ التي تُجادِلُكَ في زَوْجِها وتَشْتكي إلى الله والله يَسْمَعُ تحاوُركُما﴾**[3]. فما ساغ للنبي صلّى الله عليه وسلّم بل ما وجب عليه أن يفعله كيف يجلّ عنه غيرُه ممّن يكونُ عنه خليفة!؟ فانظر ذلك.

وحُكِيَ عن أبي عمرو السبعادي قال: صَلّينا مع المهديّ المغربَ ومعنا العَوْفيّ، يعني أبا عبد الله الحسين بن أبي الحسن بن عطية العوفي[4]، وكان على مظالم المهدي، فلما انصرفَ المهديّ من المغرب جاء العوفي حتى قعد في قبلته، فقام يتنفّل فجذب ثوبَه. فقال: ما شأنُك؟ قال: شيءٌ أوْلى لك من النافِلة. قال: وما ذاك؟ قال: سالِمُ مولاك. قال وهو قائم على رأسه: أوطأ قوميَ الخيلَ وغصبهم على ضيعتهم، وقد صحّ ذلك عندي، فتأمر بردّها،

---

(١) ـ انظر هذه الحكاية في: شرح مقامات الحريري للشريشي ٣ / ٢٤ ـ ٢٥، العقد ١ / ٢٠ ـ ٢١، نهاية الأرب ٦ / ٢٧٦، الأحكام السلطانية ٨٤ ـ ٨٥.

(٢) ـ كذا في الأصل.

(٣) ـ الآية ١ من سورة المجادلة.

(٤) ـ أبو عبد الله الحسين بن الحسن بن عطية بن سعد بن جنادة العوفي، من أهل الكوفة، ولي ببغداد قضاء الشرقية ثم نقل إلى قضاء عسكر المهدي، توفي ببغداد سنة ٢٢١ هـ (تاريخ بغداد ٨ / ٢٩).

وتبعث من يخرجهم. فقال المهدي: يصبح إن شاء الله. فقال العوفي: لا إلاّ الساعة. فقال: فلان القائد اذهب الساعةَ إلى موضع كذا وكذا فأخرج من فيها وسلّم الضيعة إلى صاحبها. انتهت[1]. وهذه الحكاية كالتي تقدمتها أو قريب منها.

ومثل ذلك ما يُحْكى[2] عن المنصور بن أبي عامر[3] أنه وقف عليه رجل من العامّة فقال: يا ناصر الحقّ! إنَّ لي مَظْلَمةً عند ذلك الوصيف الذي على رأسِك، وقد دعوتُه إلى الحاكم فاستعصى. وكان لهذا الفتى فضلُ محلٍّ عند المنصور، فقال المنصور: ما كنتُ أظنُّ عبدَ الرحمن بن فطيس[4] في هذه المَنْزِلَةِ من العَجْز والمهانة، وكان صاحبَ المظالم، يا هذا اذكر حاجتك، يعني مظلمته، فقال: كانت بيني وبينه معاملةٌ جارية فقطعها من غير نَصَف. فقال المنصور: «ما أعظم بَلِيَّتَنا بهذه الحاشية» ثم نظر إلى الصِقْلِبيّ، وقد ذهب عقلُه، وقال له: «ادفع الدَّرَقة إلى فلان، وانزِل صاغراً، وساوِ خَصْمَكَ

(١) ـ وردت الحكاية في تاريخ بغداد ٨/ ٣٠ ـ ٣١.

(٢) ـ انظر هذه القصة في البيان المغرب ٢/ ٢٨٩ والنفح ١/ ٤٠٩ مع بعض اختلاف في اللفظ.

(٣) ـ هو أبو عامر محمد بن عبد الله بن أبي عامر الملقب بالمنصور، أصله من الجزيرة الخضراء، ولد سنة ٣٢٧هـ، وكان حاجباً للخليفة الحكم المستنصِر ثم لابنه هشام المؤيّد، استبد بالأمور وقام بعدة غزوات ناجحة وبنى لنفسه مدينة الزاهرة ومات بمدينة سالم سنة ٣٩٢هـ (الحلة السيراء) ١/ ٢٦٨، البيان المغرب ٢/ ٢٥٦، النفح ١/ ٥٧٨ ـ ٥٨٦، ٣/ ٧٧ ـ ٩٤، ٣٩٦ ـ ٤٢٣، المغرب لابن سعيد ١/ ١٩٩).

(٤) ـ القاضي عبد الرحمن بن محمد بن عيسى بن فطيس، أبو المطرف القاضي، قرطبي، فقيه، محدث، تقلد قضاء الجماعة بقرطبة سنة ٣٩٤هـ مقرونة بولاية صلاة الجمعة والخطبة والوزارة، وصرف عن القضاء والصلاة سنة ٣٩٥هـ وتوفي سنة ٤٠٢هـ (له ترجمة مطولة في كتاب الصلة ١/ ٣٠٩ ـ ٣١٣ وانظر: بغية الملتمس ٣٥٦، تاريخ قضاء الاندلس للنباهي ص ٨٧).

في مقامه، حتى يَرْفَعَكَ الحقُّ أو يَضَعَكَ». ففعل، (ص ٩٣) ومثل بين يديه، ثم قال لصاحب الشرطة: «خذ بيد هذا الفاسقِ الظالم، وقدِّمْهُ هو وخَصْمَهُ إلى صاحبِ المظالم، لينفذ عليه حكمه في مقامه أغلظَ ما يُوجِبُه الحقُّ من سجن أو غيره» ففعل، وعاد الرجل شاكراً فقال له: «قد انتصفتَ أنتَ، وبقيتُ أنا». ثم تناول الفتى بأنواعٍ من المذلّة، وأبعده وأقصاه. انتهت[١]. وهذا من ذلك، والحكايات في هذا المعنى تفوت الحَصْر، وتعوز الإحصاء، وقد وضحت حالة هذا القسم وهو الأكثر.

وأمّا مَنْ لم يركن إلى أحدٍ من هؤلاء الوجهاء، فقد قيّض الله له في قوّامِ الدَوْلَةِ من عدم الجزالة المتأول عليه معنى التثبّت، ومن إهمالِ الحقِّ المكنى عن جريرته باسم الاحتياط، ومن دَرْءِ الحدود بالشبهات، الممسوخ في قالب تبطيلها[٢] البتة، ومن استشكالِ طرق ثبوتها للركب على سبيلِ التسامح[٣] في صورة رَفْعِها جُـمْلَةً، مُعْرِضين أيضاً في ذلك عمّا نُقِلَ عن مالك ـ رحمه الله ـ من الشدة في هذا المعنى. قال البهلول بن عبيدة: كنت عند مالك فأُتي برجل ملبّبٍ، فقالوا له: الأميرُ يقرئك السلام ويقول لك: هذا خَنَق[٤] رجلاً فقتله. فقالَ مالك: اخنقوه حتى يَمُوتَ كما فعل به. فذهبوا به، وركِبَتْ مالكَ صفرةٌ وتشوّف، حتى مرّ به رجلٌ فأخبروه أنهم خنقوه، فرجع إلى وجهه الدم، فقال له ابن كنانة[٥] في ذلك، فقال: أظننتم أني نَدِمْت لكنّي خفت أن يبطل حكم من أحكام الله[٦]. وقال عبد الجبّار بن عمر: حضرتُ مالكاً وقد أحضره الوالي

---

(١) ـ الحكاية في البيان المغرب ٢/٢٨٩، النفح ١/٤٠٩.

(٢) ـ في الأصل: تسطيلها.

(٣) ـ في الأصل: النتامخ.

(٤) ـ في الأصل: أخنق.

(٥) ـ عثمان بن عيسى بن كنانة يكنى أبا عمرو، من فقهاء المدينة، أخذ عن الإمام مالك وكان يجلس على يمينه ولا يفارقه. وغلبه الرأي، قعد في مجلس مالك بعد وفاته، توفي بمكة سنة ١٨٦هـ (ترتيب المدارك ١/٢٩٢ ـ ٢٩٣).

(٦) ـ انظر هذه الحكاية في ترتيب المدارك ١/١٨٣ ـ ١٨٤.

في جماعةٍ من أهل العلم فسألهم عن رَجُلٍ عدا على أخيه حتى إذا أدْرَكَهُ دفعه في بئر وأخذ رداءه، وأبَوَا الغُلامَيْن حاضران. فقال جماعةٌ من العلماء: الخَيَارُ للأبوين في العفو أو القصاص. فقال مالك: أرى أن تُضْرَبَ عُنُقُه الساعةَ. فقال الأبوان: أيَقْتُلُ ابناً بالأمس ويفجع الآخر اليوم؟ نحن أولياءُ الدم وقد عَفْونا. فقال الوالي: يا أبا عبد الله ليس ثم طالب غيرهم وقد عَفَوْا. فقال مالك: «والله الذي لا إله إلاّ هو لا تكلّمْتُ في العِلْمِ أبداً أوْ تُضْـرَبَ عُنُقُه» وسكت، وكُلِّمَ فلم يتكلّم، فارتجّت المدينة وصاح الناس: إذا سكت مالك فمن يُسأل ومن يجيب. وكثر اللغط: لا أحد بمصرٍ من الأمصار مِثْلُه ولا يقومُ مَقَامَهُ في العلم والفضل. فلما رأى الوالي عزمه على السكوتِ قدّم الغلامَ فضرب عنقه، فلما سقط رأسُه التفت مالك إلى مَنْ حضر وقال: «إنما قَتَلْتُهُ بالحِرابة حين أخذ ثَوْبَ أخيه، ولم أقتله قَوَداً إذ عفا أبواه». فانصرف الناس وقد طابت نفوسُهم حين رأَوْهُ بَرَّ في يمينه، إذ كان لا يعلم أنه يحنث[1]. وقال حفصُ بنُ غياث[2]: كان مالكُ بنُ أَنَسَ يجلِسُ عند الوالي فيعرِضُ عليه أهْلَ السجن فيقول: اقطع هذ[3]، واضرب هذا مائة، وهذا مائتين، واصلب هذا، كأنه أُنزل عليه الكتاب[4]. وقال أشهب[5]: أتى بعضُ الأمراءِ مالكاً يستشيره في شيء، فدخل عليه، وأشار بقتل قوم وقطع قوم، وخرج علينا يتبسّم ويقول: ﴿وَلَكُمْ في القِصَاصِ حَيَاةٌ يَا اوُلي الألْبَاب﴾[6]. انتهى[7].

---

(١) ـ انظر الحكاية في ترتيب المدارك ١/١٨٣.

(٢) ـ في ترتيب المدارك ١/١٨٤: عياث.

(٣) ـ هكذا في الأصل وفي ترتيب المدارك: اقطع يد هذا.

(٤) ـ انظر هذا الخبر في: ترتيب المدارك ١/١٨٤.

(٥) ـ أبو عمرو أشهب بن عبد العزيز بن داود القيسي، اسمه مسكين ولقبه أشهب من فقهاء المذهب المالكي، وصاحب الشافعي بمصر، ولد سنة ١٤٠ وتوفي بمصر سنة ٢٠٤هـ (ترتيب المدارك ١/٤٤٧ ـ ٤٥٤).

(٦) ـ الآية ١٧٩ /من سورة البقرة.

(٧) ـ انظر هذه الحكاية في: ترتيب المدارك ١/١٨٤.

ما قصدتُ نَقْلَهُ عن مالك في القَصْدِ المناقِضِ للحالِ الواقعةِ من إضاعَةِ الحُكْمِ وتعطيل القِصاص. حتى إذا أيقظ الله القلوبَ وشحذَ العزائم وسدّد النظرَ في الحكم بالبصائر فأمكن من واحدٍ من ألف ممّن وجب عليه الحدُّ وأباح سفك مهجته القصاص، وهذا هو الأقلّ، أو أمكن من اثنين من عشرةٍ ممن استحقَّ التعزيرَ على حسب اجتهادِ الحاكم من بلوغٍ به أو وقوفِه دونه فتُجُوِزَ الحدّ في كليهما وتُغُولِيَ في نكالهما من المثلة في الواجب عليه من القصاص، إما بالرِماح وإما بالذبح بعد السياط، ومن إماته النَفْسِ فيمن وجب عليه ما دون ذلك من التعزير بالسوط، وهذا أعظمُ من الأخرى، وإن كان كلاهما عظيماً؛ فقد قال مَعْن[1]: أفتى مالكٌ عند والي المدينةِ بِقَتْلِ رجل، فأمر الوالي بضربِ وسطِه، فتهيأ للقيام، وقال: لا أقعد في مكان مثل فيه بأحد، قال الله تعالى: ﴿**فَضَرْبَ الرِقَابِ**﴾[2]. فقال الوالي: اقعد أبا عبد الله لا نَضْرِبُ وسطه، اضرِبوا عُنُقَه. انتهى[3].

وهذه المعاني التي انجرَّ بنا الكلامُ (ص ٩٤) إليها، وإنْ لم يَكُنْ من جِنْسِ ما تَكَلّمْنا فيه، فهي فيما أعتقِدُهُ اعتقاداً تامّاً من آكد ما تُسْتَدْفَعُ به التهمات، إذا امتثل ما أمر به العلماء، وتوقّي ما نَهوْا عنه، ولرقّت الجادّة، وشوهد الإسرافُ على النفوس، فرُوجِعَتِ التوبةُ، واعتُمِدَت التقوى حسبما سبق.

ولنعطف عنان هذا الكلام إلى ما كنّا بصدده. فإن كان الابتلاءُ يأتي[4]

---

(١) ـ أبو يحيى معن بن عيسى بن يحيى بن دينار من كبار أصحاب الإمام مالك، وهو الذي قرأ عليه الموطأ للرشيد وابنيه، وكان يتوسد عتبة مالك فلا يلفظ شيئاً إلا كتبه، وهو راوية ثقة، مات بالمدينة سنة ١٩٨هـ (ترتيب المدارك ١/٣٦٧ ـ ٣٦٩).

(٢) ـ آية ٤ من سورة محمد.

(٣) ـ ترتيب المدارك ١/٢١٩.

(٤) ـ في الأصل غير معجمة.

مما يُنْتِجُهُ شَرُّ حاسدٍ أو لَخى[1] كاشِحٍ ، فالاستعاذةُ هنا دائمةٌ مشروعة، على حسْبِ ما نَصَّتْ عليه خاتمةُ سُورةِ الفَلق، ولما علم الله من وقوعِ هذه الخَلّة الذميمة التي هي الحسد حرّمها وختم هذه السورةَ الكريمةَ بالاستعاذَةِ من شَرِّ المتّصف بها[2] وورد عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم الاستعاذةُ من شَماتَةِ الأعْداءِ[3] لا سيّما إن لَزَّ الاضطرارُ إلى مداخَلتِهِ، ودعا موجب المداراةِ إلى ملابسته، وفي ذلك يقولُ المتنبّي[4]:

وَمِنْ نَكَـدِ الـدُّنْيا على الحُرِّ أَنْ يَرَى ... عَدُوّاً له ما مِنْ صَداقَـتِـهِ بُدُّ

وَحَسَدُ[5] هذا العدوِّ الكاشحِ ، والحسودِ المُنافِسِ ، مِنْ أعظمِ ما يلحقُ من لدنه الابتـلاء، فهو بنفسِهِ من أشدِّ التمْحيص، فكيف بما يسعى فيه من ضرّ! أو يتسبب فيه من شَرّ؟! ولذلك لا ينبغي للعاقلِ أن يحقر من هذا الجنس أحداً كما قال الشاعر:

لا تَحْقِـرَنْ أحـداً عَادَيْتَـه أبـداً ... وكُـنْ على حَذَرٍ ما عِشْتَ من ضَرَرِهْ
فالسقْطُ ليس بمـأمـونٍ لقِلَّتِـهِ ... والسَّهْمُ يَقْتُـلُ مِنْ بُعدٍ على صِغَرِهْ

وأعْدادُ القضايا في هذا الباب كثيرة، وغائلةُ الحَسَدِ على قديمِ الزمان شهيرة، ومداراةُ المنافسةِ صعبةٌ عسيرة. ومما يخفِّفُ الآلامَ عمّن لحقه أثَرُ الحسـادة كونُ الحـاسِدِ من حسده في بلاءٍ مُقيم، وجَهْدٍ عظيم، كما قال

---

(١) ـ في الأصل: لغى، واللَخى كثرة الكلام في باطل، ولاخى به: وشى به (القاموس المحيط).

(٢) ـ الآية ٥ من سورة الفلق.

(٣) ـ صحيح البخاري ٧/٢١٥، صحيح مسلم ٨/٧٦، مسند ابن حنبل ٢/١٧٣، ٢٤٦.

(٤) ـ العُرف الطيّب في ديوان أبي الطيّب ١/٢٠٥.

(٥) ـ في الأصل: وحُسْنُ.

بعضهم: «ما رأيتُ ظالماً أشْبَهَ بمظلومٍ من الحسود»[1]. ونظمه ابن المعتز فقال[2]:

لَجَّ الزَّمانُ فَلَيْسَ يعتب طرفةً[3] إنّ الزمانَ على الكريمِ لَئيمُ
لم يَدْرِ ما تَحْتَ التجمّلِ حاسِدٌ بالغَيْظِ يَقْعُدُ مرّةً ويقومُ
قل للحسودِ إذا تَنَفَّسَ طعنةً[4] يا ظالماً وكأنَّه مَظْلُومُ

وقال الآخر: «الحسودُ يأخذُ نصيبَه من غُموم الناس، وينضافُ إلى ذلك غمّه بسرور[5] الناس، فهو أبداً مهموم»[6] ولهذا المعنى قال ابنُ المعتزّ ـ رحمه الله: «يُشْفِيكَ من الحاسدِ أنّه يَغْتَمُّ عِنْدَ سُرورِك»[7]. وفي الوصاة بعدمِ الاغترار بما يبدو من ضحكِ الحاسد[8] إليك، وإقبالِه بالبِشْرِ عليك، يقول أبو علي محمّد بنُ الحسين بن الشبل[9] البغدادي[10]:

---

(١) ـ العقد الفريد ٢/١٤٨، نسبه إلى الحسن بن علي، وفي عيون الأخبار ٢/٩ منسوبة إلى ابن المقفع، وانظر أدب الدنيا والدين للماوردي ص ٢٦٠، وربيع الأبرار ٣/٥٢.

(٢) ـ ديوان ابن المعتز ٤١١.

(٣) ـ في الديوان: فليس يعبث صرفه.

(٤) ـ في الديوان: صعدةً.

(٥) ـ في الأصل: بدور.

(٦) ـ التمثيل والمحاضرة ٤٥١، ربيع الأبرار ٣/٥٠، المخلاة للعاملي ٣٥ منسوبة إلى ارسطاطالس.

(٧) ـ زهر الآداب ٣/٨٢٦، التذكرة الحمدونية ٢/١٨٠، أدب الدنيا والدين ٢٦١، التمثيل والمحاضرة ٢٩، ٤٥٢، منسوباً إلى عثمان ـ رضي الله عنه، ربيع الأبرار ٣/٥١ منسوباً إلى لقمان.

(٨) ـ في الأصل: الحسد.

(٩) ـ في الأصل: السبل.

(١٠) ـ محمد بن الحسين بن عبد الله بن أحمد بن يوسف بن الشبل، أبو علي الحكيم البغدادي، شاعر ظريف مطبوع، وكان متكلماً وفيلسوفاً، مولده ومنشؤه ببغداد وبها توفي سنة ٤٧٣هـ أو ٤٧٤هـ. (عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٣٣٣، دمية القصر ١/٣٥٢، فوات =

فلا تَغْتَرِرْ[1] بالبِشْـرِ مِنْ وَجْه حاسِدٍ		فَبـرْدُ ابتسام الثّغْر غطّى على الحِقْدِ
فإنّ مَشُـوبَ السُّمّ لا شَكّ قاتِـلٌ		وإنْ هو أخْفَتْ طَعْمَهُ لَذَّةُ الشُّهْدِ

وقال ابنُ وكيع الصدقي[2]: «الحاسدُ وإن لم تودعْهُ وَتْرا، ولم تَبْغِهِ شَرّاً، يفرحُ بما يَضُرُّكَ، ويَغْتَمُّ بما يَسُرُّك، ولا يرحمُكَ في المصائب، ولا يُعِينُك على النوائب، أرضى ما يكون من الدهر إذا أسْخَطَك، وأسخط ما يكون عليه إذا أرضاك، لا ينفعُك عنده أن تشركَه في الحال، أو تعودَ عليه بفضلِ المال، ولا يرضى إلّا بعدم النشب، وربّما لم يقنع إلّا بالعَطَب، قال: ومما رُوِيَ في ذلك قال الاسكندر لسُقراط: أيُّها الحكيم، ممّن ينبغي للإنسان أن يتحفّظ؟ قال: من مَكْرِ أعدائه ومن حَسَدِ أصدقائه»[3]. وكان معاوية يقول: «كلُّ إنسانٍ أقْـدِرُ أنْ أُرْضِيَه إلّا حاسدَ نعمةٍ فإنه لا يُرضيه إلّا زوالُها»[4]. وكان يقال: «الحاسِدُ[5] عدوٌّ مهين لا يدرك وَتْرَهُ إلّا بالتمنّي»[6]. (ص ٩٥) وقال ابنُ بسّام[7]:

=الوفيات ٣/ ٣٤٠، الوافي بالوفيات ٣/ ١١).

(١) ـ تغرر.

(٢) ـ في الأصل ابن وكيع والصدقي، وهو أبو محمد الحسن بن علي بن أحمد بن محمد بن خلف بن حيان بن صدقة بن زياد الضبي المعروف بابن وكيع التنيسي شاعر مشهور، أصله من بغداد توفي سنة ٣٩٣هـ (انظر يتيمة الدهر ١/ ٤٣٤، وفيات الأعيان ٢/ ١٠٤، الوافي بالوفيات ٣/ ٤٣).

(٣) ـ الصداقة والصديق لابي حيان ٧٠، ٢٤١ منسوباً إلى ديوجانوس.

(٤) ـ العقد ١/ ١٤٨، بهجة المجالس ١/ ٤١٤، محاضرات الأدباء ١/ ٢٥٣.

(٥) ـ في الأصل: الحسد.

(٦) ـ عيون الأخبار ٢ / ١٠ وصاحب هذا القول هو يحيى بن خالد.

(٧) ـ لم أجد هذه الأبيات فيما جُمع من شعر ابن بسّام (انظر: ابن بسّام حياته وشعره، تحقيق الدكتور مزهر السوداني، مجلة المورد، المجلد ١٥، العدد الثاني، ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦م ص ١٠٣ ـ ١٤٢).

لا راحــة لحســودٍ من مغــائِظِه | ولا رضـا أبـداً ما عاشَ من أحَدِ
كأنَّـمـا خَلَقَ الله الحَسُـودَ لكي | يغتـاظَ فهـو رهينُ الغَيْظِ والكَمَـدِ
يرى الحسـودُ عليه نِعْمةً عَظُمَتْ | زوالَ نِعْـمـةِ مَنْ يرميه بالحَسَـدِ

وقال بعضُ أهل العلم: «إذا أردتَ أن تَسْلَمَ من الحاسدِ فغمّ عليه أمورَك»[1]. ودخل بعض المتطببين على رجل مريض، فقال له: ما تشكو؟ قال: ما بي علّة إلّا الحسد للناس. قال: فليس تُعافى إلّا يومَ القيامة لأنَّه يومَ تزولُ فيه نِعَمُ المخلوقين. وقال العتبي: «عجباً للحسود المعذَّب نفسَهُ بإحسانِ الله إلى خلقه يرى أنَّ النعمةَ عليهم نقمةٌ عليه والنقمةَ عليهم نِعْمةٌ عليه فهو عند من جهله مظلوم وهو عند من خبره ظالم، والناسُ في راحةٍ وهو في تَعَبٍ من خوفٍ دائم ونَفَسٍ متتابع، فيالها من طبيعةٍ ما أدناها ونفسٍ ما أشقاها». وكان يقال: «الحسودُ مغتاظٌ على مَنْ لا ذَنْبَ له بخيلٌ بما لا يَمْلِكُه»[2]. ولابن أبي طاهر[3]:

وحـاسـدٍ يحسـب في حَطِّهِ | إيَّايَ ما يدعـو إلـى رَفْـعِـهِ
أصبحتُ بالفَضْـلِ الذي لم أَزَلْ | أَجْـمَـعُ ما فَرَّقَ من جَمْـعِـهِ
بِمَـوْضِـعِ الـطَّرْفَـةِ من عَيْنِـهِ | ومـوضـعِ الـوَقْـرةِ مِنْ سَمْعِـهِ
ولـيسَ لي ذَنْـبٌ سوى ما رأى | مِنْ نعـمـةِ الله ومِـنْ صُنْعِـهِ

وإذا أدرك الحاسدُ بُغْيَتَه مِنْ خُمولِ رُتْبَةٍ مِن حَسَده وزوالِ نعمةٍ من فوّق إليه سَهْمَ بَغْيِهِ وسدّده، فقد يستفاد في أثناء ذلك من نشرِ الفضائل واجتناب

---

(١) ـ العقد الفريد ٢ / ١٥٠ وفيه: فعمّ.
(٢) ـ بهجة المجالس ٢ / ١٩٢، زهر الآداب ٣ / ٨٢٦ والقول فيه منسوب لابن المعتز، وفي التذكرة الحمدونية ٢ / ١٧٨ منسوب للإمام علي.
(٣) ـ هو أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر البغدادي، مرورزوي الأصل، أحد البلغاء الشعراء الرواة، توفي ببغداد سنة ٢٨٠ هـ وكان مولده سنة ٢٠٤ هـ. (انظر: معجم الأدباء ٣ / ٨٧، تاريخ بغداد ٤ / ٢١١).

الرذائل ما يُرْغِمُ الحَسُودَ بعد انقضاء زَمَنِ الابتلاء، وعودةِ ما عوّد الله من الآلاء، كما [قال][1] حبيبُ بن أوس[2]:

وإذا أرادَ الله نَشْرَ فضيلةٍ ... يَوْماً[3] أتاحَ لها لِسَانَ حَسُودِ
لولا اشتِعالُ النارِ فيما جَاوَرَتْ ... ما كان يُعْرَفُ طِيبُ فَضْلِ[4] العُودِ

انتهى. وكما قال أبو حيّان[5]:

عداتي لَهُمْ فَضْلٌ عَلَيَّ ومِنّةٌ ... فلا أذْهَبَ الرحمنُ عنّي الأعادِيا
هُمُ بحثوا عن زَلّتي فاجْتَنَبْتُها[6] ... وهم نافَسُوني فاكتَسَبْتُ المَعالِيا

وكما أنّ غائلةَ الحَسَدِ ابتلاءٌ لمن سَلَّطَ الله الحاسد عليه، وفَوَّقَ أسْهُمَ شرّه إليه، فكذلك هذه الخَلَّةُ الذميمة هي من أعظم الإملاءات لمن[7] اتّسم بصفتها الدنيّة، لرجاءِ من حُسِدَ أن يعظم الله أجْرَه، وتعلّق حقه عن حسده وخلوّ الحاسد من ذلك، وإنما هو كما سَبَقَ في وصفه مغمومٌ بِنِعَمِ الله على خلقه، مكروبٌ

---

(١) ـ في الأصل: كما.

(٢) ـ زهر الآداب ١ / ٢٤٧، العقد ٢ / ١٥٢، عيون الأخبار ٢ / ٨، بهجة المجالس ١ / ٤١٦، ومحاضرات الأدباء ١ / ٢٥٤.

(٣) ـ في زهر الآداب والعقد: طويت.

(٤) ـ في زهر الآداب والعقد: عرف.

(٥) ـ أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيّان الغرناطي إمام نحاة الأندلس، ولد بمدينة مطخشارش في الأندلس سنة ٦٥٤ هـ وتوفي بالقاهرة سنة ٧٤٥ هـ، وله مصنفات كثيرة جاوزت الستين (انظر ترجمته في: بغية الوعاة ١ / ٢٨٠ (تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، القاهرة ١٩٦٤م) الكتيبة الكامنة ٨١، نفح الطيب ٢ / ٥٣٥). وانظر البيتين في بغية الوعاة ١ / ٢٨٣، الكتيبة الكامنة ٨٥، نفح الطيب ٢ / ٥٣٦، وورد البيتان أيضاً في ديوان أبي حيان ١٣٩، الافادات والإنشادات ١٤٩.

(٦) ـ في الكتيبة الكامنة: فسترتها.

(٧) ـ في الأصل: لم.

بإحسانِ الربِّ إلى عبيده، فهل ينتهي كمن يتعلق بمدح الجود الإلهي، وفيض المنح الربّاني، ولله في كل لحظةٍ على عبيده نِعَمٌ لاتُحصى ومِنَحٌ لا يمكن أن تُسْتَقْصى، فَمَنْ أعظمُ ابتلاءً ممن يكونُ ذلك سبباً في كَرْبه، وموجباً مستقلاً في إثارة غمّه، أعاذنا الله من ذلك، وعافانا من مثلِ هذا الابتلاء، وجعلنا ممّن يُسَـرُّ بما يسنّي الله لخلقه من نعمه، ويبتهجُ بما يدفع عنهم من نقمه.

وقد وقفتُ للإمامِ فخر الدين الرازي[1] على فَصْلٍ بَيَّـنَ فيه الأصولَ التي يَنْشَأُ عنها؛ فقال في تَفْسيرِ الفاتحة: «اعلم أنَّ المَداخِلَ اللاتي يأتي الشيطانُ من قِبَلِها في الأصلِ ثلاثة: الشهوةُ والغَضَبُ والهوى، فالشهوةُ بهيميّة، والغضبُ سبعيّة، والهـوى شيطانيّة، فالشهوةُ آفةٌ لكنّ الغضبَ أعظمُ منه، والغَضَبُ آفةٌ لكنّ الهوى أعظَمُ منه. وقوله تعالى: ﴿وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشاءِ﴾[2] المـرادُ (ص ٩٦) منـه آثـار الشهوةِ، وقوله: ﴿والمُنْكَرِ﴾[3] المراد منه آثار الغَضَب، ﴿والبَغْيِ﴾[4] المراد منه آثار الهوى؛ فبالشَّهْوةِ يصيرُ الإنسان ظالماً لنفسه، وبالغضبِ يصير ظالماً لغيره، وبالهوى يتعدّى ظُلْمُه إلى حَضْرَةِ جلال الله، فلهذا قال: الظُّلْمُ ثلاثة: فَظُلْمٌ لا يُغْفَر، وظُلْمٌ لا يُتْرَك[5]، فالظلمُ الذي لا يُغْفَرُ هو الشِرْكُ بالله سبحانه، والظلمُ الذي لا يُتْرَكُ هو ظلمُ العبادِ بَعْضَهم

(١) ـ أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التميمي البكري الطبرستاني الأصل الرازي المولد، يلقب بفخر الدين ويعرف بابن الخطيب، له مؤلفات في علم الكلام والفقه والتفسير والنحو وغيرها، من أشهرها تفسير القرآن، غير أنه لم يكمله، ولد سنة ٥٤٤ هـ بالريّ وتوفي سنة ٦٠٦ هـ بمدينة هراة (انظر: وفيات الأعيان ٤ / ٢٤٨، الوافي بالوفيات ٤ / ٢٤٨، ذيل الروضتين ٦٨).

(٢) ـ آية ٩٠ من سورة النحل.

(٣) ـ الآية السابقة.

(٤) ـ الآية السابقة.

(٥) ـ يبدو أن هناك جملة ساقطة تقديرها: وظلمٌ عسى الله أن يتركه، وذلك بالاعتماد على التفصيل الوارد لاحقاً.

بعضاً، والظلمُ الذي عسى الله أنْ يتركَه هو ظُلْمُ الإنسانِ نفسه؛ فَمَنْشَأُ الظلمِ الذي لا يُغْفَرُ هو الهوى، ومَنْشَأُ الظُّلْمِ الذي لا يُتْرَكُ هو الغَضَب، ومَنْشَأُ الظُّلْمِ الذي عسى الله أن يتركه هو الشَهْوة. ثم لها نتائجُ؛ فالحِرْصُ والبخلُ نتيجةُ الشَّهوة، والعُجْبُ والكِبْرُ نتيجةُ الغَضَب، والكُفْر[1] والبِدْعَةُ نتيجةُ الهوى. فإذا اجْتَمَعَتْ هذه السّتةُ في بني آدم تولَّد منها سابعٌ، وهو الحَسَدُ، وهو نهايةُ الأخلاقِ الذميمة، كما أن الشيطانَ هو النهايةُ في الأشخاصِ المذمومة، فلهذا السببِ خَتَمَ الله مجامعَ الشُرور الإنسانيةِ بالحسد، وهو قوله تعالى: ﴿ومِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إذا حَسَد﴾[2]، كما خَتَمَ مجامعَ خبائثِ الشيطانِ بالوَسْوَسَةِ، وهو قولُه تعالى: ﴿الّذي يُوَسْوِسُ في صُدُورِ النّاس، مِنَ الجِنَّةِ والنَّاسِ﴾[3]. فليسَ في بني آدمَ أشَرُّ من الحاسد، كما أنّه ليسَ في الشيطانِ أشَرُّ من الوَسْواس، بل قيل: «الحاسِدُ أشَرُّ من إبليس، لأنّ إبليس رُوِيَ أنّه أتى بابَ فرعون وقرع الباب، فقال فرعون: مَنْ هذا؟ فقال إبليس: لو كنتَ إلهاً لما جهلت. فلمّا دخل قال فرعون: أتعرفُ في الأَرْضِ شرّاً منكَ ومنّي؟ فقال: نَعَمْ الحاسدُ وبالحَسَدِ وَقَعْتُ في هذه المحنة. انتهت[4].

فتأمل الحَسَدَ ثَمَرَة ما هو من الأخلاقِ الرديئة، وقانا الله منه.

وقد أبدع ابنُ شَرَف[5] في رسالته المسماة بـ «سرِّ البرّ» في الاستهانةِ بأمْـر الحـاسدِ والإبانةِ عن مجامعِ القبائح التي اشتملت عليها هذه الخَلَّة الذميمة، فقال: «واعْلَمْ أنَّ كلَّ عدوٍّ يحتاجُ مَعَهُ إلى مُجاهَدةٍ واستعدادٍ للمدافعة إلاّ مَنْ عاداك مِنْ حَسَد، فإنّه قد كفاك جُلَّ أمْرِه، وتولّى دونَكَ حَرْبَ نفسه،

---

(١) ـ في الأصل: الكبر.

(٢) ـ الآية ٥ من سورة الفلق.

(٣) ـ الآيتان ٥، ٦ من سورة الناس.

(٤) ـ للرازي كتاب اسمه «تفسير سورة الفاتحة» توجد منه عدة نسخ مخطوطة منها نسخة في الحرم الإبراهيمي في الخليل تحمل الرقم ٣١.

(٥) ـ هو أبو الفضل جعفر بن أبي عبد الله محمد بن شرف، أسلفنا التعريف به.

لأنّ الحسودَ مغلولُ اليدِ مشغولٌ بالكَمَد، وهو ككاتِمِ النارِ تَحْتَه، إنْ خَفَّضها أحرقَتْهُ، وإن رفَّعها فَضَحَتْهُ، فصار بذلك جُنْداً على نفسِه وَعَوْناً عليها لعدوّه، فالحَسَدُ من مجامعِ القبائح، لأنه مؤلَّفٌ عن الغضبِ والشَهْوةِ والفُضولِ والغدْرِ والعَجْزِ والبُخْل، فأمّا الغَضَبُ فإنّ الحَسَدَ لا يكونُ إلّا عن غَضَبٍ على النِعَمِ، إلّا أنّه أسوأُ الغَضَب لأنه غَضَبٌ على الخالِقِ في حُكْمِهِ، وغَضَبٌ على المخلوق فيما لم يَجْنِهِ عليه، فهو أسوأُ الغَضَب. وأما الشهوةُ فإنّ الحَسَدَ لا يكونُ إلّا بشهوةٍ في زوالِ النعمة عن المحسود إلّا أنّها مع ذلك أوضعُ الشهوات لأنّها شهوةٌ لا يصل إلى مُشْتَهيها منها شيءٌ، فهذه خساسةٌ بلا أرْش[1]. وأمّا الفُضُولُ فلأنَّ الحَسَدَ لا يكونُ إلّا برغبةٍ وطلبٍ لما لا يَعْني من أمْرِ نفسه متكلّف لضرّ غيره، وإنما غايةُ الفُضول أنّه عَمَلٌ لا يَضُرُّ أحداً، ولا يَنْفَعُ متكلّفه، وهذا يضرّ بالقاصِدِ له، والمقصودِ به، فهو أخسُّ الفضول. وأما الغَدْرُ، فلأنَّ الحَسَدَ إنما يكونُ طائراً عن كامِنٍ، وطارئاً عن آمِنٍ، إلّا أنّه أسوأُ الغَدْر، لأنَّ الغَدْرَ يكونُ لِنَيْلِ فائدةٍ أو شِفاءٍ من تِرَةٍ، وغَدْرُ الحسودِ لا يكونُ إلّا ابتداءً من غَيْرِ علّةٍ توجبه. وأمّا العَجْزُ فإنَّ الحَسَدَ لا يكونُ إلّا من مقصر عن نعمةٍ للحسود، والقُصورُ، عَجز، إلّا أنّه هاهنا من ألأمِ العَجْزِ لأنَّ العَجْزَ إنما يكونُ عن تعذّرِ الطَلَب لمانعٍ ما، وعجزُ الحَسودِ إنما يكونُ مختصّاً بالعَجْزِ عمّا يعني للشغل بطَلَبِ ما لا يعني، وهذا ألأمُ العجز. واعْلَمْ أن الحسودَ وحيدٌ مع الكَثْرةِ، متوحِّشٌ مع الأُنس، خائفٌ مع البراء، وهو مع الدَعَةِ في هَرْج، ومع النِعْمةِ في فَقْر، ومع الصِحَّة في سَقَمٍ، أما وحدته فلأنَّ الحسودَ مُبْغِضٌ للناس مُبْغَضٌ من الناس، ولا مَحبَّةَ مع البُغْضِ ولا أُلْفة مع فَقْدِ المحبّة ومن لا أُلْفَةَ له فهو وحيدٌ مع الكثرة، وأما خوفُه فلأنه مُرْتابٌ[2] بما يكتمه، خائفٌ من ظهور ما يُسِرُّه، وأما هرجُهُ في الدَّعَةِ فلأنه مشغولٌ عن الاستمتاع بِدَعَتِهِ بوقوعِهِ (ص

(١) ـ من معاني الأرْش: الخصومة (القاموس المحيط: أرش).

(٢) ـ في الأصل: مرتب.

٩٧) في خزال[1] أهلِ النعمة، وببُغْضِ أهْلِ الفضلِ على فضيلته، وإيثارِه[2] البغي وشرَّ[3] السعي. وأما فقرُه في حالِ النّعمة فلأنه لا يستسِيغُ مَضْغَها[4] ولا يَلذُّ بنعمة، فكأنه قد فقد السَّعَةَ، وفارق النِعْمة، ومن فارق النعمة فهو فقير. وأما سَقَمُه في الصِحّة، فلأنّ قَلْبَهُ حرّان، وصدره ملآن، وَجَعُ الحِقْدِ يَطْرُقُه، وحُمّى الحَسَدِ تُقْلِقُه، ونارُ الأسَفِ تَحْرِقُه، فَداؤهُ عُضال، وعَيْشُه أهْوال، وغايتُهُ في سوءِ الحال لا تنال»[5].

وقد زاد على ما ذكره الفخر[6] بعضَ زياداتٍ، إلّا أنَّ التقسيمَ الأول عجز منه شرح البخل، فلا أدري أنَقَصَ من النسخةِ من حيثُ نَقَلْتُ أم سَقَطَ للمؤلف؛ فالله أعلم أيّ ذلك كان.

وفي رجاءِ الإدالة على العدوّ تخفيضٌ لما لحق مِنْ قِبَلِه، وطمأنينةٌ للقلب بما أجرى الله من العادةِ في انعكاسِ أمَلِه.

كما حكى المدائنيّ[7] قال: كان الوليدُ بنُ يزيد مكرماً لطريحِ بن

---

(١) ـ خزله عن حاجته يخزله: عوّقه، وخزل الشيء: قطعه. (القاموس المحيط: خزل).

(٢) ـ في الأصل: وأثاره.

(٣) ـ في الأصل: ونمر.

(٤) ـ في الأصل: مطغها.

(٥) ـ هنا ينتهي النص الذي نقله المؤلف عن رسالة سرّ البر لابن شرف القيرواني ولم تصلنا هذه الرسالة.

(٦) ـ الفخر الرازي، وقد سبق ذكره والترجمة له.

(٧) ـ لعل المقصود هنا أبو الحسن علي بن محمد المدائني مؤلف كتاب «الفرج بعد الشدة والضيقة» وهو مما اعتمد عليه أبو علي التنوخي في كتابه «الفرج بعد الشدّة» (انظر: الفرج بعد الشدة للتنوخي ١ / ٥٤) وقد وردت القصة المذكورة في الفرج بعد الشدّة للتنوخي ١ / ٣٥٦ ـ ٣٦٠ مع اختلاف في اللفظ.

اسماعيل الثقفي[1]، وكانت له منه منزلة ومكانة، فكان يُدْني مجلِسَه، وجعله أوَّلَ داخلٍ عليه وآخِرَ خارجٍ عنه، ولم يَكُنْ يَصْدُرُ إلاّ عن رأْيِهِ فاستفرغ مَديحَهُ كلّه فيه، وعامّة شعره، فحسده ناسٌ من أهل بيت الوليد، وقدِمَ حمّادُ الراوية[2] الشامَ يشكو[3] ذلك إليه، وقالوا له: قد والله ذَهَبَ طريح بالأميرِ فما لنا منه لَيْلٌ ولا نهار، فقال حمّاد: «ابغوني[4] من يُنْشِدُ الأميرَ ببيتي شِعْرٍ وأُسْقِطُ مَنْزِلَتَه» فطلبوا من الخصيّ الذي يقومُ على رأسِ الوليد، وجعلوا له عَشَرَةَ آلافِ درهم، أنْ يُنْشِدَهُما الأميرَ في خَلْوة، فإذا سألَ عن قَوْلِ مَنْ ذا؟ قال مِن قَوْلِ طريح. فأجابهم الخصيُّ لذلك وعَلَّمُوه البَيْتَين. فلما كان ذاتَ يومٍ دخل طريح على الوليد، وفَتَحَ البابَ، فأذن للناس فجلسوا طويلاً، ثم نهضوا، وبقي طريح مع الوليد فدعا بغَدائه، وتغديًا جميعاً، ثم إن طريحاً خرج وركب إلى منزِله، وتركَ الوليدَ في مجلسِهِ، وليس معه أحد، فاستَلْقى على فِراشه، فاغتَنَم الخصيُّ خَلْوَتَهُ، فاندفَعَ يُنْشِد[5]:

سِيري رِكابي إلى مَنْ تسْعَدِينَ بِهِ ... فقد أَقَمْتُ بدارِ الهونِ ما صلحا
سيري إلى سيِّدٍ سَمْحٍ خلائقُهُ ... ضَخْمِ الدَّسيعةِ قَرْمٍ يَحْمِلُ المِدَحا

---

(١) ـ هو أبو الصلت طريح بن اسماعيل بن عبيد الثقفي من شعراء الخليفة الأموي الوليد ابن يزيد، وأكثر مدحه في هذا الخليفة، وعاش إلى أيام الخليفة العباسي الهادي وتوفي سنة ١٦٥ هـ. (الاغاني ٤ / ٣٠٢، الفرج بعد الشدّة ١ / ٣٢٧، الشعر والشعراء ٤٢٧، وبعض أخباره في العقد ١ / ٢٢٣، ٦ / ١٢٥).

(٢) ـ هو حمّاد بن أبي ليلى سابور بن المبارك بن عبيد الديلمي يكنى أبا القاسم ويلقب بحمّاد الراوية بسبب كثرة روايته لأيام العرب وأشعارهم وأخبارهم ولغاتهم وأنسابهم، وكانت وفاته سنة ١٥٥ هـ (الأغاني ٦ / ٦٧، وفيات الأعيان ٢ / ٢٠٦ ـ ٢١٠).

(٣) ـ في الأغاني: فشكوا ذلك إليه.

(٤) ـ في الأصل: أبعدني، وفي الفرج بعد الشدّة: اطلبوا لي.

(٥) ـ البيتان بنصهما في الفرج بعد الشدة ١ / ٣٥٧، الأغاني ٤ / ٣١٣.

فأصغى الوليدُ بِسَمْعِهِ إلى الخصيّ، فأعادها الخصيُّ غَيْرَ مرّة، فقال الوليد: وَيْحَكَ يا غُلام! مِن قَوْلِ مَنْ هذا الشعر؟ قال: مِنْ قَوْلِ طريح. فغضِبَ الوليدُ حتّى امتلأ غضباً، ثم قال: والهفاً على[1] أمٍّ لم تَلِدْني، قد جَعَلْتُهُ أوَّلَ داخلٍ وآخِرَ خارج، ثمّ يزعم أنّ هشاماً[2] يحمل المِدَحَ ولا أحملها. ثم قال: عليّ بالحاجب، فأتاه، فقال: لا أعلم ما أذِنْتَ لطريح ولا أرينّه في بسيطِ الأرْض، فإن حاولك[3] فاحطُمْه بالسيف. فلما كان بالعشي وصُلّيت العصرُ جاءَ طريح للساعةِ التي كان يُؤْذَنُ له فيها، فدنا من البابِ ليدخل، فقال له الحاجب: وراءك. فقال: ما لك؟ هل دَخَلَ على وليّ العهد أحد؟ قال: لا، ولكنْ ساعةَ وَلَّيتَ من عنده دعاني وأمَرَني ألاّ آذَنَ لك، وإن حَاولْتني[4] في الإذن حطمتُك بالسيف. فقال: لك عشرةُ آلافِ درهم، واذَنْ لي في الدخول عليه. فقال له الحاجب: والله لو أعطَيْتَني خراجَ العراق ما أذِنْتُ لك، وما لك من خيرٍ في الدخول، فارجِعْ. قال: ويحك، هل تعلم من دهاني[5] عنده؟ قال الحاجب: لا والله قد دخلتُ عليه وما عندَه أحد، ولكنّ الله يُحْدِثُ ما يشاء في الليلِ والنهار. قال: فرجع طريحْ، فوقَفَ بباب الوليد سنة، لا يخلص إليه ولا يقدِرُ على الدخول، وأراد الرجوعَ إلى بلدِه وقومِه، فقال: والله إنّ هذا لعجزٌ مِنْ غيرِ[6] أنْ ألقى وليَّ العَهْدِ، فأعلمَ ما دهاني عنده. ورأى أُناساً كانوا له أعداء قد فرِحوا بما كان من أمرِه، فكانوا يدخُلون على الوليد ويحدّثونه ويَصْدُرُ عن

---

(1) ـ في الأصل: والبقا، وفي الفرج بعد الشدّة: والهف أمٍّ لم تلدني. . والصواب من الأغاني.

(2) ـ هشام بن عبد الملك بن مروان (٧١ ـ ١٢٥ هـ) خلف أخاه يزيد بن عبد الملك على خلافة الأمويين سنة ١٠٥ هـ وتوفي بالرصافة سنة ١٢٥ هـ (مروج الذهب ٣ / ٢١٦).

(٣) ـ في الفرج بعد الشدة: جادلك.

(٤) ـ في الفرج بعد الشدة: جادلتني.

(٥) ـ في الأصل: دماني.

(٦) ـ في الفرج بعد الشدة: إن هذا لعجز، أرجع من غير. .

رايهم، فلم يَزَلْ يلطفُ للحاجبِ ويمنّيه حتى قال له الحاجب: «أمّا إذْ أطَلْتَ المُقام، فإني أكْرَهُ أن تنصرِفَ على حالِكَ هذه، ولكنّ الأميرَ إذا كان يومَ كذا وكذا دخل الحمامَ (وأمَرَ بسريره فأُبْرِزَ، وجلس عليه وأَذِنَ للناس فدخلوا، والوليد يَنْظُرُ إلى مَنْ أقبل)[1]. وبعث الحاجبُ إلى طريح، فأقبل وقد تتامَّ الناسُ، فلما رآه الوليدُ (ص ٩٨) من بعيدٍ صَرَفَ وَجْهَهُ استحياءَ أن يَرُدَّه من بينِ الناس، فدنا فَسَلَّمَ، فلم يَرُدَّ عليه، فقال طريح يستعْطِفُهُ:

نامَ الخَلِيُّ من الهُمومِ وباتَ لي[2] ليلٌ أُكابِدُهُ وَهَمٌّ مضلع[3]
وَسَرَيتُ* لا أكْرى ولا في لذّةٍ أرْقى وأغفلُ ما يفيد** الشجّع[4]

في قصيدة طويلة[5] ليس من غرضنا ما هو مثلها، فأدناه الوليدُ وقرّبه، وضَحِكَ إليه، وعاد له ما كان عليه. انتهت*.

ولقد ذكّرني ردُّ الحاجب طريحاً هذا، وموقِفُه موقفَ ذلك الخِزْيِ الذي نسألُ الله أن يُعِيذَنا منه في الدُّنيا والآخرة، أبياتاً لمحمّد بن حازم[6] عَدَّد فيها

---

(١) ـ ما بين القوسين ورد في الفرج بعد الشدة على النحو التالي: ثم أمر بسريره فأبرز، وليس عليه يومئذ حجاب، فإذا كان ذلك اليوم حضرت فدخلت عليه وظفرت بحاجتك ويكون لي أنا عُذْر. فلما كان ذلك اليوم دخل الحمام وأبرز سريره وجلس عليه واذن للناس فدخلوا.

(٢) ـ في الفرج بعد الشدة: وبتُّ في.

(٣) ـ في الفرج بعد الشدة: مضبع.

* ـ في الأغاني: وسهرت.

** ـ في الأغاني: لقيت الهجّع.

(٤) ـ ورد هذا البيت في الفرج بعد الشدة على النحو التالي:

وسهرتُ لا أسري ولا في لذّةٍ أرقي وأعقدُ ما لقيتُ المفجع

(٥) ـ انظر تتمة القصيدة في الفرج بعد الشدة (١ / ٣٥٩ ـ ٣٦٠) والأغاني ٤ / ٣١٤ - ٣١٥.

* ـ وردت هذه القصة في الفرج بعد الشدة ١ / ٣٥٦ ـ ٣٦٠، الأغاني ٤ / ٣١٢ ـ ٣١٥.

(٦) ـ هو أبو جعفر محمد بن حازم بن عمرو الباهلي، وصفه ابن المعتز بأنه من الشعراء الذين سارت أسماؤهم بخلاف أفعالهم، وسار شعره بالقناعة بينما كان شديد الحرص وشديد =

أنواعاً من البلاء، وأصنافاً من العَذَاب، وجعلها أهْوَنَ عليه من عُبُوسةِ الحجّاب.

فما الظنُّ منه بمثل ذلك الردّ! فقال(1):

لَقَلْعُ ضِرْسٍ وضِيقُ حَبْسٍ — وقَتْلُ نَفسٍ وَرَدُّ أمْسِ
وبُعدُ دارٍ وحَمْلُ عارٍ — وبَيْعُ جارٍ برُبْعِ فِلْسِ
وقَوْدُ قِرْدٍ ونَسْجُ بُرْدٍ — وَدَبْغُ جِلْدٍ بغَيْرِ شَمْسِ
وَصَدُّ إلْفٍ وَأكْلُ كَفٍّ — وَضِيقُ خُفٍّ وَسَوْمُ بَخْسِ
وَقَتْلُ غَمٍّ وطُولُ هَمٍّ — وَشُرْبُ سُمٍّ وإلْفُ قَلْسِ(2)
أهْوَنُ مِنْ وَقْفَةٍ بِبَابٍ — يَلْقَاكَ حُجّابُهُ بِعَبْسِ

وإذا آلمَ الناسَ الاستشرافُ إلى ضروريّات المعاش، والتطلُّعُ إلى ما به قِوامُ الحياة، أو ما لحق ذلك من المُتْعاتِ بالجاهِ أو غيرِه من مُقْتَنَياتِ الدنيا، وأعْوَزَها ذلك فإنّما سَعِدَ لها للأمانيّ التي قال فيها أبو تمام رحمه الله(3):

مَنْ كان يُرْعي حُزْنَه(4) وهُمومَهُ — رَوْضَ الأماني لَمْ يَزَلْ مهزُولا

لا سيّما إن اشتدتْ الضرورةُ بما يفتقر إليه من مالٍ أو جاهٍ أو سَكَنٍ أو غيرِ ذلك إن كانت الأنْفُسُ المستشرفَةُ طامِحَةً من الدنيا إلى ما فوق الكفاية، فهنالك

= الإلحاح بالسؤال كثير الهجاء. ووصفه أيضاً بأنه أجود الشعراء لفظاً وألطفهم معنى، ورد له شعر كثير في بهجة المجالس. سكن بغداد ونشأ بالبصرة زمن العباسيين ولم يمدح إلا المأمون، توفي سنة ٢١٥ هـ. (انظر ترجمته في: طبقات الشعراء لابن المعتز ٣٠٧ ـ ٣٠٩، وفيات الأعيان ٣ / ٧٩، الوافي بالوفيات ٢ / ٣١٧، الأغاني ١٤ / ٩٢، المرزباني ٤٢٩، تاريخ بغداد ٢/٢٩٥).

(١) ـ لم أجد الأبيات في ديوانه المجموع.

(٢) ـ القَلْس: حبلٌ ضخم من ليف أو خوص أو غيرهما، ومن معانيها أيضاً غثيان النفس (القاموس المحيط: قلس).

(٣) ـ ديوان أبي تمام ٤٤٨.

(٤) ـ في الأصل: عزنه، وفي الديوان: من كان مرعى عزمه.

يتّسع[1] النِطاقُ وتعظُمُ الأشواقُ ويستغرب الاتفاق.

كما يُحكى عن عبدِ الله بن عمر وعبدِ الله بن الزبير وعبدِ الملك بن مروان ومصعب بن الـزبير أنّهم كانوا بمكة إمّا بفِناءِ[2] الكَعْبَةِ أو بالمسجدِ الحرام، ثم تحدّثوا فيما تَشَوَّفَتْ[3] إليه نُفُوسُهم، واتفقوا على أن يقولَ كُلُّ واحدٍ منهم ما في نفسه ويدعو به، فقال عبدُ الله بن الزبير إنّه يَرْغَبُ الله في ولايةِ مُلْكِ الحَرَمَيْن، وقال أخوه المصعب إنّه يرغبُ الله في مُلْكِ العِراقَيْن ونكاحِ عائشةَ بنتِ طلحة وسُكَيْنَة بنتِ الحسين، وقال عبدُ الملك بنُ مروان إنّه يرغب الله في الخِلافةِ وأنْ يُؤتى برأسِ كلّ من يُنازِعُه، وقال عبدُ الله بنُ عمر إنّه يرغَبُ الله في الجنّةِ، فنال كلُّ واحدٍ ممن طلب عرضاً من الدنيا ما أمّله، والظنُّ اليقينُ المضارِعُ لليقين عند العلماء أن عبدَ الله بن عمر قد نال ما أمَّلَهُ من الآخرة، والله أعلم. وإنما نَقَلْتُ الحكايةَ بالمعنى دونَ اللفظ[4].

وقد يُوجَدُ من يتمنّى فيتّم مناه، وتتّفق هواه، ويكْمُل له مقتضاه، كمثل هذه الحكاية. وقد يتعذّر على آخر مُنْيَتُه، وقد يمكن أن تكون في أمانيه مَنِيَّتُه، وربما يُسْتَدلُّ بذلك على مقدار ما يكون في القلب من الرضا بما قدّر الله وقضى. يحكى[5] أنّه كان لِذِي الأَصْبَعِ[6] العَدْواني[7] أربعُ بنات، وكُنَّ يُخْطَبْنَ إليه فَيَعْـرِضُ عليهنّ ذلـك فيستحين فلا يزوجهنّ، وكانت أُمُّهُنَّ تقول: لو

(١) ـ في الأصل: ينسخ.

(٢) ـ في الأصل: هنا، والصواب من عيون الأخبار.

(٣) ـ في الأصل: تتشوفت.

(٤) ـ وردت هذه الحكاية في عيون الأخبار ١ / ٢٥٨.

(٥) ـ وردت هذه الحكاية في الكامل للمبرد ٢ / ٦٧٨ مع اختلاف في اللفظ، والأغاني ٣ / ٩٤.

(٦) ـ في الأصل: لأبي الأصبغ.

(٧) ـ هو حرثان من عَدْوان بن عمرو بن قيس بن عيلان شاعر جاهلي سمّي ذا الاصبع لأن حية نهشته في اصبعه فقطعها (الشعر والشعراء لابن قتيبة ٤٤٥، الأغاني ٣ / ٨٩).

زَوَّجْتَهُنَّ، فلا يفعل، فَخَرَجْنَ ليلاً إلى مُتَحَدَّثٍ لهن، فاستمع إليهنّ وهُنَّ لا يَعْلَمْن، فَقُلْنَ: تعالَيْنَ فَلْتَتَمَنَّيْنَّ[1] ولنصدق، فقالت الكبرى:

أَلا لَيْتَ زَوْجي مِنْ أُنـاسٍ ذَوِي غِنىً ... حديثُ الشباب [طَيِّبُ][2] الريحِ والعِطْرِ

(ص ٩٩)طـبيبٌ بأدْواءِ النِّسـاءِ كَأَنَّـهُ ... خَلِيفَـةُ جارٍ* لا يَنـامُ على هَجْـرِ[3]

فقلن لها: أنتِ تحبّين رَجُلاً لَيس مِنْ قَوْمِكِ. فقالت الثانية:

أَلا هَلْ أراهـا مَرَّةً* وضَجِيعُهـا ... أَشَمُّ كَنَصْلِ السَّيْفِ عَيْنُ المُهَنَّدِ**

لَصُـوقٌ بأكْبـادِ النِّسـاءِ وأصْلُهُ ... إذا ما انتهى مِنْ سرِّ قَوْمي ومَحْتِدي[4]

فَقُلْنَ لها: أَنْتِ تحبّينَ رَجُلاً مِنْ قَوْمِكِ. فقالت الثالثة***:

أَلا لَيْتَـهُ يَمْـلا الجِفَـان مَريئَـةً[5] ... له جَفْنَةٌ تَشْقى[6] بها النِيب والجَزْرُ

لَهُ حَكَمَـاتُ الـدَّهْرِ مِنْ غَيْرِ كَبْرَةٍ ... تَشِينُ فلا الفاني ولا الضَّرَعُ الغُمْرُ

فقلن لها: أنت تحبّين رجلاً شريفاً. وقلن للصغرى: تمنّي. فقالت: ما أريد شيئاً. قلن: والله لا تبرحين حتى نَعْلَمَ ما في نَفْسِكِ. قالت: زوجٌ مِنْ عُود

---

(١) ـ في الأصل: فليتمنين.

(٢) ـ سقطت من الأصل.

* ـ في الكامل والأغاني: جان.

(٣) ـ في الكامل للمبرد:

لصـوقٌ بأكـبـاد الـنـسـاء كأنـه ... خليفـةُ جانٍ لا يقـيم على هجْـرِ

* ـ في الأغاني: ليلة.

** ـ في الأغاني: غير مبلّد.

(٤) ـ في الأصل: ومحتد، والبيتان في الكامل من قول الثانية.

وفي الأغاني: أهلي ومحتدي.

*** ـ في المبرد للثانية.

(٥) ـ في المبرد: ألا ليته يُعْطى الجمال بديئةً، وفي الأغاني: لضيفه.

(٦) ـ في الكامل والأغاني: يشقى.

خَيْرٌ مِنْ قُعود. فلما سمع أبوهُنّ قَوْلَهنّ زوّجهنّ أربعتَهنّ. فمكثن بَرْهةً، ثم اجْتَمَعْنَ عنده فقال للكبرى: يا بنية ما مالكم؟ قالت: الإبل. قال: كيف تَجِدُونها؟ قالت: خَيْرَ مال، نأكُلُ لحومها مُزَعاً[1]، ونشرب ألبانَها جُرَعاً، وتَحْمِلُنا وَضَعَفَتَنا مَعَاً. قال: كيف تَجِدِنَّ زَوْجَكِ؟ قالت: خير زوجٍ يُكْرِمُ الحليلة، ويُعْطي الوسيلة. قال: مالٌ عميم وزوج كريم. ثم قال للثانية: ما مالكم؟ قالت: البَقَر. قال: كيف تجدونها؟ قالت: خير مال تألف الفِناء، وتُودِك[2] السقاء، وتملأ[3] الإناء، ونساء مع نساء. قال: كيف تجدين زوجَك؟ قالت: خير زوجٍ يُكْرِمُ أهْلَه وينْسَى فَضْلَه. قال: حظيت ورضيت. ثم قال للثالثة: ما مالكم؟ قالت؛ المعزى. قال: فكيف تجدونها؟ قالت: لا بأسَ بها نولدها فطما ونسلخها لدماً[4]. قال: فكيف تجدين زوجك؟ قالت: لا بأس به، ليس بالبخيل الحكر، ولا السخيّ البذر. قال: جِذْوٌ مُغنية[5]. ثم قال للرابعة: ما مالكم؟ قالت: الضأنُ. قال: فكيف تجدونها؟ قالت: شرّ مال، جُوف لا يَشْبَعْن، وهيم لا يَنْفَعْنَ، وصُمٌّ لا يَسْمَعْنَ، وأَمْرَ مغْوِيَتِهِنَّ يَتْبَعْنَ. قال: فكيف تجدنّ زوجك؟ قالت: شرّ زوج يُكْرِمْ نَفْسَهُ ويُهينُ[6] عِرْسَه. قال: أشْبَهَ امرؤٌ بعضَ بَزِّه*. انتهت[7].

فاعتبِرْ هذه الحكاية، وكيف ظهر من تضجّرِ صُغْراهن المفهومِ في سياقِ

---

(١) ـ قطعا.

(٢) ـ الوَدَك: الدسم.

(٣) ـ في الأصل: وعلا.

(٤) ـ في الكامل: لو كنّا نولّدها فَطُما ونسلخُها أدماً، لم نَبْغِ بها نَعَما، وفي الأغاني: لا بأس بها، نولدها فطماً ونسلخها أدَما.

(٥) ـ في الأصل: جذ ومعنية، وما أثبتناه من الكامل للمبرّد، وفي الأغاني: جدوى مغنية.

(٦) ـ في الأصل: ويهن.

* ـ مثلٌ انظره في: فصل المقال ص ٤٩.

(٧) ـ الحكاية في الكامل للمبرّد ٢ / ٦٧٨، الأغاني ٣ / ٩٤ ـ ٩٦، نثر الدرّ ٤ / ٦٨.

قولها «زوجٌ من عود خير من قعود» ما أوجب لها شَرَّ زوج وشَرَّ مال، ويظهر أيضاً من قِلّةِ رضاها بما قسم لها ما جعلت به زَوْجَها شَرَّ زوج ومالها شَرَّ مال، ولذلك قال لها أبوها «أشْبَهَ امْرؤٌ بَعْضَ بَزِّه».

وإذا كان الابتلاءُ بمثلِ اختلاسِ العِلْق، واغتصابِ المُلْك، ففي السبب بعد التوكل راحةٌ عظيمة، وفي التعلُّق بأولي الأمر فائدةٌ جسيمة، كما حُكِيَ[1] أنَّ رجلاً جوهرياً من تُجّار المشرق قَصَدَ المنصور[2] من مدينةِ عدن بجوهرٍ كثير وأحجارٍ نفيسة، فأخذ المنصورُ من ذلك ما استحسنه، ودفع إلى التاجرِ الجوهريّ صُرَّتَه، وكانت قِطعةً يمانية، فأخذ التاجرُ في انصرافِه طريقَ الرَّمْلة[3] على شطّ النهر، فلما توسّطها ـ وكان اليومُ شديدَ الحرّ، وعرقُهُ يَنْصَبُّ ـ دَعَتْهُ نَفْسُهُ إلى التبرّد في النهر، فوضع ثيابه وتلكَ الصُرَّةَ على الشطّ، ودخلَ النهر، فمرّت حِدَأة[4] فاختطفت الصُرةَ، تحسبها لحماً، وصعدت بها في الأُفُق، فلما عاينها التاجرُ قامت قيامتُه، وعلم أنه لا يَقْدِرُ على استِرْجاعِ ذلك بحيلة، فأسرّها في نَفْسه، ولحقه من ذلك عِلّةٌ اضطرب فيها، وحضر (ص ١٠٠) الدفعُ إلى التاجر[5]، فَجَلَسَ المنصورُ لذلك بنفسه[6]، واستبان ما بالرجل من الكآبةِ وسُوءِ

(١) ـ انظر هذه الحكاية في البيان المغرب ٢ / ٢٩١ ـ ٢٩٢، ونفح الطيب ١ / ٤٠١ مع بعض اختلاف، ووردت ثانية في النفح ١ / ٤١٢ مطابقة للبيان المغرب.

(٢) ـ المنصور محمد بن أبي عامر حاجب الخليفة الحكم المستنصر وقد سبقت الترجمة له.

(٣) ـ بالإسبانية La Rambla، وهناك في الأندلس أكثر من رملة: رملة قرطبة (ذكرها صاحب الروض المعطار ص ١٦٠) ولعلها هي المشار إليها في هذه الحكاية، ورملة غرناطة (ورد ذكرها في مذكرات الأمير عبد الله ص ٣٢ ومصادر تاريخية أخرى) وهناك باب من أبواب قصر الحمراء يعرف بباب الرملة ما زالت بعض آثاره ماثلة إلى اليوم، وذكر صاحب الروض المعطار (ص ٦٦) ناحية اسمها أولية السهل وهي قريبة من قرطبة وتعرف بالرملة.

(٤) ـ في الأصل حداءة، والصواب من البيان المغرب، والحِدْأة: طائر (القاموس المحيط).

(٥) ـ في البيان المغرب: التجّار. لعلّ المقصود: حان موعد الدفع.

(٦) ـ في البيان المغرب: «فحضر الرجل لذلك بنفسه».

الحال، وفَقْدِ ما كان عنده من النشاط، وشدة العارضة، فسأله المنصورُ عن شأنه، فأعلمه بقصّته. [فقال له]* «هلاّ[1] أتَيْتَنا بحدثانِ وقوعِ الأمرِ فكنّا نستظهرُ على الحيلة! هل هُدِيتَ إلى النـاحيةِ التي أَخَذَ الطائرُ إليها؟» فقال: «مَرَّ بشرب[2] أعلى سمت هذا الجنان الذي يلي قصرك» - يعني الرملة - فدعا المنصوُر شُرْطِيَّهُ الخاصَّ به فقال: «جئني بمشيخة أهل الرملة الساعةَ». فجاء بهم سريعاً. فأمرهم بالبحث عمّن غيّر الإقلالَ[3] منهم سريعاً، وانتقل عن الضِيقةِ دون تدريج. فتناظروا في ذلك، ثم قالوا: يا مولانا ما نعلمه[4] إلاّ رجلاً من ضُعفائنا، كان يَعْمَلُ هو وأولادُه بأيديهم، ويتناوَبُون السَنْوَ[5] بأيْديهم[6] عجزاً عن شِراءِ دابّة، فابتاع الآنَ دابة، واكتسى هو وَوَلَدُهُ كُسْوَةً متوسطة». فأمر بإحضاره من الغد، وأمر التاجرَ بالغدوّ إلى الباب. وحضر الرجلُ بعينه بين يَدَيْ المنصور، فاستدناه، والتاجرُ حاضِرٌ، وقال له: «سببٌ ضاع منّا وسَقَطَ إليك فما فَعَلْتَ به؟» فقال: «هو ذا يا مولاي» وضرب بيده إلى حجر[7] سراويله وأخرج الصُرَّةَ بعيْنها، فكاد التاجرُ يطيرُ فرحاً. وقال المنصور: صِفْ لي حديثها. قال: «بينا أنا أعملُ في جِناني تحت نخلةٍ إذ سقطتْ أمامي فأخذتُها، وراقني

---

* - سقطت من الأصل، وأُثْبِتَتْ نقلاً عن البيان المغرب.

(١) - في الأصل: هل لا.

(٢) - هكذا في الأصل ولعلها تصحيف لكلمة: بقرب، وفي البيان المغرب: مُشْرِفاً على...

(٣) - في البيان المغرب: غَيَّرَ حالَ الإقلال.

(٤) - في البيان المغرب: ما نعلم.

(٥) - السانية: الناقة يُسْقى عليها، وسَنَتْ تسنو: سقت الأرض، والقوم يسنون لأنفسهم إذا استقوا (القاموس المحيط) وفي البيان المغرب: السقي، وفي النفح: نقل الزبل، وفي النفح ١ / ٤١٢: ويتناولون السبق.

(٦) - في البيان المغرب والنفح: بأقدامهم.

(٧) - في البيان المغرب: حجزة.

منظرُها، فقلت إن الطائر اختلسها من قَصْرِك لقُرب الجِوار، ودعتني فاقتي لأخْذِ عشرة مثاقيل[1] عيوناً كانت معها مصرورة، وقلتُ: أما يكونُ في كَرَم مولانا أن يَسْمَحَ لي بها». فأعْجَبَ المنصورَ ما كان منه، وقال للتاجر: خذ صُرَّتَكَ وانظُرها واصدُقني عن عَدِّها. ففعل وقال: وحقِّ رأْسِك يا مولاي إن كان ضاعَ منها شيءٌ سِوى الدنانير التي ذكرها وأنا قد وهبتُها له. فقال المنصور: «نحن أوْلى بذلك منك ولا نُنْقِصُ عليك فَرْحَتَك، ولولا جَمْعُهُ بين الإصرار والإقرار[2] لكان ثوابُه موفوراً عليها». ثم أَمَرَ للتاجرِ بِعشْرةِ دنانير عوضاً من دنانيره، وإلى الجنّان بعشرة دنانير ثواباً لإفشاء[3] ما وقع بيده [وقال:][4] «ولو بَدَأنا بالاعترافِ قَبْلَ البَعْثِ[5] لأوْسَعْناه جَزاءً»، وأخذ التاجرُ في الثناء على المنصور، وقد عاود نشاطَهُ، وقال: «والله لأبُثَّنَّ في الأقطارِ [عظيم][6] مُلكِك، ولأُشيعَنَّ أنّك تَمْلِكُ طَيْرَ عَمَلِك، كما تَمْلِكُ إنْسَها، فلا تعتصم منك ولا تؤذي جارَكْ». فضحِكَ المنصورُ وقال: «اقصر[7] في قولك يغفر الله لك». فعجب الناسُ من تلطُّف المنصور في حيلته، وتفريجِ كرْبه[8]، رحمه الله. انتهت.

وجلس المأمونُ يوماً للمظالم، فوقَفَ إليه رجلٌ فقال: «يا أميرَ المؤمنين، كنتُ في ناحيةِ البرامكة، فلما أصابَهُم قَدرُ الله، وقُبِضَتْ ضِياعُهم، قُبِضَتْ

---

(١) ـ في الأصل: مثاقل.

(٢) ـ في البيان المغرب: والإنكار.

(٣) ـ في البيان المغرب: لتأنّيه عن إفسادِ.

(٤) ـ سقطت من الأصل، وأثبتّها اعتماداً على البيان المغرب.

(٥) ـ في البيان المغرب: البحث.

(٦) ـ سقطت من الأصل بدليل كون الكلمة التي تليها مضبوطة في الأصل بالجرّ، وأثبتّها اعتماداً على البيان المغرب.

(٧) ـ في البيان المغرب: أقصد.

(٨) ـ في البيان المغرب: فعجب الناس من تلطّف المنصور في أمره، وحيلته في تفريج كربته.

ضَيْعَتِي فيما قُبِضَ لهم، وقد أضرَّ ذلك بي، فإنْ رأيتَ أنْ تُلْحِقَني بمن شَمَلهُ عدلُك، وغَمَرَهُ فضلك، وتُحقِّقَ حسنَ ظني بك، وجميلَ أملي فيك، فعلت!»

قال: ومن أنت؟ قال: أنا محمّد بن جميل[1] أحدُ كتّاب الفضلِ بن يحيى. فاستحسَنَ المأمونُ هيأته وكلامَه، وقال لأحمد بن أبي خالد: «اكتُبْ بردِّ ضَيْعَتِه، وردّه إلى جملتك، وأحسِن إليه، وذكِّرْني بخبره». فكان يحضر طعامه وشرابَه، فلا يستَمعُ منه حديثاً إلّا الافتخار بأيّامِ البرامكة، وذِكْرِ مناقِبِهم، وتعظيمِ شأنهم، فغاظه ذلك لأنه كان صنيعةً للفضل بن سهل، فأمر بحَبْسِه، فأقام في الحَبْسِ أربعة أشهر، إلى أن ذكره المأمون، فسأل عنه، فأخْبَرَهُ، فأمره بإحضارِه على حاله تلك، فَحُمِلَ إليه، فقال له: بَلَغَني ما كان من إطرائكَ البرامكة. قال: أتكلّم بأمانِ أميرِ المؤمنين؟ قال: نعم. فقال: «والله لقد كانوا شِفاءَ (ص ١٠١) سَقامِ دَهْرِهِم، وغِياثَ جَدْبِ عَصْرِهِمْ، وما زالوا كهفاً للاجئين، ومَفْزَعاً للخائفين، فإن أمَرَني أميرُ المؤمنين حَدَّثْتُهُ ببعضِ حديثهم، فيعذرني إلى الميلِ إليهم» قال: هاتِ حديثَك. قال: «يا أميرَ المؤمنين! خشونةُ الملبسِ ودَنَسُه، وألمُ الحبسِ وسوءُ أثَرِه، مانِعتي من الانبساطِ بين يَدَيْ أمير المؤمنين». فأمر المأمونُ بنزعِ ما كان عليه، وأُدْخِلَ الحمام، ونُظِّفَ، وخُلِعَ عليه، وطُيِّب. ثم قال: هات حديثك. قال: «يا أميرَ المؤمنين! كانت لي بهم حُرْمة، وصارت إليّ من فضلهم نِعْمة، فقال لي الفضلُ يوماً: يا محمّد. قلتُ: لَبَّيْكَ أيّها الأمير. قال: أشتهي أن تَدْعُوَني إلى منزِلك كما يدعو الصديقُ صديقَه والأخُ أخاه، فتُقْعِدني على فراشِ بيتك، وتُطْعِمني من طبيخِ أهلِك. فقلت: حالي أصْغَرُ، وشأني أحْقَرُ، وداري تَضِيقُ بذلك. فأبى[2] عليَّ وقال: والله لا قَبِلْتُ عُذْرَكَ. قلت: فاسْتَأْجِلْني حَوْلاً أتأهَّبُ فيه لهذه الدعوة. فقال: لا أفعل! يا بَغيض مَنْ يُعطينا أماناً من الموتِ إلى سنة؟ ولكنْ قد أَجَّلْتُكَ شَهْرَيْن. فخرجتُ فأخَذْتُ في إصلاحِ داري وأثاثي وآلتي إلى انقضاءِ شَهْرَيْن. فقال

---

(١) ـ انظر الجهشياري ١٣٤ والتذكرة الحمدونية ٢ / ٢٠٢.

(٢) ـ في الأصل: فأتى، والصواب من قطب السرور.

لي: يا محمّد ما صنعتَ؟ قلت: ما أمرني الأمير. قال: فتأذَنُ في البكور؟ قلت: تفضيلُ مولاي الأمير. قال: فبكَر عليَّ يحيى والفضلُ وجعفرُ في خاصّةِ خَدَمِهم. فقال لي الفضل: اعرِضْ عليّ طعامَك! فَعَرَضْتُه، فقال: عجِّلْ بلون كذا، فإنّ الوزيرَ يستطيبُه، يعني أباه، فأحضرتُه، وتتابعَ ما طُبِخَ لهم فأكلوا، وَخَرَجَ الفضلُ إلى صَحْنِ الدار، فقال لي: مَنْ جيرانُك؟ قلتُ: عن يميني فلان التاجر، وفي ظهري رَجُلٌ قد ابتاعَ براحاً، وجمعَ الصُنَّاع، فهو لا يَفْتُرُ ولا يُقَصِّرُ في بنائه. قال: يا محمد أفتعرِفُهُ؟ قلتُ: لا والله. قال: ببنّاءٍ[1] ونجّار[2]. فأُتِيَ بهما، فقال: افتحا هاهنا باباً. فقلت: نَشَدْتُك الله أنْ تؤذيَ جاري بِسَببي. فأبى، ولم أَجْسُرْ أن أُعاوِدَها، ففتح باباً ودعا أباه وأخاه فدخلوا ودَخَلْتُ معهم إلى دارٍ لم يَرَ الناسُ أحْسَنَ منها ولا أبهى، قد بُنِيَتْ بالرُّخام والساج، ومُوِّهَتْ بالذهب واللازَوَرْد، وعُمِلَ في وسطها بُستانٌ قد نُقِلَتْ إليه الأشجارُ المثمرة وصنوفُ الزَّهْر والرياحين، وفي ناحيةٍ منه بِرْكَةٌ عظيمةٌ عليها أربعةُ دكاكين من الأُسوس المُضَبَّأ[3] بالذَّهب مفروشةٌ بالديباج، وإذا غلمانٌ خصيان وفحولٌ مُرْد كالدُرِّ المنثور. وأقبل الفَضْلُ يطوفُ بالدارِ والخزائن، وإذا هي مَشْحونةٌ بكلّ ما يُشاكِلُها من الفرش والأقبية[4] الحسنة، ودعاني فقال: يا محمّد أيُّما أحسنُ هذه الدار أمْ دارُك وفرشك وآلتُك؟ فقلت: يا سيّدي وهل في الجنَّةِ إلّا مثلُ هذه؟! ولا يَجِبُ أنْ يَسْكُنَها أحدٌ غيرُك، فملأك الله وعمّرك. فقال: يا محمّد أتحِبُّ أنْ تكونَ لك؟ قلت: والله ما أرى نفسي أهلاً. قال: فإنها والله لك بكلِّ ما فيها من آلةٍ وفرش وعبيد. فَبُهِتُّ لا أجِدُ جواباً. فقال: يا محمّد لا تستكثِرْ هذا مع محلّك عندنا. ثم دعا بالطعامِ فأكَلْنا وبالشرابِ فشَرِبْنا، فعطف يحيى على جعفر فقال: إنّ أبا العباس قد سبقك إلى هذه

(١) ـ في قطب السرور: عليّ ببنّاء.

(٢) ـ في الأصل: وتجّار.

(٣) ـ في الأصل المضبّأ. وفي لسان العرب ضبأ به الأرضَ ألزقه بها.

(٤) ـ في قطب السرور: والأنية.

المكرُمة، فلا تفوتّنك خاتِمَتُها. قال: وما ذاك؟ قال: إنّ محمداً قد حصل في هذه الدار بما فيها من الحَشَمِ والغِلْمانِ والخَدَمِ، ولا مادّةَ له يستعين بها عليهم، فَضَرَرُها عليه أكثرُ من نَفْعِها، وضَيْعَتُكَ الفلانيّة تُقيم أوَدَهُ وتُصْلحُ حاله. قال: قد أمَرْتُ له بها[1] وحوّزته إيّـاها. ودعا بوثيقتها فدفعها إليَّ فمرّ يحيى وقال: لا أخلاكُما الله من عارفةٍ تسديانِها وَيَدٍ عند حُرٍّ تَصْطَنِعانِها، وانصرفوا».

فقال المأمون: «لقد برّزَ القومُ في فَضْلِهم فلا لَوْمَ عليك في إطرائهم وذِكْـرِ مفـاخِـرهم. وإفراطُكَ في شُكْرِهم يدلُّ على جرأتِك[2] ويُرَغِّبُ في اصطناعِك» وأَمَرَ له بمائةِ ألفٍ، وأَثْبَتَهُ في خاصَّتِهِ، فكان أَحْسَنَ (ص ١٠٢) رِجالِهِم حالاً وأعلاهم همّةً[3].

وهذا الذي منّ الله به على هذا الرجُلِ من ثمرةِ الوفاء الذي تكرّرت الإشارةُ في غيرِ موضعٍ من هذا الموضوع أنّه أشرفُ صِفةً وأكرمُ خَلَّةً، ولن يفقد[4] المتصف بها ثَناءً من المخلوق، وكِفاءً من الخالق، وقلّما يوجد إلّا واللطفُ مصاحِبٌ له في أزماته، مسدِّدٌ له في عزماته.

وانظر إلى ما استفاده في هذه الحكايةِ من مواهبَ جليلة، وعوارفَ جزيلة.

وتمحيصُ الاغتصابِ هو السببُ المُعْقِبُ لهذه الفوائد، والمُؤْذِنُ بالفَرَجِ وإن كانَ من الشدائد. ومن أعظمِهِ مُصاباً، وأشدِّه أَوْصاباً، ما يحدُثُ منه على أولي الأمْر، وأولياءِ المُلْك، وأربابِ البَسْطةِ في العزّ، فإنّهم الذين يُعْتادُ مِنْهُمُ الظُّلم، ويسلم لهم على الكره هذا الحُكْم، فإذا أُدْرِكَ منهم الاغتصاب،

---

(١) ـ في الأصل: فيها، والصواب من قطب السرور.

(٢) ـ في قطب السرور: يدلّ على صدق حديثك.

(٣) ـ وردت القصة في قطب السرور ص ٦٢ ـ ٦٦.

(٤) ـ في الأصل: يعقد.

وتُجُرِّع من قِبَلِهِمْ هذا الصاب[1]، فهو حُكْمُ صادِرٌ من عزيزٍ على ذليل، وأمرٌ نافذٌ من قويٍّ على ضعيف، فللنفْسِ في هذا المقامِ خُضوعُ القَهْر والغلبة، وتسليمُ المُذْعِنِ لمن قَدِرَ عليه وغلبه. وإذا انعكس هذا العمل، وأخفق في تمكُّنِ العزّ والأمل، فصار الملِكُ الذي يَغْصِبُ الناسَ أموالَهم مغصوبةً أموالُه، مقهوراً على ما بيده حتى يُسْأَلَ منه عِيالُه، فَلَيْسَتْ فوقَ هذه المصيبةِ مصيبةٌ، والعزُّ والهونُ حظوظٌ، وقد استوفى من قسمة الهون نصيبه، كالواقعِ لبعضِ ملوكِ بني العباس. قال اسحق بن فرّوخ[2]: وَجَّهني مُفْلح[3] إلى المعتمدِ[4]، وقال لي: قل له: سمعتُ بـ «هزار» جاريةِ أمير المؤمنين، فأعْجَبَتْني، فأحْبَبْتُ أن أمْلِكَهـا، ورأيتُ بَدْراً الجُلُّنَـار[5]، فأحببتُ أن أمْلِكَه، فليوجِّهْ إليَّ أميرُ المؤمنين بهما»[6] فهالني ما قال. فدخلتُ على المعتمِدِ، فقلت: «حَمَلْتُ إلى أمير المؤمنين ـ جُعِلْتُ فداءه[7] ـ رسالة، فإن أمّنني أدّيتُها». فقال: قُلْ ما شئت. فأخبـرتُـه، فَغَضِب، وخَـرَّقَ ثيابَـه، وقـال: «أهكذا يَفْعَلُ العبيدُ بالموالي، يَغْصِبونهم على حُرَمِهِمْ وعلى غِلْمانهم؟!» فخرجتُ عَنْهُ، فأمر بردّي، وقد سَكَنَ، وقال: «مِثْلُ أبي صالحٍ لا يُرَدُّ عن طِلْبَتِهِ، وقد أمَرْتُ بِحَمْلِ هَزار إليه». وكان قد اشتراها بمالٍ عظيم، فبعثَها مع كُسْوَتِها وفرشِها وجواريها[8] وجميعِ مالِها، «فأما بدرُ الجُلنار، فقد وَقَفَ على خِدْمَتِنا، وله منّا موضعٌ، فقل له يُسْعِفْنا بتركه». فعدتُ إلى مُفْلح، فأخبرتُه، وهو على الخروجِ إلى البَصْرَةِ

---

(١) ـ الصاب جمع صابة وهي المصيبة، وشجر مرّ (القاموس المحيط: صوب).

(٢) ـ في الديارات للشابشتي ص ١٠٢: اسحق بن مرّوح.

(٣) ـ وزير المعتمد على الله وهو تركي ويكنى أبا صالح (مروج الذهب ٤ / ١٩٩).

(٤) ـ الخليفة العباسي أحمد بن جعفر المتوكل بويع سنة ٢٥٦ هـ لقب المعتمد على الله ومات سنة ٢٧٩ هـ (مروج الذهب ٤ / ١٩٨، تاريخ الخلفاء ٣٦٣، تاريخ بغداد ٤ / ٦٠).

(٥) ـ في الأصل: الحينار، والصواب مما ورد فيما بعد في الحكاية ذاتها.

(٦) ـ في الأصل: بها.

(٧) ـ في الأصل: فداءً.

(٨) ـ في الأصل: وجوارها.

مع المُوفَّق* لحربِ الزنج، فقال: «إذا رَجَعْنا أخذناه منه أَحَبَّ ذلك أو كَرِهَه».
فخرج فأصابه سَهْمٌ فقتله. انتهت[1].

وهذا الواقعُ لهؤلاءِ الخلفاءِ العباسيّين من مواليهم الأتراكِ من مغالط الوجودِ وشنائعِ العالَم، وهو مُقْتَضى ما وَعَدَ به الصادقُ المصدوقُ صلّى الله عليه وسلّم، ومُقْتَضى ما دَلَّ عليه الاستقراءُ في نَظَرِ ابنِ خلدون، حسبما حكاه في صَدْرِ تاريخه في الدول إذا بَلَغَتْ عُمْرَها الطبيعيَّ لها[2]. فمن أرادَ ذلك فلْيُراجِعْ كلامَهُ هنالك، فهو مما يعجب منه، وشهد له برهانُ الوجود، ولله الأمرُ من قَبْلُ ومِنْ بعد.

وكما أنَّ فَوْتَ هذه القُنْيَةِ الجاهيّةِ أو الماليّة أو مجموعِهما ابتلاءٌ لمن كان ذلك في يَدَيْه، فكذلك التلبُّسُ بهما أو بإحداهما لم يكونا في يَدَيْهِ على سبيلِ الزُّهد فيهما، والمطلوبُ من التقلّل منهما، ثم هيأ الله منهما لمن هذه صِفَتُهُ ما يَصْرِفُ عن وجهته، فذلك ابتلاءٌ أيضاً، ولعله أعظمُ من الابتلاءِ بالفَوْت. كما حدّث أبو القاسم أحمدُ بن يوسف[3] معلّمُ الخليفةِ هشام قال: لما انصرفتُ من الحجّ صيّرني وليُّ العهدِ الحكم لِمُقابَلَةِ كُتُبه، وأجرى بذلك رِزْقاً، فأتاني ابنُ السليم[4]، وهو يومئذٍ معتزلٌ عن السلطان على غايةٍ من

* ـ أبو أحمد شقيق المعتمد على الله ووالد الخليفة المعتضد ت ٢٧٨ هـ (مروج الذهب ٤ / ٢٢٧).

(١) ـ انظر هذه القصة في: الديارات للشابشتي ص ١٠٢.

(٢) ـ يشير ابن عاصم هنا إلى نظرية ابن خلدون الشهيرة (انظر الفصل الرابع عشر من مقدمة ابن خلدون: في أن الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص ص ١٧٠).

(٣) ـ في الأصل أبو القاسم بن أحمد بن يوسف، والصواب من ترتيب المدارك، وهو أحمد بن محمد بن يوسف المعافري، من أهل قرطبة، ولد سنة ٣١٠ هـ ورحل إلى المشرق سنة ٣٤٢ هـ وعاد إلى الأندلس سنة ٣٤٥ هـ، واستأدبه المستنصر لولي العهد هشام، سقط في الحمام ومات سنة ٣٦٨ هـ، (ابن الفرضي ١ / ٤٩).

(٤) ـ هو محمد بن اسحق بن منذر بن محمد بن ابراهيم بن محمد بن السليم القرطبي فقيه=

التقشُّف، فقعد عندي وأقبل يعذِلُني، ويقول لي: يا أبا القاسم! بعد طَلَبِ العِلْمِ وتقييدِ الحديثِ والرحلةِ فيه ركَنْتَ (ص ١٠٣) إلى هؤلاءِ القَوْمِ واسْتَهْوَتْكَ دنياهم! فقلت له: وأيّ شيءٍ وليتُ لهم؟ إنما هي كُتُبُ عِلْمٍ لمثلها كان سعيي أصحّحها بأجرة. فقال: «لا تَقُلْ هذا فقد غَلَّتْكَ حبالُهم ولن تفلتها، ومن هذا يرقّونك إلى غيره، ولا يمكنُك خِلافُهم، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون على عظيمِ المُصاب بك» ثم شدّ[1] يده إلى كُمّه وأخْرَجَ منه حَجَرَيْن، وقال لي: «خذهما فاضرب بهما صَدْرَكَ وَنُحْ على نَفْسِك». فخرج عنّي وتركني أبكي على نفسي. فما مضت الأيامُ حتى صار إلى مَنْزِلَتي، ثم ارتقى منها إلى الشُّورى، ثم إلى المظالمِ، ثمّ إلى قضاءِ الجماعة، فانتهى إلى الغاية، فأردتُ مُعارضَتَهُ؛ فأمرتُ جاراً لي من المختارين بِحَمْلِ حَجَرَيْنِ أصمّين، وبعثتُ معه غلاماً لي بعدَ صلاةِ العَتَمَةِ، حتى أنْزَلَهُما ببابِ القاضي ابنِ السليم، وأسْنَدَهُما إلى مِصْراعِهِ. فلما قام القاضي لصلاةِ الفجر، وفَتَحَ بابَه، ألفى الحَجَرَيْنِ مُسْنَدَيْنِ إليه، فبقي مفكراً، فمضى إلى المسجِدِ، مشغولَ البال، إلى أن دخلتُ عليه غدوةً، فما هو إلّا أنْ رآني، اهتدى إلى وَجْهِ القضيّة، فقرّبني وقال لي: أنتَ صاحِبُهُما؟ فقلت له: «هما الحجرانِ اللذان دفعتَ إليّ، رَفَعْتُهما عندي إلى أن كَبُرا، وصَرَفْتُهُما إليك، إذْ كَبُرَتْ حالُك». فبكى وقال: هو حقُّك[2]، والبادئُ أظْلَمُ، فإنّا لله وإنا إليه راجعون على عظيمِ مِحْنَتِنا وخُسْران صَفْقَتِنا. انتهت[3].

= ومحدث وعالم في اللغة والنحو، عمل في مقابلة الدواوين في مكتبة الحكم المستنصر، وولي القضاء أيام الحكم، توفي سنة ٣٦٧ هـ.

(ترتيب المدارك ٤ / ٥٤١، جذوة المقتبس للحميدي ص ٤٣، تاريخ العلماء لابن الفرضي ٢ / ٧٧، قضاة قرطبة ص ١٢٠، تاريخ قضاة الأندلس ٧٥ ـ ٧٧).

(١) ـ في الأصل: سدّ.

(٢) ـ في الأصل: هو صك والصواب من ترتيب المدارك.

(٣) ـ انظر الحكاية في ترتيب المدارك ٤ / ٥٤٥.

وقد كان ابنُ السّليم من الزُهْد والتقشّفِ والاقتصادِ والتقلُّل من الدنيا على حالةٍ عظيمة تُنافي مُلابَسَةَ السلطانِ والدخولَ في القضاء، ولكنّه ابتُلِيَ به، وإنْ كان فيه على أكْمَلِ الأحوال من القيامِ بِالحقّ، والحُكْمِ بالعدل. لَطَفَ الله بنا وبأمثالِنا.

خاتمة لهذه الصورة الثانية

للغالب بالله أيّدهُ الله ـ في هذه التمحيصاتِ العظيمةِ، اللاّحِقَةِ في القُنْيَةِ الجاهيّة، والقُنيَةِ الماليّة، الملموحِ فيها اللُّطْفِ الخَفِيّ من مانِحِه، والملحوظِ فيها[1] الصنع الجميل من واهِبِه، قضايا متعدّدةٌ، ونوازلُ متكررةٌ، فيها لأولي الألبابِ مُعْتَبَر، ومنها لأربابِ الفِكْرةِ مُدَّكَر، يرد عليه منها أعظمُ ما يطرقُ المتبنّك[2] في النعمة والمتوسّع في العيشة، فلا يكونُ إلاّ كلمْحِ البصر، وإذا بالمُلْكِ قد نُزِع، والأمْرِ قد سُلِب، والحاجةِ قد لزّت لأدنى مُتَموِّل، والضرورةِ قد دَعَتْ لأقلِّ مُسْتَنْفَق، وهو ـ متى طرق ذلك ـ بادي الصبر، ظاهرُ السَّكينة، مسلّمٌ لجاري القَدَر، مُقْبِلٌ على الله بالكُلّيةِ، لا يَرْتَجي الفَضْلَ إلاّ منه، ولا يؤمّلُ الخلاصَ إلاّ من لَدُنْهُ. وفي أثناءِ ذلك يَسْلَمُ القريبُ والبعيدُ، والوليُّ والنصيرُ، والمولى والصنيعةُ، ويُحالُ بين اليدِ وما ملكت، والنفسِ ومَنْ أحبّت، ويَحْصُلُ الخوفُ المُذْهِلُ، والكَرْبُ المطفِق[3]، والغمّ المُبْلس، ويتعيّنُ على فرضِ السلامةِ الافتقارُ من المال، والفراقُ من الأحبّة، والانخلاعُ من المُلْك. وفي كلّ حالةٍ من هذه الحالات، يردُ[4] من الألطافِ الربّانيةِ عجائبُ ليست في حِسابِ المخلوقين، ولا هي من جِنْسِ المعتادِ لأربابِ الأبتلاءات، ولا مِنْ صِنْفِ المعهودِ لمن قدر عليهم بأنواعِ التمحيصات.

ولا أعتقِدُ أعظمَ سببٍ في تلك اللطائفِ الخفيّةِ إلاّ البُعْدَ عن الدخولِ

(١) ـ في الأصل: فيه.

(٢) ـ تبنّك به: أقام، وفي عزّه: تمكن (القاموس المحيط: بنك).

(٣) ـ طفِقَ الموضعَ: لزمه (القاموس المحيط: طفق). ولعلّها: المُطْبق.

(٤) ـ في الأصل: برد.

في ذِمّةِ الكُفر، والامتناعَ من الرُكونِ لملكة[1] الشِرْك، فييسّر الله من الأسبابِ الضمينة للذات الشريفة، والكفيلةِ للمهجة الكريمة، بما يمدّ رِواقَ الحفظ، ويلحف جناحَ الأمْن، ويرزق موهبة[2] النجاة، ويعيد[3] طريق السلامة، ويسني عن غرائب الوجود أشياء ليس على وِزانِ المُشاهَدِ في أحوال غيره من الملوك، ولا المسموعِ عنه في أخبارِ مثله من الخلفاء، من عطف قلوبٍ نافرة، وإقبالِ وجوهٍ فاسدة، وانقيادِ (ص ١٠٤) نواصٍ شاردة، وإذعانِ فِرَقٍ عاصية، وملاقاةِ من[4] يعد عليه معرضاً من القسوةِ ليناً ومن الشدةِ رخاءٍ، ومن الإعراضِ قبولاً، ولن يفقد مع ذلك للقَدْرِ ترفيعاً، وللرُتْبةِ تشريفا، وللمرتبةِ تعظيماً. وفي الوَصاةِ بتحمّل النُوَبِ في مثل تقلّب أحواله التي تحفظ عليه فيها الخصوصيّة يقول جمالُ الدين أبو الفضل عبد الرحيم بن محمد بن أحمد بن ابراهيم بن الأخوة الشيباني[5]:

لا تخـضـعنَّ لدهـرٍ	أنْحَتْ عليكَ صُروفُهْ
فالـبــدرُ بَدْرٌ وإنْ	بَزَّهُ الضِياءَ كُسـوفُـهْ

وهذا على الجملة، وأمّا على التفصيل فقد كان التمحيصُ اللاحِقُ له، بثورةِ المعروفِ بابنِ المول[6] من أفظع ما طرقَهُ من هذا الجِنْس مذاقاً، وأشْنَعِها بكل اعتبارٍ مساقا، فلَطَمَتْ فيه غيرُ ذاتِ سِوار، وادّعت الظُلَمُ المدلهمّةُ محاسَنَةَ

(١) ـ هكذا في الأصل، وربما أراد: لمملكة الشرك.

(٢) ـ في الأصل: مرهبة.

(٣) ـ في الأصل: يعيد (دون واو العطف).

(٤) ـ هكذا في الأصل.

(٥) ـ يعرف أيضاً بالعطّار، سافر إلى خراسان ونيسابور والريّ وطبرستان وأصبهان طلباً للحديث، ونسخ كتباً كثيرة، وله شعر، توفي سنة ٥٤٨ بشيراز (فوات الوفيات ٢ / ٣٠٩).

(٦) ـ هو يوسف بن المول ثار على محمد الأيسر سنة ٨٣٥ هـ بمساعدة خوان الثاني، وقد سلف ذكره.

الأنوار، واستفحل للبكر الحسناء حَصُور[1] أتى عليه الجَبُّ، وطُلِب مَنُّ الرضا من الله، فأنكد مَنْ سَخِطَ عليه الرَبُّ، وأُمِّلت النصرةُ على المسلمين بأنصارٍ من النصارى، ورُجيَتِ المحبّةُ من الناسِ بقَوْد أهلِ ملّتهم أُسارى، وخوطِبَ الطاغية[2] ـ قصمه الله ـ بالتسويدِ والتمويل، و. . . .[3] له بالعبودية في غرض التعظيمِ والتبجيل، واستظهر البرهان على محكم القرآن، بمفتعِل[4] على الانجيل، ومدّ الصليب ذِراعَيْه، فتسابقت إليه تلك الشِرْذمةُ بالتقبيل، وأرهب العدوّ من حِبالةِ مكره وكيده، وأرصد خلف حبائله المبثوثة من قوّته وأيْدِه، وموّه على ضَعَفَةِ العقول بإباحةِ اجتلاب الأطعمةِ من بلاده، وعلِقَتْ أطماعُه في استئْصالِ الوطن، بالتفريقِ بين أهْلِه، والتضريبِ بين أجْنادِه، وهو يُريهم أنَّه لِحُقُوقِهِمْ يرعى، وفي مصالِحِهِمْ يَسْعى، ولتمهيدِ الوَطَنِ وكَّدَ عَزْمَ ابتغائه، وقد أَسَرَّ لهُم الحَسْوَ في ارتغائِهِ، وعقاربُهُ في أثناء ذلك تَدِبّ، وخولعته[5] لا تغِبّ، وكادَ أمَلُه يَكْمُل، والبلاءُ من تِلقائِه يَشْمُل. لولا أنَّ الله لطيفٌ بعباده، مسبِّبٌ للخَيْرِ فيما يُجْريه من قَدَرِه ويُنْفِذُهُ من مُرادِه، يحكُمُ الأمْرَ ويَدبِّرُهُ، ولا شعور للإنسانِ بغايةِ ذلك التدبير، ويَقْضي الحُكْمَ ويُقَدِّرُهُ، ولا عِلْمَ لسِواهُ بمُنْتَهى ما يبرُزُ من ذلك التقدير لمكان مايُيَسِّرُهُ [من][6] الألطاف، وجرز من لباسِ رحمتِه الأعطاف. تحيّز السلطان ـ نصره الله ـ من كورة ريّة[7] إلى معقل حَريز، ووطنٍ عزيز، في عُنْفُوانِ تلك الفِتْنة، وعلى عَقِبِ تَوَقُّدِ لظاها، فيمن لفّ لفّه من أهلِ

---

(١) ـ الحَصُور: عرق يمتد معترضاً على جنب الدابّة إلى ناحية بطنها. (القاموس المحيط: حصر).

(٢) ـ المقصود هنا خوان الثاني (Juan II) الذي حكم قشتالة من عام ١٤٠٧ إلى ١٤٥٤م وجاء بعد هنري الثالث، وعندما تولى العرش كان طفلاً فرعته أمه الانجليزية كاثرين وخاله فردناند (كوندي ص ٣٠٠، سكوت ٤٩٦).

(٣) ـ كلمة غير واضحة الملامح.

(٤) ـ هكذا في الأصل.

(٥) ـ الخولع: الغلام الكثير الجنايات كالخليع والأحمق (القاموس المحيط: خلع).

(٦) ـ زيادة من المحقق.

(٧) ـ انظر: الروض المعطار ٢٧٩.

البصائر من قُوّاده وفُرْسانه وأجْنادِه، فكان من أوّلِ ما أغلقَ أمَلَهُ بالإدالة[1]، وَثَبَّتَ طَمَعَهُ في الإقالة، استمساكُ أهلِ بلّش[2] بطاعَتِهِ، وتبرّزُهُم في الثبوتِ على خِدْمَتِهِ، فبرزوا لتلقّيه جَمّاً غفيراً، يَقْدُمُهم فُقهاؤُهم وأهلُ العَقْدِ والحَلِّ من وَطَنِهِم، مُبْتَهِلِينَ في الدعاءِ والضراعةِ إلى الله بِجَبْرِ حالِه، مُسْتَظْهِرينَ من الامتعاضِ للواقعِ، والاكتراثِ للحادثِ، بما ضَمِنَ استئنافَ سعدٍ، واستقبالَ عزٍّ، وشهد لهم بأصالةِ أحسابٍ، وعراقةِ أنسابٍ، وحريةِ طِباعٍ، واتساعِ خُطواتِ المكرمات رُباعٍ، فاستفتَح الحلولَ بمدينتهم الغرّاء، ذاتِ الزرعِ والضرعِ، بالتبرّكِ بتربةِ وليّ الله تعالى الشيخ العالم الصالح أبي جعفر بن الزيّات[3] ـ نفع الله به ـ فزار لَحْدَه المقدّسَ على عادتِهِ في تعظيمِ مدافنِ أولياءِ الله، واستمطارِ صَوْبِ الرحمة بزيارةِ أجداثِهِم المطهّرة. فلما قَضى من ذلك وَطَراً استنهضَـهُ الفقهـاءُ والـوزراءُ إلى الحلولِ بِقَصَبَتِهِم ذاتِ المَنَعَـةِ الشهيرةِ والمصالحِ العديدة، وقد اختلفوا في القِرى، واستوسَعُوا في العَلُوفَةِ، والتزموا من القيامِ بالخدمة، والثبوتِ على الطاعةِ (ص ١٠٥) والأنَفَةِ من الدخولِ تحت رِبْقَةِ الكفر، والرُكونِ إلى ذمّة الشِرْك، ما كان فاتحةً للفتح، وغُرَّةً في وَجْه نُجْحِ القَصْدِ، وعلامةً على حُسْنِ العاقبة، وأمارةً على الثِقة بيُمْنِ الخاتمة.

ثم كان الانتقـالُ إلى مالَقَة[4] أُمِّ تلك القُرى، وصبحِ مَحْمَدَةِ ذلك السُّرى، غيلِ أهلِ الشرى، ومجمعِ أجناسِ الورى، فكان الحَفْلُ أشْهَرَ، والاستبشارُ أظهر، والاغتباطُ أتمّ، والتلاقي أعظمَ جمعا، والامتعاضُ أغزر دمعاً، فما شئتَ من مساهمةٍ في القوت، ومراقبةٍ للفرح الموقوت، ومجانَبَةِ

---

(١) ـ في الأصل: الادابة.

(٢) ـ بالاسبانية Velez Malaga إلى الشمال الشرقي من مالقة.

(٣) ـ هو أبـو جعفـر أحمـد بن الحسن بن علي الكلاعي، شيخ مدينة بلّش مالقة بالأندلس وخطيب جامعها، كان يعرف بابن الخطيب وهو متصوف مشهور وله تصانيف كثيرة وله شعر، مولده سنة ٦٤٩ هـ وتوفي سنة ٧٢٨ هـ (الديباج المذهب ٤٣ ـ ٤٤، الكتيبة الكامنة ٣٤ ـ ٣٧، الإحاطة ١ / ٢٨٧ ـ ٢٩٦).

(٤) ـ (Malaga) وتقع على الساحل الجنوبي للأندلس جنوبي غربي غرناطة.

للمشنوءِ الممقوت، وابتهالٍ بالدعواتِ الصالحةِ في مظانّ القبولِ والإجابة، ومراجعةٍ لمبادي الاستصراخِ والاستنصارِ بالتلبيةِ والاستجابة. فساغَ الريقُ، وَوَضَحَ لانتهازِ[1] الفرصةِ الطريقُ، وأمر باجتماعِ الكلمةِ التفريقُ، واستجمعت همم أولي البصائر لردّ الكرّة، وأَنِفَتْ مشائخُ أربابِ العزائم من الفِرارِ يومَ الحَرَّة، فاجتمع رأيُ الملأ على إقامةِ العسكرِ بمدينةِ بلّش الواسعةِ الفِناء لهذا القصدْ، الكفيلة بالسعادة لحكم هذا الرصد.

وفي أثناء ذلك تتكيّفُ صنائعُ تبهرُ[2] العقولَ بغرابةِ نوعها، وتتهيّأ عجائب تؤذنُ النفوس بانقياد السعودِ وطوعِها، فإن لقوْا جمعاً من مخالفيهم فَلُّوه، وإن شعروا بعَقْدٍ من مناوئهم حَلُّوه، وإن ظَفِروا بعزيزٍ منهم أذلُّوه، وللجبين في سبيلِ البلاء المبين تَلُّوه، إلى أن كَبَسُوا الحضرةَ الكَبْسَةَ التي أرْدَتْ عداهم، وتَبَّتْ[3] بها يداهم، وتقاصرها في الغيّ مداهم، وأقْفَرَ بسببِها من الضلالةِ مُنْتَداهم، في يوم قَمْطَريرٍ عبوس، جلّى على أقتالهم كلّ بوس، وجلّلهم من المذلّةِ شرّ لَبُوس.

وقد تناول الطاغيةُ الإسْلاَم بِظُفْر أحْجَنَ، وظَاهَرَ هذه الطائِفَةَ بجيشٍ أخْشَنَ، فاحتلّوا على بريدٍ من الحضرة يأمرون ويقتلون، وفي غاربِ المَكْر وذروتِهِ يمتِلون، إلى أن حُمَّ اللقاءُ، واشتدّتِ الهَيْجاءُ، في يومٍ كان الفتحُ فيه لأعرق الفئتين نَسَباً في الإسْلام، وأمكَنِها سَبَباً في البراءة من الكفّار. وقد استلحم القتالَ أعدادٌ من رؤوس الفِرقتين شِقَّ الإبْلِمَة(*)، وتقاسموا الحرب فيه تقاسُمَ النَصَفَةِ والمَعْدَلَةِ، وأبلغت أدنى الطائفتين إلى الحقّ في المعذرة، وفازت

---

(١) - في الأصل: لابتهاز.

(٢) - في الأصل: تبر.

(٣) - في الأصل: وثبت.

* - في الأصل: شقّ الأنملة، وهو تصحيف، وفي لسان العرب: المالُ بيننا والأمر بيننا شِقّ الإبْلِمة، وبعضُهم يقولُ: شقَّ الأُبْلُمة، وهي الخَوصة، وذلك لأنها تؤخذ فتُشَقُّ طولاً على السَواء (لسان العرب: بلم).

من نصرِ الكلمةِ بأسنى المَنْقَبَةِ.

ومن ذلك اليوم استحثّوا السلطانَ ـ أيده الله ـ للوصولِ بمن بقي معه من الناسِ، ووجّهوا عنه حظِيّاً من خُلَصائه ليجيزه[1] بما وقف عليه من الجليّة في القضيّة، فتحرّك من مالقة في لُمَّةٍ ليست بالكَثْرةِ من القَعَدَةِ وغيرهم ممن حَبَسَه العُذْرُ من مُبِلٍّ من جرح، وناقِةٍ من سقم، ومتفرّغٍ من شغل، وقد تأذَّنَ الله لغمرتِه بالانجلاء، ولشدّته بالانقضاء، فانتهى إلى الحضرة ـ أمّنها الله ـ في يومٍ توارى فيه النَحْسان[2]، وقوبلت فيه إساءةُ النافرةِ بالإحسان، واعتُبِرَ فيه بمضمونِ قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنْسَانِ﴾[3]، ودعي الناسُ الجَفَلَى إلى لِقاءِ السُلْطان، فلبُّوا الداعيَ مُهْطِعين، وبرزوا إلى الفحصِ الأفْيَحِ المسمّى بالقبب جاغر[4] أجمعين، وطفِقوا يلثُمون أطرافَه، مسلِمين عليه بالخلافة، متوسّمين في قدومِه تمكُّنَ الأمْنِ مما كانوا استشعروه من المخافة، إلى أن دَخَلَ إلى القصبةِ القُدْمى[5]، فنزل منها في بعض الدور المنسوبةِ إلى مِلْكه، الموسومةِ، بالاختصاصِ عمّا يرجع من الدورِ إلى أمرِ الوطن ومُلْكه، فنفّذ هنالك بالأوامر والنواهي، وأجرى الرسومَ والألقابَ على ما هي، وانتقى من قوّادِه لُمَّةً ألزمهم حصارَ الحمراء، من قبل الجنّة المنسوبةِ للعريف[6] مغادين لها ومُرائحين، إلى أن تأذَّنَ الله في فَتْحِها واستسلامِ أهلها على أمانٍ بُذِلَ لهم بشرط الإفراجِ عن تمثالهم الذي نصبوه سَدَدَ (ص ١٠٦) رَبْعَةٍ، فما توقَّفوا في

(١) ـ هكذا في الأصل ولعلها: ليخبره.

(٢) ـ النحسان: زحل والمريخ، واستعملها المؤلف هنا في معرض التورية.

(٣) ـ الآية ١ من سورة الإنسان.

(٤) ـ ورد ذكر هذا المكان أيضاً في «وثائق عربية غرناطية» باسم قنبجاغر (ص ١٠٣) في مرج غرناطة بالقرب من قرية همدان (Alhendin)، وعقب لويس سيكو دي لوثينا محقق هذه الوثائق أنه لا يعرف الآن هذا الموضع من مرج غرناطة.

(٥) هكذا في الاصل.

(٦) جنة العريف (Generalife) وهي حديقة وفيها قصر، ملحقة بقصر الحمراء وتقع إلى الشمال الشرقي من قصر الحمراء وما زالت آثارها ماثلة ويؤمها السواح.

ذلك، وفتحوا بابَ الحمراء مما يلي دبرها، فَوَلَجها أصحابُ السلطان معلنين بشارة، ملتفين على يُعْسُوبهم حافِدِهِ الأميرِ أبي الحجاج يوسف بن الأمير أبي العباس أحمدِ بن نصر رحمه الله. وتبادروا إلى حيث انصرفَ ظنُّهم أنّ المعروفَ بابن المول منتهى طِلْبَتهم المفرج لهم عنه كان به، فلم يجدوه، فوقع البَهْت، وتُوُقِّعَتِ الحيلة، وظُنَّتْ بأولئك المُفْرِجين عنه التُهمة، فتقسَّمهُمُ النَكالُ والاعتقال، وطاح عنهم بِمَوْجَدَةِ الأمير أبي الحجاج من جزاءِ الخديعة فيه النَّفَرُ غَيْرُ اليسير، وأُغْرِيَ البحثُ بذلك المشنوءِ المُفْتَقَدِ، فأعْوَزَ وجدانُهُ، ونُقِّبَ عنه في الأماكن المغفلة، وعزم على استقراءِ منازلِ الحمراء بالكَبْسِ والتفتيش مكاناً مكاناً، وسُئل أسئارُ مَنْ تجافَتْ عنه المنيّةُ من دائرتِهِ المسلمين له عن مَوْضِعِ استخفائه، ومَظِنَّةِ تطمّره، فكُلُّهم أقسم على عدم عِلْمِهِ به، وعيّنوا الموضعَ الذي كان آخر عَهْدِهِم به، فلم يُلْفَ فيه، ولا فيما قرب منه.

وكانت هذه الساعةُ على أصحابِ السلطان من أعظمِ ما مرّ عليهم، لإشفاقِهِم من تأتّي الحيلةِ فيه، وإعمالِها في قراره، واستقبالِ الفتنة به من جزعه، إلى أن جدُّوا في التنقير عنه، ووقفت بهم الاشارةُ من كثيرٍ ممّن اقتفوا أثره في حالِ الحادثة، ظانّاً أنّه ممّن سَلَكَ في تلك الدارِ من نسوةٍ متلفّعات بمُروطهنّ، آتياتٍ إليها في تلكَ الحال، فصدق ظنُّه وأُلفِيَ في مِخْدَعٍ صغير، أو خِزانةٍ مُتَّخذةٍ في عُرْضِ الحائط، مُسْبَلٍ عليها حصيرُ الحائط المعدّ له، بما يوهم أنْ لَيْسِ هناك شيء، إلّا لمن يعرفُه سابقاً، فقضى نحبه وفرج الله الأزمةَ، وتدارك الأُمَّة، وشفى من الغصّة.

وعلى مثل هذا الثائرِ في صفته يتنزّلُ قولُ الشريفِ الرضيّ[1]:

---

(١) ـ أبو الحسن محمد بن الحسين بن موسى بن محمد... بن علي بن أبي طالب ولد ببغداد سنة ٣٥٩ هـ، وهو من أشعر الطالبيين، وكان يتولى نقابة الطالبيين والحكم فيهم أجمعين والنظر في المظالم والحج بالناس، ويمتاز شعره بالرقة والعذوبة، وله ديوان شعر، توفي ببغداد سنة ٤٠٦ هـ وكان يلقب بذي الحسبين. (ترجمته في: يتيمة الدهر ٣ / ١٥٥ ـ ١٧٨، وفيات الأعيان ٤ / ٤١٤، تاريخ بغداد ٢ / ٢٤٦، الوافي بالوفيات ٢ / ٣٧٤، وانظر دراسة الدكتور احسان عباس عنه. بيروت ١٩٥٧م).

هَبُوا أصُولَكُمُ أصلي على مَضَضٍ ... ما تَصْنَعُونَ بأخلاقٍ تُنافيني!؟
لا أَمْنَ لي مِنْ عَدُوٍّ لانَ جانِبُهُ ... خُشُونَةُ الصِلّ عُقْبى ذلك اللّينِ
فاحْذَرْ شَرارَةَ من أطفأْتَ جَمْرَتَهُ ... فالثارُ[1] غضٌّ وإنْ يَبْقى إلى حِينِ*

ثم وقع ثانياً من التمحيص، ما تضيقُ عن استيفائه الطروس، وتعي عن الإشارة إلى لطف الله العبارة، وتعجزُ عن استيفائه البلاغة، وذلك أن حافدَ السلطان ـ أيّده الله ـ الأميرَ أبا الحجاج يوسف بن أحمد بن نصر ـ رحمه الله ـ كان بينَهُما من المودّة أعظم ما يكون بين خالٍ وحافِدِه، وكانت والدتُه الحرّة فاطمة أختُ الغالبِ بالله من محبّتها له ومحبّته لها وسعي كلّ واحد منهما في مرضاة صاحبه على أفضل ما يكونُ عليه أخَوان، وكانت منزلتُها منه بحيثُ لم يكن أحدٌ يضاهيها فيها، وادّعى الحافدُ مُناوأةَ أربابِ الدولة، ومكابدتهم إيّاه بما أوجب نفورَهُ عن الحضرة، وانتباذه بالسكنى بقرية وادٍ[2] من خارجها وعلى نحو فرسخين منها. وشعر حُسّادُ النِعم وطلّابُ التِراتِ وذؤبان[3] المكر والخلابة[4] بما نشأ بين هذا الأمير، وبين أربابِ الدولة، من التنافر، ووقع بين الجهتين من التبايُن، فسَعَوْا جهدهم في نقلِ النمائم، وانتحالِ الأباطيل[5] واختلافِ الألغاب[6]، والاقترابِ بالسّعاياتِ، فيُصابِحُون أربابَ الدولة بما يمكّن انحرابهم[7]، ويثبت خوفَهم ويوقفهم على أعيانِ قضايا تقع على غَيْرِ وفق السياسة، أو تخالف بوجهٍ من التأويل قويم السيرة، يصعب على قائلها

(١) ـ في الأصل: فالنار.
* ـ الأبيات في ديوان الشريف الرضي ٢ / ٤٤٧.
(٢) ـ لم أجد ذكراً لهذه القرية فيما رجعت إليه من مصادر أندلسية.
(٣) ـ جمع ذئب، وهي في الأصل: ذوبان.
(٤) ـ في الأصل: الخلافة، والخِلابة: الخديعة.
(٥) ـ في الأصل: وانتعال الأباطل.
(٦) ـ في الأصل: الالغتاب. والألْغاب جمع لَغْب وهو الكلام الفاسد. (القاموس المحيط: لغب).
(٧) ـ حَرِبَ: اشتدّ غضبه.

مواجهتهم[1] فيها بالانكار، ومقابلتهم عليها بالاعتراض، فيسندها من انتقادِ هذه الإمارة عليهم إلى أقوى منه ركنا، وأقدم بزعمه ضغناً. (ص ١٠٧) ثم يماسون الإمارَةَ المذكورةَ بأضدادها، من إبطانِهم الغِيلةَ واستسرارِهم بإعمالِ الحيلة فيها، وإقامةِ الدلائلِ على ذلك بما يظهر من انزواءٍ عنها أثمرته أكاذيبُهم، واستشعارِ حَذَرٍ منها أوجبته أباطيلُهم. وقد كان هذا الأميرُ ـ رحمه الله ـ من عزّةِ النفسِ وطموحِ الهمّةِ وشدّةِ الأنَفة ونذالةِ البطانةِ وعَدَمِ احتمالِ الهضيمةِ بالحال التي يُضْرَبُ فيها المثل. وكان أربابُ الدولةِ بما ألفَوْه من لينِ جانبِ سلطانهم وسَعةِ جوده وفرط حِلمه وشدة تغاضيه وإطباقِ لَحْظِ انتقاده وانبساطِ كفِّ إيثاره، على حالةٍ من لغوِ السيرة وحصولِ الدالّةِ واستحكامِ الوسيلة وإغفالِ المراقبة، يقتضي التضادّ مع ما تميزت به تلك الإمارة ـ قدسها الله ـ وطفقت والدتُها السيّدةُ الحرّة تستطلعُ إلى ما يتأتّى به أَمْنُ الأمير ولدِها من غائلةِ هذه النمائم المتردّدة بين الجهتين، ويتسنّى به قصدُ أخيها من الصَفْو[2] لدولته، وسكونِ التشغيب من حضرته. فيسّر الله ذلك على حسب اختيارِها الأرضى باستقرارِهِ في قُصَيْبَةِ المريّة[3] على رسم القيادةِ هنالك في خَبَرٍ يطولُ شرحُه.

واستمرت الحالُ على ذلك سنين، وسعايةُ أرباب النمائم مُعْمَلَةٌ فيما بين القاطنين بالدولة وبين هذه الإمارة المغربة كانت في شأو البأوِ[4] وفرط

(١) ـ في الأصل: مواجتهم.

(٢) ـ في الأصل: الصغو.

(٣) ـ بالاسبانية (Almeria) وتقع على الساحل الجنوبي للأندلس إلى الجنوب الشرقي من غرناطة، وهي مبناء على البحر الأبيض المتوسط، وكانت أيام المسلمين مركزاً تجارياً هاماً وبها تصنع الأسلحة والثياب، وفي الروض المعطار أنها بنيت سنة ٣٤٤هـ في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر. (الروض المعطار ٥٣٧).

(٤) ـ البأو: الفخر (القاموس المحيط).

الاعجابِ، وقد جعلها الله من حُجْرِ الرجلِ الموسوم بعليّ بنِ علاّق، في ظُلُماتِ جهلٍ لا يتخلّلها نورُ معرفة، وفي دَرَكَات شحٍّ لا يستطلع منها إلى درجة مكرمة. وما زالت الصغائرُ تعظم، والنمائمُ تفحش، إلى أن بدت مخائلُ الانتزاء، وتبيّنت رسومُ القطيعة، واستحكمت أسبابُ الوحشة، وتعيّنَتْ دلائلُ الثورة، باستدعاءِ مَجْفُوِيّ الدولةِ، بالركونِ إلى تلك الجهة، واستنفارِ الممطولي الحقوق من بقايا شِرْذمة الخِلاف. وتُغُوليَ في المطالب (لانتجها)[1] السياسة، مثل اتخاذ السكّة هنالك، والاستبدادِ بكلّ ما يتّصل بالوطن من بلد أو معقل، والانفرادِ بما فيها من رسمٍ أو جباية، وكلّ ذلك لا يُغْني شيئاً، ولا يثني عن الغاية المتطلَّبة قصْداً، فوقعت المجاهرةُ بتوجيه الجيشِ المروي[2] لنظر القائد محمّد بن ابراهيم القبصاني، لمقابلة محمد بن يحيى بن مسلمة قائد مرشانة[3]، وحَشَدَ لذلك أهْلَ النجدةِ من وادي المريّة وشرقيّها[4]، فطال حصاره بها، وضعف عن المقاومة، لولا مددٌ دخل عليه من قبل محمد بن محمد بن سَلَمة، قائدِ وادي آش، المتوجّه لإصراخه باستحثاثٍ من البابِ السلطاني[5]. ثم توجّه إلى أَنْدَرَش[6] من خدّام الإمارة المعروفُ بأحمد القرشي[7] برسم جبايةِ

---

(١) ـ الكلمة في الأصل غير واضحة.

(٢) ـ ربما نسبة إلى المريّة.

(٣) ـ بالإسبانية Marchena (Maracena) حصن في مقاطعة المرية، ذكره لسان الدين بن الخطيب في مشاهداته (ص ٤٨) وورد في الروض المعطار ص ٥٤٢ (وهناك حصن يحمل الاسم نفسه من حصون اشبيلية).

(٤) ـ في الأصل: وشرفيها.

(٥) ـ في الأصل: السلطان.

(٦) ـ بالاسبانية Andarax شمال غرب المرية (وانظر: مشاهدات لسان الدين ص ٨٨، الروض المعطار ص ٤٢).

(٧) ـ لعله من أحفاد أحمد بن سعد بن محمد بن أحمد القرشي من أهل حصن اندرش (Andarax) من عمل المرية، يكنى أبا جعفر ويعرف بالعكري المتوفى سنة ٧٥٠ أو ٧٥١ هـ (درة الحجال ١ / ١٣٣).

ألقابها[١]، فعند ذلك مخض الضرع عن الزبدة[٢] وتبيَّنَ الصبحُ لذي عينين [٣]، وتُفُووِضَ في الرأي، وتُشُووِرَ في العمل، فانجلى الأمرُ عن حَرَكَةِ السلطانِ بالجَيْشِ إلى المرية، واستصحابِهِ القُضاةَ والعلماءَ بقصْدِ الإعذارِ في القضيّة، والإبلاغِ في الحُجّة. وانتزى الأميرُ بقصَبة المريّة، داعياً لنفسِهِ، وطالباً للمُلْكِ بجهده، وأمْرُهُ في كلّ يومٍ يَسْتَفْحِل، والنزاعُ إليه من مثيري الفتنة ومُؤْثِري الفُرْقة مُتَرادِفٌ، وأحوالُ أصحابِ السلطان على الآناء تضمحلّ، وآراؤهم على وضوح المتفاوض فيه تختلفُ، وقد كانوا على ثقةٍ من النصرِ بوصولِ المعروفِ بالأَحْسَنِ الشريف، ممدّاً لهم، يجعلون له الحَوْل والقُوَّة، ويرتقبون من لَدُنْهُ الطائلةَ والنُصرة، فما كان بأسرعَ من انعكاسِ المخيلة فيه بوصوله، وتبيَّنَ أن الله وكلهم إلى أنفُسِهِم لثقتهم بغيره.

وتوالت الإقامةُ بظاهر المريّة نحو الشهر، على حالةٍ تتضمّنُ من تناقُضِ حالِ الحاصرين[٤] على قوّتهم، ووفورِ الجيشِ لديهم، بالتياثِ الحال، واستيلاءِ الكَسَل، واختلافِ الآراء، وافتراقِ (ص ١٠٨) الأغراض، وحالُ المحصورين على ضعفِهم واشتدادِ الحصار عليهم بنُجْحِ السعيِ الواهِنِ وسعادةِ الرأيِ الفائلِ وظُهورِ الفئةِ القليلةِ واعتزازِ الفِرْقَةِ الذليلة، بما يُقْضى منه العجب، ولا يشكّ بأنه من الربّ القاهرِ تسليطٌ، ومن العزيز القادرِ انتقام. فكان من أدهى تلكَ المكيّفات المصنوعِ فيها لجهةِ المريّة موقعاً على السلطان وجهته إخراج سريّة من المرية تشتمِلُ على زُهاءِ مائةٍ من الفُرْسان، وما ينيف[٥] عليها من الرجال سالكين بها سبيلَ التعقيب لسريّة اخرى أقلّ منها كانت قد

---

(١) ـ كذا في الأصل.

(٢) ـ في مجمع الأمثال (١ / ١٠٣): أبدى الصريح عن الرغوة.

(٣) ـ فصل المقال ٦١.

(٤) ـ في الأصل: الحاضرين.

(٥) ـ في الأصل: يشفّ.

سبقتها بأيام يسيرة للقَطْع على الرة المتسايلة القِطار[1] إلى منزلةِ السلطانْ من حيث كان محاصراً لها من خارجها بما تحتاج إليه المحلّة من الأزودةِ والأقواتِ والعلوفاتِ والأدم والأدهان والمرافق والمصالح، فعادت ظافرةَ اليدِ فائزةَ القدح بما أطمع هذه الثانيةَ في انتهازِ الفرصة في اليرة* المتسامع تالفها خشية مما وقع في السابق منها، وصحّت لديهم الأنباءُ، من عيونهم المذكاة عليها، فظفِروا بها غنيمةً باردة لم يُرْزأ عليها أحد، مُرْبية على سابِقتها بوُفور الأعداد وجُموم الأموال، وجلالةِ الأمتعة، ونفاسةِ الآلات. وكان من وهنِ أصحاب السلطانِ وتفريطِهم في امتثالِ قولِ النبي صلّى الله عليه وسلّم: «**لا يُلْدَغُ المؤمِنُ مِنْ جُحْرٍ واحدٍ مَرَّتَيْن**»[2]، بتوجيه كتيبةٍ من الفُرْسان لحمايةِ ميرتهم ما أوجبَ الانحفازَ بالإفراج عن حصارِ البلدِ، والانحيازَ إلى الحضرة، وأرى الله في ذلك مقتضى قوله: ﴿**وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرين**﴾[3]

وفي أثناء الطريقِ لَقِيَتْهُمْ[4] من ثورةِ الحضْرةِ ووادي آش ما أَشْعَرَ بتوالي التمحيص[5]، وترادُفِ الابتلاء، إلى أن كان القدومُ على الحضرةِ في أخْبارٍ يطولُ شرحُها ويُمَلُّ استقصاؤها، ثم القدومُ على مالَقَة. فأوّلُ ما شُوهد من جزاءِ العقوبةِ الوفاق خذلانُ الكُثْرِ ممّن روغم فيه الحقُّ وسُوعِدَ فيه الباطِلُ ممّن دُرِيَ عنهم متعدّي الحدودِ بلا شُبْهة، وأُهدر لهم دماء المسلمين بلا تأويل كلّا بل تسليط العددِ الجمّ ممّن سُلّط بالجاهِ على البَريّة، وحُلّ عن عَقورِهِ الساجور[6] اغراءً

---

(1) - جمع قطْر وهو الماء.

* - بالإسبانية Illora وقد سبق ذكرها.

(2) - صحيح البخاري ٧ / ١٠٣، صحيح مسلم ٨ / ٢٢٧، مسند ابن حنبل ٢ / ١١٥، ٣٧٩.

(3) - الآية ٢٥ من سورة التوبة.

(4) - في الأصل: لقيتم.

(5) - في الأصل: المحيص.

(6) - الساجور: خشبة تعلق في عنق الكلب، والعقور صفة للكلب.

بالخليقة، توالت القوارع وتعدّدتِ النوائبُ، فما[1] تُلْمَحُ للاستمساكِ مخِيلة، أو رُجِي من العثرةِ إقالة، رَدَفَها من الخُطُوبِ ما هو أدهى وأمرّ، وتبعها من الكُروبِ ما هو أشَقُّ وأشَرُّ؛ فكان إذا وَرَدَ البريدُ بخبرٍ يقتضي للإدالة كرّة أو يتضمَّنُ بتوقُّعِ الفَرَجِ مَسَرّةً، أعقبه في الوقتِ ما يَطْمِسَ نُورَهُ ويمحو رَسْمَهُ، كالكائنةِ الواقعةِ بأحوازِ بلغش[2] من خارجِ الحضرةِ بالجَيْشِ المُصْحِرِ منها إلى نواحي الرّة، فأدركه من جيشِ السُلْطان المُرْصِدِ كان بحصن[3] الحمّة[4] من أَخَذَ بِكَظْمِهِ[5]، واستلحَمَ منهم فوارسُ واستُلِبَتْ لهم خيلٌ وأسلحة، وورد البِشْـرُ بذلك على الباب السلطانيّ بمالَقَة فلم يكدْ خبرُ الهزيمة يستوعِبُ الاقتصاص حتى وَرَدَ النبأُ اليقينُ بثورة بِلّش وانزعاج القائدِ كان بها أحمدِ بن قطبة عن القَصَبةِ، وقيامِهم بدعوةِ مَنْ بالحضرة.

وكتب بخبرِ هذه الهزيمة في غرض التسكين للجهةِ الغربيةِ فكان سبباً مستقلاً في إثارة[6] الفتنةِ بها ومؤجِباً كافياً لقيام ذَكْوان[7] وما ولاها. وأعدى هذا الداءُ رُنْدَةَ وما يجاورُها من الجهاتِ، كما أعْدى أمْرُ بلّش شَرْقيَّ مالَقَة، فصار بها السلطانُ ومَنْ معه كالمحصورين الذين لا يَجِدُون محيصاً. إلى أن عَمَّ ذلك الهَرْجُ وعَظُمَ ذلك الخَطْبُ في انعكاسِ مرئيّات عديدةٍ تبرم في معنى

---

(١) ـ في الأصل: بهما.

(٢) ـ لم أجد لها ذكراً في ما لديّ من المصادر الجغرافيّة، ولعلها بيش (Beas) الواقعة إلى الشمال الغربي من غرناطة، أو لعلها برقلس (Peligros) القريبة منها (الإحاطة ١ / ١٢٩، ١٣١).

(٣) ـ في الأصل: يحض.

(٤) ـ بالاسـانية Alhama de Granada وتقـع في جنـوب غرب غرناطة، وهناك أكثر من حمة في الأندلس (انظر: مشاهدات لسان الدين ص ٩٢، الروض المعطار ص ٨٠، المرقبة العليا ص ٨٢).

(٥) ـ غير واضحة في الأصل.

(٦) ـ في الأصل: اثار.

(٧) ـ بالاسبانية Coin وهو حصن يقع غربي مالقة (انظر: مشاهدات لسان الدين ص ٩٥).

التسبُّب في الإدالةِ والطَمَعِ في توقّف الحال، فتنتج نقيضَ (ص ١٠٩) المطلوب، لو تتّبعناها لخرجنا للطُول المملّ، ولله الإحاطةُ عزّ وجهه. فعَنْ غيرِ سبب واضح، (وعذرٍ ما قام، ثارَ) (١) أهلُ مالقة كافّةً مُؤْتَسين بمن سَبَقَهُمْ من أهلِ شرقيّتِهِم وغَرْبيّتِهِم ناصبين للحربِ مُجْزئين للذمّة على ما سبق منهم في كائنةِ المعروف بابن المَوْل، إسفافاً إلى مطامعَ ينجو منها في غيرِ ضرم، ومطاوعةٍ لنظراتٍ غير صادقة في محسبة الشحم، مَنْ في موضع الورم.

فانزعج السلطانُ عنهم إلى ثغرةِ الرّة (٢) ملقياً عليهم بنفْسِه وراكناً إلى حصنهم بجملته، فلقي منهم من بَذْل القِرى والاشتدادِ في الحماية والاستبصارِ في الطاعة واستهانةِ الأنْفُسِ والأموالِ في المناصرةِ ما ظهر خلافُهُ من غيرهم وبرز عَكْسُه مِنْ سواهم. ثم انتقل من ثغرهم إلى قَصْرِ بُنيرة (٣) فكانوا أُسْوةَ أهلِ الرّة في عُلى المُلْكِ وإيجابِ الحق وحمايةِ النزيلِ فمازوا بها غرّاءَ في المناقِبِ وظفروا بها قُوَّةً في المآثر، أبقتْ لهم ذِكراً في المتّسمين من الوفاء بأشرفِ الخِلال، فوقع من رضاء السلطانِ الاعتزالُ عن الأمْرِ، والانخلاعُ عن المُلْكِ، وإيثارُهُ قَصْدَ الأُلفة، واعتمادُه الانكفافَ عن الفتنةِ، وتحرّجُهُ من الاستمرارِ على الفُرقة، وانقيادُهُ إلى حُكْمِ الملاحَظَةِ والرقبةِ والقصرِ عن التصرّف بالاختيارِ في المالِ والمنحة، يشهَدُ استسلامُه للهلاكِ فما دونه وتفويضُه لله في النَفْسِ فما قبلها بأنه قد ذاق طَعْمَ الإيمان حقاً، ووثِقَ بالله ظنّاً ورَضِيَ بقَدَرِ الله حُكْماً وسَلَّم في الواقع ابتلاءً، وفَوَّضَ لله فيما أنفذه قضاءً، معترفاً بالتقصير، متنصّلا من الذنوب، مُشْفِقاً من سوء الكَسْب، موقِناً بأنْ لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلّا بالله. واستقرَّ بالدارِ الكبيرةِ من الحمراءِ مُتَمَسِّكاً بصبابةٍ من مُشْرَطِ شلوبانية (٤)

---

(١) ـ في الأصل: وعذر قام ما ثار.

(٢) ـ (Illora) وسبق ذكرها.

(٣) ـ من حصون مدينة ريّة Malaga ذكره ابن حيّان في المقتبس ٥ / ١٥٣، ١٨١.

(٤) ـ وفي الروض المعطار (ص ٣٤٣) شلوبينية، وهي في الإسبانية (Salobrena) على شاطىء البحر المتوسط بينها وبين مدينة المنكب عشرة أميال وهي تابعة لغرناطة (مشاهدات لسان الدين ص ٨٠، الروض المعطار ٣٤٣، الإحاطة ١ / ١١٢).

ومترايل[١] لقباً شمسياً وفائدة قيادية، وربما مستخلِصاً بِجَرْيِ نَفْعِها الزرعيّ[٢] مَنْ اعْتَلَقَ بحُرْمَتِهِ من مولى وحاشيةٍ وصنيعة وشاكرٍ، به بحلالِ ما تهيّأ للدائِلِ ما أراد مِنْ استنزالِ أصحابِ السلطانِ من حِصْنِ المتلين[٣] الذين كانوا قد اتّخذوه معقلاً، وركنوا إليه مؤئلاً، واستعصَموا به ملجأً، فلم يُغْنِ عنهم من الله شيئاً، ونبذوه ذميماً أقْرَبَ ما خيّلت لهم أنفسُهُمْ أن سيحمدون عاقبةَ تخيُّرِه وتحصينه، وذلك بما كسبت الأيدي، واحتقبت الجوارح. إنّ في ذلك لعبرةً لأولي النهى. ولسانُ حالِ السلطانِ الغالبِ بالله ـ أيّده الله ـ في هذه المُدّة يُنْشِدُ قولَ أبي بكر الخوارزميّ رحمه الله[٤]:

الدهرُ لا يَبْقَى على حالةٍ ... لكنّه يُقْبِلُ أو يُدْبِرُ
فإنْ تَلَقّاكَ بمَكْروهِهِ ... فاصْبِرْ فإنَّ الدهْرَ لا يَصْبِرُ

ولمّا تمّ ذلك كلُّه للسلطانِ أبي الحجاج وتمّم قَسْمَ الولاياتِ والاقطاعاتِ والفوائدِ والمنافعِ على أربابِ دولته والقائمين بمملكته، وذلك في مدةٍ من نحوِ أربعة أشهر أوّلُها أوانُ حصادِ مبكر الشعير من عام تسعة وأربعين وثمانمائة، وخاتمتها قطاف مبكر الذرة من العام لمذكور، وإذا بالوصيّ أبي الوليد المقيمِ كان بأرْضِ الحرب قد وصل إلى قنبيل[٥] فنجم الخلافُ، وتواترتْ إلى جهتِهِ

---

(١)ـ بالاسبانية Motril ، وتقع شرقي غرناطة قريبة من شلوبانية (مشاهدات لسان الدين ص ٨١).

(٢) ـ في الأصل: الرزعلى.

(٣) ـ كذا في الأصل ولعل المقصود حصن مكلين Moclin شمال غرب غرناطة.

(٤) ـ هو أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي الشاعر الكاتب ويقال له الطبرخزي لأن أباه من خوارزم وأمه من طبرستان، وهو ابن أخت ابن جرير الطبري صاحب التاريخ، توفي في نيسابور سنة ٣٨٣ هـ. (انظر ترجمته في: يتيمة الدهر ٤ / ٢٢٣ ـ ٢٧٦، الوافي بالوفيات ٣ / ١٩١، وفيات الأعيان ٤ / ٤٠٠).

(٥) ـ بالاسبانية Cambil وهو حصن شاهق، وصفه لسان الدين في إحدى رسائله (الإحاطة ٤ / ٥٥٤) وذكره في أعمال الأعلام ص ٢٩٤، ويقع إلى الشمال من غرناطة وإلى الجنوب الشرقي من جيّان (Jaen).

الشُرّاد، وكثُرَ بالحضرةِ الإرجافُ، وساءت من المرتسِم بوزارةِ السلطان أبي الحجاج السيرة، وتطرّق منه لأرباب الجِدَةِ من التجار وغيرهم التعدّي فكان تأخيرُه عن ذلك الوظيفِ بنوعٍ من الإجماع، فأزند خبرة القيام فيه بالحقّ الفقيهُ أبو الحسن العامري، وتقدم عوضاً منه القائد أبو القاسم (ص ١١٠) بنُ يوسف ابن السرّاج، ضرورةً لا اغتباطاً، فحاول الأمورَ، وسدَّدَ الثغورَ، وبثّ العطاء في الجند، وأجْمَلَ مواعِدَ الناسِ، وتوقّفت تلك الحالُ، ونزع عن الفتنةِ الكُثْرُ ممّن اشرأبّ إليها، وعاد الرئيسُ على أدْراجِهِ إلى أعماقِ قشتالة[١] آيساً مما كان قد أشرف عليه من نُجحْ القصد، وعند ذلك تُقُبِّضَ على القائدِ أبي القاسم المذكور وعلى صاحِبِه القائدِ يوسف بن فرج بن كُماشة، وأُودِعا الجبَّ المتَّخذَ بأسطوانِ الرياض من القُصور السلطانية سجناً غثاً ومعتقلاً بدعاً، واسْتُكْثِرَ عليهما من الحَرَسَةِ والأشْراط، واستُصْفِي ما وُجِدَ لهما من خيلٍ وكراعٍ وذخيرةٍ ومتـاع وخُرْثي[٢] وسلاح، وأسرعَ باستنفارِ الجيشِ من ساعته لكبسِ القائد إبراهيم بن عبدِ البرّ بوادي آش، إذ كان الدائلُ[٣] قد ولاّه بهاقائداً، تلطّف لهم في السيرة وأحسنها فيهم، فألقى الله عليه محبّةً منهم تبادروا بها إلى الدفاع عنه عندما أنذروا بوصول[٤] هذا الجيشِ المتوهّم أنه لا يَزَعُه عن القَبْضِ عليه في قَصَبةِ وادي آش وازع[٥]، فلقوْا من الاستماتةِ في حمايتِهِ والذبِّ عنه خلافَ ما ظَنَّ لهم الموسومُ بابن علاّق أنه سيكون من إسلامه في أيْديهم والإفراج عنه لما يريدون منه، فسقط في أيديهم، وعاد الجيش كالمفلولِ عائداً باللائمة على من استنهضه بمنازلةِ هذه المدينة، صفْرَ الحقيبةِ من زادٍ وعَلُوفة، خلْوَ الكيسِ من بيضاءَ أو صفراء تُنْفَقُ في مثل هذا المهمّ. فعزم أصحابُ السلطان

---

(١) ـ في الأصل: فشتالة.

(٢) ـ الخُرْثي: أثاث البيت أو أردأ المتاع والغنائم (القاموس المحيط).

(٣) ـ في الأصل: المدابل.

(٤) ـ في الأصل: ندروا لوصول.

(٥) ـ في الأصل: وازاع.

أبي الحجاج في الانحفازِ بنفسه إلى معالجة ابنِ عبد البرّ قبلَ استشراءِ دائه[١] واستفحالِ[٢] أمره، فاندرج في طيّ أغراضهم من غير إعمال فكرةٍ ولااستعدادٍ بقوة، فأجفل بهم خلفه في السادسِ والعشرين لرمضان من العام على غير تعبئةٍ ولاأُهْبةٍ مَظَّنةَ هزيمةٍ وطحنةٍ[٣] وتَبِعَةٍ[٤] لو وجد من يعلم على الحقيقة خبره أو يبذل في سبيل التهوّر نفسه، فقد كان الجندُ عن بكرةِ أبيهم مجمعين على إجرارِ الهزيمةِ عليه إن سمعوا بالليل أقلَّ دعقة[٥] أو نفس فيهم أهلُ البلد بأدنى صيحة. ولتمام[٦] ثلاث ليال من حصارها انثنى عزمُ ابن علاّق عمّا ابتدأه جملةً، وتراجع اشتدادُهُ المفرطُ ضربُه، فاحتال في مُشارَطَةِ الوزيرِ القائدِ بوادي آش وأهلِ بلده على عَدَمِ المزيد على ما بدا منهم، واستوثَقَ منهم بزَعْمِهِ برسمٍ ضمّنه شهادةَ من استصحبه من فقيهٍ وخطيب، وعاد بخُفَّي حُنَيْن من هذه الوجهة في ثاني يوم عيد الفطر من العام.

ومن ساعتئذٍ توقَّفَتْ بالسلطان الغالبِ بالله الحالُ وتناهتْ في نَفْسِ الأمر الشدّة؛ فقد كان في ذلك الوقتِ يستثقِلُ قُدومَ الرئيسِ أبي الوليد خيفةً من استصحابِهِ إلى المريّة تحت حُكْم الدائل، فأظهرت الأقدارُ الإلهيةُ عكس ما اكتن في ظنّه وضدّ ما كان في ضميره، وقد كان كثيرٌ من حاشيته يُشيرون عليه بالتسبُّب في الخلاص ممّا كان فيه، ولو بالإِذْنِ في استدعاءِ هذا الرئيس، وإلاّ فبغيرِ ذلك مما يتوجَّهُ في هذا المعنى من الحِيَلِ، ويتأتّى فيه من الأسباب، فكانَ يُجيب بالامتناع من ذلك. وكأنّ أبا عليّ محمد بن عبد الله بن محمد بن

(١) ـ في الأصل: دابه.

(٢) ـ في الأصل: استحفال.

(٣) ـ هكذا في الأصل.

(٤) ـ في الأصل غير معجمة.

(٥) ـ دعق الطريقَ: وطئه شديداً، ودعق الفرسَ: ركضها، والدعقة أيضاً الدفعة من المطر (القاموس المحيط: دعق).

(٦) ـ في الأصل: والتمام.

صالح البغدادي[1] كان قد عبّر عمّا في نفْسِه، وأجاد[2] فيه خاصّةً بقوله[3]:

ما مِحْنَـةٌ إلّا لهـا غايةٌ وفـي تَنـاهِـيها تَقَـضِّـيهـا
فاصْبِـرْ فإنّ السَعْيَ في دَفْعِهـا* قَبْـلَ الـتّـنـاهي زائـدٌ فيهـا

(ص ١١١) وفي منتصفِ ذي القعدِة من العام المذكور (ما)[4] تهيأ للوزير ابنِ عبد البَرِّ وصولُ الرئيسِ أبي الوليد المذكور مستدعياً له من مستقَرِّهِ بقَشْتالةَ مجزوماً منه أنّه لن يُنْجِيَهُ من الأنْشُوطَةِ التي حصل فيها هو والقائدان المعتقلانِ بحيثُ ذُكِرَ إلّا هذا الرئيسُ أبو الوليد. ولثلاث[5] ليالٍ من مَقْدَمِهِ على وادي آش فَرَّ السلطانُ أبو الحجاج من الحمراء قاصداً للمريّة بِمَنْ لفّ لفّه من ناسِه مستصحِباً للأميرين ابنَيْ عمّيه وللقائدين المُعْتَقَلَيْن أبي القاسم بنِ السراج وأبي الحجاج بنِ كماشة، فاستقرَّ بها. وفي تلك الليلةِ بِعَيْنها انحازَ السلطانُ الغالبُ بالله عنه إلى شُلوبانية في خاصّته الأدنين منه، فاستقرّ بها. واستمرّتِ الأحوالُ بين نُجْحٍ والتياث، وتَطاوَلَت الأيامُ بين مُواتاةٍ وامتناع، ومخائلُ السعادة تَرْجَح، ودلائلُ الإدالةِ تُسْتَوْضَح، إلى أن انعقدتْ بينَهُ وبين حافِدِه المستقِرِّ بالمريّة المجزومِ بكونها على دخن[6]. وفي أثناء ذلك نفذ القدرُ بهلاكِ المعروفِ بالأحْسَنِ الشـريف مظنّةَ هَيْج الفتنة المستبعد خمودُها مع وجودِهِ، وكانت للسلطانِ علامةٌ على اطّرادِ عادةِ الله له في ونمٍ[7] من بغَى عليه ممّن غمرتْهُ

---

(١) ـ فقيه شاعر أصله من بسطام، وتوفي سنة ٥٤٨ هـ (الوافي بالوفيات ٣ / ٣٣٣).

(٢) ـ في الأصل: وأجاب.

(٣) ـ البيتان في الوافي بالوفيات ٣ / ٣٣٣.

* ـ في الوافي: دفنها.

(٤) ـ كذا في الأصل.

(٥) ـ في الأصل: والثلاث.

(٦) ـ الدّخن: الحقد، وهدنةٌ على دَخَن هي الهدنة التي تكون القلوب فيها غير صافية (لسان العرب).

(٧) ـ الونْم: القيد.

سابغة إحسانِه من غيرِ مشاركةٍ منه بقولٍ ولا فعلٍ ولا إشارة، فعدّها من عجائب ما سنّى له اللطفُ الإلٰهيّ، إذ كان صيتُه قد طَبَّق الآفاق، وانكمش لها صاحبُ المريّةِ لوثوقه بعدم وفائِه مع مصطنعه ولصغْوِه إلى كُتُبِهِ الواردةِ عليه بمالقة في معنى الدعوةِ الجميلةِ بالتقصّي له عنها مع ما بَعْدَها من الغربيّةِ إلى جبل الفتح[1] سيْفاً وقلماً، يستبدّ بها ويتحكّم في مخفاها طعمة له كمصر لعمرو بن العاصي من معاوية، فزوى فيه لأيّام قلائلَ من مهلك هذا الشريف توجّهت الفاقرة[2] على صاحبِ المريّة من حيث ظنّ هو وابن علاق أن قد أمِنا منها، وحصلا بمنجاةٍ عنها؛ فقد كان مذهبُ الأرْعَن ابنِ علاّق في الحَجْرِ لصاحبه والغيرة عليه والحيلولة بينه وبين من فيه مُسْكة[3] من عقلٍ أو خَلَّةٌ من صِدْق، والمَنْع من اصطفائه لسواه أو تشريكِهِ في القيامِ بمُلْكِهِ لغيره، بحيث لم يَتْرُكْ له أحداً من قُدَماءِ خُدّامِ أبيه وحُذَثاءِ من تنخلّهم اصطناعهُ العاطلُ من كسوةٍ تُضْفى أو جوادٍ يمطو أو عارفةٍ تُسْدى أو سابغة، يرعى من ألأم المغارس وأخبث المنابت، معتقِداً أنه إذا خلا له وجهُ مخدومِه فإن رُتْبَتَهُ لديه لا تخمل، ووجاهته لا تنقض.

وكان حرصُ هذا السلطان أبي الحجاج ومستوزره ابن علاق شديداً، وجشعُهما عظيماً على حصول الأمراء في قبضة احتكامهما، ظنّاً منهما أن لا غالب لهما بعد ذلك من الناس، وأنَّ المحذورَ منهما تصيُّرُ الملك لغيره، وتمكّنُ الأمر لسواه، قد حصلت لهما الكفالةُ التامّة، والضمانُ غير المخيّر فيه على الأقدار بأن لا يكون غير ما استشرفا إليه، واشتملت أمنيتُهما عليه، ولله في طيّ الأقضية عجائب يبرزها التدبيرُ الربّاني في قوالبَ من تصرّفاتِ البشر توهم عندهم عكس المراد بها، وتخيل لديهم ضدَّ المحتوم منها. فسبحان الله العظيم. فقد كان فيما ظهر في هاتين القضيتين المظنونِ منهما لابن علاق ومخدومِه أن قد كمل مرغوبُهما، وحصل مطلوبُهما شرطا صحةٍ فيما دهمهما

(١) ـ جبل طارق

(٢) ـ في الأصل: الفاخرة.

(٣) ـ المُسْكة: العقل الوافر.

من الحادثة العظمى والأزْمة[1] الكبرى. فالغالب على الظنّ أن القصبة لو كانت معمورةً بخُلَصاءِ السلطان أبي الحجاج لما أقدم على البائس ابن علّاق بما أقدم عليه من الفتك به، وأن الأمراء لو لم يكونوا حاضرين عنده (ص ١١٢) لما وجد المدبر لتلك الفتكة (بمن بيع الاستقاضة منه)[2]. فلا إلهَ إلّا الله ما أعْجَبَ صُنْعَ الله، وما أعْظَمَ الاعتبارَ بما يجري به حُكْمُ الله، والله غالب على أمره.

وطرق النعيُ بهذا السلطان المخفر[3] الذمّة، المكفورِ النعمة، المأتيّ عليه من مأمنه، في أواخر جمادى الأولى من عام إحدى وخمسين وثمانمائة. فظلت العقلاء مقتسمةَ الألباب، بين موعظةٍ من لواحق الغِير، وعبرةٍ في تقلّبات الزمن، وكآبةٍ من قوارعِ الدهر، ومساءةٍ من عواقب الغدر. طرق هذا النعيُ الحَضْرَةَ في ذلك التاريخ مع أول قادمٍ به، وقد استفزّه الروع، وتغلغلَ به في الكائنِ القول، فاستبعد عليه ما نقله، وطلب بالتثبّت فيما احتمله، إذ لم يكن ممّن شاهد الواقعةَ بعينه، وإنما استند فيها لما وعاه بأُذنه. ثم ردفه ثانٍ وثالثٌ. ثم تواتر الخبرُ، فارتفع اللَّبْسُ، وحصل بالقضيّةِ القَطْع. وانقسم الناس قِسْمَيْن بين مادحٍ وهاجٍ، وحامدٍ وذامّ، وغالٍ ومقصّر، ومحزونٍ ومستبشر، فقد كان ذلك السلطان أبو[4] الحجاج رحمه الله تصدُرُ عنه نفثاتٌ في باب الوعيد كَثَّرَتْ صِنْفَ الراهبِ منه والشانىء له، كما كان له من أجناس الرعايا الهافّين إلى استبدالِ الدُوَلِ والمنطوين للخاصّة على غائلة الحسد، ومن كَبَحَتْهُمْ تلك الفاقرةُ الحالّة به عن مطمح أمانيهم في الممتازين عنهم بخاصّة جاه أو رئاسة، وصاروا من الغمّ لفقدِهِ والتأسّفِ لموته بحيث يتبيّن حالُهم بأدنى مزاولة لهم. وكان رحمه الله من الاقتدار على إقامة الحجّةِ والإبانةِ عن نفسه فيما ينحو إليه

---

(١) ـ غير معجمة في الأصل.

(٢) ـ ما بين القوسين هكذا في الأصل.

(٣) ـ في الأصل: المحقر.

(٤) ـ في الأصل: أبي.

من قصد أو يريدُ التعبير عنه من عرض بالمنزلة التي استفزّ بها ألبابَ السامعين له، والمباشرين لتصريفه لأول ما قدم عليهم. وكان له سرعةٌ في الفهم، ونفوذٌ فيّ الإدراك، وعجلةٌ في التصوّر، وبُعْدٌ عن الشرّ بظاهره، وإيثارٌ للخير بقوله، إلّا أنّه كان فيما يعتقد منه قد حَصَلَ من مطاوعةِ مستوزرِهِ في هدّة عظيمة، تجاوز الله عنّا وعنه. ولا دَرَكَ[1] عَليَّ في ذمّ هذا الوزير بما كان عليه من التقصير، «فذمُّ المقصِّرِ حدٌّ من حدودِ الله»، قاله ابن شرف في حكمه[2].

وعلى عقب ذلك هيّأ الله للغالبِ بالله ـ أيّده الله ـ من اجتماعِ الكلمةِ واتفاقِ الأهواء، وائتلاف المتنافرين لديه ما نسألُ الله أن يُوزِعَنا شُكْرَ النعمة عليه، وأن يَصْرِفَ عنّا الفِتَنَ بقُدْرَتِهِ. ولم ينصرم شهر جمادى الثانية إلّا والأُلفة قد حَصَلَتْ، والفُرْقَةُ قد ارتفعت، والدولةُ الغالبية قد تجدّدت واستقرّ منها كلُّ ذي ولاية في محلّ ولايته، جعلنا الله وإيّاهُمْ ممن وعظ فنفعته الموعظة، وذُكّر فأفادته الإقلاعَ عن ذُنوبه التذكرةُ، وأرشدنا بذلك التمحيص السابق إلى الاستقامة فيما نأتيه ونَذَرُهُ، وإلى الأخْذِ بالتي هي أحسن فيما نرجوه ونَحْذَرُه، لا ربَّ غيرُه، ولا مَرْجُوَّ سواه عزّ وجهه وتَقَدَّستْ أسماؤه.

وقد كان من أعجب ما انجلى عنه هذا التمحيصُ الشديد[3]، وأسْفَرَ عن صُبْحِهِ هذا الابتلاءُ العظيم، ما وَهَبَ الله الغالبَ بالله ـ أيّده الله ـ هذا الأمير المنصور أبا[4] عبد الله محمّد عزّ الدولة ابن السلطان أميرِ المسلمين أبي عبد الله محمد الغني بالله، ابن ابن عمّ الغالب بالله نجل[5] أمير المسلمين أبي الحجاج يوسُف الناصر لدين الله ابن السلطان أمير المسلمين يوسف

(١) ـ الدَرْك والدَرَك: التبِعة.

(٢) ـ أبو الفضل جعفر بن شرف، وقد سلفت الترجمة له.

(٣) ـ في الأصل: السديد.

(٤) ـ في الأصل: أبي.

(٥) ـ الكلمة غير واضحة في الأصل ورسمت على شكل كلمة: لحا.

المستغني بالله ابن الخلفاء النصريين[1]، أراه الله فيه قُرَّةَ العَيْن، وحصل بينهُما من المودَّةِ والرحمةِ ما يتكفّل بصلاحِ ذاتِ البَيْن، من إعزازِ نصر ملكه، ورسوخِ تأييد أمره، وشدِّ أزرِ دولتِه، وتوطيدِ عرشِ خلافتِه، وتثبيتِ (ص ١١٣) عَقْدِ إمامته، فقد وهبه الله منه أشرفَ وليّ، وأكرمَ نَجْلٍ رضيّ، وأعظمَ عَضُدٍ شديد وساعدٍ قويّ، قد جمع الله له جمالَ الصورة وبهاءَ الطلعة، وحُسْنَ الرّواء، وطلاقةَ الوجه، وحصافةَ العقل، ورجاحةَ العلم، ومتانةَ الدين، وسماحةَ الكفّ، وجلالةَ القدْر، وشهامةَ القِلْد[2]، واعتدالَ السيرة، وسدادَ الطريقة، وشرفَ النحيرة[3]، وخلوصَ المودّة، وزكاءَ المحبة، من أميرٍ قد ارتدى من العَفافِ بأسبغِ رداء، واشتمل من الطَهارةِ بأجملِ لباس، وسَلَكَ من الفضلِ على أوضحِ سبيل، واهتدى من سيرةِ سَلَفِهِ الكريمِ بأقومِ دليل؛ فهو عدةٌ للمَلِكِ نفيسة، وذخيرةٌ للدولةِ شريفة، كفّ الله به عُدْوانَ تلك الفتنةِ المضطرِمَة[4]، وكَبَحَ غُلَواءَ تلك الثورةِ الجامحة، ومدَّ الله به ظِلالَ الأمْنِ على الجزيرةِ الغريبةِ المنقطعة، وصرف عن التعلّق بالخلافِ آمالَ الفِرْقَةِ المتطلّعةِ إليه راغمة، وهيّأ الله به اجتماعَ الكلمةِ واتفاقَ الأُمّةِ المسلمةِ راضية، إلى ما حَمَلَ عنه من الكَلِّ، وأعان في قصد الجهاد في سبيلِ الله على نوائبِ الحقِّ ما ظفّره الله منه بكفّ كريم وصِهْر شريف، لا يَبْلُغُ البليغُ المشفق[5] لأطراف الكلام، والخطيبُ المصقع[6] الذي يُقَرْطِسُ بذلاقةِ لسانِهِ أغراض البيان، والشاعرُ المفلقُ المستولي في إجادة القريضِ على قصب السبق، وإن بَذَلَ كلٌّ منهم جهدَهُ واستنفَدَ وُسْعَه، شأوَ التقريظِ لشرف ذاته، والتقريرِ لمحامد صفاته، والثناء المستحقّ على مناقبه، والمدحِ المستوجبِ لمكارمه، والإشادةِ بكرم خِيمِه[7]

(١) ـ في الأصل: النصرين.

(٢) ـ أعطيته قِلْد امرىء: فوضته إليه (القاموس المحيط: قلد).

(٣) ـ الناقة التي تنحر (لسان العرب).

(٤) ـ في الأصل: المضطرة.

(٥) ـ هكذا في الأصل.

(٦) ـ في الأصل: المصنع.

(٧) ـ الخِيم: السجيّة والطبيعة (القاموس المحيط: خام).

وشرفِ مركبه، والإبانةِ عن كمالِ حلاه وزكاءِ طباعه، والإعرابِ عن طهارةِ قومِه الكرماء، والإفصاحِ بجلالةِ آبائِهِ الخلفاء، وتناسقِ الإمامةِ فيهم كالرمح أنبوباً على أنبوب، والوفاءِ بتعديدِ مزاياه التي انْفَرَدَ بخصائِصها الفذّة، على ما يليقُ به من طريقةٍ، ويناسبه من أسلوب. عَقَدَ له الإملاكَ السعيدَ مع عقيلةِ تِلْكِهِ، وواسطةِ سِلْكه، كُبرى بناتِهِ الحرائرِ الطاهرات السيّدة أمّ الفتح - أقرَّ الله فيهــا عَيْنَــه، وقضى من الوفاء[1] والبنينَ فيما بين هذين الزوجَيْنِ الكريمَيْن الشريفَيْن دَيْنَه[2]؛ فتأكدّت الأواصرُ، وتشابكت الوشائج.

واستندتِ الدولةُ من هذِهِ الإمارةِ العزيزةِ إلى ركْنٍ شديد، واعتلقتْ من مُشايعته والانضواءِ إلى كنفِهِ بسببٍ متين، واستخلَصَهُ الغالبُ بالله - أيَّدَهُ الله - لنفسه ابناً أرضى، وحُساماً أمضى، وعُدّةً واقية، وذخيرةً صالحةً، باقية، فأوطأ عقبه الأشراف من جيشِهِ المظفّر أُسْدَ غِيل، وقدّمه في صدر كتائبِه المؤيدة بنصرِ الله لَيْثَ عرين، جاسَ لهذا العهدِ ديارَ بني الأصفر بألويته الحُمْر[3]، (فألفاهم كآسمِهِمْ)[4] صفرَ الوجوه، وجلّت أوجهُ العرب لفوزها من العزّ في الدنيا والآخرة بما ترجوه، نهد إليها في جيوشٍ متثاقلةِ الوطأة، وجنود الله ممدودة منه بالنصرة تجرّ الشوكَ والمدر، وتعيدُ الكرّةَ على من كفر، وتُرْغِمُ أعداءَ الله في عُقْر الديار، وتلبسهم أثواب المذلّةِ والصَّغار، فأبْعَدَ الغارةَ إلى موسطةِ بلاد الحرب، ووالى إقامةَ الليالي ذوات[5] تباعاً في نكايةِ أحزاب الكفر، وقاد السبْيَ الذي بَعُدَ (ص ١١٤) العهدُ بمثلِه، وتطاولتِ[6] الأزمنةُ السالفةُ دون المشاهدةِ لبعضِهِ فكيف بكُلِّهِ، ونفّله الله من الغنائمِ ما لا يُحصيه العَدُّ، ولا يستوفيه

---

(١) - في الأصل: الوفا، ولعله قصد: الرفاء.

(٢) - في الأصل: دنية.

(٣) - في الأصل: الحجر، والصواب ما أثبتنا لما عرف عن اتخاذ بني الأحمر ألوية حمراء (انظر: الكتيبة الكامنة ٢٨٤ من أبيات لابن زمرك في مدح بني الأحمر).

(٤) - في الأصل: فأنقاسم كاسهم. وربما كانت: فأسقاهم كأسهم صفر الوجوه.

(٥) - هكذا في الأصل.

(٦) - في الأصل: ومطاولت.

الحَصْرُ، فصمد[1] إلى جيّان قرارةِ الكفر، وقاعدة الشرك، ومأوى الحيّاتِ من عَبَدَةِ الجِبْتِ، فحلل[2] نواحيها غارة شعواء، ودمدم على بساتينها نَسْفاً وتدميراً، واكتسح ما ألفى بأحوازِها من أصنافِ الماشية، واستاقَ ما وجد في جهاتِها من الثاغيةِ والراغية، ولاذ منه الكَفَرَةُ بأسوارهم، واستعاذوا بجدران[3] ديارِهم ينظرون على عَيْنِ الحسرة في أموالهم وقد نَفَّلَها الله المسلمين، وفي حدائِقِهم الملتفّة وقد حطمتها أيدي المؤمنين، وعاد يجرُّ الدنيا خَلْفَهُ عزة، ويملأ العيونَ من المسرّةِ قوة.

وكـذلـك ما تهيّأ له في غَزاةِ بيّانة[4] من قواعدِ الطاغوت الواغلةِ في بحبوحة[5] التثليث، فقد كانت أيضاً غَزاةً حافلة ومَنْقَبَةً خالدةً سنّى الله فيها من ظهورِ الإسلام وكَبْحِ الإلحاد ما شرح الله به الصدورَ وأقرَّ به العيونَ. ولله الحمد.

ثم كانت في هذه الغَزاةِ التعقيبةُ العجيبةُ إلى حِصْنِ أَنْتَقيرة[6] الملعونة، على ظَنٍّ من أهلها المشائيم أن قد حصلوا بنجاة من معرّة الجيش وسلِموا بافتدائهم بما لحق بيّانة الماردة من مضرّة الفتك؛ فما شعروا إلّا وأسرابُ الخيل منصبّة لحربهم، وعقبانُ الأبطال منقضّة[7] عليهم، وإمارته العليّةُ قد أطلّتْ عليهم إطلالَ الأسدِ الحاذر والعُقابِ الكاسِر[8]. فوقع منهم البَهْتُ، وشملهم الخوف، وصار أمرهم عليهم غمّة، ولحقهم الروعُ بغتة، فاحتجبوا في حجرة

(١) ـ هكذا في الأصل، ولعلها: فصعد.

(٢) ـ هكذا في الأصل، ولعلها تصحيف لكلمة: فملأ.

(٣) ـ في الأصل: جدرات.

(٤) ـ بالاسبانية Baena جنوب شرق قرطبة بينها وبين قبرة (Cabra) عشرة أميال (الادريسي ١٧٤، ٢٠٥، الروض المعطار ١١٩).

(٥) ـ في الأصل: بحبوبة.

(٦) ـ بالاسبانية (Antequera) وتقع شمال مالقة وتبعد عنها ٥٩ كيلو متراً. (مشاهدات لسان الدين ص ٩٤).

(٧) ـ في الأصل: منفضّة.

(٨) ـ في الأصل: الكافر.

أسرابِهم المتّخذةِ تحت الأرض، ولاذوا بأنفاقِهم المعتدّةِ لمثل هذه الحال، ثم لم تُغْنِ عنهم من الله شيئاً، ولا وَقَتْهُمْ مما حذروا سوءاً، فاستُخْرِجوا منها استخراجَ الضِباب المحترشة، واستُخْلِصوا من أربابها المتعددةِ استخلاصَ اليرابيع المُنْجَحرةِ، واستطعم منهم باكورة السعير ما طاح في سبيل الامتناع بنفقه، وقد أخذت النارُ منه مأخذَها، واقتِيد منهم في حَبْل الإسار زهاءُ الخمسين من شِرارها وأخابثها.

ثم كانت الوجهةُ الحميدةُ الأثر، المثبتةُ في صحف الشَرَفِ، المعدودةُ في الغزوات الفذّة من الغرر، إلى الجهة الشرقيّة من الوطن على الثغر الأعلى من ذوات أُشْكَر[1] المغتبط بذخرته المرتجعة للاسلام، إلى البسيط الوافرِ القطين، المستبحر العمارة، المستكمل السارحة، المتعدّد السائمة، المتطامِن السرح، المتوسّع المراعي، الممتدّ الكروم، المنتشر الزروع، المتمكّن في الأرض المعروفة بالمرقجادة[2] المشهورة بالنسبة[3] بالانضياف إلى نظر الطاغية المدعو في لسان الافرنجة بالقند اشطبل[4] ـ قصمه الله ـ بما ترقّى إليه من الآن في خططهم الديانيّة بميش سنتياغه[5]، إذ هذه الأرضُ مما تدخلُ تحتَ حُكْمِهِ، وترجِعُ سيْفاً وقَلماً إلى نظره في أعدادٍ من أمثالِها متكاثرة، جرت عادتُهم بأنّها مما ينطلِقُ عليها لحظُ مقيمِ هذا الوظيف الدينيّ عندهم ـ قاتلهم الله أنّى يُؤفَكون. وهذا البسيطُ هو المسمّى بالمدينة[6]، فاستُبيحت بيضتُها، واكتُسِحَتْ

---

(١) ـ بالإسبانية (Huescar) وتقع إلى الشمال الشرقي من غرناطة، وإلى الشمال من بسطة (Baza) (انظر: مشاهدات لسان الدين ص ٨٧).

(٢) ـ لعل المقصود هنا «مرج قيجاطة» (Quesada) الواقع غربي اشكر (Huescar) وإلى الشمال الغربي من بسطة (Baza). (الروض المعطار ٤٨٨).

(٣) ـ هكذا في الأصل.

(٤) ـ بالاسبانية (Condestable) دكره سيكو دي لوثينا في كتابه عن محمد التاسع ص ٨٠، وغيرها.

(٥) ـ بالإسبانية (Santiago) وتقع إلى الشمال من أشكر، وإلى الشمال الشرقي من جيان، وقد وردت في الأصل (سنتيافه)

(٦) ـ هكذا في الأصل ولعلها مصحفة عن مكينة (Magina) بين جيان (Jaen) وقيجاطة (Quesada)

ماشِيَتِها، واستِيق سَبْيُها، وهو المتجاوزُ لشَطْرِ الألف بالأعدادِ الوافرة. وامتلأت الأيدي من غنائمها المتوافرة. (ص ١١٥) وكان ممّا نفل الله فيها صليبُ ديانتهم الخبيثة، الثقيلُ الزنة، اللُجَيْنيُّ الصيغة، المشرّب (بحكم صنعته بمتلوّن)[١] الزجاج البهيّ الحلية، إلى غير ذلك مما سلبه الله الكفرَ، وخوّله الإيمانَ، ورُزِىء فيه الشرك، وفاز بشرفه الإسلام.

ولم تَكَدْ الخيلُ تبلغُ الراحةَ ولا الجيادُ يحصل لها الجَمام[٢]، إلّا وهِمَّتُهُ العاليةُ قد طمحت إلى ناهدٍ[٣] أهمّ، واستشْرَفَتْ من اقتناص العزّ إلى ما هو أكملُ وأتمّ. فنهد الجيشُ المنصور، منزاحَ العلل، موفّى الآمال، مستوعب الأغراض، إلى مدينةِ ابن السليم[٤] من الجهةِ الغربية قاصداً في ذلك المقابِلَة من الناب البديع[٥] في الغراتين[٦] بين مدينتي شرق بلاد الحرب وغربها. فهنالك نفّله الله المغانِمَ التي جاوزت عشرين ألف رأسٍ من البقر ونحوها من الغنم، مما لم يُسْمَع في هذه الأزمنةِ بمثله، مع ما اكتنفت ذلك من رِعاءِ تلك الأنعام، والإبعاد في أرض العدوّ إلى مواضع لم تطأها الجيوشُ قبله، ولا راعَ أهْلَها الغِرار[٧]، وَهَلُمَّ جرّاً. فقد أذلّ الله الشركَ بعزائمه الماضية، حتى اذّعنوا في السلم، رغبةً فيه، وحرصاً عليه، والله من ورائهم محيط، وهو على إتعاس[٨]

---

(١) ـ ما بين القوسين جاءت في الأصل (محكم صنعته يمثلون).

(٢) ـ جمّ الفرسُ جَماماً: ترك الضراب فتجمّع ماؤه، وجَمّ جمّاً وجَماماً: تُرِكَ فلم يُرْكَب فعفا من تعبه (القاموس المحيط: جم).

(٣) ـ الناهد: الشيء المرتفع، ولعلها تصحيف لـ «ما هو».

(٤) ـ بالإسبانية (Benzalema) من كورة شذونة، سميت بهذا الاسم نسبة إلى محمد بن السليم القاضي (البيان المغرب ٢ / ١٣٥).

(٥) ـ لم أجدها في المصادر التي وقفت عليها.

(٦) ـ لم أجدها فيما بين يدي من المصادر.

(٧) ـ الغِرار: حدُّ الرمح والسهم والسيف (القاموس المحيط: غرّ).

(٨) ـ في الأصل: أنفاس.

جَدّهم قدير. وهذه الموهبةُ المُخْتَتَمُ بِمنَتها ذلك التمحيص العظيم، من أعظم المواهب، ومن أجزلِ المكارم. جعله الله من الشاكرين لنعمه، المثنين بها عليه، إنه وليّ ذلك.

تتميم

لا يرجِّحُ النظرُ آكَدَ من هذا المحلّ للاستكثار من حمدِ الله، وأن يكون التلفّظ به هجّيرى[1] الألْسُن، والتفكّر في مدلولِهِ نُصْبَ الأعْيُن. ويتبيّن هذا[2] بأنّ الموضعَ موضعُ إنعامٍ جسيمٍ، وفضل متسوَّغٍ من ذي الفضل العظيم. ومحصولُ هذه الصورةِ إنما هو طروقُ ابتلاء، ثم الإدالةُ منه بمتوالي الآلاء. فعلى أي فرضٍ يقصر في القضيّة حمد الله؟ أعَلَى التدارك والإقالةِ من النِّقْمة؟!! أم على الامتنانِ بما أجْزَلَ من الموهبةِ وأتَمَّ من النِعْمة؟! أم على اللطف في كوْنِ التمحيصِ مما جعله الله لعبده في معرض التذكرةِ والموعظة؟! أم على التنبيهِ الذي أعقبه الرفقُ الموجبُ لاعتبارِ الأنْفُسِ اليَقِظة؟! فلو أنّ الأنفاسَ المتردّدةَ، والأوقاتَ المتجدّدة، نطقت بحمدِ الله، بأزكى ما لديه من المحامد، وأقربها إلى مرضاته بحسب الشاكرِ الحامِد، لما بلغ من ذلك مِعْشَارَ المِعْشَار، ولما تُنوهي من ذلك إلى حظّ يتبع أو مقدار. كما قال شمسُ الدين أبو المكارم بن عبد السلام بن محمود:

لو كنتُ ألفَ عامٍ في سَجدةٍ لربّي
شُكراً لِفضلِ يَومٍ لم أقْضِ بالتمامِ
العامُ ألفُ شَهْرٍ والشَهْرُ ألْفُ يَوْمٍ
واليَوْمُ ألْفُ حينٍ والحينُ ألفُ عامِ

فالحمدُ لله ثم الحمدُ لله، فهو المحمودُ بكلّ لسان، وهو المحمودُ بما أوْلى من جود، وأسبغ من إحسان، وإليه نضرعُ أن يوفّقنا بحمدهِ بتوفيقِ من تحقّق بمعرفته، واستوعب الرُشْدَ بما قدّس من ذاتِه وعظّم من اسمه ونزّه من صفته

تمّ المجلد الأوّل بعون الله
ويليه المجلّد الثاني

---

(١) ـ الهجّيرى. الدأب والشأن (القاموس المحيط: هجر).

(٢) ـ هكذا في الأصل، ولعلها: ويتبين من هذا.



في التسليم لما

قدر الله وقضى

تأليف

أبي يحيى محمد بن عاصم الغرناطي

المتوفى سنة ٨٥٧هـ

تحقيق

الدكتور صلاح جرار

المجلد الثاني

دعم من الجامعة الأردنية

دار البشير

للنشر والتوزيع

٢٥١ر٢١٤

غرن الغرناطي، ابو يحيى بن عاصم... - ٨٥٧هـ.

جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى/ابو يحيى محمد بن عاصم الغرناطي، تحقيق صلاح جرار. - عمان: دار البشير، ١٩٨٩.

جـ ٢ (٣١٢) ص

ر.أ. ١٢٨/٢/١٩٨٩.

١ - الاسلام - القضاء والقدر. ٢ - غرناطة - تاريخ - القرن السادس عشر. أ - صلاح جرار، مترجم. ب - العنوان.

(تمت الفهرسة بمعرفة دائرة المكتبات والوثائق الوطنية)

دار البشير للنشر والتوزيع

مركز جوهرة القدس التجاري
العبدلي
عمان - الأردن

هاتف: (٦٥٩٨٩١) / (٦٥٩٨٩٢)
فاكس: (٦٥٩٨٩٣) / تلكس (٢٣٧٠٨)
ص.ب (١٨٢٠٧٧) / (١٨٣٩٨٢)

Dar Al-bashir
For Publishing & Distribution

Jerusalem Jewel center
AL-Abdali
Amman - Jordan

Tel: (659891) / (659892)
Fax: (659893) / Tlx. (23708)
P.O.Box. (182077) / (183982)

بسم الله الرحمن الرحيم

الصُّورَةُ الثالثة

أن يكون الابتلاء فيها واقعاً في الحال، إلّا أنه غير مأمول الجبر، ولا مرجوّ الزوال.

وقد تقدّمَ في الصورةِ قبلَها أنّ ما تحتَ هذه الصورةِ هو ما حالَ دون عودتِه بعينِه من هذه المُقْتَنيات الجاهيّة والماليّة مانعٌ يمنع من عودته (ص ١١٦) بعينه أو من عِوَضِهِ المغني عنه، أو يكونُ من النُّدورِ بحيثُ لا يُلْفَى له عِوَض، ولا يوجَدُ منه بَدَل. وما سبق في تلك الصورةِ من المطلوباتِ الشرعيّة، كالصبرِ والتسليم والرضا والتفويضِ وسواها، ممّا ذُكِرَ معها، ففرضيّته[1]، هنا أرجح، وشرعيَّته أوضح. وتزيدُ هذه الصورةُ بتوطينِ النفْسِ على اليأس مما أعْوَزَتِ استعادَتُهُ، واعتاصَتْ استعاضَتُهُ، وهنا يتأكّد ترفيعُ الهِمّةِ عن التعلّقِ بمثل هذا المفقودِ من الأعراض، ويتوجَّهُ القلبُ[2] برؤيةِ زوالِ الدنيا بجُمْلتها، وهذا الزائلُ فردٌ من أفرادها. فما الذي يُسْتَنْكَرُ من زوالِ بعضِ ما هو كلّه زائلٌ بلا إشكال؟! وما الذي يُسْتَعْظَمُ من ذهابِ جُزْءٍ ممّا هو كُلُّه ذاهبٌ بلا امتراء؟! ومَنْ أرادَ من الفاني أن يكونَ باقياً، ومن الذاهبِ أن يكون دائماً، ومن الزائلِ أن يكونَ ثابتاً، فقد أراد ما ليس بموجود، فلا يتمارى اثنانِ في جهله، بسخافةِ عقله ومُغالَطَتِه لنفسه، في مُدْرَكاتِ حِسّه. فإن ادّعى أنه يَعْلَمُ من حالِ هذه المُقْتَنيات مثلَ ما قُرِّر، ويعرفُ من طِباعِها مثلَ ما حُرِّر، وإنما أسِفَ من ذلك لاختـلاسِ ما اخْتُلِسَ منه في مدّةِ هذه العاجلة، إذ كان له به استمتاع، وبمحصولِ الفائدةِ منه انتفاع، فربّما أحال بهذه المقالةِ حجّة، وأوهم أنه سَلَكَ

---

(١) ـ في الأصل: فعرضيّته.

(٢) ـ في الأصل: الطلب.

من الاستمساكِ بما سوّغ له من حظّ محجّة، فلا يخلو هنا أن يكونَ ذهابُ ما عَزَّ عليه من هذه الأشياء بأمرٍ إلهيّ؛ إمّا شرعيّ وإمّا سماويّ، فهنا لا مُتَكَلَّم له فيه، ولا مُسْتَمْسَكَ إلّا بما قُرِّر في هذه الصورِ كلِّها من التفويض لله، والتسليم له في حكمه، والرضا بما أجرى به أقدارَه، والضراعة له في إعظام الأجْرِ، وتخفيفِ الوِزْر. وهنا يتنزّلُ كلُّ ما وَرَدَ شَرْعاً من الوصايا الحِكمية، والأحاديث النبوية، بتخفيضِ حالِ الدُّنيا، واحتقارِ زينتها، واستصغارِ متاعها. أوِ يكونُ ذهابُه على يدي من تُعَلِّقُ به الشريعةُ حقاً، وتُوجبُ له عليه من الضمان والتبعة حظّاً، فلا خفاءَ بجريان ما سبق من الأحكام هنا، ويزيد هذا الموضع بأحكام أُخَرَ، من جوازِ التسبُّب في استرجاعِ الحق إن قَدِرَ عليه، واتباع ذمّة الجاني في الدنيا والآخرة بما يصحّ من ذلك لديه. والاسترجاع في مثل هاتين الصورتين متأكِّدُ المشروعية، لأنه نقصٌ من الأموال.

وإذا استعصى على المبتلى بذهابِ هذه القُنْيةِ الجاهيّة أو المالية عَوْدُ ذلك الشيء بعينه أو العِوَض منه، إن كان موجود العِوَض، أو يئس من بَذْلِهِ لِنُدوره، فالواجبُ عليه أن يُوَطِّنَ نَفْسَهُ على التسلّي، وإقامةِ أَوَدِهِ دونه. وفيما سَلِم له ممّا لم يَطْرُقْهُ الفَقْدُ غِنىً عمّا فَقد.

وإن كان التمحيصُ في القُنْيةِ مُسْتَأْصِلاً، ففي النَّظَرِ لما حَفِظَ الله من مُهْجةٍ وأعضاءٍ وقوى، ولما حفِظَ الله من زَوْجٍ وبنينَ وأقاربَ وأصدقاء، مرقاةٌ عظيمةٌ لشهود جميلِ الصُّنْعِ من الله، وبابٌ كريمٌ كبيرٌ لتسلّي القَلْبِ عن هذه القُنية، السريعةِ الذهاب، الزائدةِ في المتاعِب البدنيّة، دون الزيادةِ فيما لا عَيْشَ دونه، مما تكفّل بضمانه مَنْ هو مَليء الذمّة. وفي قوله تعالى: ﴿واضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْن﴾ إلى آخر الآية[1]، ما يقتضي التسلّي من وجهين، وذلك بالنظر أولاً إلى صاحِبِ الجنّتين، وما وقى الله برحمته منه مِنَ الأَخْذِ أخذةً رابية، كمِثْلِ أخذ هذا الرجلِ فيما دونَ ابتلاءِ صاحبِ الجنّتين من الرِفْقِ

(١) ـ الآية ٣٢ من سورة الكهف.

واللُّطفِ والتخويف، ليرجع إلى الحقِّ ما يجب عليه شكر الله تعالى، ورؤية المنة مِنْهُ فيما منع منه. (ص ١١٧) ورضي الله عن الذين يقولون: «لا يشاهِدُ العطاءَ في المنعِ إلاّ صِدِّيق» فلقد أرشدونا إلى هذا النظر اللائق بمقامِهم الأعلى من حضيضِ حالنا. وإلى هذا المعنى بعيْنِه قَصَدَ البُحْتُرِيّ[1]:

أجدى مِنَ الشيْءِ الذي تُعطاه ... والشيْءُ تُمْنَعُهُ تكونُ بفوتِهِ

وبالنظر ثانياً إلى صاحب ربِّ الجنّتين المستبصر في الثقة بالله، المشير عليه بأن يقول: «ما شاءَ الله لا قُوَّةَ إلاّ بالله» في حال دخولِه لجنّته، والاعتبار فيما منحه الله من تمامِ قصده فيما أمّل من المعافاة، وسُلِّطَ على صاحبه من الابتلاء، الذي أصْبَحَ به يقلّب كفّيه، على ما أنفق في جنته، ويقول يا لَيْتَني لَمْ أُشْرِكْ بربّي أحَداً. وقد ورد عن أنسِ بنِ مالك قال: قال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم: «ما أنْعَمَ الله على عَبْدٍ نِعْمةً في أهلٍ ومالٍ وولدٍ فقال ما شاءَ الله لا قُوَّةَ إلاّ بالله فَيرى فيها آفةً دونَ الموت»[2]. وهذا الحديثُ الكريم مطابقٌ للآية الكريمة في شأن الرجلين. وفي التسلّي بما بَقِيَ عمّا ذهب يقول الخطيب أبو محمد بنُ جُزَيّ[3] رحمه الله[4]:

يَقُولونَ لي نالَ مِنْكَ الزمانُ ... وأجحفَ مِنْك بحالٍ وَمالِ
فقلتُ لهمْ لا أرى هِمّتي ... لَدَيْها اهتِمامٌ بغيرِ المعَالي
إذا تَرَكَ الدهرُ عِلْمي وشِعري ... وطِرْفي وسَيْفي فما ان أُبالي

وينبغي أن يكونَ من المعلومِ لنا علماً يقيناً، والمحقَّقِ لدينا تحقيقاً مُبيناً، أنَّ كلَّ ما لَنا من هذه المحبوبات التي هي زِبْرِجُ الدنيا، من مالٍ وجاه، إنما

---

(١) ـ ديوان البحتري ٤ / ٢٤٠٣، التمثيل والمحاضرة ص ٩٨.

(٢) ـ مسند ابن حنبل ٢ / ٤٠٣، سنن ابن ماجة ٢ / ١٢٥٠ (حديث رقم ٣٨٠٥).

(٣) ـ هو الفقيه أبو محمد عبد الله بن أبي القاسم محمد بن أحمد بن عبد الله بن يحيى بن عبد الرحمن بن يوسف بن جُزَيّ الكلبي، من بيت مشهور في غرناطة، أسلفنا التعريف به.

(٤) ـ لم أجد هذه الأبيات في المصادر التي ترجمت لابن جُزَيّ.

هي عَوارٍ[1]، لمعيرها - جلّ ثناؤه - ارتجاعُها منّا إذا شاء، وكيف شاء، ودفعها إلى من شاء. ولو فَرَضْنا تَرْكَها لمن اعترف له، وعدم ارتجاعِها منه، لما انتَمَتْ إلينا، ولمّا تمّت بها النعمةُ علينا. وقد يعتقد أنّه إذا ارتجعها من قبلنا، بأيدي غير الأودّاء لنا، أنه قد أساءَ إلينا، فيجبُ أن نطويَ عقدنا على أن المعيرَ، له ارتجاعُ قُنْيَتِهِ المُعارة، إذا أراد، وعلى يَدَيْ من أراد، ولذلك تتأكّدُ الرغبةُ عن الاستكثارِ من هذه الأمورِ المؤدّيَةِ للتأسُّفِ على فَوْتها، إذا فاتت، والتلهُّف على فَقْدها، إذا فُقِدَتْ، وتلكَ الرغبةُ عن هذه الأشياء هي المسمّاةُ من مقاماتِ الأولياء زهداً؛ ولذلك حُكي عن سُقْراط الأثيني[2] أنه قيل له: ما بالُك لا تحزن؟ فقال: لأنّي لا أقتني ما إذا فَقَدْتُهُ حَزِنْتُ عليه[3]. انتهت.

وكونُ شيءٍ من هذه القنيةِ الماليّة في غايةِ الندور، لا يتبيّن إلاّ بما يُؤثَرُ في الوجود منه، على سبيل القلّة، من حكايةٍ عنه، أو تخصيصه باسم، أو ما أشبه ذلك. فقد حكى الجوهريُّون أنَّ لملك سَرَنْديب[4] قطعةَ ياقوت مستطيلة، على هيئةِ نِصاب السكين، يُدِيمُ تقليبَها في كفّه، وتزنُ خمسةً وخمسين مثقالاً، ولم يُخْبِرْ أحدٌ بأكبرَ من هذا المقدار[5]. وفي كتاب أخبارِ الخلفاء أن المتوكّل جلس لهدايا النيروز، فقُدِّمَ إليه كلُّ عِلْقٍ نفيس وكل طريف فاخر، وأن طبيبه بختيشوع بن جبريل[6] دخل فكان يأنَسُ به، فقال: ما ترى في هذه؟ فقال:

---

(1) - العاريّة (وقد تخفف) والعارة: ما تداوله الناس بينهم، وجمعها عواري وعواريّ (القاموس المحيط: عور).

(2) - الكلمة في الأصل غير معجمة.

(3) - محاضرات الأدباء (دار الآثار) ص ١٩٧.

(4) - جزيرة بالهند في البحر المسمى هركند يقال ان سيدنا آدم نزل بها حين أهبط من الجنة، ومشهورة بالمجوهرات والحجارة الكريمة والعطور (الروض المعطار ٣١٢ - ٣١٤، كتاب الجواهر وصفاتها ص ٤١ - ٤٣).

(5) - كتاب الجماهر في معرفة الجواهر ص ٥٣.

(6) - في كتاب الجماهر: جبريل بن نحتيشوع.

مثل خرباشات[1] الشحّاذين؛ إذ ليس لها قَدْر، وأقبل على ما معي. ثم أخرج من كمّه دُرْجَ آبنوسٍ مضبَّبٍ بالذهب، وفتحه عن حرير أخضر انكشف عن مِلْعَقَةِ جوهر كبيرةٍ لمع منها شِهاب، ووضعها بين يديْه، فرأى المتوكِّل ما لا عَهْدَ له بمثله، وقال له: من أيْنَ لك هذه؟ (ص ١١٨) قال: من الناسِ الكرام. ثم حَدَّثَ بأنها صارت له من أمِّ جعفر زُبَيْدة[2]؛ وذلك أنها شَكَتْ عارِضَةً في حَلْقِها منذرةً بالخُناق، فأشار عليها أبي بالفَصْد والتطفية[3] والتغذّي بِحَسْوٍ وَصَفَه، فأحضر على لَمحتِهِ[4] في غَضارةٍ صميلية[5] عجيبةِ الصَّنْعة[6]، وبها هذه المِلْعَقَة فغمزني أبي على رَفْعِها، فرفعتُها، ولفَفْتُها في طَيْلَساني، وجاذبنيها الخادم. فقالت: «لاطِفْهُ وآمُرْه بردّها وعوِّضْه منها عشرةَ آلاف دينار». فامتنعْتُ. وقال أبي: «يا سيِّدتي* إنّ ابني لم يسرِقْ قطّ فلا تفضحيه في أوّلِ كرّاته فينكسر قلبه» فضحكت ووهبتها لي. قال الحاكي لها: هذا وإنْ لم يكن في الخبرِ لَمْعُ[7] المِلْعَقَةِ، فلمعانُ الشُّعاعِ يدلّ من اليواقيت على أحمرها[**].

وذكر الأخوان الحسنُ والحسين الرازيّان[8] الجوهريّان أنه اشْتُرِيَ للأميرِ

---

(١) ـ هكذا في الأصل وفي كتاب الجماهر.

(٢) ـ في كتاب الجماهر «إنه صار إلى أبي من أم جعفر زبيدة في ثلاث مرات بثلاث مائة ألف دينار بثلاث شكايات عالجها فيها واحداها. . ».

(٣) ـ في كتاب الجماهر: التطفئة.

(٤) ـ في كتاب الجماهر: على نسحته.

(٥) ـ في كتاب الجماهر: صينية.

(٦) ـ في كتاب الجماهر: الصفة.

* ـ في كتاب الجماهر: يا ستّي.

(٧) ـ في كتاب الجماهر: خبر نسيج.

** ـ وردت الحكاية في كتاب الجماهر ص ٥٣ ـ ٥٤.

(٨) ـ لعلهما الحسن بن القاسم أبو علي الرازي النحوي اللغوي صاحب كتاب المبسوط في اللغة، وكان ملازماً لمجلس الصاحب بن عباد (الوافي بالوفيات ١٢ / ٢٠٣) وأخوه الحسين.

الشهيد مسعود[1] ـ رحمه الله ـ أيام مُقامه بالريّ وأرض الجيل[2] ياقوتٌ أحمر مستطيل على صورة أسد، بسبعةِ آلاف دينار نيسابورية، وقيل إنّه الجبل[3]، وكأنّه الذي كان تملّكه شياه وزيرُ أخي قابوس بن وشمكير[4] وأنه أخذه عِوَضاً من حِصّته من مُلْكِ أبيه، فكان يُحْكَى أنّه كأسد إذا قبض الكفّ عليه كان بادياً من جانب الخنصر والإبهام[5].

وذكر البيروني في كتابِ الأحجار[6] أنّه كان في خِزانةِ الخلفاء ـ يعني من بني العبّاس ـ حَجَرٌ مستطيل، معقفٌ رأسُه، اسمُه العنقاء، وزنُه أحدٌ وعشرون مثقالاً، قال: وكان فيه المنقارُ بوزنِ خمسة[7] عشر مثقالاً، ذكروا أنّه كان على خِلْقَهِ طائر من ياقوتِ أحمر، ومنقارُه[8] أصفر، وهو أعجوبة. انتهى[9].

وإنما نقلنا هذا الفَصْلَ ليتميّز منه ما هو في غايةِ الندور من هذه القُنْية الماليّةِ، فتتبين به هذه الصورةُ التي أبرزها التقسيم، وأنّ فاقدَ مثلِ ذلك، والمُبْتَلى بالأسَفِ عليه، هو الذي تتنزَّلُ عليه هذه الصورة، ويعوز العوض مما

(1) ـ هو مسعود بن محمود بن سبكتكين، خلف والده على خراسان وغزنة، وحارب السلاجقة في خراسان وأذربيجان إلى أن قتل سنة ٤٣٠ هـ. (وفيات الأعيان ٥ / ٦٥ ـ ٦٦، ١٨١).

(2) ـ اقليم وراء طبرستان (وفيات الأعيان ٤ / ٨١). في الأصل وفي كتاب الجماهر: الجبل.

(3) ـ نوع من الياقوت سمي كذلك لكبر حجمه (كتاب الجماهر ص ٥٦).

(4) ـ هو الأمير شمس المعالي أبو الحسن قابوس بن أبي طاهر وشمكير بن زياد بن وردانشاه الجيلي أمير جرجان وبلاد الجيل وطبرستان، وقد أسلفنا التعريف به.

(5) ـ انظر هذه الحكاية في كتاب الجماهر ص ٥٥.

(6) ـ كتاب الجماهر في معرفة الجواهر للبيروني ص ٥٦.

(7) ـ في الأصل: وكان فيها المتقاربون بخمسة..

(8) ـ في الأصل: ومناقره.

(9) ـ كتاب الجماهر ص ٥٦.

يقرب من هذا، يخف على من طرقه التمحيصُ في مثله، على قلةِ جدواه، إذا تؤمِّل بعين البصيرة.

ومما يجري مجرى التمثيل لما بُيِّنَتْ له هذه الصورةُ من كوْنِ القُنْبة المفقودةِ معدومةَ النظير، أو نادرةَ العِوَض، ما ذكره الكِنْدي حكيمُ العرب في بعض رسائله[1]، فإنه قال: يُحكى عن ايزن[2] ملك رومية أنه أهْدَى إليه مُهدٍ قُبَّةَ بلَّوْرٍ ثمينة[3] عجيبة الصنعة، فعُرِضَتْ عليه وعنده جماعةٌ من الناس فيهم رَجُلٌ فيلسوف كان على عهده، فعظم بهجه بها، وكثُرَ وصفُ من حضر لمحاسنها، فالتفت إلى الفيلسوفِ فقال: ماذا تقولُ في هذه القُبّة؟ فقال: أقول قد أظْهَرَتْ منك فقْرا، ودلّت على مصيبةٍ عظيمة أنت تعرضها. فقال له: وكيف ذلك؛ قال: لأنَّها إن عُدِمَتْ فما يُؤنَسُ لك أن تملِكَ مثلها، فأبدت فَقْرَكَ عن مثلها، وإنْ عَرَضَتْ لك آفةٌ أعْدَمَتْكَها أدْخِلَتْ عليك مصيبةٌ عظيمة. هذا القولُ أو ما هذا القولُ موافقٌ له في المعنى، فذكر أن الأمْرَ في ذلك كان كما قال الفيلسوف؛ فإنَّ الملِكَ فيما ذكروا خَرَجَ متنزهاً أيّام الربيع إلى بعضِ الجزائر القريبة، وأمر بحملِ القُبّة فيما حُمِل لتُبْنى في مُتَنزَّهه، فغرِقَ المركبُ الذي كانت فيه القبّة، فلم يقدِروا عليها، فدخل على الملك مصيبةٌ عظيمة، تبيَّنَها جميعُ من بحضرته، وجَهَدَ أن يُصيبَ لها شبيهاً، فلم يُصِبْهُ، حتى مات*. فلذلك ما نقول: من أحَبَّ أن تقلَّ مصائبُهُ فلتقلّ قُنْيته من الخارجات عنه. وهو القائل[4]:

---

(١) ـ وردت هذه الحكاية مع قليل من الاختلاف في كتاب الجماهر للبيروني ص ١٨٦ لكنّه صدّرها بقوله: ذكر افلوطرخس في كتاب الغضب.

(٢) ـ في كتاب الجماهر: أيارون.

(٣) ـ في كتاب الجماهر: مسدّسة.

* ـ كتاب الجماهر ص ١٨٦.

(٤) ـ ورد هذا البيت في التمثيل والمحاضرة (ص ١٠٤) منسوباً إلى عبيد الله بن عبد الله ابن طاهر. وانظر أدب الدنيا والدين ٢٨١. وفي بعض الروايات: فقدا.

وَمَـنْ سَرَّهُ أن لا يرى ما يَسُـوءُه   فلا يَتَّخِـذْ شَيْئـاً يخـافُ له فَقْـرا

وقد حُكِيَ عن سقراط الحكيم أنه كان في بعض الحروب يأوي إلى جبّ مكسور في العسكر الذي كانوا فيه. فقال يوماً من الأيّام وبحضرته بعضُ العيّابين: ينبغي ألاّ نقتني لئلا نحزن. فقال له العائب: فإن انكسر الجبّ؟ فقال سقراط: إن انكسر الجُبُّ لم ينكسِر المكان. ونحو ما قال الفيلسوف: لأنّ مِنْ كُلّ مفقودٍ خَلَفا. انتهى ما ذكره الكندي(١).

وذكر ابراهيمُ بنُ الهندي(٢) أن أباه اشترى حَجَرَ ياقوت أحمر على أقصى النهاية في النفاسة، وكان يسمّى الجبل، بثلاثمائة ألف دينار، وكانت أكياسُها لما نُضِّدَ بعضُها على بعض كالجبل، وأنه وَهَبَهُ للهادي(٣)، ووهب للرشيد الخاتمَ المعروفَ باسماعيل، من زمردة لم ير مثلها، وفيها قبة، طلب لها سنينَ ما يشاكلها ليستر تلك الثقبة به، حتى وجدوه بعد حين وعمل له منه ماينهدم فيها(٤)، وأحضروا الصُوّاغ يصاغ بين يديه خاتماً*، وطُلِيَ المنحوتُ بمصطكي ليركبه في ثقب الفصّ. ووضعه الرشيد في كفّه ينظر إليه معتبراً للمشابهة بينهما، فوقعت عليه ذبابةٌ وتعلَّقَ برجْلها، فطارت وذهبت به، فقال الرشيد: صدق الله في قولـه: ﴿ضَعُفَ الـطالِبُ والمَطْلُوب﴾(٥). ولمّا استخلف الهادي ودخل عليه

---

(١) ـ ليعقوب بن اسحق الكندي (ت. ٢٦٠ هـ) كتاب اسمه «الجواهر والاشباه» ورسالة في أنـواع الجـواهـر الثمينة وغيرها، ورسالة في أنواع الحجارة. (انظر مقدمة التحقيق لكتاب الجواهر وصفاتها ليحيى بن ماسويه ص ٧).

(٢) ـ في كتاب الجماهر (ص ٦١) ابراهيم بن المهدي.

(٣) ـ الخليفة موسى الهادي بن المهدي بويع سنة ١٦٩ وتوفي سنة ١٧٠ هـ.
(مروج الذهب ٣ / ٣٣٤، تاريخ الخلفاء للسيوطي ٢٧٩).

(٤) ـ في كتاب الجماهر: وعمل ما يُهَنْدَمُ فيها.

* ـ في كتاب الجماهر: وأحضر الصوّاغ وصاغوا بين يديه خاتماً.

(٥) ـ من الآية ٧٣ من سورة الحجّ.

الرشيد رأى الاسماعيليّ في يده فحسده عليه، وأراد أن يقترنَ بالجبل، وحين خرج من عنده اتبعه الفضلُ بن الربيع مع اسماعيل الأسود بأن يبعث الاسماعيليَّ إليه، وإن لم يفعل فجئني برأسه، ولحقه الربيعُ وأخبره بالقصة، فقال: والله لا أعطيه إلّا بيدي. ورجع معه إلى أن بلغا الجسر وأخرجه من أصبعه، وقال: يا فضلُ: أهو الإسماعيليّ؟ قال: نعم. فرمى به في دجلة، وطلبوه فلم يوجَد، إلى أن استخلف الرشيد ومضت من خلافتهِ سنة، وكان بالخلد[1] يذكر ما عامله به موسى، فتذكر الخاتم، وأمر الفضلَ بالغَوْصِ لتطلُّبهِ فقال: «يا سيّدي قد طُلِبَ مراراً وإني لأظنّ أنْ قد علاه أكثرُ من أربع أذرعٍ من الطين لتطاول المدة». ثم مضى الفضلُ بالغواصين، فقال له أحدهم: قِفْ موقِف الرشيد وارْمِ بِمَدَرَةٍ في قَدْر الخاتم كما رمى به. ففعل، وأول ما غاص الغوّاص في مسقط المَدَرَةِ بعد أن قدّر ما يميل الماء به إلى أن يبلغ القرار أخرج الخاتمَ وقرنه الرشيدُ بالجبل كما أراد الهادي ولم يكن. انتهت[2].

وهذه الحكايةُ في حق الهادي غريبةٌ في الدخولِ تحت هذه الصورة من حيثُ فَقْدُه لهذا الخاتم العديمِ النظير المنقطعِ الشبيه الذي حمله الحسدُ على استخلاصه من أخيه الذي آثره به أبوه، واستفاضته إلى ما كان قد خصّه من حجر الياقوت المسمّى بالجبل. وهي في حقّ الرشيدِ بما جمع الله له من الذخيرتين المذكورتين ظاهرةُ الدخول تحت الصورة التي قبلها. وانظر ما أعجب ما اتفق له من جَبْرِ الخاتم، فإنما ذلك - والله أعلم - لمكان بَغْيِ أخيه عليه وعدم البغي منه. رزقنا الله القناعةَ بما منح من نعمة.

ومما ينخرطُ في هذا السِلْكِ ما حكي عَن المأمونِ أنّه لما قدم بغداد منصرفاً من خراسان أهدى له الفضلُ بن الربيع فصَّ ياقوت لم يُرَ مِثْلُه، فأخذ المأمونُ يقلّبه[3] ويحوله من يد إلى يد (ص ١٢٠) فيقول لجلسائه: ما رأيتُ أحسنَ من

(١) - الخلد: قصر بناه المنصور على شاطىء دجلة (معجم البلدان - ياقوت).

(٢) - وردت هذه الحكاية في كتاب الجماهر ص ٦٢.

(٣) - في الأصل: يتلفه.

هذا. ثم حدَّثهُم بأنّ أبا مسلم[١] سرّح زياد بن صالح إلى الصين، فوجّه زياد إليه بفصٍّ وقع من جهته إلى أبي العباس السفّاح فوهبه لعبدِ الله بن علي[٢] فصار منه إلى المهديّ ثم الرشيد، فبينا هو يرمي بقوس جُلاهق[٣] إذْ برز الفصُّ من خاتمه، وفُتّش ذلك الموضعُ وحواليه ولم يُعْثَرْ له على أثر، فاغتمّ جدّاً. واشترى صاحب المصلّى فصاً عديم المثل بعشرين ألف دينار وبعثه إليه ليسلّيه به، فلما نظر إليه قال: وأين هذا من فصّي. ثم قال المأمون: لأضعنّ مِن قدْر هذه الحجارةِ التي لا معنى لها، وردّه على الفضل، وقال لرسوله: قل دُهِيتْ[٤] دولتُك يا أبا العباس. ولما رجع الفصُّ إلى الفضلِ وجمه[٥] وقال لأحد بطانته إن المأمونَ لا يعيشُ من يومه إلاّ أقلَّ من سنة. وما أمسى إلاّ وقد أتاه الخبرُ بالقصة فأسرّها ولم يُبْدِها إلى أن حال الحوْلُ وركب في تشييع جنازة العبّاس بن المسيب[٦]، فعرض به بباب الشام[٧] بعضُ أولاد الفضل، ودعا له، وانتسب فاستدناه حتى قرب من ركابه، فانحنى له، وأدنى

---

(١) ـ هو أبو مسلم عبد الرحمن بن مسلم الخراساني القائم بدعوة بني العباس، قتله أبو جعفر المنصور سنة ١٣٧ هـ (انظر: تاريخ بغداد ١٠ /٢٠٧، المعارف ٣٧٠، مروج الذهب ٣ / ٣٠٢، وفيات الأعيان ٣ / ٣٧٢).

(٢) ـ هو عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، وهو عم أبي جعفر المنصور، ولي الشام للسفاح ثم خالف عليه، فبعث إليه أبو جعفر المنصور أبا مسلم الخراساني فهزمه، ثم حبسه أبو جعفر ومات بحبسه في بغداد سنة ١٤٧ هـ (المعارف ٣٧٥، مروج الذهب ٣ / ٣٠٢، تاريخ بغداد ١٠ / ٨).

(٣) ـ الجُلاهق: البندق الذي يُرْمى به (فارسي) (القاموس المحيط: جلق).

(٤) ـ في كتاب الجماهر: ذهبت.

(٥) ـ في كتاب الجماهر: وجم له.

(٦) ـ هو العباس بن المسيب بن زهير الضبّي، ولي شرطة الخليفة المأمون. (المعارف ٤١٣)

(٧) ـ هو أحد أبواب مدينة بغداد سمي بذلك لأنه تلقاء الشام، بناه المنصور. (مروج الذهب ٣ / ٢٩٨، الروض المعطار ١١١، ٥٢٩).

إليه رأسَه مُسِراً وقال له: أعْلِمْ أبا العباس أنّ ذلك الوَقْتَ قد مضى. انتهى[1].

وما حكاه المأمونُ من اغتمامِ الرشيد لفَقْدِ الفصّ الذي ضاع له على هذا الوجه من الرمي بالقوس الذي نسمّيه نحن قوسَ البُنْدُق وعدم تسلّيه بما اشترى له من عِوَضٍ منه متمكنٌ في هذه الصورة. ورأيُ المأمونِ في وضعه من هذه[2] الأحجار أرْجَحُ وأصْوَب، وقد يكون اصبعُ الرشيدِ أمْيَلَ إلى الاغتباط بمثل هذه القُنْيَةِ النفيسةِ من ابنه المأمون رحمهما الله. فقلّما تتفق الهِمَمُ والقرائحُ على معنى واحد.

وممّا يشهد بما ظُنّ من طَبْعِ الرشيد ما حكاه نصر[3] الجوهري عنه فإنه قال: كان الرشيدُ شديدَ الولوعِ بالجواهر حريصاً على اقتنائها. وإنه بَعَثَ بالصبّاح[4] الجوهري جدّ[5] الكندي إلى صاحب سَرَنْديب لابتياع جواهر في ناحيته، فأكرمه الملك، ورحّب به، وأراه خِزانةَ جواهره وهو يقلّبها ويتعجب من حَلاتها[6] وعِظَمِ أجرامها، إلى أن بلغ ياقوتاً أحمر ولم يكُنْ رأى في خزائن الخلفاء مِثْلَهُ، فاشتد إعجابُه بها. وقال له الملك: هل لك عهدٌ بمثله؟ قال: لا. قال: فهل تقدر على تقويمها إذْ عَجزَ الكلُّ عنه؟ قال: أفعل. وشَقّ ذلك على الملك. وقال له: كنتُ استرجِحُ عَقْلَكَ فَكَذَبَتْ فراستي فيك لادّعائك ما أعجز الكافّة. قال الصبّاح: ما أخطأتْ فراستُك، وإن أردتَ صدقتها فاجمع من عندك من ذوي البَصَر بأمر الجواهر. واستحضر الصّباحُ ملاءةً وبَسَطَها وَدَفَعَ أطرافها إلى أربعةِ نَفَرٍ يمسكونها في الهواء، ثم رمى بالياقوتةِ فوق الملاءة بأقصى قوّته. ولما سقطت على الملاءة قال للملك: قيمتُها أن يُصبّ[7] العَيْنُ على

(١) ـ انظر هذه الحكاية في كتاب الجماهر ص ٦٥.

(٨) ـ في الأصل: هذا.

(٣) ـ كذا في الأصل وفي كتاب الجماهر ص ٦٢.

(٤) ـ كذا في الأصل وفي كتاب الجماهر ص ٦٢.

(٥) ـ في الأصل: حدّ.

(٦) ـ في كتاب الجماهر: جلالتها.

(٧) ـ في كتاب الجماهر: تنصب.

الأرضِ إلى أن يَعْلُوَ حيثُ بَلَغَتْ بالرَمْي. فاستحسنَ القومُ قوله، وجَلَّ في عينه وأعينهم، وأمر فحُشي فوه بالجوهر الرائق وخَلَعَ عليه وصَرَفَهُ بقضاءِ ما وَرَدَ له. انتهى[1]. وفي هذه الحكاية مثلُ ما سبق قبل من إيضاح الندور في هذه الأمور، والنادرُ عندنا مما لم يوجد مثله كالنادر في سَرَنْديب كذلك.

وقال عبد الرحمن[2] بن صاحب صلاة الكوفة: دخلت على أمّي (ص ١٢١) يومَ أضحى فرأيتُ عندها عجوزاً في أطمارٍ، وذلك سنةَ تسعين ومائة، وإذا لها ببان[3]. فقلت لأمي: من هذه؟ قالت: هذه خالتك عيّابة[4] أمّ جعفر ابن يحيى، فسلّمْتُ عليها فردّت. وقلت[5]: أصَارَكِ الدهرُ إلى ما أرى! قالت: نعم يا بنيّ إنما كنّا في عَوارٍ ارتجعها الدهر منّا. فقلت: حدّثيني ببعضِ شأنك. قالت: خذه جملة، لقد مضى عليّ أضحى مثل هذا منذ ثلاثِ سنين وعلى رأسي أربعمائة وصيفة، وأنا أزعم أن ابني عاقٌّ بي، وقد جئتُكُمْ اليومَ أطلبُ جِلْدَيْ شاتين أجعل أحَدَهُما شعاراً[6] والآخر دثاراً. قال: فبكيتُ ووهبتُ لها دثاراً[7]. انتهت[8].

وهذه الصورةُ قد تقدّم الكلامُ في صدرها على نُدور ما لا يُوجَدُ منه عِوضَ، ولله الفضل في ذلك، وأنّ الأكثر إنما هو أن يمنعَ من عودةِ الفائت بعينه مانعٌ كالذي فقدته أمُّ جعفر في هذه الحكايةِ المرسومةِ ثانياً فإن وجاهةَ الوزارةِ الرشيديّة بعد موتِ ولدها مستحيلة في حقّها، وكلُّ حكاية يفقد فيها

---

(١) ـ وردت الحكاية في كتاب الجماهر ص ٦٢ ـ ٦٣.

(٢) ـ في مروج الذهب ٣ / ٣٩٢: محمد بن عبد الرحمن الهاشمي.

(٣) ـ كذا في الأصل.

(٤) ـ في مروج الذهب: عبادة.

(٥) ـ في الأصل: وقالت.

(٦) ـ الشِعار: ما تحت الدِثار من اللباس (القاموس المحيط: شعر).

(٧) ـ في الأصل: دينارا.

(٨) ـ وردت الحكاية بالمعنى في مروج الذهب ٣ / ٣٩٢.

القائم بمصالح من يحكى عنهم ممن لا يستقلّ بنفسه كالنساء ومن ماثلهنّ فإنها تندرِجُ تحت هذه الصورة الثالثة؛ فإنّ عدم العِوَضِ من شيءٍ مفقود من هذه القُنْية يصوّره الذهن، وقد لا يوجد في الخارج إلاّ ومنه عِوَضٍ، وفي غيره عنه بدل، إلاّ أن يحكم الهوى في كونِ ما خالف هذا المفقود ليس بمماثلٍ له من كلّ الوجوه، فهذا أيضاً يُفْضي إلى أنْ لاعِوَضَ من شيءٍ مفقود إلاّ في المِثْليّات خاصّة على استكراهٍ شديد في ذلك، ولا اعتبار بذلك بنظرِ الحقّ، فالوجهُ أن يكون التقسيمُ إنما أبْرَزَ الصورة التي ينْدُرُ العِوَضُ منها، أو يمنع المانعُ من عودة مثل المفقود كما سبق أو يكون لشرفه واحداً في العالم.

كما يحكى عن مُضاض بن عمرو بن الحارث الجرهمي[1] في صبابته ببلدة[2] مكّة لما قُضِيَ عليه بالجلاء عنها وذلك أن قومه جُرْهماً بَغَوْا في الحرم، فنهاهم مُضاض عن ذلك، وحذّرهم نقمة الله، فلم ينتهوا، فسلّط الله عليهم خزاعة*، فقابلوهم[3] حتى نفوهم عن الحرم وغلبوهم عليه. وكان بنو اسماعيل ممن اعتزلوا جرهماً وخزاعةَ عند وقوعِ الحرب بينهم، فلما استقرّت خزاعةُ بمكّة سألهم بنو اسماعيل السُّكْنى معهم وحولهم فأذنوا لهم، فلما رأى ذلك مُضاضُ بن عمرو وكان قد اعتزل جرهماً ولم يُعِنْهُمْ في حرب خزاعة وقال: «قد كنت حذّرتكم هذا»، وقد كان أصابه من الصبابة إلى مكةَ أمرٌ عظيم، أرسل إلى خزاعةَ يستأذِنُها ومتّ إليهم باعتزالِهِ الحربَ وتوريعِهِ[4] قَوْمَهُ عن القتال وسوءِ العشرة في الحرم، واعتزالِهِ الحرْبَ، فأبت خزاعةُ أن يقرّوهم ونفوهم عن الحرم كلّه. وقال عمرو بن لجّ[5] لقومه: من وجد منكم جُرْهُمياً قد قارب الحَرَمَ

(١) ـ انظر ترجمته في الأغاني ١٥ / ١٢ ـ ٢٦، جمهرة أشعار العرب ص ٥٦.

(٢) ـ هكذا في الأصل، ولعلها: «ببلده».

* ـ في الأغاني: الذرّ.

(٣) ـ هكذا في الأصل، ولعلها: «فقاتلوهم».

(٤) ـ ورّعه توريعاً: كفّه (القاموس المحيط: ورع)، وفي الأصل: وتوزيعه.

(٥) ـ في الأغاني: عمرو بن لحى، وفي محاضرة الأبرار: عمرو بن لحيّ وهو ربيعة بن حارثة ابن عمرو بن عامر.

فدمه هَدَرٌ. فنزعت إبلُ المُضاض بن عمرو من قَنَوْنى[1] تريد مكة فخرج في طلبها حتى وجد أثَرَها قد دخلت مكة، فمضى على الجبالِ من نحو أجياد[2] حتى ظهر على أبي قبيس[3] فأبْصَرَ الإبلَ في بَطْنِ وادي مكّة تُنْحر وتُؤكل، ولا سبيلَ له إليهـا، فخاف إ[ن ه]بط الوادي أن يُقْتل فولّى منصرِفاً إلى أهله وأنشأ يقول:

كأنْ لمْ يكُـنْ بينَ الـحُـجُـولِ[4] إلى الصَّفـا
أنيسٌ وَلَمْ يَسْمُـرْ بمكـةَ سامِـرُ

ولـم تتـربَّـعْ واسـطاً فجنـوبَـهُ
إلى المُنْحَنَى من ذي أراكـة[5] حاضِرُ

(ص ١٢٢) بَلى نحنُ كُنّا أهْلَها فأبادَنا
صروفُ الليالي والجُـدودُ العَـواثِـرُ

وأبْـدَلَـنـا ربّـي بهـا دارَ غُرْبـةٍ
بهـا الذيبُ يَعْوي والعدوُّ المحاصِر[6]

فَهَـلْ فَرَجٌ آتٍ بشـيءٍ تُحِـبُّـهُ
وهَـلْ جَزَعٌ يُنْجيك ممّا تُحاذِرُ؟[7]

---

(١) ـ واد من أودية السراة يصب إلى البحر في أوائل أرض اليمن من جهة مكة.

(٢) ـ أجياد: أحد جبال مكة ويقع غربي المسجد الحرام ويقابل من الكعبة الركن اليماني، سمّي كذلك لخروج جياد الخيل مع السميدع حين قاتل عمرو بن مضاض الجرهمي (الروض المعطار ١٢ ـ ١٣).

(٣) ـ أحد جبال مكة (الروض المعطار) ويسمى أيضاً (أبو قابوس).

(٤) ـ في الأغاني: الحجون.

(٥) ـ في الأغاني: الأراكة.

(٦) ـ في الأغاني: المخامر.

(٧) ـ القصيدة في الأغاني ١٥ / ١٨ ـ ١٩ من خمسة عشر بيتاً، وفي محاضرة الأبرار من تسعة عشر بيتاً.

في أبيات طويلة تركت خيفةَ التطويل(*). وما أعذر مضاض بن عمرو في وجْده[1] بمكةَ، وجزعه من فراقها، ومن كان مجاوراً لبيتِ الله وساكناً في حرمه، فأُخْرِجَ منه غلبة وقهرا، فهل هو إلاّ كآدم صلّى الله عليه وسلّم حين أُخْرِجَ من الجنّة، وأين يجد في البسيطة عِوَضاً من مكّة في شَرَفِ قدرها وهوى الأفئدة إليها؟! فهي في هذا المعنى فذّة، وهي في البلاد ندرةٌ، جعلنا الله ممن قُسِمَ له حظٌّ من زيارتِها والوفادة عليها في سبيل الامتثال لأمره والاشتياق لبيته.

وممّن طرقتْهُ البليّةُ في الجاهِ والمال فلم يتمكّن له الاستعاضة منها أبو النصر[2] بدر مولى عبد الرحمن بن معاوية الداخل رحمه الله، قال الرازي[3]: وكان من أكبرِ من أمضى عليه الأميرُ عبد الرحمن بن معاوية حُكْمَ سياستِهِ وقومه. . . . .[4] مولاه بدر المتعلّق منه بكل ذمّة محفوظة، الخائض معه لكل غمرةٍ مرهوبة، وكلّ ذلك لم يُغْنِ عنه نقيرا[5]، لِما سَلَفَ عليه في إدلاله عليه وكثر من الانبساط لحرمته فجمح به مركبُ تحامُلِهِ حتى ورده مورداً** لم يُطِقْ الصَدَرَ عنْهُ، وأسف أمره ومولاه حتى كبح عنانه كبحة أقعى بها. قال: فانتهى في عقابِهِ لمّا سخط عليه إلى أن سَلَبَهُ نِعْمَتَهُ وانتزع منه دُوره وأملاكه، وأغرمه على ذلك كلِّه أربعين ألفاً من صامِتِهِ[6]، وأقصاه عن قربه ولم يُقِلْهُ العثرة إلى

---

* ـ وردت الحكاية في الأغاني ١٥ / ١٤ ـ ١٩، محاضرة الأبرار ٢ / ٣٩ ـ ٤١.

(١) ـ في الأصل: وجوه.

(٢) ـ في الأصل: أبو العض، وتصويبها من الإحاطة ١ / ٤٤٤.

(٣) ـ هو أبو بكر أحمد بن محمد بن موسى الرازي من أهل قرطبة من مؤرخي الأندلس وكان أديباً شاعراً، ولد بقرطبة سنة ٢٧٤ هـ وتوفي سنة ٣٤٤ هـ، ومن كتبه أخبار ملوك الأندلس، وكتاب «الاستيعاب في أنساب أهل الأندلس» وغيرهما. (تاريخ علماء الأندلس ٤٢، جذوة المقتبس ١٠٤، بغية الملتمس ١٥١، الوافي بالوفيات ٨ / ١٣١، طبقات الزبيدي ٣٢٧).

(٤) ـ كلمتان غير واضحتين، وكذلك شأنهما في الإحاطة.

(٥) ـ في الأصل: تغيّرا.

** ـ هكذا في الأصل، وفي الإحاطة: حتى أورده ألما يضيق الصدر عنه.

(٦) ـ الصامت من المال: الذهب والفضة.

أن هلك فدفع[1] به طمع هوادة عن جميع ثقاتِه وخدمته، وصيِّر خبره مثلاً في الناس بعده[2]. انتهت. وهذه الرتبةُ الجاهيَّةُ والماليّة لمثل بدر هذا من القُنْيات التي يندر له وجودُ مِثْلِها كما سبق. وفي سلامة نفسه ما يسلّيه عن مفقودِهِ، لَطَفَ الله بنا في قضائه.

وذكر الصولي[3] أن المعتصمَ لما فَرَغَ من بناءِ قصر عبّاسة عَقَدَ مجلساً رائعاً جمع فيه أهلَ بيته، وتتوّجَ بالتاجِ الذي فيه الدرّة اليتيمة، فاستأذن اسحقُ الموصلي[4] في الإنشاد وقال:

يا دارُ غَيَّركِ البلى ومَحاكِ يا ليتَ شِعْري ما الذي أبْلاكِ

فتطيَّرَ المعتصمُ بذلك، وتغامز الحاضرون متعجّبين كيف ذهب عليه هذا مع طول صحبته للخلفاء والملوك، وصحّ التطيُّرُ بخروجِ المعتصم إلى سُرَّ من رأى فإنه لم يعد إلى ذلك القصر، وخرب [ولم] يجتمِعْ فيه من ذلك المجلس بَعْدَهُ اثنان. انتهت[5].

ولما كان ما تحتَ هذه الصورةِ من مفقود القُنْية الجاهيّة أو الماليّة قد فرض من الندور بحيثُ يَعِزّ الاعتياضُ منه، ويتعذّر الاستغناءُ عنه، اقتضى ذلك بحسب ما جُبِلَتْ عليه النفوسُ من الحرصِ على ما منعت منه الاستشراف لمّا لم تجد بدلاً عنه أن يكون الأسف على فقده عظيماً والكمد من أجل فوتِه شديداً، والنفوس في هذا المعنى متفاضِلةٌ والقرائحُ متفاوتة فقد يتأثر (ص ١٢٣)

(١) - في الأصل: فرفع، وفي الإحاطة: فرفع طمع الهوادة.

(٢) - انظر هذا الخبر في الإحاطة ١ / ٤٤٥.

(٣) - أبو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله بن العباس بن صول، أسلفنا التعريف به.

(٤) - هو أبو محمد اسحق بن ابراهيم بن ميمون (ماهان) الموصلي، مغن شهير ورث الغناء عن أبيه، وأصله فارسي، وله مكانة من العلم والأدب والرواية، نادم الخلفاء العباسيين، مولده سنة ١٥٠ هـ وتوفي سنة ٢٣٥ هـ. (انظر: الأغاني ٥ / ٢٦٨ - ٤٣٥، تاريخ بغداد ٦ / ٣٣٨، طبقات ابن المعتز ٣٥٩، معجم الأدباء ٦ / ٥ - ٥٨، وفيات الأعيان ١ / ٢٠٢).

(٥) - وردت الحكاية في تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٣٣٧.

أن هلك فدفع[1] به طمع هوادة عن جميع ثقاته وخدمته، وصيَّر خبره مثلاً في الناس بعده[2]. انتهت. وهذه الرتبةُ الجاهيَّةُ والماليّة لمثل بدر هذا من القُنْيات التي يندر له وجودُ مِثْلِها كما سبق. وفي سلامة نفسه ما يسلّيه عن مفقودِهِ، لَطَفَ الله بنا في قضائه.

وذكر الصولي[3] أن المعتصمَ لما فَرَغَ من بناءِ قصر عبّاسة عَقَدَ مجلساً رائعاً جمع فيه أهلَ بيته، وتتوَّجَ بالتاجِ الذي فيه الدرّة اليتيمة، فاستأذن اسحقُ الموصلي[4] في الإنشاد وقال:

يا دارُ غَيَّرَكِ البلى ومَحاكِ يا ليتَ شِعْري ما الذي أبْلاكِ

فتطيَّرَ المعتصمُ بذلك، وتغامز الحاضرون متعجّبين كيف ذهب عليه هذا مع طول صحبته للخلفاء والملوك، وصحّ التطيُّرُ بخروجِ المعتصم إلى سُرَّ من رأى فإنه لم يعد إلى ذلك القصر، وخرب [ولم] يجتمِعْ فيه من ذلك المجلس بَعْدَهُ اثنان. انتهت[5].

ولما كان ما تحتَ هذه الصورةِ من مفقود القُنْية الجاهيّة أو الماليّة قد فرض من الندور بحيثُ يَعِزّ الاعتياضُ منه، ويتعذّر الاستغناءُ عنه، اقتضى ذلك بحسب ما جُبِلَتْ عليه النفوسُ من الحرصِ على ما منعت منه الاستشراف لمّا لم تجد بدلاً عنه أن يكون الأسف على فقده عظيماً والكمد من أجل فوتِهِ شديداً، والنفوس في هذا المعنى متفاضِلةٌ والقرائحُ متفاوتة فقد يتأثّر (ص ١٢٣)

---

(١) - في الأصل: فرفع، وفي الإحاطة: فرفع طمع الهوادة.

(٢) - انظر هذا الخبر في الإحاطة ١ / ٤٤٥.

(٣) - أبو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله بن العباس بن صول، أسلفنا التعريف به.

(٤) - هو أبو محمد اسحق بن ابراهيم بن ميمون (ماهان) الموصلي، مغن شهير ورث الغناء عن أبيه، وأصله فارسي، وله مكانة من العلم والأدب والرواية، نادم الخلفاء العباسيين، مولده سنة ١٥٠ هـ وتوفي سنة ٢٣٥ هـ. (انظر: الأغاني ٥ / ٢٦٨ - ٤٣٥، تاريخ بغداد ٦ / ٣٣٨، طبقات ابن المعتز ٣٥٩، معجم الأدباء ٦ / ٥ - ٥٨، وفيات الأعيان ١ / ٢٠٢).

(٥) - وردت الحكاية في تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٣٣٧.

بعضُ النفوس من فقد ما يجد منه العِوَض ما لا تتأثر منه نَفْسٌ أخرى من فَقْدِ ما لا تجد منه بدلاً، ولكن إنّما أخّرنا الكلامَ على هذا إلى هنا لأن التأثير النفسانيّ مما لا يوجد منه عِوَضٌ في الأمر الأكثر أغلب، والنفس في الاهتمام من فَوْته اعذر، وليكون ذلك شاملاً للصورتين المتقدّمتين قبل هذا.

فنقول: إنّ الأسفَ لفَوْتِ شيء إذا حقق[1] إنما هو ضرر يدخله المبتلى على نفسه متى سامحَ داعية هواه، وخاف[2] مقتضى عقله، فإنّه إذا لحقه من فَوْت ما لا يجدُ منه بدلاً، كما في هذه الصورة، أو مِنْ فَقْدِ ما يجد منه البدل، ولم يحصل له بعد، كما في الصورة قبلها، فإنه يجد الأسَفَ في ذلك قبيحاً[3] إذا كان لا يُجدي شيئاً في ردّ ما فَقَدَهُ، ولا في استرجاع ما ذَهَبَ عنه أبداً، لا يسترسل مع شيء لا ينفعه عاجلاً ولا آجلاً، فإنه إنْ كان في الصورةِ الثانية حيثُ يوجَدُ منه العِوض، ويَتهيّاً[4] منه البدل، فالواجبُ هنالِك اللائقُ بأنظارِ العقلاء أن يفكّر في الأسبابِ الجائزةِ الارتكاب التي ربما يُسْتَنْتَجُ منها خُلُوف ما فات، وجَبْر ما نقص، وإعادةُ ما ذهب، وذلك على الحدّ الوسط الذي لا يُعَدُّ بتركه مفرّطاً ولا بالتأنّي فيه مُفْرِطاً. وإن كان في هذه الصورة الثالثة التي يفقد فيها العوض أو يقدر الندور الذي يقربه جداً من العدم فالواجب هنا صرفُ النفسِ عن التعلقّ به والجنوحِ إليه، وقطع الرجاءِ عن ذلك حتى يثمر هذا المعنى للمُبْتَلى بهذا الفَقْد راحةً لا يجدها ما دام معمورَ القلب بالأسَفِ الذي قد فرضناه لا يغني عنه شيئاً ولا يجدي عليه نفعاً، وإنما يُشْغِلُ به نَفْسَهُ عن رؤيةِ حكم الله ومشاهدة أمره وملاحظة قهره، ثم عن الترقّي صعوداً إلى اقتباس نورِ الله الذي هو ثمرةُ العقل في رجاءِ كون ما يمنع منه هذا الفقد، ولعلّه مما تكونُ فيه الخيرة ويبدو بعد الوقوع ما أخفى الله في ضمنه من لطف، أو عسى

---

(١) ـ هكذا في الأصل ولعلها: إذا حقّ.

(٢) ـ هكذا في الأصل ولعلها: خالف.

(٣) ـ في الأصل: قبيح.

(٤) ـ في الأصل: تتهيأ.

أن يكونَ في علمِ الله ما لا يعلمه المُبْتَلى من رجحان ما زوي عنه على استمرار انتفاعِه به، فقد وقعت التجربةُ من العقلاءِ على ذلك ما يُبْهِرُ عقولَهم ويُبهجُ نُفوسَهم. وقد مرَّ من ذلك في بعضِ الحكايات ما فيه للصدورِ انشراحٌ وللقلوب ابتهاج. ولهذا المعنى قال يعقوب الكِندي(1) حكيمُ العرب: «إنَّ هذه القُنْيات الحسّية والطلبات الحسّية(2) موقوفاتٌ لكلّ واحد، ومنديلٌ لكلّ يد، لا يمكن تحصينُها، ولا يُؤْمَنُ فسادُها وزوالُها وتبدُّلُها، فتصيرُ بعدما تؤنس بقربها مُوحشة، وبعد الثقة بطاعتِها عاصية، وبَعْدَ إقبالها مُدْبرة، وليس في الطَبْع أن يكونَ ما ليس في الطَبْع، فإن أردْنا من الأموالِ المشتركات(3)، التي ليس منها شيء خاصٌّ لأحَدٍ دون أحَد بل هي مالٌ لكلّ أحد، أن تكون لنا خاصّةً، ومن الفاسِدَة ألّا تكون فاسِدةً، ومن المُدْبِرةِ أن تكون مُقْبلةً فَقَطْ، ومن الزائلةِ في كلّ حال أن تكون ثابتةً، فقد أردْنا من الطبعِ ما ليسَ في الطَبْع. ومَنْ أرادَ ما لَيْسَ في الطبع فقد أراد ما ليس بموجود، ومن أراد ما ليس بموجودٍ عَدِمَ طِلْبَتَه، والعادمُ (ص ١٢٤) طِلْبَتَه يَشْقى، فمن أراد الموقوفاتِ وأراد أن يكونَ قنيته ومحابّه منها شَقِيَ، ومن تمّت له إرادتُه فسعيد، فينبغي إذاً على أن نكونَ سعداء ونحترِسَ من أن نكون أشقياء»(4).

---

(1) ـ هو أبو يوسف يعقوب بن اسحق بن الصباح الكندي الفيلسوف العربي الشهير، كان أبوه أميراً على الكوفة للمهدي والرشيد، وكان جده الأشعث بن قيس من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وللكنـدي مؤلفات ورسائل كثيرة زادت على الخمسين في الفلسفة والموسيقى والطب والحساب والفلك، توفي في حدود سنة ٢٥٥ هـ. (طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل ٧٣، طبقات الأمم لصاعد ٥١، الفهرست لابن النديم ٣١٥).

(2) ـ هكذا في الأصل.

(3) ـ في الأصل: الأحوال وللمشتركات.

(4) ـ انتهى كلام الكندي.

خاتمةٌ لهٰذه الصُّورة الثالثة

كانت[1] خِزانةُ هذه الدارِ النَّصْريّة، مُشْتَمِلةً على كلِّ نفيسةٍ من الياقوت، ويتيمةٍ من الجَوْهَر، وفريدةٍ من الزُمُرُّد، وثمينةٍ من الفَيْروزج، وعلى كلِّ واقٍ من الدُّروع، وحامٍ من العُدّة، وماضٍ من الأسلحة، وفاخرٍ من الآلة، ونادرٍ من الأمتعة فمِنْ عُقودٍ فذّة، وسلوك جمّة، وأقراطٍ[2] تفضل على قرطيْ ماريّة، نفاسةً فائقةً وحُسْناً رائقاً، (وخواتم يُسْتَصْغَرُ معها الاسماعيليّ المنقولُ الحكايةِ آنفاً[3]) [4] ومن سيوفٍ شواذَّ في الإبداع، غرائب في الإعجاب، منسوباتِ الصفائح في الطبع، خالصاتِ[5] الحلى من التّبر، ومن دروعٍ مقدّرة السرد، متحاكمةِ[6] النَّسْج، واقيةٍ للبأس، في يوم الحرب، مشهورةِ النِّسْبةِ إلى داود نبيّ الله، ومن جواشنَ سابغةِ اللّبسة، ذهبيّةِ الحِلْية، هِنْديةِ الضرب، ديباجيّةِ الثوب، ومن بيضاتٍ عسجديّةِ الطوق*، جوهريةِ التنضيد، زَبَرجَدِيَّةِ التَّقْسيم، ياقوتيةِ المركز[7]، ومن مناطقَ لجينيّةِ الصوغ، عريضةِ الشكل، مزجّجةِ الصفح،

---

(١) ـ من هنا يبدأ ما اقتبسه المقّري في أزهار الرياض ونفح الطيب من كتاب جنة الرضا. (انظر: أزهار الرياض ١ / ٥٣ ـ ٥٥، نفح الطيب ٤ / ٥٠٩ ـ ٥١٠).

(٢) ـ في الأصل: أفراط.

(٣) ـ في الأصل: ألقا.

(٤) ـ ما بين القوسين لم يرد في أزهار الرياض.

(٥) ـ في أزهار الرياض: خالصة.

(٦) ـ في أزهار الرياض ونفح الطيب: متلاحمة.

* ـ في النفح: الطّرْق.

(٧) ـ في الأصل: الركز.

ومن دَرَقٍ لمطيّة النسخ[1]، مصمتةِ المسامّ، ليّنةِ المجسّة، معروفةِ المَنَعَة، صافيةِ الأديم، ومن قِسِيٍّ ناصعةِ الصبغة، هلاليةِ الخلقة، منعطفةِ الجوانب، زاريةٍ[2] بالحواجب، إلى آلاتٍ فاخرةٍ من أثوار[3] نُحاسية، ومناور** بلّورية، وطيافيرَ دمشقية، وصنجاتٍ[4] زجاجية، وصحافٍ صينيّة، وأكوابٍ عراقيّة، وأقداحٍ طباشيريّة، وسوى ذلك ممّا لا يحيطُ به الوصْفُ، ولا يستوفيه العدّ. وكلُّ ذلك التهبه[5] شِواظُ الفتنة والْتَقَمَهُ تيّارُ الخِلافِ والفُرقة، فرُزِئَت[6] الدارُ منه بما يتعذّر إتيانُ الدهور بمثله، وتقصر[7] ديارُ الملوكِ المؤثّلة النِعْمةِ عن بعضِه فَضْلاً[8] عن كلّه[9]. وأعرض الغالبُ بالله ـ أيّده الله ـ عمّا فتقد بما استطالتْ عليه من ذلك الأيدي العادية، وابتغَتْ العَيْثَ في قُنْيَتِهِ النفيسة الفئةُ الباغية، ولم يكترِثْ لذلك اكتراثَ الرشيد لما فَقَدَ من فصِّ خاتمه المسرود القصّة فيما قبل، وسَلَكَ على سبيله من التسليمِ لله في أمره والتفويض لله فيما أنفذ من حُكْمه.

وكانت المُنْيَةُ المسماة بالدِشار[10]من أعظمِ المصانعِ السلطانيةِ قَدْراً

(١) ـ سقطت كلمة «النسخ» من أزهار الرياض ونفح الطيب.

(٢) ـ في الأصل وازية، والصواب من أزهار الرياض ونفح الطيب.

(٣) ـ في أزهار الرياض والنفح: أتوار، والأتوار: الآنية.

** ـ في النفح: منابر.

(٤) ـ في أزهار الرياض ونفح الطيب: سبحات.

(٥) ـ في أزهار الرياض: ألهبه.

(٦) ـ في الأصل: فوزنت، والصواب من أزهار الرياض ونفح الطيب.

(٧) ـ في الأصل: ونقص، والصواب من أزهار الرياض ونفح الطيب.

(٨) ـ في الأصل: مضا، والصواب من أزهار الرياض ونفح الطيب.

(٩) ـ إلى هنا ينتهي ما اقتبسه المقّري في أزهار الرياض ١ / ٥٣ ـ ٥٥، ونفح الطيب ٤ / ٥٠٩ ـ ٥١٠.

(١٠) ـ ذكر ابن زمرك الدشار والقصر الذي كان فيها في موشحة مطلعها:

نسيم غرناطة عليلْ لكنّه يبرىء العليلْ =

وأبهجها أُنْساً وأشرفِها وَضْعاً وأبدعِها وَصْفاً وانهاها نَعْتاً، وكان بها القصرُ المُعْجِبُ في غرابةِ النوعِ، وفخامةِ الوضْعِ، ومناسبةِ الترتيب، ومجانسةِ التقدير، كان نتيجةَ فكرةِ السُّلطان الغنيّ بالله جدِّ هؤلاء الملوك النصريِّين، الممتازِ بسُمُوّ الهِمّة، وضخامةِ المملكة، ومواتاةِ السعادة، ومساعفةِ الإرادة، وانقيادِ الزمان لِمَآمِلِه، وإذعانِ الدهر لمقاصِدِه، فتطاوَلَ في المُلْكِ مداه، واستقلَّ في العزِّ سريرُه، وأشرقَ في السَّعْدِ كوكبُهُ. وكان هذا القَصْرُ مما تأَنَّقَ فية فكرهُ، واستفرغ فيه جدّه، وتصرّفت فيه حكمتُه، وامتُثِلَتْ في[1] تشييدِه إشارتُه، واقْتُفِيَ في تقديدِه[2] رسْمُهُ، فجاء في القصورِ الملكيّة فذّاً نسيجَ وحده، لم يُنْسَج فيما شهدناه من هذه (ص ١٢٥) القصورِ المحتفلةِ البناء المبدعةِ الأشكالِ على منواله سواه، ولا احتذى هو على مثالِ غيره. تقِفُ العيونُ منه على قَصْرٍ مُشَيَّدٍ قد توقَّلَ[3] ربوةً ساميةَ الذُّرْوَةِ فسيحةَ الساحةِ أنيقةَ المنظرِ مشرقةَ النَّوْرِ شَفّافَةَ الهواءِ باهرةَ الضِياءِ مشرفة من جهاتِها الأربع على سرح معجبة الرواء، يستقبلُ الصاعدُ إليها من تِلْقاءِ الحمراء إحدى قبابِها الأربعِ المتناظرةِ النّصبةِ مشرفةً على ممشىً طويلِ المسافةِ قد رُصِفَ من متلوِّناتِ الحجارةِ بما يُضاهي الفُسَيْفِسَاء إحكاماً ونصاعة. وقد غرس حفافيه من الآسِ سطران، يفضي منتهى هذا الممشى إلى أورد[4] وجُبّ، في إحدى جهاتِهِ مرتقىً عريضُ الشكلِ متطامِنُ الدرجِ، في الغايةِ من السهولةِ للرقي، وعلى البُغْيَةِ من السَّعةِ للصُّعود، يتّصلُ أعلاه بمنحنيةِ القبّةِ الجوفيّةِ من هذا المصنع المُغْرِبِ في شأْوِ

= ورَوضـهـا زهـره بَليلُ ورشـفـه ينـقـع الـغـليلْ

ويفهم من هذه الموشحة أن قصر الدشار هو اسم لقصر السبيكة المبتنى في جنة العريف (Generalife) التابعة لقصر الحمراء (انظر هذه الموشحة في نفح الطيب ٧ / ٢٤٢ - ٢٤٣).

(١) - في الأصل: فيه.

(٢) - تقديده: تقطيعه.

(٣) - توَقّل: صعد (القاموس المحيط: وقل).

(٤) - هكذا في الأصل.

الإبداع المحاجَى به في مغالطةِ تمثيلِ دلالة السّقْفِ على الحائطِ وعدمه مطابقةً وتضمّناً، يَسْتَقْبِلُ الصاعدُ عليه قُبّةً قبليّةً على هيئةِ مُناظِرَتها التي خَلْفها خَلْفَهُ فينهضُ أمامَه متلفّتاً ذاتَ اليمين إلى قبّةٍ ثالثة غربيّة تُواجِهُها ذاتَ اليسارِ قبّةٌ رابعةٌ شرقيّةٌ، قد توسّط أرْبَعَتَهُنّ صِهْريج، ينتهي ممشى كلِّ قبّةٍ المسلوكُ مِنْهُ لنظيرتها إلى جهةٍ من جهاته الأربع، ثم ينعطِفُ حوالَيْهِ على اقتفاءِ شكلِ تربيعه إلى أن يتلاقى بمنعطف[1]، يماثلُه من ممشى القُبّةِ الموالية التي انفصل منها.
وكلُّ تلك المماشي[2] الأربعةِ قد عالاها السّقْفُ الذي أشرنا إلى استقلاله على غيرِ ما اعتيد من الحيطان، فلا يدلُّ عليها التزاماً ولا يتضمّنها إكنافه(*) استلزاماً سموكاً على عُمُدٍ من المَرْمَرِ درّيةِ الأديم ناصعةِ اللون فائقةِ الحُسْن[3]، يلائمُ بين أساطينها المصطفّة آزاجٌ[4] مقبوّة[5]، قد أُفرِغَ عليها الذهبُ الإبريزُ إفراغاً، وتخلّلها من الأصباغ اللازَوَرْدِيّةِ والأرْجُوانيّةِ كلُّ عجيبِ اللونِ غريبِ النوعِ رفيعِ القيمة. وقد افْتَرَشَ أرضَ تلك المماشي المكنوفةِ بهذه السُّقُف بالواحِ من الرُّخام المعتام[6] من معادنِهِ المعهودةِ بناحيةِ وادي المنصورة[7]، وقد سَحَّ في تلك البِرْكةِ الريّانةِ الماءُ العَذبُ المُجْتَلَبُ من ناحيةِ مَوْقعِ الوادي المُسمّى بالماءِ الأبيض من أحواز قريةِ بيّش[8] على بريدٍ من الحضرة في الساقيةِ المتعدّدةِ العطفاتِ الراقيةِ إلى قُنّةِ هذه الربوةِ من قُنّةِ طَوْدٍ يُناظِرُها في أقواسٍ ضَخْمةٍ

(١) - في الأصل: بغطفه.

(٢) - في الأصل: للماشي.

* - في الأصل: إكنانه.

(٣) - في الأصل: الجُسّ.

(٤) - الآزاج: جمع آزَج وهو ضربٌ من الأبنية (القاموس المحيط: أزج).

(٥) - قبا البناء: رفعه.

(٦) - في الأصل: المغتام، والعِيمة من المتاع خيرته، واعتام: اختار، والمعتام: المختار.

(٧) - بالإسبانية Rio de Almanzora أو Guadalmanzor ويسمّيه العرب أيضاً وادي بيره (Vera) شمال شرق المرية. (مشاهدات لسان الدين ص ٣٤).

(٨) - بالإسبانية (Beas) وتقع إلى الشمال من غرناطة (الإحاطة ١ / ١١٠).

قد نُحِتَتْ من صُلْبِ الحِجارة، بقيت منها أعدادٌ أَسْأرها الاكتفاء بما دونَها مما أعدّه الاستظهارُ على كمالِ الغَرَضِ بما لا يُعارِضُ انتقاضه في قصْدِ مستحِثِّ الفَعَلَةِ للانحفـارِ بالتّمـام تشهدُ لمستنبِطِها بشدّةِ القُوّةِ ونُفُوذِ الفِكْرةِ ومضاءِ العزيمة، فينضَغِطُ ذلك الماءُ في تلك الأقواسِ المحكمةِ العملِ الشديدةِ الالتصاقِ والمتلاحكةِ الالتزاز بما يُخَيِّلُ لناظِرها استغناؤها عن الصاروج (*) الملتوتِ فيه مشاقه[1] الكتّان، بالسليطِ**، بالسلافةِ بين عَجِّ الماء إلى الأشكالِ المَرْمَرِيّةِ المتّخذة بجوانبِ القَصْرِ القاذفةِ به إلى ملقى الطميةِ من الصِهريج المذكور كفيلاً بالريِّ لهذه المقبّبة المتّسعةِ (ص ١٢٦) الأرجاءِ المعتام[2] لغراستِها من غرائِب الأشجارِ ما يترغّبه شرفُ[3] إشبيلية ومخبآتُ[4] جنوة[5]، فضلاً عمّا اشتملت عليه خطةُ الإسلام بهذا الصنع، ففاقَتْ فيه طعماً وإثماراً وينعة وعُلوقاً، فجاءت من ملذوذِ الفواكِهِ ومُسْتَطابِ المشامّ بكلّ ما فيه راحة للنفوس وبهجة للعيون ومتعة للأنوف.

والوصفُ في غرابةِ هذا القصرِ يطول، والحديثُ عنه يتّسع، ومشاهدةُ أهلِ العصرِ له مُغْنِيَةٌ عن البلوغِ إلى غايةِ القَوْل، فمثولُ آثارِهِ كافٍ لمن لم يشاهِدْهُ. ومجمل القول أنّه ممّن لم يشاهَدْ له مَثَلٌ مَحْذُوٌّ لم يبلُغْهُ خَيْرُه، وإن لم يشاهِد له شَكْلاً، ولم يعايِنْ له أثراً، فَطَرَقَتْهُ تلك الرجفةُ العظمى والزلزلةُ

---

* ـ الصاروج هو الكلس (المخصص ٥ / ١٢٣، لسان العرب صراج).

(١) ـ جاء في القاموس المحيط: شقَّةَ النَخْلَ تشقيها شقّها وشقّحها.

** ـ السليط: الزيت أو دهن السمسم (لسان العرب: سلط).

(٢) ـ المختار والمستجاد (لسان العرب: عيم).

(٣) ـ بالإسبانية (Al Jarafe) وهو جبل بإشبيلية يعرف بجبل الشرف كثير الزيتون بينه وبين اشبيلية ثلاثة أميال، وكان زيتونه أيام المسلمين يصدّر إلى الآفاق عبر نهر الوادي الكبير. (انظر: الروض المعطار ص ٣٣٩، ترصيع الآثار للعذري ص ٩٥).

(٤) ـ في الأصل دون واو.

(٥) ـ تذكر المصادر أن مدينة جنوة الإيطالية كانت تمتاز بكثرة المزارع. (الروض المعطار ص ١٧٣).

الكبرى فأثّرت فيه آثاراً عظيمة استطردت به الحوادثُ الشاغلةُ عن تلافيه إلى انتساف عُمُدِهِ تلك الرائقةِ وانتهابِ أزره الزليجية البديعة الصنعة، واختلاس أشكاله الرخاميّةِ الخطيرةِ القيمة، والاعتداءِ على شَجَراتِ مُنْيَتِهِ المُسْتَظْرَفَةِ الأنواع المُسْتَغْرَبَةِ الأجناس، فكان الأسفُ عليه عظيماً واللهفُ على فقده جليلاً.

وكانَ من أعظمِ أسبابِ وَهْيِه ما كان من غرابةِ وَضْعه؛ فقد كان من قَصْد مُخْتَرِعِهِ - رحمه الله - مباعدةُ مُعْتادِ أشكالِ القُصور المَلَكيّة، لما تُحْدِثُه عِظَمُ أجرامِها من مَنْعِ تمكُّنِ الضياء من أبوابها وعدمِ حلولِ النوريّةِ المُلْتَمَسةِ من مُواجَهةِ الشمس في زواياها، ومحتال بأعداد الشمسيّات الزجاجيّة ليحصلَ من مطارِحِ أشعتّها الوهّاجةِ ما صدّت ضخامةُ الأجْرامِ عن وُصوله من غير توسُّط هذه الأجسامِ الشفّافة. فأجال رحمه الله فِكْرَهُ فيما يكمل له هذا القصد[1]، فكان تحميلُ تلك السُقُفِ المتقابلةِ الأشكالِ على تلك الأعمدةِ الرُخاميّة حتى تبقى كلُّ فُسْحةٍ بين كلّ اثنين منها مخلاّةً لنُور الشمسِ وموقعاً لمنبسِطِ شعاعِها، فلا يلحقُ النفسَ انقباضٌ من فَقْدِ أثَرِ هذا النيِّر الأعظم، ولا تجدُ من مسِّه ألماً ولا نَسْج المطرِ أثراً لانسحابِ الظلّ وحصول الكِنّ بوجود مرفوعاتِ هذه السُقُف المختَلِفةِ الوَضْع من أخْذِ طوله شرقاً وعرضه وعكسه.

وبإيثار هذا القصر من مُخْتَرِعِ بُنْيَتِهِ أثّرت فيه تلك الرجفةُ أكْثَرَ من غيره مما هو متلاحِكُ البناءِ ومستقِرُّ السُموكِ فوق أجْرامِ البنيانِ المرصوص والله أعلم.

وعلى ذلك فعُوِّضَ الأمرُ في استئثار الحادثاتِ بأعجوبته البهيّة وأطروفتِهِ السنيّة، وتذكّر به قول المتنبي رحمه الله[2]:

تَتَخَلَّفُ الآثارُ عن أرْبابِها ... حيناً ويُدْرِكُها الفَناءُ فَتَتْبَعُ

---

(١) - في الأصل: القصر.

(٢) - ديوان المتنبي ص ٥٣٣.

ورأى أن فيما أبقى الله من غيره مُسْتَمْتَعاً، وما عند الله خيرٌ وأبقى، ولم يَسْتَفِزَّهُ الأسفُ عليه استفزازَهُ لربّ قُبّة البِلّوْر المحكيّة آنفاً، فقد كان هذا القصرُ المشيدُ أقْرَبَ الأبنية بها شبهاً في نُدورِ المثل، وسَأَلَ من الربِّ الكريمِ البَرِّ الرحيمِ الذي يَهْدي من يشاءُ إلى صراطٍ مستقيم أن يكونَ الجُبُّ المُتَّخَذُ لاتّخاذِ (ص ١٢٧) الماءِ بثغر المثلين[1] شجا الكفرة الآخذ بلهواتهم عِوَضاً منه فيما يُنْشِىء به من قصورِ الدار التي لا يبذُّ نعيمها، ضارعاً إلى الله تعالى في محو شائبة إن كانت قد شابَتْ بناءَهُ في غير قصد وجه الله، أو لاتّباع حظِّ نفسٍ أو هوى، فإنما الأعمالُ بالنيّات وإنّما لامرىءٍ ما نوى. وقد يَسَّرَ الله منها لهذا العهد القريبِ المضيّ ذخيرةً عَظُمَ من الحنيفيّة موقعُها، وراق من قَصَبَةِ ذلك المعقـل السنيّ موضعُهـا، والله المـوفّق لعمل أمثالها، والمُرْشِدُ لاستتمامِ صالحات الأعمال واستكمالها.

---

(١) ـ كذا في الأصل، ولعل المقصود حصن مكلين (Moclin) شمال غرب غرناطة.

تتميم

هذا المحلُّ بحمدِ الله أوجب، وهو فيه أبهج وأعجب، أمّا أوّلاً فإنّ من هانت عليه زخارفُ الدنيا حتى لا يؤسِفَهُ فَقْدُ زهراتِها ولا تستفزُّه خِدَعُ لذّاتها، فقد منحه الله من فَضْلِهِ جزاءً لا يفضله فيه إلاّ من أوتي أعظم منه، فيضمحلّ لديه زِبْرجُها الزائلُ وزُخْرُفُها الذاهب، وتلك سيماء الصالحين من عبادِ الله الذين علموا أنها غرّارةٌ فرفضوها وتحققوا أنها خدّاعةٌ فنبذوها، ولو فرض أنها لا تغرّ، وقدّرأنّها تَنْفَعُ ولا تضرّ، أليس في ذهابها ومكانِ انقلابها، ما يُوجِبُ على العاقلِ أن يَزْهَدَ، فيها، وينصرفَ بهمّته عنها، وَيُقْبِلَ بقلبه على آخرته التي هو مُسْتَبِقٌ إليها، وقادمٌ بأحثِّ السَّيْر عليها. أما والله إنّ في ذلك لعبرةً لأولي النهى. وأمّا ثانياً فإنّ مَنْ وَفَّقَهُ الله إلى عملٍ صالحٍ وإن قلّ، وأرْشَدَهُ إلى فِعْلٍ جميلٍ فكمل وتمّ، لجديرٌ أن يحمد الله على ما دلّه عليه وأرشده إليه، ولعلّ رحمةَ الله تسدّدُه إلى مِثْلِ ما عمله، وتقودُه إلى نحو ما فعله، إذا حمده على ما منح من رشده، وشكره على ما وهب من توفيقه، فقد قال الله تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾[1] فقد تبيَّنَ بهذا كلّه تأكُّدُ الاجتهادِ في حمد الله على كلّ حال، ولزومُه للعبدِ في كل مقام ومقال، فله الحمدُ ملءَ السماواتِ والأرض، وله الحمد الذي يكافي نِعَمَه ويُوجِبُ المزيدَ منها، وله بمثل ما يحمده به نبيُّه محمد صلّى الله عليه وسلّم نبيّ الحمد في المقامِ المحمود، الذي يبعثه الله فيه، حمداً كثيراً حتى يرضى.

---

(١) ـ آية ٧ من سورة ابراهيم.

الصُّورة الرابعة

أن يكونَ الابتلاءُ في النفوس، أو ما لحق بها من أعضاءٍ وقوى، مُتَوَقَّعاً في الاستقبال وليس بواقع في الحال.

ولا بدّ أن تكونَ مخائِلُ وقوعِهِ قريبةً، وإلاّ فالاهتمامُ بما لم يظهر لوقوعه مخيلةٌ ضربٌ من الوسواسِ الذي ليس بجارٍ على وفق أنظار العُقلاء.

ثم لا يَخْلو هذا المتوقَّع القريب المخائل من الوقوعِ أن يكونَ إلهياً مَحْضاً لا كَسْبَ فيه لمخلوقٍ جَلْباً ولا دفعاً، كالريحِ العاصف والرعدِ القاصف، وكاستشعارِ الطيرة، وما أشبه هذا مما لا اكتسابَ لأحدٍ في إيقاعه، ولا في صَرْفه، ولا في جلبه المخوف منه، ولا في منعِهِ، فيتعيّنُ هنا الاستكثارُ ممّا ورد من الذكر، مخصوصاً بكل محلٍّ مخوف فيه، وكلّ محذورٍ يخشى منه؛ كما إذا هبّت الريحُ عاصفةً فإن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان يقول في مثل ذلك (ص ١٢٨): **«اللهم إنّي أسألُكَ خَيْرَها وخَيْرَ ما فيها وخَيْر ما أرسلت به»**[١]. وكذلك إذا اشتدّت الريحُ **«اللهُمّ لِقْحاً لا عَقيما»**[٢].

وقال فرقد مولى المهديّ: هاجت ريحٌ زَمَنَ المهديّ، فدخل المهديُّ بيتاً في جوف بيت، فألْزَقَ خدّه بالترابِ ثم قال: **«اللهمّ إنّي بريءٌ من هذه الجناية، كلُّ الخَلْقِ عبيدُك، فإن كنتُ المطلوبَ من بين خَلْقِكَ فها أنا ذا بين**

---

(١) ـ عمل اليوم والليلة لابن السنّي ص ٩٤ مع بعض اختلاف.

(٢) ـ المصدر السابق ص ٩٤.

يديك اللهمّ لا تشمِّتْ بي أهلَ الأديان». فلم يزل كذلك حتى انجلت الريح»[1].

وكما إذا سمع الرعد فإنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان يقول: «اللهُمّ لا تَقتُلْنا بغَضَبِك ولا تُهلِكْنا بعذابِكْ وعافِنا قبل ذلك»[2].

وكما ورد في الطيرة أنّه أمَرَ أن يُقَال في ذلك: «اللهُمّ لا طَيْرَ إلاّ طَيْرُك ولا خَيْر إلاّ خَيْرُك ولا إله غَيْرُك»[3]، وكذلك ورد عنه أنْ يقال: «اللهمّ إنَّهُ لا يأتي بالحسناتِ إلاّ أنت ولا يَذْهَبُ بالسيئاتِ إلاّ أنْتَ ولا إله إلاّ أنت»[4].

وهذا المخوفُ في هذه الأحوالِ كلّها إنّما هو متوقَّعٌ قريبُ الوقوع وليس بواقعٍ بعد، والمتوقَّعُ منه قد ضمن الذي يندرج تحت علمه ما يتسبّب به رفعُ مِثْلِ هذه الآفات، أنّ هذا القولَ المعيّن لهذا المحلِّ المعيَّنِ من خشيةِ ريحٍ أو رعدٍ أو غيرهما كفيلٌ بالسلامة من ذلك.

وليس هناك[5] طريقٌ للتسبّب بأكثر من الأسباب الحملية[6] المتقدمة الذكر، كالتوبةِ والتقوى، أو هذه الأذكارِ المخصوصة على التعيين، أو أن يكون لمخلوقٍ فيه اكتساب، وهنا يتّسع النظرُ في الأسباب الجائزة، وذلك مثل خشيةِ جور أو خيفةِ ظُلْمٍ أو تَوَقُّعِ مَرَضٍ أو تخوُّفِ ضَرَرٍ على الجملة. فخشيةُ كلّ ما فرض واقعاً غير سماويّ في الصورتين بعدها فلا نطوّل بتفصيله إذ الأولى به ذلك المحلّ. وقد يتأكد في مثل هذا الموضع الإشارةُ في تعيين السبب

---

(١) ـ نثر الدرّ ٣ / ٩٣، البداية والنهاية ١٠ / ١٥٣، سرور النفس ٣٢١.

(٢) ـ عمل اليوم والليلة لابن السني ص ٩٥.

(٣) ـ عمل اليوم والليلة لابن السني ص ٩٢.

(٤) ـ عمل اليوم والليلة لابن السني ص ٩٢.

(٥) ـ في الأصل: هنا.

(٦) ـ الأسباب الحملية هي التي لا تحتاج إلى توسّط بيان مطلوب لفهمها.
(انظر كتاب: مقالات في المنطق والعلم الطبيعي لابن رشد ص ١٨٧ ـ ٢٠٧).

المستدفع به هذا المتوقع وفي أرجحيته، فقد كان عمرُ بن الخطّاب يستشير في الأمرِ حتى أنّه ربّما استشار المرأة فأبصر في رأيها الشيءَ يستحسنه فأخذ به. وقال الشاعرُ في هذا المعنى[1]:

إذا الأمــرُ أَشْــكَــلَ إنــفــاذُهُ ... وَلَــمْ تَرَ مِنْــهُ سبــيلاً فســيحــا
فشــاورْ بأمــرِكَ في سِرِّهِ ... أخــاك أخــاك اللبيبَ النصيحا*
فربّــتــمــا[2] فرّجَ الــنــاصِــحــون ... فأبْــدوْا من الــرأيِ رَأْياً صَحيحــا
ولا يلبَــثُ الــمستشيرُ الــرِجــالَ ... إذا هو شَاوَرَ أن يَسْــتَــريحــا

وقال بعض الفلاسفة: «إذا كُنْتَ مستشيراً فتوخَّ ذا الرأيِ والنصيحةِ فإنه لا يُكْتَفى برأيِ مَنْ لا يَنْصَحُ ولا بنصيحةِ من لا رأيَ له».[3] وإنما تتأكَّدُ الاستشارةُ ليرتكب من الأسباب ما يشار به ممّا هو مباحٌ أو مطلوب.

وهذه الصورةُ المرسومةُ أخفُّ من تَيْنِكَ الصورتين اللتين بعدها بأضعافٍ كثيرة، وكلّ ما استُعْمِلَ هنالك، من التفويضِ والتسليم والرضا والصبر والعزاء والتأسّي والتسلّي، فواجبٌ هنا استعمالُه أو استعمالُ ما يليقُ بالمحلِّ منه. ويتأكد هنا قوة الرجاء في الله تعالى أن يَصْرِفَ هذا (ص ١٢٩) المتوقَّعَ قبل وقوعهِ لقولِ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فيما يحكيه عن ربّه: «أنا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدي بي فليظُنَّ بي خيراً»[4]. وللصَّدَقَةِ أيضاً في ذلك فائدةٌ كبيرةٌ وسيأتي الكلام فيها وما يَنْجَرُّ معها من الحكاياتِ في الصورةِ بعد هذه.

---

(١) ـ وردت الأبيات في لبـاب الآداب ص ٧٥ غير منسـوبة لقائل، وأوردها ابن عبد البَرّ القرطبي في كتاب بهجة المجالس ١ / ٤٥٨ وقال: وأظنها لمنصور الفقيه.

* ـ في بهجة المجالس:

فشــاور بأمــرك في ستــرة ... أخــاك الــلبيبَ الــمحبَّ الــنصيحــا

(٢) ـ في الأصل: ربّما.

(٣) ـ بهجة المجالس ١ / ٤٥٣.

(٤) ـ صحيح البخاري ٨ / ١٧١، ١٩٩، صحيح مسلم ٨ / ٦٢، مسند ابن حنبل ٢ / ٢٥١، ٣١٥، ٣٩١ وصفحات أخرى.

فإن كان هذا المتوقَّعُ سطوةً من مَلِكٍ[1] أو عداءً من جائرٍ أو استطالةً من ظالمٍ أو موتاً خافه المتوقِّعُ على نفسه أو على غيره ممّن يعزّ عليه فَقْدُه، أو مَرَضاً من تلك الأمراضِ المفسّرة هنالكَ، أو غيرها مما لم يذكر يخشاه على نفسه أو على غيره كذلك، أو فَقْداً لبعضِ الأعضاء إلى سائرِ ما وقع تفصيلُه في تَيْنِكَ الصورتين، فإنّ من الواجب هنا أن ننظُرَ في هذا المتوقَّع هلاكاً كان أو غيره مما فسر معه، فإنه لا يخلو أن تكون الأسبابُ الموجبةُ له والمقتضيةُ لحصوله داخلةً تحت قُدْرَتنا وراجعةً إلى اكتسابنا أولاً، فإن كان القِسْمُ الأوّل وهو حيث تكون الأسباب الموجبة له مقدورةً لنا كما إذا قيل إنّ القَصْدَ إلى كذا يثمر منَ الملوكِ كذا أو مداخلتهم في كذا تقتضي من الابتلاء كذا، أو أنّ الطعامَ الفلانيَّ مُضِرٌ بمن طبعه كذا أو مزاجه كذا فيولد له الهلاكَ والمرضَ المخوف، أو أنّ سلوكَ الطريقِ الفلانيّة يُخْشى منه كذا، أو المداومة على كذا يتولّد منه كذا من عمىً أو صَمَمٍ أو خَدَرٍ وما أشبه ذلك، وكذلك إذا قيل إن المَجْذُومَ يُخافُ من ملاصقته، وما أشبهه من الأمراض التي اتّفق الأطباءُ على أن مجانبتها أكيدةٌ لقول النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «فِرَّ من المجذومِ فِرارَكَ من الأَسَد»[2]. ولِمَ تغفل عن قضيّة مُعَيْقب الدوسي[3] ولا عن قوله: «لا عدوى ولا طيرة»[4]. وفي تأليف ابنِ صفوان الذي سمّاه «تحرير المقبول» من

---

(١) ـ في الأصل: تلك.

(٢) ـ صحيح البخاري ٧ / ١٧، مسند ابن حنبل ٢ / ٤٤٣.

(٣) ـ هو معيقيب بن أبي فاطمة الدوسي من الأزد، كان ممن أسلم قديماً بمكة وهاجر إلى أرض الحبشة، شهد غزوة خيبر مع الرسول عليه الصلاة والسلام، وكان على خاتم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكتب لعمر بن الخطّاب وكان من أمنائه على بيت المال، وبقي إلى خلافة عثمان رضي الله عنه، أصابه الجذام وكان عمر يقول له وهو يأكل معه: «كُلْ مما يليك، فإنّ الذي بك لو كان بغيرك لم أكلّمْه إلا بيني وبينه قدر رمح». (المعارف لابن قتيبة ص ٣١٦، ٥٨٤).

(٤) ـ حديث نبوي، انظر: صحيح البخاري ٧ / ١٧، ٢٦، ٢٧، صحيح مسلم ٧ / ٣٠-٣٢، مسند ابن حنبل ١ / ١٧٤، ١٨٠ وصفحات أخرى.

الدعوى في هذه القضيّة الشفاء لمن يريدُ الوقوفَ عليه، ولسنا للكلام في ذلك وإنما نتكلّم هنا في هذه الأسباب إذا تعيَّنَتْ فالواجبُ علينا ألَّا نفعلها إذ وهي تسبِّب لنا ما نريده وما نهتم من أجله.

وإن كان القسمُ الثاني وهو حيثُ تكون الأسبابُ الموجبةُ للموتِ أو المرضِ أو التعبِ أو المشقّةِ على الجملةِ غير داخلةٍ تَحْتَ قدرتِنا ولا راجعةٍ لاكتسابنا فلا يخلو إن حَدَثَتْ مسبّباتُها أن يكونَ لنا أسبابٌ نقدِرُ بها على دَفْعها أولاً؛ فإن كان القسمُ الأول فالواجِبُ علينا أن نفعلها ونتسبَّبَ فيها إذ ومن قُدْرَتِنا نَدْفَعُ هذا المؤذي لنا بما جُعِلَ لنا من التسبُّب الموجِب لدفعه، وهذا كلّه بقيدِ الجوازِ الشرعيّ والإباحةِ الدينيّة، وبَعْدَ ملاحظةِ التوكّل على الله في السبب المرتكب، والتحرّز بِقَيْدِ الجواز الشرعيّ من مثل الفِرار من الوباء، فإن القول المشهورَ المطابقَ لنصّ الحديث الصحيح الوارد بالنهيِ عن الفِرار منه والقدوم عليه هو عدمُ الجواز، وهو المُعْتَمَدُ في المذهب، إلّا أن ابن رشد[1] في «البيان والتحصيل[2]» جعل هذا النهي عن الفِرار منه للإرشاد، فَوَقَعَ عن مرتكبه الإثم.

وفي الحضّ على التوكّل على الله كتب بعضُ الحكماء إلى صديقٍ له: «أما بعد فإنَّ في التوكُّلِ على الله غِنى النفس وصِيانةَ العِرْض وانتظارَ الفَرَج

---

(١) ـ هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي، الفيلسوف الأندلسي الشهير ولد سنة ٤٥٠ هـ وتوفي سنة ٥٢٠ هـ، كان فقيهاً ومقدماً في الفتيا ومدرساً وفيلسوفاً وشاعراً، ولي قضاء القضاة بقرطبة وخلف عدداً من المؤلفات من أشهرها كتاب المقدمات، وكتاب البيان والتحصيل، وكتاب الجامع من المقدمات، وغيرها. (انظر ترجمته في: المغرب ١ / ١٠٤، قضاة الأندلس للنباهي ص ٩٨، الغنية (فهرست شيوخ القاضي عياض) ص ٥٤، بغية الملتمس ص ٥١).

(٢) ـ كتاب في الفقه وهو شرح لكتاب العتبي المستخرج من الأسمعة، وكتاب البيان والتحصيل تقع مخطوطته في عشرين مجلداً. وقد صدر هذا الكتاب في ٢٠ مجلداً بعنوان: البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل في مسائل المستخرجة. وقام بتحقيقه محمد حجي وآخرون ونشر الكتاب في بيروت (دار الغرب الإسلامي ١٩٨٤م).

وهو من مَحْض الإيمان، وفي الشرَه (ص ١٣٠) ذُلّ عاجِلٌ ومَقْتٌ من القلوب، وقُنوطٌ لازِمٌ، وتَعَبٌ فادحٌ، وعَيْشٌ نكدٌ، وشكٌّ دائمٌ». انتهى.

ويُعْتَمَدُ على الله في ذلك ويُوثَقُ به، وبهذا يحصُلُ القصدُ، ويتمُّ الغرضُ، وتَرْتاحُ النفس، وينشرِحُ الصدر.

وإن كان القِسمُ الثاني، وهو حيثُ تكونُ الأسبابُ الصارِفَةُ له غيرَ داخلةٍ تحت قُدْرَتِنا، ولا راجعةٍ لاكتسابِنا، ولا مندرجةٍ تحت نِطاق قوّتنا، فمن الواجبِ هنا صرفُ النَفْسِ عن الفِكْرةِ في هذا، وعدمُ استعجالِ الكَرْبِ به، والاهتمامِ منه، والأسفِ من أجْلِهِ، والحزنِ على ما يُخشى به فَوْتُه، إذ ومن الممكِنِ أن لا يَقَع هذا المتوقَّعُ، فيكون الكرْبُ به والاهتمامُ منه استعجالاً للغمّ[1] في غير وَقْتِهِ، فلعلَّ الذي بيدِهِ الابتلاءُ به أن يصرِفَهُ عنّا ويُريحَنا منه، وفي هذا المعنى يقول الأستاذ أبو محمد عبدُ الله بن الحسين القرطبي[2] - رحمه الله:

سَهِدَتْ أعْيُنٌ ونامَتْ عُيونُ ... لأمورٍ تَكُونُ أوْ لا تَكُونُ

فاطْرُدِ الهَمَّ ما اسْتَطَعْتَ عن النفْـ ... ـسِ فحِمْلانُكَ الهُمومَ جُنونُ

إنَّ ربّاً كفاكَ بالأمسِ ما كانَ ... سيكفيكَ في غَدٍ ما يَكُونُ

ولذلك قال الحسنُ البصري - رضي الله عنه: «لا تحمِلَنَّ على يومِكَ هَمَّ غَدِك، فحسبُ كلِّ يومٍ همُّه»[3]. انتهى. وهذا هو محلّ تقويةِ الرجاء في الله، وموضعُ تحسين الظنّ به، وهنا يقول بعضُ الحكماء: «لا يكونُ كلُّ ما

---

(١) - في الأصل: للنعم، ولا يستقيم المعنى والسياق إلا بما أثبتناه.

(٢) - لعله عبد الله بن حسين بن عاصم بن طاهر الثقفي القرطبي صاحب عبد الرحمن الداخل، كان شاعراً، وولي الشرطة بقرطبة، وله رحلة إلى بغداد والمشرق وتوفي سنة ٤٠٣ هـ. (يتيمة الدهر ٢ / ٣٩، الذيل والتكملة ٤ / ٢١٩، المغرب ١ / ١٠١، المقتبس لابن حيان / تحقيق د. مكي ص ١٨٣ - ١٨٩).

(١) - التمثيل والمحاضرة ٣٤، أدب الدنيا والدين ٢٧٩.

يُخاف منه»[1] ويقال إنّ هذا المعنى في التوارةِ[2]، ونَصُّه فيها «أكْثَرُ ما يَخافُ العَبْـدُ لا يكـون»[3] وإنَّما ذلك، والله أعلم، لِما يَكْفي الله عبدَه من هذه المتوقَّعات. قال الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ الله بكافٍ عَبْدَهُ﴾[4]. وما أعْجَبَ قَوْلَ الشاعر[5] في هذا المحلّ: [6]

«كفايةُ الله خيرٌ مِنْ تَوَقّينا».

ولا سيّما إن كان العبدُ قائماً بحُكْمٍ شرعيّ، أو سالِكاً من الحقّ على سبيلٍ سويّ، فلا أثر لما يلقاه في ذلك بما أجراه من عادتِه في تأييدِه لمن يذبُّ عن دينه أو يَنْصُرُ سُنّتَهُ. كما يحكى عن مالك أنّه كان جالساً مع أبي جعفر المنصور فعطس فشمَّتَهُ مالك، فلما خرج أنكر عليه الحاجبُ ذلك وتهدّده إنْ عاد لتشْمِيتِه، فلما كان بعد ذلك جَلَسَ عنده فعطس أبو جعفر، فنظر مالك إلى الحاجب ثم قال للمنصور: أيّ حكم تريدُ يا أميرَ المؤمنين أحُكْمَ الله أم حُكْمَ الشيطان؟ قال: بل حكم الله، قال: يرحمك الله. انتهت[7]. ولم تُنْقَلْ هذه الحكايةُ وما يشبهها على أنها محضُ الابتلاء المتوقّع الذي قصد الكلام فيه، ولكنّها وأمثالَها من أوائِله، فإنّ التهديدَ من ذلك الحاجب لمثل مالك ـ رضي الله عنه ـ عظيم، ولكنّه لقيامه بالحقّ، ورُسوخه في توخّي الصِدق، لم يَحْفِل بتهديده، ولم يَنْثَنِ عن إرشادِ الملك وتسديده.

---

(١) ـ التمثيل والمحاضرة ١٣.

(٢) ـ في الأصل: التورية.

(٣) ـ التمثيل والمحاضرة ١٣.

(٤) ـ الآية ٣٦ من سورة الزمر.

(٥) ـ عبد الله بن سليمان بن وهب.

(٦) ـ ورد هذا الشطر في التمثيل والمحاضرة ص ٩، وورد في المستطرف للابشيهي ١ / ٤٥٧ منسوباً لعبد الله بن سليمان بن وهب وتكملته:

وعادة الله في الماضين تكفينا

(٧) ـ ورد قريب من هذا المعنى في الإمتاع والمؤانسة ٢ / ٧٦.

وقريبٌ من ذلك ما نُقِلَ عن مطرِّف[1] وابنِ نافع[2] وغيرِهما، وبعضُهم يزيدُ على بعض، قالوا: لما قدِمَ هارونُ المدينةَ وَجَّه إلى مالكٍ البرمكيَّ[3] وقال له: قُلْ له احمل لي الكتابَ الذي صنَّفته حتى أسْمَعَهُ منك. فوجَدَ مالكٌ من ذلك، واغتمَّ، وقال للبرمكيِّ: أقرئه السلام وقل له: «العلمُ يُزارُ ولا يزور، وإنَّ العلم يُؤتى ولا يأتي». فرجـع البرمكيُّ إلى هارون، فأخبره بذلك، فغَضِب، وأشار عامَّةُ أصحاب مالك عليه أن يأتي هارون، وقال البرمكيّ للرشيد: «يبلغ أهل العراق أنك وجَّهت إلى مالك (ص ١٣١) فخالفك، اعزم عليه حتى يأتيك». فإذا بمالك قد دخل عليه فسلَّم وليس معه كتاب. فقال له هارون في ذلك، فقال مالك: «يا أميرَ المؤمنين! إنَّ الله تعالى بعث إلينا محمداً، وأمر بطاعته واتِّباع سُنَّته، وأن نرعاه حيّاً وميتاً، وقد جعلكَ الله في هذا الموضِع لعلمك، فلا تَكن أنت أوَّل من وضع[4] العلم، فيضعك[5] الله، والله لقد رأيتُ مَنْ ليس في حَسَبِكَ ونَسَبِك، من الموالي وغيرهم، يُعِزّ هذا العلمَ ومحلَّه، ويُوقِّر حَمَلَته، فأنت أحرى أن تجلَّ عِلْمَ ابن عمِّك» ولم يزل يعدِّد عليه حتى بكى. ثم قال له: «حدَّثني الزهري[6] وذكر حديث زيد بن ثابت[7]«كنت أكتب

---

(١) ـ هو أبو عبد الله مطرف بن عبد الله بن مطرف بن سليمان بن يسار اليساري الهلالي، من تلاميذ الإمام مالك، صحب مالكاً سبع عشرة سنة وكان يروي عنه، ولد سنة ١٣٩ هـ ومات بالمدينة سنة ٢٢٠ هـ (ترتيب المدارك ١ / ٣٥٩).

(٢) ـ عبد الله بن نافع مولى بني مخزوم، ويعرف بالصائغ، كنيته: أبو محمد، من أهل المدينة ومن تلاميذ الإمام مالك، توفي بالمدينة سنة ١٨٦ هـ (ترتيب المدارك ١ / ٣٥٦).

(٣) ـ في الأصل: البركمي.

(٤) ـ في ترتيب المدارك: ضيَّع.

(٥) ـ في ترتيب المدارك: فيضيِّعك.

(٦) ـ أبو مصعب محمد بن شهاب الزهري، شيخ الإمام مالك. (انظر ترتيب المدارك ١ / ١١٩ وما بعدها).

(٧) ـ هو زيد بن ثابت بن الضحاك من الأنصار يكنى أبا عبد الرحمن، من كتَّاب الوحي، وعلى مصحفه عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن، وكتب لعمر بن الخطاب، وتوفي سنة ٤٥ هـ (المعارف ص ٢٦٠).

بين يديْ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم: ﴿لا يَسْتَوي القاعِدُونَ مِنَ المُؤْمِنينَ وَالمُجاهِدُونَ في سَبيلِ الله﴾[1] وابن أم مكتوم[2] عند النبيّ صلّى الله عليه وسلم فقال: يا رسولَ الله! قد أنزل الله في فضلِ الجهادِ ما أنزل، وأنا رجلٌ ضرير، فهل لي من رخصة؟ فقال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم: ما أدري. قال زيد: وقلمي رطْبٌ لم يجفّ، حتى غشي النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم الوحيُ ووقع فخِذُه على فَخِذي، فكادتْ تَنْدَقُّ من ثقل الوحي، ثم خلّي عنه، فقال: اكتب يا زيد ﴿غَيْرُ اولي الضَّرَرِ﴾ فيا أمير المؤمنين هذا حرفٌ واحد بعث فيه جبريلُ والملائكةُ من مسيرةِ خمسين ألفَ عام، حتى أنزل على نبيّه، أفلا ينبغي أن أُجِلَّهُ وأعزّه؟!» فقال هارون: قم بنا إلى منزلك. فأتى هارونُ منزلَ مالك، فدخل مالك، واغتسل، ولبس ثياباً جدداً، وتنظّف، ووضع مجامير فيها عود، وجلس فقال: هات. فقال هارون: تقرأ عليّ. فقال: ما قرأتُ على أحَدٍ منذ زمان. قال: فأخرج عني الناس حتى أقرأه عليك. فقال مالك: العلم إذا مُنِعَ من العامّةِ لأجْلِ الخاصّة لم تنتفع به الخاصّة. قال: فأمر بعضَ أصحابك يقرأه. فأمر المغيرة[3]، فقرأه له على مالك. وفي رواية أنّ الذي قرأه له معن[4]. قال: فكان هارون قد استند إلى جنب مالك، فلمّا بدأ يقرأ، قال له: «يا أميرَ المؤمنين! من تواضع لله رفعه الله» وفي رواية أبي مصعب[5]: مِن

---

(١) ـ من الآية ٩٥ من سورة النساء.

(٢) ـ هو عبد الله (عمرو) بن قيس بن أم مكتوم الأعمى، وأمه أم مكتوم واسمها عاتكة. قدم المدينة مهاجراً بعد بدر، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستخلفه على المدينة يصلي بالناس في عامة غزواته، شهد القادسية ومات بالمدينة (المعارف ٢٩٠).

(٣) ـ هو المغيرة بن عبد الرحمن المخزومي، أحد تلاميذ الإمام مالك، من الطبقة الأولى من أصحابه، وكان فقيه المدينة بعد مالك، ولد سنة ١٢٤ هـ وتوفي سنة ١٨٨ هـ (ترتيب المدارك ١ / ٢٨٢ ـ ٢٨٦).

(٤) ـ هو أبو يحيى معن بن عيسى بن يحيى بن دينار، كان يبيع القزّ، روى عن مالك وغيره ومات بالمدينة سنة ١٩٨ هـ (ترتيب المدارك ١ / ٣٦٧).

(٥) ـ هو أبو مصعب محمد بن شهاب الزهري، روى عنه الإمام مالك (وقد سبق ذكره).

إجلالِ الله إجلالُ ذي الشَّيْبة المسلم» فقام فقعد بين يديْه فحدَّثه، فلما فرغ عاد إلى مكانه. قال مالك: لما كان بعد مُدَّة قال لي الرشيد: «تواضَعْنا لعلمك، فانتفعْنا به، وتواضع لنا عِلْم سفيانَ بنِ عيينة[1]، فلم ننتفع به». وكان يأتيهم فيحدثهم. انتهى[2].

وهذا أقلُّ ما يُبتلى به من قِبَلِ الملوك في مثل هذه الأغراض السنية والمقاصِد الدينيّة، فما الظنُّ في مداخلتهم على نحوِ مداخلتنا، وملابستهم على الوجْهِ المُسْتَنْكَر من ملابستنا؟!، لطف الله بنا لطفاً يليق بفضله، وتولاّنا في تقصيرنا في الأمور بحمله[3].

ومن هذا البابِ الذي يكاد الابتلاءُ أن يلحقَ العلماءَ بملابَسَتِهِمْ للملوك ما حُكي عن أبي يوسف قال: دعا المنصورُ أبا حنيفة، فقال الربيعُ حاجبُ المنصور، وكان يعادي أبا حنيفة: «يا أمير المؤمنين! هذا أبو حنيفة يخالف جَدَّك. كان عبدُ الله بنُ عبّاس يقول: إذا حُلِفَ على اليمين ثم استثني بعد ذلك بيوم أو يومين جازَ الاستثناء. وقال أبو حنيفة: لا يجوز الاستثناءُ إلاّ متّصلاً باليمين». فقال أبو حنيفة: يا أميرَ المؤمنين! الربيعُ يَزْعُمُ أنْ ليس لك في رِقابِ جُنْدك بيعة. قال: وكيف قال: يَحْلِفُون لك ثم يرجِعُون إلى منازِلهم فيستثنون فتبطُل أيمانهم. فَضحك المنصور وقال: يا ربيع لا تعرِض لأبي حنيفة. فلما خرج أبو حنيفة قال له الربيع: أردت أن (ص ١٣٢) تشيط بدمي فخلَّصْتُكَ وخَلَّصْتُ نفسي، انتهى[4]. فتأمّل ملابسة الملوك ـ وإن قلَّت ـ ما تجني، وانظر كيف تقودُ إلى الدخولِ فيما لا يعني.

(١) ـ أبو محمد سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون الهلالي الكوفي، محدّث ولد سنة ١٠٧ هـ وتوفي سنة ١٩٨ هـ (تاريخ بغداد ٩ / ١٧٤، حلية الأولياء ٧ / ٢٧٠، وفيات الأعيان ٢ / ٣٩١، الوافي بالوفيات ١٥ / ٢٨١).

(٢) ـ وردت هذه الرواية في ترتيب المدارك ١ / ١٥٩ ـ ١٦٠.

(٣) ـ حمل عنه: حلم، فهو حمول: ذو حِلم (القاموس المحيط: حمل).

(٤) ـ وردت هذه الحكاية في تاريخ بغداد ١٣ / ٣٦٥، وفيات الأعيان ٥ / ٤١١، كتاب الأذكياء لابن الجوزي ص ٧٣ ـ ٧٤.

وعن عبد الواحد بن عتاب قال: كان أبو العبّاس الطُوسي سيّءَ الرأي في أبي حنيفة، وكان أبو حنيفة يعرف ذلك، فدخل أبو حنيفة على أبي جعفر أميرِ المؤمنين، وكثر الناس، فقال الطوسي: اليومَ أَقْتُلُ أبا حنيفة، فأقبل عليه، فقال: يا أبا حنيفة! إنّ أميرَ المؤمنين يدعو الرجُلَ منّا فيأمره بضرْب عُنُقِ الرجل لا يدري ما هو، أيَسَعُهُ أن يضرب عُنُقَه؟ فقال: يا أبا العبّاس[1]، أميرُ المؤمنين يأمر بالحقّ أو بالباطل؟ قال: بالحقّ. قال: أنفِذ الحق حيث كان ولا تسألْ عنه. ثم قال أبو حنيفة لمن قرب منه: إنّ هذا الرجلَ أراد أن يوثقني فربطته. انتهى[2]. وهذا من نسبة ما سبق فيما يلقى العلماءَ من إتْيانِ أبوابِ الملوك، والضروريةُ داعيةٌ لهم لذلك، والله الذي يتكفّل بنجاتهم.

ومن نحو ذلك ما وقع لفقهاءِ قرطبة مع الناصر لدين الله - رحمه الله. قال ابنُ عفيف[3] إنّ الناصر احتاجَ إلى شراءِ محشر[4] من أحباس المرضى بقرطبة، عَدْوةِ النهر، فتشكى إلى القاضي ابنِ بَقيّ[5] أمره، وضرورتَه إليه،

---

(١) - في الأصل: يا عبّاس، والصواب من تاريخ بغداد ووفيات الأعيان.

(٢) - وردت هذه الحكاية في تاريخ بغداد ١٣ / ٣٦٥ - ٣٦٦، وفيات الأعيان ٥ / ٤١٢، كتاب الأذكياء لابن الجوزي ٧٤ .

(٣) - هو أبو عمر أحمد بن محمد بن عفيف القرطبي، كان فقيهاً وبرع في الوثائق والشروط، ألف كتباً عدة منها كتاب في أخبار القضاة والفقهاء بقرطبة وكتاب في علم الشروط، وكتاب المعلمين، وكتاب الاحتفال في أعلام الرجال (في علماء الأندلس). ولي شرطة قرطبة وقضاء لورقة، ولد سنة ٣٤٦ هـ وتوفي بلورقة سنة ٤١٠ هـ (ترتيب المدارك ٤ / ٧٣٥، الصلة ١ / ٢، ٣٨ - ٣٩، الديباج المذهب ٣٨).

(٤) - في ترتيب المدارك: المحشر.

(٥) - هو أبو عبد الله أحمد بن بقيّ بن مخلد، ولي القضاء في قرطبة سنة ٣١٤ هـ، وكان الخليفة عبد الرحمن الناصر يجلّه كثيراً، سمع من أبيه وولي قضاء الجماعة مع الصلاة والخطبة، وتوفي سنة ٣٢٤ هـ، وفي تاريخ علماء الأندلس توفي سنة ٣٤٤ هـ (تاريخ علماء الأندلس ١ / ٣٣، قضاة قرطبة للخشني ص ١١١، جلوة المقتبس ص ١١٨، النباهي ٦٣، الديباج المذهب ٣٧).

لمقابلتِه مُتَنَزَّهَهُ، وتأذِّيه برؤيتهم[1] أوانَ تطلّعه من علاليه، فقال له ابن بقيّ: لا حيلةَ عنه لي فيه، وهو أَوْلى بحفظ حرمة الحُبسُ. فقال له: تكلّم مع الفقهاء فيه، وعرِّفْهُمْ رغبتي، وما أبذلُه من أضعافِ القيمة فيه، فلعلّهم يجدون لي في ذلك رخصة. فتكلم ابنُ بقيّ معهم فلم يجعلوا إليه سبيلا، فغضب الناصرُ عليهم وأمر الوزراءَ بالتوجيه فيهم إلى القصرِ وتوبيخهم، ففعلوا، فلمّا وصَلوا إلى بيتِ الوزارة بالقصر، انبرى لهم رَجُلٌ حديدٌ من الوزراء[2]، فأفحش في خطابهم، وقال لهم: «يقول لَكُمْ أميرُ المؤمنين: يا مشيخةَ السوء! يا آخذي الرشى! وملقّني الخصوم! وملقحي[3] الشرور! وملبسي الأمور! وملتمسي الرواياتِ لاتّباعِ الشّهَوات! تبّاً لكم ولآرائكم. فهو ـ أعزّه الله ـ واقفٌ على فُسُوقِكُم قديماً، وخوْنكمِ الأمانة، ومغضٍ عنه صابرٌ عليه، ثم احتاجَ إلى دقّةِ نظركم في حاجةٍ مَرّةً في دهره، فلم يتّسِعْ نظركم للتحيُّل له؟! ما كان هذا ظنّه فيكم، والله ليقارضنكم[4] من يومه، وليكشفنّ ستوركم، وليناصحنّ الإسلام فيكم» وكلاماً في مثل هذا. فبدر[5] شيخٌ منهم ضعيفُ المنّة إلى الاعتراف[6]، واللياذ بالعفو، وقال: «نتوبُ إلى الله ممّا قال أميرُ المؤمنين ونسأله الإقالة». فردّ عليه كبيرهُمْ محمد بن ابراهيم بن حيّون[7]، وكان ذا منّة، فقال: «مِمَّ تتوبُ يا شَيْخَ السُّوء؟! نحنُ بُرَآء إلى الله من متابك» ثم أقبل على الوزير المخاطب

(١) ـ في ترتيب المدارك: وباديته فيهم.

(٢) ـ في ترتيب المدارك: جديد من الوزارة.

(٣) ـ في ترتيب المدارك: وملحقي.

(٤) ـ في ترتيب المدارك: ليعارضنكم.

(٥) ـ في ترتيب المدارك: فبدأ.

(٦) ـ في ترتيب المدارك: الاعتذار.

(٧) ـ في الأصل: حيوية، وهو أبو عبد الله محمد بن ابراهيم بن حيّون من أهل وادي الحجارة، سمع من الخشني وابن وضاح وعبد الله بن مسرّة، رحل إلى المشرق وسمع من علماء صنعاء ومكة وبغداد ومصر والقيروان، وكان إماماً في الحديث، وكان شاعراً، توفي بقرطبة سنة ٣٠٥ هـ. (تاريخ علماء الأندلس ٢ / ٢٦، جذوة المقتبس ٤١).

لهم، فقال: «يا وزير بِئْسَ المبلِّغُ أنت، وكلُّ ما ذَكَرْتَهُ عن أميرِ المؤمنين ممّا نَسَبْتَهُ إلينا فهي صِفَتُكُمْ معاشرَ خَدَمِه، انتم الذين تأكلون أموالَ الناسِ بالباطل، وتستحِلُّون ظُلْمَهُمْ بالإخافة، وتتحيّفون معاشَهم بالرِشى والمصانَعة، وتَبْغُون في الأرض بغيرِ الحقّ، وأما نحنُ فليسَتْ هذه صفتنا ـ ولا كرامة ـ لا يقولُهُ لنا إلاّ مُتَّهَمٌ في دينه، فنحنُ (ص ١٣٣) أعْلامُ الهدى، وسُرُجُ الظُّلْمَة، بنا يتحصَّنُ الإسلامُ، ويُفَرَّقُ بين الحلالِ والحرام، وتُنَفَّذُ الأحكام، وبنا تُقامُ الفرائض، وتثبت الحقوق، وتحصَّن[1] الدماء، وتُسْتَحلُّ الفروج، فهلاّ إذْ عَتَبَ علينا أميرُ المؤمنين بشيءٍ لا ذَنْبَ فيه لنا، وقال بالغَيْظِ بعضَ ما قاله، تأنّيتَ بإبلاغنا رسالَته بأهون من إفحاشك؟! وعرَّضت لنا بإنكاره، ففهمنا منك وأجبناك عنه؟! فكنت تزيِّن على السلطانِ ولا تُفْشي سِرَّه، وتستحينا قليلا فلا تستقبِلْنا بما استقبلْتَنا به، فنحنُ نَعْلَمُ أنَّ أميرَ المؤمنين ـ أيَّدَهُ الله ـ لا يبقى على هذا الرأي فينا، وأنه سيراجع بصيرته في تعزيرنا، فلو كنّا عنده على الحال التي وَصْفتَها عنه ـ ونعوذ بالله من ذلك ـ لبطل عليه كلُّ ما صنعه وعَقَدَهُ من أوّلِ خلافته إلى هذا الوقت، فما ثبت له كتابُ بَيْعٍ ولا سِلْمٍ ولا بيع[2] ولا شراءٍ ولا صدقةٍ ولا حَبْسٍ ولا هِبةٍ ولا عِتْقٍ ولا غيرِ ذلك إلاّ بشهادتنا، هذا ما عندنا والسلام». ثم قام هو وأصحابُه منصرفين، فلم يبعدوا إلى باب القصر الأوّل إلاّ والرسلُ خلفهم تَصْرِفُهُم إلى موضعهم من بيت الوزراء، فتلقّوهم بالإعظامِ والاعتذارِ مما كان من صاحبهم المخاطِب لهم، وقالوا لهم: «أميرُ المؤمنين يعتذِرُ إليكم من مَوْجَدَتِهِ، ويعلمكم بندمه على ما فرط، وأنه مستنصِرٌ في إعزازكم*، وقد أمر لكلِّ واحدٍ منكم بِصِلَةٍ وكسوةٍ علامةً لرضاه عنكم». فدعوْا له وأثْنوا عليه وانصرفوا أعزّةً. انتهت[3].

---

(١) ـ في ترتيب المدارك: وتحقن.

(٢) ـ تكررت كلمة «بيع» في الأصل، ولعل المقصود في الأولى البيعة، أما الثانية فعكس الشراء.

* ـ في ترتيب المدارك: وإنه متبصر في أعذاركم.

(٣) ـ وردت هذه الحكاية في ترتيب المدارك ٣ / ٣٩٩، وبدائع السلك ١ / ٢٤٧.

فلولا ملابسةُ هؤلاءِ العلماءِ للسلطان، لما لحقهم شُواظُ هذا الامتحانِ، ولكنَّ الله كفاهم المتوقَّع من ذلك، ووفَّقَهُمْ بالصِدْقِ إلى أهدى المسالك.

وقد يُتَوَقَّعُ منهمُ الابتلاءُ وإنْ لم تَحْصُلِ الملابسة، ويُتخوَّفُ الامتحان وإن لم تقع المداخلة، كما قال غيرُ واحد من العلماء: انّه: كان سُحْنون[1] قد حضر جنازةً، فتقدَّمَ ابن أبي الحواد[2] الذي كان قاضياً قبله، وكان يذهب إلى رأي الكوفيين، ويقولُ بالمخلوق، فصلّى عليها، فرجع سحنون، ولم يصلِّ خلفه، فبلغ ذلك الأميرَ زيادة الله[3]، فامر بأن يوجّه إلى عامل القيروان بِضَرْبِ سحنون خمسمائة سوط، ويحلق رأسه ولحيته، فبلغ ذلك وزيرَه عليّ بن حميد، فأمر البريدَ أن يتوقّف، ولطف حتى دخل على الأمير وقتَ القائلة، وقد نام، فقال له: ما شيءٌ بلغني في كذا؟ قال: نعم. قال: لا تفعل فإن العكّيَّ إنما مُقِتَ في ضربه للبهلول بن راشد[4]. قال: وهذا مثلُ البهلول؟ قال: نعم، وقد حَبَسْتُ البريدَ شفقةً على الأمير. فشكره، ولم ينفذ أمره. وبينا سحنونٌ يقرأ للناس، إذ أتاه الخبرُ بما أزاح الله عنه، وقيل له: لو ذهبتَ إلى عليّ بن حميد

---

(١) ـ هو أبو سعيد عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخي ويعرف بسحنون، وقد أسلفنا التعريف به.

(٢) ـ في ترتيب المدارك: ابن أبي الجواد.

(٣) ـ أبو محمد زيادة الله بن ابراهيم بن الأغلب، من ولد الأغلب بن عمرو المازني البصري، وكان زيادة الله من أمراء بني الأغلب على افريقيا، والمذكور هنا هو زيادة الله الأكبر الذي ولي ٢٠١ هـ وهو الذي بنى جامع القيروان بالصخر والآجر والرخام بعد أن هدمه، وكان شاعراً (الحلة السيراء ١ / ١٦٣).

(٤) ـ أبو عمر البهلول بن راشد الحجري الرعيني، روى عنه سحنون ومسلم بن الحجاج في صحيحه، وهو علم من أعلام الفقه المالكي في القيروان، ولد سنة ١٢٨ هـ وتوفي سنة ١٨٣ هـ، وله مؤلفات في الفقه، وقد امتحن البهلول بن راشد على يد محمد بن مقاتل العكي أمير القيروان، إذ جرّده وضربه بالسياط. (ترتيب المدارك ١ / ٣٣٧ ـ ٣٣٩، كتاب المحن لأبي العرب القيرواني ص ٤٣٠) انظر ترجمته في: رياض النفوس ١ / ٢٠٠، ترتيب المدارك ١ / ٣٣٠، الديباج المذهب ١٠٠.

فشكرته! قال: لا أفعل. قيل له: فلو وجّهتَ ابنك لذلك! فأبى. قيل له: فاكتب إليه! فأبى. قال: ولكنّي أحمدُ الله الذي حرّك عليَّ بن حميد لهذا، فهو أولى بالشكر، وأقْبَلُ على استماعِهِ. فقال له قومٌ من أصحابه: لهذا والله كُتِبَ اسمُك بالحِبْرِ على الرُّقوق. انتهت[1].

ومثلُ سحنون ـ رضي الله عنه ـ من يكونُ من صِدْقِ الوجهة بهذه المثابة، وهذا من كرامته الظاهرة ـ رضي الله عنه وأرضاه.

ويقرب من توقّعِ الابتلاء، ووجودِ اللطفِ من الله في صرفه، ما اتّفق للشافعي ـ رحمه الله، قال الفضلُ بنُ الربيع: بَعَثَ إليّ الرشيدُ في وقتٍ لم يكُنْ (ص ١٣٤) يبعث إليّ فيه، فدخلت عليه في مَجْلِسِ خاصّته، وبين يَدَيْهِ سيف، وقد اربدَّ وَجْهُه، فقال لي: «يا فضل! اذهب إلى هذا الحجازيّ محمدِ ابن إدريس فأتني به، فإنْ لم تأْتِني به انزلتُ بك ما أريدُ به» فأتَيْتُه، فألفَيْتُه في مسجدِ بيته يصلّي، فانفتل من صلاته، فقلت له: أجِبْ أميرَ المؤمنين فقال: بِسْم الله. وحرّك شَفَتَيْهِ، ثم نهضْتُ أمامه وهو يَقْفُوني، حتى أتيتُ القَصْرَ، وأنا أرجو أنه قد نام، فإذا هو جالس، فقال: ما فَعَلَ الرجل؟ قلت: بالباب. قال: لعلّك روّعته، قلت: لا. قال: أدْخِلْهُ. فلما دخل تَزَحْزَحَ له عن مجلسه، وتهلّل وَجْهُهُ، وضحك إليه، وصافحه، وعانقه، وقال له: يا عبدَ الله! لم يَكُنْ لنا عليك من الحقّ أن تأتينا إلاّ برسول؟ فاعْتَذَرَ بِعُذْرٍ لطيف. فقال: إنّا أمَرْنا لك بأربعةِ آلاف دينار، وفي روايةٍ بعشرةِ آلاف درهم. فقال: لا أقْبَلُها. قال: عزمتُ عليك لَتَأْخُذَنّها، يا فضلُ احملْها معه. قال الفضل: فلما انصرفتُ قلتُ له: بالذي أنْجاك منه وأبدَلَكَ رضاه من سُخْطِه ما قُلْتَ في إقبالِكَ إليه ودخولك عليه؟ قال: نعم قرأتُ «شَهِدَ الله أنَّهُ لا إله إلاّ هُوَ العَزيزُ الحكيم، ربُّ العَرْشِ العظيم، اللهمّ إني أعوذُ بنُورِ قدسك، وعظمةِ طهارتِكَ، وبركةِ جلالِكَ، من كل افةٍ وعاهة، أو طارقٍ يطرق، إلاّ طارقاً يطرُقُ بخير، يا أرْحَمَ الراحمين.

---

(١) ـ وردت هذه الحكاية في ترتيب المدارك ٢ / ٦٠٩ ـ ٦١٠.

اللهم أنت عِياذي، فَبِكَ أعوذ، وأنت ملاذي، فبِكَ ألوذ، يا مَنْ ذَلَّتْ له رِقابُ الجبابرة، وخَضَعَتْ له مقاليدُ الفراعنة، أعوذُ بكرمك من غضبك، ومن نسيانِ ذِكْرِك، ومن أن تُخْزني أو تَكْشِفَ ستري، أنا في كنفك ليلي ونهاري، وظعني وأسفاري، ونَوْمي وقراري، فاجعل ثناءَكَ دِثاري، وذِكْرَكَ شِعاري، لا إلهَ غيرُك، تنزيهاً لوجهِكَ، وتعظيماً لسُبُحاتِ قُدْسِكَ، أجِرْني من عقوبتك وسُخْطِك، واضرِبْ عليّ سُرادِقاتِ حِفْظك، واعْطِني خَيْرَ ما أحاطَ به عِلْمُك، واصرفْ عنّي شرّ ما أحاط به عِلْمُك، وأمِّنْ روعاتي يومَ القيامة، يا أَرْحَمَ الراحمين». قال الفضل: فما دخلتُ على سلطانٍ فدعوتُ بهذا الدعاءِ إلّا ضَحِكَ في وجهي وأكرمني وضمّني. انتهت[1].

وقد سبق لهذا نظائرُ كثيرة، وقضيّةُ الشافعيّ ـ رضي الله عنه ـ من ذلك، وفيها انموذجٌ من الكرامات، نَفَعَنا الله به وبمثله من علماءِ المِلّةِ وعُمُدِ الشريعةِ السمحة.

وإنّ من أعظمِ الأسبابِ التي تَجُرُّ الابتلاء اللسانَ، فينبغي التحفُّظُ من سقطاته، ولذلك قال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «كلامُ ابنِ آدَمَ كلُّه عَلَيْهِ ما خلا أَمْرَهُ بالمعروفِ وَنَهْيَهُ عَنِ المُنْكَر وَذِكْرَ الله عَزّ وجَلّ عليه لا له[2]» فكم من مُمْتَحَنٍ لم يَجْنِ عليه الجنايةَ إلّا لسانُه! وكم من مبتلىً لم يورِّطْهُ في الابتلاءِ إلّا كلامُه! وفي هذا المعنى قال القائل وأظنّه ابنَ المعتزّ[3]:

يمـوتُ الفتى من عَثْـرةٍ بِلِسـانِـهِ　　　وَلَيْسَ يَمـوتُ المَرْءُ مِنْ عَثْرَةِ الرِجْلِ

---

(1) ـ وردت هذه الحكاية في حلية الأولياء ٩ / ٧٩ ـ ٨٠، عين الأدب والسياسة لابن هذيل ص ١٩٤.

(2) ـ سنن ابن ماجة ٢ / ١٣١٥ (حديث رقم ٣٩٧٤) مع بعض اختلاف.

(3) ـ ورد هذا البيت في: عين الأدب والسياسة ص ٢٥٠ غير منسوب، المحاسن والأضداد ص ١٨ (ونسبه للمعتز)، محاضرة الأبرار ٢ / ٣٠٧.

ومن أظرفِ الحكاياتِ عمّن نجا من غائلتِهِ بعد تورُّطِهِ، ما رَوى ثعلب[1] عن ابنِ الاعـرابيّ[2] قال: إنّ أوّلَ خُطْبَةٍ خَطَبها السَفّاحُ في قريةٍ يُقالُ لها العبّاسية ، فلما وَصَلَ إلى مَوْضِعِ الشهادة مِنَ الخُطْبَة قامَ رَجُلٌ في عُنُقه مصحف قال: أذكُرُكَ اللهَ الذي ذكّرتني إلاّ أنْصَفْتَني من خصمي وحَكَمْتَ بيني وبينَه بما في هذا المصحف. فقال له: (ص ١٣٥) مَنْ ظَلَمَكَ؟ قال: أبو بكر الذي منع فاطمة بِرَّك. فقال: وهل كان بعده أحدٌ؟ قال: نعم. قال: من؟ قال: عمر. قال: فأقام على ظُلْمكُمْ؟ قال: نعم. قال: وهل كان بعده أحد؟ قال: نعم. قال: من؟ قال: عثمان. قال: فأقامَ على ظُلْمِكُمْ؟ قال: نعم. قال: وهل كان بعده أحد؟ قال: نعم قال: من؟ قال: أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب. قال: وأقامَ على ظلمكم؟ قال: فأسكت الرجل، وجعل يلتفت وراءه يطلب مُخلَصاً فقال له: والذي لا إله إلاّ هو لولا أنه أوّلُ مقامٍ قُمْتُهُ ولم أكن تقدّمتُ إليك في هذا قبل لأخذتُ الذي فيه عيناك، اقعدْ. انتهت[3].

ومن لم يتأمّلْ ما يتكلّم به فكثيراً ما يجني عليه لسانُه، ولذلك قال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «كلامُ ابنِ آدَمَ كُلُّه عليهِ إلاّ ما كان» كذا لأقوالٍ من البرِّ عيّنها أو كما قال.

وقد يحدث بالتشاحّ في الحقوقِ مَعَ اولي القُدْرة ما يثير الحفيظة، ويوقدُ

---

(١) ـ هو أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد بن سيّار النحوي الشيباني بالولاء، وولاؤه لمعن ابن زائدة الشيباني، كان أمام الكوفيين في النحو واللغة، سمع عن ابن الأعرابي والزبير بن بكار، له كتاب «الفصيح» وغيره، توفي سنة ٢٩١ هـ ببغداد (تاريخ بغداد ٥ / ٢٠٤، وفيات الأعيان ١ / ١٠٢).

(٢) ـ هو أبو عبد الله محمد بن زياد الكوفي اللغوي من موالي بني هاشم، من كبار علماء اللغة والرواة، له كتاب النوادر والخيل وغيرهما، توفي سنة ٢٣١ هـ في سرّ من رأى (وفيات الأعيان ٤ / ٣٠٦).

(٣) ـ وردت هذه الحكاية في كتاب الأذكياء لابن الجوزي ص ٣٦.

نارَ الأحقاد، إلاّ أنْ يَتَدارَكَ الله بلطفه، كما حُكي أنَّ عبدَ الله بن الزبير كانت له أرضٌ تُتاخِم أرضَ معاوية، وكان فيها لمعاوية عُبْدان يَعْمُرونها، فاغتصبوا قطعةَ أرضٍ من أرضِ ابن الزبير، فكتب إلى معاوية: «أمّا بعد، يا معاوية! فإنّ غلمانَكَ اقتطعوا لكَ قِطْعةً من أرضي، فكُفَّهم، وإلاّ كان لي ولكَ شأن». فلما بلغه الكتابُ دفعه إلى ابنِه اليزيد، وقال له: ما ترى يا بُنَيّ في هذا؟ قال: أرى أن تَبْعَثَ إليه من يأتيك برأسِه. قال: أوَ خيرٌ من ذلك؟ ثم دعا بداوةٍ وقِرْطاس، فكتب إليه: «أما بَعْد، فقد وَقَفْتُ على كتابِك ابنَ حواريِّ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم وساءَني ما ساءه، والدنيا عندي هيّنةٌ في جَنْبِ رضاه، وقد كَتَبْتُ على نفسي صكّاً له بالأرض والعُبْدان، فليُضِفْ ذلك إلى أرضِه وعُبْدانِه والسلام». فلما بلغه ذلك كتب إليه «وَقَفْتُ على كتابِ أميرِ المؤمنين ـ أطالَ الله بقاءه ـ فلا عُدِمَ الرأيُ الذي أحلّه من قريشٍ هذا المحلَّ» فلما وقف معاويةُ على كتابه دفعه إلى ابنه اليزيد، وقال له: يا بُنَيّ! إذا بُليتَ بمِثْلِ هذا الداء فداوِه بمثل هذا الدواء. انتهت.

ولا خفاءَ أنّ توقُّعَ البلاءِ في النفسِ والولدِ عظيم، ولكنْ أعظمُ منه الحالةُ التي يصير هٰذا الابتلاءُ غيرَ الواقع للناجي منه متمنّى له من عظيمِ ما هو فيه، واستحضارُ مثل ذلك ممّا يخفّف عن المتوقعِ لشيءٍ مما فسر آنفاً وقوعَه ويُسهّل للصبر رُجوعَه، وذلك إذا تُؤمّل بعين البصيرةِ، مثل قوله صلّى الله عليه وسلّم: «لا تَقُومُ الساعةُ حتى يَمُرَّ الرجُلُ بقَبْرِ الرَجُلِ فيقولُ يا لَيْتني مكانَهُ[1]» ومثل قوله صلّى الله عليه وسلّم ـ فيما رواه عنه حذيفة[2] ـ أنّه قال: «لا تَقُومُ الساعةُ حتى يتمنّى أبو الخمسةِ أنّهم أرْبَعَة، وأبو الأرْبَعَةِ أنّهم ثلاثة، وأبو الثّلاثةِ أنّهُمْ

(١) ـ موطأ مالك ص ١٦٠، صحيح البخاري ٨ / ١٠٠، صحيح مسلم ٨ / ١٨٢.

(٢) ـ أبو عبد الله حذيفة بن اليمان حسل بن جابر العبسي، حليف بني عبد الأشهل صاحب سرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، شهد اليرموك والخندق، واستعمله النبيّ صلّى الله عليه وسلّم على بعض الصدقة، مات سنة ٣٦ هـ (المعارف ٢٦٣، حلية الأولياء ١ / ٢٧٠ ـ ٢٨٣، الوافي بالوفيات ١١ / ٣٢٧).

اثنان، وأبو الاثنينِ* أنَّهما واحدٌ، وأبو الواحِدِ أنّه ليس له ولد»[1]. وهذا من أشدّ ما يُسْتَدْفَعُ به ثقل المتوقَّعاتِ المُسْتَقْبَلة، وقانا الله من هذا الزمان، فكأنّ زمانَنا قريبٌ منه.

وإذا لم تكن مخائلُ المتوقَّعِ قريبةً، ولا أسبابُ وُقوعهِ ظاهرةً، فكثيرٌ ما يَطْرُقُ المفكّرين فيه تصميمُ فكرتِهم، ومطابقةُ الواقعِ لما سنح في أنفسهم، وذلك إمّا ثَمَرَةَ التطيُّر فإنه نوعٌ منه، أو نتيجة سوءِ الظنّ بالله فإنه انموذجٌ منه، أو شعورٌ من النَّفْسِ بالمكروه الذي أزِفَ به القَدَر، كما حكى محمّد بن الحارث ابن بشخنّز[2] قال: كانت لي نوبَةٌ في خِدْمةِ الواثِقِ في كلّ جمعة، وكان رَسْمُنا لا يحضرُ أحَدٌ منّا إلاّ في يومِ نَوْبَته، فإنّي لفي منزلي في غيرِ يومِ نَوْبَتي وإذا برسلِ (ص ١٣٦) الخليفةِ قد هجموا عليّ فقالوا لي: احضُر، فقلت: بخير؟ قالوا: بخير، فقلت: هذا يومٌ لم يُحْضِرْني فيه أميرُ المؤمنين قطّ، ولعلّكم غَلِطْتُم. فقالوا: الله المستعان، لا تطوِّلْ وبادِرْ فقد أمَرنا ألاّ نَدَعَكَ تستقرُّ على الأرض. فداخَلَني فَزَعٌ شديد، وخِفْتُ أن يكون ساعٍ بي أو بليّةٌ قد حدثت في رأي الخليفة، فتقدّمتُ بما أردت، وركبتُ حتى وافيتُ الدار، فذهبتُ لأدخلَ على رَسْمي من حيثُ كنت أدخل، فمُنِعْتُ، وأَخَذَ بيديَ الخَدَمُ، فعدلوا بي إلى ممَرّاتٍ لا أعرِفُها، فزاد في جَزَعي وغمّي. ثم لم يزل الخَدَمُ يُسْلِمونني من خادم إلى خادم حتى أفضيتُ إلى دار مفروشةٍ بالصخر، ملبّسةِ الحيطان بالوَشْي المنسوجِ بالذهب. ثم أفضيتُ إلى رواقٍ أرضُه وحيطانُه ملبّسة بمثل ذلك، فإذا الواثقُ في صَدْرِهِ على سريرٍ مرصّع بالجوهر، عليه ثيابٌ منسوجةٌ

---

* - في الأصل: الاثنان.

(١) - لم أجد الحديث فيما رجعت إليه من مصادر الحديث النبوي الشريف.

(٢) - في الأصل: لشخيّز، والصواب ما أثبتناه، وهو في الأغاني محمد بن الحارث بن بُسْخُنُّر (بالسين) يكنى أبا جعفر من موالي أبي جعفر المنصور، وأصله من الريّ، ولد بالحيرة وكان مغنياً، ويقال إنه كان يغني مرتجلاً. (الأغاني ١٢ / ٤٨، ٢٤ / ١٧٦) وانظر: الوافي بالوفيات ٢ / ٣١٦.

بالذهب، وإلى جانبه فريدة[1] جاريته، عليها مثلُ ثيابه، في حُجْرها عود. فلما رآني قال: جودت[2] والله يا محمّد! إلينا إلينا. فقبّلت الأرضَ، ثم قلت: يا أميرَ المؤمنين خير؟ قال: خير، ما ترى، أنا طلبتُ ثالثاً يؤنِسُنا، فلم أرَ والله أحقَّ بذلك منك، فبحياتي بادِرْ فكُلْ شيئاً وبادرْ إلينا. فقلت: قد والله يا سيِّدي أكلتُ وشربتُ أيضاً. قال: فاجلس. فجلستُ. فقال: هاتوا لمحمّد رِطْلاً في قَدَح. فأُحْضِرَ ذلك، واندفَعَتْ فريدةُ تغنّي:

أهابُكَ إجلالاً وما لَكَ[3] قدرةٌ ... عليّ ولَكِنْ ملءُ عينٍ حبيبُها

ولا هَجَرَتْكَ النَفْسُ بالليلِ[4] إنّها ... قَلَتْكَ ولا إن قلَّ منك نَصيبُها

ولكنّهم يا أحسنَ الناسِ أولعوا ... بقولٍ إذا ما جئتَ هذا حبيبُها[5]

فجاءت والله بالسِحْر، وجَعَلَ الواثِقُ يجاوبها[6] في خلال ذلك ما تغنّي الصوتَ بعد الصوت، وأغنّي أنا في خلال غنائها، فمرّ لنا أحسنُ ما مرّ لأحَد. فإنّا كذلك إذ رَفَعَ رِجْلَهُ فَضَرَبَ بها صَدْرَ فريدة ضربة تدحرجت من[7] أعلى السرير إلى الأرض، وتفتّت عودُها، ومرّت تعدو وتصيح، وبقيتُ كالمنزوع الروح، ولم أشُكَ في أنَّ عَيْنَهُ وَقَعتْ إليَّ فنظرتْ إليَّ أو نظرتُ إليها. فأطرق إلى الأرضِ حيناً، وأطرقتُ أتوقَّعُ ضَرْبَ العُنُق. فإنّي كذلك إذ قال لي: يا محمد: فوقفت قائماً. فقال لي: ويحك! أرأيت أعْجَبَ ممّا تهيّأ علينا؟ فقلت: يا سيّدي

---

(1) ـ تُعْرَف بفريدة الصغرى، جارية الخليفة الواثق العباسي، كانت لعمرو بن بانة المغني، وأهداها للواثق، وكانت من الموصوفات المحسنات. (المستظرف من أخبار الجواري للسيوطي ص ٤٩، نساء الخلفاء ص ١٠٠، الأغاني ٤ / ١١٣).

(2) ـ في الأصل: حودت.

(3) ـ في الأغاني: وما بك.

(4) ـ في الأغاني: يا ليل.

(5) ـ البيت الثالث لم يرد في الأغاني، وفي المختار من قطب السرور أربعة أبيات مختلفة اتبعها بمقطوعات أخرى ليست في رواية الأغاني.

(6) ـ في الأغاني: يجاذبها.

(7) ـ في الأغاني: تدحرجت منها من..

الساعةَ والله تخرج روحي، فعلى من أصابنا بالعَيْن لعنة الله، ممّا كان السببُ والذَنْب؟ قال: لا والله، ولكن فكّرتُ في أنّ جعفراً[1] يقعُدُ هذا المَقْعَدَ وتقعُدُ معه كما هي قاعدةً معي، فلم أُطِقْ الصَبْر، وخامرني ما أحرجني[2] إلى ما رأيت. فسُرّيَ عنّي وقلت: بل يقتل الله جعفراً، ويحيا أميرُ المؤمنين أبداً. وقبّلتُ الأرضَ وقلت: الله الله يا سيّدي! ارحمها وامُرْ بردّها. فقال لبعض الخَدَم الوقُوف: مُرْ جيء بها[3]. فلم يَكُنْ بأسرعَ من أن خَرَجَتْ في يدها عودُها، وعليها غيرُ الثياب التي كانت عليها. فلما رآها جذبها إليه وعانَقَها، فبكت، وجعل يبكي، واندفعتُ أنا في البكاء. فقالت: ما ذَنْبي يا مولاي؟ وبأيّ شيء استوجبتُ منك هذا؟ فأعاد عليها ما قاله لي وهو يبكي. فقالت: سألتُك بالله يا أميرَ المؤمنين إلاّ ضربْتَ عنقي الساعةَ وأرحْتَني من الفكر في هذا وأرَحْتَ قلبك من الهمّ. وجَعَلَتْ تبكي ويبكي، ثم مسحا أعْينَهما*، ورَجَعَتْ إلى الغِناء، وأومأ إلى خَدَمٍ وقوف بشيء لم أعرِفْه، فمضوا وأحضروا أكياساً فيها عَيْن وورق، ورُزَماً فيها ثيابٌ كثيرة، وجاء خادمٌ بدُرْجٍ، ففتحه، وأخرجَ منه عِقْداً ما رأيتُ (ص ١٣٧) قطُّ مِثْلَ جوهرٍ كان فيه، فألْبَسها إيّاه، وأحضر بِدرةً فيها عشرةُ آلاف درهم فَجُعِلَتْ بين يديه**، وخَمْسَ تخوتٍ[4] فيها ثياب وعُدْنا إلى أمْرنا وإلى أحسنَ ما كنّا، فلم نَزَلْ كذلك إلى الليلِ ثم تفرّقْنا. وضَرَبَ الدهرُ ضربانه وتقلّد المتوكّلُ، فوالله إنّي لفي منزلي في غير يَوْمِ نَوْبتي إذ هجم عليّ رُسُل الخليفة، فما أمهلوا حتى ركبت، فصرتُ إلى الدار، فأُدْخِلْتُ والله الحجرةَ بعينها، وإذا المتوكّل في الموضع الذي كان فيه

---

(١) ـ يقصد الخليفة المتوكل على الله جعفر بن محمد بن هارون الرشيد الذي تولى الخلافة بعد الواثق سنة ٢٣٢ هـ (مروج الذهب ٤ / ٨٥).

(٢) ـ في الأغاني: أخرجني.

(٣) ـ في الأغاني: من يجيء بها؟

* ـ في الأصل: عينيهما.

** ـ في الأغاني: بين يديّ.

(٤) ـ جمع تخت: والتخت وعاء يُصان فيه الثياب (القاموس المحيط).

الواثقُ على السرير بعينه، وإلى جانبه فريدة. فلمّا رآني قال: وَيْحكَ ما ترى ما أنا فيه من هذه !أنا منذ غُدْوةٍ أطالبُها بأن تغنّيَ فتأبى ذلك؟ فقلت لها: ما تستحيين الله؟! تخالفين سَيِّدَكِ وسيِّدَ البشر؟! فبكَتْ والله، ثم اندفعت تغنّي[1]:

مقيمٌ بالمجـازةِ[2] من قَنَـوْنى[3] وأهْـلُكَ بالأجـيفـر[4] والثّمـادِ[5]

فلا تبـعُـدْ فكُـلُّ فتىً سيأتـي عليهِ الـمـوتُ يَطْرُقُ أو يُغـادي

ثم ضربَتْ بالعـودِ الأرضَ ورمَتْ بنفسِهـا من السـرير ومرّت تعدو وتصيح: واسيِّداه. فقال لي: ويحك ما هذا؟ فقلتُ: والله لا أدري يا سيّدي. قال: فما ترى؟ قلت:[6] أرى والله أن أنْصرفَ أنا وتُحْضِرَ هذه ومعها غيرُها. قال: الأمر يؤول إلى ما يريد أميرُ المؤمنين. قال: فأنصرف في حفظ الله. فانصرفتُ ولم أدْرِ ما كان من القصّة. انتهت[7].

وهذه الحكايةُ ممّا لا يندرجُ تحت ما بُوِّب له، وإنما قُصِد بها تمثيل ما لم يكن لوقوعه مخائل مخصوصة متعيِّنة، فإنّ الموتَ وإن كان مُحْتَمَلَ الوقوع في كلّ لحظة فليس الاهتمامُ به في غير الوجه الذي يزهّد في الدنيا ويرغّب في الآخرة ويبعث على العمل ويقصّر من الأمل من شأن العقلاء، وأما

---

(١) - البيتان في الأغاني ٤ / ١١٨، وفي المختار من قطب السرور ٢٦٤ أربعة أبيات.

(٢) - في الأصل: بالمحارة. والمجازة منزل من منازل طريق مكة بين ماوية وينسوعة.

(٣) - في الأصل: فنون، وقنونى وادٍ من أودية السراة يصبّ بها إلى البحر في أوائل أرض اليمن من جهة مكة.

(٤) - في الأصل: الأحيفر، والاجيفر: موضع في أسفل السبعان من بلاد قيس.

(٥) - الثماد موضع في ديار بني تميم.

(٦) - في الأصل: قال.

(٧) - وردت هذه الحكاية في كتاب المختار من قطب السرور ٢٦٣، الأغاني ٤ / ١١٥، نساء الخلفاء ١٠٠. ووردت مختصرة في كتاب المستظرف من أخبار الجواري للسيوطي ص ٤٩ - ٥٠.

أن يكون الاهتمام منه في مثلِ ما اهتمَّ به الواثقُ في عنفوان لذّته واستطالةِ سُلْطانه مِنْ تَطَلُّبِ دوامِ ما ليس بدائم واقتراحِ ثُبوتِ ما ليس بثابت، فإنّما ذلك كما تقدّم إما شعــورٌ بالمكروهِ وإما أثرُ حَسَدٍ سواه فيما له أن ينالَهُ إن قدر له به، ولذلك أعقبه من باب كَوْنِ البلاء موكلًا بالمنطق* ما أعقبه. مع أنه كان في ذلك الوقت خِلْواً[1] من مخائِلِ الوقوع، ولله في تصريف حكمه عجائبُ تَبْهَرُ العقول.

ولا بدّ من النظرِ في كلِّ حالةٍ تَعْرِضُ للعاقلِ بما شرع فيها من الدعاءِ وما يناسبُها إن لم يكن قد ورد فيها شيءٌ على التعيين، كما إذا خاف سلطاناً، ففي كتاب ابن السنّي[2] عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم: «إذا خِفْتَ سُلطاناً أو غَيْرَه فَقُلْ لا إلهَ إلاّ الله الحليمُ الكريمُ سبحانَ الله ربُّ السماواتِ السبْعِ وربُّ العرشِ العظيم لا إله إلاّ أنْتَ عَزَّ جارُك وجَلَّ ثناؤُك»[3]. وكما إذا خافَ العَينَ، والعينُ حقٌّ لما ثبت في الصحيحيْن عن النبي صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: «العَيْنُ حقّ»[4] ففي صحيح (ص ١٣٨) البخاري من حديثِ ابن عبّاس أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان يُعَوِّذُ الحسنَ والحُسَيْنَ: «أُعِيذُكُما بِكَلِماتِ الله التامّةِ من كلِّ شيطانٍ وهامّة ومن كُلِّ عَيْنٍ لامّة»[5] ويقول: «إنّ أباكما كان يُعَوِّذُ بها اسماعيلَ وإسحق». وفي

---

* ـ كأنّه يشير إلى قول الشاعر:

واحذر لسانك لا تقول فتبتلى ... إنّ البلاء موكّلٌ بالمنطق

(محاضرة الأبرار ٢ / ٣٠٧، لباب الآداب ٢٧٥).

(١) ـ في الأصل: خلو.

(٢) ـ هو أبو بكر أحمد بن محمد بن اسحق بن ابراهيم بن أسباط الدينوري مولى جعفر بن أبي طالب الهاشمي، ويعرف بابن السني، وقد أسلفت التعريف به.

(٣) ـ عمل اليوم والليلة ١٠٦.

(٤) ـ صحيح البخاري ٧ / ٢٣، صحيح مسلم ٧ / ١٤.

(٥) ـ سنن الترمذي ٨ / ٢١٥، مجمع الزوائد ١٠ / ١٨٧، ٥ / ١١٣.

كتاب ابن السنّي أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «**مَنْ رأى شَيْئاً فأعْجَبَهُ فقال ما شاءَ الله لا قُوّةَ إلاّ بالله لم يضرّه**»[1]وفيه عن سهل بن حنيف[2] ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم: «**إذا رأى أحَدُكُمْ ما يُعْجِبُهُ في نَفْسِهِ أو مالِهِ فلْيُبارِكْ عليه فإنَّ العَيْنَ حقّ**»[3] ويُحْكى أن نبيّاً من الأنبياء ـ صلواتُ الله عليهم ـ نظر إلى قومِهِ يوماً، فاستكثرهُمْ وأعجبوه، فمات منهم في ساعةٍ سبعون ألفاً، فأوحى الله سبحانَه إليه أنّكَ عَيْنْتَهُم، ولو أنَّكَ إذْ عَيْنْتَهُمْ حَصَّنْتَهُمْ لم يهلكوا. قال: وبأيّ شيءٍ أحصنّهم؟ فأوحى الله إليه: «حصّنْتُكُمْ بالحيّ الذي لا يَموتُ أبداً، ودفعتُ عنكم السُوءَ بلا حَوْلَ ولا قُوّةَ إلاّ بالله العليّ العظيم». وكما إذا وقع في هلكةٍ فقد نُقِل عن عليّ ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: قال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم: «**يا عليّ ألا أعلّمُك كلماتٍ إذا وَقَعْتَ في ورطةٍ قُلْتَها**» قلت: بلى جعلني الله فداءك. قال: «**إذا وقعْتَ في ورطةٍ فَقُلْ بسمِ الله الرحمنِ الرحيم ولا حَوْلَ ولا قُوّةَ إلاّ بالله العليّ العظيم فإنَّ الله يصرِفُ بها ما شاءَ من أنواعِ البلاء**»[4].

وكما إذا خافَ قوماً ففي سُنن النَّسائي عن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان إذا خاف قوماً قال: «**اللهمَّ إنّا نجعلُكَ في نُحورِهم ونعوذُ بك من شُرورِهم**»[5]. وكما إذا راعَه شيءٌ أو فزِعَ منه، ففي الترمذيّ، عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جدّه أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان يعلّمُهُمْ من الفزع كلمات «**أعوذُ بكلماتِ الله التامّةِ مِنْ**

---

(١) ـ عمل اليوم والليلة ص ٦٨.

(٢) ـ أبو سعيد سهل بن حنيف من بني عمرو بن عوف من الأنصار، شهد صفين مع علي كرم الله وجهه، كان يسكن بالكوفة وبها توفي سنة ٣٨ هـ. (المعارف ص ٢٩١).

(٣) ـ عمل اليوم والليلة ص ٦٧.

(٤) ـ عمل اليوم والليلة ١٠٣.

(٥) ـ نفسه ١٠٢، سنن أبي داود ٢ / ٨٩، مسند ابن حنبل ٤ / ٤١٤ ـ ٤١٥.

غَضَبِهِ ومِنْ شرِّ عِبادِهِ ومِنْ هَمَزاتِ الشياطين وأنْ يَحْضُرون»[1]. وفي كتاب ابن السنّي أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان إذا راعَهُ شَيْءٌ قال: «هُوَ الله ربّي لا شريكَ له»[2].

وفي هذا المقامِ يجبُ تجديدُ النظرِ في الإيمان بالقَدَرِ خَيْرِه وشرّه حُلْوِه ومُرّه، فإنه موضِع مَزَلَّةِ قدم. والذي ينبغي للمؤمن بالله والقَدَرِ أن يَجْزِمَ الجَزْمَ التامَّ بأنّ ما قضى الله فلا محيصَ عنه ولا نجاةَ له منه ولا ملجأ له من حلوله، ولا معقلَ ينجيه من نزوله. وهنا تسكن النفسُ وينبسطُ القلبُ، فإن الذي لم يُقَدِّرْ كَوْنَهُ من الأمورِ على تناهي شدّته المحيلة في الوهم وعظمِ مكروهه المنطبع في الخيال قد أغنى الله عن الاهتمام به، وأزاح من الكربِ من أجله وضمن لها الأمانَ التامّ منه والسلامةَ الكافية من محذوره. وما قضى الله من الأمور وقدّر منها وكتب على العبد أنه لا بدّ له منه فالحَذَرُ منه لا يُغْني، والتسبُّبُ في صرفه لا يُجْدي. ولذلك قيل[3]:

لَعَمْـرُكَ ما يَدْري الفَتى كَيْفَ يَتَّقِي   إذا المـرءُ لَمْ يَجْعَـلْ له الله واقيا

ولهذا العقدِ راحةٌ كبيرةٌ في مواطِنِ السوء التي تُخْشى فيها النوائبُ، وتُتَوَقَّعُ (ص ١٣٩) فيها المصائب.

وكالذِكر فيما يستحضر الفكر من المتخوفاتِ التي أوشَكَتْ أن تكونَ وقاربَتْ متوقَّعاتُها الوقوع، على تعدّد ما يطرُقُ من ذلك بحسب تلوّنِ الزمان من استحكامِ أمْنٍ واستشعارِ خيفةٍ، مثل موطن سوءٍ حضرتُهُ في الدولة اليوسفيّة يومَ القَبْضِ على القائِدَيْنِ أبي الحجاج يوسف بن كُماشة وأبي القاسم بن

---

(١) ـ سنن الترمذي ١٣ / ٥١ ـ ٥٢ (وفيه: من غضبه وعقابه وشرّ عباده)، مجمع الزوائد ١٠ / ١٢٧.

(٢) ـ عمل اليوم والليلة ١٠٣ ونصّه فيه: «هو الله ربي لا أشرك به شيئاً».

(٣) ـ ورد البيت في التمثيل والمحاضرة ص ٦٠ منسوباً إلى أفنون التغلبي، وورد في المستطرف للإبشيهي (١ / ٧٧) غير منسوب.

السرّاج ـ أعظم الله مثوبتهما ـ، وذلك أنّي كنتُ في تلك الأيّام على ما لا يخفى من حالِ مَنْ طَرَقَهُ الابتلاءُ من خواصِّ دولةٍ قد انْتُسِخَتْ بدولةٍ أخرى مضادّةٍ لها وضعاً وطبْعاً، فلم تكُن النفسُ تَسْكُنُ إلى أمانٍ تامٍّ ولا تخلو عن خوفٍ مُسْتَجِدٍّ، وكنتُ متى اسْتُدْعِيتُ للحضورِ في مشاهِدِ تلك الدولةِ ومحافلِ شُوراها ومجالسِ مُفاوضتِها ألجأ إلى ما اعْتَمَدَهُ أهلُ كُتُبِ الصحيح من التعوّذاتِ الواردةِ في ذلك عن النبيِّ صلّى الله عليه وسلّم وأضرعُ إلى الله في استكفاءِ شرِّ كُلِّ ذي شرّ. ولم يَكُنْ إيجاسُ النفسِ للخيفةِ مِنْ قِبَلِ ذلك السُّلطان، فقد كنتُ أراه مائلاً للخيرِ بطبعِهِ مباعِداً للشرِّ بقَوْلِهِ وفعْلِه، وإنما كنتُ أستَثْقِلُ بَعْضَ أربابِ دولتِهِ ممّن أتوسَّمُ فيه غِلّاً أو أسْتَشْعِرُ مِنْهُ حَسَداً، وخصوصاً ذلك الموسومُ بوزارتِه، فقد كانت عندي مداراتُهُ صَعْبَةً ومُصانَعَتُهُ عسيرةً. وكان القائدُ أبو القاسم بنُ السرّاج ـ حفظه الله ـ بما كان بيني وبينه من أذمّةِ المحبّة في الأزْمِنَةِ السالفة لا يزالُ يتشفَّعُ لي ويعامِلُني بما يليقُ بأصالتِهِ من المَبَرَّة، ويمُتُّ لي بوسيلةٍ للمصافاةِ في الأيّام السابقة، وتَقَلَّدَ لذلك السلطانِ وظيفَ الوزارة واضطَلَعَ له بما أُسْنِدَ إليه من هذه الخُطّة، وقد كانت تَفَرَّقَتِ الظباء على خَداش[1] وانْعَقَدَ عزلُ ابنِ علّاق عنها إجماعاً في أخبارٍ تقتضي طولاً ليست من غرضنا.

وكان هذا القائدُ المتولّي للوزارةِ من الوثُوقِ بالدولةِ والطمأنينةِ بالموالاةِ وعدمِ المبالاةِ بأربابِها من المعروفِ عنها قبله ممن دونه على حالةٍ متناهية، وكثيراً ما كان يستدعيني للتناجي فيما يخُصُّه والتسارّ فيما هو بسبيلِه، وكنتُ أنا آخِذاً بالتقية مستشعِراً للحَذر من قِبَلِ أولئك الناسِ الذين لم أكُنْ على ثقةٍ

---

(١) ـ اشارة إلى قول الشاعر:

تكاثرت الظباء على خداشٍ فما يدري خداشٌ ما يصيد

وورد هذا البيت في التمثيل والمحاضرة ص ٣٦١ غير منسوب، وذكره الإبشيهي في المستطرف ١ / ٧٣ (وفيه: حراش)، وأورده الحسن اليوسي في زهر الأكم (٣ / ٢٤٢) منسوباً إلى يزيد بن الصيقل العقيلي.

من مطابقةِ بواطنهم للظواهر، ولا موافقة علانيتهم للسرائر، إلى أن توالتْ النمائمُ وكثرت الأراجيفُ وتنوعت السعاياتُ فيما بين قُوّام تلك الدولة والقائدِ بوادي آش الوزير أبي اسحق ابراهيم بن عبد البرّ، وَهَمَّ لزمهم على سبيل البلاغاتِ عنه ما ساءهم، فوجه عني في أوائِل العَشْرِ الأُخَرِ من رمضان من عام تسعةٍ وأربعين وثمانمائة صبيحةَ يومٍ، فحضرتُ مع من كان رَسْمُه أن يحضر (ص ١٤٠) في مفاوضاتِ تلك الدولة، وتحدّثوا مليّاً فيما تعيَّنَتْ لهم به التهمةُ وتحقّقَتْ الظنّةُ قِبَلَ القائد المذكور واسْتُخْرِجَتْ صحائفُ بغير خطِّهِ مكتتبةٌ عنه تُرِكَ فيها موضعُ بياضٍ يصِحُّ فيه اسمه، وقد كتب فيه بخطّ يشبه خطَّه شبهاً ليس هو بالبعيدِ ولا هو أيضاً ممّا يجزم به. وسُئِلْتُ عمّا عندي فيه، فتأمَّلْتُه تأمّلاً كافياً فلم ينقدِحْ لي فيه تحقيقٌ نقطعُ به الشهادةَ من نسبته إليه أو عدمها. وتذكّرتُ قضيّةَ عثمان وتشديدَ مالك في الشهادة على الخطّ، فتبيّن لي وجهه وأشكل عليّ إشكالاً يقتضي الحقُّ فيه التوقيف، ورأيتُ أنّه لاينجي إلّا الحقُّ كَرِهَهُ مَنْ كَرِهَهُ ورَضِيَهُ مَنْ رَضِيَهُ، فقلتُ ما انتهى إليه عِلْمي وأنا لا أُثْبِتُهُ له ولا أنفيه. فنظر إليّ ابنُ علّاق شَزْراً وتبيَّنَ لي في وَجْهِهِ الشرُّ، واستعَذْتُ بالله منه، ثم لم يزل في تلك المواطِن كلّها يُصَرِّحُ أنَّ الخطَّ خطُّه ويعرِضن بأنَّ التوقُّفَ فيه تشكيكٌ في الحقّ وتغطيةٌ على الباطل. فجعل الله في قَلْبِ السلْطانِ المَيْلَ إلى اعتقادي والتصحيحَ له، وذلك عندي شاهدٌ على إنصافِهِ وقَوْلِهِ للحقِّ وإن لم يوافِقْ غَرَضَهُ، وجهر عن ذلك بمحضره، فكفَّ عنّي تغريضبه، ومحض أبو القاسم النصيحةَ له بأن يستصْلِحَ قائِدَ وادي آش ما أمكنه وضمن عنه الوفاء وعدم التحرك إن توجهتُ أنا والقائد يوسف بن كماشة إليه، وأطلق لنا عن السلطان ضمانَ استقرارِ عزِّهِ واستدامةِ ولايته، وأعلمه أنه لا يركن لغير قَوْلنا لما بيننا وبينه من مودّةٍ صادقة جعل لي فيها التقدّمَ وللقائد يوسف زيادة القربى ومشابكة الصهر ومواشجة الرحم. وكنتُ أكْرَهُ قَوْلَهُ لما تضمّن من إعلامه بهذا المعنى، وخيفةٌ من غمسي في هذه الظنّة التي كنتُ منها بريئاً. وكان هو ممّا انطوى عليه من قَصْدِهِ لنُصْحِهِ وكدحه في عزّه لا يتحفّظ مما كان يؤلمُني من ذلك.

ثم عاودوا ذلك المجلسَ من الغد بالرياض من القصورِ السلطانيّة والقائد يوسف بن كماشة حاضرٌ في اليومين، ثم تواعدوا العودةَ صبيحةَ اليوم الثالث. وصرف ابنُ علّاق هذا الموطن صرفاً يرتابُ له لو فكر فيه القائدان المضمر لهما الشرّ وأراهما أنّ قولهما واضحٌ وصرح لهما بقبولِ إشارتهما في توجيهي وتـوجيهِ القـائـد يوسف في صحبتي وتـوجيه رئيسِهم الفقيه أبي القاسم بن طَرْكاط[1]، ووقع في هذا السوطِن بل وفي الذي قبله من اعترافِ القائد يوسف بخطيئة القائدِ ابراهيم وطلبِ الرضا له والعفوِ عن زلّته ما استنكرته.

ووقع الوعدُ بالاجتماعِ صبيحةَ غدِ ذلك اليوم وفي ضَحْوَتِهِ ما أعادوا التوجيهَ عنّي وعن القائدِ يوسف. واستقررنا (ص ١٤١) بالرياض محلّ مُجْتَمَعِنا بالأمس، وأقمْنا في ارتقابِ خروج السلطانِ مدةً طويلة كما كنّا بالأمس لم يَنْقُصْ منا عدا قاضي الجماعة فإنه اعتذر بما سُومح به في تخلُّفه، ولم يزدَدْ إلّا القائد محمد القبصاني. وفي أثناء ذلك تردّد ابنُ علّاق بالدخولِ والخروجِ والتظاهرِ بما كان يتعاطاه من الرماية مع أولئك الموكّلين برحبة فلفل[2] من رجال

---

(١) ـ ذكـره صاحب نفح الطيب مرتين الأولى (٥ / ٥١٤) ذكر فيها أن الشيخ ابن طركاط الأندلسي جمع فتاوى الشيخ أبي سعيد فرج بن لب من شيوخ لسان الدين بن الخطيب، وأورد في الثانية (٦ / ١٥٣) نصّ الرسالة التي كتب بها أبويحيى بن عاصم إلى الكاتب أبي القاسم ابن طركاط في أوائل ذي الحجة عام ٨٤٥ هـ.

وذكر محمد أبو الأجفان في تحقيقه لفتاوى الشاطبي (ص ١٠٣) أن ابن طركاط هو أبو القاسم وأبو الفضل محمد بن طركاط العكّي، كان متولياً لقضاء مدينة المريّة سنة ٨٥٤ هـ، وأن له فتاوى مجموعة توجد منها نسخة لدى الشيخ محمد أبي خبزة التطواني في المغرب. ولابن طركاط كذلك مختصر لكتاب وفيات الأعيان لابن خلكان، وتوجد منه نسخة في الخزانة العامة بالرباط رقم د ٩٥٩ وتاريخها سنة ٩٩٨ هـ.

(١) ـ لم أجد لها ذكراً في ما أعرفه من المصادر الأندلسية، إلا أن اسم «الرحبة» ورد مرتين في نفح الطيب ٢ / ٥٤٥، ٥٦٠ وفي الإحاطة ١ / ٤٤١ ورد اسم رحبة مؤمل في غرناطة.

بُرْجة[١] ودلاية[٢] المعبّر عنهم عُرْفاً بالغنادير.

وبينا نحنُ وقد طال أمدُ الانتظار وإذا بولد ظِئْر السلطان الملقّب بلورنسة اسماً أعجمياً قد دخل علينا القبّةَ ومعه عليّ التركي يعرّفنا[٣] به، وخلفهم لُمّةٌ من حاشيةِ ذلك العُلَيْج المذكور ومن انضوى إليه من شاكريه، والجميعُ منهم متأبّطون لخناجرهم باديةٌ أماراتُ الشرِّ في وجوههم. فخاطب لورنسةُ المذكورُ القائدَ يوسف بقوله: سيدي يوسف موكّلنا يأمرُكَ أن تدخل أنت وسيدي أبو القاسم في تلكَ القُبّة وأشار لهما إلى القبّةِ الصُغرى من الرياض. فأذعنا لما أمرهما به، وانتزع من القائد يوسف سَيْفَه إذْ كان متقلّداً به ومهمازَهُ، وغلق عليهما بابَ القبّة، ووكل بحفظِ البابِ المقفل عليهما تلك الزِعْنِفَةَ من الرجال. فوقع البَهْت وعظُم الهَوْل، واَستُدْعِيَتْ حاشيةُ السلطان من القادمين معه من الدريّة[٤]، فارتجّتِ الأرض لمواطىءِ أقدامهم، ودخل ابنُ علاّق يَقْدُمُهُمْ وقد تبيَّنَتِ النكرى في وجهه وَعَلَتْهُ قَتَرةٌ علاوةً على المعهودِ من تجهُّمِهِ. وبقيتُ أنا وابن طركاط والقبصانيّ لا نعرفُ أوّلَ الأمرِ مِنْ آخِرِه إلى أن اسْتُدْعِيَ القبصاني منّا، وبقيتُ أنا والآخر لا نَبِسُ برجمة ولا نَنْطِقُ بكلمة، فأشرتُ عليه أن يَسْتَعْلِمَ من الأمْرِ شيئاً فقال لي: ومن يتجاسرُ على ذلك؟! وأقَمْنا برهةً في أسوأ حالةٍ من استعظام المتوقّعات واستخفافِها، ولم أجِدْ هنالك أولى من جَزْم العَقْد بما افتتحتُ به أوّلَ الكلام ترديداً لقوله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إلاّ ما كَتَبَ الله لَنا﴾[٥] ولجأً إليه واستجارةً به، إلى أنْ وَقَفَ علينا أحدُ أقادِمِ خُدّامِ السلطان

---

(١) ـ بالإسبانية Berja وتقع غرب مدينة المرية على مقربة من ساحل البحر (مشاهدات لسان الدين ص ٨١، نفح الطيب ١ / ١٥٠ ـ ١٥١).

(٢) ـ بالاسبانية Dalias قرية في ولاية المرية تقع إلى الجنوب الشرقي من برجة (Berja) بنحو تسعة كيلو مترات (مشاهدات لسان الدين ٨٢، الروض المعطار ٢٣٦).

(٣) ـ في الأصل: يعززا.

(٤) ـ في الأصل: للرية.

(٥) ـ الآية ٥١ من سورة التوبة.

آتياً من البابِ النافذِ لقُبّةِ الرياضِ من الأسطوان الذي بين الدارِ السلطانيّة والرياض، فجدَّدَ إليّ النظَر شَزْراً كالمستثبتِ في كوني هنالك، فأيقنتُ بالشرّ، وتنوَّعَتْ لديّ المُتوقَّعات، وانعطفْتُ متذكِّراً للآحِقِ كالتوقُّف في الشهادةِ الخطّيّةِ بما سبقها من تقريرِ القائدِ أبي القاسم لمصافاةِ الوزيرِ وانقيادِهِ لِقَوْلي وركونِهِ لنقلي، بما لا يُحْصى كثرةً ممّا تَقَدَّمَ بيني وبينَ ابنِ علّاق من مراجعةٍ على غيرِ الموافِقِ لِقَصْدِهِ، ومرتباً عليها مبلغ هذا الترقّبِ من المحذورِ المُتَخَوَّفِ، إلى أن عاد ذلك المذكورُ (ص ١٤٢) ثانيةً فاستدعاني بخاصّتي دونَ مَنْ كان معي، فتبعْتُهُ على ذلك البابِ وهو غثُّ المسلك، ولم أكُنْ وَلَجْتُهُ قَبْلَ ذلك، فساعتئذٍ تَعَيَّنَ لي الشرُّ مقصوداً فيه التفرقةُ بيني وبينَ من سبق اعتقالهُما في القُبَّة، وصار سجن أربابِ الجرائم عندي أفْسَحَ ساحةً وأضْوأ بَيْتاً من تلك القصورِ السُلْطانية، إلى أن وَصَلْتُ إلى آخِرِ ذلك الدِهْليز حيثُ يتّصلُ بالدارِ فَوَجَدْتُ السلطانَ هنالك واقفاً بالباب، فتبسَّمَ إليّ متكلّفاً قاصداً بذلك ـ والله أعلم ـ رَفْعَ ما توهَّمْتُهُ، وأشارَ لي بالقُرْب منه والدنوِّ إليه، وأومأ إلى مَنْ كان بحذائه بالتَقَهْقُر حتى أقامَني مَقامَهُ فسلّمتُ عليه، ودَفَعَ لي كتاباً بخطِّ القائدِ ابراهيم بن عبد البرّ، فسألني عنه. بخطِّ من هو؟ فقلت له: خطُّ قائد وادي آش. فقال لي: أتشهدُ بذلك؟ فقلتُ: نعم. فقال لي: اقرأْهُ على هؤلاء الناس. فقرأتُهُ إلى أن بَلَغْتُ ذكره ـ وكان ذِكْرُهُ فيه غَيْرَ حَسَن ـ فقال: اقرأْهُ فأقْسَمْتُ له أنّي لا أقْرأُ ذلك. فأخَذَهُ من يدي وقرأه. ودارَ بينهم الحديثُ طويلاً وعريضاً في شأنه. وصار السلطانُ ـ رحمه الله ـ يؤْنِسُني بما يَشْهَدُ بكرم خِيمه[1] وشَرَفِ ذاتِه وطهارةِ نَفْسه.

وطال بابنِ طَركاط الانتظار، فَوَلَجَ من حيثُ وَلَجْتُ، فألفاني هنالك. ثم انعَطفَ السلطانُ عليَّ بالحديثِ وقال لي: «أريدُ أن تَكْتُبَ عنّي لأهلِ وادي آش بوُثوقي بهم وطُمأنينتي فيهم وهذا هو السببُ في تَقْديمي لابنِ عبد البرّ

(١) ـ الخيم: الطبع والسجيّة.

ببلدهم فهوّن[1] من شأنِهِ ومِنْ قِصَّتِهِ وقَصْدي أن توفي لي هذا الغَرَضَ في تأكيدِ الاعتقادِ فيهم وتمكينَ التنفير[2] لهم عن مُمالأةِ هذا الكذا». وإذْ ذاكَ نفّس الله عنّي تلكَ الكُربة وأذْهَبَ عنّي تلك الغُمَّة، ولله الحمدُ واصِبا والمِنّةُ دائبا.

وكان من توجيهِ الجيشِ إلى وادي آش بتلكَ الكُتُبِ ثم انحفازِ السلطانِ بالتوجّهِ إليها بعد عودةِ الجيشِ بخُفَّيْ حُنَيْن ما وَقَعَت الإشارةُ إليه في موضع آخر وليس هذا موضعه. وإنما كان القصدُ تقريرَ ما صَرَفَ الله عنّي من هذا المتوقَّعِ الذي كِدْتُ أن أكونَ فيه مع القائدَيْن في ما وَقَعَ بهما على سواء، فسبَقَ القَدَرُ بنجاتي وتورُّطِهما ووقوعِ ذلك المتوقَّع بهما، فأنّى ينجيهما الحَذَرُ، وقد نفذ القَدَر؟! ولا بُدَّ أنْ كان بَلَغَهُما ذَرْءٌ من الخبر[3] فلم يصدّقاه. ولذلك يقول ابن الرومي[4]:

طامِنْ حشاكَ فإنَّ دَهْرَكَ مُوقِعٌ   بكَ ما تُحِبُّ من الأمورِ وتَكْرَهُ
وإذا حذِرْتَ مِنَ الأمورِ مُقَدَّراً   وفَرَرْتَ مِنْهُ فَنَحْوَهُ تَتَوَجَّهُ

وفي نحوِ هذا القصد قال الشاعر[5]: (ص ١٤٣)

فهوِّن[6] عَلَيْكَ[7] فإنَّ الأمورَ   بِكَفِّ الإلهِ مَقادِيرُها

---

(١) - في الأصل: فهو.

(٢) - في الأصل: التنقير.

(٣) - ذرءٌ من خبر: شيءٌ منه.

(٤) - لم أجد البيتين في ديوان ابن الرومي، وورد البيت الثاني منسوباً إلى ابن الرومي في المخلاة للعاملي ص ٢٤٦.

(٥) - ورد البيتان في العقد ٣ / ١٤١ منسوبين إلى ابن أبي حازم، وفي روضة العقلاء للبستي ص ١٥٨ منسوبين لابن الزبير، وجاء البيتان في ديوان محمد بن حازم الباهلي ص ٦١، وفي الحماسة البصرية ٢ / ٢، والعمدة ٣٣ منسوبين للأعور الشني، وفي ديوان الإمام علي ص ٩٤.

(٦) - في الأصل: هوّن، والفاء ضرورية لاستقامة الوزن.

(٧) - في العقد: فلا تحرصنّ.

فليسَ بآتِيكَ مَنْهِيُّها ولا قاصِرٌ عَنْكَ مَأْمُورُها

وفي الصبر عليها يقول القائل، وهو أبو دلف[1]:

هِيَ المقاديرُ تجري في أعِنَّتِها فاصْبر فليْسَ لها صَبرٌ على حالِ
يوماً تُرِيكَ خَسِيسَ الحالِ تَرْفَعُهُ نَحْوَ السماءِ ويَوْماً تَخْفِضُ العالي

وفي هذا الموضِع يتأكّدُ الأمرُ بالتفويضِ والتسليمِ لما في عاقبةِ ذلك من الخَيْرِ الذي هو محجوبٌ عمّن لا يَعْلَمُ العواقب. وتأمّل قول مؤمِنِ آل فرعون ﴿وأُفَوِّضُ أمْري إلى الله إنَّ الله بَصيرٌ بِالْعِباد﴾[2] وما أعقبه ذلك من وقايةِ الله له وما حاقَ بأعداءِ الله من أليم النّكال. قال الله تعالى: ﴿فوقَاهُ الله سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا وَحَاقَ بآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ العَذاب﴾[3]. ومقامُ التفويضِ فيما يُرْشِدُ إليه المتصوّفةُ من أرفعِ المقامات التي يترقّى عليها في السلوك، وكلامُنا نحنُ منه إنّما هو فيما يليق بنا، وذلك أنّا لا نرجِعُ إلى شيءٍ من معنى التفويضِ إلاّ اضطراراً. وفي القدْرِ الذي تسكُنُ إليه نفوسُنا منه ما نَعلَمُ أنّه من فضلِ الله علينا، وأن التمحيصَ هو الذي قادنا إليه قَهْراً لِغَلَبَةِ أحوالِ الغَفْلةِ علينا وإذا عَلِمَ العَبْدُ عِلْماً يقيناً أنّ الخيرَ والشرَّ لا يكونُ منهما إلاّ ما أرادَ الله كَوْنَهُ، فإنّ التفويضَ يجِبُ عليه بِحَسَبِ جزمه بهذا المُعْتَقَد وعدم تردّده فيه. ومن تأمّل قوله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إلاّ مَا كَتَبَ الله لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى الله فَلْيَتوكَّلِ

---

(١) ـ هو أبو دلف القاسم بن عيسى بن ادريس العجلي، أحد قواد المأمون ثم المعتصم من بعده، وكان شاعراً ومغنياً، وشجاعاً جواداً، وله مؤلفات منها كتاب «البزاة والصيد» وكتاب «السلاح» وكتاب «النزه» وكتاب «سياسة الملوك»، توفي في بغداد سنة ٢٢٦ هـ (تاريخ بغداد ١٢ / ٤١٦، وفيات الأعيان ٤ / ٧٣، الأغاني ٨ / ٢٤٨، مروج الذهب ٤ / ٥، معجم المرزباني ٣٣٤، سمط اللآلي ١ / ٣٣١. ورد البيتان في الحماسة البصرية ٢ / ٦، والمحاسن والأضداد ٩٦، والبيت الأول في التمثيل والمحاضرة ص ٣٢٩ والبداية والنهاية ١٠ / ٣٢٣ (ونسبه للخليفه الواثق).

(٢) ـ الآية ٤٤ من سورة غافر.

(٣) ـ الآية ٤٥ من سورة غافر.

المُؤْمِنون﴾[1] فلن يستقرّ التردّد في خاطره مع الجزْمِ بمقتضى هذه الآية الكريمة. ومثلها قولُه صلّى الله عليه وسلّم لعبد الله بن مسعود: «ليقلّ همُّك ما قُدِّرَ يكونُ وما لم يُقَدَّرْ لا يأتيك واعلم أن الخَلْقَ لو جَهِدوا أنْ يَنْفَعُوكَ بشيءٍ لم يَكْتُبْه الله ـ عزّ وجلّ ـ لك لم يَقْدِروا على ذلك»[2]. وفي هذا المعنى قال القائل[3]:

إذا عَقَـدَ القَضـاءُ عَلَيْكَ عَقْـداً   فَلَيْسَ يَحُـلُّهُ إلاّ الـقَـضَـاءُ

وفي الحضِّ على التفويضِ قال الشيخُ أبو مدين[4] ـ رضي الله عنه ـ في حِكَمِه: «احرِصْ أنْ تُصْبِحَ وتُمْسِي مُفَوِّضاً مُسْتَسْلِماً لعلّه يَنْظُرُ إليكَ فيرحمك». انتهت.

وينبغي لمن يتّصِفُ بمعنى التسليمِ والتفـويضِ أنْ يَلْزَمَ ما ورد في الحديثِ الصَحيح الذي خرّجه مسلم في صحيحه عن البُراء بن عازب[5] أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «إذا أخذْتَ مَضْجَعَكَ (ص ١٤٤) فتوضَّأْ وُضوءَكَ للصلاةِ ثُمّ اضطجِعْ على شِقِّكِ الأيْمَن ثُمّ قُلِ اللّهُمَّ إنّي أسْلَمْتُ وَجْهي إليكَ وفوّضْتُ أمْري إليك وألجأْتُ ظهري إليك رَغْبةً وَرَهْبَةً إليك لا مَلْجَأَ ولا مَنْجَى مِنْكَ إلاّ إليك آمنْتُ بكتابِكَ الذي أنزَلْتَ ونبيّكَ الذي أرْسَلْتَ»[6]، ففي هذا الحديث الكريم يزدادُ معنى التسليمِ والتفويضِ على من يستعمِلُه في

---

(١) ـ الآية ٥١ من سورة التوبة.

(٢) ـ مسند ابن حنبل ١ / ٢٩٣، سنن الترمذي ١٠ / ٣١٩ ـ ٣٢٠.

(٣) ـ ورد البيت في ديوان الإمام علي ص ٩، وفي التمثيل والمحاضرة ص ٣٢٩، وأدب الدنيا والدين ٢٧٨.

(٤) ـ هو أبو مدين شعيب بن حسين الأنصاري الأندلسي الإشبيلي المتصوف الشهير توفي سنة ٥٩٤ هـ، وقد أسلفت التعريف به.

(٥) ـ هو البراء بن عازب بن الحارث الأنصاري الحارثي المدني نزيل الكوفة، صحب النبي عليه السلام وشهد معه أكثر من غزوة، وتوفي سنة ٧١ هـ (الوافي بالوفيات ١٠ / ١٠٤).

(٦) ـ صحيح مسلم ٨ / ٧٧.

كل يوم، فلا يبعد عليه استحضارُ هذا المعنى المقصود فيه مع التكرارِ على الأيّام. وفي مثل هذا الموضِع الذي يتأكّد فيه التفويض، حيث تتعارض النُّظّار[1]، وتتخالفُ الأنظار، ويشكلُ صوب التدبير، ويخفى وجه الترجيح، كان الحجاج بن يوسف ينشد هذا البيت*:

دَعْها سماويّةً تجري على قَدَرٍ لا تُفْسِدَنْها بِرأيٍ مِنْكَ مَنْكُوسِ

فهذا معنى التفويضِ والتسليم، لكنّه بغيرِ لَفْظِهِ الواردِ في السُّنّة.

وينبغي أن يلتزمَ المفوّضُ إلى الله في حكمه، والمسلّم إليه في قضائه، معنى الرضا عن الله فيما قَدَّرَ من أمر أو أَنْفَذَ من حكم، وإنّه لرتبةٌ عظيمة ودرجةٌ رفيعة، قال الله تعالى: ﴿إنَّ الذينَ آمنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحات أولئِكَ هُمْ خَيْرُ البَرِيَّةِ جَزاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأنْهارُ خالدينَ فِيها أَبداً رَضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّه﴾[2] فانظر هذه الدرجة ما أعلاها، واعتبرْ هذه الرتبةَ ما أسماها. وقال تعالى: ﴿والسابِقُونَ الأوَّلُونَ مِنَ المُهاجِرِينَ والأنْصارِ والَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بإحْسانٍ رَضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾[3] وهذا مثلُ ما تقدّم، وانظُرْ أهلَ هذه الخصوصيّة مَنْ هُمْ من صُدورِ الأمّةِ ومَنْ تبعهم - رضي الله عنهم - وقال تعالى: ﴿وَرِضْوانٌ مِنَ الله أَكْبَرُ﴾[4] قال عزُّ الدين بنُ عبد السلام[5]: أيْ أكبر من جنّات عدْن. وقال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «الرضا بالقضاءِ عَيْشٌ هَنِيٌّ»[6] وهذا مُدْرَكٌ بقريبٍ من الضرورة، فإنّ

---

(1) - في الأصل: الأنظا.

* - ورد هذا البيت في بدائع السلك ١ / ٣٠٧.

(2) - آية ٧ من سورة البيّنة.

(3) - آية ١٠٠ من سورة التوبة.

(4) - الآية ٧٢ من سورة التوبة.

(5) - عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن حسن بن محمد بن مهذب السلمي، وقد أسلفنا التعريف به.

(6) - لم أجد هذا الحديث فيما بين يدي من مصادر الحديث النبوي.

منَ رضِيَ بالقضاء حَلِيَ له كلُّ حادثٍ وإن كان مُرّاً، وخَفَّ عليه كلُّ طارقٍ وإنْ كان ثقيلاً، وسَهُل عليه كلُّ واقعٍ وإن كان صعْباً. وقال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «اختيارُ الله لعبْدِهِ خيرٌ من اختيارِهِ لِنَفْسه»[1] فليرضَ به، وما أنجح قصد من آثر اختيار الله له على اختياره لنفسه. وفي إيضاح هذا المعنى ألف الشيخ تاج الدين[2] ـ رضي الله عنه ـ كتاب «التنوير في إسقاط التدبير»[3].

ولما قضى الله بالتوجُّه إلى مالَقَة في هذه الأيّام السالفةِ على الحالةِ المعلومة، كان من لُطفِ الله الذي ألهمنيه، أن عكفتُ على مطالعةِ كتاب التنويرِ المشار إليه في أكثر تلك الأيّام، فأثمر لي من راحة النفس، وانشراح الصَدْر، والبُعْد ما أمكنني عن أسر التدبير[4]، ما حَمِدْتُ (ص ١٤٥) أثره، واتضح لي من جلالةِ ذلك الشيخ ـ رحمه الله ـ ما لم أكن أعلمه، ولم أفقد منه بركة كنت أتعرفها على الأحيان على حال تقصيري وقلة توفيقي.

ومن أنفعِ الأسبابِ في صَرْف هذه الابتلاءاتِ المُتَخَوَّفةِ الصدقُ قولاً وعقداً وعملاً وقد تيقّنْتُ صحةَ ذلك حين توجّهي من قِبَلِ مولانا الغالبِ بالله ـ أيّده الله ـ أيامَ كونهِ بمالقة إلى حافِدِه مولانا المستعين بالله، وهو بالحضرة، في غَرَضِ الاستنزالِ له، للإقامةِ بمالقة، وتسليمِ الأمر له عن تراضٍ، فبذلتُ الجهد في توفية قصدِ مُرسلي من غير هوادةٍ منّي لمن أُرْسِلْتُ إليه ولا مصانعة له، فلما تمّ الأمرُ للمستعين بالله، استدعاني للسِفارة عنه إلى مَلِكِ المغرب، واستدناني بعد ذلك إلى مجالِ مفاوضته، ولم يزلْ يعرِضُ لي على جهةِ الانبساطِ بكوني لم أنصح له في تلك الوجهة التي جئتُ إليه من مالقة، فكنتُ

---

(١) ـ لم أجد هذا الحديث فيما بين يدي من مصادر الحديث النبوي.

(٢) ـ تاج الدين بن أحمد بن محمد بن عبد الكريم الحسيني المعروف بابن عطاء الله الاسكندري ت. ٧٠٩ هـ وقد سبقت الترجمة له، وهو صاحب التنوير ولطائف المنن وحكم ابن عطاء الله وغيرها.

(٣) ـ طبع بمطبعة دار احياء الكتب العربية / مصر / ١٣٤٥ هـ.

(٤) ـ هكذا في الأصل، ولعلها تصحيف لـ: أمر التدبير.

أجيبه بما معناه لو ناصَحْتُكَ وتركتُ النُصْحَ لمرسلي هل كنتَ تثِقُ بي فيما استدعيتَني إليه من السِفارة للمغرب؟! فيقول: لا، فأقول: وهل كنتَ تثِقُ بي للحضور في مجالِسِ شُوراك؟! فيقول: لا. فأقول: فكيف تطلُبني أن أفعلَ ما يكونُ موجِباً صحيحاً لعتبي، وسقوطِ منزلتي عند من أرسلني، وعند من أرسِلْتُ إليه، ويلومني كلُّ واحدٍ منهما، وكلاهما في لومتي بحق؟! نسألُ الله أن يقينا مواقفَ الخِزْي في الدنيا والآخرة.

وإذا كان الصدقُ منجياً مع من لا يملك لنفسِه نَفْعاً ولا ضرّاً، ولا يَقْدِرُ أن يجلبَ خيراً ولا يدفع شراً، فهو إذن في جنابِ الله أنجى، والقائمُ به في ذاتِ الله أَحْجى، كالواقع من ذلك لابراهيم بن محمد بن طلحة[1]، وذلك أنّه لما استولى عبدُ الملك بنُ مروان على الحجاز قدِمَ عليه الحجاجُ ومعه ابراهيمُ ابن محمد بن طلحة[2] فقال له: يا أميرَ المؤمنين إني قدِمْتُ عليك برجُلِ الحجاز في الشَرَفِ والمرُوءِ، لم أدع نظيراً له بالحجاز في كمالِ المروءة والأدبِ والطاعةِ وحُسْنِ المذهب مع القرابة، فافعلْ معه ما يستحِقُّه مِثْلُه. قال: ومن هو؟ قال: ابراهيمُ بن محمد بن طلحة. قال: أَذْكَرْتَنا حقّاً واجباً ورحماً قريبة. ثم أَذِنَ له فدخل والحجاجُ بين يديه فلمّا سلّم وقعد قال له عبد الملك: إنّ أبا محمد ذكر ما لم نزل نعرفك به من الشرفِ والمروءةِ مع القرابةِ والنصيحة، فلا تَدَعْ حاجةً إلّا سألْتَها. قال: نعم يا أميرَ المؤمنين لي حوائجُ وعندي نصيحةٌ لا أجِدُ بدّاً من ذِكْرِها. قال: أهي دون أبي محمد؟ قال: نعم، فأشار إلى الحجاج فخرج خجلاً لا يُبْصِرُ أين يضع قدمه. ثم قال: اذكر نصيحتك يا ابن طلحة. قال: «يا أميرَ المؤمنين! إنك عمدت إلى الحجاجِ على ظُلْمِهِ وجُوره وبُعْدِهِ عن الحقّ، فولَّيْتَهُ الحَرَمَيْن وفيهما مَنْ فيهما من أبناءِ المهاجرين والأنصارِ

---

(١) - كان والياً على الكوفة في خلافة عبد الملك بن مروان (البداية والنهاية ٨ / ٢٤٣، ٢٥١، ٢٥٤، ٢٦٧) وفي المحاسن والأضداد (ص ٣٨ - ٣٩) وفي محاضرة الأبرار ١ / ٣٣٧، ٢ / ١١: عيسى بن طلحه بن عبيد الله.

(٢) - في المستجاد: ابراهيم بن محمد بن طلحة بن عبد الله.

وأصحابِ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم (ص ١٤٦) يسومُهُمُ الخَسْفَ، ويطؤهم بالعُنْفِ، بطغام أهل الشام». فأطرق عبد الملك ساعة ثم قال: كذبتَ وما نصحت، وظنَّ الحجاجُ بك غيرَ ما أنت أهله. ثم قال: اخرج عني. وقال للحرسيّ: اشدد يدك عليه. فخرج مع الحرسيّ إلى موضع. ثم دعا عبدُ الملك بالحجّاج. قال ابراهيم: فحادثه طويلاً ولم أشكَّ أنهما في أمري، ثم استدعاني فلقيتُ الحجاجَ في الصحن خارجاً فقبّل بين عينيّ وقال: جزاك الله خيراً من صديق. ودخلتُ على عبد الملك فأجلسني مجلسي الأوّل ثم قال: يا ابن طلحة هل شاركك أحدٌ في نُصْحك؟ قلت: لا، والله ما أردت إلّا الله ورسولَه والمسلمين، وأنت قد علمت ذلك. قال: وقد عزلتُ الحجاجَ عن الحَرَمَيْن بقولك ووليتُه العراقَيْن وأعلمتُهُ أنك استقللت له الحجاز، وسألتُ ذلك له ليلزمه من ذِمـامك ما يؤدي به عني ثواب نصحك، فسِرْ معه فإنّك سوف تَحْمَدُ صحبته». انتهت.[1]

ولا خفاء بأن الثمرةَ التي جنى ابراهيمُ بن طلحة، هذا الناصح، من النجـاةِ من شرِّ الحجاج، ومخدومِهِ، المتوقَّع له منهما القريب الدلالة من الوقوع، إنما هي من إخلاصِ النُصح لله ولرسوله وللمسلمين وإمامِهم كما ذكر رحمه الله.

وقد وقع من ذلك غيرُ قليل للصادقين من العلماء، كما حكى الشافعيّ عن محمد بن عليّ قال: إنّي لحاضرٌ مجلسَ أميرِ المؤمنين أبي جعفر المنصور وفيه ابنُ أبي ذيب، وكان والي المدينة الحسن بن زيد[2] قال: فأتى الغفاريون

---

(١) ـ وردت هذه الحكاية في المستجاد من فعلات الأجواد للتنوخي ص ٤٤ ـ ٤٦، بدائع السلك ١ / ٣١٩، ثمرات الأوراق لابن حجة ص ١٧٢، الشهب اللامعة لابن رضوان ص ١٢٨ ـ ١٣٠، وفيات الأعيان ٢ / ٤١، المحاسن والأضداد ٣٨ ـ ٣٩، محاضرة الأبرار ١ / ٣٣٧.

(٢) ـ أبو محمد الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، كان نائب المنصور على المدينة المنورة لمدة خمس سنوات، ثم غضب المنصور عليه فعزله، وصادر أملاكه وسجنه=

شكوْا إلى أبي جعفر شيئاً من أمرِ الحسنِ بنِ زيد، فقال الحسن: سلْ عنهم ابنَ أبي ذيب، قال: فسأله، فقال: ما تقولُ فيهم يا ابنَ أبي ذيب؟ فقال: يا أميرَ المؤمنين! أشهدُ أنَّهم أهلُ تحكُّم في أعراض المسلمين، كثيرو الأذى لهم. قال أبو جعفر: قد سمعتم؟! فقال الغفاريون: يا أميرَ المؤمنين! سلْه عن الحسنِ بن زيد. فقال: يا ابن أبي ذيب! ما تقولُ في الحسنِ بن زيد؟ قال: أشهدُ أنه يَحْكُمُ بِغَيْرِ الحقّ. فقال: قد سمعتَ يا حسن ما قال ابنُ أبي ذيب؟! فقال: يا أميرَ المؤمنين سلْه عن نَفْسِك. فقال: ما تقولُ فيّ؟ قال: أوَ يعفيني أميرُ المؤمنين؟ فقال: والله لتخبرني. فقال: أشهد أنك أَخَذْتَ هذا المالَ من غيرِ حقّه، وجَعَلْتَهُ في غير أهله. فوضع يَدَهُ في قفا ابنِ أبي ذيب وجعل يقولُ له: أما والله لولا أنا لأَخَذَتْ أبناءُ فارس والروم والديلم والترك بهذا المكان منك. فقال ابنُ أبي ذيب: قد ولي أبو بكر وعمر فأخذا بالحقّ، وقسّما بالسويّة، وأخذا بأقفاءِ فارس والروم. قال: فخلّى أبو جعفر قفاه، وخلّى سبيله وقال: والله لولا أنّي أعلمُ أنّك صادقٌ لقتلتك. فقال له ابن أبي ذيب: والله يا أميرَ المؤمنين إني لأَنْصَحُ لك من ابنك المهديّ. انتهت[1]. ومثلُ ابنِ أبي ذيب - وأينَ له عندنا مِثْل؟! - يقومُ (ص ١٤٧) هذا المقام المحمود بين يديْ المنصورِ - على هيبةِ مُلْكِهِ وخشيةِ سَطْوته - صادعاً بالحقّ لا يخافُ في الله لومةَ لائم، ولا بطشةَ ظالم.

وقد يكونُ برهانُ القائم بالحقِّ واضحاً، ودليلُه في المناظرة لائحاً، مع توخّي الصدق، وتحرّي الحقّ، فينجح قصدُهُ، ويعلو جَدُّهُ كما حكى محمد ابن الواثق بالله، الملّقب في خلافته بالمهتدي بالله، قال: كان ابنُ أبي دؤاد[2]

= ببغداد، وظل في السجن إلى أن توفي المنصور فأطلقه المهدي وأعاد له كل ما كان أُخِذَ منه، وخرج معه إلى الحج سنة ١٦٨ هـ فتوفي في الطريق (البداية والنهاية ١٠ / ٢٧٣ - ٢٧٤).

(١) - انظر هذه الحكاية في العقد ١ / ٤٢ (مع قليل من الاختلاف).

(٢) - هو أبو عبد الله أحمد بن أبي دواد فرج بن جرير الإيادي القاضي، وكان معروفاً بالمروءة والتشدد، ولي القضاء أيام المعتصم والواثق والمتوكل والمهتدي، مولده بالبصرة سنة ١٦٠ =

إذا أراد أن يَقْتُلَ رَجلاً احْضَرَنا ذلك المجلس، فأتي بشيخٍ مخضوبٍ مقيّد، فقال أبي: ائذنوا لابن أبي دؤاد وأصحابه. قال: فأُدْخِلَ الشيخُ في مصلاه فقال: السلامُ عليك يا أميرَ المؤمنين، فقال: لا سلّم الله عليك. فقال: يا أمير المؤمنين بئس ما أدَّبكَ به مؤدِّبُك، قال الله تعالى: ﴿وإذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها﴾[1] والله ما حيَّيْتني بها ولا بأحْسَنَ منها، فقال ابنُ أبي دؤاد: الرجلُ متكلّم. فقال له: كلِّمْهُ. فقال: يا شيخُ ما تقولُ في القرآن؟ قال الشيخ: لم تُنْصِفْني، وإنما السؤالُ لي. فقال له: سلْ. فقال له الشيخ: ما تقولُ في القرآن؟ قال: مخلوق. قال: هذا شيءٌ عَلِمَهُ النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم وأبو بكر وعمر وعثمان وعليّ والخلفاء الراشدون أمْ شيءٌ لم يَعْلَمُوه؟ فقال: شيءٌ لم يَعْلَمُوه. فقال: سبحانَ الله! شيءٌ لم يَعْلَمْهُ النبيُّ ولا أبو بكر ولاعمر ولا عثمان ولا علي ولا الخلفاءُ الراشدون وعلمتَهُ أنت!؟ فخجِلَ وقال: أقِلْني والمسألةَ بحالِها. قال: ثم قال: ما تقولُ في القرآن؟ فقال: مخلوق. فقال: هذا شيءٌ علِمه النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي والخلفاء الراشدون أم لم يَعْلَمُوه؟ فقال: عَلِمُوه، ولم يَدْعُوا الناس إليه. قال: أفَوَسِعَهُمْ ألاّ يَدْعُوا الناسَ إليه؟! قال: وَسِعَهُمْ. قال: أفلا وَسِعَكَ ما وَسِعَهُمْ؟! قال: ثم قام أبي، فدخل مجلِسَ الخَلْوةِ، واستلقى على قفاه، ورفع إحدى رجليه على الأخرى، وهو يقول: هذا شيءٌ لم يَعْلَمْهُ النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي ولا الخلفاءُ الراشدون وعلِمْتَهُ أنْت! سبحانَ الله! شيءٌ عَلِمَهُ النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم وأبو بكر وعمر وعثمان وعليّ والخلفاء الراشدون ولم يَدْعوا إليه أفلا وَسِعَكَ ما وَسِعَهُمْ؟! ثم دعا عثمانَ الحاجب، فأمر أن يَنْزِعَ عنه القيود، ويُعْطِيَهُ أربعمائة دينار، ويأذَنَ له في الرجوع، وأسْقَطَ من عَيْنِه ابنَ أبي دؤاد، ولم يَمْتَحِنْ بعد ذلك

=هـ وتوفي بمرض الفالج سنة ٢٤٠ هـ (وفيات الأعيان ١ / ٨١، الوافي بالوفيات ٧ / ٢٨١، زهر الآداب للحصري ٢ / ٣٩٥).

(١) ـ الآية ٨٦ من سورة النساء.

أحداً. انتهت[1]. وقد نقلت هذه الحكايةَ بأبْسَطَ من هذا ـ وأظنُّها بِعَيْنِها ـ قال الحاكي لها.

وقال صالحُ بن عليٍّ الهاشميّ: حضرتُ المهتديَ بالله أميرَ المؤمنين ـ رحمه الله ـ وقد جَلسَ للنظرِ في أمورِ المتظلّمين، في دارِ العامّة، فنظرتُ إلى قِصَصِ الناس تُقرأ عليه من أولها إلى آخرها، فيأمر بالتوقيعِ فيها، (ص ١٤٨) ويختم، ويدفعُ إلى صاحِبِه بَيْنَ يَدَيْهِ، فسرَّني ذلك، واستحسنتُ ما رأيتُ منه، فجعلتُ أنظُرُ إليه، ففطِنَ ونَظَرَ إليّ، فغضَضْتُ عنه، حتى كان ذلك منّي ومنه مراراً ثلاثاً، إذا نَظَرَ غَضَضْتُ، وإذا اشتغل نظرت. فقال: يا صالح. قلت: لبّيكَ يا أميرَ المؤمنين. وقمتُ قائماً، فقال: في نَفْسِكَ منّا شيءٌ يجبُ أن تقوله. قلت: نعم يا سيدي.قال لي: عُدْ إلى موضعك. فعدتُ، وعاد إلى النظر، حتى إذا قام قال للحاجب: لا يبرح صالح. وانصرفَ الناسُ، وأذِنَ لي، وهمّتني نفسي، فدخلتُ فدعوتُ له، فقال لي: اجلس. فجلستُ. فقال: يا صالح، تقولُ لي ما دارَ في نفسِكَ، وأقولُ لكَ ما دار في نَفْسي، إنّه دار في نَفْسِكَ أنَّكَ استحسَنْتَ ما رأيتَ منا فقلت: «إنَّ خليفةَ خليفتِنا لو لم يكُنْ يقول: القرآنُ مخلوق». فورد على قلبي أمرٌ عظيم، ثم قلتُ يا نَفْسُ هل تموتين قبل أجلِكِ، هل تموتين إلاّ مرّة، هل يجوزُ الكذِبُ في جِدٍّ أوْ هَزْل!! فقلت: يا أمير المؤمنين: «ما دار في نفسي إلاّ ما قُلْتَ». فأطرق ملياً ثم قال: ويحك اسْمَعْ منّي ما أقولُ فوالله لتسمعَنَّ الحقّ. فسُرِّيَ عنّي.فقلت: يا سيّدي مَنْ أولى بقولِ الحقِّ منك وأنتَ خليفةُ ربِّ العالمين وابنُ عمِّ سيّدِ المُرْسَلين من الأوّلين والآخرين؟! فقال: ما زلتُ أقولُ: القرآنُ مخلوق، صَدْراً من أيّامِ الواثِقِ حتى أقْدَمَ ابنُ أبي دؤاد علينا شيخاً من أهلِ الشام، فدخل الشيخُ على الواثِقِ مقيّداً، وهو جميلُ الوَجْهِ، تامُّ القامةِ، حَسَنُ الشَّيْبةِ، فرأيتُ الواثِقَ قد اسْتَحْيا منه، ورَقَّ له، فما زال يُدْنيه ويُقَرِّبُه، حتى قَرُبَ منه، فسلَّم الشيخُ فأحْسَن، ودعا فبالغ وأوْجَزَ، فقال له: اجلِسْ فجلس. فقال: يا شيخُ! ناظِرْ

(1) ـ وردت هذه الحكاية في تاريخ الخلفاء للسيوطي ٣٤١ ـ ٣٤٢.

ابنَ أبي دُؤاد ـ على ما يناظرك عليه. فقال له: يا أميرَ المؤمنين! ابن أبي دؤاد يضيق ويضعف عن المناظرة. فغضب الواثقُ، وعاد مكانُ الرقّةِ غضباً عليه، وقال: أبو عبد الله يضيقُ ويَضْعُف عن مناظرتك أنت؟! فقال الشيخ: هوِّنْ عليك يا أميرَ المؤمنين، وآذَنْ في مناظرته. فقال الواثق: ما دعوتُكَ إلّا للمناظرة. فقال الشيخ: يا أميرَ المؤمنين! إن رأيتَ أن تَحْفَظَ عَليَّ وعليه ما نقول! قال: أفعل. فقال الشيخ: يا أحمد أخْبِرني عن مقالتك هذه، هي مقالةٌ واجبةٌ داخلة في عقد الدين، فلا يكونُ الدين كاملاً حتى يُقال فيه بما قلت؟ قال: نعم. قال الشيخ: يا أحمد، أخْبِرني عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، حين بعثه الله عزّ وجلّ إلى عبادِهِ، هل سَتَرَ شَيْئاً مما أمر الله عزّ وجلّ عباده في أمرِ دينهم؟ فقال: لا. قال: فدعا النبي صلّى الله عليه وسلّم الأمّة إلى مقالتك هذه؟ فسكتَ ابن أبي دُؤاد. فقال الشيخ: تكلّم. فسكتَ. فالتفت الشيخُ إلى الواثق (ص ١٤٩) فقال: يا أميرَ المؤمنين! واحدة. فقال الواثق: واحدة. فقال الشيخ: يا أحمد، أخبرني عن الله عزّ وجلّ، حين أنزل القرآن على رسوله صلّى الله عليه وسلّم فقال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً﴾[1] كان الله الصادق في إتمام دينه أو أنّك الصادق في نقصانه، حتى يُقالَ فيه مثل مقالتك هذه؟! فسكتَ ابن أبي دُؤاد. فقال الشيخ: أجِبْ يا أحمد. فلم يُجِبْ. فقال الشيخ: يا أميرَ المؤمنين! اثنتان. فقال الواثق: نعم، اثنتان. فقال الشيخ: يا أحمد! أخبِرْني عن مقالتك هذه، عِلمَها رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم أمْ جهلها؟ قال ابن أبي دُؤاد: علمها. قال: فدعا الناسَ إليها؟ فسكت. فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين! ثلاث. قال الواثق: ثلاث. قال الشيخ: يا أحمد، واتّسع لرسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم أنْ عَلِمَها وأمْسَكَ عنها فَلَمْ يُطالِب أُمّتهُ بها؟ قال: نعم. قال الشيخ: فاتّسَعَ لأبي بكر الصديق وعمر بن الخطّاب وعثمان وعليّ ـ رضي الله عنهم ـ؟ قال ابن أبي دُؤاد: نعم. فأعرَضَ الشيخُ عنه، وأقبل على الواثق فقال: يا أميرَ المؤمنين! قد قدّمتُ القولَ في أن أحمد يضيقُ ويضعُفُ عن المناظرة. يا أميرَ المؤمنين!

---

(١) ـ آية ٣ من سورة المائدة.

إن لم يَتَّسِعْ لك من الإمساكِ عن هذه المقالة ما اتَّسَعَ لرسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم ولأصحابه - رضي الله عنهم - فلا وسّع الله عزّ وجلّ على مَنْ لم يتَّسِعْ له ما اتَّسَعَ لرسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم. أو قال: لا وسّع الله عَلَيْكَ. فقال الواثق: نعم، إن لم يتَّسِعْ لنا من الإمساكِ عن هذه المقالة ما اتَّسَعَ لرسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم ولأبي بكر وعمر وعثمان وعليّ - رضي الله عنهم - فلا وسّع الله عَلَيْنا، اقطعوا قَيْدَ الشيخ. فلما قُطِعَ القَيْدُ ضَرَبَ الشيخُ بيده إلى القيد حتى يأخذه، فجاذبه الحدّادُ عليه. فقال الواثق: يا شيخ، لم جَاذَبْتَ الحدّاد؟ فقال: لأني نَوَيْتُ أن أتقدَّمَ إلى من اوصي إليه إذا أنا مِتُّ أن يَجْعَلَهُ بيني وبين كَفَني، حتى أُخاصِمَ هذا الظالِمَ عند الله عزّ وجلّ يومَ القيامة، وأقولَ يا ربِّ سَلْ هذا الظالم لِمَ شَدّني، وروّعَ أهلي وولدي وإخواني بلا حقٍّ أوْجَبَ ذلك عليّ. وبكى الشيخُ، وبكى الواثقُ. ثم سأله الواثقُ أن يجعله في حلٍّ وَسَعةٍ مما ناله. فقال له الشيخ: والله يا أميرَ المؤمنين لقد جعلتُك في حلٍّ وَسَعةٍ من أوّلِ يوم، إكراماً لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، إذْ كنتَ رجلاً من أهله. فقال الواثق: لي إليك حاجةٌ. فقال الشيخ: إن كانت ممكنةً فعلتُ. فقال الواثق: تقيم قِبَلَنا ينتفع بك فِتْيانُنا. فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنّ ردَّك لي إلى الموضِعِ الذي أخرجني منه هذا الظالم أنْفَعُ لك من مُقامي لديك، وأخبرك بما في ذلك: أصيرُ إلى أهْلي وولدي وأكُفُّ (ص ١٥٠) دعاءهم عليْكَ فقد خَلَّفْتُهُمْ على ذلك. فقال له الواثقُ: فتَقَبَّلْ منّا صِلةً تستعينُ بها على دهرك؟ فقال: يا أميرَ المؤمنين، لا تحلّ لي، أنـا عنها غنيّ، وذو مِرّة سويّ. فقال: سلْ حاجَتَكَ. فقال: أوَتقضيها يا أميرَ المؤمنين؟ قال: نعم. قال: تأذن لي أن تُخْلَى لي السبيل الساعةَ إلى الثَّغْر. قال: قد أذِنْتُ لك. فسلّم عليه وخرج. قال صالح: قال المهتدي بالله: فرجعتُ عن هذه المقالة، وأظنُّ الواثقَ كان قد رَجَعَ عنها منذ الوقت[1]. والشيخ الذي ناظره بحضرةِ الواثق أبو عبد الرحمن ابن عبدالله بن محمد[2].

---

(١) - وردت هذه الحكاية بنصها في كتاب التوابين ص ١٩٤ - ١٩٩، وبالمعنى في مروج الذهب للمسعودي ٤ / ١٩٠ - ١٩٢.

(٢) - المصدر نفسه.

واعلم أنّ مثل هذا اللطف الخفيّ والصنيعَ الجميل، لا يكون ـ والله أعلمُ ـ إلّا مع صِدْقِ التوجُّهِ لله تعالى، واعتمادِ الرضا بما يَجرى به حُكْمُه، وينفذ به قضاؤه.

قال حاتمُ الأصمّ[١]: «لَقِينـا التُرْكَ، وكانت بيننا جولةٌ، فرماني تركيٌّ بوهق[٢] فأقلبني عن فرسي، ونَزَلَ عن دابّته، فقعد على صَدْري، وأخذ لحيتي هذه الوافرة، وأخرجَ من خُفِّه* سكيناً ليذبحني، فوحقِّ سيّدي ما كان قلبي عنده ولا عند سكّينه، وإنما كان قلبي عند سيّدي، أنظر ما ينزل به القضاءُ منه، فقلت: سيّدي قضيتَ عليّ أن يذبَحني هذا التركيُّ، فعلى الرأسِ والعين، أنا لك، ومِلكُك. وأنا أخاطِبُ سيّدي، وهو على صَدْري قاعد، آخِذٌ بلحيتي ليذبحني، إذ رماه بعضُ المسلمين بِسَهْمٍ فما أخطأ حَلْقَه، فسقط عنّي، فقمتُ أنا إليه، فأخذتُ السكين من يده، فذبحتُه بها. فما هو إلّا أن تكونوا عند السيّد حتى تروْا من عجائبِ لُطْفِهِ ما لا ترونه من الآباء والأمّهات». انتهت[٣].

ومن كان مِثْلَ حاتم الأصمّ في تحقُّقه مقامَ الرضا، واستيلائِه على درجاته العُلى فيحقٌّ أن يتّفق له مثـلُ هذه القضيّة، واعظمُ منها، فإنها من جنس الكرامات، ومَنْ لنا نحن بمثل ذلك؟! لضَعْفِ نفوسِنا وعمى قلوبِنا، فنسألُ الله أن يعاملنا بلطفه، وأن لا يكلنا إلى أحدٍ من خَلْقِهِ.

---

(١) ـ هو أبو عبد الرحمن حاتم بن عنوان الأصم الزاهد من أهل بلخ، كان مشهوراً بالورع والتقشف، قدم بغداد أيام أحمد بن حنبل واجتمع معه (انظر ترجمته في: تاريخ بغداد ٨ / ٢٤١، حلية الأولياء ٨ / ٧٣، وفيات الأعيان ٢ / ٢٦، الوافي بالوفيات ١١ / ٢٣٣).

(٢) ـ في الأصل: يوهن، والصواب من تاريخ بغداد ووفيات الأعيان، والوَهَقُ: الحبل يُرْمى في أنشوطة فتؤخذ به الدابّة والإنسان (القاموس المحيط).

* ـ في الأصل: حقه، والصواب من تاريخ بغداد ووفيات الأعيان.

(٣) ـ وردت هذه الحكاية في: تاريخ بغداد ٨ / ٢٤٤، وفيات الأعيان ٢ / ٢٨، طبقات الأولياء ١٨٠.

ومنزلةُ حاتمٍ في صدقِ اليقين معلومة، يُحْكى أنّ رجلاً قال له: بلغني أنك تجوزُ المفاوِزَ من غيرِ زاد. فقال حاتم: بل أجوزُها بالزاد، وإنما زادي فيها أربعةُ أشياء. قال: ما هي؟ قال: أرى الدنيا كلّها مِلْكاً لله، وأرى قضاءَ الله نافذاً في كلّ أرض، وأرى الخَلْقَ كلَّهم عبيداً لله ـ عزّ وجلّ ـ وعيالَه، وأرى الأسبابَ والأرْزاقَ كلَّها بيد الله ـ عزّ وجلّ ـ فقال له الرجل: نِعْم الزادُ زادُك يا حاتم، أنت تجوزُ مفاوِزَ الآخرة فكيف مفاوز الدنيا![1]

وهذا وإنْ لم يكُنْ ممّا نحن بصدده، فإنه يُثْمِرُ قوةً في النفس، وطمأنينةً في القلب، وتُعْلَمُ به رتبةُ مَنْ أراد الله أن يخفِّفَ عليه ثقيلَ الابتلاء، ويَهَبَ له مِنْحةَ الرضا (ص ١٥١) بالقضاء.

ولما كانت محنةُ غُلام الخليل[2]، ومطالبة الصوفيّة، ببغداد، ونسبتهم إلى الزندقة، وأمر الخليفة بالقبض عليهم، وكان فيمن قُبِضَ عليه شيخهُم إذ ذاك أبو الحسن النوري[3]، فلما دخلوا على الخليفةِ[4] أمر بضَرْبِ أعناقهم. فتقدَم النوري مبتدِراً إلى السيّافِ ليضرب عُنُقَه، فقيل له: ما دعاك إلى هذا دون أصحابك؟ قال: آثَرْتُ حياتهم على حياتي هذه اللحظة، فَرُفِعَ الأمرُ إلى

---

(١) ـ تاريخ بغداد ٨ / ٢٤٣، وفيات الأعيان ٢ / ٢٧.

(٢) ـ اسمه عبد الله بن أحمد بن محمد بن غلّاب بن خالد بن فراس الباهلي يعرف بغلام الخليل، من المتصوّفة، وله كتاب الدعاء وكتاب المواعظ وغيرهما ت ٢٧٥ هـ (الفهرست ٢٣٧، البداية والنهاية ١١ / ٥٨).

(٣) ـ هو أحمد بن محمد النوري أبو الحسين (أبو الحسن) شيخ الصوفية في وقته، بغدادي المولد والمنشأ وأصله من خراسان، كان الجنيد يعظمه، وله كرامات كثيرة، توفي سنة ٢٩٥ هـ. (انظر: تاريخ بغداد ٥ / ١٣٠ ـ ١٣٦، حلية الأولياء ١٠ / ٢٤٩).

(٤) ـ لعل الخليفة المقصود هو المعتضد بالله العباسي المولود ٢٤٢ هـ والذي تولى الخلافة بين سنتي ٢٧٩ ـ ٢٨٩ هـ وكان يعرف بالسفاح الثاني بسبب بطشه (مروج الذهب ٤ / ٢٣١، تاريخ الخلفاء ٣٦٨).

الخليفة فردّ أمْرَهُم إلى قاضي القضاة اسماعيل[1]. فتقدم إليه النوري وسأله عن مسائِلَ من العبادات، فأجابه، ثم قال له: وبعد هذا، لله عباد يسمعون بالله، وينطِقُون بالله، ويصْدُرونَ بالله، ويردُون بالله، ويأكُلُونَ بالله، ويَلْبَسون بالله. فلما سمع اسداعيل مقالَتَهُ بكى طويلاً، ثم دخل على الخليفةِ فقال: إنْ كان هؤلاءِ القومُ زنادقةً فليس في الأرضِ مُوَحِّد. فأمر بإطلاقهم. انتهت[2].

وهـذه الحكايةُ مما أورد القاضي أبو الفضل عياض[3]ـ رحمه الله ـ الإشكالَ عليها وعلى نقيضتها وهي (من سأل أن يقدّم)[4] قِبلهنّ يعزّ عليه من ولد أو غيره حيث يحتسِبُه عند الله وتكون مصيبته تكِلُه في ميزانه فاستشكل ذلك وهو ظاهر، فإنه إذا دُعِي للموت يترك من عزم عليه مثله فإنه لايدري ما يحدث بعده، ولعلَّ الله يتداركه بلطفٍ منه، وما أورده ظاهر.

وكذلك ما اعترض به الصورة الأخرى وهي قضيةُ النوري بيّن، إلّا أن ذلك التقدمَ من مثل النوري ـ رضي الله عنه ـ مما يمكن أن يكون سبباً مستقلاً فيما صَرَفَ الله عنه وعن أصحابه من البلاء، ولعلّه أثَرُ حال لا نعلم نحن كنهها،

---

(١) ـ هو القاضي أبو اسحق اسماعيل بن اسحق بن اسماعيل بن حماد بن زيد بن درهم الأزدي البغدادي المالكي، ولي القضاء على بغداد كلها منذ خلافة المتوكل وحتى وفاته سنة ٢٨٢ هـ في خلافة المعتضد بالله. (ترجمته في: تاريخ بغداد ٦ / ٢٥٨، الوافي بالوفيات ٩ / ٩١).

(٢) ـ ورد هذا النص في ترتيب المدارك للقاضي عياض ٣ / ١٧٦ ـ ١٧٧، التذكرة الحمدونية ١ / ٢١٦، حلية الأولياء ١٠ / ٢٥٠، تاريخ بغداد ٥ / ١٣٤، بدائع السلك ١ / ٤٢٣.

(٣) ـ أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي، ولد في سبتة سنة ٤٧٦ هـ، فقيه مالكي شهير إمام وقته في الحديث وغيره، رحل إلى الأندلس، وهو صاحب ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، توفي سنة ٥٤٤ هـ، خصه أبو العباس المقّري بكتاب أزهار الرياض، وله فهرست شيوخ اسمه الغنية ألفه ابنه له (ط. بيروت ١٩٨٢م).

(٤) ـ كذا في الأصل.

وذلك ممّا يتعالى عن مِقْدارِ رتبتنا، وإلاّ فما أورد عياض من الإشكال ظاهرٌ لأنه كالمُعين على نَفْسِهِ، والله أعلم.

ومما يشبه هذه القضيّةَ من كوْنِ التمحيصِ فيها متوقَّعاً لطائفةٍ من الناس عظيمة، ما صرف الله من الابتلاء المتخوَّف على النفوسِ والأموالِ والدين والدنيا فيما حكاه الشيخ ذو الوزارتين أبو عبد الله بن الخطيب[1] ـ رحمه الله ـ من حِصارِ طاغية قَشْتالة المسمّى بالفُنْش[2] جبلَ الفتح المعقِلَ العزيزَ على الإسلام في مدةِ السلطان أبي الحجاج بنِ السلطانِ أبي الوليد بن نصر[3] ـ رحمه الله ـ بعد الوقيعةِ العظيمةِ بظاهرِ طَريف[4]، فإنه حَكَى عن تلكَ الطاغية أنه كاد يستولي على الجزيرةِ لولا أنّ الله تداركها بجميلِ صُنْعه وخَفِيّ لطفه، فهلك بظاهـرِهِ في محلّته حَتْفَ أنْفِه ليلةَ عاشوراء من عامِ أحدٍ وخمسين وسبعمائة[5]. قال الشيخُ ابن الخطيب: «كنتُ منفرداً بالسلطانِ ـ رحمه الله ـ أؤنسُهُ بعجائبِ الفَرَجِ بَعْدَ الشِدّة، وأُقوّي بصيرتَهُ في التماسِ (ص ١٥٢)

---

(١) ـ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن أحمد بن الخطيب السلماني لسان الدين، وزير بني الأحمـر المعـروف، الذي قتل في فاس سنة ٧٧٦ هـ صاحب العدد الكبير من المؤلفات، خصّه أبو العباس المقّري بكتاب «نفح الطيب»، وترجمته في مصادر عدّة منها: نثير فرائد الجمان ص ٢٤٢، وترجم لنفسه في آخر كتابه الإحاطة ٤ / ٤٣٨.

(٢) ـ الفونسو العاشر ملك قشتالة المعروف بالحكيم (٧١٣ ـ ٧٥١ هـ) لاهتمامه بالعلم، وله مؤلفات (العبر لابن خلدون ٧ / ٥١٩، الإحاطة ٤ / ٣٣٠).

(٣) ـ أبو الحجاج يوسف بن اسماعيل بن فرج بن اسماعيل بن يوسف بن نصر، حكم غرناطة بين سنتي ٧٣٣ هـ ـ ٧٥٥ هـ، اغتيلَ أثناء الصلاة. (الاحاطة ٤ / ٣١٨، اللمحة البدرية ١٠٢).

(٤) ـ جزيرة طريف في أقصى جنوب الأندلس، وأول أرض في الأندلس وطئها المسلمون بقيادة طريف بن مالك (الروض المعطار ٣٩٢).

(٥) ـ انـظر خبـر هذه الوقعة في: الإحاطة ٤ / ٣٣١، اللمحة البدرية ١٠٨، العبر لابن خلدون ٧ / ٦٧٩، نفح الطيب ٤ / ٤٤٢).

لُطفِ الله، وهو يرى الفَرَجَ بعيداً ويَتَوقَّعُ من الأمْرِ عظيماً، وورد الخبرُ بمهلكه واستحالت الحالُ إلى ضدِّها من السرورِ والاستبشار». انتهت[١].

وأنا أقولُ إنّ هذا اللطفَ الواقعَ اليومَ في هلاكِ هؤلاء النصارى بظاهر مَرْبلّة[٢] في عددهم المناهِزِ لأربعمائة فارسٍ من صناديد الكَفَرة ولمائتي راجلٍ من أنجادِهم، وقد كانوا برسمِ تبييتِ بعضِ تلك القُرى العديمةِ النظير[٣] الوافرةِ القطينِ العاطلةِ من وِشاحِ السورِ، فأثار الله هنا من عزيمةِ القائدين الوزيرين أبي اسحق ابـراهيم بن عبد البَرّ وأبي القاسم بن السرّاج - أمتَع الله بهما الإسلامَ - في يومِ الخميسِ الثامن لشهرِ الله المحرّم فاتح عام اثنين وخمسين وثمانمائة، إثارةً لم يلْويا فيها على مُتَعَذّر ووفرا دواعيهما على حثْ السيْرِ وكرّ الخيل كأنهما يُشيران إلى ميعادٍ موقوتٍ أو ميقاتٍ معلوم. فالتقى الجيشُ المظفَّرُ بحمدِ الله جيشَ الكَفَرةِ المفلولَ بما مَنَحَ الله أولياءه من النصر بحُكْمِ الاتّفاقِ على الحدِّ الذي لو كان قد رتّب له بعد العلم به كميناً لما زاد على ذلك شيئاً. وقد كان خروجُهم لمصارِعهم في يومِ ذلك الخميس بعيْنِهِ من بلدِهِم شِرّيش[٤] ومِنْ غيرِهِ على مثلِ ما كان عليه أولياؤنا من الجَدِّ في السير والمسابقةِ إلى الظنّة، ففي يوم الأحد الحادي عشر من الشهر المؤرَّخ به حمّ اللقاءُ بموضعٍ يقال له الخزائن[٥] فيما بين مربلّة واسطبّونة[٦]، فحصد الله شَوْكَتَهُمْ وقصم

(١) - الإحاطة في أخبار غرناطة ٤ / ٣٣١، بدائع السلك ٢ / ٥٨٨.

(٢) - بالإسبانية (Marbella) جنوب غرب مالقة، على الساحل الجنوبي للأندلس (مشاهدات لسان الدين ص ٧٥، الروض المعطار ٥٣٤).

(٣) - في الأصل: النضير.

(٤) - بالاسبانية Jerez شمال شرق قادس، على مقربة من البحر. (الروض المعطار ٣٤٠).

(٥) - لم أجـد لها ترجمة في المصادر التي بين يدي، ولعلها تكون (Alozaina) الواقعة إلى الشمال من ماربلة.

(٦) - بالإسبانية Estepona وتسميها المصادر العربية أيضاً اشتبونة وتقع شمال جبل طارق في منتصف الطريق بينه وبين ماربلة (مشاهدات لسان الدين ص ٧٥).

طواغيتهم وأوْهَنَ كَيْدَهُمْ ونفّل المسلمين أسلابَهُمْ ونجّى أهْلَ تلك القرية من عاديتهم إنّ ذلك لنعمةٌ لا يقدُّرُ لها قدْر ولا يبلغ لها شكر، أوزعنا الله شكر نعمته.

وروي عن عبد الله بن عمر قال: سمعتُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: «انطلق ثلاثةُ نفَرٍ ممّن كان قبْلَكُمْ حتى آواهُم المبيتُ إلى غارٍ فدخلوه، فانحدَرتْ صخرةٌ من الجَبَلِ فسدّتْ عليهم الغارَ فقالوا إنّه لا يُنْجيكم مِنْ هذه الصَّخْرَةِ إلاّ أنْ تَدْعوا الله بصالحِ أعمالِكُمْ فقال رجلٌ منهم: اللهمّ إنّه كان لي أبوان شيخانِ كبيرانِ وكنتُ لا أغبق قبلهما أهلا ولا ولدا فإني في طَلَبِ النَحْرِ فلم أرغ عليهما حتى ناما فحملت لهما غَبُوقَهما فوجدتُهما نائمين فكرهت أن أغبق قبلهما أهلاً وولدا فلبثت والقدحُ في يدي أنتظِرُ استيقاظَهُما حتى طلع الفجرُ والصِبْيَةُ يتضاغون عند الباب، فاستيقظا فشربا غَبُوقَهما، اللهمّ إن كنتُ فعلتُه ابتغاءَ وجهك ففرّجْ عنّا ما نحنُ فيه من هذه الصخرة، فانفرجَتْ شيئاً لا يقدِرون على الخروج منه. وقال [الثاني][1]: اللهُمّ إنه كانت لي ابنةُ عمٍّ وكانَتْ أحَبَّ الناسِ إليّ فراودْتُها عن نَفْسِها (ص ١٥٣) فامتنعَتْ حتى انتجت[2] في سنةٍ من السنين، فجاءتني فأعطيتُها مائةً وعشرين ديناراً على أن تخلي بيني وبينَ نَفْسِها ففعلَتْ، حتى إذا قدِرْتُ عليها قَالَتْ لا يحلُّ لك تفُضَّ الخاتم إلاّ بحقِّهِ فتحرّجْتُ من الوُقوعِ عليها فانصرفْتُ عنها وهي أحَبُّ الناسِ إليّ وتركتُ الذَهَبَ الذي أعطيتُها. اللهمَّ إن كنتُ فعلتُ هذا ابتغاءَ وَجْهِكَ فافرجْ عنّا ما نحنُ فيه. فانفرجت الصخرةُ عنهم، غَيْرَ أنّهم لا يستطيعونَ الخروجَ منها. وقال الثالث: اللهُمَّ إنّي استأجَرْتُ أُجَراءَ وأعطيْتُهُمْ أُجْرَتَهُمْ غَيْرَ رَجُلٍ واحدٍ تَرَكَ الذي له وَذَهَبَ فثمرت أُجْرَتَه حتى كَثُرَتْ مِنْهُ الأموالُ فجاءني بَعْدَ حين فقال: يا عبدَ الله هات أُجرتي. فقلت له: كل ما ترى من

---

(١) ـ سقطت من الأصل.

(٢) ـ في صحيح مسلم: فامتنعت مني حتى ألمّت بها سنة من السنين.. الخ.

أجرَكَ من الإِبلِ والبقرِ والغنمِ والرقيق. قال: يا عبدَ الله لا تستهزىء بي. فقلتُ له: إني لا أستهزىء بك. فأخذه كلَّه فاستاقَهُ فلم يَتْرُكْ مِنْهُ شيئاً، اللهُمَّ إن كنتُ فَعَلْتُ هذا ابتغاءَ وَجْهِكَ فافرِج عنّا ما نحنُ فيه. فانفرَجتِ الصخرةُ فخرجوا يمشون». انتهت[1]. وفيها ما يعتبر فيه من لُطْفِ الله وسرعةِ الإجابة، وفيها. . . . . .[2] بالعمل الصالحِ الخالصِ لوجهِ الله.

ومن أقربِ الابتلاءِ توقُّعاً ما يتَفِقُ بين خُدّام المُلوك وبَيْنَ من يلي الأمْرَ مِنْ بَعْدِهِمْ لأسبابٍ يقتضيها حِفْظُ الخدمة ويُوجِبُهُ اختلافُ غَرَضَيْ السابقِ واللاحقِ فيَقَعُ من ذلك تمحيصاتٌ عظيمةٌ أو تَقْرُبُ من الوقوع، كما حكى محمدُ بنُ جرير الطبريّ أن عبدَ الله بنَ مالك[3] قال: كنتُ أتولّى الشُّرْطَةَ للمهديّ وكان يبعثُني إلى الندماءِ والمغنين الملازمينَ لموسى الهادي ويأمُرُني بحَبْسِهِمْ وضَرْبِهِمْ فيبعثُ إليّ الهادي فيسألُني تركي إيّاهم والرفقَ بهم، فلا ألتفتُ إلى ذلك وأُمْضي ما أمَرَني المهديُّ فيهم. فلما ولي الهادي الخلافةَ أيْقَنْتُ بالتَلَف، فبعثَ إليّ فتكفَّنْتُ وتَحَنَّطْتُ وأوْصَيْتُ وَصِيّتي ودَخَلْتُ عليه وإذا هو على كرسيٍّ والسيْفُ والنِطْعُ بين يَدَيْه، فسلَّمتُ، فقال: لا سلّم الله عليك، تَذْكُرُ ما كُنْت أبعثُ لكَ فيه من الرفْقِ بندمائي فلا تَلْتَفِتُ إليّ وتُمضي فيهم ما أمَرَ به أميرُ المؤمنين من ضَرْبِهِمْ وحَبْسِهِمْ؟ فقلتُ: نَعَمْ يا أميرَ المؤمنين، أفتأذنُ لي في الحجّة؟ قال: نعم. قلت: نُشْهِدُكَ الله يا أميرَ المؤمنين لو ولّيتَني ما ولّاني أبوك وأمَرْتَني بأمْرٍ فبعث إليّ بعضُ بَنيكَ يُخالِفُ به أمْرَكَ أيَسُرُّكَ أن اتبعتُ أمْرَهُ وعصيتُ أمْرَك؟ قال: لا. قلتُ: وكذلك أنا لك وكذلك كنتُ لأبيك.

(١) ـ ورد هذا الأثر في صحيح مسلم ٨ / ٨٩ ـ ٩١ بثلاث روايات.

(٢) ـ بياض في الأصل مقدار كلمة.

(٣) ـ أبو العباس عبد الله بن مالك الخزاعي، من كبار القواد في الدولة العباسية، ولي الشرطة للمهدي والهادي والرشيد، ثم ولاه الرشيد طبرستان والريّ وقومس وهمدان وغيرها، وقام بحملات عسكرية، واتخذه المأمون رفيقاً وكان بينه وبين البرامكة تباغض. (الفرج بعد الشدة ١ / ٣٦٩، ٢ / ٣٥٣).

فقال: ادنُ. فدنوتُ، فقبّلتُ يَدَهُ ورجْلَهُ. فأمر بخِلَعٍ فصُبّت عليّ وقال: قد ولّيتُكَ ما كُنْتَ تتولّاه فامضِ راشداً. فخرجتُ وسِرْتُ إلى منزلي مفكراً في أمري وأمره. قلت: هو (ص ١٥٤) حَدَثٌ والقومُ الذين أسأتُ إليهم ندماؤه ووزراؤه وكتّابه، وكأنّي بهم حين يغلب عليه الشرابُ قد أزالوا رأيَهُ فيّ وحملوه في أمْري على ما كنتُ أتخوَّفُهُ. قال: فإني لجالسٌ وبيْنَ يديَّ بُنَيَّةٌ لي ورقاقٌ أغمِسُ منه في كامخ وأُطْعِمُ منه الصَّبيَّةَ حتى تيقّنتُ أن الدنيا قد زُلْزِلَتْ لِوَقْعِ الحوافِرِ وكثرةِ الضَوْضاء فقلتُ: كانَ والله ما ظننتُ ووافاني ما تخوّفْتُ به. فإذا البابُ قد فُتحَ وإذا الخَدَمُ قد دخلوا بَيْنَ يَدَيْ أمير المؤمنين الهادي وهو على حمار. فلما رأيتُهُ وَثَبْتُ عن مجلسي مُبادِراً، فقبّلْتُ يَدَهُ ورجْلَهُ وحافِرَ حِمارِهِ. فقال لي: يا عبدَ الله إني فكَّرتُ في أمرك فقلت: يَسْبِقُ إلى قلبـك أنّي إذا شَرِبْتُ وحَوْلي أعداؤك أزالوا ما حَسُنَ من رأيي فيك، وأَقْلَقَكَ وأَوْحَشَكَ، فصرتُ إلى منزلك لأؤنسَكَ وأُعْلِمَكَ أن السخيمَةَ قد زالت عن قلبي لك، فهات فأَطْعِمْني ممّا كُنْتَ تأكُلُ لِتَعْلَمَ اني قد تَحَرَّمْتُ بطعامك، ووافيتُ منزِلَك، فتزولَ وحشتُك. فأدْنَيْتُ ذلك الرقاق والكامخ، فأكل منه ثم قال: هاتِ الزَّلّة[1] التي أزْلَلْتَها لعبد الله مِنْ مجلسي. فأُدْخِلَتْ إلي أربعُمائة بغل موقّرة مالاً وأثاثاً فقال: هذه زلّتُك فاستعِنْ بها على أمْرِك واحفظ لي هذه البغال عندك لعلّي احتاجُ إليها إلى بَعْضِ أسفاري. ثم قال: اظلّك الله بخير. وانصرف. انتهت.

فأنت ترى هذا الرجُلَ كيف اجتنى ثمرةَ الصِدْق في خِدْمةِ سلطانه وامتثالِ أمرِهِ ورعايةِ مَصْلَحَةِ دولته، وهو نحو ما تقدمَتْ حكايَتُهُ فيما وقع لي مع السلطان أبي الحجاج.

وليس توقُّعُ المخوف في خدمةِ الملوكِ بمقصورٍ على من يلي الأمرَ مِنْ بعدهم، فقد يجبُ التحفُّظُ من ممالأةِ المَلِكِ على من يكونُ مِنْ قَلْبِهِ بمكانٍ مكين، ومِنَ اختصاصِهِ بمثابةٍ أثيرةٍ من حظيَّةٍ لَدَيْهِ أو عزيزٍ مِنْ الصفوةِ عليه، فيُماشي غرضه الحادث له من عتبه السريعِ الذهاب عنه، ويتابعُ قصده في

(١) ـ الزلّة: الصنيعة.

مذمّته المرتكبةِ له ضرورة، المستثقلةِ من سواه، فيهوي من مَوْجَدَتِهِ[1] في مهواةٍ صعبة، كالواقع كان من ذلك للحسين بن الضحّاك[2] فيما حَكَى عنهُ بعضُ إخوانه فإنّه قال له: يا أبا عليّ قد تأخَّرَتْ أرزاقُك وانْقَطَعَتْ مواردُك وأنت على كثرةِ إنفاقِكَ فمِن أينَ ذلك؟ قال: من بقايا ذخائرِ الأمين وهِباتِ جاريتِه فلانة، فإنّها أغْنَتْني غَناءَ الأبَدِ لأمْرٍ جرى. قال: حدِّثْني به. قال: نعم، دعاني الأمينُ يوماً فقال لي: يا حسينُ إنَّ جليسَ الرَّجُلِ عَشِيرُهُ وثِقَتُهُ وموضِعُ سِرِّهِ وأنيسُهُ، وإنَّ جاريتي فلانة أحسنُ الناسِ وَجْهاً وغِناءً، وهي منّي بمحلِّ نَفَسي وقد كدَّر عليّ صفوَها (ص ١٥٥) عُجْبُها بنفسِها وتسحُّبُها ذيولَ التيه عليَّ لما تَعْلَمُهُ منّي، وأنا أُحْضِرُها الساعةَ وأُحْضِرُ صاحبةً لها لَيْسَتْ مِثْلَها في شيء، فإذا غنّتْ لكَ وأَوْمَأَتْ إليكَ فلا تُصغِ لها وإن كان أمرُها أبْيَنَ من أن يَخْفَى عليكَ، ولا تَسْتَحْسِنِ الغناءَ ولا تَشْرَبْ ولا تَطْرَبْ، وإذا غَنّتِ الأُخرى فاشْرَبْ واطْرَبْ وشُقَّ ثيابَكَ، وعَليَّ مكان كلِّ ثَوْبٍ مائة ثوب. فقلتُ: السَّمْعُ والطّاعة. فجلسَ في حجرةِ الخَلْوَةِ وأحْضَرني وخَلَعَ عليَّ وَسَقاني وغنّتِ المُحْسِنَةُ وقد أخذَ الشرابُ منّي فما تمالكْتُ أنِ اسْتَحْسَنْتُ وشَرِبْتُ وطَرِبْتُ حتى فَعَلْتُ هذا مرّات، فأومأَ إليَّ وقَطَّبَ لي وَجْهَهُ. وغَنَّتِ الأُخرى فما قَدِرْتُ أن أتَكَلَّفَ قَوْلاً ولا فِعْلاً. ثم غَنَّتِ المُحْسِنَةُ فأتَتْ بما لم أسْمَعْ قطُّ أحْسَنَ منه فما تمالَكْتُ نَفْسِي أن شرِبْتُ وطَرِبْتُ حتى فَعَلْتُ هذا مرّاتٍ، وكلّما زادَ شُرْبي ذَهَبَ عَقْلي وزِدْتُ مما يَكْرَهُ، فَشَتَمَني وأمَرَ بجرِّ رِجْلي فأُخرِجْتُ، وأمَرَ أنْ أُحجَبَ عنه. وجاءَ أصحابُنا يتوجَّعُون لي ويسألونَ عن قِصّتي، فأقول: غَلَبَني النبيذُ حتى أسأتُ أدبيْ فَقَوَّمَني أميرُ المؤمنين. ومضى لذلك شهرٌ ثم أمَرَ بإحضاري، فَحَضَرْتُ وأنا خائف.

---

(١) ـ في الأصل: مرحدته.

(٢) ـ هو الحسين بن الضحاك الباهلي البصري المعروف بالخليع من شعراء الدولة العباسية، أصله من خراسان وهو شاعر ماجن مطبوع، كان نديماً للخلفاء العباسيين من هارون الرشيد حتى المستعين توفي سنة ٢٥٠ هـ. (طبقات ابن المعتز ٢٦٨، الأغاني ٧ / ١٤٦، تاريخ بغداد ٨ / ٥٤، معجم الأدباء ١٠ / ٥، وفيات الأعيان ٢ / ١٦٢، الوافي بالوفيات ١٢ / ٣٧٩).

فلما دَخَلْتُ عليه أعْطاني يَدَهُ فقبَّلْتُها، وضحِكَ إليّ وهو في تِلْك الحُجْرةِ بعَيْنِها، ولم يَحْضُرْ غيري، وغَنَّتْ تلكَ المُحْسِنَةُ التي من أجلها نالني ما نالني فسَكَتُّ فقال لي: قُلْ ما شِئْتَ يا حُسَين ولا تَخَفْ فقد خارَ اللهُ لك بخِلافي، وجرى لكَ القَدَرُ بما تُحِبّ، إنّ هذه الجاريةَ عادَتْ إلى الحالِ التي أُريدُ منها ورضيتُ كلَّ أفعالِها فأذْكَرَتْني بِكَ وسَألَتْني الرضا عَنْكَ وَصِلَتَكَ واختِصَاصَكَ، وقد وَصَلْتُكَ بعشرةِ آلاف دينار وَوَصَلَتْكَ هي بمِثْلِ نِصْفِها، ووالله لو كُنْتَ فَعَلْتَ ما قُلْتُ لَكَ وعادَتْ إلى مثلِ هذا الحال ثم تَحْقِدُ ذلك عليْكَ لضربتُ عُنُقَك. فدعوتُ له وَشَكَرْتُه وحَمِدْتُ الله على توفيقي وانصرَفْتُ، وقد حُمِلَ المالُ معي، فما كان يمضي اسبوعٌ إلاّ وألطافُها تصِلُ إليَّ من الجَوْهَرِ والثيابِ والطِّيب والمالِ، وكلّ شيءٍ أنفقْتُهُ إلى وقتي هذا، فمِنْ فَضْلِ نعمتها عليّ. فقال القوم: ما سَمِعْنا أحْسَنَ من حَديثِكَ هذا ولا أعْجَبَ من توفيقِ الله. انتهت[1].

ومثلُ هذا الواقع لهذا الرجُلِ هو من إرشادِ الله له لما كان له اوفق، وبه أرفق، وإلاّ فالقضيّةُ التي طَلَبَ منه سلطانُه الموافقةَ فيها والمساعدةَ عليها هي من اللهوِ واللعِبِ اللذيْن هما محصولُ هذه الدنيا بل هي من الغاية في هذا المعنى، ولا خفـاءَ بحكم الله في ذلك من حيثُ اشتدادُ الكراهةِ والترقّي للتحريم، ولكنَّ إيثارَ الصِدْقِ لا غنى له من ثمرة، وتوخّي (ص ١٥٦) الحقّ لا بُدَّ له من نتيجة، واجتنابُ الهوى محمودٌ على كلّ حال، وتركُ الهوادةِ مَرْضِيٌّ على كلّ تقدير، ولعلّ ما مُنِحَ هذا الرجلُ من السلامةِ من مغبّةِ مَوْجَدَةِ هذا الملك بارتكابِ اختياره عاجلاً، المستلزم لعدم رضاه آجلاً كان بسببِ ذلك - والله أعلم. وقد لا يخلو هذا الرجلُ في مخالَفَتِهِ لما أراد مِنْهُ سلطانُهُ من نَظَرٍ سديدٍ اعْتَمَدَهُ ورأيٍ راجحٍ ارتكبه، فلم تَكُنْ رتبةُ هذه الخطيئة لدى مولاها بخافية، ولا مَوْجِدَتُه عليها بدائمة، ولا محبّتُهُ لها مجهولة، ولا عاقبةُ التعرّضِ لمساءتها مأمونة، ولم يكن خلافُ السلطانِ أولاً بما لا يؤثره آخراً بمخوفٍ ولا

(١) ـ وردت هذه الحكاية في الأغاني ٧ / ٢٠٥ ـ ٢٠٧.

تركُ هوادته ابتداءً بما لا مندوحةَ عن كراهته له انتهاءً بمحذورٍ، فارتكب أخفَّ الضررَيْن واعتمد أرْجَحَ النَظَرَيْن. وفي أمثالِ هذه المضائق تختلف الأنظار، ويتباين النُظَّار، والله يوفّق من يشاءُ لما فيه مصلحته ويقيه مما فيه مضرّته.

وعلى الجملةِ فمِنْ أعظمِ الفضولِ الدخولُ بين الملوكِ وحظاياهم، والتَعَـرُّضُ بالحديثِ في أمورِهم وقضاياهم، كالحادثِ من ذلك لخالدِ بن صفوان[1] مع أمِّ سَلمة بنتِ يعقوبَ المخزوميّة زوجِ السفّاح. حدّث مُصْعَبُ ابن الزبيرعن أبيه قال: كانت أمُّ سلمة بنتُ يعقوب بن سلمة بن عبد الله بن الوليد بن المغيرة المخزومي عند عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك بن مروان فهلك عنها، فبينما هي ذاتَ يومٍ إذْ مَرَّ بها أبو العبّاس السفّاح وكان وسيماً جميلاً، فسألتْ عنه فَنُسِبَ لها، فأرْسَلَتْ إليه مولاةً لها تعرضُ عليه أن يتزوّجها وأعطتْها سبعمائةِ دينار تدفعُها إليه إن هو أجاب، وكان لها مالٌ عظيمٌ وجَشَمٌ، فأتَتْهُ المولاةُ فعرضَتْ ذلك عليه، فقال لها: أنا رجُلٌ مُمْلِقٌ فكيف يتأتّى لي ذلك؟ فَعَرَضَتْ عليه المالَ فأجابَ، وسار لأخيها فخطبها إليه فزوّجَهُ إيّاها فأصْدَقَها خَمْسَمائةِ دينارٍ وأهداها مائتين، ودخل عليها من لَيْلَتِهِ وإذا هي على مِنَصَّة، فصعدَ إليها، فإذا كلُّ عُضْوٍ منها مكلّلٌ بالجوهرِ فلم يصِلْ إليها، فدعت بعضَ جواريها، ونزلت فغيّرت لباسَها، ولبِسَتْ ثياباً مصبّغة، وفُرشت لها فُرشٌ على الأرض دون ذلك، فلم يصل إليها، فقالت: لا يَضُرُّكَ هذا كذلك الرجال يصيبُهم مثلُ ما أصابك. فلم يزل بها حتى وَصَلَ إليها وحَظِيَتْ عنده، وحلف ألّا يتزوّجَ عليها، ولا يتسرّى، فولدت منه محمداً وريطة[2]، وغلبت عليه غلبةً شديدة، حتى لم يكن يقطعُ أمْراً إلّا بمشورتها، حتى أفْضَتِ الخلافةُ إليه،

---

(١) ـ هو أبو صفوان خالد بن صفوان بن عبد الله بن عمرو بن الأهتم التميمي، من ذرية عمرو ابن الأهتم التميمي الصحابي، وكان لسناً فصيحاً، وله أخبار كثيرة مع الخلفاء العباسيين. (المعارف لابن قتيبة ص ٤٠٣، وفيات الأعيان ٣ / ١٢).

(٢) ـ ربطه بنت أبي العباس السفاح، زوجة ابن عمها الخليفة المهدي. (المعارف ٣٧٣، ٣٨٠).

فلم يتّخِذْ عليها حُرَّةً ولاأمَة، وفاءً لها بعهدها. فلما كانت ذاتَ يوم خلا به خالدُ بن صفوان فقال: «يا أميرَ المؤمنين، إنّي فكَّرْتُ في أمْرك وَسَعَةِ مُلْكِك وقد (ض ١٥٧) مَلَكْتَ نَفْسَكَ امرأةً واحدةً واقْتَصَرْتَ عليها، فإن مرضَتْ مرضت لمرضها وَحُرِمَتْ نَفْسُك التلذُّذَ بالجواري الحِسان، فإن منهنَّ يا أمير المؤمنين الطويلةَ الغيداءَ والغضّةَ البيضاءَ والعتيقةَ الأدْماءَ والرقيقةَ السمْراءَ والبربريّةَ العجْزاءَ، وأينَ أنتَ يا أمير المؤمنين من بناتِ الأحرارِ والنظرِ إلى ما عندهنَّ وحُسْنِ الحديث منهنّ، ولو رأيتَ يا أميرَ المؤمنين الطويلةَ البيضاءَ والسَمْرة[1] اللعْساء والصفراءَ العَجْزاء والمولّدات من البصْرياتِ والكوفياتِ ذواتِ الألْسُن العَذْبة والقُدود المُهَفْهَفة والأوْساطِ المُخَصَّرة والأصداغِ المزيّنة والعيونِ المكحّلة والثُدِيّ المحقّقة، لرأيت[2] شيْئاً حَسَناً». وجعل خالدُ يعيدُ الوصْفَ ويكثر الإطنَاب بحلاوةِ لَفْظِه وجودةِ وصفِه. فلما فرغَ من كلامه قال له السفّاح: وَيْحَكَ يا خالد! والله ما سَلَكَ مسامعي قطُّ أحْسَنَ من كلامِك، فأعِده عليّ. فأعاد خالدُ كلامَه أحْسَنَ مما ابتدأه ثم انصرف. وبقي أبو العبّاس مفكّراً فيما سمع منه، فدخلت عليه أمُّ سَلَمة فرأتْه مفكَراً مغموماً، فقالت له: إني لأُنْكِرُ حالَكَ يا أميرَ المؤمنين، فهلْ[3] حدث أمرٌ تكرهُه؟ قال: لا. قالت: فما شأنُك؛ فجعل يوري عنها، فلم تزل به حتى أخبرها بمقالةِ خالد. قالت: فما قلتَ لابنِ الفاعلة؟ قال: سبحانَ الله ينصَحُني ونَشْتُمُه! فخرجت من عندِه مُغْضَبةً، وأرسلت إلى خالدٍ بجماعةٍ من الرِجال وأمَرَتْهُمْ أن لا يترُكوا منه عُضْواً صحيحاً. قال خالد: فانْصَرَفْتُ إلى منزلي مسروراً بما رأيتُ من أميرِ المؤمنين وإعجابِه بما حدّثْتُه، ولم أشُكَّ أنَّ صِلتي ستأتيني، فلم ألْبَثْ حتى أقْبلَتْ الرجالُ وأنا قاعدٌ على بابِ داري فلم أشُكّ أنها الجائزة. فلما انتهوْا إليّ سألوا عنّي، فقلتُ: أنا خالد. فسبق إليّ أحدُهم بهراوةٍ فلما أهوى إليّ وَثَبْتُ فدخلتُ

---

(١) ـ هكذا في الأصل، وفي مروج الذهب: السمراء.

(٢) ـ في الأصل: لا رأيت.

(٣) ـ في الأصل: فعلَ.

منزلي وأغلقتُ البابَ دونهم، ووقع في نفسي أنّي أوتيتُ من أمّ سَلَمة، وامتنعْتُ من الخروجِ أيّاماً. وطلبني السفّاحُ طَلَباً شديداً، فلم أشْعُرْ حتى هجم عليّ قومٌ وقالوا: أجِبْ أميرَ المؤمنين، فأيقَنْتُ بالموت، وركبتُ وأنا في غايةٍ من الوَجَل حتى دخلتُ على السفّاحِ فوجدتُهُ خالياً في بَعْضِ مقاصيره، فسلّمتُ وأشار لي ونظرتُ، فإذا خلفي بابٌ عليه ستورٌ قد أرْخيت، وسمعتُ خَلْفَها حركة. فقال لي: يا خالدُ لم أرَكَ منذُ ثلاث. قلت: كنتُ عليلاً. قال: إنّكَ وَصَفْتَ لي من أمْرِ النساءِ والجواري ما لم أسْمَعْ مثلَهُ فأعِدْه عليّ. قلت: نعم يا أميرَ المؤمنين أعلمتُك أنَّ العَرَبَ اشْتَقَّتْ اسم الضَرَّتَيْنِ من الضَرَرِ، وأن أحَدَهُم لَم يكُنْ يتزوّجُ أكْثَرَ من واحدة إلاّ كان في جَهْد. قال: لم يكن هذا في الحديث. قلت: بلى (ص ١٥٨) يا أميرَ المؤمنين، وأخبرتك أن الثلاثَ من النساءِ كأثافيِّ القِدْر تغلي عليهنّ قال: بَرِئَتْ قرابتي من رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم إن كنتُ سمعتُ هذا منك. قلت: وأخبرتُك أن الأربَع شرّ مجموع. قال: وَيْحَكَ، ما سمعت هذا الكلامَ منك قلت: بلى. قال: أو تكذبني؟ قلت: وتريد أن تقتلني؟ قال: مُرّ[1] في حديثك. قلت: وأخبرتُك أنّ أبكارَ الجواري رجال ولكن لا خُصى لهنّ. فسمِعتُ الضَحِكَ من وراء السِتْر. قلت: وأخبرتُكَ أنّ بني مخزوم ريحانةُ قُرَيش وأنَّ عندك ريحانةَ الرياحين وأنت تطْمَحُ بعينيك إلى غيرها من النساء. فقيل لي من وراء السِتْر: صدقْتَ والله يا عمّاه وبررت. ثم خَرَجْتُ وقد أيقنْتُ بالنجاة فبعثت لي أمُّ سَلَمة لما وصلتُ إلى منزلي عشرة آلاف درهم وتَخْتاً بثياب وغلاماً وبِرْذَوْناً. انتهت[2].

ولشدَّ ما لقيِ خالدُ بن صفوان من المتوقّعات في هذه القضيةِ حتى هيّأ الله له النجاة، وما ذلك إلاّ من الدُخولِ فيما لا يعني. ولذلك قال صلّى الله

---

(١) ـ مرّ: استمِرّ.

(٢) ـ وردت الحكاية في: مروج الذهب ٣ / ٢٧٥، كتاب الأذكياء لابن الجوزي ١١٦، ثمرات الأوراق ٤١٠.

عليه وسلّم: «مِنْ حُسْنِ إسْلامِ المرءِ تَرْكُهُ ما لا يعنيه»[1] وعدّه العلماء رُبْعَ الإسلام. وقال ابنُ شرف في حِكَمِهِ: «عَجِبْتُ لمن يقدِرُ على الغنيمةِ بالكلام كَيْفَ لَمْ يَقْدِرْ على السلامةِ بالسُّكوت». انتهى.

وقد يحصلُ بعضُ الناس في أنشوطةِ هلاك، ومَظِنَّةِ امتحانٍ فيخلّصه الله منها لبعد غَوْره ونُجْح مَكْرِهِ وفَرْطِ دهائه وشِدّةِ نكرائه ولطفِ احتياله وتزويرِ مقاله. كما يحكى عن الطُّفَيْليّ المحترِسِ بعليّ بنِ هشام[2] واسحق بن ابراهيم الظاهريّ[3]، وذلك أن المأمونَ كان إن يظفَرْ بابراهيمَ بنِ المهديّ لا يشرب النبيذ، وحرّم النبيذ وشدّد فيه غاية التشديد وعاقبَ عليه. قال: فلقي عليُّ بنُ هشام كاتبُ المأمون اسحقَ بنَ ابراهيم الظاهريّ على الجسر فسلّم كلُّ واحدٍ منهما على صاحِبِهِ، ووقفا ساعةً، ثم قال اسحق بكلامٍ خفّي: قد زارتْني اليومَ فلانة وهي طِلبةُ أميرِ المؤمنين وبُغْيَتُهُ فبحياتي عليكَ إلّا سِرْت إليّ لتأنَسَ بها فقد طال انفرادنا. فأنعم له، وتفرّقا. وكان بالقُرْبِ منهما طُفَيْليٌّ يَسْمَعُ كلامهما، فمضى من وقته ذلك فلبس ثياباً نظافاً كانت له مُعَدَّةً واستعار من بعضِ جيرانِهِ دابّةً فركبها، ووافى بابَ عليّ بن هشام، وقال للحاجب: تُعَرِّفُهُ - أعزّه الله - أنّي صاحبُ اسحق، فدخل الحاجبُ وخرجَ مُسْرِعاً وقال: ادخل بأبي أنت. فدخل على عليّ بن هشام فسلّم فأحْسَنَ الكلامَ وقال: يا سيّدي يقولُ لك أخوك تعلمُ ما اتّفقْنا عليه اليومَ فلِمَ تأخّرْتَ عنّي. قال: قل له: الساعةَ وحياتِك نزلتُ من الركوب وغيّرتُ ثيابي وتأهّبْتُ كما ترى. واستوى على الدابّة ووافى

---

(١) - موطأ مالك ص ٦٥٠.

(٢) - لعله علي بن هشام بن فرّخسرو أبو الحسن المروزي، أحد قواد المأمون وندمائه، وكان شاعراً. ولاه المأمون كور الجبال إلا أنه قتله بسبب سوء سيرته في الرعية سنة ٢١٧ هـ (المعارف ٣٩١، الوافي بالوفيات ٢٢ / ٢٨٨).

(٣) - لعله اسحق بن ابراهيم بن مصعب الخزاعي، ولي شرطة بغداد من أيام المأمون إلى أيام المتوكل، وكان يعرف بصاحب الجسر، وكان جواداً ممدحا وعلى يده امتحن العلماء بأمر المأمون، توفي سنة ٢٣٥ هـ. (تاريخ الطبري: حوادث ٢١٨ - ٢٣٦هـ، الوافي بالوفيات ٨ / ٣٩٦، وصفحات متفرقة من الديارات).

(ص ١٥٩) بابَ اسحق وقال للحاجب: تُعَرِّفُ الأميرَ ـ أعزّه الله ـ أنّي رسولُ عليّ بن هشام. فدخل الحاجبُ وخَرَجَ مُسْرِعاً وقال: ادخُلْ جَعَلني الله فداءك. فدخلِ وسلّم وقال: أخوك يُقرِئُك السلام ويقول لك: الساعةَ نَزَلْتُ من الركوبِ وغيّرتُ ثيابي وتأهّبتُ فما ترى؟ قال: قل له يا سيّدي قد قَتَلْتَنا جوعاً فبحياتك إن تأخّرْتَ عنّا ساعة. فرجع إلى باب عليّ بن هشام، فقال للحاجب: تُعَرِّفُهُ ـ أعزّه الله ـ أن الأميرَ ـ أيّده الله ـ أمَرني أن لاأبْرَحَ ويجيء معي. فغيّر ثيابَهُ ورِكبَ وتَبِعَهُ الطُفَيْليُّ حتى نزلا بباب اسحق، ودخلا جميعاً فسلّما وجلسا فجاءَ الطعامُ واسحق لا يشكُّ في أنّه أخصُّ خَلْقِ الله بعليّ بن هشام، وعليّ لا يشكُّ في مثْل ذلك. ثم غسّلوا أيديَهم وتطيّبوا وأخذُوا في شرابهم. وجلستِ الجاريةُ وإذا هيَ أحسنُ الناسِ زيّاً وخدّاً، فهشَّ لها كلُّ واحدٍ منهما وبسطها حتى جيء بالعود فوُضِعَ في حُجْرها، فغنّت أحسنَ غناء ودارت الأقداحُ والأرطال، فلم يزالوا على ذلك إلى العصر، فأخذت الطفيليَّ بَوْلةٌ فصبر لها جهده حتى كادت تأتي على روحه، ثم إنه قام، ودَخَلَ إلى الخلاء وقد أيقن بالهلاك. فقال عليُّ ابن هشام لاسحق: يا سيّدي ما أخفّ روح هذا الفتى! فمن أينَ وقع إليك؟ قال: أوَليس هو صاحبك؟ قال: لا وحياتِك ولا عرفتُهُ قطّ قبل يومي هذا فإنه جاء برسالتك. وقصَّ قصّته وقصّ عليه اسحقُ مثلها. فدخل اسحقَ من الغَيْظِ ما لم يمْلِكْ به نَفْسَه وصاح: طفيليٌّ يستجرىء عليّ وعلى النَظَر إلى حُرَمي والدخولِ إلى داري؟! يا غلمان سياطاً وعقابين وجلادين. وكل ذلك يسمعه الطُفَيْليّ وهو في الخلاء. ثم إنه خرج وهو شائلٌ ثوبَه غير مكترث بما يقول إسحق مقبلٌ على تِكّتِهِ يشدّها ويتمشّى في صحن الدار ويقول: هِيَهْ جُعِلْتُ فداءك، أي شيء بقي لك من جهدك، فهل عرفتني مع هذا كلّه؟ قال له اسحق: ومن أنْتَ؟ قال: صاحبُ خَبَرِ أمير المؤمنين وعينُه وذو سرّه، والله لولا تحرُّمي بطعامك وممالحتي لكما لتركْتُكُما في عمىً من أمْري حتى كنتَ أنت ترى عاقبةَ أمْرك وإقدامِكَ على ما فيه هلاكُكَ وفسادُ حالك عندَ أميرِ المؤمنين.

فقام إليه عليٌّ وإسحق باستكانة وقالا له: ياهذا إنّا والله لم نَعْرِفْكَ ولم نَعْرف حالَكَ، فلك الفضلُ علينا بالتلطُّف إلى عِشرَتنا، فأنتَ المُحْسِنُ المُجْمِلُ،

ولكن تمِّمْ إحسانَك بسَتْرِ ما نحنُ فيه. ثم قال اسحق: يا غلام. . * خِلَعاً. فأوتي بثيابٍ فاخرة فصُبَّتْ عليه. وتقدّم في إسراجِ دابّةٍ هِمْلاج بِسَرْجٍ حَسَن ولجام. ولم يزالا به حتى طابت نفسُه، ووعدهُما كتمانَ أمرِهما، وحان وقتُ الانصراف فودّعهما (ص ١٦٠) وانصرف. وأتْبَعَهُ اسحقُ بخادم معه صرّةٌ فيها ثلاثمائة دينار، فأخذها وركِبَ الدابَّةَ ومضى. فلما كان من الغد، ودخل عليُّ بن هشام على المأمون، قال له: يا عليّ قِصَّتُكَ أمس. فتغيّر لونُه، ولم يَشُكَّ في الحديث أنــه رُفِــعَ إليه. فقــال: الأمــانُ يا أمير المؤمنين وأكبَّ على البســاط يقبّله فقال: لك الأمان تكلّم. فأخبره بالقصّةِ والخَبَر من أوّلِه إلى آخره. فضحك المأمون حتى كاد يُغْشى عليه، وقال: أفي الدنيا أمْلَحُ من هذا وأشدُّ حيلة. ووجّه إلى اسحق بن ابراهيم وقال: هَبْه لي يا اسحق. فجعل إسحق يأسَفُ عليه ويتلهّف. فقال المأمون: بحياتي هَبْهُ لي واطلُبْهُ وجِئْني به. فلم يزل اسحقُ يطلُبُهُ حتى وَجَدَهُ فجاء به إلى المأمون، فكان أحد ندمائه والثقاتِ عنده حتى مات. انتهت.

وهذا من أظرفِ الطُفَيْليين وأحضرهم جواباً وأعجبهم نادرةً وأثبتهم جأْشاً، وقد يسّر الله له بذلك مع الخلاص من الورطة ما لم يكن في حِسابِهِ مع انخراطه في جُمْلةِ ندمـاء المـأمون وتوصُّلِه بحيلته تلك إلى الانتظامِ في سِلْكِهم. والتَسَبُّبُ في ذلك ظاهرٌ حسبما أشَرْنا إليه في غير ما حكاية مما يبرزها[1] نسق الارتياد.

ومما يقربُ بَعْضَ القُرْبِ من قضيةِ هذا الطُفَيْليّ ما حكاه البيروني[2] في

* ـ هنالك كلمة واحدة سقطت من هذه الجملة.

(١) ـ في الأصل: يبرذها.

(٢) ـ في الأصل: البيروني.

«الأحجار» أن أحد المموّهين أتى بحجرٍ إلى وشمكير[1] وزعم أنه باذزهر[2] اغتراراً منه لعجمته[3] وَطَمَعاً في أن يذهب عليه أمرُه فقال: إن كان هذا دافعاً مضرّة السمّ فسأسقِيكَهُما معاً فإن صَدَقتْ دعواك أجزلتُ حِباءك. قال: نعم. واستخلاه ثم قال له: اعلم أنّ الشيطان سوّل لي عملي فارتبكت منه في الحبالة وعندي لك نصيحة إن قَبِلْتَها. قال: وما هي؟ قال: «إنّ الملوكَ مقصودون من أعدائهم بالحِيَلِ لأرواحِهم على يَدَيْ أوليائهم المحبّبين[4] بالأموال، ومتى اشتهر فيما بينهم أن معك ما لا يضرّ معه سُمّ يئس أولئك وهؤلاء من مكايدتك فنجوْتَ من معارِ الأعداء ولم يفسد عليك الأولياء فأحضِرْ سمّاً وشيئاً آخر مشتبهاً به تَسْقِنيه واسقني بعده من هذا الحجر واخلع علـيّ خزّاً مصدّقاً لدعواي وارتجع الخلعة[5] مني والصِلة سرّاً وخلّني أمضي إلى لعنةِ الله ونارِهِ الموقودة» فقال وشمكير: كنت تستحق باستخفافِك بي وقصدِك للتمويه علـيّ العقوبة، وأما الآن فقد استحققْتَ الخَيْرَ بهذه النصيحة لا الحجر. وفعل ذلك، ثم صبّ عليه الخِلَعَ وأجزل صلته وجوائزه، وصرفه مكرماً، وقد نشر من بعد مماته. انتهت[6].

ولن يقصر هذا المموّه في حيلته عن الطفيليّ، فكلاهما نجا بحيلته من متوقّع من البلاء متعيّن الوقوع، وحصل بلُطْفِ حيلته وفرط دهائه ونكرانه على (ص ١٦١) الفائدة التامّة بما كان أعْظَمَ سببٍ في المحنة العظيمة. وبهذا

---

(١) ـ هو وشمكير بن زيار بن ورد انشاه الجيلي الديلمي، كان صاحب جرجان وتوفي فيها سنة ٣٣٧ هـ وملكها ابنه قابوس من بعده (وفيات الأعيان ٤ / ٨٠).

(٢) ـ انظر مواصفات هذا النوع من الجواهر في كتاب «الجماهر للبيروني ص ٢٠٠ ـ ٢٠٢».

(٣) ـ في كتاب الجماهر: بعجميته.

(٤) ـ في كتاب الجماهر: المحسنين.

(٥) ـ في الأصل: الخلوة.

(٦) ـ كتاب الجماهر للبيروني ص ٢٠٢.

المعنى وأمثاله يُسْتَدَلُّ على ثبوت القلبِ وحُضور الفِكْر وحَصافَةِ الرأيِ وشِدَّةِ الحيلة.

ومن استطاع ممن يتوقّع الابتلاءَ بجر جنايته أن يدفع عن نفسه مما يناسب حالته من آياتِ كتابِ الله العزيز إمّا احتجاجاً وإمّا استعطافاً فإن ذلك من أنجح الأسباب وأحمد الذرائع إلى تسنّي[1] المقاصد.

كما يُحْكى عن مولىً لهشام بن عبد الملك، فأحسن[2] إليه ففسد وأفسد عليه بعضَ مواليه، فهرب بهم. فقال هشام: إن ظفرتُ به لأجعلنّه عِبْرةً ولأبلغنّ فيه ما يستحقّه. فلم يَشْعُرْ هشام ذاتَ يوم إلاّ بمولاه على رأسه يقول: السلام عليك يا أميرَ المؤمنين ورحمةُ الله وبركاته. فقال: لا سلّم الله عليك يا ابن اللخناء. قال المولى: ما هكذا قال الله عزّ وجلّ. قال: وماذا قال يا عدوَّ الله؟ قال: قال: ﴿وإذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بآياتِنا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ على نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابَ...﴾[3] الآية. فقال: صَدَقَ الله، وقولُه الحقّ. وعفا عنه ورفعه إلى ما كان عليه. انتهت. فهذا وأمثاله ممن لقنَ من الذكر الحكيم واقتنصَ منه لمن توقّع عاديته الموعظة فأمن ممّا خاف ونجا مما توقّع.

ويلي ذلك من وُفِّقَ إلى معنىً مقبولٍ في الأسماع مُسْتَخَفٌّ على القلوبِ، داخلٍ في باب التَلَطُّفِ والاسْتِعْطاف. كما يُذْكَرُ أن الحجّاجَ أُتِيَ برجُلٍ من الخوارجِ فأمَرَ بضَرْبِ رقبته، فاستنظره يوماً، فقال له: ما تريدُ بذلك؟ قال: أؤمل عفوَ الأميرِ مع ما تجري به المقادير. فاستحسنَ قَوْلَهُ وخلاّه[4]. فهذا

---

(١) ـ في الأصل: تنسّى.

(٢) ـ يظهر أن هناك نقصاً سقط من الناسخ.

(٣) ـ من الآية ١٧ من سورة النساء.

(٤) ـ حدائق الأزاهر ٤٩.

الرجل ممن سُدِّدَ مَنْطِقهُ وأُلْهِمَ للقول الذي نجح به مقصدُهُ، ولا أظنّ ذلك إلاّ للحقّ الذي تضمّنه قوله «مع ما تَجْري به المقادير» فإن للحقّ نوراً.

وكذلك ما يُكَيِّفُ الله من أبياتٍ شعريةٍ أو حُجَجٍ نثرية. كما حدّث. الأصمعي قال: كان بِشْرُ بنُ مروان[1] شديداً على العُصاة، وكان إذا ظفر بالعاصي أقامه على كرسيٍّ إلى الحائط وسَمَّر كَفَّيْهِ في الحائط ثم ينزع الكرسيّ فيضطربُ حتى يموت. وكان فتىً من بني عِجْل مع المهلّب في حَرْبِ الأزارِقة يَهْوى ابْنَةَ عمٍّ له، فكَتَبَتْ إليه تستزيرهُ فكتب إليها:

لولا مخــافــةُ بِشْــرٍ أو عقــوبتِــهِ   وأنْ يُشَــدَّ على كَفَــيَّ مسـمــارُ
إذا لعــطّلتُ ثَغْــرِي ثم زُرْتُــكُــمُ   إنّ الــمــحبَّ إذا ما اشتــاق زَوّارُ

فكتبتْ إليه:

ليسَ المحبُّ الـذي يَخْشى العِقابَ ولـو
كانَــتْ عقــوبَــتــهُ في إلْــفِــهِ الــنــارُ

(ص ١٦٢)

إنّ المُحِبَّ الــذي لا شَيْء يَمْنَعُــهُ   أو يستــقــرّ بِمَنْ يَهْــوى بِهِ الــدارُ

فلما قرأ كتابَها عطّل ثَغْرَهُ وانصرفَ راجعاً إليها وقال:

أسْتَغْفِــرُ الله إذْ خِفْتُ الأميرَ ولَمْ   أخْشَ الــذي أنــا منه غَيرُ مُنْتَصِرِ
فَشَــأْنُ بِشْــرٍ بِلَحْمي فَلْيُعَــذِّبَــهُ   أوْ يَعْــفُ عَفْــوَ أميرٍ خَيْرِ مُقْتَــدِرِ
فمــا أُبــالــي إذا أمْسيتِ راضِيةً   ما نِيلَ يا هِنْــدُ مِنْ نَفْسي ومِنْ بشري

ثم قدم البصرةَ فما أقام بها إلاّ يومين حتى وشى واشٍ به إلى بشر. فقال: عليَّ به. فلما أُتي به قال له: يا فاسقُ عَطَّلْتَ ثَغْرَك! هَلُمّوا الكرسيّ. فقال:

---

(١) ـ أخو عبد الملك بن مروان وأمير العراق زمن الأمويين، وكان سمحاً جواداً ممدحاً، وهو الذي أحدث الأذان للعيد بالكوفة، مات بالبصرة سنة ٧٥ هـ وعمره نيف وأربعون سنة، ووقف الفرزدق على قبره ورثاه. (الوافي بالوفيات ١٠ / ١٥٢ ـ ١٥٣، الكامل للمبرد ٣ / ١٢٩٧ ـ ١٣٠١).

أيّها الأمير إنّ لي عذراً. قال: وما هو؟ فأخْبَرَهُ خَبَرَه وأنشده الأبيات. فَرَقَّ له وكَتَبَ إلى المُهَلَّب فأثبته في أصحابه. انتهت(١). وقد نجّى الله هذا الرجُلَ بصِدْقِ محبّته وحُسْنِ محاورته لابنة عمّه بما دار بينهما من شِعْر وتَقَدُّم له من ظنٍّ جميلٍ في أميره بشر.

وأمكنُ من هذا في بابِ تقريبِ المستعطَف إلى إيثارِ العفو وتنبيهه على استرجاع الحِلْمِ ما حُكي عن المنصور أنه أُتِيَ برجلٍ قد وجبت عليه عقوبة. فلما مَثُلَ بين يَدَيْهِ قال: يا أميرَ المؤمنين الانتقامُ عدلٌ والتجاوز فضل وأنت أجلُّ من أن ترضى لنفسك بأوكس النصيبين دون أن تَبْلُغَ أفْضَلَ الدرجتين. فعفا عنه. انتهت. فهذا كما تراه من ثبوت الجأش وترتيب الحجّة.

وأشدُّ منه في ذلك ما حُكي عن رجُلٍ أُتيَ به إلى معاوية وكان قد أسِرَ من أصحاب عليّ ـ رضي الله عنه ـ وكان أبلى بلاءً حسناً. فلما أقيم بين يديه قال معاوية: الحمد لله الذي أمْكَنَني منك. فقال: لا تقُلْ كذلك ولكن قل إنّا لله وإنّا إليه راجعون فإنها مصيبة. قال معاوية: وأيّ نعمةٍ أكبرُ من أن يكون الله قد أظفرني برجل قد قتل في ساعة واحدة من أصحابي جماعة !!. اضربوا عنقه. فقال الرجل: اللهم اشهد أن معاوية لم يقتلني فيك و [لا لأنك ترضى قتلي](٢) ولكن قتلني في الغلبة على حُطامِ الدنيا فإن فعل فافعل به ما هو أهله وإن لم يفعل فافعل به ما أنت أهله. قال: قاتلك الله لقد سَبَبْتَ فبالغت ودعوْتَ فتناهيت في الدعاء. وخلّى سبيله. انتهت(٣). وهذا ممن أرشده الله من هذا الكلام البليغ المعنى إلى ما كان سبباً في نجاته. ومثل معاوية ـ رضي الله عنه ـ في وفور حلمه وكمال سؤدده ورجاحة مروءته من يصدر منه مثل ذلك.

---

(١) ـ وردت هذه القصة في كتاب الأمالي لابي علي القالي ٢ / ٣٠ ـ ٣١، ومقالات الأدباء (٤٤ ب).

(٢) ـ بياض في الأصل وتتمتها من مروج الذهب.

(٣) ـ وردت هذه الحكاية في مروج الذهب ٣ / ٥٧ وورد فيه أن الأسير هو جميل بن كعب الثعلبي من سادات ربيعة، وأنه أنشد شعراً في موقعة الجمل.

ومما عَظُمَ فيه أثرُ لُطْفِ الله لعدمِ وضوحِ التسبّب في حصوله ما حُكِيَ عن أحمد بن عبد الرحمن بن الصقر الخزرجي[1] شارحِ الشهاب[2] فإنه كان ممّن وَقَعَتْ عليه (ص ١٦٣) المحنةُ العُظْمى بمرّاكش يوم دُخولِ الموحّدين إيّاها يوم السبت لاثنتي عشرة ليلة بقِيَتْ من شوّال أحد وأربعين وخمسمائة على الوجه المشهور في استباحةِ دِماءِ كلِّ ما اشْتَمَلَتْ عليه من الذكورِ البالغين إلاّ من تَسَتَّر بالاختفاءِ في سَرَبٍ أو غُرْفَةٍ أو مَنْجى. وتمادى القتل فيهم ثلاثة أيام، ثم نُودِيَ بالعفو عمّن أسْأَرَتْهُ تلك الفتكةُ الكبرى. فظهر من جميعِ الخلق بها ما يناهز السبعين رجلاً، وبِيعوا بَيْعَ أُسارى المشركين وهم ونساؤهم وذراريهم، وعُفي عن بعضهم، فكان أبو العباس ممّن تخطَّتْهُ المنيّة واستنقذه من الرقّ العفوُ وحسبك بها محنة. انتهت[3].

وهذا من أعظمِ ما يُتَوَقَّعُ من الابتلاءات فصرفه الله عن هذا الرجل، ولم أقِفْ على أغربَ مِنْ حكايتهم في تَجافي القتل عنه في عددٍ يسيرٍ كالسبعين فيما ذكرته[4] في نجاته من الرقّ من جملةِ السبعين أو مَنْ نَدَرَ مثله منهم وإن لم يذكر. وقانا الله مصارعَ السوء وعظائم البلاء وجعل أجورنا تحت[5] العافية.

ومـا أعظم ما صرفَ الله من الابتلاءِ المتوقَّعِ المضارع للوقوعِ عن

---

(١) ـ أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن الصقر الخزرجي أصله من سرقسطة، انتقل جد أبيه منها فسكن بلنسية، ولد بالمرية سنة ٤٩٢ هـ وولي القضاء باشبيلية وتوفي بمراكش سنة ٥٦٩ هـ. (انظر ترجمته في: الديباج المذهب ٤٨ ـ ٥٠، الوافي بالوفيات ٧ / ٤٧ ـ ٤٨، المقتضب من تحفة القادم ص ٣٧٩).

(٢) ـ هو كتاب الشهاب في الآداب والأمثال والمواعظ والحكم المروية لأبي عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر بن محمد بن علي القضاعي. (فهرست ابن خير ص ١٨٢ ـ ١٨٥).

(٣) ـ ذكر ابن فرحون في كتاب الديباج المذهب أن ابن الصقر قد نهبت كتبه بمراكش حين دخلها عبد المؤمن بن علي (الديباج المذهب ٤٩). وانظر خبر دخول الموحدين مدينة مراكش في كتاب «أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين» للبيذق ص ٦٣ ـ ٦٩.

(٤) ـ في الأصل: ذكرتم.

(٥) ـ هكذا في الأصل.

الخليل، والذبيح أحد بنيه اسماعيل أو اسحق على الخلاف الذي للعلماء - رضوان الله عليهم - في أيّهما كان، وأن النَفْسَ التي رسخت في ذاتِ الله يحسُنُ أن يوصف بالوفاء، كما قال الله تعالى: ﴿وإبْراهِيمَ الَّذي وَفَّى﴾[1] وأنَّ الابنَ الذي بذل نَفْسَه لما أمره به أبوه في مرضاةِ ربّه لَعَظيمُ المنزلةِ لديه وخطيرُ الرتبةِ بالوسيلةِ إليه، وصلّى الله على نبيّنا محمد وعليهما وسلّم.

فإذا استحضر المتوقّعُ للابتلاء في عزيزٍ عليه أو أثيرٍ لديه، ما كان من هذا الابتلاء العظيمِ الذي أظْهَرَ الله للعالَمين صَبْرَ خليله ابراهيم على امتثالِ أوامرِ ربّه، وتقرُّبهِ إليه بما أمره به من ذبحِ ثَمَرَةِ كبده وقطعةِ قلبه، وما كان من لُطْفِ الله في التدارُك بالفِداء والإقالةِ من هذا الابتلاء فإن الرجاءَ يقوى في فضل الله بِصَرْفِ ما يَخْشى أن يُؤلِمَهُ ودَفْعِ ما يتوقّع أن يضرّه، وما ذلك على الله بعزيز. وقد صَرَفَ الله في قضيّةِ الخليل صلّى الله عليه وسلّم عن عباده المؤمنين من الابتلاء ما صرف، وكَشَفَ من بلواهم في هذه المحنةِ الشديدة ما كَشَف، فلو استمر التكليفُ بذبْحِ الأبناء والتقرُّبِ إلى الله بهذا الابتلاء لكان المكلَّفُ دائراً بين ثُكْلِ الولد أو سُخْطِ الأبَد، والعياذُ بالله من ذلك.

وقد أرانا الله هذا الابتلاءَ الذي كاد أن يقع وكَرَبَ[2] أن يَظْهَرَ سِرُّ ألطافِ الله تعالى للعباد باستقامةِ أحوالِهِمْ، واستنجاحِ آمالهم. ولن يبرح المؤمنُ الموفَّقُ بفضلِ الله يلتمس أنموذجاً ممّا منح الله الخليلَ والذبيحَ صلواتُ الله عليهما من لُطْفه، وما أسدى (ص ١٦٤) إليهما من النِعْمَةِ في كَشْف الابتلاءِ وصَرْفِهِ، والله الكفيلُ بإسْعافِ أمله، وإنجاح قوله وعمله، بحوله وقوته.

وفي ألطافِ الله الخفيّةِ الآتيةِ من حيثُ لا يُحتسب، والواردةُ بحيث تَقاصَرَ عن الوفاءِ بكُنْهِها أمٌّ وأب، يقول ابن الرومي:[3]

---

(١) - الآية ٣٧ من سورة النجم.

(٢) - كَرَبَ كُروباً: دنا، وأن يفعل: كاد (القاموس المحيط: كرب).

(٣) - ديوان ابن الرومي ١ / ٥٨ - ٥٩ (ط. دار احياء التراث العربي - بيروت - ١٩١٧م).

إنَّ للهِ غيْرَ مَرْعاكَ مَرْعى ... تَرْتَعِيهِ وغيرَ مائِكَ ماءَ
إنَّ للهِ بالبريَّةِ لُطْفاً ... سَبَقَ الأُمَّهاتِ والآباءَ

وأعظمُ ما في هذا الباب الذي يُتَوَقَّعُ فيه على النفوسِ الهلاك، ويُتَخَوَّفُ منه على المبتلين به الحِمام، الأمورُ الواقعةُ بين يَدَيْ الملوك ومن جاراهم، والأسبابُ التي يَبْعُدُ صُدورُها مِنْ سِواهم، فهناك ينبغي أن يَسْتَكْثِرَ المُضْطَرُّ إلى مخالَطَتِهِمْ والمُمْتَحَنُ بِمُلابَسَتِهِمْ من الاستعاذةِ منهم بربّه، وأن يلجأ إلى الاعتصامِ منهم بلسانِهِ وقلبه، ويستعملَ ما ورد عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم منقولاً ممّا يقالُ عِنْدَ الدخولِ على الملوك، أو عند الخوفِ منهم، وما يُحْكى في ذلك عمّن ابْتُلِيَ بهذا النوع. كما قال أبو بكر بنُ الطيب[1]: قال لي شفيع[2]: كنتُ إذا دخلتُ على المعتضِدِ كأنّي أدخلُ على مَلَكِ المَوْت، وكنتُ أضَعُ ثيابي عند خادمٍ صالحةٍ، قال: فشكوت إلى الخادمِ أنَّ رِعْدةً تأخذني إذا دخلتُ على سيّدي، فقالت: إذا وَقَعَتْ عيناك على عينه فقل - ولا يسمعك - أطفأتُ يا أحمدُ غَضَبَكَ بلا إله إلاّ الله. قال شفيع: فاستعملتُ ما قالت الخادم - وكان اسمُها خيزران - فقدّمني وقرّبني، حتى كأنّي وَلَدُه، فجئتُ إلى خيزران فقلت: من أينَ لكِ هذا؟ قالت: أنت مجنون؟! «لا إله إلاّ الله» تُطْفِىءُ غَضَبَ الربِّ - تبارك وتعالى.

ومما كان المتوقَّعُ فيه أقرب، والخيفةُ أعظم، لخلوِّ مسألةِ شفيع المنقولة أيضاً من سبب لخوفه، ومن موجب لرَوْعه وتغيّبه، فيما حكي عن الربيع[3] قال:

---

(١) ـ هو أبو بكر (أبو العباس) أحمد بن الطيب بن مروان السرخسي صاحب يعقوب بن اسحق الكندي، ولي الحسبة ببغداد، امتحنه المعتضد وقتله سنة ٢٨٣ هـ (مروج الذهب ٤ / ٢٥٩، الوافي بالوفيات ٧ / ٥ ـ ٨، معجم الأدباء لياقوت ٣ / ٩٨، الفهرست لابن النديم ٣٢٠).

(٢) ـ لعله شفيع بن عبد الله الخادم المقتدري، كان من الأعيان، وولاه الخليفة العباسي المقتدر الرحبة والبصرة سنة ٣٠٣ هـ، وتوفي سنة ٣٣٢ هـ. (الوافي بالوفيات ١٦ / ١٧٠).

(٣) ـ هو الربيع بن يونس بن محمد بن كيسان العباسي، أبو الفضل، مولى الخلفاء العباسيين وحاجب أبي جعفر المنصور والمهدي، ولي ابنه الفضل الحجابة للرشيد، وولي حفيده العباس =

لمّا اسْتَوَتْ الخلافةُ لأبي جعفر قال لي : يا ربيع! ابعثْ إلى جعفر بن محمد[1].
فقمت بين يديْه فقلت: أيّ بليّةٍ يريد أميرُ المؤمنين أن يفعل! وأوهمته أني أفعل، ثم أتيتُه بعد ساعة، فقال: ألم أقل لك ابعث إلى جعفر بن محمد؟! فوالله لتأتيني به، ولأقتلنَّهُ شَرَّ قِتْلة. قال: فذهبت إليه فقلت له: يا أبا عبد الله! أجب أمير المؤمنين. فقام معي، فلمّا دنونا من الباب، قام فحرّك شفتيه، ثم دخل فسلّم، فلم يُردَّ عليه، ووقف ثم رَفَعَ رأْسَه، فقال: يا جعفر أنتَ الذي أَلّبْتَ وكثرت، وحدثني أبي عن أبيه عن جدّه أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «يُنْصَبُ للغادر لواء [يوم القيامة]* يُعرف به»[2] قال جعفر بن محمد: حدّثني (ص ١٦٥) أبي عن أبيه عن جدّه أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «ينادي منادٍ يومَ القيامة من بطنانِ العرش: ألا فليقُمْ مَنْ كان أجْرُهُ على الله. فلا يقومُ من عبادِهِ إلاّ المتفضلون»[3] قال: فما زال يقول حتى سكن غَضَبُه، ولان له، فقال له: اجلس أبا عبد الله، ارتفعْ أبا عبد الله. ثم دعا بمدهن غاليةٍ فغلفه بيده والغاليةُ تقطر من بين أناملِ أمير المؤمنين. ثم قال: انصرفْ في حفظ الله. وقال. يا[4] ربيع، اعطِ أبا عبد الله جائزته وأضعِفْها. قال: فخرجتُ فقلت: أبا عبد الله تعلمُ محبّتي لك. قال: أنتَ منا، حدثني أبي

= الحجابة للأمين، توفي الربيع سنة ١٧٠ هـ (تاريخ بغداد ٨ / ٤١٤، وفيات الأعيان ٢ / ٢٩٤، الوافي بالوفيات ١٤ / ٨٤).

(١) - هو أبو عبد الله جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب المعروف بجعفر الصادق، ولد سنة ٨٠ هـ وتوفي سنة ١٤٨ هـ. (حلية الأولياء ٣ / ١٩٢ - ٢٠٦، وفيات الأعيان ١ / ٣٢٧، الوافي بالوفيات ١١ / ١٢٦).

* - سقطت من الأصل.

(٢) - صحيح مسلم ٥ / ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، مسند ابن حنبل ١ / ٤١١، ٤١٧، ٤٤١ وصفحات أخرى متفرقة في الجزأين الثاني والثالث.

(٣) - عين الأدب والسياسة ص ١٩٣.

(٤) - في الأصل: لي.

عن أبيه عن جدّه أن النبي صلى الله عليه وسلّم قال: «مَوْلى القوم مِنْهُم»[1] فقلت: أبا عبد الله شهدتُ ما لم تَشْهَدْ، وسمعتُ ما لم تسمع، وقد دخلت ورأيتُكَ تحرِّكُ شَفَتَيْكَ عند دخولك إليه؟ قال: دعاءٌ كنت أدعو به. قلت: دعاءٌ حَفِظْتَهُ عند دُخُولِكَ إليه، أم شيءٌ تَأْثُرُهُ عن آبائك الطاهِرين؟ قال: حدثني أبي عن أبيه عن جدّه أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان إذا أَحْزَنَهُ أمرٌ دعا بهذا الدعاء، وكان يقول دعاء: «اللهُمّ احرُسْني بعينِكَ التي لا تنام، واكنُفْني بِرُكْنِكَ الذي لا يُرام، وارحمني بقدرتِكَ عليّ، أنت ثقتي ورجائي، فكم نعمةٍ أنعمت بها عليّ، قلَّ لك بها شكري، فلم تحرمني. ويا من قلَّ عند بلائه صبري، فلم يَخْذُلْني، ويا من رآني على الخطايا والذنوب، فلم يَفْضَحْني، أسأَلُكَ أن تصلّيَ على محمّد، وعلى آلِ محمّد، كما صلّيتَ وباركْتَ وترحَّمْتَ على ابراهيم، إنك حميد مجيد، اللهمّ أعِنّي على ديني بِدنياي، وعلى آخرتي بالتقوى، واحفَظْني فيما غبتُ عنه، ولا تكِلْني إلى نفسي فيما حضرتُه يا من لا تَضُرُّه الذنوب، ولا تنقصه المغفرة، هَبْ ما لا ينقصك، واغفر لي ما لا يَضُرُّك، يا إلهي، أسأَلُكَ فَرَجاً قريباً، وصَبْراً جميلاً، وأسأَلُكَ العافيةَ مِن كلِّ بَليّة، وأسألك الشُكْرَ على العافية، وأسأَلُكَ دوامَ العافية، وأسأَلُكَ الغَناء عن الناس ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلاّ بالله». انتهت[2].

ومثل هذه الحكاية عريقٌ[3] في بابِ الكرامات التي تكرّرت الإشارةُ إليها في غير ما حكاية، وليسَ ذلك ببدع في أسْباط النبوءة وأهل بيتها ـ رضي الله عنهم ـ وأيّ شرفٍ ارفعُ ممّن يقول: حدّثني أبي عن أبيه عن جدّه!! ثم يكونُ من الاقتداء بهم واقفاً عند رسم الدين الحنيف وحدِّهِ، فالكرامةُ من تِلْقائه حُكْمُ

---

(١) ـ كنز العمال ١٠ / ٣٢٦ (حديث رقم ٢٩٦٤٢).

(٢) ـ وردت هذه الحكاية بلفظ مختلف في الفرج بعد الشدة ١ / ٣١٨ ـ ٣٢٠، ووردت أيضاً بصورة أتم في كتاب عين الأدب والسياسة لابن هذيل ١٩٢ ـ ١٩٤، وورد جزءٌ من هذا الدعاء المتضمن في الحكاية في الوافي بالوفيات ١١ / ١٢٩.

(٣) ـ في الأصل: غريق.

صادرٌ من أهله في محلّه، وظهورُها عليه، ممّا هيّأ الله له من جُودِهِ العميم وفضْلِهِ، نفع الله بهم، ووصل سببنا في الدنيا والآخرة بسببهم. وأشبه شيء بهذه الحكاية، ما حدث به يحيى بن هرثمة قال: وجّهني المتوكّلُ إلى المدينةِ لاستخلاصِ عليّ بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر[1] لشيء بلغه عنه، فلما صرتُ إليه (ص ١٦٦) ضجّ أهلُها وعجّوا عجيجاً وضجيجاً ما سمعتُ بمثله، فجعلتُ أسكّنُهم، وأحلِفُ لهم أني لم أؤمَرْ فيه بمكروه، وفتّشْتُ منزله، فلم أصب فيه إلاّ مصحفاً ودعاءً وما أشبه ذلك، فأشخصْتُهُ وتولّيتُ خدمته وأحسنت عِشْرته. فبينما أنا يوماً من الأيام، والسماءُ صاحيةٌ، والشمسُ طالعةٌ، إذ ركِبَ وعليه مطرف، وقد عقد ذَنَبَ دابّته، فعجبتُ من فعله. فلم يكن إلاّ هُنَيْئَة حتى جاءت سحابة فأرخت عَزالِيَها[2] ونالنا من المطرِ أمرٌ عظيم، فالتفت إليّ وقال: «أنا أعلَمُ أنّكَ قد أنكرْتَ ما رأيتَ وتوهمتَ أني أعلم من الأمرِ ما لا تعلمه، وليس كما ظننت، ولكنّي نشأتُ بالبادية، فأنا أعلَمُ الرياحَ التي يكونُ في عَقِبِها المطر، فلما أصبحتُ هَبَّتْ ريحٌ لا تخلف، وشممتُ رائحةَ المطر، فتأهّبتُ لذلك» فلما قدمنا المدينةَ - مدينة السلام - بدأتُ بإسحق بن ابراهيم الطاهري[3] وكان على بغداد. فقال لي: يا يحيى، إنّ هذا الرجلَ قد ولده رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم، والمتوكّلُ من تعلم، وإنْ حَرَّضْتَهُ عليه قتله وكان رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم خَصْمَك. فقلت: والله ما وقفتُ منه إلاّ على كلّ أمْرٍ جميل. فسِرْتُ إلى سامراء فبدأتُ بوصيف[4] التركي - وكنت

---

(١) - أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، الهادي، أحد الأئمة الاثني عشر عند الإمامية، سُعِي به إلى المتوكل، ولد سنة ٢١٣ هـ وتوفي بسرّ من رأى سنة ٢٥٤ هـ (مروج الذهب ٤ / ٩٣، تاريخ بغداد ١٢ / ٥٦، وفيات الأعيان ٣ / ٢٧٢، الوافي بالوفيات ٢٢ / ٧٢).

(٢) - في الأصل: غزاليها. وأرخَتْ عَزالِيَها: كثُر مطرُها (لسان العرب: عزل).

(٣) - هو اسحق بن ابراهيم بن مصعب بن زريق بن أسعد بن زاذان الخزاعي، وقد أسلفنا التعريف به.

(٤) - خادم الخلفاء العباسيين، ثار على الخليفة المعتضد ثم طلب الأمان ومُنح له سنة ٢٨٨ =

من أصحابه - فقال لي: والله لئنْ سَقَطَتْ من رأسِ هذا الرجلِ شعرةٌ لا يكون الطالب بها غيري. فعجبتُ من قولهما. وعرّفتُ المتوكّلَ بما وقفتُ عليه من أمره، وما سمعتُ من الثّناء عليه. فأحْسَنَ جائزته، وأظْهَرَ بِرَّهُ وتكرمته. انتهت[1]. لعلّ هذا الرجل سبط جعفر الذي وقع له مع المنصور ما تقدّم؛ فكلا الرجُلَيْن - فيما أظنّ - من أهلِ بَيْت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، والكرامةُ أيضاً ظاهرةٌ في هذه الحكايةِ الأخرى، وتسخيرُ وصيف التركيّ للقيام بحقّه والجدّ في حفظه ممّا يَسَّرَ الله به النجاةَ وهيّأ له السلامة.

ومن وثق بالله، وتوكّلَ عليه، كفاه الله ما أهَمَّه، وفرّج عنه غمّه . ويُحكى أن إبراهيم بن المهدي[2] وقف بين يَدَيْ المأمون فقال له: يا ابراهيم، أنت المتوثِّبُ علينا تدّعي الخلافة؟ فقال له ابراهيم: أنت وليُّ الثأر والحُكْمِ والقِصاص، والعفوُ أقربُ للتقوى، وقد جعل الله أميرَ المؤمنين فَوْقَ كلِّ ذي عفو، كما جعل كلّ ذَنْبٍ دونه*، فإن عفا فبفضْلِهِ وإن عاقب فبحقّهِ، ولقد حضرتُ أبي - وهو جدّكَ - أُتي برجُلٍ، وهو أعظم من جُرْمي، فأمر بقتله، وعنده المبارك بن فضالة[3]، فقال المبارك: إن رأى أمير المؤمنين أن يستأنِيَ في أمرِ هذا الرجل فإني أحدّثه بحديث سمعتُه من الحسن: فقال: إيه يا مبارك.

=هـ (مروج الذهب ٤ / ٢٦٧) وقد توفي وصيف سنة ٢٨٩ هـ، (مروج الذهب ٤ / ٢٦٩).

(١) - الأئمة الاثنا عشر ١٠٧، البصائر والذخائر ٤ / ٢٢٣.

(٢) - هو أبو اسحق ابراهيم بن محمد المهدي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب يعرف بابن شكلة نسبة إلى أمه، بويع له بالخلافة في بغداد في أيام المأمون لكن المأمون هزمه، فاستخفى مدة طويلة حتى ظفر به المأمون فعفا عنه وتوفي سنة ٢٢٤ هـ (تاريخ بغداد ٦ / ١٤٢ - ١٤٨، وفيات الأعيان ١ / ٣٩).

* - في مروج الذهب: دوني.

(٣) - هو المبارك بن فضالة بن أبي أمية، كان جده مكاتباً للخليفة عمر بن الخطاب، وللمبارك أخوان روى الحديث عنهما هما المفضّل وعبد الرحمن، وقد حمل عن المبارك أحاديث كثيرة، وتوفي سنة ١٦٥ هـ (المعارف لابن قتيبة ١٩٠).

فقال: حَدَّثنا الحسنُ عن عمران بن حصين[1] أن رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «إذا كان يومُ القيامة نادى مُنادٍ من بطنان (ص ١٦٧) العرش ألا ليقومنَّ الغافِرون من الخُلَفاءِ إلى أكرمِ الجزاء فلا يقومُ إلاّ من عفا»، فقال له المهدي: قد قبلت الحديث، وعفا عنه، وأطلقه. فقال له المأمون: إيهاً يا عمّ قد قبلتُ الحديث لقبوله وعفوتُ عنك هاهنا. انتهت[2].

وإنّ هذا الكلام الصادر من إبراهيم بن المهدي في هذا المقام العظيم، من أنْفَسِ الكـلام وأبْلَغِـهِ، مع ما اشتمـل عليه من التلطُّفِ العجيب، والاستعطافِ البليغ. ومثل ابن المهدي في شرف مركبه، وكرم عُنْصُرِهِ، لا ينكر عليه ذلك، وما يُنْسَبُ له من تعاطي الغِناء، وإخجال النفس بذلك، فقد يُقال إنه كان قصداً منه، ليبعد عن التظاهر بالصلوح لمقام الخلافة، بعد إذ نجّاه الله من غائلةِ تعاطيها، وابتلاءاتِ الملوكِ ومن متّ إليهم بقربى أو صهر على نسبة أقدارهم، وفي لطف الله بهم عجائب.

حدّث ابراهيمُ بنُ سليمان بن عبد الملك بن مروان قال: لما أفْضَتِ الخلافةُ إلى أبي العبّاس السفّاح استخفى رجالٌ من بني أُميّة، وكنت ممّن استخفى، حتى أخَذَ لي الأمانَ داودُ بن العبّاس[3]. فقال لي السفّاح ذات يوم: يا ابراهيم، أخبِرْني عن أغربِ ما مرّ بك في استخفائك. فقلت: نَعَمْ يا أمير المؤمنين، كنت بالحيرة مستخفِياً في منزلٍ شارع[4] على الصحراء، فأشرفْتُ، فإذا خَيْلٌ وأعلامٌ سودٌ تأتي من الكوفة، فلم أشُكّ أنها تريدني، فخرجت متنكراً،

---

(١) ـ أبو نجيد عمران بن حصين الخزاعي، أسلم قديماً، وتوفي بالبصرة في خلافة معاوية سنة ٥٢ هـ (المعارف لابن قتيبة ٣٠٩).

(٢) ـ ورد هذا الخبر في مروج الذهب ٤ / ٢٩، تاريخ بغداد ٦ / ١٤٤ ـ ١٤٥، الأمالي ١ / ١٩٩، المستطرف ١ / ٤٢٠، بدائع السلك ١ / ٤٣٢.

(٣) ـ أبو سليمان داود بن علي بن عبد الله بن العباس عم أبي العباس السفاح، ولاه أبو العباس الكوفة، كما ولي مكة والمدينة، وكان خطيباً وتوفي سنة ١٣٣ هـ (المعارف لابن قتيبة ص ٣٧٤).

(٤) ـ في المستجاد: شارفٍ.

حتى أتيتُ الكوفة، وأنا لا أعرِفُ بها أحداً، فَحَمَلَتْني قدماي إلى رحبة عظيمة، وإذا رجلٌ حَسَنُ الهيئةِ راكبٌ ومعه جماعةٌ من غلمانِهِ وأتباعه، فلما رآني قصدتُه قال: ما حاجتُك؟ قلت: أنا رجلٌ أخافُ على نفسي، وقد استجرْتُ بك. فأدخلني منزله، ودعا بطعام، فأكلتُ وأنِسْتُ ثم نقلني إلى منزلٍ بإزاء داره، وأقمتُ عنده في أطيبِ مَطْعَمٍ ومَشْرب، لا يسألُني عن شيءٍ من أمري. ورأيتُه يُدْمِنُ الركوبَ في كلِّ يوم، فقلتُ له: أراكَ تُدْمِنُ الركوبَ في كلِّ يوم، فما شأنك؟ قال: إنَّ ابراهيمَ بن سليمان كان قد قتل أبي، فأنا أبحثُ عليه[1] لعلّي آخذُ بثأري منه. فعجبتُ من إدْبارِ أمرنا، إذ ساقني القَدَرُ إلى حَتْفي، في منزلِ من يَطْلُبُ دمي، وسئِمْتُ والله الحياةَ، فسألته عن اسم أبيه، فسمّاه، فعرفت أني قَتَلْتُه. فقلت له: يا هذا، إنّ لك عليَّ حقاً عظيماً، ومن حقّك أن أُقَرِّبَ الأمْرَ إليك، أنا ابراهيم قاتلُ أبيك، فَخُذْ ثأرك. قال: أظُنُّكَ أمَضَّكَ الاستخفاء، فأحببتَ المَوْتَ. فقلتُ: لا والله، ولقد قَتَلْتُهُ لسبب كذا. فلما عرف صِدْقي ارْبَدَّ وجهُهُ، واحمرّت عيناه، وأطرق مليّاً، ثم خرج. فلم أشُكَّ أنه قاتلي. ثم رجع وقال: يا هذا، أما أنا فلستُ أخْفِر ذمّتي، وإنك ستلقى غداً أبي، فيأخذ بحقّه منك، فخذ (ص ١٦٨) هذه الألفَ دينار تنتفع بها، واخرج، فإني لا آمن نفسي عليك. فخرجْتُ وحَمِدْتُ الله تعالى. فهذا أكرمُ من رأيته بعد أمير المؤمنين. انتهت[2].

وهذه الحكايةُ تشتمِلُ من غرابةِ الاتفاق، وغرابةِ الوفاء، وغرابةِ الكرم، على ما لا درجةَ فوقه. وقد دافعَ الله عن هذا الرجلِ بذلك المَنِيَّةَ، فسبحانَ الله ما أخفى لُطْفَه، وأجمل صُنْعَه!!

ويُحكى أنه وقَفَ رجلٌ بين يديْ المأمون فقال: والله لأقتلنّك. فقال

(١) - كذا في الأصل.

(٢) - وردت هذه الحكاية في المستجاد من فعلات الأجواد ص ٣٢ - ٣٤، لباب الآداب ١٢٨ - ١٢٩، بدائع السلك ١ / ٤٦٠.

الرجل: يا أميرَ المؤمنين، تأنَّ عليَّ فإنَّ الرفْقَ يضعف العقوبة. قال: وقد حَلَفْتُ لأقتلنّك؛ فقال: يا أميرَ المؤمنين، لَأنْ تَلْقى الله - عزَّ وجلَّ - حانِثاً خيرٌ من أن تلقاه قاتلاً. قال: فخلّى سبيله. انتهت. فانظر إلى لُطْفِ الله تعالى كَيْفَ لقّن هذا الرجُلَ هذه الحجَّةَ النافعةَ له عند هذا الخليفة، الشاهدةَ له بالحِلم - رحمه الله - والمنقذةَ لهذا القائل [من][1] الهلكة فسبحان اللطيف الخبير!.

وقال الهيثمُ بنُ عديّ[2]: كان يزيدُ بن قُرَّة الشَّيْباني شديداً منيعاً، وكان يرى رَأْيَ الخوارج، ولم يكن يخشى عُمّالَ العراقِ، فغاظَ ذلك الحجاجَ، وبلغ منه، فكتب إليه عبدُ الملك أن احتلْ له، فإن قدرت عليه فاضرِبْ عنقه. فدعا الحجاجُ يزيدَ بن رَوْح[3] وجريرَ بن يزيد، فأكرمهما وأدناهما، وقال ليزيد: لك شُرَطُ العِراقِ ولجرير ديوانُ الخراجِ[4] إن أنتما أتيتُماني بيزيد بن قرّة. فركبا إليه، فقالا له: إنَّ الأميرَ قد غَضِبَ عليك، وإنّنا نخافُ أن ينال غَضَبُهُ جميعَ أهلك، فاركب إليه. قال: لا أفعل، فإنه إن نظر إليّ قتلني. قالا له: ما هو بفاعل، ولا بدَّ لك أن تركبَ معنا. فأتى مَعَهُما، وتهيَّأ للقتل، وخرج نساؤه معه. فلما دخل على الحجّاجِ قال له: يزيد بن قرّة؟ قال: نعم. قال: قَتَلَني اللهُ إنْ لم أَقْتُلْكَ. قال: نشدتك الله إن تَقْتُلْني، فإني قَيِّمُ أربعٍ وعشرين امرأة، ليسَ فيهنَّ رَجُلٌ غيري، ولا لهنّ قيِّمٌ سواي. قال: ومن يعلم ذلك؟ قال: هُنَّ بالباب. فأمر بإدخالهنّ، وكلُّ واحدةٍ منهنّ تقول: اقتُلْني ودعه. فيقول: من أنتِ؟ فتقول عمَّتُه أو خالتُه أو بِنْتُه أو بنتُ أخٍ أو بنتُ أخت. حتى اجتمعن بين يديْه، فقالت أختُه:

أحَجَّـاجُ هَبْــهُ اليَوْمَ للهِ وَحْــدَهُ   وللبـاكياتِ الصـارخـاتِ تَفَجُّعَـا

---

(١) - في الأصل: لهذا.

(٢) - من طيء وكان يرى رأي الخوارج، ولد سنة ١٣٠ هـ وتوفي سنة ٢٠٩ هـ وكان من مشاهير النسابين والمؤرخين (المعارف لابن قتيبة ص ٥٣٨، الفهرست لابن النديم ص ١١٢).

(٣) - في المستجاد يزيد بن رويم.

(٤) - في الأصل: الخوارج، والصواب من المستجاد.

أحجّاجُ إمّا أنْ تَمُنَّ بنِعْمَةٍ ... عَلَيْنا[1] وإمّا أنْ تُقتِّلَنا مَعا

أحجّاجُ كَمْ تَفْجَعْ به إنْ قَتَلْتَهُ ... ثماني عَشْرٍ واثنتين وأرْبَعا

أحجّاجُ لَوْ تَسْمَعْ بُكاءَ بناتِهِ[2] ... وعمّاتِهِ يَنْدُبْنَهُ[3] الليلَ أجْمَعا

(ص ١٦٩) فرقّ لهنّ الحجّاج، وكتب في أمره إلى عبدِ الملك[4]، يصِفُ ما جرى. فكتب له: اعفُ عنه، وألحِقْ أهْلَهُ بالعطاء. ففعل. انتهت[5].

وإنّ في مثلِ هذه الحكايةِ لعبرةً لمن نظر واستبصر، فقد كان الموتُ لهذا الرجلِ بسعاية الحجّاج حاضراً، ثم كانت الحبايةُ له بسببه فيها كذلك، فهل هذا إلاّ تسليطٌ من الله أوّلاً ثم تدارُكٌ باللطف ثانياً. فسبحانَ الله ما أخفى لطفه، وما أقرَب رَحْمَتَه! ورحِمَ الله عليّاً بنَ الجهم[6] حيث يقول[7]:

ولكلّ حالٍ معقبٌ ولربّما ... أجْلى لك المكروهُ عمّا يُحْمَدُ

وعلى مثل هذه الحكاية يتنزّل قولُ ابنِ أبي فنن[8]:

رُبَّ أمْرٍ سَرَّ آخِرُه ... بَعْدَما ساءَتْ أوائِلُهُ

ولا ينبغي أن يُسْتَقَلَّ قليلُ الخَيْر من سَتْرِ عورةٍ، أو إقالةِ عَثْرةٍ، فقد يُثْمِرُ

---

(١) ـ في المستجاد: عليه.

(٢) ـ في المستجاد: نسائه.

(٣) ـ في المستجاد: يفدينه.

(٤) ـ في المستجاد: فرقّ لها الحجاج وبكى وحبسه وكتب في أمره إلى عبد الملك...

(٥) ـ وردت هذه الحكاية في «المستجاد من فعلات الأجواد» لأبي علي التنوخي ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤.

(٦) ـ أبو الحسن علي بن الجهم بن بدر بن الجهم بن مسعود القرشي، وقد أسلفنا الترجمة له.

(٧) ـ ديوان علي بن الجهم ص ٤٤.

(٨) ـ هو أبو عبد الله أحمد بن أبي فنن صالح بن أبي معشر، مولى أبي جعفر المنصور، كان أسود اللون وبلغ سناً عالية وتوفي بعد ٢٧٦ هـ، وله شعر، (تاريخ بغداد ٤ / ٢٠٢، طبقات الشعراء لابن المعتز ٣٩٦، فوات الوفيات ١ / ٣١، الوافي بالوفيات ٦ / ٤٢٣).

ذلك فائدةً، ويُنْتِجُ مصلحة، كالمحكيّ من ذلك عن الشاعرِ المعروفِ بابن أسد[1]، قال العمادُ الأصبهاني[2]: سمعتُ مَـجْدَ الدين يقول إنه كان بآمد[3] شاعرٌ مُفْلِقٌ يقال له ابن أسد، فانتحل الكاملُ الطبيب البردي الأصبهاني[4] قصيدةً له رائيّةً عند كونه بالشام في رَيْعانِ عمره، وعنفوانِ أمره، ومدح فيها بعض أمراءِ العرب، فأمر له بمائةِ ناقة. فقال له ندماؤه: أيُّـها الأمير، هذه قصيدةُ ابن أسد ،معروفةٌ سائرة. فكتب الأمير إلى ابن أسد بآمد: قد أتانا شاعرٌ وَمَدَحَنا بقصيدةٍ هي كذا، وزعم بعض خواصّـي أنها لك، فإن كانَتْ لك فأخْبِرْنا حتى لا نَصِلَهُ بشيء، وإن كانت له نزيدُهُ في صِلَتِهِ. فكتب ابنُ أسد إليه يَـحْلِفُ بالأيمان أنه ما سَمِعَها ولا قالها. فلما ارتقى أمرُ الكاملِ أيّامَ نظامِ المُلْك، وانتظمت أمورُهُ من السعادةِ في سِلْك، وتوجّه ملك شاه إلى الشام، والكاملُ في خدمةِ النظام، وأمر السلطانُ بالقبضِ على ابن أسَدٍ، لكوْنِهِ استولى على آمد، وبمُلْكها استبدّ، فأُحْضِرَ مكتّفاً حاسِراً حافياً، وظُنَّ أنه أصبح خاسِراً، فمرّ به الكاملُ راكباً، وكان من عِرْفانِهِ ناكباً، فقرب منه، فسأل عنه، فقيل له: هذا ابنُ أسد قد استُؤسر[5]. فنزل عن دابّته، ومنع الحواشي عن حاشيته. ثم

---

(١) ـ أبو نصر الحسن بن أسد بن الحسن الفارقي، شاعر رقيق الشعر كثير التجنيس كان في أيام نظام الملك والسلطان ملكشاه وشمله منه الجاه، وخلّصه الكامل الطبيب أبو سالم الذي كان مستولياً على آمد أيام ناصر الدولة بعد أن قبض عليه نظام الملك وأساء إليه (انظر ترجمته في: معجم الأدباء ٨ / ٥٤ ـ ٧٥، الوافي بالوفيات ١١ / ٤٠١ ـ ٤٠٤).

(٢) ـ هو العماد الكاتب الاصفهاني الشهير وزير صلاح الدين الأيوبي وكاتبه وصاحب المؤلفات الشهيرة منها: الخريدة والفتح القسي وغيرهما، اسمه أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد بن عبد الله ولد باصبهان سنة ٥١٩ هـ وتوفي ٥٩٧ هـ (معجم الأدباء ١٩ / ١١ ـ ٢٨، الوافي بالوفيات ١ / ١٣٢).

(٣) ـ في الأصل: بأسد.

(٤) ـ ورد اسمه في الوافي بالوفيات (١١ / ٤٠٢) الغسّاني وكذلك في معجم الأدباء ٨ / ٥٧. وورد أيضاً أن الأمير الذي أنشدت القصيدة بحضرته هو أحمد بن مروان صاحب ديار بكر.

(٥) ـ في الأصل: هذا ابن أشر دلى قد استاسر.

تشفَّعَ فيه إلى السلطانِ في حقِّه، وأخرجَهُ من ساعته، من الحَبْسِ بشفاعته، فقال له ابن أسَد: مَنْ أنت؟ ومِنْ أين تعرفُني؟ حتى أرى منك لِهذا الجميلَ الذي يشمُلُني ويكنُفُني. فقال له: أنا منتحِلُ قصيدتِكَ الرائيّة. فقال: هي لك، فإني ما انتفعت (ص ١٧٠) بنظمها كما انتفعتُ بانتحالِكَ إيّاها. انتهت[١]. وانظر إلى ما جنى هذا الشاعرُ بعدم فضيحةِ هذا المنتحلِ لشِعْرِهِ من الفائدةِ العظيمة، والمصلحةِ الجسيمة.

ومن تاريخِ بغداد[٢] عن عمر بن حبيب[٣] قال: حضرتُ مجلسَ هارونِ الرشيد، فجرت مسألةٌ تنازعها الحضور وَعَلَتْ أصواتُهم، فاحتجّ بعضُهم بحديثٍ يرويه أبو هريرة عن النبي صلّى الله عليه وسلّم، فدفع[٤] بعضُهم الحديث، وزادت المدافعةُ والخِصام، حتى قال قائلون منهم: لا نجد[٥] هذا الحديثَ عن رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم، فإنّ أبا هريرة مُتَّهَمٌ فيما يرويه. وصرّحوا بتكذيبه. ورأيتُ الرشيدَ قد نحا نحوهم، ونَصَرَ قولَهم. فقلت أنا: الحديثُ صحيحٌ عن رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم، وأبو هريرة صحيحُ النَّقْل، صدوقٌ فيما يروي عن نبيّ الله صلّى الله عليه وسلّم. فنظر إليّ الرشيدُ نَظَرَ مُغْضَبٍ. فقمتُ من المجلس، وانصرفتُ إلى منزلي. فلم ألبَثْ حتى قيل: صاحبُ البريدِ بالباب. فدخل فقال: أجِبْ أميرَ المؤمنين إجابةَ مقتول، وتَحَنَّطْ وتكفَّنْ. فقلت: اللهُمَّ إنّك تعلمُ أنّي دفعتُ عن صاحبِ نبيّك، وأجللْتُ نبيَّكَ صلّى الله عليه وسلّم أن يُطعنَ على أصحابِه، فسلّمني منه. فأُدْخِلْتُ على الرشيدِ، وهو جالسٌ على كرسيٍّ من ذهب، حاسرٌ عن ذراعَيْه، بيدِهِ السيْفُ، وبين يديه النِطْع. فلما بصر بي قال: يا عمر بنَ حبيب، ما تلقّاني

---

(١) - انظر هذه القصة في: معجم الأدباء ٨ / ٥٧ - ٦١، الوافي بالوفيات ١١ / ٤٠٢.

(٢) - تاريخ بغداد للحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي (١١ / ١٩٧).

(٣) - هو عمر بن حبيب العدوي من أهل البصرة، ولي قضاء البصرة للخليفة الرشيد كما تولى قضاء الجهة الشرقية من بغداد وتوفي سنة ٢٠٧ هـ. (انظر: تاريخ بغداد ١١ / ١٩٦ - ٢٠٠).

(٤) - في تاريخ بغداد: فرفع.

(٥) - في تاريخ بغداد: لا يحلّ.

أحدٌ من الردِّ والدفعِ لِقَوْلي بمثلِ ما تَلَقَّيْتني به. فقلت: يا أميرَ المؤمنين، إنّ الذي قُلْتَ وجادَلْتَ عليه فيه إزراءٌ على رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم وعلى ما جاء به، إذا كان أصحابُه كذّابين فالشريعةُ باطِلة، والفرائضُ والأحكامُ في الصلاةِ والصيامِ والنكاحِ والحدودِ كلّها مردودةٌ وغيْرُ مقبولة. فَرَجَعَ إلى نَفْسه وقال: أحييْتَني يا عمر بن حبيب أحْياكَ الله، أحييتَني أحياكَ الله. وأمر لي بعشرةِ آلافِ درهم. انتهى[1] فهذا ثمرةُ الصِدْقِ في القَوْل، وتحرّي الحقّ في الجواب. وتأمَّلْ دفاعَ الله عن هذا الرجل، وما وَضَعَ الله له في قَلْبِ الرشيد من القبول لحجّته، والإذعانِ لرأيه، حتى انْقَلَبَ من العزمِ على إهلاكِه، إلى الإحسان إليه، ومن الإرادةِ لموته، إلى السعيِ في إصلاحِ حياته.

وقد يسنّي الله الفرجَ، وييسُّرُ الخلاصَ لبعض المُبْتَلين على يدِ مَنْ شاءَ من عِبادِهِ، وبرأفةٍ يُلْقيها الربُّ اللطيف في فؤاده، فيثمرُ له ذلك مزيَّةَ اخْتِصاص، أو مزيدَ فَضْلٍ من الله، وإنعامَ كرامةٍ، لمن تَيَسرَتْ نَجاتُه بسببِهِ وعلى يده. فقد كان «بغاء»[2] (ص ١٧١) التركيّ ديّناً، وكان من غلمانِ المعتصم، يشهد الحروبَ العظام، ويباشرُها بنفسه، فَيَخْرُجُ منها سالماً، ويقول: «الأجلُ جَوْشَن»[3]. ولم يكن يلبَسُ شيئاً من الحديد. فعُذِلَ في ذلك، فقال: رأيتُ في نومي النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم، ومعه جماعةٌ من الصحابة، فقال لي: يا بغاء، أحسنتَ إلى رَجُلٍ من أمّتي فدعا لك بدعواتٍ استُجيبَ له فيك. فقلت: يا رسولَ الله، ومن ذلك الرجل؟ قال: الذي خَلَّصْتَهُ من السِباع فقلت: يا رسولَ الله، سلْ ربّك أن يُطيلَ عمري. فشال بيده نحو السماء وقال: اللهُمّ أطِلْ عمره وانْسأْ في أجله. فقلت: خمسٌ وتسعون سنة. فقال: خمس وتسعون

---

(١) - انظر هذه الحكاية في تاريخ بغداد ١١ / ١٩٧.

(٢) - يعرف ببغا الكبير تمييزاً له عن بغا الصغير المقتول سنة ٢٥٤ هـ، أما بغا الكبير فهو أبو موسى التركي أحد قواد المعتصم والمتوكل، وكان شجاعاً يباشر الحروب بنفسه، وتوفي في حدود سنة ٢٥٠ هـ (الوافي بالوفيات ١٠ / ١٧٢).

(٣) - الوافي بالوفيات ١٠ / ١٧٣.

سنة. فقال رجلٌ كان بين يديه: ويُوَقّى من الآفات. فقال النبيُّ عليه السلام: ويُوَقّى من الآفات. فقلت للرجل: مَنْ أنتَ؟ قال: عليُّ بن أبي طالب. وكان بغاء كثير التعطّفِ والبرِّ للطالبيّين فقيل له: مَنْ كان ذلك الرجلُ الذي خلّصْتَهُ من السباع؟ قال: أُتِيَ المعتصمُ برجلٍ قد رُمِيَ ببدعة، فجرت بينهم في الليل مخاطبةٌ في خَلْوة. فقال المعتصم: خذه فألْقِهِ إلى السباع. فأتيتُ بالرجلِ إلى السباع لأُلْقِيَهُ إليها، وأنا مغتاظٌ عليه، فسمِعْتُهُ يقول: تَعْلَمُ أنّي ما تكلَّمْتُ إلاّ فيك، ولا نَصَرْتُ إلاّ دِينَكَ، ولا أثْبَتُّ إلاّ تَوْحِيدَكَ، ولم أُرِدْ بذلك غَيْـرَكَ، تَقَـرُّبـاً إليكَ بطاعتِكَ، وإقامةً للحقّ على من خالَفَكَ، أفتُسْلِمُني؟! قال: فارْتَعَدْتُ، وداخلَتْني له رِقَّةٌ، ومُلِيء قلبي مِنْهُ رُعْباً، فجذبته عن طَرَفِ بِرْكَةِ السِباع، وأتيتُ به حُجْرَتي فأخفَيْتُهُ. وأتَيْتُ المعتصِمَ فقال: هيه. فقلت: ألقيتُهُ. قال: فما سَمِعْتَهُ يقول؟ قلت: أنا أعجميٌّ، وكان يتكلَّمُ بكلامٍ عربيّ، ما كنتُ أعْلَمُ ما كان يقول. وقد كان الرجلُ أغْلَظَ للرجلِ في خطابه، فلما كان في السَّحَر، قلتُ للرجل: قد فتحتُ الأبوابَ وإنّا نُخْرِجُكَ مَعَ رجالِ الحرس، وقد آثَرْتُكَ على نفسي، وَوَقَيْتُك بِرُوحي، فاجهد أن لا تَظْهَرَ في أيامِ المعتصم. انتهت[1].

وظاهرٌ من هذهِ الحكايةِ أنّ هذا الرجُلَ كان صادقَ الوجهة في الذبِّ عن سُنّة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. وقد آثَرَ الله بغاءً هذا من أجْلِهِ بكرامةٍ من رُؤْيا النبيّ في نَوْمِهِ، حسبما أشير إليه في موضعٍ آخر، فإنّ الشيطانَ لايتمثل به.

وحدّث الأستاذُ أبو عبد الله بن عمر بإسنادهِ إلى أنَس قال: كان رَجُلٌ من أصحابِ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يَتّجِرُ بمالٍ له ولغيره، ويضربُ به في الآفاق، وكان ناسكاً وَرِعاً، فخرج مرّةً، فلقيه لصٌّ مقنعاً في السلاح، فقال له: ضَعْ ما معك، فإني قاتِلُك. فقال له: وما تريد بقتلي؟! شأنك والمال. قال: المالُ مالي، ولستُ أريد إلاّ دَمَكَ. قال: أما (ص ١٧٢) إذْ أبيتَ فَذَرْني أصلّي أرْبَعَ ركعاتٍ. قال: صلِّ ما بدا لك. ففعل، فكان من دُعائِهِ في آخر

(١) ـ انظر: الوافي بالوفيات ١٠ / ١٧٣.

سجدة أنْ قال: يا وَدودُ، يا ودود يا ذا العرشِ المجيد، يا فعَّالٌ لما يريد، أسألُكَ بعزِّك الذي لا يُرام، ومُلْكِكَ الذي لا يُضام، وبنُورِ وجهكَ الذي مَلأ أركانَ عَرْشِك، أن تكفِيَني شَرَّ هذا اللصّ، يا مغيثُ أغِثْني، يا مغيثُ أغِثْني، يا مُغيثُ أغِثْني. قال: دعا بهذا ثلاثَ مرّات. فإذا هو بفارسٍ قد أقبل، بيده حَرْبة، وضعها بين أذني فرسه. فلما بصر باللصِّ[1] أقبل نحوه فطعنه فقتله ثم أقبل إليه فقال له: قم. قال: مَنْ أنت بأبي وأمّي؟ فقد أغاثَني الله بكَ اليوم. قال: أنا مَلَكٌ مِنْ أهلِ السّماء الرابعةِ، دعوتَ بدعائِكَ الأوّلِ فَسمِعَتْ لأبوابِ السّماءِ قَعْقَعة، ثم دعوتَ بدعائك الثاني فسُمِعَتْ لأهلِ السّماءِ ضَجَّة، ثم دعوتَ بدعائِكَ الثالثِ فقيل دعاءُ مكروب، فسألتُ الله عزَّ وجلَّ أن يُوليني قَتْلَه. قال أنَس: فاعْلَمْ أنّه من تَوَضّأ وصلّى أرْبَعَ ركعات ودعا بهذا الدعاءِ مكروباً كان أو غَيْـرَهُ استُجيب له. انتهت. وهذه داخلةٌ في باب الكرامات.

وأشبهُ شيْءٍ بها ما حُكِيَ أنَّ زَيْدَ بنَ حارثة[2] خرج مع منافِقٍ من مكّة إلى الطائف قال: فبلغا لخربةٍ، فقال المنافقُ: ندخلُ هاهنا ونستريح. فدخلا وناما، فأوْثَقَ المنافِقُ زَيْداً وأراد قتله، فقال زيد: لِمَ تَقْتُلني؟ قال: لأنَّ محمداً يُحِبُّك وأنا أُبْغِضُه. فقال زيد: يا رحمنُ اغثني. فسمع المنافقُ صوتاً يقول: وَيْحَكَ لاتقتله. فخرج من الخربة، ونظر فلم يَرَ أحداً، فرجع وأراد قتله، فسمع صائحاً أقربَ من الأوّل يقول: لا تقتله. فنظر فلم يَرَ أحداً. فرجع الثالثة وأراد قتله، فسمع صوتاً قريباً يقول: لا تقتله. فخرج فرأى فارساً معه رمح، فضربَهُ الفارسُ ضَرْبةً فقتله، ودخل الخربةِ، وحلّ وثاقَ زيد، وقال له: أما تعرفُني؟ أنا جبريل، حيثُ دعوتَ فكنتُ في السماءِ السابعة، فقال الله عزَّ وجلّ «أدرِكْ عَبْدي» وفي الثانية كنتُ في السماء الدنيا، وفي الثالثة بلغتُ المنافِقَ. انتهت.

---

(١) - في الأصل: فلما بصر به اللصُّ.

(٢) - هو أبو أسامة زيد بن حارثة بن شراحيل من «كلب» من موالي الرسول عليه السلام، أمّره الرسول على الجيش يوم مؤتة فاستشهد بها سنة ثمان للهجرة. (المعارف لابن قتيبة ص ١٤٤، الوافي بالوفيات ١٥ / ٢٧).

وكَوْنُ الابتلاءِ مُتَوَقَّعاً من سطوةِ ظالم، أو جبروتِ سلطان، ثم يتأتّى صرفُه بسببِ ظاهرٍ أو باطن، هو المعتادُ في الوجود، والجاري في العالَمْ، وإنّما الذي يعجب منه ما يتولّى الله فيه الدفاعَ عمّن شاء، بما شاء من مخلوقاته، التي لا يتأتّى بها صرفُ الابتلاء، إلاّ بتسخيرٍ من الله، أو تيسيرٍ من لُطْفِهِ، كما رُوِيَ عن ذي النون المصري[1]قال: كنتُ في البيت، إذْ وقعت زلزلة في قلبي، وصرتُ بحيث ما ملكت نفسي، فخرجتُ من البيت، وانتهيتُ إلى شطِّ النيل، فرأيتُ (ص ١٧٣) عَقْرَباً قوياً يعدو، فتبعْتُهُ، فوصل إلى شطِّ النيل، فوجد ضفدعاً، فركبه العقربُ وسبح به، فركبتُ السفينة وتبعتُهُ، فوصل الضفدعُ إلى الطرفِ الآخرِ من النيل، ونزل العقربُ من ظهرِهِ يعدو، فتبعتُهُ، فرأيتُ شاباً نائماً تحت شجرة، ورأيتُ أفعى تقصده، فلما قَرُبَ الأفعى من ذلك الشابّ، وصل العقربُ إلى الأفعى، فوثب العقربُ إلى الأفعى ولدغته، والأفعى أيضاً لدغت العقرب، فماتا معاً، وسلِمَ ذلك الإنسانُ منه. انتهى.

فانظرْ إلى دفاع الله عن هذا الرجل النائم، من غيرِ سببٍ منه ظاهر؛ إذ قد يمكن أن يكونَ الدفاعُ عنه بسببِ استعاذةٍ بالله عند نومه، أو بمجردِ اللُّطْفِ من اللطيف الخبير، لا إله إلاّ هو.

وقد تقدّم قولُ الرجُلِ للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم: يا رسولَ الله، ماذا لقيت البارحةَ من عقرب لدغتني! فقال له: **«أما أنّكَ لو قُلْتَ حين أمْسَيْتَ أعوذُ بكلماتِ اللهِ التامّاتِ من شرِّ ما خلق لم يضرّك»**[2]. فتذكر ذلك.

---

(١) ـ هو أبو الفيض ثوبان بن ابراهيم المصري العابد المعروف بذي النون المصري متصوف مشهـور وهو من رواة الموطأ للإمام مالك، وكان من الحكماء الفصحاء قدم إلى بغداد وحضر مجالس المتوكل، وله شعر، توفي سنة ٢٤٨ هـ بمصر. (حلية الأولياء ٩ / ٣٣١ ـ ٣٩٥، ١٠ / ٣ ـ ٤، تاريخ بغداد ٨ / ٣٩٣ ـ ٣٩٧، طبقات الصوفية ص ١٥، طبقات الأولياء ص ٢١٨، وفيات الأعيان ١ / ٣١٥ ـ ٣١٨، الوافي بالوفيات ١١ / ٢٢).

(٢) ـ صحيح مسلم ٨ / ٧٦.

ولعلَّ هذا النائم في الحكايةِ المسرودة آنفاً، الذي نجّاه الله من شرِّ الأفعى القاصدة لاذايته، كان ممّن قال هذا القولَ المأثورَ عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أو مثله ممّا حصل به في جوارِ الله وعياذه، فقيّض الله من العقربِ التي صرف الله بها عنه شرَّ الأفعى ما قيّض، وهو ممن وقي الهلاك بالهلاك.

خاتمة لهذه الصورة الرابعة

لا تعدُّ المتوقَّعاتُ العظيمةُ التي صرف الله عن السلطانِ الغالبِ بالله - أيّده الله - ودَفَعَ عنه عاديتها. فتتعيَّن المواطنُ المخوفةُ، وتتبيّنُ المشاهدُ المرهوبةُ، وتتعدَّدُ المفاوضاتُ التي يقع بها الاتفاقُ على السوءِ المسمّى بالأخذ بالجرم، ويحصل العزم على العدوان، البارز في مسلاخ الايثار للحوطة. وفي كل ذلك تعارض ألطافٌ من الله خافية، وعناياتٌ من لدنه ظاهرة، فيتأتّى من نقضِ تلك العزائم، والحيلولةِ دون المرادِ من هذه المقاصد، ما يشهد لله تعالى بالمشيئة النافذة، والإرادة الغالبة. وقد استسلم أحياناً حيث لا يمكن إلّا الاستسلام، ولا يقع إلّا التفويض لمن بيده النقضُ والإبرام، فتطوى الضمائرُ على القدرةِ الضلعاء، والفتكةِ الشنعاء، ولا يستطيعُ المُضْمِرُ لذلك القصد أن ينفّذَ ما أسرّه، ولا تنفك اللطائفُ الغريبةُ تتصرَّفُ (ص ١٧٤) في حمايته، حتى يكفيه الله شرّه.

وقد شُوهِدَتْ من ذلك قضايا خلت من التسبّباتِ المعتادةِ جُمْلةً، وعَرِيَتْ عن التصرّفاتِ المعهودة بتّة، وخلص فيها التدبيرُ الإلهيُّ بالتكييفاتِ العاطلةِ عن تطلُّبِ غايات ما تؤمّه المقاصدُ البشرية. حتى إذا تمخّض الكونُ عن زبدةِ ما انفلقت عنه أكمام الأقدار المكنونة صورها في أصْونَةِ الغيب، أفضى ذلك بالناظرِ المتأمّلِ إلى عجائبَ من الصنعِ الربّاني، تبهر العقول، وتُعيي المكتوبَ[1] والمقول. وإنّ في نجاته من بين أنيابِ النوائب، وأفواهِ المنايا فاغرة، غير ما مرّة، بل غير ما ألف مرّة، لآيةً شاهدةً بأنّ الله استخلَصَهُ ممدودَ

---

(١) - في الأصل: المكتوه.

اللين بقوةٍ منه، معضود الأمر بحبلٍ منه، ليرغم به أنوفاً طالما عارضت القَدَرَ في إقامةِ الله إيّاه بالمظهر الذي به أقيم، ونازعَتِ القضاء في صدّه عن الرتبة التي بها أُجِلّ، وليخضع له رقاباً لم تكُنْ له بالعادة قوة على قَوْدِها في سِلسلة طاعته، لولا أنّ الله اقتداها له راغمةً، وساقها لخدمته كارهةً، وليستأصل به جبابرةً دلّاهم الشيطانُ بغرور، ووكلهم من حولهم وقوتهم إلى الاستظهار بثوبَيْ زور، وصدق الله فهو القائل: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ الله لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾[1] فاقتلع منهم الجراثيمَ، وأتعسَ فيهم الكَفّارَ الأثيم، على حين وهنٍ من القوى المعتادة، ومصادمةٍ لاطّراد مجاري العادة، والبقاء في أثناء التلبّسات بمحسّنات الدخول بالمقادة، والله على أمره غالب، والغالبُ به عزّ ملكه ليس له مغالب.

ونحن نُؤْثِرُ اختصارَ التعيين لهذه القضايا التي وقعت الإشارةُ إليها، ودلّت هذه النبذةُ المتلفّعة بقناع الإجمال عليها. فكم وقى الله ذاتَهُ الكريمَةَ من سوء! ودفع عن حوزته الرفيعة مِنْ مكروه! وعلى ذلك كلّه، فلم يثْمِر له ما أُطْعِمَ من النصر، وأُمِدّ به من الظفر، نظراً للحقّ، ولا صُدُوفاً عن الموعظة، ولا اغتراراً بالدنيا، ولا استطالةً بالمقدرة، مما يقتضيه العزُّ بالذات، ويستدعيه الملكُ بالطبع.

قال ازدشيرُ في عهده إلى من يخلف بعقبه من ملوكِ فارس ما نصّه: «إنّ ضيع[2] الملوك غير ضيع[3] الرعية؛ فالمَلِكُ بطَبْعه العزُّ والأمنُ والسرور والقدرةُ على طباع الأنفةِ والجراةِ والبصرِ[4] والعبثِ، ثم له كلما ازداد في العمر تنفساً، وفي المُلْكِ سلامةً، زيادة في هذه الطبائع الأربع حتى يسلمنه[5] إلى

---

(١) ـ الآية ٤٠ من سورة النور.

(٢) ـ في عهد أردشير: صيغ.

(٣) ـ في عهد أردشير: صيغ.

(٤) ـ في عهد أردشير: والبطر.

(٥) ـ في عهد أردشير: يسلمه ذلك منه.

سُكْرِ السلطان الذي هو أشَدُّ من سُكْر الشراب[1]، فينسى النكباتِ والعثراتِ والغِيَـرَ والدوائرَ، ويُحِسُّ[2] تسلُّطَ الأيام، ولوم[3] غلبة (ص ١٧٥) الدهر، فيرسل يده ولسانَه بالفعلِ والقول. وقد قال أوّلونا[4]: «عند حُسْنِ الظنّ بالأيّام تحدثُ الغِيَر» وقد كان من الملوكِ من يذكره عزُّه الذلَّ، وأمنُهُ الخوفَ، وسرورُه الكآبةَ، وقدرُه[5] المَعْجزَة، فإذا هو قد جَمَعَ بَهْجَةَ[6] الملوك، ومكرة[7] السوقة، ولا جَرَم[8] إلاّ في جمعها[9]» انتهى[10]. وفي هذا الكلام أنموذجٌ مما يأخذ به الغالبُ بالله نَفْسَهُ في نحو مما ذكر. حفظ الله عليه رُتْبَةَ النعمة، وأوزعه وإيانا شُكْرَ الموهبة.

---

(١) ـ في عهد أردشير: سكر الخمر ونحابته.

(٢) ـ في عهد أردشير: وفحش.

(٣) ـ في عهد أردشير: ولؤم.

(٤) ـ في عهد أردشير: الأولون منا.

(٥) ـ في عهد أردشير: وقدرته.

(٦) ـ في عهد أردشير: مهجة.

(٧) ـ في عهد أردشير: وفكرة.

(٨) ـ في عهد أردشير: ولا حزم.

(٩) ـ في عهد أردشير: جمعها.

(١٠) ـ عهد أردشير ص ٤٩ ـ ٥٠ (حققه وقدّم له: الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٧م).

تتميم

إذا كانتْ مِنَنُ اللهِ في دفاعه عن عبده معوزةَ العدّ، متجاوزةً في باب اللُطفِ الخفيِّ لمعتاد الحدّ، فمن الذي يوفي حَمْدَهُ على ما أسْبَغَ في ذلك من آلائه؟! ومَنْ الذي يقوم بشكرِ ما أجزل في هذا المعنى من نَعْمائه؟! وهذا المحلُّ ممّا يتأكَّدُ فيه الاستكثارُ من الحَمْد، ويترجَّحُ فيه الأخذُ من ذلك بأقصى الحدّ. فلله الحمدُ حَمْداً نستقصي به أنواعَ محامِده السابقة واللاحقة، ونماثِلُ به حَمْدَ مَنْ قام بِحَمْدِهِ من الأوّلين والآخرين، ونستوجب به رضاه، فلا نخشى بعده من سُخْطِهِ أبَدَ الآبدين، ودَهْرَ الداهرين، ونتبوّأ به في حضائر قدسه، وحضراتِ تقريبِهِ وأُنْسِهِ، في أعلى علّيين.

الصُّورة الخامِسَة

أن يكون الابتلاء في النفوس وما ذُكِر معها واقعاً في الحال، وهو مع ذلك مرجوّ الزوال، كغَيْرِ المُزْمِنِ من أنواعِ الأسْقامِ، وأصنافِ الآلام، ومِحَنِ العذاب، وشدائدِ الاغتراب وأهوالِ البحارِ، وأحوالِ الاضطرار، وكاللاحقِ من أزماتِ الاعتقال، وغلباتِ الرجالِ، ومذلاتِ الأمار، ومواقِفِ العُنْفِ والاقتصار، وحضورِ المخاوفِ، وشهودِ المتالِفِ، وما أَشْبَهَ هذا كُلّه من التمحيصاتِ التي يُمْكِنُ رَفْعُها، ويتأتّى صرفُها ودَفْعُها، ويُرْجى لطفُ اللهِ في إزالتِها، ويُرْتَقَبُ الفَرَجُ من لَدُنْهُ باستحالةِ حالتِها، وهنا يَتَنزَّلُ قولُ القائل:

لا يَعْـرِفُ الـمـرءُ إذا لم يُصَبْ بنـكـبـةٍ ما مَوْقـعُ الـعـافـية

وبحقٍّ فإنَّ النِعْمةَ لا يُقدَّرُ قدرُها إلّا إذا فُقِدَتْ، ولذلك يشيرُ قولُ النبيِّ صلّى الله عليه وسلّم: **«نِعْمتانِ مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس: الصحةُ والفراغ»**[1] لأنه يتأتّى في هاتين الحالتين من مَصالحِ الدين ما لا يتأتّى مع المَرَضِ والشُغل. وما أعْجَبَ ما قال بعضُ الحكماء، وقد سُئل: (ص ١٧٦) مَن السعيدُ في الدنيا؟ فقال: «مَنْ وُلِدَ سليماً وعاشَ مُعافىً وماتَ فأُتْبِعَ بثناءٍ جميل». انتهى. ولا يبعدُ أن يكونَ هذا سعيداً في الآخرةِ لقولِ[2] النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: **«أنْتُمْ شهداءُ الله في الأرض»**.[3]

---

(١) ـ صحيح البخاري ٧ / ١٦٩ ـ ١٧٠، مسند ابن حنبل ١ / ٢٥٨.

(٢) ـ في الأصل: لكون.

(٣) ـ صحيح البخاري: ٢ / ١٠٠، سنن النسائي: ٤ / ٥٠.

فكلُّ ما سبق في الصور قبلُ من الأوامر الشرعيةِ جارٍ هنا، ومطلوبٌ على حسب ذلك الطَلَب، وعلى حسب ما سَبَقَ من جِنْسِ التمحيصِ من التقسيم، ليرتكب فيها ما يناسبُ كلَّ قِسْمٍ من الأسباب حسبما سبق، وكذلك ما يأتي في الصورةِ بعدها إلاّ توطين النفس على اليأس فيما لا حيلة فيه هنالك، فإن هذه الصورةَ تخالِفُ تلكَ الصورةَ في هذا المعنى، لما يجب هنا مِن تحسينِ الظنِّ بالله، وتقويةِ الرجاء فيه، في صَرْفِ هذا الابتلاء، والمعافاةِ من هذا التمحيص، بعد استعمالِ ما يجبُ من الصبر، والتفويضِ والتسليمِ، والرِضا بما تجري به الأقدار، وتتصَرَّفُ به الأقضيةُ، مع قلّةِ الشَكْوى والضَجَرِ واستشعارِ اللُّطْفِ من الله في كَوْنِ هذا الابتلاء ممّا الشأن فيه على ما أجرى الله من عادته، وأحكم في الخليقة من سُنَّتِهِ، أن يُتَدارَكَ فيه الرَمَقُ، ويؤخَذَ فيه باليد، ويُمْنَحَ فيه الشِفاءُ، ويتعدّد فيه الإبلالُ أو الخلاصُ أو السراحُ أو الإيابُ، وما أشبه هذا من الاستبدال[1] من العُسْرِ باليُسْر، ومن التعبِ بالراحةِ، ومن الألمِ بالإفاقةِ، ومن البلاءِ بالمعافاةِ. فللنفس هنا بالرجاءِ انبساطٌ عظيم، وللصدرِ انشراحٌ كثير، قد فُقِدَ في الصورةِ بعدها، بما أحكم اليأس فيها من نفي الرجاء، لعمرانِهِ المحَلَّ دونه، وهو ضدّه، فلا طمعَ هنالك في استرجاعِ ما ذهب من نفسٍ أو عَيْنٍ أو يد، وأصلُ الطمع هنا مُنْسَحِبٌ، وحُكْمُ الرجاءِ مُسْتَصْحِبٌ، وما لا نرى ممّا وقى الله أكثر من الأقوالِ المشهورة، التي لا ينبغي أن يُغْفَلَ عن ملاحظةِ مَعْناها، في إلمامِ هذه النوائبِ فمن الممكن أن يكونَ ما أصابَ أعظمَ أو أثقلَ أو أشدَّ، والمشروعُ هنا استعمالُ الأسبابِ المرتجاةِ النفعِ في صَرْفِ الابتلاء بحسبِ أماكنها التي يشرع فيها من وجوبٍ أو ندبٍ أو إباحةٍ، فَلَمّا عَلِمَ الله من ضَعْفِ نفوسِنا، وعدمِ القوةِ في قلوبنا، أَذِنَ لنا في استعمالِ الطبِّ في استدفاعِ المَرَضِ، والاستِشْفاءِ مِنَ الأَلَم، وأباح لنا الافتكاكَ من الأَسْرِ، وارتكابَ الجائزِ في الخلاصِ من الاعتقال، واعتمادَ نَظَرِ أهلِ المعرفة في مثلِ ارتجاجِ البحار. وقد يَجِبُ بعضُ هذهِ الأسباب، حيث يتعيَّنُ به نجاةُ

---

(١) ـ في الأصل: الاستبدلاله.

النفس، من غيرِ ارتكاب المحظور في الشرع، كالفرارِ من الأسْرِ، وبذل الفِدْيةِ عنه لمن أمكنه ذلك، والتطبّبِ من المرض لمن يقدر عليه، وتطمح نفسه إليه.
وقد يتأكّد ذلك (ص ١٧٧) بحسب وجوهٍ من النظر؛ فإنه إذا قيل: إذا شرب السمّ يحرم. وإنما حَرّم حفظاً للنفس، فإنّ شاربَه قاتلُ نَفْسِهِ بلا شك، لقول النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَنْ شَرِبَ سُمّاً فَقَتَلَ نَفْسَهُ فهو يَتَحسّاه في نارِ جَهَنَّم خالداً مُخلَّداً فيها أبداً»[1].

وشهد طبيبٌ من أهلِ المعرفة بعلم، أنّ احتماء هذا المريضِ من هذه المضرّاتِ التي يُعَيِّنُها واجب، وأنّ استعمالَهُ إيّاها مُهْلِكٌ له، فقد صارت في حقِّهِ، بشهادةِ هذا العارفِ المجرّب، نوعاً من السُمّ الذي منعه الشارع، فيما نُقِلَ عنه قبلُ من الحديث الصحيح. وقد سُئِلَ عزُّ الدين بنُ عبد السلام عن رجلٍ يصومُ متطوّعاً، فيقول له اثنان من أهلِ الطب: إنّ الصومَ يضرُّ ببَصَرهِ أو يسهره، فيقولان إن السهر يَضُرُّ بكَ، هل يحرم عليه الصومُ والسهرُ أم لا؟ فأجاب: إذا عَلِمَ المريضُ أنّه يتضرَّرُ في جِسْمِهِ إضراراً ظاهراً لم يَجُزْ له أن يضرّ نفسه؛ وقد اختلف في ذلك. انتهى[2]. ويظهر لي أن لا معارضة بين هذا وبين قول أبي بكر - رضي الله عنه - لمّا مَرِضَ وقيل له: ألا ندعو لك طبيباً؟ فقال: قد نَظَرَ إليّ الطبيب. قيل له: فما قال لك؟ فقال: إني فعّالٌ لِما أُريد[3] لأنه لم يتعيّن له سَبَبٌ يستعمله، فهو على وفق قوله صلّى الله عليه وسلّم في السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنّة من أمّته بغير حساب، فقيل: من هم يا رسول الله. قال: «الذينَ لا يتطيَّرونَ ولا يكْتَوون ولا يسترقون وعلى ربّهم يتوكّلون».[4] وعلى فرض وجه من التعارض فليس مقامُ أبي بكر - رضي

---

(١) - صحيح البخاري ٧ / ٣٢.
(٢) - انظر الإمام العزّ بن عبد السلام وأثره في الفقه الإسلامي / للدكتور علي الفقير ٢ / ٦١١.
(٣) - التذكرة الحمدونية ١ / ١١٧، التعازي والمراثي ٢١٩، نثر الدرّ للآبي ٢ / ١٤، عدّة الصابرين ١١١، أدب الدنيا والدين ص ١٢٥.
(٤) - مسند ابن حنبل ١ / ٤٠١، ٤٠٣، ٤٥٤.

الله عنه ـ مما يقاسُ به أحوالُ أمثالِنا ممّن هو تحت ربقةِ الأسباب مأسور، وفي مَهْمهِ الارتباك فيها ضليل.

وأعظمُ من ذلك ما يُحكى عن خالدِ بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ أنّه شَرِبَ سمّاً ادّعى ربُّه أنه مُهْلِكٌ على الفور، وفي اعتقادي أنّه كان كافراً، فشربه خالد ـ رضي الله عنه ـ بعد أن قال «بِسْمِ الله الذي لا يَضُرُّ مع اسمِهِ شَيْءٌ في الأرْضِ ولا في السَّماء وهو السَّميعُ العليم» توكّلاً على الله أنّه لا يضرّه فلم يضرّه. وهذه كرامة ظاهرة، وهي من آثارِ معجزات النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فلا كلام في ذلك. ومِثْلُ خالدٍ ـ رضي الله عنه ـ هو فقيهُ نَفْسِهِ في ذلك، على إشكالٍ يَرِدُ عليَّ في القضيّة، لكونِ النبي صلّى الله عليه وسلّم قال: «ما زالتْ أُكْلَةُ خيبر تعادّني فالآن أوانُ قَطَعَتْ أبهري»[1]. فظاهرٌ من هذا أنَّ ضرر السُّمِّ قد بقي منه أثرٌ بعد طولٍ من المدّة.

وفي مِثْلِ احتراقِ السُفُنِ في البحر، حيث يتعيَّـنُ الهلاكُ بلا شكّ، يقولُ الفقهاء إنه يجوزُ الانتقالُ لِمَنْ فيها من مَنيّةٍ إلى منيّة، إن كانت إحداهُما أرْجى موتا، أو أخَفَّ ألما. (ص ١٧٨) ولا إشكالَ في وُجوبِ الانتقالِ إنْ كان ما يُنْتَقَلُ إليه بالعادةِ أنجى، وللسَّلامةِ أرجى.

ولقد تَغَلْغَلَ بنا الكلامُ إلى غيرِ ما نحنُ بصدده، ولسنا الآنَ لتفصيلِ ذلك، ولا النَظَرِ فيه، وإنّما القصدُ فيما يُسْتَعْمَلُ من الأسبابِ المشروعةِ، والأوامرِ المطلوبةِ، التي لا تَعلُّقَ لها بعلمٍ آخر، كالطب وغيره. فنقول: إنَّ أهَمَّ ما يُسْتَدفَعُ به طوارقُ البلاء، هو الإخلاصُ لله في الدعاء، والابتهالُ إليه بالضراعةِ والبُكاء، لقوله تعالى: ﴿وإذَا سَألَكَ عِبادِي عَنّي فإنّي قَرِيبٌ أُجيبُ دَعْـوَةَ الـداعِ إذَا دَعَـانِ﴾[2]. وعلى حسب حالـةِ الداعي من الاضطرارِ، والاحتياجِ إلى اللهِ، والافتقارِ، تكونُ الإجابةُ سريعةً، ويكون التمحيصُ بِنَيْل

(١) ـ مسند ابن حنبل ٦/١٨.

(٢) ـ الآية ١٨٦ من سورة البقرة.

فَضْلِ الله ذريعةً، لقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ المُضْطَرَّ إذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾[1].

وللصدقةِ في نَظَرِ الناسِ، في هذا الباب، موقعٌ عظيم، وإنما ذلك - والله أعلم - لِما وَقَعَ فيها على الخُصوصِ، من أحاديثَ كثيرة، تَشْهَدُ بكَوْنِ المتصدّق مُوقّىً من آفات، كقوله صلّى الله عليه وسلّم: «الصَدَقَةُ تَدْفَعُ مِيتَةَ السُّوء»[2]. قال مالكُ بن دينار[3]: «اخْتَلَسَ السَّبعُ صَبِيّاً، فتصدَّقَتْ أُمُّهُ برغيفٍ، فألقى السَّبعُ الصبيَّ، ونُودِيَتْ لُقْمةً بلُقْمة». انتهت[4]. فتأمّل هذا اللطفَ[5] الخفيّ، والصنيعَ الحفيّ، ما أغْرَبَه وأعْجَبَه!. وكذلك ما ورد من كونها تُطْفِىءُ غَضَبَ الربّ[6]، فما أنْسَبَها لدفعِ الآفات، وضروبِ الابتلاءات، إذا قلنا إنّ الابتلاءات حسبما شهد له ما سبقَ من الآياتِ من أثَرِ الذنوب، الموجبةِ لغضبِ الربّ على المربوب.

وذكر بعضُ طَلَبَةِ ابنِ وضّاح أنهم كانوا في السّماع عِنْدَهُ في غرفةٍ له، فدخل عليه رَجُلٌ، فقال له: «خَطَرَتِ العَجَلَةُ الآنَ، فأصابَتْ الصبيَّ ابنَك، ومَشَتْ عَلَيْهِ». فلم يكترثْ لذلك، وأقْبَلَ على ما كان فيه من إمساكِ كتابه، وأمَرَ القارىء أنْ يَتَمادى على قِراءتِهِ. فلم يَلْبَثْ أنْ دخل آخر، فقال: «أبشر أبا عبد الله! سَلِمَ الصبيُّ، إنما أصابتِ العَجَلَةُ ثَوْبَهُ فَسَقَطَ، وجازَتْهُ فلم تضرّه».

---

(١) - الآية ٦٢ من سورة النمل.

(٢) - مسند ابن حنبل ٣/٥٠٢، ٥٠٣.

(٣) - أبو يحيى مالك بن دينار البصري، كان عالماً زاهداً كثير الورع، وقد أسلفنا التعريف به.

(٤) - حلية الأولياء ٢/٣٨٤.

(٥) - في الأصل: اللفظ.

(٦) - في صحيح الترمذي ٣/١٦٨ عن الرسول صلى الله عليه وسلم «إنّ الصدقة لتطفىء غضب الربّ وتدفع عن ميتة السوء».

فَضْلِ الله ذريعةً، لقوله تعالى: ﴿أمَّنْ يُجِيبُ المُضْطَرَ إذا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السّوءَ﴾[1].

وللصدقةِ في نَظَرِ الناسِ، في هذا الباب، موقعٌ عظيم، وإنما ذلك - والله أعلم - لِما وَقَعَ فيها على الخُصوصِ، من أحاديث كثيرة، تَشْهَدُ بكَوْنِ المتصدّق مُوقّىً من آفات، كقوله صلّى الله عليه وسلّم: «الصَدَقَةُ تَدْفَعُ مِيتَةَ السُّوء»[2]. قال مالكُ بن دينار[3]: «اخْتَلَسَ السَّبعُ صَبِيّاً، فتصدَّقَتْ أمُّهُ برغيفٍ، فألقى السَّبعُ الصبيَّ، ونُودِيَتْ لُقْمةً بلُقْمة». انتهت[4]. فتأمّل هذا اللطفَ[5] الخفيّ، والصنيعَ الحفيّ، ما أغْرَبَه وأعْجَبَه!. وكذلك ما ورد من كونها تُطْفِىءُ غَضَبَ الربّ[6]، فما أنْسَبَها لدفعِ الآفات، وضروبِ الابتلاءات، إذا قلنا إنّ الابتلاءات حسبما شهد له ما سبقَ من الآياتِ من أثرِ الذنوب، الموجبةِ لغضبِ الربِّ على المربوب.

وذكر بعضُ طَلَبَةِ ابنِ وضّاح أنهم كانوا في السَّماع عِنْدَهُ في غرفةٍ له، فدخل عليه رَجُلٌ، فقال له: «خَطَرَتِ العَجَلَةُ الآنَ، فأصابَتْ الصبيَّ ابنَك، ومَشَتْ عَلَيْهِ». فلم يكترثْ لذلك، وأقْبَلَ على ما كان فيه من إمساكِ كتابه، وأمَرَ القارىء أنْ يَتمادى على قِراءتِهِ. فلم يَلْبَثْ أنْ دخل آخر، فقال: «أبشر أبا عبد الله! سَلِمَ الصبيُّ، إنما أصابتِ العَجَلَةُ ثَوْبَهُ فَسَقَطَ، وجازَتْهُ فلم تضرّه».

---

(1) - الآية ٦٢ من سورة النمل.

(2) - مسند ابن حنبل ٣/٥٠٢، ٥٠٣.

(3) - أبو يحيى مالك بن دينار البصري، كان عالماً زاهداً كثير الورع، وقد أسلفنا التعريف به.

(4) - حلية الأولياء ٢/٣٨٤.

(5) - في الأصل: اللفظ.

(6) - في صحيح الترمذي ٣/١٦٨ عن الرسول صلى الله عليه وسلم «إنّ الصدقة لتطفىء غضب الربّ وتدفع عن ميتة السوء».

فقال: الحمد لله، قد أيقنتُ بذلك، لأنّي قد رأيتُ الصبيَّ، قد ناولَ اليومَ مسكيناً كِسْرة، فعلمتُ أنّه لا يُصِيبُهُ بلاءٌ في هذا النهار للحديث «إنّ الله يَدْفَعُ عن العَبْدِ المِيتةَ السُّوءَ بالصَّدَقةِ يَتَصَدَّقُ بها»[1].

ويُحكى أنَّ عمرَ بنَ الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ قال: «إنّ الأعمالَ تباهَتْ، فقالت الصدقةُ: أنا أفضلكنّ». وقال سالمُ بن الجعد[2]: «إن الصدقة لتدفع سبعين باباً من السُّوء، وفَضْلُ سِرِّها على (ص ١٧٩) علانيتها سبعون ضِعْفاً، وإنّك لتفُكُّ بها لحي سبعين شيطاناً». وروي أن رجلاً من بني اسرائيل كان مُسْرِفاً على نَفْسِهِ لما ارتكَبَ من الفواحش، أتى في مسيرٍ له على بئر، فإذا كلب يلهثُ، يأكُلُ الثرى من العطش، فَرَقَّ له ورثى، ونزل في البئر، ونزع خُفَّهُ، وسقى الكَلْبَ، فأرواه، فشكر الله ـ عزّ وجلّ ـ له، وغَفَرَ له، وأوْحى الله إلى نبيّ ذلك الزمان أنْ قُلْ لذلك المسرفِ إنّي قد غَفَرْتُ لكَ جَميعَ ما اقترفت برَحْمَتِكَ على خَلْقي.[3] فسُئل النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم عن ذلك، فقيل: يا رسولَ الله، وإنّ لنا في البهائِم لأجْرا؟ فقال: «في كل ذي كبدٍ رطبةٍ أجْرٌ»[4] وهذا المعنى بعينه هو الذي خَرَّجَهُ مسلمُ بنُ الحجّاج في صحيحه في قضيّة البَغِيّ التي نزعت مُوقها[5] فسقت الكلب. الحديث[6].

---

(١) ـ مسند ابن حنبل ٣ / ٥٠٢، ٥٠٣، صحيح الترمذي ٣ / ١٦٨.

(٢) ـ سالم بن أبي الجعد الأشجعي الكوفي، مولى بني أشجع، روى عن ابن عباس وغيره وكان ثقة، وتوفي سنة ١٠٠ هـ (المعارف لابن قتيبة ص ٤٥٢، الوافي بالوفيات ١٥ / ٩٥).

(٣) ـ صحيح مسلم ٧ / ٤٤.

(٤) ـ صحيح مسلم ٧ / ٤٤.

(٥) ـ المُوق: خُفّ غليظ يُلْبس فوق الخُفّ (القاموس المحيط: موق).

(٦) ـ صحيح مسلم ٧ / ٤٤ ـ ٤٥.

[وإذا][1] كان الابتلاءُ، بمؤلم[2] ألَمٍ، أو واردِ سَقَمٍ، فإنّما يُلْتَمَسُ فيه الشفاءُ من الله تعالى، سواء استُعْمِلَتْ الأدويةُ الطبيّةُ أوْ لَمْ تُسْتَعْمَل. فإن استُعْمِلَتْ على ما يجبُ، من تقديمِ التوكّلِ على الله في نجحها، والثقةِ به في حصولِ نفعِها، مُتَلَقّىً في ذلك أمرُه بالامتثال، وإذْنُه بالقبولِ والإقبال، وقد تقدَّمَ على ذلك بصحيحِ العقد؛ فإن الشفاءَ إنما هو بيدِ الله، ولن يُرجى حصولُه إلاّ من الله، لقوله تعالى حاكياً عن خليلِه ابراهيم صلّى الله عليه ﴿وإذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[3] مستعملاً في ذلك من الأدبِ مِثْلَ ما أرشَدَتْ هذه الآيةُ الكريمة إليه، من نسبةِ المَرَضِ لمن وقع به، ونسبةِ الشفاء للربِّ الذي هو منه. ولذلك أخَصُّ الدعوات بهذا المعنى أن يقولَ المريضُ «أعوذُ بالله وقُدْرَتِهِ من شرِّ ما أجِد» وأن يقول عائدُه: «اسألُ الله العظيمَ ربَّ العرشِ العظيمِ أن يَشْفِيَك» سبع مرّات، لما ورد في الحديث الصحيح[4] في ذلك.

[و] ممّا[5] يختصُّ من ذلك بمرضِ العَيْنَيْنِ ما روى الترمذيُّ وابنُ ماجة، أن رجلاً ضريرَ البَصَرِ، أتى النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم فقال: ادعُ الله تعالى أن يعافيني. قال: «إنْ شِئْتَ دَعَوْتُ وإن شئتَ صَبَرْتَ فهو خيرٌ لك». قال: فادْعُهُ. فأمره أن يتوضّأ فيُحْسِنَ وضوءه، ويدعو بهذا الدعاء: «اللهم إني أدعوك وأتوجَّهُ إليك بنبيّك محمّد نبيّ الرحْمة صلّى الله عليه وسلّم، يا محمّد إنّي توجَّهْتُ بِكَ إلى ربّي في حاجتي هذه لِتُقْضى لي، اللهمُ فشفِّعْه فيّ»[6] قال

---

(1) ـ بياض في الأصل تقديره ما أثبتناه بين المعقوفتين.

(2) ـ هكذا في الأصل، ولعل المراد: بِمُلِمّ.

(3) ـ الآية ٨٠ من سورة الشعراء.

(4) ـ عمل اليوم والليلة لابن السني ص ١٥٩.

(5) ـ في الأصل: «مما» سبقها بياض بمقدار حرف الواو.

(6) ـ سنن الترمذي ١٣ / ٨٠، سنن ابن ماجة ١ / ٤٤١ (حديث رقم ١٣٨٥) ومسند ابن حنبل ٤ / ١٣٨.

الترمذيّ: حديث حسن صحيح[1]. وقال ابنُ أبي زيد[2]: كانت لي بِنْتٌ أصابَها في عينيْها شيءٌ انتهى بها إلى أمْرٍ عظيم، فعالجتُها بكلِّ علاج، فلم يَنْجَعْ، فذكَرْتُ لأبي إسحق السبئي[3] أنْ يَدْعُوَ لها وقلتُ له: كرِهْتُ عَرْضَها للطبيبِ وكشفتَها عليه. فقال لي: ابعثْ بها إليَّ ارقيها. ثم رجع فقال: (ص ١٨٠) من هاهنا أرقيها. فلم يَزَلْ يرقيها حتى أفاقَتْ لثلاث، فكأنّه ما كان بها شيء. انتهت[4]: وهذه كرامة بيِّنة. ولا يُنْكَرُ من أبي إسحق السبئي لبنتِ أبي محمد ابن أبي زيد - رضي الله عنهما - رقْي[5].

[و] مِنْ[6] ذلك ماحكاه ابنُ أبي زيد عن أبي اسحق المذكور أنّ اسماعيلَ المشرقيّ[7]، صاحبَ القيروان، وهو من بني عُبَيْد[8]، أولئك الشيعيين على غلوّهم وكُفْرِهم، اشتكت له ابنةٌ عَيْنَيْها، وأعيا الأطبّاءَ أمرُها، فقيل له: لو رقاها السبئي. فأرسلها مع عجوزٍ متنكّرةٍ لئلا تُعْرَفَ، فرقاها أيّاماً، فبرئت، فسألها اسماعيلُ بماذا رقاها، فأخبرتْهُ أنّه رقاها بالحمد لله وقُلْ هو الله أحد والمعوّذتين

---

(١) - سنن الترمذي ١٣ / ٨٠.

(٢) - الفقيه أبو محمد عبد الله بن أبي زيد عبد الرحمن القيرواني المتوفى سنة ٣٨٦ هـ صاحب الرسالة في الفقه، والجامع في السنن والآداب وغيرهما (انظر ترجمته في: ترتيب المدارك ٤ / ٤٩٢).

(٣) - أبو اسحق ابراهيم بن أحمد السبئي المتعبد، من مشاهير الزهاد المتصوفين وله كرامات مشهورة، مولده سنة ٢٧٠ هـ وتوفي سنة ٣٥٦ هـ بالقيروان (ترتيب المدارك ٣ / ٣٧٦ - ٣٨٩، رياض النفوس ٢ / ٤٦٩ - ٥٠٧، الديباج المذهب ٨٥).

(٤) - وردت هذه الحكاية في رياض النفوس للمالكي ٢ / ٥٠١، وترتيب المدارك ٣ / ٣٨٢.

(٥) - في الأصل: رسو.

(٦) - في الأصل: «من» مسبوقة بفراغ مقدار حرف الواو.

(٧) - يقصد أبا الطاهر اسماعيل بن القائم الملقب المنصور بالله بن المهدي، ثالث خلفاء الفاطميين والمتوفى سنة ٣٤١ هـ (وفيات الأعيان ١ / ٢٣٤، الوافي بالوفيات ٩ / ٢٠٣).

(٨) - الفاطميّون سُمّوا بالعبيديين نسبة إلى عبيد الله مؤسس حركتهم في المغرب (الكواكب الدريّة ص ٢٠٥).

كلّ ذلك سَبْعاً ثم يقولُ في آخر دعوته: بِبُغْضي في عُبَيْدٍ وذرّيته وحبّي في نبيّك وأصحابِهِ وأهلِ بيتِه اشْفِ كلّ مَنْ رَقِيَتْهُ. انتهت[1]. وهذا من أعجب ما يُسْمَعُ ببركةِ الشيخ شفى الله بدعوته من تقرّب فيها إليه ببغضه.

وقال بعضهم: كانت لي بنيّةٌ ابيضّتْ عيناها من الجدري، فغمّني ذلك، فجئتُ إلى أبي الفضل - يعني يوسف بن مسرور - مولى نجم الصيرفي، فوجدته ضالاً[2] عن الطريق ورأسُهُ بين رُكْبَتَيْهِ، فسلّمْتُ عليه وأخبرتُهُ بقصّتي فقال: إذا كان غداً هذا الوقت فأتيني بها. فمضيتُ عنه فسمِعْتُهُ يقول: أخطأنا الطريق. ثم صاح بي فقال: لاتحرّكْها ولا تأتِني بها، أتاها الله بالفَرَجِ من حيثُ لا تدري ولا تَشْعُرُ. ثم أتيتُ إلى الدارِ فوجدتُها نائمةً، فأيقظْتُها، ففُتِحَتْ عيناها، فإذا بهما أجملُ ممّا كانتا ليس فيهما بأس. انتهت. وهذا من نحوِ ما تقدّم.

[و][3] قد يكونُ الابتلاءُ في غيْرِ العَيْنِ من الأعضاء كاللسانِ وغيره. ورُوِيَ أنّ ابنَ وضّاح[4] لما قَفَلَ من سفرتِهِ الثانية احتبسَ لسانُه سبعةَ أيّام فكان لا يستطيعُ على الكلامِ، فقال: اللهُمَّ إن كان في إطلاقِ لساني صلاحٌ لنَشْرِ هذا العِلْمِ فأطْلِقْهُ. فأطلقَ الله لسانَه وأحيا به أهلَ الأندلسِ وانتفعوا به، فكانوا يَرَوْنَ ذلك من أفضلِ كراماته انتهت. [و][5] قال ابنُ أبي زيد، كانت عندي طِفْلةٌ اسْتَرْخى وركُها، فمضت بها امرأةٌ لأبي اسحق السبئي فرقاها، فأتت صحيحةً. انتهت[6]. وهذا من جِنْسِ ما سبق لهذا الشيخِ من الكرامات.

---

(١) - ورد بعض هذه الحكاية في رياض النفوس ٢ / ٥٠٦، ووردت كاملة في ترتيب المدارك ٣ / ٣٨٢ - ٣٨٣.

(٢) - سبقت الترجمة له.

(٣) - بياض في الأصل، تقديره ما أثبتناه بين المعقوفتين.

(٤) - أبو القاسم محمد بن ابراهيم بن محمد بن وضّاح اللخمي ت ٥٨٧ هـ وسبقت الترجمة له.

(٥) - بياض في الأصل، تقديره ما أثبتناه بين المعقوفتين.

(٦) - انظر: ترتيب المدارك ٣ / ٣٨٢، رياض النفوس ٢ / ٥٠١.

والرُقى من أنفعِ الأسبابِ في التطبُّب، وهي ممّا أباحَ الله لعباده. وقد صحّ ذلك عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، في غيرِ حديث. ولا تَعارُضَ بَيْنَ ذلك وقولِهِ صلّى الله عليه وسلّم: «ولا يسترقون» في حديث السبعينَ ألفاً الذين يدخُلون الجنّة بغير حسابٍ من أمّته[1]، فقد تكفّل العلماءُ - رضي الله عنهم - برفعِ ما ظاهرُهُ التعارضُ بينهما. والله أعلم.

(ص ١٨١) ورُوِيَ عن أنس أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم دعا رجلاً من المسلمين قد نَحُفَ وصار مثل الفرخ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «هل كنتَ تدعو الله؟» قال: نعم، كنتُ أقولُ اللهُمّ ما كنتَ مُعاقبي به في الآخرةِ فعجِّلْهُ لي في الدنيا. فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «لا تُطيقه ولا تستطيعه، هلّا قلت: ربّنا آتِنا في الدنيا حَسَنةً وفي الآخرةِ حَسَنةً وَقِنا عذابَ النار». قال: فدعا الله فشفاه[2].

وذكر أبو مروان بنُ مالك[3] الفقيهُ القرطبيُّ أن بَكْرَ بنَ العلاء القُشَيْري[4] قال: احْتَبَسَ بَوْلي وأنا صبيٌّ نحو سبعةِ أيام، فأتى بي والدي إلى سهل - يعني التُسْتريّ -[5] ليدعُوَ لي، فمسح بيده، فما هو إلّا أن خَرَجْنا بُلْتُ على عاتِقِ الغلام[6].

---

(١) - مسند ابن حنبل ١ / ٤٠١، ٤٠٣، ٤٥٤.

(٢) - ورد هذا الحديث في عمل اليوم والليلة ص ١٦٢.

(٣) - أبو مروان عبيد الله بن محمد بن عبيد الله بن مالك القرطبي، من فقهاء المذهب المالكي، له مؤلفات وكان كثير الجهاد والرباط، درس في طليطلة ثم عاد إلى قرطبة وبها توفى سنة ٤٦٠ هـ وكان مولده سنة ٤٠٠ هـ. (ترتيب المدارك ٤ / ٨١٣).

(٤) - هو بكر بن محمد بن العلاء بن محمد... بن كعب القُشَيْري كنيته أبو الفضل، من فقهاء المذهب المالكي وكبار قضاته، ولد بالبصرة وانتقل إلى مصر، له عدد من الكتب الفقهية، توفي بمصر سنة ٣٤٤ هـ. (ترتيب المدارك ٣ / ٢٩٠).

(٥) - سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى بن عبد الله بن رفيع التستري الصوفي المشهور، وقد أسلفنا التعريف به.

(٦) - وردت هذه القصة في ترتيب المدارك ٣ / ٢٩١.

[و][1] فيما يختصُّ بالملدوغِ ما ثَبَتَ في صحيحيْ البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخِذْريّ قال: انطلَقَ نفرٌ مِنْ أصحابِ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم في سَفْرةٍ سافروها حتى نزلوا على حيٍّ من أحياء العرب، فاستضافوهم فأبوا أن يضيفوهم، فلُدِغَ سيّدُ ذلك الحيّ فسعوْا له بكلّ شيء لا ينفعُهُ. فقال بعضُهم: لو أتَيْتُم هؤلاء الرَهْطَ الذين نزلوا لعلّهم أن يكونَ عِنْدَهُمْ بعضُ شيء، فأتوهم فقالوا: يا أيُّها الرهطُ إنّ سيّدَنا لُدِغَ وَسَعَيْنا له بكلّ شيءٍ لا ينفعُهُ فهل عِنْـدَ أحـدِكُمْ من شيء؟ قال بعضُهم: إنّي واللهِ لأُرْقي، ولكن والله لقـد استضفناكُمْ فلم تُضَيِّفونا فما أنا براقٍ لَكُمْ حتى تجعَلوُا لنا جُعْلاً. فصالحوهم على قطيعٍ من الغَنَم، فانطلق يَتْفِل عليه ويقرأُ الحمد لله ربّ العالمين، فكأنما نشط من عقال. فانطلق يَمْشي وما به علّة. فأدَّوْهُمْ جُعْلَهُمْ الذي صالحوهم عليه. وقال بعضُهم: اقْسِموا. فقال الذي رقى: لا تفعلوا حتى نأتي النبيّ صلّى اللهُ عليه وسلّم، فنذكُرَ له الذي كان فننظر الذي يأمُرُنا. فقدِموا على النبي صلّى الله عليه وسلّم فذكروا له الذي كان، فقال: **وما يدريك أنها رقية؟** ثم قال: **قد أصبتم، اقسمواواضربوا لي مَعَكُمْ سهماً**. وضحك النبيّ صلّى الله عليه وسلّم[2]

[و][3] في نبيِّ اللهِ أيّوب أعْـظَمُ أُسْـوة، وفيه لجميعِ المُبْتَلين أعظمُ قُدوة. . . . . [4] انه قيل لأيّوب عليه السلام: ما أشدُّ ما مرَّ بكَ من البلاء؟ فقال: شماتةُ الأعداء. انتهى[5]. وإنَّ شماتةَ الأعْداء لمِنْ أعْظَمِ الابتلاء، وقد استعاذَ النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم من شماتةِ الأعداء*. وفي قول هارون لأخيه

---

(١) ـ بياض في الأصل تقديره حرف الواو.

(٢) ـ صحيح البخاري ٣ / ٥٣، مسند ابن حنبل ٣ / ٨٣، صحيح مسلم ٧ / ١٩ ـ ٢٠.

(٣) ـ بياض في الأصل تقديره حرف الواو.

(٤) ـ بياض في الأصل مقدار كلمة لعل تقديرها: حكي أو رُوي.

(٥) ـ المقتطف من أزاهر الطرف لابن سعيد ص ١٧٩، بهجة المجالس ١ / ٧٤٥، المخلاة للعاملي ص ٣٥، التمثيل والمحاضرة ص ١٥.

* ـ صحيح مسلم ٨ / ٧٦، بهجة المجالس ١ / ٧٤٦.

موسى ﴿وَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ﴾[1] ما يشهدُ بِعظَمِ ذلك. وقال عُبَيْدُ بنُ أبي عُبَيْد: [2]

كلُّ المصائِبِ قَدْ تَمُرُّ على الفَتَى   وَتَهُونُ غيرَ شماتَةِ الحُسَّادِ

وتأمّل تلطُّف أيّوب عليه السلام في دعائِهِ، وسُرْعَة الإجابةِ من الله بِشِفائِهِ، (ص ١٨٢) حيثُ يقول: ﴿أَنِّي* مَسَّنِيَ الضُّرُّ وأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِين﴾[3] إنما اكتفى بتقريرِ حالته، وإظهارِ حاجته، بأوْجَزِ لَفظٍ وأوضحِ معنىً، معرباً عن حالتِهِ من مَسِّ الضرّ، ابتداُه بلفظ «ربِّ» الدالِّ من معاني القِيامِ بمصالحِ المَرْبُوبِ وشؤونِهِ على ما لا يَدُلُّ عليه غيْرُهُ من أسماء الله تعالى وصِفاتِهِ، مَعَ حَذْفِ أداة النِداء استشعاراً بالقُربِ المستشعَرِ منه سرعة الإجابة. ثم عقّب كونَهُ مَمْسُوساً للضُرِّ بقوْلِهِ «وأنْتَ أرْحَمُ الراحِمين». اكتفى بالتعريفِ بأمْرِهِ لمن لا تَخْفى عليه خافية، والتقريرِ لصفةِ ربِّهِ الذي بيَدِهِ الشفاءُ والعافية، فكانت الإجابةُ المتضمّن بشارتَها قولُه تعالى: ﴿فاسْتَجَبْنا لَهُ فَكَشفنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وآتَيْناهُ أهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمةً مِنْ عِنْدنَا وذِكْرى لِلْعابدين﴾[4]. . . . [5] وقفتُ لبعضِ الناسِ على أنَّ قَوْلَهُ: ﴿أَنِّي** مَسَّنِيَ الضُّرُّ وأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِين﴾ مرجوُّ النَفْعِ للمريض إذا اشتدَّ حالُه، اقتداءً بنبيِّ اللهِ أيّوب. . . . [6] الحديث الصحيح أن النبي صلّى الله عليه وسلّم كان ينفثُ على نَفْسِهِ في المَرضِ الذي توفي منه بالمعوّذات. قالت عائشة: فلما ثَقُلَ كُنتُ أنْفثُ عليه بهنّ وأمْسَحُ

---

(١) ـ الآية ١٥٠ من سورة الأعراف.

(٢) ـ ورد البيت في بهجة المجالس ١ / ٧٤٨ ومحاضرات الأدباء (دار الآثار) ص ١٠٤ منسوباً إلى عبد الله بن أبي عيينة، وفي ربيع الأبرار ٣ / ٥٦ منسوباً إلى ابن أبي عيينة المهلبي وفيه: شماتة الأعداء، وفي التمثيل والمحاضرة ص ٨١ منسوباً لعبد الله بن محمد بن أبي عيينة.

* ـ في الأصل: ربِّ.

(٣) ـ الآية ٨٣ من سورة الأنبياء.

(٤) ـ الآية ٨٤ من سورة الأنبياء.

(٥) ـ بياض في الأصل مقدار كلمة، تقديرها: وقد.

** ـ في الأصل: ربِّ. (٦) ـ بياض في الأصل مقدار كلمة، تقديرها: وفي.

بيدِهِ نَفْسهُ رجاءَ بركتها[1]. . . . . . .[2] صحيحيْ البخاري ومُسْلم أنّ النبيَّ صلّى الله عليه وسلم كان يعودُ بَعْضَ أهْلِهِ ويمسَحُ بيده اليمنى، ويقول: «. . . .[3] **ربَّ الناس اذهب الباس واشفِ فأنت الشافي لا شفاءَ إلاّ شفاؤك شفاء لايغادرُ سَقَماً**»[4].

فهذا وأمثالُه من الأسبابِ التي [أباحها][5] الشارعُ الذي آتاهُ الله الكتابَ والحكمةَ لاستدفاعِ المرض والاستشفاءِ من الألَمِ، شَرْطُ ذلك كُلِّهِ خُلوصُ النيّة وصدقُ الطويّة. ثم بعد ذلك ينظر في استعمالِ الأسبابِ الطبيّةِ على ما سبق في سواها من الأسبابِ من اعتمادِ شُكْرِ الله على ما أتاح منها أو نَدَبَ إليه أو أوجبه؛ فنفوسُنا تضعُفُ عن مِثْلِ منزلةِ أبي بكر- رضي الله عنه - في هذا المَقامِ حسبما سبق النقلُ عنه، من اعتقادِ ما تقرّر، في كونِ الأسباب إنّما ينبغي أن تُرْتَكَبَ من جهةِ الأدَبِ مَعَ الله واللطفِ بها منه، وإنّها موضوعة للابتلاء، ومن تقديمِ التوكّل على الله فيها، والتحقيقِ لكونِ الفعلِ الصادر عندها إنما هو مِنْهُ ومن اختيارِهِ الأرجح ممّن تثق النفسُ بمعرفته وديانَتِهِ، ويطمئنُّ القلبُ بثقتِهِ وأمانته.

وهذا الباب مما ينبغي ملاحظتُهُ فإنّ هذه الصناعةَ الطبيّةَ من أشرفِ الصنائع، وموضوع تصرّفها الذي هو الإنسانُ أشرفُ الموضوعات، والاسترسال فيها إلى الغايةِ التي لا غاية (ص ١٨٣) بعدها، فيوجَدُ المريضُ الذي يكونُ في الإسلام بالمنزلةِ الأثيرةِ من عِلْمٍ أوْ صَلاحٍ أو جِهادٍ أو غيرِ ذلك، وهو يَضَعُ نَفْسَهُ في يدي معدن من معادِنِ الجهل والغباوةِ ممّن لا يؤمن بالله ولا باليومِ الآخر، إن هذا لهو الضلالُ البعيد.

---

(١) - صحيح مسلم ٧ / ١٦ - ١٧.

(٢) - بياض في الأصل مقدار كلمة، تقديرها: وفي.

(٣) - بياض في الأصل مقدار كلمتين.

(٤) - صحيح مسلم ٧ / ١٥ - ١٦.

(٥) - بياض في الأصل مقدار كلمة واحدة، تقديرها ما أثبتناه.

[وقد حُكِيَ][1] عن الأستاذِ أبي سعيد بن لُبّ[2] ـ رحمه الله ـ أنَّ طبيباً من أخابيثِ اليهود كان يعالِجُهُ في مَرَضِ مَوْتِهِ، فتسبَّبَ في هلاكِهِ بدجاجةٍ اقتصر على ماءِ الوَرْدِ في إنضاجِها، أوهمه أن عَمَلَها على تلك الصفةِ مما يُنْعِشُ نَفَسَهُ ويُنْهِضُ قوّته، فقدّر له في شَيِّها حداً أدخلها به في صِنْفِ الشِواء المغموم الذي نصَّ الأطبّاءُ على وُجوبِ اجتنابِهِ من سَدِّ فم القِدْرِ السَدَّ المُحْكَمَ وإيهامه كونَ ماءِ الوردِ مما ينشطُ القوةَ على الجملة، فامتثل ذلك الرسْمَ ممرِّضوه، فأدنى بها للأستاذ ما حمَّ من أجله. ولعلَّه غَلِطَ في ذلك، فَغَلَطُ الطبيبِ إصابةُ المِقْدار. وفي ذلك يقولُ ابنُ الروميِّ[3]:

غَلِطَ الطبيبُ عَلَيَّ غَلْطَةَ مُورِدٍ ... عَجِزَتْ محالتُهُ عَنِ الإِصْدارِ
والناسُ يَلْحَونَ الطبيبَ وإنّما ... غَلَطُ الطبيبِ إصابَةُ المِقْدارِ

[ويُحكى][4] مثلُ ذلك في وفاةِ العَدْلِ أبي اسحق الشَوْذَري[5] مِنْ صُدور عاقدي الشروط بالحضرة من أتْرابِ شُيوخِنا بتفجير دمٍ أشار به طبيبُ الأستاذ، ذلك الملعون المتقدم الذكر.

[و][6] مثلُ ذلك ما حُكِيَ عن المازري[7] من كونِ يهوديٍّ عاناه إلاّ أنه

(1) ـ بياض في الأصل مقدار كلمتين، تقديرهما: وقد حُكي.

(2) ـ أحد شيوخ لسان الدين بن الخطيب (وقد أسلفنا ترجمته).

(3) ـ لم أجد البيتين في ديوانه ووردا في زهر الآداب للحصري 1 / 271 ـ 272 ط 4 (دار الجيل 1972).

(4) ـ بياض في الأصل مقدار كلمة واحدة، تقديرها: ويُحكى.

(5) ـ نسبة إلى قرية شوذر وهي بالإسبانية (Jodar) وتقع إلى الشمال من غرناطة، وهناك قرية أخرى تحمل الاسم نفسه من كور مدينة جيان (Jaen) (الروض المعطار 351، الإدريسي ص 203).

(6) ـ بياض في الأصل تقديره حرف الواو.

(7) ـ أبو عبد الله محمد بن علي بن عمر التميمي المازري، نسبة إلى مازر بلدة صغيرة بجزيرة صقلية، فقيه مالكي، ممن أجازوا للقاضي عياض، له مؤلفات كثيرة، توفي بالمهدية عن ثلاثة

لم يُقْضَ بوفاتِهِ على يده فنصحه في ذلك بما اقتضى عنده الاستعمال بالطبّ بآخرة من عمره.

[وإذا][1] وجد المريضُ من يرضاه عِلْماً وديناً فليعتمِدْ على الله في أخْذِ الدواء منه، عامِلاً على[2] أن الله أباحَ له التداوي أو نَدَبَهُ إليه، فهو فيه ممتثلٌ ما أمَرَهُ ربُّه، وإنه لو شاء لشفاه دونَ ذلك، كما أنَّه قادِرٌ على أن يَجْعَلَ ذلك السَبَبَ المأخوذَ على أنَّه دواءٌ داءً، وأن يَقْلِبَ السُمَّ المُهْلِكَ إذا أرادَ دَواءً.

[ويُروى عن][3] الرازي[4] قال: اجتزْتُ في طريقي بِبُسْطام،[5] وهو النصفُ من طريق نيسابور إلى الريّ، فاستقبلني رئيسُها، وأنزلَني دارَهُ، وخَدَمَني أتَمَّ خدمة، وسألني أنْ اقِفَ على ابنٍ له به استسقاء،[6] فأدْخَلَني على دارٍ له قد أفْرَدَها له، فشاهدتُ العليلَ، فلم أطْمَعْ في بَرْئِهِ، فقلتُ القولَ بمحضرٍ من

وثمانين عاماً سنة ٥٣٦ هـ. (أزهار الرياض ٣ / ١٦٥ - ١٦٧، الوافي بالوفيات ٤ / ١٥١، وفيات الأعيان ٤ / ٢٨٥، الغنية ٦٥).

(١) - بياض في الأصل مقدار كلمة واحدة، تقديرها: وإذا

(٢) - كذا في الأصل، وربما كانت: عاملاً على التثبت.

(٣) - بياض في الأصل مقدار كلمتين تقديرهما: ويروى عن.

(٤) - هو أبو بكر محمد بن زكريا الرازي الطبيب المشهور، أصله من الريّ، درس الطب والفلسفة والموسيقى، وولي أمر مارستان الريّ وبغداد، وعمي في آخر عمره، وتوفي سنة ٣١١ هـ. (الفهرست لابن النديم ٣٥٦، طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل ٧٧، طبقات الأمم لصاعد ص ٣٣، عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة ص ٤١٤ - ٤٢٧، نكت الهميان ٢٤٩، وفيات الأعيان ٥ / ١٥٧، الوافي بالوفيات ٣ / ٧٥).

(٥) - في عيون الأنباء: بنيسابور.

(٦) - الاستسقاء مرض ذو مادة باردة غريبة تتخلّل الأعضاء فتربو بها، وهو أنواع ثلاثة: لحمي وزقّي وطبلي، وأردأ هذه الأنواع هو الزقي لأنّه لاسبيل إلى استخدام الأدوية فيه ولاسبيل إلى خروج مادته من بين الأعضاء لا من الأمعاء ولا من آلات البول. وهو يضرّ بالتنفس كثيراً (قاموس الأطباء / للقوصوني / ٢ / ٢٤٢، التيسير في المداواة لابن زهر ١ / ١٨٦).

العليل. فلما انفردتُ به سألني أن أصْدُقَهُ، فَصَدَقْتُه، وأيأسْتُهُ من حياةِ ابنه. وقلت له: مَكِّنْهُ من شَهَواتِهِ فإنّه لا يعيش. وخرجتُ إلى خراسانَ وعُدْتُ منها بعد اثني عشر شهراً، فاستقْبَلَني الرجلُ بعد عوْدي، فلما لقيتُهُ استحيَيْتُ منه غايةَ الاستحياء (ص ١٨٤) ولم أشكَّ في وفاةِ ابنه وإني كنت نعيْتُهُ إليه، وخشيتُ أنْ يَسْتَثْقِلَني، فأنزلني دارَهُ، فلم أجِدْ عنده ما يدلُّ على ذلك، وكرهْتُ مَسْأَلَتَه عن ابنِهِ لئلاّ أُجدِّدَ عليه حزنا. فقال لي بَعْدَ يوم: أتعرفُ هذا؟ وأومأ إلى شابٍّ حَسَنِ الوجْهِ والصحّةِ كثيرِ الدم والقوّةِ قائمٍ مع الغلمان يخدِمُنا. فقلت: لا أعرفُهُ. فقال: هذا ابني الذي أيأسْتَني من حياتِهِ عِنْدَ مضيِّكَ إلى خراسان. فتحيَّرْتُ وقلت: عَرِّفْني سَبَبَ بُرْئه. فقال: «إنّه بَعْدَ قيامِكَ من عِنْدِهِ قال: لستُ أشُكُّ أنّ هذا الرَّجُلَ وهو أوْحَدُ في الطِبِّ قَدْ أيْأسَكَ منّي، والذي أسألُكَ أنْ تَمْنَعَ منّي هؤلاء الغِلْمان ـ يعني غِلْماني الذين كنتُ أخْدَمْتُهُ إيّاهم ـ لأنّهم أترابي، وإذا رأيتُهُمْ وهم مُعافَوْن ـ وقد علِمتُ أنّي ميّت ـ تجدّد عليَّ الغمُّ حتى يتعجَّل لي الموتُ، فعجِّلْ عليَّ أن لا أراهم، وأفردْ بِخِدْمَتي دايتي فلانة. ففعلتُ ذلك. وكان يُحْمَلُ إلى الدايَةِ مضيرةٌ لتأكُلَ وإليه ما يَطْلُب على غير حمية. فلما كان بعدَ أيّامٍ يسيرة حُمِلَ إلى الدايةِ مَضيرةٌ لتأكل، فتركَتْها بحيثُ يَقَعُ عليها نَظَرُ ابني، ومضتْ في شغُلٍ لها، فَذَكَرَتْ أنَّ ابني نهاها عن الغَضارةِ لمّا عادت ووجدَتْها وقد ذَهَبَ كثيرٌ مما فيها، وبَقِيَ بَعْضُه متغيِّرَ اللون قالت: فقلتُ ما السبب؟ فقال: رأيتُ أفعى عظيمةً قد خَرَجَتْ من موضعٍ ودبّتْ إليها فأكَلَتْ منها ثم قَذَفَتْ فصار لونُها كما ترى، فقلت: أنا ميّتٌ وهذا الذي يَلْحَقُني ألَمٌ شَديدٌ، ومتى أظْفَرُ بمثلِ هذا. فأكلتُ من الغَضارةِ ما استَطعْتُ لأموتَ عاجِلاً واستريح، فلما لم أستطِعْ زيادةَ أكْلٍ زَحَفْتُ حتى رَجَعْتُ إلى مَوْضِعي. وجئتُ أنا. قالت: ورأيت أثَر المضيرةِ على يَدَيْهِ وَفَمِهِ، فَصِحْتُ، فقال: لا تَعْمَلي أو تدفقي الغَضارةَ لئلا يأكُلَها إنسانٌ فيموت، فَفَعَلْتُ ما قال، وخرجتُ إليك، قال: فلمّا عَرَّفَتْني بذلك هانَ عَلَيَّ أمري، ودخلتُ على ابني فوجدْتُهُ نائماً، فقلتُ: لا تُوقِظُوه حتى نَنْظُرَ ما يكونُ مِنْ أمْرِهِ، فأتيتُه في آخِرِ الليل، وعَرِقَ عَرَقاً عظيماً وهو يَطْلُبُ المُسْتَحَمَّ فأنهضَ إليه، فاندفعَ

بطنُهُ وقام من يَوْمِه فَجَلَسَ، فازداد يأسُنا منه، وقلّ القيام. إلّا أنّه استمرّ أياماً ثم انقطع، وقد صار ظَهرُهُ مَعَ بَطْنِهِ مِثْلَ ظُهورِ الأصِحّاء مع بُطونهم، وطَلَبَ فراريجَ يأْكُل، ولم تَزَلْ قُوَّتُهُ تزيد. وطمِعْنا في حياتِهِ، فَمَنَعْناهُ التخليطَ، فثابَتْ قُوَّتُهُ وتزايَدتْ إلى أن صار كما ترى» فعجبتُ من ذلك، وذكرتُ له أنّ الأوائلَ قالت: «إن المستسقي إذا أكل من لحمِ حيّةٍ عتيقةٍ لها مائةُ سنةٍ برىء» ولو قلتُ لك ذلك لظننْتَ أني أدافِعُكَ، ومن أينَ يُعلم كم سنّ حيّةٍ إذا (ص ١٨٥) وَجَدْناها!. فسكت عنه. انتهت[١].

وهي ممّا يُعْتَبَرُ فيه ويُسْتَغْرَبُ منه. والسببُ في الشفاء، وإن لم يكن معلوماً للمريض، ولا مشاراً به من الطبيب، فقد وقع من حيث الجملة، توفيقاً من الله للعليل، في قصد الاستراحة من الألم، فآتاه الله فيه من اللطفِ ما جَبَرَ به حالَهُ وشفى ألمه. ولعلّه ممّن لم يجرّ عليه القلم بعد فيما قصد من هلاكِ نفسه. والله أعلم.

[و][٢] أغربُ من ذلك ما يَعْرى عن السببِ المناسبِ لما يفتح الله من النجاةِ بعد الإشفاء على الهلاك. [كما يُحكى][٣] عن محمّد بن يحيى[٤] المعروف بحاملِ أكْفانه، من أهل بغداذ، فإنه توفّي وغُسِل وكُفِّنَ وصُلّي عليه ودُفِن. فلما كان في الليلِ جاءَ نبّاشٌ فنبش عنه، فلما حلّ أكفانَهُ ليأخُذَها استوى قاعداً، فخرج النبّاشُ هارباً، فقامَ وحَمَلَ أكفانَه وخرج من القبر، وجاءَ إلى منزلِهِ، وأهلُه يبكون، فَدَقَّ البابَ عليهم، فقالوا: من أنت؟ قال: أنا فلان. فقالوا له: يا هذا لا يحلّ لك أن تزيدنا على ما بِنا. فقال: يا قوم افتحوا لي الباب، فأنا واللهِ فلان. ففتحوا له البابَ، وعاد حُزْنُهُمْ فرحاً، وسمّي يومئذٍ

(١) ـ انظر هذه القصة في الفرج بعد الشدة ٤ / ٢٢٣ ـ ٢٢٦، عيون الأنباء ٤١٨ ـ ٤١٩.

(٢) ـ بياض في الأصل تقديره حرف الواو الذي أثبتنا بين المعقوفتين.

(٣) ـ بياض في الأصل مقدار كلمتين تقديرهما: كما يُحكى.

(٤) ـ أبو سعيد محمد بن يحيى البغدادي، حامل كفنه أو حامل أكفانه، سكن دمشق وتوفي سنة ٣٠٠ هـ أو دونها (انظر ترجمته في: تاريخ بغداد ٣ / ٤٢٣، الوافي بالوفيات ٥ / ١٨٨).

حامل أكفانه. انتهت[1]. [و][2] من المعلوم أن هذا الرجُلَ إنما اعْتَرَتْهُ غَشْيَةٌ عظيمةٌ قَطَعَتْ رجاءَ أهله، وصحِبَهم من عَدَمِ التثبُّتِ فيه ما أوْجَبَ استعجالَهُم بدفنه قَبْلَ استعلامِ حالِهِ، واستخبارِ أمْرِهِ، وظهورِ الأماراتِ القاطعةِ بموته. فهيًّا الله من هذا النبّاش ما أغنى عن استعمالِ الأدويةِ في مثله، من انتشاقِ الروائحِ العطِرَةِ، واستعمالِ الأدويةِ المقويّةِ للأرواح. فسبحان اللطيف الخبير!!.

[ومِثْلُ][3] هذا جَرى لسُفْيانَ الكُوفيّ، فإنه لما دُلِّيَ في حُفْرَتِهِ اضطربَ فانحلَّتْ أكفانُه، فقامَ وَرَجَعَ إلى مَنْزِلِهِ، وَوُلِدَ له بعد ذلك ابنُه مالك بن سفيان[4]. ففي هذه الحكاية وأمثالها ما يُؤْنِسُ العليل، ويقرِّبُ له في رحمةِ الله الرجاء، ويحقِّقُ عنده أن الشفاءَ بيد الله، إذا أراده فقد يَحْصُلُ من الأسباب التي يظنّ أنها مهلِكة ما تكون فيه النجاة والراحة، كما يحصلُ من الأسبابِ التي يعتقد[5] أنّها مُنْجية مِنَ الآفة، أو دواء من المرض، ما تستعجل فيه المنيّة، ويَسْتَبْعَدُ فيه الإبلال، فيطول زمنُ العلّة، وقد كانَ قصره ممكناً، أو يسبق الموت، فيأسَفُ على المريض من اجْتَهَدَ في تمريضِه وكلّفه ما ظنّه أنه له صالح، وأنَّ قَصْدَهُ به ناجح، ثم اخْتَلَفَ بعد ذلك اعتقادُه، وخانه بعد جَهدِهِ اجتهادُه، والأولى في ذلك كلّه الأخذُ بالأمرِ الأوسَط، واستعمالُ التداوي والتطبّب ملحوظاً فيه أنّه مأمور به من الله، ومأذونٌ فيه، لطفاً منه ورحمه (ص ١٨٦) بالنفوس البشريّة، وإنما التوكُّل على الله، وطلب الشفاء به من عنده.

[وممّا][6] ينحرطُ في سلك هاتين الحكايتين، وإنْ لم يَكُنْ سَبَبُ الدفن

---

(١) ـ انظر هذه الحكاية في تاريخ بغداد ٣ / ٤٢٣، والوافي بالوفيات ٥ / ١٨٩.

(٢) ـ بياض في الأصل تقديره حرف الواو.

(٣) ـ بياض في الأصل مقدار كلمة واحدة تقديرها: ومثل.

(٤) ـ في الأصل: مالك بن شعبان.

(٥) ـ في الأصل: يُعتمد.

(٦) ـ بياض في الأصل مقدار كلمة، تقديرها: وممّا.

سقماً سابقاً، ولا مَرَضاً لاحقاً، ما حكاه بعضُهم قال: قَدِمَ من بلد المَوْصِل رَجُلٌ مُمْسِياً، وكَرِهَ دخولَ البلدِ في ذلك الوقت، وأراد أن يَبيتَ في تلك القِباب، إلى أن يُصْبِحَ ويَدْخُلَ البلد، فدخل قُبَّةً من تلك القباب، وخبأ ما كان معه في بعضِ زواياها، فلما مضى من الليل [نصفه][1] إذا بقومٍ قد دخلوا عليه، وسلَّموا، وجلسوا، وقدّموا خُبْزاً وتمراً كان معهم، وقعدوا يأكلون، ودعوه فأكل معهم، فدنا طَمَعاً مِنْهُ أن يَسْلَمَ منهم بالتحرّم بطعامهم. فلما أكلوا قاموا وأخذوا به معهم، وتوسّطوا المقابرَ، حتى انتهوا إلى قبرٍ جديد قد كانوا عينوه بالنهار، فلبس أحدُهم آلة النبش، وأخَذَ سَلْبَ الميّت، ثم قالوا للرجل الغريب: أيّ الأمرين أحبّ إليك: أن ندفِنَكَ فَوْقَ الميّت أو تحته؟ فقال: يا قوم، اتّقوا الله، أيّ فرحٍ لكم في دفني وقتلي، ولستُ أعرفكم، ولا تخشون أن أذكركم؟ وجعل يتضرَّعُ ويخشع، فلم ينفعْه شيء. وقالوا: دعنا من هذا، واختر ما تُحِبّ. قال: فإنْ كان ولا بدَّ ففوقَ الميت. فجعلوه فوق الميت، وردّوا عليه التراب ومضوا. وقُضِيَ أنه كان وَضَعَ قومٌ أعيُنَهُم على هذا القبر، فجاءوا بعد الطبقةِ الأولى، ولا علم لهم بأنّ غَيْرَهُم قد سبقهم فنبشوا القبر، فلما وصلوا إلى الرجل المدفونِ حيّاً، مدّ الرجلُ يده، فتعلّق بساقِ النبّاش، وجعل النبّاش يصيح: الأمان!! التوبة!!. وانسلّ من يده، وعدوْا، وقام الرجل يعدو خلفهم. فكانوا يلتفِتُون ويقولون: ويلكم هو ذا يعدوا! ففرّوا قَبْرَيْن قَبْرَيْن. فلما غابوا عن عينيه انصرفَ الرجُل إلى القُبّةِ التي كان فيها، وأخذ متاعَهُ وانصرف إلى البلد انتهت. [و][2] هذا من عجائبِ الفَرَجِ بعد الشدّة. وقد كان حقُّ هذه الحكاية أن تكون في فصل الابتلاء بالقتل والنجاة منه، وإنما سُطِرت هنا لمناسبتها لما أتى به الفَرَجُ من هذا النبّاش[3] من حيثُ لا يَحْتَسِبُ، وبالله التوفيق.

---

(١) ـ بياض في الأصل مقدار كلمة واحدة، لعل تقديرها: نصفه.

(٢) ـ بياض في الأصل تقديره «و» المثبت بين المعقوفتين.

(٣) ـ في الأصل: النباشين.

[وإنّ][1] التوسُّلَ إلى الله بسيِّد الكونيْن ورسولِ الله إلى الثَّقَلَيْن في الإبراء من مثل هذه الآلام، والإبلال من نوع هذه الأسقام، لمتحقِّقُ النجح إذا صحّ العقد، ومتيقن الربح إذا خلص لله القصد [كما حكى][2] الشيخُ الأديبُ الفاضلُ شرفُ الدين أبو عبد الله محمد بن الفقيه أمين الدين سعيد بن حمّاد بن محسن ابن عبدالله بن حاتي بن صنهاج بن بلال الصنهاجي المعروف بالبوصيري[3]، مصنِّف القصيدةِ الموسومةِ (ص ١٨٧) بالبُردة، قال: كان سبب إنشائي لهذه القصيدة المباركة أني كنت قد أصابني خلط فالج أبطل نِصْفي، ولم انتفعْ بنفسي، ففكرت أن أعمل قصيدةً في مدح النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ففعلتُ ونِمْت، فرأيتُ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في المنام، فمَسَحَ بيده المباركةِ عليّ، فعُوفيت مِنْ وقتي، وخرجتُ أوّلَ النهار فلقيني بعضُ الفقراء، فقال: يا سيّدي أريد أن أسْمَعَ القصيدةَ التي مَدَحْتَ بها سيدي رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم ـ ولم أكن أعلمتُ بها أحداً ـ فقلتُ وقد حصل عندي منه شيء: وأيّ قصيدة تريد، فإنّي مدحت النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم بقصائد كثيرة؟ فقال: التي أولها[4]:

أمِنْ تَذَكُّرِ جيرانٍ بِذي سَلَمِ

والله لقد سمعتُها البارحة، تُنْشَدُ بين يديْ من صُنِعَتْ فيه، ورأيتُه صلّى الله عليه وسلّم عند سماعِها يتمايَلُ كما يتمايل القضيب. قال: فأعطيْتُه القصيدة،

---

(١) ـ بياض في الأصل مقدار كلمة تقديرها: وإنّ.

(٢) ـ بياض في الأصل مقدار كلمتين تقديرهما؛ كما حكى.

(٣) ـ البوصيري، نسبة إلى بوصير بمصر وكان كاتباً بارعاً وله ديوان شعر، وقصيدته في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم مشهورة، توفي سنة ٦٩٦ هـ. (فوات الوفيات ٣ / ٣٦٢، الوافي بالوفيات ٣ / ١٠٥) وديوانه منشور بتحقيق سيّد كيلاني / القاهرة ١٩٥٥م.

(٤) ـ مطلعها:

أمِنْ تَذَكُّرِ جيرانٍ بذي سَلَمِ ... مَزَجْتَ دمعاً جرى من مقلةٍ بدمِ

(انظر هذه القصيدة في ديوان البوصيري ص ١٩٠ ـ ٢٠١).

فذهب، وذكر ما جرى بيني وبينه للناس، فبلغَتِ الصاحبَ بهاءَ الدين وزيرَ الملك الظاهر، فاستنسخ القصيدة، ونذر أن لا يَسْمَعَها إلاّ حافياً مكشوفَ الرأس، وكان يحبّ سماعها كثيراً، ويتبرّك بها وأهل بيته، ورأوا من بَرَكاتِها أموراً عظيمة في دينهم ودنياهم. ولقد أصابَ سعدَ الدين الفارقي[1]، موقِّعَ الصاحبِ المذكور، رمدٌ عظيم، أشرف منه على العمى، فرأى في منامه قائلاً، إمّا النبي صلّى الله عليه وسلّم وإمّا غيره، يقول: «امضِ إلى الصاحبِ بهاء الدين وخُذْ منه البردة، واجعلْها على عينيْك تُفِقْ» قال: فنهض من ساعته، وجاء إلى الصاحب وقال له ما رأى في منامه. فقال له الصاحب: «ما عندي شيءٌ يقال له البُرْدة، وإنما عندي مدحُ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، إنشاءُ البوصيريّ، فنحن نستشفي بها» وأخرجها، ووضعها سعدُ الدين على عينيه، وقُرِئَتْ وهو جالس، فعُوفِيَ من الرمد لوقته[2]. وبركاتُ هذه القصيدة شهيرة، وفضائلُها كثيرة.

[وإذا][3] كان الابتلاءُ بضربٍ من ظالم، أو امتحانٍ من جائر، أو اعتداءٍ من صائل، أو استطالةٍ من قاطع، أو جرحٍ من كافر، أو مضرّةٍ من فاجر، من قطع النظر عن الانتصار بعد الظلم الرافع للسبيل عن فاعله، إذ لسْنا بسبيلِ ذلك، فالمشروعُ هنا الصبرُ الذي هو من عزمِ الأمور، لقول الله تعالى: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[4]، وتصميمُ الاعتقادِ على أنّ ما أصاب

---

(١) ـ هو سعد الله بن مروان بن عبد الله بن خير المعروف بسعد الدين الفارقي الموقّع، كان منشئاً وشاعراً، حدّث بمصر ودمشق، وكتب الدرج للصاحب بهاء الدين بن حنا بمصر، وبعده عمل كاتب انشاء في دمشق، توفي سنة ٦٩٠ هـ ودفن بسفح جبل قاسيون (فوات الوفيات ٢ / ٤٧، الوافي بالوفيات ١٥ / ١٨٧).

(٢) ـ وردت هذه الحكاية في: الوافي بالوفيات ٥ / ١١٢ ـ ١١٣، وفوات الوفيات ٣ / ٣٦٨، وانظر قصة نظم القصيدة والاستشفاء بها في ديوان البوصيري ٢٣٦، ٢٣٨، ٢٤٠، ٢٤٢.

(٣) ـ بياض في الأصل مقدار كلمة واحدة تقديرها: وإذا.

(٤) ـ الآية ٤٣ من سورة الشورى.

العبدَ لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليُصِيبَه، يدلّ على ذلك الحديثُ الصحيح، وقد نُقِلَ في موضعه، وأنَّ الشرْعَ قد أثبت له حقاً عند المعتدي عليه، والظالمِ له، يشهد لذلك قوله صلّى الله عليه وسلّم: «أتَدْرون من المُفْلِس؟ قالوا: المُفلِسُ فينا من لا دينارَ له ولا درهم. قال: إنّما المفلسُ (ص ١٨٨) الذي يأتي يوم القيامة بصلاةٍ وصيامٍ وصدقة، ويأتي قد شَتَم هذا، وضَرَبَ هذا، وسَفَكَ دم هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناتُه قبل أن يُقضى ما عليه أخذ من سيئاتهم فطُرِحَتْ عليه ثم طرح في النار[1]» إلى ما لا يحصى كثرة من الأحاديث. وفي نحوه أنْشَدَ الواثق[2]:

تَنَحَّ عن القبيحِ ولا تَرِدْهُ ... وَمَنْ أوْلَيْتَه حَسَناً فزدْهُ
سَتُكْفَى من عَدُوِّكَ كُلَّ كَيْدٍ ... إذا كادَ العَدُوُّ وَلَمْ تَكِدْهُ

فإن كانت الإصابة بالجرح من عدوِّ الله فذلك أخفُّ لمصابه، وأذهبُ لأوْصابه، لقول النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «ما مِنْ كَلْمٍ يُكْلَمُ في سبيل الله، والله أعلمُ من يُكْلَمُ في سبيله، إلاّ جاء يومَ القيامةِ يثعب دماءً كهيئته حين كُلم، اللونُ لونُ دم، والريحُ ريحُ مِسْك»[3] فإن كان من بعض الفاجرين، فلعلّه قريبٌ من فعل الكافرين، والجنة ثواب الله للصابرين.

[كما يحكى][4] أن إبراهيمَ بن أدهم[5] خرج إلى بعض البراري، فلقيه

---

(١) - صحيح مسلم ٨ / ١٨، مسند ابن حنبل ٢ / ٣٠٣، ٣٣٤، ٣٧٢.

(٢) - ورد البيتان في بهجة المجالس ٢ / ٢٥٩ منسوبين إلى منصور الفقيه، وفي ديوان أبي العتاهية منسوبين لأبي العتاهية ص ١٥٣، وفي معجم الشعراء للمرزباني ص ٤٨٤، والبداية والنهاية ١٠ / ٣٣٣ منسوبين للخليفة العباسي الواثق بالله بن جعفر بن المعتصم بن الرشيد.

(٣) - صحيح مسلم ٦ / ٣٣، ٣٤، مسند ابن حنبل ٢ / ٢٣١، ٢٤٢.

(٤) - بياض في الأصل مقدار كلمتين، تقديرهما: كما يحكى.

(٥) - أبو اسحق ابراهيم بن أدهم بن منصور بن يزيد بن جابر العجلي (وقيل التميمي) البلخي الزاهد، من الزهاد والمتصوفة المشهورين في خراسان، ولدته أمه بمكة أثناء الطواف، =

جُنْديّ، فقال له: أين العمران يا هذا؟ فأشار له إلى المقابر. فضرب الجنديُّ رأْسَه فأوْضَحَه. فلما جاوزه قيل للجندي: ماذا صنعت؟ هذا ابراهيم بن أدهم زاهدُ خراسان. فجاءه الجندي يعتذر إليه ويسأله المغفرة فقال له ابراهيم: لمّا ضربْتَني أنتَ سألتُ الله لك الجنّة. فقال له: ولم؟ قال: قد عَلِمْتُ أني أؤجر على ذلك، فلم أكُ أرضى أن يصيبني مِنْ قِبَلِكَ الخير، ويُصِيبَك من قِبَلي الشَرّ. انتهت[1].

وهذا مقامٌ مثل مقام ابراهيم بن أدهم، ولسنا ممن يناسِبُه ذلك، وليتنا ممّن يصبرُ إذا أوذي. وأمّا أن نكون من التخلّق. . . . . .[2] أن ندعو للمؤذي بالجنّة فمستبعدٌ عن أمثالنا.

[ولا][3] خفاء بشرعيّة الدعاء هنا كمثل ما سبق من المَواطِنِ قبله بأن يصْرف عنه ما آلمه، ويرفع عنه ما أضرَّه، وإنما ينظر هنا هل يجوزُ له الدعاء على من ظَلَمه متعدّياً عليه، فأمّا الكفّار فلا إشكالَ في الدعاء عليهم، وأما الظالمُ من المسلمين والعاصي منهم وما أشبه ذلك، فالظاهر أنه يجوز؛ ففي صحيح مسلم عن سَلَمة بن الأكوع[4] ـ رضي الله عنه ـ أن رَجُلاً أكل بشماله عند النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فقال: كُلْ بيمينك. فقال: لا أستطيع. قال: لا استطعت، ما منعه إلاّ الكِبْر. قال: فما رفعها إلى فيه[5]. ففي هذا الحديث

=وهو ثقة في رواية الحديث، مات سنة ١٦١ هـ. (البداية والنهاية ١٠ / ١٣٨، حلية الأولياء ٧ / ٣٦٧، ٨ / ٤، كتاب التوابين ١٥٥، فوات الوفيات ١ / ١٣، الوافي بالوفيات ٥ / ٣١٨، طبقات الصوفية ٢٧، طبقات الأولياء ٥ ـ ١٥).

(١) ـ إحياء علوم الدين ٣ / ٧٠ ـ ٧١.

(٢) ـ بياض في الأصل، تقديره: إلى حدّ، بدرجة.

(٣) ـ بياض في الأصل، تقديره ما أثبتناه بين المعقوفتين.

(٤) ـ في الأصل ابن الأكدع، وهو أبو إياس سَلَمة بن الأكوع الأسلمي من الرماة المذكورين من صحابة الرسول عليه السلام، توفي سنة ٧٤ هـ عن ثمانين سنة. (المعارف لابن قتيبة ٣٢٣).

(٥) ـ صحيح مسلم ٦ / ١٠٩.

جوازُ الدعاء على من خَالَفَ الحُكْمَ الشرعيّ، ودعاءُ سعدِ بن أبي وقّاص على الذي قال عنه إنه لا يسير[1] بالسَرِيّة، ولا يَقْسِمُ بالسَوِيّة، ولا يَعْدِل في القضيّة، مشهور، قال فيه سعد ـ رضي الله عنه ـ: «أما واللهِ لأدعونّ الله بثلاث: [اللهم][2] إن كان عبدُك هذا كاذباً قام رياءً (ص ١٨٩) وسمعة، فأطِل عُمُرَهُ، وأطِلْ فَقْرَه، وعرّضه للفِتَن»* فكان بعد ذلك يقول: «شيخ مفتون، أصابتني دعوة سعد»! والقضيّة في الصحيحين.[3]

ومحلُّ جوازِ الدعاءِ في مثل هذا إنما هو إذا كان منوطاً بصفة مستحق للدعاء، كالظالمين وأمثالهم، ومن عيّنه الشرعُ كأبي جهل، وفي المعيّن، إذا لم يكن على هذا النحو كلامٌ اختصرناه خِيفَةَ التطويل.

[و][4] ليتأمل قول أحد ابني آدم لأخيه: ﴿لئِنْ بَسَطْتَ إلَيَّ يدك لِتَقْتُلَني ما أنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إنِّي أخَافُ الله رَبَّ العَالَمين * إنِّي أُرِيدُ أنْ تَبُوءَ بإِثْمِي وإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أصْحابِ النَّارِ وذَلِكَ جَزاءُ الظَّالِمين﴾[5] وهذا الغايةُ في الاستسلام لأقدارِ الله، والإذعان لما تجري به أحكامُه، وهو فعلُ عثمان ـ رضي الله عنه ـ في استِسْلامِهِ لِقَتَلَتِهِ، ولم يدفع عن نفسه[6]. والخلاف في هذه المسألة شهير بالمنع والجواز بعد أن يَسْلَمَ فعلُ عثمان ـ رضي الله عنه ـ لاختصاصِ قضيّته بأمور لا تُوجَدُ لغيره أبداً.

وإفاتةُ النفسِ هو أقصى ما يتفق في هذا الباب، وسيأتي في الفصل بعد هذا في ذلك ما فيه كفاية، وإنما انجرّ الكلامُ هنا إلى ذلك على حسب

---

(١) ـ في الأصل: يسر.

(٢) ـ بياض في الأصل مقدار كلمة واحدة.

* ـ في صحيح البخاري: بالفتن.

(٣) ـ انظر صحيح البخاري ١ / ١٨٣ ـ ١٨٤.

(٤) ـ بياض في الأصل تقديره حرف الواو.

(٥) ـ الأيتان ٢٨، ٢٩ من سورة المائدة.

(٦) ـ انظر قصة مقتل عثمان رضي الله عنه في كتاب المحن ص ٦٣.

سياقه، إذ ليس القصدُ أن نتكلم هنا إلاّ فيما هو ممكنُ الارتفاع، لما تقدّم من قوة الرجاء في تلافي الحال مع تحصيل المثوبة.

[و][1] للتسليةِ في أمثال هذه النوائب، قال ابن المعتزّ: «الحوادثُ المُمِضّةُ مُكْسِبَةٌ لحظوظٍ جزيلة، منها ثوابٌ مدّخر، وتطهيرٌ من ذنب، وتنبيهٌ من غفلة، وتعريفٌ بقَدْرِ النعمة، وعونٌ على مقارعة الدهر»[2][وقال][3] بعضُ المُحْدَثين: «لولا حوادثُ الأيّام، لم يُعْرَفْ صبرُ الكرام، ولاجَزَعُ اللئام».

وقد وقع لمالكٍ ما وقع من الابتلاء بالضرب. [قال][4] الطبريّ: اختُلِف فيمن ضرب مالكاً، وفي السببِ في ضربه، وفي خلافةِ مَنْ ضُرِب، فقيل: إنّ أبا جعفر نهاه عن الحديث «لَيْسَ على مُسْتَكْرَهٍ طَلاق» ثم دسّ إليه من يسألُه عنه، فحدّث به على رؤوس الأشهاد، فضربه بالسوط. وقاله مصعب، إلاّ أنّه قال: الذي نهاه جعفرُ بنُ سليمان. [وقال][5] الواقدي: لمّا سُئِلَ مالكٌ وسُمِعَ منه وقُبِلَ قولهُ حَسَدَهُ الناسُ وبغوه، فلما ولي جعفر بن سليمان على المدينة، سعوْا به إليه، وكثروا عليه عنده، وقالوا: لا يرى ايمان بيعتكم هذه بشيء، وهو يأخذ بحديث يرويه ثابتُ الأحنف في طلاق المُكْرَه أنه لا يجوز. فغضب جعفر، ودعا به، فاحتجّ عليه بما رفع إليه، ثم جرّه ومدّه فضربه بالسياط ومُدَّت يده حتى انخلعت كتفه»[6]. [وقال][7] الباجي[8]: ولما حجّ المنصورُ، أقاد مالكاً

---

(١) ـ بياض في الأصل تقديره حرف الواو.

(٢) ـ انظر: رسائل ابن المعتز / جمع وتحقيق محمد عبد المنعم خفاجي / ص ٦٤.

(٣) ـ بياض في الأصل مقدار كلمة، تقديرها: وقال.

(٤) ـ بياض في الأصل مقدار كلمة واحد، وتتمتها من ترتيب المدارك ١ / ٢٢٨.

(٥) ـ بياض في الأصل مقدار كلمة واحدة، تتمتها من ترتيب المدارك ١ / ٢٢٨.

(٦) ـ أورد صاحب ترتيب المدارك هذه الروايات مجتمعة بنصّها الذي ورد هنا. (انظر ترتيب المدارك ١ / ٢٢٨).

(٧) ـ بياض في الأصل مقدار كلمة واحدة تقديرها: وقال.

(٨) ـ انظر قول أبي الوليد الباجي في ترتيب المدارك ١ / ٢٢٨ ـ ٢٢٩.

من جعفر بن سليمان (ص ١٩٠) وأرسله إليه ليقتصَّ منه. فقال: أعوذُ بالله، واللهِ ما ارتفع منها سوطٌ على جسمي إلاّ وأنا أجعله في حلٍّ ذلك الوقت، لقرابتِهِ من رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم. [قال][1] القروي[2] والعمري وأحدهما يزيد على الآخر: لمّا ضُربَ مالكٌ ونِيلَ منه حُمِلَ مغشيّاً عليه، فدخل الناسُ عليه، فأفاق، فقال: أُشْهِدُكُمُ الله أنّي جَعَلْتُ ضاربي في حلّ، فعدناه في اليوم الثاني فإذا به قد تماثل، فقلنا له ما سمعنا منه، وقلنا له: قد نال منك. فقال: تخوَّفْتُ أن أموتَ أمس، فألقى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فأستحي منه أن يَدْخُلَ بعضُ آله النارَ بسببي. فما كان إلاّ مدّة حتى غضِب المنصورُ على ضارِبِه، وضرب ونيل منه أمر شديد، فبُشِّر مالك بذلك، فقال: سبحان الله! أترون حظّنا مما نزل بنا الشماتة به؟! إنّا لنرجو له من عقوبةِ الله أكثرَ من هذا، ونرجو لنا من عفو الله أكْثَر من هذا، ولقد ضربت فيما ضرب فيه محمد بن المنكدر[3] وربيعة[4] وابن المسيّب[5]، ولا خير فيمن لا يؤذى في هذا الأمر. [قال][6] الدراوردي[7]: لما أُحْضِرَ مالك لضربه في الساعةِ التي

(١) ـ بياض في الأصل مقدار كلمة واحدة، والتتمة من ترتيب المدارك ١ / ٢٢٩.

(٢) ـ لعله يقصد أبا العرب محمد بن أحمد بن تميم التميمي المتوفى سنة ٣٣٣ هـ حيث ورد النص المشار إليه في كتابه «كتاب المحن» ص ٣٢٥.

(٣) ـ محمد بن المنكدر بن عبد الله بن الهدير القرشي، زاهد من أهل المدينة ومن رواة الحديث توفي سنة ١٣٠ هـ، ضربه أمير المدينة بالسياط بتهمة أنه من الخوارج (كتاب المحن ص ٣١٠).

(٤) ـ ربيعه بن أبي عبد الرحمن عثمان التيمي صاحب محمد بن المنكدر، مات سنة ١٣٦ هـ وضُرِب مع ابن المنكدر لسبب واحد، وحُلِق رأسه ولحيته. (كتاب المحن ص ٣١٠ ـ ٢١١).

(٥) ـ سعيد بن المسيّب بن حزن المخزومي القرشي، من فقهاء المدينة السبعة، كان محدثاً وفقيهاً وزاهداً، توفي بالمدينة سنة ٩٤ هـ، ضُرب مرتين على البيعة: الأولى من قبل جابر بن الأسود بن عوف الزهري والي عبد الله بن الزبير على المدينة، والثانية من قبل عبد الملك بن مروان (كتاب المحن ٢٩٠ ـ ٣٠١).

(٦) ـ بياض في الأصل وتتمته من ترتيب المدارك.

(٧) ـ هو أبو جعفر عبد العزيز بن محمد الدراوردي (الاندراوردي) من تلاميذ الإمام مالك، ورد ذكره في صفحات متفرقة في كتاب ترتيب المدارك وكتاب انتصار الفقير السالك، أصله =

أفتى فيها، وكنت أقرب الخلق منه سمعتُه يقول كلّما ضُربَ سوطاً: «[اللهمّ](١) اغفر لهم فإنهم لايعلمون» حتى فُرِغ من ضربه، ذكر أنّه أفتى عند قيام محمد ابن عبدالله بن حسن العلوي المسمّى بالمهدي بأن بيعة أبي جعفر لاتلزم لأنها على الإكراه(٢).

[وقد](٣) وقع مثلُ ذلك لسعيدِ بن المسيّب ـ رضي الله عنه ـ فعن عبد الرحمن بن أبي عَوْن قال: كان جابرُ بن الأسود(٤) وهو عاملُ ابنِ الزبير على المدينة قد تزوّج الخامسة قبل أن تنقضيَ عِدّةُ الرابعة، فلما ضُرِبَ سعيدَ بنَ المسيّب صاح به سعيد، والسياط تأخذه «والله ما رَبَّعْتَ على كتاب الله، يقول الله تعالى: ﴿فانْكِحُوا ما طَابَ لَكُمْ مِنَ النِساءِ مَثْنَى وثُلاثَ وَرُباع﴾ (٥) وإنّكَ تزوّجتَ الخامسة قبل انقضاءِ عِدّة الرابعة، وما هي إلاّ ليال، فاصنع ما بدا لك، فسوف يأتيك ما تكره». فما مكث إلاّ يسيراً حتى قتل ابن الزبير(٦).

[وقال](٧) ابنُ الحارث: كان يحيى بن عمر(٨) شجا على العراقيين(٩)،

=من خراسان وتوفي سنة ١٨٧ هـ (ترتيب المدارك ١ / ٢٨٨، المعارف ٥١٥).

(١) ـ بياض في الأصل والتتمة من ترتيب المدارك.

(٢) ـ انظر خبر محنة الإمام مالك في: كتاب المحن لأبي العرب ص ٣١٩ ـ ٣٢٥، ترتيب المدارك ١ / ٢٢٨ ـ ٢٣١. وهناك تطابق بين النص الذي في ترتيب المدارك وبين نص جنة الرضا.

(٣) ـ بياض في الأصل تقديره: وقد.

(٤) ـ توفي جابر بن الأسود سنة ٦١ هـ (انظر ترجمته في الوافي بالوفيات ١١ / ٢٨).

(٥) ـ الآية ٣ من سورة النساء.

(٦) ـ انظر هذه الحكاية في كتاب المحن ص ٢٩١.

(٧) ـ بياض في الأصل تقديره: وقال.

(٨) ـ هو أبو زكريا يحيى بن عمر بن يوسف بن عامر الكناني من أهل جيان بالأندلس وسكن القيروان ثم استوطن سوسة وبها قبره، وكان مولده بقرطبة، وله رحلة سمع بها من علماء مصر والحجاز، وله مؤلفات كثيرة في الفقه والحديث، توفي بمدينة سوسة سنة ٢٨٩ هـ عن سبعين سنة (ترتيب المدارك ٣ / ٢٣٤، تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي ٢ / ١٨٤).

(٩) ـ في الأصل العِراقيْن وهما البصرة والكوفة. لكنّ الكلام اللاحق يقتضي جعلها كما أثبتنا.

أخبرني من كان جالساً مع ابنِ عبدون[1]، وكان رأساً فيهم، حتى خطر ابنُ عمر[2] راكباً، على رأسه قلنسوة، فجعل وجهُ ابن عبدون يتغيَّر شَرَقاً به، فلما ولي ابنُ عبدونَ القضاءَ، طلب يحيى وأخافه، حتى توارى منه، وخرج إلى سوسة[3]، فاختفى بها، فيقالُ إنّه خرج ليلاً متنكّراً، فمرّ على دورِ بعضِ أهلِ العراق، وبها مشعل، فخاف أن يميّزوه، فوقف، فإذا بريح قد أطفأته، فجاز، فبعث ابنُ عبدون كتاباً إلى عبد الله بن هارون الكوفي يقول فيه: «صحّ عندي أن ابنَ عُمَرَ متوارٍ بتونس، فاطْلُبْهُ وأَوْثِقْهُ، وابعَثْ به إليّ». قال محمد بن عمر[4] أخوه: فوجّه فيّ الكوفي، (ص ١٩١) وعَرَضَ عليّ الكتاب، فقرأتُه، فاربدَّ وجهي. فقال: لايسوءُ ظنُّك، فلم أبعث فيك لمكروه، ولكن لأعجبك من ابن عبدون، يريد مني أن آتي إلى إمام من أئمة المسلمين، فأرسل به إليه ليمتهنه، إن كان أخوك بهذا البَلَدِ فهو آمن، هل هو إلاّ العزل؟!. انتهى[5].

تأمّل ما اشتمل عليه هذا الكوفيّ من الفضل، وما رجح لديه من العقل، وما هان عليه في جانب حفْظِ هذا الإمام من العزل، وكيف اربدّ وجهُ ابن عمر خيفةً على أخيه، وخشيةً من عادية تؤذيه، فسكّن نَفْسَهُ وقوّى قلبه، وأذهب شغفه، وجبر لهفه، وفي مثله قيل «جَبْرُ الملهوفِ ضَرْبٌ من إحياء الموتى»[6]، وصدق القائل في ذلك.

---

(١) ـ محمد بن عبدون بن محمد بن فهد، عمّر فتوفي سنة ٣٦٨ هـ كان من الفقهاء ورواة الحديث وروى عن ابن وضاح (ترتيب المدارك ٤ / ٤٣٣، ابن الفرضي ٢ / ٧٩ وسماه: محمد ابن عبيدون بن أبي الغمر بن محمد بن فهد).

(٢) ـ يعني يحيى بن عمر المشار إليه.

(٣) ـ مدينة بافريقية على ساحل المتوسط (الروض المعطار ٣٣١، الادريسي ١٢٥).

(٤) ـ محمد بن عمر الكناني أبو عبد الله، شقيق يحيى بن عمر، فقيه، توفي بمصر سنة ٣١٠ هـ (ترتيب المدارك ٣ / ٢٤١، ابن الفرضي ٢ / ٢٣).

(٥) ـ وردت هذه الحكاية في ترتيب المدارك ٣ / ٢٤٠.

(٦) ـ لم أعرف قائله.

[وإذا][1] كان الابتلاءُ بما يُلْقى في السفر والاغتراب من احوال شديدة، ومشاقَّ عظيمة، ومتاعبَ فادحة، ولواحق غائظة، حتى قيل: «السَّفَرُ قِطْعةٌ من العذاب»[2] [وقال][3] صلّى الله عليه وسلّم: «المُسافرُ ومتاعُه على قَلَت إلاّ ما وقى الله»[4] القَلَتُ: الهلكة. ففي رجاء الإياب، وتأميلِ لقاءِ الأحباب، وارتقاب زمنِ التداني، وانتظارِ لُطْف الله في تيسير التلاقي، ما يخفُّ به الشوقُ، ويقلُّ معه الوَجْدُ، ولذلك قال أبو تمام[5]:

آلِفَـةَ النَّحِيبِ كَمْ افْتِراق ... أظَـلَّ فكـانَ داعِيةَ اجتِمـاعِ
وَلَـيْسَـتْ فَرْحَـةُ الأوْبـاتِ إلاّ ... لِمَـوْقُـوفٍ على نَزْعِ* الـوَداعِ

ولازمٌ لمن عرض له السفر طوعاً أو كرهاً أن يتأدّب بما أمر به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم من قوله: [اللهمّ][6] أنتَ الصاحِبُ في السَفَرِ والخَليفَةُ في الأهـل [اللهم][7] إني أعـوذُ بِكَ من وَعْثـاءِ السَفَـر، وكآبة المَنْظَرِ، وسوء المُنْقَلَب[8]، في الأهلِ والمال»[9].

ولا يعترض علينا بأن هذا من غير ما تصدَّيْتُ لنقله، فإن السَفَرَ بنفسه

(1) - بياض في الأصل تقديره ما أثبتناه.

(2) - حديث نبوي ورد في صحيح مسلم ٦ / ٥٥، صحيح البخاري ٢ / ٢٠٥، ٦ / ٢٠٨، ٤ / ١٧، مسند ابن حنبل ٢ / ٢٣٦، ٤٤٥، ٤٩٦، الموطأ ٦٩٤.

(3) - بياض في الأصل تقديره ما أثبتناه.

(4) - كشف الخفاء ٢ / ٢٠٤ (حديث رقم ٢٢٨٩). وورد هذا القول في لسان العرب (مادة: قلت) منسوباً لأعرابي.

(5) - ديوان أبي تمام ٣٥٣.

* - في الديوان: ترح.

(6) - بياض في الأصل، تتمته من عمل اليوم والليلة.

(7) - بياض في الأصل، تتمته من عمل اليوم والليلة.

(8) - في الأصل: وكآبة المنقلب وسوء النظر.

(9) - عمل اليوم والليلة ص ١٥٥، صحيح مسلم ٤ / ١٠٤ - ١٠٥.

مؤلم فكيف بما ينشأ عنه! [كما يحكى][(١)] عن بَعْضِ الصالحين أنه دخل عليه من عَرَض له سفر، فقال له ابتداءً: من أراد سفراً ففزع من عدوّ أو وحش فليقرأ ﴿لإيلاف قريش، إيلافهم﴾ فإنها أمانٌ من كلّ سوء. فقرأها، فما نابه شيء.

[و][(٢)] لا تُسْتَنْكَرُ مَشَقَّةُ الاغتراب، ولا فظاعةُ الخروج من الديار، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أو اخْرُجُوا مِنْ دِيارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إلاَّ قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾[(٣)] فقرن في ثقل التكليفِ بين قتلِهم للأنفُسِ وخروجِهم من الديارِ، لعِلْمه بتماثلِ ذلك لديهم. وقال، وقولُه الحقّ، إنّه لو كتبه عليهم ما فَعَلَهُ منهم[(٤)] إلاّ القليل. وقال تعالى: ﴿وَمَا لَنَا أَلاّ نُقَاتِلَ في سَبِيلِ اللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنا مِنْ دِيارِنا وأَبْنائِنا﴾[(٥)] فسوّى بين الإخراجِ من الديار والإخراجِ من الأبناء، ومعلومٌ بالعادة انقسامهم إلى أولي دِيارٍ أو أبناءٍ أو ديارٍ وأبناء(ص ١٩٢)؛ فقد استوى من له دارٌ بمن له أبناء، وكلاهما في ثقل الخروجِ عليه الموجب عنده للتبرّع بالقتال في سبيلِ الله، وفيه ذهابُ الأنفسُ.

[وممّا][(٦)] يُعْلَمُ به موقعُ إلْفِ الوطنِ من القلوبِ قولُ مَيْسون بنتِ بَحْدَل[(٧)] حين أُهْدِيَتْ إلى معاويةَ بنِ أبي سفيان، وَسَكَنَتْ في منازلِ الملوك، بعد أن نشأت في خيامِ الأعراب:[(٨)]

---

(١) - بياض في الأصل مقدار كلمتين، تقديرهما ما أثبتناه.

(٢) - بياض في الأصل تقديره حرف الواو.

(٣) - الآية ٦٦ من سورة النساء.

(٤) - في الأصل: منه.

(٥) - الآية ٢٤٦ من سورة البقرة.

(٦) - بياض في الأصل تقديره ما أثبتناه.

(٧) - هي ميسون بنت بحدل بن أُنيف بن دلجة الكلبية والدة يزيد بن معاوية بن أبي سفيان. (العقد الفريد ٥ / ١١٧، المعارف ٣٥٠، رسائل ابن حزم ٢ / ١١٩، ١٤١).

(٨) - ورد البيت الأول في سرور النفس ٣٠٨، ووردت الأبيات كاملة في شرح المفصّل لابن يعيش ٧ / ٢٥ (ط. ادارة الطباعة المنيرية - مصر).

لَبَيْتٌ تَخْفِقُ الأرْواحُ فيه　　أَحَبُّ إليَّ من قَصْرٍ مُنيفِ
وبِكْرٌ يَتْبَعُ الأظعانَ سَقْياً　　أحبُّ إليَّ من بَغْلٍ زَفُوفِ
وكَلْبٌ يَنْبَحُ الطُّوّافَ عنّي　　أحبُّ إليّ من قِطٍّ أَلُوفِ
ولُبْسُ عباءةٍ وتقرُّ عيني　　أحبُّ إليَّ من لُبْس الشُّفُوفِ
وخِرْقٌ من بني عمّي نَجيبٌ　　أحبُّ إليَّ من عِلْجٍ غَليفِ

[ويشبه](1) هذا المعنى قولُ جارية من العرب لبناتِ عمٍّ لها: «السعيدة التي يتزوّجُها ابن عمٍّ لها، فيجهّزها بتَيْسيْن وكلبين وعنزين، والشقيّةُ التي يتزوّجها الحضريّ، فيلبسها الحرير، ويطعمها الخمير، ويحملها ليلةَ الزفافِ على عود كريم». انتهت(2).

وإذا كان هذا قولَ مَنْ وَطَنُه على مثل المعلوم من أوطان العرب، في شدّة العيش، ومقاساة التعب، فما الظنّ بغيرهم!؟. وكأنّ حب الوطن جِبِلّيٌّ مطبوعٌ عليه، والله أعلم. [و](3) قد يوجد في الاغترابِ أُنْسٌ بمثل قول بعض الشعراء: (4)

لا يَمْنَعَنَّكَ خَفْضَ العَيْشِ في دَعَةٍ　　نُزوعُ نَفْسٍ إلى أهْلٍ وأوْطانِ
تَلْقى بكلِّ بِلادٍ احتَلَلْتَ بها　　أهلاً بأهلٍ وإخواناً بإخوان

(1) ـ بياض في الأصل تقديره: ويشبه.

(2) ـ طبائع النساء ٨٠ ـ ٨١.

(3) ـ بياض في الأصل تقديره حرف الواو.

(4) ـ ورد البيتان في بهجة المجالس ١ / ٢٤٤ ـ ٢٤٥ منسوبين إلى حبيب (بن أوس الطائي) ووردا في معجم الأدباء ١ / ١٩٢ منسوبين إلى ابراهيم الصولي، وورد البيتان أيضاً في عيون الأخبار ١ / ٢٣٤، الغيث المسجم ٢ / ٧٧، رفع الحجب المستورة ٢ / ١١، المحاسن والأضداد ٧٢، وفي التذكرة السعدية ص ٢٠٠، وكتاب المنازل والديار لابن منقذ ٢ / ٢٨، وكتاب الحنين إلى الأوطان لأبي منصور محمد بن سهل بن المرزبان الكرخي البغدادي ص ١٥٠ (تحقيق: جليل العطية، مجلة المورد ـ المجلد السادس عشر ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧م ـ العدد الأوّل).

فهذا آثر خَفْضَ العيشِ في دعة، على ما يلقى في الاغتراب، من نزوعِ النفسِ إلى الأهل والوطن، ورجح عنده ارتكاب السفر، وفراق الوطن، لتحصينِ خفضِ العيش، والفوز من ذلك براحةِ النفس.

واعذرُ منه من ارْتَكَبَ الاغتراب لالتماسِ الرُّتَبِ الشريفة، واكتسابِ المنازل الرفيعة، كما يشير إليه قول ابن رُشَيْد[1] في الحضّ عليه:

تَغَـرَّبْ ولا تَحْـفِـلْ بفُـرقَـةِ مَوْطـنٍ
تَفُـزْ بالـمُنى في كُلِّ ما شِئْتَ مِنْ حَاجِ
فلولا اغتِـرابُ المِسْـكِ ما حلَّ مَفْـرِقَـاً
ولـولا اغتـرابُ الـدُرِّ ما حلَّ في التـاجِ

وأعْذَرُ مرتكِبِ الاغترابِ لالتماسِ الفوائدِ أو لاقتناصِ الجاه، وما أشْبَهَهُ من المقاصد، من ارتكَبَهُ مِنْ إهانةٍ لَحِقَتْهُ، أو مذلّةٍ طرقته، كما صرح به قولُ شُكْرِ بنِ أبي الفتُوح[2] أمير الحرمين[3]: (ص ١٩٣)

قَوِّضْ رِكَـابَكَ عن أرْضٍ تُهانُ بها ... وجـانِبِ الـذُلَّ إنَّ الـذُلَّ يُجْتَنَبُ
وارْحَـلْ إذا كانَتْ الأوطانُ مَنْقَصَةً ... فالمَنْـدَلُ الرّطبُ في أوطانِهِ حَطَبُ

وقد بسط ذلك مهيارُ الدَيْلَميّ[4] بقوله[5]:

(١) - أبو عبد الله محمد بن عمر بن رُشَيْد الفهري السبتي، صاحب الرحلة المشهورة المسماة «ملء العيبة» وغيرها من المؤلفات في الحديث والفقه والنحو والبلاغة. ولد بسبتة سنة ٦٥٧ هـ وارتحل إلى فاس وتونس وغرناطة والاسكندرية، وحج سنة ٦٨٥ هـ وتوفي سنة ٧٢١ هـ (الوافي بالوفيات ٤ / ٢٨٤، الديباج المذهب ص ٣١٠).

(٢) - شكر بن أبي الفتوح الحسني أمير مكة المتوفى سنة ٤٥٣ هـ (جمهرة أنساب العرب ص ٤٧، دمية القصر ١ / ٣٠، الوافي بالوفيات ١٦ / ١٧٥).

(٣) - ورد البيت الأول في كتاب المنازل والديار لابن منقذ ٢ / ٣١ غير منسوب.

(٥) - أبو الحسين مهيار بن مرزويه الكاتب والشاعر الفارسي الديلمي، كان مجوسياً فاسلم سنة ٣٩٤ هـ، له ديوان شعر توفي سنة ٤٢٨ هـ.(الذخيرة لابن بسام / القسم الرابع / المجلد الثاني ص ٥٤٩، تاريخ بغداد ١٣ / ٢٧٦، وفيات الأعيان ٥ / ٣٥٩).

(٦) - انظر هذه الأبيات في ديوانه ١ / ٣٨٢.

تَغَـرَّبْ فمـا الـدارُ الحبيبـةُ دارُ ... وفـكَّ المـطايا فالمُنـاخُ إسـارُ
ولا تسـألِ الأقـدارَ عمّـا تَجُـرُّهُ ... مخـافـةَ هُلْكٍ فالسَّـلامـةُ عارُ
إذا لم يَسَعْهُ الأمنُ في عُقْرِ دارِها ... فخـاطِـرْ بهـا إنّ العَـلاءَ خِطارُ
مُقامي مع الـزَوْراءِ، وهي حَبيبـةٌ ... مع الـظُّلْمِ ، غَبْنٌ للعُلى وخَسـارُ
وكم حُلَّةٍ مَحْفوفـةٍ ولهـا الهـوى ... وأخـرى لهـا البَغْضـاءُ وهي تُزارُ
إذا حَمَـلَتْ أرْضٌ تُرابَ مذلّـةٍ ... فليس عليهـا للكـرامِ قَرارُ
ولا عَيْبَ أن أهْـزَلْتُ وحدي وأسْمَنوا ... إذا أنـا أنْجَـدْتُ العُلى وأغـاروا
ولستَ تَرى الأجسامَ وهي نواحلٌ ... تضـاءلُ إلاّ والـنـفـوسُ كِبـارُ
خفيتُ ونـوْري كامنٌ في قَناعتي ... ومـا كلُّ ما غَمَّ الـهـلاكَ سرارُ

وفي معنى ذلك قولُ ذي الوزارتين أبي عبد الله بن الخطيب[1] رحمه الله: [2]

وإذا تنـقَّصَـكَ الـزمـانُ ببَلْدةٍ ... فاطـوِ المـراحـلَ كيْ تَحُوزَ كمالا
لمّا توغّلَ في السُّرى بَدْرُ الدُّجى ... أبْـصَـرْتُـهُ بَدْراً وكـانَ هِلالا

وإنما أخذه الشيخُ من قولِ أبي محمّد الحسن المهذّب[3] من شعراءِ الجزيرة في قوله:

---

(١) ـ لسان الدين محمد بن الخطيب السلماني المتوفى سنة ٧٧٦ هـ (وقد أسلفنا الترجمة به). (ترجمته في آخر الجزء الرابع من الإحاطة ٤٣٨ ـ ٦٤٠، نثير فرائد الجمان ص ٢٤٢، نثير الجمان ٣٦٠، التعريف بابن خلدون ص ١٦٧ ـ ٢٣١، النفح (صفحات كثيرة)، أزهار الرياض (صفحات كثيرة)، وصفحات كثيرة في كتابه نفاضة الجراب وهذا الكتاب أشبه بالترجمة الذاتية).

(٢) ـ لم أجد هذين البيتين في ديوان لسان الدين أو فيما لديّ من المصادر التي ترجمت له.

(٣) ـ هو أبو محمد الحسن بن علي بن ابراهيم بن الزبير الملقب بالقاضي المهذّب، كان مختصاً بالصالح بن رزّيك الوزير الفاطمي، وهو شاعر معروف وكان يقال ان أكثر الشعر في ديوان ابن رزيك هو من شعر المهذب، وتوفي المهذب بمصر سنة ٥٦١ هـ (معجم الأدباء ٩ / ٤٧، فوات الوفيات ١ / ٣٣٧، خريدة القصر / قسم شعراء مصر ١ / ٢٠٤، الروضتين ١ / ١٤٧، الوافي بالوفيات ١٢ / ١٣١).

لا تَطمعنْ فـيَّ أرضٌ أن أُقيمَ بهـا   فليسَ بَيْنـي وبَيْنَ الأرْضِ مِنْ نَسَبِ
حيثُ اغتربتُ فلي من عِفَّتي وَطَنٌ   آوي إليه [وأهلٌ][1] من ذَوي الأدَبِ
لولا الـتـنقُّـلُ أعيا أن يبينَ على   باقي الكواكبِ فضلُ السبعةِ الشُّهُبِ

وشهد لذلك قولُ أبي الفتحِ البستي[2] في هذا البيت[3]:

فطولُ جِمـامِ المـاءِ في مستقـرّهِ   يغـيِّرُهُ لونـاً وريحـاً ومَـطْعـمَـا

[وقال][4] سهل بن هارون[5]: «لستُ ممّن يقطع نفسه بصلةِ وطنِه»[6]. [وقال][7] خلفُ بن صفوانَ: «ليسَ على أديبٍ غُرْبة». [و][8] قد بيّن المهلّبي [9] الوجهَ في عدم المبالاة بالوَطَن في قوله:

رأيتُ بلادي والـبـلادَ جميعَهـا   سواءً فلا أختـارُ بعضاً على بعضِ
إذا لـم يكُنْ بالـدارِ لي مَنْ أُحِبُّـهُ   فلا فَرْقَ بينَ الـدار أو سائـرِ الأرْضِ

(١) - بياض في الأصل تقديره: وأهلٌ.

(٢) - أبو الفتح علي بن محمد الكاتب البستي، شاعر مشهور، صاحب الطريقة الأنيقة في البديع، منسوب إلى بُسْت في بلاد فارس، توفي ببخارى سنة ٤٠١ هـ. (يتيمة الدهر ٤ / ٣٤٥ - ٣٨٣، وفيات الأعيان ٣ / ٣٧٦).

(٣) - البيت في يتيمة الدهر ٤ / ٣٨١.

(٤) - بياض في الأصل تقديره: وقال.

(٥) - كاتب بليغ فارسي الأصل خدم الرشيد وكان مقرباً للمأمون وكان معروفاً بشعوبيته، وكتب ليحيى بن خالد البرمكي، وتولى خزانة الحكمة، وتوفي سنة ٢١٥ هـ. (إعتاب الكتاب ٨٥، الفهرست ١٣٣، معجم الأدباء ٤ / ٢٥٨، فوات الوفيات ٢ / ٨٤).

(٦) - التمثيل والمحاضرة ٤٠٠.

(٧) - بياض في الأصل تقديره ما أثبتناه.

(٨) - بياض في الأصل تقديره حرف الواو.

(٩) - لعله محمد بن عباد بن عباد بن حبيب بن المهلب بن أبي صفرة المهلبي الأزدي البصري، كان يتولى الصلاة والإمارة بالبصرة، توفي سنة ٢١٦ هـ (تاريخ بغداد ٢ / ٣٧١، الوافي بالوفيات ٣ / ١٨٣).

(ص ١٩٤) وربّما دعا الاغترابُ إلى الحلول في مواطنَ يَسُوءُ[١] المغتربَ خمولُها، وإلى الإقامة في أماكنَ يُذهب أُنسَه طلولُها، ففي التسلّي عن مثل هذه اللاحقةِ يقول الشريف أبو أحمد بن أبي البسّام:

يا هذِهِ لا تُفَنّديني إنْ صِرْتُ في منزلٍ هجينِ
فليسَ قُبْحُ المحلّ ممّا يَقْدَحُ في مَنْصِبي وديني
فالشمسُ عُلْويّةٌ ولكن تَغْرُبُ في حَمْأةٍ وطِينِ

ويشدّة أمرِ الفراقِ يشهدُ قولُ ابنِ المقفّع:[٢]

وكلُّ مصيباتِ الزمانِ وَجَدْتُها سوى فُرْقَةِ الأحبابِ هَيِّنَةَ الخَطْبِ

[و][٣] في اغترابِ يوسف الصدّيق من أبيه، وانفرادِه من أحبابه، ما يتأسّى به من طوّح به الاغتراب، ونَثَرَ شملَه الافتراق؛ ففي نبئه عبرةٌ لأولي الألباب، وموعظةٌ مما يقع من نُوَبِ الدهر بينَ الأحباب، وإنّ في مآلِ أمرِه إلى المُلْك، ومجيء أبَوَيْه وإخوته من البدو[٤]، وما منحهم الله بعد الفُرقةِ، من اجتماع الشَّمْل، لمسلاةً لمن ساءت غربتُه، وتضاعفت بسببها كُرْبَتُه، وإنّ في تصرُّفاتِ الأقدار، لعبرةً لأولي الأبصار، وإلاّ فمِنْ أين يشعرُ الناظرُ في مبدأِ أمْرِ الصِدّيق صلّى الله عليه وسلّم من فراقِه لأبيه وتصيُّرِه لحكم الرقّ؟! إن ذلك هو السبب فيما مَنَّ اللهُ عليه من أنباء الملك، وتعليمِ تأويل الأحاديث. وما أبعد ما بين الابتداءِ والتمام!! والفاتحةِ والختام!! وفي الامتعاضِ لحال الغريب قال عليُّ ابنُ الجهم[٥]:

---

(١) - في الأصل: سوء.

(٢) - الصداقة والصديق لأبي حيان ص ٢١٥، إحياء علوم الدين ٢ /١٨٨.

(٣) - بياض في الأصل تقديره: و.

(٤) - هكذا في الأصل، ولعل المراد: البدء.

(٥) - انظر: ديوان علي بن الجهم ص ١٥٤.

وارْحمتـا للغريب في البَلَدِ النازحِ ماذا بنَـفْـسِـهِ صَنَـعـا!؟
فارَقَ أحبـابَـهُ فمـا انْـتَـفَعـوا بالـعَـيْـشِ مِنْ بَعْـدِهِ ولا انْتَفَعـا
يقـولُ في كَرْبِـهِ وغُـرْبَـتِـهِ: عَدْلٌ مِنَ اللهِ كُلُّ ما صَنَـعـا

[وقال][1] أبو محلم[2] الشاعر: شخصتُ مع عبدِ الله بن طاهر[3] إلى خراسان في الوقت الذي شخص فيه، وكنتُ أعادِلُه وأُسامِرُه، فلما صِرْنا إلى الريّ، مررنا بها سحراً، فسمعنا أصواتَ الأطيار، من القَماري وغيرها، فقال عبدُ الله: لله درُّ أبي كَثير الهُذليّ[4] حيث يقول:

ألا يا حَمـامَ الأيكِ إلْفُك حاضِرُ وغُـصـنُـك ميّادٌ فَفِيمَ تَنُـوحُ؟

ثم قال: يا أبا محلم، هل يحضركَ في هذا شيءٌ؟ فقلت: أصلح الله الأمير، كَبُرَتْ سنّي وفسد ذهني، ولعلّ شيئاً يحضُرُني. ثم حضرني شيءٌ فقلت: أصلح الله الأمير، قد حضرني شيءٌ تسمعه. فقال: هاته. فقلت هذه الأبيات: (ص ١٩٥)

أفـي كلّ يومٍ غُربـةٌ ونـزوحُ أمـا للنـوى مِنْ وَنْـيَةٍ فتُـريحُ!
وذكّـرني بالـريّ نوحُ حمـامـةٍ فَنُحْتُ وذو الشـوقِ الحزينِ ينوحُ
على أنّهـا ناحت ولم تُذْرِ دمعةً ونُحْتُ وأسرابُ الـدُّمـوعِ سُفُوحُ
ونـاحت وفـرخـاهـا بحيثُ تراهما ومِنْ دون أفـراخي مَهـامِـهُ فِيحُ

---

(١) ـ بياض في الأصل مقدار كلمة تقديره ما أثبتناه.

(٢) ـ في تاريخ بغداد ووفيات الأعيان: محلم بن أبي محلم الشيباني، والذي وقعت معه الحكاية هو أبوه عوف بن محلّم الخزاعي الشيباني الشاعر العباسي المشهور والمترجم به في: طبقات الشعراء لابن المعتز ص ١٨٥، ومعجم الأدباء ١٦ / ١٣٩، وفوات الوفيات ٣ / ١٦٢.

(٣) ـ هو الأمير أبو العباس عبد الله بن طاهر بن الحسين الخزاعي، كان والياً على الدِّيْنَوَر أيام الخليفة العباسي المأمون، وحارب الخوارج في نيسابور، وكان شاعراً، ولد سنة ١٨٢ هـ وتوفي سنة ٢٣٠هـ. (الأغاني ١٢ / ١٠١، تاريخ بغداد ٩ / ٤٨٣، الفهرست لابن النديم ص١٨٣ ،وفيات الأعيان ٣ / ٨٣، الوافي بالوفيات ١٧ / ٢١٩).

(٤) ـ هو عامر بن الحليس، شاعر جاهلي ـ انظر ترجمته في: الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٤٢٠، ديوان الهذليين / القسم الثاني / ص ٨٨ ـ ١١٥ (طبعة دار الكتب المصرية).

عسى جودُ عبدِ الله أن يعكِسَ النوى فنُلقي[1] عصـا التَّسيارِ وهي طريحُ

فقال: يا غلام، أنخْ، واللهِ لا عملتَ معي حافراً ولا خفّاً حتى ترجع إلى أفـراخـك. يا غلام، أعْـطِهِ بكـلِّ بيت عشرة آلاف ومركباً وكسوة. وودّعته وانصرفت. انتهت[2].

فإن كان الاغترابُ بسببِ قاهر ساءت منه المَلَكَةُ، أو حادثٍ خِيفَ منه الهلكة، فقد قَرَنَ الله قَتْلَ الأنفسِ بالخروج من الديار، وذلك يشهدُ بعِظَم هذه الحالة وشدة هذا الابتلاء. والدعاء كما ورد في الحديث سلاح المؤمن.

[و][3] ما أنسى لا أنسَ تذكّري لهذه الأبيات وقد استَقْبَلْنا مالَقَة في تلك الوجهةِ التي قضى الله فيها بالتمحيص المتضمّن للخروج عن الوطنِ والفراقِ للأهلِ والولد، المتعيّن به فراغُ الكفّ من المال وخلوّ المنزلة من الجاه، المظنون به الجلاء حتماً والابتلاء حقاً، وعزم على فرض السلامة على الاغتراب الأبعد، وانقسم القلبُ بين الخَطْبين: الواقع والمتوقّع، والكربين: باعتبار النَّفْسِ واعتبار من يعزُّ عليها من الذريّة. وكان من قدر الله تخلُّفُ الأهلِ والولد، اضطراراً لا اختياراً، لطيّ ذلك عنّي، وكتمه منّي من أرباب الدولة، لاعتقادهم أنّي من خاصّة السلطان الذين لا يغيب عنهم ما انطَوَوْا عليه من استصحابِ أهلهم وولدهم، واعتقاد خاصّةِ السلطان أنّي من أربابِ الدولة الذين لا يغيب عنهم ما انطوى عليه من مثل ذلك، فخار الله لي في بقائي أمة وحدي فيما بعد ذلك. ولكني لم أرَ موقفاً أشجى لوعةً، ولا أعظم لي على من خلّفتُ روعةً، من موقفي بطَرَفِ الفَحْصِ الأفْيَح المسمّى بالكَنْبْ جاغر[4] ملتفِتاً خلفي

---

(١) - في الأصل: فلنقى.

(٢) - وردت هذه الحكاية في تاريخ بغداد ٩ / ٤٨٦ - ٤٨٧، طبقات الشعراء لابن المعتز ص ١٨٦ - ١٨٧، سرور النفس ص ٩٩، وفيات الأعيان ٣ / ٨٦، معجم الأدباء ١٦ / ١٤١ - ١٤٣، والوافي بالوفيات ٣ / ١٦٢ - ١٦٣.

(٣) - بياض في الأصل تقديره: و.

(٤) - مرّ ذكر هذا المكان وورد اسمه في ذلك الموضع: قبب جاغر.

ومودِّعاً مع أصاغرِ الذريّة قلبي، وقد استصحب غيري، أهله وولَدَه، وإن كان قد فارق مالهَ وبلَدَه، إلاّ مَنْ كان مثلي فإنه ذهب طائشاً لبّه[1]، منتَزَعاً من بين جَنْبَيْهِ قلبُه، وهنالك استظرفتُ قول ذي الوزارتين أبي عبد الله بنِ الخطيب - رحمه الله -[2]:

يومَ أزْمَعْتُ عنكَ طيَّ* البعاد ... وَعَدَتْني عن الوَداعِ العوادي
قال صَحْبي وقَدْ أطَلْتُ التفاتِي: ... أيّ شيءٍ تركتَ؟ قلتُ: فؤادي

(ص ١٩٦)

ولن يقدِّرَ قَدْرَ ذلك إلاّ من ابتُلِي بمثله، فأجمل الله صبره، وتولّى بكفايته أمره فلا تسأل كم من أراجيفَ نُقِلَتْ في التنقير عن قطع القلوب ومكنونات الخدور! ومن أقاويلَ اختُلِقَتْ في استطالةِ الغوغاء على الديار المعلومة، والحاشية المعروفة، والذخيرة الموروثة، وقد كانت أيديهم عاثَتْ في الجنّاتِ المغروسة، والكرومِ المعروشة، بما كان يصدق ذلك الإرجاف، ويجعل في حيز القبول تلك الأقاويل، وعند الله تجتمعُ الخصومُ، وبين يَدَيْه ينتصفُ الظالم والمظلوم، عزّ وجهه، إلى أن طالت الإقامةُ زهاءَ شهر بمالقة، وترادفت تلك النوائبُ الطارقة، والحوادثُ الكارثة. وتكرّر المسموعُ بسلامةِ من تخلّف من أهلٍ وولد من معرّة تلك الأراجيف الكاذبة، فظهر لي أن الخير والخيرة فيما قضى الله من ترك الأهل والولد، ثم[3] ظهراني أحبّتهم، ولم يفقدوا حمْلاً[4] من الله، وتسديداً من الوقت، ومواساة في قضاء المآرب واستكفاف النوائب، إلى أن منّ الله بذهاب تلك الشدّة، وانجلاء تلك الغمرة. واشتدّ على من كان

---

(١) - في الأصل: قلبه. واغلب الظن أن المقصود بها: لبّه.

(٢) - انظر هذين البيتين في مشاهدات لسان الدين ص ٢٧.

* - في الأصل: طوع.

(٣) - هكذا في الأصل.

(٤) - الحَمْل هنا معناها العَوْن.

استصحب عيالَهُ الحالُ مع الأيام، وغبطوني فيما قضى الله لي من غير قصد مني، ولله الحمد على كل حال، ومنه نسأل أن يرزقنا الرضا بكل قضاء.

[و][1] لن يوجد لتخفيف أمثال هذا الابتلاء مثل التأسي. [يُحكى أنّ][2] يحيى بن يحيى[3] - لحِقَتْهُ مَنْحَسَهُ هيْجِ الربض بقرطبة[4] أيام أميرها الحكم ابن هشام[5]، فذكر أن يحيى خرج مع أخيه فتح[6]، وكان رأساً في أهل الخلاف، مُتَنَكِّرَيْنِ على باب اليهود بقرطبة يريدان الفرار، وقد أنذر الأميرُ أهلَ الأبوابِ أن يقتلوا كل من اجتاز عليهم ممن ينكرونه، فعدل أخو يحيى إلى كبير أولئك البوابين، لصداقة كانت بينه وبينه، ووثق بها منه، ليودعه ويوصيه بما تخلّفه، وقد نهاه أخوه يحيى عن ذلك، فلما دنا منه كَشَفَ له وجهه وطلب خلوتَهُ، فساعةَ وَقَعَتْ عينُه عليه قبض عليه، وأمر بضَربِ عنقه، ويحيى ينظر بناحية، فتزايد ذعره، وبالغ في تنكُّر نفسه، ونزل بقومٍ من مصمودة[7] قومه[8]

---

(١) - بياض في الأصل تقديره الواو.

(٢) - بياض في الأصل مقدار كلمتين، تقديرهما: يحكى أن.

(٣) - أبو محمد يحيى بن يحيى الليثي، أصله من البربر، دخل الأندلس وسكن قرطبة، ورحل إلى المشرق وسمع الموطأ من الإمام مالك، ثم عاد إلى الأندلس ونشر بها مذهب الإمام مالك، ونال حظوة كبيرة عند الأمراء الأمويين في قرطبة وتوفي سنة ٢٣٤ هـ (ابن الفرضي ٢ / ١٧٩، جذوة المقتبس ٣٨٢، ترتيب المدارك ٢ / ٥٣٤).

(٤) - إشارة إلى حادثة ثورة أهل الربض في قرطبة على الأمير الحكم بن هشام سنة ١٩٨ هـ وسنة ٢٠٢ هـ (انظر: البيان المغرب ٢ / ٧١، ٧٥).

(٥) - هو الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل، ثالث أمراء بني أمية في الأندلس، ولي بين سنتي ١٨٠ هـ و ٢٠٦ هـ، وكان طاغية مسرفاً، وسمي الربضي لأنه أوقع بأهل ربض قرطبة وقتل منهم خلقاً كثيراً في سنتي ١٩٨ هـ و ٢٠٢ هـ (جذوة المقتبس ١٠، البيان المغرب ٢ / ٦٨، الحلة السيراء ١ / ٤٣، ابن القوطية ٧٢، أخبار مجموعة ١٢٤).

(٦) - في ترتيب المدارك: فتم.

(٧) - قبيلة من البربر ينتمي إليها يحيى بن يحيى الليثي المذكور.

(٨) - هكذا في الأصل.

في طريقه، فراموا الفتكَ به لأخذ ما كان على بطنه من المال، فأنذرته ابنة أحدهم بذلك، فلما اجتمعوا معه العشاء، قام كأنه يريدُ حاجة، وركب رَمَكة[1] وجدها في الدار سائبة عُريا[2]، فنجا عليها. فلما أبطأ عليهم، خرجوا فوجدوه قد فات، وسار إلى أن نجا. فلحق بطليطلة وردّ رَمَكَتهم، فتقبّله أهلها وأجاروه. وكان مجيره المعروف بأبزي[3]، وطالبهم الأميرُ الحَكَمُ بإسلامه إليه، فلم يفعلوا، ومنعوه بعزّةِ أنفسهم، فأتاه كتابُ الأمير أخيراً في الرجوع (ص ١٩٧) إلى وطنه، ويبذل لهم الأمان*، ويردّ عليه متاعه وماله، وكان يحيى قد كتب إليه في ذلك، فاستجاب له. وعاد إلى قرطبة أخريات أيّام الحكم، فلم يزل تحت كرامته بقيّةَ أيامه وأيام ولده[4].

[ويُحكى][5] أن عمرو بن الوليد بن عقبة[6]، الملقب بأبي قطيفة، كان ممّن نفاه عبد الله بن الزبير من الحجاز، من بني أميّة في أيام سلطانه بالحجاز، فقال يتشوّقُ إلى الحجاز وهو بالشام:[7]

اقْرِ منّي السلامَ إن جئْتَ قومي ... وقليلٌ لهم لديَّ السلامُ
أقطعُ الليلَ كلَّه باكتئابٍ ... وزفيرٍ فما أكادُ أنامُ

(١) ـ الرَمَكة: الفرس (القاموس المحيط: رمك).

(٢) ـ فَرَسٌ عُرْيٌ: بلا سرج.

(٣) ـ في الأصل: فأمر لي، وما أثبتناه من ترتيب المدارك.

* ـ في ترتيب المدارك: وبذل له الأمان.

(٤) ـ وردت هذه الحكاية في ترتيب المدارك ٢ / ٥٤٥ ـ ٥٤٦.

(٥) ـ بياض في الأصل تقديره: ويحكى.

(٦) ـ في الأصل عمر بن الوليد بن عقبة، وهو أبو الوليد عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط، أسر جده عقبة يوم بدر، وقتله رسول الله صلى الله عليه وسلم، وولي أبوه الوليد بن عقبة الكوفة في خلافة عثمان، أما عمرو فقد نفاه ابن الزبير عن المدينة في وقعة الحرة (الأغاني ١ / ١٢ ـ ٣٥).

(٧) ـ انظر هذه الابيات في الأغاني ١ / ٢٨ ـ ٢٩.

نَحْـوَ قومـي إنْ* فَرَّقَتْ بيـنَـنـا الدارُ وحارَتْ عن قصدِنا** الأحلامُ
خشيةً أن يُصِيبَهُمْ عَنَتُ[1] الـدهْرِ وحـربٌ يَشِيبُ فيهـا*** الغُـلامُ
ولقـد حانَ أن يكـونَ لهذا الدَّهْرِ عنّـا تَبـاعـدٌ وانـصِـرامُ

فقيل إنّ ابنَ الزبير لما بلغه سِرُّ أبي قَطِيفة هذا قال: «حَقٌّ[****] واللهِ أبو قَطيفة، وعليه السلام ورحمة الله، من لَقِيَهُ فليُخْبِرْه أنه آمِن فليرجع». فأُخْبِر بذلك، فانكفأ إلى المدينة راجعاً. انتهت[2].

[و][3] لولا أنَّ تَمحيصَ الاغتراب عظيم، وخطْبه كبير، لما عمرت الأوطانُ العديمةُ المرافق، والثغورُ الشديدةُ المخاوف، ولكنَّ الله عمّر البلدانَ بحُبِّ الأوطان. [قال][4] ابن الزبير: «ليس الناسُ بشيءٍ من أنسابِهِمْ أقْنَعَ منهم بأوْطانهم»[5] ولذلك عَظُمَ الاغترابُ على من قُضِيَ به عليه، وسببُ ذلك ـ والله أعلم ـ كونُ الإنسانِ حيواناً مدنياً، لا يقدِرُ على الإقامة وحده، ولا تقومُ مصالحه على انفراده، والاغترابُ نوع من الانفراد، لأنه يحصل بين ناسٍ لا يعرفُهُم، ويفتقِرُ إلى قومٍ لا أُنْسَ لديهم، ولا موجبَ لديهم للعَطْفِ عليه. وكذلك مِنْ حيث من غاب عنهم من أهـل، فإنهم قد فَقَدوا أُنْسَه، وعدموا المصلحةَ المُقْتَنَصةَ لهم منه، فيشتد عليه أسفُهم، ويعظمُ بفرقته كَمَدُهُم. ولذلك قال

---

* ـ في الأغاني: إذْ.

** ـ في الأغاني: قصدها

(1) ـ في الأصل: عنة.

*** ـ في الأغاني: منها.

**** ـ في الأغاني: حنّ.

(2) ـ وردت هذه الحكاية في الأغاني 1 / 28 ـ 29.

(3) ـ بياض في الأصل تقديره: و.

(4) ـ بياض في الأصل تقديره: قال.

(5) ـ عين الأدب والسياسة 69.

ابنُ رشيق[1]: «ليسَ بين الغائبِ والميّتِ إلّا رجاءُ الأوبة».

[و][2] إذا كان الابتلاءُ بمثل المحبّة، وما يقعُ من غيرِ الموافِق للإرادة من الأحبّة، فهذا من الابتلاءِ الواقعِ كثيراً، الذي يتحمّلُ منه المبتَلى إصراً كبيراً، ووقوعُه في الأغلب قريبٌ من الاختيار، ثم إذا تعاظم أمرُه صار إلى باب الاضطرار. وللناس خلافٌ في وقوعِه هل هو اختياريٌّ أو اضطراريّ، وليستْ بنا حاجةٌ لتحقيقِ ذلك، وإنما النَظَرُ هنا فيما يجبُ استعمالُه (ص ١٩٨) وأوجب الأمور هنا الكتمُ والعَفاف، لقولِ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «من عَشِقَ وكَتَم وعفَّ ثم مات فهو شهيد»[3]. ثم نَنْظُرُ فإن كان متعلّق الهوى ممّن يتأتّى الوصولُ إليه، ويتمكّن الاستيلاءُ عليه، إمّا بالزوجيّة أو الملكية، بشرطِ كَوْنِ المحلّ قابلًا للمناسب له منهما، بالخلوّ عن الموانع التي تعوقُ عن ذلك شَرْعاً، فقد أوجد الشارعُ ـ صلواتُ الله عليه ـ السبيلَ إلى ذلك، على الوجهِ المستكمل لمصالحِ الدينِ والدنيا. وإن كان متعلق الهوى غيرَ قابلٍ لذلك، إمّا بِحُكْمِ الأصالة وإما بالموانع العارِضة في وَجْه القبول، فهنا يتأكّد الصبرُ، ويجبُ العَفافُ والكتم، فإن قضى الله بالموت مات شهيداً، كما نصَّ عليه السلام عليه في الحديثِ المنقول آنفاً.

[كما يُحكى][4] أن جاريةً كانت لعمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ وكان له غلام، فتعشّقَ بالجارية، وكتم أمره سبعَ سنين، وهو في كلّ يومٍ ينحل جسمُه، ويتغيّر لونُه، وكان ينظر إليها في كل يوم نظرتين: نظرة غُدْوَة ونظرة عشيّة. ثم إنّه تخوّف أن يُشْعَرَ به، فجاهد نَفْسَهُ في قَطْعِ النَظَر عنها، فمكث

(١) ـ هو الحسن بن رشيق القيرواني، ولد بالمسيلة سنة ٣٧٠ هـ وتأدب بها ثم رحل إلى القيروان سنة ٤٠٦ هـ وتوفي سنة ٤٦٣ هـ، له مؤلفات قيمة منها: كتاب العمدة وكتاب أنموذج الزمان في شعراء القيروان وكتاب قراضة الذهب (معجم الأدباء ٨ / ١١٠، وفيات الأعيان ٢ / ٨٥، والوافي بالوفيات ١٢ / ١١).

(٢) ـ بياض في الأصل تقديره حرف الواو المثبت بين معقوفتين.

(٣) ـ تزيين الأسواق ص ١٤.

(٤) ـ بياض في الأصل تقديره: كما يحكى.

سَبْعَ سنين لاينظر إليها، حتى كملت له أربع عشرة سنة، فجاهد هواه فيها حتى عِيلَ صَبْرُه، فنظر إليها نظرةً واحدة وافقَتْ نظرها إليه، فدمعت عيناه، فقالت: ما بالُك؟ أظنُّك تُحِبُّني. فتغيّر لونُه وجعل يقول: أظَنَنْتِ ذلك؟ أظننتِ ذلك؟ أظننتِ ذلك؟ وصوته[1] يرقّ إلى أن انقطع، فَسَقَطَ على الأرض ميتاً.

فلما كان في تلكَ الليلة رأى عمرُ بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ في النوم مَلَكاً يقول له: «اجمع الناسَ للصلاةِ على الشهيد المغفور» قال: ومن هو؟ قال: «غلامُك فلان كتم حبَّ جاريتك فلانة، غيرةً منه عليها، إلى أن علم أنها علمت بحبّه، فقتلَتْهُ الغيرةُ والمحبّة». فأصبح عمر، وأخبر الناس، فلم يَبْقَ أحَدٌ إلاّ شَهِدَ الصلاةَ عليه رحمه الله.

[ومن أجل][2] خيفةِ مثل هذه الحال، أو ما يَقْرُبُ منها، ينبغي اللجأُ إلى الله تعالى بالدعاء، والإخلاص إليه في الابتهال، وارتقابُ الفَرَجِ من لَدُنْهُ، فكم ممن عِيلَ صبرُه وغلبه وَجْدُه واستبانَ عليه، مع المحافظةِ على الكَتْم، حبُّه، يسَّر الله له أسبابَ الوِصال، وهيّأ له ما يرجوه مِن مأمول الاتصال!! [وقصةُ][3] يوسف عليه السلام مع زُلَيْخا أعظمُ مُعْتَبَرٍ كما قال الله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾[4] ولقد كانَ في قصصهم عبرةٌ لأولي الألباب، وذلك أنَّ الله تعالى أراد أن يعوِّضَ يوسفَ عليه السلام لَمّا لم يركبْ محارمه، فسلّط على مال زُلَيْخا البلاءَ حتى تَلِف، ومات العزيز، وافتقرت فَقْراً شديداً، وذهب بَصَرُها، وجعلت تتكفّفُ الناس، فقيلَ (ص ١٩٩) لها: لو أنّكِ تعرّضْتِ للمَلِكِ لعلّه يَرْحَمُكِ ويعينك بشيء. ثم قيل لها: لا تفعلي، إنه ربما تذكّر ما كان منكِ إليه من المراودةِ والحبْسِ فيسيء إليك ويكافئك بما سبق منك. فقالت: أنا أعْرَفُ بحبيبي وقُرّةِ عَيْني وكرمه وحلمه منكم. فَجَلَسَتْ على رابيةٍ في طريقه، وكان ليوسف يومٌ يركبُ في الأسبوع، يركب معه مائةُ ألف من

---

(١) ـ في الأصل: وصورته.

(٢) ـ بياض في الأصل تقديره ما أثبتناه.

(٣) ـ بياض في الأصل تقديره ما أثبتناه.

(٤) ـ من الآية ٣ من سورة يوسف.

عظماء أهل مملكته. فلما أقبل يوسفُ وأحسَّتْ به، قامت ونادت: سبحانَ مَنْ جعل الملوك عبيدا بمعصيتِهم، وجعل العبيدَ ملوكاً بطاعتهم. فقال لها يوسف: من أنتِ؟ فقالت: «أنا التي كنتُ أخدمكَ على صدورِ قدميّ، وأرجّل جمّتك بيديّ، وأكرم مثواك بجهدي، وكان مني ما كان، وذُقْتُ وَبَالَه، ذَهَبتْ قوتي، وتلف مالي، وعمِيَ بصري، وصرتُ أسألُ الناس، فمنهم من يرحمني، ومنهم من يردّني، بعـدمـا كنت مغبوط أهلِ مصر كلّهم، فصرت مرحومهم، بل محرومهم، هذا جزاء المُفْسِدين». قال: فبكى يوسفُ بكاءً شديداً، وبكى من معه، وقال لها: هل بقي في قلبكِ شيءٌ مما كان فيه من حبّك إياي؟ فقالت: والذي اتخذ ابراهيمَ خليلا، لنظرةٌ إليكَ أحبُّ إليّ من ملءِ الأرض ذهباً، فناولْني صدر سوطك. فناولها إيّاه، فوضعته على صدرها، بفناء قلبها، فوجد يوسفُ عند إمساكها السوط ارتعاداً واضطراباً، فقالت: يا نبيَّ الله، هو ما ترى. فسلّم عليها، وخلّفها وهو باك. ثم بَعَثَ إليها رسولاً، فقال لها: يقولُ لكِ الملِكُ: إنْ كنتِ أيّماً تزوّجناك، وإن كنتِ ذا بعلٍ اغنيناك. فقالت للرسول: إليكَ عنّي يا عبدالله، فإنّ الملِكَ أعرفُ بالله من أن يستهزىء بي، إنّ الملك لم يُرِدْني أيام جمالي وشبابي وغناي، فكيف يريدني اليوم وأنا عجوز عمياء فقيرة!؟ فانصرف إليه الرسول، وأخبره بمقالتها، فلما أقبل في موكبه في الأسبوع الثاني، قامت إليه، فقال لها: ألم يبلغْكِ الرسول؟ قالت: بلى. قال: فما ترَيْن؟ قالت: قد ذكرتُ لك أن نظرةً مني إليك أحبُّ إليّ من ملء الأرض ذهباً. فأمر بها حتى تجهّزت وتزوّجها، وزُفَّتْ إليه. فلمّا دخلت عليه، صفّ يوسف قدميه، وجعل يصلّي، ودعا الله باسمه الأعظم، فردّ الله عليه جمالها وشبابها وبصرها، فعادت كهيئتها يوم راودته. فلما واقعها وجدها بِكْراً، فقال لها يوسف: ما الذي كنت تفعلين حين كُنْتِ تراودينني فيما لا يرضى الله به؟ فقالت: «لا تَلُمْني يا نبيّ الله، فإنّ الله قد كساك من الحُسْنِ والجمال ما لا يصبر عليه أحد، وكان زوجي لا يقرب النساء، ولم تكن له آلة ذلك، وكنتُ مشركةً حينئذٍ، فلا تعيرني بِسُوءِ صنيعي». فولدت من يوسف ابراهيمَ وَمَنْشا في أربع سنين، وطاب العيش

(ص ٢٠٠) بينهما في الإسلام[١] انتهى ما حُكي من ذلك، ولا أرتهنُ في صحّته، فهو ممّا حُدِّثَ فيه عن بني اسرائيل، وقد ورد: «حدِّثوا عن بَني إسْرائيل ولا حَرَج»[٢] وورد الأمر بعدم التصديق لهم وعدمِ التكذيب كذلك، وما يحال فيه على قدرة الله فغير بعيد، وقد صحّ مثله في القرآن في قوله تعالى: ﴿وأَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَه﴾[٣]، ولا يَبْعُدُ عليّ صدقُها، فقد قالت: ﴿الآنَ حَصْحَصَ الحقُّ﴾.[٤]

[ويُحكى][٥] أنّ عمّارة[٦] أختَ الغريض[٧] كانت من أحسن الناس وجهاً وغِناءً، أخذت الغناء عن أخيها وعن ابنِ سُرَيج[٨] وابن مُحْرز[٩]، فاشتراها منه

---

(١) ـ وردت القصة بتمامها في بدائع الزهور ٩٩ ـ ١١٧ (المطبعة الشعبية ـ بيروت) وسكردان السلطان ص ٤٠٥، ووردت أجزاء منها في أخبار الزمان ٢٥٨، وقصص الأنبياء لابن كثير ص ٢٥٠، ومصارع العشاق ١ / ١٦٥.

(٢) ـ مسند ابن حنبل ٢ / ١٥٩، ٢٠٢، ٢١٤ وصفحات أخرى

(٣) ـ الآية ٩٠ من سورة الأنبياء.

(٤) ـ الآية ٥١ من سورة يوسف.

(٥) ـ بياض في الأصل تتمته من المختار من قطب السرور.

(٦) ـ ورد ذكرها فقط في المصادر التي ذكرت هذه الحكاية.

(٧) ـ مغن مشهور من أهل مكة اسمه عبد الملك وكنيته أبو زيد وقيل: أبو مروان ولقبه الغريض سمي به لنقاء لونه، وقيل لطراوة وجهه، وكان جميلاً، يضرب العود والدف وكان قبل ذلك خياطاً، ثم أخذ الغناء عن ابن سريج لأنه كان يخدمه، وكان الغريض صاحباً لمعبد (الأغاني ٢ / ٣٥٩ ـ ٤٠٣، وفيات الأعيان ٣ / ٤٣٧).

(٨) ـ هو ابو يحيى عبيد بن سريج مولى بني نوفل بن عبد مناف، من أشهر مغني مكة، ولد في خلافة عمر بن الخطاب وتوفي في خلافة هشام، وأخذ عنه الغناء عدد من مشاهير المغنين (الأغاني ١ / ٢٤٨ ـ ٣٢٣).

(٩) ـ هو أبو الخطاب مسلم بن محرز مولى بني عبد الدار بن قصيّ، أصله من الفرس، وكان أبوه من سدنة الكعبة، وهو مغن مكي مشهور (الأغاني ١ / ٣٧٨ ـ ٣٨٢).

عبد الله بنُ جعفر [1] من الثريّا وأخواتها بمالٍ جليل، فوقعت منه أحسن موقع، وكان يجد بها ولها يقول بعضُ فتيان المدينة:

لو تمنيتُ ما اشتَهَيْتُ لكانَتْ ... غايةُ النَفْسِ في الهوى عمّارة
بأبي [2] وجهكِ الجميل الذي يَزْدا ... دُ حُسْناً وبَهْجَةً ونَضارة

[ويُروى] [3] عن بعض شُيوخِ المدينة قال: كان عبدُ الله بنُ جعفر لا يكاد يَصْبِرُ عنها، وإذا سافر حملها معه، فوفدَ على معاوية، فزاره يزيدُ ليلةً، وسمر عنده، فأخرجها إليه. فلما نَظَر إليها، وسمِعَ غناءها، وَقَعَتْ في نَفْسِه، (وأخذه عليها ما لم يملك) [4] وجعل لا يمنعُه من أن يبوحَ بما يجِدُ منها إلاّ خيفةَ أبيه مع اليأسِ من الظفرِ بها. فلم يزلْ يكتمُ أمْرَها في نفسه، إلى أن مات معاوية، وأفضى الأمرُ إليه، فاستشارَ بعضَ من يختصُّ به في أمرها، فقيل له: إن عبد الله لا يُرام، ومنزلته من أبيك ومنك ما قد علمت، وأنت لا تستجيزُ إكراهه، وهو لا يبيعُها بشيءٍ أبداً، وليس في هذا إلاّ الحيلة. فقال: انظروا لي رجلاً ظريفَ اللسان له أدب ولطف. فأتَوْهُ برجلٍ عراقيٍّ أديبٍ عاقلٍ ذي حِيَل، فلما استنطقه زاد بياناً وفَهْماً. فقال: إني دعوتُك لأمرٍ إن ظفرتَ به فهو حظوتك آخر الدهر. ثم أخبره بأمرِه. فقال: يا أمير المؤمنين، ليس يُرامُ ما قِبَل [ابن] [5] جعفر إلاّ بالحيلة والخديعة، وإن قَدِرَ أحدٌ على ذلك فأرجو أن أكُونَه، فأعنّي بالمال. فقال: خُذْ ما أحببت. فأخذه واشترى من طُرَفِ الشام وثيابِ مصر متاعاً للتجارة من رقيقٍ ودواب وغير ذلك. ثم شخص إلى المدينة، فأناخ

---

(١) ـ هو عبد الله بن جعفر بن أبي طالب الجواد، يكنى أبا جعفر، معروف بسخائه، ولد بالحبشة من أسماء بنت عُميس، وسكن المدينة وتوفي بها سنة ثمانين للهجرة (المعارف لابن قتيبة ٢٠٦، فوات الوفيات ٢ / ١٧٠، الوافي بالوفيات ١٧ / ١٠٧).

(٢) ـ في الأصل: بان، والصواب من المختار من قطب السرور.

(٣) ـ بياض في الأصل تقديره: ويُروى.

(٤) ـ هكذا في الأصل، وفي المختار من قطب السرور: وأخذه عليها ما لم يملكه.

(٥) ـ زيادة من المختار من قطب السرور اقتضاها السياق.

بعرصةِ عبد الله بن جعفر، واكترى منزلاً قريباً منه، ثم توسّل[1] إليه، وقال: أنا رجلٌ من أهلِ العراق، قَدِمْتُ بتجارة، فأحببتُ أن أكون في جوارك وكَنَفِكَ إلى أن أبيع ما جئتُ به. فأمر قهرمانه بإكرامِهِ وسَعَةِ النزول عليه. فلما اطمأنّ العراقيّ، وسلّم عليه أياماً، هيّأ له بغلةً فارهة، وثياباً من ثياب العراق، وطيباً (ص ٢٠١) من طيبها، وألطافِها، فبعث بها إليه، وسأله بقرابته من رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم أن يَقْبَلَها منه ولا يوحشه بردّها، فإنّه ممن يدين إلى الله بحبّه وحبّ أهل بيته، وإنّ أعظم أمله في سفره الرغبة في مواصلته والتحرّم به. فأمر عبد الله بقبضِ هديّته. فلما رجع من الصلاةِ مرّ بالعراقيّ في منزله، فقام إليه، وقبّل يده، وسلّم عليه، فرأى أدباً وفصاحةً وأُعْجِبَ به. وجعل العراقيُّ يجدّدُ كلَّ يومٍ طرائفَ وتُحَفاً، فقال عبد الله: لقد أضْعَفنا ضيفُنا عن شُكْرِه ومكافأته. وجلس عبد الله يوماً، ودعا بعمّارة، وجواريه، فلما التذّ مجلسُه قال: ادعوا ضيفنا العراقيَّ ليأنسَ بنا ونأنسَ به. فلما دخل عليه تعشّى معه وسمع غِناء عمّارة، فجعل يتعجَّبُ من حذقها، وذلك يَسُرُّ عبد الله، إلى أن قال له عبد الله: أرأيتَ مِثْلَ عمّارة قطّ؟ قال: لا واللهِ يا سيّدي ما رأيت مثلَها قطّ، ولا تصلُحُ إلاّ لك، ولاظننتُ أن في الدنيا مِثْلَها. فقال: كم تساوي عِنْدَكَ؟ قال: يا سيّدي أنا رجل سوقة تاجر، أجمعُ الدينارَ إلى الدينار، والدرهمَ إلى الدرهم، ولو وجدتُها بعشرة آلاف درهم لأخذتُها. قال له عبد الله: عشرةُ آلاف درهم؟! قال: نعم. ولم يكن في ذلك الزمان جاريةٌ تُعْرَفُ بهذا الثمن. فقال له عبد الله مازحاً: أنا أبيعكها بعشرةِ آلاف دينار. قال: قد قَبِلْت.قال: هي لك. فانصرف العراقيّ، فلما أصبح، لم يَشْعُرْ عبدُ الله إلاّ بالمال قد وفد، فقيل لعبد الله: قد بعث العراقيّ بالمال. فردّه إليه، وقال: إنّما كنتُ أمزح معك، أوَما علمتَ أنَّ مثلي لا يبيعُ مِثْلَها بما على الأرض. فقال: جُعِلْتُ فداءك، إنّ الجدَّ والهزْلَ في البيع سَواء، فإن تكنْ أنت مازحاً فإني أنا جادّ، وما علمتُ ما في نفسك، وقد ملكتُ الجارية، وبعثتُ إليكَ بثمنها، ولَيْسَتْ تحِلُّ لك. فدافعه عبد الله، فقال العراقيّ: إن كنتَ تضطهدُني في جِوارِكَ،

[1] - في المختار من قطب السرور: أرسل.

وليست لي عليكَ بيّنة، فأنا استحْلِفُكَ بين مِنْبَرِ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم وقَبْره. فقال له عبد الله: بِئْسَ الضيفُ أنت!! ما طَرَقَنا طارقٌ أعظمُ علينا بليّةً منك، تحلّفني فيقول الناسُ قَهَرَ ضيفَه، والجاه إلى ذلك، أما والله لتعلمنَّ منّي في هذا الصبرَ وحُسْنَ العزاء. ثم أمر قهرمانه بقبضِ المالِ وتجهيزِ الجارية بما يَصْلُحُ لها من الثيابِ والطيبِ والخدم. فجهّزها بثلاثة آلاف دينار، وسلّمها إليه بما معها، وقال: هذا عِوضُ ما ألطفْتَنا[1] به، وإن كنت قد فجعتنا، والله المستعان. فقبض العراقيّ الجارية، وخرج من المدينة. وقال لها: «يا عمّارة، (ص ٢٠٢) إنّي لم أشترِكِ لنفسي، ومثلي لا يشتري جاريةً بعشرةِ آلافِ دينار، وما كنت أُقدِم على ابنِ عمِّ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم، فأسْلِبه أحبَّ الناسِ إليه لنفسي، ولكنّي دَسيسٌ لأميرِ المؤمنين يزيد، وأنتِ له، وفي طَلَبِكِ بعثني، فاسْتَتِري ولا تُرِيَنّي من وجهك لمحة» ثم مضى بها حتى ورد دمشق، فتلقى الناس يحملون جنازة يزيد، وقد استخلف ابنه معاوية، فأقام الرجلُ أياماً ثم تلطّف في الدخول عليه، فشرح له القصّة. فقال له معاوية: هي لك وكلُّ ما دُفع إليكَ وارحل من يومك فلا أعرِفُ بك في شيءٍ من الشام. فرحل العراقيُّ حتى قَدِم المدينة، فنزل بفِناء عبد الله بن جعفر، فدخل عليه بعضُ خدمه فقالوا: هذا العراقيّ ضيفُك الذي صنع بك ما صنع قد نزل ببابِك لا أهلاً به. قال: أنزِلوا الرجُل. فلما نزل استأذَن عليه، فأذِنَ له. فلما دخل سلّم عليه وقبّل يده. فقرّبه عبدُ الله ورحّب به. فقصَّ العراقيُّ عليه القِصَّةَ إلى آخرها. وقال: هي هديةٌ منّي إليك، ووالله ما رأيتُ لها وجهاً، ولا وَضَعْتُ عليها يَداً غَيْرَ ما رأيتُ عندك. وبعث إليها، فجاءت بما معها فلما رأت عبد الله خرّت على رِجْلَيه تقبّلُهما[2]. وأهوى إليها يضمّها إليه. وخرج العراقيُّ. وتصايَحَ أهلُ الدار: عمّارة! عمّارة!. فجعل عبدُ الله يقول ودموعهُ تجري: «ويحكم أحُلْمٌ هذا؟! أحقٌّ هذا؟! ما أصدّق هذا، اللهمّ إنّك تعلمُ أنّي تصبّرتُ على فراقِها، وآثرتُ الوفاء، وسلّمتُ لأمرك، فرددتَها عليَّ بمنّك، فلله الحمد

(١) ـ في الأصل: أنطفتنا، والتصويب من المختار من قطب السرور.

(٢) ـ في الأصل: تقبّلها.

كثيراً». فأقام عنده العراقيُّ أيّاماً في غايةِ البرِّ والكرامة. ثم باع عبدُ الله بنُ جعفر ضيعةً بثلاثة عشر ألف دينار. فلما قَبَضَ المال أمر قهرمانه يحمله إلى العراقيِّ، واعتذر إليه، وأَعْلَمَهُ أنّه لو وصله بكلّ ما يملِكُ ما بلغ له مكافأة. ورحل العراقيُّ إلى بَلَدِهِ موفوراً مشكوراً. انتهت(1).

ومثلُ هذا داخلٌ في جنس الكرامات، فإن مثل ابن ذي الجناحين جعفر ابن أبي طالب صنو عليّ أبي السبطين، وابن عمّ المصطفى سيّد الثَّقَلَيْن، في صِدْقِهِ وصبره وسعة جوده وحلمه، جديرٌ أن يَجْبُرَ الله عليه ما ضاع له، وأن يُسعد بكمال إرادته أمله. وانظر إلى ما وهبه الله من كَظْمِ الغيظ واحتمال الصبر، ورعايةِ الجار، وحِفْظِ النزيل، كيف سلم في أحبّ الناس إليه، وأعزّهم عليه، دون أن يرضى لنفسه باليمين في مقطع الحقّ، خشيةَ أن يتأوّل عليه أنه غرّه في جواره، أو يتمسّك بحقّه الذي لم يكن فَوْتُه خيفة أن يعتقد الناس أنه قد ظلمه. وهذا غاية ما يكون من كرم الأخلاق وطهارة النفوس.

[وحكى](2) يحيى بنُ خالد: «كنت أهوى جاريتي دنانير* وهي لمولاتها دهرا، (ص ٢٠٣) فلما وضع المهديُّ الرشيد في حجري اشتريتها، فلم أُسَرَّ بشيء من الدنيا سروري بها، فما لبثتُ إلاّ يسيراً حتّى وجّه المهديُّ ابنَه الرشيدَ غازياً إلى الروم، فخرجْتُ معه، فعظُمَ عليَّ فراقُها، وأقبلتُ لا يهناني(3) طعامٌ ولا شراب صبابةً بها وذِكْراً لها. فأوغلنا في بلادِ الروم، وأصابَنا بردٌ شديدٌ وثلجٌ كثير، فأنا ليلة في مَضْرِبي أتقلّب على فِراشي تذكّراً لدنانير(4) إذْ سمعتُ نداءً خفيّاً وصوتَ عودٍ بالقرب منّي، فأنكرتُ ذلك وجلستُ في فراشي، وسمعتُ

---

(1) - وردت هذه القصة في المختار من قطب السرور ص ١٥٧ - ١٦٠، مصارع العشاق ٢ / ١٢٥ - ١٢٩، ووردت باختصار في البداية والنهاية ٩ / ٣٦.

(2) - بياض في الأصل تقديره ما أثبتناه.

* - ترجم لها السيوطي في كتابه المستظرف من أخبار الجواري ص ٢٨ وأبو الفرج الأصفهاني في كتاب الأغاني ١٨ / ٦٤.

(3) - هناني الطعامُ: ساغ لي.

(4) - في الأصل: لدنانر.

صوتاً شجيّاً شجاني من غير أن أفهمه. فقمتُ ولم اوقظ أحداً، وقد غلب النومُ أغلبَ العسكر، فتخلّلتُ المضاربَ حتى انتهيتُ إلى جهةٍ صغيرةٍ من خِيَم الجند، فإذا فيها سراج، فدنوتُ منه، فإذا فتىً جالسٌ وبين يديه زُكْره[1] فيها شراب، وفي حُجْره عود وهو يشربُ ويغنّي:

ألا يا لقـوْمي أطلِقُـوا غلَّ مُرْتَهَنْ ... ومُنُّـوا على مُسْتَشْعِرِ الهَمِّ والحَزَنْ
ألَمْ تَرَهــا بَيْضــاء روداً شبـابهـا ... لطيفةَ طيِّ البَطْنِ كالشادِنِ الأغنّ
تذكَّــر سَلْمى وهي نازحــةٌ بِحَنّ ... وهَلْ تَنْفَعُ الذِكْرى إذا اعتُبِرَ الوَطَنْ

وكلما غَنَّى غِناءً بكى وتناول قدحاً فصبَّ فيه من ذلك الشراب وشرب، ثم يعودُ فيفعلُ مثلَ ذلك وأنا أراه يبكي فأبكي لبكائه. ثم سلّمتُ فردّ عليّ السلام، واستأذنْتُ في الدخولِ فأذِنَ، فلما دخلتُ أجَلّني وأوسعَ لي. فقلت: يا فتىً، أخبِرْني بخبرِك، وما سببُ هذا البكاء؟ فقال لي: «أنا فتىً من الأنبار[2]، لي بنت عمّ، نشأنا صبيّين، فعُلِّقتُها وعُلِّقَتْني، ثم بلغنا، فحُجِبَتْ عنّي، فسألتُ عمّي يزوّجنيها، ومكثتُ حيناً أحتالُ مَهْرَها، حتى تهيّأ فأدّيتُه وعرَّسْتُ بها، فلما كان يومُ سابِعِها ضُرِبَ عليّ البعث، فخرجتُ وبي من الصبابةِ والشوقِ لها ما الله به عليم، فإذا أصَبْتُ شراباً في بعضِ هذه القرى أخذتُ منه الشيء اليسير، ثم أفعلُ به ما ترى تذكاراً لها». فقلت: هل تعرفني؟ قال: لا. قلت: أنا يحيى بن خالد. فنهضَ قائماً فقلت: اجلِس، ائتني غداً أوَّلَ حركةِ الناس، فإني صائرٌ من أمْرِكَ إلى ما تُحِبّ. ووافق ذلك رسولاً ينفذ إلى المهدي. فلما كان من غدٍ تهيّأ الناس للرحيل، فأول من لقيني الفتى. فقلت: من أنت؟ وفي قيادةِ من أنت؟ فدخلتُ على الرشيد فحدّثتُه الخبر، وأمر له بعشرةِ آلافِ درهم وأصحبه الرسول. انتهت[3].

---

(١) ـ الزُّكرةُ: زِقٌّ للخمر. (القاموس المحيط: زكر).

(٢) ـ في أخبار النساء لابن قيّم الجوزية: الأنباء، وفي الحاشية: قوم من العجم سكنوا اليمن.

(٣) ـ وردت هذه الحكاية في: أخبار النساء لابن قيّم الجوزية ص ١٩٦ ـ ١٩٨.

[و](1) هذا انموذج ممّا سبق لابنِ جعفر في جَمْعِ شَمْلِهِ بمن أحبَّه، وإن لم يكن من قطع الرجاء فيه على مثل تلك الحالة، فإن هذا الرجلَ أتى الأمرَ من بابه، فإنّه علق بنتَ عمّه وتطلبها على السبيلِ الذي شرع الله لعباده، من (ص ٢٠٤) النكاحِ الذي أوضَحَ النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم سنّته وبين شِرْعَتَهُ، فجمع الله بها شَمْلَه، قريرَ العينِ ظافرَ اليديْن، ثم طرقه هذا البينُ الذي أشجاه طارقُه، والفراقُ الذي هاج شوقَه لاحقُه، فقيّض الله له من هذا الوزيرِ البرمكيّ منطوياً على مثل أساه، عليماً بما كابده من الوجد وقاساه، فرقّ لجواه، وأشفق لنجواه، وإنّها لمعدودةٌ في مناقبه الغُرّ، وشاهدةٌ على ما تخصَّصَ به من الطِباع الحُرّ، ولله من خلقه خُلَقاء بالفضل كالبرمكيّ وقومِه.

[و](2) في مثلِ حالةِ هذا العاشق من دلالةِ دمعه على ما أكنّه يقولُ العبّاسُ ابنُ الأحنف(3) ـ رحمه الله :(4)

لا جَزى الله دَمْـعَ عينـيَ خيْراً	وجـزى الله كلَّ خيرٍ لِســانـي
نَمَّ دمــعي فليسَ يكتُـمُ شيئـاً	ورأيتُ الـلسِـانَ ذا كِتْـمـانِ
كنتُ مثـلَ الكِتـاب أخفـاه طيٌّ	فاسْـتَـدَلّـوا عليه بالـعُـنْـوانِ

[وحدّث](5) معبدُ الصغير(6) الذي يقال له اليقطينيّ، مولى عليّ بن يقطين

(١) ـ بياض في الأصل تقديره ما أثبتناه بين المعقوفتين.

(٢) ـ بياض في الأصل تقديره الواو.

(٣) ـ هو أبو الفضل العباس بن الأحنف بن الأسود بن طلحة الحنفي اليمامي من شعراء الغزل العذري المشاهير وصاحبته فوز وله ديوان شعر مطبوع. كان في أيام الرشيد العباسي، وتوفي ببغداد سنة ١٩٢ هـ (انظر ترجمته في: كتاب الأغاني ٨ / ٣٥٢ ـ ٣٧٥، ١٧ / ٦٦ ـ ٧٣، تاريخ بغداد ١٢ / ١٢٧ ـ ١٣٣، الشعر والشعراء ٥٢٥ ـ ٥٢٨، معجم الأدباء ١٢ / ٤٠ ـ ٤٤، طبقات الشعراء لابن المعتز ٢٥٣ ـ ٢٥٦، وفيات الأعيان ٣ / ٢٠ ـ ٢٧).

(٤) ـ انظر الأبيات في ديوان عباس بن الأحنف ص ٢٨٢، الأغانى ٨ / ٣٥٤.

(٥) ـ بياض في الأصل تقديره: وحدّث.

(٦) ـ كان معبد اليقطيني غلاماً مولداً خلاسياً (الأبوان أحدهما أبيض والآخر أسود) من مولّدي المدينة، اشتراه بعض ولد علي بن يقطين، أخذ الغناء عن جماعة من أهل المدينة والعراق، =

قال: كنت منقطعاً إلى البرامكة، أخدِمُهم[1] وألزمهم، فبينا أنا ذات يوم بمنزلي إذا ببابي يُدَقُّ، فخرج غلامي ثم رجع، فقال: على الباب فتىً ظاهرُ المروءةِ جميلُ الوجه، فاستأذِنْ عليه[2]. فأذِنْتُ له، فدخل شابٌ ما رأيتُ أجمل وجهاً وأنظفَ ثوباً وأحسنَ زيّاً منه، دنِفٌ عليه أثَرُ السُقْم ظاهر[3]، فقال: إنّي أحاولُ لقاءَك منذُ مدّة، ولي إليك حاجة. فقلت: ما هي؟ فأخْرَجَ لي ثلاثمائة دينار، ووضعها بين يديّ، وقال: أحبُّ أن تَقْبَلَها منّي وتَصْنَعَ لي لحناً في بيتين. قلت: نَعْم وكرامة، هاتِ البيتين، فأنشدني:

والله يا طَرْفِيَ الجاني على بَدَني لَتُـطْفِئَنّ بدمعي لَوْعَـةَ الحَـزَنِ
ولأنوحنّ[4] حتى تَحْجُبوا[5] سَكَني فلا نراه[6] ولـو أُدْرِجْتُ في كَفَني

فصنعتُ فيه[7] لحناً شجيّاً يشبهُ النَّوح، ثم غنّيتُه إيّاه، فأغمي عليه، حتى ظننتُ أنه قد مات. ثم أفاق، وكأنه أُنْشِرَ من قَبْر، ثم قال: أعِدْ فديتُك. فناشدتُه الله في نفسه وقلت: أخشى والله أن تموت. فأبى، وقال: ليتَ ذلك كان، وهيهاتَ نفسي المشومة من ذلك، وأنا أشقى من أنْ أموتَ فأستريح، وما زال يخضع ويتضرّع. وبكى حتى رَحِمْتُه، فأعدْتُ الصوتَ عليه، فصعق صعقةً أشدَّ من الأولى، ولم أشكَّ أنَّ نفسه قد فاضت[8]، وبقي ملقىً لا يتنفّس إلاّ تنفّساً خفيّاً، فما زلت أنْضَحُ ماءَ الوردِ على وجهه وأبخّر بينَ يديه، وأُشِمُّهُ (ص

= خدم الخليفة الرشيد ومات في أيامه، وكان أكثر انقطاعه إلى البرامكة (الأغاني ١٤ / ١١٦).

(١) - في الأغاني: آخذ منهم.

(٢) - في الأغاني: يستأذن عليك.

(٣) - في الأصل: ظاهراً، وفي الأغاني: عليه آثار السقم ظاهرة.

(٤) - في الأغاني: أو لأبوحنّ.

(٥) - في الأغاني: يحجبوا.

(٦) - في الأغاني: أراه.

(٧) - في الأغاني: فيهما.

(٨) - في الأصل والأغاني: فاظت.

٢٠٥) أصنافَ الطِيب حتى فتح عينيه وأفاق، وبقي ساعةً مُلقىً، ثم تحامل فجلس، فحمدتُ الله على ذلك، ووضعت دنانيره بين يديه وقلت: خذ مالك وانصرف عنّي، قد قضيتُ حاجتك، وبلغت وطراً مما أردته، ولست أحبُّ أن أُشارِكَ في دمك. فقال: يا هذا لا حاجةَ لي بالدنانير ولك عندي مثلها وأعِدْ عليّ هذا الصوت مرّة أخرى فقط وأنا أنصرِفُ عنك وخلاك ذم. فشرهتُ إلى الدنانير، فقلت: لا واللهِ ولا أضعافها إلّا على ثلاثِ شرائط. فقال: وما هنَّ؟ فقلت: أولاهنّ أن تُقيمَ عندي وتأكلَ من الطعام ما تتقوّى به نفسُك. والثانية أن تشرب أقداحاً تُمسك رمقك وتقوّي قلبك وتثبت ما تسمعه. والثالثة: أن تحدّثني بحديثك، فلعلّ ذلك ينفعُك. قال: أفعل. فدعوتُ بالطعام فأصابَ منه إصابةَ مُغْدِر[١]، ثم دعوتُ بالشراب فشرب منه أقداحاً وأنا أغنّيه من غرض الأغاني ما يحضرني، وهو يشرب ويبكي ثم قال: الشرطُ ـ أعزّكَ الله ـ فلمّا رأيتُه قد خفّ ما به ورأيتُ النبيذَ قد شدّ قلبه كرَّرْتُ الصوتَ عليه مراراً. ثم قلت: حدِّثْني. قال: «أجل أنا رجلٌ من أهلِ المدينة خَرَجْتُ متنزّهاً إلى العقيق[٢] ـ وقد سال ماؤه ـ في فتيةٍ من أقاربي وإخواني[٣]، فبصُرنا بفتياتٍ وقد خرجن لمثلِ ما خرجنا له، فجلسْنَ حجرة[٤]، وبَصُرْت بفتاة منهنّ كأنها غصنٌ قد طَلَّه الندى تنظُرُ بعيْنين ما ارتدّ طرفُها إلّا بنفس ملاحظها، فأطلنا وأطلْنَ حتى تقوّض الناس، ثم تفرّقْنا، وقد أبقت بقلبي جُرْحاً بطيئاً اندمالُه، فعدتُ إلى العقيق أتنسّم خَبَرَها، وأطمعُ في لقائها، فإذا هو خالٍ ليسَ فيه أحد، ولم أر لها ولا لصواحبها أثراً. ثم جَعَلْتُ أتتبعُها في أسواقِ المدينة وطُرُقاتِها، فكأنَّ الأرضَ طُوِيَتْ عليها. فمرضْتُ أسَفاً عليها وصبابةً بها، وضنيت حتى يئس أهلي منّي. فخلتْ بي ظِئْرٌ لي اسْتَمْلَتْ لي خبري وضَمِنَتْ لي كِتْمَانها والسَّعيَ

---

(١) ـ المُغْدِرة: الغنم إذا شبعت في المرتع (القاموس المحيط: غدر)، وفي الأغاني: مُعْذِر (أي أبدى عذراً).

(٢) ـ موضع بالمدينة مما يلي الحرّة إلى منتهى البقيع.

(٣) ـ في الأغاني: في فتية من أقراني وأخداني.

(٤) ـ حجرة: ناحية.

فيما أُحبُّه منها، فأخبرتُها بالخبر، فقالت: لابأسَ عليك هذه أيّامُ الربيع ما انقضت بعد وهي سَنَةُ خصْب وليس يبعد عليك المطر وسيمتدُّ العقيقُ فتخرج حينئذ وأخْرُجُ معك، فإذا جاء النسوةُ ورأيتَ من تريد فعرِّفْني حتى أتبعها ولا أفارقها وأقف على موضِعها وأصِلَ بَيْنَك وبَيْنَها وأسعى لك في تزويجها، فكأنَّ نَفْسي اطمأنَّتْ إلى ذلك ووثِقَتْ به وسكنت إليه، وأصبتُ شيئاً من الطعام، وتراجعت نفسي، ولم ألبث أن جاء المطر وسال العقيق وخرج الناس ينظرون، وخرجت فيهم مع إخواني وظِئْري، فجلسنا مجْلِسَنا الأوَّل بعينه، فما كنّا والنِسوةَ إلّا كفرسَيْ رهان، وأومأتُ إلى ظِئْري إيماءً أعْرَفْتُها به، فجلسن قريباً منّا، فقلت لظئري: (ص ٢٠٦) قولي لهذه الجارية يقول لكِ هذا الفتى: واللهِ لقد أحسنَ الذي يقول:

رَمَتْني بِسَهْمٍ أقْصَدَ[1] القلبَ وانْثَنَتْ
وَقَدْ غادَرَتْ جُرْحاً بِهِ وكُلُوما[2]

فمضت فقالت لها ذلك. فقالت: ارجعي فقولي: لَعَمْري لقد أحسن القائلُ وأحْسَنُ من أجابه حيث يقول:

بِنا مِثْلُ ما تَشْكو فصَبْراً لعلَّنا
نرى فَرَجاً يُشْفِي السَقَامَ قريبا

فأمسكت عن الجواب خوفاً من أن يظهر ما يفضحنا جميعاً، وعرفتُ ما أرادت، فقمتُ منصرفاً، وقامَتْ بقيامي فَتَبِعَتْها ظِئْري حتى عرفت مَنْزِلَها، وصارت إليَّ، فأخَذَتْ بيدي، وصِرْنا إليه. وما زالت تتلطَّف حتى اجتمعنا بها على سبيل المراسلة والمجالسة[3]، واتصل ذلك، حتى شاع حديثنا، وظهر ما بيننا، وحجبها أبوها عنّي، وتشدَّد عليّ، فلم أزل مجتهداً في لقائها، فلم أقدِرْ عليه، فشكوتُ حالي إلى أبي، وسألته أن يخطبها لي بجمع مَشْيَخةِ أهلِها، ومضى إلى أبيها راغباً إليه في المصاهرَة، فقال: لو كان بدأ بذلك قبل أن يفضحها

(١) ـ أقْصَدَ السَهْمُ: أصاب فقتل مكانه (القاموس المحيط: قصد).

(٢) ـ في الأغاني: وندوبا.

(٣) ـ في الأغاني: على حال مخالسة ومراقبة.

لأسعفته فيما التمس، ولكنّه قد شهرها وعَيَّرها فما كنتُ لأحقّقَ قولَ النّاس فيها بتزويجها إيّاه. فانصرفتُ على يأسٍ منها ومن نفسي».

فسألتُه عن منزله، فعرّفني، فزُرْته وكثرت عنده وصارت بيننا عِشرة. ثم جلس جعفر بنُ يحيى وحضرتُ على رسمي فغنّيتُ جعفراً في شعر الفتى أوّل ما غنّيت، فطرب طرباً شديداً وشَرِبَ عليه أقداحاً وقال: ويلك ما هذا الصوت؟ ومن أين هو لك؟ فقلت: صَنَعْتُه منذُ أيّام وحديثه أظْرَفُ منه. فقال: ما هو؟ فحدَّثْتُه بحديثِ الفتى. وأمرني بالركوبِ إليه وأن أجعنه على ثِقةٍ من بلوغِ ما يُحِبّ، فمضيتُ إليه وأحضرته، فاستعادَهُ جعفرُ الحديث، فأعاده عليه، فقال: هيَ في ذمّتي حتى ازوّجك إيّاها. فطابَتْ نَفْسُه وأقامَ معنا. فلما أصبح جعفر رَكِبَ إلى الرشيد، فحدّثه الحديث، فاستظرفه، وأمر بإحضارنا جميعاً. فحضرنا، واستعادَ الصَّوت فأعَدْتُهُ وشَرِبَ عليه، وسأل الفتى عن حديثه فأعاده عليه، فأمر بالكُتبِ إلى عامل الحجاز بإشخاص الرجلِ وأهله وولده مُبَجَّلاً مكرّماً إلى حضرته والإنفاقِ عليه نَفَقَةً واسعة سنيّة. فلم تَمْضِ مدّةٌ حتى حضروا، فأمر الرشيدُ بإيصالِ الرجُلِ إليه، فأُحضِر وأُمِرَ بتزويج الجاريةِ من الفتى، وأعطاه ألفَ دينار، فزوّج الفتى الجاريةَ بحضرته، وانصرفنا، وأمر جعفرُ لكل واحدٍ منّا بألف دينار، ونقلت إليه أهله. ولم يزل بعد ذلك في ندماء جعفر حتى حدث عليه ما حدث[1] فعاد بأهله إلى المدينة. (ص ٢٠٧) انتهت[2].

[و][3] هذا من ذلك. وقد فاز هنا جعفرُ بنُ يحيى بأفضلَ مما وقع لأبيه في الحكاية السابقة لها. ولا تنتهي المواساةُ في الجاه والقيام بحمل الكَلّ والمعونة على نوائب الحق لأكثر من هذا. وما أفضل الرشيدَ ـ رحمه الله ـ وأوسع حِلمه وأشرف خلقه! فقد اشتملت هذه الحكايةُ من كَرَمِ نفسه وسَعةِ طَوْله

---

(١) ـ يشير إلى نكبة البرامكة ومقتل جعفر بن يحيى سنة ١٨٧ هـ على يد ياسر بأمر من الخليفة الرشيد (مروج الذهب ٣ / ٣٨٧ ـ ٣٨٩، البداية والنهاية ١٠ / ١٩٦).

(٢) ـ وردت هذه الحكاية في الأغاني ١٤ / ١١٦ ـ ١٢٠، تزيين الأسواق للانطاكي ص ٢٤٦.

(٣) ـ بياض في الأصل.

واستباقه في ميدان الخلال البَرَّة، واجتهاده في جَمْعِ المناقب الفذّة، على ما يندر مثله إلاّ مِنْ مثله، وتُعربُ عن كمال سُؤددهِ وسعة فضله. وكذلك اشْتَمَلَتْ من فضل جعفر وزيره وزكاء طبعه وجلالة قدره على ما يَشْهَدُ له بعُلوّ المنزلة وسموّ المرتبة.

وحدّث حمّادُ بنُ إسحق[1]: حَدَّثَني أبي قال: سِرتُ إلى سُرَّ من رأى بعد قدومي من الحجّ، فدخلتُ إلى الواثق[*] فقال لي: يا اسحق بأيّ شيء أطْرَفْتَني من أحاديثِ الأعراب وأشعارهم؟ قلت: يا أميرَ المؤمنين، جَلَسَ إليَّ فتى من الأعرابِ في بعضِ المناهل فحادثني، فرأيْتُ منه أحلى من رأيْتُ من الفِتْيانِ مَنْظَراً وحديثاً وظرفاً وأدباً، فاستنشدتُه فأنشدني:

سَقَى العَلَمَ الفَرْدَ[2] الذي في ظِلالِه ... غزالانِ مَكْحُولان يَرْتَعيان[3]

أرَغْتُهُما صَيْداً فلم أسْتَطِعْهُما ... وَخَتْلاً ففاتاني وقد ختلاني

ثم تَنَفَّسَ تَنَفُّساً ظننتُ أنّه قطع حيازِمَهُ فقلت: ما لَكَ بأبي أنت؟ فقال لي: من وراءِ هذا الجبل سَجير[4]، وقد حِيل بَيْني وبينَ المُرورِ بهذه البلاد، وقد نَذَروا دمي، وأنا أتمتّعُ بالنَظَرِ إلى الجبل تعلّلاً به إذا قدم الحاج، ثم يُحالُ بيني وبين ذلك. فقلت له: زِدْني ممّا قلت في ذلك. فأنْشَدَني:

---

(١) ـ لعله حماد بن اسحق بن اسماعيل بن حماد بن زيد بن درهم، أبو اسماعيل الأزدي، أخو اسماعيل بن اسحق، بصريّ ولي القضاء ببغداد، كان مالكي المذهب فصيحاً، ولد سنة ١٩٩ هـ بالبصرة، وتوفي بالسوس سنة ٢٦٧ هـ (تاريخ بغداد ٨ / ١٥٩).

* ـ بويع الواثق بالله هارون بن محمد بن هارون سنة ٢٢٧ هـ وتوفي سنة ٢٣٢ هـ (مروج الذهب ٤ / ٦٥).

(٢) ـ جبل في الحجاز.

(٣) ـ في المستجاد من فعلات الأجواد والفرج بعد الشدة: مكتّنان مؤتلفان، ويلي ذلك في المستجاد والفرج بعد الشدة والأغاني بيت بين البيتين هو:

إذا أمنا التفّا بجيدَيْ تواصُلٍ ... وطرفاهما للريب مسترقان

(٤) ـ السجير: الخليل الصفيّ (القاموس المحيط: سجر).

ألا يا نَسيمَ الـريح بلِّغْ رسـالَتي سُلَيْمى وعرِّضْ بي كأنَّك مازِحُ[1]
وأهـدِ لهـا منّي السَّـلامَ وقُلْ لها زَعَمْتِ بأنْ لايَحْفَظَ الـوُدَّ نازِحُ[2]
فإنْ سَألَتْ عنّي سُلَيْمى[3] فَقُلْ لها: بِهِ غِيَرٌ من دائِـهِ وهـو صالِـحُ

فأمرني الواثقُ فكتبتُ له الشِعْرَيْن. فلما كان بعد أيّام دعاني فقال: قد صَنَعَ بعضُ عجائز دارنا في أحد الشِعْرين لحناً فاسمَعْه، فإن ارتضيته أظهرناه، وإن رأيتَ فيه موضِعَ إصلاحٍ أصلحناه. فغُنِّيَ لنا من وَراء السِتْر، فكان في نهايةٍ من الجودة. وكذلك كان يفعل إذا صنع شيئاً. فقلت: أحْسَنَ والله صانِعُه يا أميرَ المؤمنين ما شاء. قال: بحياتي؟ قلتُ: إيْ وحياتِك. ثم حلفتُ له بما وثِقَ به. فأمر لي برطلين، فشربْتُهما. ثم أخذ العُودَ وغنّاه ثلاثَ مرّات وسقاني ثلاثةَ أرطال، وأمر لي بثلاثين ألفَ درهم. فلما كان بعد أيّام دعاني فقال: قد صُنِعَ أيضاً عندنا في الشعر الآخر لحنٌ. وأمر فغُنِّيَ به، فكان حالي فيه مثل الحالِ الأوّل. ثمّ غنّاه لمّا استحسنته، وحلفتُ (ص ٢٠٨) له على جَوْدته، وسقاني ثلاثة أرطال وأمر لي بثلاثين ألفَ درهم، ثم قال: هل قضيتُ حقَّ هديّتك؟ قلتُ: نعم يا أمير المؤمنين - فأتمَّ الله نِعَمُه عليك وأطال بقاءك ولا فقدنيها منك وبك. قال: ولكنَّكَ لم تَقْضِ حقَّ حَبيبك الأعرابيّ ولا سَألْتَني مَعُونَتَهُ على أمره وقد سبقتُ مسألتك وكتبتُ بخبره إلى صاحبِ الحجاز وأمرتُه بإحضاره وخِطبَتِهِ للمرأة، وحَمْلِ صداقها إلى قومها من مالي. فقبّلتُ يده وقلت: السبق إلى المكارم لك وأنت أولى بها من سائرِ الناس. انتهت[4].

---

(١) - في المستجاد والفرج بعد الشدة والأغاني:

إذا ما وردْتَ المـاء في بعض أهـله حضـورٌ فعـرِّضْ بي كأنـكَ مازِحُ

(٢) - لم يرد هذا البيت في المستجاد وفي الفرج بعد الشدة.

(٣) - في المستجاد والفرج بعد الشدة والأغاني: حضور.

(٤) - وردت هذه الحكاية في: المستجاد من فعلات الأجواد ص ٢٣٨ - ٢٤٠، والفرج بعد الشدة ٤ / ٣٩٩ - ٤٠١، والمختار من قطب السرور ص ٢٦٨ - ٢٧٠، والأغاني ٩ / ٢٩٠ - ٢٩١.

[وقد][1] اقتدى الواثقُ ـ رحمه الله ـ في هذه الحكايةِ بجدِّهِ الرشيد وسلك على سبيله، فمآثرُ بني العبّاس ـ رضي الله عنه ـ تتشابه ومكارمهُم تتماثل وكفاهم من النبوءة التي يمتّون إليها بالعمومية وبنوّتها شرفاً لا يُلْحَقُ ومجداً لا يُدْرَك. وقد تبعهما المتوكّل في هذه الكرامة وتلاهم في هذه المنقبة.

[المدائني قال][2] كان فتىً من أبناءِ الكتّاب يصحب عليّاً بنَ الجهم[3] فعلِقَ جاريةً من القيان وشُغِفَ بها حتى أنفق عليها ماله وساءت حاله. فسأل عنه عليُّ بن الجهم يوماً فأُخْبِرَ بخبره، فركب إليه وعاتبه على ذلك، فحلف عليه الفتى واحتبسه عنده يومه ذلك، وأحضر الجارية فسمعها وأُعْجِبَ بها وطرب على غنائها، وانصرف إلى منزله سكران وقد غادره * واصطبح الفتى مع بعضِ إخْوانِهِ فلما شَرِبَ وطابتْ نفسُه تناول الدواةَ وكتب إلى عليّ بن الجَهْم بهذه الأبيات[4]:

نَبَّهْـتُ أصْـحـابـي فَهـبُّـوا	قَبْـلَ الـصَّبـاحِ لِمَـا أحبّـوا
هذا أنَـابَ[5] وذا أجَـابَ إلـ	ـى الـصَّبـاحِ وذا يَخُـبُّ[6]
أنْـشَـدْتُـهُـمْ بَيْتـاً يُعَـلِّمُ ذا	الـصَّبـابَـةِ كَيْف يَصْبُـو
ما الـعـيشُ إلا أنْ تُحِـبَّ	وأنْ يُحِـبَّـكَ مَنْ تُحِـبُّ
أكْـدَيْتُ بَعْـدَكَ يا علـيُّ	ونـالـنـي خِصْـبٌ وخَـطْبُ
أُهْـدِي لكَ الـشِـعْـرَ البَـديـ	ـعَ وأنْـتَ للأشْـعـارِ قُطْبُ[7]

---

(١) ـ بياض في الأصل تقديره ما أثبتناه.

(٢) ـ بياض في الأصل، وفي المختار من قطب السرور: المدائني قال: كان فتى .... الخ.

(٣) ـ سلفت الترجمة له.

* ـ في المختار من قطب السرور: وقد عذره.

(٤) ـ الأبيات الأول والثالث والرابع فقط وردت في المختار من قطب السرور.

(٥) ـ في الأصل: أباب.

(٦) ـ هذا البيت غير وارد في المختار من قطب السرور.

(٧) ـ البيتان الأخيران لم يردا في المختار من قطب السرور.

فأُعْجِبَ بها علـيّ بنُ الجَهْم، ونهض إلى المتوكّل مِنْ وقته، فأنْشدَها له، وأمر بأن تُلَحَّنَ وغُنِّيَ بها من ساعته، فاستطارَ بها[1]، وأمَرَ أن يُحْمَل للفتى أربعةُ آلافِ دينار، فاشْتُرِيَتْ له الجارية، وأدْخله المتوكّل في جُمْلةِ ندمائه. انتهت[2].

[و][3] لافرقَ بَيْنَ كَوْن محبوبة هذا الفتى أمةً ملكها، ولا بين كونهما في الحكايتين قبلها زوجتين ملك محبّاهما عصمتهما، إذْ لاتتفاوتُ المحبّةُ باعتبارِ الزوجيّة ومِلْكِ اليمين. والله أعلم. [و][4] مِنْ أمثالِهم في ذلك قولُهم[5]: «حَسَنٌ في كُلِّ (ص ٢٠٩) عَيْنٍ مَنْ تَوَدّ».

وكما يكونُ الفَرَجُ من ابتلاء الحُبِّ بالوِصال، فقد يكون بغيرِ ذلك من ألطاف الله سبحانه. [كما يُحكى][6] أنه رُوِيَ عن بكير بن عبد الله المزني[7] أنّ قصّاباً وَلِعَ بْجاريةٍ لبعض جيرانه، فأُرسِلت إلى حاجةٍ في قرية اخرى فتبعها، فراودها عن نفسِها، فقالت: لا تفعل، فإني أشدّ حبّا لك منك إليّ، ولكن أخافُ الله. قال: فأنتِ تخافينه وأنا لا أخافهُ؟! فرجع تائباً، فأصابه العطش حتى كاد ينقَطِعُ عنقُـه، فإذا هو برسـولٍ لبعض بني اسرائيل، فسأله فقال: ما لك؟ قال:

---

(١) ـ في المختار من قطب السرور: فاستطابها.

(٢) ـ وردت هذه الحكاية في: المختار من قطب السرور ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣، نهاية الأرب للنويري ٤ / ١٢٨ (ط. دار الكتب المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٣٥م).

(٣) ـ بياض في الأصل.

(٤) ـ بياض في الأصل.

(٥) ـ هذا القول هو عجز بيت لعمر بن أبي ربيعة، صدره: فتضاحَكْنَ وقد قُلْنَ لها. (انظر: ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ١٨٦، تحقيق علي ملكي، منشورات دار الفكر ودار الرأي العام).

(٦) ـ بياض في الأصل مقدار كلمتين تقديرهما: كما يحكى.

(٧) ـ هو بكير بن عبد الله بن الأشج المدني الفقيه مولى المسور بن مخرمة، نزل مصر، روى له البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه، وهو مُجْمَعٌ على ثقته، توفي سنة ١٢٧ هـ (تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني ١ / ٤٩١ (ط. حيدر أباد الدكن)، الوافي بالوفيات ١٠ / ٢٧٢) وفي روضة المحبين لابن قيم الجوزية: بكر بن عبد الله المزني.

العطش. فقال: ندعو حتى تظلّنا سحابة حتى ندخل القرية. قال: ما لي من عمل فأدعوَ. قال: فأنا أدعو فأمِّنْ أنت. فدعا الرسولُ وأمّن هو. فأظلّتْهما سحابةٌ حتى انتهيا إلى القرية، فأخذ القصّاب إلى مكانه ومالت السحابةُ معه، فقال له: زَعَمْتَ أنْ لَيْسَ معك عملٌ وأنا الذي دعوت وأنت الذي أمّنت فأظلّتنا سحابة ثمّ تبِعَتْك؟! لتُخْبِرْني بأمرك. فأخبره. فقال الرسول: إنّ التائبَ من الله بمكانٍ ليس أحدٌ من الناس مكانه. انتهت(١). فهذان المتحابّان ممّن أطفأ الله نار محبّة أحدهما لصاحبه بما ملأ به قلوبَهما(٢) من شدّةِ خوفه، فأعقب ذلك ما أعقب من ولايته وحفظه.

[وممّا](٣) يُشْبِهُ ذلك ما حُكي عن أحمدِ بن سعيد العابد عن أبيه قال: كان عندنا بالكوفة شابٌّ متعبّد ملازمٌ للمسجدِ الجامعِ لا يكاد يخلو منه، وكان حَسَنَ الوجْهِ حَسَنَ السَّمْتِ، فنظرتْ إليه امرأةٌ ذاتُ جمالٍ وعقل فشُغِفَت به، وطال ذلك عليهما. فلما كان ذاتَ يومٍ وقَفْت له على طريقٍ وهو يريدُ المسجد، فقالت له: يا فتى اسمع منّي كلمةً أكلّمك بها ثم اعمل ما شئت. فمضى ولم يكلّمها. ثم وقفت له بعد ذلك على طريقٍ وهو يريد منزلَه فقالت له: يا فتى اسمع منّي كلمات أكلّمك بهنّ. قال: فأطْرَقَ مليّاً وقال لها: هذا موقفُ تُهْمة وأنا أكره أن أكون للتهمة موضعاً. فقالت: والله ما وقفتُ موقفي هذا جهالةً منّي بأمرك، ولكن معاذ الله أن يشرف العباد لمثل هذا منّي، والذي حملني على أن أُلْقِيَ في هذا الأمر نفسي معرفتي أنّ القليلَ من هذا عند الناس كثير، وأنتم معاشِرَ العُبّاد في مثل هذا(٤) القرى يغيّركم أدنى شيء، وجملةُ ما أكلّمك به أن جوارحي مشغولةٌ بك، فالله الله في أمري وأمرِك. قال: فمضى الشابُّ إلى

---

(١) - وردت هذه الحكاية في كتاب: روضة المحبين ونزهة المشتاقين لابن قيم الجوزية (ص ٤٥٠) وكتاب التوابين ص ٧٥، حلية الأولياء ٢ / ٢٣٠، ذم الهوى لابن الجوزي ص ٢٦٩.

(٢) - هكذا في الأصل، والصواب: قلبيهما.

(٣) - بياض في الأصل تقديره ما أثبتناه.

(٤) - كذا في الأصل، وفي مصارع العشاق: في مثال القوارير أدنى شيء يعيبه.

منزله فأرادَ أن يُصَلّي فلم يعقل كيف يصلّى، وأخذ قرطاساً وكتب كتاباً وخرج من منزِله، فإذا المرأةُ واقفة في موضِعها، فألقى إليها الكتابَ ورجع إلى منزِله. وكان في الكتاب: «بسم الله الرحمن الرحيم.

اعلمي أيَّتُها المرأة أنّ الله تباركَ وتعالى إذا عصى مُسْلِمٌ سَتَرَهُ، فإذا عاد العبدُ في المعصيةِ سَتَرَهُ، فإذا لبس لها ملابِسَها (ص ٢١٠) غضب الله عزّ وجلّ لنفسه غضبةً تضيق منها السماواتِ والأرضُ والجبالُ والشَّجَرُ والدوابّ. فمن ذا يُطِيقُ غَضَبَه! فإن كان ما ذَكَرْتِ باطلاً فإنّي أذكّرُكِ يومَ تكون السماءُ كالمُهل وتكون الجبال كالعِهْن وتجثو الأممُ لصولةِ الجبّار العظيم فإني والله قد ضَعُفْتُ عن إصلاح نفسي فكيف عن إصلاح غيري. وإن كان ما ذكرتِ حقّاً فإنّي أدلُّكِ على طبيبٍ يداوي الكلوم الممرضة[1] والأوجاع المومضة[2] ذلك الله ربُّ العالمين، فاقْصِديه على صدق المسألة، فأنا متشاغلٌ عَنْكِ بقوله عزّ وجلّ: ﴿ وأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إذْ القُلُوبُ لَدَى الحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا للظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ، يَعْلَمُ خائِنَةَ الأعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدورُ والله يَقْضِي بِالحَقِّ﴾[3]. فأين المَهْرَبُ من هذه الآية!».

ثم جاءت بعد ذلك بأيّام فوقفت على طريقِه، فلما رآها من بعيدٍ أراد الرجوعَ إلى مَنْزِله لئلّا يراها. فقالت له: يا فتى لا تَرْجِعْ فلا كان الملتقى بعد هذا إلّا بين يَدَيْ الله عزّ وجلّ. وبكت بكاءً كثيراً شديداً، وقالت: أسألُ الله الذي بيده مفاتيحُ قَلْبكَ أن يُسَهِّلَ ما عسر من أمرك. ثم تَبِعَتْه فقالت: امنُنْ عليّ بموعظةٍ أحملُها، وأوْصِني بوصيّةٍ أَعْمَلُ عليها. فقال لها الفتى: اوصيك بتقوى الله وحفظِ نَفْسِكِ واذكُري قولَ الله عزّ وجلّ ﴿وَهُوَ الذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ ويَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهارِ﴾[4] قال: فأطْرَقَتْ فَبَكَتْ بُكاءً شديداً أشَدَّ مِنْ بُكائِها

(١) - في الأصل: المرضة، والتصويب من مصارع العشاق.

(٢) - في مصارع العشاق: المرمضة.

(٣) - الآيات ١٨ - ٢٠ من سورة غافر.

(٤) - الآية ٦٠ من سورة الأنعام.

الأوّل، ولزِمَتْ بيتها، وأخذَتْ في العِبادة، فلم تَزَلْ كذلك حتى ماتت كَمَداً. فكان الفتى يذكُرُها بعدَ ذلك ويبكي رحمةً لها. انتهت[1].

فهذه المرأةُ، وإنْ لم تَنَلْ من محبوبِها أملاً، فقد نالت به قَصْداً صالحاً وعملاً، فرزقها الله بسببه الإنابة، وسَهَّل عليها بموعِظته العبادة، ولعلّها في الآخرةِ يتحصَّلُ قَصْدُها ويَجْتَمِعُ بمن أحبّتْهُ شَمْلُها. ولا يبعد أن يكونَ هذا العابدُ قد أحبّها وأسكنها الله قَلْبَه كما أسكنه قَلْبَها، فمن قولِ أهلِ هذا الشأن أنَّه لايُمْكِنُ أن يُحِبَّ أحَدٌ[2] أحَداً حُبّاً صادِقاً إلاّ ويُحِبُّهُ المَحْبُوبُ كذلك، والقضايا المنقولةُ في ذلك. والله أعلم.

[ويحكى][3]: أنه كان في بني اسرائيل راهبٌ، فمرّت به امرأةٌ جميلةٌ عشيَّةَ يوم، فنادته: أيها الراهب آوني هذه الليلة. فأجابها: إني مشغولٌ عنك بنفسي. فقالت له: هذا الليلُ قد أقْبَلَ وإنْ ضِعْتُ كنتَ أنتَ المحاسَبَ عَليَّ. فرغِبَ في عِصْمَتها، فآواها معه في الصومعة. ثم قام إلى صلاته. فلما فرغ منها قَعَدَ يذكُرُ الله، فقامت وتجرّدَتْ أمامه، وكانت من أجملِ الناسِ وَجْهاً وأحسنهم جِسْماً. فلما رآها قال: اتّقِ الله أيَّتُها المرأة. فقالت: دع عنك هذا وتمتّعْ (ص ٢١١) بي الليلة. فقال لنفسه: ما تقولين؟ قالت: نعم إني لها مُحِبَّة. فقال لها: اصبري حتى أقربَ النار الصغرى فإن صَبَرْتُ لها فافعلي. ثم قام وأوقد سراجاً وجعل فيه مفتولاً عظيماً وقرب أصابعه حتى احترقت كلُّها. فلما بَصُرَتْ به الجاريةُ صاحت صيحةً وسَقَطَتْ ميّتة، فغطّاها بثوبه، ثم قام إلى الصلاة، فصَرَخَ إبليسُ اللعين في المدينة أنّ فُلاناً زنى بفلانةَ وقَتَلَها. فجاء الناسُ إليه فوجدوها ميّتة فصدقوا ذلك فأخرجُوهُ وجعلوا في عُنُقِهِ غلاًّ، وجاءوا به إلى الحاكم فأمر بقَتْله. فلما أرادوا قتله سمعوا صيحة عظيمة من السماء:

---

(١) ـ وردت الحكاية في مصارع العشاق ١ / ٤٥ ـ ٤٨.

(٢) ـ في الأصل: أحدا.

(٣) ـ بياض في الأصل تقديره: ويحكى.

«لا تَقْتُلوا وَلِيَّ الله فيصبَّ عليكم البلاء صبّاً». فنظروا إلى أصابعه فوجدوها محترقة فسألوه عنها فأخبرهم بالقصّة، فأقبلوا يُقَبِّلونَ يديْه ورِجْلَيْه. انتهت[1].

[و][2]هذا من أثر الصدقِ، وقد نُبِّه عليه غَيْرَ مرّة. وقد تجاوز التمحيصُ هنا المعتادَ في الحبِّ الذي لا يظهر مقدارُه إلّا بما كان من صَبْرِ هذا الراهبِ على النار إلى التمحيص المتوقّع بالقتل القريب كان من الوقوع، فهي بذلك عريقةٌ في الصورةِ قَبْلَها، والله أعلم.

[و][3] من ذلك ما حُكي أن بعضَ المشايخ تعشّق بغلامٍ فجاهد هواه فيه مُدَّةً، وكان لا يرفع طَرْفَهُ إليه إلى أنْ عِيلَ صَبْرُه، فخلا به ليلةً، فهمّت به نفسُه فوضع اصبعه فيِ السراج وقال لنفسه: هذا محبوبكِ وهذه النار، فإن كُنْتِ تصبرين عليها فشأنك بمحبوبك. فكان كلّما قرب اصبعه من السِراج احترقَ ويقول: والله إنّك لحارّة وإنّ نار الحبّ أحرُّ منك. ثم يقوم إلى صلاته حتى أصبح. وكأنه أشار إلى أنّ نار المحبّة مقتبسة من نارِ الله الموقدة التي تطّلع على الأفئدة. انتهت.

وهذا بابٌ واحد، وبعضُ القضايا شبيهةٌ ببعض.

[وممّا][4] خلا فيه الرجُلُ عن المَيْلِ إلى مَنْ راودته من النساء البتّة ما حكاه الأستاذُ أبو عبد الله محمد بن خلصون رحمه الله، قال: أَخْبَرَني مَنْ أثِقُ به عن بعضِ الفضلاء القريبي العهد من زماننا ـ وكان أستاذاً يُقْرىء الطلبة ـ فكان إذا جلس للإقراء تُشَمُّ منه رائحةُ المِسْك. فقيل له في ذلك فقال: إنّي كنتُ في أيّامِ شبابي أقْرأُ على الأستاذ وكنت ألْقى في طريقي امرأةً سوداء تسلّم عليّ غدوة وعشيّة، إلى أن قالت لي يوماً: أيّها الفتى إن سيّدتي أتاها كتابٌ

(١) ـ وردت هذه الحكاية في: روضة المحبين ص ٤٦٠ ـ ٤٦١.

(٢) ـ بياض في الأصل.

(٣) ـ بياض في الأصل مقدار كلمة.

(٤) ـ بياض في الأصل تقديره ما أثبتناه.

من بَعْضِ قرابتها فعسى أن تدخلَ معي إلى داخل الدويرة تقرؤه عليها وتكون وراءَ سِتْرٍ تسمعك فإنها من أهل الصيانة. فقلت لها: نعم. ودخلتُ. فلما توسَّطْتُ الدارَ قعدت السوداءُ وخَرَجَتْ لي جاريةٌ كأنها فِلْقَةُ قمر. فقالت: ادخل. فخجلتُ وأردتُ الانصراف، فرجعتُ إلى الأبوابِ فوجدتُها قد غُلِّقَتْ، ورَمَتْ يدها (ص ٢١٢) في أثوابي وقالت لي. كم لك تعذِّبني واللهِ لا زلتَ من يدي حتى تفعل معي ما يفعلُ الرجلُ بأهله. فقلت لها: اتّقِ الله أيّتُها المرأة. فقالت: دع عنك هذا وقم. فقلتُ لها: إني أريد الدخول إلى بيتِ الماء. فقالت: نعم. فقمت ودخلتُ إلى المِرْحاضِ وطَلَيْتُ رأسي بالعَذِرَةِ وثيابي وخرجتُ فنَظَرَتْ إليّ فنادت خادِمَها: أخْرجي عنّي هذا الأحمق. فَفُتِحَ لي البابُ وخرجتُ إلى البحر فاغْتَسَلْتُ وغَسلْتُ ثيابي، وشَكَرْتُ الله تعالى على العافية. فمن ذلك اليوم عوّضني الله بهذه الرائحةِ التي تُشَمُّ عليّ. انتهت.

[و][1] جديرٌ أن يُعَوَّضَ من تَلَطَّخَ بالعَذِرَةِ التي هي من أقْبَحِ الأشياء رائحةً تحامياً أن يتلطّخ بمعصيةِ الله من تلك الرائحة الخبيثة برائحةِ المِسْك حتى كان له الجزاءُ وِفاقاً، وما مثل ذلك على الله بِعَزِيزٍ لمن حصلت منه في اجتنابِ محارمِ الله النيّةُ، وصدقت منه في الوفاء بذلك الوجهة.

[و][2] قضيّةُ امرأةِ العزيز فيما شَغَفَها من حُبِّ يوسف الصدّيق صلوات الله عليه وعلى آبائه أشْهَرُ من أن يُنَصَّ عليها، وما يُنْقَلُ في الاسرائيلياتِ في نكاحه إيّاها وبلوغِها منه متمنّاها كذلك. ولله في تصريف أحكامه عِبَر، وفي مجاري أقداره حِكَم، وقد سبق في أوَّل الفَصْلِ من الإلمامِ ببعض ما حُكِيَ في ذلك ما يُغْني عن الاستكثارِ منه، والله أعلم.

[ومثلما][3] يكونُ الابتلاءُ بِفراقِ من تميلُ إليه النفسُ وتحبّه فكذلك يكونُ

---

(١) - بياض في الأصل.

(٢) - مكان الواو بياض في الأصل.

(٣) - بياض في الأصل تقديره: ومثلما.

الابتلاءُ بالاجتماع بمن تَصُدُّ عنه وتَكْرَهُهُ، إذْ لا تَفاوُتَ بين بُعدِ المحبوب وقُرْبِ المكروه. وقد تختلِفُ الأنظار في أيّ الابْتِلاءَين أتْعَبُ وأشَقُّ إذا فُرِضَ التساوي بين القضيّتين في شدة المحبة وشدّة البُغْضة، واليأسِ من لقاءِ المحبوبِ واليأسِ من مُفارقةِ المكروه. وعكسُ ذلك كلّه. والحقُّ التساوي لأنَّ النفْسَ هي المعذَّبَةُ في كلتا الحالتين، وعذابُ النَّفْسِ عظيمٌ في نَفْسه.

[وممّا][1] وقفتُ عليه في هذا المعنى ما حكاه محمّد بن ادريس الشافعيّ قال: كانَتْ لأبي بكر بن اللبّاد[2] امرأةٌ سليطةٌ تُؤذيه بلسانها، فيحكى أنّها قالَتْ له يوماً: يا زانٍ. فقال: سَلُوها بمن زَنَيْت. قالت: بالخادم. قال: سَلُوها لمن الخادم. فقالت: له. فقال له أصحابه: طَلِّقْها ونحنُ نُؤدّي حَقَّها. فقال: أخشى إنْ طَلَّقْتُها أن يُبتلى بها مُسْلم، ولعلّ الله دفع عنّي بإساءتها بلاءً عظيماً. وكان يقول: لكلّ مؤمنٍ مِحْنَة وهي محنتي. انتهت[3].

[و][4] يظهر لي أن انحرافَها الذي قال أصحابُ ابن اللبّاد بسببه «طلِّقْها». إنما هو من الغيرة، ولعلّها تُعْذَرُ بذلك؛ فإنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «الغَيْرى لا تَعْرِف أعلى الوادي من أسْفَله»[5]، ولذلك - والله أعلم - لم يُجِبْهُمْ إلى طلاقها، وإنما (ص ٢١٣) المُعْتَبَرُ في القضيّة شهادةُ ابنِ اللبّاد زَوْجِها على فَضْلِهِ ودينه وما اشتمل عليه من التسليم لله والتفويضِ لأمره ورؤيةِ دِفاع الله عنه ما هو أعظم ممّا ابتُليَ به.

---

(١) - بياض في الأصل تقديره: ومما.

(٢) - أبو بكر محمد بن محمد بن وشاح بن اللباد مولى الأفرع مولى موسى بن نصير، سمع من جميع الشيوخ الذين كانوا في وقته، كان زاهداً، وامتحن وسجن، وفلج آخر عمره وتوفي سنة ٣٣٣ هـ (الديباج المذهب ٢٤٩ - ٢٥٠، ترتيب المدارك ٣ / ٣٠٤، رياض النفوس ٢ / ٢٨٣).

(٣) - ترتيب المدارك ٣ / ٣٠٦ - ٣٠٧، رياض النفوس ٢ / ٢٨٤ - ٢٨٥.

(٤) - بياض في الأصل.

(٥) - لم أجد هذا الحديث فيا وقفت عليه من مصادر الحديث النبوي.

[وإذا][1] كان الابتلاءُ بمِثْلِ ارتجاجِ البحر واشتدادِ عاصفِ الريح، وذلك مَظْهَرٌ لعظمة الله عظيم، ومَشْهَدٌ لحصول الشهادةِ كبير، وفيه قيل: «البَحْرُ خَلْقٌ عظيمٌ يَرْكَبُه خَلْقٌ ضعيف دودٌ على عود». وقال بعضهم فيه*:

البَحْرُ مرُّ المذاقِ صَعْبُ لا جُعِلَت حاجتي إلَيْهِ
ألَيْسَ ماءٌ ونَحْنُ طِينٌ فما عَسَى صبرُنا عَلَيْهِ؟!

[وقد][2] قيل لبعض التجار: ما أعجب ما رأيت في البحر؟ قال: سلامتي منه.

ويبدو فيه من ضعفِ ابنِ آدم وافتقارهِ وفاقَتِه إلى رحمةِ الله واضطرارهِ ما يقع به الإجماع مِنْ أرباب المِلَلِ والنِحَلِ على اختلافِ أديانهم وتناقُضِ ما بين كُفْرِهم وإيمانِهم، أنهم لاملجأ لهم من الله إلاّ إليه، ولا معول لهم في نجاتِهم إلاّ عليه، حسبما نَصَّ على ذلك الكتابُ العزيز في غيرِ ما موضع، قال الله تعالى: ﴿وإذَا مَسَّكُمُ الضُرُّ في البَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إلاَّ إيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إلى البَرِّ أعْرَضْتُمْ وكَانَ الإنْسَانُ كَفُورًا * أفَأمِنْتُمْ أنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جانِبَ البَرِّ أوْ يُرْسِلَ عَلَيكُم حاصِباً ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وكيلا * أمْ أمِنْتُمْ أنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارةً أُخْرى فيُرْسِل عَلَيْكُمْ قاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَ لاتَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنا بِهِ تَبِيعا﴾[3]. وقال الله تعالى: ﴿هُوَ الذي يُسَيِّرُكُمْ في البَرِّ والبَحْرِ حَتَّى إذا كُنْتُمْ في الفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بريحٍ طَيِّبَةٍ وفَرِحُوا بِها جَاءَتْها رِيحٌ عاصِفٌ وجَاءَهُمُ المَوْجُ مِنْ كُلِّ مكانٍ وظَنُّوا أنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصينَ لَهُ الدِينَ لَئِنْ أنْجَيْتَنا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكرين * فَلَمَّا أنْجاهُمْ إذا هُمْ يَبْغُون في

---

(1) - بياض في الأصل تقديره: وإذا.

* - ورد هذان البيتان في رحلة ابن جبير (ص ٢٦٠)، تأليف أبي الحسن محمد بن أحمد بن جبير، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨١م.

(2) - بياض في الأصل تقديره ما أثبتناه.

(3) - الآيات ٦٧ - ٦٩ من سورة الاسراء.

الأرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ يا أَيُّها النَّاسُ إنَّما بَغْيُكُمْ على أَنْفُسِكُمْ مَتاعُ الحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ إلَيْنا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1].

[و][2] لا خفاءَ بما تضمَّنتهُ هذه الآياتُ الكريمةُ من تبيينِ أحوالِ الناسِ في مثل هذه الشدّة، وأنّهم من الركونِ إلى الله فيها واللجأِ إلى بابِ رحمتهِ على صفةٍ تُنافي بالجملة صِفَةَ اغترارِهم في أوقاتِ العافيةِ وآناءِ الراحة، وتُناقِضُ بالكلّيةِ حالةَ غَفْلَتِهِمْ عن مشاهدةِ عَظَمةِ الله وملاحظةِ قُدْرته ورؤْيَةِ معافاتهم في أحيانِ أمنهم من تلك الشدائدِ وسلامتِهِمْ من تلكَ النوائب فإنّ المتعيّن هنا ما حكى الله تعالى عن أولي الاضطرارِ في هذه الحالةِ الذين أَخْبَرَ الله تعالى أنّه أجابَ دُعاءَهُمْ وكَشَفَ ضَرّاءَهم، والإخلاص للهِ في الضراعة إليه وعقدِ النيّة في الثبوت على ما (ص ٢١٤) طُوِيَ الضميرُ عليه من الإنابة واستحضارِ حال هؤلاء الذين أخلصوا في وقتِ الشدّة، والتزموا أن يكونوا من الشاكرين، إنّ نجّاهم الله منها، فلما أنجاهم صَدَرَ منهم من البَغْيِ ما اقتضى خطابهم بقوله: ﴿يا أَيُّها النَّاسُ إِنَّما بَغْيُكم على أَنْفُسِكم﴾[3] والعزيمةُ التامّة على أنْ لا يغفل عن شهودِ نعمةِ الله في النجاة، ولا يعرض عن رؤيةِ منّة الله في الخلاص.

[كما حكى][4] بعضُهم: رَكِبْتُ البحرَ إلى الأندلس مع ابنِ حبيب[5]، فهال علينا البحر، فخشينا العطَبَ، فرأيتُ ابنَ حبيب متعلّقاً بحبالِ السفينة

---

(١) ـ الآيتان ٢٢ ـ ٢٣ من سورة يونس.

(٢) ـ بياض في الأصل.

(٣) ـ من الآية ٢٣ من سورة يونس.

(٤) ـ بياض في الأصل تقديره: كما حكى.

(٥) ـ أبو مروان عبد الملك بن حبيب بن سليمان بن هارون بن عباس بن مرداس السلمي، رحل إلى المشرق سنة ٢٠٨ هـ وعاد منها إلى الأندلس سنة ٢١٠ هـ، وهو من فقهاء مذهب مالك، وله مؤلفات كثيرة، توفي سنة ٢٣٨ هـ بقرطبة. (انظر: ترتيب المدارك ٣ / ٣٠ ـ ٤٨، تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي ١ / ٢٦٩ ـ ٢٧٢).

وهو يقول: «[اللهم][1] إن كنتَ تعلم أني إنّما أردتُ بما ابتغيتُ به وَجْهَكَ وما عندك فخلِّصْنا برحمتك، وانفع ما أتيت به عبادك» فما كان إلّا يسيراً حتّى سكَنَتْ الحال وَوَصَلْنا سالمين. انتهت[2].

[و][3] أعظمُ من قضيّةِ ابنِ حبيب في النجاةِ من هلكة البحر بعد تعيُّنِها ما حُكي عن أبي عليّ الصدفيّ[4] ـ رحمه الله ـ أنّه ركب البحرَ من الجزيرةِ الخضراء يومَ الجمعة إثر صلاتها في قارب، فلما بعد عنها بستّة أميال أتى على القارب الذي كان فيه مركب أغرقه، وكان لا يَعْرِفُ السباحة، فبينما هو يعالجُ المَوْجَ مرّ قاربٌ عرفه بعضُ ركابه فتخلّصه وكساه بعضَ أثوابه. فوصل إلى مالقة[5] ـ حماها الله ـ سالماً. وهذه نجاةٌ من المَوْتِ بعد الإشراف عليه، وخلاصٌ من المنيّةِ بعد الانتشاب في أظفارها. فما أخفى لطف الله!

[وفي][6] سُنَنِ ابنِ السنّي[7] عن الحسين بن عليّ ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم: «أمانٌ لأمّتي من الغرَقِ إذا ركبوا أن يقولوا: «بسمِ اللهِ مَجْراها ومُرْساها إنّ ربّي لغفورٌ رحيم»[8] وَمَا قَدَرُوا اللهَ

---

(1)ـ بياض في الأصل تقديره: اللهم.

(2)ـ وردت هذه الحكاية في ترتيب المدارك ٣ / ٣٤.

(3)ـ بياض في الأصل.

(4)ـ هو أبو علي حسين بن محمد بن فيره بن حيّون المعروف بابن سكّرة الصدفي من أهل سرقسطة وسكن مرسية وتولى القضاء بها، ورحل إلى المشرق سنة ٤٨١ هـ، توفي شهيداً في وقعة قتندة سنة ٥١٤ هـ، وألف ابن الأبار معجماً ترجم فيه لأصحاب أبي علي الصدفي (الصلة ١ / ١٤٤، الغنية ١٢٩، فهرس ابن عطية ٩٩، الديباج المذهب ١٠٤، أزهار الرياض ٣ / ١٥١، نفح الطيب ٢ / ٩٠).

(5) ـ (Malaga) على الساحل الجنوبي لبلاد الأندلس.

(6) ـ بياض في الأصل تقديره: وفي.

(7) ـ ورد الحديث في الأذكار المنتخبة للنووي ص ١٩٩.

(8) ـ من الآية ٤١ من سورة هود.

حقَّ قَدْرِه. الآية*.

[وفي][1] صحيحِ مُسْلِم عن عائشة رضي الله عنها ـ قالت: كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا عَصَفَتْ الريح قال: «[اللهم][2] إنّي أسألُك خيْرَها وخَيْرَ ما فيها وخير ما أرسلت به وأعوذُ بكَ من شرِّها وشرِّ ما فيها وشرِّ ما أرسلت به»[3].

[ولا][4] بأسَ أن يُرْتَكَبَ هنا من الأسباب ما يَعْتَقِدُ أهلُ[5] المعرفة أنه صلاح، وأن عمله مرجوّ الفائدة بالعادة على وهْن ذلك وضعفه، فإنّ الآلة المسمّاة بالصاري[6] هي عند أربابِ ذلك الشأن عدّةُ السفينة، وبه يتأتّى سيرُها، وفيه معقلها الذي يشبه من المُدُنِ القصبةَ، وفيه مصالحُ شتّى لا تُحصى. وكثيراً ما يلجأ أربابُ السُّفُنِ التي تخشى الغرق إلى قَطْعِهِ وَرَمْيِهِ في البحر، والطمع في الخلاص دونه، كالواقع في الأعضاء المتآكلة والأضراس الموجعة، وما أشبه ذلك. وأما طرحُ المتاعِ وإلقاءُ السِلَعِ وتخفيفُ الأثقال ورَمْيُ ما عدا الإنسان من الحيوان في البحر، فلا إشكالَ في ذلك، وهنا يتصوّر من الأحكام (ص ٢١٥) ما يتصوّر من اقتسامِ الخسارة بخاصة، ودخولِ الجَفْن في ذلك، وعدم دخوله، والنظر فيما سلم من ذلك، إذا كان خفيفَ المحمل، كالذهب والمسك، وما أشبهه، ممّا تكلّم الفقهاءُ فيه ولاحاجةَ لنا به هنا. فتأمّل هذه الأسباب ما أوهنها، وهذه الأعمال ما أضعفها، وهي حِيلةُ مَنْ لم يَجِدْ حيلة.

---

* ـ من الآية ٦٧ من سورة الزمر، والآية ٩١ من سورة الأنعام.

(١) ـ بياض في الأصل تقديره: وفي.

(٢) ـ بياض في الأصل.

(٣) ـ صحيح مسلم ٣ / ٢٦.

(٤) ـ بياض في الأصل تقديره: ولا.

(٥) ـ في الأصل: يتقد أصل.

(٦) ـ الصاري: خشبة معترضة في وسط السفينة (القاموس المحيط: صراه).

[وفي](1) قضيةِ يونُس عليه السلام من ذلك ما يُقْضى منه العجب. قال الله تعالى: ﴿وإنَّ يُونُسَ لَمِنَ المُرْسَلين * إذْ أبَقَ إلى الفُلْكِ المَشْحون * فَسَاهَمَ فكانَ من المُدْحَضِين * فالْتَقَمَهُ الحُوتُ وَهُوَ مُلِيم * فَلَوْلا أنّه كانَ مِنَ المُسَبِّحين * لَلَبِثَ في بَطْنِهِ إلى يَوْمِ يُبْعثُون﴾(2) فانظر فائدةَ التمسُّك بِذِكْرِ الله وتسبيحِهِ في مواطنِ الشدّةِ كيف يُفيد النجاةَ منها؛ فقد أخبر القرآن العزيز أنّه لولا تسبيحُه لَلَبِثَ في بطنِ الحوتِ إلى يوم البَعْث. وقد أوضحت الآيةُ الأخرى كيفيّةَ تَسْبيحه. وهي قوله تعالى: ﴿وذا النُّونِ إذْ ذَهَبَ مُغاضِباً فَظَنَّ أنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنادى في الظُّلُماتِ أنْ لا إله إلاّ أنْتَ سُبْحانَكَ إنّي كُنْتُ مِنَ الظّالِمين * فاسْتَجَبْنا لَهُ ونَجَّيْناهُ مِنَ الغَمِّ وكَذلِكَ نُنْجي المُؤْمِنين﴾(3) وقد ضمنت هذه الآية الكريمة النجاةَ للمؤمنينَ من الغمّ كما نُجِّيَ منها هذا النبيُّ الكريم.

وكذلك ورد في هذا الذِكر الشريفِ أنّه ممّا يُذْهِبُ الله به الغمّ عمّن ابتُلي به. ومحملُ قوله تعالى: ﴿فظنَّ أنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْه﴾(4) عند العلماء على ......(5) فلا يتهم في جانبِ نبيِّ الله يونُس أنه يظنّ أنّ الله لا يقدِرُ عليه.

فإذن إنّما أولى الأسبابِ بالاستعمالِ هو الدعاءُ الذي هو مخُّ العبادة، وفسّر به قوله تعالى: ﴿إنَّ الذينَ يَسْتَكْبِرونَ عَنْ عِبادتي سَيَدْخُلُون جَهَنَّم داخِرين﴾(6).

(1) ـ بياض في الأصل تقديره: وفي.

(2) ـ الآيات ١٣٩ ـ ١٤٤ من سورة الصافّات.

(3) ـ الآيتان ٨٧ ـ ٨٨ من سورة الأنبياء.

(4) ـ الآية ٨٧ من سورة الأنبياء.

(5) ـ بياض في الأصل مقدار كلمتين.

(6) ـ الآية ٦٠ من سورة غافر.

[و](1) الدعاء المنسوبُ للشيخ أبي الحسن الشاذلي(2) ـ رضي الله عنه ـ المسمّى بحزبِ البحر(3) ممّا يَذْكُرُ الناسُ أنّ له بالتجربة المتكررة عجائبَ من السلامة بعد مُعاينة الهلاك، ومُشاهدةِ الحِمام، ولن يُسْتَنْكر ذلك على بركة وليٍّ من أولياء الله تعالى إذا خلصت النِيَّةُ وصلحت السريرة، والله الغنيّ الحميد.

[وقال](4) المروزي: خَرَجْتُ من مصر ومعي جاريتي، فركبتُ البحرَ أُريد مكّة، فغرقتُ فذهَبَتْ منّي ألفا دينار، وصِرْتُ إلى جزيرةٍ أنا والجارية، فما رأينا فيها أحداً، وأخذني العطش فلم أقدِرْ على الماء، واجتهدتُ فوضعت خدّي على فَخِذِ جاريتي مستسلماً للموت، فإذا رجلٌ قد جاءني ومعه كوز، فقال لي: هاك. فأخذتُ وشربتُ وسَقَيتُ الجارية. ثم مضى فلم أدرِ من أين جاء ولا من أين ذهب. انتهت. ففي هذه الحكايةِ من لُطْفِ الله ما يُتَعَجَّبُ منه زيادة للنجاة مِن الغرق والخلاص من هولِ البحرِ بما سنّى الله لهذا المروزيّ من ذلك الماء الذي أتاه به الرجل الذي لا يَعْرِفُ من أين (ص ٢١٦) جاء ولا من أين ذهب، بعد استسلامه للموتِ من العطش، وإشرافِه على الهلكةِ من الظمأ. فسبحانَ اللطيفِ بعباده، القريبِ الذي هو أقربُ لأحَدِنا من حبل وريدِه.

[وحكى](5) ذو الوزارتين الشيخُ أبو عبد الله بنُ الخطيب ـ رحمه الله ـ

---

(1) ـ بياض في الأصل.

(2) ـ هو أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبّار... بن علي بن أبي طالب المعروف بالشاذلي من كبار متصوفة المغرب، وقد سلفت الترجمة له.

(3) ـ واحد من أربعة أحزاب مشهورة لأبي الحسن الشاذلي (لطائف المنن ٣٤٣). وانظر نص هذا الحزب في رحلة ابن بطوطة ٢ / ٨٢٩ ـ ٨٣٠.

(4) ـ بياض في الأصل تقديره: وقال.

(5) ـ بياض في الأصل تقديره: وحكى.

عَنْ محمد بن وَرْد بن أبي بكر بن ورد[1] أنّه كان قد غرّقه بعضُ أرباب الأمر لأمرٍ نقمه عليه، وعطب المركب في لُجَجِ البحرِ البعيد من السواحل، وخرج سالماً لم يفلت غيره. وكان يحدّث في ذلك بعبر لو كان غيره لعدّت له كرامة. انتهت[2].

[و][3] من ظنَّ أنه ليس بأهلٍ للكرامة فهو فيما يمنُّ الله به عليه من مثل هذه النجاة الغريبة لهذا الغريق مظهر لاسمه اللطيف سبحانه، وقد يحضرُهُ من الإخلاص لله تعالى في حالة الاضطرار ما يخفى علينا السببُ الذي يسّره الله له؛ من الدعاءِ الذي وعد بإجابته في تلك الحالة، والتوكّل على من بيده ملكوتُ كلّ شيء.

وقد يظهرُ ذلك [فيما قاله][4] التنوخيّ في كتابِ «الفرج بعد الشدّة»[5]: وجدتُ في كتابِ أبي الفرج المخزومي[6] بإسنادٍ[7] انّ قوماً ركبوا في البحر فسمعوا هاتفاً يهتف «من يُعْطِني عشرةَ آلاف دينار أعلّمْهُ كلماتٍ إذا أصابه همّ

---

(١) - هو الشيخ القاضي أبو عبد الله محمد بن أبي الحسن بن ورد بن أبي بكر بن ورد الغساني، عاش في غرناطة في القرن الثامن الهجري وتولى فيها الأعمال المخزنية ولحقته محن بسبب لسانه، وهو من عائلة عريقة في الأندلس. (انظر ترجمته في الكتيبة الكامنة ص ١٥٢ - ١٥٣).

(٢) - ألمح لسان الدين بن الخطيب إلى هذه المحنة في الكتيبة الكامنة ص ١٥٣.

(٣) - بياض في الأصل.

(٤) - بياض في الأصل تقديره: فيما قاله.

(٥) - الفرج بعد الشدة ١ / ٩٩ - ١٠١ (مع بعض اختلاف في اللفظ).

(٦) - هو أبو الفرج عبد الواحد بن نصر بن محمد المخزومي البصري الشاعر، وكان يلقب بالببغاء لفصاحته، كان من خدام سيف الدولة الحمداني، ثم رحل إلى بغداد سنة ٣٩٠ هـ، وتوفي سنة ٣٩٨ هـ (انظر يتيمة الدهر ١ / ٢٩٣، وفيات الأعيان ٣ / ١٩٩، المنتظم ٧ / ٢٤١، تاريخ بغداد ١١/١١)، وكتاب أبي الفرج المذكور هو من الكتب التي اقتبس منها التنوخي في كتاب الفرج بعد الشدة كثيراً، ولكنه لم يذكر اسمه.

(٧) - في كتاب الفرج بعد الشدة ينتهي الاسناد إلى المعتصم الخليفة العباسي.

أو أشرف على الهلاك فقالها انكشف ذلك عنه» فقام رجل من أهل المركب معه عشرةُ آلاف دينار فصاح: أيُّها الهاتف أُعطيكَ ما طلبت وعلّمْني. فقال: ارْمِ بالمال في البحر. فرمى بدرتين فيهما عشرةُ آلاف دينار. فسمع الهاتفَ يقول: إذا أصابَكَ همٌّ وأشرفْتَ على هلكة فاقرأ: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبْ، وَمَنْ يَتوكَّلْ على اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ، إنَّ اللهَ بالغُ أمْرِهِ، قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شيْءٍ قَدْراً﴾[1] فقال جميعُ من في المركب: إنّ هذا لغلطة، ما نشك أنك غُبنْتَ في تجارتك فيها. قال: فلما كان في الغد تكسّر بهم المركب، فلم يَنْجُ منهم أحد غير ذلك الرجل؛ فإنّه فَزِعَ إلى هذه الآية فقرأها، وتعلّق بلوْحٍ من ألواحِ السفينة فنجا عليه، فحدّث بعد ذلك قال: طرحني البَحْرُ على جزيرةٍ فمشيت إليها، فإذا بقصر منيف، فدخلتُه، فإذا فيه من جميعِ ما يكون في البحرِ من الجواهرِ النفيسة وغيرِها، وإذا أنا بامرأةٍ لم أرَ قَطُّ أحْسَنَ منها. فقلتُ لها: من أنْتِ؟ وأيّ شيء تعملين هاهنا؟ فقالَتْ: «أنا بنتُ فلان من أهل البصرة، وكان أبي عظيمَ القَدْر ومن أكبرِ التجار، وكان لا يَصْبِر عنّي ساعة، فصار في البحر وحملني معه، فانكَسَرَ مركبُنا، فاخْتُطِفْتُ حتى حصلتُ في هذه الجزيرة، وإنه يخرج إليّ شيطانٌ من البحر فيتلاعب بي سَبْعَةَ أيّام من غير أن يطأني إلاّ أنّه يلامسني فيؤذيني، ويلعبُ معي وينظر إليّ ثم يغوص (ص ٢١٧) في البحرِ سبعةَ أيام، وهذا يومُ موافاته، فاتّقِ الله واخْرُجْ قبل أن يأتيَ عليك» فما انقضى كلامها حتى رأيتُ ظُلْمةً هائلة، فقالت: قد والله جاء يستهلكك. فلما قرب مني وكاد يغشاني قرأتُ الآية، فإذا هو قد خرّ كأنه قطعة جبل، إلاّ أنّه رماد محرق. فقالت المرأة: هَلَكَ واللهِ وكُفينا أمره، فمن أينَ أنْتَ؟ ومن هذا منّ الله عليّ بك؟[2] فحدّثتُها بأمري. وقمت أنا وهي فانتخبنا من تلك الجواهرِ أفْضَلَها وأسناها، حتى جمعتُ من ذلك كُلَّ نفيسٍ فاخر، وحملنا ذلك إلى الساحل، ولزمناه نهارَنا أجمع، حتى إذا كان الليلُ رجعنا إلى القصر، وكان فيه ما يُؤكل. فقلت لها: من أين لكِ

(١) ـ الآيتان ٢ ـ ٣ من سورة الطلاق.

(٢) ـ في الفرج بعد الشدة: مَنْ أنت يا هذا الذي من الله عليّ بك؟

هذا؟ فقالت: وجدتُه هاهنا. فلما كان بعد ثلاثةِ أيّام ونحنُ على الساحل رأينا مركباً بعيداً، فلوّحْنا له فقربَ منّا فدخلناه، فحُمِلنا فيه إلى البصرة في السلامة والعصمة من الله تعالى. فلما دَخَلْنا البصرةَ وَصَفَتْ لي منازلَ أهلها فأتيتُهُمْ، فسألوا: من أنت؟ فقلت لهم: رسولُ فلانة بنت فلان. فارتفعت لهم عجّة وأخذوا في الدعاء وقالوا: قد جدّدتَ علينا مصائبنا. فقلت: اخرجوا. فخرجوا. وجئتُ بهم إلى وليّتهم، فكـادوا يموتون فَرَحاً وسروراً، وسألوا عن خبرها، فقصصتُه عليهم، وسألتهم أن يزوّجوني إيّاها، ففعلوا، وجَعَلْنا ذلك الجوهر رأسَ مالٍ بيني وبينها، فأنا اليوم أيْسَرُ أهلِ البصرة وهي معي وهؤلاء أولادي منها. انتهت[1].

[وقد][2] تضمّنتْ هذه الحكايةُ لهذين الغريقين، من اللُّطْفِ الخفيّ في النّجاة من هول البحر، والسلامةِ من الغرق، ثم من حُسْنِ الدفاع في الخلاص من شرّ هذا العفريت الطاغي والشيطان المارد، والمنة لله، بكفّ أذاه، وتعجيلِ هلاكه، ثم من النعمةِ المُسْداةِ في الغنى الحاصل عن هذه الشدّة، المكيَّف عن هذه الأزمة، على غرابة النوعِ في التماسِ الفائدة التي نجح بها القصد، وحصل بها الفوز، وذلك بتعلُّم الآيةِ الكريمةِ من الهاتف. فسبحانَ الله الذي بيده مقاليدُ كلِّ شيء وإليه يَرْجِعُ الأمر كلُّه عزّ وجهه!

[و][3] لكون الإنسان لايملك في السفينةِ في البحرِ سبباً تركن إليه نفسُه، ويطمئن إليه قلبه، امتنع بعض الحكماءِ من الركوبِ في سفينة، فقيل له في ذلك، فقال: لأني لأكره أن أركب ما لا أملِكُ عنانه ولا أضبط زمامه.

[وإذا][4] كان الابتلاء بمثلِ السجنِ والأسر، وغَلَبةِ الرجالِ بالقوة والقَهْر، فإنّ هذا كلّه محلُّ الصبرِ والتأسّي، واللجأ إلى تلاوة القرآن، وخلاصِ الدعاء.

(١) ـ وردت هذه الحكاية في الفرج بعد الشدة ١ / ٩٩ ـ ١٠١.

(٢) ـ بياض في الأصل تقديره ما أثبتناه.

(٣) ـ بياض في الأصل.

(٤) ـ بياض في الأصل تقديره: وإذا.

وفي الحكايات عمّن ابتُلي بهذا المعنى أنسٌ تامّ، وتثبيتٌ للمبتلين، وتنبيهٌ لمن غفل (ص ٢١٨) عن الحق وذهل عن الصبر.

[وقد][1] ذُكِر أنّه قَدِمَ رجلٌ من اليمن إلى العراق على الحجّاج بن يوسف، وهو واليها، يشكو أخاه محمداً[2] - وكان أميرَ اليمن - فصادفَ الحجّاجَ على المنبر، فقام إليه، وذكر ظلامتَهُ، وشكاه إليه، فأمر بحبسه، فلما نزل عن المنبر ودخل دعا به وهو مغتاظ، فقال له: ما جرّأك أن ترفَعَ على أخي؟ فقال له: أنا باللهِ أوثقُ من أخيك بك. فعفا عنه، وأجازه وكتب إلى أخيه بإنصافه. انتهت. فاعتبِروا يا أولي الأبصار كيف عَطَفَ الله قَلْبَ هذا الجبّار على الرافع على أخيه، لمّا علم صدق قوله في تعلّقه بالله تعالى.

[وقال][3] إسحقُ الموصليّ: حدّثني الفضلُ بن الربيع عن أبيه أنّه [لمّا][4] حبس المهديُّ موسى بن جعفر[5] رأى المهديُّ في النوم عليَّ بن أبي طالب وهو يقول: يا محمد ﴿فهل عَسَيْتُمْ إن تَوَلَّيْتُمْ أنْ تُفْسِدوا في الأرْضِ وتُقَطِّعُوا أرْحَامَكُمْ﴾[6] قال الربيع: فأرسل إليّ المهديُّ ليلاً، فراعني ذلك، فجئته، فإذا هو يقرأ هذه الآيةَ - وكان أحْسَنَ الناسِ صوتاً - وقال: عَلَيَّ بموسى ابن جعفر. فجئتُه به، فعانقه، وأجلسه إلى جنبه، وقال: يا أبا الحسن إنّي رأيتُ أميرَالمؤمنين علي بن أبي طالب في النوم، فقرأ عليّ كذا، فتؤمنني أن تخرج عليّ أو على أحد من ولدي؟ فقال: لا والله، لا فعلتُ ذلك، ولا هو من شأني. قال: صدقت. يا ربيعُ، اعطِهِ ثلاثةَ آلاف دينار، وردّه إلى أهله

---

(١) - بياض في الأصل مقدار كلمة.

(٢) - توفي سنة ٩٠ هـ (البداية والنهاية ٩ / ٨٥).

(٣) - بياض في الأصل تقديره: وقال، وروى.

(٤) - سقطت هذه الكلمة من الأصل، ولا يستقيم المعنى من دونها.

(٥) - الإمام أبو الحسن الكاظم بن الإمام جعفر الصادق (١٢٨ - ١٨٣ هـ). (تاريخ بغداد ١٣ / ٢٧، البداية والنهاية ١٠ / ١٨٩).

(٦) - الآية ٢٢ من سورة محمد.

إلى المدينة. قال الربيع: فأحكمت أمره ليلاً فما أصبح إلاّ وهو في الطريق خوف العوائق. انتهت[1].

[و][2] هذه القضيّةُ، وإنْ خلت من السبب الظاهرِ، الموجبِ للسراح من الثقاف، والمقتضي للخلاص من الاعتقال، فقد تعيَّن فيها السببُ الباطن، ما كانت نتيجته هذه الرؤيا الصادقة، الناطقة من القرآنِ الذي لا يتمثّل به الشيطان، بما أفاد المهديّ الموعظة الحسنة، فيسّر الله بذلك من خلاصِ موسى بنِ جعفر ما يشهد له بصدق التوجّه إلى الله، وحُصولِ الكرامةِ من لَدُنْهُ - رضي الله عنه وعن آبائه الطاهرين. [و][3] في مثل هذه الحال ينشد استدناء لِلُطْفِ الله[4]:

انْـتَـظِرْ لُطْفَ الإلـهِ فَمـا ... في انـتـظارِ الـلُّطْفِ مِنْ حَرَجِ
رُبَّ أمـرٍ عَزَّ مَطْلَبُـهُ ... قَرَّبَـتْـهُ ساعَـةُ الـفَـرَجِ

[وممّن][5] ابتُلي بالاعتقال الشيخُ أبو بكر بن اللبّاد[6] - رضي الله عنه - على صلاحه ودينه وفضله، [قال][7] القاضي عياض[8]: كان أصلُ محنته أنّه صلّى

---

(١) - وردت هذه الحكاية في تاريخ بغداد ١٣ / ٣٠ - ٣١، البداية والنهاية ١٠ / ١٩٠.

(٢) - بياض في الأصل.

(٣) - بياض في الأصل.

(٤) - ورد البيت الثاني مع بيت مختلف آخر في الفرج بعد الشدة (٥ / ٣٩) غير منسوبين لشاعر بل أنشدهما علي بن هارون بن علي بن يحيى المنجم وفيهما اختلاف، وصورتهما في الفرج بعد الشدة:

أدرجِ الأيامَ تندرجِ ... وبيوتَ الهم لا تلجِ
رب أمرٍ عزّ مطلبُه ... هوّنَتْه ساعةُ الفرجِ

(٥) - بياض في الأصل تقديره: وممّن.

(٦) - سلفت الترجمة له.

(٧) - بياض في الأصل تقديره: قال.

(٨) - في ترتيب المدارك ٣ / ٣٠٨ - ٣١٠.

على جنازة استؤذِنَ لها، وقد حضر ابنُ أبي المنهال، القاضي حينئذٍ، لجنازة اخرى، وكلم عليها، فصلّى أبو بكر، وصلّى وراءه (ص ٢١٩) ابنُ أبي المنهال، ثم قُدِّمت الجنازةُ الأخرى، فصلّى عليها ابنُ أبي المنهال. فجلس أبو بكر بن اللبّاد، ومدّ رِجْلَيْه، واسْتَدْبَرَ القِبْلَةَ، ولم يُصَلِّ وراءه. فشقّ ذلك على ابن أبي المنهال، وأغرته[1] به المشارِقَةُ، فوجه وراءه في جماعة منهم. فلما دخل قال له: اجلس ثمَّ. وعقد عليه محضراً بشهادة* القوم [بفتحه بابه][2] وانتصابه للفتوى والسماع، بخلافِ مذهبِ أمير المؤمنين، وأنه يلبس السواد، ويخطب(**) في الأعياد. فقال له أبو بكر: لمن أدعو؟ قال: لبني أميّة. قال: وبنو أمية يلبسون السواد؟! وأراد فضيحته على مَنْ حَضَر، ثم قال له: وأيضاً فإنّ الخطبة لا تكون بأقلّ من خمسين رَجُلاً، وداري لا تسع[3] ذلك. ثم قال: ومتى كان هذا؟ بعد صلاة الجنازة أو قَبْلَها؟ فقال له ابنُ أبي المنهال: وأيّ حجّةٍ لك في هذا؟ فقال: إنْ كان قَبْلَ الصلاةِ عليها فقد غَشَشْتَ أميرَ المؤمنين؛ إذْ كتمتَ هذا عنه، وإن كان بعدها فأنت خَصْمي ولا يُقْبَلُ قولُك. فأمر ابنُ أبي المنهال بسجنه. فجاء الغلامُ فأخذ بيده، فانتهره وقال له: دَعْ، أُشْهِدُكُمْ أنّي محبوس. ومضى إلى السجن، فوجد فيه المزاوديّ[4] وكان سُجِنَ على سبّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. فلما دخل الشيخ تلقّاه فأعرض عنه، فقال المزاوديّ: واللهِ إني لأبغضك قديماً. فقال أبو بكر: الحمد لله يا فاسق الذي لم يجعل في قلبك بغض النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وحبّي. فأقامَ مسجوناً حتى ذهب محمد ابن أخيه إلى المهدية، فأَخْبَرَ بذلك البغداديّ، وكان يحبّه، فسعى له عند عبيد الله حتى أمره أن يكتب لابن أبي المنهال بإخراجه من

(١) ـ في الأصل: وأعزته.

* ـ في الأصل: لهذه.

(٢) ـ بياض في الأصل، وتتمته من ترتيب المدارك.

** ـ في ترتيب المدارك: يخضب.

(٣) ـ في الأصل: تسمع.

(٤) ـ في ترتيب المدارك: المراوديّ.

السجن، على أن لا يُفْتِيَ ولا يجتمع إليه أحد، ولا يفتي إلاّ بمذهب السلطان. وكتب في رقعةٍ داخل الكتاب: «ما هذا الذي فعلتَ؟! عمدتَ إلى عمدةِ بلدةٍ فأحدثت فيه هذه الأحدوثة، وأثرتَ البلد، وهذا مما كرهه أميرُ المؤمنين، فلا تعُدْ إلى مثل هذا». فلما وصل إليه كتابُه أخرَجهُ وشرط عليه ألاّ يخشَّن عليه الجواب. فلما جاءه رفع مجلسه وقال: هذا كتابُ أميرِ المؤمنين يحدّ فيه ألاّ تفتي ولا يجتمع إليك أحد، وإن مرِضْتَ فلا تُعاد. فقال أبو بكر: هذه منزلة لم تنزل بعد ثم خرج إلى المهديّة، فقصد البغدادي فذكر وُصولَه لعبيد الله، فقال له: اكتب له كلَّ ما يحبّ ولا تُدخِلْهُ عليَّ. فكتب له سجلا ألاّ يَنظر في أمره ابنُ أبي المنهال. فأراد أن يأخذه. فقال له البغدادي: ليس مثلك [من][1] يحمل عنايته بيده، تصِلُ إلى بلدِك ويصِلُ مع البريد[2] إليك فينفذ ذلك. وبقي أبو بكر لا يُسْمَعُ إلاّ في خفية، فلزم داره وأغلق بابه، وكان ربّما خرج إلى المسجد فتأتي الطلبة إلى بابه، فتفتح له خادمه، فإذا اجتمعوا أتته، فيدخل ويغلق عليهم الباب، فيقرأون. وكان منهم أبو محمد بن التبّان[3] (ص ٢٢٠) وابنُ أبي زيد[4] وغيرهم. وكانوا ربّما جعلوا الكتب في أوساطهم حتى تبتلّ بأعراقهم حين يأتون إليه، فأقاموا على ذلك إلى أن تُوُفِّي رحمه الله. انتهت[5].

وفيها تذكُّرٌ بما تلقّى العلماء الأعلام من اذاياتٍ في ذات الله، نفعهم الله بنيّاتهم

---

(١) - بياض في الأصل.

(٢) - في الأصل: البربر.

(٣) - هو أبو محمد عبد الله بن اسحق المعروف بابن التبّان، من كبار فقهاء المذهب المالكي في تونس، مولده سنة ٣١١ هـ ووفاته سنة ٣٧١ هـ (ترتيب المدارك ٤ / ٥١٧ - ٥٢٤).

(٤) - أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني المتوفى سنة ٣٨٦ هـ، له مؤلفات كثيرة منها كتاب الجامع في السنن والآداب والمغازي والتاريخ، وكتاب النوادر والزيادات، ومختصر المدونة (انظر مقدمة كتاب الجامع ص ١٥ - ٧٨، ترتيب المدارك ٤ / ٤٩٢ - ٤٩٧).

(٥) - وردت هذه الحكاية في ترتيب المدارك ٣ / ٣٠٨ - ٣١٠.

الزكيّة وكتبها لهم. وقد كان بكر بن المعتمر[1] ممّن ابتُلي بالاعتقال الشديد، وكتب إلى أبي العتاهية يشكو له ضيقَ القَيْد وغَمَّ الحَبْس، فكتب إليه أبو العتاهية[2]:

هِيَ الأيّامُ والعِبَرُ وأمْرُ اللهِ يُنْتَظَرُ
أتيأسُ[3] أنْ ترى فَرَجاً فأيْنَ اللهُ والقَدَرُ؟!

ففي هذين البيتين تسليةٌ عظيمة لمن ابتُلي بالسجن أو بغيره من الخطوب، وفي التحقيق بمعناه تفريج عظيم من الكروب.

وذُكر أنّ المتوكّل جعفرَ بنَ المعتصم* كان ذاتَ ليلةٍ ببابٍ من أبواب بغداذ يُقال له باب خراسان، فوَقَعَ في حُجْرِهِ سهمٌ بأربع رِيَاش، وبين كلّ ريشتين كتاب، فأخذه وقرأه، فإذا في الرياش الأول مكتوباً:

أتَطْمَعُ في الحياةِ إلى التنادي وتَحْسَبُ أنَّ مالَكَ مِنْ مَعادِ؟!
سَتُسْألُ عن ذُنوبِكَ والخطايا وتُسْألُ بَعْدَ ذاك عَنِ العِبَادِ

وفي الرياش الثاني:

هِيَ المقاديرُ تَجْري في أعنّتها فاصبرْ فليسَ لها صَبْرٌ على حَالِ
يوماً تُريكَ خَمِيصَ البطنِ[4] تَرْفَعهُ دُونَ السَّماءِ ويَوْماً تَخْفضُ العَالي[5]

وفي الرياش الثالث:

---

(1) - في الفرج بعد الشدة والمصادر الأخرى (بكر بن المعتمر) وفي الأصل أبو بكر. وهو أبو حامد بكر بن المعتمر كاتب الخليفة العباسي الأمين. (الطبري ٨ / ٣٦٦ - ٣٦٩).

(2) - ديوان أبي العتاهية ٢١٩.

(3) - في الأصل: لا تيأس.

* - في مروج الذهب والشهب اللامعة: أبو جعفر المنصور.

(4) - في الشهب اللامعة: خسيس القوم.

(5) - في الأصل: العال، وقد سبق تخريج هذين البيتين في موضع سابق.

يا راقـدَ الليلِ مَسْـروراً بلذّتـه ... ألهتْكَ نُعمى كما يَلْهى بها البَصَرُ[1]
وساعـدتْكَ الليالي فاغترْرتَ بها ... وعِندَ صَفْوِ الليالي يَحْدُثُ الكَدَرُ

وفي الرياش الرابع: «همذان». فراعه ما رأى من السهم، وَرَجعَ إلى قصره، فأرسل إلى الولاة والقضاة والحكّام وكلّ من عرف عنده فَضْلَ رأي. فحضروا وأخبرهم بالقصّة وعرض السهم عليهم وشاورهم في أمره. فأجمعوا أن ينظروا في حُبُوسِه فلعلّ فيها رجلاً من همذان حُبس ظلماً فيخرجه. فوجّه غلاماً له أديباً، وأخذ شمعة عظيمة، وأمر بتفتيش الحبوس، فمن وجد فيها من همذان أتاه به. فتوجّه إلى الحُبوس ففتّشها فلم يجد فيها شيئاً، فذهب لينصرف فقيل له: بناحيةِ المدينةِ حَبْسٌ عظيم. فتوجَّهْ إليه ففتّشهُ. فلم يجد (ص ٢٢١) فيها شيئاً. فلما همَّ بالخروج سَمِعَ جَلَبَةً عظيمة في ناحية من الحبس، فأقبل نحوها، فإذا برجل قائمٍ يصلّي قد صُبِّر بالحديد من قرنه إلى قدمه، وكلما ركع وسجد سُمِعَ للحديد صلصلة عظيمة. فقال له: خفّف صلاتك أيُها الرجل. فخفّف. فلمّا سلّم قال: مِمّن الرجل؟ قال: من بني فلان. قال: لستُ أسألُكَ عن هذا. من أيّ بلدةٍ أنت؟ قال: من خراسان. قال: من أيّها؟ قال: من همذان. فأمر به فاحتُمِلَ حتى وُضِعَ بين يَدَيْ المتوكّل. فسلّم بالخلافة، فردّ عليه وقال: ممّن الرجل؟ قال: من همذان. قال له: ما ألقاك في حبسنا؟ قال: «أصلح الله أميرَ المؤمنين، ولي بلدنا فلانٌ وكان ظلوماً غشوماً متعسّفاً عليّ بسبب ضيعة كانت لي رامَ أن أبيعها منه فأبيْتُ عليه، فكتب فيّ بما لا أعلم، وصَبَّرني في هذا الحديد، وبعث بي إلى حبسك هذا لي فيه اثنتا عشرة سنة». فعجب المتوكّل وقال له: اذهب أيّها الرجل فقد حكّمتك في صاحبك، وقد استعملْتُكَ على بلدكَ، وقد أمرتُ لك بمائة، وقد رددتُ عليك ضيعتك. فقال: «أصْلَحَ الله أميرَ المؤمنين، أما صاحبي فقد عفوتُ عنه، وأمّا العملُ فلستُ أصْلُحُ له، وأمّا المالُ فلا حاجة لي به، وأمّا ضيعتي فقد قبلتها». فما بقي أحدٌ في ذلك

---

(١) - في الشهب اللامعة:

أحسنتَ ظنّك بالأيام إذ حَسُنَتْ ... ولم تَخَفْ سوء ما يأتي به القَدَرُ

المجلس إلّا شكر الرجل لما كان منه. انتهى[1].

وهذا من أرْسخ ما يكون في بابِ الفرجِ بعد الشدّة المتطاوله، المندرج ذلك في معنى كراماتِ الأولياء، والبارز في قالبِ احتيالات الأذكياء. وأيّاً ما كان فقد حصل الفرج لهذا المُعْتَقَلِ البريء الساحة في ظاهر الأمر من الجناية التي توجب له مثل ذلك. والله أعلم بالباطن الذي هو دائر بين خفيّ من الذنوب عُوقب بهذا السجن الطويل من جزاءٍ أو مثوبة لم يكن يبلغها عمله الاختياري، أتحفه الله بالمنزلة . . . .[2] عليها من جنته، فـ ﴿إنَّ الله لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وإنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْها وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أجْراً عظيماً﴾[3] جعل الله أجورنا تحت العافية وتولّانا في الدين والدنيا بألطافه الخافية.

وأظهرُ من ذلك في بابِ الكرامات ما ذكره أبو محمد عبد الله بن حمدون[4] [النديم][5] قال: كان أميرُ المؤمنين المعتمد على الله[6] مع سماحةِ أخلاقِه وجُودِهِ شديدَ العَرْبَدَةِ على الندماء[7]، لا يكاد يسلم له مجلسٌ إلّا في الأقلّ، فاشتهى يوماً أن يشرب مصطبحاً على الأُتْرُجّ، فجُمع منه شيء كثير مفرِطُ العدد وعُبِّيء أمامه، واصطبح، فما ترك شيئاً من الخلع . . . .[8] إلّا

---

(١) ـ وردت هذه الحكاية في مروج الذهب ٣ / ٣٠٠ ـ ٣٠١، الشهب اللامعة ٣٦٠ ـ ٣٦٢، بدائع السلك لابن الأزرق ٢ / ٦٧٩.

(٢) ـ بياض في الأصل مقدار كلمة واحدة.

(٣) ـ الآية ٤٠ من سورة النساء.

(٤) ـ هو أبو محمد عبد الله بن أحمد بن ابراهيم الملقب حمدون بن اسماعيل بن داود، يعرف بابن حمدون النديم، ورد ذكره في صفحات مختلفة من نشوار المحاضرة والفرج بعد الشدة.

(٥) ـ بياض في الأصل تقديره: النديم.

(٦) ـ الخليفة العباسي المعتمد على الله أحمد بن جعفر المتوكل، بويع سنة ٢٥٦ هـ ومات سنة ٢٧٩ هـ (مروج الذهب ٤ / ١٩٨ ـ ٢٣٠).

(٧) ـ في الأصل: النداء، وفي الفرج بعد الشدة ٢ / ٢٤٣: ندمائه.

(٨) ـ بياض في الأصل مقدار كلمة، وهي في الفرج بعد الشدة: والصلات والحملان.

حمله مع الجلساء، وخصّني منها بأوفر نصيب. وكان كثيرَ الشرب، وكانت علامته إذا أراد أن ينصرفَ الجلساءُ أن يَنْهَضَ إلى سريرٍ لطيف كان إذا جلس استند إليه وأشال (ص ٢٢٢) برجليه عليه كأنّه يريدُ أن يصعده، فنقوم. فإن كان يُريدُ النومَ نام، وإن لم يرد النوم ردَّ رجليه إذا قمنا وتمّم شربه مع الحرم والخدم. فلما كان في ذلك اليوم جَلَسْنا بحضرته نهارنا أجْمَعَ وقطعةً من الليل، ثم التفتَ إلى السرير، وأشال برِجْلَيْه عليه كما كان يصنع، فقمنا، وانصرف الجلساء إلى حُجْرةٍ مرسومة لهم، وانصرفتُ إلى حُجْرةٍ مرسومة لي من بينهم. فلما انتصف الليل إذا بالخدم يَدُقُّون بابَ حجرتي، فانتبهتُ مرعوباً. فقالوا: أجِبْ أميرَ المؤمنين. فقلت: إنّ لله وإنّا إليه راجعون، مضى يومنا وليلتنا أحسن مضيّ، وقـدّرت أني أفلتُّ من عربـدته، وأنّه عنّ لي[1] أن يعربد علـيّ، فاستدعاني لذلك. ولم أزل أفكّر كيف أعمل وبم أُشاغِلُهُ عن العربدة، إلى أن صرتُ لحضرته. فلما رآني قائماً لم يَسْتَجْلِسْني وقال: يا غلام علـيّ بصاحب الشرطة الساعة. فمتُّ جَزعَاً، وقلت: لم تَجْرِ عادتُه في العربدة باستدعاء صاحب الشرطة، وما هذا إلاّ بليّةٌ قد احتيل بها عليَّ عنده. وأقبلتُ انظرُ إليه وأجتهد أن يفاتِحَني بكلمةٍ فأداريه في الجواب، وهو لايرفَعُ رأسه من الأرض إلى أن جاء صاحبُ الشرطة، فرفع رأسه إليه، وقال: في حَبْسِكَ رَجُلٌ يُعْرَفُ بفـلان بن فلان الحمّـال[2]. قال: نعم. قال: احضـروه الساعة. فمضى ليحضره، فسهل عليّ الأمر قليلاً، ووقفت لا يخاطبني إلى أن أحضروا الرجل. فلما رآه المعتمدُ قال له: من أنت؟ قال: أنا فلان بن فلان الحمّال[3]. قال: وما قِصّتك؟ قال: «أنا رجلٌ مظلومٌ محبوسٌ منذ كذا وكذا، وذلك اني رجلٌ من أهل الجبل لي جمال أعيشُ من ظهورها وكان يتقلّدنا فلانُ الأمير، فاستدعاني من الحضرة[4] فأخذ جمالي غصباً يستعين بها على حمل سواده، فصِحْتُ

---

(١) - في الفرج بعد الشدة: فقد عن له.

(٢) - في الفرج بعد الشدة: الجمّال.

(٣) - في الفرج بعد الشدة: أنا منصور بن فلان الجمّال.

(٤) - في الفرج بعد الشدة: فاستُدْعِي إلى الحضرة.

وتظلَّمتُ إليه، فلم يُنْصِفْني، وقال: إذا صرنا بالحضرة رددتُ جمالك. فخرجت معه لئلا تذهب الجمال أصلاً، فكنت مع جمالي أخدمها في الطريق. فلما قربنا من حلوان[1] استلّ الأكرادُ بارة[2]، فقال: الأكراد إنّما جاءوا عن مواطأة منك. ثم أمر بي فضُربْتُ ضرباً عظيماً، وقُيِّدتُ وطُرِحْتُ على بعض جمالي. فلما وردنا الحضرة أنفذني إلى الحبْس، وتملّك الجمال، ولم يكن لي متكلّمٌ ولا متظلّمٌ ولا مذكِّرٌ. فطالت بي المحنة إلى الآن». فقال لبعض الخدّام: انهض الساعة إلى فلان - يعني ذلك الأمير - واقعد على دماغه ولا تبرح حتى يردّ على هذا جماله أو قيمتها على ما يدّعي الجمّال، فإذا فعل ذلك فاحمِلْهُ إلى الخِزانة واكسُه كسوةً حسنة وادفع إليه كذا وكذا ديناراً واصرفه إلى شأنه. ثم قال لصاحب الشرطة، في حَبْسِكَ رجلٌ يقال له فلان بن فلان الحدّاد. قال: نعم. قال: عليّ به الساعة. فأحضروه، فقال له: من أنت؟ وما قصّتك؟ (ص ٢٢٣) قال: «أنا رجلٌ من أهل الشام كانت لي نعمةٌ فزالت عنّي ففررت[3] من بلدي، واتَّصَلَتْ محنتي إلى أن وافيتُ الحضرة طالباً للتصرّف، فتعذّر ذلك عليّ حتى كِدتُ أتلفُ جوعاً، فسألتُ عن عملٍ أعمله ليلاً......[4] لأتوفّر نهاري على طلب التصرّف وأنفق ممّا أكسبه منه، فأُرْشِدْتُ إلى حدّاد يعمل بالليل، فقصدته، فاستأجرني بدرهم كلّ ليلة، وكان يعمل هو وغلامه يضربان بالمطرقة، فلبثت معه ليالي[5] على هذه الصِفة، فأفسد ذلك الغلامُ ليلةً على الحدّاد نعلاً كان يطرقه، فرماه بالنعل، فوقعت على قلبه فمات في الحال،

---

(١) - بلد في العراق بمقربة من شهرزور وخانقين وهي مدينة سهلية جبلية على سفح الجبل المطلّ على العراق، وسميت بذلك لأن معناها حافظ حدّ السهل لأن حلوان أول العراق (الروض المعطار ١٩٥ - ١٩٦).

(٢) - في الفرج بعد الشدّة: سلّ الأكراد منها جملا محمّلا.

(٣) - في الأصل: ففرت، وفي الفرج بعد الشدة: فهربت.

(٤) - بياض في الأصل مقدار كلمة، والكلام في الفرج بعد الشدة متّصل.

(٥) - في الأصل: ليال.

فهرب الحدّاد، وأحسّ الحارسُ بما رابه[1] من الدكّان، فهجم عليه، فوجد الغلام ميتاً، ووجدني، فلم يشكّ أنّي قتلته، فقبض علـيّ ورفعني إلى صاحب الشرطة». فقال لصاحب الشرطة: خَلِّ عنه. وقال لخادم آخر: خذه فغيّر حاله واكسُهُ وادفع إليه كذا وَكذا ديناراً. وقال لصاحب الشرطة: انصرف. ثم رفع رأسه إليّ وقال: يا ابن حمدون الحمد لله الذي وفّقني لهذا الفِعْل وفرّج عنّي. فقلت: كيفَ تَكَلَّف أميرُ المؤمنين النظرَ بنفسه في هذا في مثل هذا الوقت؟ فقال لي: «ويحك إني رأيت الساعة في منامي رجلاً يقول لي «في حبسك رجلان مظلومان يقال لأحدهما فلان بن فلان الحمّال[2] وللآخر فلان بن فلان الحدّاد فأَطْلِقْهُما الساعةَ وأَنْصِفْهما وأحسِنْ إليهما» فانتبهت مرعوباً ثم عدتُ إلى النوم، فما استثقلتُ حتى رأيتُ الشخصَ بعينه فقال «ويحك أمرتُك أن تُطْلِقَ رَجُلَيْن مظلومين في حبسك قد طال مكثُهما فيه وأن تنصِفَهما وتُحْسِنَ إليهما فلم تفعل فهممت أن اؤذيك» وكأنّه يمدّ يده إليّ فقلت: يا هذا ومن أنت؟ فقال: أنا محمّد رسول الله فكأنّي قبّلت يده وقلت: يا رسولَ الله، ما عرفتك، ولو عرفتك ما جسرت على تأخير أمرك. فقال: قم واعمل في أمرِهما الساعةَ ما أمرتُك به. فَقَمْتُ واستدعيتُك لتشاهد ما جرى». فقلت: هذه عنايةٌ من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يا أمير المؤمنين واهتمامٌ عظيم لا يَصْلُحُ دَيْنُه ومَلْكُه[3]، ومِنّةٌ عظيمةٌ لله تعالى ولرسوله، فليعرف أميرُ المؤمنين قَدْرَ هذه النعمة ويقابلها بالشكر لله تعالى والصدقة. فقال: امضِ فقد أزعجتُك[4]. فمضيتُ إلى حجرتي. فلما كان من الغد دخلتُ عليه عشاءً، وهو جالسٌ للشرب على العادةِ، فأحببتُ أن أُعرّف الجلساء ما جرى البارحة لِيُسَرَّ هو به، وكنتُ أعْرِفُ مِنْ طبعه أنه يُحِبُّ الإطراء والمدح ونَشْرَ ما هذه سبيله، وأنّه إذا عمل عملاً أحبّ ذكره وتبجّح به وإن كان صغيراً، فقلت: أرى أميرَ المؤمنين ليس

---

(١) ـ في الأصل: بم رأبه من الدكان، والصواب من الفرج بعد الشدة.

(٢) ـ في الفرج بعد الشدّة: منصور الجمّال.

(٣) ـ في الفرج بعد الشدة: واهتمام بما يصلح دينه ويثبت ملكه.

(٤) ـ في الأصل: أزعجزتك.

يُخْبِرُ خدمه بما كان من المعجزةِ البارحة وعنايةِ رسولِ الله (ص ٢٢٤) صلّى الله عليه وسلّم وعلى آله بخلافة أمير المؤمنين. فقال: وما ذاك؟ قلت: إحضار أمير المؤمنين البارحةَ إيّاي والحدّادَ والحمّال وصاحبَ الشرطة، ورؤياه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وما أمر به فيهما، وما تقدّم به إليه من إطلاقِهما وإنصافهما والإحسان إليهما. فقال: والله ما أذكر شيئاً من ذلك، وما كنتُ إلاّ سَكْراناً طُولَ ليلتي نائماً وما انتبهت. فقلت: بلى يا سيّدي. فتنكّر وقال: قد صِرْتَ يا ابنَ حمدون تغالِطُني وتخادِعُني بالكذب. فقلت: أعيذ بالله أمير المؤمنين من هذا، والذي قلتُ أمرٌ مشهور في الدار وعند الخَدَمِ والخاصّة. فقال: من كان حاضراً؟ فقلت: فلان الخادم وفلان وفلان وصاحبُ الشرطة. وقصصت القصّةَ من أوّلها إلى آخرها. فاستدعى الخدم فحدّثوه بمثل حديثي. فأظهر عجباً، وحلف بالله تعالى والبراءة من رسوله أنه لايعرف شيئاً من ذلك كلّه، ولايذكر إلاّ أنه كان نائماً، وما انتبه ولا جلس ولا استدعى صاحب الشرطة ولا أمَرَ بأمْر. فما رأيتُ أعْجَبَ من المنام والحال ولا أطرفَ من الاتّفاق في نسيانه ذلك. انتهت[1].

وهذه القصّة للمعتمد دالّة على خير، وشاهِدةٌ بأنّه رأى النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم في نومه حقاً، بدليل قوله: **«من رآني في النَوْمِ فقد رآني حقّاً فإنَّ الشَّيْطانَ لا يتمثّل بي»**[2]. وما وقع من صِدْق الرؤيا ودَفْعِ الظلم لهما أوضح برهان على أنها صحيحة، فإن الشيطان لا يأمر بمثل ذلك الفعل، ولا يُرْشِدُ لرفع ذلك الظلم، والله أعلم.

وحدّث أبو بكر الرازي[3] قال: كنت بأصبهان عند الشيخ ابراهيم أكتبُ عنه الحديث، وكان هناك شيخ آخر يُعْرَفُ بأبي بكر بن عليّ، وكان عليه مدار

---

(١) ـ انظر هذه القصة في الفرج بعد الشدة للتنوخي (٢ / ٢٤٣ ـ ٢٤٩) مع اختلاف في بعض ألفاظها.

(٢) ـ صحيح مسلم ٧ / ٥٤، مسند ابن حنبل ١ / ٣٧٥، ٤٠٠، ٤٤٠.

(٣) ـ هو أبو بكر محمد بن زكريا الرازي الطبيب والفيلسوف الإسلامي الشهير، وقد سلفت الترجمة له .

الفتيا فحسده بعضُ أهل البلد ولغاه عند السلطان، فأمر بسجنه وكان ذلك في شهر رمضان. قال أبو بكر: فرأيتُ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في المنام وجبريل عليه السلام عن يمينه يحرّك شفتيه لا يفتر من التسبيح، فقال لي النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم: «**قل لأبي بكر بن علي يدعو بدعاءِ الكَرْب الذي في صحيح البخاري**[1] **حتى يفرّج الله عنه**». قال: فأصبحتُ إليه وأخْبَرْتُه بالرؤيا. فدعا به، فما بقي إلاّ قليلاً حتى خرج من السجن. انتهت.

ففي هذه الرؤيا مَنْقَبَةٌ لهذا الشيخ وشهادةٌ من النبيّ صلّى الله عليه وسلّم للبخاريّ بالصحة بحضرةِ جبريل عليه السلام، فإنّ الشيطانَ لا يتمثّلُ به. هكذا قال ابنُ بطّال - رحمه الله - وإنّها لظاهرةٌ في بابِ الكرامات على نحو ما سبق في الحكاية قبلها.

وقريب من ذلك ما رُوِيَ أنّ بعضَ آلِ أبي طالب قال: حَبَسَني الرشيدُ فأدخِلتُ إلى موضع ضيّق فيه ستةُ رجال مسجونون (ص ٢٢٥)، وكان ذلك في الليل، فرقدتُ ورأسي على ركبتي، فرأيت النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم، فحرّكني بيده وقال لي: **يا فلان، ما لَكَ مغموماً؟** قلت: يا رسولَ الله، أنا في الحَبْسِ في موضعٍ ضيّق، ولا أدري ما يُراد بي. فقال: **أفلا أعلّمك دُعاءَ الفَرَج؟** قلت: بلى يا رسولَ الله. قال: **قُلْ يا سامعَ كلِّ صوت، ويا سابقَ كُلِّ فَوْت، ويا محييَ العظامِ وهي رميم بعد الموت، مُنّ عليّ بحقٍّ وَصْلِ الرَّحمِ وأغِثْني وفـرِّجْ عنّي ما أنا فيه، لا إلهَ إلاّ أنْتَ، عليك توكّلْتُ وأنْتَ أرحمُ الراحمين**. قال: فاستيقظتُ ودعوتُ بها. فلم ألبث أن فُتِحت الأبوابُ وجاءني رسولُ الرشيد، فمضى بي إليه، فدخلتُ عليه وهو في فراشه بين يَدَيْه شمعةٌ صبحيّة، فقال لي، ما لي ولك؟ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يأمُرُني مُنْذُ الليلة بتخليتك، امضِ لسبيلك. فقلت: يا أميرَ المؤمنين إنّ لي في الحَبْسِ ثياباً فأرجِعُ فآخذها. قال: نعم. فسِرْتُ إلى الحبس، وعلّمت الستة الرجال الذين كانوا معي الدعاء، وخرجتُ، والله ما صلّيتُ الجمعة إلاّ وهم معي في

(١) - صحيح البخاري ٧ / ١٥٤ - ١٥٥.

المسجدِ الجامع. انتهت[1]. وليس هذا ببدعٍ في اختصاصِ دعوات الإجابةِ في أبوابٍ لها منوطة ووجوهٍ لها معلومة.

وقد كان الوزيرُ أبو جعفر أحمد بن خلف بن عبد الملك القُلَيْعي[2]، وإليه تُنْسَبُ الساقية الكبرى الممتازة بطوْقِ الحضرة إلى السرَّة وما وراءها، ممّن امْتُحِنَ بالسجن[3] ونجّاه الله منه على خَطَرٍ كان فيه؛ فَحُكِيَ أنّه لما جاز أميرُ لمتونة[4] البحر مُسْتدعىً إلى نُصرةِ المسلمين ثانِيَ حركاته إلى الأندلس ونازل حصن أليط[5]، وسارع ملوكُ الطوائف بالأندلسِ إلى المسيرِ في جُمْلَتِهِ، كان ممّن وصل إليه، الأميرُ عبدُ الله بن بُلُقين بن بادس[6] صاحب غرناطة، ووصل صُحْبَتَهُ الوزيرُ أبو جعفر بن القُلَيْعِيّ لرغبته في الأجْر مع شُهْرةِ مكانه وعلوِّ منصبه، ولنهوضِ نظرائه من زعماء الأقطار إلى هذا الغرض. وكان مَضْرِبَ خِباءَ القُلَيْعِيّ من محلّة حفيد بادس بحيثُ لا يخفى عليه، ولمنزلته عند الأمير يوسف ابن تاشفين التقدّم، وله عليه الخُفُوف[7]، وله به استبدادُ وانفرادُ كثير وتَرَدُّد،

---

(١) ـ وردت هذه الحكاية في مروج الذهب ٣ / ٣٥٦ ـ ٣٥٧ مفصّلة، وجاء فيها أن صاحب الرؤيا سو موسى بن جعفر.

(٢) ـ من أهل غرناطة وجلة علمائها (ترجم له لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة ١ / ١٤٧، وصفحات متفرقة في مذكرات الأمير عبد الله).

(٣) ـ في الأصل: المحن.

(٤) ـ يعني يوسف بن تاشفين، وكان اجتيازه الثاني ومحاصرته حصن اليط بين لورقة ومرسية سنة ٤٨٣ هـ (الأنيس المطرب ١٥٣ ـ ١٥٤، مذكرات الأمير عبد الله ١٠٩ ـ ١١٣).

(٥) ـ في الأصل: حصن السط، والصواب: حصن اليط: ويعرف بالإسبانية (Aledo).

(٦) ـ هو عبد الله بن بلّقين بن باديس بن حبوس بن ماكسن بن زيري بن مناد الصنهاجي أمير غرناطة، ولي بعد جده باديس سنة ٤٦٥ هـ، وعندما استولى يوسف بن تاشفين على الأندلس سنة ٤٨٣ هـ خلعه، وأخذه إلى مراكش، وفي منفاه ألف كتابه التبيين أو مذكرات الأمير عبد الله. (الاحاطة ٣ / ٣٧٩ ـ ٣٨٢، مذكرات الأمير عبد الله ص ٤١٤ وما بعدها).

(٧) ـ في الإحاطة: الحفوف.

حتى لقي ذلك حفيد بادس،[1] واتهم غيبه[2]. قال الحاكي: وكيفما دارت الحالُ فلم يَخلُ مِنْ نُصْحٍ لله ولأمير المسلمين. فلما صدر حفيدُ بادس إلى غرناطة استحضره ونحّاه، وقام من مجلسه مُغْضباً، وتعلّقت به الخدمة، وحَفَّت الوزعةُ والحاشية، إلاّ أنّ أُمّ عبدِ الله تطارحَتْ على ابنها في استحيائه، فأمر بتخليصه وسجنه في بعض بُيوت القَصْر، فأقبل فيه على العبادةِ والدعاء والتلاوةِ، وكان جهيرَ الصوت حَسنَ التلاوة، فارتجّ القصرُ، وسَكَنَتْ لاستماعه الأصوات، وهدأتْ (ص ٢٢٦) له الحركاتُ، واقشعرّتْ الجلود، وخافت أمُّ عبد الله على ولدها عِقاباً من الله بسببه، فلاطَفَتْهُ حتى حَلَّ عِقالَهُ وأطلقه من سجنه. ولمّا تَخلّص اعتدّها غنيمة. وكان حولاً قلبا[3] شديد الحزم [فقال: الصَّيْدُ بغرابٍ أكيس][4]واتَّخَذَ الليلَ جملاً[5]، فطلع له الصباح بقلعةِ يَحْصُب[6] وهي لنظر ابن عبّاد[7]، وحثّ منها السَّيْرَ إلى قرطبة، فخاطب منها يوسفَ بنَ تاشفين بملء فيه ممّا حرّكه وأطمعه، فكان من حركته للأندلس وخَلْعِ عبد الله ابن بلقين من غرناطة واستيلائه عليها ما عُرف. وبدا لحفيدِ باديس في أمْرِ أبي جعفر أحمد القليعي، ورأى أنه أضاع الحَزْمَ في إطلاقه، فبحث عنه من الغد، ونُفِضَتْ عنه البلدةُ، فلم يوقع له على خبر، إلى أن اتّصل به خبرُ نجاته بمأمنه،

---

(١) ـ في الإحاطة: حتى نفى بذلك حفيد باديس.

(٢) ـ في الإحاطة: وأنهم عنيه.

(٣) ـ هكذا في الأصل وفي إحدى نسخ الإحاطة المخطوطة حسبما يشير محقق الإحاطة في حاشية نصه، وقد أثبت في النص المحقق: وكان جزلاً قويّ القلب.

(٤) ـ بياض في الأصل، أكملناه من الإحاطة.

(٥) ـ هرب ليلاً.

(٦) ـ بالإسبانية (Alcala de Real) شمال غربي غرناطة، وكانت منزل بني سعيد (المغرب ٢ / ١٦٠).

(٧) ـ المعتمد بن عباد أمير إشبيلية الذي خلع سنة ٤٨٤ هـ وتوفي في سجنه بأغمات سنة ٤٨٨ هـ، وكان شاعراً مشهوراً (المعجب ١٣٨ ـ ٢٣٩).

فرجع [باللائمة](1) على أمّه [ولاتَ حينَ مَنْدَم](2). ولم يَزَلْ أبو جعفر في دُوَلِ الملوك من لمتونة معروفَ الحقّ بعيدَ الصيتِ والذِكْر صَدْرَ الحَضْرة والمخصوص بعلوّ الرتبة إلى حين وفاته. انتهت(3).

ولم يضيِّعْ هذا الوزيرُ الحَزْمَ في كونه لم يلوِ على متعذِّر بعد سراحه من اعتقالِه حتى لحق بحيثُ يأمن، ولعلّه كان مظلوماً فقد تولّى الله الانتقامَ من تخيّفه(4) عبد الله بالخلع من المُلْكِ والتغريبِ من الوطن. ولله في أحكامِهِ أسرارٌ لايمكن الاطّلاع عليها ولاينقضي الاعتبارُ فيها.

وإنّ في قصة يوسف أيضاً لنبأً عجبا يقتضي التسلّي ويستدعي التأسّي، وقد قال الله تعالى: ﴿فَلَبِثَ في السِّجْنِ بِضْعَ سِنين﴾(5) ثم جمع الله بعد ذلك شَمْلَهُ وجدّد بأبيه وإخوته أُنْسَه ووجّه بقميصه البشير وألقاه على وجههِ فارتدّ بصيرا، ورأى تأويلَ رؤياه من قبل، قد جعلها ربُّه حقّاً إنّه كان عليماً خبيرا.

[و](6) الشيءُ يذكّرُ بالشيء، وذلك أنّه كان من قَدَرِ الله التمحيصُ الجاري على أبي(7)، رحِمَهُ الله، في عامِ أربعةَ عَشَرَ وثمانمائة بالاعتقالِ المُطاوِلِ الأمدِ، الذي يقولُ في أثنائه بعد مُدَّةٍ منه من أبيات:

أوْدَعُــوني تَحْتَ الثَّرى ونَسُـوني	فَمُــقــامِــي فيه مُقــامٌ طَوِيل
أنــا حيٌّ وَحَــالــتـي حالُ ميْتٍ	لَيْتَ شِعْـري هل للخُروجِ سَبيلُ
راحــةُ الـنَـفْسِ زَوْرةٌ مِنْ خَليلٍ	أو كتــابٌ وأيْنَ أيْنَ الــخَـلِيلُ؟!

(1) ـ بياض في الأصل أكملناه من الإحاطة.

(2) ـ بياض في الأصل أكملناه من الإحاطة.

(3) ـ وردت هذه الحكاية في الإحاطة ١ / ١٤٨ ـ ١٥٠.

(4) ـ هكذا في الأصل ولعلها: تحيفه، وتحيفته أي تنقصته من حِيَفه أي نواحيه (القاموس المحيط).

(5) ـ الآية ٤٢ من سورة يوسف.

(6) ـ بياض في الأصل.

(7) ـ أبو بكر محمد بن محمد بن محمد بن عاصم والد المؤلف.

إنْ أرَتْـــنـي الأيّامُ غَيْرَ جَمـيلٍ وأحـــالَـتْ حالي فَصَبْـرٌ جَمِيلُ
أوْ دَهَتْني الخُـطوبُ فالله حَسْبي مِنْ جَميعِ الـوَرَى ونِعْمَ الـوكيلُ

وكنتُ إذ ذاك في زَمَن الحداثة وعدم استحكام العقل، وكَثُرَ جِنْسُ المُشيرِ بأمور يزعمون (ص ٢٢٧) نُجْحَها، ويُسْنِدُون للتجربةِ حُكْمَها، فكتبتُ له بذلك مستشيراً فيه، فأجابني رحمه الله بما القصد منه: «قد استوفيْتُ ما ذكرتَ لي البارحة، ومرادي في أن لا يُلْتَفَتَ لشيءٍ من تلك الأمور، فهي من قَبيلٍ واحد، ولستُ ـ والمنّةُ لله ـ في شَيْءٍ ممّا يَحْتاجُ له ذلك، وأنا ـ ولُطْفُ الله مُتَعَرَّفٌ في كُلِّ حال ـ في ثقافٍ مقضيٍّ عليّ لأمدٍ محدودٍ وأجلٍ معدود، لو اجتمع أهلُ الأرضِ أنْ يزيدوا فيه ساعةً واحدة أو ينقصوا من مدّته لحظة زائدة لم يقدروا، وأنا مُوقِنٌ بذلك، محتسِبٌ صابر، حتى يَحْكُمَ الله، وهو خير الحاكمين، وأنتم أهلِي وولدي، فينبغي لكم أن تكونوا على ديني، وأن تثقوا بالله وحده حتى يمنّ الله بفرج من عنده إذا شاء، ووالله يا ولدي ما أسِيتُ على شيءٍ من الدنيا ولا باليت بما أنا فيه من البأساء والضرّاء، منّ الله بعفوه، ولطف الله الخفيّ متعرّف، وصنعه الجميل متعوّد، وأنا مستبشِرٌ رؤيا رأيتُها عسى الله أن يجعلها صادقةً فأتلو بأثرها **﴿هذا تَأْوِيلُ رُؤْيايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَها رَبِّي حَقّاً وَقَدْ أَحْسَنَ بي﴾**[1]».

وكان من غريبِ ما ورد عليه لمّا مَنَّ الله بانجلاءِ تلك الغمرةِ وتفريجِ تلك الكربة ما كتب له به الفقيهُ أبو عبد الله العرّاش الفقيهُ بفتجة[2] وكان من المنحازين لابن عمّه الأستاذ أبي يحيى[3] ـ رحمه الله ـ فإنّه كتب له ما نصُّه ـ ومن خطّه نقلت ـ: «الحمدُ لله وسلامٌ على عباده الذين اصطفى. سيّدنا: رَضِيَ الله عنكم وأمتعنا بحياتكم ووفّقنا لما فيه رضا المولى بِمَنِّه وكَرَمِه. كاتبُ الأحرف محمد العرّاش خديم الجامع بفتجة الإقليم ـ من معارف ابن عمِّكم

(١) ـ من الآية ١٠٠ من سورة يوسف.

(٢) ـ كذا في الأصل، ولم أجدها في المصادر التي رجعت إليها.

(٣) ـ أبو يحيى بن عاصم الشهيد الذي استشهد سنة ٨١٣ هـ (انظر ترجمته في سيرة المؤلف).

العالم الشهير الشهيد السيّدِ أبي يحيى رحمه الله وقدَّس روحه ـ يُسَلِّمُ عليكم بأتمّ سلام وأعمّ بركة ورحمة ويهنيكم أتَمَّ هناء، جعل الله ذلكَ كفّارات وحسنات وعُلُوَّ دَرَجات، إنه جوادٌ كريم بمنّه وفضله وكَرَمِهِ وطوله، ونعرّفكم بشيء غريب، وذلك أن سعيد الخرّاز راجل سيّدي أبو[1] الحسين بن هاني ـ رحمه الله ـ قال إنه طلع للحمراء فاطّلع عليكم وسلّم فرددتم عليه، وذكر حالَكَ بحضرةِ رَجُلٍ من الناس فبكى، وقال إني رأيتُ في مكاتبةٍ وَقَعَتْ بين الشيخين العامِلَين السيد أبي الحسن بن الجيّاب[2] والشيخ أبي عبد الله محمد الساحلي[3] ـ رحمهما الله، أنّ بعضَ أصحاب ابن الجيّاب نَزَلَتْ به أزْمة، فأمره أبو عبد الله الساحلي أن يتوجّه في دفعها بألْفٍ من الصلاة التامّة على سيّدنا محمد صلّى الله عليه وسلّم، ففعل ذلك، فارتفَعَتْ، وها أنا أتوجَّهُ إلى هذا الرجل ثلاثة أيام، ففعل ذلك شفقةً عليكم، فبلغنا في (ص ٢٢٨) اليوم الخامس بعد التوجّه بيومين . . . . .[4] فحمدنا الله تعالى على ذلك، وأنتم ـ رضي الله عنكم ـ، فحافظوا على هذا الوظيف[5]، ولُوذوا بهذا الجَناب الرَّفيع، تنالوا كُلَّ مطلوب، ومِثْلُكم ـ رضِيَ الله عنكم ـ لا يَعْرِفُ . . .[6] العارِفون، ومُعادُ السلامِ على السيادةِ الكاملةِ والرَّحْمةُ والبركة». انتهت.

والصلاةُ على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مأمُورٌ بها في القرآنِ والسُنّة، وهي معلومةُ البركة مُتَحَقّقَة النجاح، وطريقةُ الشيخِ أبي عبد الله الساحلي ـ رحمه الله ـ معروفة، وهي الذكر الذي كان يعتمده في ترتيبِ سُلوكه. وقد رأيتُ لبعضِ العُلماءِ ما معناه أنه ينبغي لمن أحبَّ أن يدعوَ الله في حاجةٍ أن يتقدّم

(١) ـ هكذا جاءت هذه العبارة، والظاهر أنها بالعاميّة.

(٢) ـ سلفت الترجمة له.

(٣) ـ أبو عبد الله محمد بن أحمد الساحلي، من متصوفة غرناطة، توفي سنة ٧٣٥ هـ.
(انظر ترجمته في الكتيبة الكامنة ٤٥، الإحاطة ٣ / ٢٣٩، نيل الابتهاج ٢٣٤).

(٤) ـ بياض في الأصل مقدار كلمة.

(٥) ـ في الأصل: الوضيف.

(٦) ـ كلمة غير واضحة.

الصلاة على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في أوّل دُعائه ويختم بها خاتِمةَ دعائه، وتكون الرغبة في مطلبه ما بَيْنَ التصليتين، فإنَّ الصلاة على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مقبولةٌ عند الله، فإذا قُبلَتْ أوّلاً وآخِراً فإن الله أكرمُ من أن يردّ ما بين الدعاءين المقبولين، وربّما رَأيْتُ هذا الكلامَ منسوباً لأبي سليمان الداراني[1] من أولياءِ الله تعالى. وللنجاةِ في الآخرة بشفاعةِ هذا النبيّ الكريمِ صلّى الله عليه وسلّم، يقول القاضي أبو القاسم بن أبي العافية[2] رحمه الله:

نَجَوْتُ بِفَضْلِ اللهِ مما أخافُه ... ولِمْ لا وَخَيْرُ العالَمين شَفيعُ

وما ضِعْتُ في الدنيا بِغَيْرِ شَفاعةٍ ... فَكَيْفَ إذا كان الشَفِيعُ أضيعُ؟!

وربّما لا يُسَلَّم له في كَوْنِهِ في الدنيا بغير شفاعة . . .[3] ما كان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يسألُ من الله الخيرَ لأمته مثل سؤاله ألّا يُهْلِكَنا بالسنين وما أشبه ذلك، وهو أكرم على ربّه ألّا يشفّعه فيما شُفِّع فيه. ولذلك . . . .[4] العلماء ما سبق من الفائدة في تقديمِ الصلاةِ عليه وتأخيرها وتوسُّطِ الدعاء بينهما.

وإذا كان هذا كما برز فمن المتوكّد هنا الاستكثارُ من الصلاةِ على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، والتوسّل به إلى الله، والاستشفاع بجاهه عنده وكرامتِهِ لديه في فكاك الربقة من هذه الأزمة[5]. وإذا كان النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم هو الشفيع في القيامةِ في المقامِ المحمود الذي يسلم له فيه النبيّون والمرسلون، ويلجأ إليه في القيام بها الأوّلون والآخرون، ثم يشفع بعد ذلك في المواطن التي خصّ بها بالشفاعة حتى يكونَ آخر موطن منها إخراج من نفذ

---

(١) ـ هو أبو سليمان عبد الرحمن بن أحمد بن عطية العبسي الداراني، نسبة إلى داريا قرية من قرى دمشق، أحد كبار المتصوفة (حلية الأولياء ٩ / ٢٥٤ ـ ٢٨٠).

(٢) ـ هو أبو القاسم الخضر بن أحمد بن أبي العافية من شعراء غرناطة، وقد أسلفنا التعريف به.

(٣) ـ بياض في الأصل مقدار كلمة.

(٤) ـ بياض في الأصل مقدار كلمة.

(٥) ـ في الأصل: الأرقة.

عليه الوعيد من عصاةِ أمّته فكيف (ص ٢٢٩) لا يكون شفيعاً في من أوبقته خطاياه وأورطه ما كسبت يداه في هذه الدار . . .[1] من أسْرٍ أو اعتقال أو غَلبةِ رجـال، ولم يترك الممتَحَن بهذه الخطوب استعمال الصبر والتذكّر لفوائده والعزيمة على مرارة مذاقته لحلاوة مغبّته.

وقال سعيد بن سلم[2]: حدّثني يعقوب بن داود[3] وزير المهدي بمكة قال: حبسني المهدي في مكان لا أعرف فيه ليلاً ولانهاراً، وكنتُ في بئرٍ واسعةٍ وفيها بئرٌ أخرى أنجو فيها، وأُعْطى كلّ يوم خبزاً وماءً، حتى عفا[4] شعري وصار أطولَ من شَعْرِ البهائم، وكنتُ اؤذَنِ بأوقاتِ الصلواتِ فأصلّي ولا أدري القِبْلَة، فلما مَضَتْ إحدى عشرة[5] سنة أتاني آتٍ في نَوْمي فقال[6]:

حنـا على يوسُفٍ ربٌّ فأخـرَجَـهُ   مِنْ قَعْرِ جُبٍّ وَبَيْتٍ حَوْلَهُ غمم[7]

---

(١) - بياض في الأصل مقدار كلمة.

(٢) - هو سعيد بن سلم بن قتيبة من مسلم الباهلي، ولي والده سلم البصرة مرتين مرة لابن هبـيرة ومـرة لأبي جعفـر المنصور، أما سعيد بن سلم فولي أرمينية والموصل والسند وطبرستان وسجستان والجزيرة وأنجب كثيراً من الأولاد، توفي سنة ٢١٧ هـ (المعارف لابن قتيبة ٤٠٧، تاريخ بغداد ٩ / ٧٤، الوافي بالوفيات ١٥ / ٢٢٥).

(٣) - هو أبو عبد الله يعقوب بن داود السلمي، كان كاتباً لابراهيم بن عبد الله بن الحسن، اعتقل بعد مقتل ابراهيم، وحبس ثم أطلق سراحه، واتصل بعد ذلك بالمهدي فاستوزره، لكنه عاد فحبسه بسبب الوشاة، وبعد أن أطلقه الرشيد أقام في مكة ومات بها سنة ١٨٧ هـ (تاريخ بغداد ١٤ / ٢٦٢، نكت الهميان ٣٠٩، وفيات الأعيان ٧ / ١٩ - ٢٦).

(٤) - عفا شَعرُ البعير كثر وطال فغطى دبره (القاموس المحيط).

(٥) - في الأصل: احدى عشر، وفي الفرج بعد الشدة ٢ / ٢٣٤: فلما كان رأس ثلاث عشرة سنة.

(٦) - البيت في الفرج بعد الشدة، وتاريخ بغداد، ونكت الهميان، ووفيات الأعيان غير منسوب.

(٧) - في الفرج بعد الشدة: وبئر حولها غمم.

فحمِدتُ الله على ذلك، ثم أتاني ذلك الآتي بَعْدَ سَنَةٍ فقال: [1]

عَسَى فَرَجٌ يأتي به الله إنّه لَهُ كلَّ يَوْمٍ في خَلِيقَتِهِ أمْرُ

ثم مكث حولاً وأتاني ذلك الآتي فقال: [2]

عَسَى الكربُ الذي أمْسَيْتَ فيه يَكُونُ وَراءَه فَرَجٌ قريبُ

والله لئن دخلت في أعمالهم بعد هذا ليرمينّك الله بصاعقة. فما كان بأسْرَعَ من أن دُلّي لي حَبْلٌ شدَدْتُ به وسطي وجُذِبتُ فأُخرجْتُ، وما أُبْصِرُ، فأُلبِسْتُ ثياباً وأُدْخِلْتُ إلى مجلس، فقيل لي: سَلِّمْ على أميرِ المؤمنين. فسلّمت. فقيل لي: ومن هو؟ قلت: المهدي. فقيل لي: رحم الله المهدي، سلّم. فسلّمتُ، فقيل لي: على من سَلَّمْتَ؟ قلت: على أبي محمّدٍ الهادي. فقيل: رحمه الله، سَلِّمْ. فَسَلَّمْتُ، فقيل لي: على من سلّمت؟ فقلت: على أبي جعفر هارون الرشيد. فقال: وعليكَ السلام، يَعِزُّ عليّ يا يعقوبُ ما نالك. فجعلتُ المهديَّ في حِلّ وشَكَرْتُه على إطلاقي. فقال: «لا يَمْنُنْ عليك يحيى ابن خالد[3] ولا غيرُه فما لهم في إطلاقِكَ شيء، ولكنّي حَمَلْتُ بُنَيَّةً على عاتقي فذكرتُ حَمْلَكَ لي على عاتقك وتسريحَكَ إيّايَ مِنَ الكُتّاب فأمَرْتُ بإطْلاقِك». فدعوتُ له، فأمر لي بخمسمائة ألفِ درهم، وردّ عليَّ مِنْ ضِياعي ما يُغِلُّ خَمْسَةَ آلاف دينارٍ في العام، وتقدَّمَ بعلاجِ عينيّ، فعُولِجْتُ حتى صِرْتُ أقرأُ الخطَّ الجليل، وكان يدعوني ويخلو معي، فساءَ ذلك يحيى بنَ خالد،

(١) ـ البيت في الفرج بعد الشدة، وتاريخ بغداد، ونكت الهميان، ووفيات الأعيان غير منسوب.

(٢) ـ البيت لهدبة بن خشرم، شاعر فصيح من بادية الحجاز هاجى شاعراً اسمه زيادة بن زيد ثم قتله، فقتل به سنة ٥٠ هـ. انظر البيت في الفرج بعد الشدة منسوباً إلى هدبة ٥ / ٩٨، وأتبع هذا البيت في الفرج بعد الشدة ٢ / ٢٣٤ ببيت آخر هو:

فيأمن خائفٌ ويفكُّ عانٍ ويأتي أهلَهُ النائي الغريبُ

(٣) ـ يحيى بن خالد البرمكي، أبو علي، حبسه الرشيد إلى أن مات سنة ١٩٠ هـ (تاريخ بغداد ١٤ / ١٢٨ ـ ١٣٢، مروج الذهب ٣ / ٣٧٩ وما بعدها، وفيات الأعيان ١ / ٣٣٣، ٦ / ٢١٩، معجم الأدباء ٢٠ / ٥ ـ ٩ وكتب التاريخ الإسلامي).

فاستأْذَنْتُ في الحجّ فأُذِن لي، وأنا مقيم كما ترى. انتهت[1].

وأكيدٌ على من استوزره السلطان أن لا يتجهَّمَ حاشيته الأقربين، ولا يتنكَّرَ لخاصّتِهِ المقرّبين، فكثيراً ما يجدُ هؤلاء السبيل (ص ٢٣٠) إلى دَسِّ الدواهي العظيمة، والتسبُّبِ في النَكَباتِ الشديدة، ولن يُنجيَ من ذلك إلاّ الدَفْعُ بالتي هي أَحْسَن، والعَمَلُ على شاكلةِ المُداراة، فهو أقومُ وأمتن، مع توخّي الحَقِّ في الإيرادِ والإصدار، وتحرّي مرضاةِ المَلِكِ في اعتمادِ خاصّته بالتكليمِ والإيثار. فيُحْكَى أنّ غُلامين أخوَيْن كانا لِمَلكٍ[2] من ملوك الأكاسرة، وكان للملكِ وزيرٌ قد صحبه دهراً لا يَرى منه إلاّ السلامة، وكان للملكِ[3] هذان الوصيفان، وكانا طريفين في خدم الليل، فرأى أحدهما ذات يوم حلية من طقـ . . .[4] أَعْجَبَتْهُ، فقال لأخيه، قد أعجبتني وأحتاجُ لقيمتها مائةَ دينار، وقد رأيتُ أن آتي الوزيرَ فأسأله أن يهبها لي ويسلفني من رزقي. فأتاه في ذلك، فقال له الوزير: اضعتَ خِدْمةَ مولاكَ وجِئْتَ تَطْلُبُ الأباطيل! فانصرف الغلامُ من عنده وأحضر أخاه وقال: والله لأزيلنّه عن موضعه. فقال له أخوه: ويْلَكَ ومن أين تَقْدِرُ؟ قال: إذا أنا حدّثتك بحديثٍ فاسْتَمِعْه واسكت. فلما كان الليلُ جلس عند رِجْلِ الملك حتى إذا توهّم أنه قد قرب النومُ أقبل أحدُهما على الآخر فقال: «يا أخي إني رأيْتُ البارِحَةَ الوزيرَ خرج من عند الملك ودخل إلى عِنْدِ نسائه، فَلَحِقْتُهُ فقلت: إلى أين؟ فقال: نعست وغلطت. ولا أدري من أين أخذ، فعلمت أنه لم يسلك هذه الطريقة إلاّ وقد تعوّد ذلك». فلما أصبح المَلِكُ وجَلَسَ مَجْلِسَه قال للوصيف[5]: اخْرُجْ فانظر من بالباب فخرج فوجد الوزير، وكان يَدْخُلُ قبل الناسِ كلّهم، ووجد صاحب الشرطة، فأخبرَ

(١) ـ انظر هذه القصة بلفظ مختلف في الفرج بعد الشدة ٢ / ٢٣٤ ـ ٢٣٥، ووردت في: تاريخ بغداد ١٤ / ٢٦٣ ـ ٢٦٥، وفيات الأعيان ٧ / ٢٥ ـ ٢٦، نكت الهميان ٣١١ ـ ٣١٢.

(٢) ـ في الأصل: لملوك.

(٣) ـ الكلمة في الأصل غير واضحة، وأميل إلى أنها كما أثبت.

(٤) ـ الكلمة غير واضحة في الأصل.

(٥) ـ في الأصل: الوصيف.

الملك، فأذِن لصاحبِ الشرطة، فلمّا دخل قال له: اخرجْ فخذ الوزيرَ إلى منزلك وخُذْ له كلَّ شيء واحرزه، ولا تَدَعْ له شيئاً إلاّ قَبَضْتَهُ، وصيّرْ نساءَهُ في ناحيةٍ وصيّرْهُ في الحبْس. ففعلَ صاحبُ الشرطةِ ذلك. فمكث الوزيرُ في الحبسِ زماناً طويلاً، ثمّ ادّكر صاحبُ الشرطةِ أمره، وأنّه قد انتهى إلى ما ليس وراءه غاية، وأمر بتطليقِهِ وإخراجه من الحبس. فَخَرَجَ وجَلَسَ في ظِلِّ قَصْر الملك يبيع الرمّان، فمرّ به الوصيفُ يوماً فقال له: يا فلان [أيّها][1] كان خيراً لك دَفْعُ المائةِ دينار إلـيّ أو مَصِيرُك إلى ما صرتَ إليه؟ قال: إنّك لصاحبي؟ قال: نعم. قال: الله حسيبُك. قال: فما تقول الآن في أن تُعْطِيَني المائةَ الدينار حتى أُعِيدَكَ للحال الأولى؟ قال: كيف لك بذلك؟ قال: جَرِّبْ. قال: الموعِدُ في الدنانير هاهنا غداً. وذَهَبَ إلى صديقٍ له فقال: أما تشتري منزِلَتي بمائة دينار؟ قال: نعم وبكلّ ما أَمْلِك[2]. قال: لا، إلاّ بمائةِ دينار. فأخذها[3] منه ودَفَعَها إلى الغلام، وأخذَ عليه العَهْدَ والميثاقَ ألاّ يرى هو وأخوه منه مكروهاً. ثم انصرف إلى أخيه فَقَصَّ عليه (ص ٢٣١) القِصّة. فقال له أخوه: ويحك قد أفْسَدْتَ فكيف لك أن تُصْلح؟ قال: دعْني والأمرَ. فلما كان الليلُ في مثل ذلك الوقت وتلكَ الحال أَقْبَلَ الوصيفُ على أخيهِ وقال: وَدِدْتُ أنّي وإيّاكَ رَجُلٌ من السوقة. فقال: ويحك! وكيف تتمنّى ذلك ونحنُ في العزِّ والكرامة؟! قال: إنّ السُوقَةَ إذا غَضِبَ عليها أحدٌ وَجَدَتْ من يُنصِفُها منه أو يَشْفَعُ لها إليه، والملك إن رمي[4]منه بحال سُخط لم يكن فيه إلاّ العَطَب. قال: وما ذاك؟ قال: مَرَرْتُ بالوزير، وقد عَرَفْتَ نُصْحَهُ وأمانته وحُسْنَ قِيامِهِ بأمْرِ المُلْك، وإذا هو يبيعُ رُمّاناً، فسألْتُهُ عن سَبَبِه، فلم أجد عنده معرفة. . . .[5] نفسي عن الملوك وخدمتهم. قال: فاستوى المَلِكُ جالِساً وقال: يا ابْنَ الخبيثةِ أَلَيْسَ أنْتَ

---

(١) ـ بياض في الأصل تقديره: أيها.

(٢) ـ في الأصل: انلك.

(٣) ـ في الأصل: يأخذها، ولا يستقيم المعنى إلا بها أثبتناه.

(٤) ـ هكذا في الأصل.

(٥) ـ بياض في الأصل مقدار كلمة.

سَبَبُه؟ قال: وكيف ذلك أيُّها الملِك؟ قال الملك: أليس تَحَدَّثْتَ أنّه يدخُلُ إلى دارِ النساء؟ قال: أيُّها الملِكُ إنّما كان ذلك مناماً رأيتُه. قال: يا ابنَ الخبيثةِ إنَّما تُحدِّث بمنام؟ قال: نعم. فبقِي الملِكُ نادِماً على ما كان منه إلى الوزير، فلمّا أصْبَحَ دعاه وَرَدَّ عليْهِ أسبابَهُ ومَرْتَبَته. انتهت[1].

وقد يَرِدُ[2] من التمحيصِ ما لم يُوجِبْهُ سببٌ ظاهر، فيصحب فيه من الله اللطفُ الخفيُّ والصنعُ الجميل الخفيّ[3]، كما يُحكى عن بعضِ الرواةِ أنه قال: كان في أيّامِ سليمان بن عبدِ الملك رجلٌ يُقال له خُزَيْمَةَ بنَ بِشْر من بني أَسَد بالرقّة، وكان له مروءة ونعمة وإجمال بالإخوان، فلم يَزَلْ على تلك الحالِ حتى احتاج إلى إخوانه الذين كان يفضل عليهم فواسَوْه أيّاماً ثم مَلُّوه، فلمّا رأى تغيُّرَهُمْ عليه أتى زوجتَه ـ وكانت ابنةَ عمِّه ـ فقال لها: يا ابنةَ عمّي، قد رأيتُ من إخواني تغيُّراً غَمَّني، فعزمتُ على لزومِ بيتي حتى يأتِيَ عليَّ أجلي. فأغْلَقَ بابَهُ وأقامَ يَقُوتُهُمْ ممّا عنده حتى يَقْدِر، وكان عِكْرِمةُ الفيّاض الربعيّ والياً على الجزيرة، فبينما هو ذاتَ يومٍ في بعضِ أحاديثِهِ إذ جرى ذِكْرُ خزيمة، وكان عنده عدّةٌ من وُجوهِ البلد، فقال: ما حالُهُ؟ فقالوا: صارَ مِنْ سُوءِ الحالِ إلى شَيْءٍ لا يُوصَف فغلق بابَه ولزِمَ منزله. فقال: وما وُجد له مواسٍ ولا مكافىء؟ قالوا: لا. فأمسك على ما في نفسه. فلمّا كان في الليلِ عمد إلى أربعةِ آلاف دينار فجَمَعَها في كيس، ثم أمر بإسراجِ دابّتِه سرّاً من أهْلِهِ وَولدِه، فركبها ومعه غلامٌ من غلمانه قد حمّله الكيس، ثم خرج حتى وقف ببابِ خزيمة، وأخذ الكيسَ من الغلام، وأمره فتنحى عنه، وقرع البابَ، فخرج إليه خزيمة بعد هَدْأةٍ من الليل، فقال له: من أنت؟ فناوله الكيسَ، وقال له: أصْلح بهذا حالَك. فرأى كيساً ثقيلاً، فوضعه بين يدَيْه. ثم تناول عنانَ دابّته. فقال له: من أنت جُعِلْتُ فداءك؟ فقال له: ما جئتُ في هذه

---

(١) ـ وردت هذه الحكاية بألفاظ مختلفة في الشهب اللامعة ١٩٥ ـ ١٩٧.

(٢) ـ في الأصل: رد.

(٣) ـ هكذا في الأصل ولعلها تصحيف لـ: الحفيّ.

الساعةِ وأنا أُريدُ أن تعرِفَني. قال: ما أقبله أوْ تعرّفني من أنت. قال: أنا جابرُ (ص ٢٣٢) عثرات الكِرام. قال: زِدْني. قال: لا. ثم مضى، فدخل خزيمةُ إلى امرأتِهِ فقال لها: أبْشِري فقد أتانا الله برزق، وإن كان فلوساً فهي كثيرة، فاسْرجي. قالت: لا سبيل إلى السِراج. فبات يلمّها وهو يجد خشونة الدنانير ولا يصدّق للكثرة. ورجع عكرمةُ إلى منزِله [فوجد][1] امرأتَه بنتَ عمّه وكان لها منه منزلةٌ وموضِع، وقد انتبهت، فسألت عنه، فخبّرتْ بركوبه منفرداً، فشقّتْ جَيْبَها ولَطَمَتْ وَجْهَها. فلما نظر إليها غمّه ما رأى منها وقال لها: ما لَكِ يا بنتَ عمّي؟ قالت: يا عكرمة غَدرْتَ بابنةِ عمّك. قال: ما فعلتُ. قالت: أميرُ الجزيرةِ ويخرجُ بعد هَدْأةٍ من الليل منفرداً من غلمانه! ما خرجتَ إلاّ لزوجة أو سرّية. قال: ما خرجتُ لواحدةٍ منهما. قالت: [فخبّرني فيم][2] خرجتَ له واحْلِفْ لي عليه بطلاقي. قال: أنا أحْلِفُ لكِ بما ذكرتُ أنّي ما خرجت إلى ما طلّقت. قالت: لابدّ أن تُعْلِمَني الذي خرجتَ له. قال: يا هذه ما خرجتُ في هذا الوقتِ وأنا أُريدُ أن أُعلِمَ أحداً ما خرجتُ إليه. قالت: لا بدّ. قال: فاكتميه؟ قال: أفعل. فأخبرها بالقصّةِ على وجهها، وما كان من قوله وردِّه عليه. ثم قال: أتحبّين أن أحْلِفَ عليه؟ قالت: لا، فإنّ قلبي قد سكن إلى ما ذكرت.

فأصبح خزيمةُ فصالَحَ الغُرماء، وأصلح من حاله، وتجهّز يريد سليمانَ ابن عبد الملك بفلسطين. فلما وقف ببابه دخل الحاجبُ فأخبره بمكانه، وكان مشهور [المروءة][3] وكان سليمانُ به خبيراً، فأذِنَ له. فلما سلّم عليه قال سليمان: يا خزيمة ما أبطأ بكَ عنّا؟ قال: سوءُ الحال. قال: ما مَنَعَكَ من النهوضِ إلينا؟ قال: ضعفي عنها. قال: فبِمَ نهضت؟ قال: يا أمير المؤمنين،

---

(١) - بياض في الأصل أتممناه من المستجاد.

(٢) - بياض في الأصل أتممناه من المستجاد.

(٣) - بياض في الأصل أتممناه من المستجاد.

كنت بعد هدأةٍ[1] من الليل إلاّ ورجلٌ قد وقف بي، فكان[2] منه كذا وكذا. وأخبره الخبرَ من أوّله إلى آخره. فقال له سليمان: هل تعرفُه؟ قال: ما عرفتُه يا أميرَ المؤمنين، وذلك أنه كان متنكراً. قال: فتلهَّفَ سليمانُ على عَدَمِ معرفته وقال: لو عرفناه لأعنّاه على مروءته ولحقه منّا ما هو أهلُه. قال: عليّ [بقناة][3] فأُتي بها فعقد له على الجزيرة على عهدِ* عكرمة. فَبَلَغَ ذلكَ عِكْرِمَةَ فقال: باركَ الله له. فلما دنا خرج عِكْرِمَةُ للقائه، فلمّا[4] سلّم عليه صار إلى مركبه، ومضى خزيمةُ حتى دخل دارَ الإمارة، ثم أمر أن يؤخذ به كفيل وأمر بمحاسبته، فوجد عليه فضولاً كثيرة، فبعث إليه في أدائها، فقال: ما لي إلى شيءٍ منها سبيل [قال: لا بدّ منها][5] قال: ما هي عندي، واصنع ما أنت صانع. فأمر أن يُكَبَّل بالحديد. فأقام كذلك شَهْراً أو أكثر، فأضرّ به ذلك، وبلغ امرأةَ عكرمةَ الخبرُ أنّ الوالي هو خزيمةُ بنُ بِشْر، فضاق لذلك صَدْرُها، وقدّمت مولاةً لها عقل، وقالت لها: إيتِ بابَ هذا الأمير فقولي له: عندي نصيحة. فإذا قال لك. ما هي؟ قولي: ما أُحِبُّ أن يسمعها غيرُك مفرداً. وسليه أن يخلّيك، فإذا فعل فقولي (ص ٢٣٣) له: ما هذا جزاء جابرِ عَثَراتِ الكِرام منك كافأتَهُ بالحبْس والضِيق والحديد» ففعلت الجاريةُ ما أمَرَتْها سيّدتُها. فلما دخلت عليه أصابت عنده عِدّةً من وجوهِ البلد وخاصّتِه، قال لها: قولي ما أحببتِ. قالت: ما أحبُّ أنْ يَسْمَعَ ذلك غيرُك. فأمرهم بالقيام، ثم قال لها: هاتِ ما عندك. فقالت: ما هكذا جزاءُ جابرِ عثراتِ الكرامِ منك، كافأْتَهُ بالحبس والضيق والحديد! فقال: [واسوأتاه][6] وإنّه لهو! قالت: نعم. ثم ولّت. فأمر بدابّته فأُسْرِجت،

---

(١) ـ في الأصل: هواة.

(٢) ـ في الأصل: مكان.

(٣) ـ بياض في الأصل أتممناه من المستجاد.

* ـ في المستجاد: عمل.

(٤) ـ في الأصل: فلم.

(٥) ـ سقطت من الأصل وأثبتناها من المستجاد.

(٦) ـ بياض في الأصل أكملناه من المستجاد.

ويعث إلى وجوه أهْلِ البلد فجمعهم، ثم خرج بهم إلى الحَبْس، فلمّا رآه السجّان قام إليه مذعوراً، فقال له: افتح. ففعل، فدخل هو ومن معه، فألفى عِكْرَمَةَ في ساحة الحبس قد أصابه الضرّ(١)، فلمّا نظر إليه عكرمةُ وإلى الناس أحْشَمَهُ ذلك ونكس رأسَهُ، فأكبّ خزيمةُ على رأسه يقبّلُه، فرفع رأسَهُ إليه وقال: ما أعْقَبَ هذا منك؟ قال: كريمُ أفعالِكَ وسوءُ مكافأتي. قال: يغفر الله لنا ولك. قال: فأُتيَ بالحداد فَفَكَّ القيودَ من رِجْلَيْه وأمر أن تُطْرَحَ في رِجْلَيْه هو. قال عكرمة: تريد ماذا؟ قال: أريد أن ينالني من الضرّ والحبس كمثل ما نالك. قال: واللهِ لا كان ذلك. فخرجا جميعاً، وقد وَقَفَتْ لهما دابّتان بباب الحبس، فركبا جميعاً وخرجا حتى وافيا ببابِ خُزَيْمة، فشكر له عِكْرِمة، وأراد الانصراف، فقال: ما أنت بمفارقي. فسار معه حتى [وصلا](٢) إلى قَصْرِهِ. قال: تريد ماذا؟ قال: أريد أن أغيّر ما ظهر بك، فحيائي من بنتِ عمّك أشدُّ من حيائي منك. فأمر بالحمّام فهُيّء، وأُصْلِحَ لهما، ودخلا جميعاً إلى الحمّام، فقام إليه بنفسه، فتولّى أمره هو، فقال عكرمة: أسألك ألّا تفعل. قال: فحلف ألّا يتولّى ذلك غيري. ثم خرجا جميعاً إلى المنزل فأكلا، ثم دعا خزيمةُ بأحسَنِ ثيابِه وأفْرَهِ دوابّهِ وأفْصَحِ خَدَمِهِ، فزوّده ذلك معه، حتى وقف على باب عكرمة، واستأذنه في السلام على بنت عمّه والاعتذار إليها، فأذن له في ذلك، فاعتذر إليها فَقَبِلَتْ عذره، وجَزَتْهُ خيراً على فعله. ثم سأله أن يَسيرَ معه إلى سليمان بن عبد الملك، فسارا جميعاً حتى قدما على سليمان بالرملة، فلما دخل إليه الحاجبُ أعْلَمَهُ بقدومه مع خزيمة بن بشر، فراعه ذلك، وقال: والي الجزيرة قدم بغير إذن! ما هذا إلّا لحادثٍ عظيم. فلما دخل إليه قال له قبل أن يسلّم: ما وراءك؟ قال: كلُّ خير يا أميرَ المؤمنين. قال: فما الذي أقدمك؟ قال: ظفرتُ بجابرِ عَثَراتِ الكرام، وأحببتُ أن أسُرَّك به، لِمَا رأيتُ من تَلَهُّفك عليه. قال: ومن هو؟ قال: عِكرمة الفيّاض. قال: ما كان خيرُه معك إلّا وبالاً عليه. ثم أذن له، فسلّم عليه ورحّب به وأدنى مجلِسَهُ،

---

(١)- في الأصل: النصر.

(٢)- سقطت من الأصل.

ثم قال: يا عكرمة، ارفع حوائجك كلّها. قال: اعفني يا أميرَ المؤمنين في هذا (ص ٢٣٤) المجلس. قال: لا بدّ.، ثم دعا بدواةٍ وقرطاس وقال: اعتزلْ ناحيةً، فأثبت جميع حوائجك. ففعل، ثم أتاه برقعة فوقّع عليها: «تُقضى حوائجه». ثم أمر له بعشرةِ آلاف دينار*، ثم دعا [بقناةٍ][1] فعقد له على الجزيرة وأذربيجان وأرمينية، وقال له: أمر خزيمة لك، فإن شئت فاعزله، وإن شئت فقرّه. فقال: بل أزيده عملاً إلى عمله يا أمير المؤمنين. ثم انصرف. انتهت[2].

وهذه الحكايةُ من أظرفِ ما يُسْمَعُ في اجتناء عواقبِ الخير، واصطناع المعروف، كما قال الحطيئة[3]:

مَنْ يَفْعَـلِ الخَيْرَ لا يُعْدَمْ جَوازِيَهُ ... لا يَذْهَبُ العُـرْفُ بَيْنَ اللهِ والنّاسِ

وصدق الحطيئة فيما قال؛ فإنّ الله لايضيّع أجر من أحسن عملاً.

وكان أبو العتاهية الشاعر ممّن ابتُلي بالسجن، فصدرت عنهُ مقطوعاتُ شعرٍ يستعطِفُ فيها الرشيد، فلم ينظر في أمره، وتمادى على اعتقاله. حكى محمد بنُ عبدِ القويّ بن أبي العتاهية عن أبيه قال: لبِسَ أبو العتاهية قميصَ صوف ودرّاعة صُوف، وآلى ألاّ يقولَ شِعْراً في الغزل، فأمر الرشيدُ بحبسه والتضييقِ عليه فقال:[4]

يا ابنَ عمِّ النبيِّ سَمْعـاً وطـاعَـة ... قَدْ خَلَعْنـا الكِسَـاءَ والـدُّرَّاعَـة

وَرَجَـعْـنـا إلى الصنـاعـةِ لمّـا ... كان سُخْطُ الإمـامِ تَرْكَ الصِناعَة

---

* ـ في المستجاد: بعشرة آلاف دينار وسفطين من ثياب.

(١) ـ بياض في الأصل أكملناه من المستجاد.

(٢) ـ وردت هذه الحكاية في: المستجاد من فعلات الأجواد ٢٦ ـ ٣٢، والتذكرة الحمدونية ٢ / ٣٥٠ (باختصار)، وعين الأدب والسياسة ١٩٩ ـ ٢٠٠، (بلفظ مختلف) ومقالات الأدباء لابن هذيل / المقامة ٣٧ (مخطوط).

(٣) ـ ديوان الحطيئة ١٠٩.

(٤) ـ ديوان أبي العتاهية ٢٧٤.

وكتب [إلى][1] الرشيد أيضاً من السجن بقوله[2]:

لا أراكَ اللهُ سُوءاً أبـداً ... ما رأتْ عينـاكَ مِثْـلي أحَـدا[3]
يا رشيدَ الأمـرِ أرْشِـدْني إلى ... وَجْهِ نُصْحي[4] لا عَدِمتَ الرَّشَدا
أجِـرِ الحـالِفَ[5] وارْحَمْ صَوْتَـه ... رافِـعـاً نَحْـوَكَ يدعـوك يَدا
وابـلائـي مِن دواعـي أمـلٍ ... كُلَّمـا قُلْتُ تدانـى بَعُـدا
كم أُمَـنِّـي بغـدٍ بَعْـدَ غَدٍ ... يَنْـفَـدُ الـعُـمْـرُ ولا ألْـقـى غدا

فلم يَزَلْ الرشيدُ متوانياً في إخراجِهِ إلى أن قال[6]:

أمَـا واللهِ إنَّ الـظُّلْمَ لَوْمٌ ... ومـا زال الـظَّلُومُ هو الـمَـلُوم[7]
إلـى ديَّانِ يوم الـدينِ نَمْـضي ... وعـنـدَ اللهِ تَجْـتَمِـعُ الخُصـومُ
لأمـرٍ ما تصـرَّفَـتِ الـليالـي ... وأمـرٍ ما تَقَـلَّبَـتِ[8] الـنُّجُـومُ
تمـوتُ غداً وأنـتَ قريرُ عَيْنٍ ... على[9] الغَفَلاتِ في لُجَجٍ تَعُومُ
تنـامُ ولـمْ تَنَـمْ عَنـكَ الـمنـايا ... تَنَـبَّـهْ للمـنـيَّةِ يا نَؤومُ
سَلِ الأيّامَ عن أُمَـمٍ تَقَـضَّـتْ ... سَتُخْبِـركَ[10] المعـالمُ والـرُّسـومُ
(ص ٢٣٥)
تَرومُ الـخُـلْدَ في دارِ الـمـنـايا ... وكَـمْ قد رِيمَ قَبْـلَكَ ما تَرُوم[11]

---

(١) ـ سقطت من الأصل.
(٢) ـ ديوان أبي العتاهية ١٥٧.
(٣) ـ في الديوان: ما رأت مثلك عينٌ أحداً
(٤) ـ في الديوان: وجه نجحي.
(٥) ـ في الديوان: أعين الخائف.
(٦) ـ ديوان أبي العتاهية ٣٩٨ ـ ٣٩٩ (والأبيات جزء من قصيدة أطول وردت في الديوان).
(٧) ـ في الديوان: ولكن المسيء هو الظلوم.
(٨) ـ في الديوان: توليت.
(٩) ـ في الديوان: من.
(١٠) ـ في الديوان: فتخبرك.
(١١) ـ في الديوان: وكم قد رام غيرُك ما تروم.

ألا يا أيُّهـا الـمـلِكُ الـمُـرَجَّى	عليك[1] نواهِضُ الـدُّنْـيا تَحُـوم
أقِـلْني زَلَّـةً لم أجْـر فيهـا[2]	إلـى لَوْمٍ ومـا مِثْـلي مَلُومُ
وخَـلِّصْــني تُخَـلَّصْ يَوْمَ بَعْـثٍ	إذا للنـاسِ بُرِّزَتِ الـجَحِـيمُ[3]

فرقّ له وأمر بإطلاقه. انتهت[4].

[و] للشعرِ في هذا البابِ المقصودِ به سلّ سخائم الملوك أمرٌ عظيم ومنتفَعٌ جليل، كما يُحْكى عن محمد بن سلّام[5] قال: عَزَلَ الوليدُ بن عبد الملك عبيدةَ بنَ عبد الرحمن[6] عن الأردنّ وضربه وحلقه وأقامه للناس، وقال للموكّلين به: من أتاه متوجّعاً وأثنى عليه فاتوني به. فأتاه عديُّ بنُ الرقاع[7]، وكان عبيدةُ إليه مُحْسِناً، فوقف عليه وأنشأ يقول[8]:

فمـا عزلـوكَ مسبـوقـاً ولكِنْ إلـى الـخَيْراتِ سبّـاقـاً جوادا

---

(١) ـ في الديوان: علية.

(٢) ـ في الديوان: منها.

(٣) ـ في الديوان: النجوم.

(٤) ـ انظر هذه الحكاية في: الأغاني ٤ / ٥١، ٦٥، ٦٩.

(٥) ـ أبو عبد الله محمد بن سلّام بن عبيد الله بن سالم البصري مولى قدامة بن مظعون الجمحي، وهو صاحب كتاب طبقات فحول الشعراء، قدم بغداد وأقام بها إلى حين وفاته سنة ٢٣٢ هـ (تاريخ بغداد ٥ / ٣٢٧).

(٦) ـ عبيدة بن عبد الرحمن بن أبي الأغر السلمي، ولي الأردن في عهد الوليد، وولي افريقيا والأندلس في عهد هشام سنة ١٠٩ هـ، واستعفي سنة ١١٣ هـ (الكامل لابن الأثير ٥ / ١٤٦، ١٧٤).

(٧) ـ هو عديّ بن زيد بن مالك بن عديّ بن الرقاع العاملي، كنيته أبو داود، كان ينزل الشام، جعله ابن سلام الجمحي في الطبقة السابعة من الشعراء الإسلاميين (الأغاني ٩ / ٣٠٧ـ ٣١٧، المؤتلف والمختلف ١١٦، معجم الشعراء ٢٥٣، الشعر والشعراء ٣٩١، طبقات فحول الشعراء ٢ / ٦٨١).

(٨) ـ وردت هذه الأبيات في كتاب الأغاني ٩ / ٣١٣، الفرج بعد الشدة ٣ / ١٣٣.

وكنتَ أخي وما وَلَدتْكَ أُمّي وَصُولاً باذلاً لا مُسْتَزادا[1]
فقد هِيضت بنكبتِك[2] الندامى[3] كذاك الله يفعلُ ما أرادا

فوثب الموكّلون به، فأدخلوه إلى الوليد، وأخبروه بما جرى، فتغيّظ عليه الوليدُ وقال له: أتَمْدَحُ رجلاً قد فعلتُ به ما فعلت؟! فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنّه كان إليّ مُحْسِناً، ولي مؤثراً، وبي بَرّاً، ففي أيّ وقتٍ كنتُ أكافئه بعد هذا اليوم؟ فقال: صَدَقْتَ وكرمت فقد عفوتُ عنك وعنه لك فَخُذْهُ وانصرِف. فانصرفَ به إلى منزله[4]. فشِعْرُ عديّ كان السببَ في الفَرَجِ لهذا الرجل، وإنْ لم يكُنْ هو قائلَه، كما سبق في قضيّةِ أبي العتاهية.

وقد وقع لأبي العتاهيةِ مثلُ ما وقع لعديّ بنِ الرقاع من انتفاعٍ من فكّ بشعره. حكى يحيى بن الربيع[5] قال: دخل أبو عبيدِ الله على المهديّ، وكان قد وجد عليه، وأبو العتاهية حاضرٌ في المجلس، فجعل المهديّ يشتُمُ أبا عبيد الله ويتغيّظ عليه، ثم أمر به فَجُرَّ برجله وحُبِس. ثم أطرق المهديّ طويلاً، فلما سكن أنشده أبو العتاهية:[6]

أرى الدُّنيا لمن هي في يَدَيْهِ عَذاباً كلّما كَثُرَتْ لَدَيْهِ
تُهينُ المكرمين لها بصُغرٍ وتُكْرِمُ كلَّ من هانَتْ عَلَيْهِ
إذا اسْتَغْنَيْتَ عن شيءٍ فَدَعْهُ وخُذْ ما أنْتَ محتاجٌ إلَيْهِ

(ص ٢٣٦) فتبسم المهدي، وقال لأبي العتاهية: أحْسَنْتَ ثم قال: يا أميرَ

---

(١) ـ في الأصل: مستزداً، وفي الأغاني مسترادا.

(٢) ـ في الأصل: نكبتك.

(٣) ـ في الأغاني: القدامى.

(٤) ـ وردت هذه الحكاية في كتاب الأغاني ٩ / ٣١٢ ـ ٣١٣، الفرج بعد الشدة ٣ / ١٣٣ ـ ١٣٤.

(٥) ـ يحيى بن ربيع بن ثابت بن موسى البرجمي الكوفي، كان ببغداد وروى عنه كثيرون (تاريخ بغداد ١٤ / ٢٢١ ـ ٢٢٢).

(٦) ـ ديوان أبي العتاهية ٤٦٤ ـ ٤٦٥، الأغاني ٤ / ٥٦.

المؤمنين واللهِ ما رأيتُ أحداً أشدَّ إكراماً للدنيا ولا أصْونَ لها ولا أطنّ بها ولا أشحَّ عليها من هذا الذي جُرَّ برجليه، ولقد دَخَلْتُ إلى أميرِ المؤمنين ودخل وهو أعزُّ الناس وما برحت حتى رأيته أذلّ أهلِ المجلس، ولو رضي من الدنيا بما يكفيه لاستوت أحوالُه ولم تتفاوت. فتبسّم المهدي، ودعا أبا عبيد الله، ورضي عنه. وكان أبو عبيد الله يشكر ذلك لأبي العتاهية.[1]

وقد كان الرئيسُ أبو الوليد [بن][2] زيدون ممّن ابتُلِيَ بالاعتقال، واقتضى له من وطنه قرطبة إيثارُ الانتقال، ومن محلٍّ[3] اعتقاله كتب إلى ابنِ جَهْوَر بقوله:[4]

ألم يأْنِ أن تبكي الحمـامُ[5] على مِثْلي[6]
ويَطْلُبَ ثاري البـرقُ مُنْصَلِتَ النَّصْلِ؟
وهــلاّ أقــامــتْ أنْـجُـمُ الليلِ مأتمـاً
لتندُبَ في الآفاقِ ما ضاع من ثُبْلي[7]
فلو[8] أنـصــفَتْني وهي إشكــال همّتي
لألْقَتْ بأيدي الــذلِّ لمّـــا رَأتْ ذلّي[9]

---

(١) - وردت هذه الحكاية في ديوان أبي العتاهية ٤٦٤ - ٤٦٥ والأغاني ٤ / ٥٦.

(٢) - سقطت من الأصل.

(٣) - في الأصل: بخل.

(٤) - انظر هذه القصيدة في ديوان ابن زيدون ص ١٢ - ١٧، والذخيرة لابن بسام القسم الأول من المجلد الأول ص ٣٥١ - ٣٥٣.

(٥) - في الديوان والذخيرة: يبكي الغمام.

(٦) - في الأصل: مثل.

(٧) - في الديوان: ثتلي، وفي الذخيرة: نبلي، وفي الأصل: ثُبْلٌ، والثبل البقية في أسفل الإناء وغيره (القاموس المحيط: ثبل).

(٨) - في الديوان: ولو.

(٩) - في الأصل: ذلّ.

ولافترقَتْ سبعُ الثريّا وغاظها
بمجمعها[1] ما فرّق الدهرُ مِنْ شَمْلي[2]
لعمر الليالي إن يكُنْ طال زعمها[3]
لقد قرطست بالنَبل في مقتل النُبل
تحلّت بآدابي وإنّ مآربي
لسانحةٌ في عرض أُمنيةٍ غطل[4]
أخصّ لفهمي بالعلى[5] وكأنّما
يبيتُ لدى الفهمِ الزمانُ على ذَحْلِ[6]
وأجفى على نظمي لكلّ قلادةٍ
مفصّلةِ السّمطَيْن بالمنطقِ الفَصْلِ
ولو أنّني اسطيعُ أن أرضيَ العِدا
شريت[7] ببعضِ العِلْمِ حظّاً من الجهل
أمقتولة الأجفان[8] ما لَكِ والهاً
ألم تُركِ الأيّامُ نجماً هوى قبلي؟

---

(1) ـ في الديوان: بمطلعها.

(2) ـ في الأصل: شمل.

(3) ـ في الديوان والذخيرة: نزعها.

(4) ـ في الديوان والذخيرة: عطل.

(5) ـ في الديوان والذخيرة: بالقلى.

(6) ـ في الأصل: دخل.

(7) ـ في الأصل: شربت.

(8) ـ في الأصل: الأحيان.

أقـلّي بكـاءً لسـتِ أوّلَ حُرّةٍ*

طويت الأسى[1] كشحاً على مَضَضِ الثُكل[2]

وفـي أمّ موسـى عِبـرةٌ إذْ رَمَـتْ به

إلى اليمّ في التابوتِ فاعتبري واسلي[3]

ولله فينـا علمُ غَيْبٍ وحَسْـبُنـا

به عنـد جَوْر الـدَّهْـرِ مِنْ حَكَمٍ عدْلِ

وقد ظهر مصداقُ قوله في هذا البيت بكونه جعل الله حَسْبَه على حسب الوارد في الآية الكريمة، فيسَّرَ الله له الخلاصَ من هذا الاعتقال. ولذلك كتب إلى الأديبِ أبي بكر بن مسلم، وهو مختفٍ بقرطبة بعد فراره من السجن، رُقْعةً يقول فيها[4]:

«أبدأُ أوّلاً بشرحِ الضَّرورة الحافزةِ إلى ما صَنَعْتُ إذْ بلغني أنّكَ صَدْرُ [اللائمين][5] لي عليها[6]، ومن أمثالهم: «وَيْلٌ للشَجِيّ من الخَلِيّ»[7] و«هانَ على الأمْلَسِ ما لاقى الدَّبِر»[8] وأعاتِبُكَ على انْفِصالِكَ عنّي وبراءتك [أمد][9] المحنة[10] عسى أن تتلافى عوْدا ما أضَعْتَ بَدْءاً[11] وإن كنت في ذلك

* - في الأصل: مرّة، والصواب من الذخيرة.

(١) - في الديوان والذخيرة: طوت بالأسى.

(٢) - في الأصل: الشكل، والصواب من الديوان والذخيرة.

(٣) - في الأصل: واسئل، والصواب من الديوان والذخيرة.

(٤) - انظر هذه الرسالة في الذخيرة / القسم الأول من المجلد الأول ص ٣٥٥ - ٣٥٧ وديوان ابن زيدون ص ٢٤٩ - ٢٦٠.

(٥) - بياض في الأصل استكملته من الذخيرة.

(٦) - في الذخيرة: عليه.

(٧) - فصل المقال ٣٩٥، مجمع الأمثال ٢ / ٣٦٧.

(٨) - مجمع الأمثال ٢ / ٣٩٣.

(٩) - بياض في الأصل استكملته من الذخيرة.

(١٠) - في الذخيرة: أمد المحنة مني.

(١١) - في الأصل: عسى أن تلافي عوداً ما أصغت بدءاً.

أقــلّي بكــاءً لســتِ أوّلَ حُرَّةٍ*
طويت الأسى[1] كشحاً على مَضَضِ الثُكل[2]
وفــي أمّ موســى عِبــرةٌ إذْ رَمَــتْ به
إلى اليمّ في التابوتِ فاعتبري واسلي[3]
ولله فينــا علمُ غَيْبٍ وحَــسْـبُــنــا
به عنـد جَوْر الـدَّهْـرِ مِنْ حَكَمٍ عدْلِ

وقد ظهر مصداقُ قولِه في هذا البيت بكونه جعل الله حَسْبَه على حسب الوارد في الآية الكريمة، فيسَّرَ الله له الخلاصَ من هذا الاعتقال. ولذلك كتب إلى الأديبِ أبي بكر بن مسلم، وهو مختفٍ بقرطبة بعد فراره من السجن، رُقْعةً يقول فيها[4]:

«أبدأُ أوّلاً بشرحِ الضَّرورة الحافزةِ إلى ما صَنَعْتُ إذْ بلغني أنّكَ صَدْرُ [اللائمين][5] لي عليها[6]، ومن أمثالهم: «وَيْلٌ للشَجيِّ من الخَلِيّ»[7] و «هانَ على الأمْلَسِ ما لاقى الدَّبِر»[8] وأُعاتِبُكَ على انْفِصالِكَ عنّي وبراءتك [أمد][9] المحنة[10]، عسى أن تتلافى عوْدا ما أضَعْتَ بَدْءاً[11]، وإن كنت في ذلك

* - في الأصل: مرّة، والصواب من الذخيرة.

(1) - في الديوان والذخيرة: طوت بالأسى.

(2) - في الأصل: الشكل، والصواب من الديوان والذخيرة.

(3) - في الأصل: واسئل، والصواب من الديوان والذخيرة.

(4) - انظر هذه الرسالة في الذخيرة / القسم الأول من المجلد الأول ص ٣٥٥ - ٣٥٧ وديوان ابن زيدون ص ٢٤٩ - ٢٦٠.

(5) - بياض في الأصل استكملته من الذخيرة.

(6) - في الذخيرة: عليه.

(7) - فصل المقال ٣٩٥، مجمع الأمثال ٢ / ٣٦٧.

(8) - مجمع الأمثال ٢ / ٣٩٣.

(9) - بياض في الأصل استكملته من الذخيرة.

(10) - في الذخيرة: أمد المحنة مني.

(11) - في الأصل: عسى أن تلافي عوداً ما أضعت بدءاً.

[كدابغةٍ][1] وقد حلم الأديم[2]، ومنفعة الغوث قبل العطب، وفي علمك أنّي سُجنتُ (ص ٢٣٧) مغالبةً بالهوى، وهو أخو العمى، وقد نهى عنه تعالى فقال: ﴿وَلا تَتَّبِعْ الهوى فيُضلّك عَنْ سَبيلِ الله﴾[3] وشَهِدَ عليَّ فلانٌ الباترُ لدينه[4] طمعاً ليأكل بيديه جَشَعاً، وقال[5] ـ وكان القول ما قالت حَذامِ[6] ـ وَلَيْتَهُ مع قبول من يجهلُ شهادته عليّ[7] [يُعْذِرُ][8] فيه إليّ، ولم يُقْرَنِ الحشفُ بسوء الكِيلة[9]. وكنتُ أوّلَ حبسي بموضِعٍ جرت العادة فيه بوضع[10] مستوري الناسِ وذوي الهيئات منهم، وفي الشرّ خيار، وبَعْضُهُ أهْوَنُ من بعض، ثم نُقِلْتُ بعدُ إلى حيثُ الجناةُ المفسدون واللصوصُ المقيّدون، ومُنِعَ منّي عُوّادي، فشكَوْتُ إلى الحاكِم الحابسِ لي، فصمّ[11]، ولو ذات سِوارٍ لطمتني[12]:

وإنّــكَ لم يَفْخَـرْ عليكَ كفاخـرٍ ... ضعيفٍ ولم يَغْلِبْـكَ مِثْلُ مُغَلَّبِ[13]

فلم أستـطِعْ صَبْـراً، وعلمتُ أنّ العاجزَ من لا يستبدّ[14]، والمرءُ يَعْجَزُ لا

(١) ـ بياض في الأصل أتممناه من الذخيرة.

(٢) ـ فصل المقال ٤٧٢، مجمع الأمثال ٢ / ١٥٠.

(٣) ـ الآية ٢٦ من سورة (ص).

(٤) ـ في الذخيرة: الناشر أذنيه.

(٥) ـ في الذخيرة: قال.

(٦) ـ مثل يضرب في التصديق (مجمع الأمثال ٢ / ١٠٦).

(٧) ـ في الذخيرة: وليت مع قبول من لا تجهل شهادته عليّ.

(٨) ـ بياض في الأصل استكملته من الذخيرة.

(٩) ـ أصل المثل: أحشفا وسوء كيلة (فصل المقال ٣٧٤، ومجمع الأمثال ١ / ٢٠٧).

(١٠) ـ في الذخيرة: وضع.

(١١) ـ في الذخيرة: فصمّ عنّي.

(١٢) ـ من أمثلة العرب انظر: فصل المقال ٣٨١، مجمع الأمثال ٢ / ١٧٤.

(١٣) ـ هذا البيت لامرىء القيس.

(١٤) ـ من قول عمر بن أبي ربيعة:

واستـبـدت مرة واحـدة ... إنـمـا الـعـاجـز من لا يستـبـد

(ديوانه ص ١٨٥).

محالة [1]، ولم أستجزْ أن أكونَ ثالثَ الأذلّين العَيْر والوتدِ، وذكرتُ أن الفِرارَ من الظُّلْمِ، والهَرَبَ مما [2] لا يُطاقُ من ستر [3] المرسلين، وقد قال تعالى على لسان موسى: ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ [4] فنظرت في مفارقة الوطن، إذْ قديماً ضاعَ الفاضِلُ في وَطَنِه، وكسد العِلْق الغبيط في معدنه، كما قال[5]:

أضِيعُ في مَعْشَرِي وكَمْ بَلَدٍ ... يَعُودُ عودُ الكِباءِ مِنْ حَطَبِهْ

واسْتَخَرْتُ الله في إنفاذ العزم، وأنا الآن بحيثُ أمنتُ بعضَ الأمْن، إلاّ أنَّ السَّعْيَ لم يرتفع، ومادة البغْي لم تَنْقَطِعْ».

وختم الرسالة بنظمٍ أوَّلُه[6]:

شَحَطْنا[7] ومـا بالـدارِ[8] نأيٌ ولا شَحْطُ
وشَطَّ بمـن نَهْـوى المـزارُ ومـا شَطُّوا
ومـا شَوْقُ معقـول الجـوانـحِ [9] بالصـدى
إلـى نُطْفَـةٍ زرقـاء أضْحَـرَهـا رَقْط[10]

---

(1) ـ في الذخيرة: المحالة، وانظر المثل في فصل المقال ٢٩٩ ومجمع الأمثال ٢ / ٣٠٩.

(2) ـ في الذخيرة: ممّن.

(3) ـ في الذخيرة: من سنن.

(4) ـ آية ٢١ من سورة الشعراء.

(5) ـ الغيث المسجم ٢ / ١١٨.

(6) ـ انظر هذه الأبيات من القصيدة في ديوان ابن زيدون ص ٦١، والذخيرة / القسم الأول من المجلد الأول ص ٣٥٦ ـ ٣٥٧.

(7) ـ في الأصل: سخطنا، والصواب من الديوان والذخيرة.

(8) ـ في الديوان والذخيرة: للدار.

(9) ـ في الديوان والذخيرة: وما شوق مقتول الجوانح.

(10) ـ في الديوان والذخيرة: أضمرها وقط.

بأبْــرَحَ من شوقــي إلــيكُــمْ ودون ما
أُريدُ الــمُــنى منــه[1] القَتــادَةُ والخــرْطُ

وفي الــرُّبْــرَبِ الإنسيِّ أحــوى كناسُه
نواحــي ضَميري[2] لا الكثيبُ ولا السقْطُ

عليكــم[3] أبــا بكــر بكــرتُ بهــمَّــةٍ
لهــا الــخَــطَرُ العــالي وإن نَالَهــا حَطُّ

أبي بعــد أن[4] هيل التــرابُ على أبي
ورَهْــطِيَ فذا حين لم يَبْــقَ لي رَهْطُ

ولــولاك لم [تُــقْــدَح][5] زنــادُ قريحتي
فينــتــهِــبُ الــظلمــاءَ من نارِهــا سِقْطُ

هرِمــتُ ومــا للشَّــيْبِ وَخطٌ بمَــفْــرِقي
ولــكــن[6] لشيبِ الهمّ في كَبِــدي وَخْطُ

وطــاوَلَ سوءُ الــحــالِ نَفْسي فأذكــرت
من الــروضــةِ [الغنّاء][7] طاولها المَحْطُ[8]

ولــمّــا انــتــحــوني بالتي[9] لستُ أهْلَهــا
ولن[10] يُمْنَ أمثــالي بأمثــالِهــا قَطُّ

---

(١) ـ في الديوان: أدير المنى عنه.

(٢) ـ في الأصل: ضمرى.

(٣) ـ في الديوان والذخيرة: عليك.

(٤) ـ في الديوان والذخيرة: بعدما.

(٥) ـ بياض في الأصل استكملته من الذخيرة، وفي الديوان: تَثْقُبْ.

(٦) ـ في الديوان: وكائن.

(٧) ـ بياض في الأصل استكملته من الديوان والذخيرة.

(٨) ـ المحط: قلّة الغيث (القاموس المحيط)، وفي الديوان والذخيرة: القحط.

(٩) ـ في الديوان: وقد وسموني بالتي . . .

(١٠) ـ في الديوان والذخيرة: ولم.

فَرَرْتُ فإنْ قالوا الفِرارُ إرابةً
فَقَدْ فرَّ موسى حينَ هَمَّ به القِبْطُ

وقال ابن رشيق[1]: «الصابر على المحنة بين أجرٍ مدّخر، وفَرَجٍ يُنْتَظَر، (ص ٢٣٨) وجَلَدٍ يُشكر، وذنوبٍ تُغْفَر، واستظهار في الحزم، وتنغيص على الشامت. ونكبة الحُرِّ كالنار للتبر، إنْ حطّت وزنه فقد رفعت ثمنه، وإن نهكته إذابةً فقد أكسبته صلابة، فنقصه ازدياد ولينه اشتداد».

وفي قصد التسلية قال أبو الفضل بنُ العميد[2]: «كلُّ شِدّةٍ إلى رخاء، وكلّ غمرة إلى انجلاء»[3].

ومن التمحيص اللاحق بالأسْرِ لفِرْقَةٍ من الناس، ثم تدارك الله بالفرج، ما وقع لرُكّاب الجَفْنِ المعلومِ للغانيّ المتردّد بين العدوة والأندلس ـ أمّنهما الله ـ وما نفذ به القدر من استيلاء العدوّ البحريّ عليه، واستحواذه على من كان فيه من المسلمين، وهم زهاء ستين رجلاً، وتحصُّلهم في قبضة الكفار وربْقَةِ الأسْر، وقصدهم بهم إلى مَرْسى قرطاجنة من بلاد صاحب قشتالة المُفاتِنَةِ للقُبْطان برئاسة مرشية الهنشُه، فجرّده صاحب لورقة النازعُ لهذا العهد لموالاةِ المسلمين ومُحادَّةِ الكافرين، وكان هذا القبطان بحكم الوِفاقِ قد استدعى شيخ بيرة[4] العبّاسَ بنَ علي بن حميد مستمِدّاً له، فوصل إليه إلى لورقة، ولحين

---

(١) ـ سلفت الترجمة له.

(٢) ـ هو أبو الفضل محمد بن الحسين بن محمد الكاتب، المعروف بابن العميد وزير ركن الدولة البويهي، وكان صاحب أدب وترسل، وكان يقال: بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد، توفي ببغداد سنة ٣٦٠ هـ. (يتيمة الدهر ٣ / ١٨٣، وفيات الأعيان ٥ / ١٠٣ وصفحات متفرقة في زهر الآداب للحصري وأخلاق الوزيرين للتوحيدي).

(٣) ـ يتيمة الدهر ٣ / ١٩٣.

(٤) ـ بالإسبانية (Vera) إحدى مراكز مدينة المرية إلى الشمال الشرقي منها مطلة على البحر (ترصيع الآثار ص ٣، ص ١٠، الادريسي ١٩٤، ١٩٦، الإحاطة ١٠٩/١، ٥٠٩، ٥٣٦، مشاهدات لسان الدين ٤٠).

سماع صاحب قرطاجنة بخبرِ ورودِ شيخ بيرة على صاحبِ لورقة تخيّل من ذلك، وظنّ أن سيكونُ من العبّاسِ لجهته حركة، فاستدعى ربَّ المركب «الغانيّ» للمسلمين أن ينزل بلمّة من النصارى ممدّاً له ليحفظ به القَصَبةَ بخلالِ ما يَتعرّفُ هو مِنْ خَبَرِ قدومِ العبّاسِ بن حميد ما يقِفُ فيه على جَليّةِ قَصْدِه، فساعده على ذلك ونزل من جفنه في جماعة ممّن لنظره من عَبَدَةِ الصليب، وترك الأسرى من المسلمين في الجفن بين مُصَفَّدٍ في وِثاقه، وهم كلّ من تُوُهّم فيه نجدة أو كفاية من رائسٍ أو رامٍ من الأندلسيين، وبين متروكٍ دون وِثاق ممّن اعتُقِدَ عدم غَنائِه من البرابرِ والمصامدِة وغيرهم. فتناجى المسلمون فيما بينهم في إعمالِ الحيلة في الخلاص، فأشار عليهم الرائس المشدودُ الوثاقِ بارتقابِ هبوبِ الريح الشرقيّة، وأنّه إذا رأى استقامتها، فالعلامةُ بينه وبينَهم أن يَضَعَ يده على لحيته إذ كان مُقَيّداً لا يستطيع لنفسه حيلة. وطفق من لم يُقَيَّد من المسلمين يرتقب تلك الأمارة التي جعلوا بينهم، إلى أن هبّتِ الريحُ المساعدةُ لهم، فوضع لهم يده على لحيته، كما خرج منهم، فتبادروا إلى النصارى فِعْل رَجُلٍ واحد، (ص ٢٣٩) فقتلوا مَنْ حانَ أجلهُ وهم الأكثر، وأسَرُوا من أبطأ به الحَيْن، وقطعوا مراسيَ الجفن، ورفعوا القلع[1]، وخرجوا قاصدين نحو المريّة، فيسّر الله عليهم الوصولَ إليها سالمين ولله الحمد، وحصلت أيديهم من أسلابِ النصارى وأسلحتِهِمْ وأمتعتهم على ما أغناهم مع ثَمَنِ الجَفْنِ، ففازوا بها غنيمةً باردةً ساعدهم الفِقْه المذهبيُّ على أنْ لا خُمْسَ فيها إذا كانوا أسارى، وهربوا بما قدِروا عليها، ففاتت خاصّية الغنيمة من تَعَمُّد الخروجَ لإصابتها والإيجافَ عليها بالخيل والركاب، ودخلتْ تحت القسم الذي يختصُّ به آخذه من مال الكفّار، وهيّأ الله خلاصَهُم من أيدي العداة بعد حصولهم في ذلّ إسارهم. والله لطيف بعباده، وهو الذي يُسَنّي لهم من جميلِ صنعه ما لم يكن في حسابهم.

(١) ـ القِلع: الشراع (القاموس المحيط: قلع).

وحُكِيَ فيمن فكَّ الله عنه رِبْقَةَ أسره أن امرأةً جاءت إلى بقيّ بن مَخْلَد[1] فقالت: «إنّ ابني أسره الروم، ولا أقدر على مالٍ أكثر من دوره، ولا أقدر على بَيْعها، فلو أشرتَ إلى من يَفْديه بشيء، فإنه ليس لي ليلٌ ولا نهارٌ ولانومٌ ولا قَرار» فقال: «نعم انصرفي حتى أنظر في أمره إن شاء الله سبحانه. قال: وأطرق الشيخُ وحرّك شفتَيْه. قال: فلبثنا مدّة، فجاءت المرأةُ ومعها ابنُها، وجَعَلَتْ تدعو له، وقالت: قد رجع سالماً، وله حديثٌ يحدّثك به. فقال الشاب: «كنتُ أسيراً عند بعضِ ملوكِ الروم مع جماعةٍ من الأسارى، وكان له إنسانٌ يستخدِمُنا ويؤدّبنا وعلينا قُيود، فجئنا ليلةً من العمل فانفتحْ القيْدُ من رجلي، ووقع على الأرض» ووصف ذلك اليوم، فوافق الوقتَ الذي دعا فيه الشيخ. قال: فصاح عليّ الذي كان يستخْدِمُني، وقال: كَسَرْتَ القيد؟ قلت: لا، إلاّ أنه سَقَط من رِجْلي. فتحيّروا في أمري، ودعوْا رهبانهم، فقالوا: ألك والدة؟ قلت: نعم. قالوا: وافق دعاؤها الإجابة، أطلقك الله، فلا نمسكك. فزوّدوني وأصحبوني إلى ناحيةِ المسلمين» انتهت[2]. فسبحان اللطيفِ بعبده، الكفيلِ بتيسيرِ أمره بعد عَقْدِهِ. وهذا من الكرامات المأثورةِ عن بقيّ بن مخلد، رضي الله عنه.

وحكى بعضُ أصحابِ الفقيهِ أبي اسحق ابراهيم بن محمّد بن باز المعروف بابن القزاز[3] من أهل قرطبة، قال: كنّا نسمع عنده في غرفةٍ له، إذْ صعدت امرأةٌ عجوز تسألـه أن يعينهـا في فداء ولدٍ مأسورٍ ببلد العدوّ، فأمر لها

(١) ـ أبو عبد الرحمن بقي بن مخلد القرطبي من حفاظ المحدّثين، رحل إلى المشرق وروى عن ابن حنبل وغيره، ألف كتباً كثيرة منها تفسير القرآن، عرض عليه القضاء فأباه، توفي سنة ٢٧٦ هـ (جذوة المقتبس ١٧٧ ـ ١٧٩، تاريخ علماء الأندلس ١ / ٩١ ـ ٩٣، بغية الملتمس ٢٤٥، المرقبة العليا ١٨ ـ ١٩، نفح الطيب ٢ / ٥١٨).

(٢) ـ وردت هذه الحكاية في جذوة المقتبس ١٧٨ ـ ١٧٩، بغية الملتمس ٢٤٧، نفح الطيب ٢ / ٥١٩ ـ ٥٢٠.

(٣) ـ فقيه وزاهد أندلسي وكان مقدماً في الفتيا، توفي بطليطلة سنة ٢٧٤ هـ (تاريخ علماء الأندلس ١ / ١٠ ـ ١١، قضاة قرطبة للخشني ٦، تاريخ قضاة الأندلس ١٢، الديباج المذهب ٨٤).

الشيخُ بكسرةِ خبز، وقال لها: انصرفي فسينطلق ابنُك إن شاء الله تعالى - بَعْدَ أنْ سألها عن اسمه - ثم قصد بعد تمام المجلس إلى رجلٍ صالحٍ فأعلمه الخبر، وأفطر عنده، وباتا مجتهدين في الدعاء له، يدعو (ص ٢٤٠) أحدُهما ويؤمّن الآخر في ظُلْمَةِ الليل. فلما كان بعد شهر، ونحن قعودٌ عنده في الغرفة، إذ صعدت تلك العجوز، ومعها فتى، فأخبرته أنّه ابنها، وأنه قد انطلق. فسأله الشيخ عن أمره، فأخبره أنه كان يرعى للعلج غنماً، فإذا كان الليلُ ضمّه لِمَطْمَرٍ وهو مكبول. قال: «فبينما أنا قائمٌ ليلةَ كذا - الليلة التي دعا فيها الشيخ له - انفتح كَبْلي، فخِفْتُ من العلجِ أن يظنّ أنّي حللتُهُ فيعاقبني، فلما أصبح عرّفتُهُ، فأوثقَ الكَبْلَ وزادَ آخر، فلما كان الليلة الثانية، ونِمْتُ، وانتبهت وقد انفتح الكَبْلان، فضربتُ حائطَ المطمر، فأتى فأعلمته، فأوثقهما وزاد ثالثاً، ومضى إلى قومٍ كانوا يسامِرُونه، فأعلمهم فعجبوا، فنِمْتُ فانحلّت الكبولُ كلُّها، فأعلمْتُهُ، فعجِبَ وَمَنْ كان معه، وقصد إلى رجلٍ كبير لهم، فأعلمه، فقال: أطلِقْه لأني أخشى أن يدورَ عليه دائر، هذا من الله. فأطلقني والحمد لله». انتهت. وهذه نظيرةُ الحكايةِ قبلها، نفعنا الله بأوليائه وعرّفنا بأهل اصطفائه.

وقد كان القاضي أبو اسحق ابراهيم بن الحاجّ[1] - رحمه الله - من شيوخِ شيوخِنا ممن ابتُلِيَ بالأسْر؛ وذلك أنه توجّه رسولاً عن سلطانِ الأندلسِ إلى صاحب تلمسان السلطان أبي حمّو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى ابن يغمراسن بن زيّان[2]، وظفر بالجَفْن الذي ركبه العدوُّ بأحواز جزائر حبيبة[3] من أحواز وَهْران، فأُسِرَ هو ومن كان بأسطول سفره من المسلمين، وبلغ الخبر،

(١) - أبو اسحق ابراهيم بن عبد الله بن ابراهيم بن الحاج النميري، وقد أسلفنا التعريف به.

(٢) - بويع أبو حمو بتلمسان سنة ٧٦٠ هـ وكان كثير الشغب على ملوك المغرب الأقصى. ترجمته في درة الحجال ٣ / ٨ - ٩ وصفحات متفرقة في أزهار الرياض وتاريخ ابن خلدون والاستقصاء للسلاوي.

(٣) - في الأصل: حيليه، والصواب من الإحاطة ١ / ٣٦٢، وحبيبة جزيرة تقع إلى الغرب من مدينة وهران.

فعظم المجمع[1]. قال الحاكي: وبينما السلطانُ يروم تعميرَ أسطولٍ يأخذ الثأر [ويستقري][2] الآثار فيقيل العثار إذ اتّصل خبر الفَرَجِ بمبادرةِ[3] السلطان المذكور فِداء من أَسِر وبَذْلَهُ المال الذي ينيف على سبعة آلاف من العَيْن في ذلك. فتخلّص من هذه المحنة لأيّامٍ قلائل، وعاد فتولّى السلطانُ إرضاءه عمّا فَقَد، وضاعف له الاعتناء وجدّد، وكان حديثُهُ من أحاديث الفرج بعد الشدّة محسوباً، وإلى سعادةِ السلطانِ منسوباً. انتهت[4]. ونجاة هذا الرجل، وإن كانت بالفِداء، فقد قرّب الله عليه به الفَرَجَ، ويسّر له سبيلَ الخلاص.

ويقصد التسلّي عمّا لَحِقَهُ من الأسر قال الأميرُ أبو فراس الحمداني، وقد أَسَرَتْهُ الروم:[5]

إنْ زُرْتُ خَرْشَنَةً[6] أسيرا ... فَلَقَدْ حَلَلْتُ بها أميرا[7]
ولقد رَأيْتُ النارَ تَحْتَرِقُ[8] المَنـ ... ـازِلَ والقُصُورا
وَلَقَدْ رأيتُ السَبْيَ يُجْلَـ ... ـبُ [نَحْوَنا حُوّاً][9] وحُورا
مَنْ كان مِثْلي لم يَبِتْ ... إلّا أسيراً أوْ أَمِيرا[10]

---

(١) ـ هكذا في الأصل، وفي الإحاطة (١ / ٣٦٣): فعظم الفجع.

(٢) ـ بياض في الأصل أتممناه من الإحاطة.

(٣) ـ في الإحاطة: بمهادنة.

(٤) ـ جاءت هذه القصة في الإحاطة ١ / ٣٦٢ ـ ٣٦٣.

(٥) ـ ديوان أبي فراس ٩٣، الروض المعطار ٢١٨.

(٦) ـ قلعة على الفرات أسر فيها أبو فراس، وفي معجم البلدان لياقوت: بلد قرب ملطية (معجم البلدان، الروض المعطار ٢١٨).

(٧) ـ في ديوان أبي فراس: فلكم أحطت بها مغيراً، وفي الروض المعطار: فلقد أجلت بها مغيراً.

(٨) ـ في الديوان والروض المعطار: تنتهب.

(٩) ـ في الأصل: ولقد رأيت السبي يجلب حداً، والحُوّ جمع حَوّاء: التي في شفتها سمرة.

(١٠) ـ في الديوان عشرة أبيات، وفي الروض المعطار خمسة أبيات.

وفي نحوٍ من الغَرَض قال[1]: (ص ٢٤١)

وَقالَ أُصَيْحابي الفِرارُ أوِ الرَّدى؟ فقلتُ هما أمْرانِ أحْلاهُما مُرُّ
ولكنَّني أمضي لما لا يَعيبُني وَحَسْبُكَ مِنْ أمْرين خَيْرُهُما الأسْرُ
ولا خَيْرَ في دَفْعِ الرداء وعزله[2] كما ردَّها يوماً بسوأتِهِ عمْرو[3]

ومن أعظمِ التمحيصاتِ في هذا الباب تفريقُ الذريّة من آبائهم بالقَسْر، إما بالعداء وإمّا بالأسْر، ولذلك مَنَعَ النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم من تفريقِ الأمةِ من وَلَدِها، وورد فيه من الوعيد الشديدِ ما ورد. ومن أقرب ما أتى الله بالفَرَجِ لامرأةٍ اعتُديَ عليها، فأُخِذَ منها ابنُها قهراً وتغلّباً، ما وَقَفْتُ عليه في تاريخ بَغْداد[4] قال: مرَّ المعتصمُ بامرأةٍ تبكي وتقول: ابني ابني. وإذا بعضُ الجُنْدِ قد أخذَ ابنَها، فدعاه المعتصم، وأمر أن يُرَدَّ ابنها عليها، فأبى، فاستدعاه، فدنا منه، فقبض عليه بيده، فسُمِعَ صوتُ عظامه، ثم أطلقه من يده، فسقط، وأمر بإخراج الصبيّ إلى أمّه. انتهت.

وإذا كان الابتلاءُ بمثلِ غلبات الرجال وصدماتِ الأهوال، فقد كان النبي صلّى الله عليه وسلّم ـ فيما صحّ عنه ـ يقول: «وأعوذُ بِكَ من غلبات الرجالِ»[5]. ومن الحكايةِ المناسبةِ لهذا الموضع ما ذُكِرَ عن أكّارٍ كان بنهر ساسان[6] يقال له سارح[7] قال: خرجتُ في نهرِ ساسان[8] إلى موضع في البريّة

---

(١) ـ انظر ديوان أبي فراس ص ٦٥.

(٢) ـ في الديوان: ولا خير في دفع الردى بمذلة...

(٣) ـ في الأصل: عمر.

(٤) ـ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٣/٣٤٦.

(٥) ـ مسند ابن حنبل ٢ / ١٧٣، ٣ / ١٢٢، ١٥٩، ٢٢٠، ٢٢٦، ٢٤٠.

(٦) ـ في الفرج بعد الشدة (٤ / ٢٤٨): نهر سابس.

(٧) ـ في الفرج بعد الشدة: سارخ.

(٨) ـ في الفرج بعد الشدة: خرجت من نهر سابس.

يقال له (كوح واديه)[1] من أعمالِ شرقي الفرات[2]، فبلغني أن في الطريق رجلاً يَقْطَعُ وَحْدَهُ، فحذرت. فلما خرجتُ من القريةِ رأيتُ رجلاً تدلّ فراسته على شدّته ونجدته، وفي يده عصا، فجسّرني على الطريق، فترافَقْنا، وانتهيْنا إلى موضعٍ في البريّة فيه بناء قديم، فخرج علينا اللصُّ منه متحزّماً متسلّحاً، فطرح رفيقي كارةً كانت له على ظَهْرِهِ، وأخذ عصاه، وبادَرَ إلى اللصّ، فلما داخَلَ[3] اللصّ ليضربَه بالعصا استقبلها اللصُّ بالسَّيْف فقطعها، وضربه اللصُّ بسيفه، فأقعده، وقطع رِجْلَه، ثم وشّحه بالسيف حتى قتله، وحمل عليّ ليقتلني فقلت له: ما بالُك؟ ما حَارَبْتُك، ولا أمتنعُ من إعطاء ثيابي، فلأيّ شيء تقتلني؟ فقال: استَكْتِفْ. فاستكتفتُ، فكتّفني بتكّة[4]، ثم حمل الثيابَ وانصرف، فبقيت متحيّراً مُشْرِفاً على التلف لأجل العطش والشمسِ والوُحوش، فما زلت أتمطّى في التكّة إلى أن قَطَعْتُها، وقمتُ أمشي إلى أن أجنّني الليل، فرأيتُ على بُعْدٍ ضوءاً خفيّاً، فقدّرته في قرية، فمشيتُ إلى نصف الليل، فوجدْتُه يخرج من قبّةٍ في الصحراء، فقربتُ منها، فإذا اللصُّ فيها جالساً يشرب ومعه امرأة، فلما بصرني صاح وقام إلى السيف وخرج إليّ، فما زال وأنا أناشِدُهُ الله تعالى وأحلِفُ له أنّي ما علمتُ أنه هو ولا قصدته وإنما رأيتُ النار فقصدتها، فلم يَعْبَأ بقولي، وحَلَفَتْ المرأةُ ألاّ يقتلني بحضرتها، فجذبني إلى نهرٍ جافٍّ قريب من قبّته، وطرحني فيه تحته، وجرّد سيفه ليذبحني، فسمعتُ صوتَ الأسد قريباً منه (ص ٢٤٢) فأرعدت يده (وسكن وأخذ يسكنني)[5]. فأنِستُ بالسبع استيحاشاً منه، وزِدْتُ في الصياح، فما شعرتُ إلاّ والأسد قد تناوله من صدري وهرول في الصحراء، فقمتُ وأخذتُ السيفَ وأبْتُ[6] إلى القبّة، فلم تشكّ

---

(١) ـ في الفرج بعد الشدة: كرخ راذويه.

(٢) ـ في الفرج بعد الشدة: أريد أعمال سقي الفرات.

(٣) ـ في الأصل: دخل.

(٤) ـ التكة: ما يربط به السروال.

(٥) ـ في الفرج بعد الشدة: وسكت وأخذ يسكتني.

(٦) ـ في الأصل: وأجبت، وفي الفرج بعد الشدة: وجئت.

الجاريةُ إلّا أنّه هو، فقالت: قَتَلْتَه؟ قلتُ: الله قَتَله. وقصصتُ عليها القصّةَ وسألتُها عن شأنِها، فقالت: أنا امرأة من أهلِ البلد الفلانيّ، أسَرَني هذا الرجل، وخبّأني في هذ المكان، وهو يتردَّدُ إليّ في كلّ ليلة. فأرهبتُها فدلّتني على دفـائنَ له في الصحراء، فاقتلعتُها وحملتُ الجاريةَ، وبلغتُ القريةَ، فسلّمتُها إلى أهلها، وفزتُ بمالٍ عظيمٍ أغناني عن مقصدي، وعدت إلى بلدي. انتهت[1]. وهذه الحكايةُ من عجائبِ الفرج بعد الشدّة، ومما نجّى الله من عدوّ بمثله، وهو الذي يقال فيه «ينجي من الهلاك بالهلاك»، وإنما ذلك ـ والله أعلم ـ من إجابة دعاء المضطر.

وليست حالةُ الاضطرارِ بمقصورةٍ على المؤمن دون الكافر، فقد يقع من تفريج الشدّة عن الكافر إذا اضطر، نحو ما وقع للمؤمن؛ كما وقع لامرىء القيس في الحكاية الطريفةِ الواقعةِ له في تزوُّجه. حُكِي عن عبدِ الملك بن عمير[2] قال: قدم علينا عمر بن هبيرة[3] الكوفة، فأرسل إلى عشرةٍ أنا أحدُهُم من وجوهِ الكوفة، فسَمَرنا عنده، ثم قال: ليحدثني كلُّ رجلٍ منكم أحدوثة، وابدأ أنت يا أبا عمرو. فقلت: أصلح الله الأمير، أحديثُ الحقّ أم حديثُ الباطل؟ قال: بل حديث الحقّ. قلت: إن امرأ القيس آلى أليّة ألاّ يتزوّجَ المرأةَ حتى يَسْألَها عن ثمانيةٍ وأربعةٍ واثنين، فجعل يخطِبُ النساء، فإذا سألهُنّ عن هذا قُلْنَ أربعة عشر، فبينا هو يسيرُ في جَوْفِ الليل، إذا هو برَجُلٍ يحمِلُ ابنةً له صغيرة، كأنّها البدر ليلة تمّه، فأعْجَبَتْهُ، فقال لها: يا جارية، ما ثمانية

---

(1) ـ وردت هذه القصة في الفرج بعد الشدة (٤ / ٢٤٨ ـ ٢٥٠) مع بعض اختلاف في اللفظ.

(2) ـ هو أبو عمرو عبد الملك بن عمير بن سويد اللخمي الفرسي، سمي بالفرسي نسبة إلى فرس له اسمه القبطي، وهو كوفي، عمّر حتى بلغ ١٠٣ سنين وتوفي سنة ١٣٦ هـ (المعارف لابن قتيبة ص ٤٧٣).

(3) ـ أبو المثنى عمر بن هبيرة بن سعد بن عديّ الفزاري، ولي العراق وخراسان للوليد بن عبد الملك، ثم حبسه هشام سنة ١٠٦ هـ، ففر من السجن والتجأ إلى مسلمة بن عبد الملك فحصل على الأمان، ويقال انه كان أمياً. (المعارف ٣٦٤ ـ ٣٦٥، ٤٠٨ ـ ٤٠٩).

وأربعة واثنان؛ فقالت: اما الثمانية فأطْباء[1] الكلبة، وأما أربعة فأخلافُ[2] الناقة، وأما اثنان فثديا المرأة. فخطبها إلى أبيها، فزوّجه إيّاها، وشرطت هي عليه أن تسألَهُ ليلة بِنائها[3] عن ثلاثِ[4] خِصال، فجعل لها ذلك، وعلى أن يسوقَ إليها مائةً من الإبل، وعشرة أعْبُدٍ وعَشْرَ وصائف، وثلاثةَ أفراس، ففعل ذلك. ثم إنّه بعث عبْداً له إلى المرأة، [وأهدى إليها][5] نِحْياً من سمن ونحياً من عَسَلٍ وحلّة من عصْب[6]، فنزل العبدُ ببعض المياه، فنشر الحلّة ولبسها، فتعلّقت بشجرةٍ * فانشقّت، وفتح النِحيين، فأطعمَ أهْلَ الماء منهما[7]، فنَقَصا. ثم قَدِم على حيّ المرأة وهو خَلُوف[8]، فسألها عن أبيها وأمّها وأخيها، ودفع إليها هديّتها، فقالت له: أعْلِمْ مولاك أنّ أبي ذهب يقرّب بعيداً ويبعّد قريباً، وأن أمي ذهبت تشُقُّ النَفْسَ نَفْسَيْنِ، وأن أخي يُراعي الشمسَ، وأن سماءكم انشقّت وأن وعاءيكم نضبا. فقَدِم الغلامُ على مولاه فأخبره، فقال: أمّا قولها إنّ أبي [ذهب] يقرّب بعيداً ويبعّد قريباً فإنّ أباها ذهب يحالِفُ (ص ٢٤٣) قوماً على قومه، وأما قولُها إن أمّي ذَهَبَتْ تَشُقُّ النفس نفسين فإن أمّها ذهبت تَقْبَلُ[9] امرأة نفساء، وأمّا قولُها إنّ أخي يُراعي الشمسَ فإنّ أخاها في سَرْحٍ له يرعاه، وهو ينظر وُجوبَ الشمسِ[10] ليروح به، وأمّا قولُها إنّ سماءكم انشقّت فإن البُرْدَ الذي

---

(١) ـ أطباء: جمع طِبْيٍ بالكسر والضم وهي حلمات الضرع التي من خُفّ وظِلْفٍ وحافرٍ وسبُع (القاموس المحيط).

(٢) ـ الأخلاف: حلمات ضرع الناقة (القاموس المحيط: خلف).

(٣) ـ في الفرج بعد الشدة (٤ / ٣٧٩): ليلة يأتيها.

(٤) ـ في الأصل: ثلاثة.

(٥) ـ سقطت من الأصل، وأثبتناها من الفرج بعد الشدة.

(٦) ـ في الفرج بعد الشدة: من قصب.

* ـ في الأغاني: بعُشَرَة.

(٧) ـ في الأصل: منها، والصواب من الفرج بعد الشدة.

(٨) ـ حيّ خلوف: رجاله غائبون، وفي الأغاني: وهم خُلوف.

(٩) ـ قبِلت القابلةُ المرأةَ إذا تلقت ولدها عند ولادته.

(١٠) ـ وجوب الشمس: غروبها.

بعثتُ به انشقّ، وأما قولها إنّ وعاءيكم نضبا فإن النِحْيين اللذين[1] بعثتُ بهما نَقَصا فأصدقني. فقال: يا مولاي إنّي نزلتُ بماءٍ من مياه العرب، فسألوني عن نَسَبي، فأخبرتهم أني ابنُ عمّك، ونشرتُ الحلّة، فانشقّت، وفتحتُ النِحيين، وأطعمتُ منهما أهْلَ الماء. فقال: أولى لك. ثم ساق مائةً من الإبل وخرج نحوها ومعه الغلام، فنزلا منزلاً، فخرج الغلامُ يسقي الإبل فعجز فأعانه [امرؤ القيس[2] فرمى به الغلامُ في البئر، وخرج حتى أتى المرأة بالإبل، وأخبرهم أنّهُ زوجُها، فقيل لها: قد جاء زوجُكِ. فقالت: والله ما أدري أزوجي هو أم لا، ولكن انحروا له جزوراً وأطعِموه من كرْشها وذَنَبِها. ففعلوا. فقالت: اسقوه لبناً حازراً - وهو الحامض - فسقوه فشرب. فقالت: افرشوا له عند الفَرْث[3] والدم ففرشوا له فنام. فلما أصبح أرسلت إليه أني أريد أن أسألك. فقال: سليني[4] عمّا شئت. فقالت: ممّ تختلج شفتاك؟ قال: لتقبيلي إيّاك[5]. قالت: فممّ يختلج كشحاك؟ قال: لالتزامي إيّاك. قالت: فممّ تختلج فَخِذاك؟ قال: لتوركي إيّاك. قالت: عليكم العَبْدَ فشدّوا أيديكم به. ففعلوا. قال: ومرّ قومٌ فاستخرجوا امرأ القيس من البئر، فرجع إلى حَيّه[6] واستاق مائةً من الإبل، وأقبل إلى المرأة. فقيل لها: قد جاء زوجُك. فقالت: والله ما أدري أزوجي هو أم لا، ولكن انحروا له جزوراً، فأطعِموه من كرشِها وذَنَبِها. ففعلوا، فلما أتوْهُ به قال: وأين الكبِدُ والسّنام والمَلْحاء[7]؟ فأبى أن يأكل، فقالت: اسقوه

---

(١) - في الأصل: الذي.

(٢) - في الأصل: الغلام، والصواب ما أثبتناه، وهو من الفرج بعد الشدة.

(٣) - الفرث: السرجين.

(٤) - في الأصل: سلني، وفي الفرج بعد الشدة: سلي.

(٥) - في الفرج بعد الشدة: فاك.

(٦) - في الأصل: أخيه، والصواب من الاغاني والفرج بعد الشدة.

(٧) - الملحاء: لحم في الصلب من الكاهل إلى العجُز (القاموس المحيط: ملح).
وفي الفرج بعد الشدة: مِلحة.

لبناً حازرا[1]. فأبى أن يشربَ وقال: أين الصريف[2] والرثيئة[3]؟ فقالت: افرشوا له عند الفَرْث والدم. فأبى أن ينام، وقال: افرشوا لي فوق التَلْعة الحمراء، واضربوا عليه خباءً. ثم أرسلت إليه هلمّ شريطتي عليك في المسائلِ الثلاث. فأرسل إليها أن سليني عمّا شئت. فقالت: ممّ تختلج شفتاك؟ قال لشُربي المشعشعات. قالت: فمِمَّ تختلجُ كشحاك؟ قال: لِلُبْسيَ الحبرات. قالت: فممّ تختلج فَخِذاك؟ قال: لِرَكْضيَ المُطَهّمات. قالت: هذا زوجي لَعَمْري، فعليكم به، واقتُلوا العبد. فقتلوه. ودخل امرؤُ القيسِ بالجارية. فقال ابنُ هُبَيْرة: حسبكم، فلا خير في الحديثِ سائرَ الليلة بعد حديثِكَ يا أبا عمرو، ولن تأتينا بأعجب منه. فقمنا وانصرفنا وأمر لي بجائزة. انتهت[4].

فحَالُ امرىءِ القيس هنا بعد عبده[5] عليه، وحصوله في البئر، حالُ المضطر، فقيّض الله له من المارّين بالبئر مَنْ كانت حياتُه على يده، وسلامتُهُ من هذه التهلكة بسببه. (ص ٢٤٤) فسبحانَ الله ما أوسع رُحْماه، وأتمّ نعماه، لا إله إلاّ هو. ولم يمنع[6] آمرأ القيس ما كان عليه من الكفر أن يسّر الله لهُ اللطفَ من حيثُ لم يحتسب، وسنّى له الفَرَجَ من حيثُ لم يعتَقِدْ، فما الظنُّ في لُطْفِهِ بمن لم يسجُدْ قطّ لسواه!؟ ولا آعتَقَدَ إلٰهاً غيره ولا نواه! فلْيشدّ العاقلُ يده على أسبابِ الزُلفى لدى هذا الربّ الكريم، وليعتمِدْ على ما عوّده من فضله ورحمته، فإنه ذو الفضل العظيم.

وإذا كان الابتلاءُ بمثلِ طلبِ السلطان المؤدّي للفِرار عن الأوطان، فقد نُقل عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:

---

(١) ـ في الأصل: جاررا.

(٢) ـ الصريف: اللبن ساعة حُلِب (القاموس المحيط: صرف).

(٣) ـ الرثيئة: الحليب يصب عليه اللبن الحامض فيروب، وفي الفرج: أين الضرب والزبد؟

(٤) ـ وردت هذه القصة في الفرج بعد الشدة ٤ / ٣٧٨ ـ ٣٨٢، والأغاني ٩ / ١٠١ ـ ١٠٣.

(٥) ـ يبدو أن كلمة قد سقطت قبل (عبده) تقديرها: احتيال أو انقلاب.

(٦) ـ في الأصل: يمتنع.

«إذا خِفْتَ سُلطاناً أو غيره فقل لا إله إلاّ الله الحكيم* الكريم، سبحان الله ربِّ السماوات السبع، وربِّ العرشِ العظيم، لا إله إلاّ أنْتَ، عَزَّ جارُك وجَلَّ ثناؤك»[١].

ويُحْكى عن الفضلِ بن الربيع أنّه قال: لمّا اسْتَتَرْتُ من المأمون، أخْفَيْتُ نفسي عن أهلي وعيالي وَوَلدي، فلما صدرَ المأمونُ عن خُراسان، وقَـرُبَ من بغـداد، زاد خوفي على نفسي، وقلقي، فشددتُ في الاحتياط والتواري، فأفضيتُ إلى منزل بزّازٍ كنتُ أعرِفُهُ في درب على باب الطاق[٢]، وقدم المأمون بغداد، فتشدَّدَ في طلبي، فلم يعرِف لي خبراً. فذكرني يوماً، فاغتاظ، واغلظ لاسحق بن ابراهيم[٣] في الخِطاب، وشدّد عليه أمري، فخرج إسحقُ من حضرته، فجدّ بالشُّرَط، حتى أوقع ببعضهم المكاره، ونادى في الجانبين أنه من جاء بي فله عشرةُ آلاف درهم، وإقطاعُ غلّةٍ بثلاثة آلاف[٤] في كلّ سنة، وأنَّ من وُجِدْتُ عنده بعد هذا النداء ضُرِبَ خمسمائة سوط، وهُدِمَتْ دارُه، وأُخِذَ مالُهُ، وحُبِس طول عمره. ونودي بذلك بعد الظهر، فما شعرتُ إلاّ بصاحبِ الدار قد دخل علـيَّ، فأخبرني بالأمر، وقال: «ما أريدُ إلاّ سِتْرك وسِتْري معك، لأني لا أقْدِرُ بعد هذه على إمساكك، وما آمن زوجتي وغلامي وخادمي أن تَشْرَهَ نفوسُهُم إلى المال، فيدلّون عليك، فأهلك بهلاكِكَ، فإن صفح الخليفةُ عنكَ لم آمن أن تَتّهمني أنت بأني دللت عليك، فيكون ذلك أقبح حجّة، وليس الرأيُ لي ولك إلاّ أن تخرج عنّي» فورد عليَّ أعظمُ واردٍ، وقلت: إذا جاء الليل خرجتُ عنك. فقال: ومن يطيقُ الصبْرَ على هذا الضرر إلى

---

* ـ في عمل اليوم والليلة: الحليم.

(١) ـ عمل اليوم والليلة ١٠٥ ـ ١٠٦.

(٢) ـ باب الطاق: ببغداد، وهي اليوم محلّة الصرّافية، كان يربطها بالجانب الغربي جسر يقوم محله اليوم جسر الصرّافية.

(٣) ـ لعله أبو اسحق ابراهيم بن مصعب بن زريق، ولي شرطة بغداد أيام المأمون وكان يعرف بصاحب الجسر، توفي سنة ٢٣٥ هـ (الوافي بالوفيات ٨ / ٣٩٦).

(٤) ـ في الفرج بعد الشدة ٤ / ٢٩٤ : ثلاثة آلاف دينار.

الليل؟! وإنْ قعدتَ عندي كيف يكون حالي؟! وهذا وقتٌ حادّ[1]، وقد طال العهد بك، فتنكّر واخرج. فقلت: كيف أتنكّر؟ قال: بأن تأخُذَ أكثر لحيتك، وتلبس ثياباً ضيّقة، وتغطّي رأسَكَ ووَجْهَكَ. فقلت: افعل. فجاء بمِقْراض، فأخذ أكثر لحيتي. وتنكّرتُ، وخرجتُ في أوّلِ أوقاتِ العصر، وأنا (ص ٢٤٥) ميّتٌ جَزَعاً، فمشيتُ المشارع حتى أتيتُ الجسر[2]، فوجدته خالياً، وقد رُشَّ فهو متزلّق، فلما توسّطْتُهُ إذا بفارسٍ من الجُنْدِ الذين كانوا ينوبون في داري أيّامَ وزارتي، فقرب منّي فعرفني وقال: طِلبةُ أميرِ المؤمنين والله! وعدل إلـيّ ليقبِضَ عليّ. فدفعتـهُ، فزلقت دابّتـه، ووقَعَتْ به في بعضِ السُفُن التي للجسر[3]، وتعادى الناس لخلاصه، وظنّوا أنه قد زلق بنفسه. وتشاغَلَ بهم، وزدتُ في المَشْي من غير أن أعْدُوَ لئلاّ يفطن بي[4] أو ينكر حالي، وعَبَرْتُ الجِسْر[5] ودخلتُ دَرْبَ سليمان[6]، فوجدت امرأةً على بابِ دارٍ مفتوح، فقلت: يا امرأة أجيريني[7] واحفظي دمي، فإني خائفٌ من القتل. فقالت: ادخل. وأومأتْ إلـيّ إلى غرفةٍ، فصعدتُها. فلما كان بعد ساعة إذا ببابِ الدارِ يُدَقّ، ففتحته، فدخل زوجُها، فتأمّلْته، فإذا هو صاحبي على الجسر[8]، وهو مشدودُ الرأس، يتأوّهُ من شِدّةِ ما لحقه[9]، فسألَتْهُ المرأة عن السبب، فأخبرها بالقصّة، وقال لها: قد فاتنا الغِنى. وهو يشتُمني، ولا يعلم بحصولي معهم في الدار،

---

(١) ـ في الفرج بعد الشدة: حارّ.

(٢) ـ في الفرج بعد الشدة: فمشيت في الشارع، حتى بلغت الجسر، وفي الأصل: الجمر.

(٣) ـ في الأصل: للجمر، والصواب من الفرج بعد الشدة.

(٤) ـ هكذا في الأصل، وفي الفرج بعد الشدة: ولم أعد لئلا ينكر حالي من يراني.

(٥) ـ في الأصل: الجمر.

(٦) ـ نسبة إلى سليمان بن أبي جعفر المنصور، وكان درب سليمان امتداداً للجسر الذي على باب الطاق (معجم البلدان).

(٧) ـ في الأصل: اجريني.

(٨) ـ في الأصل: الجمر.

(٩) ـ في الفرج بعد الشدة: من شجّةٍ لحقته.

وأقبلتِ المرأةُ تُسَكِّنُهُ إلى أن سكن. فلما صلّيْتُ المغربَ، واختلطَ الظلامُ، صَعَدَتِ المرأةُ إليّ وقالت: أظنّك صاحبَ القصّةِ مع الرجل؟ فقلت: نعم. فقالت: قد علمت ما لك عنده، فاتّقِ الله في نفسك، (واحفظها واخرُج. فدعوتُ لها، ونزلت، فَفَتَحَتِ البابَ فتحاً رفيقاً، وكانت الدرجةُ في الدهليز، فأفضيتُ منها إلى الباب، فلما حصلتُ في آخر الدرب، وجدتُ الحرس قد انحلقوا[1]، فتحيّرت. ثم رأيتُ رجلاً يفتحُ باباً بمفتاحٍ روميّ، فقلت هذا عزب[2]، وهو ممّن يَقْبَلُ مِثْلي. فدنوتُ منه، وقلت: استُرني سَتَرَكَ الله. فقال: ادخل. فدخلتُ فوجدتُ رجلاً فقيراً وحيداً، فأقمتُ عنده، وبكّر من الغد، ثم عاد نِصْفَ النهار، ومعه حمّالان[3] على أحدهما[4] حصير ومخدّة . . . .[5] وجِرار وكيزان[6]، وغضائر جُدُد، وقِدرٌ جديدة، وعلى الآخر خبزٌ وفاكهةٌ وملح[7]، فترك ذلك بين يديّ. فعذلته وقلت له: لِمَ تكلّفتَ هذا؟ فقال: أنا رجل مزيّن، وأخاف أن تستقذِرني، وقد أفردتُ لك، فاطبخ واطعم على اختيارك وما تهواه. وأكل هو في قِدْرٍ اخرى، فشكرتُهُ على ذلك. وكنتُ على هذه الحال ثلاثة أيام. فلما كان في اليوم الرابع قلتُ له: قد أحسنتَ وأجملت، والضيافة ثلاث. فقال: لا تفعل، فإنّي وحيد، ولستُ ممّن يُطْرَق، ولا يجوز أن يَفْشُوَ خبرك من عندي أبداً، فأقِمْ إلى أن يفرّج الله عنك، فلستُ أتضايقُ بك. فقلت: لا بدّ من ذلك. وخرجتُ ومشيتُ حتى بلغتُ منزلَ عجوزٍ من موالينا، فلمّا (ص ٢٤٦) رأتْني بكت، وحَمِدَتِ الله على سلامتي، فبتُّ عندها. فلما كان في السحر بَكَرَتْ إلى اسحق بن ابراهيم، فما شعرتُ إلاّ بإسحق في خيله ورجْله

---

(١) - في الفرج بعد الشدة: أغلقوه.

(٢) - في الفرج بعد الشدة: هذا روميّ.

(٣) - في الأصل، جمّالان، والصواب من الفرج بعد الشدة.

(٤) - في الفرج بعد الشدة، يحمل أحدهما.

(٥) - سقطت من الفرج بعد الشدة، وفي الأصل غير واضحة.

(٦) - في الأصل: كنزان، والصواب من الفرج بعد الشدة.

(٧) - في الفرج بعد الشدة: ويحمل الأخر خبزاً وفاكهة ولحماً وثلجاً.

قد أحاط بالدار واستخرجني منها، وأوقفني بين يديْ المأمون حافياً حاسراً، فلما أبصرني سجد طويلاً، ثم رفع رأسَهُ إليّ، وقال: يا فضل، أتدري لِما سجدتُ؟ فقلت: نعم شكراً لله على أنْ أظْفَرَكَ بعدوِّ دولتِك والمُغْري بينك وبين أخيك. فقال: ما أردتُ هذا، ولكنّي سجدت شكراً لله على ما ألهمنيه من العفْو عنك، حدِّثني بحديثك من أوّله إلى آخره. فشرحتُهُ كلّه. فأمر باحضارِ المرأة والجنديّ والمزيّن ـ وكانت المرأةُ مولاتنا في الدار تنتظر الجائزة ـ[1] فحضر الأربعةُ، فقال للمرأة مولاتنا: ما حَمَلَكِ على ما صنعتِ مع إنعامِهِ وإنعام أهله عليك؟ قالت: الرغبةُ في المال. قال: هل لك زوج وأخ[2]؟ قالت: لا. فأمر بِضَـرْبِهـا مائتي[3] سوط، وتخليدِها في الحبس. ثم دعا بالمزيّن والجندي والمرأة، فاستثبتني فيهم، فأعلمته أنهم القومُ بأعيانهم. فسأل الجنديَّ عن السبب الذي حمله على فعله، فقال: الرغبةُ في المال، ووالله لأنه الذي أثبتني في الجند، ولكن حملتني الرغبةُ على ما فعلته. فقال: أولى بهذا أن يكون حجّاماً من أن يكون من أوليائنا. وأمر بأن يُسَلَّم إلى المزيّنين، ويوكل به من يعنِفُهُ حتى يتعلّم الحجامة، وأمر باستخدام زوجته في قهرمة دُورِ حرمه، وقال: هذه امرأةٌ عاقلة أديبة. وأمر بتسليم مالِ الجنديّ وقماشِهِ ودارِهِ إلى المزيّن، وأمر بردّه إلى مكانه، وقال: هذا أوْلى من ذلك بأن يكونَ من أوليائنا. وأطْلَقَني، فرجعتُ إلى داري في ذلك اليوم بعينه آمناً.[4]

ومـات الفضلُ في خلافةِ المأمون في سنة ثمانٍ ومائتين، وقد جاوزَ الستّين، وكان سرياً ملوكياً شديدَ الإعجاب، ويقال عنه إنّه لم يكذِبْ قطّ. وكان البرامكةُ وزراء الرشيد والغالبين على الأمر كلّه، وكان الذي بينهم وبين

(١) ـ في الأصل: الجارة، والصواب من الفرج بعد الشدة.

(٢) ـ في الفرج بعد الشدة: هل لك زوج أو ولد أو أخ؟

(٣) ـ في الفرج بعد الشدة: مائة.

(٤) ـ وردت هذه القصة في الفرج بعد الشدة ٤ / ٢٩٣ ـ ٢٩٩، وانظر بعضاً منها في الوزراء والكتـاب للجهشياري ص ٣٠١ ـ ٣٠٢، وانـظر أيضاً عن اختفاء الفضل من المأمون في إعتاب الكتاب ص ١٠١.

الفضلِ بن الربيع سيّئاً، حتى أسقطوه عند الرشيد، ثم لم تزل الأيّام ترفَعُهُ، حتى نَكَبَ الرشيدُ البرامكة، وقتل جعفر بن يحيى واستوزره. وهذه الحكاية من أعجب ما يأتي به الاتّفاق، ويُسْتَغْرَبُ فيه خفيُّ الألطاف، ويُتعجَّبُ من جميلِ المصانع، فإنّ الأمر في تورّط هذا الرجل ونجاتِهِ كان دائراً بين رَجُلَيْن، كلّ واحدٍ من صاحبه على طرف النقيض، وأمرأتين كذلك، ثم إن المرأة والرجلين اللذين كانا يعرفانه، وتقدّم منه الإحسان إليهما، فمنهما صدر له الاجتهادُ في وقوع ما كان يتخوّفه، والرجلَ والمرأةَ اللذيْن لم يكن له بهما معرفة، ولا تقدَّمَ منه إليهما إحسان، فهما اللذان سعيا في سَتْره مما كان يخشاه، واجتهدا في تخلُّصه ممّا كان يخافه. ثم إن الواقع كلّه (ص ٢٤٧) إذا تؤمّل إنما هو من قبيل اللُّطْفِ الخفيّ، إذْ جعل الله ذلك كلّه سبباً في رضا السلطانِ عنه، وموجباً لتغاضيه عمّا نقمه عليه. فتعالى الله مقلّبُ القلوب، الذي لا يقدِرُ إلّا هو على أن يجعل موجب الشدّة سبباً في الرخاء، ومقتضى الابتلاء علّة في المعافاة.

ولكوْنِ الأمانِ أفضلَ ممّا سبقه من الصحةِ يقول الاستاذ أحمد بن خميس[1] من الجزيرة الخضراء:

قوامُ العَيْشِ في دَعَةٍ وأمْنٍ	وصحةٍ انّها جُلُّ الأماني
وأرفقهنّ للداريْنِ أمنٌ	فوالِ السَّعْيَ في طَلَبِ الأمانِ[2]

وحدّث مروانُ بن أبي حفصة[3] قال: كان المنصورُ قد طَلَبَ مَعْنَ بن

(١) ـ أحمد بن خميس الجزيري، نسبة إلى الجزيرة الخضراء، فقيه متوفى سنة ٧٢٠ هـ (درة الحجال ١ / ١٤، وفيها: الجزائري، وفي حاشيته أنه ورد في إحدى النسخ: الجزيري).

(٢) ـ في الأصل: الأماني.

(٣) ـ هو أبو السمط مروان بن أبي حفصة سليمان بن يحيى، الشاعر المشهور من أهل اليمامة، قدم بغداد، ومدح المهدي وهارون الرشيد، وله شعر يهجو فيه العلويين، مولده سنة ١٠٥ هـ ووفاته سنة ١٨١ هـ. (الأغاني ١٠ / ٧١ ـ ٩٤، تاريخ بغداد ١٣ / ١٤٢ ـ ١٤٥، الشعر والشعراء ٤٨١، وفيات الأعيان ٥ / ١٨٩).

زائدة[١] طلباً شديداً وجعل فيه مالاً، فحدّثني معنُ بنُ زائدة باليمن، أنه اضطر لشدةِ الطلبِ إلى أن قام في الشمس حتى لوّحت وَجْهَهُ، وخفّف عارِضَيْه ولحيته، ولبس جبّة صوف غليظة، وركب جملاً من الجمال النقّالة، وخرج عليه ليمشي إلى البادية فيقيم بها، وكان قد أبلى في حربِ يزيد بن عمر بن هبيرة[٢] بلاء حسناً، غاظ المنصور، وجدّ في طلبه. قال معن: فلما خرجتُ من بابِ حرب[٣] تَبِعَني أسودُ متقلّدٌ سيفاً، حتى إذا أنا غِبتُ عن الحرس قبض على خطام الجمل فأناخه، وقبض عليّ، فقلت له: ما لك؟ قال: أنت طِلبةُ أميرِ المؤمنين. قلت له: ومَنْ أنا حتى يطلبني أميرُ المؤمنين؟ فقال: أنتَ مَعْنُ ابن زائدة. فقلت: يا هذا اتّقِ الله! وأينَ أنا من مَعْنِ بن زائدة!؟ فقال: دع عنك، فأنا واللهِ أعرَفُ منكَ بك. فقلت: إن كانت القصّةُ كما تقول فهذا جوهر[٤] حملته معي بأضعافِ ما بذله المنصورُ لمن جاءه بي[٥]، خُذْهُ ولا تَسْفِكْ دمي. فقال: هاته. فأخرجته إليه. فنظر[٦] إليه ساعة وقال: صدقتَ لي[٧] قيمته، ولستُ قابلَهُ حتى أسألَكَ عن شيءٍ، فإن صدقتني أطلقْتُك. فقلت: قل. قال: إنّ الناسَ قد وَصَفُوكَ بالجُود، فأخبرْني هل وَهَبْتَ قطُّ مالك كُلَّه؟

---

(١) ـ أبو الوليد معن بن زائدة بن عبد الله الشيباني، جواد شجاع شاعر مشهور كان منقطعاً إلى يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري أمير العراق زمن الأمويين وولاه أبو جعفر المنصور أذربيجان، ولمروان بن أبي حفصة شعر في مدحه، قتله الخوارج سنة ١٥١ هـ (تاريخ بغداد ١٣ / ٢٣٥ ـ ٢٤٤، معجم الشعراء للمرزباني ٤٠٠، وفيات الأعيان ٥ / ٢٤٤ ـ ٢٥٤).

(٢) ـ ولاه مروان بن محمد بن مروان بن الحكم الخليفة الأموي على العراقين مدة خمس سنوات، ولد سنة ٨٧ هـ وقتل بواسط سنة ١٣٢ هـ. (المعارف ٣٦٩، ٤٠٩، وفيات الأعيان ٦ / ٣١٣ ـ ٣٢١).

(٣) ـ أحد أبواب مدينة المنصور تنسب إلى أحد قواده وهو حرب بن عبد الله البلخي (معجم البلدان).

(٤) ـ في الأصل: حوير.

(٥) ـ في الأصل: به، والصواب من الفرج بعد الشدة ٤ / ٥٢.

(٦) ـ في الأصل: فانظر، وما أثبته من الفرج بعد الشدة.

(٧) ـ في الفرج بعد الشدة: صدقت في.

قلت: لا. قال: فنِصْفه؟ قلت: لا. قال: فثُلثه؟ قلت: لا. حتى بلغ العُشْرَ، فاستحيتُ فقلت: أظنُّ أني فعلتُ ذلك. فقال: ما أراك فعلته، أنا والله راجل رزقي من أبي جعفر عشرون درهماً، وهذا الجوهر قيمته آلاف [الدنانير]*، وقد وَهَبْتُه لك، ووهبتُك لنفسِكَ ولجُودِكَ المأثور بينَ الناس، ولتعلم أن في الدنيا من هو أجودُ منك، فلا تعجبْك نفسُك، ولْتحقر بعد هذا كلَّ شيءٍ تفعله، ولا تتوقَّفْ عن مكرمة. ثم رمى بالعقد في حجري، ثم خلّى خطامَ البعيرِ وانصرف. فقلت له: يا هذا قد فَضَحْتَني، واللهِ ولَسَفْكُ دمي أهونُ عليَّ مما فعلت، فخذ ما دفعتُهُ إليك، فإنّي غنيٌّ عنك[1]. فضحك وقال: أردتَ أن تكذبني (ص ٢٤٨) في مقامي[2] هذا، والله لا آخذه[3]، ولا آخذ لمعروفٍ ثمناً أبداً. ثم مضى، فواللهِ لقد طلبْتُهُ بعد أن أمِنْتُ، وبذلتُ لمن جاءني به ما شاء، فما عرفتُ له خبراً، وكأنّ الأرض ابتلعته. انتهت[4].

وكان الفقيهُ طالوتُ بنُ عبد الرحمن المعافريّ[5] ممن أدْرَكَتْهُ محنةُ هَيْجِ الرَّبَض، وكان من أهلِ الجدّ والعِلْم، وممن روى عن مالك بن أنَس - رحمه الله - فهرب، واخْتَفى بقرطبة في دار رَجُلٍ يهوديّ، فأقام عنده حَوْلاً كاملاً، فلما استقرَّتْ الأحوالُ[6]، خرج إلى الوزيرِ أبي البسّام وكانت بينهما وصْلَةٌ

---

* - في الأصل: آلاف دينار، وفي الفرج بعد الشدة: آلاف دنانير.

(١) - في الفرج بعد الشدة: فإنّي عنه غنيّ.

(٢) - في الفرج بعد الشدة: مقالي.

(٣) - في الأصل: والله لآخذه، وفي الفرج بعد الشدة: والله لا أخذته.

(٤) - انظر هذه القصة في: الفرج بعد الشدة ٤ / ٥١ - ٥٣، والأغاني ١٠ / ٨٤، وفيات الأعيان ٥ / ٢٤٥، التذكرة الحمدونية ٢ / ٢٦٩، نهاية الأرب ٣ / ٢١١ - ٢١٢.

(٥) - الفقيه القرطبي طالوت بن عبد الجبار بن محمد بن أيوب المعافري، كان من الراحلين إلى المشرق، وكان من أشد الناس مخالفة على الحكم الربضي في قرطبة (الذيل والتكملة ٤ / ١٠٥ - ١٥٢، ترتيب المدارك ٢ / ٥٠٥، التكملة ص ٣٤٥ (مصر ١٩٥٥م)، نفح الطيب ١ / ٣٣٩، ٢ / ٦٣٩).

(٦) - في الأصل: الأحول.

قديمة، فجاءه بين العِشائَيْن، فأظهر السرورَ بهِ، وسأله أين أقام، فقال: عند رجلٍ يهوديّ. فآنسه، فقال: الأمير[1] نادم على ما كان منه. وبقي عنده ليلة مكرّماً. فلما كان من الغد جاء أبو البسّام فدخل على الأميرِ الحَكَمِ وقال له: رأيك في كبشٍ سمينٍ على مِزْوَدِهِ[2] منذ عام؟ فقال الحكم: لحمٌ ثقيلٌ وغيره أخفُّ منه وأعْذَبُ فما الخبر؟ قال له: هذا طالوتُ عندي قد بحثتَ عنه منذ عام. فأمر بإحضاره، فأُتي بالشيخ وهو يزعج إزعاجاً شديداً. فلما مثل بين يَدَيْه قال له: يا طالوت لو أنّ أباك أو ابنك مَلَكَ هذا القصر أكان أحدُهما يزيدك على برّي بك وإكرامي لك؟ وهل رددتُ لك رغبةً قطُّ في نَفْسِكَ أو غيرك؟ ألم أعُدْكَ في عِلّتك مراراً؟! ألم تُتَوَفَّ زوجتُك، فقصدتُ بابَك، ومشيتُ في جنازتها راجِلاً بين يديْك، ثمّ انصرفتُ كذلك راجِلاً حتى أدخلتُكَ منزلَكَ؟! فما الذي بلغ عندك إنْ لم ترضَ إلاّ بهتْكِ ستري وسفْكِ دمي؟ فقال طالوت: لا أجدُ لنفسي الآن مقالاً خيراً من الصِدْق، جاءتنا أمورٌ أبغضْتُكَ من أجلها لله تعالى، فلم ينفعْكَ ما صنعتَ معي، وإني لمعترفٌ بكلّ ما صنعتُ، أصلحك الله. قال: فأخَذَتِ الحكَمَ رِقَّةٌ ورحمة، فقال له. والله لقد بعثتُ فيك، وما في الأرض عقاب إلاّ وقد مثَّلْتُهُ لنفسي لأوقِعَهُ بك، فأنا أُعْلِمُكَ أن الذي أبغضتني له قد صرفني عنك، فانصرِفْ في حفظ الله آمناً، والله لا تركتُ ما كنت عليه من بِرِّكَ حياتي، فليتَ الذي كان لم يكن، والحمد لله على كلّ حال. فقال له طالوت: لو لم يكنْ ذلك لكان خيراً لك، ولكنّ الأمور بيد الله.

ثم قال له الحكم: أين ظفر بك أبو البسّام؟ فقال: والله ما ظَفِر بي، وأنا ظَفَّرْتُهُ بنفسي، وقصدتُه لوصلةٍ كانت بيني وبينه. قال: فأين كنت في عامِك؟ قال: عند رَجُلٍ يهوديّ. فقال الحكم: يا أبا البسّام، رجلٌ من اليهودِ حفظ فيه علّةً من العِلْم والدين، وخاطَرَ معنا بنفْسِهِ وماله، وأنت غَدَرْتَهُ وقد وثق بك، وأردتَ أن (ص ٢٤٩) تُهْلكه هو وأهله؟! اخرُجْ عنّي، فوالله لا رأيتَ لي وجهاً أبداً. وأمر برفع فراشه من بيت الوزارة، ولم يَزَلْ عقبُه في ارتكاس، وبقي طالوت

(١) - في الأصل: الأمر.

(٢) - المِزْوَد: وعاءٌ يُجْعَلُ فيه الزاد (لسان العرب: زود).

محفوظاً إلى أن مات، وكتب لليهوديّ بالحرمة ولعقبه من بعده. انتهت[١].

وهذه الحكايةُ كالتي نُقِلَتْ عن الفضلِ بن الربيع في غرابةِ النوع، وإتيانِ الضُرِّ من مظنّة النفع، وحصولِ الفائدةِ من محلّ عدمها بقريبٍ من القطع، ثم . .[٢] من كوْنِ ذلك سبباً في خفيّ اللطف، وموجباً لما صدر من السلطانِ من الرأفةِ والعطف، ما فيه معتبرٌ لأولي الألْباب، وتبصرةٌ فيما يسنّي الله إذا أراد أمراً من الأسباب، والمفهومُ من هذه القضيّة[٣] على ما يُعْرَفُ من جاري عادة الله في خلقه، أنّ الله قَيَّضَ هذا اليهوديَّ، على ما به من صغار الذمّة، وما ضرب عليه من المسكنة والذِلّة، وما أخذ به من إعطائه صاغِراً عن يَدٍ للجزية، في عنفوان غَضَبِ هذا الملك، وأوانِ احتدام غيظه، لحفظ هذا العالم الذي هو من غير ملّته، وليس أبداً بتابعٍ لقِبْلته، حتى إذا سَكَنَ غيظُ الملك، وخمدت سَوْرةُ غضبه، قيّض الله هذا الوزيرَ أبا البسّام، لارتكاب هذه المنفصة، وفُيولِ الرأيِ[٤] في استسهال هذه المثلة، ذاهلاً عمّا يلحقه من العار، ومتعامياً عمّا يدركُهُ من الوَصْمة، إلى ما جنى له في ضِمْنِ ذلك من السخطة، وتمت عليه بسببه من العزلة، كلّ ذلك ليتمَّ رِضا السلطانِ لهذا العالِم، مثاباً على القيام بالحقّ، ومأجوراً على الوفاء بالصدق، وليحصل خمولُ الوزيرِ، وعارُ ارتكاس[٥] عَقِبِه، مجزيّاً بعُقْبى المكرِ السيّء، وموثقاً في حبالة الغَدْر الشنيع، ، وليتهيأ احترامُ اليهوديّ وعقبه، مجتنياً في دنياه ثمرةَ الوفاء، ومغتبطاً بنتيجةِ حُسْنِ المواساة، ولعلّ ذلك يقوده لما هو أفضل، فمن يُرِدِ الله به خيْراً يسهِّلْ له السبيلَ إليه، ويدلُّه بصِدْق النيّةِ عليه. ولو شاء الله لسكّن غيظَ المَلِكِ من ساعته،

---

(١) ـ وردت الحكـاية في: تاريخ افتتاح الأندلس ٧٥ ـ ٧٧، ترتيب المدارك ٢ / ٥٠٥ - ٥٠٧، الذيل والتكملة ٤ / ١٥٠ ـ ١٥٢، المعجب ٣٦ ـ ٣٨، نفح الطيب ٢ / ٦٣٩.

(٢) ـ بياض في الأصل مقدار كلمة واحدة.

(٣) ـ في الأصل: القصيدة.

(٤) ـ جاء في القاموس المحيط في مادة «فيل»: وفال رأيُه يفيل فيولةً وفيلةً أخطأ وضعف.

(٥) ـ في الأصل: ارتكاش.

ولكنْ ليظهر مضمونَ قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[1]. جعلنا الله ممن وُفِّقَ لصالح العمل وحَسَنِهِ. وقد كانت جنايةُ أبي البسّام على الفقيه طالوت ممّا لم يتأخَّرْ فيها إنصافُه منه، كما يقول الفقيهُ أبو جعفر أحمدُ بن محمد السالمي[2]:

إذا ما جَنَى يومـاً عَلَيْكَ جِنـايةً	ظلومٌ يدقُّ السمر بأسـاً وينصفُ
فلا تَنْتَقِمْ يومـاً عَلَيْهِ بمـا جنى	وكِـلْ أَمْـرَهُ للدَّهْر فالدَّهْرُ مُنْصِفُ

وإذا كان الابتـلاءُ بمثـلِ حصولِ المخاوف، وشهودِ المتالِفِ، فإنّ استحضارَ (ص ٢٥٠) مواطِنِ النجاةِ من أمثالِ تلك الشدائد مما يزيدُ القَلْبَ قُوَّة، ويفيدُ النَّفْسَ طمأنينة. فكم من مَخافةٍ أعقب الله منها أمانا! وكم مِنْ مهلكةٍ يَسَّرَ الله منها خَلاصاً! وفي التسليمِ والتفويضِ، حيث لا يتهيّأ سببٌ مشروعٌ ولا عملٌ مطلوب، راحةٌ للنفسِ وتوطينٌ للقَلْبِ على الصبر، واعتمادٌ للعبدِ على الله. فإنْ أمكنتِ الأسبابُ الجائزةُ والأعمالُ المشروعةُ، فلا بأْسَ بارتكابِ ما لا يُنْسى فيه التوكّل على الله منها، ولا تهمل الثقة به في استعمالها. ومن استَبْصَرَ في "واقعِ لخليل[3] الرحمن حين أراد به الكفّارُ ما أرادوا، حسبما حكى الله عنهم في قوله: ﴿قالُوا حرِّقُوهُ وانْصُروا آلِهَتَكُمْ إنْ كُنْتُمْ فاعِلين * قُلْنـا يا نارُ كُوني بَرْداً وَسَـلامـاً على إبْراهيم * وأرادوا بِهِ كَيْداً فَجعلْناهُمُ الأخسرِين*﴾[4] فانظروا إلى عظيمِ هذه الشِدّةِ، وأليمِ هذه التّهلكة، ولكنّ الله نجّى منها بفضله، وجعل النار بَرْداً وسلاماً بلُطفه. وقد حُكي مِنْ قوّة يقينِ الخليلِ بالله، وصدق توجّهه، وصحيح توكّله، ما لا يكونُ إلاّ لمثله من أولي

(١) - من الآية ٧ من سورة هود، والآية ٢ من سورة الملك.

(٢) - هناك ترجمة لأبي عامر أحمد بن محمد السالمي المتوفى سنة ٥٥٩ هـ في: الذيل والتكملة، السفر السادس ص ٧ - ٩، الوافي بالوفيات ٢ / ١١١.

(٣) - في الأصل: لجليل.

(٤) - الآيات ٦٨ - ٧٠ من سورة الأنبياء.

العَزْم من الرسل، فإنه رُوِيَ أن جبريلَ عليه السلام أتاه في حال رَمْيِه بالمنجنيق[1] إلى النار المضطَرِمة قال له: أَلَكَ حاجةٌ؟ قال: أمّا إليك فلا. فقال: فسلْ رَبَّكَ. فقال: عِلْمُهُ بحالي يُغْني عن سؤالي[2]. أو كما قال صلّى الله على نبيّنا محمد وعليه وسلّم تسليماً كثيراً.

وقد كان في غزاة أُحُد من التمحيص ما تضمَّنَتْهُ الآياتُ من سورةِ آلِ عمران حسبما وَرَدَ في سيرةِ ابنِ اسحق[3] استيفاء ما وَقَع فيها، فلينظر هنالك، ولكنَّ الله تدارك بفضْله، وتلافى الوهْيَ بلُطْفِهِ، وأنزل في التَسْلِيَة عن ذلك ما سَبَقت الإشارة إلى القصّة. وكان النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم يقولُ عند مواجهَتِهِ العدوَّ للقتال: «اللهُمَّ بكَ أُقاتِلُ وبِكَ أحاوِلُ وبك أصول»[4] خرّجه البخاري في صحيحه. وما أنْسَبَ الدعاء الواردَ في الكتاب العزيز لمحلّه المخصوصِ به من مواجهةِ العدوِّ في القتال! وهو قوله: ﴿رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَثَبِّتْ أقدامنا وانْصُرْنا على القَوْمِ الكافِرين﴾[5]. وما أعقب القائلين لذلك وهم طالوتُ ومن معه من النصر على عدوِّهم، وهم جالوتُ وجنوده!

وقد سلّى الله الشهداء عن لاحقةِ الموْتِ بقوله: ﴿ولاتَحْسَبَنَّ الذين قُتِلوا في سَبيلِ اللهِ أمْواتاً﴾ إلى آخر الآية[6]. ولهذا المعنى يقولُ ابنُ الرومي، والله أعلم: [7]

---

(١) ـ في الأصل: مويه بالمنخنيق.

(٢) ـ وردت هذه الحكاية في قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس ص ٧٧ وانظر تفصيلات القصة ص ٧٧ ـ ٧٩، وقصص الأنبياء لابن كثير ص ١٣٨ ـ ١٤١.

(٣) ـ سيرة ابن اسحق ص ٣٠١.

(٤) ـ مسند ابن حنبل ٤ / ٣٣٢ ـ ٣٣٣، سنن أبي داود ٣ / ٤٢ (ولم أجده في صحيح البخاري).

(٥) ـ من الآية ٢٥٠ من سورة البقرة.

(٦) ـ من الآية ١٦٩ من سورة آل عمران.

(٧) ـ ديوان ابن الرومي ٢ / ٦٤٢ (ط. دار الكتب ١٩٧٤م، تحقيق دكتور حسين نصار).

عَجَباً لِمَنْ يَلْقى الحرو ... بَ فلا يُقاتِلُ أو يُجالِد[1]

(ص ٢٥١)

لا سيّما إنْ كانَ يُوقِنُ ... أنّه إن ماتَ عائِد

خوْفاً وإشفاقاً وأرْصادُ ... الحُتوفِ له رَواصِد

إنْ قال إنَّ النَفْسَ واحدةٌ ... فإنَّ المَوْتَ واحِد

وهذا الفصلُ ممّا يلحقُ فيه التمحيصُ كثيراً، فإن الحْربَ سجال، والمقالُ يتّسع في الحكاياتِ عمّن ابتُليَ فيه بنوعٍ نوعٍ ممّا يمكن أن يقع فيه من الورطات، فلا يتأتّى استقصاؤها، وإن تأتّى بعضُها اقتضى طولاً مُمِلاً، ولكنّا نقتصِرُ من ذلك على عيونٍ فيها اعتبار، ولها عمّا سواها اختصاص، وبما سُطِّر من ذلك ـ وإن قلَّ ـ يقعُ الاستدلالُ على ما سُكِت عنه، ولا سيّما في هذا الوطن، الذي لا يغبّ فيه لقاءُ العدوّ، على نِسْبةِ ما قاله امرؤ القيس في بيته الجاري مجرى المثل:[2]

فَيَوْمٌ عَلَيْنا ويَوْمٌ لنا ... ويَوْمٌ نُساءُ ويومٌ نُسَرّ

فمن أغرب مَنْ مَنَّ الله عليه بالنجاةِ بعد الإشراف على الهلاك، وشاهِدُ الحال من حكايته عن نَفْسِه ينبىء باشتدادِ الأمر عليه، وما قيّض الله له من سبب ظنّه متلفاً له، فكان آخذاً بيده، وضامناً لخلاصِه، وكفيلاً بنجاتِه، ما حكاه ابنُ الصيرفي[3] قال: أخبرني مَنْ شَهِدَ وقيعة النُّيَيْل[4] بغرناطة، وكانت يومَ ثُلاثاء

---

(١) ـ في الديوان: يناجد.

(٢) ـ المستطرف للابشيهي ١ / ٧٩، محاضرة الأبرار ١ / ٢٩٥، ٣٩٦.

(٣) ـ أبو بكر يحيى بن محمد بن يوسف الأنصاري الغرناطي، مؤرخ وشاعر ووشاح كان من شعراء دولة المرابطين وخدّام أمرائها، له كتاب «الأنوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية» أخذ عنه مؤلف كتاب أعمال الأعلام كثيراً، وله كتاب «تقصّي الأنباء وسياسة الرؤساء» توفي سنة ٥٥٧ هـ وفي الإحاطة سنة ٥٧٠ هـ (انظر: التكملة لابن الأبار ص ٧٢٣ (ط. مدريد)، الإحاطة ٤ / ٤٠٧ ـ ٤١٥، المغرب لابن سعيد ٢ / ١١٨، نفح الطيب ٣ / ١٨١).

(٤) ـ ذكرها عبد الله بن بلّقين بن باديس في مذكراته ص ١٢٩، ٢١١ وذكر فيها أن النصارى وصلوا على حين غفلة ووافق ذلك أول ظهور المرابطين ووصولهم سبتة.

من صفر سنة ثمانٍ وسبعين وأربعمائة، قال: وَرَدَ على حفيد باديس بغرناطة قومس يقتادُ زُهاء أربعمائة فارس من أنْجادِ قَوْمِهِ، فضيَّفَهُ وأكرمه، فشطّط الروميّ عليه، فتوقَّف له حفيدُ باديس(١) وأظهر التهاون به فشَنَّ العِلْجُ الغارة على فحص غرناطة، فاكتسح جميعَ ما ألْفاه، فاضطرب محلّته على فرسخين من المدينة، بموضع من سَطْح جبلها يعرف بالنَّيْبَل، فماجَت المدينةُ بأهلها، ووقع الهرج فيها، ومشى بريحُ حفيدِ باديس في عسكريّته بالركوب، فالتأمَ له نحو سبعين فارساً، واجتمع إليه وزراؤه وأحباؤهم، ففاوضهم في النازلة، فأشار عليه مشيخةُ عبيدِ جدِّهِ ومن له سِنٌّ وحِنكَةٌ الإنفاذَ في الخيْل المَهْدَويَّة بالجهات، والمجهزَة في الأطراف، فإذا وردتْ نُودِي في الناس بالجهاد. ونهضت الخيلُ والرَّجْلُ فيما يربى على عددِ العدوّ، وكان الظَفَرُ مَرْجُوّاً، ودَفَعَ في صدر هذا الرأي الغِلْمَةَ والصِبْيَةَ الذين غلبوا عليه، ورأوْا أن يعاجِلَ مَشْيَ البريح في الناس بالجهاد، فإنه لا يتخلّف أحد، ويبادر العدوَّ قبل فَوْته، ورجل المدينة يهلكه لكثـرتـه، فواطأهم على هذا الرأي، (ص ٢٥٢) ومشى البريحُ في الناس بالخروجِ إلى لقاء العدوّ، فنشطت الأغْمارُ والحاكةُ وغِمارُ الناس ومن احتدمت نفسُهُ على ولـيّ أُسِرَ له، وتهاونوا بالعدوّ واستحقروا أمره، ولم يخالجهم ريبٌ في قتلهم وأسْرِهم، فكان ذلك، ولكن بخلاف ظنّهم. وخرج من الناس الجمُّ الغفير، ومشت بهم تلك الخُيَيْلة، فباتوا بإزاءِ العدوّ تلك الليلة، وكثرت عندهُمُ الضوضاء والتأذين في وقتٍ وغيرِ وقت، وعلت الأصواتُ، فتبيّن من ذلك للعدوِّ الفَشَلُ، وظهر لقربه منهم الخللُ، وبدت العورةُ، وتيقَّن فيهم الفرصة. ولما طلعت الشمسُ برزوا للحرب على غير تعبئة، ممّن ليست له منّة ولا له دُرْبَة ولا على أُهْبة، وانقسم جَمْعُ الروم على فرقتين، ثبتتْ إحداهُما وصدمت الاخرى، فطُحِنَتْ تلك الخُيَيْلة، وفرَّت الرجلة، وأخذ الناسُ في غير طريق، فتردّوا من الجبال، وهووْا من الأجراف، وسقطوا في الأخاديد، وأُعْمِلَتْ فيهم الرماح، ووُضِعَ السيفُ، فهلك الجلّ، ونجا الفَلّ - وهو الأقلّ - قال المخبر:

(١) - في الأصل: بادس.

وكنت فيمن نجا مذهولاً، سَقَط الرمحُ من يدي، وحملْتُ التُرْسَ ولا أعلم، وأخرجَني الله إلى طريق منجاة، فركبتُها، فمرةً أقع واخرى أقوم، فأدركْتُ فارساً على فَرَسٍ أدهم، رمحه على عاتِقِه، ودرقتُهُ على فخذه، ودرعه مهتكة بالطعن، وبه جرحٌ في وجهه، يَثْعَب[1] دماً تحت مغفره، وهو ينهضُ على رَحْله، فجعلته بيني وبين المشهد، وثابت إلـيّ نفسي، فوجدتُ ثقلاً، فتذكرتُ الترس، فأخرجتُ حمالته عن عاتقي، وألقَيْتُهُ عنّي، فوجدت الخفّة، واستنْشَقْتُ ريح الحياة، وعدتُ إلى العدْو، فصاح فـيّ ذلك الفارس: خذ الترس. قلت: لا حاجةَ لي به. قال: خذه. وأغْلَظَ في القول. فتركْتُهْ ووليْتُ مُسْرعاً في العَدْوِ، فهمز فرسه ووضع سِنان رُمْحِهِ بين كتفيّ وقال: خذ الترس وإلاّ أخرجته من صدرك. فرأيتُ الموتَ الذي فررتُ منه، ورجعتُ إلى الترسِ فأخذته وأنا أدعو عليه، فأسرعتُ عدْواً، فقال لي: على ما كنتَ يكونُ سَيْرُك. فاستعبرتُ وقلت: ما بعثه الله إلاّ لهلكي. وإذا بقطعةٍ من خيل الروم قد بصرت به، فتقطّعتْ في أثره، فوقع في روْعي أنه يلهثُ في الجَرْيِ فيسْلَمُ وأُقْتَل، فلما ضاق انطلق بيني وبين أقـربهم إليه، وعـطف عليه كالعُقاب الكاسر، وطعنه فقطر[2]، وتخلّص الرمحَ منه، وطعن الآخر فنكبه، ونفض الرمح منه، ومال إلى الثالث، فانهزم له، ورجع إلـيّ وقد بُهِتُّ من فعله. ورِشاء من دم الجرح يتطاير من قناع دِرْعه من شدّة نفسه، فقال لي: أصانع أفاعِل، أتُلقي التُرسَ ومعك «مقاتل الروْيّة»؟[3] انتهت[4].

وقد تضمّنت هذه (ص ٢٥٣) القضيّةُ من ذهولِ حاكيها، وعِظَمِ الحال عليه، وما هيّأ الله له هذا الفارس البُهْمَةَ، من سبيل النجاة، وربما كان مغرراً

(١) ـ ثَعَبَ الماء والدمَ كمَنَعَ فجرَهُ فانثعب (القاموس المحيط: ثعب).

(٢) ـ قطره قطوراً: صرعه صرعة شديدة (القاموس المحيط).

(٣) ـ هو أبو حرب مقاتل بن عطية البرزالي من أهل غرناطة ويعرف بالرُيُّه، وهي كلمة اسبانية أصلها: (El - Rojo) ومعناها الأحمر، ولاه الأمير عبد الله بن بلُقين مدينة اللسّانة (Lucena) وهو من الفرسان الشجعان (الإحاطة ٣ / ٢٩٩ ـ ٣٠١، مذكرات الأمير عبد الله ٢٠٦ (ملحق).

(٤) ـ وردت هذه الحكاية في الإحاطة ٣ / ٣٠٠ ـ ٣٠١.

لولا اتفاق لقائه، ما فيه عبرة لمن تدبّره.

ومقـاتِلُ هذا من مساعِرِ الأبطال المشهورين في ذلك الوقت، تتعدّدُ الحكـايات عنـه في باب النَّجْدةِ والفُروسية، بما يشهد له بالبسالةِ التامّة، والشجاعةِ المُفْرطة، ولكنّ الله جعل الناسَ بَعْضَهُمْ فوقَ بعضٍ درجات في كلّ وصف؛ فقد يسلّط على الداهية دويهيةٌ أعْظَمَ منه كما تقول العرب في المثل: «إنْ كُنْتَ ريحاً فقد لاقيْتَ إعصاراً»[1]، وذلك فيما وقع لمقاتل هذا المعروف بالرؤية مع معدّ بن أبي قرّة[2] من فرسان ابن عبّاد.

قال ابن الصيرفيّ بعد حكايته السابقة، والأمرُ يذكّر بالأمر: أخبرني الوزيرُ الكاتبُ أبو محمد عبدالله بن الجبير[3]: أدركْتُه شيخاً ظريفاً مليح الشيبة حسن الشارة بارعاً في الأدب جيّدَ الشِعْر فذّاً في الكتابةِ مُتّسِعَ المعرفة، أخذ عن ابن سِراجٍ[4] وغانم[5] - رحمهم الله - فكان لَسِناً [مفوّهاً][6] عاش مُكرّماً مُرَفَّهاً لم يُصِبْهُ ما كدّر شرْبَهُ وروّع سربه، إلى أن نكبه مرمّل[7] وعاش له ابنٌ اسمه الجبير وكنيتـه أبـو الصباح. وكان للوزير أبي محمد هذا في عنفوان شبيبته مَيْلٌ إلى الجنـديّة لعزّةٍ في نَفْسِهِ، فتجنّد، وكان ديوانُ عسكريّةِ المأمون بن محمد بن

---

(١) - يضرب لمن يجابه بمن هو أدهى منه وأشد (مجمع الأمثال ١ / ٣٠).

(٢) - لم أجد له ترجمة فيما لديّ من المصادر.

(٣) - هو أبو محمد عبد الله بن الجبير بن عثمان بن عيسى بن الجبير اليحصبي من أهل لوشـة، كان أديباً بارعاً، وشاعراً مطبوعاً، عارفاً بالنحو واللغة والأدب، وقد مال في عنفوان شبيبته إلى الجندية، فكان في عسكر المأمون بن المعتمد بن عبّاد، وقد أخذ عن أشياخ بلده غرناطة، وأخذ بمالقة عن غانم الأديب، وبقرطبة عن ابن سراج، توفي بلوشة سنة ٥١٨ هـ (الذيل والتكملة ٤ / ١٨٩، الإحاطة ٣ / ٣٨٥).

(٤) - من أساتذة عبد الله بن الجبير بقرطبة (الذيل والتكملة ٤ / ١٨٩، الإحاطة ٣ / ٣٨٥).

(٥) - من أساتذة ابن الجبير في مالقة (الذيل والتكملة ٤ / ١٨٩، الإحاطة ٣ / ٣٨٥).

(٦) - بياض في الأصل أتممناه من الإحاطة.

(٧) - هكذا في الأصل ولم أجد له ترجمة.

عبّاد[1] مشتملاً عليه، وله في ندى إنشادِهِ موطنٌ ثَبْت ومجالٌ رَحْب. قال: كان مقاتل بن عطيّة المعروف بالرؤية قد ولاّه حفيدُ باديس قاعدةَ اليسانة[2]، واتّقى به ابن عبّاد، فسدّ ذلك الثلم، وضيّق على قرطبة، وألحّ عليها بالضَرْب، حتى أشرق من فيها بريقِهِ، وورد رعيلٌ من خيل إشبيلية قرطبةَ لأخذ أعطياتهم بها، فلحقوا ليلاً، واتّفق أن ضرب مقاتل صُبْحَ تلك الليلة على قرطبة، وشارف باب القنطرة، واكتسح ما وراءه، فارتجّت المدينةُ، وموّج أهلُها، وتفاقم الأمْرُ على صاحبهـا، ونـودِي في العسكريّة بالركوب والاتباع، فاحتدمت أنْفُسُ الجند، وتبـادروا الخـروج، وخـرجتُ في أهبة واستصحَبْتُ فلاناً، ووقفنا في مفاريق الطريق حتى كمل خروجُ الجند، وانقطع المدد، وإذا في أذيالِ القوم فارسٌ قد أخــذت منـه السِنّ على فرسٍ أشهب مُعْتَمٌ بعمّـةِ شرف[3] وعليه ثوبُ حريرٍ أبيض، متقلّدٌ سيفـاً، ودَرَقَتُـه على فَخِذِهِ، ومهاميزُ محلاّة على خفّيه، وفرسُهُ يخبّ به، فقال: من أين أخَذَتْ الخيل؟ فأشرنا له بالرماح إلى المَهْيَع، فأخذ عليه، واختصـرْنا الطريقَ بثنيةٍ ركبناها، أفضت بنا إلى محاذاة جُمْلَةِ مقاتل، والغنيمة في مقدّمته، ونخبة القوم في ساقته، وكلّ من لحق من خيل (ص ٢٥٤) قرطبة وإشبيلية جعل بينه وبين تلك الجملة قَيْدَ غَلْوة[4]، ومشى على رسل حتى ضخم الجيش، وأقبل ذلك الفارسُ على هرولته يخطرف على ذلك اللفيف، فلمـا تجـرّد من غبـارِهِ زاد في الهمـز، فألهبَ فَرَسَـهُ في الجري، وخالط به عسكر مقاتل، فما جرّد سيفه حتى أغمده في فارس عن يمينه، وثنّى بآخر عن شماله،

---

(١) ـ اسمه أبو نصر الفتح بن المعتمد بن عبّاد ويعرف بالمأمون كان قائداً لجيش والده، قتل عندما دخل المرابطون اشبيلية سنة ٤٨٤ هـ، وقد رثاه والده بشعر كثير ومؤثر (المعجب ٢٠٥، البيان المغرب ٤ / ١٤٤، الذخيرة لابن بسام ق ٢ م ١ ص ٦٩ ـ ٧١، ٤١٦، ٤٢٤، ٤٢٥، ٤٣٥، ٤٣٦، ق ٢ م ٢ ص ٥٣٥ ـ ٥٣٦).

(٢) ـ اليسانة واللسانة بالإسبانية Lucena تقع شمال غرب مدينة لوشة (انظر الإحاطة ٣ / ٢٩٩).

(٣) ـ في الأصل: شرب.

(٤) ـ مرمى السهم (القاموس المحيط).

فسقط الفارسان، وأزعجت خيل الساقة إلى المقدّمة، ثم استدارَتْ إليه الوجوه، وفرسه يلطم خد الأرض، وهو يزأر زئير الأسد، وتلك الخيل كالضأن، ثم نادى بصوتٍ خشين: من قائدكم؟ قالوا: ذو الوزارتين أبو حرب مقاتل بن عطيّة. قال أسَمِعني؟ قالوا: نعم. قال: أيا ذا الوزارتين، أيصحّ أن أكون هنا وتدخّن أنت لِحانا؟ هذا نصّ قوله. فقال له مقاتل: بالله الذي لا إله إلّا هو يا ذا الوزارتين ما علمتُ أنك بقرطبة. وجعل يؤكّد الأيْمان ويغلّظها. قال: صدقت، انجُ بالأطْفال فقد تورّطوا. فثنى مقاتل أعِنَّتَهُ، وانسلخ العسكرُ عن الغنيمة، وهزّ القومُ راياتِهم وانصرفوا، فاستُصْرِفَتْ السيقة، ورجع ذلك الفارسُ عوْدَهُ على بدئه، لا يكلّم أحداً، ولا يلتبس به. وعنيت بأمره فسألت عنه فقيل لي: هو معدّ بن أبي قرّة فارس الإسلام. وكان أمر هذا الفارس من الآيات الخارقة العادة لا يعدل به أحدٌ في وقته. انتهت[1].

وهذه من نوادر الاتّفاق من حيثُ التقى بمقاتل هذا على شُهْرتِهِ بالإقدام مَن وقمه[2] صاغراً واستنقَذَ منه الغنميةَ داخراً[3]. وليس لقائلٍ أن يقول إنّ هذا الصِنْفَ البربريَّ بالأندلسِ كان يتحامى بعضُهم بعضاً في غَرَضِ استئصال أهلها، والتصريفِ بينهم، وإبقاءِ الطائفة الزناتيّةِ على مثلها ممّن استخلصها مناوئها، لأنهم من إبايةِ الضَيْم وحمايةِ الأنف والأنَفَةِ من سوء السمعة بالمحلّ الذي لا يكون لسواهم من عُتاةِ الأمم.

وأخبارُ معدّ هذا شهيرة، وقد ابتُلي بقومس من صناديد[4] الكفرة وطواغيت التثليث أراد مبارزته[5] فأظهره الله عليه ونصر دينه، وجعل العلج (ينتمي إليه)[6].

---

(١) ـ لم أجد هذه الرواية في أي من المصادر التي بين يديّ.

(٢) ـ وقمه: قهره وأذلّه (القاموس المحيط: وقم).

(٣) ـ دخِرَ كمنَع وفرِح دخوراً ودَخَرا: صغر وذل (القاموس المحيط: دخر).

(٤) ـ في الأصل: صنايد.

(٥) ـ في الأصل: مبازته.

(٦) ـ هذه العبارة غير واضحة في الأصل.

قال ابن الصيرفي بعد الحكايةِ المسرودة عن معدّ المذكور آنفاً ما نصّه:
ومما يُؤْثرُ من أنبائِهِ أنّه ورد على عبّاد بن عباد[1] رعيلٌ من الروم يقودهم قُومس معظّم عندهم لم يترك في قشتالة وجليقية فارساً مشهور النجدة معلوم البسالة غيره، ولا بارزه أحد إلاّ غلبه، وأقرَّ له بذلك أهلُ ملّته، وسمع بِذِكْرِ معدّ فجاء لمبارزته، فتهمّم المعتضدُ بالروميّ، وبالغ في إكرامه، وحضر مجلسه، فدخل معدّ، فوقع في نفس النصرانيّ، ورفّع المعتضد مكانه وتهمّم به، فقال له الروميّ: هذا هو معدُّ الذي تعظّمون أمره؟ قال: نعم. قال: لا بدّ لي من مبارزته[2]. فاستشاط معدّ غضباً، وثار الدمُ في وجهه. وكان شرّيرَ الخُلُقِ فألقى يده في النصراني وجرّه إليه، فأخرجه من مكانه، (ص٢٥٥) وامر ابنُ عبّاد بتخلّصه من يده، وأقسم معدّ بمجرحات الأيْمان ألاّ يبارزه بسلاح، وتواعدا عن الغد. فلّما شرقت الشمس حُشِرَ الناسُ إلى موضع المبارزة، وخرج القُومس مدَّرعاً في أحصن الشِكّك، وخرج معدّ على فرسه مُعْتَمّاً وعليه قميصٌ مُصْمَت[3]، ورداؤه معقود في صدره، وسوطه في يده، وخيّر النصرانيَّ فاخْتار أن يحمل فحمل ووازن بالرمح صَدْرَ معدّ، حتى ظنّ أن السنان قد خالطه تَفَرَّغَ له من سَرْجِهِ وعانق منكب فرسه، فلما جاوزه الرمحُ عاد في ظهر فرسه، واحتكّ رِكابُ النصرانيّ بركابه، فألقى معدّ السوط في عنقه، ومال إلى الأرض وهمز الفرس، فألقاه على وجهه، وقال له: لولا أنّي وأنت غريبان عند هذا الملك ما عشتَ بعد. فقام النصرانيُّ مغلوباً يصلّب على وجهه. فلما صدر إلى محلّته

---

(١) ـ هو المعتضد بالله عباد بن محمد بن عباد ملك اشبيلية، ولي الأمر بعد وفاة والده سنة ٤٣٣ هـ، كان شاعراً وشجاعاً، توفي باشبيلية سنة ٤٦١ هـ (الذخيرة ق ١ م ١ ص ٣٨٦ - ٣٨٨، جذوة المقتبس ٢٩٦، الحلة السيراء ٢ / ٣٩ - ٥٢، البيان المغرب ٣ / ٢٠٤ - ٢١٦، وفيات الأعيان ٥ / ٢٣، الوافي بالوفيات ٦١٥ - ٦١٧، وصفحات متفرقة في الذخيرة والنفح).

(٢) ـ في الأصل: مبازته.

(٣) ـ الثوب المصمت: الذي لا يخالط لونه لون، والمصمت كذلك الذي لا جوف له (القاموس المحيط: صمت).

وَجّه إليه مِفْرشاً لم يُدْرَ ما ملؤه وفرساً مكسوّاً بمدبّج ذهب من أذنيه إلى أرساغه، فأمر معدّ بحلّ أزرّته، فَحُلّتْ عن منظرٍ حسن وعِتْقٍ بيّن، فقال لرسوله : اردُدْ عليه جلّه واصرفه، وقل له: قد قبلتُ هديّته وأثبت عليها، فها هو ضيفنا وهو أحقُّ بها منّا. فعوضه ابن عباد منها. وقال: ما أدري أيّ سروري أعظم بغلبته أم بصرف هديّته. انتهت.

وواضح أن هذا من جنس الابتلاء الذي صَحِبَهُ صنعُ الله الجميل ولطفُه الخفيّ، وإن كان معدّ لم يكترثْ بذلك ولم يهتمّ به، وثُوقاً بما أمدّه الله به من القوّة، وعوّده من التأييد في مواقف الشدّة، ولكنّ الفِكْرَ بعين البصيرة يقضي أنه ممّا منح الله فيه النصر لمن بُغِيَ عليه، وكذلك هو في نظر من منع من أهل العلم من طلب المُسْلِم المبارزة ابتداء فإنّما ذلك عنده لمكان البَغْيِ الظاهر مِنْ طالِبِ ذلك، فكأنه استشعر سبب النصر إذا ابتدأ به الكافر ناصراً لباطله، ثم استجاب له المُسْلِمُ مستنصراً بالله لحقّه، فيكاد الظهورُ بفضل الله أن يكون مضموناً كما اتّفق لمعدّ مع هذا القومس.

قال ابنُ الصيرفي معرِّفاً هذا الفارِسَ البُهَمَةَ ما نصّه: وكان معدّ هذا يكنى بذي الوزارتين أبي ندر ويلقّب نَصْلَ الدولة. وكان له جوشَنٌ مساميره ذهب، وأدرك عند المعتمد غزوةَ الزلاّقة وهو شيخ هِمٌّ* مرقّهُ عنه، واستعار منه درقته وجوشنه، فألبسه وزيره ابن خلدون[1] يوم الجمعة فاستشهد فيه. رحمهم الله. انتهى.

وقد اقتضى التعريفُ بمعدّ أنّه كان قد شاخ وأسنّ على كثرة ما حضر

* ـ الشيخ الهِمّ: الكبير البالي (لسان العرب: همم).

(1) ـ جاء في كتاب التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً (ص ١٠):
«ولما علا كعب ابن عباد بإشبيلية واستبد على أهلها استوزر من بني خلدون هؤلاء، واستعملهم في رتب دولته، وحضروا معه وقعة الزلاقة، كانت لابن عباد وليوسف بن تاشفين على ملك الجلالقة فاستشهد فيها طائفة كبيرة من بني خلدون هؤلاء ثبتوا في الجولة مع ابن عباد فاستلحموا في ذلك الموقف».

من مواطن القتال ومواقف النزال، وقد نجّاه الله من ذلك حتى بلغ هذا السنّ. ولعلّه مات على فراشه فيُتذكر لما قاله سيفُ الله خالدُ بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ حين حَضَرَتْهُ الوفاة، من كونه لا يجد في جسده موضعاً إلّا وفيه ضربةٌ بسيف، أو طعنةٌ برمح، وهو يموت على فراشه كموت كذا (ص ٢٥٦) فلا نامت عيونُ الجبناء، يكرّرها ثلاثاً أو كما قال.

وقد كان دريدُ بنُ الصمّة[1] من الفرسانِ المشهورين والشجعانِ المعروفين، وقد بلغ من السنّ مثلَ ما بلغ معدّ، حتى لم يبقَ فيه بقيّة، ولم يَحْضُرْ غزوةَ حُنَيْن إلّا وقد عجز عن الحرب، وإنما حضر للتيمُّن برأيه. ورحم الله معدَّ بن أبي قرّة في موقفه هذا المحمود الذي جلّى فيه عن الإسلام، وأعزّ كلمتَه، وأرغم الكُفرَ وباطله، فهذه المبارزةُ إلى اليوم عند طواغيت الروم. . . .[2] باقية، وكأنّها شاهدةٌ فيما يظهر منهم للمحقّ على المبطل إن نكص عن قِرْنِهِ أو ظهر قِرْنُهُ عليه.

قال ابن الصيرفي: وقد نزلت هذه المبارزةُ عند الروم بمنزلةِ الشهادةِ القائمة في استخراج الحقوق المشكلة والأمور المبهمة، لعلوّ صاحبِ الحقّ بها، وفَلْجه[3] على خصمه، وفوز قدحه، وكذلك ما كانت بين مسلمٍ ونصرانيّ إلّا أظهر الله الحقّ، وفاز المسلم بالسبق، وما أقول ذلك على جهة النُدُور، بل هو المتعارف المشهور، وإنها لخطّةٌ عربيّةٌ، ولكن معناها عند العرب أيّنا أنجد وعند العجم أيّنا المحقّ، والأظهر في أمر هذا الروميّ المعنى العربيّ، إلّا أن يكون أراد أيّنا على الحقّ في اتّباع دينه وحماية شرعه فهنا يغلب هو

---

(١) ـ هو أبو قرّة دريد بن الصمة الهوازني الجشمي من شعراء العرب وشجعانها، خرجت به هوازن يوم حنين لكي تتيمّن برأيه، فقتل كافراً، قتله ربيعة بن رفيع السلمي. ويقال انه عاش نحواً من مائتي سنة (الأغاني ١٠ / ١ ـ ٤٢، الشعر والشعراء ص ٤٧٠ ـ ٤٧٣، الوافي بالوفيات ١٤ / ١١ ـ ١٢).

(٢) ـ بياض في الأصل مقدار كلمة.

(٣) ـ الفلج: الظَفَر والفوز (القاموس المحيط: فلج).

وغيره من أهل ملّته، ويستند في ذلك إلى أنّ المحقّ من النصرانيين يغلب المبطل، فكيف لا يغلب المسلمُ النصرانيّ؟! وحَسْبُكَ ما ذكر ابنُ اسحق في السيرة[1] عن نار اليمن التي كانت تحتكم إليها، إذا حُرِقَتْ، حِمْيَرُ وما قرب منها، وخرج الحُبْران بمصاحفها تعرق جباهها، وقد تكون الغلبة على الوجهين ولا يكون إلّا بين البينين[2].

أخبرني الفقيهُ أبو مروان عبدُ الملك بن بونه قال: ورد على اذفونش بن فردلند[3] من الأرض الكبيرة مما وراء رومة وقسطنطينة قومس ذو أبّهة وشارة وهمّة، وله حول وخيلٌ جمّة، يزعم أنه نقّب في البلاد، ونبض الدولَ عن أنجادِها وأبطالِ جلادها، فما منهم في مبارزته[4] إلّا قتيلُه أو طليقُه، وذهب كلٌّ مذهبٍ بنفسه وبأسه، وكان الاذفونش يديمُ منادمَتَهُ ويصل كرامته، فزها ذلك النصرانيُّ عليه بمنّته وفروسيّته، وكثر ذلك منه حتى أبرم به، فذكر له الاذفونش شجاعة جرير بن عكاشة[5]، وأطنب في أمرِه وأسْهَب، وهو إذ ذاك صاحبُ قلعةِ رباح، وبينه وبين الاذفونش سِلْم، وجعل القومس يتهاون بذلك، ويظنُّ أنّه مباهاة عليه، ومساجلة لكلامه وزعْمه، وتأدب مع الأذفونش، فألغز عن تكذيبه، بأن قال: فلا شيء أحبّ إليّ من مبارزته[6]. فوعده الاذفونش بذلك، وأعلمه بموضعه. وألحّ القومس في استنجازِ عِدته، وفهم الاذفونش أين ذهب من (ص ٢٥٧) تكذيبه، فركب في جريدةٍ من خيله وركب القومس بمحلته، وعند إطلالهم على قلعة رباح، ثار الصِياحُ، ولجأت الباديةُ إلى القاعدة، وانجلى الغبارُ عن الأذفونش والخيل، فوجه إليه جرير شهماً من

---

(١) ـ سيرة ابن اسحق ص ٣٢.

(٢) ـ في الأصل: البنين.

(٣) ـ ألفونسو بن فردناند.

(٤) ـ في الأصل: مبارته.

(٥) ـ لم أجد له ترجمة.

(٦) ـ في الأصل: مبارته.

أصحابه يعرف بابن مسلمة[1]، وحمّله من كلامه «إنّ هذا خَتْرٌ وغدر، وحلُّ ما عندنا من العَهْدِ لا يرضى به سيِّد قومٍ ولا زعيمُ ملّة» وأدّى السفيرُ ذلك عنه، وجلى عن نفسه، فصوّب الاذفونش قَوْلَهُ، ونوى ما توهَّمَهُ، وأراه القومسَ، وأعلمه بما قصد له وصدر السفيرُ إلى جرير، وخرج له عن الجليّة، فنشطَ للمبارزة، واجتمع إليه أصحابه، وعزموا عليه في التنزّه عنها، وابتدر كلُّ واحدٍ منهم إليها. وعاد السفير إلى الأذفونش بالتضييف والهدايا التي تصْلُح لهم، واعتذر عن جرير بِوَعْكٍ أصابه، وقال: العوض حاضر. فأنتحى العلج، وعظم في نفسه، وقال: لستُ أبارز منكم أنفاً، وإنما أردت مبارزته[2] لشائع ذكره أنه فارسُ أهلِ دينه، لأغلبَ بغلبته المُسْلِمَةَ، كما غلبتُ النصرانية، وفي رجالي بعدُ من يبارزك أنت وغيرك. وصدر السفير بذلك إلى [ابن] عكاشة، فرأى أن أصحابه قد جروا عليه ما غضّ منه. وعزم على المبارزة، وتقدم الإعلام إلى الاذفونش، فركب، وركب القومس في شِكّتِهِ، واستظهر بجمعه وهم زهاء ثلاثمائة فارسٍ أنجاد، وخرج جريرٌ في آلةِ حربه، ومعه نحو المائة من أصحابه، وانتبذ كلُّ واحد منهم إلى البراح، والتفت جرير إلى أصحابه مشفقاً عليهم من قِلّتِهِم وكثرة عدوّهم إنْ أحدث في قومسهم ما يُوجِبُ حميّةَ نفوسهم. ثم حمل وحمل القومس فتجاولا والموتُ ثالثهما، وطال العراك بينهما، وأمكنَ الله ابنَ عكاشةَ من العِلْج فطعنهُ في صدره طعنةً أدخلتْ في جوفه حَلَقَ درعه، وأخرجت العاملَ[3] وراء ظهره، فخرّ على وجهه، ونزل جريرٌ فقطع معاقد مغفره وحمل السيفَ على أوداجه فانحاز رأسُهُ عن جسده. وهمّ أصحابُه بجرير وأصحابه، فمنع الاذفونش من ذلك، فأقبل جريرٌ مُسَلّماً عليه، فقبّل بين عينيه، وأظهر السرور بفعله. واحتُمل العِلْجُ إلى الحصن، فبذل أصحابُه الرغبةَ فيه، فهيّأ له جريرٌ تابوتاً، وسمّر عليه، ودفعه لهم. انتهى ما قاله ابن الصَّيْرفي بعد الذي

(١) - لم أجد له ترجمة.

(٢) - في الأصل: مبازته.

(٣) - عاملُ الرمحِ وعاملتُه: صدره (القاموس المحيط: عمل).

قدم له من مقدّمات. وإنما معناها عند العرب آينا[1] الأنجد؟ وعند العَجَمِ آينا المحقّ؟ وحمّلها فيما بين معدّ وقرنه المعنيين، والأظهر أنّها على المعنى الذي هو عند العرب، وكذلك يظهر أنّها فيما بين جرير بن عكاشة وهذا القُومس، ولكن إن حُمِّلَتِ المعنى الآخر فهي قابلةٌ له، ومعلوم أنّها على كلّ تقدير من مواطنِ الحرب الصعبة (ص ٢٥٨) التي لا يقومُ بما يطرق منها من الابتلاء إلّا الأفذاذُ كهؤلاء المذكورين. ومن اضطر إلى موطنٍ من أمثالِ هذه المواطن من حُماةِ الدين الذين يذبّون عن حوزته، ويدافعون عن حُرْمته، فإنّ الله يَرْحَمُ اضطراره، ويُعْلي في نصر دينه مِقداره، عزّ وجهه وجلّت قدرته.

ولحالةِ الاضطرار على الجُمْلَةِ في مواطن الشدّة أثرٌ عظيمٌ في إجابةِ الدعاء وصَرْفِ البلاءِ لقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾[2]. ولقد وقع من ذلك عجبٌ أتذكّرُهُ فأشاهد فيه جميلَ الصنعِ من الله تعالى - وإن كان من غيرِ ما سبق - وإنما نقلْتُهُ لما لحقني فيه من الاضطرار، وذلك أنّي كنتُ في ذلك التمحيصِ[3] الشديد والابتلاء العظيم الذي أدْرَكَ والدي، في التاريخ المتقدّم ذِكْرُهُ هنا، بحالِ مخافةٍ عظيمةٍ ورهبةٍ كبيرة، فكُنْتُ أستخفي في المواضع المُغْفَلَةِ، والأماكنِ غيرِ المطروقة. وكنتُ في بعضِ الأيّامِ مع بَعْضِ الإخوان في الله الذين أفادَتْهُمْ تلك النكبة، وفتح الله بِلُطْفِهِ في صُحْبَتِهِمْ، وكنتُ أعتقد فيه أنه من أولياء الله حقّاً، لأني لم أشاهد أحداً قطّ كان أحفظَ للسانه وسائرِ جوارحه من الإلمام بما لا يجوز له منه، فكنت أسكُنُ معه في دارٍ مصريّة[4]، كانت مُكْتَراةً له بإزاء منزله، معدّةً لإنزال الضيف، وما أشبه ذلك، فسكنتُ فيها لإغفالها، يتردّدُ إليّ فيها بِقُوتي وبماء لوضوئي، إلى أن وَرَدَ عليه بعضُ العلماء ممّن كان يتبرّكُ به، وكان هو يُنْزِلُهُ منزلةَ مشيخته، وكنتُ

---

(١) - في الأصل: أين

(٢) - الآية ٦٢ من سورة النمل.

(٣) - في الأصل: المحيص.

(٤) - كذا في الأصل.

أنا[1] أيضاً أثِقُ به، وهو من شيوخي، فاتفق وإياي رأيُه أن ينزلَ بالمصريّة معي، وأنا على حالِ استخفائي معه، فاتفق لبعضِ الناسِ أن أضافَ ذلك الشيخَ بطعامٍ أتاه به، إلى حيثُ كان نزولُهُ من هذه المصريّة، وكنت أنا وصاحبي والشيخُ نَحْذَرُ جميعاً من اطّلاعِهِ عليّ هنالك، لِما يُتوقّع من تساهُلِ الناس في مثل هذا السرّ، فتلحقنا الاذايةُ باشتهاره، وكان فيها صورةُ مخدعٍ صغير له غَلَقٌ وما يفعل به، فاستخفيتُ هنالك، وأُذِنَ للرجل الآتي بالضيافةِ في الدخولِ بهما، فدخل، وأقبلوا على (ص ٢٥٩) الأكلِ منها، وأنا في ذلك الموضِعِ لم يَشْعُرْ بي. وفي أثناء إقامتي هنالك كنت أنسخُ بَعْضَ كُتُبِ العلم، واعتراني [شَرَقٌ][2] كبير سدّ مَجْرَى النَفَسِ منّي، فشاهدتُ الموت عِياناً، ولم أستجِز فضيحةَ صاحبي فيما كان لا يريدُ أن يُطْلِعَ ذلك الإنسانَ عليه، فعزمتُ على إيثار الموتِ دونَ أن يُسمَعَ لي حِسٌّ من سُعالٍ ولا غيره، وفي هذه اللحظة خَطَرَ على قلبي قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ فضرعْتُ في قلبي إلى الله تعالى داعياً، إذْ لم أكُنْ أستطيع الكلام، فما هو إلّا أن توجّهْتُ إليه بالدعاء في تلك الحال، وإذا بتلك الغُصَّةِ قد ذهبت، والشَرَقِ قد ارتفع، كأني قد شربْتُ قَدَحاً من الماء، حتى لم أجِدْ لها أثراً، ولم أفتقِرْ لما يقتضي سَمْعَ حسّي من سعالٍ ولا من نحنحةٍ ولا غيرها. فعجبتُ من ذلك غايةَ العجب، وأنا أعدّها من كراماتِ ذلك الصاحبِ الفاضلِ رحمه الله وقدّس ثراه.

وكثيراً ما يصدُرُ مِمَّنْ ابتُلِيَ بشيءٍ من هذه الحوادثِ الواقعةِ والنوائبِ الطارقة ذمُّ الدهرِ ونِسْبَةُ الجَوْرِ لحُكْمِهِ كقولِ أبي المظفَّر الأبيوردي[3] رحمه الله: [4]

---

(١) ـ في الأصل: آلا.

(٢) ـ بياض في الأصل تقديره: شَرَقٌ، فقد ذكرها فيما بعد.

(٣) ـ أبو المظفر محمد بن أبي العباس أحمد بن محمد القرشي الابيوردي، شاعر مشهور ظريف، له مؤلفات منها ديوان شعر، وتاريخ أبيورد ونسا، وطبقات كل فن، وهو منسوب إلى أبيورد بلدة في خراسان، توفي بأصبهان مسموماً سنة ٥٥٧ هـ (وفيات الأعيان ٤ / ٤٤٤، معجم الأدباء ١٧ / ٢٣٤، الوافي بالوفيات ٢ / ٩١).

(٤) ـ ورد البيتان في وفيات الأعيان ٤ / ٤٤٦، الوافي بالوفيات ٢ / ٩٢، ومعجم الأدباء =

تَنَكَّر لي دهري وَلَمْ يدرِ أنّني أعِزُّ وأحداثُ الزمانِ تَهونُ
فَظَلَّ يُريني الخَطْبَ كَيْفَ اعتراؤه[1] وظِلْتُ[2] أريه الصَّبْرَ كَيْفَ يَكُونُ

وهذا مما ينبغي أن يُجْتَنَب، لقولِ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «لا تَسُبُّوا الدهرَ فإنّ الله هو الدَهْر»[3] وقد يكلم الناس في هذا المعنى، وهو ظاهر، فإنّ تلك الأمور هي من قبيل نسبتها للدهر لا تصحّ، ففي الواقع ما فيه من الكذبِ وقلةِ الأدب. وفي هذا المعنى قال الخطيب أبو محمد عبد الله بن جُزَيّ[4]، رحمه الله:

نَذُمّ زَمَاناً ما لَهُ مِنْ جنايةٍ
ونَشْكُوه لو يُغْني عن المرءِ شَكْواه
ولا ذَنْبَ فيها للزمانِ وإنّما
جَنَيْنا فَعُوقِبْنا بما قَدْ جَنَيْناه
هُوَ القَدَرُ الجاري على الكُرهِ والرضا
فصَبْراً وتسليماً لما قدَّرَ الله

وشبيهٌ بذمّ الزمانِ ذمُّ أهله، وتبرئةُ النفسِ من النَقْصِ، ونسبته إليهم. ورحم الله ابن شرف[5] فقد أجادَ هذا المعنى في حِكَمِهِ؛ إذ قال: «يا ابنَ آدم تذمُّ أهْلَ زمانك، وأنت واحدٌ منهم، كأنّ جميعَهُم الجريء، وأنت وَحْدَكَ

= ١٧ / ٢٤٦.

(١) - في الوفيات والوافي ومعجم الأدباء: اعتداؤه.

(٢) - في الوفيات والوافي ومعجم الأدباء: وبت.

(٣) - مسند ابن حنبل ٥ / ٢٩٩، ٣١١.

(٤) - هو أبو محمد عبد الله بن أبي القاسم محمد بن أحمد بن جُزيّ الكلبي، وقد أسلفنا الترجمة له.

(٥) - هو أبو الفضل جعفر بن محمد بن شرف صاحب سر البر وصاحب الحكم (٤٤٠ هـ - ٥٣٤ هـ). سلفت الترجمة له.

البريء، كلّا بل جَنَيْتَ وجُني عليك، فَذَكَرْتَ ما لديهم ونسيتَ ما لديك». انتهى[1]. وقد أحسن في ذلك رحمه الله.

ومـا أعجبَ ما أوصى به[2] رجلٌ من الحكماء بَنِيهِ فقال: «يا بَنِيَّ، أوصيكم، إيّاكم والجزع عند المصائب، فإنه مجلبةٌ للهمّ، وسوءُ ظنٍّ بالربّ، وشماتةٌ للعدوّ، وإيّاكم أن تكونوا للأحداثِ معترين، (ص ٢٦٠) ولها آمنين، فإنّي واللهِ ما سخِرْتُ من شيءٍ إلاّ نزل بي مثلُهُ، فاحذروها وتوقّعوها[3]، فإنّما الإنسانُ في الدنيا غَرَضٌ تتعاوره السهام، فمجاوِزٌ له ومقصِّرٌ عنه وواقعٌ عن يمينه وشِماله حتى يصيبَهُ بعضُها، واعلموا أنّ لكلِ شيءٍ جزاءً ولكلّ عملٍ ثواباً. وقد قالوا: «كما تَدِينُ تُدان[4]، ومَنْ يَرَ يوماً يُرَ به»[5]، وقال الشاعر:[6]

إذا ما الـدهـرُ جَرَّ على أُناسٍ   حوادِثَـهُ أنـاخَ بآخـرينـا
فَقُـلْ للشـامِـتين بنـا أفيقـوا   سَيَلْقى الشـامِتُـون كمـا لَقِينـا

وللتحذير من معنى السخريةِ ونحوها قال ابنُ شرف في «سرّ البرّ»: «وإيّاكَ وعادةَ الزراية، فإنها مجمعة العيوب، وذلك أنَّ الزرايةَ نتيجةُ التيه، والتيهُ نتيجةُ الكِبْر، والكِبْرُ نتيجةُ الإعجاب، والإعجابُ نتيجةُ الجَهْلِ، وينبغي لِمَنْ وَضَعَ نفسه موضِعَ الزرايةِ بغيره أن ينظُرَ إلى من ازدرى به، فإن كان ناقصاً نُقصاناً أوْجبَ الازدراء به نظر إلى نفسه، فإن وجد فيها نقصاناً آخر، وأحرِ به أنْ يجرب،

---

(١) ـ ورد هذا النص في قلائد العقيان ٢٩١، والخريدة ٢ / ٢٦، والذخيرة ق ٣ م ٢ ص ٨٨١.

(٢) ـ في الأصل: ربه.

(٣) ـ كذا في الاصل، ولعل المقصود: وتوَقّوها.

(٤) ـ ورد هذا المثل في لسان العرب (مادة دين).

(٥) ـ ورد هذا المثل في فصل المقال ٤٦١.

(٦) ـ ورد البيتان في بهجة المجالس ١ / ٧٤٧ والعقد الفريد ٢ / ١٥٠ منسوبين للعِلاء بن قَرَظة، خال الفرزدق، ووردا في عيون الأخبار ٣ / ١١٤ منسوبين للفرزدق ونسبا في حماسة البحتري ١٤٩ ـ ١٥٠ لمالك بن عمر الأسدي.

فالأولى به أنْ يَدْعُوهُ إلى البكاء معه على ما بهما من نقص، فإنّ أهلَ البلاء يتأسى بعضُهم ببعض، واعلم أنّ الازدراء لو كان له موضعٌ أو وقتٌ لم يجِبْ أن يقع إلاّ ممّن لا عيبَ فيه، فليذكر المرءُ عَيْبَ نفسِهِ ويُعْرِضْ عن عَيْبِ غيره». انتهى. وذلك واضح.

وكما أن اجتنابَ الرذائلِ والزرايةَ وما ترتّب عليها واجبٌ، فكذلك ارتكابُ الفضائلِ وما قاد إليها لازمٌ. جلس سليمانُ بنُ عبدِ الملك ذاتَ يومٍ مجلساً، فدعا بيزيد بن أبي مسلم[1]، وكان صاحبَ أمْرِ الحجّاج، فلمّا دخل عليه وهو موثّقٌ بالحديد مصفّداً، ازدراه حين رآه، ونَبَتْ عيناه عنه، فقال: ما رأيتُ كاليومِ قطّ، لَعَنَ الله رجلاً أقادكَ رسَنَهُ وحَكّمَكَ في أمره. فقال له يزيد: لا تَقُلْ هذا يا أميرَ المؤمنين، إنّك رأيتني والأمرُ عنّي مُدْبِرٌ، وهو عليكَ مُقْبِلٌ، ولو رأيْتَني والأمرُ عليّ مُقْبِلٌ لاستعظمتَ منّي ما استصْغَرْتَ ولاستجلَلْتَ ما استحقرْتَ. قال سليمان: ثَكِلَتْكَ أمُّك، اجلس. فجلس، فقال سليمان: عزمتُ بابن أبي مسلم لَتُخْبِرُني عن الحجّاج ما ظنُّك به؟ أتراه يهوي في جهنّم أو قد قاربها؟ قال: يا أميرَ المؤمنين: لا تَقُلْ هذا للحجّاج، وقد بذل النصيحة، وأخفر دونكم ذمّته، ووالى وليّكم، وأخافَ عدوّكم وإنه يأتي يومَ القيامة عن يمينِ عبدِ الملك ويسارِ الوليد بن عبد الملك، فضعه حيث شئت. فصاح به: اخرج. ثم الْتَفَتَ إلى جُلسائِه، وقال: ثَكِلَتْهُ أمُّه ما أحْسَنَ ترضّيه لِنَفْسِهِ ولصاحبه! فلقد أحسن المكافأة بحسن الصنيعة، خلّوا سبيله. انتهى[2].

فقد استفاد هذا الرجلُ بوفائِهِ لصاحبه ومكافأةِ أياديه قبله ما استفاد (ص

(١) - أبو العلاء يزيد بن أبي مسلم دينار الثقفي، كاتب الحجاج بن يوسف، وأخوه في الرضاعة، ولما مات الحجاج خلفه على خراج العراق، تطاول على سليمان بن عبد الملك فوضعه في السجن، فلما ولي يزيد بن عبد الملك أخرجه من السجن وولاه افريقية، وقتل سنة ١٠٢ هـ لأنه أراد أن يسير سيرة الحجاج. (الفرج بعد الشدة ١ / ٢٨٧ - ٢٩٢، ٢ / ١٤٤ - ١٤٥، ٣ / ٣٥٦ - ٣٥٧، العقد الفريد ٢ / ٣٩، إعتاب الكتاب ٥٧ - ٥٩).

(٢) - وردت هذه الحكاية في إعتاب الكتاب ٥٧ - ٥٩.

٢٦١) من رضا الخليفةِ عنه وتخليةِ سبيله من الاعتقال، ولا أحسبُ مثل هذا إلّا من مواطنِ الصِدق التي تكرّرتْ الإشارةُ إليها في مواضع كثيرة من هذا الموضوع. يقول ابن شرف في «سرّ البرّ»: «اعلمْ أن الصِدْقَ أمانةٌ وعزّ، والكذب مهانةٌ وذلّة، والصدق أنفةٌ وقوة، والكذب ضعفٌ وخِسّة». انتهى. وهذا كما قال.

وذُكِرَ عن محمد بن الحسن[1] عن منارة اليزيديّ[2]، وكان مختصّاً بخدمةِ الخُلَفاء المهديّ والهادي والرشيد، قال: رُفعَ إلى أميرِ المؤمنين الرشيد أنّ بدمشق رَجُلاً من بقايا بني أميّة عظيمَ الجاه، واسعَ الدنيا، كثيرَ المالِ والأملاك، مُطاعاً في البلد، له عِدةُ أولادٍ ومماليك، يركبون الخيل ويحملون السلاحَ ويغزون الروم، وأنه سمحٌ جوادٌ كثيرُ البَذْلِ والضيافة، وأنه لا يُؤمَنُ منه، فَتْقٌ يتعذّرُ رَتْقُه. وكان وقوفُ الرشيدِ على هذا سنة ستٍّ وثمانين ومائة، وقد عاد من الموسِم وبايع لبنيه الأمينِ والمأمونِ والمؤتمن، وقد حلّ بالكوفةِ يريدُ مدينةَ السلام، فدعاني وهو خالٍ، فقال إني دعوتُكَ لأمرٍ يهمّني، وقد منعني النومَ، فانظر كيف تعمل. ثم قصّ عليّ الخبرَ وقال: اخرجْ الساعةَ، فقد أعددتُ لك الجمازات[3]، وأكثرتُ لك من الزاد، وضممت إليك مائةَ غُلام، فاسلُك البرّيّة، وهذا كتابي إلى أمير دمشق، فإذا دخلتَ فابدأ بالرجل، فإن سَمِعَ وأطاعَ فجِئْني به، بعد أن تُقَيِّدَهُ بهذهِ القيود - ودفعها إليّ - وإلّا فتوكّلْ أنتَ ومَنْ معك به حتى لا يفوت، وأنفِذ الكتابَ إلى صاحب دمشق، ليركب[4] في جيشِهِ ويقبضَ عليه ويسلّمه إليك لتجيء به، وقد أجّلتُ لك ستّاً

---

(٢) - في الفرج بعد الشدة (٢ / ٣٤): محمد بن الحسن بن بشر الأدمي.

(٢) - مولى أبي جعفر المنصور ويعرف بمنارة خادم الخلفاء، كان مع المنصور عند وفاته سنة ١٥٨هـ. وفي المعارف لابن قتيبة ص ٣٧٩ أن اسمه منارة البربري، ويبدو أن البربري تصحيف لليزيدي.

(٣) - ابل مدرّبة على العدو السريع.

(٤) - في الأصل: ويركب. والصواب من الفرج بعد الشدة ٢ / ٣٦.

لذهابك وستاً لعوْدك ويوماً لجلوسك، وهذا محملٌ تحمله[1] في شِقِّه وتقعد أنت في الشقِّ الآخر، ولا تكِلْ حِفْظَهُ إلى غيرك، حتى تأتيَني به في اليوم الثالث عشر من خروجك، وإذا دخلتَ داره فتفقّدها[2] وجميعَ ما فيها وأهلَهُ وولدَهُ وحاشيته وغِلْمانَهُ وما يقولون، وقدِّر النعمة والحالَ والمحلَّ، واحفظ ما يقول الرجل حَرْفاً حَرْفاً من يوم وُقوعِ عينِكَ عليْه إلى أن تُوافيَنا به، وإيّاكَ أن يَفُوتَكَ مِنْ أمْرِهِ شيء. أفَهِمْتَ؟ قلت: نعم. قال: انطلِق. قال منارة: فودّعْتُه وانصرفت، فركبت الجمّازات وسرتُ أطوي المنازل، وأسيرُ الليْلَ والنهار، ولا أنزِلُ إلّا للجمع بين الصلاتين أو لحاجة، إلى أن وصلتُ دِمَشْق في أوّلِ الليلةِ السابعة، وأبوابُ المدينةِ مُغْلَقَة، فنِمْتُ بظاهرِها إلى أن فُتِحَ الباب، فدخلْتُ على هيئتي، حتى أتيتُ بابَ دارِ الرجل، وعليه صُفَفٌ عظيمة[3] وحاشيته كثيرة، فلم[4] أستأذِنْ، ودَخَلْتُ مجلساً رأيتُ فيه قوماً جلوساً، فظننتُ أنَّ الرجل فيهم، فقاموا إليّ (ص ٢٦٢) ورَحَّبوا بي وأكرموني. فقلت: أفيكم فلان؟ فقالوا: لا، نحن بنوه، وهو في الحمّام. قلت: فاسْتَعْجِلُوه. فمضى بعضُهم يستعجِلُهُ وأنا [أتفقّد][5] الدارَ والأحوالَ، فوجدتُها قد ماجَتْ بأهْلِها مَوْجاً شديداً، فلم أزَلْ كذلك حتى خَرَجَ الرجُلُ بعد أن طال، واسْتَرَبْتُ به، فرأيتُ شَيْخاً قد أقبل بزيِّ الحمّام، يمشي في الصَّحْنِ، وحولَهُ جماعةُ شُبّانٍ وفتْيانٍ وأحْداث، فعلِمتُ أنّه الرجلُ ومَنْ حَوْلَه بنوه وبنو بَنِيه وغِلْمانه، فجاء حتّى سلّم عليَّ سلاماً خفيّاً[6]، وسألني عن أميرِ المُؤمنين واستقامةِ حَضْرَته، فأخبرْتُه بما وجب، فما وفّى كلامَهُ حتى جيء بأطباقٍ وفاكهةٍ فقال: يا منارةُ كُلْ معنا. فقلت: مالي إلى ذلك من حاجة. فلم يعاوِدْني، وأقبلَ يأكُلُ هو والحاضرون. ثم غسل يده ودعا بالطعام،

---

(١) - في الفرج بعد الشدة: تجعله.

(٢) - في الأصل: فتبعدها. وما أثبتناه مأخوذ من الفرج بعد الشدة.

(٣) - في الأصل: ضعف عظيم، وما أثبتناه مأخوذ من الفرج بعد الشدة.

(٤) - في الأصل: فلمّا.

(٥) - بياض في الأصل أتممناه من الفرج بعد الشدة.

(٦) - كذا في الأصل، وفي الفرج بعد الشدة: خفيفاً.

فجاؤوه بمائدةٍ عظيمةٍ لم أرَ مِثْلَها للخلفاء. فقال لي: يا منارةُ تَقَدَّمْ فكل معنا. فامتنعتُ فما عاوَدَني، وأقبلَ يأكلُ هو وأولاده، وكانوا عشرة[1]، وجماعة كبيرة من أولادِهم وقرابَتِهم وحاشيتهم. وتأمّلتُ أكْلَهُ فإذا هو يأكُلُ أكْلَ الملوك. وتأمّلْتُ ذلك الاضطرابَ الذي كان في الدار - وقد سكن - ووجدتُه لا يُرفع من بين يديه شيءٌ كان على المائدة إلاّ تَقَسَّمَهُ الغِلْمان، وكنتُ لمّا نزلتُ أخذ غِلْمـانُـهُ الجمـازاتِ وجميعَ غِلْماني فعدلوا بهم إلى دارٍ له، فما[2] أطاقوا ممانعتهم، وبقيتُ وحدي ليس بين يديّ إلاّ خمسةٌ من العبيد أو ستةٌ وقوفٍ على رأسي، ففكـرتُ وقلت في نفسي: هذا جبّـارٌ عنيد، وإن امتنـع من الشخوصِ لم أقْدِرْ على منازعتِهِ بمَنْ معي ولا على الاحتفاظِ به إلى أن يلحقَني أميرُ البلد، وجزعْتُ منه جَزَعاً شديداً مع استخفافِهِ بأمري، وتهاوُنِهِ بي، وأنّه لا يدعوني إلاّ باسمي، ولا يفكّرُ في امتناعي من الأكلِ والشُرْبِ، ولا يسألني عمّا جئتُ له، ويأكلُ مطمئناً، وأنا أفكّر، حتى فرغَ من طعامِهِ، وغَسَلَ يده، واستدعى العود، وتبخر، وصلّى ركعتين، ثم قام فصلّى الظهر، وأكْثرَ من الدُعاء والابتهال، ورأيتُ صلاةً حسنة. فلما انفتل من المحراب أقْبَلَ عَلَيَّ وقال: ما أقْدَمَكَ يا منارة؟ فقلت: أميرُ المؤمنين. وأخرجتُ الكتابَ ففضَّهُ وقرأه، فلما استتمَّ قراءته دعا أولادَهُ وحاشيته، فاجتمع منهم خَلْقٌ كثير، فلم أشكَّ أنه يريد الايقاعَ بي، فلما تكاملوا ابتدأ فحلف أيماناً مغلّظة فيها الطلاقُ والعتاقُ والحجُّ والصدقةُ ألاّ يجتمع منهم اثنان في موضع وأن يدخُلوا منازلَهُمْ فلا يظهر منهم أحد إلى أن ينكشف لهم من أمره ما يعملونَ عليه. وقال لهم: هذا كتابُ أمير المؤمنين يأمُرُني بالمسيرِ إلى حضرته، ولستُ أقْعُد بعده ساعةً، فاستوصوا بِمَنْ ورائي من الحُرَم خيراً، وما بي حاجةٌ أن يصحبني غلام، هاتِ أقيادك يا منارة. فدعوتُ بها، وكانت في سفط، وأحضرتُ حدّاداً فمدّ رجْلَيْهِ وقُيِّد، وأمرتُ غِلْمانَه بحَمْلِهِ حتى حصل في المحمل (ص ٢٦٣) وركبتُ في الشِقّ الآخر، وسرتُ من وقتي بالرجُلِ، ولم أرَ أميرَ البلد ولا غيْرَهُ، وسِرْتُ به وليسَ معي

(١) - في الفرج بعد الشدة: تسعة.

(٢) - في الأصل: فلمّا.

أحد، فلما صِرْنا بظاهر دمشق ابتدأ فحدَّثني بنشاطٍ وانبساط، حتى انتهينا إلى بستانٍ حسن فقال: هذا البستانُ لي وفيه غرائبُ من الأشجارِ كذا كذا. ثم انتهينا إلى بستانٍ آخر أحْسَنَ من الأوّل، فقال مِثْلَ ذلك، ثم إلى آخر وآخر. ثم انتهينا إلى قُرىً حِسان ومزارعَ سَرِيّة، فأقْبَلَ يقول، هذا لي. ويصِفُ كُلَّ شيء من ذلك، فاشتدّ غيظي، قلت: وعَلِمْتُ أنه[1] شديد التعجّب منك؟ وقال: ومَنْ يتعجّب؟[2] فقلت: ألسْتَ تَدْري أنَّ أميرَ المؤمنين أهمّه أمْرُك، حتى أرسلَ إليكَ من انتزعك من أهلك ومالك، وأخرجك وحيداً فريداً مقيّداً لا تدري ما تصيرُ إليه، وأنتَ فارغُ القلب قليلُ الفكر؟ فقال: «إنّا لله وإنّا إليه راجعون، أخطأت فراستي فيكَ يا منارة، وظننتك رجلاً كاملَ العقل، فإذا عقلك وكلامك يشبه كلامَ العوامّ وعقولَهُمْ، فأما قولُك في أميرِ المؤمنين وإزعاجه لي وإخراجه إيّاي إلى حضرته هذه[3] فإني على ثقة بالله عزّ وجلّ الذي بيده ناصيةُ أميرِ المؤمنين، ولا يملك معه لنفسه نفعاً ولا ضرّاً إلاّ بمشيئته وإرادته، ولا ذنبَ لي عند أمير المؤمنين أخافُ من أجله، وبعد فإذا عرف أمري، وعلِمَ سلامةَ جهتي، وأنّ الحسدةَ والأعداء رموني عنده بما لستُ في طريقه، وتقولوا عليّ الأباطيل، لم يستحِلَّ دمي، وتحرَّجَ من اذايتي وإزعاجي، وردّني مكرّماً، وأقامني ببلدي[4]، وإن كان سَبَقَ في علم [الله] عزّ وجلّ أنه تبدرُ لي منه بادرةُ سوء، وقد حضر أجَلي، وحان سفكُ دمي على يديه، فلو اجتمعت الملائكةُ والإنسُ والجنُّ على صَرْفِ ذلك عنّي ما استطاعوا، وأنّى أتعجّل الغمَّ وأتسلَّفُ الفِكْرَ بما قد فرغ الله منه!؟ وأينَ مَوْضِعُ حُسْنِ الظنّ بالله الذي خلق ورزق وفطر وأحسن وأجمل!؟ وإنّ أجملَ الأمور الصبرُ والرضا والتفويضُ والتسليم إلى من يملك الدنيا والآخرة، وكنتُ أحسبُ أنّك تعرف هذا، فإذا قد علمتُ مبلغ فهمِك، فإني لا أكلّمُك حتى تفرَّقَ حضرةُ أمير المؤمنين بيني وبينك إن

(١) ـ في الفرج بعد الشدة: هل علمت أني . . . الخ

(٢) ـ كذا في الأصل. وفي الفرج بعد الشدة: ولِمَ؟

(٣) ـ كذا في الأصل، وفي الفرج بعد الشدة: وإخراجه إيّاي إلى بابه على هذه الصورة. .

(٤) ـ في الفرج بعد الشدة: أو أقامني ببابه معظّماً.

شاء الله» ثم أعرض عنّي فما سمِعْتُ منه لفظة بغير القرآن والتسبيح إلاّ بطلبِ حاجةٍ أو ما جرى مجراها، حتى شارفنا على الكوفة في اليوم الثالث عشر بعد الظهر، فإذا النُجُبُ قد استقبلتني على فراسخ منها يتحسّسون خبري، فلما راوني رجعوا متقدّمين إلى أميرِ المؤمنين، فأتيتُ إليها آخر النهار، فحططتُ رحلي، ودخلتُ إلى الرشيد، فقبّلْتُ الأرْضَ بين يديه، ووقفتُ فقال: (ص ٢٦٤) هاتِ ما عندك يا منارة، وإيّاك أن تغفلَ منه لفظةً واحدة. فسُقْتُ الحديث من أوّله إلى آخره حتى انتهيتُ إلى ذِكْرِ الفاكهةِ والطعامِ والغسلِ والبخور، وما حدّثتُ به نفسي من امتناعه والغضب يظهر في وجهه، حتى انتهيتُ إلى فراغه من الصلاة والتفاتِهِ إلـيّ ومسألته عن أمير المؤمنين وعن سبب قدومي، ودفعي الكتابَ إليه، ومبادرته إلى إحضار ولده وحاشيته، ويمينه لا يتبعه منهم أحد وصرفه[1] إيّاهم، ومدّه رجليه حتى قُيِّد، ووجه الرشيد يسفر. فلما انتهيتُ إلى مخاطبته لي وتوبيخِهِ إلـيّ لـمّا صرنا بظاهر دمشق قال: صَدَقَ والله، ما هذا إلاّ رجلٌ مكذوب عليه، ولعمري لقد آذيناهُ وأزعجناه وروّعنا أهله، فبادِرْ بفكِّ قيده وجئني به. فنزعتُ قيدَهُ وأدخلتُه إليه، فسلّم بالخلافة، فردّ عليه الرشيد ردّاً جميلاً، وأمره بالجلوس، فسأله عن حاله وقال: بلغنا عنك فضل هيبة[2] وأمورٌ أردنا معها أن نراك ونسمع كلامك ونحسن إليك، فاذكر حوائجك. فشكرهُ الأمويّ ودعا له وقال: أما حوائجي فما لي حاجةٌ إلاّ أن يأمُرَ أميرُ المؤمنين برجوعي إليّ أهلي وولدي وبلدي. قال: نفعل إن شاء الله ذلك، ولكن سَلْ حوائجك من صلاحِ جاهِكَ ومعاشك، فإنّ مثلك لا يخلو من الاحتياج لمثل هذا. فقال: عمّال أمير المؤمنين منصرفون[3] لي، والعدل شامل في دولته، وأموري مستقيمةٌ، وأحوالي منتظمة، وكذلك أحوال أهل بلدي، وقد استغنيتُ بعدل أمير المؤمنين عن مسألته شيئاً من ماله. فقال الرشيد: انصرِفْ محفوظاً إلى بلدك، واكتب إلينا بما يعنّ لك. فودّعه الأمويُّ وولّى. فقال الرشيد: يا

(١) - في الأصل: وصرفهم.

(٢) - في الفرج بعد الشدة: همّة.

(٣) - في الفرج بعد الشدة: منصفون.

منارة، احمله من وقتك وسِرْ به كما جئت حتى توصله إلى المجلس الذي سُقْتَهُ منه. ففعلتُ ما أمرني به. ووصل الرجلُ إلى بلده مكرّماً وانصرفتُ إلى الحضرة. انتهت[1].

وهذه الحكايةُ إذا تُؤُمِّلَتْ بعيْنِ البصيرة، فقد تضمّنت من لُطْفِ الله بهذا الرجل، التامِّ العقل، الكاملِ الفضل، الظاهرِ الحصافة، الواضحِ المروءة، ما يطابقُ اعتقـاده الكـريم في فضلِ الله، ويوافِقُ ما طوى عليه عقده من التفويضِ لحكمه والتسليمِ لأمره، وقد هيّأ الله له من انقلابِ سطوةِ الرشيد رأفةً، ونقمته رحمةً، ما فيه تذكرةٌ لمن غفل عن مشاهدة جميل الصنع من ربِّ العزّة ـ عزّ وجهه.

ومنِ الحكاياتِ الجامعةِ للابتلاء الواقعِ والمُتوقَّعِ في النَّفْس والمال، ما امتُحِنَ به القاضي أبو عمر بن يوسف[2] من ولد حـمّاد بن زيد[3]، لمّا قامَ القُوّادُ على المقتدر القَيْمة الأولى[4]، مع محمد بن داود[5] الوزير، وقتلوا وزيرَهُ

---

(1) ـ وردت هذه القصة في الفرج بعد الشدة (٢ / ٣٤ ـ ٤٢) مع اختلاف يسير في اللفظ نقلاً عما سماه التنوخي بكتاب أبي الفرج المخزومي الحنطبي، وفي ثمرات الأوراق لابن حجة الحموي ٣٠٦ ـ ٣١٠.

(2) ـ أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب بن اسماعيل بن حماد بن زيد الأزدي القاضي (٢٤٣ ـ ٣٢٠ هـ) ولي قضاء بعض النواحي في العراق ثم عزل بسبب اشتراكه في مبايعة عبد الله بن المعتز وخلع المقتدر سنة ٢٩٦ (تاريخ بغداد ٣ / ٤٠١ ـ ٤٠٥، الوافي بالوفيات ٥ / ٢٤٥، مروج الذهب ٤ / ٣٠٧).

(3) ـ في الأصل: حمّاد بن يزيد. والصواب من تاريخ بغداد.

(4) ـ كان ذلك سنة ٢٩٦ هـ وقد فشلت هذه الثورة بعد يومين فقط من نجاحها وتنصيب عبد الله بن المعتز. وكذلك فشلت المحاولة الثانية لخلع المقتدر التي جرت سنة ٣١٧هـ. وفي سنة ٣٢٠ هـ قتل المقتدر في معركة بينه وبين قائده مؤنس الخادم (انظر مروج الذهب ٤ / ٣٠٦).

(5) ـ أبو عبد الله محمد بن داود بن الجراح الكاتب قتل سنة ٢٩٦ هـ (ترجمته في: تاريخ بغداد ٥ / ٢٥٥، فوات الوفيات ٣ / ٣٥٣، الوافي بالوفيات ٣ / ٦١).

العبّاسَ بن الحسين، ووجّه محمد بن داود إلى القاضي أبي عمر وصاحبه (ص ٢٦٥) القاضي أبي المثنّى[١] في جمع العدول بخلع المقتدر لصغر سنّه، ففعلوا وكتبوا فيه كتاباً، شهدوا فيه وبايعوا لعبدِ الله بن المعتز[٢]، فلما لم يتمّ ذلك، وقُتِلَ ابنُ المعتز للحين، واستقلّ المقتدر، نُكب القاضي أبو عمر فيمن نُكِبَ مع سائر آله، وقُبِضَ عليه، وسُلّم إلى مؤنس الخادم، واستُصْفِيَتْ جميعُ أمواله، وجَرَتْ عليه محنةٌ عظيمة، فذكر عن القاضي أبي عمر قال: لـمّا جرى من أمرِ عبد الله بن المعتزّ ما جرى، حُبِسْتُ، وحُبِسَ معي أبو المثنّى القاضي ومحمد بن داود بن الجرّاح الوزير في دارٍ واحدة، في ثلاثة أبياتٍ متلاصقة، وكان بيتي وسطها، وما في وجهي طاقةٌ بيضاء، وكنّا آيسين من الحياة، فإذا أجنّنا الليل، حدّثْتُ هذا تارةً وهذا تارةً، وحدّثاني من وراء الأبواب، ويوصي كلّ واحد منّا إلى الآخر بمن يخلفه، ونتوقّع القتلَ في كل حين. فلما كان ذاتَ ليلة، وقد غُلِّقَتْ الأبوابُ، ونام الموكّلون، ونحن نتحدّث من بيوتنا، إذ أحْسَسْنا فَتْحَ الأقفال، فارتعنا، ورجع كلُّ واحدٍ منّا إلى مكانه، ففُتح البابُ على ابن الجرّاح، وأُخرِجَ، وأُضْجِع ليُذْبَح، وهو يقول: يا قوم، ذبحاً كذبح الكبش! أين المصادرات؟! أين أنتم عن أموالي أفدي بها نفسي؟! فلا يُلتَفَتُ إليه، وذُبِحَ وأنا أراه من شِقّ الباب، وقد صار الليلُ نهاراً من كثرةِ الشُموع. وحَمَلُوا رأْسَهُ، وطُرِحَتْ جثته في بئر في الدار، وغلّقت الأبواب. وأيقنْتُ بالقتل، وأقبلْتُ على قراءة القرآنِ والدعاء والبكاء، فما مَضَتْ إلاّ ساعةٌ يسيرة، حتى سَمِعْتُ الأقفال تُفْتَحُ، فإذا بهم قد جاءوا إلى بيت أبي المثنّى القاضي، فقالوا له: يقول لك أميرُ المؤمنين: يا عدوَّ الله، يا كذا، بما استحلَلْتَ نكْثَ بيعتي وخَلْعَ طاعتي؟ فقال: لأني علمتُ أنّه لايصلح للإمامة. فقالوا له: إنّ أمير

---

(١) ـ أبو المثنى أحمد بن يعقوب القاضي، قتل بسبب اصراره على موقفه من وجوب خلع المقتدر، سنة ٢٩٦ هـ (ترجمته في: الوافي بالوفيات ٨ / ٢٧٥).

(٢) ـ ابن الخليفة المعتز بالله الزبير بن جعفر المتوكل العباسي (ت ٢٥٥ هـ)، وابنه عبد الله شاعـر مشهـور ولـه كتاب طبقات الشعراء وكتاب البديع وديوان شعر (أشعار أولاد الخلفاء للصولي ١٠٧، الأغاني ١٠ / ٢٧٤، تاريخ بغداد ١٠ / ٩٥).

المؤمنين قد أمرنا باستتابتك من هذا الكفر، فإن تُبْتَ رَدَدْناكَ إلى محبسك، وإلّا قتلناك. فقال: أعوذُ بالله من الكُفْر، ما أتيتُ ما يُوجِبُ كُفْراً. وأخذ يتهرش معهم بمثل هذا ولا يرجع عنه. فلما يئسوا منه، مضى بعضُهم وعاد، ثم أُضْجِعَ وَذُبِحَ وأنا أراه، وحَملوا رأسه، وطرحوا جُثَّتَهُ في البئْر. فذهب عليّ أمري، وأقبلتُ على التضرُّعِ والبكاء. فلما كان في وَجْهِ السَّحَر، إذا بصوتِ الأقْفال، فقلت: لم يبقَ غيري، وأنا مقتول. واسْتَسْلَمْتُ. وفتحوا الباب عليّ، وقاموا بي إلى الصحن، وقالوا: يقول لك أميرُ المؤمنين: يا فاعل، يا صانع، ما حملك على خلْعِ بيعتي؟ فقلت: الخطأ وشقوةُ الجَدِّ، وأنا تائبٌ إلى الله من هذا الذنب. وأقبلتُ على شبه هذا من الكلام. فمضى بعضهم وعاد وقال: أجِبْ. ثم أُشير[1] إليّ وقال: لا بأسَ عليك، فقد تكلّم فيك الوزير - يعني ابنُ الفرات[2]. فسكنْتُ، (ص ٢٦٦) فجاؤوني بِخُفِّي وطيلساني وعمامتي، وجيء بي إلى دار ابنِ الفرات في دار الخليفة فلما رآني أقبل عليّ، فخاطبني، وهو يعظّم جنايتي، وأنا أُقِرُّ بذلك، وأتنصَّلُ وأستقيل. فقال: قد وَهَبَ أميرُ المؤمنين دمك[3]، وابتعتُ منه جُرْمَكَ بمائة ألف دينار، ألزمتك إيّاها. فقلت: والله أيُّها الوزير ما رأيتُ بعضها مستمتعاً[4]. فغمزني بأن أسكت، وجذبني قومٌ من وجوه الكُتّاب من ورائي، فأسْكَتُوني. فعلمت أنه أراد تخلّص دمي، فقلت: كلُّ ما يأمُرُ به الوزير - أعزّه الله - نمتثل. فقال: احملوه إلى داري. فحُمِلْتُ، فقرّر أمري على مائة ألف، منها النصفُ عاجلاً والنصفُ في حكم الباطل على

---

(١) - في الفرج بعد الشدّة: أسرّ.

(٢) - أبو الحسن علي بن محمد بن موسى بن الحسن بن الفرات وزير المقتدر بالله العباسي، وزر له سنة ٢٩٦ هـ وسنة ٣٠٤ هـ وسنة ٣١١ هـ، وكان معروفاً بثرائه وترفه، قتله صاحب الشرطة سنة ٣١٢ هـ (وفيات الأعيان ٣ / ٤٢١، إعتاب الكتاب ١٨٠).

(٣) - في الفرج بعد الشدة: قد وهب لي أمير المؤمنين ذنبك.

(٤) - في الفرج بعد الشدة: مجتمعاً.

رسم المصادرات. ووسّع عليّ في المطعم، وأُدْخِلْتُ الحمّام ورفِّهت. فلما خرجت من الحمام رأيت وجهي في المرآة، فإذا طاقاتُ شعر قد ابيضّت في مقدّم لحيتي، وقد شبتُ في تلك الليلة. وأدّيت من المال نيفاً وثلاثين ألف دينار، ونظر لي ابنُ الفرات في الباقي، وصيّرني إلى منزله، وتخلّص دمي، فمكثتُ في بيتي سنتين[١]، وبابي مسدودٌ عليّ، لا أرى أحداً، ولا يراني أحد، إلاّ في الشاذّ، وتوفّرتُ على دَرْسِ الفقه، والنظر في العلم، إلى أن مَنَّ الله بالفرج. انتهت[٢].

فقد اشتملَتْ هذه الحكايةُ من الابتلاء المتوقّعِ في المالِ والنَّفْسِ على أعظم ما يكون من ذلك، كما اشتملَتْ من الواقعِ فيها على الاعتقال والخوفِ العظيم، وعلى استصفاء المال، والمصادرة المسمّاة في العرف بالنَّزْع. ولكنَّ الله لطيفٌ بعباده، فالفرج اللاحق لهذا الرجل من أعجب ما يكون منه موقعاً. لَطَفَ الله بنا، وجعل أجورنا تحت العافية.

وإذا كان الابتلاءُ بتسليطِ بعضِ هذه الحيوانات المُؤْذيات، فلم يفقد المتعلّق بجناب الله رحمةَ الله تكفيه أذى مخلوقاته، وتدفعُ عنه النكايةَ من أصنافِ مُؤْذياتِهِ، لا سيّما إن خلص لله في الأفعال قَصْدُه، وتعيَّنَ لابتغاء مرضاةِ الله عمله، فإنّ الله لا يضيعُ أجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عملاً، ولا يخيّبُ قَصْدَ من عَلَّقَ بالله أملاً.

رُوِيَ عن جعفر العابد[٣] قال: كنتُ عند سفيان[٤] فالتفت إليَّ شَيْخٌ

---

(١) ـ في الفرج بعد الشدة: سنين.

(٢) ـ انظر هذه القصة في: الفرج بعد الشدة ٢ / ١٣١ ـ ١٣٦.

(٣) ـ في الفرج بعد الشدة (١ / ٢٠٠): جعفر بن المنذر الطائي العابد.

(٤) ـ أبو محمد سفيان بن عيينة الهلالي، من الزهاد المشهورين في الكوفة، مولده سنة ١٠٧ هـ، كان عالماً بالتفسير، توفي سنة ١٩٨ هـ. (تاريخ بغداد ٩ / ١٧٤، حلية الأولياء ٧ / ٢٧٠، وفيات الأعيان ٢ / ٣٩١، الوافي بالوفيات ١٥ / ٢٨١).

وقال: حدِّثِ القوم بحديثِ الحيّة. قال: حدّثني عبدُ الجبّار أنَّ حميد بن عبد الله خرج إلى مُتَصَيَّدِهِ[1]، فتخلّف بين يديه حيّةٌ، فقالت: أجِرْني أجارك[2] الله في ظلّه يوم لا ظلَّ إلاّ ظلُّه. قال: ومِمَّ أُجيرُكِ؟ قالت: من عدوٍّ قد رهقني، يريدُ قتلي، ويقطعني إرباً إرباً. قال لها: ومن أنتِ؟ قالت: من أهلِ لا إله إلاّ الله. قال لها: وأين أخبِّئُكِ؟ (ص ٢٦٧) قالت: في جَوْفك إن كنتَ تريد المعروف. قال: ففتح فاه وقال: ها. فدخلت الحيّة جَوْفَهُ، فإذا رجلٌ يريد قَتْلَها، فقال: يا حميد أيْنَ الحيّة؟ قال: ما أرى شيئاً. قال: سبحانَ الله. قال: نعم، سبحانَ الله، ما أرى شيئاً. فذهب الرجل، فأطلعت الحيّةُ رأسَها وقالت: يا حميد أتحسّ[3] الرجل؟. قال: قد ذهب. قالت: فاختر إحدى الخصلتين أن أنكت قلبك نكتةً أو أفرثَ كبِدَكَ فتلقيه من أسفل قطعاً. قال: والله ما كافأتِني. قالت: فحين تَصْنَعُ المعروفَ مع مَنْ لا يَعْرِفُه، وقد عرفتَ ما بيني وبين أبيك قديماً، وليس معي مالٌ فأعطيك، ولا دابّةٌ فأحمِلك. قال: فأمهليني حتى آتِيَ سَفْحَ هذا الجبل فأمهّد لنفسي. فبينا هو يمشي إذا هو بفتىً حَسَنِ الوجه طيِّبِ الرائحةِ حَسَنِ الثياب فقال: خذ هذا وكُلْهُ. وأخرج شيئاً من كمّه فأكله فأصابه [مغصٌ][4] شديد. ثم ناوله آخر، فأكله، فرمى بالحيّة من أسفله قِطعاً. فقال له: من أنت؟ فقد رحمني الله بك. قال: أنا المعروف، إنّ أهل السماء لما رأوْا غَدْرَ الحيّةِ بك اضطربوا كلٌّ يسأل الله أن يُغِيثَكَ، فقال عزّ وجل: يا معروفُ أدرِك عبدي، فإيّايَ أراد بما صنع. انتهت[5].

(١) ـ كذا في الأصل وفي الفرج بعد الشدة ١ / ٢٠٠، ويرى محقق الفرج بعد الشدة أنها تصحيف لكلمة: متعبّده.

(٢) ـ في الأصل: اجرك.

(٣) ـ في الأصل: ايحسّ.

(٤) ـ بياض في الأصل أتممناه من الفرج بعد الشدّة.

(٥) ـ وردت هذه الحكاية في الفرج بعد الشدّة بعدّة روايات من مصادر متنوعة (١ / ١٩٨ ـ ٢٠١).

ولسنا نرتبن* في صحة هذه الحكايات كلّها، وإنما نَجْزِمُ بأنَّ بَعْضَها صحيح، وإنْ لم نعيِّنْهُ، وإنّما نقلناها اعتماداً على قول [أحد][1] أولياء الله فيها إنّها جندٌ من جنودِ الله يثبت بها قلوبَ عباده، أو ما هذا الكلام معناه، فسُئِلَ عن الدليل على ذلك فتلا قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾[2].

وحكايةُ هذه الحيّة إنْ وَقَعَتْ فهي ممكنة، والنجاةُ منها نوعٌ من الكرامة، ولا إشكالَ في ذلك، وإن لم تَقَعْ فهي مثالٌ عظيمٌ لكَوْنِ المعروفِ لا يضيعُ عند الله، وكم رَأينا من قاصدٍ لوجه الله بعمله، صادقٍ بمعروفه في ذلك العمل غير أمله.....[3] العامل من ثوابِ الله بما.....[4] وخاب الواقعُ منه المعروف في غير محلّه .....[5] يقع الابتلاء بأضعفِ الحيواناتِ قوّةً، وأقلِّها قدرةً، فيجعلُ الله عاديته عظيمة، واذايته كبيرة، لِيَظْهَرَ عزُّ الله، وما لديه من الجنود، التي لا يعلمها إلاّ هو، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[6] وليرجع إليه بالضراعةِ والابتهالِ فيما تعجز عنه قُوى البشر، من أثرِ قويٍّ استكبره، أو ضعيفٍ اسْتَحْقَرَهُ، ولاملجأ ولا مَنْجى من اللهِ إلاّ إليه، والدعاءُ سلاحُ المؤمن كما نبّه عليه غير مرّة.

[قال][7] مطرّفُ بن مُصْعَب. دخلتُ على المنصور فرأيتُه مغموماً حزيناً قد امتنع من الكلام، لِفَقْدِ بَعْضِ أحبّته. فقال لي: يا مطرّف، رَكِبَني من

* ـ هكذا في الأصل: وفي لسان العرب، في مادة ربن: المرتبن: المرتفع فوق المكان.

(1) ـ أضفت هذه الكلمة التي بين المعقوفتين ليستقيم المعنى بعدها.

(2) ـ الآية ١٢٠ من سورة هود.

(3) ـ بياض في الأصل مقدار كلمة واحدة.

(4) ـ بياض في الأصل مقدار كلمة واحدة.

(5) ـ بياض في الأصل مقدار ثلاث كلمات أو أربع.

(6) ـ الآية ٣١ من سورة المدثر.

(7) ـ بياض في الأصل تقديره ما أثبتناه.

الهمّ ما لا يَكْشِفُهُ إلاّ الله الذي بلاني به، فهل من دعاء أدعو الله به، عسى يكشفه عنّي؟ (ص ٢٦٨) فقلت: «يا أميرَ المؤمنين حَدَّثني محمّدُ بنُ ثابت عن عمرو بن ثابت المصري قال: دَخَلتْ في أُذُنِ رَجُلٍ من أهلِ البَصْرةِ بعوضةٌ حتى وَصَلَتْ إلى صماخه، وأسهرتْهُ ليلَهُ ونهارَهُ، فقال له رجلٌ من أصحابِ الحَسَن: ادعُ بدعاءِ العلاء بن الحضرمي[1] صاحب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، الذي دعا به في المفازةِ، وفي البحرِ، وخلّصه الله سبحانه. فقال: وما هو رحمك الله؟ قلت: بُعِثَ العلاء بن الحضرمي إلى البحرين، فسلكوا مفازة، وعطشوا عطشاً شديداً، حتى خَشَوْا الهلاك، فنزل فصلّى ركعتين، ثم قال: يا حكيمُ يا عليمُ، يا عليُّ يا عظيم، اسقِنا. قال: فإذا نحنُ بسحابةٍ كأنها جناحُ طائر، فنقعت[2] علينا، فمطرت حتى ملأنا كلّ إناء وسقاء، ثم انطلقنا حتى أتينا على خليجٍ من البحر، ما خيض قبلَ ذلك اليوم، ولا خيض بعده، فلم نجِدْ سفناً، فصلّى ركعتين ثمّ قال: يا حكيمُ يا عليمُ يا عليُّ يا عظيم أجِزْنا. ثم أخذ بعنان فرسه ثم قال: جُوزوا باسمِ الله. قال أبو هريرة. فمشيْنا على الماء، فوالله ما ابتلّ لنا قدمٌ ولا خُفٌّ ولا حافِرٌ، وكان الجيشُ أرْبَعَةَ آلاف. قال: فدعا الرجل - فوالله ما برحنا حتى خَرجَتْ من أُذُنِهِ، لها طنين[3] حتى حكّت الحائط، وبرأ». فاستقبل المنصور القبلة، ودعا بهذا الدعاء ساعةً، ثم انصرف بوجهه إليّ وقال: يا مطرّف قد كَشَفَ الله عنّي ما كنتُ أجِدُ من الهمّ. ودعا بالطعام، وأجْلَسَني، وأكلْتُ معه. انتهت.

وأنت ترى ما في هذه الحكايةِ من تفريجِ الله تعالى عن هذا الرجُلِ المبتلى بهذا الحيوانِ الحقير، ببركةِ هذا الدعاء الكريم، وكذلك المنصور بَعْده، فيما كشف الله عنه من الهمّ الذي أهمّه.

(١) - هو العلاء بن عبد الله بن ضماد بن حضرموت، كان حليفاً لبني أمية، والعلاء هو الذي عبر إلى أهل «دارين» على فرسه فقاتلهم وهزمهم، وكان مستجاب الدعوة، وتوفي في خلافة عمر بن الخطاب (المعارف ٢٨٣ - ٢٨٤).

(٢) - في الأصل: فنقعقت ونقعت من النقْع: الغبار.

(٣) - في الأصل: طين.

وقضيّةُ المنصورِ أنْسَبُ للصورةِ التي بَعْدَ هذا، ولن يستنكر هذا الفعل من هذا الحيوان الضعيف، فقد أهلك الله جبّارَ إبراهيم الخليل به وهو المسمّى نمروذ[1]، حسبما حكاه أرباب الأخبار، والقوّة لله تعالى.

وقال ابنُ أبي زيد[2]: دَخَلَتْ عَلَقَةٌ في فم صبيٍّ بَدَوِيّ، فبذل أبوه للطبيب ابن البرّاء في إخراجها، فعاناها فما قَدِر، فلمّا أعياه قال له: هذه استطاعتي، فامضِ بابنك إلى السبئي[3] لعلّه يدعو لك فيفرّج عنك. فسار إليه وأخبره بقصّته، والناسُ وراءه، ثم حرّكَ شفتيه وقال للفتى: تقدّم. وقرأ بيده على فمه، وأومأ بيده إلى العلقة، فسقطتْ من فيه. انتهت[4]. وهذا من نسبة ما تقدّم، ولله من أوليائه صفوة، يرحم بهم من عباده من يبتليه، فيجعل لهم الفرج بسبب دعائه.

(١) . انظر القصة في قصص الأنبياء لابن كثير ص ١٤٢، وعرائس المجالس ص ٧٢.

(٢) ـ أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني ت. ٣٨٦، وقد سلفت الترجمة له.

(٣) ـ هو أبو اسحق ابراهيم بن أحمد السبئي، وقد سلفت الترجمة له.

(٤) ـ وردت هذه الحكاية في ترتيب المدارك ٣ / ٣٨٣.

خاتمة لهذه الصورة الخامسة

للسلطانِ الغالبِ بالله - أيّده الله - في معنى هذه الصورةِ ما لا يُسْتَنكرُ وقوعه (ص ٢٦٩) على الملوكِ الجلّة والأمراء العِلْية، فقد كانت له في يوسف الصدّيق عليه السلام أسوةٌ حسنةٌ فيما قاد الله له من الملوك بعد الاعتقال الذي فوّض فيه لمن حكم به، وسلّم في مكروههِ لمن قَدَّرَ بوقوعه، وعلى ما للنفوسِ به من غمّ، وللقلوبِ به من تَعَب، فلم يخلّ فيه من صبرٍ جميل، وعملٍ صالح، وتفويضٍ لله، وتسليم لأمره، ورضاً بقضائه، إلى أن تجلّى له لَيْلُ ذلك الخطب عن صُبحٍ مشرق، ومن جميلِ الصنع، ويسفر للأم ذلك التمحيص عن وجهٍ وسيم من خفيّ اللُطف، فتهيّأ الأسبابُ التي باستكمالها يحصل الملكُ، ويتقلّد الأمرُ، وتأتي الإرادةُ، وتطاوع السعادةُ، وأنّ الأسبابَ التي اعتيد جريانها، في مثل هذا المقام لراهنة، وأنّ التعاطي لها لمفقود، والله غالبٌ على أمره، ولا تتحرّكُ ذرّةٌ في الوجودِ إلّا بإذنه، وإذا أراد شَيْئاً فإنّما يقول له كن فيكون، وما بالعهد من قدم فيقيد الحياة إلى تاريخ اقتضاء. . .[1] هذا الكلام . . . . .[2] ممّن شاهد الكوائن التي قادَتْ إليه الملك، وناطت به الأمر، وكيّفت له الظهور، وحقّقت من لدن القدرة الربّانية به الاعتناء، وقامت مقامَ البرهانِ القاطع، والدليلِ الواضح، على أنّ الإرادة السابقة، والمشيئةَ الغالبة، إنما آثرت إيّاه بالتخصيص، واجتناء ثمرةِ الألطافِ، دانية القطاف، من أكمامِ التمحيص، فيُسْتَشْعَرُ الخَوْف، ويُسْتَثْقَلُ الهول، ويُسْتَحْضَرُ الفوت، ويتوقّع الموت، وعلى أثر ذلك يعقب الفرج، الذي كان قد انسدّ بابُه، ووهنت

(١) - بياض في الأصل مقدار كلمة.

(٢) - بياض في الأصل مقدار كلمة.

أسبابُه، وتتسنّى الإدالة، التي لم يمكن فيها طَمَعٌ، وتتيسّر الإقالةِ، التي لم يكن يطمح إليها آمِل، فترى الحَسَدَةَ راغمة، والعداةَ في حبل النُصرةِ حاطبةً، والأوهامَ على عقولِ المنكِرة قاضيةً، وفي اعتقادي أنّ ذلك. . . .[1] من الثِقَةِ بالله، والاعتمادِ عليه، والتسليمِ لأمره، والتفويضِ إليه، وبخاصّة من تصميم العَقْدِ على الانتفاع في هذا المعنى بأنواعٍ من أوراد الذِكر. . .[2] أرباب تلك الطريقةِ على التماسِ آثارٍ منها معيّنة؛ من تأييدٍ وقوّةٍ وتمكينِ عزٍّ أو تأتّي غلبةٍ ونُصْرة، ولصدق نيّةٍ لم تصحب من العمل التي هي أبلغُ منه إلاّ ما لم تعارِضْهُ العوائقُ المبثوثة والعوارضُ المحذورة.

ولولا الإطالةُ لبَسَطْنا القوْلَ في أعيان قضايا شاهدةٍ بتفاصيل ما أجملناه من الأعراض، وناطقاتٍ بجزئيات ينتظم منها ما دلّت عليه قواعدُ هذه الكليّات، والإشارةُ كافيةٌ لمن شاهد من الأحوال أشياء وغابَ عنها، فنقلتْ له ألسنةُ الصدقِ منها نبذة.

ومن كان عن العِيان غائباً، وعن الأخبارِ صائماً، فليعلم أنّ هذا السلطانَ - أيّدهُ الله - مُظْهِرٌ لحكمةِ الله الباهرة، وحجّته الظاهِرة، من حيثُ وُرودُ أجناسٍ من الابتلاء، ويعقُبها (ص ٢٧٠) بأضعافِ أضْعافِها من الآلاء، ومن حيث حصولُ آثارٍ من وهن القُوى المعتادة للملوك، وإمدادٍ من القُوى الإلهية ممّا تنقاد به صعابُ الأمور، وهو من أصلِ وَصْفِهِ كريمُ السجيّة، ليّن العريكة، سهلُ الجانب، مؤثرٌ للخير، كارهٌ للشرّ، كثير التحمّل، جوادُ الكفّ، سَبْط الأنامل[3]، طرف في نزاهة الهمّة، مستقلٌ للموهبة وإن جلّت، مستصغِرٌ[4] للصنيعة وإنْ عظُمَتْ، وقد اشتمل من الانقيادِ لأوامرِ الشرْع، والتسليمِ لمجاري الأقدار، والتفويضِ لأحكامِ الأقضية، والإخلاص في متوجّهاتِ

---

(١) - بياض في الأصل مقدار كلمة.

(٢) - بياض في الأصل مقدار كلمة.

(٣) - سبط اليدين: سخيّ (القاموس المحيط: سبط).

(٤) - في الأصل: مستضعراً.

الأعمال، على ما يُسْتَغْرَبُ نوعه، ويُسْتَشْعَرُ نُجْحُهُ. ثم له من تهيئةِ الأمورِ، وتسنّي اللطائف، وتأتّي المآربِ، وتكميلِ المقاصِدِ، قضايا تتعدّد عجابها، ويستدعي الطولَ استقصاؤها، يحصلُ الكثير منها على تدابير إلهيّة، لا جُهْدَ له، على حسبما أجرى الله من سنّته في الخلق، في تحصيلها، ولا قدرة له بل ولا لغيره من الخلق على تكييفاتِها المستبدعة، ولا شعورَ للنفوسِ بما تنجلي عنها وجوهُها المكنونة في إشرافٍ من الغَيْب، تظهر عواقِبُه على وِزانٍ واحد، من عناية الله به، وإرادته لتوطيد أمره، وتمكين سلطانه، حتى إذا آثر هواه من يلوذُ به، ويتقلّدُ عهـدةَ أمره، أو ولايةَ تصرّفاته، مقتضى الأسباب المعتادة، المشهود بجريانها على السياسةِ عادة، فقلّما تنتج المراد، أو تُثْمِرُ القصدَ المعتاد. ولو تتبّعنا أعيانَ القضايا الواقع فيها التسبّبُ المألوف، والتصرّفُ المعروف، وما أنتج من عكسِ المقاصد، وأثمر من خِلافِ العوائد، لطال القولُ، وتشعّبَ الكلامُ.

كما أنّا لو عددنا المواطنَ التي تكفّل الله فيها بالجميل من لدنه، والإسعاد من تلقـاء لطفه، والإجمال من قِبَلِ صُنعه، لعددنا عجائبَ من تصريفاتِ الأقدارِ، وغرائبَ ممّا يأتي به اختلافُ الليل والنهار. فمن ذلك التمحيصُ اللاحقُ له بسُكنى الدار الكبيرة في أيّام حافِدِه السلطان أبي الحجّاج رحمه الله، فقد كان اعتقالاً مرهوبَ العاقبة، محذورَ الغائلة، مسلوكاً به في الظاهر مَسْلَكَ المبرّة، مظنوناً به في الباطن يُخْشَى المضرّة، للاستظهار عليه بالعيون المترقّبة والحرسة المتنطّسة[1]، وقبولِ السعايات المرخوفة[2]، وتجوّزِ الممالأة المزوّرة. وهذا التمحيصُ هو الذي عَمَّ الدولةَ، وشَمَلَ الجملة، وشرّد عن جُفـونها النوم، وطوّق أعناقَها من الخاصّة والعامّة اللوم، وجمع لكثيرٍ من القائمين بها من الابتلاء المتوقّع في الأنْفُسِ . . .[3] الصور الستّ، فقلّما سلم

(١) ـ الناطس: الجاسوس (القاموس المحيط: نطس).

(٢) ـ الرخفة: ضرب من الصبغ (القاموس المجيط: رخف).

(٣) ـ بياض في الأصل مقدار كلمة.

منهم أحدٌ من الابتلاء المتوقَّع في النَفْسِ والمال، ولا من الواقع في المالِ والجاه. وأما الواقع في النَفْسِ فقد ابتُلِيَ من ذلك مثلُ القائد ابن المجاهد ابن أبي الحجّاج يوسف بن فرج بن كماشة وأبي القاسم بن يوسف بن السرّاج (ص ٢٧١) بما هو معلوم، فشَمَلَهما[١] الاعتقالُ الفظيع، وتعدّاهما إلى القرابةِ والحاشية، ومن سلم من ذلك فلحقه الجلاء، إلّا أنّ الله تعالى أقالَ العِثار، ونَظَم الشَمْلَ الذي كان قد تسلّط عليه الانتقار، ثم ضمّن ذلك من عجائب لطفه، وغرائبَ صنعه، وبدائعِ تقديره، ولطائفِ تدبيره، ما فيه عبرةٌ للمعتبرين، وذكرى للمُسْتَبْصِرين.

فمن ذلك أنّ مُسالَمَةَ هؤلاء النصارى المجاورين، كانَتْ قد انعقدت على إتاوة اقتضاها أزْمُ ذلك الزمان، وشدةٌ لاحقةُ النفاق، وقد كان الخروجُ عنها بَعيدَ التصوّر، صَعْبَ المتناول، غير ممكن الحصول، لاغتباط الخاصّة بما كان قد تهيّأ لها من السلم، وعدم ثقتها بما لحق الطاغيةَ من الوهن، واستمراره على التمويه بالقوّة على الحَرْب، فلولا أنّ حالته انجلَتْ بالفتنة على أن لا طمع له بما شغله الله به منها في الدفاعِ عن حوزته، ولا الكفاح عن ملّته، لوقف النظرُ بالخاصّ والعامّ على إيثار سِلْمه.

ومن ذلك استرجاعُ الحصونِ المُغْتَصَبَةِ للإسلام حالَ اتّفاقِ أهْلِه، واجتماعهم على القيامِ بفرض الجهاد ونَفْلِهِ، فلما شهدوا العَجْزَ في زَمَنِ الاتّفاق، كيْف الله لهم القُدْرَةَ في زَمَنِ الافتراق، فاستنقذَ الله أوّلاً حِصْنَي . . [٢] من غير سبب أُعْمِل فيهما، ولا قَصْدِ تَوَجُّه إليهما، وجعلهما بدايةً لما سوّغ من المِنَحِ المستقبلة، ثم استخلص العبّاسُ بنُ عليّ بن حميد حِصْنَ النجش[٣] بعد أن مات عليه أخوه عيسى النجد البُهَمَةُ، وهو أمثلُ من كان قد انحاز إلى

---

(١) - في الأصل: فشملها.

(٢) - بياض في الأصل مقدار كلمتين.

(٣) - هكذا في الأصل، ولعل المقصود حصن الحنش القريب من ماردة. (الادريسي ص ٢١٣).

تلكُمُ الدولةِ اليوسفيّة، فنفّس الله مَخْنَقَ وادي المنصورية[1]، المتّسعِ العمالة، الوافِرِ الجباية. وقد كان سبق ذلكَ استخلاصُ حِصْنِ البريج[2]، من أسْفَلِ الوادي المذكور، ثم شفعهُ الله بهذا النجش، فانتشَقَ أهلُ الجهاتِ كلُّها رَوْحَ الحياةِ بعودتهما للإسلام.

ثم وفّق الله تلك الدولة اليوسفيّة إلى استفتاح مدينة بطللس بلّس[3]، فاسْتَنْهَضَتْ إليها القائدَ ابنَ الوزير أبا اسحق ابراهيم بن عبد البَرِّ من وادي آش، والقـائدَ أبا الحجّاج يوسف بن كماشة من بَسْطة، وعزَّزَتْهُما بالشيخِ الأحْسَنِ الشريف فارسِ المسلمين على ذلك العهد، صريخِ[4] أربابِ الدولةِ المترامي الرُّتَبِ العظيمةِ لنجدته وغَنائه. ففتح الله على ابراهيم ذلك المعقلَ السـامي وهو بلدٌ يحمل مُلْكاً، كما كان شيخُنا القاضي أبو العبّاس أحمد الشـريف يقـول في صفتـه، فقد كان رحمه الله من التقريظِ له، والمعرفةِ بحصانته، والعلم بمرافِقِه، بحيثُ يُقَلَّدُ فيما يدّعيه له، وكثيراً ما كان يجري في قوله: إنّه بلدٌ تُجْلَبُ مِنْهُ المِيرةُ لغيره، وتُسْتَجْلَبُ (ص ٢٧٢) مِنْهُ المرافِقُ لسواه، ثم لا يفتقِرُ هو لغيره، لا في زَرْعٍ، ولا في زَيْتٍ، ولا عصيرٍ، ولا فاكهةٍ، ولا جُبْنٍ، ولا غيرِ ذلك، مما تَسْتَمِدُّهُ المواضعُ بعضُها من بعض، إلى طيبِ المَدَرَةِ، وخِصْبِ البُقْعَةِ، وحصانةِ البلْدةِ، ومتانةِ السُّور، وأصالةِ الوضع، وإغداق الشرب، وحسنِ الترتيب، وإسجارِ الغلّات، ووفور الفواكه، وتعدّدِ[5] المرافق وجُموم الرَّفْعِ[6]، وتأتّي الكدْح فقد اشتملَ فَحْصُهُ الأفيَحُ من شجرِ

---

(١) ـ بالإسبـانية (Guadalmanzor) أو (Rio de Almanzora) من أعمـال غرناطة (مشاهدات لسان الدين ٣٤).

(٢) ـ قد يكون المقصود بلدة (Priego) الواقعة شمال غرب غرناطة.

(٣) ـ هكذا في الأصل، ولعل بطللس تحريف لبطلش (Pleitas) بمنطقة سرقسطة (الروض المعطار ١٠٤).

(٤) ـ الكلمة غير منقوطة في الأصل، والمعنى يقتضي نقطها بالشكل الذي أثبتناه.

(٥) ـ في الأصل: وبعدد.

(٦) ـ رفع الزرع أي حمله إلى البيدر بعد حصاده (القاموس المحيط: رفع).

الصَّنَوْبَر، وشبهه، المَعانَى منه يكونُ القارُ، والمستَخرجُ منه غيرُهُ من الأصباغ، المنتفع بها على ما لا يُخشى نفادُه، ولا يجوزُ كسادُه، فما الظنُّ بالخَشَب القابلِ للنجارة المعدّ لموضوعاتِ هذه الصناعة. وقد دحا[1] الله هذه المدينةَ في أحْسَنِ تقويم، وأمنعِ ترتيب، لوعورةِ مسالكها، لمّا يطرقها من خيلِ العدوّ المغيرة دفعُه، وحيلولةِ أغوارِها عمّا يعمّ فجاجَها المتعدّدةَ من ذلك ضَرْبُه، فتكفّل ذلك لأهْلِها بالسلامةِ من مضرّة العدوّ، والأمنة من معرّة الجيوش. ويسَّرَ الله فتح ذلك على أيدي هؤلاء الثلاثةِ من كُفاةِ الدولة، منسوباً لفخرها، وإن كان في أيّام غيرها، فلم يكُنْ لهذه الدولةِ الدائلةِ من الأعضاد، من يضاهي هؤلاء الذين أهّلَتْهُمْ للاستنصارِ بهم والاعتدادِ بجهادهم.

ثم اشتعلت الفتنةُ، التي ربّما أُشيرَ إليها فيما اقتُضِبَ من كلامٍ جرَّ إلى ذكرها، فصرف الله في أثنائها عن ذلك السلطانِ أبي الحجّاج رحمه الله وزيرَهُ الموسومَ بابنِ علّاق، الحائل كان، فيما يَظْهَرُ، بينه وبين كُلِّ ذي رَشَد، والسائر له، فيما يُعْتَقَدُ، على كلِّ ما جُبِلَ عليه من طهارةٍ ونبل. فيسّر الله له من فتح . . .[2] وبني سَلَمة[3] وكُرْتُش[4] ما تيسّر، وهيّأ له من ذلك ما صَعُبَ وتعسّر.

ثم قيّض الله الوزيرَ الحاجبَ أبا اسحق ابراهيمَ بنَ عبد البرّ للنهوض إلى غليرة[5] وقسطلّة[6]، ففتح الله على يديْهِ هذيْنِ المعقلين، في غرض المُراغَمةِ للدولة اليوسُفيّة، إذ[7] كان هذان الحصنان لنظر النصرانيّ لُذْرِقه

(١) - دحاها: بسطها (القاموس المحيط: دحا).

(٢) - بياض في الأصل مقدار كلمتين.

(٣) - بالإسبانية (Benialamar) ذكرها لويس سيكو دي لوثينا في كتابه «محمد التاسع» ص ١٩٠.

(٤) - اقليم كُرْتُش من أقاليم قرطبة (ترصيع الأخبار ١٢٦).

(٥) - بالإسبانية (Galera) ذكرها لويس سيكو دي لوثينا في كتابه «محمد التاسع» ص ١٩٠.

(٦) - هي قرية (Castellar) القديمة القريبة من البيرة (الإحاطة ١ / ٩١، ١٢٧) وذكرها لويس سيكو دي لوثينا في كتابه السابق ص ١٩٠.

(٧) - في الأصل: إذا.

مَنريقِ[1] الموالي للسلطانِ أبي الحجّاج بِسلْمِهِ، والمنقاد فيما كان يبدو منه لأمره، معارضةً لعمله في افتتاح الحصونِ الثلاثة السابق ذكرها، إذْ[2] كانت خالصةَ الذِكْرِ لطاغيةِ قشتالة[3]، فجعل ذلك الفتح منسوباً للرئيس أبي الوليد الكائن معه بمالقة.

ثم توجّه الجيش المزوي[4] لنظر ابن علّاق، بقصْدِ المعونةِ بمن اعتلق بحبـل مخـدومه من النصارى، كالمنشر لذريقه[5] المتقدم الذكر والهُنْشُه مجزده[6] المنوِّه لديه بذكره سواهُما إلى ناحية. . . .[7] مموّهاً (ص ٢٧٣) على أهل الشرقيّة[8] من المسلمين بقصد الغزو، وكاتماً عنهم وجهته، فأخذوه بقوله، ولزُّوه إلى قَصْد أشْكَر[9]، فلم يُوسِعُوه في التخلُّفِ عنها عذراً، وخصوصاً الشيخ العبّاس بن حميد، ففتحها الله على هذه الصورة، من غيرِ قصْدٍ منه لذلك، إذ كانت لنظرِ من سُمِّيَ من النصارى، وبينَهم من العهدِ الأكيدِ ما بينهم، فجبرها الله على المسلمين، والمتقدّمُ بفتحها ومَنْ قوّمه كارهان. . .[10] إعراض مخدومه عنه، يوم وروده عليه، لوقوعه من ذاك فيما لم يَرْضَهُ، إلى أن بيّن له سوء الغائلة في ذلك، فيحمل الإظهار للمسرّة بالواقع، وإن استبطن

---

(١) ـ في الأصل مريق والإشارة إلى: (Rodrigo Manrique) ذكره لويس سيكو دي لوثينا في كتابه «محمد التاسع» ص ١٥٨ ـ ١٦١.

(٢) ـ في الأصل: إذا.

(٣) ـ المقصود هنا هو خوان الثاني.

(٤) ـ في الأصل: المروي.

(٥) ـ كذا في الأصل.

(٦) ـ كذا في الأصل.

(٧) ـ بياض في الأصل مقدار كلمتين.

(٨) ـ مجموعة حصون منها حصن بلّش (ذكرت في: آخر أيام غرناطة ص ٨٤).

(٩) ـ (Huescar) وتقع شمال شرق بسطة (مشاهدات لسان الدين ص ٨٧، الإحاطة ١ / ٣٩٠).

(١٠) ـ بياض في الأصل مقدار كلمتين.

العكس، لمكان خَتْرِ العهد، الذي كان يتظاهر بحفظه.

ثم لحق الوزيرُ ابنُ عبد البَرّ بالبابِ السلطانيّ من الحضرة العليّة، فتوجّه هو والقائدان الوزيران أبو القاسم بن السراج، وأبو السرور مفرّج بن فتّوح، إلى حصن السِكّة[1]، المعقل الذي زاحَمَ النُجُومَ بالمنكب، فهيّأ الله فَتْحَهُ على أيديهم. ولم يخلُ أيضاً هذا الفتحُ من مُراغمةِ الجهة الأخرى، لكوْنِ هذا الحِصْنِ كان لنظر مجزده[2]، من أولئك المعاهدين للسلطانِ أبي الحجّاج رحمه الله.

ثمّ لمّا استقرّت الدولة، وارتفعت الفتنة، انتهض القائد بمالقة أبو العبّاس أحمد بن عبد البرّ، صنو الوزارة العليّة، ففتح الله على يديه حصن قوج، الآخِذَ بكظم مالقة وشرقيّها من قمارش[3]، وصالحة[4] وبلِّش ثم حصن شبر أيضاً كذلك، فهدمهما معاً. ثم فتح حصن الطورون* وغارَ أبي زيد، من الحصون المُخْتَلسَةِ في فتنة ابن المول، وأثار الله عزيمةَ أهلِ رندة فقصدوا يمنت، وهو الذي نشأ عنه النفاقُ في مدّة السلطان أبي عبد الله المستعينِ بالله، فهدموه، كذلك حصن أبرونه، وهو من المَنَعَةِ بحيثُ يُتَعَجَّبُ منه فهدموه أيضاً، وكذلك لحصن المعروف بغار وجبر[5]. فرجّع الله هذه الحصونَ كلَّها، على هذه الحالةِ من الفُرقة، ومُراغمةِ الجهةِ المستخلصةِ للأخرى، وعدمِ خُلوص النيّة، فيما يُعْتَقَدُ، من كثيرٍ ممن رأس في استخلاصِها، اقتناصاً من قول النبيّ صلّى الله

(1) ـ من أحواز قلعة يحصب الواقعة إلى شمال غرب غرناطة (الإحاطة ١ / ١١٠، ٤٥١).

(2) ـ هكذا في الأصل.

(3) ـ بالإسبانية (Comares) وتقع في الجنوب الغربي من غرناطة بالقرب من مالقة (مشاهدات لسان الدين ٧٩، الإحاطة ١ / ٥٦٤).

(4) ـ بالإسبانية (Zalia) وكانت تقع بين بليش مالقة والحمة (مشاهدات لسان الدين ٩٣، الادريسي ١٩٩).

* ـ بالإسبانية (Turon) ذكرها لويس سيكو دي لوثينا في كتابه «محمد التاسع» ص١٩١.

(5) ـ في الإحاطة ٢ / ٨١: حصن وحبر، ويظهر من نص الإحاطة أن هذا الحصن قريب من مالقة.

عليه وسلَّم: «إنَّ الله لَيُؤيِّدُ هذا الدينَ بالرجلِ الفاجر»[1] مع شهادة بِعَدَمِ ارتجاعها، مع الألفة وعدم المراغمة فيها، وإصلاح النيّة لأخذِها.

فسبحان الذي يُيَسِّرُ الأمورَ من الأسباب ما يُظنّ أنها أضداد لمسبَّباتها، ويحوّلها مِنَحاً جسيمة بما يُعتقَدُ أنّه مانعٌ لتسويغ هباتِها. فله القدرةُ الغالبةُ، (ص ٢٧٤) والمشيئةُ النافذة عزّ وجهه.

ومن ذلك ما تسنّى لهذا العهدِ من الإدالةِ على الكفرة، فكان من أسبابِ اللُّطف الربّانيّ، ما انطوى عليه صاحبُ انتقيرة[2]ـ أهلكه الله ـ من مخادعةِ المسلمين، والغدرِ لهم، بعهدٍ وثّقه بشهادةِ أهْلِ مِلّته، ووَضع خَطَّه فيه، وختمه بطابعه المعروف له، وعقد ذلك باسم سلطانِهِ طاغيةِ قشتالة، وتكرارِ ذلك ثلاثاً حتى وثِق الميّارةُ[3] الهافُون إلى ما مُنِعَ منْهُ من التجارةِ لأرْضِ الحرب، فتقبّض على زهاءِ ثلاثينَ رَجُلاً منهم، لهم أموالٌ جمّة، وبغالٌ فارهة، وأسلحةٌ منتقاة، وأمتعةٌ حسنة، وتحصّلوا في رِبْقةِ أسْرِهِ، ثم شنَّ الغارةَ قبل تبيُّنِ غَدْرِهِ على أحوازِ تاجرة[4]، فاكتسح ما بها من ماشيةٍ سارحة، وأسَرَ من وجد هنالك من راعٍ وصيّادٍ وأكّار، واحتمل غنيمةً أسفت المسلمين وأشْجَتْهم، فجعل الله غَدْرَتَهُ هذه الصلعاء[5] سبباً ظاهراً في تعجيل الانتقامِ منه، فانتُدِبَ القائدُ المجاهدُ أبو القاسم بن السرّاج، والقائدُ الوزير أبو السرور مفرّج بن فتّوح ـ أجلّهما الله ـ إلى الاسترهان فيما احتُملِ للمسلمين، فتوجّها بالجيشِ إلى جهةِ اليسّانه[6]

---

(١) ـ صحيح مسلم ١ / ٧٤، مسند ابن حنبل ٢ / ٣٠٩.

(٢) ـ بالإسبانية (Antequera) وتقع غرب غرناطة وشمال مالقة. (مشاهدات لسان الدين ٩٤).

(٣) ـ الميارة: جالبو الميرة أي الطعام، ومفردها ميّار (القاموس المحيط).

(٤) ـ ذكرها العذري في ترصيع الآثار ص ٣٦، وذكر أنها بنيت زمن الإمارة الأموية.

(٥) ـ الصلعاء: كل خطة مشهورة (القاموس المحيط: صلع).

(٦) ـ بالإسبانية (Lucena) وقد مر ذكرها.

وأقلار[1] من أرضِ الحرب مقتفين[2] آثارَ الجيشِ الكافر، وغنِما ما يقرُبُ من الكفافِ في الرجالِ المأسورين والبهائمِ المُحْتَمَلَةِ، ثم عقبا إلى أرض أنتقيرة، فنفّلهما الله غنيمةً من الغَنَمِ بَعُدَ العَهْدُ بمثلها، فساقا منها نحو ثمانيةِ آلاف رأس، مع أسرى من النصارى حصل بهم الكفافُ في الرجال، ثم لم يَزَلْ المُغاوِرون يتعاورون أنتقيرةَ البائسةَ، فقتلوا وأسَروا كثيراً منهم، حتى ضاقت عليهم الأرضُ بما رَحُبَتْ. ثم اتفق القائدانِ المذكورانِ على تعقيبِ الغزو[3] إليها، فكمنا عليها كميناً من عَسْكَرٍ مَجْر[4]، وانتخبا سريّةً من خيلهما أغارت على بعضِ طُرُقِها السابلة إليها، فخرج قائدُها بفرسانه، وقد كان وَجَّهَ عن مددٍ وَصَلَه من أرض الحرب، فيه قائدُ أشونة[5] وقائد قَنيط[6] وقائدُ أطيبة[7] بمن لنظرهم من فرسانِ النصارى هؤلاء المحاربين للمُسْلمين، أحدّ شوكة من غيرهم، وأخفّ شِكَّةٍ من سواهم، فخرجوا جَمْعاً إلى مَصارِعِهِمْ وبرزوا إلى موارِدِ [هلاكهم][8] فاقتفوا السريّةَ التي أغارَتْ، طامعين في انتهازِ الفُرْصَةِ فيها، وهم يتحيّزون أمامهم إلى فئتهم التي كمنوا لهم مقربةً من الموضعِ المعروف بحجر العشّاق[9]، ومن هنالك ثار إليهم الجيشُ المُكْمِن لهم، فمنحهم الله أدبارهم، ومكّن سيوفَ المسلمين من رقابهم، فتقسّمَهُمُ القتلُ والأسْر، وهم زهاء ستمائة شخص، أكثرُهم فرسان، وفيهم رجّالة، ونفّل الله المسلمين خيلهم

---

(١) ـ بالإسبانية (Aguilar) شمال غرب اليسانة وجنوبي قرطبة.

(٢) ـ في الأصل: مغتفر من.

(٣) ـ في الأصل: الغرق.

(٤) ـ العسكر المجر: الجيش العظيم (القاموس المحيط: مجر).

(٥) ـ بالإسبانية (Osuna) غرب غرناطة وإلى الجنوب الغربي من استبة (Estepa) (الادريسي ١٧٤، ٢٠٦، جغرافية البكري ٦٤).

(٦) ـ بالإسبانية (Canete) انظر كتاب «محمد التاسع» ص ١٩٠.

(٧) ـ بالإسبانية (Teba) ذكرها لسان الدين الخطيب في أعمال الأعلام ص ٢٩٣، ٣٣٥، وهي قريبة من قلعة يحصب.

(٨) ـ بياض في الأصل تقديره: هلاكهم.

(٩) ـ لم أهتد إلى معرفته.

وأسلحتهم وأسلابهم، واقتيد (ص ٢٧٥) منهم في حبلِ الإسار من تراخَتْ منيّتُهُ.

ثم على عقبِ ذلك بزمنٍ تيسَّرَ للقائِد الوزير أبي اسحق ابراهيم بن عبد البرّ التوجُّهُ إلى مالَقَةَ، لمآربَ عَنَتْ له هُنالِك، ومصالح لايقومُ بها سواه، فيسّر الله بحُكْمِ الوِفاق في كوكبةٍ[1] عظيمة ممّن وصلَ من فرسانِ النصارى إلى انتقيرتهم المشؤومة، متفجّعين مما أصابَ أهلَها، فتحرّكوا إلى أرضِ المسلمين برَسْمِ طلبِ ثأرِ إخوانهم الأنتقيريين، فكأنّما كانوا مع الوزارةِ العليّةِ على ميعاد، فاستأصلَ الله منهم بجهادِها نحو مائةٍ وستّين فارساً بين قَتْلى وأُسارى. . .[2] غنيمة بإرادة[3]. .[4] فرسانه، وارتفق المسلمون بخُمْسها كخُمْس الغنيمة قبلها.

ثم يسّر الله الثالثةَ، التي أربَتْ على سابقَتِها، وقَصَمَ فيها الطاغيةَ المعروفَ بـ «خوان شيء بذره»[5]، فتحصّل في ربقةِ الأسْرِ بعد حَشْد صناديد الكفّار من أهل شرّيش[6]والقلعةِ[7] ومدينةِ ابن السليم[8] وبحير[9]، فخرج بهم

(١) - في الأصل: كبكبة.

(٢) - بياض في الأصل مقدار كلمة واحدة.

(٣) - كذا في الأصل، وربما كان المقصود: باردة.

(٤) - بياض في الأصل مقدار كلمة واحدة.

(٥) - كذا في الأصل، وفي كتاب لويس سيكو دي لوثينا عن محمد التاسع ص ٢١٥ : (Juan Saavedra) قائد قسطيلية (Castellar).

(٦) - بالإسبانية (Jerez) من كور شذونة على مقربة من مدينة قادس (Cadiz) على البحر (الروض المعطار ٣٤٠).

(٧) - أقرب قلعة للمنطقتين المذكورتين في النص (Alcala de los Gazuless)

(٨) - بالإسبانية (Medinaceli) وهي مدينة شذونة سميت بمدينة ابن السُلَيْم عندما جاء إليها بنو السُلَيْم بعد خراب مدينتهم قُلشانة Calsena ومدينة ابن السليم قريبة من شذونة. (الروض المعطار ٤٦٦).

(٩) - لم أجده في المصادر التي بين يدي.

قاصداً أرضَ مربلّة[1]، الآمنة الجهاتِ، المنبسطة القُرى، الوافرة القطين، السارحة السوائم ِ، من بلدِ شرّيش، فتحها الله في يوم الخميس ِ الثامنِ لشهر الله المحرّم فاتح عام اثنين وخمسين وثمانمائة. وفي ذلك اليوم بِعَيْنِه... [2] عَزْمٌ للقائدَيْنِ الوزيرين أبي اسحق ابراهيم بن عبد البرّ، وأبي القاسم بن السرّاج، على الخروج إلى الجهةِ الغربيّة، بقصْدِ الغارةِ على أرض ِ الحرْبِ في طَلَبِ البَقَرِ، إذْ كانت العيون المتردّدة لأرض ِ الحرب، تجدها سارحةً إلى أحوازِ أرْض ِ المسلمين، منتجعين بها مواقعَ القطر من تِلك الجهات، فَخَيَّلَتْ لهما أنفسُهُما الظفرَ بذلك من غَيْرِ ملاقاةِ حرب، كالواقع ِ لأصحابِ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في غزوة بدر، إذ يَعِدُهُمُ الله إحدى الطائفتين أنّها لكم، وكانوا يودُّون غيرَ ذاتِ الشوكة، وهي عِيرُ أبي سفيان، فمنحهم الله التي أظهرَتْ الإسلامَ إلى اليوم، قَتَلَ الله فيها صناديدَ قريش كعُتْبَةَ وشَيْبَةَ ابنيْ ربيعة وأبي جهل وغيرهم، فكذلك... [3] اللهُ حكمته الباهرة في هذه القضيّة، بما استحثَّ الله هذين القائدين للسَّيْر[4]، فلم يلويا على مُتَعَذِّر، ولضحوةِ يوم ِ الأحد رابع خروجهما[5] من الحضرةِ العَلِيّة، وقع اللقاء بهذا الجَيْش ِ الكافر بموضع ٍ يُقال له الخزائن[6] من ظاهرِ مربلّة[7]، وِفاقاً لا يُمْكِنُ أن يكونَ الميعادُ بأبلغَ منه فيما رهن به الكفرة من القَتْل ِ والأسْر، وقد كانوا زهاء ستمائة (ص ٢٧٦) شخص، فيهم من أنْجادِ فُرسانِهم، وعتاةِ أبطالهم، مَن تنخَلَهُمْ تَخَيُّرُ الطاغية «خوان ذي شيء بذره»[8] واحداً واحداً، معتدّاً بغنائه، وعتق فرسه، وجودةِ سلاحِهِم،

---

(١) ـ بالإسبـانية (Marbella) على ساحل البحر المتوسط على بعد ٦٠ كيلو متراً غرب مالقة (مشاهدات لسان الدين ص ٧٥، الروض المعطار ص ٥٣٤).

(٢) ـ بياض في الأصل مقدار كلمة واحدة تقديرها: ظهر.

(٣) ـ بياض في الأصل مقدار كلمة واحدة تقديرها: أظهر.

(٤) ـ في الأصل للشرّ.

(٥) ـ في الأصل: رابع خروجهما من رابع خروجهما.

(٦) ـ لم أهتد إلى معرفتها.

(٧) ـ (Marbella) وقد مر ذكرها.

(٨) ـ (Juan Saavedra).

فقادَهُمْ إلى مَناياهم، وجرَهُمْ إلى مُلاقاةِ رَزاياهم، وغَنِمَ المسلمون من خيلهم وعُدَدِهِم وأسلحتِهم ما ملأ أيديهم، وتحصَّل منهم في ذُلِّ الأَسْرِ ما يربى على مائة وأربعين شخصاً، أرْخَصَ فداؤهم البَقَرَ بالوطن، وتناولهم البَيْعُ بالمَشْور[1] أيّاماً، وركب من الفرسانِ من احتسب له فرسه في هذه المدّة، فكانت نعمةً لا يُقام لها بكفاء، أوزعنا الله شُكْرَ نِعَمِه.

فمتأمِّلُ هذه الكوائنِ بِعَيْنِ البصيرةِ، ونَظَرِ الاعتبار، يَعْلَمُ قطْعاً أنّها متعذّرةُ الـوقوع، ومتعذّرةُ[2] التأتّي عادة، مع استمرارِ الدولةِ على ما كانت، ولولا التمحيصُ اللاحقُ لما تَمَّتْ هذه المصالحُ فيما يُظَنّ، كما أنّ هذا التمحيصَ الواقعَ بالدولةِ استلزمها استلزاماً، يَشْهَدُ برهانُ الوجودِ بأنّه سببُ وقوعِها حتماً، وموجِبُ كَوْنها قَطْعاً، ومن باشَرَ أمورَها، وشاهَدَ الدواعيَ إليها، فإنه يحصل له العلمُ اليقين، بأنّ الله جعل لها من الفُرقَةِ أسباباً مقتضِية، وأحكاماً مُوجِبة، فتعالى الله الذي إذا أرادَ شيئاً فإنما يقول له كُنْ فيكون.

وسواء جَرَتْ أسبابُ ذلك الأمرِ على المعتادِ في الوجود، أو على غيرِ المعتاد، فكلُّ شيءٍ في قبضةِ قُدْرَتِه، وإنما يبرز على مقتضى إرادتِه، وإلاّ فمِنْ أيْنَ يُسْمَعُ بأنّ رَفْعَ الضريبةِ، وفتح الحُصونِ، واسترجاعَ المغصوبِ، وإدالةَ النصرةِ، لا يمنحه إلاّ افتراقُ الأُلفة، وارتكابُ الثورة، ومراغمةُ بعضِ القائمين بالأمرِ لبعضهم!؟ هل هذا إلاّ أعْجَبُ ما يُتحدّثُ ويُتفكَّر فيه؟! ولهذا المعنى هي[3] هذه القضايا عريقةٌ في هذا الباب، من حيثُ ما أدرك أوّلاً من الشدّة، ولحِقَ سابقاً من النعمة، ومن حيث ما انجلى عنه أخيراً من النِعْمة، وأعقبه ثانياً من المنّة.

---

(۱) ـ يفهم من استخدام الأندلسيين والمغاربة لهذه الكلمة أنها تعني القصر الملكي الذي يجتمع فيه للتشاور (انظر على سبيل المثال: الإحاطة ٤ / ٤٦٩ سطر ٣ ـ ٤).

(٢) ـ في الأصل: معذرة.

(٣) ـ كذا في الأصل، ولعلها تصحيف لكلمة: نجد أو نرى.

وفي قَصْدِ التنبيهِ على هذه اللطائِف، والإيقاظِ لأرْبابِ الدولةِ من الغَفْلةِ أنشأتُ:

«الحمدُ لله الذي عَوَّضَ من الخلافِ وِفاقاً، وأعقبَ من الافتراقِ اجتماعاً واتِّفـاقـاً، [وهيّأ][1] لأسـواقِ الائتلافِ، برفعِ الاختلافِ نَفاقاً، ويَسَّرَ لوطنِ الجهادِ، من توثُّر[2] المهادِ، أرفاقاً، وزيّن بأنجمِ السعود، من النصرِ الموعود آفاقاً، وعقد على جمعِ[3] الكلمةِ، من الأمّةِ المسلمةِ، إجماعاً وإصفاقاً. نَحْمَدُهُ سبحانه، وهو المحمود بجميع اللغات، ونشكُرُه على ما سنّى من آمالٍ على وفق الأمنيةِ مبلِّغـات، ونثني عليه بما أسْدى من (ص ٢٧٧) عوارفَ مخـوّلات، ومـواهِبَ مسـوَّغات، حمداً نستكثِرُ من دُرَرِه[4] النفيسةِ إنفاقاً، (ونتحمّل بأمانته)[5] العظيمةِ، فلا نأبى من حَمْلها إشفاقاً.

ونشهدُ أنّه الله الذي[6] لاإله إلاّ هو، الواحدُ الأحدُ، الفردُ الصَمَدُ، الذي لم يلِدْ ولم يُولد، ولم يكن له كفواً أحَدْ، شهادةً نَرْفَعُ لواءها المرتاح[7] العذباتِ خفّاقاً، فلا نحذر[8] بعد هذه الشهادةِ، لمقاصِدِ السعادةِ، إخفاقاً.

ونشهدُ أنّ محمّداً[9] عبده ورسوله، وحبيبه[10] المصطفى وخليله، نبيُّ الرحمةِ، ونورُ الظلمةِ، وشفيعُ الأمّةِ، والمبعوثُ بالكتابِ والحِكْمَةِ، والمجموعُ

---

(١) ـ بياض في الأصل ملأناه من أزهار الرياض ١ / ١٥٨.

(٢) ـ في أزهار الرياض: توثير.

(٣) ـ في الأصل: جميع.

(٤) ـ في الأصل: دوره.

(٥) ـ ما بين القوسين جاء في أزهار الرياض: وأمانته.

(٦) ـ الذي: سقطت من أزهار الرياض.

(٧) ـ في أزهار الرياض: المرنّح.

(٨) ـ في أزهار الرياض: فلا لاقى.

(٩) ـ في أزهار الرياض: ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً صلى الله عليه وسلم.

(١٠) ـ في أزهار الرياض: ونبيّه.

له بين مزيّةِ السبقِ ومزيّةِ التتمّةِ، شهادةً نستحفِظُ منها بِقاعَ الأرْضِ أوْفاقا[1]، فلا تَخْشى معها القلوبُ، وقد حصل منها الغرضُ المطلوبُ، شكّاً ولا نِفاقاً.

ونصلّي على هذا[2] النبيّ الكريم، (الرؤوفِ بالمؤمنين الرحيم، الآتي بالدين القويم، المتحدّي بالذِكْرِ الحكيم)[3]، الموصوفِ[4] بالخُلُقِ العظيم، صلاةً نحلّ بها من عُقْلَةِ الذكر وثاقاً، ونؤكّد بها القبول، إذا عرض[5] العمل المقبول، ميثاقاً، ونَرْضى على آل محمّدٍ وصحبه، وعشيرته وحزْبِهِ، المختصّين بقُرْبِه، الفائزين بالرِضا من ربِّه، أكرم الناس أعراقاً، وأعظمهم من خشيةِ الله إطراقاً، وأبهرهم في مقامِ[6] الهدايةِ إشراقاً، (وخصوصاً الأنصار، الذين تبوّأوا الإيمان والدار، أشرف الخلقِ أخلاقاً وأكملهم في إحراز الفضلِ عموماً وإطلاقاً، وأنداهم بالذخيرةِ كفّاً، فلا يستطيعُ الشُحُّ لجودِها كفّا، وقد آثر الإمساك، واستقى النسّاك، أعلاقا)[7].

ونستوهِبُ منه التأييدَ والنصر، والفتح الذي تفوتُ عجائبه الحصر، والمنْح الذي لا تعرف صَلاةُ صِلاتِه[8] القصر، لهذه الخلافةِ الغالبيّةِ، التي أطبقت [على]* الإغضاء أحداقاً، (وأرسلت النائلَ ديمةً غيداقاً)[9]، وأظهرتْ من الحِلْم، لما كان في مكنونِ العِلْمِ، مصداقاً. ونبتهلُ إلى اللهِ في دوامِ

(١) ـ في أزهار الرياض: شهادة تستحفظ بقاع الأرض أرفاقاً.

(٢) ـ «هذا» سقطت من أزهار الرياض.

(٣) ـ ما بين القوسين سقط من أزهار الرياض.

(٤) ـ في أزهار الرياض: المبعوث.

(٥) ـ في أزهار الرياض: عارض.

(٦) ـ في أزهار الرياض: مقامات.

(٧) ـ ما بين القوسين سقط من أزهار الرياض.

(٨) ـ في الأصل: صلاية، والصواب من أزهار الرياض.

* ـ سقطت من الأصل، وأضفناها من أزهار الرياض.

(٩) ـ ما بين القوسين سقط من أزهار الرياض.

آيامِها، وإعلاء أعلامها، وإمضاءِ ذابلها المرهوبِ وحسامِها، حتى يتنفَّس الإسلامُ خناقاً، وتسيرَ به الرفاق[1]، وقد تهادَتْها الآفاق، وخْداً وإعناقاً، وتخضعَ لها الجبابرةُ، والملوكُ القياصرةُ، رِقاباً وأعناقاً، ونمدّ[2] إليه يَدَ الافتقار، ونبسط[3] كفَّ الضراعة والاضطرار، في كفِّ الفِتَنِ، عنْ هذا الوطنِ، وكفِّ الكُفّارِ عن هذه الديار، وتيسيرِ الفَرَجِ القريب، لهَذا القُطْرِ الغريب، وتسهيلِ الصَّعْبِ العسيرِ، لهذا الصقع[4] النائي عن (ص ٢٧٨) الوليّ والنَّصير، فيجمعُ به من القلوبِ النافرة، والنفوسِ المتنافرة، افتراقاً، ونجعلُ دَمَ العُداةِ، بسيوفِ الحُماة الكُماةِ، مُراقاً، ويتحف بأنبائه المعجبة، وأخباره المغربة المطربة، شاماً وعراقاً**.

أما بعد؛ فإنّ الله على كل شيء قدير، وإنه بعباده لخبيرٌ بصير، وهو لمن أصلح[5] نيّته، وأخْلص طويّته، نعم المولى ونعم النصير[6]، وهو يرفَعُ مَنْ تواضَعَ له، ويُنجِحُ قولَهُ وعمله، وهو العليُّ الكبير، فإذا هيّأ الفتْحَ وأجْزل المنح، وأجملَ الصنيعة، وكفّ الغُصَصَ الشنيعةَ، وسنّى الألطافَ، وأدنى من ثمراتِ السَّعْدِ القطافَ، سبحانَ الله حين تُمْسُون وحِينَ تُصْبِحون، وله الحمدُ في السماواتِ والأرضِ وعشيّاً وحين تُظْهِرون.

وإذا كان الابتلاء، ورفعُ ما يقتضيه الإملاء، وعَظُمَ الاختبارُ والتمحيص، وأعْوزَ المناصُ والمحيص، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، ألا له الخلقُ والأمر وإليه تَرْجِعُون، سبحانَه هو الفعّال لما يريد، وهو الذي يُنزِلُ الغيْثَ من بعدِ ما قنطوا،

---

(١) ـ في الأصل: الوفاق، والصواب من أزهار الرياض.

(٢) ـ في الأصل: وتمدّ.

(٣) ـ في الأصل: وتبسط.

(٤) ـ في الأصل: الصنع، والصواب من أزهار الرياض.

** ـ من هنا يبدأ اقتباس المقّري في نفح الطيب ٦ / ١٤٩.

(٥) ـ في أزهار الرياض ونفح الطيب: أمَّل.

(٦) ـ من هنا وحتى أول: بيده الرفع والخفض... ساقط من أزهار الرياض ونفح الطيب.

وينشرُ رحمته، وهو الوليّ الحميد، بيدِهِ الرَّفْعُ والخَفْضُ، والبَسْط[1] والقَبْضُ، والرُّشْدُ والغيّ، والنَشْرُ والطَيّ، والمَنْحُ والمَنْعُ، والضُرُّ والنَفْعُ، والبُطْء والعَجَل، والرِزْقُ والأجل، والمسرَّةُ والمساءةُ، والإحسانُ والإساءةُ، والإدراكُ والفَوْتُ، والحياةُ والمَوْتُ، فإذا* قضى أمراً فإنّما يقول له كُنْ فيكون، (وبإرادته العَدَمُ والوجودُ والحركةُ والسكون)[2]، وهو والفاعلُ على الحقيقةِ[3]، وتعالى الله عمّا يقولُ الأفكون، وهو الكفيلُ بأنْ يُظْهِرَ دينَه الحقّ[4] على الدينِ كلّه ولو كَرِه المُشْرِكون.

وإنّ في أحوالِ الوقتِ الراهنةِ[5] لذكرى لِمَنْ كان له قَلْبٌ أو أَلْقى السَّمْعَ وهو شَهيد، وعبرةً لمن تَفَهَّم[6] معنى[**]قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾[7] و ﴿إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ ما يُرِيدُ﴾[8]. (وتبصرةً لمن ذهل عن التدبيرات الإلهيةِ[9] كيفَ يُبَعِّدُ بها[10]القريب ويُقرِّبُ بها البعيد)[11]، بينما[12]الدسوتُ عامرةٌ، والولاةُ آمِرةٌ، والفئةُ مجموعةٌ، والدعوةُ مسموعةٌ، والإمْرةُ مطاعةٌ، والأجوبةُ سمع[13]

---

(١) ـ في الأصل: والسبط.

* ـ في نفح الطيب: إذا.

(٢) ـ ما بين القوسين سقط من أزهار الرياض ونفح الطيب.

(٣) ـ في أزهار الرياض: فهو الفاعل في الحقيقة.

(٤) ـ كلمة «الحقّ» سقطت من أزهار الرياض ونفح الطيب.

(٥) ـ في أزهار الرياض ونفح الطيب: الداهية.

(٦) ـ في نفح الطيب: يفهم.

(**) «معنى» سقطت من نفح الطيب.

(٧) ـ آية ١٨ من سورة الحج.

(٨) ـ آية ١ من سورة المائدة.

(٩) ـ في الأصل: الاهية، والصواب ما أثبتنا.

(١٠) ـ في الأصل: يبعدها، والصواب ما أثبتنا.

(١١) ـ ما بين القوسين سقط من أزهار الرياض ونفح الطيب.

(١٢) ـ في أزهار الرياض ونفح الطيب: فبينما.

(١٣) ـ في أزهار الرياض ونفح الطيب: سمعا.

وطاعةٌ، وإذا[1] بالنعمةِ قد كُفِرَتْ، والذمّةِ قد خُفِرَتْ، (وساعةِ الحِمام قد حُمَّتْ، ودارِ القَرارِ قَدْ أَمّت، والآخرةِ خيرٌ وأبقى ولا تُظْلَمون فتيلا، ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضلُّ سبيلا)[2]، فالسعيد[3] من وُعِظَ[4] بغيره، ولا يزيدُ المؤمن عمره إلاّ خيراً، جعلنا الله ممّن قضى بخيره.

وبينما الفُرقةُ حاصلة، والقطيعةُ فاصلة، والمضرّةُ واصلة، والحبلُ في انْبتات، (ص ٢٧٩) والوطنُ في بتات[5]، والخلافُ يمنعُ رَعْيَ مُماتّ[6]، والقلوبُ شتّى من قومٍ أشتات، والطاغيةُ يتمطّى لِخَصْمِ[7] الوطنِ وقضمه، ويَلْحَظُهُ لَحْظَ المتلهّف[8] على هضمه، والأخذ بكظمه، ويتوقّعُ الحسرةَ إن تأذّن[9] الله بجمع شمله ونظمه، على رغم الشيطان ورغمه، وإذا[10] بالقلوبِ قد ائتلفَتْ، والمنافرة[11] قد اجْتَمعت بعدما اختلفت، والأفئدة بالبينة[12] إلى الأُلفة قد اقتربت إلى الله وازدلفت، والمتضرّعةِ إلى الله قد انتهت[13] في إصلاح الحالةِ التي سَلَفَتْ، فألقت الحربُ أوزارها، وأذْنَتِ الفِرقة النافرةُ مزارَها، وجلتْ

(١) ـ في أزهار الرياض: إذا.

(٢) ـ ما بين القوسين ساقط من أزهار الرياض ونفح الطيب.

(٣) ـ في أزهار الرياض ونفح الطيب: والسعيد.

(٤) ـ في أزهار الرياض ونفح الطيب: اتّعظ.

(٥) ـ في أزهار الرياض ونفح الطيب: شتات.

(٦) ـ في أزهار الرياض ونفح الطيب: متات.

(٧) ـ في أزهار الرياض ونفح الطيب: لقصم.

(٨) ـ في أزهار الرياض ونفح الطيب: ونلحظه لحظ الخائف.

(٩) ـ في أزهار الرياض ونفح الطيب: يأذن.

(١٠) ـ في أزهار الرياض: إذا.

(١١) ـ في أزهار الرياض ونفح الطيب: والمتنافرة.

(١٢) ـ في أزهار الرياض ونفح الطيب: بالألفة.

(١٣) ـ في أزهار الرياض، ونفح الطيب: ابتهلت.

الألفةُ الدينيّة أنوارَها، وأوْضحت العصمةُ الشرعيّةُ آثارَها[1]، وأرْضَتِ الخلافةُ الغـالبيّة[2] أنصـارهـا، وغضّتِ الفئـةُ المعترضة[3] أنصارها، وأصلحَ الله[4] أسـرارهـا، وتجمّعت الأوطـانُ بالـطاعـة، والتـزمت نصيحـةَ الدين بأقصى الاستطاعة، وتسابقتْ متناغيةً[5] إلى لزوم السُّنّة والجماعة، وألْقتْ إلى الإمامة[6] الغالبيّة[7] يَدَ التسليم والضراعة، فتُقُبِّلَتْ فيئاتُهم[8]، وأُحْمِدَتْ جَيْئاتُهم[9]، وأُسْعِدَتْ آمالُهم، وارتُضيت أعمالُهم، وكملت مطالِبُهم، وتُمّمت مآربُهم، وقُضِيَتْ حاجـاتُهم، واستُمِعَتْ منـاجاتهم، وألْسِنَتُهُمْ بالدعاء قد انطلقت، ووجهتهم في الخلوصِ قد صدقَتْ، وقلوبُهمْ على جمعِ الكلمةِ قد اتّفقتْ، (وأعـلامهم إلى الحضـرةِ العلياء قد استبقت)[10]، وأكُفُّهُمْ بهـذه (الأمـانة الغالبيّةِ)[11] قد اعتلقت.

وكانت الإدالةُ لهذا[12] الوقتِ على عدوِّ الدين قد ظَهَرَتْ منها مخائلُ[13]، (ووضَحَتْ لها في استخلاص هذه المعاقِلِ بإذن الله دلائلُ، وكرمت منها)[14]

---

(١) ـ بعد هذه الجملة جاءت في ازهار الرياض ونفح الطيب جملة أخرى يظهر أنها سقطت من الأصل وهي: ورفعت الوحشة الناشبة أظفارها أعذارها.

(٢) ـ في أزهار الرياض ونفح الطيب: الفلانية.

(٣) ـ في أزهار الرياض ونفح الطيب: المتعرِّضة.

(٤) ـ في نفح الطيب: الله تعالى.

(٥) ـ سقطت من أزهار الرياض ونفح الطيب.

(٦) ـ في الأصل: الإقامة، والصواب من أزهار الرياض ونفح الطيب.

(٧) ـ في أزهار الرياض ونفح الطيب: الفلانية.

(٨) ـ في نفح الطيب: فيأتهم.

(٩) ـ في نفح الطيب: جيأتهم.

(١٠) ـ ما بين القوسين سقط من أزهار الرياض ونفح الطيب.

(١١) ـ في أزهار الرياض ونفح الطيب: الإمامة الفلانية.

(١٢) ـ في الأزهار والنفح: في.

(١٣) ـ في الأزهار والنفح: قد ظهرت وبرقت.

(١٤) ـ ما بين القوسين سقط من الأزهار والنفح.

(بإعزاز دينِ الله الموعودِ بظهورهِ على الدين كُلِّه فواتح وأوائل)[1]، وكفّت بقدرة مَنْ له القدرة القاهرة[2]، والعزّة الباهرة، مِنْ عدوانِ الطاغيةِ غوائل، (والله مُوهِنُ كَيْدِهِمْ، ومُبْطِلُ أحْيلَتِهِمْ وأيْدِهم، وجاعلُ بَأسِهم بينهم، وماحق زورهم ومَيْنهم، بحول الله وقوّته.

وظاهرٌ ظهورَ الشمس، وثابتٌ بثبوتِ القواعِدِ، الخَمْس)[3]، ومعلومٌ بالضرورة (علم إتيان الغدِ ومضيّ الأمس)[4]، أنَّ الله لطيفٌ بعباده حسبما شهد بذلك برهانُ الوجود[5]، ﴿وإنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ الله لا تُحْصُوها﴾[6] دليلٌ على ما سوّغ من الكَرَمِ والجود.

وإنّ من أعظمِ نعمه التي نعجز[7] عن أداء شُكْرها وإن طالت آمادُ الأعمار، ويتناغى البُلَغاء[8] في الثناء عليه في إسدائها[9]، فلا يبلغون من ذلك مِعْشار المِعشار، وتتجارى الألسنةُ والأقلامُ في تقريرِ وَصْفِها، فلا تصل من ذلك إلى حَظٍّ يُقْنِعُ[10]، (ص ٢٨٠) ولا إلى مِقْدار، وفي مثلها قال الله تعالى: ﴿واذْكُروا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إذْ كُنْتُمْ أعْداءً فألَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فأصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إخْوانًا، وكُنْتُمْ على شَفَا حُفْرةٍ مِنَ النّارِ فأنْقَذَكُمْ مِنْها﴾[11] (وما ذاكَ إلّا لأنّ

---

(١) ـ ما بين القوسين جاء في أزهار الرياض ونفح الطيب بعد كلمة: غوائل.

(٢) ـ في أزهار الرياض: وكفت بقدرة ربه القدرة الباهرة، وفي نفح الطيب: وكفّت القدرة القاهرة.

(٣) ـ ما بين القوسين ساقط من أزهار الرياض ونفح الطيب.

(٤) ـ ما بين القوسين ساقط من أزهار الرياض ونفح الطيب.

(٥) ـ هنا ينتهي اقتباس المقّري في نفح الطيب في الجزء السادس ص ١٤٩ ـ ١٥٠.

(٦) ـ آية ٣٤ من سورة ابراهيم.

(٧) ـ في أزهار الرياض: يُعجز.

(٨) ـ «البلغاء» سقطت من أزهار الرياض.

(٩) ـ في أزهار الرياض: في أمرها.

(١٠) ـ في الأصل: يقيع، وفي أزهار الرياض: حدّ يقنع.

(١١) ـ الآية ١٠٣ من سورة آل عمران، «فأنقذكم منها» سقطت من الأزهار.

قَدْرَ هذه النعمة عظيم)[١]، وخطرها جسيم، (لإنعامَ بها عميم)[٢]، وصراطَ العَدلِ بها مستقيم، (وسبيلَ الدين والدنيا بها قويم)[٣] وبها امتنَّ الله في قوله: ﴿وإنْ يُريدُوا أنْ يَخْدَعُوكَ فإنَّ حَسْبَكَ الله هُوَ الذي أيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وبالْمُؤْمِنينَ وألَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أنْفَقْتَ ما في الأرْضِ جَميعاً ما ألَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ الله ألَّفَ بَيْنَهُمْ إنَّهُ عَزيزٌ حَكيمٌ﴾[٤] فهل يُستطاعُ شكرُ النعمةِ التي لا يكون إنفاقُ (ما في)[٥] الأرض جميعاً لها قيمة!؟ أو يختلف اثنان بوجهٍ أو بحالٍ[٦] في كونِ هذه النعمةِ عظيمة؟! أو يتمارى أحدٌ في كوْنِ جمْعِ الكلمةِ في هذا الوطن الغريب مِنَّةً كبيرةً ومِنْحةً كريمة؟![٧].

ومن اسْتقْرأ التواريخَ المنصوصَة، وأخبارَ الملوكِ المقصوصةَ، علِمَ أنَّ النصارى - دمَّرَهُم الله -[٨] لَمْ يُدْرِكُوا في المُسْلِمين ثارا، ولم يَرْحَضُوا[٩] عن أنفسهم عارا، ولم يَحْرِقُوا[١٠] من الجزيرةِ منازلَ وديارا، ولم يَسْتَوْلوا عليها بلاداً جامعةً وأمصارا، إلاَّ بعد تمكينهم لأسباب الخلافِ واجتهادِهِم في وقوع الافتراق بين المسلمينَ والاختلافِ، وتضريبهم[١١] بالمكرِ والخديعةِ بَيْنَ ملوكِ

(١) - في الأزهار: وما ذلك إلا مِنَّةٌ قدرها عظيم.

(٢) - ما بين القوسين ساقط من أزهار الرياض.

(٣) - ما بين القوسين ساقط من أزهار الرياض.

(٤) - الآيتان ٦٢ - ٦٣ من سورة الأنفال، وفي الأزهار جزء من الآية فقط وليس كلها.

(٥) - «ما في» سقط من الأزهار.

(٦) - في أزهار الرياض: حال.

(٧) - من هنا يقتبس المقّري في نفح الطيب مرة أخرى من الرسالة المذكورة.
(نفح الطيب ٤ / ٥٠٨) والعبارة من عند «ومن استقرأ . . . وحتى: أنفسهم عارا» تكررت في أزهار الرياض ج ١ ص ٥٠ وج١ ص ١٦٢.

(٨) - في نفح الطيب: دمرهم الله تعالى.

(٩) - في أزهار الرياض ١ / ١٦٢: يرفعوا، مع أنها وردت في المصدر نفسه ١ / ٥٠ وفي النفح ٤ / ٥٠٨: يرحضوا.

(١٠) - في نفح الطيب ٤ / ٥٠٨ وفي أزهار الرياض ١ / ٥٠: يخربوا.

(١١) - في الأصل: وتضربهم، والصواب من النفح وأزهار الرياض.

الجزيرةِ، وتحريشهم بالكيْد، والخلابة بين حُماتها، في الفِتَنِ المُبيرة.

ومهما كانت الكلمةُ مؤتلفة، والأهواء [1] لامفترقة ولامختلفة، والعلماء بمعاناةِ اتفاقِ القلوب إلى الله مزدلفة، فالحربُ إذ ذاك سِجال، ولله[2] في إقامة الجهاد في سبيله رِجال، وللممانعةِ في غَرَضِ الموافقةِ[3] ميدانٌ رحبٌ ومَجال، ورويّةٌ وارتجال[4]، إلى أنْ استقلّت هذه الدولةُ النصريّة[5] على قواعِدها الراسخة[6]، واستقرّتْ بأحلامها الراجحة وأعلامها الشامخة، واستمرّت على قوانين من السياسةِ كانت ضابطة نشر[7] للمملكة من[8] الافتراق، واستظهرت أبناؤها الغرُّ بشِيَمٍ اعتلقت بها أتمَّ الاعتلاق، فحفِظَ الله الدولة[9] (من ذلك)[10] إلّا في الندرة، ووقاها من ذلك الأمرِ الصعْبِ بوقايةٍ من الاكتساب ووقايةٍ من القُذْرة.

(وتطاولتِ الأيّامُ بين مهادنةٍ ومقاطعة)[11]، ومقارَبةٍ[12] ومُقارعة، ومنازلةٍ ومنازعة، وموافقةٍ وممانعة، ومحاربةٍ وموادعة، ولا أملَ للطاغية إلّا في التمرُّسِ بالإسلامِ والمسلمين، وإعمالِ الحيلة على المؤمنين، وإضْمارِ المكيدةِ

---

(١) - في النفح: والآراء.

(٢) - في النفح: ولله تعالى.

(٣) - في أزهار الرياض ونفح الطيب: المدافعة.

(٤) - من هنا وحتى . . . مهادنة ومقاطعة ورد في أزهار الرياض ١ / ١٦٣.

(٥) - في أزهار الرياض: الفلانية.

(٦) - «الراسخة» سقطت من أزهار الرياض.

(٧) - في الأصل: للنشر.

(٨) - في أزهار الرياض: عن.

(٩) - في أزهار الرياض: الدولة الفلانية.

(١٠) - «من ذلك» سقطت من أزهار الرياض.

(١١) - ما بين القوسين ورد في أزهار الرياض في مكانين ١ / ٥١، ١ / ١٦٣ وكذلك في نفح الطيب ٤ / ٥٠٨.

(١٢) - في أزهار الرياض ١ / ٥١ ونفح الطيب ٤ / ٥٠٨: ومضاربة.

للموحّدين، واستبطانِ الخديعةِ للمجاهدين، وهو يُظْهِرُ أنّه ساعٍ للوطنِ في العاقبةِ الحُسْنى، وأنّه مُنْطوٍ لأهله على المقصد الأسنى، وأنه[1] مهتمٌّ بمراعاة أمورهم، وناظرٌ نظرَ[2] المصلحة لخاصّتهم وجُمهورِهم، وهو يُسِرُّ [حَسْواً][3] في ارتغائه[4] (ص٢٨١) الحيلة[5] في التماسِ هُلْكِ[6] الوطنِ وابتغائه، فتبّاً لعقولٍ تقبل مثل هذا المحال، وتصدّقُ هذا الكذبَ البَحْتَ بوجهٍ أو بحال، وليتَ المغرورَ الذي يقبلُ هذا لو فكّر في نفسِه، وعرض هذا المسموعَ على مُدركات حسِّه، وراجع أوّلياتِ عقله وتجريبات[7] حَدْسِهِ، وقاسَ عدوَّهُ الذي لا تُرجى مودّتُه على أبناء جنسه، فأنا أُناشده الله هل بات قطّ بمصالحِ النصارى وسُلْطانهم مهتمّاً! وأصْبَحَ من خطْبِ طَرَقهم مغتمّاً! ونظر لهم نَظَرَ المفكر في العاقبة الحسنة! أو قصد لهم قَصْدَ المدبّر في العيشة[8] المستَحْسَنة! أو خطر على قَلْبِهِ أن يحفظ[9] في سبيلِ القُرْبة أربابَهم وصُلْبانَهم! أو عمر ضميره من تمكينِ عزّهم بما ترضاه أحبارُهم ورهبانُهم!؟ فإنْ لم يكن ممّن يدينُ بدينهم الخبيث، ولم يشرَبْ قلبُهُ حُبَّ التثليث، ويكونُ صادقَ اللهجة، منصِفاً عند قيام الحجّة،

---

(١) - «وأنه» سقطت من نفح الطيب.

(٢) - في أزهار الرياض ونفح الطيب: بنظر.

(٣) - بياض في الأصل أكملناه من الأزهار والنفح.

(٤) - أسر حسوا في ارتغائه: مثل يضرب لمن يظهر أمراً وهو يريد غيره، ولمن يطلب القليل وهو يسر أخذ الكثير (لسان العرب: رغا).

(٥) - في أزهار الرياض ونفح الطيب: ويعمل الحيلة.

(٦) - هذه الكلمة غير واضحة المعالم في الأصل، وما أثبتناه فهو من أزهار الرياض ونفح الطيب، ولعله تصحيف لكلمة: مُلْك.

(٧) - في الأصل: تحريبات.

(٨) - في أزهار الرياض ونفح الطيب: المعيشة.

(٩) - في الأصل: يحفظه.

فسيعترفُ(١) بأنَّ(٢) ذلك لم يَخْطُر (قطُّ له)(٣) على خاطر، ولا مَرَّ له ببال، وإنَّ عَكْسَ ذلك هو الذي كان به ذا اغتباط، وبفعله ذا اهتبال، (وإنْ نُسِبَ ذلك لا لمعنى)(٤) فهو عليه أثقلُ من الجبال، وأشدُّ على قلبه من وَقْع النبال، هذا وعقده التوحيدُ، وصلاتُهُ التحميدُ، وسُنَّتُهُ(٥) الغرّاءُ وشريعتُه البيضاء، ودينه الحنيفُ القويم، ونبيُّه الرؤوفُ الرحيم، وكتابه القرآن الحكيم، ومطلوبُه بالهدايةِ الصراطُ المستقيم، فكيف تُعْتَقَدُ هذه المزيّة(٦) الكبرى، والمنقبة الشُهرى، لمن عقده التثليث، ودينُه المليث، ومعبودُه الصليب، وتَسْميته التصليب، وملّته المنسوخة، وقضيّته المفْسوخة، وخِتانه التغطيس، وغافِرُ ذَنْبه القِسيس، وربُّه عيسى المسيح، ونظرُهُ لا البيّنُ ولا الصحيح، وأنَّ ذلك الربَّ قد ضُرِّجَ بالدِماء، وسُقِيَ الخلَّ عِوَضَ الماء، وأنّ اليهودَ قتلتْهُ(٧) مصلوباً، وأدركتْه مطلوباً، وقهرتْهُ مغلوباً، وأنّه جَزِعَ من المَوْت وخاف، إلى سوى ذلك بما(٨) يناسِبُ هذه الأقاويلَ السِخاف، فكَيْفَ يُرْجَى من هؤلاء الكفرةِ من الخيرِ مثقال(٩) الذرّة، أو يُطمع منهم في جَلْبِ المنفعةِ أو دَفْعِ المَضَرَّة!؟ اللهُمَّ احفظْ علينا العقلَ والدين، واسلُكْ بنا سبيلَ المهتدين(١٠).

---

(١) ـ في الأصل: مستعتر، والصواب من أزهار الرياض ونفح الطيب.

(٢) ـ في أزهار الرياض ونفح الطيب: أن.

(٣) ـ في أزهار الرياض ونفح الطيب: له قطّ.

(٤) ـ ما بين القوسين ورد في أزهار الرياض ونفح الطيب على النحو التالي:
وإن نُسِبَ لذلك المعنى . . .

(٥) ـ في أزهار الرياض ونفح الطيب: وملّته.

(٦) ـ هكذا في الأصل، وكذلك في أزهار الرياض، أما في نفح الطيب فهي: المرتبة.

(٧) ـ في أزهار الرياض: قد قتلته.

(٨) ـ في أزهار الرياض ونفح الطيب: مما.

(٩) ـ في نفح الطيب: مقدار.

(١٠) ـ هنا ينتهي الاقتباس الثاني للمقّري في نفح الطيب ٤ / ٥٠٨ ـ ٥٠٩، وهنا كذلك ينتهي الجزء الذي اقتبسه المقّري في الصفحات ٥٠ ـ ٥٣ من الجزء الأول من كتابه أزهار الرياض، وهنا يواصل اقتباسه للرسالة في ص ١٦٣ من الجزء الأول من أزهار الرياض.

وإنما النِعْمَةُ التي لا يقدَّرُ قدرُها، ولا يُوَفَّى شكرُها، (ولا يُقامُ لها من حمدِ الله بكِفاء، ولا يُطْمَعُ من القِيام بحقّها في استيفاء)[1]، هي التي تكفَّلَتْ بتَسَنّيها[2] تكييفاتُ الأقدار، وانجلَتْ عن تأتّيها[3] تدبيراتُ الفاعلِ المختار، فجمع الله بها القلوبَ، وهيّأ الغَرَضَ المطلوب، وتتابعَتْ بيعاتُ البلاد، وتوافقت أهواء العباد، (وانتظم للمُلْكِ جسمٌ وأحوالِه روحٌ طاهِر[4])، واستقلَّ الإسلامُ رسماً ثابتاً حُكْمُهُ نصٌّ وعَدْلُهُ ظاهر، وهدى الله المسلمين من[5] جمعِ الكلمةِ إلى القصْدِ (ص ٢٨٢) الشرعيّ، ووفَّقَهُمْ إلى القيامِ بحُكْمِهِ المحتوم وحقّهِ المرعيّ، فاتّحادُ[6] السلطانِ في مثلِ هذه الأوطان، واجبٌ قياساً وسَماعاً، وتَعَدُّدُ[7] الخلافة في مثلِ هذه المسافة، غيرُ جائزٍ إجماعاً.

وأنتمْ[8] أيُّها الملأُ المشتملُ على الشُرفَاء الذين بتقديمهم يُسْتَنْجَزُ من البركة موعودُها، والعلماء الذين هم حفظة الشريعةِ الحنيفيّةِ أن تُتَعدّى حُدودُها، والأشياخُ الذين بجهادِهِمْ استقرَّ واجبُها، واستقامَ جانِبُها[9]، واستقلَّ[10] عمودُها، والقُوّادُ الـذين بحمايتهم تُقامُ أحكامُها، وتُحاطُ أعلامُها، وتُوفّى عُهودُها، والفرسانُ الذين هم حُماتُها وأنجادُها، وأنصارُها وجنودُها، والخاصّةُ الذين بِهِمْ يَرْجَحُ عملُها، ويَنْجَحُ أمَلُها، ويتمّ مقصودُها:

---

(١) - ما بين القوسين سقط من أزهار الرياض (١ / ١٦٣).

(٢) - في أزهار الرياض: بتبيينها.

(٣) - في أزهار الرياض: بيانها.

(٤) - في أزهار الرياض: وانتظم الملك جسماً واحداً له روح طاهر.

(٥) - في أزهار الرياض: مع.

(٦) - في أزهار الرياض: فاتخاذ.

(٧) - في أزهار الرياض: وتعذر.

(٨) - «وأنتم» سقطت من أزهار الرياض.

(٩) - في أزهار الرياض: واجبها.

(١٠) - في أزهار الرياض: واستند.

تعلمونَ حقّاً أنّ هذا الوطنَ الأندلسيَّ[1] كان قد تَعَيَّنَ للهلاك بسبب هذا الخلاف، وتوقَّعتِ القلوبُ المشفقةُ حُدوثَ الفاقرةِ بوقوع [2] هذا الاختلاف، وأنّ الشارعَ صلواتُ الله [3] عليه مَنَعَ [4] مِنْ كُلِّ ما يؤدِّي إلى الفُرقة بأتمّ الوجوه، ويؤكّد الترغيبَ والترهيبَ لكلّ[5] ما يخافُه المؤمن ويرجُوه، وأنَّ الفقهَ المذهبيَّ إذا حصلت البيعةُ في الأعناق، وتُحِلِّيَتْ[6] تحلّيَ الحمائمِ [7] بالأطواق[8]، معروفٌ معلوم[9]، وأنَّ اشتدادَهُ في سدِّ باب الافتراقِ، على العمومِ والإطلاقِ، لازمٌ محتوم، والأقدارُ الإلهية قد هَيّأتْ قَصْدَ الألفة بلا كُلْفة، ويسَّرت[10] سَبَبَ الاتّفاقِ بحُكمْ الوفاق، فاقبلوها (من الله)[11] نعمةً مسداة، وتُحفةً مهداة، وشُدُّوا عليها أيديَ الضِنَّة، واعْلَموا ما فيها لله عليكُم من المِنّة، وتعاقدوا عن أن لا تُبقُوا من الخلافِ أثراً، واتفِقوا على القصْدِ الذي يخلّصكم عندَ الله سَمْعاً وبصراً[12]، وفي هذا التيسيرِ الذي ساعدتْ به الألطافُ الخفيّة، وساعفت به من قِبَلِ الربِّ الكريمِ[13] الصنائعُ الخفيّة[14]، ما يتأكّد به الاعتبار، (ويرشِد

(١) ـ في أزهار الرياض: الفلاني.

(٢) ـ في أزهار الرياض: بسبب.

(٣) ـ في أزهار الرياض: صلوات الله وسلامه عليه.

(٤) ـ في أزهار الرياض: يمنع.

(٥) ـ كذا في الأصل، وفي أزهار الرياض: بكل.

(٦) ـ في أزهار الرياض: وتحلت بها.

(٧) ـ في أزهار الرياض: الحمام.

(٨) ـ في الأصل: للأطواق.

(٩) ـ في أزهار الرياض: ومعلوم.

(١٠) ـ في الأصل: وبشرب، والصواب من أزهار الرياض.

(١١) ـ «من الله» سقطت من أزهار الرياض.

(١٢) ـ في أزهار الرياض: ونظراً.

(١٣) ـ «الكريم» لم ترد في أزهار الرياض.

(١٤) ـ في الأصل: الخفية.

إلى أنّها إراداتُ الله نفذت) (١)، والله (٢) يخلقُ ما يشاء ويختار.

وممّا يستكمِلُ هذا القَصْدَ الذي أشرْنا إليه ويستوْفيه، قولُ تاج الدين (٣) «ما تَركَ من الجَهْلِ شيْئاً مَنْ أرادَ أن يُظْهر في الوقتِ (٤) (خلافَ ما أظْهَرَهُ الله فيه) (٥)». وفرضٌ [على] (٦) ما أظهره كلّ إنسانٍ في نَفْسِهِ ما طَلَبَهُ به الشارع، وعَذُبَتْ فيه بالتفويضِ لحُكْمِ الله المشارع، فالواجبُ علينا أن نجتَمع ونأتلف، ونتّفِقَ ولا نختلف، ونعتمدَ صَريحَ الفقه أخْذاً وتَرْكاً، ونتّبع صحيحَ النَقْلِ الذي لا يَدَعُ ريباً ولا يُبْقي (٧) شَكّاً، ونسألُ من الله الهدايةَ إلى سبيلِ السَلَفِ الذين سَبَقوا، ونعزم العزمَ على أمرِ الله تعالى في قوله: ﴿واعْتَصِموا بِحَبْلِ اللهِ جميعاً ولا تَفرَّقُوا﴾ (٨)، وإنَّ أولى الناسِ في ذلك بإرهافِ (ص ٢٨٣) العزيمة، وتوخّي السبيلِ (٩) المستقيمة، والقيامِ بمضمونِ هذا الرَسْم المستقلّ، والوفاء بتكميلِ قَصْدِ الكاتِب فيه والمُمْلِ، لَخواصُ الدولةِ الغالبيّة (١٠) الذين لَحِقَهُمْ التمحيصُ والاختبار، وتَخَوّلَتْهُمْ بأبلغِ الموعظةِ الأقْضيةُ والأقْدار، وهم الذين ربحتْ منهم في هذه السوق التجارة، والمقصودون بالخطابِ من بابِ إيّاكِ أعْني واسْمعي يا جارة، وهم الممنون عليهم باسترجاعِ المغصوب المستَحقّ، والواقِفونَ من انكسارِ القُلوبِ، والتنصُّلِ من الذنوبِ، مَوْقِفَ الأوْلى به والأحقّ، والمعنيّون

(١) ـ في أزهار الرياض: ويرشد إلى أنه أراد الله نفوذه.

(٢) ـ في أزهار الرياض: وربك.

(٣) ـ في أزهار الرياض: تاج الدين رحمة الله عليه. وتاج الدين هو ابن عطاء الله الاسكندري، وورد قوله هذا في كتابه حكم ابن عطاء الله ص ٧٠.

(٤) ـ في أزهار الرياض: الوجود.

(٥) ـ في أزهار الرياض: غير ما أراد الله أن يُظهر فيه.

(٦) ـ زيادة من أزهار الرياض.

(٧) ـ «يُبْقي» سقطت من أزهار الرياض.

(٨) ـ الآية ١٠٣ من سورة آل عمران.

(٩) ـ في أزهار الرياض: السبل.

(١٠) ـ في أزهار الرياض: الفلانية.

(بمثل قوله)[1] تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الحَقّ﴾*، ويختصُّ[2] منهم عمادُ[3] الدولة، وعميدُ الجملة بالحظ الأوفر مما يتضمّنه هذا التأنيب، وليستمنح[4] من اللهِ (الإنابة)[5] عقِبَ التذكرة بهذه الموعِظة ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَنْ يُنِيبُ﴾[6].

فإنّما[7] إذا نظرنا إلى ما كان قد طرق من الابتلاء، وشاهدْنا ما كان معروضاً[8] للوقوعِ من البلاء، وراجعْنا البصيرةَ في النِعَمِ التي كنّا منها[9] مسلوبين، والرتب[10] التي كنّا عليها مَغْلوبين، (والذُحول[11] التي كنّا بها مَطْلُوبين)[12]، والأبوابَ التي كنّا (عنْ ولوجها)[13] محجوبين، والشِرْذِمةَ التي كنّا بها مربوبين، والأفعال[14] (التي كنّا إليها منسوبين، والتبعاتِ التي كنّا من جُنَاتِها مكتوبين، وإضاعة الأحكام)[15] التي كنّا في عدد من يُحيي رسومَها محسوبين،

---

(١) ـ في أزهار الرياض: بقوله.

* ـ الآية ١٦ من سورة الحديد.

(٢) ـ في الأصل: وليحتضر، والصواب من أزهار الرياض.

(٣) ـ في الأصل: عمله، والصواب من أزهار الرياض.

(٤) ـ في أزهار الرياض: ويستمنح.

(٥) ـ سقطت من أزهار الرياض.

(٦) ـ الآية ١٣ من سورة غافر.

(٧) ـ في أزهار الرياض: فإنّا.

(٨) ـ في أزهار الرياض: معرضاً.

(٩) ـ في أزهار الرياض: عنها.

(١٠) ـ في أزهار الرياض: والتربة.

(١١) ـ جمع ذحل وهو الثأر (القاموس المحيط: ذحل).

(١٢) ـ ما بين القوسين سقط من أزهار الرياض.

(١٣) ـ في أزهار الرياض: عنها.

(١٤) ـ في أزهار الرياض: والأنفال.

(١٥) ـ ما بين القوسين سقط من أزهار الرياض.

وقد سُلِّطَ علينا كثيرٌ[1] من الظَلَمةِ الذين أعنّاهم، فعند ذلك لَعنّاهم، (وأهاننا كثيرٌ من الفُسّاقِ الذين أكرمْناهم)[2]، جزاء لما احترمْناهم فنسونا أحْوَجَ ما كنّا أن[3] يذكرونا، وخَذَلُونا أفْقَرَ ما كنّا أن[4] ينصُرونا[5]، وأسْلَمونا أشدَّ ما كنّا فاقةً أن[6] يُنْجِدونا، وتركونا أعظَمَ ما كنّا حاجةً أن[7] يُسْعِدونا، وخانونا أظهرَ ما كنّا اضطراراً إلى وفائهم، وظاهَروا علينا أتمَّ ما كنّا افتقاراً إلى غَنائهم، فلا شكَّ أن المؤاخذةَ كانَتْ بسببِ تِلْكَ الذنوب، وأنَّ الجنايةَ هي التي أوجَبَتْ ما طَرَقَنا من الخُطوب، فأزِفَ العذاب، وعاد من أعدى الأعداء[8] الأحباب ﴿وتَبَرَّأ الَّذينَ اتُّبِعُوا مِنَ الذينَ اتَّبَعُوا (وَرَأوُا العَذَاب)[9] وتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأسْباب﴾[10]، (وراعت الضرّاء، وأرهبتِ البأساء، وسُلِبت أثوابُ الديباج المستباحةُ اللباس، وغُصِبَتْ مثموناتُ الأثمانِ المغصوبةُ للنّاس، وغَشِيَ الخوفُ غَيْرَ الخائفين من الله، وسُلِبَ الأمنُ للآمنين من مكْرِ الله)[11]، وكادت العقوبةُ العظيمةُ أن تَلْحَق، والأخْذَةُ الرابية[12] أن تَمْحَق، لولا أنّ الله تدارَك[13] بالعَفْوِ وتجاوَزَ عن الهَفْو، وأنـالكم من الإدالةِ ما كنتُم تؤمِّلون، واستخْلَفَكُمْ في الأرضِ لينظر كيف

(١) - في أزهار الرياض: وقد سلط الله علينا كثيراً.

(٢) - في أزهار الرياض: وأهاننا الذين كنا أكرمناهم.

(٣) - في أزهار الرياض: إلى أن.

(٤) - في أزهار الرياض: إلى أن.

(٥) - في الأصل: يبصرونا.

(٦) - في أزهار الرياض: إلى أن.

(٧) - في أزهار الرياض: إلى أن.

(٨) - في أزهار الرياض: الأعادي.

(٩) - سقطت من أزهار الرياض.

(١٠) - الآية ١٦٦ من سورة البقرة.

(١١) - ما بين القوسين سقط من أزهار الرياض.

(١٢) - في أزهار الرياض: الربانية.

(١٣) - في أزهار الرياض: تداركنا.

تَعْمَلون، فلنجعلْ ما (ص ٢٨٤) وعظ[1] الله به من تلك الأزماتِ نصبَ الأعين، وليتخذْ[2] حمده على ما منحنا من الإقالة[3] هِجّيرى[4] الألْسُن[5]، وليعلم[6] أن ذلك التمحيصَ إنما كان تنبيهاً من الله على [ما عطّـ]ـلنا[7] من حدوده، وإيقاظاً من الغفلةِ عن[8] القيامِ بحقوقِه والوفاء بعهودِه، وليتحقّق[9] أنَّ ما منَّ الله به من جبر الأحوال، وخلفِ الأموالِ، واستقبالِ العزّ غضّاً جديداً، وصَرْفِ الهونِ وقد كان عذاباً شديداً، إنّما هو إبلاغٌ في الحجّة عليها[10]، وإعذارٌ بالموعظة إليها[11]، وربّما عاهدنا الله ﴿لئِنْ آتانا مِنْ فَضْلِهِ لنصَّدَّقَنَّ ولَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[12] ولننـزعنّ عمّا ارتكبنا[13] من جرائرِ العاصين وجرائحِ[14] الطالحين، فالوفاء الوفاء حتماً إن أردنا أن نكون من المفلحين، وقلّما أزفَ العذابُ فرُفعَ إلاّ عمّن كان من المصلحين ﴿فَلَوْلا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إيمانُها إلاّ قَوْمَ يُونُسَ لمّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذابَ الخِزْيِ في الحَياةِ الدُّنْيا وَمَتَّعْناهُمْ إلى حينٍ﴾[15].

---

(١) ـ في أزهار الرياض: وعظنا.

(٢) ـ كذا في الأصل، وفي أزهار الرياض: ولنتخذ.

(٣) ـ في أزهار الرياض: الإنالة.

(٤) ـ في أزهار الرياض: هجّير.

(٥) ـ في الأصل: الأنس، والصواب من أزهار الرياض.

(٦) ـ في أزهار الرياض: ولنعلم.

(٧) ـ ما بين المعقوفتين بياض في الأصل أتممناه من أزهار الرياض.

(٨) ـ في الأصل: على، والصواب من الأزهار.

(٩) ـ في أزهار الرياض: ولنتحقق.

(١٠) ـ في أزهار الرياض: علينا.

(١١) ـ في أزهار الرياض: الينا.

(١٢) ـ الآية ٧٥ من سورة التوبة.

(١٣) ـ في أزهار الرياض: ارتكبناه.

(١٤) ـ في أزهار الرياض: وجرائم.

(١٥)ـ آية ٩٨ من سورة يونس، وفي أزهار الرياض «فلولا كانت قرية آمنت» إلى قوله تعالى «إلى حين».

فلنقدِّرْ قدْرَ هذا التداركِ الذي أخذ بأيدينا من مهاوي الانتقام، ولنتأمَّلْ موقعَ هذا التلافي[1] الذي أحلَّنا من تجديدِ النعمةِ بأسنى مقام، وليُحذَر[2] نسيان ما ذُكِّرْنا به، فلم نُذَكَّرْ بتلك[3] الشدائدِ لننساها[4]، ولا نَفْرَح بما أُوتينا فرح المغرور الذي لا يتراجع (عن سيئة)[5] ولا يتمنّاها[6]، (فإنّ ذلك مُوجبٌ)[7] أملَ الشيطان وسُؤْلَه، ولعْنَ الله ومقتَه قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوْا ما ذُكِّرُوا بهِ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتى إذَا فَرِحُوا بما أُوتُوا أخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾[8].

اللهمّ هل بلّغتُ، وبالغتُ في النصح وأبْلَغت، اللهم فاشهد، اللهمّ فاشهد، و ﴿يَا قَوْمِ إنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقامي وتَذْكيري بآياتِ اللهِ، فعلى اللهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [9]، وإليه أبرأ من حولي وتقصيري عمّا فيه قصّرت، وعمّا عنْهُ نكلت[10].

اللهم فوفِّقْنا لطاعتك توفيقَ من أحبَبْته فهديْته، ولا تخذلْنا خذلانَ من أرْداهُ[11] عملهُ عمّا أوضحتَ من الرشدِ وأبدَيْته، ببابكَ وقفنا، وبذُنوبنا[12] اعترفنا، وبهممنا إليكَ انصرفْنا، ومِنْ أبْحُرِ جودِك الذي لا ينفَدُ اغترفنا، وعلى روضِ رِضاك عنّا أشرفنا، فاغفرْ لنا ما به أخطأنا، أو فيه أشرفْنا.

---

(١) ـ في أزهار الرياض: البلاء.

(٢) ـ في أزهار الرياض: ولنحذر.

(٣) ـ في أزهار الرياض: تلك.

(٤) ـ في أزهار الرياض: بل نسيناها.

(٥) ـ ما بين القوسين سقط من أزهار الرياض.

(٦) ـ كذا في الأصل، وفي أزهار الرياض: يتناهى.

(٧) ـ في أزهار الرياض: فإن في ذلك.

(٨) ـ الآية ٤٤ من سورة الأنعام، وفي أزهار الرياض جزء من الآية فقط.

(٩) ـ الآية ٧١ من سورة يونس.

(١٠) ـ من هنا وحتى قوله: ... وإن مولانا السلطان .... سقط من أزهار الرياض.

(١١) ـ في الأصل: أراده.

(١٢) ـ في الأصل: وبذنوبك.

وانَّ مولانـا السلطانَ الملكَ الفـاضلَ التالِيَ الذاكِرَ العفيفَ الطاهر، المسترجِعَ البصائر[1]، المجاهدَ المُصابِرَ، المرابط المُثاغر[2]، أميرَ المسلمين (الغـالبَ بالله أبـا عبد الله محمد)[3] بن نصرٍ، الخزرجيَّ نَسَباً، السعديَّ مُنْتَسباً[4]، النصريَّ جَدّاً وأباً، أيَّده الله على أعداء الدين، وجعله من الأئمةِ المهتدين، ممّن إذا جُنِيَ عليه غَفَر، (فعلمنا بذلك)[5] أنّه حليم، والله أخذ بيده كُلّمـا عَثَر (فأرْشَدنا ذلك إلى أنّه كريم)[6] (ص ٢٨٥)، وممّن تطرقه الخطوب، وهو بالألطاف مصحوب، وتُحْدِقُ إليه النوائب وهو عن نظرِها الشَزْر محجوب، وممّن جمع له الناسُ على أن يخشاهم فزادهم إيماناً، وقال حسبيَ الله ونعم الوكيل، فانقلب بفضلٍ من الله ونعمة، وممن صبر واسترجع في نقصِ الأمـوالِ والأنفسِ والثمـرات، فبشّـر بصلواتٍ من ربِّهم[7] ورحمة، فتمالأتْ على اذايته[8] أصنافٌ من الناس في مرّاتٍ متعدّدة، وآناءٍ من الدهر متجدّدةٍ، فأتْعَسَ الله جُدودهم، وأضْرع إليه خُدودهم، وأرغم (لابحوله ولا بقوّته)[9] أنوفَهُمْ، وردّ عنه بدفاعِ[10] من الأقْدار رماحَهُمْ وسيوفَهُمْ، وأدنى لهم بأسبابٍ مختلفةِ الأنواعِ حُتوفَهُم، فمِن آمنٍ قد[11] أُخِذَ من مأمنه الذي كان يَسْتَنِد إليه، ومِن خائفٍ قد أدهشه الروعُ فهو يحسبُ كلّ صيحةٍ عليه، فكأنَّ ألسنَةَ الأقدارِ تنهاهُم عن منازعةِ الإرادة، وكأنّ واعظَ الاعتبارِ يحذّرهم من

(١) ـ في أزهار الرياض: الصابر.

(٢) ـ في أزهار الرياض: المُشاغر.

(٣) ـ ما بين القوسين سقط من أزهار الرياض.

(٤) ـ في أزهار الرياض: منشأ.

(٥) ـ في أزهار الرياض: لعلمنا به.

(٦) ـ ما بين القوسين سقط من أزهار الرياض.

(٧) ـ في أزهار الرياض: ربه.

(٨) ـ في أزهار الرياض: أذيّته.

(٩) ـ في أزهار الرياض: بحوله وقوته.

(١٠) ـ في أزهار الرياض: بسيف.

(١١) ـ «قد» سقطت من أزهار الرياض.

شَقائهم الكفيلِ لهم[1] بالسعادة، وكأنَّ شاهدَ الحال يقولُ هذه إرادة الله قضاها، ومشيئته[2] السابقةُ أنفذها وأمضاها، فمَنِ المنازعُ فيما حَكَمَ الله به وقضى؟! ومَنْ الساخِطُ في المحلِّ الذي يُطلب فيه من الله الرضا؟! ولو كان استيلاؤه على المُلْكِ بقوّة عصبيّة، وإهلاكِ مناوئه عن طبيعةٍ غَضَبيّة، لارتابَ في ذلك الناظر، ووجد السبيلَ للاحتجاج[3] المُناظِر، ولكنّه طالما عُورض في المُلْكِ فكبا معارِضُهُ لِفيه، وأتيحت له النصرة من محلٍّ لم يحسبها فيه، وشدَّ ما احتالَ على مضـرّتـه[4] غيرُ واحد، فانعكسَتْ عليه حيلتُهُ، وتوسّل إلى مكروهِهِ، فطاحَتْ في سبيلِ[5] الانقلابِ عليه وسيلتُهُ، وبُغِيَ عليه غيرَ ما مرّةٍ فنصَرَه الله على من بغى عليه، وابتغى بالسوء فردّه الله على من سعى به إليه.

ولعلّ ذلك لِغَيْبٍ عن العِيانِ[6] مكتوم، وحُكْمٍ من العليمِ الحكيمِ[7] محتوم، أو لأثرٍ من الاختصاصِ قد علمه الله فليس[8] لنا بمعلوم، أو لأمرٍ تقاصـرت[9] عنه مداركُ العقول (وضلّت عنده)[10] رواجِحُ الحُلوم، ولهذه المعاني المقرّرة، والمقاصِدِ المُحرّرة، والمذاهبِ المُفَسّرة، والفوائدِ المُسَطَّرة، (وسمات الذات المطهّرة)[11] وغرائبِ أحاديثها المشهّرة[12]، حضر[13] الملأ

(1) - في أزهار الرياض: له.

(2) - في أزهار الرياض: وسنّته.

(3) - في أزهار الرياض: إلى الاحتجاج.

(4) - في أزهار الرياض: نصرته وهو تصحيف.

(5) - في أزهار الرياض: قليب.

(6) - في الأصل: ايصان، والصواب من أزهار الرياض.

(7) - في أزهار الرياض: الحكيم العليم.

(8) - في أزهار الرياض: وليس.

(9) - في أزهار الرياض: قد تقاصرت.

(10) - في أزهار الرياض: وكلت عنه.

(11) - سقطت هذه الجملة من أزهار الرياض.

(12) - في أزهار الرياض: المشتهرة.

(13) - في أزهار الرياض: خصّ.

المقصودُ فيه بالتذكرة، المعتمدُ منه بالإيقاظِ والتبصرة، من أعضادِ الدولةِ، وسيوفِ الصَوْلة، وأولياء الخُلوصِ الزكيّي الشيمة، ومَوالي النعمةِ (الغالبيّةِ الكريمة)[1]، وهم الذين تخوَّلَتْهُمْ موعظته الحسنة، وأعجبَتْهُمْ أغراضُهُ المتعدّدة ومقاصِدهُ المستَحْسَنة، وعلِموا أنّه الحقّ. فسألوا من اللهِ التوفيقَ إليه، والإرشادَ إلى الاتّصافِ (ص ٢٨٦) به والعملِ عليه، والهدايةَ إلى التماسِ رضا الله لديه، (ووقفوا على أنّ الفِقْه لهم)[2] في هذا الكتابِ منصوص، وأنّ سلطانهم بمزيّةِ الدفاعِ عنه مخصوص، وأنّه قد تطابقَتْ على إيثارِهِ نصوص، واستوى في تسليمِ السمعِ والطاعةِ له عُمومٌ وخُصوص، فَجَدَّدوا له البيعةَ الوثيقة، على ما أوْجَبَه[3] في ذلك الحُكْمُ المشروع، وأعطوه على ذلك العهد الأكيد حسبما اتّفقت عليه أصول وفروع، وعقدوا له مضمونها عَقْداً صحيحاً، وعهداً[4] على ما تقتضيه السُنَّةُ صريحا، (وأشْهَدوا الله)[5] فيه على أنْفُسِهم أنَّهُمْ بالوفاء بها قائمون، (وعلى القيامِ بها دائمون)[6]، ولشروطِها المرعيّةِ حافظون، وعلى أحكامِها الشرعيّةِ يُحافظون[7]، وعلى ما بُويِعَ عليه رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم من السّمـعِ والطاعةِ، ولزومِ السنّة والجماعةِ. وإمحاضِ النصيحةِ بجهـد[8] الاستـطاعة، فأيديهم في السلمِ والحربِ مصروفةٌ في مرضاته، ونيّاتهم[9] صادقةٌ في مسنوناتِ الوفاء ومفترضاته[10]، وقد[11] شاهدوا الفُرْقة وما

(١) ـ في أزهار الرياض: الفلانية.

(٢) ـ في أزهار الرياض: ووقفوا على ما هو لهم.

(٣) ـ في أزهار الرياض: أوجب.

(٤) ـ في أزهار الرياض: وعُهدوا.

(٥) ـ في أزهار الرياض: وشهدوا له.

(٦) ـ سقطت هذه الجملة من أزهار الرياض.

(٧) ـ في أزهار الرياض: محافظون.

(٨) ـ في أزهار الرياض: جهد.

(٩) ـ في أزهار الرياض: ونيتهم.

(١٠) ـ في الأصل: ومعترضاته.

(١١) ـ في أزهار الرياض: ولقد.

جَنّتُه، والفِتْنة ومن [1] فَتَنَتْه، والألفة وما سنّتْهُ، والهُدْنَةَ وما قرّبت من الإصلاح [2] وأدنتْهُ، فليغتبطوا بها عَهْداً كريماً، وعقداً قد تضمّن فضلاً عميماً [3]، واستلزم إنعاماً جسيماً، وليوفوا بها الوفاء الذي يبوِّئهم [4] نعيماً مقيماً، ويدفع عنهم عذاباً أليما، فالله [5] عزّ وجلّ يقول: ﴿فَمَنْ نَكَثَ فإنَّما يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أوْفَى بِما عَاهَدَ عَلَيْهِ اللهَ فَسَنُؤْتِيهِ أجْراً عظيماً﴾ [6].

وقد بسطوا أكُفَّهم إلى الله ضارعين، وفي رحمتِهِ طامعين، ولِعَظَمَتِهِ خاضعين، ومن هيبته خاشعين، ولخليفته طائعين، وفي الخيراتِ مُسارعين، يَدْعونه رغبا ورهَبا مستنزلين لرحمته بالإخلاص والإنابة، واقفين على قَدَم الرجاء ببابِ من أمرهُمْ بالدعاء ووعدهم بالإجابة، ويسألونه خير ما قدّره وقضاه، والسلوكَ على ما فيه رضاه.

اللهم بابَكَ قَصَدْنا، وقبولَكَ أرَدْنا، وعلى فَضْلِكَ اعتمدنا، وإلى عزّكَ [7] اسْتَنَدنا، وفي مرضاتك اجتهدنا، وبهدايتك استرشدنا، فلا تَكِلْنا لأنفُسنا [8] طرفةَ عَيْن، وأصلحْ لنا شأننا كلّه، اللهمَّ إنّا بك منتصرون [9]، وبعزِّكَ [10] مُسْتَظْهِرون، [وَلِغناكَ] [11] مفتقرون، ومِنْ تقصيرِنا معتذِرون [12]، ومِنْ ذُنوبنا

---

(1) - في أزهار الرياض: وما.

(2) - في أزهار الرياض: اصلاح.

(3) - في أزهار الرياض: عظيماً بل عميماً.

(4) - في أزهار الرياض: يوليهم بها.

(5) - في أزهار الرياض: فإنه.

(6) - آية 10 من سورة الفتح، والآية في أزهار الرياض مختصرة.

(7) - في أزهار الرياض: عزّتك.

(8) - في أزهار الرياض: إلى أنفسنا.

(9) - في أزهار الرياض: مستنصرون.

(10) - في أزهار الرياض: وبعزتك.

(11) - بياض في الأصل أكملناه من أزهار الرياض.

(12) - في أزهار الرياض: مستعيذون.

مستغفِرون، ولِشُمولِ[1] عَفْوِكَ مُنْتَظِرون، وفي خفيِّ ألطافك مستبصرون، ولعظيم انتقامك مُسْتَحضرون، ولعميم صفحك مستشعرون فآتِنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرةِ حَسنةً وقِنا عذابَ (ص ٢٨٧) النار.

اللهمّ انصر من باعيناهُ سلطاناً، ومهِّدْ به بلاداً وأوْطاناً، وأرغِم بتوخّيه للحقّ طاغيةً وشيطاناً، وآتِنا مِنْ لَدُنكَ رحمةً وهَيِّءْ لنا من أمرِنا رَشَدا. اللهمّ اعمر بالمسرَّةِ باديه[2]، وكافىء عنّا أيادِيَه، واكبت اللهم أعادِيَه، وكُنْ لنا وليّاً ونصيراً، فأنتَ نِعْمَ المولى ونِعْم النصير. وصلِّ اللهمَّ على مولانا[3] النبيّ الأمّي القرشيّ الهاشميّ وعلى آلِ محمدٍ وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً فأنْتَ اللطيفُ الخبير[4]»[5].

---

(١) ـ في أزهار الرياض: ولشامل.

(٢) ـ في أزهار الرياض: ناديه.

(٣) ـ في أزهار الرياض: وصلّ اللهم على سيدنا ومولانا محمد.

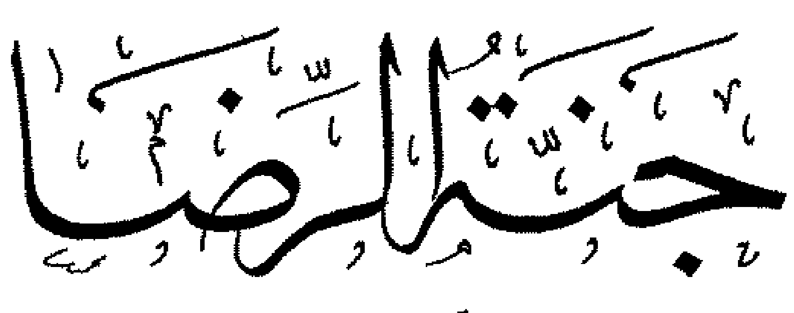
(٤) ـ في أزهار الرياض: وأنت الخبير.

(٥) ـ وردت هذه الرسالة في أزهار الرياض ولكن على غير نسق، وجاءت متفرقة في موضعين ١ / ٥٠ ـ ٥٣، ١ / ١٥٨ ـ ١٧٠، وقد سقطت منها جمل كثيرة، كما ورد جزء منها في نفح الطيب (٤ / ٥٠٨ ـ ٥٠٩).

تَتِمِيْم

قد بانَ بما سَبَقَ من التقريرِ كُلِّه ما يجِبُ من موالاةِ حَمْدِ الله ومواصلته، وأنّ الجدّ في ذلك إلى الغايةِ لا يبلغُ إلى مِعشارِ المِعْشار مما يلزم، فلله الحمدُ ثم لله الحمدُ، بكلّ حمدٍ حَمِدَ به نَفْسَه أو حمِدَه به أحدٌ مِنْ خَلْقِهِ لا نُحصي ثناء عليه هو كما أثنى على نفسه.

تمّ المجلّد الثاني بعون الله
ويليه المجلّد الثالث



في التسليم لما قدر الله وقضى

تأليف

أبي يحيى محمد بن عاصم الغرناطي
المتوفى سنة ٨٥٧ هـ

تحقيق

الدكتور صلاح جرار

المجلد الثالث

دعم من الجامعة الأردنية

دار البشير
للنشر والتوزيع

٢١٤,٢٥١

غرن الغرناطي، ابو يحيى بن عاصم ... - ٨٥٧هـ.

جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى / ابو يحيى محمد بن عاصم الغرناطي، تحقيق صلاح جرار. - عمان: دار البشير، ١٩٨٩.

جـ٣ (٢٩٦) ص

ر.أ. ١٢٨ / ٢ / ١٩٨٩.

١ - الاسلام - القضاء والقدر. ٢ - غرناطة - تاريخ - القرن السادس عشر. أ - صلاح جرار، مترجم. ب - العنوان.

(تمت الفهرسة بمعرفة دائرة المكتبات والوثائق الوطنية)

دار البشير للنشر والتوزيع

مركز جوهرة القدس التجاري
العبدلي
عمان - الأردن

هاتف: (٦٥٩٨٩١) / (٦٥٩٨٩٢)
فاكس: (٦٥٩٨٩٣) / تلكس (٢٣٧٠٨)
ص.ب (١٨٢٠٧٧) / (١٨٣٩٨٢)

Dar Al-bashir
For Publishing & Distribution

Jerusalem Jewel center
AL-Abdali
Amman - Jordan

Tel: (659891) / (659892)
Fax: (659893) / Tlx. (23708)
P.O.Box. (182077) / (183982)

بسم الله الرحمن الرحيم

الصُّورَة السَّادسَة

أن يكونَ الابتلاء في النفوسِ وما معها واقعاً في الحال إلّا أنّه غيرُ مرجوّ الارتفاعِ والزوال، كالموتِ والعمى والعَوَرِ والشَلَلِ والخَرَسِ والصَمَم وسُقوطِ السِنّ وبُطْلان الشمّ، وما هو من الأمراضِ المُزْمِنة المعذرة البرء، كقديمِ الجُذام والبَرَصِ، وما أشبه هذا كلّه، من أنواعِ الابتلاء، الذي يتعذّر زوالُه، أو يُعْوِزُ إبلالُه.

والمشروعُ هنا هو التفويضُ والتسليمُ والرضا بما يجري به حُكْمُ العزيزِ الحكيم، والصبرُ والتسلّي، والعزاء والتأسّي، والاسترجاع لقوله تعالى: **﴿ولَنَبْلُوَنَّكُمْ بشَيْءٍ من الخَوْفِ والجُوعِ ونَقْصٍ مِنَ الأَمْوالِ والأَنْفُسِ والثَّمراتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرينَ * الَّذينَ إذا أصابَتْهُمْ مُصيبَةٌ قالوا إنّا لله وإنّا إلَيْهِ راجِعُونَ * أولئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وأولئِكَ هُمُ المُهْتَدُونَ*﴾**[1]. فقد أخبرَتْ هذه الآيةُ الكريمةُ بوقوعِ الابتلاء الذي قَسَّمْناهُ إلى واقعٍ في الأنفُسِ والمقتنيات العزيزةِ على الأنفس، ولا زائد على ذلك إلّا المجموعُ منها، كما قُرِّر في هذه الآية.

فإن كان المفقودُ شيئاً لم يجعل الله منه عِوَضاً، ففي الله عوضٌ من كل فائت. ومن أقوالهم المشهورة: «وواضِحٌ وضوحَ الشمسِ أنّ الإنسانَ في هذه الدارِ غَرَضٌ للنوائب، وَرَمِيَّةٌ للحوادث، فإن سَلِمَ في نفسه أُصيبَ في أعضائه، وإنْ عُوفي في أعضائه امتُحِنَ بفقد أحبّائه، وإن قُدِّرَتْ له السلامةُ من ذلك

(١) ـ الآيات ١٥٥ ـ ١٥٧ من سورة البقرة.

فالهرَمُ من ورائِه» ولذلك قال الشيخ أبو جعفر أحمدُ بن خاتمة[1]:

(ص ٢٨٨)

هو الـدَّهْرُ لا يُبْقي على عائذٍ[2] به فَمَنْ شاء عَيْشاً يَصْطَبِرْ لِنَوائِبِهْ
فَمَنْ لم يُصَبْ في نَفْسِهِ فَمصابُهُ بفقـدِ[3] أمـانيه وفقْـدِ حَبائِبِـهْ

وصدق ـ رحمه الله ـ وكأنّه نظم في ذلك معنى قول أبي الحسن عليّ بن محمد ابن مسرور الدبّاغ[4] فيما حكاه عنه بعضُهم قال: سمعتُه يقول: «إن طالَ عمرُكَ فُجِعْتَ بأحبّائِك وإن قَصُرَ عُمْرُك فُجعتَ بنفسك»[5]. إلاّ أنّ ابنَ خاتمة زاد فوت الأماني. وقال مسلم بن الوليد[6]:

دَلَّتْ على عَيْبِهـا الـدُّنيا وصَدَّقَها ما اسْتَرْجَعَ الدَّهْرُ ممّا كان أعْطاني

وهذا ظاهر، فإنّ الذي يسترجع الدهرُ هو الشباب، وهو شيءٌ لا بدل فيه ولا عِوضَ عنه، وإذا ذَهَبَ الشبابُ فعلى الدنيا العفاء. وقال النمرُ بنُ تَوْلَب:[7]

---

(١) ـ أبو جعفر أحمد بن علي بن محمد بن خاتمة الأنصاري، وقد أسلفنا التعريف به. وانظر البيتين في: ديوان ابن خاتمة ص ١٣١، الإحاطة ١ / ٢٥٠.

(٢) ـ في الديوان: لائذ.

(٣) ـ في الديوان والإحاطة: بفوت.

(٤) ـ فقيه مالكي قيرواني توفي في حدود سنة ٣٦٠ هـ (ترجمته في: ترتيب المدارك ٤ / ٥٢٥ ـ ٥٢٨، الديباج المذهب ١٩٧ ـ ١٩٩، الوافي بالوفيات ٢٢ / ١٤١).

(٥) ـ ورد هذا القول في ترتيب المدارك ٤ / ٥٢٧.

(٦) ـ في الأصل الوليد بن مسلم، إلا أنني وجدت هذا البيت في الأغاني ١٩ / ٤٥ منسوباً إلى مسلم بن الوليد.

(٧) ـ هو النمر بن تولب بن أقيش بن عبد كعب العكلي، شاعر مقل مخضرم، أدرك الجاهلية وأسلم، فحسن إسلامه، ووفد على النبي صلى الله عليه وسلم وكتب له كتاباً، وكان أحد أجواد العرب (انظر: جمهرة أشعار العرب ٤١٩، الشعر والشعراء ١٧٣، طبقات فحول الشعراء ١ / ١٦٠، الأغاني ٢٢ / ٢٧٣).

انظر البيت في الأغاني ٢٢ / ٢٧٧، جمهرة أشعار العرب ٤٢٤.

يَوَدُّ الفتى طُولَ السلامةِ جاهداً[1] فكَيْفَ يرى طولَ السلامةِ تَفْعَلُ؟![2]

وقال لبيد بنُ ربيعة:[3]

كانَتْ قَناتي لا تَلينُ لغامِزٍ فألانَها الإصْباحُ والإمْساءُ
وسَأَلْت ربّي في السلامةِ جاهِداً لِيُصِحَّني فإذا السلامةُ داءُ

قولُ لبيد بن ربيعة في البيت الثاني وقولُ النمر بن تولب قبلهما من باب واحد، لأنَّ السلامةَ التي سألها لبيد وَوَدّها[4] الفتى في بيتِ النمر تستلزِمُ بلا شك وُقوعَ الهَرَم، وهو داءٌ لا دَواء له، وإنما يَعْقُبُهُ الموتُ بلا ارتياب.

وقال حميدُ بن ثور الهلالي:[5]

أرى بَصَري قد رابَني بعد صِحّةٍ[6] وحَسْبُكَ داء أن تصحَّ وتَسْلَما
وَلَنْ يلبَثَ العصرانِ يومٌ وليلةٌ[7] إذا طَلَبا أنْ يُدْرِكا ما تَيَمَّما

وذلك المعنى الذي تقدّم للنمر بن تولب ولبيد بن ربيعة هو الذي قصد حميدُ ابن ثور في أوّل بيتَيْهِ، ثم زاد بمعنى بيته الثاني، وهو حقٌّ لا مِرْيَةَ فيه. وذلك المعنى الذي اتّفق عليه هؤلاء الشعراء الثلاثةُ هو الذي أجاب به بعضُ الزاهدين، وقد قيل له: كيف حالك؟ فقال: «كيف حالُ من يَفْنى ببقائِه،

---

(١) ـ في الأغاني: والغنى.

(٢) ـ في الأغاني: يفعل.

(٣) ـ في العقد الفريد ٣ / ٥٨ غير منسوبين، التمثيل والمحاضرة ٦١، ربيع الأبرار ٤ / ٩٧، ولم أجدهما في ديوان لبيد.

(٤) ـ في الأصل: وردّها.

(٥) ـ هو حميد بن ثور بن عبد الله الهلالي، أدرك الجاهلية والإسلام وأدرك عمر بن الخطاب، عده ابن سلام في الطبقة الرابعة من الشعراء الاسلاميين (طبقات فحول الشعراء ٢ / ٥٨٣ ـ ٥٨٥، الشعر والشعراء ٢٣٠ ـ ٢٣٣، الأغاني ٤ / ٣٥٦). وانظر البيتين في ديوانه ص ٧ ـ ٨ (صنعة عبد العزيز الميمني ـ ط. دار الكتب المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٥١م).

(٦) ـ في الديوان: حِدَّةٍ.

(٧) ـ في الديوان: يوماً وليلة.

ويَسْقُمُ بصحّته، ويؤخَذُ من مأمنه!» والإشارةُ في ذلك كلّه إلى عَصْرِ المشيب الذي هو النذيرُ لما بعده ممّا لا بُدَّ منه من لقاءِ الله تعالى. ورحم الله القاضي أبا القاسم الشريفَ الحسنيّ[1]، ورضي عن سلفه الطاهر، فلقد أجاد في أبياته[2]:

(ص ٢٨٩)

تَقَضّى الشَّبابُ وفي طيِّ ما ... يجيء [به][3] الدَّهْر حلوٌ ومرّ
وَقَدْ مَرَّ أكْثَرُ عُمْري سُدىً ... وأوْشِكْ بسائِرِهِ أنْ يمرّ
فدعْ ما تُمنّيكَ هذي الأماني ... فإنَّ الأمانِيَّ آلٌ يغرّ
ولا تلْهُ بَعْدَ حُلول المَشيبِ ... لَدَيْكَ فَلَهْوكَ شَيْءٌ نُكُرْ
إذا ما أضاءَ على العارِضَيْنِ ... ضُحى الشَّيْبِ[4] فَهْوَ أصيلُ العُمُرْ

أبدع قاضي الجماعة ـ رحمه الله ـ في قوله: أصيلُ العُمُر، واليوم إذا بلغ الأصيل فلم يبقَ منه إلّا القليل، فإن ادّعى الذي يبلغُ الأصيلَ من عُمُرِهِ أنه يَجِدُ في نَفْسِهِ قُوَّةً فينبغي أن يُنْشِدَ قَوْلَ النقّاش[5]:

إذا وَجَدَ الشَّيْخُ في نَفْسِهِ ... نَشاطاً فذلِكَ مَوْتٌ خَفِي
ألَسْتَ تَرى أنَّ ضَوْءَ السِراجِ ... له لَهَبٌ قَبْلَ أنْ يَنْطَفِي

---

(١) ـ أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله الشريف الحسني (٦٩٧ ـ ٧٦٠ هـ)، وقد أسلفنا التعريف به.

(٢) ـ لم أجد الأبيات في المصادر التي ترجمت للشريف الحسني.

(٣) ـ زيادة من المحقق ليستقيم المعنى والوزن.

(٤) ـ في الأصل: المشيب، وبه لا يستقيم الوزن.

(٥) ـ أبو بكر محمد بن الحسن بن محمد بن زياد ت. ٣٥٥ هـ.
(ستأتي الترجمة به في حاشية لاحقة).

وما أطْبَعَ قولَ ديكِ الجنّ[1] في طُروقِ الحوادثِ على آمنِ الناسِ منها في هذا البيت[2]:

يرقُدُ النـاسُ آمنينَ وَرَيْبُ الـدَّ ... هْرِ يَرْعَـاهُـمُ بِمُـقْـلَةِ لِصِّ

ومِنْ آكدِ ما يُتحفَّظُ منه في هذا البابِ المنطِقُ السوء، فإنّ هذهِ الابتلاءات إذا وردت صادرةً من عَيْنِ القُدْرة، أو بسببٍ من الأسبابِ الداخلةِ تحتَ الاختيارِ لبني آدم، فليسَتْ الجُنَّةُ الواقيةُ منها إلاّ الصّبر، ثم إنَّ المُبْتلى بها يَرى أنَّها تسليطٌ مِنْ ربِّه عليه، إمّا بواسطةٍ من خَلْقهُ وإمّا دُونَها، وهو لقصورِ نَظَرِه لا ينفكُّ عن تعليقِ حَقِّهِ في الأغْلَبِ ممّن أصابَهُ، وقد أُشيرَ بذلك في غيرِ هذا المَوْضِع، ونُصَّ على ما يَجِبُ في تَلَقِّي هذينِ القسمين وما يفضل به أحدهما الآخر، فإنْ وافَقَ سابقَ القدر في ذلك منطقُ سوء من المُبْتَلى يُجْريه الله على لسانه، فذلك أعظم لبلواه، وأصعبُ له في تقرير شَكْواه، وكثيراً ما يُوهمه الشيطانُ أنّه هو الذي جَلَبَ لنفسهِ هذا البلاء بكلامه. ولا يبعد أن يكون سَبَبُهُ في مثلِ هذا دعاء يدعو به على نفسه، أو أجرى به مجرى يمينٍ يقسم بها لمتطلّب رِضاه، وما أشبه ذلك، حسبما حُكي عن المتوكّل أنّه دخل عليه عبد العزيز بن يحيى المكّي[3] فقال: يا أميرَ المؤمنين، ما أرى أعْجَبَ أمْراً من

---

(١) ـ أبو محمد عبد السلام بن رغبان بن عبد السلام الكلبي، المعروف بديك الجن الحمصي، شاعر مشهور، ولد في حمص، كان من الشعراء الماجنين وكان عاكفاً على اللهو، ولد سنة ١٦١ هـ وتوفي أيام الخليفة العباسي المتوكل سنة ٢٣٦ هـ، وله ديوان شعر مطبوع (انظر ترجمته في: الأغاني ١٤ / ٥١ ـ ٦٨، وفيات الأعيان ٣ / ١٨٤ ـ ١٨٨).

(٢) ـ انظر البيت في ديوانه ص ١٧٤.

(٣) ـ عبد العزيز بن يحيى بن عبد العزيز بن مسلم بن ميمون بن كنانة المكي، قدم بغداد أيام المأمون، وتفقه بالشافعي، وكان قبيح الخلقة لكنه كان فصيح اللسان (تأريخ بغداد ١٠ / ٤٤٩).

الواثق قَتَلَ أحمد بن نصر[1] وكان لسانُهُ يقرأ القرآن إلى أنْ دُفِنَ. قال: فَوَجَدَ المتوكّل من ذلك، وساءه ما سَمِعَهُ في أخيه [ثمّ][2] إنه دخل عليه محمّد بنُ عبد الملك الزيّات[3] فقال له (ص ٢٩٠): يا ابنَ عبد الملك في قلبي من قتلِ أحمد بن نصر. فقال: يا أميرَ المؤمنين، أحْرَقَني الله بالنار، إن قتله أميرُ المؤمنين الواثقُ إلاّ كافراً. ودخل عليه هرثمة فقال: يا هرثمة[4]، في قلبي مِنْ قَتْلِ أحمد بن نصر. فقال: يا أميرَ المؤمنين، قطّعني الله إرْباً إرْباً إن قتله أميرُ المؤمنين الواثقُ إلاّ كافراً. قال: ودخل عليهِ ابنُ أبي دؤاد[5] فقال: يا أحمد في قلبي من قتل أحمد بن نصر. فقال: يا أمير المؤمنين، ضَرَبَني الله بالفالج إن قتلهُ الواثق إلاّ كافراً. قال المتوكّل: فأمّا ابنُ الزيّات فأنا أحْرَقْتُه بالنار، وأما هرْثمة فإنّه هرب وتبرّأ[*] واجتاز بقبيلة خزاعة فعرفه رجلٌ في الحيّ فقال: يا مَعْشَر خزاعة هذا الذي قتل ابنَ عمّكم أحمد. فقطّعوه إرْباً إرْباً، وأما ابنُ أبي دُؤاد فقد سَجَنَه الله في جِلْده. انتهت[6].

فحقٌّ أن يُجْتَنَبَ مثلُ هذا أتمّ الاجتناب، ويُتحفَّظَ من الولوجِ في هذا الباب، ويُسألَ من الله العافية، والمعاملة بألطافه الخافية.

فإن قضى الله بالبلاء، فالصبرُ والاسترجاع، فقد قال النبيّ صلّى الله

---

(١) ـ هو أحمد بن نصر بن مالك الخزاعي المروزي البغدادي، يكنى أبا عبد الله، ضرب الواثق العباسي رأسه بالسيف بسبب انكاره القول بأن القرآن مخلوق ونصب رأسه بالجانب الشرقي من بغداد أياماً، وذلك سنة ٢٣١ هـ. (تاريخ بغداد ٥ / ١٧٣، الوافي بالوفيات ٨ / ٢١١).

(٢) ـ زيادة من المحقق ليستقيم المعنى، وفي تاريخ بغداد: إذ دخل . . .

(٣) ـ أبو جعفر محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة المعروف بابن الزيات، وقد سلفت الترجمة له).

(٤) ـ في الأصل: يا هومة.

(٥) ـ أبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد فرج بن جرير بن مالك الإيادي، قاضي القضاة في بغداد أيام المعتصم، مات مصاباً بالفالج سنة ٢٣٣ هـ. (وفيات الأعيان ١ / ٨١ ـ ٩١).

* ـ في تاريخ بغداد: وتبلّى.

(٦) ـ وردت هذه الحكاية في تاريخ بغداد ٥ / ١٧٨.

عليه وسلّم: «ما مِنْ مُسْلم تصيبُه مصيبة فيقولُ ما أَمَرَهُ الله عزّ وجلّ به «إنّا لله وإنّا إليهِ راجعون، اللهُمّ آجِرْني على مُصيبتي، واخلف لي خَيْراً منها» إلاّ أَخْلَفَ الله له خيراً منها»(١). وقضيّة أمّ سَلَمة ـ رضي الله عنها ـ لَمّا تُوُفّي عنها زوجُها أبو سلمة ـ رضي الله عنه ـ فأمرها النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بالاسترجاع، فامتثلت، ثم قالت في نفسها: وَمَنْ خَيْرٌ من أبي سَلَمة؟! فخلف عليها سَيِّد وَلَد آدم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم(٢).

وقال الله تعالى: ﴿وإنْ عَاقَبْتُم(*) فعَاقِبوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ، ولَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلْصابِرينَ * واصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إلاّ باللهِ، وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ، ولاَ تَكُ في ضِيقٍ ممّا يَمْكُرُون * إنَّ الله مَعَ الّذينَ اتّقَوا والّذِينَ هُمْ مُحْسِنُون*﴾(٣) نزلت هذه الآيةُ(٤) في قضيّةِ حمزة عمّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، حين قُتِل وَمُثِّل به المشركون يومَ أُحُد، وكان الذي تولّى قتله وحشيّ غلام جبيرِ بن مطعم(٥) باستدعاء هند بنتِ عتبة إيّاه لذلك، وهي التي مثّلت بحمزة رضي الله عنه، [لأنه](٦) أجْهز على أخيها الوليد حسبما روى البزّار(٧)

---

(١) ـ عمل اليوم والليلة ١٦٩ ـ ١٧٠، تسلية أهل المصائب ص ١١.

(٢) ـ أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومية وأسمها هند، تزوجها عليه الصلاة والسلام سنة أربع للهجرة، وتوفيت في خلافة يزيد بن معاوية سنة ٥٩ هـ (المعارف ١٢٨، ١٣٦، ١٣٧، ١٤٦، ٤٤٠، ٤٦٠، ٥٢٨). وانظر الحديث في تسلية أهل المصائب ص ١١.

* ـ في الأصل: وان عوقبتم.

(٣) ـ الآيات ١٢٦ ـ ١٢٨ من سورة النحل.

(٤) ـ كذا في الأصل، مع أن الإشارة إلى ثلاث آيات.

(٥) ـ جبير بن مطعم بن عديّ بن نوفل بن عبد مناف القرشي، يكنى أبا أمية وأبا عديّ، أسلم قبل الفتح، ونزل المدينة ومات بها سنة ٥٤ هـ. (ترجم له ابن قتيبة في كتاب المعارف ٧١، ١٩٧، ٢٨٥، ٣٣٠، ٣٤٢، ٥٥٤، ٦٤٦، وانظر الوافي بالوفيات ١١ / ٥٨).

(٦) ـ بياض في الأصل تقديره: لأنه.

(٧) ـ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار البصري توفي بالرملة سنة ٢٩٢ هـ (فهرست ابن خير ١٣٨ ـ ١٣٩) وورد في بعض المصادر: البزّاز.

في مسنده[1]، وأمرَتْ أن يُخْرَجَ لها من كبد حمزة قطعة لاكتْها بفيها، فلم تَسْتَطِعْ ابتلاعها فلفظتها، وحين وقف النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم على ما بحمزة من التمثيل غاظه ذلك، وعزم أن يمثّل بسبعين من المشركين إنْ أظفره الله بهم في موطن آخر. والقضيّة مشهورةٌ في السِيَر[2] وغيرها، وإنما نقلتُها بالمعنى فأمر الله تعالى بالعَدْلِ أو بالعِقابِ بمثله، لمّا قال النبي صلّى الله عليه وسلّم «لأمَثِّلَنَّ بسبعينَ منهم»[3]، ثم أعلَمَ بأنَّ الصَّبْرَ عن ذلك (ص ٢٩١) خيرٌ للصابرين، مؤكّداً ذلك بالقَسَمِ عليه، حتى يكونَ لنفوسنا الضعيفةِ تَوْثِقَةٌ، ولِقُلوبنا الوَجِلَةِ طمأنينة، ثم أمر سبحانَه نبيّه الكريمَ المنزلةِ لديه بالصبر، وفيه صلّى الله عليه وسلّم أعظم الأُسوة لأمّته.

وإذا كان الفقيدُ حمزةَ سيِّدَ الشهداء، والفاقدُ محمداً خاتم الأنبياء، والآمرُ بالصبر على هذه الرزيّة ربُّ الأرضِ والسماء، فلن يعظم بعد ذلك مصابُ هالكٍ، ولا اعتبار بوجد متمّم على مالك[4]، فقد قال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «أشدُّ الناسِ بلاءً الأنبياء ثم الأمثل، فالأمثل، حتى إنَّ الرجُلَ يُبْتَلى على قَدْرِ دينه»[5]. وقوله تعالى: ﴿يا أيُّها الّذينَ آمَنُوا آصْبِروا وصَابِروا ورابِطُوا واتَّقُوا الله لَعلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[6] وقوله تعالى: ﴿إنّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ﴾[7] وما أشرفَ هذه الموعظة. ولقوله مخاطباً لنبيّه الرفيعِ القدر لديه

---

(١) ـ وهو مسند في حديث النبي صلى الله عليه وسلم بعلله والكلام عليه في أكثر من خمسين جزءاً، وهو من الأسانيد المخرجة على أسماء الصحابة. (فهرست ابن خير ١٣٨).

(٢) ـ سيرة ابن هشام ٣ / ٧٤ ـ ٧٧، ٩٦ ـ ١٠٢.

(٣) ـ نفسه ٣ / ١٠١ (وفيه: بثلاثين).

(٤) ـ يشير إلى مقتل مالك بن نويرة في حروب الردة حين ضرب خالد بن الوليد عنقه، وحزنِ أخيه متمم بن نويرة عليه وما قاله في رثائه من الشعر (انظر الأغاني ١٥ / ٢٩٨ ـ ٣١٤).

(٥) ـ مسند ابن حنبل ١ / ١٧٢، ١٧٤، ١٨٠، ١٨٥.

(٦) ـ الآية ٢٠٠ من سورة آل عمران.

(٧) ـ الآية ١٠ من سورة الزمر.

﴿فاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُوْلُوا العَزْمِ مِنَ الرُّسلِ﴾[1] الذين هو منهم بالمنزلةِ العليّةِ من التخفيف من ثقل الصبر، والتسليةِ عمّا يلقى في ذلك من عظيمِ التحمّل له، ما يتحقّق منه كريم العناية الربّانية بجانب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وقوله تعالى: ﴿واصْبِرْ لِحُكْمِ ربّكَ فإنَّكَ بأعْيُنِنَا﴾[2].

وحقيقٌ أن يخفّ على الموقن ثقل الصبر، إذا طوى عقدَهُ على أنّه بعين الله. والشيءُ يذكّر بالشيء، يحكى أنّ ذا الوزارتين أبا عبد الله بنَ الخطيب[3]ـ رحمه الله ـ كان قد شرع في بناء جنّته[4] المعروفةِ بالبُسْتَنةِ خارجَ غرناطة ينكشِفُ منه على موضع جارٍ له ذاهلاً عن قُبْح ذلك، ومستخفّاً به، وتردّدَ ذلك الجارُ برَفْعِ ظلامته للسلطان إذ ذاك، فلم يشْكُهُ لمحلِّ ابنِ الخطيب منه، فلقي ذو الوزارتين المذكور ذلك الرجل عقب آخر رَفْعِ تظلّمٍ فيه للسلطان منه، فلم يصدُر عليه جواب، وهو ذاهبٌ إلى موضعه ذلك المنكشف عليه فيه، فقال له ابنُ الخطيب كالمُزْدَري به: هل رفعتَ فيّ؟ قال: نعم. قال: وهل صدر لك جوابٌ؟ فقال له: نعم. فقال له: وما قيل لك في الجواب؟ قال: اعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيم: ﴿واصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فإنَّكَ بأعْيُنِنَا﴾[5] فصرخ الشيخُ ابن الخطيب صرخةً عظيمة وقال: حسبي الله. وثنى عنان دابّته راجعاً إلى بستنته، فلم يبرح منها حتى هَدَمَ ما كان قد ابتنى، وعجب الصانعُ البناء ومن حضر منه.

فتأمّلْ هذا الجار المُضْطَهَدَ بالجاهِ كيف اجتنى ثمرَة صبره سريعةً، وحمِدَ عاقبة ثقته بالله عاجلةً، وأذعن له من كان قد استخفَّ به بجاهه، واستضعفه بقوّتِهِ، وإنها للشيخ رحمه الله لَمَنْقَبةٌ تدلُّ على أوبته للحقّ، واستمساكِهِ منه

---

(١) ـ الآية ٣٥ من سورة الأحقاف.

(٢) ـ الآية ٤٨ من سورة الطور.

(٣) ـ أسلفنا الترجمة به.

(٤) ـ في الأصل: محنته.

(٥) ـ الآية ٤٨ من سورة الطور.

بحظٍّ. (ص ٢٩٢) وفي استحسانِ الصَّبْرِ في موضعه يقولُ الشاعر:[١]

ما أحْسَنَ الصَّبْرَ في مَواطِنِهِ والصَّبْرُ في كلِّ مَوْطِنٍ حَسَنُ
أحْسَنُ مِنْ فِعْلِهِ عَواقِبُهُ* عاقِبَةُ الصَّبْرِ ما لها ثَمَنُ

وقال عليُّ بنُ أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ «الصبرُ مطيَّةٌ لا تكْبو وسَيْفٌ لا يَنْبو»[٢]
وقال ابنُ المعتزّ: «الصبرُ على المصيبةِ مُصيبةٌ على الشامتِ بها»[٣].
وفي الصبرِ حيث لا يُغْني سواه يقولُ أبو العتاهية[٤]:

لَيْسَ[٥] لِمَنْ لَيْسَتْ لهُ حِيلَةٌ مَوْجُودَةٌ خيرٌ مِنَ الصَّبْرِ
فاخطُ مَعَ الدَّهْرِ إذا ما خَطَا واجرِ مَعَ الدَّهْرِ كما يَجْري[٦]
مَنْ سابَقَ الدَّهْرَ كبا كَبْوَةً لَمْ يَسْتَقِلْها آخرَ الدَّهْرِ

وقال بعضُ حكماءِ العرب: «المصيبةُ للصابرِ واحدةٌ وللجازعِ اثنتان»[٧].
قال أكثم بنُ صيفي[٨]: «حيلةُ مَنْ لاحِيلةَ له الصَّبْرُ»[٩].

ومن أمثال العرب: «فَقْدُ الصَّبْرِ أدْهى المُصيبتين»[١٠]، قال الميكالي[١١]

---

(١) ـ ورد البيتان في الفرج بعد الشدة ٥ / ٦٣ غير منسوبين.

* ـ في الفرج بعد الشدة: حسبك من حسنه عواقبه.

(٢) ـ أدب الدنيا والدين ٢٧٦.

(٣) ـ أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم ٢٩٦، ونسبها الآبي في نثر الدر ١ / ٢٨٥ للإمام علي.

(٤) ـ الأبيات في ديوان أبي العتاهية ص ١٧١.

(٥) ـ في الأصل: ليست.

(٦) ـ في الأصل: يجر.

(٧) ـ العقد الفريد ٣ / ٣٨.

(٨) ـ أكثم بن صيفي بن رباح بن الحارث التميمي، أدرك الإسلام، صاحب شعر وحكم ومواعظ (الوافي بالوفيات ٩ / ٣٤٢).

(٩) ـ العقد الفريد ٣ / ٣٨.

(١٠) ـ فصل المقال ٢٤٤.

(١١) ـ لعله أبو الفضل عبيد الله بن أحمد من أدباء القرن الخامس، وقد سلفت الترجمة به.

في هذا المعنى[1]:

يُصابُ الفتى في أهْلِهِ برزيّةٍ ... وما بَعْدَها مِنْه أجَلُّ وأعْظَمُ
فإنْ يَصْطَبِرْ[2] فيها فأجْرٌ مُوَفَّرٌ ... وإنْ يَكُ مِجْزاعاً فوِزْرٌ مُقَدَّمُ

وقال صلّى الله عليه وسلّم: **«إذا ثَكِلْتَ وَلَداً أو حَميماً فَصَبَرْتَ واسْتَرْجَعْتَ غَفَرَ الله لك»**[3].

ومن قَدَّرَ مغفرة الله قدرَها، وتحقّق من نفسه الأمّارةِ ذنبها العظيمَ ووِزْرها، فحقٌّ عليه أن يلهج بمغفرةِ الله إذا ورد عليه سببُ تحصيلها، وأن يوطّن نَفْسَه على الصبرِ طمعاً في تسويغ هذه المنّة الجسيمةِ وتخويلها. وقال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: **«الثوابُ للصبْرِ من الجنّة»**[4]. وقال صلّى الله عليه وسلّم: **«الإيمان نصفان: نِصْفٌ في الصَبْر ونِصْفٌ في الشُكر»**[5]. وهذا ظاهرٌ في صحةِ ذلك التَقْسيم الذي قسمناه قبل، حيث جعل النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم الصبرَ نصفَ الإيمان، لأنّ الإنسانَ لايخلو من إحدى الحالتين، فحالةُ الابتلاءِ تطلبه بالصبر، وحالةُ العافيةِ تطلبه بالشكر، فوضَحَ وجه ذلك التقسيم، وجَرَيانُه على الصراطِ المستقيم، والحمد لله. وقال صلّى الله عليه وسلّم: **«الإيمان هو الصبرُ والسماحة»**[6]. وهذا قريبٌ ممّا سبق في قضيّة الصبر، وأمّا السماحة فهي - والله أعلم - ممّا عُبِّر فيه بلازمِ الشيء عنه، لأنّ حالةَ العافيةِ التي تطلب الشُكْر تلزمها السماحةُ دائماً، والله أعلم.

وفي (ص ٢٩٣) صحيحِ البخاري[7] عن أبي هريرة - رضي الله عنه -

---

(١) - التمثيل والمحاضرة ١٢٨.

(٢) - في الأصل: تصطبر.

(٣) - ورد هذا الحديث بالمعنى في: التعازي والمراثي ص ١٥٠.

(٤) - ورد هذا الحديث بالمعنى في: التعازي والمراثي ص ١٢.

(٥) - كنز العمال ١ / ٣٦ (حديث رقم ٦١).

(٦) - مسند ابن حنبل ٤ / ٣٨٥، ٥ / ٣١٩.

(٧) - صحيح البخاري ٧ / ١٧٢، مسند ابن حنبل ٢ / ٤١٧، تسلية أهل المصائب ١٣٣.

أن رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «يقولُ الله تعالى ما لِعَبْدي المؤمنِ عندي جزاءٌ إذا قَبَضْتُ صَفِيَّهُ مِنْ أهلِ الدنيا ثم احتَسَبَهُ إلاّ الجنّة». وهذه الموعدَةُ من ربِّ العِزّة كريمة، وهي على قَدْرِ هذه المشقّة الفادحة التي سمّاها الله مصيبة.

وفي الحضّ على الصبرِ يقول الوزير أبو بكر بنُ ذي الوزارتين أبي عبد الله بن الحكيم[1] ـ رحمه الله:

تَصَبَّرْ إذا ما أدْرَكَتْكَ مُلِمّةٌ ... فصُنْعُ إلهِ العالمينَ عَجيبُ
وما يُدْرِكُ الإنْسانَ عارٌ بنكبةٍ ... تنكَّبَ فيها صاحِبٌ وحَبيبُ

وضاع لبعضهم ولدٌ صغير ثلاثةَ أيّام، فقيل له: لو سألْتَ الله أن يردَّه عليك! فقال: اعتراضي على اللهِ فيما قضى أشدُّ عليّ من ذهابِ ولدي. انتهت[2]. وهذا كلّه من باب واحد. ولمّا دخل الزنجُ البصرةَ، فقتلوا الأنفُسَ، ونهبوا الأموالَ، اجتمع إلى سهل[3] إخوانُهُ فقالوا: لو سألتَ الله دَفْعَهُم! فسكت، ثم قال: إنّ لله عباداً في هذه البلدة لو دعوا على الظالمين لم يُصْبِحْ على وجهِ الأرض ظالمٌ إلاّ ماتَ في ليلته ولكن لا يفعلون. قيل: لِمَ؟ قال: لأنّهم لا يُحبّون ما لا يُحِبُّ الله. انتهت.

وإلى هذا يُرْشِد تغاضي النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عن قومه لمّا بعث الله له مَلَكَ الجبال مع جبريل عليه السلام ليُطْبِقَ عليهم الأخْشَبَيْن[4] إن أراد

---

(١) ـ ذو الوزارتين أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن ابراهيم بن يحيى اللخمي الرُّندي، أصل سلفه من اشبيلية وانتقلوا إلى رندة في دولة بني عباد، وأبو عبد الله كاتب بليغ وشاعر، تولى الوزارة والكتابة لمحمد بن محمد بن نصر ملك غرناطة المعروف بمحمد الثالث، قتل سنة ٧٠٨ هـ عندما خلع سلطانه. (انظر ترجمته في الإحاطة ٢ / ٤٤٤، النفح ٢ / ٦١٨، ٥ / ٤٩٨).
(٢) ـ إحياء علوم الدين ٤ / ٣٥٠.
(٣) ـ سهل بن عبد الله التُّسْتَري الصوفي (٢٠٠ ـ ٢٧٣ هـ)، وقد مرّ التعريف به.
(٤) ـ الأخشبان: جبلا مكة أبو قبيس والأحمر، وجبلا مِنى (القاموس المحيط).

ذلك، والقضيّة مشهورة[1]. كما أنّ دُعاءه على أهلِ القليب[2] الذين قصمهم الله ببَدْرٍ يُشْعِرُ بخلاف ذلك، ولعلّ دعاءه على أولئك القوم كان لخاصّةٍ فيهم من العُتُوّ والاستكبار، كدُعاءِ نوح على قومه بقوله: ﴿لا تَذَرْ على الأرْضِ مِنَ الكافِرينَ دَيّارا * إنّكَ إنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَلا يَلِدُوا إلاّ فاجِراً كَفّارا﴾[3] والله أعلم.

ومما يرشِد إلى التعزّي قولُ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ليعزّي[4] المسلمين في مصائبهم: «المصيبةُ بي»[5] وحقيقٌ مَنْ نَزَلَتْ به مصيبةٌ من فَقْدِ مَنْ يَعِزُّ عليه أن يتعزّى بالمصيبة في النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وإذا تأمّل ذلك حقّ التأمّل، فإن مصيبته تخفّ عليه غايةَ الخفّة، وإلاّ فكم بيْنَ المصيبةِ بأكرم الخلقِ على ربّه، والرحمةِ المهداةِ إلى خَلْقِه، الذي جعله الله للأنامِ هادياً، وإلى دارِهِ داعياً، وعلى نجاتِنا حريصاً، وبنا رؤوفاً رحيماً، وفينا يوم القيامة شفيعاً، وإلى كافّتِنا بشيراً ونذيراً، فهدانا الله به إلى الحقّ، وأخذ بحجزنا عن النار، وبيّن لنا ما أحَلَّ الله لنا وما حرّم، وأرْشَدَنا إلى التي هي أقوم، (ص ٢٩٤) وخلّف فينا كتابَ الله العزيز، وقرآنه المبين، نوراً فارقاً بين الحقّ والباطل، شاهداً بأنّه مُنَزّلٌ من عند الله، صادعاً إلى اليوم بمعجزته العظمى - وبين المصيبة بولدٍ أو زوجٍ لعلّهما ممّن قال الله فيهما: ﴿يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا إنَّ مِنْ أزْواجِكُمْ وأوْلادِكُمْ عدوّاً لَكُمْ فاحْذَرُوهُمْ﴾[6] أو والدٍ أو أمٍّ أو أخٍ أو عمٍّ! . وإن كانت سبقتهم ما عسى أن تكون، والمصلحة فيهم ما عسى أن

---

(١) ـ وردت القصة في صحيح البخاري ٤ / ٨٣، صحيح مسلم ٥ / ١٨١.

(٢) ـ انظر تفصيل قصة أهل القليب في سيرة ابن هشام ٢ / ٢٩١ ـ ٢٩٤، دلائل النبوة للبيهقي ٣ / ٤٥ وما بعدها، السيرة النبوية لابن كثير ٢ / ٤٤٩.

(٣) ـ الآيتان ٢٦ ـ ٢٧ من سورة نوح.

(٤) ـ في الأصل: ليعزّ.

(٥) ـ سنن ابن ماجة / باب ٥٥ من كتاب الجنائز، التعازي والمراثي للمبرّد ص ٣، ٢٣٦، بهجة المجالس ٢ / ٣٤٨.

(٦) ـ الآية ١٤ من سورة التغابن.

تفرض، والمحبة لهم ومنهم منتهية إلى الغاية القصوى، ومتطابقة منهم العلانية والنجوى! فكم جاءت من أمثالِ هؤلاء عظائمُ من الآفات! وكم انقلبَتْ منهم إلى عَكْسِها صحيحُ المودّات! وفي هذا المعنى قال الشيخ أبو العبّاس بنُ العريف الصوفيّ[1] رحمه الله[2]:

إذا حلّت[3] بساحَتِكَ الرزايا ... فلا تَجْزَعْ لها جَزَعَ الصَبِيِّ

فإنّ لِكُلِّ حادثةٍ[4] عَزاءً ... بما قَدْ كانَ مِنْ فَقْدِ النَبِيِّ

وقال صلّى الله عليه وسلّم: «تدمعُ العينُ، ويحزنُ القلبُ، ولا نقولُ إلّا ما يُرضي الربَّ، وإنّا بِكَ يا ابراهيمُ لمَحْزونون»[5]. وإنَّ في فَقْدِ النبيِّ صلّى الله عليه وسلّم ابنَه ابراهيم لسلوةً عن كلّ مفقود، وإنّ في وجدِهِ به لغنىً عن كلّ موجود، ولنا فيه الأسوةُ الحَسَنَةُ، ولنا به السُّنَّةُ التي تُحَطُّ بها السيئةُ وتُضاعَفُ الحسنة.

وفي تاريخ بغداد من اسم أبي بكر النقّاش[6] المقرىء عن ابنِ عبّاس[7] قال: كنتُ عند النبيِّ صلّى الله عليه وسلّم، وعلى فَخِذِهِ الأيسرِ ابنُه ابراهيم،

---

(١) - أبو العباس أحمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله الصنهاجي الأندلسي المشهور بابن العريف، الصوفي الشهير صاحب كتاب «محاسن المجالس» من أهل المرية، كان من كبار الصالحين العلماء والأولياء، توفي سنة ٥٣٦ هـ بمراكش (الصلة ١ / ٨١، وفيات الأعيان ١ / ١٦٨، معجم الصدفي ص ١٥، بغية الملتمس ١٦٦، نيل الابتهاج ٥٨، الوافي بالوفيات ٨ / ١٣٣).

(٢) - البيتان في المقتضب من تحفة القادم ص ٣٦٢، والوافي بالوفيات ٨ / ١٣٤.

(٣) - في المقتضب والوافي: نزلت.

(٤) - في المقتضب والوافي: نازلةٍ.

(٥) - كتاب التعازي والمراثي للمبرد ص ١١، ١٤٥، مسند ابن حنبل ٣ / ١٩٤.

(٦) - أبو بكر محمد بن الحسن بن محمد بن زياد، المعروف بأبي بكر المقرىء النقّاش من أهل الموصل، من علماء التفسير والقراءات، سافر كثيراً شرقاً وغرباً، وكتب الحديث، مولده سنة ٢٦٦ هـ ووفاته سنة ٣٥١ هـ (تاريخ بغداد ٢ / ٢٠١، الوافي بالوفيات ٢ / ٣٤٥).

(٧) - في تاريخ بغداد: أبي العباس.

وعلى فخذِهِ الأيمن الحسن[1] بن علتي، تارةً يقبّل هذا، وتارة يقبّل هذا، إذْ هَبَطَ جبريلُ صلّى الله عليه وسلّم، بوحْيٍ من ربِّ العالمين، فلمّا سُرِّيَ عنه قال: «أتاني جبريلُ من ربّي، فقال لي: يا محمد، إنَّ ربّكَ يُقرئكَ السلام، ويقول لكَ لستُ أجْمَعُهما لكَ فافدِ أحدهما بصاحبه» فنظر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم إلى ابراهيم، فبكى، ثم قال: «إنَّ ابراهيمَ أُمُّه أمة، ومتى ماتَ لم يحزَنْ عليه غيري، وأمُّ الحسن فاطمة وأبوه عليٌّ لحمي ودمي، ومتى ماتَ حزِنَتْ ابنتي، وحَزِنَ ابنُ عمّي، وحزِنْتُ أنا عليه، وأنا أؤثرُ حزني على حُزْنِهما، يا جبريلُ يُقْبَضُ ابراهيم» قال: فقُبِضَ بعد ثلاث، فكانَ النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم إذا رأى الحسن* مقبلاً، قبّله، وضمّه إلى صدره، ورشف ثناياه، وقال: «فَدَيْتُ مَنْ فَدَيْتُه بإبراهيم ولدي». انتهى[2].

وهذا الحديث، إنْ صحّ، ففيه من الإيثارِ ما لا يكونُ إلّا في سَيِّدِ ولد آدم ـ صلّى الله عليه وسلّم. وفيه أنموذجٌ من خصوصيّةِ الخليل ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ في ابتلائه بذبح ابنه، (ص ٢٩٥) بل هي أعظمُ، لأنَّ الذبيحَ فُدي وسَلِم، والسلالةُ الطاهرة ابراهيم فُدِيَ به الحَسَنُ، فتأمّل ذلك.

وقد عزّتِ المسلمين في النبيِّ صلّى الله عليه وسلّم الملائكةُ، فقالت: «السلامُ عليكُمْ ورحمةُ الله وبركاتُه، إنَّ في اللهِ عَزاءً من كلِّ مصيبة، وخلفاً من كلِّ فائتٍ، فبالله فثِقوا، وإيّاه فارجوا، فإنّما المحرومُ من حُرِمَ الثوابَ، والسلامُ عليكم ورحمةُ الله وبركاتُه»[3]، وكتب النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم إلى معاذ بن جبل في ابنٍ له يعزّيه:

---

(١) ـ في تاريخ بغداد: الحسين.

* ـ في تاريخ بغداد: الحسين.

(٢) ـ وردت هذه القصة في تاريخ بغداد ٢ / ٢٠٤.

(٣) ـ ورد هذا القول موسّعاً في كتاب التعازي والمراثي ص ١٠ ـ ١١، وتسلية أهل المصائب ١٢٢ ـ ١٢٣.

«بِسْم اللهِ الرحمنِ الرحيم. من محمَّد إلى معاذِ بن جَبَل. سلامٌ عليك، فإنّي أَحْمَدُ إليكَ الله الذي لا إله إلاّ هو. أمّا بعد، أَحْمَدَ الله لك الأجْرَ، وألْهَمَكَ الصَّبْرَ، ورزقَنا وإيّاك الشُكْرَ، فإنّ أنْفُسَنا وأموالنا، وأهلينا وأولادنا، من مواهب الله الهنيّة، وعواريه[1] المستودَعة يمتّع بها إلى أجلٍ محدود، ويقبضُها لوقتٍ معلوم، ثم افترضَ علينا الشُكْرَ إذا أعطى، والصبرَ إذا ابتلى، فكان ابنُكَ من مواهب الله الهنيّة، وعواريه المُسْتَوْدَعة، مَتّعكَ به في غبطةٍ وسرور، وقبضَهُ منك بأجرٍ كبير: الصلاةُ والرحمةُ والهدى إنْ احْتَسَبْتَ، فاصْبِر ولا يحيط جزعُكَ بصبرِكَ فتندم، واعْلَمْ أنّ الجزع لا يردُّ شيئاً ولا يرفع حرفاً ممّا هو نازلٌ وكائن، والسلام»[2].

وممّا يؤثر من كلامِ أبي بكر الصدّيق ـ رضي الله عنه ـ: «لَيْسَتْ مع العزاء مُصيبة»[3].

وإن كانَ المفقودُ الوالدين فقد فَقَدَ هو ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ والديْه في حال الطفولة، وكم منّا من تمتّع بهما إلى زمانِ الكُهولة! وفي الله عِوَضٌ من كلِّ ذاهب، وما وهب الله من عظيمِ الأجْرِ أفضلُ هبةٍ من أكرم واهب.

وقال صلّى الله عليه وسلّم: «إذا اشتدَّ حُزْنُ أحدِكُمْ على هالِكٍ فليذكُرْني»[4].

بهذا نحو مما سبق معناه، وتبيّن لفظُه وفحواه. وقال المتنبّي[5]:

وَقَـدْ فارقَ النـاسَ الأحبّـةُ قَبْلَنـا … وأعـيا دواءُ الـمـوتِ كلَّ طبيبِ

---

(١) ـ في الأصل: عوارفه، والصواب ما أثبتنا، والعواري مفردها عاريّة وتخفّف وهي ما تداوله الناس بينهم (القاموس المحيط: عور).

(٢) ـ ورد هذا النص في كتاب التعازي والمراثي ص ١٤٨.

(٣) ـ نثر الدرّ للآبي ٢ / ٢٣، بهجة المجالس ٢ / ٣٤٨

(٤) ـ ورد الحديث بالمعنى في التعازي والمراثي ص ٢٣٦.

(٥) ـ ديوان المتنبي ص ٣٣١.

وقال بعضهم[1]:

لا بُدَّ من فَقْدٍ ومِنْ فاقدٍ هيهاتَ ما في الناسِ من خالِدِ
كُنِ المعزّي لا المُعزّى بِهِ إنْ كان لا بُدَّ من الواجِدِ

وقال الأمير شمسُ المعالي[2]: «آخرُ الأحياء فَناء، والجزعُ على الأمواتِ غَناء، وإذا كان ذلك كذلك، فلِمِ الهالكَ على هالِك»[3].

وقال أبو نواس[4]:

وما الناسُ إلّا هالِكٌ وابنُ هالِكٍ
وذو نَسَبٍ في الهالكين عريق

(ص ٢٩٦)

إذا امْتَحَنَ الدُنيا لبيبٌ تَكَشَّفَتْ
لَهُ عن عدوٍّ في ثيابِ صَديق

ولأبي العبّاس التُطِيلي[5]:

تَوَهَّمْ كُلَّ شَيْءٍ مُسْتَحِيلا
وَقَدْ علّمتُكَ الصَبْرَ الجَميلا

(١) ـ البيتان لأبي فراس الحمداني كتب بهما إلى سيف الدولة الحمداني يعزيه، ووردا في ديوان أبي فراس ص ٦٢ وعجز البيت الأول متقدم على صدره، ووردا أيضاً في وفيات الأعيان ٢ / ٦٣.

(٢) ـ شمس المعالي أبو الحسن قابوس بن وشمكير أمير جرجان ت. ٤٠٣ هـ، وقد سلفت الترجمة له.

(٣) ـ يتيمة الدهر ٤ / ٦٨.

(٤) ـ ديوان أبي نواس ص ٤٦٥ (ط. دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٦٢م).

(٥) ـ أبو العباس أحمد بن عبد الله بن هريرة القيسي التطيلي الاشبيلي الضرير شاعر وكاتب ووشاح، له ديوان شعر مطبوع، عاصر ملوك الطوائف والمرابطين وتوفي سنة ٥٢٥ هـ. (نكت الهميان ١١٠، قلائد العقيان ٣١٥، الذخيرة ق ٢ م ٢ ص ٧٢٨، المغرب ٢ / ٤٥١، الوافي بالوفيات ٧ / ١٢٦).

وهل تَصْبو إلى قَصْرٍ مشيدٍ
إذا استَشْعَرْتَهُ طَلَلاً مَحيلا
تَشَيَّعُ(*) بالبُكا مَيْتاً فَمَيْتاً
ولا وأبيكَ ما يُغْني فتيلا
وقد أفنى الحمامُ الدهرَ نَوْحاً
ولكِنْ سَلْهُ هل رَجَعَ الهديلا[1]

وإذا كان الخوفُ على النَّفْسِ والإشفاقُ من الموت، فإنّ في توطينِ النَّفْسِ على عموم هذا المخوف بجميع البريّة، وشموله لكلّ ذي روح من الخليقة، ما يهوِّنُ الخطب، ويسهِّلُ الصعب. ثم إنَّ العمرَ وإنْ طالَ، والحياة وإنْ لَذَّتْ، فإنَّ الموتَ غايةُ كُلِّ حيٍّ، ومنتهى كلِّ نَفْسٍ، ويرحَمُ اللهُ أبا العتاهية، فقد أجاد في قوله[2]:

المرء في تأخير مُدَّتِهِ[3] كالثوبِ يَخْلُقُ بَعْدَ جِدَّتِهِ
وحياتُهُ نَفَسٌ يُعَدُّ له ووفاتُه استكمالُ عِدَّتِهِ
ومصيرُهُ مِنْ بَعْدِ أُنْسَتِهِ[4] بالناسِ ظُلْمةُ بَيْتِ وحْدَتِهِ[5]
من ماتَ مالَ ذوو مَوَدَّتِهِ عَنْهُ وحالُوا عَنْ مَوَدَّتِهِ
عجباً[6] لمنتبهٍ يضيِّعُ ما يحتاجُ فيهِ ليومِ رَقْدَتِهِ[7]

* ـ في ديوان الأعمى: نشيّع.

(١) ـ انظر الأبيات في ديوان الأعمى التطيلي ص ٩٦ (تحقيق د. احسان عباس ط. دار الثقافة ـ بيروت ـ ١٩٦٣م).

(٢) ـ ديوان أبي العتاهية ص ١٠٠.

(٣) ـ في ديوان أبي العتاهية: لذّته.

(٤) ـ في ديوان أبي العتاهية: مدّته.

(٥) ـ في الديوان: بلْياً وذا من بعد وحدته

(٦) ـ في الأصل: عجبت.

(٧) ـ هذا البيت في الديوان اختتمت به المقطوعة.

أزِفَ الـرحيلُ ونـحْـنُ في لَعِبٍ ما نَسْتَـعِـدُّ له بِعُـدَّتِـه
ولـقـلّمـا تُبْقي الخـطوبُ على أثـرِ الـشَّبـابِ وَحَـرٌ وَقَـدَّتِـه

وكتب شمسُ المعالي[1] إلى الصاحِب[2] يعزِّيه: «أطالَ الله بقاء الصاحب، طعمان حُلْوٌ ومُرّ، والأيّامُ ضربانِ عُسْرٌ ويُسْر، والخَلْقُ معروض على طوريه، ومقسومُ الأحوالِ على دَوْرَيْه، والصاحِبُ مِنَ العِلْم يَتَلوَّنُهُ ما بين تخشُّنه وتليُّنه، على محلِّ السِماك، بل فَلَكِ الأفلاك، ممّن تخوّله بالتبصير، وتناوله بالتصيير، إذا حَزَبَتْهُ حازبة، أو نابَتْهُ نائبة، كان كَمَنْ أمدّ النار بالشَرَر، وأهدى الضوء إلى القمر، وصبَّ في البحر مرعه، وأعار سَيْر الفلك سُرعة، ولكن التسليةَ اسمٌ مُتّبع، وتصريفُ القولِ بها منتفع، ولامسلاةَ لريْب المنون، وشُوَبِ الدهر الجُون، أبلغُ من يقينه بأنَّ الموتَ نقلانٌ محتوم، وبه نَفَسُ كلِّ إنسان مختوم، وعلى أنّه يصلب عودا من أن تؤثّر فيه أنيابُ النوائب. . .[3] من أن يَحْمَدَهُ انصبابُ المصائب (ص ٢٩٧) وأرزنُ من أن يتماسَكَ بالتعزية، إذا ألَمّ به ألَمُ المُرْزية، فالأَوْلى بمعزّيه أن يميلَ إلى التخفيف والتقليل، ويجتنبَ الإكثارَ والتطويل، جعل الله هذا الرُزْء لمصائبه فِدا، ولا أطال للنوائبِ عليه يدا». [4]

---

(١) ـ شمس المعالي قابوس بن وشمكير، وقد سلف ذكره.

(٢) ـ الصاحب أبو القاسم اسماعيل بن عبّاد، وزير مؤيد الدولة البويهي وفخر الدولة البويهي، وكان شاعراً وكاتباً، وكان صديقاً لأبي الفضل بن العميد ولذلك عرف بالصاحب، ألف عدداً من الكتب من أشهرها المحيط في اللغة، مولده سنة ٣٢٦ هـ بإصطخر، وتوفي سنة ٣٨٥ هـ بالري. (يتيمة الدهر ٣ / ٢٢٥ ـ ٣٣٩، معجم الأدباء ٦ / ١٦٨ ـ ٣١٧، أخلاق الوزيرين (صفحات كثيرة)، وفيات الأعيان ١ / ٢٢٨).

(٣) ـ بياض في الأصل مقدار ثلاث كلمات.

(٤) ـ وردت فقرة من الرسالة في يتيمة الدهر ٤ / ٦٨، وزهر الآداب ٢ / ٤١٥.

وقال صالح المرّي[1] لرجل يعزّيه: «إنْ لم تكُنْ مصيبتُك أحْدَثَتْ لك في نفسِكَ موعظةً فمصيبتُك بنفسِكَ أعظم»[2].

ومما يرشد إلى التأسّي قولُه تعالى: ﴿إنَّكَ مَيِّتٌ وإنَّهُمْ مَيِّتُون﴾[3] فظاهرٌ من هذه الآيةِ الكريمةِ قَصْدُ التأسّي في الموت، وأنّه ليس ببِدْعٍ في الوجود.

وما أطبعَ قولَ ابنِ سكرة الهاشمي[4]:

والموتُ أنْصفَ حينَ عَدَّل قِسْمةً ... بيْنَ الخَليفةِ والفَقيرِ البائِسِ

وقوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إلاّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أفإنْ مَاتَ أوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أعْقابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ على عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وسَيَجْزي اللهُ الشَّاكِرين﴾[5]. وفي الآيةِ الكريمةِ وفيما بعدها من هذا القصد ما لا يخفى وَجْهُهُ، ولا يشكل معناه، وفي قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فما وَهَنُوا لِمَا أصَابَهُمْ في سبيلِ اللهِ ومَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا واللهُ يُحِبُّ الصابرينَ * وَمَا كانَ قَوْلَهُمْ إلاّ أنْ قالُوا ربَّنا اغْفِرْ لنا ذُنوبَنا وإسْرافَنَا في أمْرِنا وثَبِّتْ أقْدامَنَا وانْصُرْنا على القَوْمِ الكافِرينَ * فآتاهُمُ اللهُ ثوابَ الدُّنيا وحُسْنَ ثوابِ الآخرةِ واللهُ يُحِبُّ المُحْسِنينَ*﴾[6] من التسليةِ عمّا وقع من كائنةِ أُحُدٍ،

---

(١) ـ أبو بشر صالح بن بشير المرّي البصري القاصّ، أحد العباد، يروي الحديث، قال عنه البخاري: منكر الحديث، توفي سنة ١٧٢ هـ وقيل سنة ١٧٦ هـ (حلية الأولياء ٦ / ١٦٥، تاريخ بغداد ٩ / ٣٠٥، وفيات الأعيان ٢ / ٤٩٤، الوافي بالوفيات ١٦ / ٢٥٢).

(٢) ـ كتاب التعازي والمراثي ص ٧١، حلية الأولياء ٦ / ١٧١ ـ ١٧٢.

(٣) ـ الآية ٣٠ من سورة الزمر.

(٤) ـ أبو الحسن محمد بن عبد الله بن محمد بن سكرة الهاشمي، من شعراء بغداد الماجنين، له ديوان شعر، توفي سنة ٣٨٥ هـ. (انظر: يتيمة الدهر ٣ / ٣ ـ ٣٤، تاريخ بغداد ٥ / ٤٦٥، وفيات الأعيان ٤ / ٤١٠، فوات الوفيات ٣ / ٣٠٨)، وورد البيت في يتيمة الدهر ٣ / ٣٣.

(٥) ـ الآية ١٤٤ من سورة آل عمران.

(٦) ـ الآيات ١٤٦ ـ ١٤٨ من سورة آل عمران.

من التمحيصِ العظيم، ومن الإرشادِ للتأسّي بمن سبق من أتباعِ الأنبياء - صلواتُ الله عليهم - فيما ابتلاهم به، من مثلِ ذلك ما أخذه الصحابة - رضي الله عنهم - مأْخَذَهُ الذي قُصِدَ به.

ولله درُّ الخَنْساء في قولها[1]:

وَلَوْلا كثرةُ الباكينَ حَوْلي على إخوانِهِمْ لقَتَلْتُ نَفْسي
وما يَبْكُونَ مِثْلَ أخي ولكِنْ أُعزِّي النَفْسَ عَنْهُ بالتأسّي

وقد زاد ابنُ الرومي في هذا المعنى واستحقَّه فقال[2]:

رَأيتُ الدَهْرَ يَجْرَحُ[3] ثم يَأْسَى[4] أيُؤسي[5] أو يعوِّضُ أو يُنَسّي؟!
أَبَتْ نَفْسي الهلاعَ لرُزْءِ شَيْءٍ كفى شجواً لِنَفْسي رُزْءُ نَفْسي
أَتَجْزَعُ وَحْدَةً[6] لفراقِ إلْفٍ وَقَدْ بوَّأْتُها[7] لحلولِ رَمْسي

وليس بمعتَبرٍ في عكسِ هذا القَصْد قولُ ابن الرومي المذكور، لأنّه إنّما أراد أن يبيِّن فيه اقتداره، ويُظْهِرَ إيرادَهُ في الكلام وإصْدارَهُ، فخالَفَ الناسَ فيما (ص ٢٩٨) دَرَجوا عليه، وعارضَ المعنى الذي تقدّمتْ نسبةُ تجويده إليه، وذلك قوله[8]:

---

(١) - انظر ديوان الخنساء ص ٨٤ - ٨٥ (ط. دار صادر - بيروت - ١٩٦٠م).

(٢) - ديوان ابن الرومي ٣ / ١١٦٨ (تحقيق دكتور حسين نصار، مطبعة دار الكتب، القاهرة - ١٩٧٦م).

(٣) - في الأصل: يخرج.

(٤) - في الديوان: يأسو.

(٥) - في الديوان: يؤسّي.

(٦) - في الديوان: أتهلع وحشة.

(٧) - في الديوان: وطنتها.

(٨) - الأبيات في ديوان ابن الرومي ٥ / ١٩٢٩ (تحقيق دكتور حسين نصار، مطبعة دار الكتب ١٩٧٩م).

خليليَّ قد علّلتُماني بالمُنى[*] وأنعمتُما لو أنّني أتعلَّلُ
أألناسُ آثاري وإلاّ فما الأسى وعَيشُكُما إلاّ ضلالٌ مُضَلَّلُ
وما راحةُ المرزوء في رُزء غيره أيحملُ عنه بعضَ ما يَتحمَّلُ
كلا حامِلَيْ أزْرِ الرزيّةِ مُثقَلٌ وليَسَ مُعيناً مُثقَلُ الظهرِ مُثقَلُ
وضربٌ من الظلمِ الخفيّ مكانه يُعزّيك بالمرزيّ حينَ تُؤمِّلُ[**]
لأنّك يأسُوكَ الذي هُوَ كلُّه بلا سَبَبٍ لو أنَّ جَوْرَكَ يَعْدِلُ

وحكى يحيى بن سعيد الأنصاري[1] قال: ماتَ لنا شيخٌ ببغداد، فلما دفنّاه أقبلَ الناسُ على أخيه يعزّونه، فجاء أبو العتاهية إليه، وبه جَزَعٌ شديد، فعزّاه، ثم أنشده[2]:

لا تأمَنِ الدهرَ والبَس لِكُلِّ حالٍ لباسا
لَيَدْفِنَنّا أُناسٌ كما دَفَنّا أُناسا

قال: فانصرف الناسُ وما حفِظوا غير قولِ أبي العتاهية. أقول: ويحقٌّ أن يُحفَظَ، فإنّ فيه إرشاداً للتأسّي.

وما أعجبَ رسالةَ الاسكندر إلى والدتِهِ في هذا الغرض، فذكروا أنّه كتب إليها فيما كتب به أنْ قال: «فكّري يا أمّ الاسكندر في أنَّ ما تحتَ الكونِ والفسادِ داثرٌ فانٍ، وإن ابنكِ لم يكُنْ يرضى لنفسه بأخلاقِ الصِغار من الملوك، فلا ترضَيْ لنفسِكِ بأخلاقِ الصِغار من أمّهات الملوك، ومُري ببناء مدينةٍ عظيمةٍ عند وُرودِ الخبرِ عليْكِ بموت الاسكندر ابنكِ، وابعَثي في أن يُحْشَرَ إليك

---

* ـ في الديوان: بالأسى.

** ـ في الأصل: نأمل.

(1) ـ في ديوان أبي العتاهية: محمد بن سعيد المهدي عن ابن سعيد الأنصاري. ويحيى ابن سعيد الأنصاري هو أبو سعيد يحيى بن سعيد بن قيس بن عمرو بن سهل الأنصاري المديني، تولى القضاء بالمدينة المنورة ثم ولاه المنصور قضاء بغداد، توفي سنة ١٤٣ هـ (تاريخ بغداد ١٤ / ١٠١).

(٢) ـ ديوان أبي العتاهية ٢٢٩.

الناسُ من جميعِ بلادِ لونيه واروقي وآسيه ليومٍ معلوَم، فيكونُ ذلك اليومُ جَمْعَهُمْ في تلك المدينة للطعامِ والشرابِ والسرور، ثم نادي فيهم ألاّ يوافيكِ فيها مَنْ أصابَتْهُ مصيبةٌ قطّ، ليكونَ ذلك مأتمَ ابنكِ الاسكندر بالسرورِ خِلافَ مآتِمِ الناس بالحُزنْ». فلما ورد عليها خبرُ موت الاسكندر أمَرَتْ بذلك، فلم يُوافِها أحدٌ للوقت الذي حدّت، فقالت: ما بالُ الناسِ تخلّفوا عنّا مع ما قدّمْنا إليهم بالموافاةِ إلينا (ص ٢٩٩) للتطاعم؟! فقيل لها: قد أمرتِ ألاّ يُوافِيَك أحدٌ أصابتْه مصيبة، وكلُّ الناسِ أصابتهم مصائب، فلذلك لم يوافِكِ أحد. فقالت: يا اسكندر: ما أشبه أواخِرَكَ بأوائلك! لقد أحببتَ أن تعزِّيَني عن المصيبةِ بالتعزية الكاملة، إذْ ليست المصائبُ ببِدْع، ولا مخصوصةً بنا دون أحد من البشر[١].

ومن كتاب الخطيب[٢]قال أبو العبّاس المبرّد: تُوُفِّيَتْ والدةُ القاضي اسماعيل[٣]، فركبتُ إليه[٤] اعزّيه وأتوجّعُ له، فألفيتُ عنده الجلّةَ من بني هاشم والفقهاء والعُدول ومستوري بغداذ، ورأيتُ من وَلَهِهِ ما أبداه، ولم يَقْدِرْ على سَتْره، وكلٌّ يعزّيه، وقد كاد لا يَسْلو، فلمّا رأيت ذلك منه ابتدأتُ بعد التسليم فأنشدته[٥]:

لَعَمْـري لئِنْ غالَ ريبُ الـزمـا	نِ فسـاء[٦] فقَـدْ غال نَفْساً حَبيبة
ولـكـنَّ عِلْمي بمـا في الـثَّـوا	بِ عِنْدَ المصيبةِ يُنْسي المُصيبة

---

(١) ـ وردت الحكاية مختصرة في العقد الفريد ٣ / ٢٣٣، طبائع النساء ٢١٧.

(٢) ـ الخطيب البغدادي صاحب «تاريخ بغداد».

(٣) ـ اسماعيل بن اسحق بن اسماعيل بن حمّاد بن زيد بن درهم، أبو اسحق الأزدي المالكي، وقد أسلفنا التعريف به.

(٤) ـ في الأصل: إليها.

(٥) ـ البيتان في: تاريخ بغداد ٦ / ٢٨٩، الوافي بالوفيات ٩ / ٩٣، معجم الأدباء ٦ / ١٣٥، وفي بهجة المجالس ٢ / ٣٥٨ منسوبين لمحمود الوراق قالهما في رثاء جاريته نشوى، ووردا أيضاً في ترتيب المدارك ٣ / ١٧٣.

(٦) ـ في تاريخ بغداد وترتيب المدارك: فينا.

فتفهَّم كلامي واستحسنه ودعا بداوةٍ وكَتَبَهُ، ورأيته بَعْدُ قد انبسط وجهه، وزال عنه ما كان فيه من تلك الكآبة وشدةِ الجَزَعِ، وأنشد القاضي اسماعيل[1]:

لا تَعْتَبَنَّ على النوائبْ ... فالدهْر يُرْغِمُ كلَّ عاتِبْ
واصبِرْ على جَرَيانِهِ ... إنَّ الأمورَ لها عَواقِبْ
ولكلِّ صافيةٍ قذىً ... ولكلِّ خالصةٍ شوائب
كم فُرجةٍ مَطْويّةٍ ... لكَ بين أثناء النوائب*

وكتب الأميرُ شمسُ المعالي قابوس بنُ وَشمكير[2] إلى أبي الفتح ذي الكفايتين[3] ما نصّه: «حَشْوُ هذا الدهر الخؤونِ أحزانٌ وهُموم، وصفوه من غير كدرٍ معدوم، والأستاذُ ـ أدامَ الله عزّته ـ يتأمّل صُروفَه وأيّامَه، ويستشِفُّ أحواله وأحكامه، فإنْ وجد أحداً سَلِمَ مِنْ فَقْد، أو عَرِيَ من وجْد، فقد لقي خلافَ المعهود، وحقَّ له فرطُ الأسى على المفقود، وإنْ عَلِمَ أنَّ الباقي للماضي تبع، قدّم من السلوّ والصبر ما لا يُذَمُّ المصيرُ إليه آخِرَ الدهر»[4].

وكتب شمس المعالي أيضاً إلى محمد بن عبد الله بن شكّار في الغرض: «الدنيا ـ أطال الله بقاءَ الشيخ ـ غُرَّتُها النوائب، وقصّةٌ متضمَّنها العجائب، أوّلُها رجاء كالسراب، وآخِرُها رداء من تراب، والأيّامُ والليالي مطيّاتُ البلايا، بتجدّدها تَبْلى الأجسام، وبتردّدها تَرْدى الأنام، والدهرُ داء ليسَ له

(١) ـ لم ترد الأبيات في تاريخ بغداد ولا في الوافي بالوفيات ولا معجم الأدباء.

* ـ وردت الحكاية في ترتيب المدارك ٣ / ١٧٢ ـ ١٧٣، تاريخ بغداد ٦ / ٢٨٨ ـ ٢٨٩، الوافي بالوفيات ٩ / ٩٣، معجم الأدباء ٦ / ١٣٥.

(٢) ـ سلفت الترجمة له.

(٣) ـ هو ذو الكفايتين أبو الفتح علي بن محمد بن العميد الكاتب، وزير ركن الدولة البويهي، ولي الوزارة بعد والده سنة ٣٥٩ هـ، كان شاعراً وكاتباً، وكانت بينه وبين الصاحب ابن عباد منافسة، فأغرى الصاحب قلب مؤيّد الدولة بن ركن الدولة البويهي على ابن العميد، فقبض مؤيّد الدولة عليه وقتله سنة ٣٦٦ هـ (يتيمة الدهر ٣ / ٢١٥ ـ ٢٢٣، معجم الأدباء ١٤ / ١٩١ ـ ٢٤٠، نكت الهميان ٢١٥ ـ ٢١٧، وفيات الأعيان ٥ / ١١٠ ـ ١١٢).

(٤) ـ وردت هذه الرسالة في معجم الأدباء ١٦ / ٢٣٠.

دواء، ولا حياءَ لديه ولا وفاء، قاصِمُ الأصْلاب، وقاسِمُ الأسْلاب، ما حمى (ص ٣٠٠) أحداً إلّا خَذَلَهُ، ولا ربّى ولداً إلّا قتله، شيمتُه أن يَنْقُلَ من محبوبِ الفَناء إلى مَرْهُوبِ الفَناء، ويبدّل لذّةَ الحياةِ بغُصّةِ الوفاة، والناسُ في أحلامِ غَفْلةٍ وفي ظلامِ جهالة، يظنّون أنّ كونَهم في الدنيا ركون، وأنّ رحيلَهُمْ عنها ما لا يكون، ولا يَدْرُون أنّهم أبداً راحِلوان، وعلى مناكِب الليلِ والنهار سائرون، وأنّ ذلك أعمارٌ لهم تَمْضي، وأنفاسٌ تنقضي، ومن عرف هذه الأحوالَ معرفةَ الشيخِ لبِسَ الدهْرَ على أخلاقه، ولم يَجْزَعْ من مُرِّ مَذاقِه، وهانَ عليه ألمُ المصائب، وخفّ لديه ما ألَمّ به من النوائب، واكتفى من مخاطبةِ معزّيه بالنبذ اليسير، واستغنى بفضل عِلْمِهِ عن التذكير والتبصير».

وفيما يناسِبُ ذلك من نوائِب الدُنيا يقولُ أبو العتاهية[1]:

عجبـاً أعـجبُ من ذِي بَصَـر ... يأمَنُ الـدنيا وقَـدْ أبْصَـرَهـا
إنّ للإنـسـانِ يومـاً صَرْعـةً ... يـنـبـغي للمـرء أن يَحْـذَرَهـا
كم قرونٍ حَضَـرْتَنـا قد مَضَتْ ... ونَسِينـا بعـدهـا مَحْضَـرَهـا
صُوَرٌ كانـت أنـاسـاً قبـلنـا[2] ... ثمّ أفـنـاهـا الـذي صوّرهـا
في سبيلِ الله ما أغـفـلَنـا ... نأمـنُ الـدنـيا ومـا أغْـدَرَهـا
إنّـمـا الـدنيا كفيءٍ[3] زائـلٍ ... أحْـمَـدُ الله كذا قدّرهـا

ومن أمثال العرب: «من حدّث نَفْسَهُ بطولِ البقاء فليوطِّنْ نَفْسَهُ على المصائب»[4]. ومن أمثالهم أيضاً: «هوّنْ عليكَ ولا تُولَع بإشفاق»[5].

---

(١) ـ ديوان أبي العتاهية ٢٠٩.

(٢) ـ في الديوان: مثلنا.

(٣) ـ في الديوان: كظلّ.

(٤) ـ فصل المقال: ٢٤٣، مجمع الأمثال ٢ / ٢٧٤.

(٥) ـ فصل المقال ٢٤٢، مجمع الأمثال ٢ / ٤٠٤، وهو من شعر تأبّط شراً، وصدره:

إنّي أقول إذا ما خُلّةٌ صرمت

وفي مجمع الأمثال أن هذا المثل صدرُ بيتٍ عَجزُهُ: فإنّما مالنا للوارثِ الباقي

وورد هذا الشطر صدراً في بهجة المجالس ٢ / ٣٢١ منسوباً ليزيد بن خذّاق العبدي.

وحكى الأصمعيّ قولهم: «إنّ في الشرِّ خياراً»[1] قال[2]: ومعناه أنّ بَعضَ الشرّ أهونُ من بعض.

وهذا كلُّه من وجه التأسّي، وقد نظمه أبو خراش[3] فقال[4]:

حَمِدْتُ إلهي بعد عُرْوَةَ إذْ نجا ... خراشٌ وبعضُ الشرِّ أهْوَنُ مِنْ بَعْضِ
بلى إنّها تعفو الكلومِ وإنّما ... يُوَكّل* بالأدنى وإنْ جَلَّ ما يمضي

وقال أبو خراش يرثي أخاه عروة[5]:

تقول[**] أراه بعد عُرْوَةَ لاهياً ... وذلكَ رُزْء لو علمتِ جليلُ
فلا تحسبي أني تناسيْتُ عهده[***] ... ولكنّ صبري يا أُمَيْمَ جميلُ
ألم تعلمي أنْ قد تَفَرّقَ قبلنا ... نديما صفاء مالكٌ وعقيلُ[6]

---

(١) ـ فصل المقال ٢٤٤، مجمع الأمثال ١ / ١١.

(٢) ـ مجمع الأمثال ١ / ١١.

(٣) ـ أبو خراش خويلد بن مرّة الهذلي، شاعر فحل مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام فأسلم ومات في خلافة عمر بن الخطاب، نهشته أفعى فمات. (الأغاني ٢١ / ٢٠٥ ـ ٢٢٨، الشعر والشعراء ٤١٨).

(٤) ـ البيتان في الأغاني ٢١ / ٢١٨، الشعر والشعراء ٤١٨، حماسة أبي تمام ١ / ٣٢٦، الكامل للمبرّد ٢ / ١٨٢.

* ـ في الأغاني: نوكّل.

(٥) ـ الأبيات في الأغاني ٢١ / ٢٢٢، فصل المقال ٢٥٨.

** ـ في الأغاني: وقالت.

*** ـ في الأغاني: فقده.

(٦) ـ مالك وعقيل نديما جُذَيمة الأبرش وبهما يُضرب المثل في التلازم وطول الألفة. (فصل المقال ٢٥٧ ـ ٢٥٨).

وقال العتّابي[1]:

قُلْتُ للفرقَدَيْنِ والليلُ مُلْقٍ سُودَ أكنافِهِ على الآفاق

(ص ٣٠١)

ابقيا ما بَقيتُما سَوْفَ يُرمىٰ بين شخصيكُما بِسَهْم الفراقِ[2]

وممّا يرشد إلى التأسّي قوله تعالى: ﴿وما جعلْنا لِبَشرٍ مِنْ قَبْلِكَ الخُلْدَ أفإنْ مِتَّ فَهُمُ الخَالِدون، كلُّ نَفسٍ ذائِقَةُ الموتِ ونَبْلُوكُمْ بالشَّرِّ والخَيْرِ فِتْنَةً وإِلَيْنا تُرْجَعُون﴾[3] لمواجهة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. فهذا الخطابُ من حُسْنِ التسلية وفضلِ التلطّف ما دلَّ على شرفِ المنزلةِ واعتلاء القَدْر وجلالةِ الرتبةِ واعتلاء الشأن. وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذائقَةُ الموْتِ وإنّما تُوفَّوْنَ أجُورَكُمْ يَوْمَ القيامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وأُدْخِلَ الجَنَّةَ فَقَدْ فازَ وَمَا الحياةُ الدُّنْيا إلاّ متاعُ الغُرور﴾[4]. فتأمّل هذه القضيّة المسوّرة بـ «كلّ» في الآيتين الكريمتين، فإنها توقظ من الغفلة، وتنبّه لسلوكِ سُبُلِ السلوة، فإنّ البقاء في هذه الدارِ الفانية، إذا كان لا مَطْمَعَ فيه لأحدٍ، فعلامَ الجَزَعُ من شيءٍ لا بدّ منه؟! وفي توطين النَّفسِ على ملاقاةِ الأمورِ التي لا انفكاك عنها تخفيضٌ من المشقة الباهظة[5].

وفي قوله: ﴿وإنّما تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ القِيامَةِ﴾ إلى آخر الآية، إرشادٌ لما ينبغي أن يَعْلَقَ القلبُ به، وتَتَخَوَّفَ النفْسُ منه، فإنّ الآخرةَ التي منها يوم القيامة،

---

(١) ـ كلثوم بن عمرو العتّابي الشاعر المشهور من أهل قنسرين، قدم بغداد ومدح هارون الرشيد، وكان كذلك خطيباً ومترسلاً وكان معتزلياً وانقطع للبرامكة. (الأغاني ١٣ / ١٠٨، تاريخ بغداد ١٢ / ٤٨٨، طبقات الشعراء لابن المعتز ٢٦١، الشعر والشعراء ٥٤٩، معجم الشعراء للمرزباني ٣٥١، معجم الأدباء ١٧ / ٢٦، وفيات الأعيان ٤ / ١٢٢).

(٢) ـ ورد البيتان في فصل المقال ٢٥٩.

(٣) ـ الآيتان ٣٤ ـ ٣٥ من سورة الأنبياء.

(٤) ـ الآية ١٨٥ من سورة آل عمران.

(٥) ـ في الأصل: الباهضة.

الذي[1] توفّى فيه الأجور، على طرف النقيضِ من الحياة الدنيا التي هي متاعُ الغُرور. والفائز الذي أُدْخِلَ الجَنَّةَ وزُحْزِحَ عن النار، شاهدة بأنّ من كان على ضدّ حالته في غايةِ الخَسار، قال الله: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾[2].

وقال ابنُ مناذر[3]:

وأرانا كالزرعِ يَحْصُدُهُ الدهْرُ ... فَمِنْ بين قائمٍ وحَصيد
وكأنّا للموْتِ ركبٌ مُكِبّونَ ... سِراعٌ لمنهلٍ مَوْرودِ[4]

وقال[5]:

نحنُ بنو الدنيا فما بالُنا ... نعافُ ما لا بُدَّ من شربِهِ
تبخَلُ أيدينا بأرواحِنا ... على زمانٍ هُنَّ مِنْ كَسْبِهِ
فهذهِ الأرواحُ من جوّهِ ... وهذهِ الأبدانُ مِنْ تُرْبِهِ
يموتُ راعي الشاءِ في جَهْلِهِ ... مِيتةَ جالينوسَ في طِبِّهِ

وحكى أبو العتاهية قال: ماتت بنتٌ للمهدي، فحزنَ عليها حُزْناً شديداً، حتى امتنع من الطعام، فقلت أبياتاً أعزّيه فيها، فوافيْتُه فيها، وقد سلا وضحك

(1) ـ في الأصل: التي.

(2) ـ الآية ١٥ من سورة الزمر.

(3) ـ هو محمد بن مناذر مولى بني صبير بن يربوع، يكنى أبا جعفر وأبا عبد الله وأبا ذريح، بصريّ قدم بغداد وتنسك فعاد إلى البصرة، وهو شاعر وإمام في اللغة، كان أول حياته صوفياً ثم عدل عن ذلك وهجا الناس وتهتك وخلع، وقذف أهلَ البصرة فنُفِي إلى الحجاز، ومات سنة ١٩٨ هـ. (الأغاني ١٨ / ١٦٨ ـ ٢١٠، الشعر والشعراء ٥٥٣ ـ ٥٥٥، معجم الأدباء ١٩ / ٥٥ ـ ٦٠، الوافي بالوفيات ٥ / ٦٣، طبقات ابن المعتز ١١٩ ـ ١٢٥، التعازي والمراثي ٣٠٦).

(4) ـ البيت الأول في الأغاني ١٨ / ٢٠٠، والبيت الثاني في طبقات ابن المعتز ١٢٣ (من مرثية طويلة).

(5) ـ هذه الأبيات من قصيدة للمتنبي قالها في رثاء عمّة عضد الدولة ببغداد (انظر ديوان المتنبي ص ٦٠٩).

وأكل (ص ٣٠٢) وهو يقول: «لا بُدَّ من الصبرِ على ما لا بُدَّ لنا منه، ولئن سَلَوْنا عمّن فقدناه ليسلُوَنّ عنّا من يَفْقِدُنا، وما يأتي الليلُ والنهارُ على شيء إلّا أبلياه». فلما سمعتُ هذا منه قلت: يا أمير المؤمنين أتأذنُ لي أن أُنشِدَكَ؟ قال: هات. فأنشدتُه[1]:

ما للجديدَيْنِ لا يبلى اختلافُهما وكلُّ غضٍّ جديدٍ فيهما بالٍ؟!
يا مَنْ سلا عن حبيبٍ بعد ميتته كم بَعْدَ موتِكَ أيضاً عنك من سالٍ؟!
فإنّ* كلَّ نعيمٍ أنت ذائقُهُ من لذّةِ العيْشِ يَحْكي لمعةَ الآلِ
لا تَلْعَبَنَّ بك الدُنيا وأنتَ ترى ما شئتَ من عِبَرٍ فيها وأمثالِ
ما حيلةُ الموتِ إلّا كلُّ صالحةٍ أوْ لا فما حيلةٌ فيها لمحتالِ

فقال لي: أحسنْتَ ويحك، وأصبْتَ ما في نفسي، وَعَظْتَ وأوجزت. ثم أمر لي بكل بيت بألفِ درهم. انتهت[2].

وفي الحديث: «إن الله تعالى يبغضُ الذي لَمْ يُرزأ في نَفْسِهِ وماله»[3].

وقال تاجُ الدين[4] ـ رضي الله عنه ـ في حِكَمه[5] «ليخفِّفْ عنك البلاء عِلْمُك بأنه سبحانه هو المبتلي لك، فالذي واجهتكَ منه الأقدار، هو الذي عوّدك حسن الاختيار»[6].

---

(١) ـ ديوان أبي العتاهية ٣٢٨ ـ ٣٢٩.

* ـ في الديوان: كأنّ.

(٢) ـ انظر القصة والأبيات في ديوان أبي العتاهية ٣٢٨ ـ ٣٢٩، الأغاني ٤ / ٧٢.

(٣) ـ لم أجد هذا الحديث في مصادر الحديث النبويّ التي لديّ، وفي إحياء علوم الدين ٤ / ١٩٦ «إذا أحب الله عبداً ابتلاه».

(٤) ـ ابن عطاء الله الإسكندري وقد سلفت ترجمته.

(٥) ـ حكم ابن عطاء الله (شرح أحمد زرّوق، تحقيق د. عبد الحليم محمود ود. محمود بن الشريف، ط. طرابلس).

(٦) ـ حكم ابن عطاء الله ص ٢٠٤.

وقال موسى الهادي لابراهيم بن قتيبة[1]، وقد توفّيَ له ابن، فجزِع، وحزِن عليه حزناً شديداً: يا ابراهيمُ أسرّكَ وهو عدوٌّ وفتنة، وأحزنك وهو صلاةٌ ورحمة؟! فقال: يا أميرَ المؤمنين، ما بقي منّي جزءٌ كان فيه حزنٌ إلّا قد امتلأ فرحاً، ولا عضوٌ فيه ذلّ إلّا قد اكتسى بك عزّاً[2].

ومثل ذلك ما كتب به رجلٌ إلى بعضِ إخوانه يعزّيه بابنه: «أمّا بعد، فإنّ الولدَ على والدِه ما عاش حُزْنٌ وفتنة، فإذا قدمه فصلاةٌ ورحمة، فلا تجزع على ما فاتك من حزنه، ولا تضيّعْ ما عوّضك الله من صلاته ورحمته».

وعزّى رجلٌ رجلاً فقال: «عليكَ بتقوى اللهِ والصبرِ فيه، يأخذ المحتسب، وإليه يرجع الجازع»[3].

وعزّى رجلٌ رجلاً فقال: «أينَ من كان لك في الآخرةِ أجراً كبيراً ممّن كان لك في الدنيا سرورا؟!».

ودخل بعضُ البلغاء على أحَدِ الأمراء، وقد ماتَ له ولد، ووُلِد له آخر، فقال: «أيّها الأمير سَرّكَ الله فيما ساءك، ولا ساءك فيما سرّك، وجعل ذلك للأجر وهذا للشكر»[4].

وحكي أنّ الشافعيّ بلغَهُ أنّ عَبْدَ الرحمن بن محمد ـ رحمه الله ـ مات له ابنٌ فجزِعَ عليه عبد الرحمن جَزَعاً شديداً، فبعث إليه الشافعيُّ: «يا أخي عزِّ نَفْسَكَ بما تعزّي به غيرك، واسْتَقْبح من فِعْلِكَ ما تَسْتَقْبِحُ من فِعلِ غيرك، واعلم أنّ بعضَ المصائِب فقْدُ سرور وحرمانُ أجر، فكيفَ إذا اجتمعا مع

---

(١) ـ في التعازي والمراثي: لابراهيم بن سلْم، وفي عيون الأخبار: عزّى موسى بن المهدي سليمانَ بن أبي جعفر عن ابن له.

(٢) ـ الخبر في التعازي والمراثي ٢٠٦، العقد الفريد ٣ / ٢٢٩ ـ ٢٣٠، عيون الأخبار ٣ / ٥٤، ربيع الأبرار ٤ / ١٨٤.

(٣) ـ العقد الفريد ٣ / ٢٢٦، وبهجة المجالس ٢ / ٣٥٩ منسوباً لعليّ بن أبي طالب.

(٤) ـ العقد الفريد ٣ / ٢٣١ (عبد الملك بن صالح يعزّي هارون الرشيد).

اكتساب وِزْر؟! (ص ٣٠٣) فتأمّل لحظَّك يا أخي إذا قَرُبَ منكَ قبل أن تطلبه وقد نأى عنك، ألْهَمَكَ الله عند المصائبِ صبراً، وأحْرَزَ لك بالصبرِ أجْراً» وكتب إليه[1]:

إنّي معــزّيكَ لا إنّي على ثِقــةٍ ... من الـخلود ولكنْ سُنّــةُ الــدِينِ
فمــا المعــزّى بـباقٍ بَعْـدَ ميّتِهِ ... ولا المعزّي وإن عاشَا إلى حين[2]

وعن الحسن البصريّ ـ رحمه الله ـ أنّ رجلاً جزِعَ على ولده، وشكا ذلك إليه فقال: كان ابنُك يَغيبُ عنك؟ قال: نعم كانت غيبته أكثر من حضوره. قال: فأنْزِلْهُ غائباً، فإنّه لم يَغِبْ عنك غيبةُ إلاّ أجرٌ[3] لك فيها أعظم من هذه فقال: يا أبا سعيد، هوّنْتَ عليّ وَجْدي على ابني[4].

وقام عمرُ بن عبد العزيز على قبر ابنه عبد الملك فقال: «رحمك الله يا بنيّ، فقد كنتَ بارّاً مولوداً، وباراً ناشئاً، وما أُحِبُّ أني دعوتك فأجبتني». وإنّ في هذه القضيّةِ من التحقيقِ بالرضا، والتفويضِ لله فيما قضى ما لا يصدُر إلاّ عن مثلِ عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله [عنه][5].

وعن مسلمة[6] قال: لمّا ماتَ عبدُ الملك بن عمر كشف أبوه عن وجهه وقال: رحِمَكَ الله يا بُنيّ، وقد سُرِرْتُ بكَ يوم بُشِّرْتُ بك، ولقد عُمِرْتُ سروراً بك، وما أتتْ عليّ ساعةٌ أنا فيها أسَرُّ من ساعتي هذه، لما رأيتُ إن كنت تدعو أباك إلى الجنة». انتهت[7].

---

(١) ـ البيتان في معجم الأدباء ١٧ / ٣٠٨، ديوان الشافعي ص ٨٧.
(٢) ـ البيتان في معجم الأدباء وفي ديوان الشافعي وردا دون مناسبة.
(٣) ـ في الأصل: الأجر.
(٤) ـ العقد الفريد ٣ / ٢٢٩.
(٥) ـ سقطت من الأصل.
(٦) ـ مسلمة بن عبد الله بن محارب الفهري البصري النحوي.
(٧) ـ التعازي والمراثي ٥٨ ـ ٥٩.

وهذا نحو ما تقدّم عنه ـ رضي الله عنه ـ في النقلِ قبله من التسليم لله في حكمه، والرضا بما سبق في علمه، والذكر، ليقيده بأشرف مناقبه، وأكرم محاسنه.

والشيء قد يُتَذكّر بنقيضه كما يُتَذَكّر له بنظيره. مات للعُتبيّ[1] ابنٌ، فجاءه بعضُ مُعاشِريه يعزّيه فقال: «رحِمَ الله ابنك، فواللهِ ما حبّس دوراً، ولا ردّ تحيّة، ولا تبرّم من رطل، ولا فرَّ من دعوةٍ، ولا سَبَقَ إلى جذر علام[2]، ولا صغى في قمار، ولا عربد على جليس» فقال العتبي: والله لقد سلّيتني عنه. انتهت. ويحقّ أن يُتسلّى عمّن هذه صفته.

وحُكِيَ انَّ الفضلَ بن سهل أصيبَ بابن له يقال له العبّاس، فجزع عليه جزعاً شديداً وعزّاه الناسُ فيه فلم يَتَعَزَّ، فدخل عليه ابراهيمُ بن موسى بن جعفر العلويّ فقال له لمّا مثل بين يديه:

خيرٌ من العبّاسِ أجْرُكَ بَعْدَهُ ... والله خيرٌ مِنْك للعبّاسِ

قال: صدقت. ووصله، وتعزّى.

ولمّا ماتت دريرة جاريةُ المعتضد، وكانت مكينةً عنده، جزِع عليها جزعاً شديداً، فقال له عبيدُ الله بنُ سليمان[3]، مثلك يا أميرَ المؤمنين تهونُ عليه المصائبُ، لأنّك تجد من كلّ فقيدٍ خلفا، وتنالُ جميعَ ما تريد (ص ٣٠٤) من العِوض، والعِوَضُ لا يوجد منك، فلا ابتلى الله الإسلامَ بفقدك، وعمره يطولُ ببقاء عُمرِك، وكأنَّ الشاعرَ عنى أميرَ المؤمنين بقوله:

يُبْكَى عَلَيْنا ولا نبكي على أحدٍ ... لَنَحْنُ أغْلَظُ أكباداً من الإبِلِ

فضحك المعتضِدُ وتسلّى وعاد إلى عادته.

---

(١) ـ أبو عبد الرحمن محمد بن عبيد الله بن عمرو بن معاوية بن عتبة بن أبي سفيان، الشاعر، وقد أسلفنا التعريف به.

(٢) ـ كذا في الأصل.

(٣) ـ وزير المعتضد العبّاسي، توفي سنة ٢٨٩ هـ (البداية والنهاية ١١ / ٩٧ ـ ٩٨).

وقيل لأعرابيّ: إنكَ تموتُ. فقال: إلى أين يُصارُ بي؟ قيل: إلى الله تعالى. قال: وما لي أكْرَهُ مَنْ لم أرَ الخيرَ قَطُّ إلاّ من عِنْدِهِ[1]!

وقال عبدُ الله بنُ الزبير لمّا بلغه قتلُ أخيه المصعب: «بعد حمدِ اللهِ والثناء عليه والصلاةِ على نبيّه محمد صلّى الله عليه وسلّم، إنه أتانا خَبَرُ قَتْلِ المصعب، فَسُرِرْنا واكتأبنا، فأمّا السرورُ فلِما قُدِّر له من الشهادة، وخُيِّرَ له من الثواب، وأمّا الكآبةُ فلوعة يجدها الحميمُ عند فراق حميمه، فإنّا واللهِ ما نموتُ موتاً جبحاً، كميتة ابنِ أبي العاصي، وإنّما نموت قتْلاً بالرماح، وقَعْصاً تحتَ ظلالِ السيوف، فإن هلك المصعب، فإنّ في آل الزبيرِ خَلَفاً». انتهت[2].

والتجلّدُ في أمثالِ هذه النوائبِ من شِيَمِ الرجال وأوصافِ الكمال، وبه تقلّ شماتةُ الأعداء وحسرةُ الأودّاء. قال أبو ذؤيب الهذلي[3]:

وتَجلُّدي للشّامِتينَ أُريهُم ... أنّي لِرَيْبِ الدّهْرِ لا أتَضَعْضَعُ
والنفسُ راغبةٌ إذا رغّبتَها ... وإذا تُرَدُّ إلى قليلٍ تَقْنَعُ
وإذا المنيّةُ أنشبت أظفارَها ... ألفيت كلّ تميمةٍ لا تنفعُ[4]

---

(١) ـ ربيع الأبرار ٤ / ١٨٣.

(٢) ـ انظر هذه الخطبة في الأغاني ١٩ / ١٣٠ وهي أوفى مما هنا.

(٣) ـ أبو ذؤيب خويلد بن خالد بن محرث بن زبيد الهذلي، شاعر فحل مخضرم أسلم وحسن إسلامه، هلك أبناؤه الخمسة بمرض الطاعون في عام واحد فبكاهم جميعاً بشعره، أما أبو ذؤيب فقد توفي في طريق عودته من غزو الروم (طبقات فحول الشعراء ١ / ١٢٣، ١٣١، الأغاني ٦ / ٢٦٤، جمهرة أشعار العرب ٥٣٤، المؤتلف والمختلف ١١٩، الشعر والشعراء ٤١٣، معجم الأدباء ١١ / ٨٣).

(٤) ـ هذه الأبيات من قصيدة شهيرة لأبي ذؤيب قالها في رثاء أبنائه الخمسة (انظر تخريج القصيدة في حاشية المفضليات ص ٤٢٠ ـ ٤٢١) وانظر الأبيات الثلاثة في: المفضليات ٤٢٢، جمهرة أشعار العرب ٥٣٦، معجم الأدباء ١١ / ٨٨.

وقال بدرُ الكبير[1] مولى المعتضِدِ لمّا أرادوا قتله: «ما أحدٌ أعظمَ عندي من المكتفي، أمّا أبوه فألحَقني بِشَرَفِ الدنيا وأمّا هو فأوْجَبَ لي الجنّة» يريد أنه قتله بريئاً.

وفي الحكايةِ عمّن نزل به الموتُ فَصَبَر، تثبيتٌ للنفوسِ وتشجيعٌ للقلوب. قال أبو العتاهية: حبسني الرشيدُ[2] لمّا تركتُ قوْلَ الشعر، حسبما ثبت النقلُ عنه، قال: فأُدْخِلْتُ في السجن وأُغْلِقَ البابُ عليّ، فدهشتُ كما يدهش مثلي لتلك الحال، فإذا أنا برجُلٍ جالسٍ في جانب الحبس مقيّد، فجعلتُ أنظر إليه ساعةً وهو ينظر إليّ، ثم تمثّل:

تَعـوَّدْتُ مسَّ[3] الضُـرِّ حتى أَلِفْتُهُ وأسْلَمَني حُسْنُ العـزاء إلى الصَّبْرِ
وصَـيَّرنـي يأسي مِنَ النـاسِ راجياً بِحُسْنِ[4] صنيعِ اللهِ من حيثُ لا أدْري

فقلت له: أعِدْ، أعزّكَ الله، هذين البيتين. فقال: «ويلك أبا العتاهية ما أسوأ أدَبَكَ، وأقلَّ عقْلَكَ، دخلتَ عليّ السجنَ، فمّا سلّمتَ تسليم المُسْلِم على المُسْلِم، ولا سألت مسألةَ الحُرّ للحُرّ، ولا ترجّعتَ ترجُّعَ المبتلى للمُبْتلى، حتى إذا سمعت شيئاً من الشِعْر، الذي لا فَضْلَ فيك غيره، ولم تَصْبِرْ عن استعادتهما (ص ٣٠٥) ولم تقدّم قبل مسألتِنا عنهما عُذْراً لنفْسِكَ في طلبهما!» فقلت: يا أخي إنّي دهشتُ لهذا الحال، واعذِرْني متفضّلاً بذلك. فقال: أنا والله أوْلى بالدهشة والحيرة منك، لأنّك حبست أن تقول شعراً به ارتفعت وبلغت، فإذا قُلْتَ أمِنْتَ، وأنا مأخوذٌ بأن أدلّ على ابنِ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم وابنِه ليُقْتَلَ أو أُقْتَلَ دونه، والله لا أدلّ عليه أبداً، والساعةَ يُدعى بي فأُقتل، فأيّنا بالدهش أحقّ؟! فقلت: أنتَ والله ـ سلّمك الله وكفاك ـ ولو علمتُ

---

(١) ـ بدر مولى المعتضد ومقدّم جيوشه، طلبه المكتفي فتخوّف، وأرسل إليه أمانا وغدر به وقتله صبْراً سنة ٢٨٩ هـ (مروج الذهب ٤ / ٢٧٦، الوافي بالوفيات ١٠ / ٩٤).

(٢) ـ في الفرج بعد الشدة ٢ / ١١٦ أن الذي أمر بحبس أبي العتاهية هو الخليفة المهدي.

(٣) ـ في الأغاني: مرّ.

(٤) ـ في الأغاني: لحسن.

أنَّ هذه حالك ما سألتك. قال: فلا تبخل إذاً. ثم أعادَ البيتين حتى حفظتهما. قال: فسألتُه من هو، فقال: أنا حاضر داعيةُ عيسى بنِ زيد[1] وابنه أحمد. ولم نلبث أن سَمِعْنا صوت الأقفال، فقام فسكب عليه ماء كان عنده في جرّة، ولبس ثوباً نظيفاً، ودخل الحرسُ والجندُ معهم الشمع، فأُخْرِجنا جميعاً، وقُدِّم قبلي إلى الرشيد، فسأله عن أحمد بن عيسى، فقال: لا تسألني عنه واصنع ما أنتَ صانع، فلو أنه تحت ثوبي هذا ما كَشَفْتُهُ عنه. فأمر بضرب عنقه، ثم قال: أظنّك قد ارتعْتَ يا اسماعيل؟ فقلت: دون ما رأيت تسيل منه النفوس. فقال: رُدُّوه إلى مَحْبَسه. واستحسنْتُ البيتين وزدتُ فيهما:

إذا أنا لَمْ أقْبَلْ من الدهرِ كُلَّما تكرَّهْتُ منه طالَ عَتْبِي على الدَّهْرِ[2]

فاعجبْ من جميلِ صَبْرِ هذا الرجل، ووفائِهِ مع صاحِبِه، والموتُ لا بُدَّ منه.

ومن عجيبِ ما قيل في وَصْفِ الموت قولُ منصورِ الفقيه[3]:

قد قلْتُ إذْ مدحوا الحياةَ فأسْرَفوا: في الموتِ ألْفُ فَضِيلةٍ لا تُعْرَفُ
منها أمانُ لِقائِهِ بِلِقَائِهِ وَفِراقُ كُلِّ مُعاشِرٍ لا يُنْصِفُ[4]

وله أو لغيره في مثل ذلك[5]:

---

(١) ـ أبو يحيى عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ولد ونشأ بالمدينة المنوّرة، واشترك مع محمد بن عبد الله بن الحسن (النفس الزكيّة) بالثورة على المنصور، وطلبه المهدي فلم يقدر عليه، ومات بالكوفة سنة ١٦٨ هـ (المعارف لابن قتيبة ٢١٦، ٥٠٩).

(٢) ـ وردت القصّة في الأغاني ٤ / ٩٢، والفرج بعد الشدّة (٢ / ١١٦ ـ ١١٩) ووفيات الأعيان ١ / ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

(٣) ـ أبو الحسن منصور بن اسماعيل بن عمر بن أبي الحسن التميمي المصري الشافعي الفقيه الضرير توفي سنة ٣٠٦ هـ بمصر (معجم الشعراء للمرزباني ص ٣٧٣، نكت الهميان ٢٩٧، الفهرست ٢٦٥، معجم الأدباء ١٩ / ١٨٥).

(٤) ـ البيتان في معجم الأدباء ١٩ / ١٨٩، وتحسين القبيح ٧٤.

(٥) ـ البيتان في تحسين القبيح للثعالبي ص ٧٤ وقدم لهما بقوله ص ٧٣:
وقال بعض الشعراء، وهو مسارع . .

جزى اللهُ عنّا الموتَ خيراً فإنّه أبرُّ بنا مِنْ والِدينا[1] وأرأفُ
يعجِّلُ تخليصَ النفوسِ من الأذى ويُدْني من الدارِ التي هي أشرَفُ

ولصالح بنِ شريف[2] في الموت[3]:

الموتُ سرُّ اللهِ في خلْقِهِ وحكمةٌ دلَّتْ على قَهْرِهِ
ما أصعَبَ الموْتَ وما بَعْدَهُ لَوْ فكّر الإنسانُ في أمرِهِ
أيامُ طاعاتِ الفتى وَحْدَها هي التي تُحْسَبُ من عُمْرِهِ
لا تُلْهِكَ الدُنيا ولذّاتُها عن نَهْيِ مَوْلاكَ ولا أمْرِهِ
وانظُرْ إلى مَنْ مُلْكَ الأرضَ هَلْ صَحَّ لَهُ مِنْها سِوى قَبْرِهِ!!

(ص ٣٠٦) فإن كان المفقودُ شيئاً جعل الله عنه عِوَضاً، وخَلَقَ له برحمتِهِ منه بَدَلاً، كأحدِ المزدوجين، كالعينين مثلاً، أو اليدين، فإنَّ الأمرَ في ذلك أخفُّ، والأسَفُ بسبب ذلك العِوَض أقلّ.

ولمّا قَطَع عروةُ بنُ الزبير[4] رِجْلَه من أكِلَةٍ(*) أصابته دخل عليه عيسى

---

(١) ـ في تحسين القبيح: أبرّ بنا من كل برّ.

(٢) ـ أبو البقاء (أبو الطيب) صالح بن يزيد بن صالح بن شريف الرُّنْدي، صاحب القصيدة الشهيرة في رثاء الأندلس، وهو شاعر وناثر وله مؤلفات، أصله من رُندة وكان يتردد كثيراً على غرناطة واتصل بمحمد بن الأحمر، مولده سنة ٦٠١ هـ وكانت وفاته سنة ٦٨٤ هـ (الإحاطة ٣ / ٣٦٠ ـ ٣٧٦، الذيل والتكملة ٤ / ١٣٦ ـ ١٤٣، الوافي بالوفيات ١٦ / ٢٧٧، نفح الطيب ٤ / ٤٨٦ ـ ٤٩٠).

(٣) ـ الأبيات في الإحاطة ٣ / ٧٣.

(٤) ـ عروة بن الزبير بن العوّام (٢٢ ـ ٩٣ هـ) أحد الفقهاء السبعة بالمدينة، وهو شقيق عبد الله بن الزبير، وقعت في رجله أكِلة عندما قدم على الوليد بن عبد الملك، فأشار عليه الوليد بقطعها، فقطعها بالمنشار وهو شيخ كبير (التعازي والمراثي ٥٤، حلية الأولياء ٢ / ١٧٦، وفيات الأعيان ٣ / ٢٥٥، والمعارف ١٨٦، ٢٢١ ـ ٢٢٢).

* ـ الأكِلَةُ: داء في العضو يأتَكِلُ منه (القاموس المحيط: أكل).

ابنُ طلحة بن عبيد الله[1] فقال له: واللهِ ما كنّا نعدّك للصراع يا أبا عبد الله، ذَهَبَ أهونُك علينا، وبقي أكثرك لنا، وأحبّك إلينا، أبقى الله سَمْعَكَ وبَصَرَكَ ولسانَكَ وعقلَكَ ويديْكَ وإحدى رجليك. قال: يا عيسى، ما عزّاني أحدٌ بمثل ما عزّيتني به[2].

فإن كان إحدى العينيْن ففي الباقية غِنىً عن الذاهبة، ولهذا يقول الحكماء «إنّ كَوْنَ العينيْنَ مُزْدَوَجَيْن، إنّما هو لمعنى الاستظهار لما يَطْرُقُ إحداهما من آفة، فيكون في السالمةِ خلفٌ منها» ولهذا يُقال في المثل: «وَمَنْ للعَمى بالعَوَر». وربما حُسِّنَتْ مصيبةُ فَقْدِهما بمثلِ قول الشاعر[3]:

وَرُبَّما اغْتَبَطَ الأعمى بحالَتِهِ ... لأنَّه قَدْ نجا مِنْ طرَّةِ العَوَرِ

وفي مثل هذا يُقال: لكلّ مقامٍ مقال. والتلافي في هذه الصورةِ من الندور، بحيث عُدَّ للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم معجزةً من الآيات التي أظهر الله تعالى على يديه في ردِّ عين قتادة[4] ـ رضي الله عنه ـ بعد أن سالتْ على خدّه، فكانت أحْسَنَ عَيْنَيْه، والقضيّة مشهورة[5].

فإن طرقَ مثلُ هذا في الأذُنَيْن، فالنعمةُ في الباقية أتمّ، والرحمةُ في سَتْر

---

(١) ـ كان ناسكاً، وفد إلى عبد الملك بن مروان فكلمه في عزل الحجاج بن يوسف حتى عزله عن الحجاز، كان أبوه طلحة بن عبيد الله من المهاجرين الأولين ومن العشرة المسمين للجنة (المعارف ٢٣٢).

(٢) ـ انظر خبر تعزيته في: التعازي والمراثي ص ٥٥ (بالمعنى)، حلية الأولياء ٢ / ١٧٩.

(٣) ـ التمثيل والمحاضرة ٣٢٤، الغيث المسجم ٢ / ٣٨٧ (وفي الغيث المسجم منسوب لأبي عثمان الخالدي).

(٤) ـ قتادة بن النعمان، صحابيّ، كان يدافع عن الرسول صلى الله عليه وسلم يوم أحد، فأصابه سهم في عينه، فحملها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدعا له الرسول قائلاً: «اللهم إن قتادة فدى وجه نبيّك بوجهه فاجعلها أحسن عينيه وأحدّهما نظراً» فكانت كذلك (نكت الهميان ٣٨، المعارف ٢٦٨، ٤٦٦).

(٥) ـ نكت الهميان ٣٨.

النقص أعمّ، لأنّ فَقْدَ السَّمْعِ من إحدى الأذنينْ لا يشين، وليس في ذهابه منها ذهاب ما يزين.

فإن كان كالصمَمِ ففي ما أبقى الله من البَصَرِ، على القول بأنه أشرف من السمع، تسْلِية، وفي ما يُدْرَكُ من النظر بالإشارةِ التي تُفْهِمُهُ معنى ما فقد إحساسُه غِنىً، فإنْ منّ الله عليه بمعرفةِ القراءةِ فقد يُغْنيه ذلك بعضَ الغناء، حتى يمكنه تعرُّف الأمورِ على وَجْه الإسرار[1] الذي هو من أفضل حالات الإدراك السمعي.

فإن كان الابتلاء بمثلِ بطلانِ شمٍّ أو نُقصانِ لَمْسٍ أو سقوطِ سنّ، فالأمرُ أهوَنُ، واعتمادُ الصبرِ والتسلّي أبْيَنُ، وما بقي من الحواسّ، أنفعُ وأزين.

ولمّا شقّ على معاويةَ ـ رضي الله عنه ـ سقوطُ مقادِم فيه، قال له يزيدُ ابن معن السالمي[2]: «والله ما بَلَغَ أحدٌ سِنَّك إلّا ابغضَ بعضُه بعضاً، ففوك أهْوَنُ عليك من سَمْعِكَ وبَصَرِك» فطابت نفسه[3].

وإذا كان الصبرُ والتسلّي مطلوباً ومُجْدِياً في فوْتِ النفْس الذي ليس منها عِوَض، فأحرى أن يكونَ ذلك آكَدَ طَلَباً وأكْثَرَ فائدةً، في فقد عُضْوٍ من الأعضاء، وقوّةٍ من القوى، أو في المرض المُزْمِن ما كان، لما في الباقي من بعد الذاهب من العِوَضِ عنه، كالعمى مثلاً، فإنّ فيما أبقى الله من سَمْعٍ ولَمْسٍ وذَوْقٍ وشَمٍّ، إذا تُؤمِّل بقاؤه ـ وقد كان من الممكن ذهابُه كالعينين ـ وجد فيه (ص ٣٠٧) من النعم ما لا يؤدّى شكرها، ولا يُستطاعُ حَصْرُها، وفَوْقَ الصَّبْرِ وما بعده درجة الرضا.

يحكى أنه لمّا قدِم سَعْدُ بنُ أبي وقّاص مكّة، وقد كفّ بصرُه، أسرع إليه الناسُ يسألونه الدعاء، وكان مُجابَ الدعوة، فجعل يدعو لهذا ولهذا،

---

(١) ـ هكذا في الأصل.

(٢) ـ في عيون الأخبار: يزيد بن معمر السلمي.

(٣) ـ البيان والتبيين ١ / ٤٥، عيون الأخبار ٣ / ٥٢.

فقيل له: أنت مُجابُ الدعوة، وأنت تدعو للناس، فلو دعوتَ لنفسك لردَّ الله عليْكَ بَصَرَكَ. فتبسّم وقال: قضاء الله عندي أحسَنُ من بصري. انتهت[1].
ومَن مِثْلُ سعد ـ رضي الله عنه ـ في هذا المقام الأشرف! أفاض الله علينا من بركاته.

وليتحفَّظ المُبْتَلى بشيءٍ من هذه البلايا أن يتمنّى الموتَ بسبب ذلك، لِما ورد في الصحيحيْن عن أنَس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: **«لا يتمنَّيَن أحَدُكُم الموتَ من ضُرٍّ أصابه، فإنْ كان لا بُدَّ فاعلاً فليَقُلْ اللهم أحْيِني ما كانت الحياةُ خَيْراً لي، وتَوَفَّنِي إذا كانتْ الوفاةُ خيراً لي»**[2].

وللتأسّي في ذلك قال بعضُ قريش، وكان أعمى[3]:

وخَيْرُ دائِـكَ داء لا تُسَـبُّ بِهِ ... ولا تَبِـيتُ تَمـنَّـى لَذَّةَ الـوَسَـنِ
داءٌ كريمٌ ولا عَدْوى فتـحـذَرُهُ ... والـحـمـدُ لله ذي الآلاء والمِنَنِ

وقال بشّار بن برد[4]:

قالـوا: الـعَـمَى مَنْـظَرٌ قَبيحٌ ... قُلْتُ: بِفَـقْـدي لَكُـمْ يَهُـونُ
واللهِ ما في الـبـلادِ شيءٌ ... تأسَـى على فَقْـدِهِ الـعُـيُون

كأنّه أخذ هذا المعنى من قول أوْسِ بنِ حجر[5] لابنه في وصيّة أوصاه بها: «وذهابُ البَصَرِ خيرٌ من شَرِّ النَظَر». ولِبشّار أيضاً[6]:

---

(١) ـ إحياء علوم الدين ٤ / ٣٥٠.

(٢) ـ صحيح مسلم ٨ / ٦٤.

(٣) ـ ورد البيتان في كتاب: البرصان والعرجان والعميان والحولان للجاحظ ص ١٠.

(٤) ـ نكت الهميان ٧٥.

(٥) ـ أوس بن حجر بن مالك التميمي، أبو شريح، شاعر تميم في الجاهلية، وهو زوج أم زهير بن أبي سلمى، له ديوان شعر (الأغاني ١١ / ٧٠، الشعر والشعراء ٩٩، طبقات فحول الشعراء ١ / ٩٧ ـ ٩٨).

(٦) ـ نكت الهميان ٧٥ ـ ٧٦.

إذا وُلِدَ المولودُ أعْمى وَجَدْتَهُ   وَجدِّكَ أهدى من بصيرٍ وأحْوَلا
عميتُ جَنيناً والذكاء من العَمى   يُجيبُ عجيبَ الظنِّ للعِلْمِ معقلا
وغاضَ ضِياء العَيْن للُّبِّ رافداً   وقلبٍ إذا ما ضَيَّعَ الناسُ حَصَّلا
وشِعْرٍ كنَوْر الرَّوْضِ لاءمْتُ بينَهُ   بقَوْلٍ إذا ما أحْزَنَ الشِعرُ أسْهَلا

والتدارُكُ أيضاً في هذه الصورةِ من الندور، بحيث لا يُعَدُّ إلّا كرامةً لوليّ من أولياء الله المشهوري الولاية، الثابتي الكرامة، وهي أنموذجٌ من معجزات النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عند القائلين بها وهم الأكثر، كما حَكى في تاريخ بغداد[1] في اسم الإمام محمد بن اسماعيل البُخاري[2] ـ رضي الله عنه ـ فإنّه قال فيه: «وذَهَبتْ عينا محمد بن اسماعيل في صِغَرِه، فرأتْ والدتُه النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم، فقال: يا هذه، قد رَدَّ الله إلى ابنك بَصَرَهُ، لكثرةِ بُكائِكِ، ولكثرة دعائك». قال: «فأصبح، فردّ الله بصره عليه»[3]. (ص ٣٠٨) وهذه كرامةٌ ظاهرة. ومثلُ البخاري ـ رضي الله عنه ـ يُكْرِمُهُ الله بهذا ليكونَ آيةً في الذبِّ عن سُنَّةِ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم. وقد لا يَبْعُدُ وجودُ نوعٍ من هذا لبعضِ الناس في هذه الأوقات. والغالب عليه ـ والله أعلم ـ أن يكون مرضُ المُبْتَلى ممّا لم يَسْتَحْكِمْ جدّاً، كنزولِ الماء الأزرق، فيأتي الله بالشفاء بسببٍ من الأسبابِ الظاهرة أو دونه، فالله غالبٌ على أمره. وإذا كان كذلك فهو ممّا يندرِجُ تحتَ الصورةِ قَبْلَها، فيكون ممكنَ الزوال. وتبقى مثل قضيّة البخاريّ متمكنةً تحت هذه الصورة، والله أعلم.

ثم يترقّى من ذلكَ إلى بقاء نِعْمةِ العَقْل، التي بها يتميّزُ الإنسانُ من سائر الحيوان، فإنّها نعمةٌ تفضلُ جميعَ الحواسّ إذا فُرِضَ فقدُها. قال رسول

---

(١) ـ تاريخ بغداد ٢ / ١٠.

(٢) ـ أبو عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة الجعفي البخاري الإمام في علم الحديث، صاحب الجامع الصحيح، رحل في طلب العلم إلى سائر محدّثي الأمصار، وكتب بخراسان والجبال ومدن العراق كلها والحجاز والشام ومصر، مولده سنة ١٩٤ هـ وتوفي سنة ٢٥٦ هـ (تاريخ بغداد ٢ / ٤ ـ ٣٤، وفيات الأعيان ٤ / ١٨٨، الوافي بالوفيات ٢ / ٢٠٦).

(٣) ـ تاريخ بغداد ٢ / ١٠.

الله صلّى الله عليه وسلّم: «إن لله حُجّتين: ظاهرةً وباطنة، فأمّا الظاهرةُ فالأنبياء، وأمّا الباطنةُ فالعقل». قال بعضهم: «ولولا العقلُ الذي بانَ به ذوو التمييز من ذوي الجهلِ لما كان بينَ الإنسان وبينَ سائرِ الحيوانِ فرقٌ في تولّدٍ ولا نموٍّ ولا حركةٍ ولا هدي ولا أكلٍ ولا شربٍ ولا تصرّفٍ ولا تقلّبٍ، لأنّ البهائمَ شركاؤه في ذلك، فبالعقل تُنال الفضيلةُ، وهو عِنْدَ اللهِ أقربُ الوسيلة، والعقلُ سِرٌّ من الله في خليقته، ووديعتهُ العظمى في بريّته، والموهبةُ الجليلةُ مِنْ عنده، والمعنى الذي من أجْلِه تولّى خَلْقَ آدمَ بيده، .وأحمدُ الناسِ عند الحكماء أصحُّهم عَقْلاً».

وقال أفلاطون: «كلُّ فضيلةٍ إنما يُنْتِجُها العَقْلُ، وكلُّ رذيلةٍ إنّما يُنْتِجُها الجهل، فانظروا مِقْدار هذه النعمة، وهل يعدلها ممّا فُرِضَ فَقْدُه شَيْء» قال الله تعالى: ﴿إنَّ شَرَّ الدَّوابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ البُكْمُ الّذِينَ لا يَعْقِلُون﴾[1]. وفي الحديث: «إنَّ الله تعالى لمّا خَلَقَ الخلْقَ ثمّ العَقْلَ ثم استنطقه ثمّ قال له: اقبِلْ، فأقْبَلَ، ثم قال له: ادبِرْ، فأدْبَرَ، فقال: وعزّتي وجلاليَ ما خلقْتُ خَلْقاً هو أحبُّ إليّ منك، ولا أكملتكَ إلاّ فيمن أُحبّ، أما انّي إيّاك آمُرُ وأنهى وبك آخُذُ وأُعطي»[2]. وقال فيروز[3]: «إذا أراد الله أن يُزيلَ عن عبده نعمة فأوّل ما يزيلُ عنه العقل».

ثمّ يترقّى من ذلك إلى بقاء نعمة الاسلام، فهنالك يخِفُّ كل ثقيلٍ من الآلام، ويصْغُرُ كلُّ عظيمٍ من الأسْقام، إذا كانت الحياةُ الدنيا زائلةً مضمحلّة وكلُّ ما فيها من ألم وإنْ أوجع، أو رُزْء وإن أفْزَعَ، فإنّ ذلك كلّه ينتهي إلى أمَدٍ قريب وأجَلٍ غيرِ بعيد، وإنّما الرزيّةُ كلُّ الرزيّةِ مَنْ سُلِبَ حليةَ الإيمان وكان

---

(١) ـ الآية ٢٢ من سورة الأنفال.

(٢) ـ كتاب الأذكياء لابن الجوزي ص ٨.

(٣) ـ لعله فيروز حصين، من العجم، أسلم وكان مولىً لحصين بن عبد الله العنبري التميمي أيام الحجّاج بن يوسف، وكان فيروز شجاعاً جواداً بعيد الهمّة (التذكرة الحمدونية ٢ / ٦١ - ٦٢).

ـ والعياذ بالله ـ على غير الإسلام، فإذا عُظمَتْ المصائب، وترادَفتِ النوائبُ، فلن يُوجَدَ في التسليةِ عنها كالاستمساكِ من الإيمان بالعُرْوةِ الوُثقى، واللجأ من منّةِ التوحيد (ص ٣٠٩) إلى المُعْتَصَمِ الأوقى، لأنّ في فَقْدِهِ ـ والعياذُ بالله ـ الخيبة التي لا فَوْزَ فيها، والهلاكَ الذي لا منجاةَ وراءه، وفي طُموسِ نُوره[1] الظلمةُ التي لا يَعْقُبُها صَباح، والخسارةُ التي لا يمكن بعدها رباح. قال الله تعالى: ﴿وقَدْ خابَ من حَمَل ظُلْماً﴾[2] مع قوله: ﴿إنَّ الشِرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[3] وقال تعالى: ﴿وإنْ* يُهْلِكُونَ إلَّا أنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[4] وقال تعالى: ﴿والَّذِينَ كَفَرُوا أوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إلى الظُّلُماتِ﴾[5] وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أنْفُسَهُمْ وأهْلِيهِمْ يَوْمَ القيامَةِ ألا ذَلِكَ هُوَ الخُسْرانُ المُبِين﴾[6].

فإن كان الابتلاء في الصحّةِ بالمرضِ المُزْمِنِ وما أشبه ذلك، فالصحّةُ إحدى النعمتين المغبونِ فيهما كثيرٌ من الناس، وما أعظمَها من نعمةٍ، وأجلَّها من مِنّة، ولكنّها إذا قُويِسَتْ بالأجْرِ الموْعودِ به، والمثوبةِ المرجوّة بفَقْدِها، واستحضر فناء هذه الدار العاجلة، وبقاء تلك الدار الآجلة، فربّما يخِفُّ على المبتَلى حالُه، وتنبسط إلى ما عندَ الله آمالُه. قال سهلُ بنُ هارون[7]: «التهنئةُ

---

(١) ـ في الأصل: نور.

(٢) ـ الآية ١١١ من سورة طه.

(٣) ـ الآية ١٣ من سورة لقمان.

* ـ في الأصل: وما.

(٤) ـ من الآية ٢٦ من سورة الأنعام.

(٥) ـ الآية ٢٥٧ من سورة البقرة.

(٦) ـ الآية ١٥ من سورة الزمر.

(٧) ـ أبو عمرو سهل بن هارون بن الهيون بن راهيون الدستميساني، انتقل إلى البصرة واتصل بالمأمون، وتولّى خزانة الحكمة، وكان شاعراً بليغاً حكيماً مترسّلاً قاصّاً وله مؤلفات، ت ٢١٥ هـ (الفهرست ١٣٣، معجم الأدباء ١١ / ٢٦٦، فوات الوفيات ٢ / ٨٤، الوافي بالوفيات ١٦ / ١٨).

بآجِلِ الثوابِ أوْلى من التعْزِيَةِ بعاجِلِ المُصيبة»[1].

وفي قَصْدِ التسلّي عن المرَضِ المُزْمن يقولُ جُزْء بن قيس[2] لما شاع فيه البرص فقيل له: ما هذا؟ قال: سَيْفُ الله حلّاه[3]. قال الجاحظ: هكذا يقول أهلُ الحجاز، ويقولُ أهْلُ العراق: «سَيْفُ الله جلّاه» بالجيم[4]. وفي نحوٍ من ذلك يقول ابن جبلة وكان أبرص[5]:

والنـاسُ كالخَيْلِ إنْ ذُمُّـوا وإن مُدِحـوا
وذو الشِيَات كذي الأوْضـاحِ[6] في الناسِ

قال: يقولونَ فرسٌ كريم، فرسٌ جوادٌ، فرسٌ رائعٌ، فَرَس عتيقٌ، وليست هذه الأسمـاء الكـريمةُ إلّا للإنسان والفَرَس. وفي ذلك القصد يقول مُعانِدُ بنُ الجدّ[7]، وكان أبرص[8]:

وَمَـا أنـا بِالبَـهيم فَتُنْكِـرُوني
ولا غُفْـل الإهـابِ من الـوُشُـومِ

وزعم أبو نواس أنّهم كانوا يتبرّكون به[9].

ومن هذه الأمراض المُزمنة ما يتداركُ الله فيه بالفَرَجِ كرامةً لوليٍّ أو ما

(١) ـ بهجة المجالس ٢ / ٢٥٧، العقد الفريد ٣ / ٢٣٣، عيون الأخبار ٣ / ٥٣.

(٢) ـ في ربيع الأبرار: بلعاء بن قيس.

(٣) ـ ورد هذا القول في ربيع الأبرار ٤ / ١١٥.

(٤) ـ ربيع الأبرار ٤ / ١١٥.

(٥) ـ عليّ بن جبلة المعروف بالعَكَوَّك، شاعر قتله المأمون سنة ٢١٣ هـ (تاريخ بغداد ١١ / ٣٥٩، البرصان والعرجان للجاحظ ٨٦، الأغاني ٢٠ / ١٣) وانظر البيت في ديوانه ص ١٤١.

(٦) ـ الأوضاح جمع وَضَحْ وهو البَرَصْ (القاموس المحيط: وضح).

(٧) ـ هكذا ورد اسمه في الأصل، ولعله مصحف عن: معاوية بن حزن بن موالة المُحَجّل المشار إليه في حاشية معجم الشعراء للمرزباني ص ٣٩٥.

(٨) ـ ورد البيت في البرصان والعرجان للجاحظ ص ٢١ منسوباً لمعاوية بن حزن.

(٩) ـ ربيع الأبرار ٤ / ١١٥.

أشبه ذلك، كما سبق في حكايةِ البخاريّ على نُدور ذلك، ولكنّ فيه راحةً للمبتلين، لتأنُس النَّفْسِ بالرجاء في ذلك النادر الغريب، كالمُقْعَدَةِ المتوسّلةِ بالرجلِ الصالحِ حَسْبما حكى الجوزيّ[1] في مورده العذب فإنه قال: قال يحيى بن الجلّاء[2]ـ رحمه الله: سمعتُ أبي يقول: كنتُ عند معروفٍ الكرخي[3] (ص ٣١٠) في مَجْلِسِه، فدخلَ عليه رجلٌ فقال: يا أبا محفوظ، رأيتُ في هذه الليلةِ عَجَباً. قال: وما رأيتَ رحمك الله؟ قال: اشْتَهى عليّ أهْلي سمكاً، فذهبتُ إلى السوقِ فاشتريتُ لهم سَمَكَةً، وحَمَلها لي حمّال، فسمعَ أذانَ الظُهر فقال: يا عمّ هل لك أن تصلّي؟ فكأنه أيقظني من غفلةٍ، فقلت: نعم. فوضع السمكة، ودخلَ المسجدَ، فلم يزل يركعُ إلى أن أُقيمَتْ الصلاةُ، وصلّيْنا جماعةً، وركع بعد الصلاةِ وخرجْنا، وإذا بالسمكةِ في موضِعها فحملَها إلى البيت، وحَدَّثْتُ أهلي بما رأيتُ من محافظتِه على صلاته، فقالوا: قُلْ له يجلِسْ حتى يأكُلَ معنا من هذه السمكة. فأخبرتُهُ بذلك، فقال: إنّي صائم. قلت له: فافطِرْ عندنا. قال: نعم. فمرَّ إلى المسجِدِ، وجَلَسَ إلى أن صلّينا المغرب، فقلت له: يرحمُكَ الله، قُمْ بنا نفطر. فقال: خَلّني حتى أصلّيَ العِشاء الآخرة. فتعجّبت من حاله، إلى أن صلّيْنا العشاء الآخرة، وانصرفَ معي إلى منزلي، وكان في المنزلِ ثلاثةُ أبيات: بيتٌ فيه أنا وأهلي، وبيتٌ فيه صبيّةٌ مُقْعَدَةٌ خُلِقَتْ كذلك لها أكثرُ من عشرين سنة، وبيتٌ ثالثٌ أدْخَلْتُ فيه الضيف، فتعشّى عندنا، وتركتُهُ في البيت، وسرتُ إلى أهلي، فلما كان آخر الليلِ سمعتُ الصبيّةَ المُقْعَدَةَ تدقُّ عليّ الباب، وإذا هي قائمةٌ على قَدَمَيْها، فسألتُها عن حالها، فقالت: سَمِعْتُكُمْ تذكرونَ صلاحَ ضيفِكُمْ فوقَعَ في نفسي أن توسّلتُ إلى اللهِ تعالى به، فأطْلَقَ الله أسْري، وجئتكم على

---

(١) ـ أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي (٥١٠ ـ ٥٩٧ هـ) صاحب التآليف الكثيرة (وفيات الأعيان ٣ / ١٤٠).

(٢) ـ من أعلام المتصوّفة، صحب بشر بن الحارث (ترجمته في تاريخ بغداد ١٤ / ٢٠٤).

(٣) ـ ترجمته في حلية الأولياء ٨ / ٣٦٠، طبقات الصوفية ٨٣ واسمه أبو محفوظ معروف ابن فيروز

قدميّ. قال: فطلبتُ الضيفَ في البيتِ فلم أجِدْه[1]. نفع الله بأمثاله، ولا خفاء بأنّ هذه من الكرامات.

وعن بعضِهِمْ قال: كانت لي أمٌّ مقعدة نحو عشرين سنة، فقالت لي: اذهب إلى أحْمد بن حنبل، فإنه يدعُو الله لي. فوقفْتُ على بابه، فقال: من هذا؟ قلت: رجلٌ من ذلك الجانب، سألتني أمّي، وهي زَمِنَةٌ مقعدةٌ، أن أسألَكَ أن تدعُوَ الله لها. فسمعت كلامَهُ كلامَ رَجُلٍ مُغْضَبٍ، وقال: نحنُ أحوجُ إلى أن تَدْعُوَ الله لنا. فولّيتُ منصرفاً، فخرجتْ عجوزٌ من داره، قالت: أنت الذي كلّمْتَهُ؟ قلتُ: نعم. قالت: قد تركْتُهُ يدعو الله لها. قال: فجئتُ من فَوْري، فدقَقْتُ الباب، فخرجت على رِجلَيْها تَمْشي، وقالت: قد وهب الله لي العافية. انتهت[2]. وهذه من جنس ما سبقها.

وقال آخر: كانَتْ لي امرأةٌ، فأُقْعِدَتْ، فسألَتْني أن أسألَ لها الكانشي في الدعاء (ص ٣١١) فأتيته فلم أجده، فطلبته، فلقيتُ أبا أحمدَ الطرابلسي المتعبِّد، فسألته عنه، فأشارَ لي إلى أنّه تحت جرف على البحرِ يصلّي، ثم سألني فأخبرته بخبر المرأة، فقال لي: فَرّج الله عنها، وأتاها بالفرجِ من حيثُ لا تدري ولا تظنّ. فسرتُ إلى الكانشيّ فوجدتُهُ يصلّي، وذلك ضحوةً، فطوّل الصلاةَ إلى الظهر، فناديته[3]، وقلت: حانَتْ صلاة الظُّهْر. فأوْجزْ. فلمّا سلّم قال لي: الأمرُ الذي جئتَ فيه قُضي في ذِمام الطرابلسيّ. فقلتُ: وما هو؟ قال: خَبَرُ المرأة ولقيت الطرابلسيّ فدعا لها. قلت: نعم! قال: قد عُوفيَتْ في ذِمام الطرابلسي. فجئتُ زوجتي فوجدتُها قائمةً تصلّي، فعجبتُ من الأمر، ثم لَقِيتُهُ فسألتُهُ عن هذا الأمر، فقال لي: هو نورٌ يجعله الله في القلوب، فينطق من يشاء بما يشاء. انتهت.

---

(١) ـ وردت الحكاية في طبقات الأولياء لابن الملقن ص ٨٥ ـ ٨٦، الرسالة القشيرية ص ٢٢١.

(٢) ـ وردت الحكاية في حلية الأولياء ٩ / ١٨٦ ـ ١٨٧.

(٣) ـ في الأصل: فحاديته.

ومعلومٌ أنّ هذا وما تَقَدَّمَهُ، من قبيلِ ما مَنَّ الله به على أوليائه ومن قبلهم من الكرامات، التي هي انموذجٌ من مُعْجِزاتِ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وعلى حسب الاقتداء به يُظْهِرُها الله على يديْ من يشاء من أهلِ اختصاصه.

وقد عدّد الشيخُ عزُّ الدين بنُ عبد السلام[1] ـ رضي الله عنه ـ للمصائب والرزايا، والمِحَنِ والبلايا، جُمْلَةَ فوائد، أَوْصَلَها إلى نحو سبع عشرةَ فائدةً، تشتمل من قَصْدِ التسليةِ على ما لا إشكالَ فيه، جعل منها: معرفة عزِّ الربوبيّة وقهرها، ومعرفة ذلِّ العبوديّةِ وقَسْرِها، والتضرّع، والدعاء والإخلاص فيه، والحِلْم عمّن صدرت عنه المصيبة، والعفو عن جانيها، والفرح بها لأجل فوائدها، والشُكْر عليها لما تضمّنت من الفوائد، وتمحيصها للذنوبِ والخطايا، ورحمة أهلِ البلايا، ومساعدتِهِمْ على بلواهم، ومعرفة قدْرِ العافيةِ والشكر عليها، وثواب الآخرة على اختلاف مراتبه، وما في طيّها من الفوائدِ الخفيّةِ، ومنعها من الأشَرِ والبَطَرِ والفَخْرِ والخُيَلاء والتَكَبُّر والتجبّر، والرضا الذي هو أفضلُ من الجنّةَ وما فيها، لقوله عزّ وجلّ: ﴿وَرِضْوانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾[2].

واستدلّ الشيخُ رحمه الله على ما سطّر من هذه الفوائد[3] بدلائل ظاهرة واستنباطاتٍ واضحة، فمن أرادَ الوُقوفَ عليها، فهي مِنْ أعجبِ ما يُسْتَشْرَفُ إليه في هذا المعنى.

والذي ينبغي أن يُشَدَّ عليه يدُ الضِنّةِ هو التَسْليمُ لله سبحانه [و] وتعالى في جاري حُكْمِهِ، وماضي قَدَرِهِ، ونافِذِ قضائه، والتفويضُ له فيما أراد، بعد

---

(١) ـ أسلفت الترجمة به في حاشية سابقة.

(٢) ـ الآية ٧٢ من سورة التوبة.

(٣) ـ لعزّ الدين بن عبد السلام رسالة اسمها «فوائد البلوى والمحن» وهي لا تتعدى الورقتين ذكر فيها الفوائد التي يجنيها المسلم من جرّاء إصابته بالبلايا والرزايا والمحن، وذكر سبع عشرة فائدة، وتوجد نسخة مخطوطة من هذه الرسالة في معهد المخطوطات تحمل رقم (٤٩٧ توحيد) (وانظر: الإمام العزّ بن عبد السلام وأثره في الفقه الإسلامي، تأليف الدكتور علي الفقير ١ / ٢٦٢).

التحقيقِ لقاعدة الإيمانِ بالقَدَرِ خيره وشـرِّه، حُلْوِه ومُرِّه، وانّ ما أصابَ العبدَ لـم يَكُنْ ليخطئه، وما أخطأهُ لـم يَكُنْ ليصيبَهُ، فإنّه إذا صحّ هذا العقدُ دونَ تردُّدٍ فيه، ولا شكٍّ، لقول النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «**ولا تَقُلْ لو أنّي فَعَلْتُ كذا لكان كذا ولكِنْ قل قَدَّرَ الله وما شاء فعل فإنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشيطان**»[1] (ص ٣١٢) فمن تمامِ صحّته أنْ يسلّم في كلّ ما وَقَعَ، ويفوِّضَ إلى الله فيما به حَكَم، فإنّه أيضاً إذا تأمّل أنّ ذلك الحادثَ الواقعَ به كان من الله، وأنّه الذي قدّره وقضاه، وأنّه الجاري على وفقِ مشيئته، والمطابقُ لمقتضى إرادته، فإنْ كان بالنفْسِ قوةٌ لتحمّله على ما هو عليه، وتجرُّعِهِ إن كانَ مرّاً على جنسيه، فذلك أوْلى ما يتلقّى به أمْرَ مولاه، إذا أمّل في باطِنِه أمْراً أو أموراً لو اطّلع عليها لآثر مقتضى ما جَرَتْ به الأقدار، ولَعَلِمَ أنّها له حسنُ الاختيار.

كالذي يُحكى في قضيّةِ الرجُل الذي كان يقول في كلِّ أمرٍ يقع له: «لعلها خيرة». واتّفق له موتُ الديك والكلبِ والحمار في ليلةٍ واحدة، وفي موتِ كلِّ واحدٍ من هؤلاء الأشياء قال لعلها خيرة. واتّفق في تلك الليلة تبيُّت[2] قريةِ سكناه، فاستُدِلَّ على غَيْرِهِ بصوتِ كلِّ ما فَقَدَهُ هو، وسَلِمَ هو وأهلُه لعدمِ صَوْتِ ما استُدِلَّ به على غَيْرِه*، وهذا هو مقتضى قوله: ﴿**فَعَسى**[**] **أنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ الله فيه خَيْراً كثيراً**﴾[3]. وفي هذا المعنى يقول أبو الصلت[4]:

---

(١) ـ صحيح مسلم ٨ / ٥٦، مسند ابن حنبل ٢ / ٣٦٦، ٣٧٠.

(٢) ـ بيّت العدوُّ: أوقع بهم ليلاً، وبيَّتَ الأمرَ: دبَّره ليلاً (القاموس المحيط).

* ـ وردت هذه الحكاية في كتاب التنوير ص ١١.

** ـ في الأصل: وعسى.

(٣) ـ من الآية ١٩ ـ من سورة النساء.

(٤) ـ الحكيم أبو الصلت أميّة بن عبد العزيز الداني (٤٦٠ ـ ٥٢٩ هـ) شاعر أندلسي، ولد بدانية وهاجر إلى مصر ومدح الفاطميين، وتوفي بالمهديّة (عيون الأنباء ١ ٥٠١، معجم الأدباء ٧ / ٥٢، الخريدة ١ / ٢٢٣، وفيات الأعيان ١ / ٢٤٣) والبيتان في ديوانه ص ١٥٧، تحفة القادم، تحقيق الدكتور إحسان عباس، ص ١٣.

تجـري الأمـورُ على حُكْمِ القَضـاء وفي
طَيِّ الـحـوادِثِ مَحْـبُـوبٌ وَمَـكْـرُوهُ
وَرُبَّـمـا سرَّنـي ما كنـتُ أحْـذَرُهُ
وَرُبَّـمـا ساءنـي ما بِتُّ أرْجُـوهُ

وفي هذا المعنى كتب الوزيرُ الكاتب أبو القاسم بن الجدّ [1] إلى الوزير أبي القاسم بن الهوزني [2] إثْرَ قُدومه من حضرةِ ابن تاشفين من رُقْعةٍ نصُّها [3]:

كم [4] نِعْمـةٍ لا تَسْتَقِلّ [5] بشكرها — لله [6] في طَيِّ الـمكـارِهِ كامِنَـة

وقـد يُجنى [7] ـ أعزّك الله ـ مِنْ شَجَرِ المساءة ثَمَرُ المسرّة، ويُجْتَلى وَجْهُ المحبوبِ غبَّ المكروه مشرقَ الأسِرّة، وربّما تجهَّمَ القَدَرُ وضميرُهُ مُبْتَسِمْ، وتصلَّبَ الزمانُ وعقده محتشِمْ، وإنما ننظرُ [8] إلى مواقع الأقدارِ في الإصدار، ونَحْمَدُ مجاريَ الأعمال، عند المآل، وفي هذه المقدّمةِ دلالةٌ على النُبوّة التي ما اعْتَكَرَ جُنْحُها، إلّا ريثما أسْفَرَ صُبْحُها، ولا نَعَبَ بالبُعْد غُرابُها، حتى التفتَ إلى سانحِ السَّعْد ركابُها، ولا استطارَ لها في قلب الوليّ صَدْعٌ، حتى اشتَمَلَ منها على أنْفِ العدوّ جَدْعٌ، وما ذاك إلّا أنّ سلطانَ الحقِّ أنْجدَكَ وأيَّدكَ، وبرهان الفَضْلِ قامَ مَعَكَ وأطال يَدَكَ، وحاشا للعِلْمِ أن يُلْبِسَ حامله خُمولا،

---

(١) ـ أبو القاسم محمد بن عبد الله بن الجدّ الفهري، ولي الوزارة للراضي بن المعتمد في رُندة، ثم كتب لعليّ بن يوسف بن تاشفين، كان شاعراً وكاتباً وفقيهاً، توفي سنة ٥١٥ هـ (الخريدة ٢ / ٣٥٧، قلائد العقيان ١٢٣، الذخيرة ق ٢ م ١ ص ٢٨٥، المطرب ١٩٠).

(٢) ـ أبو القاسم الحسن بن عمر الهوزني الإشبيلي (٤٣٥ ـ ٥١٢ هـ) سعى في فساد دولة بني عبّاد، كان أديباً وفقيهاً (الصلة ١ / ١٣٩، ترتيب المدارك ٤ / ٨٢٦).

(٣) ـ الرقعة والبيت وردا في الذخيرة ق ٢ م ١ ص٢٩١.

(٤) ـ في الذخيرة: وكم.

(٥) ـ في الذخيرة: يُستقل.

(٦) ـ في الذخيرة: إلى الله.

(٧) ـ في الذخيرة: قد يُجتنى.

(٨) ـ في الذخيرة: يُنظر.

أو يخب[1] له نَحْوَ الإدالة حُمولا ، يوشك[2] إن ما استقلّت[3] بك أيدي الإثار[4]، في صَدْرِ العِثار، وخاصمتْ عنك ألسُنُ السُنَن، عوارضَ المِحَن، وما سِرْتَ إلّا وظلُّ الكرامةِ عليك[5] ظليل، وصُنْعُ الله لك رَسِيل، وبكَ كَفِيل، فلئِنْ أوْحَشَ مَسِيرُك، لقد آنَسَ ظُهورُك، (ولئن سَمَحَ اغترابُك، لقد حَسُنَ اقترابُك)[6]، ولئِنْ سَخِنَتْ[7] العينُ بعدك، لقد بيَّن البَيْنُ فَقْدَك، والحمدُ[8] لله الذي أوشك مَقْدَمَكَ (ص ٣١٣) وأعلى قدمك، ورفع في كلِّ مكرمة ومأثرةٍ عَلَمَكَ، وإيّاه تعالى نسألُ[9] أن يُهنّئك ويهنّيء بك عارفة السلامة، ويبقيك بعيدَ الصيتِ، رفيع القدر، في الظعن والإقامة، ولولا تردُّدي في عقابيل رِبع[10] لزمَتْ جسمي شُهورا، واتخذتْهُ رَبْعاً معْمورا، لما اسْتنبت في التهنئة خِطابا، ولحثثتُ نحوك ركابا، وأنتَ بسرْوِكَ تُوسِعُ العُذْرَ قبولا، وتقْبَلُه وَجْهاً جميلا»*.

وإن لم يكن بالنفس قوةً على تحمّله على ما هو عليه ولا تجرُّع مرارته على حسبها، وترجح عنده نظره لنفسه في كونِ هذا ابتلاءً على الحقيقة، لا يستطيعُ استمرارَ حاله عليه، فالأولى أن يلجأ في صرفه عنه، إلى من حَكَمَ به عليه، ويتضرّعَ في راحته منه إلى من أتى بِمَكْروهِهِ إليه، فمن العمل الذي

(١) ـ في الذخيرة: يحثّ.

(٢) ـ في الذخيرة: فوشكان.

(٣) ـ في الأصل: استنبلت، والتصويب من الذخيرة.

(٤) ـ في الذخيرة: الآثار.

(٥) ـ في الذخيرة: عنك.

(٦) ـ ما بين القوسين جاء في الذخيرة على النحو التالي: «ولئن حَسُن اقترابُك، لقد سمح اغترابُك».

(٧) ـ في الأصل: سخنها، والتصويب من الذخيرة.

(٨) ـ في الذخيرة: فالحمد.

(٩) ـ في الذخيرة: أسأل.

(١٠) ـ في الذخيرة: عقابل رِبْع، والربع هي حُمّى الربع.

* ـ الرسالة في الذخيرة ق ٢ م ١ ص ٣٩١ ـ ٣٩٢.

ترجِعُ إليه طبيعةُ من ابتُلِيَ من الناس بضربٍ أو امتحانٍ من مثله من أبناء جنسه، فإنّه بالعادةِ إليه يَخْشَعُ، ومنه يَطْلُبُ، وإياه يستعطف في صرف ما أصابه من التعذيب[1] عنه، ورفعِ ما نزل به من الضُرِّ منه، وكثيراً ما يعلم أنه لا يُغْني عنه في ذلك لكونه مأموراً بغيره أو مصرّفياً[2] لسواه.

والأولى لمن يعلم أنّ الذي أصابه إنّما هو من اللهِ أن يبتهل إليه في كَشْفِهِ، ويتضرّعَ إليه في صَرْفِهِ. ومن المعلوم الذي لايتمارى فيه أحد، ولايشكُّ فيه إلّا من لا يُؤمنُ أنّ الله تعالى يُجير ولا يُجارُ عليه، وإذا أراد صرف الضرّ فلا يقدر غيرُه على أن يَضُرّ، وإذا أراد كَشْفَ السوء فلا يستطيعُ سواه أن يسوء، كما أنّه إذا أرادَ، بعبدِه خيراً، أو منحه عزّاً، فلا قدرةَ لأحدٍ على إزالته، ولا تغيير حالته. قال الله تعالى: ﴿وإنْ يَمْسَسْكَ الله بِضُرٍّ فلا كاشفَ له إلّا هُوَ، وإنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ، يُصيبُ بِهِ من يشاءُ مِنْ عِبادِهِ، وَهُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[3].

والأولى لمن ينزِلُ به تمحيصٌ، أو يلحقُه ابتلاء، أن يدعُوَ الله تعالى بالأدعية الجامعة، التي لا تعيّنُ للعبدِ اختياراً، ولا تخصّصُ له اقتراحاً، فقد تأتي الفائدةُ من قِبَلِ المكروه، وقد تحصُلُ الراحةُ بسبب التعب، والاستقراء في الدعوات النبويّة يشهدُ لهذا المعنى كقوله: «وأصلح لي شأني كُلَّه»[4] وقوله: «اللهمَّ إنّا نسألُكَ من خيرِ ما سألك منه محمدٌ نبيُّك صلّى الله عليه وسلّم، ونعوذُ بكَ من شرِّ ما استعاذَ منه نبيُّك محمّدٌ صلّى الله عليه وسلّم، وأنْتَ المستعانُ وعليك التكلان»[5] وقوله: «اللهمَّ اصلح لي ديني الذي هو عصمةُ أمري، وأصلحْ لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلحْ لي آخرتي التي فيها معادي،

---

(١) ـ كذا في الأصل، ولعلها التغريب.

(٢) ـ كذا في الأصل.

(٣) ـ الآية ١٠٧ من سورة يونس.

(٤) ـ مسند ابن حنبل ٥ / ٤٢، ٢٥٣.

(٥) ـ سنن الترمذي ١٢ / ٣٠٣.

واجعلْ الحياةَ زيادةً لي في كلِّ خير، واجعلْ الموتَ راحةً لي من كلِّ شرّ»[١] وقوله صلّى الله عليه وسلّم: (ص ٣١٤) «اللهمَّ أحيني ما كانَت الحياةُ خيْراً لي، وتوفّني إذا كانت الوفاةُ خيراً لي»[٢]. وقول الله تعالى: ﴿رَبَّنا آتِنا في الدُّنْيا حَسَنَةً وفي الآخِرَةِ حَسَنَةً وقِنَا عَذابَ النَّارِ﴾[٣].

فأنت ترى هذه الدعواتِ لم تتعرّضْ لتخيُّر وَجْهٍ بعينه، ولا تطلّبِ قصدٍ بخصوصه، ما لم يتعيّنْ كونُ القصدِ المطلوبِ صرفُه شرّاً مَحْضاً، كقوله: ﴿ربَّنا اصْرِفْ عنّا عذابَ جَهَنَّمَ إنَّ عَذابَها كانَ غراماً﴾[٤] وقوله صلّى الله عليه وسلّم: «اللهمّ إني أعوذُ بك من الكُفْر والفَقْر والدَّيْنِ وغَلَبةِ الرجال»[٥] وقوله صلّى الله عليه وسلّم: «اللهمّ إنّا نعوذُ بك من جهدِ البلاء، وَدَرْكِ الشقاء، وسُوءِ القضاء، وشماتَةِ الأعداء»[٦] وكقوله: «اللهمّ إنّي أعوذُ بكَ من عِلْمٍ لا ينفع، وقلبٍ لا يَخْشَع، ونَفْسٍ لا تَشْبَع، ودعوةٍ لا يُستجاب لها»[٧].

أو يكونُ القصْدُ المطلوبُ خَيْراً مَحْضاً، كقوله تعالى: ﴿واجْعَلْني مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعيم﴾[٨]. وأمثالُ ذلك في السُّنَّةِ كثير، وفيما ذكرته كفاية.

وليكُنْ على بالٍ ممّن لحقه الابتلاء، أو أدركه التمحيصُ، أنّه على فرض سلامته ممّا ابتلي به، ذاهب إلى الهَرَمِ، مرتحِلٌ مع الساعاتِ إلى المشيب، فيخفض ذلك من ابتلائه، ويعلم أنّه لو عُوفيَ من هذا التمحيص،

---

(١) ـ صحيح مسلم ٨ / ٨١، عمل اليوم والليلة ٤٩.

(٢) ـ صحيح مسلم ٨ / ٦٤.

(٣) ـ من الآية ٢٠١ من سورة البقرة.

(٤) ـ الآية ٦٥ من سورة الفرقان.

(٥) ـ عمل اليوم والليلة ص ٢٥.

(٦) ـ صحيح مسلم ٨ / ٧٦.

(٧) ـ صحيح مسلم ٨ /٨٢.

(٨) ـ الآية ٨٥ من سورة الشعراء.

وفي الأصل: واجعلني من ورثة جنة النعيم، واغفر لي خطيئتي يوم الدين.

فإنّ نذيرَ الشَّيْبِ من ورائه. ولذلك قال عليُّ بن جبلة[1] في هذا المنحى:[2]

وأرى الليالي ما طَوَتْ مِنْ شِدّتي ... رَدَّتْــهُ في عِظَتي وفي إفْهـامي
وعَلِمْتُ أنَّ المَـرْءِ مِنْ سَتْرِ الرّدَى ... حَيْثُ الرَّمِيَّةُ مِنْ سِهـامِ الـرامي

وإنما خلع المشيب صبغةَ الشباب ليكونَ النذيرَ العريان بحُلولِ الموت، وقد سمّى الله تعالى الموتَ مصيبةً، فهي إذاً أعظمُ المصائب، وأوجعُ النوائب، ولا حيلةَ فيه إلّا الصبرُ والاسترجاع. قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «ما مِنْ مسلمٍ تُصِيبُه مصيبةٌ، فيقولُ ما أمَرَ الله به: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، اللهمّ آجِرْني في مصيبتي واخلفْ لي خَيْراً منها، إلّا آجَرَهُ الله وأخْلَفَهُ خَيْراً منها»[3].

[وعلى][4] المبتلى بشيءٍ من هذه التمحيصاتِ الكتْم لأمْـره وعـدم الشكـوى إلّا لربّه. ويشهَدُ لذلك ما نُقِلَ عن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال الواقدي[5] ومصعب بن عبد الله[6]: كان مالكٌ يحضر المسجد ويشهد الجمعاتِ والجنائز، ويعودُ المرضى ويجيبُ الدعوة، ويقضي الحقوقَ، وربّما ترك الجلوسَ في المسجد، وكان يصلّي وينصرف، ثم تركَ عيادةَ المرضى وشهودَ الجنائز، وكان يأتي أصحابه فيعزّيهم، ثم تركَ مجالسَةَ الناس ومخالطتهم والصلاةَ في مسجدِ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم حتى الجمعة، ولا يعزّي أحداً ولا يقْضي له حقّاً، وكان يُقالُ له في ذلك فيقول «ما يتهيّأ لكُلِّ أحدٍ أن يذكر (ص ٣١٥)

---

(١) ـ سلفت ترجمته.

(٢) ـ ديوان علي بن جبلة ص ١٨١ تحقيق ودراسة: أحمد نصيف الجنابي، ط. وزارة الاعلام ـ النجف الأشرف ـ العراق ١٩٧١م، وانظر: التمثيل والمحاضرة للثعالبي ص ٨٧ ط. عيسى البابي الحلبي ـ مصر ـ ١٩٦١م، نهاية الأرب ١ / ٨٩ ط. دار الكتب المصرية ١٩٣٠م، الوساطة للجرجاني ص٢٤٥ ط. القاهرة ١٩٤٥م.

(٣) ـ عمل اليوم والليلة ١٦٩.

(٤) ـ في الأصل: ومن.

(٥) ـ أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي، وقد أسلفنا التعريف به.

(٦) ـ أبو عبد الله مصعب بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام، سكن بغداد وحدّث بها عن الإمام مالك وتوفي سنة ٢٣٦ هـ. (تاريخ بغداد ١٣ / ١١٢).

ما فيه» وفي بعضِ الروايات: «أعذارٌ لا تُذْكر»، فاحتمل الناس له كلَّ ذلك، وكانوا أرغَبَ ما كانوا فيه وأشدَّه تعظيماً له، حتى مات على ذلك*. قال عتيق ابن يعقوب[1] ومصعب[2]: فلما حَضَرَتْهُ الوفاة سُئِل عن تخلُّفِه عن المسجد. قال يعقوب: وكان تخلُّفُهُ عنه قبلَ موته بسنتين، فقال: «لولا أنّي في آخر يَوْمٍ من الدنيا وأوّلِهِ من الآخرة ما أخبرتكم، سَلَسَ بولي فكرهتُ أن آتيَ مسجدَ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم على غير طهارة استخفافاً برسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم وكرِهْتُ أن أذكُرَ علّتي فأشْكُوَ ربّي». انتهت[3]

فتأمّل فِقْهَ مالك ـ رضي الله عنه ـ في امتناعه من هذه الأمور المؤكّدات، وعدم ذكره عُذْرَهُ لما فيه من شكوى ربّه، رحمه الله وقدّس ثراه.

[ولاستعانةِ المبتَلى][4] على هذه التمحيصاتِ كلِّها التي تضمّنتْها هذه الصور الستّ بأصدقاء الصدق وإخوانِ الوفاء أثَرٌ عظيم وراحةٌ كبيرة، وربما أُلفي في هذا المعنى من نعمةِ الله تعالى ما يمنّ به من اهتمامِ أولي المِقة[5] والمودّة ما لا يوجَدُ له كِفاء، وكثيراً ما يكونُ ذلك ممّن لم يتقدَّمْ للمبتَلى به معرفةٌ، ولا سبقَتْ منه إليه وسيلة، وإنما تكونُ معرفَتُهُ من جملةِ ألطافِ الله الخافية، ومن مواهبه الجزيلة.

[ومن ذلك][6] أنّ الله قيّض لي في ذلك التمحيصِ الواردِ على والدي ـ

---

* ـ ترتيب المدارك ١ / ١٨١.

(١) ـ عتيق بن يعقوب بن صديق بن موسى بن عبد الله بن الزبير بن العوام القرشي الأسدي، أبو بكر، كان ملازماً للإمام مالك وكتب عنه الموطأ، توفي بالمدينة سنة ٢٢٨ هـ (ترتيب المدارك ١ / ٣٨١).

(٢) ـ مصعب بن عبد الله المذكور آنفاً.

(٣) ـ ترتيب المدارك ١ / ١٨١.

(٤) ـ بياض في الأصل مقدار كلمتين تقديرهما ما أثبتناه.

(٥) ـ ومقه مقةً: أحبّه (القاموس المحيط: ومق).

(٦) ـ بياض في الأصل مقدار كلمة أو كلمتين: تقديرهما ما أثبتناه.

رحمه الله ـ رَجُلاً بهذه الصفةِ تحمّل عنّي من تلك النائبةِ، ما لا يحمِلُهُ الأخُ الشقيقُ عن أخيه، وساهمني فيها المساهمةَ التي لم يقع لي مثلُها من أقربِ القرابة، ثم إنّي استفدتُ منه أصحاباً كانوا على مثل صفته. ديناً ومشاركةً، فتحمّلوا أيضاً من أعباء تلك النكبةِ ما لا أستطيعُ له كِفاء إلّا أن يكافئهم عنّي مَنْ مَنَحَني ودَّهم، ووضع لي القبولَ عندهم، سبحانه لا إله إلّا هو، فلقد كان منهم رجلٌ من غيرِ الحضرة، أقام معي سَبْعة أشهر يقومُ بوظائفي، من نقلِ ماء لوضوئي وشُربي، ويتردَّدُ بطعمةٍ لأكلي في أوقاتها، ونقلٍ لأسبابي متى احتجْتُ للانتقال، ثم إنّه لم يسألني عن اسمي ولا عَنْ معرفتي ولا علم ذلك، إلى أنْ منَّ الله بتفريجِ تلكَ الأزمة، وانجلاء تلك الغمّة، فلقيني في رَحْبَةِ المسجدِ الجامع، وحَمِدَ الله على ما رحم به من ذهابِ ذلك الكرب، وحينئذٍ سألني عن اسمي ومعرفتي، وكان لي منه صديقُ صِدْقٍ لا يُعْدَلُ به أحدٌ متانةَ دينٍ وعلم . . .(1) وحصافةَ عقلٍ وكمالَ خَيْريّة، رحمه الله وأرضاه.

[وإذا كان](2) الصديقُ بهذه الصفةِ فهو في القُرْبِ بنفسه مواسٍ، وهو في البعد لك غيرُ ناسٍ. وفيمن هذه صفته يقول الميكالي(3):

وأخٍ إذا ما شَطَّ عنّي رَحْلُهُ   أدنى إليَّ على النَوى(4) مَعْرُوفَهُ
(ص ٣١٦)
كالكَرْمِ لم يَمْنَعْهُ بُعْدُ عَريشِهِ   عَنْ أن يُقَرِّبَ للجُناةِ قُطُوفَهُ

كما أنه لا يُسْتَبْعَدُ أن يخونَ من تَعْرِفُه، ويُسْلِمُكَ من تثِقُ به، بل لا تأتيك المضرّةُ في الأغلبِ إلّا من تِلقاء من تُعِدُّه للمنفعة، ولا تلحقُكَ المساءة إلّا مِنْ قِبَلِ من ترتجي من لَدُنْهُ المسرّةَ من قريبٍ أو حبيب، وعلى ذلك يتنزّلُ قولُ عبد الله بن المعتزّ(5):

---

(1) ـ بياض في الأصل مقدار كلمتين أو ثلاث.

(2) ـ بياض في الأصل مقدار كلمتين تقديرهما: وإذا كان.

(3) ـ أبو الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالي، وورد البيتان في يتيمة الدهر ٤ / ٤٣٢.

(4) ـ في اليتيمة: النور (وهو خطأ).

(5) ـ ديوان ابن المعتز ص ٦٩.

بلوتُ أخلاءَ هذا الزمانِ فأقللْتُ بالجهر(*) منهُمْ نَصِيبي
فكلُّهُمُ إنْ تأمَّلْتَهُ(**) صديقُ العِيانِ عَدُوُّ المَغيب

وفي تقرير المَخشيِّ من ذلك يقولُ أبو محمد الحسن المهذَّب[1] ـ رحمه الله :

ومِنْ نَكَدِ الأيّامِ أبقى كما تَرى أُكابِدُ عَيْشاً مثلَ عيشيَ أنْكَدا
أَمِنتُ عُداتي ثم خِفْتُ أحبّتي لقد صَدَقوا إنَّ الثِقاتِ هُمُ العِدا

وعسى أن يكونَ صِدْقٌ في هذا القول وفي تقسيمه البريّةَ إلى قسمين شبّههم فيه بالأرضِ في انقسامها إلى بُقْعَتَيْنِ مُعَدَّتَيْنِ للخُبْثِ والعبادة، يقول أيضاً :

لا تُنْكِرَنَّ من الأنامِ تَفاوُتاً إذْ كانَ ذا عبداً وهذا سيِّدا
فالناسُ مثلُ الأرضِ منها بُقْعةٌ تَلْقَى بها خُبْثاً وأُخْرى مَسْجِدا

.......[2] من ذلك شيئاً ......[3] عن بعض العلماء قال : «الإخوانُ ثلاثة مواسٍ بماله ومواسٍ بنفسه فذلك الصديقُ في إخائه ، وآخر يأخذ منك البُلغة ويريدك لبعضِ اللذّة فلا تَعُدَّنَّ ذلك من أهلِ الثقة ، وثالثٌ إخاؤه البشاشةُ ومودّتُه التسليمُ فرضاه منك ورضاكَ منه قليل».[4] ....[5] في وجودِ المرغوب فيه ، من مثل من قدّمنا صفتَهُ ، والمرغوب عنه ممّن أخّرناها ، أقاويلُ

---

* ـ في الديوان : بالهجر.

** ـ في الديوان : وكلُّهم إنْ تصفّحتهم.

(١) ـ أبو محمد الحسن بن علي بن ابراهيم بن الزبير، يعرف بالقاضي المهذّب، كاتب وشاعر اختص بالصالح بن رزّيك، ويقال إن أكثر الشعر الذي في ديوان الصالح إنّما هو شعر المهذّب، توفي سنة ٥٦١ هـ بمصر. (معجم الأدباء ٩ / ٤٧ ، فوات الوفيات ١ / ٣٣٧ ، الروضتين ١ / ١٤٧ ، الوافي بالوفيات ١٢ / ١٣١).

(٢) ـ بياض في الأصل مقدار كلمتين.

(٣) ـ بياض في الأصل مقدار كلمتين.

(٤) ـ وردت أقوال في هذا المعنى في إحياء علوم الدين ٢ / ١٧٢ .

(٥) ـ بياض في الأصل مقدار كلمتين تقديرهما : وقد ورد.

وأشعارٌ تنطق بأنَّ بُرْهانَ الوجود يشهد لهم بهذا المعنى، فمن ذلك قولُ بعضهم[1]:

أعـاذِلَتي كَمْ مِنْ أخٍ لي يودُّني ... عزيزٍ عليَّ لَمْ يلِدْنـيَ والِـدُه
وآخرَ أصْلي في المناسِبِ أصْلُهُ ... يُبـاعِـدُني[2] في رَأْيِهِ وأُبـاعِـدُهْ
تمنّى لي الموتَ المعجَّلَ حاسِدٌ ... ولا خَيْرَ فيمن لَيْسَ يُعْرَفُ حاسِدُه

. . . .[3] المحمود إذا وجد الإكسير الأحمر، قد تُعَدُّ صداقتُهم أفضلَ من المناسبة، وأقربَ من الرحمِ الماسّة، فيقال: إنّ كِسْرى سألَ بزرجمهر عن أربعِ مسائل فقال: أيُّ شيءٍ أضْيَع؟ قال: وُدٌّ مضروبٌ إلى غَيْرِ من يَسْتَحِقُّه. قال: لمن أنتَ أشدُّ رحمةً؟ قال لعالمٍ يجوز عليه حُكْمُ جاهلٍ. قال: كيف كتمانُكَ السرَّ؟ (ص ٣١٧) قال: جَنْبايَ قَبْرُهُ. قال: لمن أنتَ أشدُّ حُبّاً لأخيك أو لصديقِكَ؟ قال: إنّما أحبُّ إذا كان صديقي[4].

وقال بعض الحكماء: «القرابةُ تحتاجُ إلى المودَّةِ والمودَّةُ لا تحتاجُ إلى القرابة»[5].

قال الشاعر:

ليس الـشـقـيقُ صديقـاً ... بل الـصـديقُ الـشـقـيقُ

وقال الحكماء: «المودَّةُ أشْبَكُ الأنسابِ، والعِلْمُ أشْرَفُ الأحْساب». وقال الشاعر في معناه[6]:

---

(١) ـ الصداقة والصديق لأبي حيّان التوحيدي ص ٤٦٧.

(٢) ـ في الأصل: يبايعدني.

(٣) ـ بياض في الأصل مقدار ثلاث كلمات.

(٤) ـ ورد قسمٌ من هذا القول في عيون الأخبار ٣ / ٦ والعقد الفريد ٢ / ١٤٣، وفي بهجة المجالس ١ / ٦٨٩ منسوباً لعبد الحميد الكاتب.

(٥) ـ العقد الفريد ٢ / ١٤٣ والقول فيه منسوب لأكثم بن صيفي.

(٦) ـ البيتان في العقد الفريد ٢ / ١٤٤، ١٥٥ منسوبان إلى أبي تمام حبيب بن أوس الطائي، وفي الأغاني ١٣ / ١١٧ أنهما من شعر كلثوم بن عمرو العتابي.

وَلَقَـدْ بلوتُ[1] النـاسَ ثُمَّ خبرتُهُمْ فعلِمْتُ ما فيهم من الأسْبـابِ
فإذا القـرابَـةُ لا تُقـرِّبُ قاطِعـاً وإذا الـمـودَّةُ أقْـرَبُ الأنْسـابِ

ومما يسطر في المعنى قول الآخر[2]:

صافِ الكـرامَ إذا أردتَ إخـاءهم واعلمْ بأنّ أخـا الحِفـاظ أخـوكَ
كم إخـوةٍ لك لم يلدْك أبـوهُمُ وكـأنَّـمـا آبـاؤهـم وَلَـدوكَ

وقال بعضُ الفُرْس: «لا قرابةَ أقربُ من مودّةٍ ونصيحة، ولا بُعْدَ أبعدُ من غشٍّ وعداوة». والسرّ في هذا ـ والله أعلم ـ أنَّ الشدائد بطبعها مهروبٌ منها، ومنفورٌ عنها، فإذا وَقَعَتْ أو قارَبَتْ الوقوع، اسْتَنْكَرَها المُشاهِدُ لها، واستعْظَمَها المُعَايِنُ لأزمتها، فنفرت نفسُه، وانقبضَ انبساطُه، توهُّماً منه أن ذلك الابتلاء الذي لحق سواه، ممّا يتسبّب به، أو يصِلُ له ضررٌ بسببه، إلّا من كان من حيلتِهِ من المساهمةِ، وفي طبيعته من المشاركة، ما يحمِلُه على اطِّراحِ هذا الوَهْم، واستحقارِ هذا التخيُّل. وفي مثله يقول أبو العتاهية[3]:

إنَّ أخاكَ الحقَّ مَنْ يَسْعَى مَعَكْ* وَمَـنْ يَضُـرُّ نَفْسَـهُ لِيَنْفَـعَـكْ
وَمَنْ إذا رَيْبُ الـزمـانِ صَدَّعَكَ شَتَّتَ شَمْلَ نَفْسِهِ** لِيَجْمَعَكْ[4]

فإن قيل فما بال هذه المساهمةِ توجدُ في الأغلبِ فيمن لم يسبق له

---

(١) ـ في العقد: سبرت.

(٢) ـ البيتان في روضة العقلاء ص ٨٧ ضمن مقطوعة منسوبة للعبّاس بن عبيد بن يعيش وفي العقد الفريد ٢ / ٢٠١ مع اختلاف في اللفظ.

(٣) ـ ديوان أبي العتاهية ص ٣١٥، عيون الأخبار ٣ / ٤، الصداقة والصديق ٣٤.

* ـ في الديوان: إنَّ أخاك الصدق من كان معك.

** ـ شتّت فيه شمله ليجمعك.

(٤) ـ في عيون الأخبار:

إن أخـاك الصـدق من لن يخـدعـك ومـن يضـرّ نفسـه لينـفـعـك
ومـن إذا ريب الـزمـان صدعـك شتّـت شمـل نفسـه ليجـمـعـك
وإن رآك ظالماً سعى معك

بالمُبْتَلى معرفة، ولا تقدّمت بينهما صُحبة، حسبما أشرتُ إليه؟! فالجواب ـ والله أعلم ـ أن ذلك لحق هذا الصنفَ عن الحسد، الذي يمكن أن يكونَ هو في الصنفِ الذي سبقت منه المعرفةُ عاضداً لما نشأ له من الوهم، ومقوياً لما عرض له من التخيّل، كما أن خُلُوَّ من لا تعرفه من داء الحسد موجبٌ لوجود رفقه بك، ويمكن عطفه عليك، وفي هذا المعنى ينشد بعضهم[1]:

إذا ضاقَ مالُ المرء ضاقَتْ مذاهِبُه ... وضَنَّتْ عليه بالنَّوالِ أقارِبُه

ومـا النـاسُ إلّا حافظٌ لمضيّعٍ ... وما العيشُ إلّا ما تَطيبُ عَواقِبُه

يخونُكَ ذو القربى مِراراً وربَّما ... وفى لَكَ عِنْدَ الجهْدِ مَنْ لا تُناسِبُه

وروي عن العتابي[2] أنه كتب إلى طوق بن مالك:

«أمّا بعد، فاعلم أن عَشيرتَك* مَنْ أَحْسَنَ (ص ٣١٨) عِشْرَتَكَ، وابنَ عمّك مَنْ عَمَّكَ نفعُهْ، وقريبَك من قَرُبَ منكَ خيرُه، وأنّ أحبَّ الناسِ إليك أجداهم بالنفع عليك»[3]. ولأبي فراس الحمْداني[4]:

أراني وقَومي فرَّقَتْنا مذاهبُ ... وإنْ جَمَعَتْنا في الأصولِ المناسبُ

فأقصاهُم أقصاهُم في مساءتي ... وأقربُهُمْ ممّا كرِهْتُ الأقارِبُ

غريبٌ وأهْلي حيثُ ما كان ناظري ... وحيدٌ وحَوْلي مِنْ رجالي عَصائب

نسيبُك مَنْ ناسبْتَ بالودِّ قَلْبَهُ ... وجارُكَ مَنْ صافيْتَهُ لا المُصاقِبُ

وأعظَمُ من عَادَيْت غيرُ مُكاشِفٍ[5] ... وأهونُ من عادَيْتَهُ من تُحارِبُ

وَمَنْ كانَ غيرَ السيفِ كافِلُ رِزْقِه ... فللذُّلِّ مِنْهُ لا مَحالةَ جانِبُ

---

(١) ـ ورد البيت الأخير في عيون الأخبار ٣ / ٢٩، وأدب الدنيا والدين ١٦٦.

(٢) ـ كلثوم بن عمرو بن أيوب بن كلثوم التغلبي، شاعر مترسل، من شعراء الدولة العباسية، كان منقطعاً إلى البرامكة، واتصل بالرشيد، سلفت ترجمته.

* ـ في الأغاني: عشيرك.

(٣) ـ النص في الأغاني ١٣ / ١١٧.

(٤) ـ ديوان أبي فراس ص ٢٨ ـ ٢٩.

(٥) ـ في الديوان: وأعظم أعداء الرجال ثقاتها.

وهؤلاء الأصدقاء الصادقون على قلّتهم، والإخوانُ الأوفياء على ندورهم، مما يعتري الغلط في عدّ من يستظهر بزخرفِ المودّة، ويستشهِدُ بزبْرِجِ المحبّة على أنّه منهم، وليس كذلك، وإنما معيارُ معرفتهم طرْقُ الابتلاء وحدوثُ التمحيص، ولذلك قيل لبعض الأدباء: كم لك مِنْ صديق؟ قال: لا أدري، لأنّ الدّنيا عليَّ مُقْبلة، وكلُّ مَنْ يَلْقاني يُظْهِرُ لي الصداقة، وإنما أحسِبُهُم إذا أدْبَرَتْ عنّي. انتهى[1]. وصدق هذا القائل ـ رحمه الله ـ فإذا لم تتغيّر حالةُ الصديق في ذلك، أو كانتْ استفادتُه من هذا الوقت، فذلك الذي ينبغي أن تشدَّ يدُ الضِنّةِ على صداقته. وهذ المعنى الذي قرّرْتُه هو الذي قصده القاضي يحيى بنُ سعيد[2] في أبيات:

إنـي لَفـي زَمَـنٍ تكـدَّرَ صَفْـوُه ... وأمـرَّ أحْـلاهُ وأحْـزَنَ سَهْـلُهُ
نُسِيَ الوفاء فليسَ يُعْرَفُ ما اسمُه ... وعـفـا الـودادُ فلاتـيـنَّ محـلُّهُ
ولَقـدْ بلوْتُ النـاسَ في أخْلاقِهِمْ ... فوجَدْتُ خَيْرَهُمُ الذي [لم][3] أبْلُهُ

أردتُ البيتَ الأخيرَ من القطعة، الذي تضمّن صفةَ من حَمِدْتُهُ من صِنْفِ الصديق، وأمّا مَنْ سواه فلا عِبْرَة به.

ولقد وقفتُ من ذلك بالتجربةِ على ما لو صَرَّحْتُ بأعيانِ الوقائع، وسمّيْتُ مَنْ بَلَوْتُ منه الخيانةَ من الأقارب، وأشَرتُ لمن علمتُ منه عدمَ الوفاء من جنسِ الصديق الملاطِفِ، لَقضى منه العجبَ سامعُهُ، وشاهد منه الغريبَ قارئُه، حتى لا يُسْتَبْعَدَ قول من قال: «إنّ الصديقَ الموثوقَ بمودّتِهِ قَدْ قَلَّ حتى صارَ اسماً لغيرِ موجود ولفظاً لمعنىً مفقود»[4] فهو كما قال الشاعر:

---

(١) ـ العقد الفريد ٢ / ١٤٢، وفيه: قيل لبعض الولاة.

(٢) ـ أبو سعيد يحيى بن سعيد بن قيس الأنصاري المديني، تولى القضاء بالمدينة المنورة وولاه المنصور الهاشمية ومدينة السلام وتوفي سنة ١٤٦ هـ بالهاشمية (تاريخ بغداد ١٤ / ١٠١).

(٣) ـ زيادة من المحقق.

(٤) ـ الصداقة والصديق لأبي حيان التوحيدي ص ٣٨.

وقالوا: هَلْ وَجَدْتَ صديقَ صدقٍ مُعيناً في الزمانِ على الزَمانِ؟
فقلتُ: نَعَمْ إذا نِلتُ الثريّا وصافَحني هناكَ الفَرْقَدانِ

(ص ٣١٩)

متى أبصَرْتُمُ شيئاً محالاً يَعُودُ على الحقيقةِ كالعِيانِ؟!

وعلى ما بلوتُه من ذلك بالاختبارِ التامّ، والتجربةِ الكاملة، يصدُقُ قولُ الشاعر، ويصحّ عندي:

أنِسْتُ بوحْدَتي حتى لو آنّي دعاني الأنسُ لاستوحَشْتُ منهُ
ولم تَدعِ التجاربُ لي صَديقاً أميلُ إليْهِ إلاّ مِلْتُ عَنْهُ

وممّا يدلّ على نُدورِ هذا الصديقِ وقلّته ما رُوي عن ابنِ عمر قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أقلُّ ما يوجَدُ في آخر الزمان درهمٌ من حَلال، أو أخٌ موثوقٌ به، وشرّ المال في آخرِ الزمانِ الهَالك»[1]. وقال عبد الله بن المعتزّ[2]:

لم يبقَ شيءٌ فاتني كَسْبُهُ إلاّ أخٌ يَسْلَمُ لي قلبُهُ
ينأى فلا يُفْسِدُهُ نأيُهُ عنّي ولا يصلِحُهُ قُرْبُهُ
يكونُ حَسْبي من جميعِ الورى في كلِّ حالٍ وأنا حَسْبُهُ

ويُحكى عن الكنديّ أنه قال: قلتُ لبعضِ الرُّهْبان: مَنْ أبعدُ الناسِ سَفَراً؟ قال: المسافِرُ في طَلَبِ الأخِ الصالح.

وكان عليُّ بنُ أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ كثيراً ما يتمثّل بهذه الأبيات، وهي[3]:

---

(١) ـ كذا في الأصل ولم أجد هذا الحديث في ما وقفت عليه من المصادر.

(٢) ـ لم أجد الأبيات في ديوان ابن المعتز، ووردت في الصداقة والصديق للتوحيدي ص ٢٥٥ دون نسبة.

(٣) ـ ديوان الإمام علي ص ١٥٧، ديوان الشافعي ص ٧٠، عين الأدب والسياسة ٢٨٩ (منسوبة للإمام علي).

صُنِ النفسَ واحمِلْها على ما يَزِينُها تعِشْ سالِماً والقولُ فيكَ جميلُ
ولا تُرِيَنَّ الناسَ إلّا تجمّلاً نبا بِكَ دهرٌ أو جَفاكَ خليلُ
وإن ضاقَ رِزْقُ اليومِ فاصبِرْ إلى غدٍ عسى نكباتُ الدهرِ عنك تَزُولُ
يَعِزُّ الغنيُّ النفسِ إنْ قلّ مالُه ويَغْنى الفقيرُ النفسِ وَهُوَ ذليلُ
وما أكثرَ الإخوانَ حينَ تَعُدُّهُمْ ولكنَّهُمْ في النائباتِ قليلُ

وصدق قائل هذا الشعر وبرّ، وأنا على ذلكم من الشاهدين، وفي نحو ذلك يقول أبو بكر بن هاشم* الخالدي[1]:

وأخٍ رخصْتُ عليه حتى مَلَّني والشيءُ مملولٌ إذا ما يَرْخَصُ
يا ليتَه إذْ باعَ وُدّي باعَهُ ممّن يزيدُ عليه لا مَنْ يُنْقِصُ
ما في زمانِكَ ما يعزُّ وجودُه إن رُمْتَهُ إلّا صديقٌ مُخْلِصٌ[2]

ونحو من ذلك ما قاله بعض شعراء القلائد[3]:

وأجلُّ مفقودٍ شبابٌ ذاهبٌ وأعزُّ موجودٍ حبيبٌ مُمْحِضُ
والناسُ أغربةٌ إذا فَتَّشْتَهُمْ وأخو المصافاةِ الغُرابُ الأبيضُ

---

* ـ في الأصل هشام.

(١) ـ أبو بكر محمد بن هاشم بن وعلة بن عثمان بن بلال الخالدي الموصلي الشاعر أخو سعيد بن هاشم، وكانا شاعرين اشتركا في الشعر والمؤلفات، وكانا من خواصّ سيف الدولة الحمداني، وسُمّيا بالخالديين نسبة إلى الخالدية، قرية من عمل الموصل، توفي أبو بكر سنة ٣٨٠ هـ (يتيمة الدهر ٢ / ٢١٤، فوات الوفيات ٤ / ٥٢، الوافي بالوفيات ٥ / ١٤٩).

(٢) ـ الأبيات في يتيمة الدهر ٢ / ٢٣٢.

(٣) ـ البيتان لأبي عبد الله محمد بن الحدّاد الوادي آشي المتوفى سنة ٤٨٠ هـ، ليس له ترجمة في قلائد العقيان، ولم يرد البيتان في القلائد وإنما ترجم له الفتح بن خاقان في «مطمح الأنفس» ص ٣٣٦ ولم يورد البيتين، إلا أن البيت الثاني فقط ورد ضمن قصيدة لم يبق منها سوى ستة أبيات، وورد البيت في الخريدة ٢ / ١٨٢، ومسالك الأبصار ١٦ / ١١٧ (مخطوط).

وقال صالحُ بنُ عبدِ القدّوس:[1]

ليسَ مَنْ كانَ في الرَّخاء صديقاً وعدوُّ الصديقِ بَعْدَ الرخاء
(ص ٣٢٠)
عدّة في إخائه لصديقٍ إنّما ذاكَ عدّةُ الأعداء
لو ظفرنا بذي إخاء أمينٍ لاتّخذنا إخاءه للدواء[2]

وممّا يشبهُ انقلابَ الصديقِ عدوّاً كونه يصيرُ العدوّ صديقاً، وذلك من فسادِ الضمير، واستبطانِ الحقد، فيوالي العدوّ اقتناعاً منه بما يتوهّم منه من إذاية صديقه المجفوّ، ويتخيّل منه من مضرّة صاحبه المهجور[3]:

تُكاشِرُني كُرْهاً[4] كأنّك ناصحٌ وعَيْنُكَ تُبْدي أنّ قَلْبَكَ لي دوِ
لِسانُكَ لي حُلوٌ وعينكَ عَلْقَمٌ وشرُّكَ مبسوطٌ وخيْرُكَ مُنْطَوِ
تُصافِحُ من لاقيتَ لي ذا عداوةٍ وأنتَ صديقي ليسَ ذاكَ بِمُسْتَوِ
أراكَ إذا لم أرْضَ شيئاً هويتَهُ ولستَ لما أهوى من الأمْرِ بالهوي[5]

---

(١) - استقدمه الخليفة المهدي العباسي من دمشق، وكان شاعراً زنديقاً حكيماً فقتله بسبب الزندقة، وكان شيخاً كبيراً. (تاريخ بغداد ٩ / ٣٠٣، طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٨٩، معجم الأدباء ١٢ / ٦، وفيات الأعيان ٢ / ٤٩٢، فوات الوفيات ٢ / ١١٦، نكت الهميان ١٧١، الوافي بالوفيات ١٦ / ٢٦٠).

(٢) - وردت هذه الأبيات في كتاب الأدب والمروءة لصالح بن جناح ص ١٦٨، نشره العلامة الشيخ طاهر الجزائري، ضمن كتاب «صالح بن عبد القدوس البصري»، تأليف وجمع وتحقيق عبد الله الخطيب، دار منشورات البصري - بغداد - ١٩٦٧م. والأبيات في هذا الكتاب منسوبة لصالح بن جناح.

(٣) - كذا في الأصل، ويبدو أن هناك جملة أو أكثر قدّمت للأبيات اللاحقة سقطت من الناسخ، والبيتان الأول والثاني في الصداقة والصديق ص ٣٣٥، وفي أدب الدنيا والدين ص ١٧١ منسوبان إلى يزيد بن الحكم الثقفي، والبيت الثالث في بهجة المجالس ١ / ٦٨٨.

(٤) - في أدب الدنيا والدين: تكاشرني ضحكاً.

(٥) - في الأصل: بالهو.

وما أدلَّ هذه القضيّة على قلّةِ الصدق في الصداقة، وعلى عمرانِ الخَلَدِ بضربٍ من العدواة. وكتب بعضُ الحكماء على بابِ داره: «جزى الله من لا نَعْرِفُ خيراً، فأمّا أصدقاؤنا الخاصّة فلا جُزوا ذلك، لأنّا لم نُؤتَ إلاّ منهم» انتهى. ولا سيّما إن كان في صفته على نحو ما قاله أحمد بن برغاش في بيتيه:

وكم صاحبٍ نالتْه منّي رِفعةٌ ... وحظّي الذي أدركتُ منه خمولَ

وَمَنْ شمَّ ورداً يستفِدْ منه نضرةً ... ولكنّ حظّ الوردِ منه ذُبولُ

وهذا كثير، سيّما إذا لم تُراعَ شروطُ الصداقةِ أوّلاً، ولذلك يقولُ القاضي ناصحُ الدين أبو بكر الأرجاني[1]:

تخيّرْ مَنْ تُصاحِبُهُ فكمْ مِنْ ... وُثوقٍ عادَ آخِرُه وِثاقا

إذا خطبَ الصداقةَ منكَ كُفءٌ ... فلا تطلُبْ سِوى صِدقٍ صَداقا

وفي قلّة الصديقِ الصادقِ قال أبو العبّاس الناشىء[2]:

طُفْتُ البلادَ مشرِّقاً ومغرِّباً ... لأنالَ خِلًّا بالوفاء خليقا

ورجعْتُ عمّا كنتُ قد حاولْتُهُ ... إذْ لم تصادِفْ همّتي توفيقا

فلقلَّ يومٌ ظلَّ عنّي ماضياً ... لم أشْكُ فيه إلى العدوِّ صديقا

وهذا من أعظمِ ما يكون من الابتلاء.

وفي التشكّي إلى من لَيْسَ بصحيحِ الودّ، فضلاً عن العدوّ، يقول القاضي أبو القاسم بن حاتم ـ رحمه الله:

شكوتَ بما دهاكَ وكان سرّاً ... لمن ليستْ مودّتُهُ صحيحة

---

(١) ـ أبو بكر ناصح الدين أحمد بن محمد بن الحسين الأرّجاني، قاضي تستر وعسكر مكرم، له شعر كثير، أصله من خوزستان، مولده سنة ٤٦٠ هـ، وتوفي سنة ٥٤٤ هـ (وفيات الأعيان ١ / ١٥١، الوافي بالوفيات ٧ / ٣٧٣).

(٢) ـ أبو العباس عبد الله بن محمد الناشىء الأنباري المعروف بابن شِرْشير، والناشىء الأكبر، شاعر مشهور، أصله من الأنبار، وأقام في بغداد مدة ورحل إلى مصر وبها توفي سنة ٢٩٣ هـ (تاريخ بغداد ١٠ / ٩٢، وفيات الأعيان ٣ / ٩١، الوافي بالوفيات ١٧ / ٥٢٢).

(ص ٣٢١)

فتلك مصيبةٌ عادتْ ثلاثاً لصُحبتها الشماتَةُ والفَضيحة

هذا[1] شكواه بسرِّه لغير ذي المودّة الصحيحة، فكيف بما بينه وبين الصديقِ المحقّق الصداقة للسرّ ومعلوم العداوة، فكيف لا يكون من أعظم الابتلاء!

وبسبب قلّة الأخِ الصالح قال المأمون «إنْ غَلَبَ شيءٌ على حُبِّ المالِ والولدِ فالأخُ الصالح». وقال صالح بن جناح[2]:

مَنْ فاتَهُ ودُّ أخٍ صالحٍ فذلك المحروم حقّاً يقين
ما ذاقتِ النفسُ على شهوةٍ ألذّ[3] من ودّ صديقٍ أمين

[و][4] هذا الذي قاله حقّ، ولسنا نُنْكِرهُ بتّاً، ولكنّا نقطع بنُدوره، واختلاطِ حقيقته الصادقة بزوره، وفي ذلك قال الآخر[5]:

إذا ما كُنْتَ متّخِذاً خليلاً فلا تأمَنْ خليلَكَ أنْ يخونا
وليسَ يخونُ ذو وُدٍّ أمينٌ ولكن قلَّ ما تَلْقَى الأمينا

وعلى ذلك فمن كفاكَ من الأصدقاء شرَّه، وواساكَ بالفضلِ من اهتمامه، واقتصر عن ممالأةِ عدوّك، فليكُنْ لسانُكَ موقوفاً على شُكْره، وقلبُكَ منطوياً على برِّه.

---

(١) ـ كذا في الأصل.

(٢) ـ هو صالح بن جناح العبسي اللخمي الشاعر والحكيم الدمشقي، ممن أخذ عنهم الجاحظ. (ترجمته في تهذيب ابن عساكر ٦ / ٣٦٩، الوافي بالوفيات ١٦ / ٢٥٥، ونشر له الشيخ طاهر الجزائري رسالة في الأدب والمروءة) وقد ورد هذان البيتان في الديارات للشابشتي ص ٣٠ منسوبين لمحمد بن أبي أمية الكاتب.

(٣) ـ في الأصل: وألذّ.

(٤) ـ بياض في الأصل تقديره حرف الواو.

(٥) ـ المستطرف للإبشيهي ١ / ٢٧٣.

وفي نحو منه يقول الأحنف[1]: «الكاملُ مَنْ عُدَّتْ هفواتُه». وفي هذا المعنى يقول محمد بن يزيد المهلّبيّ[2]:

هل الشكلُ إلّا حُسْنُ ظنٍّ بصاحب خؤونٍ إذا ما الدهرُ نابت نوائبُهْ
وَمَنْ ذا الذي تُرضى سجاياه كلُّها كفى المرء نُبْلاً أنْ تُعَدَّ معائبُهْ

ولا سيّما إن وقف الصديقُ موقفَ الاعتذار، وتبرّأ بظاهره عمّا قرفه[3] به من سيء الاختبار، وفي ذلك المعنى يقول البحتري[4]:

اقْبَلْ معاذيرَ من يأتيكَ معتذراً إن برَّ عندكَ فيما قال أو فَجَرا
فقد أطاعَكَ مَنْ أرضاكَ ظاهِرُهُ وقَدْ أجَلَّكَ من يَعْصِيكَ مُسْتَتِرا

وأنت ترى ما في هذا من الغَدْر الذي لا يحمله العقلاء، وما فيه من الأخلاق الذميمة التي يتنزّهُ عنها الفضلاء، إلّا أن يعتمد ذلك بما تعلّل به القائل[5]:

إذا ما خليلي رابَني بعضُ خُلْقِهِ ولم يَكُ عمّا ساءني بمُفِيقِ
صبرتُ على أشياء منه تُرِيبُني مخافةَ أنْ أبقى بِغَيْرِ صَديقِ

---

(١) ـ أبو بحر الأحنف (الضحاك) بن قيس بن معاوية التميمي، يضرب به المثل بالحلم، أسلم ولم يفد على الرسول، وكان من التابعين، شهد صفين مع الخليفة علي ـ كرم الله وجهه ـ ومات بالكوفة سنة ٦٧ هـ. (المعارف ٤٢٣، وفيات الأعيان ٢ / ٤٩٩، الوافي بالوفيات ١٦ / ٣٥٥).

(٢) ـ ورد البيت الثاني في تتمة ديوان الصنوبري ص ٦٧ تحقيق الدكتور احسان عباس ـ دار الثقافة ـ بيروت ـ ١٩٧٠م، وورد أيضاً في كتاب الأمثال والحكم للرازي ص ٥٢ منسوباً إلى يزيد بن محمد الباهلي، وورد البيتان في زهر الآداب ١ / ٥٥، وكتاب الآداب لابن شمس الخلافة ١٣٣، وفي ديوان علي بن الجهم ص ١١٨، والتمثيل والمحاضرة ص ٩٣، وأدب الدنيا والدين ١٧٤، والغيث المسجم ١ / ٣٣٤، والمرقصات والمطربات ص ٤٩.

(٣) ـ كذا في الأصل.

(٤) ـ ديوان البحتري ٢ / ١١٠٥، ديوان الإمام علي ص ١٠٧، الصداقة والصديق للتوحيدي ٢٥٦ (دون نسبة)، أدب الدنيا والدين ص ٣٣٠.

(٥) ـ عيون الأخبار ٣ / ١٦.

ولعمري انّ البقاء بلا صديقٍ أحسنُ من الأخِ غيرِ الوفيّ، والصديق غيرِ المخلص، والله أعلم. وفي هذا المعنى الذي ذكرته قال القائل:

برمْتُ من الناسِ وأخلاقِهِمْ فصِرْتُ أستأنِسُ بالوحدة

(ص ٣٢٢)

ما أكْثَرَ الإخوان فيها وما أقلَّهم في منتهى الشِدَّة

وفي التبرّم من صاحبٍ له يقول أبو عبد الله الشرّان[1] ـ رحمه الله: ـ

وصاحبٍ لي مُبْرِمٍ مَنْ رأى صَبْري على صحّبتِهِ استغربا
قال أنا كالعُودِ إن شئته أورقَ وانشقَّ أو أطربا
فقلتُ بل كالعودِ محتاجٌ آن يُقْشَرَ أو يُحْرَقَ او يُضربا

وصاحبُ الرئيسِ أبي عبد الله قد أوْضَحَ له سبيله، واستقامَ على رتبته في الأصدقاء دليلُه، فرجح برهانُ اطّراحه لديه، وتبيّن ثقل صُحْبتِهِ عليه.

ومِنْ هذا الصنفِ من تختفي أحوالُه وتختلِفُ أفعاله وأقوالُه. وفي ذلك يقول أبو الحسين بن الحاج ـ رحمه الله:

لي صاحبُ عمِيَتْ عليَّ شؤونُه حركاتُهُ مجهولةٌ وسُكونُهُ
نرتابُ في الأمرِ الجليّ توهّماً فإذا تبيّن نازعَتْهُ ظُنونُهُ
ما زلتُ أحفظُهُ على شَرَقي به كالشَيْبِ تَكْرَهُهُ وأنْتَ تَصُونُه

وقد تَخْفى بالمداخلةِ من الصديق صفات، وتنحجب بالملابسةِ من وجوهِ وِدِّه سمات، وربما تظهر عند الافتراق، وتنجلي عقب الانقطاع [و][2] التلاق، وفي التحفّظ من ذلك يقول صالحُ بن شريف الرُّندي رحمه الله تعالى[3]:

---

(١) ـ أبو عبد الله محمد بن ابراهيم الشرّان الغرناطي، فقيه وكاتب وأديب، كان رئيس الكتبة في غرناطة وقاضي الجماعة فيها، وكان حياً سنة ٨٣٧ هـ، له أرجوزة في علم الفرائض (أزهار الرياض ١ / ١١٦، ١٣٣ ـ ١٤٥، نيل الابتهاج ص ٣١١، رحلة القلصادي ٤٣).

(٢) ـ الواو زيادة من المحقق.

(٣) ـ هو أبو البقاء وأبو الطيب صالح بن أبي الحسن يزيد بن صالح بن موسى بن شريف الرندي، وقد سلفت الترجمة له.

اصحَبِ الخلَّ بالتحرّز منه　　واكتُمِ السِرَّ عن أخيكَ وصُنْهُ

رُبَّ غَيْبٍ غطَّى الوصالُ عليه　　يتبدَّى عند انفصالِكَ عَنْهُ

و[إذا][1] تعيّن من ندوره، واختلاطِ ظُلْمَتِهِ بنوره، فلن ينبغي أن يعتب على كلّ جفوة، ولا أن يؤنّب على كلِّ هفوة، كما قال أبو فراس بنُ حمدان[2]:

لم أؤاخِذْكَ بالجفاء لأنّي　　واثقٌ منكَ بالإخاء* الصحيحِ

فجميلُ العدوِّ غيرُ جميلٍ　　وقبيحُ الصديقِ غيرُ قبيحِ

وإنّما هذا كلّه حيث لم ينقلب الصديق عدواً، ولم يسْعَ في إضرارِكَ أصيلاً وغدوّاً، ففي الخوف من هذا قال ابن وكيع[3]:

احذر عُدوَّكَ مرّةً　　وأحْذَرْ صديقَكَ ألْفَ مرّة

فلربّما انعكَسَ الصديقُ　　فكانَ أبْصَرَ بالمضَرّة

وقد كان ابنُ المعتزِّ بَسَطَ هذا المعنى في أبياته التي يقول فيها[4]:

عجبتُ من الصديق يُريكَ وِدّاً　　وباطنُهُ بنيّته الطريق[5]

(ص ٣٢٣)وما خَوْفي إذا ما نابَ أمرٌ　　من الأعداء خوفي من صديقِ

عدوّي قد طويتُ السرَّ عنهُ　　ولم أعدُدْهُ يوماً للحقوقِ

وما أنا من صديقٍ مستفادٍ　　على ثقةٍ ولا عَهْدٍ وثيقِ

حَذارِ من الصديقِ ومن شقيقٍ　　فكم دُهِيَ الشقيقُ من الشقيقِ

---

(١) ـ بياض في الأصل، تقديره: وإذا.

(٢) ـ ديوان أبي فراس ص ٤٦.

* ـ في الديوان: بالوفاء.

(٣) ـ نسب البيتان في بهجة المجالس ١ / ٦٩٦ لمنصور الفقيه، ووردا في محاضرة الأبرار ٢ / ٣٠٩، غير منسوبين، وفي محاضرات الأدباء ٢ / ١٩ منسوبين إلى علي بن عيسى، ووردا في يتيمة الدهر ٣ / ١٢٧ منسوبين لأبي محمد عبد الله بن أحمد بن معروف البغدادي.

(٤) ـ لم أجد الأبيات في ديوان ابن المعتز.

(٥) ـ في الأصل: بنية الطريق.

وفيما يقعُ من تلوّنِ الصديقِ يقولُ ابنُ الرومي - وقد أبدع في تشبيهه بالقوسِ صديقَهُ الذي انقلب عليه بالسهم:

رأيتُكَ بينا أنتَ خِلٌّ وصاحب
إذا أنتَ قد ولّيتَنا ثانياً عِطْفا
وإنّكَ إنْ أجْنني حنوّك موجِبٌ
بعاداً لمن باذَلْتَهُ الودَّ واللُّطفا
لكالقوسِ أحنى ما تكونُ إذا انحنَتْ
على السهْمِ أنأى ما تكونُ له قَذْفا

ويُحكى أن كِسرى جمع مرازبته، وعيونَ أصحابه، فقال: على أيِّ شيءٍ أنتُمْ أشدُّ ندامةً؟ قالوا: على وضع المعروفِ في غيرِ أهله، وطلبِ الشكر ممّن لا شُكْرَ له. قال: فمِنْ أيِّ شيءٍ أنتم أشدُّ حَذَراً؟ قالوا: من الصديقِ الغادِرِ والعدُوِّ الفاجر. انتهى[1].

وقد جعل ابنُ الرومي أنَّ العدوَّ مستفادٌ من الصديق في قوله[2]:

عَدُوُّكَ مِنْ صديقِكَ مُسْتَفادٌ ... فلا تَسْتَكْثِرَنَّ مِن الصِحابِ
فإنَّ الداءَ أكثرَ ما تراه ... يكون* من الطعامِ أو الشَّرابِ
فلو كان الكثيرُ يطيبُ كانَتْ ... مصاحبةُ الكثيرِ من الصَّوابِ
ولكن قلّ ما استكثرتَ إلاّ ... وَقَعْتَ على ذِئابٍ في ثِيابِ
فَدَعْ عنكَ الكثيرَ فكم كثيرٍ ... يُعافُ وكَمْ قليلٍ مُسْتطابِ
وما اللُّجَجُ المِلاحُ بمُرْوِياتٍ ... ويُلْفى الريُّ في النُّطَفِ العِذابِ
إذا انقلبَ الصديقُ غداً عدوّاً ... مُبيناً والأمورُ إلى انقلابِ**

(1) - بهجة المجالس ١ / ٦٩٠.

(2) - ديوان ابن الرومي ١ / ٣١٣ (ط. دار إحياء التراث العربي - بيروت - ١٩١٧م).

* - في الديوان: يحول.

** - هذا البيت هو الثالث في الديوان.

. . . . . .[1] من ابن الرومي أنه يُوجِبُ انقلابَ الصديق، لاستدلاله على ذلك بعمومِ انقلاب الأمور، وليس ذلك بِبَعيد، وفي تقريبِ ذلك قال ابنُ وكيع لأمّه[2]:

ليس بالـمُنكَـرِ انقـلابُ صديقٍ ... ربّـمـا غصَّ شاربٌ بالشَّرابِ
وتـلافـي الأمـورِ بَعْـدَ فسـادٍ ... كتـلافي الأعـداء بعـد ضِرابِ
لا تضـيّعْ مَودّةً من صديقٍ ... وانقـلابُ الصديقِ شَرُّ انقلابِ

[وقد][3] قالت الحكماء: «ما كنتَ كاتِمَهُ من عدوِّك، فلا تُطْلِعَنَّ عليه صَديقَكَ، فيوشكُ (ص ٣٢٤) أن يصيرَ عَدُوَّكَ، فيذيعَهُ». ومن هؤلاء حذّر منصور الفقيه[4]:

احْـذَرْ إخـاءَ مُمـاذقٍ ... مَزَجَ الـمـرارةَ بالـحـلاوة
يُحـصـي الـذنـوبَ عليكَ ... أيّامَ الـصـداقـةِ لِلْعَـداوة

وهذا الصنف المماذِقُ من جنسِ الصديق الذي يُضْمِر خِلافَ ما يُظهر لا قَصْدَ لنا في تَتَبُّعِ ما قيل فيه، إذ البابُ في ذلك متّسعٌ جداً، ومن عُلِم منه هذا الخُلُقُ الذميم، فلا وَجْهَ لعدِّهِ من الأصدقاء، وهو أقربُ أن يُحْسَبَ من الأعداء، كما تتنزّلُ عليه أبياتُ صالح بن عبد القدوس[5]:

وكـم ذاكـرٍ وُدّاً وحِـفْـظاً وإنّني ... لأعْلَمُ أنّ الحقَّ في غيرِ ما ذَكَرْ
إذا ما رآني قال أهْـلاً ومـرحباً ... وفي قلْبـه غيرُ الذي مِنْهُ قَدْ ظَهَرْ
فإنْ قالَ لي إنّي أودُّكَ لم أقُـلْ ... صَدَقْتَ لأنّي لستُ آمَنُ ما سَتَرْ

وقد سمّى الناسُ قديماً وحديثاً مثلَ هذا من جِنْسِ الابتلاء المُسْتَخَفِّ وهو على

---

(١) ـ بياض في الأصل.
(٢) ـ الأبيات في بهجة المجالس ١ / ٦٩٢.
(٣) ـ بياض في الأصل تقديره ما أثبتناه.
(٤) ـ الصداقة والصديق ص ١١٧، بهجة المجالس ١ / ٦٩١، روضة العقلاء ٨٩.
(٥) ـ لم أجد الأبيات في ديوان صالح بن عبد القدوس الذي جمعه وحققه عبد الله الخطيب.

النفس أثقلُ من . . . .[1] وفيما يقرُبُ من ذلك يقولُ عبدُ الله بن المعتزّ[2]:

أخٌ ليَ يُعْطيني الرضا في دُنُوِّهِ ... ويمنعُني بعضَ الرضا وهو بائِنُ
إذا ما رآني سَرَّني وهو ظاهِرٌ ... وإن غابَ عنّي ساءني وهو باطِنُ
وما ليَ ذنبٌ غيْرَ أنّ مساوِئاً ... لَهُ عَلَّمَتْني كيفَ[تَبدو][3]المحاسِنُ

وقد قسم المأمونُ الأصدقاء تقسيماً صحيحاً بقوله: «الإخوانُ ثلاثُ طبقات: طبقةٌ كالغذاء لا يُسْتَغْنى عنه أبداً وهم إخوانُ الصَّفا، وإخوانٌ كالدواء يُحتاجُ إليهم في بعضِ الأوقات، وإخوانٌ كالداء لا يُحتاجُ إليهم أبداً وهم المنافِقون من الإخوان»[4]. انتهى التقسيم، ولكنّ القِسْمَ الأوّلَ هو المفقودُ على شدّةِ الحاجة إليه، ولعلّهُ في هذا الزمانِ غيرُ موجود، وعلى ذلك يتنزّلُ قولُ أبي سعيد البرهوني في قوله:

قَدْ لزِمْتُ السُّكُوتَ مِنْ غَيْرِ عَيٍّ ... ولَزِمْتُ الفِراشَ مِنْ غَيْرِ عِلّة
وهجرتُ الإخوانَ لمّا أتتْني ... عَنهُمُ كلُّ خَصْلَةٍ مُضْمَحِلّة
فعلى أهْلِ ذا الزمانِ جميعاً ... ضِعْفُ قَطْرِ السماءِ مِنْ لَعْنَةِ الله

---

(١) - بياض في الأصل مقدار كلمة واحدة.

(٢) - لم أجد الأبيات في ديوانه.

(٣) - بياض في الأصل مقدار كلمة تقديرها: تبدو.

(٤) - بهجة المجالس ١ / ٧٠٨ - ٧٠٩، أدب الدنيا والدين ١٧٠، احياء علوم الدين ٢ / ١٧٢.

خاتمة لهذه الصورة السادسة

التمحيصُ المندرجُ تحتَ هذه الصورة، على خشونته، فقد نال منه السلطانَ الغالبَ بالله ـ أيّده الله ـ ذنوبٌ عَجَمَ الله به صبرَه، وأجزلَ أجْرَهُ، فكان الجنابُ (ص ٣٢٥) العليُّ المُقاسِمُ له في النَسَبِ الكريم، الحالُّ من اصطفائه بالمحلِّ المكين، جنابُ السيّدةِ الحرّةِ الطاهرةِ الصالحةِ المُنْعِمَةِ المحسِنة المتصدّقة، أمّ الفتح ابنة عمّه السلطان الخليفة الملك الهمام أبي الحجّاج يوسف المستغني بالله بن السلطان الخليفة الملك الهمام أبي عبد الله الغنيّ بالله ـ رحمهم الله ـ أعزّ جناب عليه، وأحبّهُ بماسّةِ القُرْبى والزوجيّة إليه، فكان بينهما من المودّةِ والرحْمةِ أفضلُ ما وضعه الله بين ابنَيْ عمّ متشابِكَيْ النسب، وكان له قِبَلَها ولها قِبَلَهُ من إخلاصِ المصافاةِ، واستكمالِ المواتاة، والسعي بأقصى الجهدِ من كلِّ واحدٍ منهما في غرضِ صاحبه، والتلطّفِ بأنهى الوُسْع إلى ابتغاء مرضاته، ما لا يمكِنُ إلاّ من مُنْتَمٍ لأرُومتهما الكريمة، ولا يتهيّأ إلاّ من عَريقٍ في مَناسِبِهما الشريفة. وقد كانتْ من متانةِ الدينِ، وجزالةِ الرأيِ، وأصالةِ العَقْل، وسَراوةِ الذاتِ، بالمنزلةِ التي لم يُشارِكْها فيها سواها من بناتِ الملوك.

وقد كان صِنْوُها السلطانُ أبو الحجّاج يوسف الناصر لدين الله يعرِفُ لها ذلك، ويرجِّحُ نَظَرَها، ويعتمدُ اختيارَها، ولا يعتقِدُ أنّ ذلك لكونها شقيقته لأبيه وأمّه. وقد كان أخوها للأب قَبْلَهُ، السلطانُ المجاهد أبو عبد الله محمد المستعين بالله، يؤْثِرُ مبرّتها، ويتوخّى مسرّتها، من أجل ذلك.

وكان لها في أبواب البِرِّ من إفشاء الصدقات، والتطوّعِ بنوافلِ الخيرات،

والتقرّب إلى الله بمقبول الحَسَنات، ما لا يضاهيها فيها إلاّ زُبَيْدة[1] من نساء ملوك بني العبّاس، إلاّ العراقةَ في الملك، فهي بنتُ ملكٍ بن ملكٍ بن ملكٍ، وزوجُها مَلِكٌ، وأخواها كلاهما ملك. ثمّ لها من المعرفة بأقدار أعضاد المُلك، ورُتَب حُماة الدين، ومنازل صُدور الناس، ومحالّ عمد الدولة، وخواصّ حَمَلَة العِلْم، ما يُعْجَبُ فيه من جودة التمييز وصحة الإدراك، فتَصْدُرُ العنايةُ الكريمةُ بالدار السلطانية لأهلِ كلّ فنٍّ ممّن سبق ذِكْرُهُ بحسب التصوّر في الخَلَدِ الأشْرَفِ من حالةِ من أُحْظِيَ من أجْلِهِ، واعْتُنِيَ به مِنْ قِبَلِه، فكان الغالبُ بالله ـ أيّده الله ـ لا يَقْطَعُ أمْراً دونَها، ولا ينفرد بسرٍّ من أسرار المُلْك عنها.

وكانت هي من المساهمة في الرُّشْد، والاستيلاء على الفضل، بحيث لا يُسْتَقْصَرُ لها رأي، ولا يُسْتَرْجَحُ دونها نظر.

وعلى ذلك سَلَفَتْ لها أحيانٌ، وانقضت أعصار، إلى أنْ طرقها الحِمام، وأدركها المَنونُ، وهي على أتمّ وجوه الوبالة[2]، وأكمل صُوَرِ الاغتباط به، ففقد منها سَكناً عزيزاً على النَّفْس، وحبيباً مكيناً من الخَلَد، فكان الصبرُ منه جميلاً، والاسترجاعُ غُدوّاً وأصيلاً.

ثم كان من الاختيار الشريف سبيلُه، النَّظَرُ في التأهُّلِ، الذي لا يتأتّى استقامةُ هذه الحياةِ الدنيا دُونَه، فظفِرَتْ يَدُهُ الكريمةُ من ذلك بعِلْقٍ نفيسٍ،

---

(١) ـ زبيدة بنت جعفر بن المنصور، زوج الرشيد وأم ولده الأمين، اسمها أمة العزيز، وكنيتها أم جعفر الهاشمية العبّاسية، كان لها برّ وصدقات، يقال إنها أنفقت في حجّها بضعاً وخمسين ألف ألف درهم، وهي التي سقت أهل مكة الماء بعد أن كانت الراوية عندهم بدينار، وأجرت الماء عشرة أميال حتى أوصلته إلى الحرم، توفيت سنة ٢٢٦ هـ (ترجمتها في: تاريخ بغداد ١٤ / ٤٣٣، المعارف ٣٧٩، ٣٨٣، وفيات الأعيان ٢ / ٣١٤، الوافي بالوفيات ١٤ / ١٧٦، البداية والنهاية ١٠ / ٢٨٣).

(٢) ـ كذا في الأصل، وفي القاموس المحيط (وبل): وبُل المرعى وبَالةً أصبح وخيم المرتع، ولعل المؤلف أراد بذلك أنها كانت كريمة معطاءة.

وذُخْرٍ عظيم، وحَظيّة[1] سكنتْ نفسُه العزيزة إلى اصطفائها، وكريمةٍ وقفت إرادته السديدةُ (ص ٣٢٦) عليها. ولم تطاول المدّة ولم تنفسحْ الشقّة إلّا يسيراً، ثم كانت الوفاة التي أرْبَتْ على سابِقَتها، فتخلّفت الدرّة الثمينة، واللؤلؤة النفيسة، علاوةً على تجديد العهد، واستئناف الشوق، فصحب ذلك كلّه من جميل الصَبْرِ، وكريم التأسّي، ما كان سبباً في نفاسة العِوَض [ونيْل][2] الأمل، والظفرِ من سنيّ المقاصِدِ بمنتهى الوطر، جعله الله من الشاكرين لنعمه، المثنين بها عليه.

وأمّا مقامُه الكريم. . . .[3] ختمت به هذه الصورةَ السادسة من تلوُّنِ الحالِ فيمن مَتَّ إلى جنابِهِ العليّ بسابقةِ خدمةٍ أو لاحقةِ ذمّةٍ، من أعجب العجائب وأبدعِ الغرائب، فقلّ من كان له من خالصةِ صِدْقٍ، أو ظهير مُلْكٍ، إلّا وقَلَبَتْهُ الأزمةَ إلى الضدّ، وأطلعتْهُ من ضميره على العكس، كما أنّ كثيراً ممّن جاهر بالقطيعةِ، وبرز في سبيلِ العداوةِ، قادَتْهُ الأقدار إلى أن بذل الجِدَّ في الخدمة، وإمحاض النيّةِ في الطاعة. ولم يُحْصَ كثرةً مَنْ نازعه ثم نزع إليه، ولا من عانده ثم وقّفته القدرةُ خاضعاً بين يَدَيْه. ولو ذهبنا إلى تعيين هذين الصِنْفَيْن لاستوفيْنا أهلَ الوطنِ جميعاً، من موالي نعمةٍ، وقبائلِ زناتة، وأعيانِ العرب، ووجوهِ البلاد، وبياضِ الناس، وأصنافِ الرعايا، وعوامِّ السوقة. فله في اعتلاقِ الأكُفّ به، وتوجُّهِ الوجوهِ نحوه، ومَيَلانِ النفوسِ إليه، وانعطافِ القلوب عَلَيْه، إذا غابَ شَخْصُهُ عن العِيان، أو عرض له حادثٌ من الزمان، خاصّيّةٌ عجيبةٌ، ومزيّةٌ غريبة، لا يُمْكِنُ أن تُسْنَدَ إلّا إلى صُنْعٍ إلهيّ، وتأييدٍ ربّاني، لاستبداعِ ما يُنْتِجُ ذلكَ من تسهيلِ أمورٍ صعبةٍ، وتيسيرِ أشياء عسيرةٍ، حتى إذا قرّ القرارُ وألقى عصاه التَسْيارُ، وطُوي بِساطُ ذلك الانبساط، وحُلَّ ارتباطُ ذلك الاغتباط، ونشأتْ في صدورِ كثيرٍ من الخاصّةِ والعامّةِ غوائل،

---

(١) ـ في الأصل: خطبة.

(٢) ـ الكلمة غير واضحة المعالم في الأصل، وهي تقدير من المحقق.

(٣) ـ بياض في الأصل، تقديره: فقد.

وتُذُكِّرت كوائن، واعتُرِضَتْ عليه أشياء، ممّا لو صَدَرَتْ ممّن سبقه من الملوك لما اجترىء على أن تَفُوهَ بها الألسنة، ولسترت السيئةَ الحسنةُ، وذلك لتمكُّنِ الهيبةِ إذ ذاك وسقوطِها الآن، واستحكامِ الرهبة في ذلك الوقت وارتفاعِها اليوم، فلم يكُنْ الحافِظُ لتلكَ السيرةِ قديماً إلاّ سياجاً من سَطْوةٍ مخوفة وجبريّة مرهوبة، فعارَضَها من هذا السلطان لينٌ هدّ رُكْنَ الجزالةِ، وحِلْمٌ فلّ[1] غَرْبَ الصرامةِ، وتأنٍّ[2] قلب شتات العزم، واسترسالٌ أُلْقِيَ على ثغْرة الجدّ من الحزم، واسْتَنسر البغاثُ، واستأسدت السنانير. وكان القَدَرُ الذي يحصل من إرادةِ التدبير البيّن، وإقامةِ الحُكْم السياسي، وكُلّ فيه التدبيرُ الإلهيُّ إلى النَفْسِ، وتظهر على عقب ذلك الصنعِ الربّاني صفاتُ العجز، قضايا تقِفُ العقولُ الحصيفةُ، والأفهامُ النافذة، والإدراكات التامّةُ، حسيرةً دونَ الاستيلاء على ما تضمّنتهُ من الحِكم البالغة .... [3] الباهرة، ولله القدرةُ (ص ٣٢٧) العاليةُ عَزَّ وجهُه.

---

(١) - في الأصل: بلّ.

(٢) - في الأصل: وثانٍ.

(٣) - بياض في الأصل مقدار كلمة تقديرها: والعبر أو والآيات.

تتميم

قد جعل الله الحَمْدَ خاتمةَ دعوى أهلِ اصطفائه، الحالّين محلَّ الكرامة من جنّات النعيم، وإنّ ذلك لما أذهب الله عنهم من الحَزَنِ، حسبما تشهدُ بذلك الآيةُ الاخرى، وهي قوله تعالى: ﴿وقَالُوا الحَمْدُ لله الذي أذْهَبَ عَنّا الحَزَنَ إنَّ رَبَّنا لَغفُورٌ شَكُورٌ * الذي أحَلَّنَا دارَ المُقامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنا فيها نَصَبٌ وَلاَ يَمَسُّنا فيها لُغُوبٌ*﴾[1].

وهذه الصورةُ السادِسَةُ أحقُّ بحمدِ الله من جميعِ المواطن التي تقَدَّمَتْها، وسنوضح وَجْه ذلك إن شاء الله، وهو أنّ الابتلاء في هذه الصورةِ السادسةِ هو أعظمُ الابتلاءات، فمن لَحِقَهُ منه شيءٌ يَحِقُّ عليه حمدُ الله، لِما دَفَعَ الله عنه ممّا هو أعْظَمُ من الابتلاء الذي لَحِقَهُ، فلن يَعْرِضَ في الدُّنيا ابتلاء إلاّ ويَصْحَبُه من لُطْفِ الله ما (لو عري عنه لما أطاقه الظنّ فما الظنُّ با)[2] لذي هو أعظمُ مِنْهُ أو أعَمُّ منه تمحيصاً وإبتلاء أو مَنْ سَلِمَ مِنْهُ وعُوفِيَ عنه، فَمَنْ أحقُّ بالحمدِ مِنْهُ! وهو المعافى في موضع تراكم الابتلاء، والممنون عليه بالسلامةِ ممّا لِحقَ سواهُ من التمحيص.

فللهِ الحمد حمداً يبلغنا رضاه، ويتكفّلُ لنا بجميل صُنْعِهِ، والحمدُ لله حَمداً يخوّلُنا رحمته،، ويهيء لنا رشداً من الأمْر، والحمدُ لله حمداً يُوجِبُ المزيدَ من نعمته، ويكفُّ المخوفَ من نقمته، والحمدُ لله بجميعِ المحامد التي يَحْمَدُهُ بها الأوّلونَ والآخرون، والحمدُ لله بالمحامد التي يَحْمَدُهُ بها ملائكة

---

(١) ـ الآيتان ٣٤ ـ ٣٥ من سورة فاطر.

(٢) ـ ما بين القوسين سقط من المتن، وأثبته الناسخ في الحاشية.

قُدْسِهِ، والحمدُ لله بالمحامد التي يُثْني بها على نَفْسه، والحمدُ لله بكلّ حمدٍ يَليقُ بجلاله، ويوافِقُ مقتضى كماله، ويتسنّى به للحامِدِ مُنْتَهى آمالِهِ، وصلّى الله على محمّد وعلى آلِهِ، وسَلّم تسليماً كثيراً.

تمّ كتابُ جنّةِ الرِضا [في التسليم]* لِمَا قدّر الله وقَضى تأليف الشيخِ الفقيه أبي يحيى بنِ أبي بكر بن عاصم القيسيّ رَحِمَهُ الله تعالى ورَضِيَ عنهُ وصلّى الله وسلّم على محمّدٍ وآله وصَحْبِهِ وسَلّم تسليماً والحمدُ للهِ على كُلِّ حال.

* ـ سقطت من الأصل.

فهارسُ جَنةِ الرِّضا

١ ـ فهرس الآيات القرآنية
٢ ـ فهرس الأحاديث النبويّة الشريفة
٣ ـ فهرس الأمثال والأقوال والحكم
٤ ـ فهرس الأشعار
٥ ـ فهرس أسماء الأشخاص
٦ ـ فهرس أسماء القبائل والجماعات
٧ ـ فهرس أسماء الأماكن
٨ ـ فهرس أسماء الكتب الواردة في المتن
٩ ـ فهرس مصادر التحقيق
١٠ ـ فهرس المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

(١)
فهرس الآيات القرآنية

الآية	السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
: ﴿أتأمرون الناس بالبرّ وتنسون أنفسكم﴾	البقرة	٤٤	١ / ١٣٢
: ﴿اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم﴾	يوسف	٥٥	١ / ١٥٩
: ﴿إذ تبرأ الذين اتّبعوا من الذين اتُّبعوا...﴾	البقرة	١٦٦	٢ / ٣٠٤
: ﴿إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا﴾	التوبة	٤٠	١ / ١٣٩
: ﴿اذكروا نعمتي﴾	البقرة	٤٠ / ٤٧ / ١٢٢	١ / ١١٨
: ﴿الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له﴾	العنكبوت	٦٢	١ / ٢٣٤، ٢٤٤
: ﴿ألم يأنِ للّذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق﴾	الحديد	١٦	٢ / ٣٠٣
: ﴿الآن حصحص الحقّ﴾	يوسف	٥١	٢ / ٥٩
: ﴿أليس الله بكاف عبده﴾	الزمر	٣٦	٢ / ٣٧
: ﴿أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر﴾	الكهف	٧٩	١ / ١٦٣، ١٦٥
: ﴿أمّن يجيب المضطر إذا دعاه﴾	النمل	٦٢	٢ / ١١٩، ٢٥٨، ٢٥٩
: ﴿إن شرّ الدوابّ عند الله			

الآية	السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
الصمّ البكم الذين لا يعقلون﴾	الأنفال	٢٢	٣ / ٤٥
: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾	لقمان	١٣	٣ / ٤٦
: ﴿إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البريّة﴾	البيّنة	٧	٢ / ٦٤
: ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾	غافر	٦٠	٢ / ١٨٤
: ﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البيّنات . . ﴾	البقرة	١٥٩ ـ ١٦٠	١ / ١٢٦
: ﴿إنّ الله لا يظلم مثقال ذرّة . . . ﴾	النساء	٤٠	٢ / ١٩٥
: ﴿إنّ الله لا يغفر أن يشرك به . . . ﴾	النساء	٤٨ / ١١٦	١ / ١٢٦
: ﴿إنّ الله يحكم ما يريد﴾	المائدة	١	٢ / ٢٩٢
: ﴿إنّ الله يفعل ما يشاء﴾	الحج	١٨	٢ / ٢٩٢
: ﴿إنّ المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾	النساء	١٤٥ ـ ١٤٦	١ / ١٢٦
: ﴿إنّا جعلنا ما على الأرض زينة . . . ﴾	الكهف	٧	١ / ٢٠١
: ﴿إنّك ميّت وإنهم ميّتون﴾	الزمر	٣٠	٣ / ٢٤
: ﴿إنّما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله . . ﴾	المائدة	٣٣ ـ ٣٤	١ / ١٢٧، ١٢٨

الآية	السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
: ﴿إنّما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء. . .﴾	يونس	٢٤	١ / ٢٠٤
: ﴿إنّما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾	الزمر	١٠	٣ / ١٢
: ﴿إنّي مسّني الضرّ وأنت أرحم الراحمين﴾	الأنبياء	٨٣	٢ / ١٢٦
: ﴿بسم الله مجراها ومرساها إنّ ربي لغفور رحيم﴾	هود	٤١	٢ / ١٨٢
: ﴿بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة﴾	القيامة	٢٠ ـ ٢١	١ / ٢١٤
: ﴿الحمد لله الذي أذهب عنّا الحزن. .﴾	فاطر	٣٤	١ / ٩٣
: ﴿خلق الموت والحياة ليبلوكم﴾	الملك	٢	١ / ١٠٣
: ﴿ذلك بأن الله لم يك مغيّراً نعمة. .﴾	الأنفال	٥٣	١ / ١١٧
: ﴿ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾	البقرة	٢٠١	٣ / ٥٥
: ﴿ربنا اصرف عنّا عذاب جهنّم إنّ عذابها كان غراما﴾	الفرقان	٦٥	٣ / ٥٥
: ﴿ربّنا أفرغ علينا صبراً وثبّت أقدامنا وانصرنا على			

الآية	السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
: ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملا﴾	هود	٧	٢ / ٢٤٥
: ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملا﴾	الملك	٢	٢ / ٢٤٥
: ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها. .﴾	فاطر	٢	١ / ٢٣٤
: ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾	الكهف	٤٦	١ / ٢٠١
: ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا. .﴾	الزخرف	٣٢	١ / ٢٤٤
: ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾	يوسف	٣	٢ / ١٥٧
: ﴿هذا تأويل رؤياي من قبل. . .﴾	يوسف	١٠٠	٢ / ٢٠٤
: ﴿هل أتى على الإنسان. . . .﴾	الإنسان	١	١ / ٣٠٢
: ﴿هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض﴾	فاطر	٣	١ / ٢٣٤
: ﴿هو الذي يسيّركم في البرّ والبحر. . .﴾	يونس	٢٢ ـ ٢٣	٢ / ١٨٠، ١٨١
: ﴿وإبراهيم الذي وفّى﴾	النجم	٣٧	٢ / ٩٤
: ﴿واتّقوا فتنة لا تصيبنّ			

الآية	السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
: ﴿يا قوم إن كان كَبُرَ عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت﴾	يونس	٧١	٢ / ٣٠٦
: ﴿يمحق الله الربا ويربي الصدقات﴾	البقرة	٢٧٦	١ / ١٢٧
: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي. .﴾	المائدة	٣	٢ / ٧١
: ﴿يوم يفر المرء من أخيه. . . .﴾	عبس	٣٤ـ٣٧	١ / ٩٥

(٢)
فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

الحديث	الصفحة
«أما أنك لو قلت حينما أمسيت أعوذ بكلمات الله التامات»	١ / ١١٥، ٢ / ٠٩
«أمانٌ لأمتي من الغرق إذا ركبوا أن يقولوا . . .»	٢ / ١٨٢
«إن الله ليؤيِّد هذا الدين بالرجل الفاجر . . .»	٢ / ٢٨٤
«إنما لامرىءٍ ما نوى»	١ / ١٠٦
«إنّ أباكما كان يعوِّذ بهما إسماعيل واسحق»	٢ / ٥٣
«إن شئت دعوت وإن شئت صبرت . . .»	٢ / ١٢١
«إنّ الله تعالى لما خلق الخلق ثم العقل . . .»	٣ / ٤٥
«إن الله تعالى يبغض الذي لم يُرزأ في نفسه وماله»	٣ / ٣٣
«إن الله يدفع عن العبد الميتة السوء بالصدقة يتصدّق بها»	٢ / ١٢٠
«إن لله حجتين : ظاهرة وباطنة . . .»	٣ / ٤٥
«أنا عند ظنّ عبدي بي فليظنّ بي خيراً» (حديث قدسي)	٢ / ٣٣
«أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي» (حديث قدسي)	١ / ١٩٤
«أنتم شهداء الله في الأرض»	٢ / ١١٥
«انطلق ثلاثة نفرٍ ممن كان قبلكم . . . .»	٢ / ٧٨
«انظروا في الدنيا لمن دونكم . . .»	١ / ٢١٥
«إنك إن تَدَعْ ورثتك أغنياء . . . .»	١ / ١٨٣
«إنّه لن ينزل بلاءٌ من السماء إلاّ بذنب . . .»	١ / ١١٧
«الإيمان نصفان : نصفٌ في الصبر ونصف في الشكر»	٣ / ١٥
«الإيمان هو الصبر والسماحة»	٣ / ١٥
«بسم الله الرحمن الرحيم . من محمّد إلى معاذ بن جبل . .»	٣ / ٢٠
«تدمع العين ويحزن القلبُ ولا نقول إلاّ ما يُرضي الربَّ . .»	٣ / ١٨
«الثواب للصبر من الجنة»	٣ / ١٥
«حدّثوا عن بني اسرائيل ولا حرج»	٢ / ١٥٩
«الدنيا دارُ من لا دارَ له . . .»	١ / ٢٠٤

(٣)
فهرس الأمثال والأقوال والحكم

القول	القائل	الصفحة
ـ سقط به الغِطاء على سرحان		١ / ١٧٨
ـ الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة	الشبلي	١ / ١١٨
ـ الصابر على المحنة بين أجرٍ مدّخر وفرجٍ يُنتَظر. .	ابن رشيق	٢ / ٢٢٥
ـ الصبر على المصيبة مصيبةٌ على الشامت بها	ابن المعتز	٣ / ١٤
ـ الصبر مطيّةٌ لا تكبو وسيفٌ لا ينبو	علي بن أبي طالب	٣ / ١٤
ـ الصيْدُ بغراب أكيس		٢ / ٢٠٢
ـ طلاقُ الدنيا مهرُ الجنّة	ابن المعتز	١ / ٢٠٥
ـ العاقل لا يَرُعْه ما ستر الله من عيبه	ابن المعتز	١ / ١٢٤
ـ عجبت لمن أطاق هواه كيف لم يحمل الجَبَل		١ / ١٣٣
ـ عجبت لمن يقدر على الغنيمة بالكلام كيف لم يقدر على السلامة بالسكوت	أبو الفضل بن شرف	٢ / ٨٦
ـ العلمُ يُزارُ ولا يزور وإنّ العلم يؤتى ولا يأتي	مالك	٢ / ٣٨
ـ عند حُسْن الظن بالأيّام تحدث الغِيَر	مثل فارسي	٢ / ١١٣
ـ الغنى في الغربة وطن، والمقلّ في أهله غريب	بعض أهل الحكمة	١ / ١٩٧

القول	القائل	الصفحة
إلاّ صِدّيق		٢ / ٧
ـ لا يكونُ كلُّ ما يُخافُ منه		٢ / ٣٦ ـ ٣٧
ـ لستُ ممن يقطع نفسه بصلة وطنه	سهل بن هارون	٢ / ١٤٨
ـ لكلِّ مقامٍ مقال		٣ / ٤١
ـ لم يضع من مالك ما وعظك	أكثم بن صيفي	١ / ٢٢٩
ـ لو ذات سوارٍ لطمتني		٢ / ٢٢٢
ـ لولا حوادث الأيّام لم يعرف صبر الكرام ولا جزع اللئام		٢ / ١٣٩
ـ ليس بين الغائب والميت إلاّ رجاء الأوبة	ابن رشيق	٢ / ١٥٦
ـ ليس الزهد بترك كلّ الدنيا . .	بعضهم	١ / ٢٠٧
ـ ليس على أديبٍ غربة	خلف بن صفوان	٢ / ١٤٨
ـ ليس مع العزاء مصيبة	أبو بكر الصديق	٣ / ٢٠
ـ ليس الناس بشيء من أنسابهم أقنع منهم بأوطانهم	عبدالله بن الزبير	٢ / ١٥٥
ـ ما أنكرتم من زمانكم فبسوء أعمالكم	الحسن	١ / ١٢١
ـ ما ترك من الجهل شيئاً من أراد أن يُظهر في الوقت خلاف ما أظهره الله فيه	ابن عطاء الله الاسكندري	٢ / ٣٠٢
ـ ما رأيتُ ظالماً أشبه بمظلوم من الحاسد	بعضهم	١ / ٢٧٢

القول	القائل	الصفحة
ـ هوّن عليك ولا تولع بإشفاق	مثل عربي	٣ / ٢٩
ـ واعلم أن البغي أعجلُ الذنوب عقوبةً	ابن شرف	١ / ١٢٢
ـ وكان القول ما قالت حذامِ		٢ / ٢٢٢
ـ ومن للعمى بالعور		٣ / ٤١
ـ ويلٌ للشجيّ من الخلي		٢ / ٢٢١
ـ يا ابن آدم تذمّ أهل زمانك وأنت واحد منهم كأنّ جميعهم الجريء وأنت وحدك البريء . . .	أبو الفضل جعفر بن شرف	٢ / ٢٦٠ ـ ٢٦١
ـ يشفيك من الحاسد أنّه يغتمّ عند سرورك	ابن المعتز	١ / ٢٧٢

(٤)

فهرس الأشعار

القافية	البحر	عدد الأبيات	القائل	الصفحة
الأسبابِ	الكامل	٢	أبو تمّام أو العتّابي	٣ / ٦١
الصحابِ	الوافر	٧	ابن الرومي	٣ / ٧٢
بالشرابِ	الخفيف	٣	ابن وكيع	٣ / ٧٣
عاتب	مجزوء الكامل	٤		٣ / ٣٠
نَسَبِ	البسيط	٣	أبو عبدالله الحسن المهذّب	٢ / ١٤٨
حسبي	الخفيف	١٢٠	أبو يحيى بن عاصم (المؤلّف)	١ / ١٤٣ ـ ١٥٥
فارغبِ	الكامل	١	النمر بن تولب	١ / ٢٢٩
الخطْبِ	الطويل	١	ابن المقفّع	٢ / ١٤٩
مُغَلَّبِ	الطويل	١	امرؤ القيس	٢ / ٢٢٢
حبيبِ	الطويل	١	زيادة بن زياد	١ / ١٠٩
طبيبِ	الطويل	١	المتنبّي	٣ / ٢٠
نصيبي	المتقارب	٢	عبدالله بن المعتزّ	٣ / ٥٩
نوائبه	الطويل	٢	محمد بن يزيد المهلّبي	٣ / ٦٩
لنوائبه	الطويل	٢	أبو جعفر أحمد بن خاتمة	٣ / ٦
أقاربه	الطويل	٣		٣ / ٦٢
شربه	السريع	٤	ابن مناذر	٣ / ٣٢
حطبُهْ	مجزوء البسيط	١		٢ / ٢٢٣
قَلْبُهْ	السريع	٣	عبدالله بن المعتزّ	٣ / ٦٤
عذابها	الكامل	٢	منصور الهروي	١ / ١٣٧
حبيبُها	الطويل	٣		٢ / ٥٠
حبيبة	المتقارب	٢	محمود الورّاق؟	٣ / ٢٧

قافية التاء

القافية	البحر	عدد الأبيات	القائل	الصفحة
مُواتُ	الطويل	٢	ابن الرومي	١ / ١٢٥
للفوْت	السريع	٢	أبو العتاهية	١ / ٢١١

القافية	البحر	عدد الأبيات	القائل	الصفحة
سيّدا	الكامل	٢	أبو محمّد الحسن المهذّب	٣ / ٥٩
الحسّادِ	الكامل	١	عبيد بن أبي عبيد	٢ / ١٢٦
مَعادِ	الوافر	٢		٢ / ١٩٣
والثمادِ	الوافر	٢		٢ / ٥٢
العوادي	الخفيف	٢	لسان الدين بن الخطيب	٢ / ١٥٢
متعبّدِ	الكامل	٣	سعيد الدارمي	١ / ١٦٢
أحَدِ	البسيط	٣	ابن بسّام	١ / ٢٧٤
الحِقْدِ	الطويل	٢	ابن الشبل البغدادي	١ / ٢٧٣
خالِدِ	السريع	٢	أبو فراس الحمداني	٣ / ٢١
المهنّدِ	الطويل	٢	إحدى بنات ذي الأصبع العدواني	١ / ٢٨٥
حسودِ	الكامل	٢	أبو تمام حبيب بن أوس	١ / ٢٧٥
وحصيدِ	الخفيف	٢	ابن مناذر	٣ / ٣٢
يستبِدّ	الرمل	١	عمر بن أبي ربيعة	٢ / ٢٢٢
والدّهْ	الطويل	٣		٣ / ٦٠
فزِدْهُ	الوافر	٢	أبو العتاهية؟	٢ / ١٣٦
بالوَحدة	السريع	٢		٣ / ٧٠
			قافية الراء	
إسارُ	الطويل	٩	مهيار الديلمي	٢ / ١٤٧
مِسْمارُ	البسيط	٢	فتى من بني عجل	٢ / ٩١
النّارُ	البسيط	٢		٢ / ٩١
يفتِرُ	السريع	٢	أبو بكر الخوارزمي	١ / ٣١١
والجَزْرُ	الطويل	٢	إحدى بنات ذي الأصبع العدواني	١ / ٢٨٥
البَصَرُ	البسيط	٢	رجل من همذان	٢ / ١٩٤

القافية	البحر	عدد الأبيات	القائل	الصفحة
خَطَرُ	البسيط	٣	شمس المعالي قابوس بن وشمكير	١ / ١٠٤
يُنتظرُ	مجزوء الوافر	٢	أبو العتاهية	٢ / ١٩٣
الفقْرُ	الطويل	١		١ / ٢١٦
الشكْرُ	الطويل	٢	محمود الورّاق	١ / ١١٢
سامِرُ	الطويل	٥	المضاض بن عمرو الجرهمي	٢ / ١٨
أمْرُ	الطويل	١		٢ / ٢٠٨
مرُّ	الطويل	٣	أبو فراس الحمداني	٢ / ٢٣٠
فَجَرا	البسيط	٢	البحتريّ	٣ / ٦٩
فقْرا	الطويل	١		٢ / ١٢
أميرا	مجزوء الكامل	٤	أبو فراس الحمداني	٢ / ٢٢٩
الإصدار	الكامل	٢	ابن الرومي	٢ / ١٢٨
المقدارِ	الكامل	٢	جمال الدين أبو الفضل الشيباني	١ / ٢٥٩
الصبْرِ	الطويل	٢		٣ / ٤٠
الصبْرِ	السريع	٣	أبو العتاهية	٣ / ١٤
يُزري	الطويل	٢		١ / ٢١٣
منتصرِ	البسيط	٣	فتى من بني عجل	٢ / ٩١
والمِطْرِ	الطويل	٢	إحدى بنات ذي الأصبع العدواني	١ / ٢٨٥
الدهرِ	الطويل	١	أبو العتاهية	٣ / ٣٩
العَوَرِ	البسيط	١	أبو عثمان الخالدي؟	٣ / ٤١
تقصيري	البسيط	١		١ / ١٣٢
ومرّ	المتقارب	٥	أبو القاسم الشريف الحسني	٣ / ٨
نُشَرْ	المتقارب	١	امرؤ القيس	٢ / ٢٤٧
الفقيرْ	السريع	٢		١ / ٢٢٨
ذَكَرْ	الطويل	٣	صالح بن عبد القدّوس	٣ / ٧٣

القافية	البحر	عدد الأبيات	القائل	الصفحة
		قافية الضاد		
مُمْحِضُ	الكامل	٢	ابن الحدّاد الوادي آشي	٣ / ٦٥
الرِّضَا	الطويل	٢	أبو سعيد بن لبّ	١ / ١٣٧
انقضى	الكامل	٤	أبو تمام الطائي	١ / ٢٤٢
بعضِ	الطويل	٢	أبو خراش الهذلي	٣ / ٣٠
بعضِ	الطويل	٢	المهلّبي	٢ / ١٤٨
		قافية الطاء		
شطّوا	الطويل	١١	أبو الوليد بن زيدون	٢ / ٢٢٣ ـ ٢٢٥
		قافية العين		
فتبَعُ	الكامل	١	المتنبّي	٢ / ٢٨
أتضعضَعُ	الكامل	٣	أبو ذؤيب الهذلي	٣ / ٣٧
مضلعُ	الكامل	٢	طريح بن إسماعيل الثقفي	١ / ٢٨٢
شفيعُ	الطويل	٢	أبو القاسم بن أبي العافية	٢ / ٢٠٦
تفجّعا	الطويل	٤	أخت يزيد بن قرّة	٢ / ١٠٢ ـ ١٠٣
صَنَعا	المنسرح	٣	عليّ بن الجهم	٢ / ١٥٠
اجتماعِ	الوافر	٢	أبو تمّام	٢ / ١٤٣
القنوعِ	الوافر	١	الشمّاخ	١ / ٢١٢
رَفْعِهِ	السريع	٤	ابن أبي طاهر	١ / ٢٧٤
والدرّاعَةْ	الخفيف	٢	أبو العتاهية	٢ / ٢١٥
مَعَهْ	المنسرح	٥	الأضبط بن قريع السعدي	١ / ٢٣٠
وعي	مجزوء الخفيف	٥	أبو العتاهية	١ / ١٤٣
		قافية الفاء		
وأرأفُ	الطويل	٢	منصور الفقيه؟	٣ / ٤٠
تُعْرَفُ	الكامل	٢	منصور الفقيه	٣ / ٣٩

القافية	البحر	عدد الأبيات	القائل	الصفحة
وينصِفُ	الطويل	٢	أبو جعفر أحمد بن محمد السالمي	٢ / ٢٤٥
عِطفا	الطويل	٣	ابن الرومي	٣ / ٧٢
مُنيفِ	الوافر	٥	ميسون بنت بحدل	٢ / ١٤٥
معروفَهْ	الكامل	٢	أبو الفضل الميكالي	٣ / ٥٨
صروفَهْ	المجتثّ	٢	جمال الدين عبد الرحيم بن الأخوة الشيباني	١ / ٢٩٨
			قافية القاف	
الوَرَقُ	المنسرح	٢	أحمد بن الحارث	١ / ١٩٨
ضيقُ	المتقارب	٢		١ / ٢٤٥
الشقيق	المجتث	١		٣ / ٦٠
وثاقا	الوافر	٢	ناصح الدين أبو بكر الأرجاني	٣ / ٦٧
طلقا	الخفيف	٥	الخضر بن أبي العافية	١ / ١٠٣
شفيقا	الطويل	٢	ابن جبير	١ / ٢٢٢
خليقا	الكامل	٣	أبو العبّاس الناشىء	٣ / ٦٧
الآفاقِ	الخفيف	٢	العتّابي	٣ / ٣١
وإرهاقِ	الطويل	٣	لسان الدين بن الخطيب	١ / ٢٠٨
الطريقِ	الوافر	٥	عبدالله بن المعتزّ	٣ / ٧١
عريقِ	الطويل	٢	أبو نواس	٣ / ٢١
بمفيقِ	الطويل	٢		٣ / ٦٩
			قافية الكاف	
أخوكْ	الكامل	٢	العبّاس بن عبيد	٣ / ٦١
أبلاكِ	الكامل	١		٢ / ٢٠
الفلكِ	المنسرح	٢	أبو العتاهية	١ / ٩٧
أمْرِكْ	الوافر	٢	أبو جعفر أحمد بن خاتمة	١ / ١٤١

القافية	البحر	عدد الأبيات	القائل	الصفحة
عليمُ	مخلّع البسيط	٣	أبو عمران المرتلّي	١ / ١٢٥
ومطعما	الطويل	١	أبو الفتح البستي	٢ / ١٤٨
وتَسْلما	الطويل	٢	حميد بن ثور الهلالي	٣ / ٧
وكلوما	الطويل	١		٢ / ١٦٨
التقديما	الخفيف	٢	أبو عبدالله محمد بن شرف	١ / ١٠٨
بالتمام	المنسرح	٤	شمس الدين أبو المكارم عبدالسلام بن محمود	١ / ٣٢٤
إفهامي	الكامل	٢	عليّ بن جبلة	٣ / ٥٦
بدمِ	البسيط	١	البوصيري	٢ / ١٣٤
القَسَمِ	البسيط	١	البوصيري	١ / ١٢٨
العالَمِ	المتقارب	٢	عبدالله بن المعتزّ	١ / ٢١٣
الوشومِ	الوافر	١	معانق بن الجدّ	٣ / ٤٧
النَّوْمِ	البسيط	٢	محمد بن عبدالملك الزيّات	١ / ١١١
النِعَمْ	المتقارب	١	عليّ بن أبي طالب	١ / ١٢٢
			قافية النون	
بائنُ	الطويل	٣	عبدالله بن المعتزّ	٣ / ٧٤
حَسَنُ	المنسرح	٢		٣ / ١٤
تكونُ	الخفيف	٣	أبو محمد عبدالله بن الحسين القرطبي	٢ / ٣٦
تهونُ	الطويل	٢	أبو المظفر الأبيوردي	٢ / ٢٦٠
يهونُ	مخلّع البسيط	٢	بشّار بن برد	٣ / ٤٣
غُبنوا	المديد	٢	أبو العتاهية	١ / ٢٠٩
يخونا	الوافر	٢		٣ / ٦٨

القافية	البحر	عدد الأبيات	القائل	الصفحة
بآخرينا	الوافر	٢	مختلفٌ فيه	٢ / ٢٦١
لساني	الخفيف	٣	العبّاس بن الأحنف	٢ / ١٦٥
أعطاني	البسيط	١	مسلم بن الوليد	٣ / ٦
وأوطانِ	البسيط	٢	أبو تمام؟	٢ / ١٤٥
الأماني	الوافر	٢	أحمد بن خميس الجزيري	٢ / ٢٤٠
الزمانِ	الوافر	٣		٣ / ٦٤
يرتميانِ	الطويل	٢		٢ / ١٧٠
الحَزَنِ	البسيط	٢		٢ / ١٦٦
الوَسَنِ	البسيط	٢	أعمى من قريش	٣ / ٤٣
منّي	الوافر	٧	أبو العتاهية	١ / ١٣٦
المنونِ	الوافر	٢		١ / ١٦٣
هجينِ	مجزوء الكامل	٣	أبو أحمد بن أبي البسّام	٢ / ١٤٩
الدين	البسيط	٢	الشافعي	٣ / ٣٥
تنافيني	البسيط	٣	الشريف الرضيّ	١ / ٣٠٤
والحَزَنْ	الطويل	٣		٢ / ١٦٤
يقينْ	السريع	٢	صالح بن جناح	٣ / ٦٨
وسكونُهُ	الكامل	٣	أبو الحسين بن الحاج	٣ / ٧٠
وصنْهُ	الخفيف	٢	صالح بن شريف الرندي	٣ / ٧١
منْهُ	الوافر	٢		٣ / ٦٤
إدمانُها	المتقارب	٢		١ / ١٢٠
الأثانة	المنسرح	١		١ / ١٧٠
كامنة	الكامل	١	أبو القاسم بن الجدّ	٣ / ٥٢
قافية الهاء				
تُعطاهُ	الكامل	١	البحتريّ	٢ / ٧

القافية	البحر	عدد الأبيات	القائل	الصفحة
شكواهُ	الطويل	٣	أبو محمد عبدالله بن جزيّ	٢ / ٢٦٠
وتكرهُ	الكامل	٢	ابن الرومي	٢ / ٦١
ومكروه	البسيط	٢	أبو الصلت الداني	٣ / ٥٢
			قافية الواو	
ذَوِ	الطويل	٤	يزيد بن الحكم الثقفي	٣ / ٦٦
بالحلاوة	مجزوء الكامل	٢	منصور الفقيه	٣ / ٧٣
			قافية الياء	
الأعاديا	الطويل	٢	أبو حيّان الغرناطي	١ / ٢٧٥
واقيا	الطويل	١	أفنون التغلبي	٢ / ٥٥
الصبيُّ	الوافر	٢	ابن العريف الصوفي	٣ / ١٨
خفيُّ	المتقارب	٢	النقّاش	٣ / ٨
لديْهِ	الوافر	٣	أبو العتاهية	٢ / ٢١٨
إليْهِ	الخفيف	٢		١ / ١١٠
إليْهِ	مخلّع البسيط	٢		٢ / ١٨٠
تقضّيها	السريع	٢	محمد بن عبدالله بن صالح البغدادي	١ / ٣١٤
توقّينا	البسيط	١	عبدالله بن سليمان وهب؟	٢ / ٣٧
العافية	السريع	١		٢ / ١١٥

(٥)

فهرس أسماء الأشخاص

- الهمزة -

- الباء -

- التاء -

ـ الثاء ـ

ـ الجيم ـ

ـ الخاء ـ

- الدال -

- الذال -

- الراء -

- الزاي -

- السين -

- الشين -

ـ الصاد

ـ الطاء ـ

ـ الظاء ـ

ـ العين ـ

- الغين -

ـ الفاء ـ

- القاف -

- الكاف -

- اللام -

ـ الميم ـ

- النون -

ـ الهاء ـ

ـ الواو ـ

ـ الياء ـ

(٦)

فهرس أسماء القبائل والجماعات

(٧)
فهرس الأماكن

ـ الألف ـ

ـ التاء ـ

ـ الثاء ـ

ـ الجيم ـ

- الحاء -

- الخاء -

- الدال -

ـ الذال ـ

ـ الراء ـ

- الزاي -

- السين -

ـ الشين ـ

ـ الصاد ـ

الطاء ـ

ـ العين ـ

ـ الغين ـ

ـ الفاء ـ

ـ القاف ـ

ـ الكاف ـ

اللام ـ

ـ النون ـ

(٨)

فهرس أسماء الكتب الواردة في المتن

(٩)

فهرس المصادر والمراجع

(أ)

المصادر والمراجع العربية

١ ـ آخر أيام غرناطة،
لمؤلّف أندلسي من رجال القرن التاسع الهجري معاصر لسقوط غرناطة،
حققه وقدم له: الدكتور محمد رضوان الداية،
دار حسّان للطباعة والنشر،
دمشق
الطبعة الأولى
١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

٢ ـ (كتاب) الآداب،
ابن شمس الخلافة، جعفر،
مكتبة الخانجي
مصر
١٣٤٩هـ / ١٩٣٠م

٣ ـ (كتاب) الآمل والمأمول
(المنسوب) للجاحظ،
تحقيق: الدكتور رمضان ششن،
دار الكتاب الجديد
بيروت
الطبعة الثانية
١٩٨٣م

٤ ـ الإحاطة في أخبار غرناطة،
لسان الدين بن الخطيب،
تحقيق: محمد عبد الله عنان،
مكتبة الخانجي
القاهرة
الطبعة الأولى
المجلد الأول: ١٩٧٣م
المجلد الثاني: ١٩٧٤م
المجلد الثالث: ١٩٧٥م
المجلد الرابع: ١٩٧٧م

٥ ـ الأحكام السلطانية والولايات الدينية،
الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي
(ت ٤٥٠ هـ)،
دار الكتب العلمية
بيروت
١٩٧٨م

٦ ـ إحياء علوم الدين (٤ ج)،
الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (ت٥٠٥ هـ)
دار المعرفة
بيروت
د. ت.

٧ ـ أخبار أبي تمام،
الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى (ت ٣٣٥ هـ)،
حققه وعلق عليه: محمد عبده عزام، خليل محمود عساكر، نظير
الإسلام الهندي،

دار الآفاق الجديدة
بيروت
الطبعة الثالثة
١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م
٨ ـ أخبار الراضي بالله والمتقي لله من كتاب الأوراق،
الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى (ت ٣٣٥ هـ)،
عني بنشره: ج. هيورث. دن،
دار المسيرة
بيروت
الطبعة الثانية
١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م

٩ ـ أخبار الزمان ومن أباده الحِدْثان وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران،
المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦ هـ)،
دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت
د. ت.

١٠ ـ أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق،
الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى (ت ٣٣٥ هـ)،
عني بنشره: ج. هيورث. دن
دار المسيرة
بيروت
الطبعة الثانية
١٤٠١ هـ / ١٩٨٢م.

١١ ـ أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بينهم،

مجهول،
مطبع ريَدَ نيّر
مجريط
١٨٦٧م

١٢ ـ أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين،
البيذق، أبو بكر بن علي الصنهاجي،
دار المنصور للطباعة والوراقة
الرباط
١٩٧١م

١٣ ـ أخبار النساء،
ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر
الزرعي الدمشقي الحنبلي (ت ٧٥١ هـ)،
شرح وتحقيق: الدكتور نزار رضا،
دار مكتبة الحياة
بيروت
١٩٧٩م

١٤ ـ أخبار وتراجم أندلسية (مستخرجة من معجم السفر للسلفي ت. ٥٧٦ هـ)،
أعدها وحققها: الدكتور إحسان عباس،
دار الثقافة
بيروت
الطبعة الثانية
١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩م

١٥ ـ اختصار القدح المعلّى في التاريخ المحلّى،

ابن سعيد الأندلسي ، أبو الحسن علي بن موسى (ت ٦٨٥ هـ)،
اختصره أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن خليل،
تحقيق: ابراهيم الأبياري،
إدارة إحياء التراث
القاهرة
١٩٥٩م
١٦ ـ أدب الدنيا والدين،
الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري (ت ٤٥٠ هـ)،
حققه وعلّق عليه: مصطفى السقّا،
دار الكتب العلمية
بيروت
الطبعة الثالثة
١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٥م
١٧ ـ الأدب الكبير والأدب الصغير،
ابن المقفع،
دار الجيل
بيروت
١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م
١٨ ـ الأذكار المنتخبة من كلام سيّد الأبرار،
النووي، محيي الدين أبو زكرياء يحيى بن شرف الدمشقي الشافعي
(ت ٦٧٦ هـ)،
دار الكتاب العربي
بيروت
الطبعة ١٤
١٩٨٤م

١٩ ـ (كتاب) الأذكياء،
ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧ هـ)
مكتبة الغزالي
د. ت.

٢٠ ـ أزهار الرياض في أخبار عياض (٥ج)،
المقّري، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني (ت ١٠٤١هـ)،
اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين حكومة المملكة المغربية وحكومة دولة الإمارات العربية المتحدة.
صندوق إحياء التراث الإسلامي،
الرباط
١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨م

٢١ ـ الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى،
الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد،
تحقيق وتعليق: ولدي المؤلف الأستاذ جعفر الناصري والأستاذ محمد الناصري،
دار الكتاب
الدار البيضاء
١٩٥٦م

٢٢ ـ أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم من كتاب الأوراق،
الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى (ت ٣٣٥ هـ)،
دار المسيرة
بيروت
د. ت.

٢٣ ـ الأصمعيات،

الأصمعي، أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك (ت ٢١٦ هـ)،
تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون،
الطبعة الخامسة
بيروت
د. ت.

٢٤ ـ الأصوات النضالية والانهزامية في الشعر الأندلسي،
الطرايسي أحمد أعراب،
مجلة عالم الفكر،
المجلد الثاني عشر،
العدد الأول / ابريل ـ مايو ـ يونيو ١٩٨١م
ص ١٣١ ـ ١٧٠

٢٥ ـ إعتاب الكتّاب،
ابن الأبّار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي (ت٦٥٨هـ)،
تحقيق: الدكتور صالح الأشتر،
مجمع اللغة العربية
دمشق
١٣٨٠هـ ـ ١٩٦١م

٢٦ ـ الاعتصام (٢ ج)،
الشاطبي، أبو اسحق ابراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي (ت ٧٩٠ هـ)،
تقديم: محمد رشيد رضا،
مصر
د. ت.

٢٧ ـ أعلام الكلام،
ابن شرف، أبو عبد الله محمد بن شرف القيرواني (ت ٤٦٠ هـ)،
تحقيق وتصحيح : عبد العزيز أمين الخانجي،
مطبعة النهضة
مصر
الطبعة الأولى
د. ت.

٢٨ ـ أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن (وهو كتاب نثير الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان)،
ابن الأحمر، الأمير أبو الوليد اسماعيل بن يوسف بن الأحمر الغرناطي الأندلسي (ت ٨٠٧ هـ)،
حققه وقدم له: الدكتور محمد رضوان الداية،
مؤسسة الرسالة
بيروت
الطبعة الأولى
١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م

ـ أعمال الأعلام
انظر = تاريخ اسبانيا الإسلامية

٢٩ ـ (كتاب) الأغاني (٢٤ج)،
الأصبهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (ت ٣٥٦هـ)،
مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية
القاهرة
١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٣م

٣٠ ـ الافادات والانشادات،

الشاطبي، أبو اسحق ابراهيم بن موسى الأندلسي (ت ٧٩٠ هـ)،
دراسة وتحقيق: الدكتور محمد أبو الأجفان،
مؤسسة الرسالة
بيروت
الطبعة الأولى
١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م

٣١ - (كتاب) الأفضليات،
ابن الصيرفي، أبو القاسم علي بن منجب بن سليمان (ت ٥٤٢ هـ)،
تحقيق: الدكتور وليد قصّاب، والدكتور عبد العزيز المانع،
مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق
دمشق
١٤٠٣ هـ - ١٩٨٢م

٣٢ - الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع،
القاضي عياض، عياض بن موسى اليحصبي (ت ٥٤٤ هـ)،
تحقيق: السيد أحمد صقر،
دار التراث - القاهرة
المكتبة العتيقة - تونس
الطبعة الثانية
١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م

٣٣ - (كتاب) الأمالي (٢ج)
القالي، أبو علي اسماعيل بن القاسم البغدادي (ت ٣٥٦هـ)،
دار الحديث للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت

الطبعة الثانية

١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م

٣٤ ـ الإمام العزّ بن عبد السلام وأثره في الفقه الإسلامي،

الدكتور علي الفقير،

عمان

١٩٧٧م

٣٥ ـ (كتاب) الإمتاع والمؤانسة (٣ ج)،

التوحيدي (أبو حيان)،

صححه وضبطه وشرح غريبه: أحمد أمين وأحمد الزين،

لجنة التأليف والترجمة والنشر

مصر

د. ت.

٣٦ ـ (كتاب) الأمثال،

السدوسي، أبو فيد مؤرّج بن عمرو (ت١٩٥هـ)،

تحقيق: الدكتور رمضان عبد التواب،

دار النهضة العربية

بيروت

١٩٨٣م

٣٧ ـ (كتاب) الأمثال والحكم،

الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (ت بعد ٦٦٦هـ)،

تحقيق: الدكتور عبد الرزاق حسين،

دار البشير

عمّان

١٩٨٦م

٣٨ ـ إنباء الغمر بأنباء العمر (٣ ج)،
ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي،
تحقيق الدكتور: حسن حبشي،
القاهرة
١٩٧١م

٣٩ ـ انتصار الفقير السالك لترجيح مذهب الإمام مالك،
الراعي الأندلسي، شمس الدين محمد بن محمد (ت ٨٥٣هـ)
تحقيق: محمد أبو الأجفان،
دار الغرب الإسلامي
بيروت
الطبعة الأولى
١٩٨١م

٤٠ ـ أنس الفقير وعز الحقير،
ابن قنفذ القسنطيني، أبو العباس أحمد الخطيب (ت ٨١٠ هـ)
اعتنى بنشره وتصحيحه: محمد الفاسي، أدولف فور،
منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي ـ جامعة محمد الخامس
الرباط
١٩٦٥م

٤١ ـ الأنيس المطرب بروض القرطاس،
الفاسي، علي بن أبي زرع،
دار المنصور للطباعة والوراقة
الرباط
١٩٧٣م

٤٢ ـ ايضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون (٢ج)،

اسماعيل باشا البغدادي (اسماعيل بن محمد أمين بن سليم)،
دار الفكر
١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

٤٣ - (كتاب) البخلاء (٢ج)،
الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ)،
ضبطه وشرحه وصححه: أحمد العوامري بك وعلي الجارم بك،
دار الكتب العلمية
بيروت
١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م

٤٤ - بدائع البدائه،
الأزدي، علي بن ظافر،
تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم،
مكتبة الأنجلو المصرية
القاهرة
١٩٧٠م

٤٥ - بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥ ج)،
ابن اياس، محمد بن أحمد بن اياس الحنفي،
حققها وكتب لها المقدمة: محمد مصطفى،
الهيئة المصرية العامة للكتاب
القاهرة
طبعة ثانية مصورة عن الطبعة الأولى
١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م

٤٦ - بدائع السلك في طبائع الملك (٢ ج)،
ابن الأزرق، أبو عبد الله محمد بن علي الأندلسي (ت ٨٩٦ هـ)،

دراسة وتحقيق: الدكتور محمد بن عبد الكريم،
الدار العربية للكتاب
ليبيا ـ تونس
١٩٧٦م

٤٧ ـ بداية المجتهد ونهاية المقتصد (٢ج)،
ابن رشد القرطبي، أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد
(ت ٥٩٥هـ)،
دار المعرفة
بيروت
الطبعة السادسة
١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م

٤٨ ـ البداية والنهاية (١٤ ج)،
ابن كثير، أبو الفداء الحافظ الدمشقي (٧٧٤هـ)،
دقق أصوله وحققه: الدكتور أحمد أبو ملحم، الأستاذ فؤاد السيد،
الدكتور علي نجيب عطوي، الأستاذ مهدي ناصر الدين، الأستاذ
علي عبد الساتر،
دار الكتب العلمية
بيروت
الطبعة الرابعة
١٩٨٨م

٤٩ ـ (كتاب) البديع،
عبد الله بن المعتز (ت ٢٩٦هـ)،
اعتنى بنشره وتعليق المقدمة والفهارس: اغناطيوس كراتشقوفسكي،
دار المسيرة

بيروت
الطبعة الثالثة
١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

٥٠ - البديع في وصف الربيع،
الحميري، أبو الوليد اسماعيل بن عامر (ت ٤٤٠هـ)،
نشره: الأستاذ هنري بيريس،
معهد العلوم العليا المغربية
الرباط
١٣٥٩هـ - ١٩٤٠م

٥١ - البرصان والعرجان والعميان والحولان،
الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب (ت ٢٥٥هـ)،
تحقيق: الدكتور محمد مرسي الخولي،
مؤسسة الرسالة
بيروت
الطبعة الثانية
١٤٠١هـ - ١٩٨١م

٥٢ - برنامج شيوخ الرعيني،
الرعيني، أبو الحسن علي بن محمد بن علي الإشبيلي (ت ٦٦٦هـ)،
حققه: ابراهيم شبّوح،
مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم
دمشق
١٣٨١هـ - ١٩٦٢م

٥٣ - برنامج المُجاري،

المُجاري، أبو عبد الله محمد الأندلسي (ت ٨٦٢ هـ)،
تحقيق: محمد أبو الأجفان،
دار الغرب الإسلامي
بيروت
١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م

٥٤ ـ برنامج الوادي آشي،
الوادي آشي، محمد بن جابر،
تحقيق: محمد محفوظ،
دار الغرب الإسلامي
بيروت
الطبعة الأولى
١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م

٥٥ ـ البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان،
ابن مريم، أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الشريف المليتي المديوني التلمساني،
دار المطبوعات الجامعية ـ الجزائر.
د. ت.

٥٦ ـ بستان العارفين،
ابن شرف النووي، أبو زكريا محيي الدين (ت ٦٧٦هـ)،
دار الكتاب العربي
بيروت
الطبعة الأولى
١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م

٥٧ ـ بستان الواعظين ورياض السامعين،

ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن علي بن محمد
ابن علي القرشي التميمي البكري الحنبلي (ت ٥٩٧هـ)،
راجعه وقدم له: الدكتور السيّد الجميلي،
دار الكتاب العربي
بيروت
الطبعة الأولى
١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

٥٨ - البسطي آخر شعراء الأندلس،
الدكتور محمد بن شريفة،
دار الغرب الإسلامي
بيروت
الطبعة الأولى
١٩٨٥م

٥٩ - بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس،
الضبي، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة (ت ٥٩٩هـ)،
دار الكاتب العربي
القاهرة
١٩٦٧م

٦٠ - بهجة المَجالس وأنس المُجالس وشحن الذاهن والهاجس (٢ج)،
ابن عبد البر القرطبي، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد
النمري،
تحقيق: محمد مرسي الخولي،
دار الكتب العلمية
بيروت
الطبعة الثانية

١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

٦١ - (كتاب) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (٤ ج)،
ابن عِذاري المراكشي،
تحقيق ومراجعة: ج. س. كولان وا. ليفي بروفنسال،
دار الثقافة
بيروت
د. ت.

٦٢ - البيان والتبيين (٤ ج)،
الجاحظ،
دار الفكر للجميع
١٩٦٨م

٦٣ - تاج المفرق في تحلية علماء المشرق (٢ج)،
البلوي، خالد بن عيسى،
مقدمة وتحقيق: الأستاذ الحسن بن محمد السائح،
صندوق إحياء التراث الإسلامي
المغرب والإمارات العربية المتحدة
د. ت.

٦٤ - تاريخ اسبانيا الإسلامية (أو)
كتاب أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام،
لسان الدين بن الخطيب السلماني،
تحقيق وتعليق: إ. ليفي بروفنسال،
دار المكشوف
بيروت
الطبعة الثانية
١٩٥٦م

٦٥ ـ تاريخ افتتاح الأندلس،
ابن القوطية القرطبي،
تحقيق: عبد الله أنيس الطبّاع،
دار النشر للجامعيين
بيروت
١٩٥٧م

٦٦ ـ تاريخ الأندلس لابن الكردبوس
ووصفه لابن الشبّاط
(نصان جديدان)،
تحقيق: الدكتور أحمد مختار العبادي،
معهد الدراسات الإسلامية
مدريد
١٩٧١م

٦٧ ـ تاريخ بغداد (١٤ج)،
الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي (ت٤٦٣هـ)،
المكتبة السلفية
المدينة المنورة
د. ت

٦٨ ـ تاريخ الخلفاء،
السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ)،
تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد،
مطبعة السعادة
مصر
الطبعة الأولى
١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م

٦٩ ـ تاريخ الرسل والملوك (١١ج)،
الطبري، أبو جعفر محمد بن يزيد الآملي (ت ٣١٠هـ)،
تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم
دار المعارف ـ القاهرة،
الطبعة الرابعة
١٩٦٧م

٧٠ ـ تاريخ علماء الأندلس،
ابن الفرضي، أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي
(ت٤٠٣هـ)،
الدار المصرية للتأليف والترجمة
مصر
١٩٦٦م.

٧١ ـ تاريخ غرر السير،
المعروف بكتاب: غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم،
الثعالبي، أبو منصور (ت ٤٢٩هـ)،
باريس
١٩٤٠م

٧٢ ـ تاريخ قضاة الأندلس (كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا)،
النباهي، أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن المالقي،
المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت
د. ت.

٧٣ ـ تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين (السفر الثاني)،

ابن صاحب الصلاة، عبد الملك (ت ٥٩٤ هـ)،
تحقيق: عبد الهادي التازي،
دار الأندلس للطباعة والنشر،
بيروت
الطبعة الأولى
١٣٩٣هـ - ١٩٦٤م

٧٤ ـ تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس،
ابن هذيل، أبو الحسن علي بن عبد الرحمن الغرناطي،
اعتنى بإصلاحه ونشره: لويس مرسي، نشر لأول مرة بوسيلة
الفوتوغرافية بالمطبعة الشرقية لبولس غوتنهر
بباريس ١٩٣٣م

٧٥ ـ تحسين القبيح وتقبيح الحسن،
الثعالبي، أبو منصور (ت ٤٢٩هـ)،
تحقيق: شاكر العاشوري،
وزارة الأوقاف والشؤون الدينية / احياء التراث الإسلامي
(الكتاب الثامن والثلاثون)
الطبعة الأولى
١٤٠١هـ - ١٩٨١م

٧٦ ـ تذكرة الآباء وتسلية الأبناء المسمى
الدراري في ذكر الذراري،
ابن العديم الحلبي، كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله (ت
٦٦٠هـ)،
حققه وعلق عليه: علاء عبد الوهاب محمد،
دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع
الطبعة الأولى
١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

٧٧ ـ التذكرة الحمدونية،
ابن حمدون، محمد بن الحسن بن محمد بن علي،
تحقيق: الدكتور إحسان عباس،
معهد الإنماء العربي ـ بيروت
الطبعة الأولى
الجزء الأول ١٩٨٣م
الجزء الثاني ١٩٨٤م

٧٨ ـ التذكرة السعدية في الأشعار العربية،
العبيدي، محمد بن عبد الرحمن بن عبد المجيد،
تحقيق: الدكتور عبد الكريم الجبوري،
الدار العربية للكتاب
ليبيا، تونس
١٩٨١م

٧٩ ـ تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين،
أبو شامة المقدسي، شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل (ت ٦٦٥هـ)،
نشره: السيد عزت العطار الحسيني،
دار الجيل
بيروت
د. ت.

٨٠ ـ ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك (٤ج)،
القاضي عياض، أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي (ت ٥٤٤هـ)،
تحقيق: الدكتور أحمد بكير محمود،
دار مكتبة الحياة

بيروت

ودار مكتبة الفكر ـ طرابلس

١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م

٨١ ـ ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك (نصوص عن الأندلس)،

ابن الدلائي، أحمد بن عمر بن أنس،

تحقيق: الدكتور عبد العزيز الأهواني،

مطبعة معهد الدراسات الاسلامية

مدريد

١٩٦٥م

٨٢ ـ تزيين الأسواق في أخبار العشّاق،

الأنطاكي، داود،

دار حمد ومحيو

بيروت

الطبعة الأولى

١٩٧٢م

٨٣ ـ تسلية أهل المصائب،

الحنبلي، أبو عبد الله محمد بن محمد المنبجي،

دار الكتب العلمية

بيروت

الطبعة الأولى

١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦م

٨٤ ـ (كتاب) التشبيهات من أشعار أهل الأندلس،

الكتاني، أبو عبد الله محمد بن الكتاني الطبيب،

تحقيق: الدكتور إحسان عبّاس،

دار الثقافة
بيروت
١٩٦٦م

٨٥ ـ التعريف بالقاضي عياض،
لولده أبي عبد الله محمد،
تقديم وتحقيق: الدكتور محمد بن شريفة،
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
المغرب
الطبعة الثانية
١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢م

٨٦ ـ (كتاب) التعازي والمراثي،
المبرّد، أبو العباس محمد بن يزيد (ت ٢٨٦هـ)،
حققه وقدم له: محمد الديباجي،
مطبوعات مجمع اللغة العربية
دمشق
١٣٩٦ هـ ـ ١٩٧٦م

٨٧ ـ التعرّف لمذهب أهل التصوّف،
الكلاباذي، تاج الإسلام أبو بكر محمد (ت ٣٨٠هـ)،
دار الكتب العلمية
بيروت
١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م

٨٨ ـ التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً،
ابن خلدون، عبد الرحمن،
دار الكتاب اللبناني ـ بيروت

ودار الكتاب المصري ـ القاهرة
١٩٧٩م

٨٩ ـ تعريف الخلف برجال السلف،
الغول، أبو القاسم محمد الحفناوي بن الشيخ أبي القاسم الديسي
ابن سيدي ابراهيم الغول،
تحقيق: محمد أبو الأجفان وعثمان بطيخ،
مؤسسة الرسالة / بيروت
والمكتبة العتيقة / تونس
الطبعة الأولى
١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢م

٩٠ ـ التعليقات والنوادر،
الهَجْري، أبو علي هارون بن زكريا،
دراسة وتحقيق: الدكتور حمود عبد الأمير الحمادي،
دار الرشيد للنشر
بغداد
١٩٨١م

٩١ ـ تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون،
الصفدي، خليل بن آيبك،
تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم،
دار الفكر العربي
القاهرة
١٣٨٩ هـ ـ ١٩٦٩م

٩٢ ـ التمثيل والمحاضرة،
الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل (ت ٤٢٩هـ)،

تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو،
دار إحياء الكتب العربية / عيسى البابي الحلبي
القاهرة
١٩٦١م

٩٣ ـ التنوير في إسقاط التدبير،
ابن عطاء الله السكندري، أبو الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم،
دار إحياء الكتب العربية
مصر
١٣٤٥هـ
(وبهامشه: تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس للمؤلف نفسه).

٩٤ ـ تهذيب التهذيب،
ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي (ت
٨٥٢هـ)،
دار صادر
بيروت
الطبعة الأولى
١٣٢٧هـ

٩٥ ـ (كتاب) التوابين،
المقدسي، موفق الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة
(ت ٦٢٠هـ)،
حقق النصّ وعلق عليه: عبد القادر الأرناؤوط،
دار الكتب العلمية
بيروت
١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م

٩٦ ـ توشيح الديباج وحلية الابتهاج،
بدر الدين القرافي (ت ٩٤٦هـ)،
تحقيق وتقديم: أحمد الشتيوي،
دار الغرب الإسلامي
بيروت
الطبعة الأولى
١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م

٩٧ ـ ثبت أبي جعفر أحمد بن علي البلوي الوادي آشي،
الوادي آشي، أبو جعفر أحمد بن علي البلوي (ت ٩٣٨هـ)،
دراسة وتحقيق: الدكتور عبد الله العمراني،
دار الغرب الإسلامي
بيروت
الطبعة الأولى
١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م

٩٨ ـ ثمرات الأوراق في المحاضرات،
ابن حجة الحموي، تقي الدين أبو بكر علي بن محمد القادري الحنفي،
قدم له وشرحه: الدكتور مفيد قميحة،
دار الكتب العلمية
بيروت
الطبعة الأولى
١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م

٩٩ ـ جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله،
ابن عبد البر القرطبي، أبو عمر يوسف النمري (ت ٤٦٣هـ)،
قدم له وراجعه: عبد الكريم الخطيب،

راجعه وصحّحه: عبد الرحمن حسن محمود،
دار الكتب الحديثة
القاهرة
١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م

١٠٠ - الجامع الصحيح (٨ج)،
مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري،
المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت
د. ت.

١٠١ - (كتاب) الجامع في السنن والآداب والمغازي والتاريخ،
القيرواني، أبو محمد عبد الله بن أبي زيد (ت ٣٨٦هـ)،
تحقيق: محمد أبو الأجفان وعثمان بطّيخ،
مؤسسة الرسالة / بيروت
والمكتبة العتيقة / تونس
الطبعة الأولى
١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

١٠٢ - (كتاب) جامع كرامات الأولياء (٢ج)،
النبهاني، يوسف بن اسماعيل،
دار صادر
بيروت
د. ت

١٠٣ - جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس،
الحميدي، أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتّوح بن عبد الله الأزدي (ت ٤٨٨ هـ)،

الدار المصرية للتأليف والترجمة
مصر
١٩٦٦م

١٠٤ـ جغرافية الأندلس وأوروبا (من كتاب المسالك والممالك)،
لأبي عبيد البكري (ت ٤٨٧هـ)،
تحقيق: الدكتور عبد الرحمن علي الحجي،
(ساعد المجمع العلمي العراقي على نشره)
دار الارشاد للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت
الطبعة الأولى
١٣٨٧هـ - ١٩٦٨م

١٠٥ ـ (كتاب) الجماهر في معرفة الجواهر،
البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد (ت ٤٣٠هـ)،
عالم الكتب
بيروت
د. ت.

١٠٦ـ جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام،
القرشي، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب،
حققه وضبطه وزاد في شرحه: علي محمد البجاوي
د. ت.

١٠٧ ـ حدائق الأزاهر في مستحسن الأجوبة والمضحكات والحكم والأمثال والحكايات والنوادر،
ابن عاصم، أبو بكر محمد بن محمد الأندلسي الغرناطي،
طبعة حجرية
بفاس

١٠٨ ـ الحكم ابن عطاء الله،
ابن عطاء الله الاسكندري، تاج الدين أحمد بن محمد (ت ٧٠٩ هـ)،
شرح العارف بالله أحمد زروق،
تحقيق: د. عبد الحليم محمود، و د. محمود بن الشريف،
مكتبة النجاح
طرابلس
ليبيا
د. ت.

١٠٩ ـ الحلة السيراء (٢ج)،
ابن الأبّار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي (ت ٦٥٨ هـ)،
حققه: حسين مؤنس،
الشركة العربية للطباعة والنشر
القاهرة
الطبعة الأولى
١٩٦٣م

١١٠ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١٠ج)،
الحافظ أبو نعيم الأصفهاني، أحمد بن عبد الله (ت ٤٣٠هـ)
دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت
د. ت

١١١ ـ الحماسة،
البحتري، أبو عبادة الوليد بن عبيد،
تحقيق: الأب لويس شيخو اليسوعي،
دار الكتاب العربي

بيروت ـ لبنان
الطبعة الثانية
١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م

ـ حماسة أبي تمام =
انظر: ديوان الحماسة

١١٢ ـ الحماسة البصرية (٢ج)،
البصري، صدر الدين علي بن الحسن،
تحقيق: مختار الدين أحمد،
عالم الكتب
بيروت
الطبعة الثالثة
١٩٨٣م

١١٣ ـ الحيوان (٧ج)،
الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ)،
شرح وتحقيق: عبد السلام محمد هارون،
المجمع العلمي العربي الإسلامي
بيروت
الطبعة الثالثة
١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٩م

١١٤ ـ خريدة القصر وجريدة العصر (القسم الرابع: جزءان)،
العماد الأصفهاني
تحقيق الاستاذين: عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم،
دار نهضة مصر للطبع والنشر
مصر
١٩٦٤م

١١٥ ـ درّة الحجال في أسماء الرجال (ذيل وفيات الأعيان) (٣ ج)،
ابن القاضي، أبو العباس أحمد بن محمد المكناسي (ت ١٠٢٥هـ)،
تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور،
الناشر: دار التراث / القاهرة، والمكتبة العتيقة / تونس
١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م

١١٦ ـ دَرْج الغُرر ودُرْجُ الدُّرَر،
المطّوعي، عمر بن علي بن محمد (ت ٤٤٠هـ)،
تحقيق: جليل العطيّة،
عالم الكتب
بيروت
الطبعة الأولى
١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م

١١٧ ـ دلائل النبوّة،
البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين (ت ٤٥٨هـ)،
تحقيق: الدكتور عبد المعطي قلعجي،
دار الكتب العلمية
بيروت
الطبعة الأولى
١٩٨٥م

١١٨ ـ دمية القصر وعصرة أهل العصر،
الباخرزي، أبو الحسن علي بن الحسن بن علي (ت ٤٦٧هـ)،
تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو،
دار الفكر العربي.
القاهرة
١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م

١١٩ ـ دمية القصر وعصرة أهل العصر،
الباخرزي، أبو الحسن،
تحقيق: د. سامي مكي العاني،
دار العروبة للنشر والتوزيع
الكويت
١٩٨٥م.

١٢٠ ـ الديارات،
الشابشتي، أبو الحسن علي بن محمد (ت ٣٨٨هـ)،
تحقيق: كوركيس عواد،
مطبعة المعارف
بغـــداد
الطبعة الثانية
١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م

١٢١ ـ (كتاب) الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب،
ابن فرحون، برهان الدين ابراهيم بن علي بن محمد اليعمري المدني المالكي.
دار الكتب العلمية
بيروت-
(نسخة مصورة)
د. ت.

١٢٢ ـ ديوان ابن خاتمة،
ابن خاتمة الأنصاري الأندلسي، أحمد بن علي بن خاتمة (ت ٧٧٠هـ)،
حققه وقدم له: الدكتور محمد رضوان الداية،
دار الحكمة

دمشق

١٣٩٩هـ - ١٩٧٨م

١٢٣ ـ ديوان ابن خفاجة،

تحقيق: الدكتور سيّد غازي،

منشأة المعارف

الاسكندرية

الطبعة الثانية

١٩٧٩م

١٢٤ ـ ديوان ابن زيدون،

ابن زيدون، أبو الوليد أحمد بن عبد الله (ت ٤٦٣هـ)،

شرح وتحقيق: محمد سيّد كيلاني،

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده.

مصر

الطبعة الثالثة

١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م

١٢٥ ـ ديوان ابن عبد ربه،

حققه وجمعه وشرحه: الدكتور محمد رضوان الداية،

مؤسسة الرسالة

بيروت

الطبعة الأولى

١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م

١٢٦ ـ ديوان ابن عُنَيْن،

ابن عنين، شرف الدين أبو المحاسن محمد بن نصر الأنصاري الدمشقي،

تحقيق : خليل مردم بك ،
دار صادر
بيروت
الطبعة الثانية
د. ت.

١٢٧ ـ ديوان ابن الفارض،
صححه وضبطه وعلّق عليه وقدم له : الدكتور ابراهيم السامرائي ،
دار الفكر للنشر والتوزيع
عمّان
١٩٨٥م

١٢٨ ـ ديوان ابن المعتزّ،
دار صادر
بيروت
د. ت.

ـ ديوان أبي تمام = انظر: شرح ديوان أبي تمام

١٢٩ ـ ديوان أبي الحسن بن الجيّاب (دراسة وتحقيق)،
الخبّازي، مشهور عبد الرحمن حسين،
رسالة ماجستير مطبوعة على الآلة الكاتبة
مقدمة في قسم اللغة العربية وآدابها ـ الجامعة الأردنية
عمّان
١٩٨٢ / ١٩٨٣م

ـ ديوان أبي حيان الأندلسي = انظر: من شعر أبي حيان الأندلسي

١٣٠ ـ ديوان أبي العتاهية،

أبو العتاهية، اسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان (ت ٢١٠ هـ)،
دار صادر
بيروت
١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م

١٣١ - ديوان أبي فراس الحمداني،
تحقيق: الدكتور ابراهيم السامرائي،
دار الفكر للنشر والتوزيع
عمّان
الطبعة الأولى
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

١٣٢ - ديوان الإمام الشافعي،
الشافعي، أبو عبد الله محمد بن ادريس (ت ٢٠٤ هـ)،
جمعه وعلق عليه: محمد عفيف الزعبي،
مؤسسة الزعبي للطباعة والنشر والتوزيع
ودار الجيل / بيروت
الطبعة الثالثة
١٣٩٢هـ - ١٩٧٤م

١٣٣ - ديوان الإمام علي،
جمعه وشرحه: الأستاذ نعيم زرزور،
دار الكتب العلمية
بيروت
١٩٨٥م

١٣٤ - ديوان أوس بن حجر،

تحقيق وشرح: الدكتور محمد يوسف نجم،
دار صادر ودار بيروت
بيروت
١٩٦٠م

١٣٥ ـ ديوان البحتري،
تحقيق: حسن كامل الصيرفي،
دار المعارف
مصر
١٩٦٣ ـ ١٩٦٤م

ـ ديوان البهاء زهير = انظر: شرح ديوان بهاء الدين زهير

١٣٦ ـ ديوان البوصيري،
البوصيري، شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد،
تحقيق: محمد سيد كيلاني،
مطبعة مصطفى البابي الحلبي
مصر
١٩٥٥م

ـ ديوان جرير = انظر: شرح ديوان جرير

ـ ديوان حسان بن ثابت = انظر: شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري

١٣٧ ـ ديوان الحطيئة،
دار صادر
بيروت
١٣٨٧ هـ ـ ١٩٦٧م

١٣٨ ـ ديوان الحكيم أبي الصلت أمية بن عبد العزيز الداني (ت ٥٢٩ هـ)،

جمع وتقديم وتحقيق: محمد المرزوقي،
دار الكتب الشرقية
تونس
١٩٧٤م

١٣٩ ـ ديوان الحماسة (٢ج)،
أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي
(شرح العلاّمة التبريزي)،
دار القلم
بيروت
د. ت.

١٤٠ ـ ديوان الخنساء،
دار الأندلس
بيروت
الطبعة التاسعة
١٩٨٣م

١٤١ ـ ديوان دريد بن الصمة الجشمي،
قدم له: الدكتور شاكر الفحّام،
جمع وتحقيق وشرح: محمد خير البقاعي،
دار قتيبة
١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م

١٤٢ ـ ديوان ديك الجنّ،
حققه وأعد تكملته: الدكتور أحمد مطلوب وعبد الله الجبوري،
دار الثقافة
بيروت
١٩٦٤م

ـ ديوان رؤبة بن العجاج = انظر: مجموع أشعار العرب
ـ ديوان زهير بن أبي سلمى = انظر: شرح شعر زهير بن أبي سلمى

١٤٣ ـ ديوان سبط ابن التعاويذي،
تصحيح: د. س. مرجليوث،
مطبعة المقتطف
مصر
١٩٠٣م

١٤٤ ـ ديوان الشريف الرضي،
دار صادر
بيروت
د. ت.

١٤٥ ـ ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني،
حققه وشرحه: صلاح الدين الهادي،
دار المعارف
مصر
١٩٦٨م

١٤٦ ـ ديوان الصبابة،
ابن أبي حجلة، شهاب الدين أحمد المغربي،
دار مكتبة الهلال
بيروت
١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م

١٤٧ ـ ديوان الصيّب والجهام والماضي والكهام،
ابن الخطيب، لسان الدين،
دراسة وتحقيق: الدكتور محمد الشريف قاهر،

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع
الجزائر
الطبعة الأولى
١٩٧٣م

١٤٨ ـ ديوان عبّاس بن الأحنف،
العبّاس بن الأحنف بن الأسود الحنفي اليمامي (ت ١٩٢هـ)،
شرح وتحقيق: عاتكة الخزرجي،
دار الكتب المصرية
القاهرة
الطبعة الأولى
١٩٥٤م

١٤٩ ـ ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات،
تحقيق وشرح: الدكتور محمد يوسف نجم،
دار صادر
بيروت
د. ت.

١٥٠ ـ ديوان علي بن جبلة،
تحقيق ودراسة: أحمد نصيف الجنابي،
وزارة الأعلام
النجف الأشرف
العراق
١٩٧١م

١٥١ ـ ديوان علّي بن الجهم،
عني بتحقيقه: خليل مردم بك،
دار الآفاق الجديدة

بيروت
الطبعة الثانية
١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م

١٥٢ ـ ديوان عمر بن أبي ربيعة المخزومي،
إعداد وتقديم: علي مالكي،
دار الفكر للجميع ودار الرأي العام
د. ت
ـ ديوان الفرزدق = انظر: شرح ديوان الفرزدق
ـ ديوان لسان الدين بن الخطيب = انظر: ديوان الصّيب والجهام والماضي والكهام
ـ ديوان المتنبي = انظر: العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب

١٥٣ ـ ديوان محمد بن حازم الباهلي،
صنعة: محمد خير البقاعي،
دار قتيبة
دمشق
١٩٨٢م

١٥٤ ـ ديوان محمد بن عبد الملك الزيات،
ابن الزيات (ت ٢٣٣هـ)،
نشر وتقديم: الدكتور جميل سعيد،
القاهرة
١٩٤٩م

١٥٥ ـ ديوان المعتمد بن عبّاد (ت ٤٨٨هـ)،
جمع وتحقيق: الدكتور رضا الحبيب السويسي،
الدار التونسية للنشر
تونس
١٩٧٥م

١٥٦ ـ ديوان ملك غرناطة،
يوسف الثالث،
تحقيق: عبد الله كنون،
مكتبة الأنجلو المصرية
القاهرة
الطبعة الثانية
١٩٦٥م

١٥٧ ـ ديوان مهيار الديلمي (٤ ج)،
دار الكتب المصرية
١٩٢٥م

١٥٨ ـ ديوان الهذليين،
دار الكتب المصرية
د. ت.

١٥٩ ـ ديوان يزيد بن مفرّغ الحميري (ت ٦٩هـ)،
جمعه وحققه: الدكتور عبد القدوس أبو صالح،
مؤسسة الرسالة
بيروت
الطبعة الثانية
١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م

١٦٠ ـ الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية،
الفاسي، علي بن أبي زرع،
دار المنصور للطباعة والوراقة،
الرباط
١٩٧٢م

١٦١ ـ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (أربعة أقسام كل قسم في مجلدين)،
ابن بسام، أبو الحسن علي بن بسّام الشنتريني (ت٥٤٢هـ)،
تحقيق: الدكتور إحسان عباس،
دار الثقافة
بيروت
١٩٧٨م ـ ١٩٧٩م

ـ الذيل على الروضتين = انظر: تراجم رجال القرنين السادس والسابع
ـ ذيل وفيات الأعيان = انظر: درّة الحجال في أسماء الرجال

١٦٢ ـ الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (السفر الأول، ٢ق)،
ابن عبد الملك المراكشي، محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي،
تحقيق: محمد بن شريفة،
دار الثقافة
بيروت
د. ت.

١٦٣ ـ الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (بقية السفر الرابع)،
ابن عبد الملك المراكشي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي،
حققه: الدكتور إحسان عبّاس،
دار الثقافة
بيروت
١٩٦٤م

١٦٤ ـ الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (السفر الخامس ٢ ق)،
ابن عبد الملك المراكشي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك

الأنصاري الأوسي،
تحقيق: الدكتور إحسان عبّاس،
دار الثقافة
بيروت
١٩٦٥م

١٦٥ - الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (السفر السادس)،
ابن عبد الملك المراكشي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي،
تحقيق: الدكتور إحسان عبّاس،
دار الثقافة
بيروت
الطبعة الأولى
١٩٧٣م

١٦٦ - (كتاب) الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (السفر الثامن ٢ ق)،
ابن عبد الملك المراكشي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي،
تقديم وتحقيق وتعليق: الدكتور محمد بن شريفة،
مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية
الرباط
١٩٨٤م

١٦٧ - رايات المبرزين وغايات المميزين،
ابن سعيد الأندلسي،
تحقيق: الدكتور النعمان عبد المتعال القاضي،
لجنة احياء التراث الإسلامي
القاهرة

١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م

١٦٨ - ربيع الأبرار ونصوص الأخبار،
الزمخشري، جار الله محمود بن عمر،
تحقيق: الدكتور سليم النعيمي،
مطبعة العاني
بغداد
١٩٨٢م

١٦٩ - رحلة ابن بطوطة المسماة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار
(٢ ج)،
حققه وقدم له وعلّق عليه: الدكتور علي المنتصر الكتاني،
مؤسسة الرسالة
بيروت
الطبعة الرابعة
١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

١٧٠ - رحلة القلصادي،
القلصادي، أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي (ت ٨٩١ هـ)،
دراسة وتحقيق: محمد أبو الأجفان،
الشركة التونسية للتوزيع
تونس
١٩٧٨م

١٧١ - رسائل الجاحظ (٤ ج)،
الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ)،
بتحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون،
مكتبة الخانجي

القاهرة
الطبعة الأولى
١٩٧٩م

١٧٢ ـ رسائل ابن حزم الأندلسي (٤ ج)،
ابن حزم (ت ٤٥٦ هـ).
تحقيق: الدكتور إحسان عباس
المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت
الطبعة الأولى
١٩٨٠ ـ ١٩٨٣م

١٧٣ ـ رسائل ابن المعتزّ (في النقد والأدب والاجتماع)،
جمع وتحقيق الأستاذ: محمد عبد المنعم خفاجي،
شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده
مصر
الطبعة الأولى
١٩٤٦م

١٧٤ ـ رسالة روح القدس في محاسبة النفس،
ابن العربي، الشيخ الأكبر محيي الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد الطائي الأندلسي (ت ٦٣٨هـ).
مكتبة عبد الوكيل الدروبي
دمشق
د. ت.

١٧٥ ـ رسالة في أمهات الخلفاء،
ابن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦ هـ) (ضمن رسائل ابن حزم، المجلد

الثاني)،
تحقيق: الدكتور إحسان عباس،
المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت
١٩٨١م

١٧٦ - (كتاب) رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة (٢ ج)،
الشريف الغرناطي، أبو القاسم محمد بن أحمد (ت ٧٦٠ هـ)،
مطبعة السعادة
مصر
١٣٤٤هـ

١٧٧ - الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم،
المالطي، عبد الباسط بن خليل بن شاهين،
نشر الجزء الخاص بغرناطة ١٤٦٥ - ١٤٦٦م

G.LEVI DELLA VIDA

تحت عنوان:

REGNO DI GRANATA NEL 1465 - 66

NEI RICORDI DI UN VIAGGI ATORE EGLZIANO

في مجلة الأندلس

AL - ANDALUS , Vol.I, 1933, pp. 307 - 328.

١٧٨ - (كتاب) الروض المعطار في خبر الأقطار،
الحميري، محمد بن عبد المنعم،
حققه: الدكتور إحسان عباس،
مكتبة لبنان
بيروت
١٩٧٥م

١٧٩ ـ روضة التعريف بالحب الشريف،
لسان الدين بن الخطيب،
تحقيق وتعليق وتدقيق: عبد القادر أحمد عطا،
دار الفكر العربي
القاهرة
١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م

١٨٠ ـ روضة العقلاء ونزهة الفضلاء،
البستي، أبو حاتم محمد بن حبّان (ت ٣٥٤هـ)،
شرح وتحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد،
دار الكتب العلمية
بيروت
١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧م

١٨١ ـ روضة المحبين ونزهة المشتاقين،
ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي
(ت ٧٥١هـ)،
دار الكتب العلمية
بيروت
١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م

١٨٢ـ الروضتين في أخبار الدولتين (٢ج)،
أبو شامة المقدسي، شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل
ابن ابراهيم،
دار الجيل
بيروت
د. ت.

١٨٣ ـ رياض الصالحين،
النووي، الإمام أبو زكريا يحيى بن شرف الدمشقي،
مؤسسة الرسالة
بيروت
١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

١٨٤ ـ (كتاب) رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقية،
المالكي، أبو بكر عبد الله بن محمد،
حققه: بشير البكوش،
راجعه: محمد العروسي المطوي،
دار الغرب الإسلامي
بيروت
١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م

١٨٥ ـ ريحانة الألبّا وزهرة الحياة الدنيا (٢ج)
الخفاجي، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر (ت ١٠٦٩هـ)
تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو،
مطبعة عيسى البابي الحلبي
مصر
الطبعة الأولى
١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٧م

١٨٦ ـ زاد المسافر وغرّة محيا الأدب السافر،
أبو بحر صفوان بن ادريس التجيبي المرسي (ت ٥٩٨هـ)،
أعده وعلق عليه: عبد القادر محداد،
دار الرائد العربي
بيروت
١٩٧٠م

١٨٧ ـ كتاب الزهد،
الإمام أحمد بن حنبل،
حققه وقدم له وعلق عليه: الدكتور محمد جلال شرف،
دار الفكر الجامعي
الاسكندرية
١٩٨٠م

١٨٨ ـ زهر الآداب وثمر الألباب (٤ج)،
الحصري القيرواني، أبو اسحق ابراهيم بن علي (ت ٤٥٣هـ)،
تحقيق وشرح: الدكتور زكي مبارك ومحمد محيي الدين عبد الحميد،
دار الجيل
بيروت
الطبعة الرابعة
١٩٧٢م

١٨٩ ـ زهر الأكم في الأمثال والحكم،
للحسن اليوسي،
حققه الدكتور محمد حجي والدكتور محمد الأخضر،
دار الثقافة
الدار البيضاء
١٩٨١م

١٩٠ ـ الزهرة (٢ج)،
الأصبهاني، أبو بكر محمد بن داود،
تحقيق: د. ابراهيم السامرائي،
مكتبة المنار
الزرقاء ـ الأردن
١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٥م

١٩١ ـ سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة في القرن التاسع الهجري سنة ٨٤٤ هـ،
نشرها ودرسها: الدكتور عبد العزيز الأهواني،
في مجلة كلية الآداب
جامعة القاهرة
المجلد ١٦
السنة ١٩٥٤م
ص ٩٥ ـ ١٢١
١٩٢ ـ سكردان السلطان،
ابن أبي حجلة، أحمد بن يحيى التلمساني،
دار المعرفة
بيروت
١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م
١٩٣ ـ سمط اللآلي في شرح أمالي القالي ذيل اللآلي (٣ج)،
أبو عبيد البكري،
تحقيق: عبد العزيز الميمني،
دار الحديث للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت
الطبعة الثانية
١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م
١٩٤ ـ سنن ابن ماجه،
القزويني، أبو عبد الله محمد بن يزيد (ت ٢٧٥هـ)،
تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي،
المكتبة العلمية
بيروت
د. ت.

١٩٥ ـ سنن أبي داود (٤ج)،
أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي (ت ٢٧٥هـ)،
مراجعة وضبط وتعليق: محمد محيي الدين عبد الحميد،
دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع
د. ت

ـ سنن الترمذي = انظر: صحيح الترمذي

١٩٦ ـ سنن النسائي، بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي (٨ج)،
النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب (ت ٣٠٣هـ)،
دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت
الطبعة الأولى
١٣٤٨هـ ـ ١٩٣٠م

١٩٧ ـ سيرة ابن اسحق المسماة بكتاب المبتدأ والمبعث والمغازي،
ابن اسحق، محمد بن اسحق بن يسار (ت ١٥١ هـ)،
تحقيق وتعليق: محمد حميد الله،
الوقف للخدمات الخيرية
قونية ـ تركيا
الطبعة الثانية
١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م

١٩٨ ـ سيرة الإمام أحمد بن حنبل،
ابن حنبل، أبو الفضل صالح بن أحمد (ت ٢٦٥ هـ)،
تحقيق ودراسة: الدكتور فؤاد عبد المنعم أحمد،
مؤسسة شباب الجامعة

الاسكندرية

١٤٠١هـ - ١٩٨١م

١٩٩ - السيرة النبوية،

ابن كثير، أبو الفداء اسماعيل بن كثير (ت ٧٧٤هـ)،

تحقيق: مصطفى عبد الواحد،

مطبعة عيسى البابي الحلبي

القاهرة

١٩٦٤م

٢٠٠ - السيرة النبوية (٤ج)،

ابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن هشام (ت ٢١٣ هـ)،

حققها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها: مصطفى السقا، ابراهيم الابياري، عبد الحفيظ شلبي،

دار القلم

بيروت

د. ت.

٢٠١ - شجرة النور الزكية في طبقات المالكية (٢ج)،

محمد بن محمد مخلوف،

دار الكتاب العربي

بيروت

١٣٤٩هـ

٢٠٢ - شرح ديوان أبي تمام،

ضبط معانيه وشروحه وأكملها: ايليا الحاوي،

دار الكتاب اللبناني،

بيروت

الطبعة الأولى

١٩٨٠م

٢٠٣ ـ شرح ديوان بهاء الدين زهير،

قام بشرحه: ابراهيم حزيني

دار الكاتب العربي

بيروت

الطبعة الأولى

١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م

٢٠٤ ـ شرح ديوان جرير (ت ١١٤هـ)،

شرحه وقدم له: مهدي محمد ناصر الدين،

دار الكتب العلمية

بيروت

الطبعة الأولى

١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م

٢٠٥ ـ شرح ديوان حسّان بن ثابت الأنصاري،

دار احياء التراث العربي

بيروت

د. ت.

٢٠٦ ـ شرح شعر زهير بن أبي سلمى،

صنعة: أبي العباس ثعلب،

تحقيق: د. فخر الدين قباوة،

دار الآفاق الجديدة

بيروت

الطبعة الأولى

١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م

٢٠٧ ـ شرح ديوان الفرزدق (٢ج)،
ضبط معانيه وشروحه وأكملها: إيليا الحاوي،
دار الكتاب اللبناني ـ بيروت
مكتبة المدرسة ـ بيروت
الطبعة الأولى
١٩٨٣م

٢٠٨ ـ شرح المفصل،
ابن يعيش
ادارة الطباعة المنيرية
مصر
د. ت.

٢٠٩ ـ شرح المقامات الحريرية (٥ج)،
الشرّيشي، أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسي (ت ٦١٩ هـ)،
تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم
مطبعة المدني
القاهرة
د. ت

٢١٠ ـ (كتاب) الشعر والشعراء وقيل: طبقات الشعراء،
ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم،
مطبعة بريل
ليدن
١٩٠٢م

٢١١ ـ الشفاء في مواعظ الملوك والخلفاء،
ابن الجوزي، عبد الرحمن (ت ٥٩٧ هـ)،
تحقيق ودراسة: الدكتور فؤاد عبد المنعم أحمد،

مراجعة: محمد السيّد الصفطاوي،
مؤسسة شباب الجامعة
الاسكندرية
د. ت

٢١٢ ـ (كتاب) الشكر،
ابن أبي الدنيا، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي (ت ٢٨١هـ)،
عني بإخراج الكتاب: أحمد بن محمد طاحون،
دار الشروق للنشر والتوزيع
جدة
١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م

٢١٣ ـ الشهب اللامعة في السياسة النافعة،
ابن رضوان، أبو القاسم المالقي (ت ٧٨٣هـ)،
تحقيق: الدكتور علي سامي النشّار،
دار الثقافة
الدار البيضاء
١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤م

٢١٤ ـ شهيدة العشق الإلهي رابعة العدوية،
عبد الرحمن بدوي،
وكالة المطبوعات
الكويت
١٩٧٨م

٢١٥ ـ صحيح ابن حبّان،
ابن حبان البستي، أبو حاتم محمد (ت ٣٥٤هـ)،

ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (ت ٧٣٩ هـ)،
تحقيق: شعيب الأرنؤوط وحسين أسد،
مؤسسة الرسالة
١٩٨٤م

٢١٦ ـ صحيح البخاري (٨ ج)،
البخاري، أبو عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم،
طبعة بالأوفست عن طبعة دار الطباعة العامرة باستانبول،
دار الكتب العلمية
بيروت
د. ت

٢١٧ ـ صحيح الترمذي (بشرح الإمام ابن العربي المالكي)،
دار الكتاب العربي
بيروت
د. ت.

ـ صحيح مسلم = انظر: الجامع الصحيح

٢١٨ ـ الصداقة والصديق،
أبو حيان التوحيدي،
شرح وتعليق: علي متولي صلاح،
المطبعة النموذجية
مصر
١٩٧٢م

٢١٩ ـ صفوة الصفوة،
ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج (ت ٥٩٧ هـ)،
حققه وعلق عليه: محمود فاخوري،

خرج أحاديثه: د. محمد رواس قلعه جي.
دار المعرفة للطباعة والنشر
بيروت
الطبعة الثالثة
١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م

٢٢٠ - صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس
مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق،
الشريف الادريسي،
ليدن
مطبع بريل
١٩٦٨م

٢٢١ - (كتاب) الصلة (٢ ق)،
ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت ٥٧٨هـ)،
الدار المصرية للتأليف والترجمة
مصر
١٩٦٦م

٢٢٢ - (كتاب) صلة الصلة (القسم الأخير منه)،
ابن الزبير، أبو جعفر أحمد،
نشره: إ. لافي بروفنسال،
الجزائر
١٩٣٧م

٢٢٣ - (كتاب) الصناعتين،
أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل (ت ٣٩٥هـ)،
حققه وضبط نصه: الدكتور مفيد قميحة،

دار الكتب العلمية
بيروت
الطبعة الثانية
١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤م

٢٢٤ ـ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع،
السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢ هـ)،
مكتبة القدسي
القاهرة
١٣٥٣هـ

٢٢٥ ـ طبائع النساء،
ابن عبد ربه، أحمد بن محمد الأندلسي،
تحقيق وتعليق: محمد ابراهيم سليم،
مكتبة القرآن
القاهرة
١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥م

٢٢٦ ـ طبقات الأطبّاء والحكماء،
ابن جلجل، أبو داود سليمان بن حسّان الأندلسي (ت بعد ٣٧٧ هـ
ويليه تاريخ الأطبّاء والفلاسفة،
تأليف: اسحق بن حنين (ت ٢٩٨ هـ)،
تحقيق: فؤاد سيّد،
مؤسسة الرسالة ـ بيروت
الطبعة الثانية
١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥م

٢٢٧ ـ (كتاب) طبقات الأمم،

صاعد الأندلسي، القاضي أبو القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد (ت ٤٦٢ هـ)،
نشره: الأب لويس شيخو اليسوعي،
المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين
بيروت
١٩١٢م

٢٢٨ ـ طبقات الأولياء،
ابن الملقّن، سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد المصري (ت ٨٠٤ هـ)،
حققه: نور الدين شريبة،
دار المعرفة
بيروت ـ لبنان
الطبعة الثانية
١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦م

٢٢٩ ـ طبقات الشعراء،
ابن المعتز (ت ٢٩٦ هـ)،
تحقيق: عبد الستّار أحمد فرّاج،
دار المعارف
مصر
الطبعة الثالثة
١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٦م

ـ طبقات الشعراء لابن قتيبة = انظر: الشعر والشعراء

٢٣٠ ـ طبقات الصوفية،
السُّلَمي، أبو عبد الرحمن (ت ٤١٢ هـ)،

تحقيق: نور الدين شريبة،
دار الكتاب النفيس
حلب ـ سوريا
الطبعة الثانية
١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦م

٢٣١ ـ طبقات فحول الشعراء (في سفرين)،
الجمحي، محمد بن سلّام (ت ٢٣١ هـ)،
قرأه وشرحه: محمود محمد شاكر،
مطبعة المدني
القاهرة
١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٤م

٢٣٢ ـ طبقات المالكية،
مجهول،
مخطوط في الخزانة العامة في الرباط

٢٣٣ ـ طبقات النحويين واللغويين،
الزبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن (ت ٣٧٩ هـ)،
تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم،
ط. محمد سامي أمين الخانجي الكتبي
مصر
الطبعة الأولى
١٣٧٣ هـ ـ ١٩٥٤م

٢٣٤ ـ عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات،
القزويني، زكريا،
قدم له وحققه: فاروق سعد،

دار الآفاق الجديدة

بيروت

الطبعة الرابعة

١٤٠١ هـ - ١٩٨١م

٢٣٥ ـ عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين،

ابن القيم الجوزية، أبو عبد الله محمد،

دار الآفاق الجديدة

بيروت

الطبعة الثالثة

١٩٧٨م

ـ عرائس المجالس = انظر قصص الأنبياء المسمّى عرائس المجالس للثعلبي

٢٣٦ ـ العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب (٢ ج)،

الشيخ ناصيف اليازجي

د. ت

٢٣٧ ـ العقد الفريد (٨ج)،

ابن عبد ربه، أحمد بن محمد الأندلسي (ت ٣٢٨هـ)،

تحقيق: محمد سعيد العريان،

دار الفكر

١٣٥٩ هـ - ١٩٤٠م

٢٣٨ ـ العلاقات بين سلطنة المماليك والممالك الإسبانية

في القرنين الثامن والتاسع الهجري/

الرابع والخامس عشر الميلادي،

دكتورة حياة ناصر الحجي،

الكويت

الطبعة الأولى

١٩٨٠م

٢٣٩ ـ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده (٢ج)،
ابن رشيق، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (ت ٤٥٦هـ)،
حققه: محمد محيي الدين عبد الحميد،
دار الجيل
بيروت
الطبعة الخامسة
١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م

٢٤٠ ـ عمل اليوم والليلة،
ابن السنّي، أبو بكر،
خرج أحاديثه وعلّق عليه: عبد الله حجّاج،
مكتبة التراث الإسلامي
القاهرة
١٩٨٢م

٢٤١ ـ عهد أردشير،
أردشير،
تحقيق: الدكتور إحسان عباس،
دار صادر
بيروت
١٣٨٧ هـ ـ ١٩٦٧م

٢٤٢ ـ عين الأدب والسياسة
وزين الحسب والرياسة،
ابن هذيل، أبو الحسن علي بن عبد الرحمن (ت . ق ٨ هـ)،
دار الكتب العلمية
بيروت
١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م

٢٤٣ ـ (كتاب) عيون الأخبار (٤ج)،
ابن قتيبة الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ)،
دار الكتاب العربي
بيروت
(طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية لسنة ١٣٤٣ هـ
١٩٢٥م)

٢٤٤ ـ عيون الأنباء في طبقات الأطباء،
ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة
ابن يونس السعدي الخزرجي،
شرح وتحقيق: الدكتور نزار رضا،
دار مكتبة الحياة
بيروت
د. ت
ـ غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم
انظر: تاريخ غرر السير

٢٤٥ ـ الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة،
ابن سعيد الأندلسي، أبو الحسن علي بن موسى (ت ٦٨٥هـ)،
تحقيق: ابراهيم الأبياري،
دار المعارف
مصر
الطبعة الثالثة
١٩٧٧م

٢٤٦ ـ الغنية (فهرست شيوخ القاضي عياض)،
القاضي عياض، أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي (ت ٥٤٤
هـ)،
تحقيق: ماهر زهير جرار،

دار الغرب الإسلامي

بيروت

الطبعة الأولى

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢م

٢٤٧ - الغيث المسجم في شرح لامية العجم (٢ ج)،

الصفدي، صلاح الدين خليل بن آيبك (ت ٧٦٤ هـ)،

دار الكتب العلمية

بيروت

الطبعة الأولى

١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م

٢٤٨ - الفاضل في اللغة والأدب،

المبرّد، أبو العباس محمد بن يزيد،

تحقيق: عبد العزيز الميمني الراجكوتي،

١٩٥٥م

٢٤٩ - (كتاب) الفرج بعد الشدّة (٥ج)،

التنوخي، أبو علي المحسّن بن علي (ت ٣٨٤هـ)،

تحقيق: عبّود الشالجي،

دار صادر

بيروت

١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨م

٢٥٠ - (كتاب) فرحة الأنفس (قطعة منه)،

لابن غالب،

نشره: الدكتور لطفي عبد البديع،

مجلة معهد المخطوطات العربية

المجلد الأول

الجزء الثاني

١٩٥٥م

ص ٢٧٢ ـ ٣١٠

٢٥١ ـ فصل المقال في شرح كتاب الأمثال،

أبو عبيد البكري،

حققه وقدم له: الدكتور إحسان عباس والدكتور عبد المجيد عابدين،

مؤسسة الرسالة ـ بيروت

الطبعة الثالثة

١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م

٢٥٢ ـ فضالة الخوان في طيبات الطعام والألوان،

لابن رزين التجيبي،

حققه وقدم له: محمد بن شقرون،

أشرف على اعداده: الدكتور إحسان عباس،

دار الغرب الإسلامي

بيروت

الطبعة الثانية

١٩٨٤م

٢٥٣ ـ (كتاب) فضيلة الشكر لله على نعمته وما يجب من الشكر للمنعم عليه،

الخرائطي، أبو بكر محمد بن جعفر بن محمد بن سهل السامرّيّ (ت ٣٢٧هـ)،

تحقيق: محمد مطيع الحافظ،

قدم له: الدكتور عبد الكريم اليافي،

دار الفكر

دمشق

الطبعة الأولى
١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

٢٥٤ - فهرس ابن عطية،
ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن عطية المحاربي الأندلسي (ت ٥٤١ هـ)،
تحقيق: محمد أبو الأجفان ومحمد الزاهي،
دار الغرب الإسلامي
بيروت
الطبعة الثانية
١٩٨٣م

٢٥٥ - فهرس المنتوري،
المنتوري، أبو عبد الله محمد القيسي،
مخطوط
الخزانة الملكية بالرباط
رقم ١٥٧٨

٢٥٦ - (كتاب) الفهرست،
النديم، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب اسحق المعروف بالوراق،
تحقيق: رضا - تجدّد،
طهران
١٣٩١هـ - ١٩٧١م

٢٥٧ - فهرست ابن خير،
ابن خير الإشبيلي، أبو بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة (ت ٥٧٥ هـ)،
دار الآفاق الجديدة

بيروت

الطبعة الثانية

١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م

- فهرست شيوخ القاضي عياض = انظر: الغنية

٢٥٨ - فوات الوفيات والذيل عليها (٥ج)،

الكتبي، محمد بن شاكر (ت ٧٦٤ هـ)،

تحقيق: الدكتور إحسان عباس،

دار صادر

بيروت

١٩٧٣م

٢٥٩ - القاموس المحيط (٤ج)،

الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب،

مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده

مصر

١٣٧١هـ - ١٩٥٢م

٢٦٠ - قانون البلاغة في نقد النثر والشعر،

البغدادي، أبو طاهر محمد بن حيدر (ت ٥١٧ هـ)،

تحقيق: الدكتور محسن فيّاض عجيل،

مؤسسة الرسالة

بيروت

الطبعة الأولى

١٤٠١هـ - ١٩٨١م

- القدح المعلّى = انظر: اختصار القدح المعلّى

٢٦١ ـ قصص الأنبياء (٢ ج)،
ابن كثير، أبو الفداء اسماعيل (ت ٧٧٤ هـ)،
دار عمر بن الخطاب ـ بوكلي
الطبعة الأولى
١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١م

٢٦٢ ـ قصص الأنبياء المسمّى عرائس المجالس،
الثعلبي، أبو اسحق أحمد بن محمد بن ابراهيم النيسابوري (ت ٤٢٧ هـ)،
دار الكتب العلمية
بيروت
١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م

٢٦٣ ـ قضاة قرطبة،
الخشني، أبو عبد الله محمد بن حارث بن أسد القيرواني (ت ٣٦١هـ)،
الدار المصرية للتأليف والترجمة
مصر
١٩٦٦م

٢٦٤ ـ قطب السرور في وصف الأنبذة والخمور،
الرقيق القيرواني،
تحقيق: أحمد الجندي،
منشورات المجمع العلمي العربي
دمشق
د. ت.

٢٦٥ ـ قلائد العقيان في محاسن الأعيان،

الفتح بن خاقان،
مصورة عن طبعة باريس،
قدم له ووضع فهارسه: محمد العناني،
المكتبة العتيقة
تونس
١٩٦٦م

٢٦٦ ـ الكامل (٣ج)،
المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد (ت ٢٨٥ هـ)،
حققه وعلق عليه ووضع فهارسه: محمد أحمد الدالي،
مؤسسة الرسالة
بيروت
الطبعة الأولى
١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م

٢٦٧ ـ الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه في الأندلس من شعراء المائة الثامنة،
لسان الدين بن الخطيب،
أعدها وحققها: الدكتور إحسان عبّاس،
دار الثقافة
بيروت
١٩٦٣م

٢٦٨ ـ كشف الخفاء ومزيل الإلباس عمّا اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس،
العجلوني، الشيخ اسماعيل بن محمد الجراحي (ت ١١٦٢هـ)،
دار إحياء التراث العربي
بيروت
الطبعة الثانية
١٣٥١هـ

٢٦٩ ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (٢ج)،
حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله القسطنطيني (ت ١٠٦٧هـ)،
دار الفكر
١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م

٢٧٠ ـ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال (١٨ مجلداً)،
الهندي، علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين البرهان نوري (ت ٩٧٥هـ)،
ضبطه وفسّر غريبه: الشيخ بكري حيّاني
صححه ووضع فهارسه ومفتاحه: الشيخ صفوة السقا
مؤسسة الرسالة
الطبعة الخامسة
١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م

٢٧١ ـ لباب الآداب،
الأمير أسامة بن منقذ (ت ٥٨٤ هـ)،
دار الكتب العلمية
بيروت
١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م

٢٧٢ ـ لسان العرب،
ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرّم،
دار صادر
بيروت
د. ت.

٢٧٣ ـ لطائف اللطف،
الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد النيسابوري (ت ٤٢٩هـ)،

تحقيق: الدكتور عمر الأسعد،
دار المسيرة
بيروت
الطبعة الأولى
١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م

٢٧٤ - لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس وشيخه أبي الحسن،
ابن عطاء الله السكندري،
تحقيق: الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر،
القاهرة
١٩٧٤م

٢٧٥ - لقط الفرائد من لفاظة حقق الفوائد،
ابن القاضي، أحمد بن محمد بن أبي العافية،
نشره محمد حجي ضمن كتاب «ألف سنة من الوفيات»،
الرباط
١٩٧٦م

٢٧٦ - اللمحة البدرية في الدولة النصرية،
ابن الخطيب، لسان الدين،
منشورات دار الآفاق الجديدة
بيروت
الطبعة الثانية
١٩٧٨م

٢٧٧ - المبهج في تفسير أسماء شعراء ديوان الحماسة،
ابن جنّي، أبو الفتح عثمان (ت ٣٩٢ هـ)،
دار الكتب العلمية

بيروت
الطبعة الأولى
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

٢٧٨ - مجمع الأمثال (٢ج)،
الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن ابراهيم النيسابوري (ت ٥١٨هـ)،
حققه: محمد محيي الدين عبد الحميد،
دار القلم
بيروت
د. ت.

٢٧٩ - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد،
الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر (ت ٨٠٧هـ)،
دار الكتاب العربي
بيروت
الطبعة الثالثة
١٩٨٢م

٢٨٠ - مجموع أشعار العرب، وهو مشتمل على ديوان رؤبة بن العجاج،
اعتنى بتصحيحه وترتيبه: وليم بن الورد البروسي،
دار الآفاق الجديدة
بيروت
الطبعة الثانية
١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م

٢٨١ - المحاسن والأضداد،
الجاحظ،

حققه وقدم له: فوزي عطوي،
الشركة اللبنانية للكتاب
بيروت
١٩٦٩م

٢٨٢ ـ محاضرات الأدباء (٢ج)،
الأصبهاني،
منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت
د. ت.

٢٨٣ ـ محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار
في الأدبيات والنوادر والأخبار (٢ج)،
ابن عربي، محيي الدين (ت ٦٣٨هـ)،
دار صادر
بيروت
د. ت.

٢٨٤ ـ كتاب المحن
التميمي، أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم (ت ٣٣٣هـ)،
تحقيق: الدكتور يحيى وهيب الجبّوري،
دار الغرب الإسلامي
بيروت
١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م

٢٨٥ ـ محنة مسلمي الأندلس عشية سقوط غرناطة وبعدها،
حتاملة، الدكتور محمد عبده،
مطابع دار الشعب

عمّان

الطبعة الأولى

١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م

٢٨٦ـ المختار من قطب السرور وأوصاف الأنبذة والخمور،

الرقيق القيرواني، ابراهيم بن القاسم (القرن الخامس الهجري)،

اختيار: علي نور الدين المسعودي،

حققه وعارضه بأصوله: عبد الحفيظ منصور،

مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله

تونس

١٩٧٦م

٢٨٧ ـ المخلاة،

العاملي، بهاء الدين محمد بن حسين بن عبد الصمد بن عز الدين الحارثي الهمذاني (ت ١٠٣١ هـ)،

دار المعرفة

بيروت

١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م

٢٨٨ ـ مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري بغرناطة (٤٦٩ ـ ٤٨٣هـ) المسماة بكتاب التبيان،

نشر وتحقيق: إ. ليفي بروفنسال،

دار المعارف

مصر

١٩٥٥م

ـ المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا،

النباهي المالقي،

انظر: يخ قضاة الأندلس

٢٨٩ ـ المرقصات والمطربات،
ابن سعيد الأندلسي، نور الدين علي بن موسى (ت ٦٧٣هـ)،
دار حمد ومحيو
بيروت
١٩٧٣م

٢٩٠ ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر (٤ج)،
المسعودي، أبو الحسن عليّ بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦هـ)،
تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد،
دار المعرفة
بيروت
١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م

٢٩١ ـ المستجاد من فعلات الأجواد،
التنوخي، أبو علي المحسّن بن علي،
عني بنشره وتحقيقه: محمد كرد علي،
دمشق
١٩٧٠م

٢٩٢ ـ المستطرف في كل فن مستظرف (٢ج)،
الإبشيهي، شهاب الدين محمد بن أحمد (ت ٨٥٠هـ)،
نشرها وحققها: الدكتور مفيد محمد قميحة،
دار الكتب العلمية
بيروت
١٩٨٣م

٢٩٣ ـ المستظرف من أخبار الجواري،

السيوطي، جلال الدين،
حققه: الدكتور صلاح الدين المنجد،
دار الكتاب الجديد
بيروت
الطبعة الثانية
١٩٧٦م

٢٩٤ ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل،
دار الكتب العلمية (طبعة مصورة)
بيروت
١٩٧٨م

٢٩٥ ـ مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس
(مجموعة من رسائله)،
د. أحمد مختار العبادي،
مؤسسة شباب الجامعة
الاسكندرية
١٩٨٣م

٢٩٦ ـ مصارع العشّاق (٢ج)،
السّراج، أبو محمد جعفر بن أحمد بن الحسين،
دار بيروت للطباعة والنشر
بيروت
١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م

٢٩٧ ـ المطرب من أشعار أهل المغرب،
ابن دِحْية، ذو النسبين أبو الخطاب عمر بن حسن (ت ٦٣٣هـ)،
تحقيق: الأستاذ ابراهيم الأبياري والدكتور حامد عبد الحميد والدكتور

أحمد أحمد بدوي،
دار العلم للجميع
بيروت
١٩٥٥م

٢٩٨ ـ مطمح الأنفس ومسرح التأنس في مُلح أهل الأندلس،
الفتح بن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الإشبيلي (ت ٥٢٩ هـ)،
دراسة وتحقيق: محمد علي شوابكة،
دار عمار ومؤسسة الرسالة ـ بيروت
الطبعة الأولى
١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م

٢٩٩ ـ المعارف،
لابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ)،
حققه وقدم له: دكتور ثروت عكاشة،
دار المعارف
مصر
الطبعة الثانية
١٩٦٩م

٣٠٠ ـ معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان،
الدبّاغ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري (ت ٦٩٦هـ)،
أكمله وعلق عليه: أبو الفضل أبو القاسم بن عيسى بن ناجي التنوخي (ت ٨٣٩هـ).
تحقيق وتعليق: محمد ماضور
الجزء الثالث
المكتبة العتيقة بتونس

ومكتبة الخانجي بمصر
١٩٧٨م

٣٠١ ـ معاهد التنصيص على شواهد التلخيص (٤ج)،
العباسي، الشيخ عبد الرحيم بن أحمد (ت ٩٦٣هـ)،
تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد،
عالم الكتب
بيروت
١٩٤٧م

٣٠٢ ـ المعجب في تلخيص أخبار المغرب،
عبد الواحد المراكشي،
تحقيق: محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي،
دار الكتاب
الدار البيضاء
الطبعة السابعة
١٩٧٨م

٣٠٣ ـ معجم الأدباء (٢٠ج)،
ياقوت الحموي،
دار الفكر
الطبعة الثالثة
١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م

٣٠٤ ـ معجم البلدان،
الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي،
دار الكتاب العربي
بيروت
د. ت.

٣٠٥ ـ معجم الشعراء،
المرزباني، أبو عبيد الله محمد بن عمران (ت ٣٨٤هـ)،
(مع المؤتلف والمختلف للآمدي)،
تصحيح وتعليق: الأستاذ الدكتور ف. كرنكو،
دار الكتب العلمية
بيروت
الطبعة الثانية
١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م

٣٠٦ ـ المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي،
ابن الأبار القضاعي (ت ٦٥٨هـ)،
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
القاهرة
١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م

٣٠٧ ـ المعمَّرون،
السجستاني، أبو حاتم،
تحقيق: عبد المنعم عامر،
القاهرة
١٩٦١م

٣٠٨ ـ المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء افريقية والأندلس والمغرب
(١٣ج)،
الونشريسي، أحمد بن يحيى (ت ٩١٤ هـ)،
خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف: الدكتور محمد حجّي،
دار الغرب الإسلامي
بيروت
١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م

٣٠٩ ـ المغرب في حُلى المغرب (٢ج)،

ابن سعيد الأندلسي، علي بن موسى،

حققه وعلق عليه: الدكتور شوقي ضيف،

دار المعارف

مصر

الطبعة الثانية

١٩٦٤م

٣١٠ ـ المفضّليّات،

المفضّل الضبّي،

تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون،

دار المعارف

مصر

الطبعة الثالثة

١٩٦٤م

٣١١ ـ (كتاب) مقالات الأدباء ومناظرات النجباء،

ابن هذيل، علي بن عبد الرحمن بن هذيل بن محمد بن هذيل الفزاري،

مخطوط

المتحف البريطاني

رقم or.3609

٣١٢ ـ المقتبس (الجزء الخامس) لابن حيّان،

نشره: ب. شالميتا، ف. كورينطي، م. صبح،

المعهد الإسباني العربي للثقافة / مدريد

كلية الآداب / الرباط

مدريد

١٩٧٩م

٣١٣ - المقتبس من أنباء أهل الأندلس،

لابن حيّان القرطبي،

حققه وقدّم له وعلق عليه: الدكتور محمود علي مكي،

دار الكتاب العربي

بيروت

١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م

٣١٤ - المقتبس في أخبار بلد الأندلس،

ابن حيّان، أبو مروان القرطبي (ت ٤٦٩هـ)،

تحقيق: عبد الرحمن علي الحجّي،

دار الثقافة

بيروت

١٩٦٥م

٣١٥ - المقتبس من أنباء أهل الأندلس،

ابن حيّان القرطبي (ت ٤٦٩هـ)،

حققه: الدكتور محمود علي مكّي،

لجنة إحياء التراث الإسلامي

القاهرة

١٣٩٠هـ - ١٩٧١م

٣١٦ - المقتضب من تحفة القادم،

ابن الأبّار القضاعي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر (ت ٦٥٨هـ)،

نشرها الفريد بستاني في مجلة المشرق

المجلد ٤١ سنة ١٩٤٧م

٣١٧ ـ المقتطف من أزاهر الطرف،
ابن سعيد الأندلسي،
تقديم وتحقيق ودراسة: دكتور سيّد حنفي حسنين،
الهيئة المصرية العامة للكتاب
مصر
١٩٨٤م

٣١٨ ـ مقدمة ابن خلدون،
ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ).
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت
د. ت.

٣١٩ ـ كتاب المكافأة وحسن العقبى،
ابن الداية، أحمد بن يوسف الكاتب (ت ٣٤٠هـ)،
حققه وشرحه وصححه: محمود محمد شاكر،
دار الكتب العلمية
بيروت
د. ت.

٣٢٠ ـ المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري ـ الخامس عشر الميلادي،
الدكتور أحمد درّاج،
دار الفكر العربي ـ القاهرة
١٩٦١م

٣٢١ ـ (كتاب) المنازل والديار،
ابن منقذ، مجد الدولة أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر الكناني (ت ٥٨٤هـ)،

المكتب الإسلامي للطباعة والنشر
دمشق
١٩٦٥م

٣٢٢ ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (١٠ج)،
ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ)،
مطبعة دائرة المعارف العثمانية
حيدر أباد الدكن
الهند
١٣٥٧هـ

٣٢٣ ـ من شعر أبي حيّان الأندلسي،
جمعه وحققه: الدكتور أحمد مطلوب والدكتور خديجة الحديثي
مطبعة العاني
بغداد
١٩٦٦م

٣٢٤ ـ المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم وبعض شعرهم،
الآمدي، أبو القاسم الحسن بن بشر (ت ٣٧٠هـ)،
(نشر مع معجم الشعراء للمرزباني)،
تصحيح وتعليق: الأستاذ الدكتور ف. كرنكو،
دار الكتب العلمية
بيروت
الطبعة الثانية
١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م

٣٢٥ ـ الموطأ،

للإمام مالك،
رواية يحيى بن يحيى الليثي،
دار النفائس
بيروت
الطبعة السادسة
١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

٣٢٦ - (كتاب) ميزان العمل،
الغزالي، حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد (ت ٥٠٥هـ)،
دار الكتاب العربي
بيروت
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

٣٢٧ - نثر الدرّ،
الآبي، أبو سعد منصور بن الحسين (ت ٤٢١هـ)،
تحقيق: محمد علي قرنة،
مراجعة: علي محمد البجاوي،
الهيئة المصرية العامة للكتاب
الجزء الأول سنة ١٩٨٠م
الجزء الثاني سنة ١٩٨١م
الجزء الثالث سنة ١٩٨٤م
الجزء الرابع سنة ١٩٨٤م
- نثير الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان = انظر: أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن

٣٢٨ - نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان،
ابن الأحمر، الأمير اسماعيل بن يوسف بن محمد (ت ٨٠٧هـ)،
دراسة وتحقيق: محمد رضوان الداية،

دار الثقافة
بيروت
١٩٦٧م

٣٢٩ ـ نزهة الألبّاء في طبقات الأدباء،
ابن الأنباري، أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد (ت ٥٧٧هـ)،
قام بتحقيقه: الدكتور ابراهيم السامرائي،
مكتبة المنار
الزرقاء ـ الأردن
الطبعة الثالثة
١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م

٣٣٠ ـ (كتاب) نسب قريش،
الزبيري، أبو عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب،
نشره: إ. ليفي بروفنسال.
دار المعارف
مصر، الطبعة الثانية
١٩٥٣م

٣٣١ ـ نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة (٥ج)،
التنوخي، أبو علي المحسّن بن علي (ت ٣٨٤هـ)،
تحقيق: عبود الشالجي،
١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م

٣٣٢ ـ نفاضة الجراب في علالة الاغتراب (الجزء الثاني)،
لسان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦هـ)،
نشر وتعليق. الدكتور أحمد مختار العبادي،

مراجعة : الدكتور عبد العزيز الأهواني،
١٩٨٥م

٣٣٣ ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (٨ج)،
المقّري، أحمد بن محمد التلمساني،
حققه: الدكتور إحسان عباس،
دار صادر
بيروت
١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م

٣٣٤ ـ نقط العروس في تواريخ الخلفاء،
ابن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦هـ)،
(منشور ضمن رسائل ابن حزم / الجزء الثاني ص ٤١ ـ ١١٦)
انظر: = رسائل ابن حزم الأندلسي

٣٣٥ ـ نكت الهميان في نكت العميان.
الصفدي، صلاح الدين خليل بن آيبك،
عني بطبعه ونشره: أسعد الحسيني،
١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م

٣٣٦ ـ (كتاب) نيل الابتهاج بتطريز الديباج،
التنبكتي، أبو العباس أحمد بن أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت،
دار الكتب العلمية
بيروت
(بهامش كتاب الديباج المذهب لابن فرحون)

٣٣٧ ـ نهاية الأرب،
النويري،
دار الكتب

القاهرة

د. ت

٣٣٨ ـ هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون (٢ج)،

اسماعيل باشا البغدادي،

دار الفكر

١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م

٣٣٩ ـ (كتاب) الوافي بالوفيات (الجزء الأول)،

الصفدي، صلاح الدين خليل بن آيبك،

باعتناء: هلموت ريتر

دار النشر: فرانز شتاينر

فيسبادن

١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م

٣٤٠ ـ (كتاب) الوافي بالوفيات،

الأجزاء الثاني، والثالث، والرابع، والخامس، والسادس،

باعتناء: س. ديدرينغ،

دار النشر: فرانز شتاينر

فيسبادن

١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م

٣٤١ ـ (كتاب) الوافي بالوفيات،

الجزء السابع،

باعتناء: احسان عبّاس،

دار النشر: فرانز شتاينر

فيسبادن

١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م

٣٤٢ ـ (كتاب) الوافي بالوفيات،
الجزء الثامن،
باعتناء: محمد يوسف نجم،
دار النشر: فرانز شتاينر
فيسبادن
١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م

٣٤٣ ـ (كتاب) الوافي بالوفيات،
الجزء التاسع،
باعتناء: يوسف فان إسْ،
دار النشر: فرانز شتاينر
فيسبادن
١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م

٣٤٤ ـ (كتاب) الوافي بالوفيات،
الجزء العاشر،
باعتناء: جاكلين سوبله وعلي عمارة،
دار النشر: فرانز شتاينر
فيسبادن
١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م

٣٤٥ ـ (كتاب) الوافي بالوفيات،
الجزء الحادي عشر،
باعتناء: شكري فيصل،
دار النشر: فرانز شتاينر
فيسبادن
١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م

٣٤٦ - (كتاب) الوافي بالوفيات،
الجزء الثاني عشر،
باعتناء: رمضان عبد التواب،
دار النشر: فرانز شتاينر
فيسبادن
١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م

٣٤٧ - (كتاب) الوافي بالوفيات،
الجزء الرابع عشر،
باعتناء: س. ديدرينغ،
دار النشر: فرانز شتاينر
فيسبادن
١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

٣٤٨ - (كتاب) الوافي بالوفيات،
الجزء الخامس عشر،
باعتناء: بيرند راتكة،
دار النشر: فرانز شتاينر
فيسبادن
١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م

٣٤٩ - (كتاب) الوافي بالوفيات،
الجزء السادس عشر،
باعتناء: وداد القاضي،
دار النشر: فرانز شتاينر
فيسبادن
١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

٣٥٠ ـ (كتاب) الوافي بالوفيات،
الجزء السابع عشر،
باعتناء: دوروتيا كرافولسكي،
دار النشر: فرانز شتاينر
فيسبادن
١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م

٣٥١ ـ (كتاب) الوافي بالوفيات،
الجزء الثاني والعشرون،
باعتناء: رمزي بعلبكي،
دار النشر: فرانز شتاينر
فيسبادن
١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٣م

٣٥٢ ـ وثائق عربية غرناطية من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي،
حققه وقدم له: لويس سيكودي لوثينا،
منشورات معهد الدراسات الإسلامية
مدريد
١٣٨٠هـ ـ ١٩٦١م

٣٥٣ ـ وثيقة أندلسية قشتالية من القرن التاسع الهجري (٨٣٥ هـ)،
نشرها ودرسها محمد عبد الله عنان،
صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية،
مدريد،
مجلد ٢
سنة ١٩٥٤م
ص ٣٨ ـ ٤٥

٣٥٤ ـ (كتاب) الوزراء والكتّاب،
الجهشياري، أبو عبد الله محمد بن عبدوس،
حققه ووضع فهارسه: مصطفى السقّا، ابراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي،
مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده
مصر
الطبعة الثانية
١٤٠١ هـ ـ ١٩٨٠م

٣٥٥ ـ (كتاب) الوفيات،
ابن قنفذ القسنطيني، أبو العبّاس أحمد بن حسن بن علي بن الخطيب،
تحقيق: عادل نويهض
دار الآفاق الجديدة
بيروت
الطبعة الثالثة
١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م

٣٥٦ ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (٨ج)،
ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت ٦٨١هـ)،
حققه: الدكتور إحسان عباس،
دار صادر
بيروت
١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م

٣٥٧ ـ وفيات الونشريسي،
الونشريسي، أحمد الفشتالي،

نشرها محمد حجي ضمن كتابه «ألف سنة من الوفيات»

الرباط

١٩٧٦م

٣٥٨ ـ يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر (٥ج)،

الثعالبي، أبو منصور عبد الملك الثعالبي النيسابوري (ت ٤٢٩هـ)،

شرح وتحقيق: الدكتور مفيد محمد قميحة،

دار الكتب العلمية

بيروت

الطبعة الأولى

١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م

(ب)

المصادر والمراجع الأجنبية

LOS BANU ASIM INTELECTUALES Y POLITICOS GRANADINOS DEL SIGLO X V,

Luis Seco de Lucena Paredes,
Miscelanea de estudios arabes y
Hebraicos, Vol. II, 1953, pp. 5-14.

2- L'Espangne musulmane au temps des
Nasrides (1232-1492)
Arie', R.
Paris,
1973.

3- History of The Dominion of the Arabs In Spain,
Translated from the Spanish of
Dr. J.A. conde
By: Mrs. Jonathan Foster
Vol. III
London
G. Bell & Sons, LTD. 1913.

4- History of the Moorish Empire of Europe, 3 Vols.
Scott, S.P.
Philadelphia - London
1904.

5- Ibn Al-Yayyab El Otro Poeta
De La Alhambra,

M. Jesus Rubiera Mata,
Patronato De La Alhambra
Instituto Hispano - Arabe De Cultura,
Granada, 1982.

6- Inscripciones arabes de Granada,
Emilio Lafuente,
Madrid
1859.

7- Muhammad IX Sultan De Granada
Luis Seco de Lucena Paredes
Patronato de la Alhambra,
Granada,
1978

8- The Reconquest of Spain,
Lomax, D.W.
London
New York
1978

9- Spain,
Watts H.E.
London,
1893

10- "Una hazana de Ibn Asim identificada"
Luis Seco de Lucena Paredes
Al-Andalus, Vol. 18, 1953.
pp. 209-210.

(١٠)
فهرس المحتويات

ـ المجلّد الأول ـ

- المجلد الثاني -

ـ المجلد الثالث ـ